الجزء الأول

القسم الأول

في حلى المعاهد والأماكن والمنازل والمساكن

في اسم هذه المدينة

ووضعها على إجمالٍ واختصار

يقال غرناطة ويقال إغرناطة، وكلاهما أعجمي، وهي مدينة كورة إلبيرة، فبينهما فرسخان وثلثا فرسخ. وإلبيرة من أعظم كور الأندلس، ومتوسطة ما اشتمل عليه الفتح من البلاد، وتسمى في تاريخ الأمم السالفة من الروم، سنام الأندلس، وتدعى في القديم بقسطيلية. وكان لها من الشهرة والعمارة، ولأهلها من الثروة والعدة، وبها من الفقهاء والعلماء، ما هو مشهور. قال أبو مروان ابن حيان: كان يجتمع بباب المسجد الجامع من إلبيرة خمسون حكمة كلها من فضة لكثرة الأشراف بها. ويدل على ذلك آثارها الخالدة، وأعلامها الماثلة، كطلل مسجدها الجامع، الذي تحامى استطالة البلى، كسلت عن طمس معالمه أكف الردى، إلى بلوغ ما فسح له من المدى.

بناه الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم، أمير المؤمنين الخليفة بقرطبة رحمه الله، على تأسيس حنش بن عبد الله الصنعاني الشافعي رحمه الله، وعلى محرابه لهذا الوقت: بسم الله العظيم، بنيت لله، أمر ببنائها الأمير محمد بن عبد الرحمن، أكرمه الله، رجاء ثوابه العظيم، وتوسيعاً لرعيته، فتم بعون الله على يدي عبد الله بن عبد الله عامله على كورة إلبيرة في ذي قعدة سنة خمسين ومائتين.

ولم تزل الأيام تخيف ساكنها، والعفاء يتبوأ مساكنها، والفتن الإسلامية تجوس أماكنها، حتى شملها الخراب، وتقسم قاطنها الاغتراب، وكل الذي فوق التراب تراب. وانتقل أهلها مدة أيام الفتنة البربرية سنة أربعمائة من الهجرة، فما بعدها، ولجأوا إلى مدينة غرناطة، فصارت حاضرة الصقع، وأم المصر، وبيضة ذلك الحق، لحصانة وضعها، وطيب هوائها، ودرور مائها، ووفور مدها، فأمن فيها الخائف، ونظم النشر، ورسخت الأقدام، وتأثل المصر، وهلم جرا. فهي بالأندلس، قطب بلاد الأندلس، ودار الملك، وقرى الإمارة، أبقاها الله متبوأ الكلمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بقدرته.

من كتاب إلبيرة. قال: بعد ذكر إلبيرة، وقد خلفها بعد ذلك كله مدينة غرناطة من أعظم مدنها وأقدمها، عندما انقلبت العمارة إليها من إلبيرة، ودارت أفلاك البلاد الأندلسية، فهي في وقتنا هذا قاعدة الدنيا، وقرارة العليا، وحاضرة السلطان، وقبة العدل والإحسان. لا يعد لها في داخلها ولا خارجها بلد من البلدان، ولا يضاهيها في اتساع عمارتها، وطيب قرارتها، وطنٌ من الأوطان. ولا يأتي على حصر أوصاف جمالها، وعد أصناف جلالها، قلم البيان. أدام الله فيها العز للمسلمين والإسلام، وحرسها ومن اشتملت عليه من خلفائه، وأنصار لوائه، بعينه التي لا تنام، وركنه الذي لا يرام.

وهذه المدينة من معمور الإقليم الخامس، يبتدىء من الشرق، من بلاد يأجوج ومأجوج، ثم يمر على شمال خراسان، ويمر على سواحل الشأم، مما يلي الشمال، ويمر على بلاد الأندلس، قرطبة وإشبيلية وما والاها إلى البحر المحيط الغربي. وقال صاعد بن أحمد في كتاب الطبقات إلى معظم الأندلس في الإقليم الخامس، وطائفة منها في الإقليم الرابع، كمدينة إشبيلية، ومالقة، وغرناطة، وألمرية ومرسية.

وذكر العلماء بصناعة الأحكام أن طالعها الذي اختطت به السرطان، ونحلوها، لأجل ذلك، مزايا، وحظوظاً من السعادة، اقتضاها تسيير أحكام القرانات الانتقالية على عهد تأليف هذا الموضع.

وطولها سبع وعشرون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشر دقائق. وهي مساوية في الطول بأمر يسير لقرطبة، وميورقة، وألمرية، وتقرب في العرض من إشبيلية، وألمرية، وشاطبة وطرطوشة، وسردانية، وأنطاكية، والرقة. كل ذلك بأقل من درجة. فهي شاميةٌ في أكثر أحوالها، قريبة من الاعتدال، وبينها وبين قرطبة، أعادها الله تعالى، تسعون ميلا. وهي منها بين شرق وقبلة. وبحر الشأم يحول ويجاجز بين الأندلس وبلاد العدوة، وبين غربٍ وقبلة على أربعة برد. والجبال بين شرق وقبلة، والبراجلات بين شرق وجوف، والكنبانية بين غرب وقبلة، وبين جوف وغرب، فهي لمكان جوار الساحل، ممارة بالبواكر الساحلية، طيبة البحار، وركاب لجهاد البحر، ولمكان استقبال الجبال، المقصودة بالفواكة المتأخرة اللحاق، معللةٌ بالمدخرات، استدبار الكنبانية واضطبار البراجلات، بحرٌ من بحور الحنطة، ومعدنٌ للحبوب المفضلة، ولمكان شلير، جبل الثلج، أحد مشاهير جبال الأرض، الذي ينزل به الثلج شتاءً وصيفاً، وهو على قبلة منها على فرسخين، وينساب منه ستةٌ وثلاثون نهراً من فوهات الماء وتنبجس من سفوحه العيون، صح منها الهواء، واضطردت في أرجائها وساحاتها المياه، وتعددت الجنات بها والبساتين، والتفت الأدواح، وشمر الرواد على منابت العشب في مظان العقار مستودعات الأدوية والترياقية.

وبردها لذلك في المنقلب الشتوي شديد، وتجمد بسببه الأدهان والمائعات، ويتراكم بساحاتها الثلج في بعض السنين، فجسوم أهلها لصحة الهواء صلبة، وسحانهم خشنة، وهضومهم قوية، ونفوسهم لمكان الحر الغريزي جرية.

وهي دار منعة وكرسي ملك، ومقام حصانة. وكان ابن غانية يقول للمرابطين في مرض موته، وقد عول عليها للامتساك بدعوتهم: الأندلس درقةٌ، وغرناطة قبضتها، فإذا جشمتم يا معشر المرابطين القبضة، لم تخرج الدرقة من أيديكم.

ومن أبدع ما قيل في الاعتذار عن شدة بردها، ما هو غريب في معناه، قول شيخنا القاضي أبي بكر بن شبرين رحمة الله:

رعى الله من غرناطة متبوأ ... يسر كئيباً أو يجير طريدا

تبرم منها صاحبي عندما رأى ... مسارحها بالبرد عدن جليدا

هي الثغر صان الله من أهلت به ... وما خير ثغرٍ لا يكون برودا

وقال الرازي عند ذكر كورة إلبيرة: ويتصل بأحواز قبرة كورة إلبيرة، وهي بين الشرق والقبلة، وأرضها سقى غزيرة الأنهار، كثيرة الثمار، ملتفة الأشجار، أكثرها أدواح الجوز، ويحسن فيها قصب السكر، ولها معادنٌ جوهريةٌ من ذهب، وفضة، ورصاص، وحديد. وكورة إلبيرة أشرف الكور، نزلها جند دمشق. وقال: لها من المدن الشريفة مدينة قسطلية، وهي حاضرة إلبيرة، وفحصها لا يشبه بشيء من بقاع الأرض طيباً ولا شرفاً إلا بالغوطة، غوطة دمشق.

وقال بعض المؤرخين: ومن كرم أرضنا أنها لا تعدم زريعةً بعد زريعةٍ، ورعياً بعد رعى، طول العام، وفي عمالتها المعادن الجوهرية من الذهب، والفضة، والرصاص، والحديد، والتوتية. وبناحية دلاية من عملها، عود اليلنجوج، لا يفوقه العود الهندي ذكاً وعطر رائحة. وقد سيق منه لخيران صاحب المرية أصلٌ كان منبته بين أحجار هناك. وبجبل شلير منها سنبل فائق الطيب، وبه الجنطيانا، يحمل منه إلى جميع الآفاق، وهو عقيرٌ رفيع، ومكانه من الأدوية، الترياقية مكانه. وبه المر قشينة على اختلافها، واللازورد. وبفحصها وما يتصل به القرمز. وبها من العقار والأدوية النباتية والمعدنية ما لا يحتمل ذكرها الإيجاز. وكفى بالحرير الذي فضلت به فخراً وقيتةً، وغلة شريفة، وفائدة عظيمة، تمتاره منها البلاد، وتجلبه الرفاق، وفضيلة لا يشاركها فيها إلا البلاد العراقية. وفحصها الأفيح المشبه بالغوطة الدمشقية حديث الركاب، وسمر الليالي، قد دحاه الله في بسيط سهل تخترقه المذانب، وتتخلله الأنهار جداول، وتتزاحم فيه القرى والجنات، في ذرع أربعين ميلاً أو نحوها، تنبو العين فيها عن وجهه، ولا تتخطى المحاسن منها إلا مقدار رقعة الهضاب، والجبال المتطامية منه بشكل ثلثي دارةٍ، قد عرت منه المدينة فيما يلي المركز لجهة القبلة، مستندة إلى أطواد سامية، وهضاب عالية، ومناظر مشرفة: فهي قيد البصر، ومنتهى الحسن، ومعنى الكمال، أضفى الله عليها، وعلى من بها من عباده المؤمنين جناح ستره، ودفع عنهم عدو الدين بقدرته.

فتح هذه المدينة

ونزول العرب الشاميين من جند دمشق بها وما كانت عليه أحوالهم، وما تعلق

بذلك من تاريخ

قال المؤلف: اختلف المؤرخون في فتحها. قال ابن القوطية: إن يليان الرومي الذي ندب العرب إلى غزو الأندلس طلباً لو تره من ملكها لذريق بما هو معلوم، قال لطارق بن زياد مفتتحها عندما كسر جيش الروم على وادي لكه: قد فضضت جيش القوم ودوخت حاميتهم، وصيرت الرعب في قلوبهم، فاصمد لبيضتهم، وهؤلاء أدلاء من أصحابي، ففرق جيوشك في البلدان بينهم، واعمد أنت إلى طليطلة بمعظمهم، وأشغل القوم عن النظر في أمرهم، والاجتماع إلى ولي رأيهم.

قال: ففرق طارق جيوشه من إستجة، فبعث مغثياً الرومي، مولى الوليد ابن عبد الملك بن مروان إلى قرطبة، وبعث جيشاً آخر إلى مالقة، وأرسل جيشاً ثالثاً إلى غرناطة مدينة إلبيرة، وسار هو في معظم الناس إلى كورة جيان يريد طليطلة. قال فمضى الجيش الذي وجه طارق إلى مالقة ففتحها، ولجأ علوجها إلى جبال هناك ممتنعة. ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجة إلى إلبيرة، فحاصروا مدينتها، وفتحوها عنوة، وألفوا بها يهوداً ضموهم إلى قصبة غرناطة، وصار لهم ذلك سنة متبعة، متى وجدوا بمدينة فتحوها يهوداً، يضمونهم إلى قصبتها، ويجعلون معهم طائفةً من المسلمين يسدونها. ثم مضى الجيش إلى تدمير.

وكان دخول طارق بن زياد الأندلس يوم الإثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنين وتسعين. وقيل في شعبان. وقيل في رمضان، بموافقة شهر غشت من شهور العجمية.

وذكر معاوية بن هشام وغيره، أن فتح ما ذكر تأخر إلى دخول موسى ابن نصير في سنة ثلاث وتسعين. فتوجه ابنه عبد الأعلى في جيش إلى تدمير فافتتحها، ومضى إلى إلبيرة فافتتحها، ثم توجه إلى مالقة.

قال المؤلف رحمة الله: ولما استقر ملك الإسلام بجزيرة الأندلس، ورمى إلى قصبتها الفتح، واشرأب في عرصاتها الدين، ونزلت قرطبة وسواها العرب، فتبوؤوا الأوطان، وعمروا البلدان، فالداخلون على يد موسى بن نصير

يسمون بالبلديين والداخلون بعدهم مع بلج بن بشر القشيري، يسمون بالشاميين، وكان دخول بلج بن بشر القشيري بالطالعة البلجية سنة خمس وعشرين ومائة.

ولما دخل الشاميون مع أميرهم بلج، حسبما تقرر في موضعه، وهم أسود الشرى عزة وشهامة، غص بهم السابقون إلى الأندلس، وهم البلديون، وطالبوهم بالخروج عن بلدهم الذي فتحوه، وزعموا أنه لا يحملهم وإياهم، واجتمعوا لغزوهم، فكانت الحروب تدور بينهم، إلى أن وصل الأندلس، أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، عابراً إليها البحر من ساحل تونس، وأظل على قرطبة على حين غفلة، وقد ستر خبر نفسه، والحرب بينهم، فانقاد إليه الجميع بحكم عهد مدينه حنظلة ابن صفوان وإلى إفريقية، وقبض على وجوه الشاميين عازماً عليهم في الإنصراف حسبما هو مشهور، ورأى تفريق القبائل في كور الأندلس، ليكون أبعد للفتنة، ففرقهم، وأقطعهم ثلث أموال أهل الذمة، الباقين من الروم، فخرج القبائل الشاميون عن قرطبة. قال أبو مروان: أشار على أبي الخطار، أرطباس قومس الأندلس، وزعيم عجم الذمة، ومستخرج خراجهم لأمراء المسلمين – وكان هذا القومس شهير العلم والدهاء – لأول الأمر، بتفريق القبائل الشاميين العلمين عن البلد، عن دار الإمارة قرطبة، إذ كانت لا تحملهم، وإنزالهم بالكور، على شبه منازلهم التي كانت في كور شامهم، ففعل ذلك على اختيار منهم، فأنزل جند دمشق كورة إلبيرة، وجند الأردن كورة جيان، وجند مصر كورة باجة، وبعضهم بكورة تدمير: فهذه منازل العرب الشاميين، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمةً، وبقي العرب والبلديون والبرابر شركاؤهم، فلما رأوا بلداناً شبه بلدانهم بالشأم، نزلوا وسكنوا واغتبطوا وكبروا وتمولوا، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه في الفتوح على عنائهم موضعاً رضيا، فإنه لم يرتحل عنه، وسكن به مع البلديين. فإذا كان العطاء أو حضر الغزو ولحق بجنده، فهم الذين كانوا سموا الشادة حينئذ.

قال أحمد بن موسى: وكان الخليفة يعقد لواءين، لواءٌ غازياً، ولواءً مقيماً، وكان رزق الغازي بلوائه مائتي دينار. ويبقى المقيم بلا رزق ثلاثة أشهر، ثم يدال بنظيره من أهله أو غيرهم. وكان الغزاة من الشاميين مثل إخوة المعهود له أو بنيه أو بني عمه، يرزقون عند انقضاء غزاته عشرة دنانير، وكان يعقد المعقود له، مع القائد، يتكشف عمن غزا، ويستحق العطاء، فيعطى على قوله تكرمة له، وكانت خدمتهم في العسكر، واعتراضهم إليه، ومن كان من الشاميين غازياً من غير بيوتات العقد، ارتزق خمسة دنانير عند انقضاء الغزو. ولم يكن يعطى أحدٌ من البلديين شيئاً غير المعقود له، وكان البلديون أيضاً يعقد لهم لواءان، لواء غاز، ولواء مقيم، وكان يرتزق الغازي مائة دينار وازنة، وكان يعقد لغيره إلى ستة أشهر، ثم يدال بنظيره من غيرهم، ولم يكن الديوان والكتبة إلا في الشاميين خاصة، وكانوا أحراراً من العشر، معدين للغزو، ولا يلزمهم إلا المقاطعة على أموال الروم التي كانت بأيديهم، وكان العرب من البلديين يؤدون العشر، مع سائر أهل البلد، وكان أهل بيوتاتٍ منهم يغزون كما يغزو الشاميون، بلا عطاء، فيصيرهم إلى ما تقدم ذكره. وإنما كان يكتب أهل البلد في الغزو، وكان الخليفة يخرج عسكرين، إلى ناحيتين، فيستنزلهم، وكانت طائفةٌ ثالثة يسمون النظرا، من الشاميين والبلديين، كانوا يغزون كما يغزو أهل البلد من الفريقين، وقد بينا نبذة من أحوال هؤلاء العرب. والاستقصاء يخرج كتابنا عن غرضه. والإحاطة لله سبحانه.

ذكر ما آل إليه حال من ساكن المسلمين..

بهذه الكورة من النصارى المعاهدين على الإيجاز والاختصار

قال المؤلف: ولما استقر بهذه الكورة الكريمة أهل الإسلام، وأنزل الأمير أبو الخطار قبائل العرب الشاميين بهذه الكورة، وأقطعهم ثلث أموال المعاهدين، استمر سكناهم في غمار من الروم، يعالجون فلاحة الأرض، وعمران القرى، يرأسهم أشياخ من أهل دينهم، أولو حنكة ودهاء ومداراة، ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم. وأحدهم رجل يعرف بابن القلاس، له شهرة وصيت، وجاه عند الأمراء بها. وكانت لهم بخارج الحضرة، على غلوتين، تجاه باب إلبيرة في اعتراض الطريق إلى قولجر، كنيسة شهيرة، اتخذها لهم أحد الزعماء من أهل دينهم، استر كبه بعض أمرائها في جيش خشن من الروم، فأصبحت فريدة في العمارة والحلية، أمر بهدمها الأمير يوسف بن تاشفين، لتأكد رغبة الفقهاء، وتوجه فتواهم. قال ابن الصيرفي: خرج أهل الحضرة لهدمها يوم الإثنين عقب جمادى الآخرة من عام اثنين وتسعين وأربعمائة، فصيرت للوقت قاعا، وذهبت كل يد بما أخذت من أنقاضها وآلاتهما. قلت، ومكانها اليوم مشهورٌ، وجدارها مائلٌ ينبىء عن إحكام وأصالة، وعلى بعضها مقبرةٌ شهيرة لابن سهل بن مالك رحمه الله.

ولما تحركت لعدو الله الطاغية ابن رذمير ريح الظهور، على عهد الدولة المرابطية، قبل أن يخضد الله شوكته على إفراغة بما هو مشهور، أملت المعاهدة من النصارى لهذه الكورة إدراك الثرة وأطمعت في المملكة، فخاطبوا ابن رذمير من هذه الأقطار، وتوالت عليه كتبهم وتواترت رسلهم ملحة بالاستدعاء مطمعة في دخول غرناطة. فلما أبطأ عنهم، وجهوا إليه زماماً يشتمل على إثني عشر ألفاً من أنجاد مقاتليهم، لم يعدوا فيها شيخاً ولا غراً، وأخبروه أن من سموه، ممن شهرت أعينهم لقرب مواضعهم، وبالبعد من يخفي أمره، ويظهر عند ورود شخصه، فاستأثروا طمعه وابتعثوا جشعه، واستفزوه بأوصاف غرناطة، وما لها من الفضائل على سائر البلاد وبفحصها الأفيح، وكثرة فوائدها من القمح والشعير، والكتان، وكثرة المرافق، من الحرير والكروم، والزيتون، وأنواع الفواكه، وكثرة العيون والأنهار، ومنعة قبتها وانطباع رعيتها، وتأتي أهل حاضرتها، وجمال إشرافها وإطلالها، وأنها المباركة التي يمتلك منها غيرها، المسماة سنام الأندلس عند الملوك في تواريخها، فرموا حتى أصابوا غربه، فانتخب وأحشد، وتحرك أول شعبان من عام خمسة عشر وخمسمائة وقد أخفى مذهبه، وكتم أربه، فوافى بلنسية، ثم إلى مرسية، ثم إلى بيرة، ثم اجتاز بالمنصورة ثم إنحدر إلى برشانة، ثم تلوم إلى وادي ناطلة، ثم تحرك إلى بسطة، ثم إلى وادي آش، فنزل بالقرية المعروفة بالقصر، وصافح المدينة بالحرب، ولم يحل بطائل، فأقام عليها شهراً.

قال صاحب كتاب الأنوار الجلية فبدأ بحث المعاهدة بغرناطة في استدعائه، فافتضح تدبيرهم باجتلابه، وهم أميرها بتثقيفهم، فأعياهم ذلك، وجعلوا يتسللون إلى محلته على كل طريق، وقد أحدقت جيوش المسلمين من أهل العدوة والأندلس بغرناطة، حتى صارت كالدائرة، وهي في وسطها كالنقطة، لما أنذروا بغرضه، وتحرك من وادي آش فنزل بقرية دجمة، وصلى الناس بغرناطة صلاة الخوف، يوم عيد النحر من هذه السنة في الأسلحة والأبهة، وبعيد الظهر من غده، ظهرت أخبية الروم بالقيل شرق المدينة، وتوالى الحرب على فرسخين منها، وقد أجلى السواد، وتزاحم الناس بالمدينة، وتوالى الجليد، وأظلت الأمطار. وأقام العدو بمحلته، بضع عشرة ليلة، لم تسرح له سارحةٌ، إلا أن المعاهدة تجلب له الأقوات، ثم أقلع وقد ارتفع طمعه عن المدينة، لأربع بقين من ذي الحجة عام عشرين، بعد أن تفرغ مستدعيه إليها، وكبيره يعرف بابن القلاس، فاحتجوا ببطئه وتلومه حتى تلاحقت الجيوش، وأنهم قد وقعوا مع المسلمين في الهلكة. فرحل عن قرية مرسانة إلى بيش، ومن الغد إلى السكة من أحواز قلعة يحصب ثم اتصل إلى للوبيانه، ونسكب إلى قبرة واللسانه، والجيوش المسلمة في أذياله. وأقام بقبرة أياما، ثم تحرك إلى بلاي والعساكر في أذياله، وشيجة في بعض الرنيسول، مكافحةً في أثنائها، مناوشةً، وظهوراً عليه.

ولما جن الليل، أمر أميرهم برفع خبائه من وهدةً كان فيها إلى نجدة، فساءت الظنون، واختل الأمر، ففر الناس وأسلموا، ونهيب العدو المحلة، فلم يدخلها إلا بعد هدأة من الليل واستولى عليها. وتحرك بعد الغد منها إلى جهة الساحل فشق العمامة الآمنة من الإقليم والشارات. فيقول بعض شيوخ تلك الجهة، إنه اجتاز بوادي شلوبانية المطل الحافات، والمتحصن المجاز، وقال بلغته: أي قبرٍ هذا لو ألفينا من يصب علينا التراب، ثم عرج يمنةً حتى انتهى إلى بلش، وأنشأ بها جفناً صغيراً، يصيد له حوتاً، أكل منه كأنه نذرٌ كان عليه، وفى به، أو حديثٌ أراد أن يخلد عنه. ثم عاد إلى غرناطة، فاضطرب بهما محلته بقرية ذكر، على ثلاثة فراسخ منها قبلة، ثم انتقل بعد ذلك بيومين إلى قرية همدان، وبرز بالكتب جاعزسطة من المدينة، وكان بينه وبين عساكر المسلمين مواقعة عظيمة، ولأهل غرناطة بهذا الموضع حدثان ينظرونه من القضايا المستقبلة.

قال ابن الصيرفي: وقد ذكر في بعض كتب الجفر: هذا الفحص، بخراب يجى عن يتامى وأيامي وكان هذا اليوم معرضاً لذلك، فوقي الله، وانتقل بعد يومين إلى المرج مضيقاً عليه والخيل تحرجه، فنزل بعين أطسة، والجيوش محدقةٌ به، وهو في نهاية من كمال التعبية، وأخذ الحذر، بحيث لا تصاب فيه فرصة، ثم تحرك على البراجلات، إلى اللقوق، إلى وادي آش، وقد أصيب كثيرٌ من حاميته، وطوى المراحل إلى الشرق، فاجتاز إلى مرسية، إلى جوف شاطبة، والعساكر في كل ذلك تطأ أذياله، والتناوش يتخطر به، والوباء يسرع إليه، حتى لحق بلاده، وهو ينظر إلى قفاه، مخترماً، مفلولاً من غير حرب، يكاد الموت يستأصل محلته وجملته.

ولما بان للمسلمين من مكيدة جيرانهم المعاهدين، ما أجلت عنه هذه القضية، أخذهم الإرجاف، ووغرت لهم الصدور. ووجه إلى مكانهم الحزم ووجه القاضي أبو الوليد بن رشد الأجر، وتجشم المجاز، ولحق بالأمير على بن يوسف بن تاشفين بمراكش، فبين له أمر الأندلس، وما منيت به من معاهدها، وما جنوه عليها، من استدعاء الروم، وما في ذلك من نقض العهد، والخروج عن الذمة، وأفتى بتغريبهم، وإجلائهم عن أوطانهم وهو أخف ما يؤخذ به من عقابهم، وأخذ بقوله، ونفذ بذلك عهده، وأزعج منهم إلى بر العدوة، في رمضان من العام المذكور، عددٌ جمٌّ، أنكرتهم الأهواء، وأكلتهم الطرق، وتفرقوا شذر مذر، وأصاب كثير من الجلاء جمعتهم من اليهود، وتقاعدت بها منهم طائفة، هبت لها بممالأة بعض الدول ريحٌ، فأمروا وأكثروا إلى عام تسعة وخمسين وخمسمائة، ووقعت فيهم وقيعةٌ احتشتهم، إلا صابةٌ، لهذا العهد قليلة، قديمة المذلة، وحالفت الصغار. جعل الله العاقبة لأوليائه.

ما ينسب إلى هذه الكورة من الأقاليم..

التي نزلها العرب بخارج غرناطة وما يتصل بها من العمالة

فيما اشتمل عليه خارج المدينة..

من القرى والجنات والجهات

قال المؤلف رحمه الله: ويحف بسور هذه المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى، البساتين العريضة المستخلصة، والأدواح الملتفة، فيصير سورها من خلف ذلك كأنه من دون سياج كثيفة، تلوح نجوم الشرفات أثناء خضرايه ولذلك ما قلت فيه في بعض الأغراض:

بلد يحف به الرياض كأنه ... وجهٌ جميل والرياض عذاره

وكأنما واديه معصم غادةٍ ... ومن الجسور المحكمات سواره

فليس تعرى عن جنباته من الكروم والجنات جهة، إلا مالا عبرة به مقدار غلوة، أما ما حازه السفل من جوفيه، فهي عظيمة الخطر، متناهية القيم، يضيق جده من عدا أهل الملك، عن الوفاء بأثمانها، منها ما يغل في السنة الواحدة نحو الألف من الذهب، قد غصت الدكاكين بالخضر الناعمة، والفواكة الطيبة، والثمر المدخرة، يختص منها بمستخلص السلطان، المرور طوقاً على ترائب بلده ما بينهن منية، منها الجنة المعروفة بفدان الميسة، والجنة المعروفة بفادان عصام، والجنة المعروفة بالمعروي، والجنة المنسوبة إلى قداح بن سحنون، والجنة المنسوبة لابن المؤذن، والجنة المنسوبة لابن كامل، وجنة النخلة العليا، وجنة النخلة السفلى، وجنة ابن عمران، والجنة التي إلى نافع، والجرف الذي ينسب إلى مقبل، وجنة العرض، وجنة الحفرة، وجنة الجرف، ومدرج نجد، ومدرج السبيكة، وجنة العريف: كلها لا نظير لها في الحسن والدمانة والريع، وطيب التربة، وغرقد السقيا، والتفاف الأشجار، واستجادة الأجناس، إلى ما يجاورها ويتخللها، مما يختص بالأحباس الموقفة، والجنات المتملكة، وما يتصل بها بوادي سنجيل ما يقيد الطرف، ويعجز الوصف، قد متلت منها على الأنهار المتدافعة العباب، المنارة والقباب، واختصت من أشجار العاريات ذات العصير الثاني بهذا الصقع، ما قصرت عنه الأقطار. وهذا الوادي من محاسن هذه الحضرة، ماؤه رقراق من ذوب الثلج، ومجاجة الجليد، وممره على حصىً جوهرية، بالنبات والظلال محفوفة، يأتي من قبلة علام البلد إلى غربه، فيمر بين القصور النجدية، ذوات المناصب الرفيعة، والأعلام الماثلة.

ولأهل الحضرة بهذه الجنات كلفٌ، ولذوي البطالة فوق نهره أريك من دمث الرمل، وحجال من ملتف اللوح، وكان بها سطر من شجر الحور، تنسب إلى مامل، أحد خدام الدولة الباديسية، أدركنا المكان يعرف بها.

قال أبو الحجاج يوسف بن سعيد بن حسان:

أحن إلى غرناطة كلما هفت ... نسيم الصبا تهدي الجوى وتشوق

سقى الله من غرناطة كل منهل ... بمنهل سحبٍ ماؤهن هريق

ديارٌ يدور الحسن بين خيامها ... وأرضٌ لها قلبُ الشجى مشوق

أغرناطة العليا بالله خبري ... أللهائم الباكي إليك طريق

وما شاقني إلى نضارة منظر ... وبهجة وادٍ للعيون تروق

تأمل إذا أملت حوز مؤملٍ ... ومد من الحمرا عليك شقيق

وأعلام نجدٍ والسبيكة قد علت ... وللشفق الأعلى تلوح بروق

وقد سلّ شنيلٌ فرنداً مهندا ... نضى فوق در ذر فيه عقيق

إذا نم منه طيب نشر أراكه ... أراك فتيت المسك وهو فتيق

ومهما بكى جفن الغمام تبسمت ... ثغور أقاحٍ للرياض أنيق

ولقد ولعت الشعراء بوصف هذا الوادي، وتغالت الغالات فيه، في تفضيله على النيل بزيادة الشين، وهو ألفٌ من العدد، فكأنه نيلٌ بألفٍ ضعفٍ، على عادة متناهي الخيال الشعري، في مثل ذلك.

ولقد ألغزت فيه لشيخنا أبي الحسن بن الجياب، رحمه الله، وقد نظم في المعنى المذكور ما عظم له استطرابه وهو:

ما اسمٌ إذا زدته ألفاً من العدد ... أفاد معناه لم ينقص ولم يزد

وإنما ائتلفا من بعد ما اختلفا ... معنى بشينٍ ومن نزرٍ ومن بلدٍ

ثم يتصل بالحسن العادي البديع، وهو على قسمين، خمسٌ من محكم الكدان في نهاية الإبداع والإحكام يتصل به بناءٌ قديم محكم، ويستقبل الملعب، العيدي، ما بين ذنابي الجسر إلى جدار الرابطة، وملعب بديع الشكل، عن يمينه جناحٌ

بديع، عن ميدانه عدوات النهر، وعن يساره الجنات، ويفضي بعد انتهائه إلى الرابطة، إلى باب القصر المنسوب إلى السيد، وسيأتي ذكره، ويرتفع من هذا النهر الزلال جداول، تدور بها أعداد من الأرحى لا نظير لها استعداداً وإفادة.

وصف مدينة غرناطة

بعض ما قيل في رياضها من الشعر

وتركب ما ارتفع من هذه المدينة من جهاتها الثلاث، الكروم البديعة، طوقاً مرقوماً، يتصل بما وراءها من الجبال، فتعم الربى والوهاد، وتشمل الغور والنجد، إلا ما اختص منها بالسبل الأفيح، متصلا بشرقي باب إلبيرة، إلى الخندق العميق، وهو المسمى بالمشايخ بسيط جليل، وجوٌ عريض، تغمي على العد أمراجه ومصانيعه، تلوح مبانيها، ناجمةً بين الثمار والزيتون، وسائر ذوات الفواكه، من اللوز والإجاص والكمثري، محدقة من الكروم المسحة، والرياحين الملتفة، ببحور طامية تأتي البقعة الماء، ففيها كثير من البساتين والرياض، والحصون، والأملاك المتصلة السكنى، على الفصول، وإلى هذه الجهة يشير الفقيه القاضي، أبو القاسم بن أبي العافية، رحمه الله، في قصيدة، يجيب بها عروس الشعراء، الأديب الرحال أبا إسحاق الساحلي، وكان ممن نيطت عليه بهذا العهد، التمائم:

يا نازحاً لعب المطي بكوره ... لعب الرياح الهوج بالأملود

ورمت به للطية القصوى التي ... ما وردها لسواه بالمورود

هلا حننت إلى معاهدنا التي ... كنت الحلي لنحرها والجيد

ورياض أنس بالمشايخ طارحت ... فيه الحمائم صوت سجع العود

ومبيتنا فيها وصفو مدامنا ... صفو المودة لابنة العنقود

والعيش أخضر والهوى يدني جني ... زهرات ثغرٍ أو ثمار نهود

والقضب رافلةٌ يعانق بعضها ... بعضاً إذا اعتنقت غصون قدود

لهفي على ذاك الزمان وطيبه ... وعلى مناه وعيشه المحسود

تلك الليالي لا ليالي بعدها ... عطلن إلا من جوى وسهود

كانت قصاراً ثم طلن فيها ... تأنى على المقصور والممدود

وأما ما استند إلى الجبل، فيتصل به البيازير في سفح الجبل، المتصل بالكدية ابن سعد، متصلا بالكدية المبصلة، المنسوبة لعين الدمع، منعطفةً على عين القبلة، متصلةً بجبل الفخار، ناهلةً في غمر الماء المجلوب على ذلك السمت، الماء، والإشراف على الأرجاء، ففيها القصور المحروسة، والمنارة المعمورة، والدور العالية، والمباني القصبية، والرياحين النضيرة، قد فض فيها أهل البطالة، من أولى الحبرة، الأكياس، وأرخصوا على النفقة عليها، غالي النشب، تتنازع في ذلك غير الخادمين، من خدام الدولة على مر الأيام، حتى أصبحت نادرة الأرض، والمثل في الحسن. ولهذه البقعة ذكرٌ يجري في المنظومات على ألسنة البلغاء من ساكنيها وزوارها، فمن أحسن ما مر من ذلك قول شيخنا أبي البركات:

ألا قل لعين الدمع يهمي بمقتلي ... لفرقة عين الدمع وقفاً على الدم

وذكرته في قصيدة فقلت:

يا عهد عين الدمع كم من لؤلؤ ... للدمع جاد به عساك تعود

تسري نواسمك اللدان بليلة ... فيهزني شوقٌ إليك شديد
وقلت من أبيات تكتب في قبةٍ بقصري الذي اخترعته بها:
إذا كان عين الدمع عيناً حقيقة ... فإنسانها ما نحن فيه ولادع
فدام لخيل الأنس واللهو ملعباً ... ولا زال مثواه المنعم مرتع
تود الثريا أن تكون له ثرًى ... وتمدحه الشعرى وتحرسه المع
وقال صاحبنا الفقية أبو القاسم بن قطبة من قصيدة:
أجل إن عين الدمع قيد النواظر ... فسرح عيوناً في اجتلاء النواظر
وعرج على الأوزان إن كنت ذ ... ا هوًى فإن رباه مرتعٌ للجآذر
وصافح بها كف البهار مسلماً ... وقبل عذار الأنس بين الأزاهر
وخذها على تلك الأباطح والربى ... معتقةً تجلو الصدا للخواطر
مدامة حان أنسا الدهر عمرها ... فلم تخش أحداث الدهور الدوائر
تحدث عن كسرى وساسان قبله ... وتخبر عن كرم يخلد داثر
وهي طويلة. وقال أيضاً من قصيدة طويلة:
وليلاً بعين الدمع وصلاً قطعته ... وأنجمه بين النجوم سعود
ترى الحسن منشور اللواء بسره ... وظل الأماني في رباه مديد
فبتنا ومن روض الخدود أزاهرٌ ... لدينا ومن ورد الرياض خدود
وتفاحنا وسط الرياض موردٌ ... ورماننا وسط الصدور نهود

وقد عرفت نص الهوى وذميله ... تهايم من أكبادنا ونجود
وقال في قصيدة:
ومل بنا نحو عين الدمع نشربها ... حيث السرور بكاس الأنس يسقيني
حيث المنى وفنون اللهو راتعةٌ ... والطير من طربٍ فهيا تناجيني
وجلول الماء يحكي في أجنته ... صوارماً جردت في يوم صفين
وأعين الزهر في الأغصان جاحظةٌ ... كأنها بهوى الغزلان تغريني
ومن ذلك:
سهرت بعين الدمع أرعى ربوعه ... وحسبي من الأحباب رعي المنازل
ينافحني عرفٌ إذا هبت الصبا ... ويقنعني طيف الحبيب المراسل
والأقاويل في ذلك أكثر من أن يحاط بها كثرة، وما سوى هذه الجهة فغير لاحق بهذه الرتبة، مما معوله على محض الفائدة وصريح العائدة. وتذهب هذه الغروس المغروسة قبلةً، ثم يفيض تيارها إلى غرب المدينة، وقد تركت بها الجبال الشاهقة، والسفوح العريضة، والبطون الممتدة، والأغوار الخائفة، مكللة بالأعناب، غاصة بالأدواح، متزاحمة بالبيوت والأبراج، بلغ إلى هذا العهد عددها في ديوان الخرص، إلى ما يناهز أربعة عشر ألفاً، نقلت ذلك من خط من يشار إليه في هذه الوظيفة، وقاها الله مضرة السنين، ودفع عنها عباب القوم الظالمين، وعدوان الكافرين.
قرى مدينة غرناطة

ويحيط بما خلف السور من المنى، والجنات، في سهل المدينة، العقار الثمين، العظيم الفائدة، المتعاقبة الغلة، الذي لا يعرف الجمام، ولا يفارق الزرع من الأرض البيضاء، ينتهي ثمن المرجع منها العلي، إلى خمسة وعشرين ديناراً من الذهب العين، لهذا العهد فيه مستخلص السلطان، ما يضيق عنه نطاق القيمة، ذرعاً وغبطة وانتظاماً، يرجع إلى دور ناجمة، وبروج سامية، وبيادر فسيحة، ومصابٍ للحمايم والدواجن ماثلة، منها في طوق البلد، وحمى سورها، جملةٌ، كالدار المنسوبة إلى هذيل، والدار المنسوبة إلى أم مرضى، والدار البيضاء، والدار المنسوبة إلى السنينات، والدار المعروفة بنبلة ووتر، وبالمرج ما يساير جرية النهر كقرية وكروبها حصن خريز، وبستان وبشر عيون، والدار المنسوبة إلى خلف، وعين الأبراج، والحش المنسوب إلى الصحاب، وقرية رومة وبها حصنٌ وبستان، والدار المنسوبة إلى العطشى، وبها حصن، والدار المنسوبة لابن جزي، والحش المنسوب لأبي علي، وقرية ناجرة، ومنها فضل بن مسلمة الحسنى، وبها حصن، وحوله ربض، فيه من الناس أمة، وقرية سنيانة وفيها حصن، وقرية أشكر، وقريتي بيش وواط، وبهما حصنان، وقرية واط عبد الملك بن حبيب. وفي هذه القرى الجمل الضخمة من الرجال، والفحول من الحيوان الحارث لآثار الأرض، وعلاج الفلاحة، وفي كثير منها الأرحى والمساجد. وما سوى هذه من القرى، المستخلص من فضلة الإقطاع، وقصرت به الشهرة عن هذا النمط، فكثيرٌ.

ويتخلل هذا المتاع الغبيط الذي هو لباب الفلاحة، وغير هذه المدرة الطيبة، سائر القرى التي بأيدي الرعية، مجاورة لهذه الحدود، وبنات لهذه الأمهات. منها ما انبسط وتمدد، فاشترك فيه الألوف من الخلق، وتعددت منه الأشكال، ونحن نوقع الإسم منه على البقعة من غير ملاحظة للتعدد. ومنها ما انفرد بمالك واثنين فصاعداً، وهو قليل، وتنيف أسماؤها على ثلاث مائة قرية ما عدا ما يجاور الحضرة من كثير من قرى الإقليم أو ما استضافته حدود الحصون المجاورة.

فمن ذلك حوز الساعدين وفيه القرى، وحوز وتر ومنها إبراهيم بن زيد المحاربي، وقرية قلجار، وقرية ياجر الشاميين، وقرية ياجر البلديين، وقرية قشتالة، ومنها قاسم بن أمام من أصحاب سحنون، ونزل فيها جده عطية بن خالد المحاربي، وقرية أججر، وقرية أرملة الكبرى، وقرية أرملة الصغرى، وقرية رقاق وهمدان، منها الغريب بن يزيد الشمر جد بني أضحى، وقرية الغيضون، وقرية لسانة، وحارة الجامع، وحارة الفراق، وقرية غرليانة، وحش البكر، وغدير الصغرى وغدير الكبرى، من إقليم البلاط، منها يربوع بن عبد الجليل، ونزل بها جده يربوع بن عبد الملك بن حبيب، وقرية قولر، وقرية جرليانة، وقرية حارة عمروس، وحش الطلم، وقرية المطار، وقرية الصرمورتة، وقرية بلسانة، وقرية الحبشان، وقرية الشوش، وقرية عرتقة، وقرية جيجانة، وقرية السيجة، وقنب قيس، وقرية برذنار، وقرية دوير تارش، وقرية آقلة، وقرية أحجر، وقرية تجرجر، وقرية والة، وقرية أنقر، وقرية الغروم، وقرية دار وهدان، وقرية بيرة، وقرية القصيبة، وقرية أنطس، وقرية فنتيلان، وقرية سنبودة، وحش زنجيل، وقرية أشتر، وقرية غسان، منها مطر بن عيسى بن الليث، وقرية شوذر، وقرية ستتشر، وقرية ابن ناطح، وقرية الملاحة، ومنها محمد بن عبد الواحد الغافقي أبو القاسم الملاحي، وقرية القمور، منها أصبغ بن مطرف، وقرية نفجر وغرناطة، وقرية بيرة وبها مسجد قراءة ابن حبيب، وقرية قولجر، منها سهل بن مالك، وقرية شور، منها محمد بن هانىء الأزدي الشاعر المفلق، ومحمد بن سهل جد هذا البيت، بني سهل بن مالك، وقرية بليانة، وقرية برقلش، وقرية ضوجر، وقرية البلوط، وقرية أنتيانة، وقرية مرسانة، وقرية الدوير، وقرية ضوجر، وقرية البلوط، وقرية الشلان، وقرية أنتيانة،

وقرية مرسانة، وقرية الدوير، وقرية الشلان، وقرية طغنر، منها الطغنري صاحب الفلاحة، وقرية حش الدجاج، وقرية حش نوح، وقرية حش خليفة، وحش الكوباني، وحش المعيشة، وحش السلسلة، وقرية الطرف، وقرية إليرة، وقرية الشكروجة، ومنها عيسى بن محمد بن أبي زمنين، وعين الحورة، وحش البومل، وقرية بلومال، وقرية رق المخيض، وقرية الغيضون الحورة، وقرية أشقطمر، وقرية الديموس الكبرى، وقرية الديموس الصغرى، وقرية دار الغازي، وقرية سويدة، وحش نصيرة، وقرية الركن، وقرية ألفنت، ومنها صخر بن أبان، وقرية الكدية، وقرية لاقش، وقرية قربسانة، وقرية برسانة برياط، وقرية الوجة، وقرية ماس، وحش علي، وحش بني الرسيلية، وحش رقيب، وحش البلوطة، وحش الرواس، وحش مرزوق، وقرية قبالة، وقرية نبالة، وقرية العيران، وبرج هلال، وقرية قلتيش وقرية القنار، وقرية أربل، وقرية بربل، وقرية قرباسة، وقرية أشكن، وقرية قلنبيرة، وقرية سعدى، وقرية قلقاجج، وقرية فتن، وقرية مرنيط، وقرية ددشطر، وقرية شمانس، وقرية أرنالش، وقرية وابشر، وقرية ققلولش، وقرية النبيل، وقرية الفخار، وقرية القصر، ومنها محمد بن أحمد بن مرعياز الهلالي، وقرية بشر، وقرية بنوط، وقرية كورة، وقرية لص، وقرية بيش وقرية قنتر، وقرية دور، وقرية قلنقر، وقرية غلجر، ومنها هاشم بن عبد العظيم بن يزيد الخولاني، وقرية ذرذر، وقرية وجر، وقرية قنالش، وقرية إبتايلس، وقرية سج، وقرية منشتال وقرية الوطا، وقرية واني، وقرية قريش، وقرية الزاوية.

وقد ذكرنا أن أكثر هذه القرى أمصار، فيها ما يناهز خمسين خطبة، تنصب فيها لله المنابر، وترفع الأيدي، وتتوجه الوجوه.

وجملة المراجع العلمية المرتفعة فيها، في الأزمنة، في العام بتقريب، ومعظمها السقي الغبيط السمين، العالي، ما يتألف ثنتان وستون ألفا، وينضاف إلى ذلك مراجع الأملاك السلطانية، ومواضع أحباس المساجد، وسبل الخير، ما ينيف على ما ذكر، فيكون الجميع باحتياط، خمسمائة ألف وستون ألفا، والمستفاد فيها من الطعام المختلف الحبوب للجانب السلطاني، ثلاثمائة ألف قدح ويزيد، ويشتمل سورها وما وراءه من الأرحاء الطاحنة بالماء، على ما ينيف على مائة وثلاثين رحى، الحفها الله جناح الأمنة، ولا قطع عنها مادة الرحمة، بفضله وكرمه.

صفات أهل غرناطة

ومظاهرهم وأنسابهم وأزيائهم وطرق معيشتهم وصنوف نقدهم ووصف نسائهم

وقد فرغنا من ذكر رسوم هذا القطر ومعاهده، وفرغنا من تصويره وتشكيله، وذكر قراه وأجناته، وقصوره ومتنزهاته، فنحن الآن نذكر بعضا من سير أهله، وأخلاقهم، وغير ذلك من أحوالهم بإجمال واختصار، فنقول:

أحوال هذا القطر في الدين وصلاح العقائد، أحوال سنية، والنحل فيهم معروفة، فمذاهبهم على مذهب مالك بن أنس إمام دار الهجرة جارية، وطاعتهم للأمراء محكمة، وأخلاقهم في احتمال المعاون الجبائية جميلة، وصورهم حسنة، وأنوفهم معتدلة غير حادة، وشعورهم سودٌ مرسلة، وقدودهم متوسطة معتدلة، إلى القصر، وألوانهم زهر مشربة بحمرة، وألسنتهم فصيحة عربية، يتخللها غربٌ كثير، وتغلب عليهم الإمالة، وأخلاقهم أبية في معاني المنازعات، وأنسابهم عربية، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير، ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشي بينهم، الملف المصبوغ شتاء، وتتفاضل أجناس البز بتفاضل الجدة، والمقدار، والكتان والحرير، والقطن، والمرعزي، والأردية الإفريقية، والمقاطع التونسية، والمآزر المشفوعة صيفاً، فتبصرهم في المساجد، أيام الجمع، كأنهم الأزهار المفتحة، في البطاح الكريمة، تحت الأهوية المعتدلة.

وأنسابهم حسبما يظهر من الإسترعات، والبيعات السلطانية والإجازات، عربيةٌ: يكثر فيها القرشي، والفهري، والأموي، والأمي، والأنصاري، والأوسي، والخزرجي، والقحطاني، والحميري، والمخزومي، والتنوخي، والغساني، والأزدي، والقيسي، والمعافري، والكناني، والتميمي، والهذلي، والبكري، والكلابي، والنمري، واليعمري، والمازني، والثقفي، والسلمي، والفزاري، والباهلي، والعبسي، والعنسي، والعذري، والحجحي، والضبي، والسكوني، والتيمي، والعبشمي، والمري، والعقيلي، والفهمي، والصريحي، والجزلي، والقشيري، والكلبي، والقضاعي، والأصبحي، والهواري، والرعيني، واليحصبي، والتجيبي، والصدفي، والحضرمي، والحمي، والجذامي، والسلولي، والحكمي، والهمذاني، والمذحجي، والخشني، والبلوي، والجهني، والمزني، والطائي، والغافقي، والأسدي، والأشجعي، والعاملي، والخولاني، والأيادي، والليثي، والختعمي، والسكسكي، والزبيدي، والتغلبي، والثعلبي، والكلاعي، والدوسي، والحواري، والسلماني، هذا ويرد كثير في شهادتهم، ويقل من ذلك السلماني نسباً، وكالدوسي، والحواري، والزبيدي، ويكثر فيهم، كالأنصاري، والحميدي، والجذامي، والقيسي، والغساني، وكفى بهذا شاهدا على الأصالة، ودليلا على العروبية.

وجندهم صنفان، أندلسي وبربري، والأندلس منها يقودهم رئيسٌ من القرابة أو حصى، من شيوخ الممالك. وزيهم في القديم شبه زي أقتالهم، وأضدادهم، من جيرانهم الفرنج، إسباغ الدروع، وتعليق الترسة، وحفا البيضات، واتخاذ عراض الأسنة، وبشاعة قرابيس السروج، واستركاب حملة الرايات خلفه، كلٌ منهم بصفةٍ تختص بسلاحه، وشهرةٍ يعرف بها. ثم عدلوا الآن عن هذا الذي ذكرنا، إلى الجواشن المختصرة، والبيضات المرهفات، والسروج العربية، والبيت اللمطية، والأسل العطفية.

والبربري منه، يرجع إلى قبائله المرينية، والزناتية، والتجانية، والمغراوية والعجيسية، والعرب المغربية إلى أقطاب ورؤوس، يرجع أمرهم إلى رئيس، على رؤسائهم، وقطب لعرفائهم، من كبار القبائل المرينية، يمت إلى ملك المغرب بنسب.

والعمائم تقل في زي أهل هذه الحضرة، إلا ما شاد في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم، والجند العربي منهم. وسلاح جمهورهم العصي الطويلة، المثناة بعصى صغارٍ ذوات عري في أواسطها، تدفع بالأنامل عند قذفها تسمى بالأمداس، وقسى الإفرنجة يحملون على التدريب بها على الأيام، ومبانيهم متوسطة، وأعيادهم حسنة، مائلة إلى الاقتصاد، والغنى بمدينتهم فاشٍ، حتى في الدكاكين التي تجمع صنائعها، كثيراً من الأحداث، كالخفافين ومثلهم.

وقوتهم الغالب، البر الطيب، عامة العام، وربما اقتات في فصل الشتاء الضعفة والبوادي والفعلة في الفلاحة، الذرة العربية، أمثل أصناف القطاني الطيبة. وفواكههم اليابسة عامة العام، متعددةٌ، يدخرون العنب سليما من الفساد، إلى شطر العام، إلى غير ذلك من التين، والزبيب، والتفاح، والرمان، والقسطل، والبلوط، والجوز، واللوز، إلى غير ذلك مما لا ينفد، ولا ينقطع مدده إلا في الفصل الذي يزهد في استعماله.

وصرفهم فضة خالصةٌ، وذهبٌ إبريزٌ طيب محفوظ، ودرهمٌ مربع الشكل، من وزن المهدي القائم بدولة الموحدين، في الأوقية منه سبعون درهما، يختلف الكتب فيه. فعلى عهدنا، في شق، " لا إله إلا الله، محمد رسول الله " ، وفي شق آخر، " لا غالب إلا الله، غرناطة " . ونصفه وهو القيراط، في شق، " الحمد لله رب العالمين " ، وفي شق، وما النصر إلا من عند الله. ونصفه وهو الربع، في شق، " هدى الله هو الهدى " . وفي شق العاقبة للتقوى.

ودينارهم في الأوقية منه، ستة دنانير وثلثا دينار، وفي الدينار الواحد ثمن أوقية وخمس ثمن أوقية، وفي شق منه، قل اللهم مالك الملك بيدك الخير، ويستدير به قوله تعالى " إلهكم إلهٌ واحدٌ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم " . وفي شق،

الأمير عبد الله يوسف، بن أمير المسلمين أبي الحجاج، بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن نصر، أيد الله أمره. ويستدير به، شعار هؤلاء الأمراء، لا غالب إلا الله. ولتاريخ تمام هذا الكتاب، في وجه، " يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون " . ويستدير به، لا غالب إلا الله. وفي وجه الأمير عبد الله الغني بالله، محمد بن يوسف بن إسماعيل بن نصر، أيده الله وأعانه. ويستدير بربع، بمدينة غرناطة حرسها الله.

وعادة أهل هذه المدينة، الانتقال إلى حلل العصير أوان إدراكه، بما تشتمل عليه دورهم، والبروز إلى الفحوص، بأولادهم، معولين في ذلك على شهامتهم وأسلحتهم، وعلى كثب دورهم، واتصال أمصارهم بحدود أرضه.

وحليهم في القلائد، والدمالج، والشنوف، والخلاخل الذهب الخالص، إلى هذا العهد، في أولى الجدة، واللجين في كثير من آلات الرجلين، فيمن عداهم، والأحجار النفيسة من الياقوت، والزبرجد والزمرد ونفيس الجوهر، كثير ممن ترتفع طبقاتهم المستندة إلى ظل دولة، أو أصالةٍ معروفة موفرة.

وحريمهم، حريم جميل، موصوف بالسحر، وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النشر، وخفة الحركات، ونبل الكلام، وحسن المحاورة، إلا أن الطول يندر فيهن. وقد بلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد، والمظاهرة بين المصبغات، والتنفيس بالذهبيات والديباجيات، والتماجن في أشكال الحلي، إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها، عين الدهر، ويكفكف الخطب، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة، وأن يعامل جميع من بها بستره، ولا يسلبهم خفي لطفه، بعزته وقدرته.

فصل فيمن تداول هذه المدينة

من لدن أصبحت دار إمارة باختصار واقتصار

قال المؤلف: أول من سكن هذه المدينة، سكنى استبداد، وصيرها دار ملكة ومقر أمره،الحاجب، المنصور أبو مثنى زاوي بن زيري بن مناد لما تغلب جيش البربر، مع أميرهم سليمان بن الحكم على قرطبة، واستولى على كثير من كور الأندلس، عام ثلاثة وأربعمائة فما بعدها، وظهر على طوائف الأندلس، واشتهر أمره، وبعد صيته. ثم اجتاز البحر إلى بلد قومه بإفريقية، بعد أن ملك غرناطة سبع سنين، واستخلف ابن أخيه حبوس بن ماكسن، وكان حازماً داهية، فتوسع النظر إلى أن مات سنة تسع وعشرين وأربعمائة. وولي بعده حفيده عبد الله بن بلكين بن باديس، إلى أن خلع عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة، وتصير أمرها إلى أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ملك لمتونة عند تملكه الأندلس، ثم إلى ولد علي بن يوسف. وتنوب إمارتها جملةٌ من أبناء الأمراء اللمتونيين وقرابتهم كالأمير أبي الحسن علي بن الحاج وأخيه موسى، والأمير أبي زكريا يحيى بن أبي بكر بن إبراهيم، والأمير أبي الطاهر تميم، والأمير أبي محمد مزدلي والأمير أبي بكر بن أبي محمد، وأبي طلحة الزبير ابن عمر، وعثمان بن بدر اللمتوني، إلى أن انقرض أمرهم عام أربعين وخمسمائة.

وتصير الأمر للموحدين، وإلى ملكهم أبي محمد عبد المؤمن بن علي، فتناوبها جملةٌ من بنيه وقرابته، كالسيد أبي عثمان بن الخليفة، والسيد أبي إسحاق ابن الخليفة، والسيد أبي إبراهيم بن الخليفة، والسيد أبي محمد بن الخليفة، والسيد أبي عبد الله، إلى أن انقرض منها أمر الموحدين.

وتملكها المتوكل على الله، أمير المؤمنين، أبو عبد الله محمد يوسف بن هود، في عام ستة وعشرين وستمائة، ثم لم ينشب أن تملكها أمير المسلمين الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر الخزرجي، جد هؤلاء الأمراء الكرام موالينا،

رحم الله من درج منهم، وأعان من خلفه، إلى أن توفي عام أحدٍ وسبعين وستمائة. ثم ولي الأمر بعده ولده وسميه محمد بن محمد فقام بها أحمد قيام، وتوفي عام إحدى وسبعمائة. ثم ولي بعده سميه محمد إلى أن خلع يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة، وتوفي عام أحد عشر وسبعمائة في ثالث شوال منه. ثم ولي بعده أخوه نصر بن مولانا أمير المسلمين أبي عبد الله، فأرتب أمره، وطلب الملك اللاحق به مولانا أمير المسلمين أبو الوليد إسماعيل بن فرج، فغلب على الإمارة، ثاني عشر ذي القعدة من عام ثلاثة عشر وسبعمائة، وانقل نصر إلى وادي آش مخلوعاً، موادعاً بها إلى أن مات عام اثنين وعشرين وسبعمائة. وتمادى ملك السلطان أمير المسلمين أبي الوليد إلى السادس والعشرين من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة، ووثب عليه بعض قرابته فقتله، وعوجل بالقتل مع من حضر منهم. وتولى الملك بعده ولده محمد، واستمر سلطانه إلى ذي الحجة من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، وقتل بظاهر جبل الفتح.
وولى بعده أخوه مولانا السلطان أبو الحجاج لباب هذا البيت، وواسطة هذا العقد، وطراز هذه الحلية، ثم اغتاله، ممرور من أخابيث السوقة، قيضه الله إلى شهادته، وجعله سبباً لسعادته، فأكب عليه في الركعة الآخرة من ركعتي عيد الفطر، بين يدي المحراب، خاشعاً، ضارعاً، في الحال الذي أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجدٌ، وضربه بخنجر مهيء للفتك به، في مثل ذلك الوقت، كان، زعموا، يحاول شخذه منذ زمان، ضربةً واحدةً، على الجانب الأيسر من ظهره، في ناحية قلبه، فقضى عليه، وبودر به فقتل.
وولى الأمر بعده محمد، ولده اكبر بنيه، وأفضل ذويه، خلقاً وخلقاً وحياء وجوداً، ووقاراً وسلامة وخيرية، ودافع دولته من لا يعبأ الله به، ثم تدارك الأمر سبحانه، وقد أشفى، ودافع وكفى، بما يأتي في محله إن شاء الله. وهو أمير المسلمين لهذا العهد، متع الله به، وأدام مدته، وكتب سعادته، وأطلق بالخير يده، وجعله بمراسيم الشريعة من العاملين، ولسلطان يوم الدين من الخائفين. المراقبين، بفضله.
وقد أتينا بما أمكن من التعريف بأحوال هذه الحضرة على اختصار. ويأتي في أثناء التعريف برجالها كثيرٌ من تفصيل ما أجمل، وتتميم ما بدأ وإيضاح ما خفي، بحول الله تعالى.
القسم الثاني

في حلي الزائر والقاطن والمتحرك والساكن

أحمد بن خلف بن عبد الملك

الغساني القليعي

من أهل غرناطة يكنى أبا جعفر، من جلة أعيانها، تنسب إليه الساقية الكبرى المجاورة لطوق الحضرة إلى إلبيرة، وما والاها
حاله
قال ابن الصيرفي: كان الفقيه أبو جفعر القليعي، من أهل غرناطة، فريد عصره، وقريع دهره، في الخير والعلم والتلاوة، وله حزب من الليل، وكان سريع الدمعة، كثير الرواية، وهو المشار إليه في كل نازلة، وله العقد والحل والتقدم والسابقة، مع منة في جلائل الأمور، والنهضة بالأعباء وسمو الهمة.
غريبةٌ في شأنه: قال كان باديس بن حبوس أمير بلده ينفرس فيه أن ملك دولته، ينقرض على يديه، فكان ينصب

لشأنه أكلباً، ويتملط بسيفه إلى قتله، فحماه الله منه بالعلم، وغل يده، وأغمد سيفه، ليقضي الله أمراً كان مفعولا.
مشيخته
روي عن أبي عمر بن القطان، وأبي عبد الله بن عتاب، وأبي زكريا القليعي، وأبي مروان بن سراج، وكان ثقةً صدوقاً، أخذ عنه الناس.

محنته: ولما أجاز أمير لمتونة يوسف بن تاشفين البحر مستدعى إلى نصر المسلمين، ثاني حركاته إلى الأندلس، ونازل حصن أليط، وسارع ملوك الطوائف إلى المسير في جملته، كان ممن وصل إليه الأمير عبد الله بن بلكين، بن باديس صاحب غرناطة، ووصل صحبته الوزير أبو جعفر بن القليعي، لرغبته في الأجر مع شهرة مكانه، وعلو منصبه، ولنهوض نظرائه، من زعماء الأقطار، إلى هذا الغرض، وكان مضرب خيام القليعي قريباً من مضرب حفيد باديس، ولمنزلته عند الأمير يوسف بن تاشفين، وله عليها الحفوف وله به استبداد، وانفرادٌ كثير، وترددٌ كثير، حتى نفى بذلك حفيد باديس، وأنهم عنيه. قال المؤرخ، وكيفما دارت الحال، فلم يخل من نصحٍ لله ولأمير المسلمين.
قلت: حفيد باديس كان أدرى بدائه، قصر الله خطانا من مدارك الشرور. فلما صدر حفيد باديس إلى غرناطة، استحضره ونجهه، وقام من مجلسه مغضباً، وتعلقت به الخدمة، وحفت به الوزعة والحاشية. وهمو بضربه، إلا أن أم عبد الله تطارحت على ابنها في استحيائه، فأمر بتخليصه، وسجنه في بعض بيوت القصر، فاقبل فيه على العبادة والدعاء والتلاوة، وكان جهير الصوت، حسن التلاوة، فارتج القصر، وسكنت لاستماعه الأصوات، وهدأت له الحركات، واقشعرت الجلود. وخافت أم عبد الله على ولدها، عقاباً من الله بسببه، فلاطفته حتى حل عقاله، وأطلقه من سجنه. ولما تخلص أعدها غنيمةً. وكان جزلاً، قوي القلب، شديد الجزم، فقال الصيد بغراب أكيس، فاتخذ الليل جملاً، فطلع له الصباح بقلعة يحصب، وهو لنظر ابن عباد، وحث منها السير إلى قرطبة، فخاطب منها يوسف بن تاشفين بملىء فيه، بما حركه وأطعمه، فكان من حركته إلى الأندلس، وخلع عبد الله بن بلكين من غرناطة، واستيلائه عليها، ما يرد في اسم عبد الله وفي اسم يوسف بن تاشفين إن شاء الله. وبدا لحفيد باديس في أمر أبي جعر القليعي، ورأى أنه أضاع الحزم في إطلاقه فبحث عنه من الغد، وتقصت عنه البلدة، فلم يقع له خبر، إلى أن اتصل به خبر نجاته، ولحاقه بمأمنه. فرجع باللائمة على أمه، ولات حين مندم. ولم يزل أبو جعفر مدته في دول الملوك، من لمتونة، معروف الحق، بعيد الصيت والذكر، صدر الحضرة، والمخصوص بعلو المرتبة إلى حين وفاته.
أحمد بن محمد الهمداني اللخمي

أحمد بن محمد بن أحمد بن يزيد الهمداني اللخمي من أهل غرناطة
حاله
كان فقيهاً وزيراً جليلا حسيباً حافلا.
وفاته
توفي بإلبيرة قبل الثلاثين وأربعمائة.
ذكره أبو القاسم الغافقي في تاريخه وابن اليسر في مختصره واثنى عليه.
أحمد بن محمد الهمداني الإلبيري
أحمد بن محمد بن أضحى بن عبد اللطيف بن غريب بن يزيد ابن الشمر بن عبد شمس بن غريب الهمداني الإلبيري من نزلاء قرية همدان، ذكره ابن حيان، والغافقي، وابن مسعدة، وغيرهم، فقال جميعم، كان من أهل البلاغة،

والبيان، والأدب، والشعر البارع.

مناقبه

قدم على الخليفة أبي مطرف عبد الرحمن، فقام خطيباً بين يديه، فقال: الحمد لله المحتجب بنور عظمته، عن أبصار بريته، والدال بحدوث خلقه على أوليته، والمنفرد بما أتقن من عجائب دهره ومنن صمديته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، إقراراً بوحدانيته، وخضوعاً لعزه وعظمته. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، انتخبه من أطيب البيوتات، واصطفاه من أطيب البيوتات، حتى قبضه الله إليه، واختار له ما لديه. وقد قبل سعيه، وأدى أمانته، فصلى الله عليه وسلم تسليما. ثم إن الله لما أن بعثه من أكرم خلقه، وأكرمه برسالته وأنزل عليه محكم تنزيله، واختار له من أصحابه وأشياعه مخلفاً، جعل منهم أئمة يهدون بالحق، وبه يعدلون، فجعل الله الأمير، أعزه الله، وارث ما خلفوه من معاليهم، وباني ما أسسوه من مشاهدهم، حتى أمن المسالك، وسكن الخائف، رحمةً من الله، ألبسه كرامتها، وطوقه فضيلتها، والله يؤتي ملكه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

الله أعطاك التي لا فوقها ... وقد أراد الملحدون عوقها

عنك ويأبي الله إلا سوقها ... إليك حتى قلدوك طوقها

ثم أردف قوله بهذه الأبيات:

أيا ملكاً ترمي به قضب الهند ... إذا لمعت بين المغافر والصرد

ومن بأسه في منهل الموت واردٌ ... إذا أنفس الأبطال كلت عن الورد

ومن ألبس الله الخلافة نعمةً ... به فاقت النعما وجلت عن الحد

فلو نظمت مروان في سلك فخرها ... لأصبح من مروان واسطة العقد

تجلى على الدنيا فأجلى ظلامها ... كما انجلت الظلماء عن قمر السعد

إمام هدًى أضحت به العرب غضة ... ملبسةً نوراً كواشية البرد

كفاني لديه أن جعلت وسايلي ... ذماماً شآمي الهوى مخلص الود

يؤكد ما يدلي به من مثابة ... خلوص أبيه عبد الفارس الجند

تأمل رواه والرماح شواجرٌ ... وخيلٌ إلى خيلٍ بأبطالها تردى

رأى أسداً ورداً يخف إلى الوغى ... ورأيته أربي على الأسد الورد

فأنعم عليه اليوم يا خير منعمٍ ... بإظهار تشريفٍ وعقد يدٍ عندي

ولا تشمت الأعداء أن جئت قاصداً ... إلى ملك الدنيا فأحرم من قصدي

فعند الإمام المرتضى كل نعمةٍ ... وشكراً لما يلحيه من نعمةٍ عندي

فلا زال في الدنيا سعيداً مظفراً ... وبوىء في دار العلى جنة الخلد

وكان من بيت سماحة وفصاحة وخطابة، فعلا شرفه بهذه الخصال، فسجل له على أرحيةٍ، وحصنٍ نبيل ببني هود وغير ذلك، فانقلب مرعى الوسائل، ومقضى الرسائل.

قال المؤلف أرى ابن فركون قبل الست عشرة والثلاثمائة.

أحمد بن محمد هشام القرشي

أحمد بن محمد بن أحمد بن هشام القرشي من أهل غرناطة. يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن فركون

أوليته

وكفى بالنسب القرشي أولية.

حاله

من عائد الصلة: كان من صدور القضاة بهذا الصقع الأندلسي، اضطلاعاً بالمسائل ومعرفة بالأحكام من مظانها، كثير المطالعة والدروب، وحي الإجهاز في فصل القضايا، نافذ المقطع، كثير الاجتهاد والنظر، مشاركاً في فنون، من عربية، وفقه، وقراءة، وفرائض، طيب النغمة بالقرآن، حسن التلاوة، عظيم الوقار، بين طبعٍ ومكسوب، فائق الأبهة، مزرياً بمن دونه من الفقهاء، وعاقدي الشروط، مسقطاً للكنى والتجلات، يعامل الكهول معاملة الأحداث، ويتهاون بتعاملات ذلك فيجعلها دبر أذنيه، ويسترسل في إطلاق عنان النادرة الحارة، في مجالس حكمه، فضلا عن غيرها، وجد ذلك من يحمل عليها سبباً للغرض منه

نباهته

ترشح بذاته، وباهر أدواته، إلى قضاء المدن النبيهة، والأقطار الشهيرة، كرندة، ومالقة، وغيرهما. ثم ولي قضاء الجماعة، في ظل جاه وضمن حرمة. غريبة في أمره: حدث أنه كان يقرأ في شبيبته على الأستاذ الصالح أبي عبد الله بن مستقور. بكرم له خارج الحضرة، على أميال منها في فصل العصير. قال وجهني يوماً بغلة من الرب لأبيعه بالبلد، فأصابني مطرٌ شديد، وعدت إليه بحال سيئة، بعد ما قضيت له وطره، وكان له أخٌ أسن منها، فعاتبه في شأني، وقال له: تأخذ صبيا ضعيفاً يأتيك لفائدة يستفيدها، وتعرضه لمثل هذه المشقة، في حق مصلحتك، ليس هذا من شيم العلماء، ولا من شيم الصالحين. فقال له دعه، لا بد أن يكون قاضي الجماعة بغرناطة، فكان كذلك، وصدقت فراسته، رحمه الله تعالى.

مشيخته: قرأ بالقرية على الأستاذ أبي القاسم بن الأصفر، وبغرناطة على العالم القاضي أبي الحسن محمد بن يحيى بن ربيع الأشعري، وعلى الشيخ المفتي أبي بكر محمد بن أبي إبراهيم بن مفرج الأوسي بن الدباغ الإشبيلي، وعلى الخطيب الزاهد أبي الحسن العدال، وعلى الأستاذ النحوي أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن يوسف ابن الصايغ، بالصاد المهملة، والغين المعجمة، وعلى الأستاذ أبي الحسن الأبدي، وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الطائي، عرف بابن مستقور.

ولما دالت الدولة، كان له في مشايعة مخلوعها أمور اقتضتها منه أريحية وحسن وفاء، أوجبت عليه الخمول بعد استقرار دايلها، السلطان أبي الوليد رحمه الله، وأصابته أيام الهيج محن، ونسبت إليه نقائص، زورتها حسدته، فصرف عن القضاء، وبقي مدة مهجور الفناء، مضاع المكان عاطل الدولة، منتبذاً في مليك له، خارج الحضرة، ينحني على خرثيٍ ساقط القيمة، ودفاتر ساقطة الثمن، يتعلل بعلاقها، ويرجي الوقت بيسيرها.

حدثني الوزير أبو بكر بن الحكيم، قال زرته في منزله بعد عزله، ونسبة الأمور التي لا تليق بمثله، فأنشدني بما ينبيء عن ضجره وضيق صدره:

أنا من الحكم تائبٍ ... وعن دعاويه هارب

بعد التفقه عمري ... ونيل أسنى المراتب

وبعد ما كنت أرقى ... على المنابر خاطب

أصبحت أرمي بعارٍ ... للحال غير مناسب

أشكو إلى الله أمري ... فهو المثيب المعاقب

وثبت اسمه في التاريخ المسمى بالتاج تأريخي بما نصه: شيخ الجماعة وقاضيها، ومنفذ الأحكام وممضيها، وشايم، سيوفها الماضية ومنتضيها، رأس بفضيلة نفسه، وأحيا دارس رسم القضاء بدرسه، وأودع في أرض الاجتهاد، بذر السهاد، فجني ثمرة غرسه، إلى وقار يود رضوى رجاحته، وصدر تحسد الأرض الغبيطة ساحته، ونادرة يدعوها فلا تتوقف، ويلقى عصاها فتتلقف، ولم يزل يطمح بأمانيه، ويضطلع بما يعانيه، حتى رفع إلى الرتبة العالية، وحصل على الحال الحالية، وكان له في الأدب مشاركة، وفي قريض النظم حصة مباركة. إنتهى إلى قوله يهنىء السلطان أبا عبد الله بن نصر، بالإبلال من مرض في اقترانٍ بعيد وفتح، وذلك:

شفاؤك للملك اعتزازٌ وتأييد ... وبرؤك مولانا به عيدنا عيد

مرضت فلم تأو النفوس لراحةٍ ... ولا كان للدنيا قرارٌ وتمهيد

ولم تصبر عيني تود مولماً ... ولازمها طول اعتلالك تسهيد

وشعره مختلف عن نمط الإجادة التي تناسب محله في العلم، وطبقته في الإدراك فاختصرته.

مولده

عام تسعة وأربعين وستمائة.

وفاته

في السادس عشر لذي القعدة عام تسعة وعشرين وسبعمائة: ذكرته في كتاب عائد الصلة قاضياً، وفي كتاب التاج المحلي قاضياً أديباً. وذكره أبو بكر بن الحكيم في كتاب الفوائد المستغربة، والموارد المستعذبة من تأليفه.

أحمد بن محمد بن جزي الكلبي

أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن ابن يوسف بن سعيد بن جزي الكلبي من أهل غرناطة، ويعرف بابن جزي، أوليته معروفة، وأصالته شهيرة، تنظر فيما مر من ذلك عند ذكر سلفه، وفيما يأتي في ذلك، بحول الله وقوته.

حاله

من أهل الفضل والنزاهة، والهمة، وحسن السمة، واستقامة الطريقة، غرب في الوقار، ومال إلى الانقباض، وترشح إلى رتب سلفه، له مشاركةٌ حسنة في فنون، من فقه وعربية، وأدب، وحفظ، وشعر، تسمو ببعضه الإجادة، إلى غاية بعيدة.

مشيخته

قرأ على والده الخطيب أبي القاسم، ولازمه، واستظهره ببعض موضوعاته، وتأدب به، وقرأ على بعض معاصري أبيه، وروي، واستجلب له أبوه كثيراً من أهل صقعة وغيرهم.

نباهته

ثم أرسم في الكتابة السلطانية لأول دولة السابع من الملوك النصريين، منفق سوق الحلية من أبناء جنسه، أبي الحجاج بن نصر، فوري زنده، ودرت أحلاب قريحته، وصدر له في مدائحه شعر كثير. ثم تصرف في الخطط الشرعية، فولي القضاء ببرجة، ثم بأندرش، وهو الآن قاضي مدينة وادي آش مشكور السيرة، معروف النزاهة، أعانه ذلك وسوده، وبلغ به رتبة سلفه. وجرى ذكره في كتاب التاج بما نصه: فاضلٌ تحلى بالسكينة والوقار، فمدت إليه رقاب سلفة يد الافتقار، ما شئت من هدوء وسكون، وجنوح إلى الخير وركون، عني بالمحافظة على سمته من لدن عقل، ولزم خدمة

العلم فما عاد ولا انتقل، ووجد من أبيه رحمه الله مرعىً خصيباً فابتقل، وعمل على شاكله، سلفه في سلامة الجانب، وفضل المذاهب، وتحلى بتلك المآثر وتوشح، وتأهل إلى الرتب في سن الشبيبة وترشح، وله مع ذلك في لجة الفقه سبحٌ، وعلى بعض موضوعات أبيه شرحٌ، وأدبه ساطع، وكلامه حسن المقاطع. فمن ذلك ما كتب به إلى، وقد خاطبت ما أمكن من نظمه:

فديتك يا سيدي مثلما ... فداك الزمان الذي زنته

وقوله في المقطوعات من ذلك في معنى التورية:

كم بكائي لبعد كم وأنيني ... من ظهيري على الأسى من معيني

جراح الخد دمع عيني ولكن ... عجبٌ أن يجرح ابن معين

وقال في الغنى:

أرى الناس يولون الغني كرامة ... وإن لم يكن أهلا لرفعة مقدار

ويلوون عن وجه الفقير وجوههم ... وإن كان أهلا أن يلاقى بإكبار

بنو الدهر جاءتهم أحاديث جمةٌ ... فما صححوا إلا حديث ابن دينار

ومن بديع ما صدر عنه، قوله ينسج على منوال امرىء القيس في قصيدته الشهيرة:

أقول لحزمي أو لصالح أعمالي ... إلا عم صباحا أيها الطلل البالي

أما واعظى شيبٌ سما فوق لمتي ... سمو حباب الماء حالا على حال

أنار به ليل الشباب كأنه ... مصابيح رهبانٍ تشب لقفال

نهاني عن غيٍ وقال منبها ... ألست ترى السمار والناس أحوالي

يقولون غيره لتنعم برهةً ... يعمن به من كان في العصر الخالي

أغالط دهري وهو يعلم أنني ... كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي

ومؤنس نار الشيب يقبح لهوه ... بآنسةٍ كأنها خط تمثال

أشيخاً وتأتي فعل من كان عمره ... ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال

وتشغفك الدنيا وما أن شغفتها ... كما شغف المهنوءة الرجل الطالي

ألا أنها الدنيا إذا ما اعتبرتها ... ديار لسلمى عافياتٌ بذي خال

فأين الذين استأثروا قبلنا بها ... لناموا فما إن من حديث ولا صال

ذهلت بها غيا فكيف الخلاص من ... لعوبٍ تنسيني إذا قمت سربالي

وقد علمت مني مواعيد توبتي ... بأن الفتى يهذي وليس بفعال

ومذ وثقت نفسي بحب محمد ... هصرت بغصنٍ ذي شماريخ ميال

وأصبح شيطان الغواية خاسئاً ... عليه قتام سيء الظن والبال

ألا ليت شعري هل تقول عزائمي ... لخيلي كرى كرةً بعد إجفال

فأنزل داراً للنبي نزيلها ... قليل همومٍ ما يبيت بأوجال

فطوبى لنفسٍ جاورت خير مرسل ... بيثرب أدنى دارها نظرٌ عالي

ومن ذكره عند القبول تعطرت ... صباً وشمألٌ في منازل قفال

جوار رسول الله مجدٌ مؤثلٌ ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

ومن ذا الذي يثني عنان السرى وقد ... كفاني ولم أطلب قليلٌ من المال
ألم تر أن الظبية استشفعت به ... تميل عليه هونةً غير مجفال
وقال لها عودي فقالت له نعم ... ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي
فعادت إليه والهوى قائلٌ لها ... وكان عداء الوحش مني على بالي
رثى لبعيرٍ قال أزمع مالكي ... ليقتلني والمرء ليس بفعال
وثورٍ ذبيح بالرسالة شاهد ... طويل القرا والروق اخنس ذيال
وحن إليه الجذع حنة عاطش ... لغيثٍ من الوسمي رائده خالي
وأصلين من نخلٍ قد التأما له ... فما احتبسا من لينٍ مسٍ وتسهال
وقبضة ترب منه ذلت لها الظبا ... ومسنونةٍ زرقٍ كأنياب أغوال
وأضحى ابن جحشٍ بالعسيب مقاتلاً ... وليس بذي رمح وليس بنبال
وحسبك من سيف الطفيل إضاءة ... كمصباح زيتٍ في قناديل ذبال
وبذت به العجفاء كل مطهم ... له حجبات مشرفات على الفال
ويا خسف أرضٍ تحت باغيه إذ علا ... على هيكل نهد الجزارة جوال
وقد أخمدت نارٌ لفارس طالما ... أصابت غضى جزلاً وكفت بأجزال
أبان سبيل الرشد إذ سبل الهدى ... يقلن لأهل الحلم ضلا بتضلال
لأحمد خير العالمين انتقيتها ... ورضت فذلت صعبةً أي إذلال
وإن رجائي أن ألاقيه غداً ... ولست بمقلى الخلال ولا قالي
فأدرك آمالي وما كل آمل ... بمدرك أطراف الخطوب ولا والي

ولا خفاء ببراعة هذا النظم، وإحكام هذا النسخ، وشدة هذه الغارضة. وله تقييدٌ في الفقه على كتاب والده، المسمى بالقوانين الفقهية، ورجزٌ في الفرائض يتضمن العمل. واحسانه كثير. وتقدم قاضياً بخضرة غرناطة، وخطيباً بمسجد السلطان، ثامن شوال من عام ستين وسبعمائة. ثم انصرف عنها، وأعيد إليها في عام ثلاث وستين، موصوفاً بالنزاهة والمضاء.

مولده

في الخامس عشر من جمادى الأولى عام خمسة عشر وسبعمائة، وهو الآن بقيد الحياة.

أحمد بن محمد بن عبد الله العامري

أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سعدة ابن سعيد بن مسعدة بن ربيعة بن صخر بن شراحيل بن عامر بن الفضل بن بكر بن بكار بن البدر بن سعيد بن عبد الله العامري يكنى أبا جعفر، من أهل غرناطة.

أوليته

عامر الذي ينتسبون إليه، عامر بن صعصعة بن هوازنٍ بن منصور بن عكرمة ابن حفصة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

ومن مناقبهم، ميمونة أم المؤمنين، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمر بن عامر من أصحابه، وعاصم بن

عبد الله الجعلي، ويزيد بن الحميري، وغيرهم. منزل جدهم الداخل إلى الأندلس، وهو بكر بن بكار بن البدر بن سعيد بن عبد الله، قرية طغنر، من إقليم براجلة ابن خريز من إلبيرة.

قال ابن الصيرفي، في تاريخه الصغير: منزل بني مسعدة، موضع كرم ومحمدة، ينتسبون في عامر وهم أعيان علية، فرسان أكابر وحجاب وكتاب ووزراء، ولهم سابقات ومفاخر، وأوائل وأواخر. ومنهم على القدم جليلٌ ونبيه، ومنهم كان وضيع بن جراح الفقيه، لم يدخل أحد منهم في الفتنة يداً ولا تأذي مسلماً، ولا معاهداً، على قدرتهم على ذلك، وكفى به فخراً لا ينقطع أبداً. ودخل جدهم الأندلس بعقد بني مروان له، سنة أربع وتسعين من الهجرة، ويأتي من ذكر أعلامهم، ما يدل على شرف بيتهم، وأصالته، وعلوة وجلالته.

حاله

كان صدراً جليلا، فقيهاً مضطلعاً، من أهل النظر السديد والبحث، قائماً على المسائل، مشاركاً في كثير من الفنون، جزلا مهما، جارياً على سنن سلفه، ريان من العربية. وختم سيبويه تفقهاً، وقرأ الفقه، واستظهر كتاب التلقين، وردس الأحكام الجيدة، وعرضها في مجلس واحد، وقرأ أصول الفقه، وشرح المستصفى شرحاً حسناً، وقرأ الإرشاد والهداية، وكان صدراً في الغرائض والحساب، وألف تاريخ قومه وقرابته ولايته ولى القضاء بمواضع من الأندلس كثيرة من البشارات، أقام بها أعواماً خمسة، ثم لوشة، وأقام بها ثلاثة أعوام، ثم بسطة وبرشانة. ثم انتقل إلى مالقة، وأقام بها أعواماً خمسة. نبهت على مقدار الإقامة لما في ضمن طول سنى الولاية من استقامة أمر الوالي. وكان له من أمير المسلمين بالأندلس حظوة لطيفة لم تكن لغيره، استنزلها بسحر التلطف، وخطبها بلسان التملق حتى استحكمت له أسبابها.

حدثني بعض أشياخي ممن كان يباشر حال السلطان يومئذ: قال: وجه ابن مسعدة ابنة من مالقة، بكتاب في بعض الأغراض الضرورية، ثم رغب فيه أن ينعم على ولده بالمشافهة لإلقاء أمر ينوب عنه فيه، فلما حضر، تناول رجل السلطان فقبلها، وقال أمرني أبي أن أنوب في تغفير الوجه، في هذه الرجل الكريمة الجهادية عنه خاصة. لبعد عهده بها، إلى أمثال هذا، مما اقتضت الانتفاع بعاجلٍ من الدنيا زهيدٍ، لا يدري ما الله صانعٌ فيها، والإبقاء بما تجاوز الإفراط، في تقدمه بمالقة، بعده دار الأعلام، وديوان العقد، وهو حدثٌ خليٌ من العلم، قريب العهد بالبلوغ، فكانت على أنها غاية الصدور ملعباً، إلى أن ضرب الدهر ضرباته، وانتقلت الحال.

مشيخته

أولهم قاضي الجماعة، أبو الحسن بن أبي عامر بن ربيع، وثانيهم القاضي أبو عامر يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع، وثالثهم أبو يحيى بن عبد المنعم الخزرجي، ورابعهم العدل، الراوية، أبو الوليد العطار، وخامسهم أبو إسحاق بن إبراهيم بن أحمد الخشني، وسادسهم الأستاذ أبو الحسن الكناني الإشبيلي، وسابعهم محمد بن إبراهيم ابن مفرج الأوسي الدباغ، وثامنهم أبو جعفر أحمد بن علي الرعيني، وتاسعهم أبو علي بن أبي الأحوص.

وصمته: فروي الناس أنه وجد بخزانته بعد وفاته، زمامٌ، يشتمل على مثالب أهل غرناطة، مما يحدث على الأيام في أفرادهم، من فلتات يجريها عدم الاتصاف بالعصمة. استقر عند ولده القضل، زعموا، ثم خفي أثره، ستر الله عيوبنا برحمته.

وفاته

توفي بمالقة قرب صلاة المغرب، يوم الأحد الموفى عشرين لذي الحجة عام تسعة وتسعين وستمائة، ودفن بخارج باب قبالة في مالقة المذكورة بمقربة من رابعة بني عمار، وبالروضة المنسوبة لبني يحيى، نقلت من خط ولده الفضل.

ابن قعنب

أحمد بن محمد بن أحمد بن قعنب الأزدي يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن قعنب

أوليته

ذكر الأستاذ ابن الزبير في صلته وغيره أن قوماً بغرناطة يعرفون بهذه المعرفة، فإن كان منهم، فله أولية لابأس بها.

حاله

كان من شيوخ كتاب الشروط معرفة بالمسائل، واضطلاعاً بالأحكام، وانفرد بصحة الوثيقة، باقعةً من بواقع زمانه، وعيابة في مشايخ قطره، يألف النادرة الحارة في ملاء من النوك والغفلة، فلا يهتز لموقع نادرة، ولا يضحك عقب عقد صرعةٍ، لقلقه غير مامرة، غير مجلس من مجالس القضاء من بني مسعود المزراة أحكامهم، المرمية بتهكمه وإزرائه، فتقتع في طريق حكمهم خطاً منفسحة، غير مكترث بهوانه، ولا غاص بلسانه. وربما قال لبعض الوزعة من قادته بمجسه، وقد توقفوا به في بعض الطريق، توقعاً لسكون غضب قاضيهم، إبعثوا بعضهم إلى هذا المحروم، لنرى ما عزم عليه، بكلام كثير الفتور والاستكانة، له في هذا الباب شهرة.

ذكر بعض نزعاته

حدثني ملازمه، وقفٌ عليه، أبو القاسم بن الشيخ الرئيس أبي الحسن بن الجياب، وقد أعمل والده، رحلةً إلى مالقة لزيارة شيخه الذي تلمذ له، وشهر بالتشيع فيه، أبي عبد الله الساحلي، صاحب الأتباع والطريقة، وكان مفرط الغلو فيه، واستصحب ولده الصغير، فسأله عن سفر أبيه وسعيه فقال نعم، واحتمل أخي، فقال أظنه منذ ولد كان غير مغتطس، فحمله الشيخ، فغطسه، واستغرب كل من حضر ضحكاً، فلم يبتسم هو كأنه لا شعور عنده بما ذهب إليه، فكانت إحدى الطوام عند الشيخ.

وحدثني، قال: جاءت امرأة تخاصم مياراً، أوصلها من بعض المدن، في أمرٍ نشأ بينهما، وبيده عقد، فقال بعض جيرانه، من نصه حاكياً، وأنه جامعها من موضع كذا إلى كذا ولم يرسم المد على ألف جاء، فقال الشيخ للمرأة، أتعرفين أن هذا المبار جامعك في الطريق أي فعل بك، فقالت معاذ الله، ونفرت من ذلك، فقال كذا شهد عليك الفقيه، وأشار إلى جاره. ومثل ذلك كثير. ولي القضاء بأماكن عديدة كلوشة، وبسطة، والمسند، وبرجة، وأرحبة، وغير ذلك.

مشيخته: يحمل عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، والخطيب الصالح أبي عبد الله بن فضيلة، وأبي محمد بن سماك، وأبي الحسن بن مستقور.

مولده

عام سبعين وستمائة. توفي قاضياً ببرجة بعد علة سدكت به في السادس عشر من شعبان من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة، وانتقل منها في وعاء خشب. ودفن بمقبرة إلبيرة تجاوز الله عنه ورحمه.

أحمد بن محمد بن سعيد بن زيد الغافقي

من أهل غرناطة، وجلة بيوتها، ويأتي من ذكر ذلك ما فيه كفاية

حاله

هذا الرجل ممن صرفت إلى الله رجعاه، وخلصت له معاملته، وخلص إليه انقطاعه. نازع في ذلك نفساً جامحة في الحزم، عريقة في الغفلة، فكتب الله له النصر، عليها دفعة، فشمر وفوت الأصول للحضرة في باب الصدقة، ونبذ الشواغل، وحفظ كتاب الله على الكبرة، واستقبل المحراب، ملغياً سواه. درأ به، فاتفق على فضله، وغبط في حسن فيئته. وله ديوان نبيل، يتضمن كثيراً من فقه النفس والبدن، دل على نبله، وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد. نفعه الله تعالى.

مولده

بغرناطة عام تسعين وستمائة.

أحمد بن أبي سهل الخزرجي

أحمد بن أبي سهل بن سعيد بن أبي سهل الخزرجي من أهل الحمة، يكنى أبا جعفر.

حاله

من أهل الخير والعفاف والطهارة والانقباض، والصحة والسلامة، أصيل البيت، معروف القدم ببلده، حر النادرة. قرأ بالحضرة، واجتهد وحصل، ولازم الأستاذ أبا عبد الله الفخار وغيره من أهل عصره. وولي القضاء ببلدة الحمة، ثم بغربي مالقة. وهو الآن قاض بها، مشكور السيرة.

أحمد بن عمر بن ورد التميمي

أحمد بن عمر بن يوسف بن إدريس بن عبد الله بن ورد التميمي

من أهل ألمرية. يكنى أبا القاسم، ويعرف بابن الورد.

حاله

قال الملاحي: كان من جلة الفقهاء المحدثين. قال ابن الزبير كذلك، وزاد: موفور الحظ من الأدب والنحو والتاريخ، متقدماً في علم الأصول والتفسير، حافظاً متقناً، ويقال إن علم المالكية انتهت إليه الرياسة فيه، وإلى القاضي أبي بكر بن العربي، في وقتهما. لم يتقدمهما في الأندلس أحد بعد وفاة أبي الوليد بن رشد. قال أخبرني الثقة أبو عبد الله بن جوبر عن أبي عمر بن عات، قال: حديث ابن العربي، اجتمع بابن ورد، وتبايتا ليلة، وأخذا في التناظر والتذاكر، فكانا عجباً. يتكلم أبو بكر فيظن السامع أنه ما ترك شيئاً إلا أتى به، ثم يجيبه أبو القاسم بأبدع جواب ينسي السامعين ما سمعوا قبله. وكانا أعجوبتي دهرهما. وكان له مجلسٌ يتكلم فيه على الصحيحين، ويخص الأخمسة بالتفسير.

حلوله غرناطة، قال المؤرخون ولي قضاء غرناطة سنة عشرين، فعدل وأحسن السيرة، وبه تفقه طلبتها إذ ذاك.

مشيخته: روي عن أبي علي الغساني، وأبي الحسن بن سراج، وأكثر عنه، وأبي بكر بن سابق الصقيلي، وأبي محمد بن عبد الله بن فرج المعروف بالعسال الزاهد، ولازمه، وهو آخر من روي عنه. ورحل إلى سجلماسة، وناظر عند ابن العواد.

وروي أيضاً عن أبي الحسن المبارك المعروف بالخشاب، وكان الخشاب يحمل عن أبي بكر بن ثابت الخطيب وغيره.

من روي عنه، وروي عنه جماعة كأبي جعفر بن الباذش، وأبي عبيدة الله، وابن رفاعة، وابن عبد الرحيم، وابن حكيم وغيرهم. وآخر من روي عنه، أبو القاسم ابن عمران الخزرجي بفاس.

وفاته

توفي بالمرية في الثاني عشر لرمضان سنة أربعين وخمسمائة.

أحمد بن محمد بن علي الأموي

أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن علي الأموي يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن برطال، أصله من قرية تعرف بحارة البحر من وادي طرش نصر حصن منتماس من شرقي مالقة، من بيت خير وأصالة، وانتقل سلفه إلى مالقة، فتوشجت لهم بها عروقٌ، وصاهروا إلى بيوتات نبيهة.

حاله

كان من أهل الخير، وكان على طريقة مثلى من الصمت، والسمت، والانقباض، والذكاء، والعدالة والتخصص، محولا في الخير، ظاهر المروءة، معروف الأصالة، خالص الطعمة، كثير العفة، مشهور الوقار والعفاف، تحرف بصناعة التوثيق على انقباض.

دخوله غرناطة: تقدم قاضياً بغرناطة، بعد ولاية القضاء ببلده، وانتقل إليها، وقام بالرسم المضاف إلى ذلك، وهو الإمامة بالمسجد الأعظم منها، والخطابة بجامع قلعتها الحمراء، واستقل بذلك إلى تاسع جمادى الثانية من عام إحدى وأربعين وسبعمائة، على قصور في المعارف، وضعف في الأداة، وكلال في الجد، ولذلك يقول شيخنا أبو البركات بن الحاج:

إن تقديم ابن برطال دعا ... طالب العلم إلى ترك الطلب

حسبوا الأشياء عن أسبابها ... فإذا الأشياء عن غير سبب

إلا إنه أعانه الدربة، والحنكة على تنفيذ الأحكام، فلم تؤثر عنه فيها، أحدوثه، واستظهر بجزالة، أمضت حكمه، وانقباضٍ عافاه عن الهوادة، فرضيت سيرته، واستقامت طريقته.

مشيخته، لقي والده، شيخ القضاة، وبقية المحدثين، وله الرواية العالية، والدرجة الرفيعة، حسبما يأتي في اسمه، ولم يؤخذ عنه شيء فيما أعلم.

شعره

أنشدني الوزير، أبو بكر بن ذي الوزارتين، أبي عبد الله بن الحكيم، قال أنشدني القاضي أبو جعفر بن برطال لنفسه، مودعاً في بعض الأسفار:

أستودع الله من لوداعهم ... قلبي وروحي إذ دنى الوداع

بانوا وطرفي والفؤاد ومقولي ... باكٍ ومسلوب العزاء وداع

فتول يا مولاي حفظهم ولا ... تجعل تفرقنا فراق وداع

وفاته

توفي رحمه الله، وعفا عنه، أيام الطاعون الغريب بمقالة، في منتصف ليلة الجمعة خامس صفر عام خمسين وسبعمائة، وخرجت جنازته في اليون التالي، ليلة وفاته في ركبٍ من الأموات، يناهز الألف، وينيف بمائتين، واستمر ذلك مدة، وكان مولده عام تسعة وثمانين وستمائة، رحمه الله تعالى.

أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي

أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن عميرة المخزومي بلنسي شقوري الأصل يكنى أبا مطرف

أوليته

لم يكن من بيت نباهة، ووقع لابن عبد الملك في ذلك نقل، كان حقه التجافي عنه، لو وفق.

حاله

قال ابن عبد الملك: كان أول طلبه العلم، شديد العناية بشأن الرواية، فأكثر من سماع الحديث، وأخذه عن مشايخ أهله، وتفنن في العلوم، ونظر في العقليات وأصول الفقه، ومال إلى الأدب، فبرع فيه براعة، عد بها من كبار مجيدي النظم. وأما الكتابة، فهو علمها المشهور، وواحدها الذي عجزت عن ثانيه الدهور، ولا سيما في مخاطبة الإخوان، هنالك استولى على أمد الإحسان، وله المطولات المنتخبة، والقصار المقتضبة، وكان يملح كلامه نظماً ونثراً بالإشارة إلى التاريخ، ويودعه إلماعات بالمسائل العلمية منوعة المقصد. قلت: وعلى الجملة، فذات أبي المطرف فيما ينزع إليه، ليست من ذوات الأمثال، فقد كان نسيج وحده، إدراكاً وتفنناً، بصيراً بالعلوم، محدثاً، مكثراً، راوية ثبتاً، سجراً في التاريخ والأخبار، ريان، مضطلعاً بالأصلين، قائماً على العربية واللغة، كلامه كثير الحلاوة والطلاوة، جم العيون، غزير المعاني والمحاسن، وافد أرواح المعاني، شفاف اللفظ، حر المعنى، ثاني بديع الزمان، في شكوى الحرفة، وسوء الحظ، ورنق الكلام، ولطف المأخذ، وتبريز النثر على النظم، والقصور في السلطانيات.

مشيخته

روي عن أبي الخطاب بن واجب، وأبي الربيع بن سالم، وأبي عبد الله بن فرج وأبي على الشلوبين، وأبي عمر بن عات، وأبي محمد بن حوط الله، لقيهم، وقرأ عليهم، وسمع منهم، وأجازوا له، وأجاز له من أهل المشرق أبو الفتوح نصر بن أبي الفرج وغيره.

من روي عنه، روي عنه ابنه القاسم، وأبو بكر بن خطاب، وأبو إسحاق البلقيني الحفيد، والحسن بن طاهر بن الشقوري، وأبو عبد الله البري. وحدث عنه أبو جعفر بن الزبير، وابن شقيف، وابن ربيع، وغيرهم مما يطول ذكره.

نباهته

صحب أبا عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن خطاب، قبل توليته ما تولى من رياسة بلده، وانتفع به كثيراً، وكتب عن الرئيس أبي جميل زيان ابن سعد، وغيره من أمراء شرق الأندلس. ثم انتقل إلى العدوة، واستكتبه الرشيد أبو محمد عبد الواحد بمراكش، مدة يسيرة، ثم صرفه عن الكتابة وولاه قضاء مليانة من نظر مراكش الشرقي، فتولاه قليلا، ثم نقله إلى أقصى رباط الفتح. وتوفي الرشيد، فأقره على ذلك الوالي بعده، أبو الحسن المعتضد أخوه، ثم نقله إلى قضاء مكناسة الزيتون، ثم لما قتل المعتضد لحق بسبتة، وجرى عليه بطريقها ما يذكر في محنته. ثم ركب البحر منها متوجهاً إلى إفريقية، فقدم بجاية على الأمير أبي زكريا يحيى بن الأمير أبي زكريا. ثم توجه إلى تونس فنجحت بها وسائله، وولي قضاء مدينة الأرش. ثم انتقل إلى قابس، وبها طالت مدة ولايته، واستدعاه للمستنصر بالله محمد بن أبي زكريا، ولطف محله منه، حتى كان يحضر مجالس أنسه، وداخله بما قرفته الألسن بسببه حسبما يذكر في وصمته.

مناقبه

وهي الكتابة والشعر، كان يذكر أنه رأى في منامه، النبي صلى الله عليه وسلم، فناوله أقلاماً، فكان يروى له أن تأويل تلك الرؤيا، ما أدرك من التبريز في الكتابة، وشياع الذكر، والله أعلم.

ومن بديع ما صدر عنه، فيما كتب في غرض التورية، قطعة من رسالة، أجاب بها العباس بن أمية، وقد أعلمه باستيلاء الروم على بلنسية، فقال: بالله أي نحو ننحو، أو مسطورٍ نثبت أو نمحو، وقد حذف الأصل والزائد، وذهبت الصلة والعائد، وباب التعجب طال، وحال اليأس لا تخشى الانتقال، وذهبت علامة الرفع، وفقدت نون

الجمع، والمعتل أعدى الصحيح والمثلث أردى الفصيح، وامتنعت الجموع من الصرف، وأمنت زيادتها من الحذف، ومالت قواعد الملة، وصرنا جمع القلة، وظهرت علامة الخفض، وجاء بدل الكل من البعض.

ومن شعره في المقطوعات التي وري فيها بالعلوم قوله:

قد عكفنا على الكتابة حيناً ... وجاءت خطة القضاء تليها

وبكل لم يبق للجهد إلا ... منزلاً نابياً وعيشاً كريهاً

نسبةٌ بدلت ولم تتغير مث ... ل ما يزعم المهندس فيها

وكقوله مما افتتح به رسالة:

يا غائباً سلبتني الأنس غيبته ... فكيف صبري وقد كابدت بينهما

دعواي أنك في قلبي فعارضها ... شوقي إليك فكيف الجمع بينهما

وفي مثل ذلك استفتاح رسالته أيضاً:

إن الكتاب أتى وساحة طرسه ... روحٌ موشي بالبديع مرتع

وله حقوقٌ اضق وقت وجوبها ... ومن الوجوب ضيقٌ وموسعٌ

وفي مثل ذلك في استفتاح رسالة أيضاً:

كبرت بالبشرى أتت وسماعها ... عيدي الذي لشهوده تكبيري

وكذلك الأعياد سنة يومها ... مختصة بزيادة التكبير

وفي أغراض أخر:

بايعونا مودة هي عندي ... كالمرآة بيعها بالخداع

فسأقضي بردها ثم أقضي ... بعدها من مدامعي ألف صاع

وله في معنى آخر:

شرطت عليهم عند تسليم مهجتي ... وعند انعقاد البيع قرباً يواصل

فلما أردت الأخذ بالشرط أعرضوا ... وقالوا يصح البيع والشرط باطل

تصانيفه

له تأليفٌ في كائنة ميرقة، وتغلب الروم عليها، نحى فيه منحى العماد الأصفهاني، في الفتح القدسي، وكتابه في تعقيبه، على فخر الدين بن الخطيب الرازي في كتاب المعالم في أصول الفقه منه، ورده على كمال الدين أبي محمد بن عبد الكريم السماكي في كتابه المسمى بالتبيان في علم البيان، واقتضابه النبيل، في ثورة المريدين، إلى غير ذلك من التعاليق، والمقالات ودون الأستاذ أبو عبد الله ابن هانىء السبتي كتابته وما يتخللها من الشعر في سفرين بديعين أتقن ترتيبهما، وسمي ذلك بغية المستطرف، وغنيه المتطرف من كلام إمام الكتابه ابن عميرة أبي المطرف.

دخوله غرناطة

قال شيخنا أبو الحسن بن الجياب. عمير أخبر بذلك من شيوخه والرجل ممن يركن إليه في أخباره فيما أحقوا على سبيل الرواية والإخبار، من شرق الأندلس، إلى غرناطة، إلى غربها إلى غير ذلك، عند رحلته، وهو الأقرب، وقال: قال المخبر: عهدي به طويلاً، نحيف الجسم، مصفراً، أقنى الأنف، أصيب بمقالة ما أحوج ما كان إليه، وقد استقبل الكبرة، ونازعه سوء الحظ، قال الشيخ أبو الحسن الرعيني، إنه كتب إليه يعلمه بهذه الحادثة عليه، وأن المنهوب من

ماله، يعدله أربعة آلاف دينار عشرية، وكان ورقاً وعيناً وحلياً وذلك أنه لما قتل المعتضد، اغتنم الفطرة، وفصل عن مكناسة، قاصداً سبته، فلقي الرفقة التي كان فيها جمعٌ من بني مرين، سلبوه وكل من كان معه

مولده

بجزيرة شقر وقيل ببلنسية في رمضان اثنتين وثمانين وخمسمائة.

وفاته

توفي بتونس ليلة الجمعة الموفية عشرين ذي الحجة عام ستة وخمسين وستمائة. قال ابن عبد الملك، ووهم ابن الزبير في وفاته، إذ جعلها في حدود الخمسين وستمائة أو بعدها.

أحمد بن عبد الحق الجذلي

أحمد بن عبد الحق بن محمد بن يحيى بن عبد الحق الجذلي من أهل مالقة، يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن عبد الحق

حاله

من صدور أهل العلم والتفنن، في هذا الصقع الأندلسي، نسيج وحده في الوقار والحصافة، والتزام مثلى الطريقة، جم التحصيل، سديد النظر، كثير التخصص، محافظ على الرسم، مقبوض العنان في التطفيف في إيجاب الحقوق لأهلها، قريب إلى الإعتدال في معاملة أبناء جنسه، مقتصد مع ثروته، مؤثر للترتيب، في كافة أمره، متوقد الفكرة مع سكون، لين العريكة مع مضاء، مجموع خصال حميدة مما يفيد التجريب والحنكة، مضطلع بصناعة العربية، حائز قصب السبق فيها، عارف بالفروع والأحكام، مشارك في فنون من أصول، وطب، وأدب، قائم على القراءة، إمام في الوثيقة، حسن الخط، مليح السمة والشيبة عذب الفكاهة، حسن العهد، تام الرجولية.

نباهته

تصدر للاقراء ببلده على وفور أهل العلم، فكان سابق الحلبة، ومناخ الطية، إمتاعاً، وتفنناً، وحسن إلقاء. وتصرف في القضاء ببلش وغيرها من غربي بلده، فحسنت سيرته، واشتهرت طريقته، وحمدت نزاهته. ثم ولي خطة القضاء بمالقة، والنظر في الأحباس بها، على سبيل من الحظوة والنباهة، مرجوعاً إليه في كثير من مهمات بلده، سائمةً وجوه السعادة، ناطقةً ألسن الخاصة والعامة بفضله، جماعة نزاهته، آوياً إلى فضل بيته. واتصلت ولايته إياها إلى هذا العهد، وهي أحد محامد الوالي، طول مدة الولاية، لا سيما القاضي، مما يدل على الصبر، وقلة القدح، وسد أبواب التهم، والله يعينه، ويمتع به بمنه.

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي عبد الله بن بكر، وهو نجيب حلبته، والسهم المصيب من كنانته، لازمه وبه تفقه وانتفع، وتلا القرآن عليه وعلى محمد بن أيوب، وعلى أبي القاسم بن درهم علمي وقتهما في ذلك، وعلى غيرهما، وتعلم الوثيقة على العاقد القاضي أبي القاسم بن العريف. وروي عن الخطيبين المحدثين أبي عثمان ابن عيسى وأبي عبد الله الطنجالي وغيرهما.

دخوله غرناطة

تردد إليها غير ما مرة، منها في أمور عرضت في شئونه الخاصة به، ومنها مع الوفود الجلة، من أهل بلده، تابعاً قبل الولاية، متبوعاً بعدها. ومن شعره قوله في جدول:

ومقارب الشطين أحكم صقله ... كالمشرفي إذا اكتسى بفرنده

فحمائل الديباج منه خمائل ... ومعانقٌ فيها البهار بورده
وقد اخفى طرفٌ له في دوحةٍ ... كالسيف رد ذبابه في غمده
وقوله في شجر نارنج مزهر:
وثمار نارنج ترى أزهارها ... مع ناتىء النارنج في تنضيد
فإذا نظرت إلى تألفها أتت ... كمباسم أومت للثم خدود
وفاته
في زوال يوم الجمعة السابع والعشرين لرجب عام خمسة وستين وسبعمائة.
مولده
ثامن شوال عام ثمانية وتسعين وستمائة.
أحمد بن الصقر الأنصاري الخزرجي
أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن الصقر الأنصاري الخزرجي يكنى أبا العباس، من أهل الثغر الأعلى.
أوليته
من سرقسطة، حيث منازل الأنصار هنالك، انتقل جد أبيه عبد الرحمن بابنه الصغير منها لحدوث بعض الفتن بها إلى بلنسية، فولد له ابنه عبد الرحمن أبو العباس هذا، ثم انتقل أبوه إلى ألمرية، فولد أبو العباس بها، ونقله أبوه إلى سبتة فأقام بها مدة
حاله
كان محدثاً مكثراً ثقةً، ضابطاً، مقرئاً، مجوداً، حافظاً للفقه، ذاكراً للمسائل، عارفاً بأصولها، متقدماً في علم الكلام، عاقداً للشروط، بصيراً بعللها، حاذقاً بالأحكام، كاتباً بليغاً، شاعراً محسناً، أتقن أهل عصره خطا، وأجلهم منزعاً، ما اكتسب قط شيئاً من متاع الدنيا، ولا تلبس بها، مقتنعاً باليسير، راضياً بالدون، مع الهمة العلية، والنفس الأبية، على هذا قطع عمره، وكتب من دواوين العلم ودفاتره، ما لا يحصى كثرة، بجودة، وضبط وحسن خط، وعني به أبوه في صغره، فأسمعه كثيراً من الشروح، وشاركه في بعضهم، نفعه الله.
نباهته
استدعاه أبو عبد الله بن حسون، قاضي مراكش، إلى كتابته، إلى أن صرف، واستقر هو متولى حكمها وأحكامها، والصلاة في مسجدها، ثم ترك الأحكام، واستقر في الإمامة. ولما تصير الأمر إلى الموحدين، ألحقه عبد المؤمن منهم، بجملة طلبة العلم، وتحفا به، وقدمه إلى الأحكام بحضرة مراكش، فقام بها مدة، ثم ولاه قضاء غرناطة، ثم نقله إلى إشبيلية قاضياً بها مع ولي عهده. ولما صار الأمر إلى أبي يعقوب، ألزمه خدمة الخزانة العلمية وكانت عندهم من الخطط التي لا يعين لها إلا كبار أهل العلم وعليهم، وكانت مواهب عبد المؤمن له جزلة، وأعطياتهم مترافهة كثيرة.
مشيخته
قرأ القرآن على أبيه، وأكثر عنه، وأجاز له، وعلى أبي الحسن التطيلي، قال: وهو أول من قرأت عليه.
من روي عنه، روى عنه أبو عبد الله، وأبو خالد يزيد بن يزيد بن رفاعة، وأبو محمد بن محمد بن علي بن وهب القضاعي.
دخوله غرناطة

صحبة القاضي أبو القاسم بن حمزة، ونوه به واستخلفه إذ وليها، وقبض عليه بكلتي يديه، ثم استقضى بها أبو الفضل عياض بن موسى، فاستمسك به، واشتمل عليه، لصحبة كانت بينهما وقرابة، إلى أن صرف عنها أبو الفضل عياض، فانتقل إلى وادي آش، فتولى أحكامها والصلاة بها، ثم عاد إلى غرناطة سنة ست وثلاثين، إلى أن استقضى بغرناطة في دولة أبي محمد بن عبد المؤمن بن علي، فحمدت سيرته، وشكر عدله، وظهرت نزاهته، ودام بها حتى ظن من أهلها.

شعره

وشعره في طريقة الزهد وهي لا ينفذ فيها إلا من قويت عارضته، وتوفرت مادته:

إلهي لك الملك العظيم حقيقةً ... وما للورى مهما منعت نقير

تجافي بنو الدنيا مكاني فسرني ... وما قدر مخلوق جداه حقير

وقالوا فقيرٌ وهم عندي جلالةٌ ... نعم صدقوا إني إليك فقير

وشعره في هذا المعنى كثير، وكله سلس المقادة، دالاً على جودة الطبع. ومن شعره قوله:

إرض العدو بظاهر متصنع ... إن كنت مضطراً إلى استرضائه

كم من فتًى ألقى بوجه باسمٍ ... وجوانحي تتقد من بغضائه

تصانيفه

له تصانيف مفيدة، تدل على إدراكه وإشرافه، كشرحه الشهاب، فإنه أبدع فيه، وكتابه أنوار الأفكار فيمن دخل جزيرة الأندلس من الزهاد والأبرار، ابتدأ تأليفه، وتوفي دون إتمام غرضه فيها، فكمله عبد الله أبنه.

محنته

كان ممن وقعت عليه المحنة العظمى بمراكش يوم دخول الموحدين إياها، يوم السبت لإثني عشر لية بقيت من شوال عام إحدى وأربعين وخمسمائة، على الوجه المشهور في استباحة دماء كل من اشتملت عليه من الذكور البالغين، إلا من تستر بالاختفاء في سرب أو غرفة أو مخبأ. وتمادى القتل فيها ثلاثة أيام، ثم نودي بالعفو عمن أشارته الفتكة الكبرى، فظهر من جميع الخلق بها، ما يناهز السبعين رجلاً، وبيعوا بيع أسارى المشركين، هم وذراريهم، وعفى عنهم، فكان أبو العباس ممن تخطته المنية، واستنقذه من الرق العفو، وحسبك بها محنة، نفعه الله، وضاعت له في ذلك وفي غيره، كتب كثيرة بخطه وبغير خطه، مما تجل عن القيمة.

مولده

بألمرية في أواخر شهر ربيع سنة اثنين وخمسمائة

وفاته

توفي بمراكش بين صلاة الظهر والعصر، في يوم الأحد لثمان خلون من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة. ودفن يوم الإثنين بعده عقب صلاة الظهر، وصلى عليه القاضي أبو يوسف حجاج، وكانت جنازته عظيمة المحفل، كثيرة الجمع، برز إليها الرجال والنساء، ورفعوا نعشه على الأيدي. رحمه الله.

ومما رثاه به جاره وصديقه أبو بكر بن الطفيل وهو بإشبيلية، بعث بها إلى ابنه مع كتاب في غرض العزاء:

لأمرٍ ما تغيرت الدهور ... وأظلمت الكواكب والبدور

وطال على العيون الليل حتى ... كأن النجم فيه لا يغور

أحمد بن أبي القاسم بن القباب

أحمد بن أبي القاسم بن عبد الرحمن، يعرف بابن القباب من أهل فاس، ويكنى أبا العباس.

حاله

هذا الرجل، صدر عدول الحضرة الفاسية، وناهض عشهم، طالب، فقيه، نبيه، مدرك، جيد النظر، سديد الفهم، حضر الدرس بين يدي السلطان، وولي القضاء بجبل الفتح، متصفاً فيه بجزالة وانتهاض. تعرفت به بمدينة فاس، فأعجبتني سيمته، ووصل مدينة سلا في غرض اختبار واستطلاع الأحوال السلطانية، واستدعيته فاعتذر ببعض ما يقبل، فخاطبته بقولي:

أبيتم دعوتي إما لشأوٍ ... وتأبي لومه مثلى الطريقة

وبالمختار للناس اقتداء ... وقد حضر الوليمة والعقيقة

وغير غريبةٍ أن رق حرٌ ... على من حاله مثلى رقيقة

وإما زاجر الورع اقتضاها ... ويأبى ذاك دكان الوثيقة

وغشيان المنازل لاختبارٍ ... يطالب بالجليلة والدقيقة

شكرت مخيلة كانت مجازاً ... لكم وحصلت بعد على الحقيقة

وتفرع الكلام على قولي: ويأبى ذاك دكان الوثيقة، بما دعي إلى بيانه بتصنيفي فيه الكتاب المسمى بمثلى الطريقة في ذم الوثيقة.

دخوله غرناطة

في عام اثنين وستين وسبعمائة، موجهاً من قبل سلطان المغرب أبي سالم بن أبي الحسن لمباشرة صدقة عهد بها لبعض الربط، وهو إلى الآن، عدلٌ بمدينة فاس، بحال تجلة وشهرة. ثم تعرفت أنه نسك ورفض العيش من الشهادة ككثير من الفضلاء.

أحمد بن إبراهيم بن كعب الثقفي

أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم بن الحسن ابن الحسين بن الزبير بن عاصم بن مسلم بن كعب الثقفي يكنى أبا جعفر

أوليته

كعبٌ الذي ذكر، هو كعب بن مالك بن علقمة بن حباب بن مسلم بن عدي ابن مرة بن عوف بن ثقيف، أصله من مدينة جيان منزل قنسرين، من العرب الداخلين إلى الأندلس، ونسبه بها كبير، وحسبه أصيل، وثروته معروفة. خرج به أبوه عند تغلب العدو عليها عام ثلاثة وأربعين وستمائة، ولأبيه إذ ذاك إثراء وجدة أعانته على طلب العلم، وإرفاد من أحوجته الأزمة في ذلك الزمان من جالية العلماء عن قرطبة وإشبيلية كأبي الحسن الصائغ وغيره، فنصحوا له، وحطبوا في حبله.

حاله

كان خاتمة المحدثين، وصدور العلماء والمقرئين، نسيج وحده، في حسن التعليم، والصبر على التسميع، والملازمة للتدريس، لم تختل له، مع تخطي الثمانين، ولا لحقته سآمة، كثير الخشوع والخشية، مسترسل العبرة، صليباً في الحق شديداً على أهل البدع، ملازماً للسنة، جزلا، مهيباً، معظماً عند الخاصة والعامة عذب الفكاهة، طيب المجالسة،

حلو النادرة، يؤثر عنه في ذلك حكايات، لا تخل بوقار، ولا تحل بجلال منصب.
فنونه، إليه انتهت الرياسة بالأندلس في صناعة العربية، وتجويد القرآن، ورواية الحديث، إلى المشاركة في الفقه، والقيام على التفسير، والخوض في الأصلين.
مشيخته، أخذ عن الجلة المقرئين، كالمقرى أبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن مستقور الغرناطي الطائي.
نباهته وخططه

ولي قضاء المناكح، والخطبة بالحضرة، وبلغ من الشهرة والإشادة بذكره، ما لم يبلغه سواه.
تصانيفه
من تأليفه كتاب صلة الصلة لابن بشكوال التي وصلتها بعده، وسميت كتابي بعائد الصلة، وافتتحت أول الأسماء فيه باسمه، وكتاب ملاك التأويل، في المتشابه اللفظ في التنزيل غريبٌ في معناه، والبرهان في ترتيب سور القرآن وشرح الإشارة للباجي في الأصول، وسبيل الرشاد في فضل الجهاد، وردع الجاهل عن اغتياب المجاهل، في الرد على الشودية، وهو كتاب جليل ينبى عن التفنن والأضطلاع، وكتاب الزمان والمكان، وهو وصمةٌ، تجاوز الله عنه.
شعره
وشعره مختلف عن نمط الإجادة، مما حقه أن يثبت أو ثبت في كتاب شيخنا أبي البركات المسمى شعر من لا شعر له مما رواه، ممن ليس الشعر له بضاعة، من الأشياخ الذي عد صدر عنهم هو. فمن شعره:
مالي وللتسئال لا أم لي ... إن سألت من يعزل أو من يلي
حسبي ذنوبٌ أثقلت كاهلي ... ما إن أرى إظلامها ينجلي
يا رب عفواً إنها جمةٌ ... إن لم يكن عفوك لا أم لي
محنته
نشأت بينه وبين المتغلب بمالقة من الرؤساء التجيبيين من بني إشقيلولة، وحشة أكدتها سعاية بعض من استهواهم رجلٌ ممخرق من بني الشعوذة، ومنتحلي الكرامة، يمتطيها زعموا إلى النبوة، يعرف بالفزاري، واسمه إبراهيم، غري المنزع، فذ المآخذ، أعجوبة من أعاجيب الفتن، يخبر بالقضايا المستقبلة، ويتسور سور حمى العادة في التطور، من التقشف والخلابة، تبعه ثاغية وراغية، من العوام الصم البكم، مستفزين فيه حياته، وبعد زمن، من مقتله، على يد الأستاذ بغرناطة، قرعه بحقه، وبادره بتعجيل نكيره، فاستغاث بمفتونه الرئيس، ظهير محاله فاستعصى له، وبلغ الأستاذ النياحة، ففر لوجهه، وكبس منزله لحينه، فاستولت الأيدي على ذخائر كتبه، وفوائد تقييده عن شيوخه، على ما طالت له الحسرة، وجلت فيه الرزية، ولحق بغرناطة آوياً إلى كنف سلطانها الأمير أبي عبد الله بن الأمير الغالب بالله بن نصر، فأكرم مثواه، وعرف حقه، وانثال عليه الجم الغفير لالتماس الأخذ عنه، إلى أن نالته لديه سعاية، بسبب جارٍ له، من صلحاء القرابة النصرية، كان ينتابه لنسبة الخيرية، نميت عنه في باب تفضيله، واستهالت للأمر كلمة، أوجبت امتحانه وتخلل تلك الألقية من الشك، ما قصر المحنة على إخراجه من منزله. المجاور لذلك المتهم به، ومنعه من التصرف، والتزامه قعر منزل، انتقل إليه بحال اعتزال من الناس، محجوراً عليه مداخلتهم، فمكث على ذلك زماناً طويلاً، إلى أن سريت عنه النكبة، وأقشعت الموجدة، فتخلص من سرارها بدره، وأقل من شكاتها جاهه، وأحسنت أثرها حاله، وكثر ملتمسه، وعظمت في العالم غاشيته، فدون واستمع، وروى ودرب، وخرج وأدب وعلم، وحلق وجهر، وكانت له الطايلة على عدوه، والعاقبة للحسنى، بعد ثبات أمره، والظفر بكثير من منتهب كتبه. وآلت الدولة للأمير أبي عبد الله نصر بمالقة، فطالب الفزاري المذكور، واستظهر بالشهادات عليه،

وبالغ في دحض دعوته، إلى أن قتل على يده بغرناطة.

حدثنا شيخنا أبوالحسن بن الجياب، قال: لما أمر بالتأهب للقتل وهو في السجن الذي أخرج منه إلى مصرعه، جهر بتلاوة ياسين، فقال له أحد الذعرة، ممن جمع السجن بينهم، اقرأ قرآنك، على أي شيء تتطفل على قرآننا اليوم أو ما هو معناه. فتركها مثلاً للوذعيته.

مولده

ببلده جيان في أواخر عام سبع وعشرين وستمائه

وتوفي بغرناطة في الثامن لشهر ربيع الأول عام ثمانية وسبعمائة. وكانت جنازته جنازة بالغةً أقصى مبالغ الإحتفال، نفر لها الناس من كل أوب، واحتمل طلبه العلم نعشه على رؤوسهم، إلى جدثه، وتبعه ثناء جميل، وجزع كبير، رحمه الله.

ورثاه طائفة من طلبته، وممن أخذ عنه منهم، القاضي أبو جعفر بن أبي حبل في قصيدة أولها:

عزيزٌ على الإسلام والعلم ماجدٌ ... فكيف لعيني أن يلم بها الكرا

وما لمآقي لا تفيض شئونها ... نجيعاً على قدر المصيبة أحمرا

فوالله ما تقضي المدامع بعض ما ... يحق ولو كانت سيولا وأبحرا

حقيقٌ لعمري أن تفيض نفوسنا ... وفرضٌ على الأكباد أن تتفطرا

أحمد بن عبد الوالي بن أحمد الرعيني

يكنى أبا جعفر، ويعرف بالعواد، صنعةٌ لأبيه الكاتب الصالح

حاله

هو من بيت تصاون، وعفاف، ودين، والتزام السنة، كانوا في غرناطة في الأشعار، وتجويد القرآن، والامتياز بحمله، وعكوفهم عليه، نظراء بني عظيمة بإشبيلية، وبني الباذش بغرناطة، وكان أبو جعفر هذا، المترجم له ممن تطوى عليه الخناصر، معرفةً بكتاب الله، وتحقيقاً لحقه، واتقاناً لتجويده، ومثابرةً على تعليمه، ونصحا في إفادته، على سنن الصالحين، انقباضاً عن الناس، وإعراضاً عن ذوي الوجاهة، سنياً في قوله وفعله، خاصياً في جميع أحواله، مخشوشناً في ملبسه، طويل الصمت إلا في دست تعليمه، مقتصراً في مكسبه، متقياً لدينه، محافظاً على أواده. سأل منه رجل يوماً كتب رقعة، ففهم من أمره، فقال يا هذا والله ما كتبت قط يميني إلا كتاب الله، فأحب أن ألقاه على سجيتي بتوفيقه إن شاء الله وتسديده.

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، والأستاذ أبي جعفر الحزموني الكفيف، وأبي عبد الله بن رشيد وغيرهم.

وفاته

توفي في شهر ذي الحجة من عام خمسين وسبعمائة، ودفن بجبانة باب الفخارين في أسفل السفح تجاه القصور الحكمية، وأتبعه الناس أحسن الثناء.

أحمد بن علي بن خلف الأنصاري

أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري من أهل غرناطة، يكنى أبا جعفر، ويعرف بتابن الباذش أوليته، أصله من جيان من بيت خيرية، وتصون

حاله

قال القاضي أبو محمد بن عطية، إمامٌ في المقرئين، ومقدم في جهابذة الأستاذين، راويةٌ، مكثر، متفنن في علوم القراءة، مستبحر، عارف بالأدب والإعراب، بصير بالأسانيد، نقاد لها، مميزٌ لشاذها من معروفها. قال ابن الزبير، وما علمت فيما انتهى إليه نظري وعلمي، أحسن انقياداً لطرق القراءة، ولا أجل اختياراً منه، لا يكاد أحد من اهل زمانه، ولا ممن أتى بعده أن يبلغ درجته في ذلك.

مشيخته

تفقه بأبيه الإمام أبي الحسن، وأكثر الرواية عنه، واستوفى ما كان عنده، وشاركه في كثير من شيوخه. أخذ القراءات عرضاً عن الإمام المقري أبي القاسم ابن خلف بن النحاس، رحل إلى قرطبة ولازمه، وعلى المقرى أبي جعفر هاييل بن محمد الحلاسي، وأبي بكر بن عياش بن خلف المقري، وابي الحسن بن زكريا، وأبي الحسن شريح بن محمد، وأبي محمد عبد الله بن أحمد الهمداني الجياني رحل إليه إلى جيان، وتلا على جميع من ذكر، وروي بالقراءة والسماع والإجازة على عالمٍ كثير، كأبي داود وأبي الحسن بن أخي الرش المقرئين، أجازا له، وأبي علي الغساني في الإمامة والإتقان، وقد أسمع عليه، وأبي القاسم خلف ابن صواب المقري، وأبي عامر محمد بن حبيب الجياني، وأبي عبد الله محمد بن أحمد التجيبي الشهير، وأبي محمد بن السيد، وأبي الحسن بن الأخضر، وأبي محمد عبد الله بن أبي جعفر الحافظ، وعالمٍ كثير غير هؤلاء يطول ذكرهم.

من روي عنه: روي عنه أبو محمد عبد الله، وأبو خالد بن رفاعة، وأبو علي القلعي المعدي وأبو جعفر بن حكم، وأبو الحسن بن الضحاك، وابنه أبو محمد عبد المنعم، وهو آخر من حدث عنه.

تصانيفه

ألف كتاب الإقناع في القراءات، لم يؤلف في بابه مثله، وألف كتاب الطرق المتداولة في القراءات، وأتقنه كل الإتقان، وحرر أسانيده وأتقنها، وانتقى لهان ولم يتسع عمره لفرش حروفهم وخلافهم من تلك الطرق. وألف غير ما ذكر.

مولده

في ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وأربعمائة

وفاته، توفي ثاني جمادى الآخرة سنة أربعين وخمسمائة، وكان عمره تسعاً وأربعين سنة.

أحمد بن عبد النور بن أحمد بن راشد

يكنى أبا جعفر، من أهل مالقة، ويعرف بيته بها ببني راشد، قال شيخنا أبو البركات: نقلت اسم هذا من خطه، ولا نعلم له نسباً إذ لم يكتبه، وشهر بابن عبد النور.

حاله

كان قيماً على العربية إذ كانت جل بضاعته، يشارك مع ذلك في المنطق، على رأي الأقدمين، وعروض الشعر، وفرايض العبادات من الفقه، وقرض الشعر، وكان له اعتناء بفك المعمي، والتنقير عن اللغوز. وكان ذكي الصوت عند قراءة القرآن، خاشعاً به. رحل من بلده مالقة إلىة سبتة، ثم انتقل إلى الأندلس وأقرأ بوادي آش مدة، وتردد

بين إلمرية وبرجة، يقرىء بها القرآن، وغير ذلك مما كان يشارك فيه. وناب عن بعض القضاة وقتاً، ودخل غرناطة أثناء هذا السفر.

مشيخته

قال: أخذ القرآن قراءةً على طريقة أبي عمرو الداني، على الخطيب أبي الحسن الحجاج بن أبي ريحانة المربلي، ولا يعلم له في بلده شيخ سواه، إذا لم يكن له اعتناء بلقاء الشيوخ، والحمل عنهم، ومن علمي أنه لقي أبا الحسن ابن الأخضر المقري العروضي بسبتة، وذاكره في العروض، ولا أعلم هل أخذ عنه أم لا. ورأيت في تقاييدي أن القاضي أبا عبد الله بن برطال حدثني أن ابن النور قرأ معه الجزولية على ابن مفرج المالقي تفقهاً، وقيد عليه تقييداً عرضه بعد ذلك، على ابن مفرج هذا، وهو محمد بن يحيى بن علي بن مفرج المالقي. وروي عن أبي الحجاج المتقدم الذكر تيسير أبي عمرو الداني، وجمل الزجاجي، وأشعار الستة، وفصيح أحمد بن يحيى بن ثعلب، وقفت في ذلك على رق أجاز فيه بعض الآخذين عنه، ولم ينص فيه على كيفية أخذه لهذا الكتيب عن أبي الحجاج. قال: ورأيت في ذلك الرق أوهاماً، تدل على عدم شعوره بهذا الباب جملة، وقبول التلقين فيها، فلا ينبغي أن يركن إلى مثله فيه. ورأيت بخط بعض أصحابه، أنه تفقه على أبي ريحانة، ولعل ذلك في صغره قبل أن يتحكم طلبه ويتفنن، إذ الفنون التي كان يأخذ منها لم يكن أبو ريحانة، ملياً بها، ولا منسوباً إليها.

تصانيفه

منها كتاب الحلية في ذكر البسملة والتصلية. وكتاب رصف المباني في حروف المعاني، وهو أجل ما صنف، ومما يدل عى تقدمه في العربية. وجزءٌ في العروض، وجزءٌ في شواذه، وكتابٌ في شرح الكوامل لأبي موسى الجزولي، يكون نحو الموطأ في الجرم، وكتاب شرح مغرب أبي عبد الله بن هشام الفهري المعروف بابن الشواش، ولم يتم، انتهى فيه إلى همزة الوصل، يكون نحو الإيضاح لأبي علي. وله تقييدٌ على الجمل غير تام.

شعره

قال: وشعره وسطٌ، بعيدٌ عن طرفي الغث، والثمين أبعد، وكان لا يعتني فيه ولا يتكلفه، ولا يقصد قصده، وإن ذلك لعذر في عدم الإجادة. قال الشيخ، ولدي جزءٌ منه تصفحته على أن أستجيد منه شيئاً أثبته له في هذا التعريف، فرأيته بعضه أشبه ببعض من الغرابة، فكتبت من ذلك، لا مؤثراً له على سواه من شعره، بل لمرجح كونه أول خاطر بالبال، ومتلمح خطه بالبصر، فمن ذلك قوله من قصيدة، ومن خطه نقلت:

محاسن من أهوى يضيق لها الشرح ... له الهمة العلياء والخلق السمح
له بهجةٌ يغني البصائر نورها ... وتعشي بها الأبصار إن غلس الصبح
إذا ما رنى فاللحظ سهمٌ مفوقٌ ... وفي كل عضو من إصابته جرح
إذ ما انثني زهواً وولي تبختراً ... يغار لذاك القد من لينه الرمح
وإن نفحت أزهاره عند روضةٍ ... فيخجل ريا زهرها ذلك النفح
هو الزمن المأمول عند ابتهاجه ... فلمته ليلٌ وغرته صبح
لقد خامرت نفسي مدامة حبه ... فقلبي من سكر المدامة لا يصح
وقد هام قلبي في هواه فبرحت ... بأسراره عينٌ لمدمعها سبح

غفلته ونوكه: كان هذا الرجل من البله في أسباب الدنيا، له في ذلك حكايات دائرة على ألسنة الثقاة من الملازمين له وغيرهم، لولا تواترها لم يصدق أحد بها، تشبه ما يحكى عن أبي علي الشلوبين. منها أنه اشترى فضلة ملف فبلها،

فانتقصت كما يجري في ذلك، فذرعها بعد البل فوجدها تنقصت، فطلب بذلك بائع الملف، فأخذ يبين له سبب ذلك فلم يفهم. ومنها أنه سار إلى بعض بساتين ألمرية مع جماعة من الطلبة واستصحبوا أرزاً ولبناً، فطلبوا قدراً لطبخه، فلم يجدوا، فقال اطبخوا في هذا القدر، وأشار إلى قدر بها بقية زفت مما يطلي به السواني عندهم فقالوا له: وكيف يسوغ الطبخ بها، ولو طبخ بها شيء مما تأكله البهائم لعافته، فكيف الأرز باللبن، فقال لهم، اغسلوا معائدكم، وحينئذ تدخلون فيها الطعام، فلم يدروا مما يعجبون، هل من طيب نفسه بأكله مما يطبخ في تلك القدر، أم من قياسه المعدة عليها. ومنها أنهم حاولوا طبخ لحمٍ مرة أخرى في بعض النزه فذاق، الطعام من الملح بالمغرفة، فوجده محتاجاً للملح، فجعل فيه ملحاً وذاقه على الفور، قبل أن ينحل الملح ويسري في المرقة الأولى، فزاد ملحاً إلى أن جعل فيه قدر ما يرجح اللحم، فلم يقدروا على أكله. ومنها أنه أدخل يده في مفجر صهريج فصادفت يده ضفدعاً كبيراً، فقال لأصحابه تعالوا إن هنا حجراً رطباً. ومنها أنه استعار يوماً من القائد أبي الحسن بن كماشة، جواداً ملوكياً، قرطاسي اللون، من مراكب الأمراء، فقال وجه لي تلك الدابة، فتخيل أنه يريد الركوب إلى بعض المواضع، ثم تفطن لغفلته، وقال: أي شيء تصنع به، قال: أجعله يسني شيئاً يسيراً في السانية، فقال: تقضي الحاجة إن شاء الله بغيره، ووجه له حماراً برسم السانية وهو لا يشعر بشيء من ذلك كله.

قلت، وفي موجودات الله تعالى عبرٌ، وأغربها عالم الإنسان، لما جبلوا عليه، من الأهواء المختلفة، والطباع المشتتة، والقصور عن فهم أقرب الأشياء، مع الإحاطة بالغوامض.

حدثنا غير واحد، منهم عمي أبو القاسم، وابن الزبير، إذناً في الجملة، قالا: حدثنا أبو الحسن بن سراج عن أبي القاسم بن بشكوال، أن الفقيه، صاحب الوثائق أبا عمر بن الهندي، خاصم يوماً عند صاحب الشرطة والصلاة، إبراهيم ابن محمد، فنكل وعجز عن حجته، فقال له الشرطي: ما أعجب أمرك أبا عمر أنت ذكي لغيرك، بكيٌّ في أمرك، فقال أبو عمر: كذلك يبين الله آياته للناس. ثم أنشد متمثلاً:

صرت كأني ذبالة نصبت ... تضيء للناس وهي تحترق

قال، وحدثني الشيخ أبو العباس بن الكاتب ببجاية، وهو آخر من كتبنا معه الحديث من أصحاب ابن العمار، قال: كنت آويا إلى أبي الحسن حازم القرطجاني بتونس، وكنت أحسن الخياطة، فقال لي: إن المستنصر خلع علي جبة جربية من لباسه، وتفصيلها ليس من تفصيل أثوابنا بشرق الأندلس، وأريد أن تحل أكمامها، وتصيرها مثل ملابسنا. فقلت له: وكيف يكون العمل، فقال: تحل رأس الكم، ويوضع الضيق بالأعلى، والواسع بالطرف. فقلت: وبم يحير الأعلى، فإنه إذا وضع في موضع واسع، سطت علينا فرج ما عندنا، ما يصنع فيها إلا أن رقعنا بغيرها، فلم يفهم. فلما يئست منه تركته وانصرفت. فأين هذا الذهن الذي صنع المقصورة وغيرها من عجائب كلامه.

مولده

في رمضان من عام ثلاثين وستمائة

وفاته

توفي بألمرية يوم الثلاثاء السابع والعشرين لربيع الآخر من عام اثنين وسبعمائة ودفن بخارج باب بجاية بمقبرة من تربة الشيخ الزاهد أبي العباس بن مكنون.

أحمد بن محمد بن مصادف

أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن محمد ابن مصادف بن عبد الله يكنى أبا جعفر ويعرف بابن مصادف، من أهل بسطة، واستوطن غرناطة، وقرأ وأقرأ بها.

حاله

من أهل الطلب والسلاطة والاجتهاد، وممن يقصر محصله عن مدى اجتهاده، خلوب اللسان، غريب الشكل، وحشيه، شتيت الشعر معفيه، شديد الاقتحام والتسور، قادر على اللصوق بالأشراف. رمي بنفسه على مشيخة الوقت يطرقههم طروق الأمراض الوافدة، حتى استوعب الأخذ عن أكثرهم، يفك عن فايدته فك المتبرم، وينتزعها بواسطة الحيا، ويسلط على قنصها جوارح التبذل والإطراء، إلى أن ارتسم في المقريين بغرناطة، محولاً عليه بالنحب والملق، وسد الترتيب المدني، ولوثة تعتاده في باب الركوب والثقافة، وهو لا يستطيع أن يستقر بين دفتي السرج، ولا يفرق بين مبسوط الكف، أخذ نفسه في فنون، من قرآن، وعربية، وتفسير، وامتحن مرات لجرأ حركة القلقة الذي لا يملك عنانه، ثم تخلص من ذلك، وهو على حاله إلى الآن.

مشيخته

قرأ على الخطيب ببسطة، وأبي الأصبغ بن عامر، والخطيبين بها أبي عبد الله وأبي إسحاق ابن عمه، وأبي عبد الله بن جابر، وعلى أبي عثمان بن ليون بالمرية، والخطيب أبي عبد الله بن الغربي بحمة، وتلا القرآن بقراءاته السبع على شيخنا أبي عبد الله بن الوالي العواد، وروي عن شيخنا أبي الحسن بن الجياب. وعلى الحاج أبي الحجاج الساحلي فكتب الإقراء، وأخذ الفقه عن الأستاذ أبي عبد الله البياني. وقرأ على قاضي الجماعة أبي القاسم البياني، وقرأ على قاضي الجماعة أبي القاسم الحسني، ولازم أستاذ الجماعة أبا عبد الله الفخار، وقرأ عليه العربية، وصاهره على بنته الأستاذ المذكور، وانتفع به، إلى أن ساء ما بينهما عند وفاة الشيخ فرماه بترمية يبضاء تخلقها، مثيرة عجبٍ، مرة. وحاله متصلة على ذلك، وقد ناهز الاكتهال.

أحمد بن حسن بن باصة الأسلمي

المؤقت بالمسجد الأعظم بغرناطة أصله من شرق الأندلس، وانتقل إليها والده، يكنى أبا جعفر.

حاله

كان نسيج وحده، وقريع دهره، معرفة بالهيئة، وإحكاماً للآلة الفلكية، ينحت منها بيده ذخائر، يقف عندها النظر والخبر، جمال خط، واستواء صنعة، وصحة وضع، بلغ في ذلك درجة عالية، ونال غاية بعيدة، حتى فضل بما ينسب إلأيه من ذلك كثيراً من الأعلام المتقدمين، وأزرت آلاته بالحمايريات والصفاريات وغيرها من آلات المحكمين، وتغالي الناس في أثمانها، اخذ ذلك عن والده الشيخ المتفنن شيخ الجماعة في هذا الفن.

وفاته

في عام تسع وسبعمائة.

الحبالي

أحمد بن محمد بن يوسف الأنصاري من أهل غرناطة، يكنى أبا جعفر، ويعرف بالحبالي.

حاله

عكف صدراً من زمانه منتظماً في العدول، آوياً إلى تخصيص وسكون ودمائة، وحسن معاملة، له بصر بالمساحة والحساب، وله بصر بصناعة التعديل وجداول الأبراج، وتدرب في أحكام النجوم، مقصودٌ في العلاج بالرقا

والعزايم، من أولي المس والخبال، تعلق بسبب هذه المتحلات بأذيال الدول، وانبت من شيمته الأولى، فنال استعمالا في الشهادات المخزنية، وخبر منه أيام قربه من مبادىء الأمور والنواهي، ومداخلة السلطان، صمتٌ، وعقلٌ، واقتصارٌ على معاناة ما امتحن به، وهو الآن بقيد الحياة.

مشيخته

أخذ تلك الصناعة عن الشيخ أبي عبد الله الفخار المعروف بأبي خزيمة، أحد البواقع الموسومين بصحة الحكم فيها، وعلى أبي زيد بن مثنى، وقرأ الطب على شيخنا أبي زكريا هذيل رحمه الله، ونسب إليه عند الحادثة على الدولة وانتقالها إلى يد المتغلب، اختيار وقت الثورة وضمان تمام الأمر، وشهد بذلك بخطٍ، وغيب من إيثارها، فلما عاد إلى السلطان المزعج بسببها إلى العدوة، أوقع به نكيراً كثيراً، وضربه بالسياط التي لم يخلصه منها إلا أجله، وأجلاه إلى تونس في جملة المغربين في أواخر عام ثلاثة وستين وسبعمائة.

وأخبرني السلطان المذكور أن المترجم به كتب إليه بمدينة فاس، قبل شروعه في الوجهة، يخبره بعودة الملك إليه، وبإيقاعه المكروه الكبير به، بما شهد بمهارته في الصنعة، إن صح ذلك كله من قوانينها، نسأل الله أن يضفي علينا لبوس ستره، ويقينا شر عثرات الألسن بمنه.

أحمد بن محمد الكرني

من أهل غرناطة

حاله

شيخ الأطباء بغرناطة على عهده، وطبيب الدار السلطانية. كان نسيج وحده، في الوقار والنزاهة، وحسن السمت، والتزام مثلى الطريقة، واعتزاز الصنعة، قائماً على صناعة الطب، مقرئاً لها، ذاكراً لنصوصها، موفقاً في العلاج، مقصوداً فيه، كثير الأمل والمثاب، مكبوح العنان عما تثبت به أصول صناعته من علم الطبيعة، سنياً، مقتصراً على المداواة، أخذ عن الأستاذ أبي عبد الله الرقوطي، ونازعه بالباب السلطاني، لما شد، واحتيج إلى ما لديه في حكم بعض الأموال المعروضة على الأطباء، منازعةً أوجبت من شيخه يميناً أن لا يحضر معه بمكان، فلم يجتمعا بباب السلطان بعد، مع التمسك بما لديهما، وأخذ عن ابن عروس وغيره، وأخذ عنه جملةٌ من شيوخنا كالطبيب أبي عبد الله بن سالم، والطبيب أبي عبد الله بن سراج وغيرهما.

حدثني والدي بكثير من أخباره في الوقار وحسن الترتيب، قال، كنت آنس به، ويعجبني استقصاؤه أقوال أهل هذا الفن من صنعته، على مشهوره، فلقد عرض عليه، لعليل لنا، بعض ما يخرج، وفيه حية، فقال على فتور، وسكونة، ووقار كثير: هذا العليل يتخلص، فقد قال الرئيس ابن سينا في أرجوزته:

إن خرج الخلط مع الحيات ... في يوم بحران فعن حياة

وهذا اليوم من أيام البحرانية، فكان كما قال.

وفاته

كان حياً سنة تسعين وستمائة.

أحمد بن محمد بن أبي الخليل مفرج

الأموي

مولاهم من أهل إشبيلية، يكنى أبا العباس، وكناه ابن فرتون أبا جعفر وتفرد بذلك، يعرف بالعشاب، وابن الرومية، وهي أشهرهما وألصقهما به.

أوليته

قال القاضي أبو عبد الله، كان والد جده أطباء قرطبة، وكان قد تبناه، وعن مولاه أخذ علم النبات.

حاله

كان نسيج وحده، وفريد دهره، وغرة جنسه، إماماً في الحديث، حافظاً ناقداً، ذاكراً تواريخ المحدثين، وأنسابهم ومواليدهم ووفاتهم، وتعديلهم، وتجريحهم، عجيبة نوع الإنسان في عصره، وما قبله، وما بعده، في معرفة علم النبات، وتمييز العشب، وتحليتها، وإثبات أعيانها، على اختلاف أطوار منابتها، بمشرق أو مغرب حساً، ومشاهدةً وتحقيقاً، لا مدافع له في ذلك، ولا منازع، حجةٌ لا ترد ولا تدفع، إليه يسلم في ذلك ويرجع. قام على الصنعتين، لوجود القدر المشترك بينهما، وهما الحديث والنبات، إذ موادهما الرحلة والتقييد، وتصحيح الأصول وتحقيق المشكلات اللفظية، وحفظ الأديان والأبدان، وغير ذلك. وكان زاهداً في الدنيا، مؤثراً بما في يديه منها، موسعاً عليه في معيشته، كثير الكتب، جماعاً لها، في كل فن من فنون العلم، سمحاً لطلبه العلم، ربما وهب منها لمتلمسه الأصل النفيس، الذي يعز وجوده احتساباً وإعانةً على التعليم، له في ذلك أخبار منبئة عن فضله، وكرم صنعه، وكان كثير الشغف بالعلم، والدؤوب على تقييده، ومداومته سهر الليل من أجله، مع استغراق أوقاته، وحاجات الناس إليه، إذ كان حسن العلاج في طبه المورود، الموضوع، لثقته ودينه.

قال ابن عبد الملك، إمام المغرب قاطبة فيما كان سبيله، جال الأندلس، ومغرب العدوة، ورحل إلى المشرق، فاستوعب المشهور من إفريقية، ومصره، وشامه، وعراقه، وحجازه، وعاين الكثير مما ليس بالمغرب، وعاوض كثيراً فيها، كل ما أمكنه، بمن يشهد له الفضل في معرفته، ولم يزل باحثاً على حقائقه، كاشفاً عن غوامضه، حتى وقف منه على ما لم يقف عليه غيره، ممن تقدم في الملة الإسلامية، فصار واحد عصره فرداً، لا يجاريه فيه أحد بإجماع من أهل ذلك الشأن.

مذاهبه

كان سنياً ظاهري المذهب، منحياً على أهل الرأي، شديد التعصب لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، على دين متين، وصلاح تام، وورع شديد، انتشرت عنه تصانيف أبي محمد بن حزم، واستنسخها، وأظهرها، واعتنى بها، وأنفق عليها أموالاً جمة، حتى استوعبها جملة، حتى لم يشذ له منها إلا ما لا خطر، منقدماً ومقتدراً على ذلك بجدته ويساره، بعد أن تفقه طويلاً على أبي الحسن محمد بن أحمد بن زرقون في مذهب مالك.

مشيخته

البحر الذي لا نهاية له: روي بالأندلس عن أبي إسحاق الدمشقي، وأبي عبد الله اليابري، وأبي البركات بن داود، وأبي بكر بن طلحة، وأبي عبد الله ابن الحر، وابن العربي، وأبي علي الحافظ، وأبي زكريا بن مرزوق، وابن يوسف، وابن ميمون الشريشي، وأبي الحسن بن زرقون، وأبي ذر مصعب، وأبي العباس ابن سيد الناس، وأبي القاسم البراق، وابن جمهور، وأبي محمد بن محمد بن الجنان، وعبد المنعم بن فرس، وأبي الوليد بن عفير، قرأ عليهم وسمع. وكتب إليه مجيزاً من أهل الأندلس والمغرب، أبو البقاء بن قديم، وأبو جعفر حكم الجفار، وأبو الحسن الشقوري، وأبو سليمان بن حوط الله، وأبو زكريا الدمشقي، وأبو عبد الله الأندرشي، وأبو القاسم بن سمجون، وأبو محمد الحجري. ومن اهل المشرق جملةٌ، منهم أبو عبد الله الحمداني بن إسماعيل بن أبي صيف، وأبو الحسن الحويكر نزيل مكة.

وتأدي إليه أذن طائفة من البغداديين والعراقيين له في الرواية، منهم ظفر بن محمد، وعبد الرحمن بن المبارك، وعلي بن محمد اليزيدي، وفناخسرو فيروز بن سعيد، وابن سنية، ومحمد بن نصر الصيدلاني، وابن تيمية.
وابن عبد الرحمن الفارسي، وابن الفضل المؤذن، وابن عمر بن الفخار، ومسعود بن محمد بن حسان المنيغي، ومنصور بن عبد المنعم الصاعدي، وابن هوازن القشيري، وأبو الحسن النيسابوري.
وحج سنة اثني عشر وستمائة، فأدى الفريضة ثلاثة عشر، ولقب بالمشرق بحب الدين. وأقام في رحلته نحو ثلاثة أعوام، لقي فيها من الأعلام العلماء، أكابر جملة، فمنهم ببجاية أبو الحسن بن نصر، وأبو محمد بن مكي، وبتونس أبو محمد المرجاني، وبالإسكندرية أبو الأصبغ بن عبد العزيز، وأبو الحسن بن جبير الأندلس، وأبو الفضل بن جعفر بن أبي الحسن بن أبي البركات، وأبو محمد عبد الكريم الربعي، وأبو محمد العثماني أجاز له ولم يلقه، وبمصر أبو محمد بن سحنون الغماري ولم يلقه، وأبو الميمون بن هبة الله القرشي، وبمكة أبو علي الحسن ابن محمد بن الحسين، وأبو الفتوح نصر بن أبي الفرج الحصري، وببغداد أحمد ابن أبي السعادات، وأحمد بن أبي بكر، وابن أبي خط طلحة، وأبو نصر القرشي، وإبراهيم بن أبي ياسر القطيعي، ورسلان المسدي، والأسعد بن بقاقا، وإسماعيل بن باركش الجوهري، وإسماعيل بن أبي البركات.
وبرنامج مروياته وأشياخه، مشتملٌ على مئين عديدة، مرتبة أسماؤهم على البلاد العراقية وغيرها، لو تتبعتها، لاستبعدت الأوراق، وخرجت عما قصدت.
قال القاضي أبو عبد الله المراكشي بعد الإتيان على ذلك، منتهى الثقاة أبو العباس النباتي، من التقييد الذي قيد، وعلى ما ذكره في فهارس له منوعة، بين بسط، وتوسط، واقتضاب، وقفت منها بخطه، وبخط بعض أصحابه، والآخذين عنه من أخذ عنه حدث ببغداد، برواية واسعة، فأخذ عنه بها أبو عبد الله بن سعيد اللوشي وبمصر الحافظ أبو بكر القط. وبغيرها من البلاد أمة وقفل برواية واسعة، وجلب كتباً غريبة.
تصانيفه: له فيما ينتحله من هذين الفنين تصانيف مفيدة، وتنبيهات نافعة، واستدراكات نبيلة بديعة، منها في الحديث رجالة المعلم بزوائد البخاري على مسلم، واختصار غريب حديث مالك للدار قطني، ونظم الدراري فيما تفرد به مسلم عن البخاري، وتوهين طرق حديث الأربعين، وحكم الدعاء في إدبار الصلوات، وكيفية الأذان يوم الجمعة، واختصار الكامل في الضعفاء والمتروكين لأبي محمد بن عدي، والحافل في تذييل الكامل، وأخبار محمد بن إسحاق ومنها في النبات، شرح حشائش دياسقوريدوس وأدوية جالينوس، والتنبيه على أوهام ترجمتها، والتنبيه على أغلاط الغافقي، والرحلة النباتية والمستدركه، وهو الغريب الذي اختص به، إلا أنه عدم عينه بعده، وكان معجزة في فنه، إلى غير ذلك من المصنفات الجامعة، والمقالات المفيدة المفردة، والتعاليق المنوعة.
مناقبه

قال ابن عبد الملك وابن الزبير، وغيرهما، عني تلميذه، الآخذ به، الناقد، المحدث، أبو محمد بن بن قاسم الحرار، وتهمم بجمع أخباره، ونشر مآثره،وضمن ذلك مجموعاً حفيلاً نبيلاً.
شعره

ذكره أبو الحسن بن سعيد في القدح المعلى، وقال: جوالٌ بالبلاد المشرقية، والمغربية، جالسته بإشبيلية بعد عوده من رحلته، فرأيته متعلقاً بالأدب مرتاحاً إليه ارتياح البحتري لحلب، وكان غير متظاهر بقول الشعر، إلا أن أصحابه يسمعون منه، ويروون عنه، وحملت عنه في بعض الأوقات، فقيدت عنه هذه الأبيات:

خيمٌ تخلق بين الكأس والوتر ... في جنة هي ملء السمع والبصر
ومتع الطرف في مرأى محاسنها ... بروض فكرك بين الروض والزهر
وانظر إلى ذهبيات الأصيل بها ... واسمع إلى نغمات الطير في السحر
وقل لمن لام في لذاته بشراً ... دعني فإنك عندي من سوى البشر
قال، وكثيراً ما يطنب على دمشق، ويصف محاسنها، فما انفصل عني إلا وقد امتلأ خاطري من شكلها، فأتمني أن أحل مواطنها، إلى أن أبلغ الأمل قبل المنون.
ولو أني نظرت بألف عينٍ ... لما استوفت محاسنها العيون
دخوله غرناطة

دخلها غير ما مرة لسماع الحديث، وتحقيق النبات، ونقر عن عيون النبات بجبالها، أحد خزاين الأدوية، ومظان الفوايد الغريبة، يجري ذلك في تواليفه بما لا يفتقر إلى شاهد.
مولده
في محرم سنة إحدى وستين وخمسمائة.
وفاته
توفي بإشبيلية عند مغيب الشفق من ليلة الإثنين مستهل ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين وستمائة. وكان مما رثي، قال ابن الزبير، ورثاه جماعة من تلامذته كأبي محمد الحرار، وأبي أمية إسماعيل بن عفير، وأبي الأصبغ عبد العزيز الكبتوري وأبي بكر محمد بن محمد بن جابر السقطي، وأبي العباس بن سليمان، ذكر جميعهم الحرار المذكور في كتاب ألفه في فضايل الشيخ أبي العباس، رحمه الله.
أحمد بن عبد الملك بن عمار بن ياسر
أحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن خلف ابن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان ابن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم
أوليته
بيت بني سعيد العنسي، بيتٌ مشهور في الأندلس بقلعة يحصب، نزلها جدهم الأعلى، عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر، وكان له حظوة لمكانه من اليمانية بقرطبة، وداره بقرب قنطرتها، كانت معروفة، وهو بيت القيادة والوزارة، والقضاء والكتابة، والعمل وفيما يأتي، وما مر كفاية من التنبيه عليه.
حاله
قال الملاحي، كان من جلة الطلبة، ونبهائهم، وله حظ بارع من الأدب، وكتابة مفيدة، وشعر مدون. قال أبو الحسن بن سعيد في كتابه المسمى بالطالع نشأ محباً في الأدب، حافظاً للشعر، وذاكراً لنظم الشريف الرضي، ومهيار، وابن خفاجة، وابن الزقاق، فرقت طباعه، وكثر اختراعه وإبداعه، فاشتد بها غرامه، وطال حبه وهيامه، وكانت بينهما منادمات ومغازلات أربت على ما كان بين علوة وأبي عبادة يمر من ذلك إلمام في شعر حفصة إن شاء الله.
نباهته وحظوته
ولما وفدت الأندلس، على صاحب أمر الموحدين في ذلك الأوان، وهو محتلٌ بجبل الفتح، واحتفل شعراؤها في القصائد، وخطباؤها في الخطب بين يديه، كان في وفد غرناطة، أبو جعفر هذا المترجم به، وهو حدث السن في جملة

أبيه وإخوته وقومه، فدخل معهم على الخليفة، وأنشده قصيدة، قال أبو الحسن بن سعيد، كتبت منها من خط والده قوله:

تكلم فقد أصغى إلى قولك الدهر ... وما لسواك اليوم نهيٌ ولا أمرٌ
ورم كل ما قد شئته فهو كائنٌ ... وحاول فلا برٌ يفوت ولا بحر
وحسبك هذا البحر فألا فإنه ... يقبل ترباً داسه جيشك الغمر
وما صوته إلا سلامٌ مرددٌ علي ... ك وعن بشرٍ بقربك اليوم يفتر
بجيش لكي يلقى أمامك من غدا ... يعاند أمراً لا يقوم له أمر
أطل على أرض الجزيرة سعدها ... وجدد فيها ذلك الخبر الخبر
فما طارقٌ إلا لذلك مطرقٌ ... ولابن نصير لم يكن ذلك النصر
هما مهداها كي تحل بأفقها ... كما حل عند التم بالهالة البدر

قال: فلما أتمها أثنى عليه الخليفة، وقال لعبد الملك أبيه: أيهما خيرٌ عندك في ابنيك، فقال يا سيدنا: محمدٌ دخل إليكم مع أبطال الأندلس وقوادها، وهذا مع الشعر، فانظروا ما يجب أن يكون خيراً عندي، فقال الخليفة: كل ميسرٌ لما خلق له، وإذا كان الإنسان متقدماً في صناعة فلا يؤسف عليه، إنما يؤسف على متأخر القدر، محروم الحظ. ثم أنشد فحول الشعراء والأكابر ثم لما ولي غرناطة ولده السيد أبو سعيد، استوزر أبا جعفر المذكور، واتصلت حظوته إلى أن كان ما يذكر من نكبته
محنته

قال قريبه وغيره: فسد ما بينه وبين السيد أبي سعيد لأجل حفصة الشاعرة، إذ كانت محل هواه، ثم اتصلت بالسيد، وكان له بها علاقة، فكان كل منهما على مثل الرضف للآخر، ووجد حساده السبيل، إلى إغراء السيد به، فكان مما نمي به عنه، أن قال لحفصة يوماً: وما هذا الغرام الشديد به، يعني السيد، وكان شديد الأدمة، وأنا أقدر أن أشتري لك من المعرض أسوداً خيراً منه بعشرين ديناراً، فجعل السيد يتوسد له المهالك، وأبو جعفر يتحفظ كل التحفظ. وفي حالته تلك يقول:

من يشتري مني الحياة وطيبها ... ووزارتي وتأدبي وتهذبي
بمحل راعٍ في ذرًى ملمومة ... زويت عن الدنيا بأقصى مرتب
لا حكم يأخذه بها إلا لمن ... يعفو ويرؤف دائماً بالمذنب
فلقد سئمت من الحياة مع امرىء ... متغضب متغلب مترتب
الموت يلحظني إذا لاحظته ... ويقوم في فكري أوان تجنبي
لا أهتدي مع طول ما حاولته ... لرضاه في الدنيا ولا للمهرب

وأخذ في أمره مع أبيه وأخوته، وفتنة ابن مردنيش مضطربة، فقال له أخوه محمد وأبوه، إن حركنا حركة كنا سبباً لهلاك هذا البيت، ما بقيت دولة إلا هؤلاء وأخذ مع أخيه عبد الرحمن، واتفقا على أن يثورا في القلعة باسم ابن مردنيش، وساعدهما قريبهما على ذلك حاتم بن حاتم بن سعيد، وخاطبوا ابن مردنيش، وصدر لهم جوابه بالمبادرة، ووصلت منه خيلٌ ضاريةٌ، وتهيأ لدخول القلعة، وتهيأ الحصول في القلعة، وخافوا من ظهور الأمر، فبادر حاتم وعبد الرحمن إلى القلعة، وتم لهما المراد، وأخر الجبن أبا جعفر ففاتاه، وتوقع الطلب في الطريق إلى القلعة، فصار متخفياً إلى

مالقة، ليركب منها البحر إلى جهة ابن مردنيش، ووضع السيد عليه العيون في كل جهة، فقبض عليه بمالقة، وطولع بأمره فأمر بقتله صبراً، رحمه الله.

جزالته وصبره

قال أبو الحسن بن سعيد، حدثني الحسين بن دويرة، قال: كنت بمالقة لما قبض على أبي جعفر، وتوصلت إلى الاجتماع به، ريثما استؤذن السيد في أمره حين حبس، فدمعت عيني لما رأيته مكبولا، قال: أعلى تبكي بعد ما بلغت من الدنيا أطايب لذاتها، فأكلت صدور الدجاج، وشربت في الزجاج، وركبت كل هملاج، ونمت في الديباج، وتمتعت بالسراري والأزواج، واستعملت من الشمع، السراج الوهاج، وهأنا في يد الحجاج، منتظراً محنة الحلاج، قادمٌ على غافرٍ، لا يحوج إلى اعتذار ولا احتجاج. فقلت: ألا أبكي على من ينطق بمثل هذا، ثم تفقد، فقمت عنه، فما رأيته إلا مصلوباً، رحمه الله.

شعره

أتاني كتابٌ منك يحسده الدهر ... أما حبره ليلٌ أما طرسه فجر

به جمع الله الأماني لناظري ... وسمعي وفكري فهو سحرٌ ولا سحر

ولا غرو أن أبدي العجايب ربه ... وفي ثوبه برٌ وفي كفه بحر

ولا عجب أن أينع الزهر طيه ... فما زال صوب القطر يبدو به الزهر

ومن شعره ما يجري مجرى المرقص، وقد حضر مع الرصافي والكتندي ومعهم مغن بروطة.

لله يومٌ مسرةٍ ... أضوى وأقصر من ذباله

لما نصبنا للمنى ... فيه من أوتارٍ حباله

ظل النهار بها كمر ... تاعٍ وأجفلت الغزاله

وشعره مدون كما قلنا، وهذا القدر عنوانٌ على نبله.

غريبةٌ في أمره مع حفصة

قال حاتم بن سعيد، وكان قد أجرى الله على لسانه، إذا حركت الكأس بها غرامه، أن يقول، والله لا يقتلني أحدٌ سواك، وكان يغني بالحب، والقدر موكل بالمنطق، قد فرغ من قتله بغيره من أجلها. قال، ولما بلغ حفصة قتله لبست الحداد، وجهرت بالحزن، فتوعدت بالقتل، فقالت في ذلك:

هددوني من أجل لبس الحداد ... لحبيبٍ أردوه لي بالحداد

وسقته بمثل جود يديه ... حيث أضحى من البلاد الغواد

رحم الله من يجود بدمعٍ ... أو ينوح على قتيل الأعاد

ولم ينتفع بعد بها، ثم لحقت به بعد قليل.

وفاته

توفي على حسب ما ذكر، في جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين وخمسمائة.

أحمد بن سليمان بن فركون

أحمد بن سليمان بن أحمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن فركون يكنى أبا جعفر

أوليته

قد مر ذلك في اسم جده قاضي الجماعة، وسيأتي في اسم والده.

حاله

شعلة من شعل الذكاء والإدراك، ومجموع خلال حميدة، على الحداثة، طالب نبيل، مدرك، نجيب، بذ أقرانه كفاية، وسما إلى المراتب، فقرأ وأعرب، وتمر، وتدرب، واستجاز له والده شيوخ بلده، فمن دونهم، ونظم الشعر، وقيد كثيراً، وسبق أهل زمانه في حسن الخط، سبقا أفرده بالغاية القصوى، فيراعه اليوم، المشار إليه، بالظرف، والإتقان، والحوا، والإسراح، اقتضى ذلك كله ارتقاؤه إلى الكتابة السلطانية، ومزية الشفوف بها، بالخلع والاستعمال، واختص بي، وتأدب بما انفرد به من أشياخ تواليفي، فآثرته بفوائد جمة، وبطن حوضه من تحلمه، وترشح إلى الاستيلاء على الغاية.

شعره

أنشد له بين يدي السلطان في الميلاد الكريم:

حي المعاهد بالكثيب وجادها ... غيثٌ بروي حيها وجمادها

مولده

في ربيع الآخر من عام سبعة وأربعين وسبعمائة.

أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان

من أهل مالقة، يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن صفوان.

حاله

بقية الأعلام، أديب من أدباء، هذا القطر، وصدرٌ من صدور كتابه، ومشيخة طلبته، ناظمٌ، ناثر، عارف، ثاقب الذهب، قوي الإدراك أصيل النظر، إمام الفرايض والحساب والأدب والتوثيق، ذاكرٌ للتاريخ واللغة، مشارك في الفلسفة والتصوف، كلفٌ بالعلوم، الإلهية، آية الله في فك المعمى، لا يجاريه في ذلك أحد ممن تقدمه، شأنه عجبٌ، يفك من المعميات والمستنبطات، مفصولاً وغير مفصول، شديد التعصب لذي ود، وبالعكس، تام الرجولة، قليل التهيب، مقتحم حمى أهل الجاه والحمد والمضايقة، إذا دعاه لذلك داع، حبل نقده على غاربه، راضٍ بالخمول، متبلغ بما تيسر، كثير الدؤوب والنظر، والتقييد والتصنيف، على كلال الجوارح، وعائق الكبرة، متقارب نمطي الشعر والكتابة، مجيد فيهما، ولنظمه شفوف على نثره.

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي محمد الباهلي، أستاذ الجملة من أهل بلده، ومولى النعمة عليهم، لازمه وانتفع به، ورحل إلى العدوة، فلقي جملة، كالقاضي المؤرخ أبي عبد الله بن عبد الملك، والأستاذ التعللي أبي العباس بن البنا، وقرأ عليهم بمراكش.

نباهته

استدعاه السلطان، ثاني الملوك من بني نصر إلى الكتابة عنه مع الجلة، ببابه، وقد نما عشه، وعلا كعبه، واشتهر ذكاؤه وإدراكه. ثم جنح إلى العودة، لبلده. ولما ولي الملك، السلطان أبو اليد، ودعاه إلى نفسه، ببلده مالقة، استكتبه رئيساً مستحقاً، إذ لم يكن ببلده، فأقام به واقتصر على كتب الشروط، معروف القدر، بمكان من القضاة ورعيهم، صدراً في مجالس الشورى، وإلى الآن يجعل إلى زيارة غرناطة، حظاً من فصول بعض السنين، فينصب، بها العدالة، ثم يعود إلى بلده في الفصل الذي لا يصلح لذلك. وهو الآن بقيد الحياة، قد علقته أشراك الهرم، وفيه بعد

مستمتعٌ، بديع، كبير.

تصانيفه

من تواليفه مطلع الأنوار الإلهية، وبغية المستفيد، وشرح كتاب القرشي في الفرايض، لا نظير له. وأما تقاييده على أقوال يعترضها، وموضوعات ينتقدها، فكثيرة.

شعره

قال في غرض التصوف، وبلغني أنه نظمها بإشارة من الخطيب، ولي الله، أبي عبد الله الطنجالي، كلف بها القوالون والمسمعون بين يديه:

بان الحميم فما الحمى والبان ... بشفاء من عنه الأحبة بانوا

لم ينقضوا عهداً بينهم ولا ... أنساهم ميثاقك الحدثان
لكن جنحت لغيرهم فأزالهم ... عن أنسهم بك موحشٌ غيران
لو صح حبك ما فقدتهم ولا ... سارت بهم عن حبك الأظعان
تشتاقهم، وحشاك هالة بدرهم ... والسر منك لخلهم ميدان
ما هكذا أحوال أرباب الهوى ... نسخ الغرام بقلبك السلوان
لا يشتكي ألم البعاد متيمٌ ... أحبابه في قلبه سكان
ما عندهم إلا الكمال وإنما ... غطى على مرآتك النقصان
شغلتك بالأغيار عنهم مقلةٌ ... إنسانها عن لمحهم وسنان
غمض جفونك عن سواهم معرضاً ... إن الصوارم حجبها الأجفان
واصرف إليهم لحظ فكرك شاخصاً ... ترهم بقلبك حيث كنت وكانوا
ما بان عن مغناك من ألطافه ... يهمي عليها سحابها الهتان
وجياد أنعمه ببابك ترتمي ... تسري إليك بركبها الأكوان
جعلوا دليلاً فيك منك عليهم ... فبدا على تقصيرك البرهان
يا لامحاً سر الوجود بعينه ... السر فيك بأسره والشان
ارجع لذاتك إن أردت تنزهاً ... فيها لعيني ذي الحجا بستان
هي روضةٌ مطلولةٌ بل جنةٌ ... فيها المني والروح والريحان
كم حكمة صارت تلوح لناظرٍ ... حارت لباهر صنعها الأذهان
حجبت بشمسك عن عيانك شمسها ... شمسٌ محاسن ذكرها التبيان
لولاك ما خفيت عليك آياتها ... والجو من أنوارها ملآن
أنت الحجاب لما تؤمل منهم ... ففناؤك الأقصى لهم وجدان
فأخرج إليهم عنك مفتقراً لهم ... إن الملوك بالافتقار تدان
واخضع لعزهم ولذلهم يلح ... منهم عليك تعطفٌ وحنان
هم رشحوك إلى الوصول إليهم ... وهم على طلب الوصال عوان
عطفوا جمالهم على أجمالهم ... فحلى المشوق الحسن والإحسان
يا ملبسين عبيدهم حلل الضنا ... جسمي بما تكسونه يزدان

لا سخط عندي للذي ترضونه ... قلبي بذاك مفرح جذلان
فبقربكم عين الغنا وببعدكم ... محض الفنا ومحبكم ولهان
إني كتمت عن الأنام هواكم ... حتى دهيت وخانني الكتمان
ووشت بحالي عند ذاك مدامعٌ ... أدنى مواقع قطرها طوفان
وبدت على شمايل عذرية ... تقضي بأني فيكم هيمان
فإذا نطقت فذكركم لي منطقٌ ... ما عن سواكم للسان بيان
وإذا صمت فأنتم سرى الذي ... بين الجوانح في الفؤاد يصان
فبباطني وبظاهري لكم هوى ... من جنده الإسرار والإعلان
وجوانحي وجميع أنفاسي وما ... أحوى على لحبكم أعوان
وإليكم مني المفر فقصد كم ... حرمٌ به للخائفين أمان
وقال يذم الدنيا ويمدح عقبي من يقلل منها:
حديث الأمان في الحياة شجون ... إن أرضاك شأنٌ أحفظتك شئون
يميل إليها جاهلٌ بغرورها ... فمنه اشتياقٌ نحوها وأنين
وذو الحزم ينبو عن حجاه فحالها ... يقيه إذا شكٌ عراه يقين
إليك صريع الأمن سنحه ناصح ... على نصحه سبما الشفيق تين
تجاف عن الدنيا ودن باطراحها ... فمركبها بالمطمعين حرون
وترفيعها خفضٌ وتنعيمها أذى ... ومنهلها للواردين أجون
إذا عاهدت خانت وإن هي أقسمت ... فلا ترج براً باليمين يمين
يروقك منها مطمعٌ من وفائها ... وسرعان ما إثر الوفاء تخون
وتمنحك الإقبال كفة حابلٍ ... ومن مكرها في طي ذاك كمين
سقاه لعمر الله إمحاضك الهوى ... لمن أنت بالبغضاء فيه قمين

ومن تصطفيه وهو يقطعك القلا ... وتهدي له الإعزاز وهو يهين
ألا إنها الدنيا فلا تغترر بها ... ولود اللواهي بالخداع تدين
يعم رداها الغر والخب ذا الدها ... ويلحق فيها بالكناس عرين
وتشمل بلواها نبيلاً وخاملاً ... ويلقى مذالٌ غدرها ومصون
أبنها لحاها الله كم فتنةٍ لها ... تعلم صم الصخر كيف يلين
فلا ملكٌ سام أقالت عثاره ... ولو أنه للفرقدين خدين
ولا معهد إلا وقد نبهت به ... بعيد الكرى للثاكلات جفون
أبيت لنفسي أن يدنسها الكرى ... سكونٌ إليها موبقٌ وركون
فليس قرير العين فيها سوى امرىء ... قلاه لها رأى يراه ودين
أبيت طلاق الحرص فالزهد دائباً ... خليلٌ له مستصحبٌ وقرين
إذا أقبلت لم يولها بشر شيقٍ ... ولا خف للإقبال منه رزين
وإن أدبرت لم يلتفت نحوها بها ... وادٍ على ما لم توات حزين

خفيف المطا من حمل أثقال همها ... إذا ما شكت ثقل الهموم متون
على حفظه للفقر أبهى ملاءةٍ ... سنى حليها وسط الزرى يدين
برجف تخال الخائفين منازلٌ ... لهن مكانٌ حيث حل مكين
منازل نجدٍ عندها وتهامةٍ ... سوى واستوى هندٌ لديه وصين
يرود رياضاً أين سار ووروده ... زلالٌ اعتاض الورود معين
فهذا أنيل الملك لا ملك ثائرٍ ... لأعدائه حربٌ عليه زبون
وهذا عريض العز لا عز مترفٍ ... له من مشيدات القصور سجون
حوت شخصه أوصافها فكأنه ... وإن لم يمت فوق التراب دفين
فيا خابطاً عشواء والصبح قد بدا ... إلام تغطى ناظريك دجون
أفق من كرى هذا التعامي ولا تضع ... بجلك علق العمر فهو ثمين
إذا كان عقبي ذي جدة إلى بلى ... وقصارى ذي الحياة منون
ففيم التفاني والتنافس ضلة ... وفيم التلاحي والخصام يكون
إلى الله أشكوها نفوساً عمية ... عن الرشد والحق اليقين تين
وأسأله الرجعي إلى أمره الذي ... بتوفيقه حبل الرجاء متين
فلا خير إلا من لدنه وجوده ... لتيسير أسباب النجاة ضمين

وجمعت ديوان شعره أيام مقامي بمالقة عند توجهي صحبة الركاب السلطاني إلى إصراخ الخضراء عام أربعة وأربعين وسبعمائة، وقدمت صدره خطبة، وسميت الجزء بالدرر الفاخرة، واللجج الزاخرة، وطلبت منه أن يجيزني، وولدي عبد الله، رواية ذلك عنه فكتب بخطه الرائق بظهر المجموع ما نصه:

الحمد لله مستحق الحمد، أجبت سؤال الفقيه، الأجل، الأفضل، السري، الماجد، الأوحد، الأحفل، الأديب، البارع، الطالع في أفق المعرفة والنباهة، والرفعة المكينة والوجاهة، بأبهى المطالع، المصنف، الحافظ، العلامة، الحائز في فني النظم والنثر، وأسلوبي الكتابة والشعر، رتبة الرياسة، الحامل لراية التقدم والإمامة، محلي جيد العصر بتواليفة الباهرة الرواء، ومجلى محاسن بنيه، الرائقة على منصة الإشهاد والإنباء، أبي عبد الله بن الخطيب، وصل الله سعادته ومجادته، وسني من الخير الأوفر، والصنع الجميل الأبهر، مقصده وإرادته، وبلغه في نجله الأسعد، وابنه الراقي، بمحتده الفاضل، ومنشئه الأطهر، محل الفرقد، أفضل ما يؤمل نحلته إياه في المكرمات وإفادته، وأجزت له، ولابنه عبد الله المذكور، أبقاهما الله تعالى، في عزةٍ سنية الجلال، وعافية ممتدة الأوفياء، وارفة الظلال، رواية جميع ما تقيد في الأوراق، المكتتب على ظهر أول ورقة منها، من نظمي ونثري، وما توليت إنشاءه، واعتمدت بالارتحال والرواية، اختياره وانتقاءه، أيام عمري، وجميع مالي من تصنيف وتقييد، ومقطوعةٍ وقصيدةٍ، وجميع ما أحمله عن أشياخي رضي الله عنهم، من العلوم، وفنون المنثور والمنظوم، بأي وجه تأتي ذلك، وصح حملي له، وثبت إسناده لي، إجازةً تامة، في ذلك كله عامة، على سنن الإجازات الشرعية، وشرطها المأثور عند أهل الحديث المرعي، والله ينفعني وإياهما بالعلم وحمله، وينظمنا جميعاً في سلك حزبه المفلحين وأهله، ويفيض علينا من أنوار بركته وفضله. قال ذلك وكتبه بخط يده الفانية، العبد الفقير إلى الغني به، أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان، ختم الله له بخير، حامداً لله تعالى، ومصلياً ومسلماً على محمد نبيه المصطفى الكريم، وعلى آله الطاهرين ذوي المنصب العظيم، وصحبه البررة، أولى المنصب والأثرة والتقديم، في سادس ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وسبعمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

واشتمل هذا الجزء الذي أذن بحمله عنه من شعره على جملة من المطولات، منها قصيدة يعارض بها الرئيس أبا علي بن سينا في قصيدته الشهيرة في النفس التي مطلعها: هبطت إليك من المحل الأرفع، أولها: أهلا بمسراك المحب الموضع.

وأول قصيدة:

لمعناك في الأفهام سرٌ مكتمٌ ... عليه نفوس العارفين تحوم

وأول أخرى:

أزهى حجابك رؤية الأغيار ... فامح الدجى بأشعة الأنوار

وأول أخرى:

ثناء وجودي في هواكم هو الخلد ... ومحو رسومي حسن ذاتي به يبدو

ومطلع أخرى:

ألا في الهوى بالذل ترعى الوسائل ... ودمعي أن أنادي مجيب وسائل

ومطلع أخرى:

هم القصد جادوا بالرضى أو تمنعوا ... صلوا اللوم فيما أودعوا القلب أودعوا

ومن أخرى:

سقى زمن الرضا هامٌ من السحب ... ولله العود من أثوابه القشب

ومن أخرى:

يا فوز نفسي في هواك هواؤها ... رقت معانيها وراق مناؤها

ومن أخرى:

أما الغرام فبالفؤاد غريم ... هيهات مني ما العذول يروم

ومن شعره في المقطوعات قوله:

رشق العذار لجينه بنباله ... فغدا يدور على المحب الواله

خط العذار بصفحتيه لامه ... خطا توعده بمحو جماله

فحسبت أن جماله شمس الضحى ... حسناً وذاك الخط خط زواله

فدنا إلي تعجباً وأجابني ... والروع يبدو من خلال مقاله

إن الجمال آخره اللام فعج ... عن رسمه واندب على أطلاله

ومن أبياته في التورية بالفنون قوله:

كففت عن الوصال طويل شوقي ... إليك وأنت للروح الخليل

وكفك للطويل فدتك نفسي ... قبيحٌ ليس يرضاه الخليل

وقال في التورية بالعروض:

يا كاملاً شوقي إليه وافر ... وبسيط خدي في هواه عزيز

عاملت أسبابي لديك فقطعتها ... والقطع في الأسباب ليس يجوز

وقال في التورية بالعربية:

أيا قمراً مطالعه جناني ... وغرته تواري عن عيان

أأصرف في هواك عن اقتراحي ... وسهدي وانتحابي علتان

وقال أيضاً:

لا تصحبن يا صاحبي غير الوفي ... كل امرىء عنوانه من يصطفي

كم من خليلٍ بشره زهر الربي ... وطي ذاك البشر حد المرهف

ظاهره يريك سر من رأى ... وأنت من إعراضه في أسف

ووقعت بينه وبين قاضي بلده أبي عمرو بن المنظور مقاطعة، انبرى بها إلى مطالبته بما دعاه إلى التحول مضطراً إلى غرناطة، وأخذ بكظمه، وطوقه الموت في أثناء القطيعة، فقال في ذلك متشفياً، وهو من نبيه كلامه، وكله نبيه:

تردى ابن منظورٍ وحم حماه ... وأسلمه حامٌ له ونصير

تبرأ منه أولياء غروره ... ولم يقه بأس المنون ظهير

وأودع بعد الأنس موحش بلقعٍ ... فحياه فيه منكرٌ ونكير

ولا رشوةٌ يدلي القبول رشادها ... فينسخ بالسير المريح عسير

ولا شاهدٌ يغضي له عن شهادةٍ ... تخللها إفكٌ يصاغ وزور

ولا خدعةٌ تجدي ولا مكرٌ نافعٌ ... ولا غشٌ مطويٌ عليه ضمير

ولكنه حقٌ يصول وباطلٌ ... يحول ومثوى جنةٍ وسعير

وقالوا قضاء الموت حتمٌ على الورى ... يدير صغيرٌ كأسه وكبير

فلا تتسم ريح ارتياح لفقده ... فإنك عن قصد السبيل تحور

فقلت بلى حكم المنية شاملٌ ... وكل إلى رب العباد يصير

ولكن تقدم الأعادي إلى الردى ... نشاطٌ يعود القلب منه سرور

وأمنٌ ينام المرء في برد ظله ... ولا حيةٌ للحقد نم نثور

وحسبي بيتٌ قاله شاعرٌ مضى ... غدا مثلاً في العالمين يسير

وإن بقاء المرء بعد عدوه ... ولو ساعةً من عمره لكثير

مولده: قال بعض شيوخنا، سألته عن مولده فقال لي في آخر خمسة وتسعين وستمائة، أظن في ذي قعدة منه الشك.

وفاته

بمالقة في آخر جمادى الثانية من عام ثلاثة وستين وسبعمائة.

أحمد بن أيوب اللماي

من أهل مالقة، يكنى أبا جعفر.

حاله

قال صاحب الذيل، كان أديباً ماهراً، وشاعراً جليلا، وكاتباً نبيلا.

كتب عن أول الخلفاء الهاشميين بالأندلس، على بن جهود، ثم عن غيره من أهل بيته، وتولي تدبير أمرهم، فحاز لذلك صيتاً شهيراً، وجلالة عظيمة. وذكره ابن بسام في كتاب الذخيرة، فقال: كان أبو جعفر هذا في وقته أحد أئمة الكتاب، وشهب الأدب، ممن سخرت له فنون البيان، تسخير الجن لسليمان، وتصرف في محاسن الكلام، تصرف الرياح بالغمام، طلع من ثناياه، واقتعد مطاياه، وله إنشاءات سرية، في الدولة الحمودية، إذ كان علم أدبائها، والمضطلع بأعبائها، إلا أني لم أجد عند تحريري هذه النسخة، من كلامه، إلا بعض فصول من منثور، وهي ثمادٌ من

بحور.

فصل: من رقعة خاطب بها أبا جعفر بن العباس: غصن ذكرك عندي ناضرٌ، وروض شكرك لدي عاطرٌ، وريح إخلاصي لك صباً، وزمان آمالي فيك صباً، فأنا شاربٌ ماء إخاثك، متفيئٌ ظل وفائك، جان منك ثمرة فرعٍ طاب أكله، وأجناني البر قديماً أصله، وسقاني إكراماً برقه، وروانى أفضالاً ودقه، وأنت الطالع في فجاجه، السالك لمنهاجه، سهمٌ في كنانة الفضل صائبٌ، وكوكبٌ في سماء المجد ثاقبٌ، إن أتبعت الأعداء نوره أحرق، وإن رميتهم به أصاب الحدق، وعلى الحقيقة فلساني يقصر عن جميل أنشره، ووصف ود أضمره.

شعره

قال ومما وجد بخطه لنفسه:

طلعت طلائع للربيع فأطلعت ... في الروض ورداً قبل حين أوانه

حيا أمير المسلمين مبشراً ... ومؤملاً للنيل من إحسانه

ضنت سحائبه عليه بمائها ... فأتاه يستسقيه ماء بنانه

دامت لنا أيامه موصولةً ... بالعز والتمكين في سلطانه

قال: وأنشدني الأديب أبو بكر بن معن، قال أنشدني أبو الربيع بن العريف لجده الكاتب أبي جعفر اللماي، وامتحن بداء النسمة من أمراض الصدر، وأزمن به، نفعه الله، وأعياه علاجه، بعد أن لم يدع فيه غاية، وفي ذلك يقول:

لم يبق من شيء أعالجها به ... طمع الحياة وأين من لا يطمع

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمةٍ لا تنفع

ودخل عليه بعض أصحابه فيها، وجعل يروح عليه فقال له بديهة:

روحني عائدي فقلت له ... لا تزدني على الذي أجد

ما ترى النار وهي خامدةٌ ... عند هبوب الرياح تتقد

ودخل غرناطة غير مامرة، منها متردداً بين أملاكه، وبين من بها من ملوك صنهاجة، قالوا ولم تفارقه تلك الشكاية حتى كانت سبب وفاته.

وفاته

مالقة عام خمسن وستين وأربعمائة. ونقل منها إلى حصن الورد، وهو عند حصن منت ميور إذ كان قد حصنه، واتخذه لنفسه ملجأ عند شدته، فدفن به، بعهدٍ منه بذلك، وأمر أن يكتب على قبره بهذه الأبيات:

بنيت ولم أسكن وحصنت جاهداً ... فلما أتي المقدور صيره قبري

ولم يكن حظي غير ما أنت مبصرٌ ... بعينك ما بين الذراع إلى الشبر

فيا زائراً قبري أوصيك جاهداً ... عليك بتقوى الله في السر والجهر

فلا تحسنن بالدهر ظنا فإنما ... من الحزم ألا يستنام إلى الدهر

أحمد بن محمد بن طلحة

من أهل جزيرة شقر، يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن جده طلحة.

حاله

قال صاحب القدح المعلى، من بيت مشهور بجزيرة شقر من عمل بلنسية كتب عن ولاة الأمر من بني عبد المؤمن، ثم استكتبه ابن هود، حين تغلب على الأندلس، وربما استوزره، وهو ممن كان والدي يكثر مجالسته، وبينهما مزاورة، ولم أستفد منه إلا ما كنت أحفظه من مجالسته.

شعره

قال، سمعته يوماً يقول، تقيمون القيامة بحبيب، والبحتري، والمتنبي، وفي عصركم من يهتدي إلى ما لم يهتد إليه المتقدمون ولا المتأخرون، فانبرى إليه شخص له همة وإقدام، فقال يا أبا جعفر: أين برهان ذلك، فما أظنك تعني إلا نفسك، فقال ما أعني إلا نفسي، ولم لا، وأنا الذي أقول:

يا له ترى الظرف من يومنا ... قلد جيد الأفق طوق العقيق

وأنطق الورق بعيدانها ... مطربةً كل قضيبٍ وريق

والشمس لا تشرب خمر الندى ... في الروض إلا بكأس الشقيق

فلم ينصفوه في الاستحسان، وردوه في الغيظ كما كان، فقلت له: يا سيدي هذا والله السحر الحلال، وما سمعت من شعراء عصرنا مثله، فبالله ألا ما لازمتني وزدتني من هذا النمط، فقال لي لله درك، ودر أبيك من منصف ابن منصف. اسمع، وافتح أذنيك. ثم أنشد:

أدرها فالسماء بدت عروساً ... مضمخة الملابس بالغوال

وخد الأرض خفره أصيلٌ ... وجفن النهر كحل بالظلال

وجيد الغصن يشرق في لآلٍ ... تضيء بمن أكناف الليال

فقلت بالله أعد وزد، فأعاد والارتياح قد ملأ عطفه، والتيه قد رفع أنفه، ثم قال:

لله نهرٌ عند ما زرته ... عاين طرفي منه سحراً حلال

إذا أصبح الطل به ليلة ... وجال فيه الغصن مثل الخيال

فقلت ما على هذا مزيدٌ من الاستحسان، فعسى أن يكون المزيد في الانشاد فزاد ارتياحه وأنشد:

ولما ماج بحر الليل بيني ... وبينكم وقد جددت ذكرا

أراد لقاكم إنسان عيني ... فمد له المنام عليه جسرا

فقلت إيه زادك الله إحساناً، فزاد:

ولما أن رأى إنسان عيني ... بصحن الخد منه غريق ماء

أقام له العذار عليه جسراً ... كما مد الظلام على الضياء

فقلت فما تكرر ويطول، فإنه مملول، إلا ما أوردته آنفاً، فإنه كنسيم الحياة، وما أن يمل، فبالله ألا ما زدتني، وتفضلت علي بالإعادة، فأعاد وأنشد:

هات المدام إذا رأيت شبيهها ... في الأفق يا فرداً بغير شبيه

فالصبح قد ذبح الظلام بنصله ... فغدت حمائمه تخاصم فيه

دخوله غرناطة: دخلها مع مخدومه المتوكل على الله ابن هود وفي جملته، إذ كان يصحبه في حركاته، ويباشر معه الحرب، وجرت عليه الهزائم، وله في ذلك كله شعر.

محنته

قالوا لم يقنع بما أجرى عليه أبو العباس الينشتي من الإحسان، فكان يوغر صدره من الكلام فيه، فذكروا أن الينشتي قال يوماً في مجلسه: رميت يوماً بسهمٍ من كذا، فبلغ إلى كذا، فقال ابن طلحة لشخص كان إلى جانبه: والله لو كان قوس قزح، فشعر أبو العباس إلى قوله ما يشبه ذلك، واستدعى الشخص، وعزم عليه، فأخبره بقوله، فأسرها في نفسه، إلى أن قوى الحقد عليه، ما بلغه من عنه من قوله يهجوه:

سمعنا بالموفق فارتحلنا ... وشافعنا له حسبٌ وعلم

ورميت يداً أقبلها وأخرى ... أعيش بفضلها أبداً وأسمو

فأنشدنا لسان الحال عنه ... يدٌ شلا وأمرٌ لا يتم

فزادت موجدته عليهن وراعى أمره إلى أن بلغته أبياتٌ قالها في شهر رمضان، وهو على حال الاستهتار:

يقول أخو الفضول وقد رآنا ... على الإيمان بلغنا الحجون

أنشكو شهر الصوم هلا ... حماه منكم عقلٌ ودين

فقلت اصحب سوانا فنحن قوم ... زنادقة مذاهبنا فنون

ندين بكل دين غير دين ال ... رعاع فما به أبداً ندين

فنحن على صفوح الدهر ندعو ... وإبليس يقول لنا آمين

أيا شهر الصيام إليك عنا ... ففيك أكفر ما نكون

قال: فأرسل إليه من هجم عليه، وهو على هذا الحال، وأظهر إرضاء العامة بقتله، وذلك في سنة إحدى وثلاثين وستمائة. ولا خفاء أنه من صدور الأندلس، وأشدهم عثوراً على المعاني الغريبة المخترعة، رحمه الله.

ابن خاتمة الأنصاري

أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري من أهل ألمرية يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن خاتمة.

حاله

هذا الرجل صدرٌ يشار إليه، طالبٌ متفننٌ، مشاركٌ، قوي الإدراك، سديد النظر، قوي الذهن، موفور الأدوات، كثير الاجتهاد، معين الطبع، جيد القريحة، بارع الخط، ممتع المجالسة، حسن الخلق، جميل العشرة، حسنةٌ من حسنات الأندلس، وطبقةٌ في النظم والنثر، بعيد المرقى في درجة الاجتهاد، وأخذه بطرق الإحسان، عقد الشروط، وكتب عن الولاة ببلده، وقعد للاقراء ببلده، مشكور السيرة، حميد الطريقة، في ذلك كله.

وجرى ذكره في كتاب التاج بما نصه ناظم درر الألفاظ، ومقلد جواهر الكلام، نحور الرواة، ولبات الحفاظ والآداب، التي أصبحت شواردها، حلم النائم، وسمر الأيقاظ، وكم من بياض طرسها، وسواد مقسها سحر الألحاظ، رفع في قطره راية هذا الشأن على وفور حلبته، وقرع فنه البيان على سمو هضبته، وفوق سهمه إلى بحر الإحسان، فأتثبته في لبته، فإن أطال شأن الأبطال، وكاثر المنسجم الهطال، وإن أوجز، فضح وأعجز، فمن نسيب تهيج به الأشواق، وتضيق عن زفراتها الأطواق، ودعابةٍ تقلص ذيل الوقار، وتزري بأكواس العقار، إلى انتماء للمعارف، وجنوح إلى ظلها الوارف، ولم تزل معارفه ينفسح آمادها، وتحوز خص السباق جيادها.

مشيخته

حسبما نقل بخطه في ثبت استدعاه منه من أخذ عنه، الشيخ الخطيب، الأستاذ مولى النعمة، على أهل طبقته بألمرية، أبو الحسن علي بن محمد بن أبي العيش المري، قرأ عليه ولازمه، وبه جل انتفاعه، والشيخ الخطيب الأستاذ الصالح أبو إسحاق إبراهيم بن العاص التنوخي. وروي عن الرواية المحدث المكثر الرحال، محمد بن جابر بن محمد بن حسان

الوادي آشي، وعن شيخنا أبي البركات ابن الحاج، سمع عليه الكثير، وأجازه إجازة عامة، والشيخ الخطيب أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن شعيب القيسي من أهل بلده، والقاضي أبو جعفر القرشي بن فركون. وأخذ عن الوزير الحاج الزاهد، أبي القاسم محمد ابن محمد بن سهل بن مالك. وقرأ على المقرى أبي جعفر الأغر، وغيرهم.

كتابته

مما خاطبني به بعد إلمام الركب السلطاني ببلده، وأنا صحبته، ولقائه إياي، بما يلقى به مثله من تأنيس، وبر، وتودد، وتردد:

يا من حصلت على الكمال بما رأت ... عيناي منه من الجمال الرائع
مرأى يروق وفي عطافي برده ... ما شئت من كرمٍ ومجدٍ بارع
أشكو إليك من الزمان تحاملا ... في فض شملٍ لي بقربك جامع
هجم البعاد عليه ضنا باللقا ... حتى تقلص مثل برق لامع

فلو أنني ذو مذهب لشفاعة ... ناديته يا مالكي كن شافعي

شكواي إلى سيدي ومعظمي، أقر الله تعالى بسنائه أعين المجد، وأدر بثنائه ألسن الحمد، شكوى الظمآن صد عن القراح العذب، لأول وروده، والهيمان رد عن استرواح القرب لمعضل صدوده، من زمانٍ هجم علي بعاده، على حين النفادة، ودهمني بفراقه غب إنارة أفقي به وإشراقه، ثم لم يكفه ما اجترم في ترويع خياله الزاهر، حتى حرم عن تشييع كماله الباهر، فقطع عن توفية حقه، ومنع من تأدية مستحقه، لا جرم أنه أنف لشارع ذكائه من هذه المطالع النافية عن شريف الإنارة، وبخل بالإمتاع بذكائه عن هذه المسامع النائية، عن لطيف العبارة، فراجع أنظاره، واسترجع معاره، وإلا فعهدي بغروب الشمس إلى طلوع، وأن البدر ينصرف بين الاستقامة والرجوع. فما بال هذا النير الأسعد، غرب ثم لم يطلع من الغد، ما ذاك إلا لعدوى الأيام وعدوانها، وشأنها في تغطية إساءتها وجه إحسانها، وكما قيل عادت هيفٌ إلى أدبانها، أستغفر الله أن لا يعد ذلك من المغتفر في جانب ما أوليت من الأثر، التي أزرى العيان فيها بالأثر، وأربى الخبر على الخبر، فقد سرت متشوفات الخواطر، وأقرت متشرفات النواظر، بما جلت من ذلكم الكمال الباهر، والجمال الناضر، الذي قيد خطى الأبصار، عن التشوف والاستبصار، وأخذ بأزمة القلوب، عن سبيل كل مأمول ومرغوب، وأني للعين بالتحول عن كمال الزين، أو للطرف بالتحول عن خلال الظرف، أو للمسع من مراد، بعد ذلك الإصرار والإيراد، أو للقلب من مراد، غير تلكم الشيم الرافلة من ملابس الكرم في حلل وأبراد، وهل هو إلا الحسن جمع في نظام، والبدر طالع التمام، وأنوار الفضائل ضمها جنس اتفاقٍ والتآم، فما ترعى العين منه في غير مرعى خصيب، ولا تستهدف الآذان لغير سهمٍ في حدق البلاغة مصيب، ولا تطلع النفس سوى مطلعٍ له في الحسن والإحسان أوفر نصيب. لقد أزرى بناظم حلاه فيما تعاطاه التقصير. وانفسح من أعلاه بكل باعٍ قصير، وسفه حلم القائل: إن الإنسان عالمٌ صغير، شكراً للدهر على يد أسداها بقلب مزاره، وتحفة ثناء أهداها بمطلع أنواره على تغاليه في ادخار نفائسه، وبخله بنفائس ادخاره، ولا غرو أن يضيق عنا نطاق الذكر، ولما يتسع لنا سوار الشكر، فقد عمت هذه الأقطار بما شاءت من تحفٍ، بين تحف وكرامة، واجتنت أهلها ثمرة الرحلة في ظل الإقامة، وجرى الأمر في ذلك مجرى الكرامة، ألا وإن مفاتحتي لسيدي ومعظمي، حرس الله تعالى مجده، وضاعف سعده، مفاتحة من ظفر من الدهر بمطلوبه، وجرى له القدر على وفق مرغوبه، فشرع له إلى أمله باباً، ورفع له من خجله جلباباً، فهو يكلف بالاقتحام، ويأنف من الإحجام، غير أن الحصر عن درج قصده يقيده، فهو يقدم والبصر يبهرج نقده فيقعده، فهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ويجدد عزماً ثم لا يتحرى، فإن أبطأ خطابي

فلواضحٌ الاعتذار، ومثلكم لا يقبل حياة الأعذار، والله عز وجل يصل إليكم عوايد الإسعاد والإسعاف، ويحفظ لكم ما للمجد من جوانب وأكناف، إن شاء الله تعالى، كتب في العاشر من ربيع الأول من عام ثمانية وأربعين وسبعمائة.

دخوله غرناطة: دخل غرناطة غير ما مرة، منها في استدعاء شمال الخواص من أهل الأقطار الأندلسية، عند إعذار الأمراء في الدولة اليوسفية، في شهر شعبان من عام إحدى وخمسين وسبعمائة.

شعره

كان مجلياً، وأنشد في حلبة الشعراء قصيدةً أولها:

أجنان خلدٍ زخرفت أم مصنع ... والعيد عاود أم صنيعٌ يصنع

ومن شعره

من لم يشاهد موقفاً لفراق ... لم يدر كيف توله العشاق
إن كنت لم تره فسائل من رأى ... يخبرك عن ولهي وهول سياق
من حر أنفاسٍ وخفق جوانح ... وصلوع أكبادٍ وفيض مآق
دهى الفؤاد فلا لسانٌ ناطقٌ ... عند الوداع طايع متراق
ولقد أشير لمن تكلف رحلةً ... أن عج على ولو بقدر فواق
على أراجع من ذماي حشاشةً ... أشكو بها بعض الذي أنا لاق
فمضى ولم تعطفه نحوي ذمةٌ ... هيهات لابقيا على مشتاق
يا صاحبي وقد مضى حكم النوى ... روحا على بمشيمة العشاق

واستقبلابي نسمةً عن أرضكم ... فلعل نفحتها تحل وثاق
إني ليشفيني النسيم إذا سرى ... متضوعاً من تلكم الآفاق
من مبلغ بالجزع أهل مودتي ... أني على حكم الصبابة باق
ولئن تحول عهد قربهم نوى ... ما حلت عن عهدي ولا ميثاق
أنفت خلايقي الكرام لخلتي ... نسباً إلى الإخلاق والإخراق
قسماً به ما استغرقتني فكرةٌ ... إلا وفكري فيه واستغراق
لي آهة عند العشي لعله ... يصغي لها وكذا مع الإشراق
أبكي إذا هب النسيم فإن تجد ... بللاً به فبدمعي المهراق
أوما ما تكتب إليه مع الصبا ... فالذكر كتبي والرفاق رفاق
من لي وقد شحط المزار بنازح ... أدنى لقلبي من جوى أشواق
إن غاب عن عيني فمثواه الحشا ... فسراه بين القلب والأحداق
جارت على يدي النوى بفراقه ... آهاً لما جنت النوى بفراق
أحباب قلبي هل لماضي عيشنا ... ردٌ فينسخ بعدكم بتلاق
أم هل لأثواب التجلد راقعٌ ... إذ ليس من داء المحبة راق
ما غاب كوكب حسنكم عن ناظري ... إلا وأمطرت الدما آماق

إيه أخي أدر على حديثهم ... كأساً ذكت عرفاً وطيب مذاق
وإذا جنحت لماء أو طربٍ فمن ... دمعي الهموع وقلبي الخفاق
ذكراه راحي والصبابة خضرتي ... والدمع ساقيني وأنت الساق
فليله عني من لحاني إنني ... راض بما لاقيته وألاق
وقال:
وقفت والركب قد زمت ركائبه ... وللنفوس مع النوى تقطيع
وقد تمايل نحوي للوداع وهل ... للراحل القلب صدر الركب توديع
أضم منه كما أهدي لغير نوى ... ريحانةً في شذاها الطيب مجموع
يهفو فأذعر خوفاً من تقلصها ... إن الشفيق بسوء الظن مولوع
هل عند من قد دعي بالبين مقلته ... إن الردى منه مرئيٌ ومسموع
أشيع القلب عن رغمٍ على وما ... بقاء جسم له للقلب تشييع
أرى وشاتي أني لست مفتقراً ... لما جرى وصميم القلب مصروع
الوجد طبعٌ وسلواني مصانعة ... هيهات يشكل مصنوع ومطبوع
إن الجديد إذا ما زيد في خلقٍ ... تبين الناس أن الثوب مرقوع
وقال أيضاً:
لولا حيائي من عيون النرجس ... للثمت خد الورد بين السندس
ورشفت من ثغر الأقاحة ريقها ... وضممت أعطاف الغصون الميس
وهتكت أستار الوقار ولم أبل ... للبقلاء تلحظ بطرفٍ أشوس
مالي وصهباء الدنان مطارحاً ... سجع القيان مكاشفاً وجه المس
شتان بين مظاهرٍ ومخاتل ... ثوب الحجا ومطهر ومدنس
ومجمجمٍ بالعذل باكرني به ... والطير أفصح مسعد بتأنس
نزهت سمعي عن سفاهة نطقه ... وأعرته صوتاً رخيم الملمس
سفهت في العشاق يوماً إن أكن ... ذاك الذي يدعي الفصيح الأخرس
أعذول وجدي ليس عشك فادرجي ... ونصيح رشدي بان نصحك فاجلس
هل تبصر الأشجار والأطيار والأزه ... ار تلك الخافضات الأروس
نالله وهو إليتي وكفى به ... قسماً يفدي بره بالأنفس
ما ذاك من شكوٍ ولا لخلالةٍ ... لكن سجود مسبحٍ ومقدس
شكراً لمن برأ الوجود بجوده ... فغني إليه الكل وجه المفلس
وسما بساط الأرض فمده ... ودحا بسيط الأرض أوثر مجلس
ووشى بأنواع المحاسن هذه ... وأنار هذي بالجوار الكنس
وأدر أخلاف العطاء تطولاً ... وأنال فضلا من يطيع ومن يسى

حتى إذا انتظم الوجود بنسبةٍ ... وكساه ثوبي نوره والحندس
واستكملت كل النفوس كمالها ... شفع العطايا بالعطاء الأنفس

بأجل هادٍ للخلائق مرشدٍ ... وأتم نورٍ للخلائق مقبس
بالمصطفى المهدي إلينا رحمةً ... مرمى الرجا ومسكة المتيئس
نعمٌ يضيق الوصف عن إحصائها ... فل الخطيب بها لسان الأوجس
إيه فحدثني حديث هواهم ... ما أبعد السلوان عن قلب الأسى
إن كنت قد أحسنت نعت جمالهم ... فلقد سها عني العذول بهم وسى
ما إن دعوك ببلبل إلا لما ... قد هجت من بلبال هذي الأنفس
سبحان من صدع الجميع بحمده ... وبشكره من ناطق أو أخرس
وامتدت الأطلال ساجدةً له ... بجبالها من قائمٍ أو أقعس
فإذا تراجعت الطيور وزايلت ... أغصانها بأن المطيع من المسى
فيقول ذا سكرت لنغمة منشد ... ويقول ذا سجدت لذكر مقدس
كل يفوه بقوله والحق لا ... يخفي على نظر اللبيت الأكيس
وقال:
زارت على حذر من الرقباء ... والليل ملتحف بفضل رداء
تصل الدجا بسواد فرع فاحم ... لتزيد ظلماءً إلى ظلماء
وشى بها من وجهها وحليها ... بدر الدجا وكواكب الجوزاء
أهلا بزائرةٍ على خطر السرى ... ما كنت أرجوها ليوم لقاء
أقسمت لولا عفة عذريةٌ ... وتقىً على له رقيبٍ راء
لنقعت غلة لوعتي برضا بها ... ونضحت ورد خدودها ببكائي
ومن ذلك ما قاله أيضاً:
أرسلت ليل شعرها من عقص ... عن محيا رمى البدور بنقص
فأرتنا الصباح في جنح ليلٍ ... يتهادى ما بين غصنٍ ودعص
وتصدت براحات نهودٍ ... أشرعت للأنام من تحت قمص
فتولت جيوش صبري انهزاما ... وبودي ذاك اللقاء وحرص
ليس كل الذي يفر بناجٍ ... رب ظعن فيه حياةٌ لشخص
كيف لي بالسلو عنها وقلبي ... قد هوى حلمه بمهوى لخرص
ما تعاطيت ظاهر الصبر إلا ... ردني جيدها بأوضح نص
ومن ذلك قوله أيضاً:
أنا بين الحياة والموت وقفٌ ... نفسٌ خافتٌ ودمعٌ ووكف
حل بي من هواك ما ليس ينبى ... عنه نعتٌ ولا يعبر وصف
عجباً لانعطاف صدغيك والمع ... طف والجيد ثم ما منك عطف
ضاق صدري بضيق حجلك واستو ... قف طرفي حيران ذلك الوقف
كيف يرجى فكاك قلب معني ... في غرام قيداه قرطٌ وشنف
ومن ذلك قوله أيضاً:

رق السنا ذهباً في اللازوردي ... فالأفق ما بين مرقوم وموشي
كأنما الشهب والإصباح ينهبها ... لآلىء سقطت من كف زنجي
ومن شعره في الحكم قوله:
هو الدهر لا يبقى على عائذ به ... فمن شاء عيشاً يصطبر لنوائبه
فمن لم يصب في نفسه فمصابه ... لفوت أمانيه وفقد حبائبه
ومن ذلك قوله:
ملاك الأمر تقوى الله فاجعل ... تقاه عدةً لصلاح أمرك
وبادر نحو طاعته بعزمٍ ... فما تدري متى يمضي بعمرك
ومن ذلك أيضاً:
دماءٌ فوق خدك أم خلوق ... وريقٌ ما بثغرك أم رحيق
وما ابتسمت ثنايا أم أقاحٌ ... ويكنفها شفاه أم شقيق
وتلك سناة نومٍ ما تعاطت ... جفونك أم هي الخمر العتيق
لقد أعدت معاطفك انثناءً ... وقلبي سكره ما إن يفيق
جمالك حضرتي وهواك راحي ... وكأسك مقلتي فمتى أفيق
ومن شعره في الأوصاف:
أرسل الجو ماء وردٍ رذاذا ... وسمع الحزن والدمايث رشا
فانثني حول أسوق اللوح حجلا ... وجرى فوق بردة الروض رقشا
وسما في الغصون حلي بنان ... أصبحت من سلافة الطل رعشا

فترى الزهر ترقم الأرض رقما ... وترى الريح تنقش الماء نقشا
فكأن المياه سيفٌ صقيلٌ ... وكأن البطاح غمدٌ موشي
وكتب عقب انصرافه من غرناطة في بعض قلماته عليها ما نصه: مما قلته بديهةً عند الإشراف على جنابكم السعيد، وقدومي مع النفر الذين ألحفتهم السيادة سيادتكم بالإشراف عليه، والدخول إليه، وتنعيم الأبصار في المحاسن المجموعة لديه، وإن كان يوماً قد غابت شمسه، ولم يتفق أن كمل أنسه، وأنشده حينئذ بعض من حضر، ولعله لم يبلغكم، وإن كان قد بلغكم ففضلكم يحملني في إعادة الحديث:
أقول وعين الدمع نصب عيوننا ... ولاح لبستان الوزارة جانب
أهذي سماءٌ أم بناء سما به ... كواكب غضت عن سناها الكواكب
تناظرت الأشكال منه تقابلاً ... على السعد وسطى عقده والجنائب
وقد جرت الأمواه فيه مجرة ... مذانبها شهبٌ لهن ذوائب
وأشرف من علياء بهو تحفه ... شماسيٌ زجاج وشيها متناسب
يطل على ماءٍ به الآس دائراً ... كما افتر أو كما اخضر شارب
هنالك ما شاء العلي من جلالةٍ ... بها يزدهي بستانها والمراتب
ولما أحضر الطعام هنالك، دعى شيخنا القاضي أبو البركات إلى الأكل، فاعتذر بأنه صائم، قد بيته من الليل، فحضرني أن قلت:

دعونا الخطيب أبا البركا ... ت لأكل طعام الوزير الأحل
وقد ضمنا في نداه جنان ... به احتفل الحسن حتى كمل
فأعرض عنا لعذر الصيام ... وما كل عذرٍ له مستقل
فإن الجنان محل الجزاء ... وليس الجنان محل العمل

وعندما فرغنا من الطعام أنشدت الأبيات شيخنا أبا البركات، فقال: لو أنشدتنيها، وأنتم بعد لم تفرغوا منه لأكلت معكم برا بهذه الأبيات، والحوالة في ذلك على الله تعالى.

ولما قضى الله عز وجل، بالإدالة ورجعنا إلى أوطاننا من العدوة، واشتهر عني ما اشتهر من الانقباض عن الخدمة، والتية على السلطان والدولة، والتكبر على أعلى ربت الخدمة، وتطارحت على السلطان في استجاز وعد الرحلة، ورغبت في تفويت الذمة، ونفرت عن الأندلس بالجملة، خاطبني بعد صدر بلغ من حسن الإشارة، وبراعة الإستهلال الغاية، بقوله:

وإلى هذا يا سيدي، ومحل تعظيمي وإجلالي، أمتع الله تعالى الوجود بطول بقائكم، وضاعف في العز درجات ارتقائكم، فإنه من الأمر الذي لم يغب عن رأي المقول، ولا اختلف فيه أرباب المحسوس والمعقول، أنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها، وتاج مفرقها، وواسطة سلكها، وطراز ملكها، وقلادة نحرها، وفريده دهرها، وعقد جيدها المنصوص، وكمال زينتها علىلأ المعلوم والمخصوص، ثم أنتم مدار أفلاكها، وسر سياسة أملاكها، وترجمان بيانها، ولسان إحسانها، وطبيب مارستانها، والذي عليه عقد إدارتها، وبه قوام إمارتها، فلديه يحل المشكل، وإليه يلجأ في الأمر المعضل، فلا غرو أن تتقيد بكم الأسماع والأبصار، وتحدق نحوكم الأذهان والأفكار، ويزجر عنكم السانح والبارح، ويستبأ ما تطرف عنه العين وتختلج الجوارح، استقراءً لمرامكم، واستطلاعاً لطالع اعتزامكم، واستكشافاً لمرامي سهامكم، لا سيما مع إقامتكم على جناح خفوق، وظهوركم في ملتمع بروق واضطراب الظنون فيكم مع الغروب والشروق، حتى تستقر بكم الدار، ويلقى عصاه التسيار، وله العذر في ذلك إذ صدعها بفراقكم لم يندمل، وسرورها بلقائكم لم يكتمل، فلم يبر بعد جناحها المهيض، ولا جم ماؤها المغيض، ولا تميزت من داجيها لياليها البيض، ولا استوى نهارها، ولا تألقت أنوارها، ولا اشتملت نعماؤها، ولا نسيت غماؤها، بل هي كالناقة، والحديث العهد بالمكاره، تستشعر نفس العافية، وتتمسح منكم باليد الشافية، فبحياتكم عليها، وعظيم حرمتكم على من لديها، لا تشوبوا لها عذب المجاج بالأجاج، وتقنطوها مما عودت من طيب المزاج، فما لدائها، وحياة قربكم، غير طبكم من علاج، وإني ليخطر بخاطري محبةً فيكم، وعنايةً بما يعنيكم، ما نال جانبكم صانه الله بهذا الوطن من الجفاء، ثم أذكر ما نالكم من حسن العهد وكرم الوفاء، وأن الوطن إحدى المواطن الأظآر التي يحق لهن جميل الاحتفاء، وما يتعلق بكم من حرمة أولياء القرابة وأولى الصفاء، فيغلب على ظني، أنكم لحسن العهد أجنح، وبحق نفسكم على أوليائكم أسمح، والتي هي أعظم قيمةً في فضائلكم أوهب وأمنح، وهب أن الدر لا يحتاج في الإثباب إلى شهادة النحور واللبات، والياقوت غني المكان، عن مظاهرة القلائد والتيجان، أليس أنه أعلى للعيان وأبعد عن مكابرة البرهان، تألقها في تاج الملك أنو شروان، والشمس وإن كانت أم الأنوار وجلاء الأبصار، مهما أغمي مكانها من الأفق، قيل الليل هو أم نهار، وكما في علمكم ما فارق ذو الأحلام، وأولو الأرحام، مواطن استقرارهم، وأماكن قرارهم، إلا برغمهم واضطرارهم، واستبدال دراهي خير من دراهم، ومتى توازن الأندلس بالمغرب، أو يعوض عنها إلا بمكة أو يثرب، ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعباد، وما فوقه مرابط جهاد، ومعاقد ألوية في سبيل الله،ومضارب أوتاد، ثم يبوىء ولده مبوأ أجداده، ويجمع له بين طرافه وتلاده أعيذ أنظاركم المسددة من

رأى فائل، وسعي طويل لم يحل منه بطائل فحسبكم من هذا الإياب السعيد، والعود الحميد. وهي طويلة.
فأجبته عنها بقولي:
لم في الهوى العذري أو لا تلم ... فالعذل لا يدخل أسماعي
شأنك تعنيفي وشأني الهوى ... كل أمرىءٍ في شأنه ساعي
أهلا بتحفة القادم، وريحانة المنادم، وذكرى الهوى المتقادم، لا يصغر الله مسراك، فما أسراك، لقد جلبت إلى من همومي ليلا، وجبت خيلا ورجلا، ووفيت من صاع الوفا كيلا، وظننت بي الأسف على ما فات، فأعملت الالتفات، لكيلا، فأقسم لو أن الأمر اليوم بيدي، أو كانت اللمة السوداء، من عددي ما أفلت أشراكي المنصوبة لأمثالك حول المياه وبين المسالك، ولا علمت ما هنالك، لكنك طرقت حمى كسحته الغارة الشعواء، وغيرت ربعه الأنواء، فخمد بعد ارتجاجه، وسكت أذين دجاجه، وتلاعبت الرياح والهوج فوق فجاجه، وطال عهده بالزمان الأول، وهل عند رسمٍ دارس من معول، وحيا الله ندباً إلى زيارتي ندبك، وبآدابه الحكيمة أدبك:
فكان وقد أفاد بك الأماني ... كمن أهدى الشفاء إلى العليل
وهي شيمةٌ بوركت من شيمة، وهبة الله قبله،من لدن المشيمة، ومن مثله في صلة رعى، وفضل سعي، وقولٍ ووعي:
قسما بالكواكب الزهر ... والزهر عاتمة
إنما الفضل ملةٌ ... ختمت بابن خاتمة

كساني حلة وصفه، وقد ذهب زمان التجمل، وحملني ناهض شكره، وكندي واهٍ عن التحمل، ونظرني بالعين الكليلة عن العيوب فهلا أجاد التأمل واستطلع طلع نثي، ووالي في مركب المعجزة حثى، وإنما أشكوبني: ولو ترك القطا ليلا لناما وما حال شمل وتده مفروق، وقاعدته فروق، وصواع بني أبيه مسروق، وقلب قرحه من عضة الدهر دامٍ، وجمرة حسرته ذات احتدام، هذا وقد صارت الصغرى، التي كانت الكبرى، لمشيبٍ لم يرع أن هجم، لما نجم، ثم تهلل عارضه وانسحم:
لا تجمعي هجراً علي وغربةً ... فالهجر في تلف الغريب سريع
نظرت فإذا الجنب ناب، وانلفس فريسة ظفر وناب، والمال أكيلة انتهاب، والعمر رهن ذهاب، واليد صفرٌ من كل اكتساب، وسوق المعاد مترامية، والله سريع الحساب.
ولو نعطي الخيار لما افترقنا ... ولكن لا خيار مع الزمان
وهب أن العمر جديدٌ، وظل الأمن مديدٌ، ورأى الاغتباط بالوطن سديدٌ، فما الحجة لنفسي، إذا مرت بمطارح جفوتها، وملاعب هفوتها، ومناقب قناتها، ومظاهر عزاتها ومناتها، والزمان ولود، وزناد الكون غير صلود.
وإذا امرؤ لدغته أفعى مرة ... تركته حين يجر حبل يفرق
ثم أن المرغب قد ذهب، والدهر قد استرجع ما وهب، والعارض قد اشتهب، وآراء الاكتساب مرجوحة مرفوضةٌ، وأسماؤه على الجوار مخفوضةٌ، والنية مع الله على الزهد فيما بأيدي الناس معقودةٌ، والتوبة بفضل الله عز وجل شروطها غير معارضة ولا منقودة، والمعاملة سامرية، ودروع الصبر سابرية، والاقتصاد قد قرت العين بصحبته، والله قد عوض حب الدنيا بمحبته، فإذا راجعها مثلي من بعد الفراق، وقد رقي لدغتها ألف راق، وجمعتني بها الحجرة، ما الذي تكون الأجرة، جل شأني، وقد رضي الوامق وسخط الشاني، إني إلى الله تعالى مهاجر، وللغرض الأدنى هاجر، ولأظعان السرى زاجر، لأحد إن شاء الله وحاجر، ولكن دعاني إلى الهوى، لهذا المولى المنعم هوى، خلعت نعلي الوجود وما خلعته، وشوق أمرني فأطعته، وغالب والله صيري فما استطعته، والحال والله أغلب، وعسى أن لا يخيب

المطلب، فإن يسره رضاه فأمل كمل، وراحل احتمل، وحاد أشجى الناقة والجمل، وإن كان خلاف ذلك، فالزمان جم العوائق، والتسليم بمقامي لائق.

ما بين غمضة عين وانتباهتها ... يصرف الأمر من حال إلى حال

وأما تفضيله هذا الوطن على غيره، ليمن طيره، وعموم خيره، وبركة جهاده، وعمران رباه ووهاده، بأشلاء عباده وزهاده حتى لا يفضله إلى أحد الحرمين، فحقٌ بريٌ من المين، لكنى للحرمين جنحت، وفي جو الشوق إليهما سرحت، فقد أفضت إلى طريق قصدي محجته، ونصرتني والمنة لله حجته، وقصد سيدي أسنى قصد، توخاه الشكر والحمد، ومعروفٌ عرف به النكر، وأملٌ انتحاه الفكر، والآمال والحمد لله بعد تمتار، والله يخلق ما يشاء ويختار ودعاؤه يظهر الغيب مدد، وعدة وعدد، وبره حالي الظعن والإقامة معتملٌ معتمد، ومجال المعرفة بفضله، لا يحصره أحد، والسلام.

وهو الآن بقيد الحياة وذلك ثاني عشر شعبان عام سبعين وسبعمائة.

أحمد بن عباس بن أبي زكريا

ويقال ابن زكريا. ثبت بخط ابن التيان، أنصارى النسب، يكنى أبا جعفر.

حاله

كان كاتباً حسن الكتابة، بارع الخط فصيحاً، غزير الأدب، قوي المعرفة، شارعاً في الفقه، مشاركا في العلوم، حاضر الجواب، ذكي الخاطر، جامعاً للأدوات السلطانية، جميل الوجه، حسن الخلقة، كلفاً بالأدب، مؤثراً له على سائر لذاته، جامعاً للدواوين العلمية، معنياً بها مقتنياً للجيد منها مغالياً فيها، نفاعا من خصه بها، لا يستخرج منها شيئاً، لفرط بخله بها، إلا لسبيلها، حتى لقد أثرى كثيرٌ من الوراقين والتجار معه فيها، وجمع منها ما لم يكن عند ملك.

يساره، يقال إنه لم يجتمع عند أحد من نظرائه ما اجتمع عنده من عين وورق ودفاتر وخرق، وآنية، ومتاع وأثاث وكراع.

مشيخته

روي عن أبي تمام غالب التياني، وأبي عبد الله بن صاحب الأحباس.

نباهته وحظوته

وزر لزهير العامري الآتي ذكره، وراثاً الوزارة عن أبيه، وهي ما هي في قطر متحر بينابيع السخلية، وثر بهذه الأمنة مستنداً إلى قعساء العزة، فتبنك نعيماً كثيراً، تجاوز الله عنه.

دخوله غرناطة

الذي اتصل علمي أنه دخل غرناطة منكوباً حسبما يتقرر.

نكبته

زعموا أنه كان أقوى الأسباب فيما وقع بين أميره زهير، وبين باديس، أمير غرناطة، من المفاسدة، وفصل صحبه إلى وقم باديس وقبيله، وحطه في حيز هواه وطاعته، وكان من شاء الله من استيلاء باديس على جملتهم، ووضع سيوف قومه فيهم، وقتل زهير، واستئصال محلته، وقبض يومئذ على أحمد بن عباس، وجيء به إلى باديس، وصدره يغلي

حقداً عليه، فأمر بحبسه، وشفاؤه الولوغ في دمه، وعجل عليه بعد دون أصحابه من حملة الأقلام. قال ابن حيان حديث ابن عباس أنه، كان قد ولع ببيت شعر صيره هجواه أوقات لعبه بالشطرنج، أو معنى يسنح له مستطيلاً بجده.

عيون الحوادث عني نيامٌ ... وهضمي على الدهر شيء حرام

وشاع بيته هذا عند الناس، وغاظهم حتى قلب له مصراعه بعض الشعراء فقال: سيوقظها قدرٌ لا ينام فما كان إلا كلا ولا حتى تنبهت الحواث لهضمه، إنتباهةً انتزعت منه نخوته وعزته، وغادرته أسيراً ذليلاً يرسف في وزن أربعين رطلاً من قيده، منزعجاً من عضه لساقه البضة، التي تألمت من ضغطة جوربه، يوم أصبح فيه أميراً مطاعاً أعتى الخلق على بابه، وآمنهم بمكره، فأخذه أخذ مليكٍ مقتدرٍ، والله غالبٌ على أمره.

وفاته

قال أبو مروان: كان باديس قد أرجأ قتله مع جماعة من الأسرى، وبذلك في فداء نفسه ثلاثين ألف دينار من الذهب العين، مالت إليها نفس باديس، إلا إنه عرض ذلك على أخيه بلكين، فأنف منه، وأشار عليه بقتله، لتوقعه إثارة فتنة أخرى على يديه، تأكل من ماله أضعاف فديته. قال فانصرف يوماً من بعض ركباته مع أخيه، فلما توسط الدار التي فيها أحمد بقصبة غرناطة، لصق القصر، ووقف هو وأخوه بلكين، وحاجبه على بن القروى، وأمر بإخراج أحمد إليه، فأقبل يرسف في قيده حتى وقف بين يديه، فأقبل على سبه وتبكيته بذنوبه، وأحمد يتلطف إليه، ويسأله إراحته مما هو فيه، فقال له: اليوم تستريح من هذا الألم، وتنتقل إلى ما هو أشد، وجعل يراطن أخاه بالبربرية، فبان لأحمد وجه الموت، فجعل يكثر الضراعة، ويضاعف عدد المال، فأثار غضبه، وهز مزراقه، وأخرجه من صدره، فاستغاث الله، زعموا، عند ذلك، وذكر أولاده وحرمه، للحين أمر باديس بحز رأسه ورمي خارج القصر.

حدث خادم باديس، قال: رأيت جسد ابن عباس ثاني يوم قتله، ثم قال لي باديس، خذ رأسه ووراه مع جسده، قال: فنبشت قبره، وأضفته إلى جسده، بجنب أبي الفتوح قتيل باديس أيضاً. وقال لي باديس: ضع عدواً إلى جنب عدو، إلى يوم القصاص، فكان قتل أبي جعفر عشية الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة سبع وعشرين وأربعمائة، بعد اثنين وخمسين يوماً من أسره. وكان يوم مات ابن ثلاثين. نفعه الله ورحمه.

ابن عطية القضاعي

أحمد بن أبي جعفر بن محمد بن عطية القضاعي من أهل مراكش، وأصله القديم من طرطوشة ثم بعد، من دانية يكنى أبا جعفر.

حاله

كان كاتباً بليغاً، سهل المأخذ منقاد القريحة، سيال الطبع

مشيخته

أخذ عن أبيه، وعن طائفة كبيرة من أهل مراكش.

نباهته

كتب عن علي بن يوسف بن تاشفين، وعن إبه تاشفين، وعن أبي إسحاق وكان أحظى كتابهم. ثم لما انقطعت دولة لمتونة، دخل في لفيف الناس، وأخفى نفسه. ولما أثار الماسي الهداية بالسوس، ورمي الموحدين بحجرهم الذي رموا به البلاد، وأعيا أمره، وهزم جيوشهم، التي جهزوها إليه وانتدب منهم إلى ملاقاته، أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، في جيش خشن من فرسان ورجاله، كان أبو جعفر بن عطية، من الرجالة، مرتسما بالرماية، والتقى الجمعان، فهزم

جيش الماسي، وظهر عليه الموحدون. وقتل الدعي المذكور، وعظم موقع الفتح عند الأمير الغالب يومئذ أبو حفص عمر، فأراد إعلام الخليفة عبد المؤمن، بما سناه الله، فلم يلق في جميع من استصحبه من يجلي عنه، ويوفي ما أراده، فذكر له أن فتًى من الرماة يخاطر بشيء من الأدب والأشعار والرسايل فاستحضره، وعرض عليه غرضه. فتجاهل وظاهر بالعجز، فلم يقبل عذره، واشتد عليه، فكتب رسالة فائقة مشهورة، فلما فرغ منها وقرأها عليه اشتد إعجابه بها وأحسن إليه، واعتنى به، واعتقد أنه ذخرٌ يتحف به عبد المؤمن وأنفذ الرسالة، فلما قرئت بمحضر أكابر الدولة، عظم مقدارها، ونبه فضل منشيها، وصدر الجواب ومن فصوله الاعتناء بكاتبها، والإحسان إليه واستصحابه مكرماً. ولما أدخل على عبد المؤمن سأله عن نفسه، وأحظاه لديه وقلده خطة الكتابة، وأسند إليه وزارته، وفوض إليه النظر في أموره كلها، فنهض بأعباء ما فوض إليه، وظهر فيه استقلاله وغناؤه، واشتهر بأجمل السعي للناس واستمالتهم بالإحسان وعمت صنايعه، وفشا معروف، فكان محمود السيرة، منحب المحاولات، ناجح المساعي، سعيد المأخذ، ميسر المآرب، وكانت وزارته زيناً للوقت، كمالا للدولة.

محنته

قالوا، واستمرت حالته إلى أن بلغ الخليفة عبد المؤمن أن النصارى غزوا قصبة ألمرية، وتحصنوا بها، واقترن بذلك تقديم ابنه يعقوب على إشبيلية، فأصحبه أبا جعفر بن عطيه، وأمره أن يتوجه بعد استقرار ولده بها إلى ألمرية، وقد تقدم إليها السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن، وحصر من بها النصارى، وضيق عليهم، ليحاول أمر إنزالهم، ثم يعود إلى إشبيلية، ويتوجه معها مع واليها، إلى منازلة الثائر بها على الوهيبي، فعمل على ما حاوله من ذلك، واستنزل النصارى من ألمرية على العهد بحسن محاولته، ورجع السيد أبو سعيد إلى غرناطة، مزعجين إليها، حتى يسبقا جيش الطاغية، ثم انصرف إلى إشبيلية ليقضي الغرض من أمر الوهيبي. فعندما خلا منه الجو، ومن الخليفة مكانه، وجدت حساده، السبيل إلى التدبير عليه، والسعي به، حتى أوغروا صدر الخليفة، فاستوزر عبد المؤمن ابن عبد السلام بن محمد الكومي. وانبرى لمطالبة ابن عطية، وجد في التماس عوراته، وتشنيع سقطاته، وأغرى به صنايعه، وشحن عليه حاشيته، فبروا وراشوا وانقلبوا، وكان مما نقم على أبي جعفر، نكاة القرح بالقرح، في كونه لم يقف في اصطناع العدد الكثيرمن اللمتونيين، وانتياشهم من خمولهم، حتى تزوج بنت يحيى الحمار من أمرائهم، وكانت أمهم زينب بنت علي بن يوسف، فوجدوا السبيل بذلك إلى استئصال شأنته والحكام. حتى نظم منهم مروان بن عبد العزيز، طليقه ومسترق اصطناعه، أبياتاً طرحت بمجلس عبد المؤمن.

قل للإمام أطال الله مدته ... قولاً تبين لذي لب حقائقه
إن الزراجين قوم قد وترتهم ... وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميلٌ ... لذاك ما كثرت فيهم علائقه
فبادر الحزم في إطفاء نارهم ... فربما علق عن أمر عوائقه
هم العدو ومن والاهم كهم ... فاحذر عدوك واحذر من يصادقه
الله يعلم أني ناصحٌ لكم ... والحق أبلج لا تخفى طرايقه

قالوا، ولما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة في معناها وغر صدره على وزيره الفاضل أبي جعفر، وأسر له في نفسه تغيراً، فكان ذلك من أسباب نكبته. وقيل أفضى إليه بسر فأفشاه. وانتهى ذلك كله إلى أبي جعفروهو بالأندلس، فقلق وعجل بالانصراف إلى مراكش، فحجب عند قدومه، ثم قيد إلى المسجد في اليوم الثاني بعده، حاسر

العمامة، واستحضر الناس على طبقاتهم وقرروا ما يعلمون من أمره وما صار إليهم منه، فأجاب كل بما اقتضاه هواه، فأمر بسجنه، ولف معه أخوه أبو عقيل عطية، وتوجه عبد المؤمن في إثر ذلك زايراً إلى تربة المهدي.
فاستصحبهما منكوبين بحال ثقاف، وصدرت عن أبي جعفر في هذه الحركة، من لطايف الأدب، نظما ونثرا في سبيل التوسل بتربة إمامهم، عجائب لم تجد، مع نفوذ قدر الله فيه، ولما انصرف من وجهته أعادهما معه، قافلاً إلى مراكش، فلما حاذى تاقمرت، أنفذ الأمر بقتلهما، بالشعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحة هنالك، فمضيا لسبيلهما رحمهما الله.

شعره وكتابته

كان مما خاطب به الخليفة عبد المؤمن مستعطفاً كما قلناه من رسالة: تالله لو أحاطت بي خطيئةٌ، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئةً، حتى سخرت بمن في الوجود، وأنفت لآدم من السجود، وقلت إن الله لم يوح إلى الفلك إلى نوح، وبريت لقرار ثمود نبلاً، وأبرمت لحطب نار الخليل حبلاً، وحططت عن يونس شجرة اليقطين، وأوقدت مع هامان على الطين، وقبضت قبضةً من الطير من أثر الرسول فنبذتها، وافتريت على العذراء البتول فقذفتها، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة، وظاهرت الأحزاب بالقصوى من العدوة، وذممت كل قرشي، وأكرمت لأجل وحشى كل حبشي، وقلت إن بيعة السقيفة لا توجب لإمام خليفة، وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة، واعتقلت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة، وغادرت الوجه من الهامة خضيباً، وناولت من قرع سن الخمسين قضيباً، ثم أتيت حضرة المعصوم لائذاً، وبقبرالإمام المهدي عائذاً لقد آن لمقالتي أن تسمع، وأن تغفر لي هذه الخطيئات أجمع:

فعفواً أمير المؤمنين فمن لنا ... بحمل قلوبٍ هدها الخفقان
عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد ... بان العزاء لفرط البث والحزن
قد أغرقتنا ذنوبٌ كلها لججٌ ... وعطفةٌ منكم أنجى من السفن
وصادفتنا سهامٌ كلها غرضٌ ... لها ورحمتكم أوقى من الجنن
هيهات للخطب أن تسطو حوادثه ... بمن أجازته رحماكم من المحن
من جاء عندكم يسعى على ثقة ... بنصره لم يخف بطشاً من الزمن
فالثوب يطهر بعد الغسل من درن ... والطرف ينهض بعد الركض من وسن
أنتم بذلتم حياة الخلق كلهم ... من دون من عليهم لا ولا ثمن
ونحن من بعض من أحييت مكارمكم ... تلك الحياتين من نفسٍ ومن بدن
وصبية كفراخ الورق من صغر ... لم يألفوا النوح في فرع ولا فتن
قد أوجدتهم أيادٍ منك سابغة ... والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

ومن فصول رسالته التي كتب بها عن أبي حفص، وهي التي أورثته الكتابة العلية والوزارة كما تقدم قوله: كتبنا هذا من وادي ماسة بعد ما تزحزح أمر الله الكريم، ونصر الله المعلوم، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. فتح بمسرى الأنوار إشراقاً، وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقاً، ونبه للأماني النائمة جفوناً وأحداقاً، واستغرق غاية الشكر استغراقاً، فلا تطيق الألسن كنه وصفه إدراكاً ولا لحاقاً، جمع أشتات الطب والأدب وتقلب في النعم أكرم منقلب، وملأ دلاء الأمل إلى عقد الكرب:

فتحٌ تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وتقدمت بشارتنا به جملة، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة. كان أولئك الضالون المرتدون قد بطروا عدواناً وظلماً، واقتطعوا الكفر معني وإسماً، وأملى لهم الله ليزدادوا إثماً، وكان مقدمهم الشقي قد استمال النفوس بخزعبلاته، واستهوى القلوب بمهولاته، ونصب له الشيطان من حبالاته، فأتته المخاطبة من بعد وكثب، ونسلت إليه الرسل من كل حدب، واعتقدته الخواطر أعجب عجب، وكان الذي قادهم لذلك، وأوردهم تلك المهالك، وصول من بتلك السواحل، ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس، فيما سلف من الأعوام، واشتغل على رغمه بالصيام والقيام، آناء الليل والأيام، لبسوا الناموس أثواباً، وتدرعوا الرياء جلباباً، فلم يفتح الله لهم إلى التوفيق باباً.

ومنها في ذكر صاحبهم: فصرع والحمد لله لحينه، وبادرت إليه بوادر منونه، وأتته وافدات الخطيئات عن يساره، ويمينه، وكان يدعي أن المنية في هذه الأعلام لا تصيبه، ويزعم أنه يبشر بذلك والنوائب لا تنوبه، ويقول في سواه قولاً كثيراً، ويختلق على الله إفكاً وزوراً، فلما عاينوا هيئة اضطجاعه، ورأوا ما خطته الأسنة في أعضائه، ونفذ فيه من أمر الله ما لم يقدروا على استرجاعه، هزم لهم من كان لهم من الأحزاب، وتساقطوا على وجوههم كتساقط الذباب، وأعطوا عن بكرة أبيهم صفحة الرقاب، ولم تقطر كلومهم إلا على الأعقاب، فامتلأت تلك الجهات بأجسادهم،وأذنت الآجال بانقراض آمالهم، وأخذهم الله بكفرهم وفسادهم، فلم يعاين منهم إلا من خر صريعاً، وسقى الأرض نجيعاً، ولقي من وقع الهنديات أمراً فظيعاً، ودعت الضرورة باقيهم إلى الترامي في الوادي، فمن كان يؤمل الفرار منهم ويرتجيه، ويسبح طامعاً في الخروج إلى ما ينجيه، اختطفته الأسنة اختطافاً، وأذاقته موتاً ذعافاً، ومن لج في الترامي على لجه، ورام البقاء في ثجه، قضى عليه شرقه، وألوى فرقته غرقه. ودخل الموحدون إلى الباقية الكائنة فيه، يتناولون قتالهم طعناً وحرباً، ويلقونهم بأمر الله هوناً عظيماً وكرباً، حتى سطت مراقات الدماء على صفحات الماء، وحكت حمرتها على زرقه، حمرة الشفق على زرق السماء، وظهرت العبرة للمعتبر، في جرى الماء جرى الأبحر.

دخوله غرناطة

احتل بغرناطة عام إحدى وخمسين وخمسمائة، لما استدعى أهل جهات ألمرية، السيد أبا سعيد إلى منازلة من بها النصارى، وحشد، ونزل عليها، ونصب المجانيق على قصبتها، واستصرخ من بها الطاغية، فأقبل إلى نصرهم، واستمد السيد أبو سعيد الخليفة، فوجه إليه الكبير أبا جعفر بن عطية صحبة السيد أبي يعقوب ابنه، فلحق به، واتصل الحصار شهوراً سبعة، وبذل الأمن لمن كان بها، وعادت إلى ملكة الإسلام، وانصرف الوزير أبو جعفر صحبة السيد أبي يعقوب إلى إشبيلية، وجرت أثناء هذه الأمور يطول شرحها، ففي أثناء هذه الحركة دخل أبو جعفر غرناطة، وعد فيمن ورد عليها.

مولده

بمراكش عام سبعة وعشرين وخمسمائة

وفاته

على حسب ما تقدم ذكره، لليلة بقيت من صفر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة.

محمد بن شعيب الكرياني

من أهل فاس، يكنى أبا العباس، ويعرف بابن شعيب من كريانة، قبيلة من قبائل الريف الغربي.

حاله

من عائد الصلة: من أهل المعرفة بصناعة الطب، وتدقيق النظر فيها، مشاركاً في الفنون، وخصوصاً في علم الأدب، حافظاً للشعر، ذكر أنه حفظ منه عشرين ألف بيت للمحدثين، والغالب عليه العلوم الفلسفيه، وقد مقت لذلك، وتمتك في علم الكمياء، وخلع فيه العذار، فلم يحل بطائل، إلا أنه كان تفوه بالوصول، شنشنة المفتونين بها على مدى الدهر. وله شعر رائق، وكتابة حسنة، وخط ظريف. كتب في ديوان سلطان المغرب مرئسا، وتسرى جارية رومية إسمها صبح، من أجمل الجواري حسناً، فأدبها حتى لقنت حظاً من العربية، ونظمت الشعرن وكان شديد الغرام بها، فهلكت أشد ما كان حباً لها، وامتداد أمل فيها، فكان بعد وفاتها لا يرى إلا في تأوه دائم، وأسف متمادٍ، وله فيها أشعار بديعة في غرض الرثاء.

مشيخته

قرأ في بلده فاس على كثير من شيوخها، كالأستاذ أبي عبد الله بن أجروم نزيل فاس، والأستاذ أبي عبد الله بن رشيد، ووصل إلى تونس، فأخذ منها الطب والهيئة على الشيخ رحلة وقته في تلك الفنون، يعقوب بن الدراس.

وكان مما خاطب به الشيخ أبا جعفر بن صفوان، وقد نشأت بينهما صداقة أوجبها القدر المشترك من الولوع بالصنعة المرموزة، يتشوق إلى جهة كانوا يخلون بها للشيخ فيها ضيعة بخارج مالقة كلأها اللهك

رعى الله وادي شنياية ... وتلك الغدايا وتلك الليال

ومسرحنا بين خضر الغصون ... وودق المياه وسحر الظلال

ومرتعنا تحت أدواحه ... ومكرعنا في النمير الزلال

نشاهد منها كعرض الحسام ... إذا ما انتشت فوقه كالعوال

ولله من در حصبائه ... لآلٍ وأحسن بها من لآل

وليلٍ به في ستور الغصون ... كخودٍ ترنم فوق الحجال

وأسحاره كيف راقت وص ... ح النسيم بها في اعتدال

ولله منك أبا جعفر ... عميد الحلال حميد الخلال

تطارحني برموز الكنو ... ز وتسفر لي عن معاني المعال

وتبدلني في شجون الحديث ... ويا طيبة كل سحرٍ حلالٍ

فألقط من فيك سحر البيان ... مجيباً به عن عريض النوال

أفدت الذي دونها معشرٌ ... كثير المقال قليل النوال

فأصبحت لا أبتغي بعدها ... سواك وبعد كما لا أبال

وخاطب الفقيه العالم أبا جعفر بن صفوان يسأله عن شيء من علم الصناعة بما نصه:

دار الهوى نجدٌ وساكنها ... أقصى أماني النفس من نجد

ومما صدر به رسالة:

أيجمع هذا الشمل بعد شتاته ... ويوصل هذا الحبل بعد انبتاته

أما للبلي آية عيسويةٌ ... فينشر ميت الأنس بعد مماته

ويورد عيني بعد ملح مدامعي ... برؤيته في عذبه وفراته

وأنشد له صاحبنا الفقيه الجليل صاحب العلامة بالمغرب، أبو القاسم بن صفوان قوله:

يا رب ظبي شعاره نسك ... ألحاظه في الورى لها فتك

يترك من هام به مكتئباً ... لا تعجبوا أن قومه الترك
أشكو له ما لقيت من حرق ... فيمش لاهياً إذا أشكو
صبرت حتى أطل عارضه ... فكان صبري ختامه مسك
ومن المعاتبة والفكاهة قوله:
وبائعٌ للكتب يبتاعها ... بأرخص السوم وأغلاه
في نصف الاستذكار أعط ... يته ومحض العين وأرضاه
وله أيضاً:
يا من توعدني بحادث هجره ... إن السلو لدون ما يتوعد
هذا عذارك وهو موضع سلوتي ... فأكفف فقد سبق الوعيد الموعد
وأظن سلوتنا غداً أو بعده ... فبذاك خبرنا الغراب الأسود
وله أيضاً:
قال العذول تنقصاً لجماله ... هذا حبيبك قد أطل عذاره
لا بل بدا فصل الربيع بخده ... فلذا تساوي ليله ونهاره
وله يرثي:
يا قبر صبحٍ حل فيك ... بمهجتي أسنى الأمان
وغدوت بعد عيانها ... أشهى البقاع إلى العيان
أخشى المنية إنها ... تقصي مكانك عن مكان
كم بين مقبور بف ... اس وقابر بالقيروان
وله أيضاً يرثيها:
يا صاحب القبر الذي أعلامه درست ... وثابت حبه لم يدرس
ما اليأس منك على التصبر حاملي ... أيأستني فكأنني لم أيأس
لما ذهبت بكل حسن أصبحت ... نفسي تعاني شجو كل الأنفس
أصباح أيامي ليال كلها ... لا تنجلي عن صبحك المتنفس
وقال في ذلك:
أعلمت ما صنع الفراق ... غداة جد به الوفاق
ووقفت منهم حين للنا ... ظرات والدمع استباق
سبقت مطاياهم فما ... أبطى بنفسك في السباق
أأطقت حمل صدودهم ... للبين خطبٌ لا يطاق
عن ذات عرق أصعدوا ... أتقول دارهم العراق
نزلوا ببرقة ثمهد ... فلذاك ما شئت البراق
وتيامنوا عفان أن ... يقفوا بمجتمع الرفاق

ما ضرهم وهم المنى ... لو وافقوا بعض الرفاق
قالوا تفرقنا غداً ... فشغلت عن وعد التلاق

عمداً رأوا قتل العمي ... د فكان عيشك في اتفاق
أولى لجسمك أن يرق ... وجمع عينك أن يراق
أما الفؤاد فعندهم ... دعه ودعوى الاشتياق
أعتاد حب محلهم ... فمحل صدرك عنه ضاق
واها لسالفة الشبا ... ب مضت بأيامي الرقاق
أبقت حرارة لوعةٍ ... بين الترايب والتراق
لا تنطفي وورودها ... من أدمعي كأسٌ دهاق
وقال أيضاً:
يا موحشي والبعد دون لقائه ... أدعوك عن شحطٍ وإن لم تسمع
يدنيك مني الشوق حتى إنني ... لأراك رأى العين لولا أدمعي
وأحن شوقاً للنسيم إذا سرى ... لحديثكم وأصيح كالمستطلع
كان اللقا فكان حظي ناظري ... وسط الفراق فصار حظي مسمع
فابعث خيالك تهده نار الحشي ... إن كان يجهل من مقامي موضع
واصحبه من نومي بتحفة قادم ... فصدى فليل ركابكم لم تجمع
دخوله غرناطة

دخل غرناطة على عهد السابع من ملوكها الأمير محمد لقربٍ من ولايته في بعض شئونه، وحقق بها تغيير أمر الأدوية المنفردة التي يتشوف الطيب إليها والشحرور وهي بقرية شون من خارجها.
وفاته رحمه الله، توفي بتونس في يوم عيد الأضحى من سنة تسع وأربعين وسبعمائة.
ابن عرفة اللخمي
أحمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن حسين بن علي بن سليمان بن عرفة اللخمي الفقيه، الرئيس، المتفنن، حامل راية مذهب الشعر في وقته، المشار إليه بالبنان في ذلك ببلده، يكنى أبا العباس.
حاله
كان فذاً في الأدب، طرفاً في الإدراك، مهذب الشمايل، ذلق اللسان، ممتع المجالسة والمحاضرة، حلو الفكاهة، يرمي كل غرضٍ بسهم، إلى شرف النشأة وعز المرتبة، وكرم المحتد، وأصالة الرياسة.
حدثني الشيخ أبو زكريا بن هذيل، قال: حضرت بمجلس ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم، وأبو العباس بدر هالته، وقطب جلالته، فلم يحر بشيءٍ إلا ركض فيه، وتكلم بملىء فيها. ثم قمنا إلى زبارين يصلحون شجرة عنب، فقال لعريفهم حق هذا أن يقصر، ويطال هذا، ويعمل كذا. فقال الوزير، يا أبا العباس ما تركت لهؤلاء أيضاً، حظاً من صناعتهم، يستحقون به الأجرة، فعجبنا من استحضاره ووساعة ذرعه، وامتداد حظ كفايته.
قدومه على غرناطة
قدم عليها مع الجملة من قومه عند تغلب الدولة النصرية على بلدهم، ونزول البلاء والغلاء والمحنة بهم، والجلاء بهم في آخر عام خمسة وسبعمائة، ويأتي التعريف بهم، بعد إن شاء الله، وكان أوفر الدواعي في الاستعطاف لهم بما تقدم بين يدي أدعيائهم، ودخولهم على السلطان، أن الذي تنخل بمثله السخائم، وتذهب الإحن، وخطب لنفسه، فاستمرت، حاله لطيف المنزلة، معروف المكانة، ملازماً مجلس مدبر الدولة، مرسوماً بصداقته، مشتملاً عليه ببره، إلى

أن كان من تقلب الحال، وإدالة الدولة، ما كان.

شعره

وشعره نمطٌ عال، ومحل البراعة حال، لطيف الهبوب، غزير المائية، أنيق الديباجة، جم المحاسن، فمنه في منهب المدح، يخاطب ذا الوزارتين أبا عبد الله ابن الحكيم:

تملكت رقي بالجمال فأجمل ... وحكمت قلبي بجورك فاعدل
أنت الأمير على الملاح ومن يجر ... في حكمه إلا جفونك يعزل
إن قيل أنت البدر فالفضل الذي ... لك بالكمال ونقصه لم يجهل
لولا الحظوظ لكنت أنت مكانه ... ولكان دونك في الحضيض الأسفل
عيناك نازلنا القلوب فكلها ... إما جريحٌ أو مصاب المقتل
هزت ظباها بعد كسر جفونها ... فأصيب قلبي في الرعيل الأول
ما زلت أعذل في هواك ولم يزل ... سمعي عن العذال فيك بمعزل
أصبحت في شغل بحبك شاغلٍ ... عن أن أصيخ إلى كلام العذل
لم أهمل الكتمان لكن أدمعي ... هملت ولو لم تعصني لم تهمل

جمع الصحيحين الوفاء مع الهوى ... قلبي وأملي الدمع كشف المشكل
ما في الجنوب ولا الشمال جواب ما ... أهدي إليك مع الصبا والشمال
خلساً له من طيب عرفك نفحة ... تجيء بها دماء عليلها المتعلل
إن كنت بعدي حلت عما لم أحل ... عنه وأهملت الذي لم أهمل
أو حالت الأحوال فاستبدلت بي ... فإن حبي فيك لم يستبدل
لاقيت بعدك ما لو أن أقله ... لاقي الثرى لأذاب صم الجندل
وحملت في حبك ما لو حملت ... شم الجبال أخفه لم تحمل
من حيف دهرٍ بالحوادث مقدمٍ ... حتى على حبس الهزبر المشبل
قد كنت منه قبل كر صروفه ... فوق السنام فصرت تحت الكلكل
ونصول شيبٍ قد ألم بلمتي ... وخضاب أبي شيبة لم تنصل
ينوي الإقامة ما بقيت وأقسمت ... لا تنزل اللذات ما لم يرحل
ومسير ظعنٍ ودان حميمه ... لاقي الحمام وإنه لم يفعل
يطوي على جسدي الضلوع فقلبه ... بأواره يغلي كغلي المرجل
في صدره ما ليس في صدري له ... من مثله مثقال حبة خردل
أعرضت عنه ولو أشف لذمة ... شعري لجرعة نقيع الحنظل
جليت في حلبات سبق لم يكن ... فيها بمرتاح ولا بمرمل
ما ضره سبقيه في زمن مضى ... أن المجلي فيه دون الفسكل
ساءته مني عجرفية قلبٍ ... باقٍ على مر الحوادث حول
متحرقٌ في البذل مدة سيره ... متجلدٌ في عسره متجمل
حتى يثوب له الغنى من ماجد ... بقضاء حاجات الكرام موكل

مثل الوزير ابن الحكيم وماله ... مثلٌ يقوم مقامه متمثل
ساد الورى بحديثه وقديمه ... في الحال والماضي وفي المستقبل
من بيت مجد قد سمت بقبابه ... أقيال لخمٍ في الزمان الأول
سامي الدعائم طال بيت وزارة ... ومشاجع وأبي الفوارس نهشل
يلقى الوفود ببسط وجهٍ مشرق ... تجلو طلاقته هموم المجتلى
فلآملي جدواه حول فنائه ... لقط القطا الأسراب حول المنهل
وإذا نحى بالعدل فصل قضية ... لم تحظ فصلا من إطالة مفصل
يقضي على سخب الخصوم وشغبهم ... ويقيم مغريهم مقام المزمل
ويلقن الحج العيي تحرجاً ... من رامحٍ عند اللجاج وأعزل
فإذا قضى صور المحق بحقه ... عنه وحاق عقابه بالمبطل
عجلٌ على من يستحق مثوبةً ... فإذا استحق عقوبة لم يعجل
يا كافي الإسلام كل عظيمة ... ومعيده غضاً كأن لم يذبل

وقال أيضاً يمدحه بقصيدة من مطولاته، وإنما اجتلبت من مدحه للوزير ابن الحكيم لكونه يمدح أديباً ناقداً، وبليغاً بالكلام بصيراً، والإجادة تلزم فيه منظومه، إذ لا يوسع القريحة فيه عذراً، ولا يقبل من الطمع قدماً، وهي:

أما الرسوم فلم ترق لما بي ... واستعجمت عن أن ترد جوابي
واستبدلت بوحوشها من أن ... سٍ بيض الوجوه كواعب أتراب
ولقد وقفت بها أرقرق عبرةً ... حتى اشتكي طول الوقوف صحاب
يبكي لطول بكاي في عرصاتها ... صحبي ورجعت الحنين ركاب

ومن شعره في المقطوعات غير المطولات:

لم يبق ذو عين لم يسبه ... وجهك من زين بلا مين
فلاح بينهما طالعاً ... كأنه القمر بلامين

ومن ذلك قوله:

كأنما الخال مصباحٌ بوجنته ... هبت عواصف أنفاسي فعطف
أو نقطةٌ قطرت في الخد إذ رسمت ... خط الجمال بخط اللام والألف

ومن ذلك قوله:

وعدتني أن تزور يا أملي ... فلم أزل للطريق مرتقبا

حتى إذا الشمس للغروب دنت ... وصيرت من لجينها ذهبا
أنسني البدر منك حين بدا ... لأنه لو ظهرت لاحتجبا

ومن ذلك قوله:

هجركم ما لي عليه جلد ... فأعيدوا إلى الرضى أو فعدوا
ما قسى قلبي من هجرانكم ... ولقد طال عليه الأمد

ومن ذلك قوله:

أبدي عذارك عذري في الغرام به ... وزادني شغفاً فيه إلى شغف

كأنه ظن أني قد نسيت له ... عهداً فعرض باللام والألف
ومما هو أطول من المزدوجات قوله:
ويوم كساه الدجى دكن ثيابه ... وهبت نسيم الروض وهو عليل
ولاحت بأفلاك الأفق كواكبٌ ... لها في البدور الطالعات أفول
وجالت جياد الراح بالراح جولةً ... فلم تحل إلا والوقار قتيل
ومن ذلك:
عذلوني فيمن أحب وقالوا ... دب ثمل العذار في وجنتيه
وكذا النمل كلما حل شيئاً ... منع النفس أن تميل إليه
قلت قبل العذار أعذر فيه ... ثم من بعده ألام عليه
إنما دب نحو شهدٍ بفيه ... فلذاك انتهى إلى شفتيه
وإحسانه كثير، ومثله لا يقنع منه بيسير.
وفاته

قال في عائد الصلة: ولما كان من تغلب الحال، وإدالة الدولة، وخلع الأمير، وقتل وزيره، يوم عيد الفطر من سنة سبع وسبعمائة، وانتهبت دار الوزير، ونالت الأيدي يومئذ، من شمله دهليز بابه، من أعيان الطبقات، وأولى الخطط والرتب، ومنهم أبو العباس هذا رحمه الله، فأفلت تحت سلاحٍ مشهورٍ، وحيز مرقوف، وثوب مسلوف، فأصابته بسبب ذلك علة أياماً، إلى أن أودت به، فقضت عليه بغرناطة، في الثامن والعشرين لذي حجة من سنة سبع وسبعمائة، ودفن بمقبرة الغرباء من الربيط عبر الوادي تجاه قصور نجد، رحمة الله عليه.
أحمد بن علي المليانى
من أهل مراكش، يكنى أبا عبد الله وأبا العباس.
صاحب العلامة بالمغرب، الكاتب الشهير البعيد الشأن في اقتضاء الثرة، المثل المضروب في العفة، وقوة الصريمة، ونفاذ العزيمة.
حاله
كان نبيه البيت، شهير الأصالة، رفيع المكانة، على سجية غريبة كانت فيه من الوقار والانقباض، والصمت. أخذ بحظ من الصب، حسن الخط، مليح الكتابة، قارضاً للشعر، يذهب نفسه في كل مذهب.
وصمته
فتك فتكة شنيعة أساءت الظن بحملة الأقلام على مر الدهر، وانتقل إلى الأندلس بعد مشقة، وجرى ذكره في كتاب الإكليل بما نصه: الصارم، الفاتك، والكاتب الباتك، أبي اضطرابٍ في وقار، وتجهمٍ تحته أنس عقار، اتخذه صاحب المغرب، صاحب علامته. وتوجه تاج كرامته، وكان يطالب جملة من أشياخ مراكش بثأر عمه، ويطوقهم دمه بزعمه، ويقصر على الاستبصار منهم بنات همه، إذ سعوا فيه حتى اعتقل، ثم جدوا في أمره حتى قتل، فترصد كتاباً إلى مراكش يتضمن أمراً جزماً، ويشل من أمور الملك عزماً، جعل الأمر فيه بضرب رقابهم، وسبي أسبابهم، ولما أكد على حامله في العجل وضياقه في تقدير الأجل، تأنى حتى علم أنه قد وصل، وأن غرضه قد حصل، فر إلى تلمسان، وهي بحال حصارها، فاتصل بأنصارها، حالا بين أنوفها وأبصارها، وتعجب من فراره، وسوء اغتراره، ورجحت الظنون في آثاره. ثم اتصلت الأخبار بتمام الحيلة، واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة، وتركها شنعة على الأيام،

وعاراً في الأقاليم على حملة الأقلام، وأقام بتلمسان إلى أن حل مخنق حصارها، وأزيل اللقيان الضيقة عن خصرها، فلحق بالأندلس، فلم يعدم براً ورعياً مستمراً، حتى أتاه حمامه، وانصرمت أيامه.

شعره

من الذي يدل على بره وانفساخ خطاه في النفاسة، وبعد شأوه، قوله:

العز ما ضربت عليه قبابي ... والفضل ما اشتملت عليه ثيابي

والزهر ما أهداه غصن براعتي ... والمسك ما أبداه نقش كتابي

والمجد يمنع أن يزاحم موردي ... والعزم يأبى أن يسام جنابي

فإذا بلوت صنيعةً جازيتها ... بجميل شكري أو جزيل ثوابي

وإذا عقدت مودة أجريتها ... مجرى طعامي من دمي وشرابي

وإذا طلبت من الفراقد والسهى ... ثأراً فأوشك أن أنال طلابي

وفاته

توفي رحمه الله يوم السبت تاسع ربيع الآخر عام خمسة عشر وسبعمائة، ودفن بجبانة باب إلبيرة، تجاوز الله عنه.

الزيات

أحمد بن محمد بن عيسى الأموي يكنى أبا جعفر، ويعرف بالزيات

حاله

من أهل الخير والصلاح والأتباع، مفتوح عليهأع في طريق الله، نير الباطن والظاهر، مطرح التصنع، مستدل، مجانب للدنيا وأهلها، صادق الخواطر، مرسل اللسان بذكر الله، مبذول النصيحة، مثابر على اتباع السنة، عارف بطريق الصوفيه، ثبت القدم عند زلاتها، ناطق بالحكمة على الأمية، جميل اللقاء، متوغل في الكلف بالجهاد، مرتبط للخيل، مبادر للهيعة، حريص على الشهادة، بركة من بركات الله في الأندلس، يعز وجوده مثله.

وفاته

توفي رحمه الله ببلده غرناطة، يوم الخميس الثاني والعشرين لجمادى الثانية من عام خمسة وستين وسبعمائة، وشارف الإكتهال.

الزيات الكلاعي

أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الكلاعي من أهل بلش مالقة، يكنى أبا جعفر، ويعرف بالزيات، الخطيب، المتصوف الشهير.

حاله

من عائد الصلة: كان جليل القدر كثير العبادة، عظيم الوقار، حسن الخلق، مخفوض الجناح، متألق البشر، مبذول المؤانسة، يذكر بالسلف الصالح، في حسن شيمته، وإعراب لفظه، مزدحم المجلس، كثير الإفادة، صبوراً على الغاشية، واضح البيان فارس المنابر غير مدافع مستحق التصدر في ذلك، بشروط قلما كملت عند غيره، منها حسن الصورة، وكمال الأبهة، وجهورية الصوت، وطيب النغمة، وعدم التهيب، والقدرة على الإنشاء، وغلبة الخشوع، إلى التفنن في كثير من المآخذ العلمية، والرياسة في تجويد القرآن، والمشاركة في العربية، والفقه، والعربية، والأدب، والعروض، والمحاسة في الأصلين، والحفظ للتفسير.

قال لي شيخنا أبو البركات بن الحاج، وقد جرى ذكر الخطابة: ما رأيت في استيفائها مثله. كان يفتح مجالس تدريسه أكثر الأحيان، بخطب غريبة، يطبق بها مفاصل الأغراض، التي يشرع في التكلم فيها، وينظم الشعر دائماً في مراجعاته ومخاطباته، وإجازاته، من غير تأن ولا روية، حتى اعتاده ملكةً بطبعه، واستعمل في السفارة بين الملوك، لدحض السخائم، وإصلاح الأمور، فكانوا يوجبون حقه، ويلتمون بركته، ويلتمسون دعاءه.

مشيخته

تحمل العلم عن جملة، منهم خاله الفقيه الحكيم أبو جعفر أحمد بن علي المذحجي من أهل الحمة، من ذوي المعرفة بالقرآن والفرائض، ومنهم القاضي أبو علي الحسين بن أبي الأحوص القهري، أخذ عنه قراءةً وإجازة، ومنهم العارف الرباني، أبو الحسن فضل بن فضيلة، أخذ عنه طريقة الصوفيه وعليه سلك، وبه تأدب، وبينهما في ذلك مخاطبات، ومنهم أبو الزهر ربيع بن محمد بن ربيع الأشعري، وأبو عبد الله محمد بن يحيى أخوه، ومنهم أبو الفضل عياض ابن محمد بن عياض بن موسى، قرأ عليه ببلش وأجاز له، ومنهم الأستاذ أبو جعفر ابن الزبير، والأستاذ أبو الحسن التجلي، وأبو محمد بن سماك، وأبو جعفر بن الطباع، وأبو جعفر بن يوسف الهاشمي الطنجلي، والأستاذ النحوي أبو الحسن بن الصائغ، والكاتب الأديب أبو علي بن رشيق التغلبي، والراوية أبو الحسن بن مستقور الطائي، والإمام أبو الحسن بن أبي الربيع، والأستاذ أبو إسحاق الغافقي الميربي، والإمام العارف أبو محمد عبد العظيم بن الشيخ البلوي، بما كان من إجازته العامة لكل من أدرك عام أحد وأربعين وستمائة، وغير هؤلاء ممن يشق إحصاؤهم.

تصانيفه

كثيرة، منها المسماة بالمقام المخزون في الكلام الموزون، والقصيدة المسماة بالمشرف الأصفى في المأدب الأوفى، وكلاهما ينيف على الألف بيت، ونظم السلوك في شيم الملوك، والمجتني النضير والمقتني الخطير، والعبارة الوجيزة عن الإشارة، واللطائف الروحانية والعوارف الربانية. ومن تواليفه: أس مبنى العلم، وأس معنى الحلم، في مقدمة علم الكلام، ولذات السمع من القراءات السبع، نظماً، ورصف نفائس اللآلى، ووصف عرائس المعالي، في النحو، وقاعدة البيان وضابطة اللسان، في العربية، ولهجة اللافظ وبهجة الحافظ، والأرجوزة المسماة بقرة عين السائل وبغية نفس الآمل، في اختصار السيرة النبوية، والوصايا النظامية في القوافي الثلاثية، وكتاب عدة الداعي، وعمدة الواعي، وكتاب عليه السلام عوارف الكرم، وصلات الإحسان، فيما حواه العين من لطائف الحكم وخلق الإنسان، وكتاب جوامع الأشراف والعنايات، في الصوادع والآيات، والنفحة الوسيمة والمنحة الجسيمة، تشتمل على أربع قواعد اعتقادية وأصوليه وفروعية وتحقيقية، وكتاب شروف المفارق في اختصار كتاب المشارق، وتلخيص الدلالة في تخليص الرسالة، وشذور النهب في صروم الخطب، وفائدة الملتقط وعائدة المغتبط، وكتاب عدة المحق وتحفة المستحق.

نثره

من ذلك خطبة ألغيت الألف من حروفها، على كثرة ترددها في الكلام وتصرفها، وهي: حمدت ربي جل من كريم محمود، وشكرته عز من عظيم موجود، ونزهته عن جهل كل ملحد كفور، وقدسته عن قول كل مفسد غرور، كبير لو تقدم، في فهم نجد، قدير لو تصور في رسم لحد، لو عدته فكرة التصور لتصور ولو حدته فكرة لتعذر، ولو فهمت له كيفية لبطل قدمه، ولو علمت له كيفية لحصل عدمه، ولو حصره، طرفٌ لقطع بتجسمه، ولو قهره

وصفٌ لصدع بقسمه، ولو فرض له شبحٌ لرهقه كيف، ولو عرض له، للحق عجلٌ وريث، عظيم من غير تركب قطر، عليمٌ من غير ترتب فكر، موجود من غير شيء يمسكه، معبود من غير وهم يدركه، كريمٌ من غير عوض يلحقه، حكيم من غير عرضٍ يلحقه، قوي من غير سببٍ يجمعه، عليٌّ من غير سبب يرفعه، لو وجد له جنس لعورض في قيموميته، ولو ثبت له حسٌّ لنوزع في ديموميته.

ومنها: تقدس عن لم فعله، وتنزه عن سم فضله، وجل عن ثم قدرته، وعز عن عم عزته، وعظمت عن من صفته، وكثرت عن كم منته، فتق ورتق صور وحلق، وقطع ووصل، ونصر وخذل، حمدته حمد من عرف ربه، ورهب ذنبه، وصفت حقيقة يقينه قلبه، وذكرت بصيرة دينه لبه، فنهض لوعي بشروط نفضته وحد، وربط سلك سلوكه وشيد، وهدم صرح عتوه وهد، وحرس معقل عقله وحد، طرد غرور غرته ورذله، علم علم تحقيق فنحا نحوه، وتفرد له عز وجل بثبوت ربوبيته وقدمه، ونعتقد صدور كل جوهر وعرض عن جوده وكرمه، ونشهد بتبليغ محمد صلى ربه عليه وسلم، رسوله وخير خلقه، ونعلن بنهوضه في تبيين فرضه، وتبليغ شرعه، ضرب قبة شرعه، فنسخت كل شرع، وجدد عزيمته فقمع عدوه خير قمع، قوم كل مقوم بقويم سمته، وكريم هديه، وبين لقومه كيف يركنون فوره بقصده، وسديد سعيه، بشر مطيعه، فظفر برحمته، وحذر عاصيه فشقي بنقمته.

وبعد فقد نصحتم لو كنتم تعلقون، وهديتم لو كنتم تعملون، وبصرتم لو كنتم تبصرون، وذكرتم لو كنت تذكرون، وظهرت لكم حقيقة نشركم وبرزت لكم خبيئة حشركم، فلم تركضون في طلق غفلتكم، وتغفلون عن يوم بعثكم، وللموت عليكم سيفٌ مسلول، وحكم عزم غير معلوم، فكيف بكم يوم يؤخذ كل بذنبه، ويخبر بجميع كسبه، ويفرق بينه وبين صحبه، ويعدم نصرة حزبه، ويشغل بهمه وكربه، عن صديقه وتربه، وتنشر له رقعته وتعين له بقعته، فربح عبدٌ نظر وهو في مهل لنفسه، وترسل في رضى عمله جنةً لحلول رمسه، وكسر صم شهوته ليقر في بحبوحة قدسه، وحصر بنظر ينزله سرير سروره بين عقله وجسمه.

ومنها: فتنبه ويحك من سنتك ونومك وتفكر فيمن هلك من صحبك وقومك، هتف بهم من تعلم، وشب عليهم من حرق مظلم، فخربت بصيحته ربوعهم، وتفرقت لهوله جموعهم، وذل عزيزهم، وخسي رفيعهم، وصم سميعهم، فخرج كل منهم عن قصره، ورمي غير موسد في قبره، فهم بين سعيدٍ في روضته مقرب، وبين شقي في حفرته معذب، فنستوهب منه عز وجل عصمته من كل خطيئة، وخصوصية تقي من كل نفس جريئة.

كتب إلى شيخنا الوزير، ابن ذي الوزارتين، ابن الحكيم، جواباً عن مخاطبة كتبها إليه يلتمس منه وصايته ونصحه هذا الشعر:

جل اسم مولانا اللطيف الخبير ... وعز في سلطانه عن نظير
هو الذي أوجد ما فوقها ... وتحتها وهو العليم الخبير
ثم صلاة الله تترى على ... ياقوتة الكون البشير النذير
وصحبه الأولى نالوا مرأى ... يرجع عنه العرف وهو الحسير
وبعد فأنفسهم جوهر ... للأرواح منه ما للأثير
فإنك استدعيت من ناصر ... نصحاً طويلاً وهو منه قصير
ولست أهلا أن أرى ناصحاً ... لقلة الصدق وخبث الضمير
وإنما يحسن نصح الورى ... من ليس للشرع عليه نكير
ومستحيلٌ أن يقود امرأً ... يد امرىءٍ واهي المباني ضرير

واعجبا يلتمس الخير من ... معتقل العقل مهيض كسير
لكن إذا لم يكن بدٌّ فعن ... جهد أوفيك بتبر يسير
فالقنه إن كنت به قانعاً ... درا نظيماً يزدري بالنثير
لازم أبا بكر على منهج ... ذاك تفز منه بخير كثير
واقنع بما يكفي ودع غيره ... فإنما الدنيا هباءٌ نشير
بني لا يخدعنك هذي الدنا ... فإنها والله شيء حقير
أين المشيدات أما زلزلت ... أين أخو الإيوان أين السدير
أين أبو شروان أضحى كأن ... لم يك أين المعتدي أزدشير
هذا مقالٌ من وعاه اهتدي ... وحيط من كل مخوف مير
وصى أبو بكر به أحمدا ... وأحمد في الوقت شيخ كبير
إنقرضت أيامه وانتهى ... وهناً ومن قبل أتاه النذير
وها هو اليوم على عدة ... مبرمه للشر وما من عذير
ومن شعره في طريقة الذي كان ينتحله:
شهود ذاتك شيء عنك محجوب ... لو كنت تدركه لم يبق مطلوب
علوٌ وسفل ومن هذا وذاك معا ... دور على نقطة الإشراق منصوب
ومنزل النفس منه ميمٌ مذكرة ... إن صح للغرض الظنى مرغوب
وإن تناءت مساويها فمنزلها ... أوج الكمال وتحت الروح تقليب
والروح إن لم تخنه النفس قام له ... في حضرة الملك تخصيص وتقريب
ومن شعره:
دعني على حكم الهوى أتضرع ... فعسى يلين لنا الحبيب ويخشع
إني وجدت أخا التضرع فايزاً ... بمراده ومن الدعا ما يسمع
أهلا وما شيء بأنفع للفتى ... من أن يذل عسى التذلل ينفع
وامح اسم نفسك طالباً إثباته ... واقنع بتفريقٍ لعلك تجمع
واخضع فمن دأب المحب خضوعه ... ولربما نال المنى من يخضع
ومن شعره:
مالي بباب غير بابك موقف ... لا ولا لي عن فنائك مصرف
هذا مقامي ما حييت فإن أمت ... فالذل مأوى للضراعة مألف
غرضي وأنت به عليم لمحةٌ ... تذر الشتيت الشمل وهو مؤلف
وعليك ليس على سواك معولي ... جاروا على لأجل ذا أو أنصفوا
ومن المقطوعات في التجنيس:
يقال خصال أهل العلم ألفٌ ... ومن جمع الخصال الألف سادا
ويجمعها الصلاح فمن تعدي ... مذاهبه فقد جمع الفسادا
ومنه في المعنى:

إن شئت فوزاً بمطلوب الكرام غداً ... فاسلك من العمل المرضى منهاجا
واغلب هوى النفس لا تغررك خادعة ... فكل شيء يحط القدر منهاجا
دخوله غرناطة: دخل غرناطة مراراً عدة تشذ عن الحصر، أوجبتها الدواعي بطول عمره، من طلب العلم وروايته، وحاجة عامة، واستدعاء سلطان، وقدوم من سفارة. كان الناس ينسالون عليه ويغشون منزله، فيما أدركت، كلما تبوأ ضيافة السلطان، تبر كابه، وأخذاً عنه.
مولده

ولد ببلش بلده في حدود تسع وأربعين وستمائة.
وفاته
توفي ببلش سحر يوم الأربعاء السابع عشر من شوال عام ثمانية وعشرين وسبعمائة. وممن رثاه شيخنا، نسيج وحده، العالم الصالح الفاضل، أبو الحسن بن الجياب بقصيدة أولها:

على مثله خضابة الدهر فاجع ... تفيض نفوسٌ لا تفيض المدامع
ورثاه شيخنا القاضي أبو بكر بن شبرين رحمه الله، بقصيدة أولها:
أيساعد رائده الأمل ... أم يسمع سائله الطلل
يا صاح فديتك ما فعلت ... ذا من الأحباب وما فعلوا
فأجاب الدمع مناديه ... أما الأحباب فقد رحلوا
ورثاه من هذه البلدة طائفة، منهم الشيخ الأديب أبومحمد بن المرابع الآتي اسمه في العيادة له، بحول الله، بقصيدة أولها:
أدعوك ذا جزع لو أنك سامع ... ماذا أقول ودمع عيني هامع
وأنشد خامس يوم دفنه قصيدة أولها:
عبرة تفيض حزناً وثكلا ... وشجونٌ تعم بعضاً وكلا
ليس إلا صبابة أضرمتها ... حسرةٌ تبعث الأسى ليس إلا
وهي حسنة طويلة.
إبراهيم بن محمد بن مفرج

بن همشك

المتأمر، رومي الأصل.
أوليته
مفرج أو همشك، من أجداده، نصراني أسلم على يدي أحد ملوك بني هود بسرقسطة، نزح إليهم، وكان مقطوع إحدى الأذنين، فكان النصارى إذا رأوه في القتال عرفوه، وقالوا هامشك، معناه ترى المقطوع الأذن، إذ ها عندهم قريب مما هي في اللغة العربي، والمشك المقطوع الأذنين في لغتهم.
نباهته وظهوره

ولما خرج بنو هود عن سرقسطة، نشأ تحت خمول، إلا أنه شهم متحرك، خدم بعض الموحدين في الصيد، وتوسل بدلالة الأرض، ثم نزع إلى ملك قشتالة واستقر مع النصارى، ثم انصرف إلى بقية اللمتونيين بالأندلس بعد شفاعة وإظهار توبة. ولما ولي يحيى بن غانية قرطبة، إرتسم لديه برسمه. ثم كانت الفتنة عام تسعة وثلاثين وثار ابن حمدين بقرطبة، وتسمى بأمير المؤمنين، فبعثه رسولا ثقة بكفايته ودربته وعجمة لسانه، لمحاولة الصلح بينه وبين ابن حمدين، فأغنى ونبه قدره، ثم غلى مرجل الفتنة وكثر الثوار بالأندلس، فاتصل بالأمير ابن عياض بالشرق وغيره، إلى أن تمكن له الامتراز بحصن شفوبش، ثم تغلب على مدينه شقورة وتملكها وهي ما هي من النعمة، فغلظ أمره، وساوى محمد بن مردنيش أمير الشرق وداخله، حتى عقد معه صهراً على ابنته، فاتصلت له الرياسة والإمارة. وكان يعد سيفاً لصهره المذكور، مسلطاً على من عصاه، فقاد الجيوش، وافتتح البلاد إلى أن فسد ما بينهما، فتفاتنا وتقاطعا، وانحاز بما لديه من البلاد والمعاقل، وعد من ثوار الأندلس أولى الشوكة الحادة، والبأس الشديد، والشبا المرهوب. وآثاره بعد انقباض دولته تشهد بما تأمل من ملك وسلف من الدولة والدار الآخرة خير لمن اتقى. قال ابن صفوان:

وديار شكوى الزمان فتشك ... حدثتنا عن عزة ابن همشك

حاله

قال محمد بن أيوب بن غالب، المدعو بابن حمامة: أبو إسحاق الرئيس، شجاع بهمة من البهم. كان رئيساً شجاعاً مقداماً شديد الحزم، سديد الرأي، عارفاً بتدبير الحرب، حمى الأنف، عظيم السطوة، مشهور الإقدام مرتكباً للعظيمة، قال بعض من عرف به من المؤرخين، وهو وإن كان قائد فرسان، هو حليف فتنه وعدوان، ولم يصحب قط متشرعاً، ولا نشأ في أصحابه من كان متورعاً، سلطه الله على الخلق، وأملى له فأضر بمن جاوره من أهل البلاد، وحبب إليه العيث في العباد.

سيرته

كان جباراً قاسياً، فظا غليظاً، شديد النكال، عظيم الجرأة والعبث بالخلق، بلغ من عيثه فيهم، إحراقهم بالنار، وقذفهم من الشواهق والأبراج، وإخراج الأعصاب والرباطات عن ظهورهم، عن أوتار القسي بزعمه، وضم أغصان الشجر العادي بعضها إلى بعض، وربط الإنسان بينها، ثم تسريحها، حتى يذهب كل غصن بحظه من الأعضاء، ورآه بعض الصالحين في النوم بعد موته، وسأله ما فعل الله بك فأنشده:

من سره العيث في الدنيا بخلقة من ... يصور الخلق في الأرحام كيف يشا

فليصبر اليوم صبري تحت بطشته ... مغللا يمتطي جمر الغضا فرشا

شجاعته

زعموا أنه خرج من المواضع التي كانت لنصره متصيداً، وفي صحبته محاولو اللهو، وقارعو أوتار الغناء، في مائة من الفرسان، ونقاوة أصحابه، فما راعهم إلا خيل العدو هاجمه على غرة، في مائتي فارس ضعف عددهم، فقالوا العدو في مائتي فارس، فقال وإذا كنتم أنتم لمائة، وأنا لمائة، فنحن قدرهم، فعد نفسه بمائة. ثم استدعى قدحاً من شرابه، وصرف وجهه إلى المغني، وقال أعد لي تلك الأبيات، كان يغنيه بها فتعجبه:

يتلقى الندا بوجهٍ حي ... وصدور القنا بوجه وقاح

هكذا هكذا تكون المعالي ... طرق الجد غير طرق المزاح

فغناه بها، واستقبل العدو، وحمل عليه بنفسه وأصحابه، حملة رجل واحد، فاستولت على العدو الهزيمة، وأتى على معظمهم القتل، ورجع غانماً إلى بلده. ثم ضربت الأيام، وعاود التصيد في موضعه ذلك، وأطلق بازه على حجلة،

فأخذها وذهب ليذكيها، فلم يحضره ختجر ذلك الغرض في الوقت، فبينما هو يلتمسه، إذ رأى نصلاً من نصال المعترك من بقايا يوم الهزيمة، فأخذه من التراب، وذبح به الطائر، ونزل واستدعى الشراب، وأمر المغني فغناه بيتي أبي الطيب:

تذكرت ما بين العذيب وبارقٍ ... مجر عوالينا ومجرى السوابق

وصحبة قوم يذبحون قنيصهم ... بفضلات ما قد كسروا في المفارق

وقد رأيت من يروي هذه الحكاية عن أمراء بني مردنيش، وعلى كل حال فهي من مستظرف الأخبار.

دخوله غرناطة

قالوا وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة، في جمادى الأولى منها، قصد إبراهيم ابن همشك بجمعه مدينة غرناطة، وداخل طائفة من ناسها، وقد تشاغل الموحدون بما دهمهم من اختلاف الكلمة عليهم بالمغرب، وتوجه الوالي بغرناطة السيد أبي سعيد إلى العدوة، فاقتحمها ليلاً واعتصم الموحدون بقصبتها، فأجاز بهم بأنواع الحرب، ونصب عليهم المجانيق، ورمى فيها من ظفر به منهم وقتلهم بأنواع من القتل. وعندما اتصل الخبر بالسيد أبي سعيد، بادر إليها فأجاز البحر، والتف به السيد أبو محمد بن أبي حفص بجميع جيوش الموحدين والأندلس، ووصل الجميع إلى ظاهر غرناطة، وأصحر إليهم ابن همشك، وبرز منها، فالتقى الفريقان بمرج الرقاد من خارجها، ودارت الحرب بينهم، فانهزم جيش الموحدين، واعترضت القل تخوم القدادين وجداول المياه التي تتخلل المرج، فاستولى عليهم القتل، وقتل في الوقيعة السيد أبو محمد، ولحق السيد أبو سعيد، بمالقة، وعاد ابن همشك إلى غرناطة فدخلها بجملةٍ من أسرى القوم، أفحش فيهم المثلة، بمرأى من إخوانهم المحصورين، واتصل الخبر بالخليفة بمراكش، وهو بمقربة سلا، قد فرغ من أمر عدوه، فجهز جيشاً، أصحبه السيد أبا يعقوب ولده، والشيخ أبا يوسف بن سليمان زعيم وقته، وداهية زمانه، فأجازوا البحر والتقوا بالسيد أبي سعيد بمالقة، وتتابع الجمع، والتف بهم من أهل الجهاد من المطوعة، واتصل منهم السير إلى قرية دلر من قرى غرناطة، وكان من استمرار الهزيمة على ابن همشك الذي أمده بنفسه وجيشه، من نصارى وغيرهم، ما يأتي ذكره عند اسم ابن مردنيش في الموحدين، في حرف الميم بحول الله تعالى.

إنخلاعه للموحدين عما بيده وجوازه للعدوة، ووفاته بها قالوا، ولما فسد ما بينه وبين ابن مردنيش بسبب بنته التي كانت تحت الأمير أبي محمد بن مردنيش إلى أن طلقها، وانصرفت إلى أبيها، وأسلمت إليه ابنها منه، مختارة كنف أبيها إبراهيم، نازعة في انصرامه إلى عروقها، فلقد حكي أنها سئلت عن ولدها، وإمكان صبرها عنه، فقالت: جرو كلبٍ، جرو سوءٍ، من كلب سوءٍ لا حاجة لي به، فأرسلت كلمتها في نساء الأندلس مثلاً، فاشتدت بينهما الوحشة والفتنة، وعظمت المحنة، وهلك بينهما من الرعايا المرورين، المضطرين، بقنينه الثوار ممن شاء الله بهلاكه، إلى أن كان أقوى الأسباب في تدمير ملكه.

ولما صرف ابن سعد عزمه إلى بلاده، وتغلب على كثير منها، خدم ابن همشك الموحدين ولاذ بهم وساتجارهم، فأجاز البحر، فقدم على الخليفة عام خمسة وستين وخمسمائة، وأقره بمواضعه، إلى أوائل عام أحد وسبعين، فطولب بالانصراف إلى العدوة بأهله وولده، وأسكن مكناسة وأقطع بها سآماً لها خطر واتصلت تحت عنايته إلى أن هلك.

وفاته: قالوا، واستمر مقام ابن همشك بمكناسة غير كبير، وابتلاه الله بفالج غريب الأغراض، شديد سوء المزاج، إلى أن هلك، فكان يدخل الحمام الحار، فيشكو حره بأعلى صراخه، فيخرج فيشكو البرد كذلك، إلى أن مضى سبيله.

إبراهيم ابن أمير المسلمين أبي الحسن

إبراهيم بن أمير المسلمين أبي الحسن بن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق يكنى أبا سالم.

أوليته

الشمس تخبر عن حلي وعن حلل. فهو البيت الشهير، والجلال الخطير، والملك الكبير، والفلك الأثير ملاك المسلمين، وحماة الدين، وأمراء المغرب الأقصى من بني مرين، غيوث المواهب، وليوث العرين، ومعتمد الصريخ، وسهام الكافرين. أبوه السلطان أبو الحسن، الملك الكبير، البعيد شأو الصيت والهمة والعزيمة، والتحلي بحلى السنة، والإقامة لرسوم الملك، والاضطلاع بالهمة، والصبر عند الشدة. وأخوة أمير المسلمين، فذلكة الحسب، ونير النصبة، وبدرة المعدن، وبيت القصيد، أبو عنان، فارس الملك الكبير، العالم المتحير، العامل النظار الجواد، الشجاع، القسور، الفصيح، مدد السعادة، الذي خرق الله به سياج العادة، فما عسى أن يطلب اللسان، وأين تقع العبارة، وماذا يحصر الوصف، عين هذا المجد فوارة، وحسب هذا الحسب اشتهاره، قولا بالحق، وبعداً عن الإطراء، ونشراً للواء النصفة، حفظ الله على الإسلام ظلهم، وزين ببدور الدين والدنيا هالتهم، وأبقى الكلمة فيمن اختاره منهم.

حاله

كان شاباً كما تطلع وجهه، حسن الهيئة، ظاهر الحياء والوقار، قليل الكلام، صليفة عن اللفظ، آدم اللون، ظاهر السكون والحيرية والحشمة، فاضلاً، متخلقاً، قدمه أبوه، أمير الرتبة، موفي الألقاب، بوطن سجلماسة، وهي عمالة ملكهم، فاستحق الرتبة في هذا الباب بمزيد هذه الرتبة المشترط لأول تأليفه. ولما قبضه الله عليه، واختار له ما عنده، أحوج ما كانت الحال إلى من ينظم الشت، ويجمع الكلمة، ويصون الدما سبحانه أحوج ما كانت الدنيا إليه، وصير إلى وارثه طواعيه وقسراً ومستحقاً وغلاباً، وسلماً، وذاتاً وكسباً، السلطان أخيه، تحصل هو وأخ له اسمه محمد، وكنيته أبو الفضل، يأتي التعريف بحاله في مكانه إن شاء الله، فأبقى، وأغضى، واجتنب الهوى، وأجاب داعي البر والشفقة والتقوى، فصرفهما إلى الأندلس، باشرت إركابها البحر بمدينة سلا ثاني اليوم الذي انصرفت من بابه، وصدرت عن بحر جوده، وأفضت بإمامة عنايته، مصحباً بما يعرض لسان الثناء من صنوف كرامته، في غرض السفارة عن السلطان بالأندلس، تغمده الله برحمته، ونزل مربلة من بلاد الأندلس المصروفة إلى نظره، واصلاً السير إلى غرناطة.

دخوله غرناطة

قدم هو وأخوه عليها، يوم عشرين من جمادى الأولى، من عام اثنين وخمسين وسبعمائة. وبرز السلطان إلى لقائهما، إبلاغا في التجلة، وانحطاطاً في ذمة التخلق، فسعياً إلى مرتجلين، وفاوضهما، حتى قضيت الحقوق، واستفرجت تفقده وجرايته، وخلا بأحظى الأمكنة، واحتفيا في سرير مجلسه مقسومٌ بينهما الحظ، من هشته ولحظته، فأما محمد فسولت له نفسه الأطماع، واستفزته الأهواء، أمراً كان قاطع أجله، وسعد أخيه اختاره الله من دونه. وأما إبراهيم المترجم به، فجنح إلى أهل العافية، بعد أن ناله اعتقال، بسبب إرضاء أخيه أمير المسلمين فارس، في الأخريات لشهر ذي الحجة من عام تسعة وخمسين وسبعمائة، وتقديم ولده الصبي، المكنى بأبي بكر، المسمى بسعيد، لنظر وزيره في الحزم والكفاية، حركه الاستدعاء، وأقلقته الأطماع وهب به السائل. وعرض بغرضه إلى صاحب الأمر بالأندلس، ورفق عن صبوحه، فشكا إلى غير مصمت، فخرج من الحضرة ليلا من بعض مجاري المياه، راكباً للخطر، في أخريات جمادى الأولى من العام بالحضرة المكتبة الجوار، من ثغور العدو، ولحق بملك قشتالة، وهو يومئذ بإشبيلية، قد شرع في تجريةٍ إلى عدوه من برجلونه، فطرح عليه نفسه، وعرض عليه مخاطبات استدعائه، ودس له المطامع المرتبطة

بحصول غايته، فقبل سعايته، وجهز له جفناً من أساطيله، أركب فيه، في طائفة تحريكه، وطعن بحر المغرب إلى ساحل أزمور، وأقام به منتظراً إلى إنجاز المواعد، ممن بمراكش، فألفى الناس قد حطبوا في حبل منصور بن سليمان، وبايعوه بجملتهم، فأخفق مسعاه، وأخلف ظنه، وقد أخذ منصور بمخنق البلد الجديد دار ملك فاس، واستوثق له الأمر، فانصرف الجفن أرداجه. ولما حاذى لبلاد غمارة من أحواز أصيلاً، تنادوا به قومٌ منهم. وانحدروا إليه، ووعدوه الوفاء له فنزل إليهم، واحتملوه فوق أكتادهم، وأحدقوا به في سفح جبلهم، وتنافسوا في الذب عنه، ثم كبسوا أصيلاً فملكوها وضيق بطنجة، فدخلت في أمره، واقتدت بها سبتة، وجبل الفتح، واتصل به بعض الخاصة، وخاطبة الوزير المحصور، وتخاذل أشياع منصور، فخذلوه، وفروا عنه جهاراً، بغير علة، وانصرفت الوجوه إلى السلطان أبي سالم، فأخذ بيعاتهم عفوا،ودخل البلد المحصور، وقد تردد بينه وبين الوزير المحصور، مخاطبات في رد الدعوة إليه، فدخل البلد يوم الخميس خامس عشرة شعبان من عام التاريخ، واستقر وجدد الله عليه أمره، وأعاد ملكه، وصرف عليه حقه، وبلى هذا الأمير من سير الناس إلى تجديد عهد أبيه، وطاعتهم إلى أمره، وجنوحهم إلى طاعته، وتمني مدته، حال غريبة، صارت عن كثبٍ إلى أضدادها، فصرف ولده إلى اجتناث شجرة أبيه، فالتقط من الصبية بين مراهق ومحتلم ومستجمع، طائفة تناهز العشرين، غلماناً ردنة، قتلوا إغراقاً من غير شفعة توجب إباحة قطرة من دمائهم، ورأى أن قد خلاله الجو، فتواكل، وآثر الحجبة، وأشرك الأيدي في ملكه، فاستبيحت أموال الرعايا، وضافت الجبايات، وكثرت الظلامات، وأخذ الناس حرمان العطاء، وانفتحت أبواب الإرجاف، وحدت أبواب القواطع، إلى أن كل من أمره ما هو معروف.

وفي أول من شهر رجب عام واحد وستين وسبعمائة، تحرك الحركة العظمى إلى تلمسان، وقد استدعى الجهات، وبعض البلاد، ونهد في جيوش تجر الشوك والحجر، ففر سلطانها أمام عزمه، وطار الذعر بين يدي الضلالة، وكنا قد استغثنا القرار في إيالته، وانتهى بنا الإزعاج إلى ساحل سلا من ساحل مملكته، فخاطبته وأنا يومئذٍ مقيم بتربة أبيه، متذممٌ بها، في سبيل استخلاص أملاكي بالأندلس، في غرض التهنئة والتوسل: مولاي فتاح الأقطار والأمصار، فائدة الزمان والأعصار، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار، قدوة أولى الأيدي والأبصار.

وفاته

وفي ليلة العشرين من شهر ذي قعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة، ثار عليه بدار الملك، وبلد الإمارة المعروف بالبلد الجديد، من مدينة فاس، الغادر مخلفه عليها عمر بن عبد الله بن علي، نسمة السوء، وجملة الشؤم، المثل البعيد في الجرأة على قدر، اهتبل غرة انتقاله، إلى القصر السلطاني، بالبلد القديم، محتولا إليه حذراً من قاطع فكلي الجدر منه استعجله ضعف نفسه، وأعانه على فرض صحته به، وسد الباب في وجهه، ودعا الناس إلى بيعة أخيه المعتوه، وأصبح حائراً بنفسه، يروم استرجاع أمر ذهب من يده، ويطوف بالبلد، يلتمس وجهاً إلى نجاح حيلته، فأعياه ذلك ورشقت من معه السهام، وفرت عنه الأجناد والوجوه، وأسلمه الدهر، وتبرأ منه الجد، وعندما جن عليه الليل، فر على وجهه، وقد التفت عليه الوزراء، وقد سفهت أحلامهم، وفالت آرائهم، ولو قصدوا به بعض الجبال المنيعة، لو لوا وجوههم شطر مظنة الخلاص، واتصفوا بعذار الإقلاع، ولكنهم نكلوا عنه،ورجعوا أدراجهم، وتسللوا راجعين إلى بر غادر الجملة، وقد سلبهم الله لباس الحياء والرجلة، وتأذن الله لهم بسوء العاقبة، وقصد بعض بيوت البادية، وقد فضحه نهار الغداة، واقتفى البعث أثره، حتى وقعوا عليه، وسيق إلى مصرعه، وقتل بظاهر البلد، ثاني اليوم الذي كان غدر فيها، جعلها الله له شهادة ونفعه بها، فلقد كان بقية البيت، وآخر القوم، دماثة وحياء، وبعداً عن الشر، وركوناً للعافية.

وأنشدت على قبره الذي ووريت به جئته بالقلعة من ظاهر المدينة، قصيدة أديت فيها بعض حقه:
بني الدنيا بني لمع السراب ... لدوا للموت وابنوا للخراب
إبراهيم بن يحيى الهنتاني

إبراهيم بن يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني، أبو إسحاق أمير المؤمنين بتونس، وبلاد إفريقية، ابن الأمير أبي زكريا، أمير إفريقية، وأصل الملوك المتأثلين العز بها، والفرع الذي دوح بها، من فروع الموحدين بالمغرب، واستجلابه بها أبا محمد عبد المؤمن بن علي، أبا الملوك من قومه، وتغلب ذريته على المغرب وإفريقية والأندلس معروف كله يفتقر بسطه إلى إطالة كثيرة، تخرج عن الغرض.
وكان جد هؤلاء الملوك من أصحاب المهدي، في العشرة الذين هبوا لبيعته وصحبوه في غربته، أبو حفص، عمر بن يحيى، ولم يزل هو وولده من بعده مرفوع القدر معروف الحق.
ولما صار الأمر للناصر أبي عبد الله بن المنصور، أبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن بن علي، صرف وجهه إلى إفريقية ونزل بالمهدية، وتلوك إليه ابن غانية فيمن لغه من العرب والأوباش، في جيش يسوق الشجر والمدر، فجهز إلى لقائه عسكراً لنظر الشيخ أبي محمد عبد الواحد، بن أبي حفص، جدهم الأقرب، فخرج من ظاهر المهدية في أهبة ضخمة، وتعبية محكمة، والتقى الجمعان فكانت على ابن غانية، الدايرة، ونصر الشيخ محمد نصراً لا كفاء له، وفي ذلك يقول أحمد بن خالد من شعر عندهم:
فتوحٌ بها شدت عرى الملك والدين ... تراقب منا منكم غير ممنون
وفتحت المهدية على هيئة ذلك الفتح، وانصرف الناصر إلى تونس، ثم تفقد البلاد، وأحكم ثقافها، وشرع في الإياب إلى المغرب، وترجح عنده تقديم أبي محمد بن أبي حفص المصنوع له بإفريقية، على ملكها، مستظهراً منه بمضاء وسابقة وحزم، بسط يده في الأموال وجعل إليه النظر في جميع الأمور، سنة ثلاث وستمائة، ثم كان اللقاء بينه وبين ابن غانية في سنة ست بعدها، فهزم ابن غانية، واستولى على محلته، فاتصل سعده، وتوالى ظهره، إلى أن هلك مشايعاً لقومه من بني عبد المؤمن، مظاهراً بدعوتهم عام تسعة وعشرين وستمائة.

وولي أمره بعده، كبير ولده، عبد الله، على عهد المستنصر بالله بن الناصر من ملوكهم، وقد كان الشيخ أبو محمد زوحم، عند اختلال الدولة، بالسيد أبي العلاء الكبير، عم أبي المستنصر على أن يكون له اسم الإمارة بقصبة تونس، والشيخ أبو محمد على ما لسائر نظره، فبقي ولده عبد الله على ذلك بعد، إلى أن كان ما هو أيضاً معروف من تصير الأمر إلى المأمون أبي العلاء إدريس، ووقعه السيف في وجوه الدولة بمراكش، وأخذه بثرة أخيه وعمه منهم. وثار أهل الأندلس على السيد أبي الربيع بعده بإشبيلية وجعجعوا بهم، وأخذوا في التشريد بهم، وتبديد دعوتهم، واضطربت الأمور، وكثر الخلاف، ولحق الأمير أبو زكريا بأخيه بإفريقية، وعرض عليه الاستبداد، فأنف من ذلك، وأنكره عليه إنكاراً شديداً، خاف منه على نفسه، فلحق بقابس فاراً، واستجمع بها مع شيخها مكي، وسلف شيوخها اليوم من بني مكي، فمهد له، وتلقاه بالرحب، وخاطب له الموحدين سراً، فوعدوه بذلك، عند خروج عبد الله من تونس إلى الحركة، من جهة القيروان. فلما تحرك نحوا عليه، وطلبوا منه المال، وتلكأ فاستدعوا أخاه الأمير أبا زكريا، فلم يرعه وهو قاعد في خبائه آمنٌ في سربه، إلا ثورة الجند به، والقبض عليه، ثم طردوه إلى مراكش، وقعد أخوه الأمير أبو زكريا مقعده، وأخذ بيعة الجند والخاصة لنفسه، مستبداً بأمره، ورحل إلى تونس، فأخذ بيعة العامة، وقتل السيد الذي كان بقصبتها، وقبض أهل بجاية حين بلغهم الخبر على واليها السيد أبي عمران، فقبلوه تغريقاً،

وانتظمت الدولة، وتأثل الأمر، وكان حازماً داهية مشاركا في الطلب أديباً راجح العقل، أصيل الرأي، حسن السياسة، مصنوعاً له، موفقاً في تدبيره، جبي الأموال، واقتنى العدد، واصطنع الرجال، واستكثر من الجيش، وهزم العرب، وافتتح البلاد، وعظمت الأمنة بينه وبين الخليفة بمراكش الملقب بالسعيد، وعزم كل منهما على ملاقاة صاحبه، فأبى القدر ذلك، فكان من مهلك السعيد بظاهر تلمسان، ما هو معروف، واتصل بأبي زكريا هلك ولده ولي العهد أبي يحيى ببجاية، فعظم عليه حزنه وأفرط جزعه، واشتهر من رثائه فيه قوله:

ألا جازعٌ يبكي لفقد حبيبه ... فإني لعمري قد أضر بي الثكل

لقد كان لي مالٌ وأهل فقدتهم ... فهأنا لا مالٌ لدي أهل ولا أهل

سأبكي وأرثي حسرةً لفراقهم ... بكاء قريحٍ لا يمل ولا يسل

فلهفي ليوم فرق الدهر بيننا ... ألا فرجٌ يرجى فينتظم الشمل

وإني لأرضى بالقضاء وحكمه ... وأعلم ربي أنه حاكم عدل

نسبه ابن عذاري المراكشي في البيان المغرب. واعتل بطريقه فمات ببلد العناب لانقضاء أربعة من مهلك السعيد، وكان موت السعيد، يوم الثلاثاء منسلخ صفر سنة ست وأربعين وستمائة. وبويع ولده الأمير أبو عبد الله بتونس وسنه إحدى وعشرين سنة، فوجد ملكاً مؤسساً، وجنداً مجنداً، وسلطاناً قاهراً، ومالا وافراً، فبلغ الغاية في الجبروت والتيه والنخوة والصلف، وتسمي بأمير المؤمنين. وتلقب بالمستنصر بالله، ونقم عليه أرباب دولته أموراً، أوجبت مداخلة عمه أبي عبد الله بن عبد الواحدالمعروف باللحياني، ومبايعته سراً بداره، وانتهى الخبر للمستنصر، فعاجل الأمر قبل انتشاره برأي الحزمة من خاصته، كابن أبي الحسين، وأبي جميل بن أبي الحملات بن مردنيش، وظافر الكبير، وقصدوا دار عمه فكبسوها، فقتلوا من كان بها، وعدتهم تناهز خمسين، منهم عمه، فسكن الإرجاف، وسلم المنازع، وأعطت مقادها، واستمرت أيامه، وأخباره في الجود والجرأة، والتعاظم على ملوك زمانه، مشهورة. وكانت وفاته سنة أربع وسبعين وستمائة. وولي أمره بعده ابنه الملقب بالواثق بالله، وكان مضعوفاً ولم تطل مدته.

عاد الحديث، وكان عمه المترجم، لما اتصل به مهلك أخيه المستنصر، قد أجاز البحر من الأندلس، ولحق بتلمسان، وداخل كثيراً، من الموحدين بها، كأبي هلال، فهيأ له أبو هلال تملك بجاية، ثم تحرك إلى تونس فتغلب عليها، فقتل الواثق، وطائفة من إخوته وبنيه، منهم صبيٌ يسمى الفضل، وكان أنهضهم، واستبد بالأمر، رتمت بيعته بإفريقية، وكان من الأمر ما يذكر.

حاله

كان أيدا، جميلاً وسيماً، ربعة بادنا، آدم اللون، شجاعاً بهمةً، عجلاً غير مراخٍ، ولا حازم، منحطا في هوى نفسه، منقاداً للذته، بريئاً من التشمت في جميع أمره. وولي الخلافة في حال كبره، ووخطه الشيب، وآثر اللهو، حتى زعموا أنه فقد فوجد في مزرعة باقلاً مزهرةٍ ألقى فيها بعد جهد نائماً بينها، نشوان يتناثر عليه سقطها، واحتجب عن مباشرة سلطانه، فزعموا أن خالصته أبا الحسن بن سهل، داخل الناس بولده أبي فارس، في خلعه، والقيام مكانه، وبلغه ذلك، فاستعد وتأهب، واستركب الجند، ودعا ولده، فأحضره ينتظر الموت من يمينه وشماله، وأمر للحين فقتل وطرح بأزقة المدينة، وعجل بإزعاج ولده إلى بجاية، وعاد إلى حاله.

دخوله غرناطة

قالوا، ولما أوقع الأمير المستنصر بعمه أبي عبد الله، كان أخوه أبو إسحاق، ممن فر بنفسه إلى الأندلس، ولجأ إلى أميرها أبي عبد الله بن الغالب بالله أبي عبد الله بن نصر، ثاني ملوكهم فنوه به، وأكرم نزله، وبوأه بحال عنايته، وجعل دار ضيافته لأول نزوله القصر المنسوب إلى السيد خارج حضرته، وهو آثر قصوره لديه، وحضر غزوات أغزاها ببلاد الروم، فظهر منه في نكاية العدو وصدامه سهولة وغناء.

ولما اتصل به موت أخيه تعجل الانصراف، ولحق بتلمسان، وداخل منها كبيراً من الموحدين، يعرف بأبي هلال بباجة كما تقدم، فملكه أبو هلال منها بجاية، ثم صعد تونس فملكها، فاستولى على ملك ابن أخيه وما ثم من ذمه، وارتكب الوزر الأعظم فيمن قتل معه، وكان من أمره ما يأتي ذكره إن شاء الله.

إدبار أمره بهلاكه على يد الدعي الذي قيضه الله لهلاك حينه قالوا، واتهم بعد استيلائه على الأمر فتًى من أخصاء فتيان المستنصر، اسمه نصير، بمال وذخيرة، وتوجه إليه طلبه، ونال منه. وانتهز الفتى فرصةً لحق فيها بالمغرب واستقر بحلال المراعمة من عرب دباب، وشارع الفساد عليه، بجملة جهده، حريصاً على إفساد أمره، وعثر لقضاء الله وقدره بدعي من أهل بجاية يعرف بابن أبي عمارة.

حدثني الشيخ المسن الحاج أبو عثمان اللواتي من عدول المياسين متأخر الحياة إلى هذا العهد، قال خضت مع ابن أبي عمارة ببعض الدكاكين بتونس، وهو يتكهن لنفسه ما آل إليه أمره، ويعد بعض ما جرى به القدر، وكان أشبه الخلق بأحد الصبية الذين ماتوا ذبحاً، بالأمير أبي إسحاق، وهو الفضل، فلاحت لنصير وجه حيلته، فبكى حين رآه، وأخبره بشبهه بمولده ووعده الخلافة، فحرك نفساً مهيأة في عالم الغيب المحجوب إلى ما أبرزته المقادر، فوجده منقاداً لهواه، فأخذ في تلقينه ألقاب الملك، وأسماء رجاله، وعوايده، وصفة قصوره، وأطلعه على إماراتٍ جرت من المستنصر لأمراء العرب، سراً كان يعالجها نصير، وعرضه على العرب، بعد أن أظهر العويل، ولبس الحداد، وأركبه، وسار بين يديه حافياً حزناً لما ألفاه عليه من المضيعة، وأسفاً لما جرى عليه، فبايعته العرب النافرة، وأشادوا بذكره، وتقووا بما قرره من إمارته فعظم أمره، واتصل بأبي إسحاق نبأه فبرز إليه، بعد استدعاء ولده من بجاية، فالتقى الفريقان، وتمت على الأمير أبي إسحاق الهزيمة، واستلحم الكثير ممن كان معه، وهلك ولده، ولجأ أخوه الأمير أبو حفص لقلعة سنان، وفر هو لوجهه، حتى لحق ببجاية، وعاجله ابن أبي عمارة، فبعث جريدة من الجند لنظر أشياخ من الموحدين، وأغرت إليهم الإيقاع، فوصلت إلى بجاية، فظن من رآه من الفل المنهزم، فلم يعترضه معترض عن القصبة. وقبض على الأمير أبي إسحاق، فطوقه الحمام، واحتز رأسه، وبعث إلى ابن أبي عمارة به، وقد دخل تونس، واستولى على ملكها، وأقام سنين ثلاثة، أو نحوها في نعماء لا كفاء له، واضطلع بالأمر، وعاث في بيوت أمواله، وأجرى العظائم على نسائه ورجاله إلى أن فشا أمره، واستقال الوكن من تمرته فيها، وراجع أرباب الدولة بصايرهم في شأنه، ونهد إليه الأمير أبو حفص طالباً بثأر أخيه، فاستولى، ودحض عاره، واستأصل شأفته، ومثل به، والملك لله، الذي لا تزن الدنيا جناح بعوضة عنده.

وفي هذا قلت عند ذكر أبي حفص في الرجز المسمى بنظم الملوك المشتمل على دول الإسلام أجمع، على اختلافها إلى عهدنا، فمنه في ذكر بني حفص:

ولهم يحيى بن عبد الواحد ... وفضلهم ليس له من جاحد

وهو الذي استبد بالأمور ... وحازها ببيعة الجمهور

وعظمت في صقعه آثاره ... ونال ملكاً عالياً مقداره

ثم تولى ابنه المستنصر ... وهو الذي علياه لا تنحصر

أصاب ملكا رئيساً أوطانه ... وافق عزاً سامياً سلطانه
ودولةً أموالها مجموعة ... وطاعةً أقوالها مسموعة
فلم تخف من عهدها انتكاثاً ... وعاث في أموالها عياثا
هبت بنصر عزه الرياح ... وسقيت بسعده الرماح
حتى إذا أدركه شرك الردى ... وانتحب النادي عليه والندا
قام ابنه الواثق بالتدبير ... ثم مضى في زمن يسير
سطا عليه العم إبراهيم ... والملك في أربابه عقيم
وعن قريبٍ سلب الإمارة ... عنه الدعي ابن أبي عمارة
عجيبةٌ من لعب الليالي ... ما خطرت لعاقل ببال
واخترم السيف أبا إسحاقا ... أبا هلال لقي المحاقا
واضطربت على الدعي الأحوا ... ل والحق لا يغلبه المحال
ثم أبو حفص سما عن قرب ... وصير الدعي رهين الترب
ورجع الحق إلى أهليه ... وبعده محمد يليه
وهذه الأمور تستدعي الإطالة، مخلةٌ بالغرض، ومقصدي أن أستوفي ما أمكن من التواريخ التي لم يتضمنها ديوان، وأختصر ما ليس بقريب، والله ولي الإعانة بمنه.
إبراهيم بن محمد بن مالك الأزدي

إبراهيم بن محمد بن أبي القاسم بن أحمد بن محمد ابن سهل بن مالك بن أحمد بن إبراهيم بن مالك الأزدي يكنى أبا إسحاق.
أوليته
منزل جدهم الداخل إلى الأندلس قرية شون من عمل، أو قيل من إقليم إلبيرة. قال ابن البستي: بيتهم في الأزد، ومجدهم ما مثله مجد، حازوا الكمال، وانفردوا بالأصالة والجلال، مع عفة وصيانة ووقار، وصلاح وديانة، نشأ على ذلك سلفهم، وتبعهم الآن خلفهم. وذكرهم مطرف بن عيسى في تاريخه، في رجال الأندلس، وقال ابن مسعدة، وقفت على عقد قديم لسلفي فيه ذكر محمد بن إبراهيم بن مالك الأزدي، وقد حلى فيه بالوزير الفقيه أبي أحمد بن الوزير الفقيه أبي عمرو إبراهيم، وتاريخ العقد سنة ثلاث وأربعمائة، فناهيك من رجال تحلوا بالجلالة والطهارة منذ أزيد من أربعمائة سنة، ويوصفون في عقودهم بالفقه والوزارة منذ ثلاثمائة سنة في وقت كان فيه هذا المنصب في تحلية الناس، ووصفهم، في نهاية من الضبط والحرز، بحيث لا يتهم فيه بالتجاوز لأحد، لا سيما في العقود، فكانوا لا يصفون فيه الشخص إلا بما هو الحق فيه والصدق، وما كان قصدي في هذا إلا أن شرفهم غير واقف عليه، أو مستندٌ في الظهور إليه، بل ذكرهم على قديم الزمان شهير وقدرهم خطير.
قلت، ولما عقد لولدي عبد الله أسعده الله، على بنت الوزير أبي الحسن بن الوزير أبي الحسن القاسم بن الوزير أبي عبد الله بن الفقيه العالم الوزير حزم فخارهم، ومجدد آثارهم، أبي الحسن سهل بن مالك، خاطبت شيخنا أبا البركات بن الحاج، أعرض ذلك عليه، فكان من نص مراجعته، فسبحان الذي أرشدك لبيت الستر والعافية والأصالة، وشحوب الأبرار، قاتلك الله ما أجل اختيارك، وخلف هذا البيت الآن على سنن سلفهم من التحلي بالوزارة، والاقتياد من العظمة الزاكية، والاستناد القديم الكريم، واغتنام العمر بالنسك، عناية من الله أطرد لهم قانونها،

واتصلت عادتها والله ذو الفضل العظيم.
حاله
كل من أهل السر والخصوصية، والصمت والوقار، ذا حظ وافر من المعرفة، بلسان العرب، ذكي الذهن، متوقد الخاطر، مليح النادرة، شنشنته معروفة فيهم. سار بسيرة أبيه، وأهل بيته، في الطهارة والعدالة، والعفاف والنزاهة.
وفاته

ابن حرة

إبراهيم بن فرج بن عبد البر الخولاني من أهل قرطبة، يكنى أبا إسحاق، ويعرف بابن حرة.
أوليته
من أهل البيوتات بالحضرة، ولي أبوه القهرمة، لثاني الملوك من بني نصر، فتأثل مالاً ونباهةً.
حاله

هذا الرجل من أعيان القطر، ووزراء الصقع، وشيوخ الحضرة، أغنى هذه المدرة يداً، وأشغلهم بالعرض الأدنى نفساً، تحرف بالتجر المربوب في حجر الجاه، ونما ماله، تحاط به الجدات، وتنمو الأموال، ففار تنورها، وفهق حوضها، كثير الخوض في التصاريف الوقتية، والأدات الزمانية، وأثمان السلع، وعوارض الأسعار، متبجح بما ظهرت به يده من علق مضنة هرى المدينة، الذي ينفق على أسواقها، عند ارتفاع القيم، وتمييز الأسعار، وبلوغها الحد الذي يراه كفؤ حبته، ومنتهى ثمن غلته، غرض الفكر، يخاطب الحيطان والشجر والأساطين، محاسباً إياها على معاملات وأغراض فنية، يرى من التلبس شيئاً من المعارف والآداب والصنائع، وحجة من الحجج في الرزق، تغلب عليه السذاجة والصحة، دمثٌ، متخلق، متنزل، مختصر الملبس والمطعم، كثير التبذل، يعظم الانتفاع به في باب التوسعة، بالتسلف والمداينة، حسن الخلق كثير التجمل مبتلى بالموقب والطانز: يسمع ذي القحة، ويصم على ذوي المسألة.
ظهوره وحظوته

لبس الحظوة شملة، لم يفارق طرقها رقبته، إذ كان صهراً للمتغلب على الدولة أبي عبد الله بن المحروق، صار بسهم في جذور خطته، وألقى في مرقه حظوته، مشتملا على حاله، بعباءة جاهه، ثم صاهر المصير الأمر إليه بعده القائد الحاجب أبا النعيم رضوان، مولى الدولة النصرية، وهلم جرا، بعد أن استعمل في السفارة إلى العدوة وقشتالة، في أغراض تليق بمبعثه، مما يوجب فيه المياسير والوجوه، مشرفين معززين بمن يقوم بوظيفة المخاطبة والجواب، والرد والقبول، وولى وزارة السلطان، لأول ملكه في طريق من ظاهر جبل الفتح إلى حضرته، وأياماً يسيرة من أيام اختلاله، إلى أن رغب الخاصة من الأندلسيين في إزالته، وصرف الأمر إلى الحاجب المذكور، الذي تسقط مع رياسته المنافسة، وترضي به الجملة
محنته
وامتحن هو وأخوه، بالتغريب إلى تونس، عن وطنهما، على عهد السلطان الثالث من بني نصر. ثم آب عن عهد غير بعيد، ثم أسن واستسر أديمه، وضجر عن الركوب إلى فلاحته التي هي قرة عينه، وحظ سعادته، يتطارح في سكة المترددين بإزاء بابه، مباشرٌ الثرى بثوبه، قد سدكت به شكايةٌ شائنة، قلما يفلت منها الشيوخ، ولا من شركها، فهي تزفه بولاء، بحال تقتحمها العين شعثاً، وبعداً عن النظر، فلم يطلق الله يده من جدته على يده، فليس

في سبيل دواء ولا غذاء إلى أن هلك.

وفاته

في وسط شوال عام سبعة وخمسين وسبعمائة.

مولده

في سنة خمس وسبعين وستمائة

ابن المرأة

إبراهيم بن يوسف بن دهاق الأوسي إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي يكنى أبا إسحاق، ويعرف بابن المرأة.

حاله

سكن مالقة دهراً طويلا، ثم انتقل إلى مرسية، باستدعاء المحدث أبي الفضل المرسي والقاضي أبي بكر بن محرز، وكان متقدماً في علم الكلام، حافظا ذاكراً للحديث والتفسير، والفقه والتاريخ، وغير ذلك. وكان الكلام أغلب عليه، فصيح اللسان والقلم، ذاكراً لكلام أهل التصوف، يطرز مجالسه بأخبارهم. وكان بحراً للجمهور بمالقة ومرسية، بارعاً في ذلك متفنناً له، متقدماً فيه، حسن الفهم لما يلقيه، له وثوب على التمثيل والتشبيه، فيما يقرب للفهم، مؤثراً للخمول، قريباً من كل أحد، حسن العشرة، مؤثراً بما لديه. وكان بمالقة يتجر بسوق الغزل، قال الأستاذ أبو جعفر وقد وصمه، وكان صاحب حيل ونوادر مستظرفة، يلهى بها أصحابه، ويؤنسهم، ومتطلعاً على أشياء غريبة من الخواص وغيرها، فتن بها بعض الحلبة، واطلع كثير ممن شاهده على بعض ذلك، وشاهد منه بعضهم ما يمنعه الشرع من المرتكبات الشنيعة، فنافره وباعده بعد الاختلاف إليه، متهم شيخنا القاضي العدل المسمى الفاضل أبو بكر بن المرابط رحمه الله، أخبرني من ذلك بما شاهد مما يقبح ذكره، وتبرأ منه من كان سعى في انتقاله إلى مرسية، والله أعلم بغيبه وضميره.

تواليفه

منها شرحه كتاب الإرشاد لأبي المعالي، وكان يعلقه من حفظه من غير زيادة وامتداد، وشرح الأسماء الحسنى، وألف جزءا في إجماع الفقهاء، وشرح محاسن المجالس لأبي العباس أحمد بن العريف. وألف غير ذلك. وتواليفه نافعة في أبوابها، حسنة الرصف والمباني.

من روى عنه، أبو عبد الله بن أحلى، وأبو محمد عبد الرحمن بن وصلة.

وفاته

توفي بمرسية سنة أحد عشر وستمائة.

التلمساني

إبراهيم بن أبي بكر الأصاري إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري تلمساني وقرشي الأصل، نزل بسبتة، يكنى أبا إسحاق ويعرف بالتلمساني.

حاله

كان فقهياً عارفاً بعقد الشروط، مبرزاً في العدد والفرايض، أديباً، شاعراً، محسنا، ماهراً في كل ما يحاول. نظم في الفرايض وهو ابن ثمانية وعشرين سنة أرجوزة محكمة بعلمها، ضابطة، عجيبة الوضع. قال ابن عبد الملك، وخبرت

منه في تكراري عليه، تيقظا وحضور ذهن، وتواضعاً، وحسن إقبال وبر، وجميل لقاء ومعاشرة، وتوسطاً صالحاً فيما يناظر فيه من التواليف، واشتغالاً بما يعنيه من أمر معاشه، وتخاملا في هيئته ولباسه، يكاد ينحط عن الاقتصاد، حسب المألوف والمعروف بسبتة. قال ابن الزبير، كان أديباً لغوياً، فاضلا، إماماً في الفرائض.

مشيخته

تلا بمالقة علي أبي بكر بن دسمان، وأبي صالح محمد بن محمد الزاهد، وأبي عبد الله ابن حفيد، وروي بها عن أبي الحسن سهل بن مالك، ولقي أبا بكر بن محرز، وأجاز له، وكتب إليه مجيزاً، أبو الحسن بن طاهر الدباج، وأبو علي الشلوبين، ولقي بسبتة، الحسن أبا العباس بن علي بن عصفور الهواري، وأبا المطرف أحمد ابن عبد الله بن عفيرة، فأجازوا له، وسمع علي بن أبي يعقوب بن موسى الحساني الغماري.

من روى عنه، روي عنه الكثير ممن عاصره، كأبي عبد الله بن عبد الملك وغيره.

تواليفه

من ذلك الأرجوزة الشهيرة في الفرائض، لم يصنف في فنها أحسن منها. ومنظوماته في السير، وأمداح النبي، صلى الله عليه وسلم، من ذلك المعشرات على أوزان العرب، وقصيدة في المولد الكريم، وله مقالة في علم العروض الدوبيتي.

شعره

وشعره كثير، مبرز الطبقة بين العالي والوسط، منحازاً أكثر إلى الإجادة جمة، وتقع له الأمور العجيبة فيه كقوله:

الغدر في الناس شيمة سلفت ... قد طال بين الورى تصرفها

ما كل من سرت له نعمٌ ... منك يرى قدرها ويعرفها

بل ربما أعقب الجزاء بها ... مضرةٌ عنك عز مصرفها

أما ترى الشمس تعطف بالن ... ور على البدر وهو يكسفها

دخوله غرناطة

أخبر عن نفسه أن أباه انتقل به إلى الأندلس، وهو ابن تسعة أعوام، فاستوطن به غرناطة ثلاثة أعوام، ثم رحل إلى مالقة، فسكن بها مدة، وبها قرأ معظم قراءته. ثم انتقل إلى سبتة، وتزود بها أخت الشيخ أبي الحكم مالك بن المرحل. وهذا الشيخ جد صاحبنا وشيخنا أبي الحسين التلمساني لأبيه، وهو ممن يطرز به التأليف، ويشار إليه في فنون لشهرته.

ومن شعره، وهو صاحب مطولات مجيدة، وأمادح مبدية في الإحسان معيدة، فمن قوله يمدح الفقيه أبا القاسم العزفي أمير سبتة:

أرأيت من رحلوا وزموا العيسا ... ولا نزلوا على الطلول حسيساً

أحسبت سوف يعود نسف ترابها ... يوماً بما يشفى لديك نسيساً

هل من مؤنسٍ ناراً بجانب طورها ... لأنيسها أم هل تحس حسيساً

مولده

قال ابن عبد الملك، أخبرني أن مولدهعو بتلمسان سنة تسع وستمائة.

وفاته

في عام تسعين وستمائة بسبتة، على سن عالية، فسحت مدى الانتفاع به.

إبراهيم بن محمد الأنصاري

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأنصاري الساحلي المشهور بالطويجن من غرناطة

حاله

من كتاب عائد الصلة، كان رحمه الله، نسيج وحده في الأدب، نظماً ونثراً، لا يشق فيهما غباره، كلام صافي الأديم، غزير المائية، أنيق الديباجة، موفور المادة، كثير الحلاوة، جامعٌ بين الجزالة والرقة، إلى خط بديع، ومشاركة في فنون، وكرم نفس، واقتدار على كل محاولة. رحل بعد أن اشتهر فضله، وذاع أوجه، فشرق، وجال في البلاد. ثم دخل إلى بلد السودان، فاتصل بملكها، واستوطنها زماناً طويلا، بالغاً فيها أقصى مبالغ المكنة، والحظوة، والشهرة، والجلالة، واقتنى مالا دثراً، ثم آب إلى المغرب، وحوم على وطنه، فصرفه القدر إلى مستقره من بلاد السودان، مستزيداً من المال. وأهدى إلى ملك المغرب هدية تشتمل على طرف، فاثأبه عليها مالا خطيراً، ومدحه بشعر بديع كتبناه عنه. وجرى ذكره في كتاب التاج بما نصه:

جواب الآفاق، ومحالف الإباق، ومنفق سعد الشعر كل الإنفاق، رفع ببلده للأدب رأية لا تحجم، وأصبح فيها يسوي ويلجم، فإن نسب، جرى ونظم نظم الجمان المحامد، وإن ابن ورثى، غبر في وجوه السوابق، وحنا، ولما اتفق كساد سوقه، وضياق حقوقه، أخذ بالحزم، وأدخل على حروف علايه عوامل الجزم، يسقط على الدول سقوط الغيث، ويحل كناس الظبا وغاب الليث، شيع العجائب، وركض النجائب، فاستضاف بصرام، وشاهد البرابي والأهرام، ورمى بعزمته الشأم، فاحتل ثغوره المحوطة، ودخل دمشق، وتوجه الغوطة، ثم عاجلها بالعراق، فحيا بالسلام مدينة السلام، وأورد بالرافدين رواحله، ورأى اليمن وسواحله، ثم عدل إلى الحقيقة عن المجاز، وتوجه إلى شأنه الحجاز، فاستلم الركن والحجر، وزار القبر الكريم لما صدر، وتعرف بمجتمع الوفود بملك السود، فغمره بإرفاده، وصحبه إلى بلاده، فاستقر بأول أقاليم العرض، وأقصى ما يعمر من الأرض، فحل بها محل الحمر في الغار، والنور في سواد الأبصار، وتقيد بالإحسان، وإن كان غريب الوجه واليد واللسان، وصدرت عنه رسائل أثناء إغرابه، تشهد بجلالة آدابه، وتعلق الإحسان بأهدابه.

نثره فمن ذلك ما خاطب به أهل غرناطة بلده، وقد وصل إلى مراكش: سلام ليس دارين شعاره، وحلق الروض والنضير به صداره، وأنسى نجداً شمه الزكي وعراره، جر ذيله على الشجر فتعطر، وناجى غصن البان فاهتز لحديثه وتأطر، وارتشف الندى من ثغور الشقائق، وحيا خدود الورد تحت أردية الحدائق، طربت له النجدية المستهامة، فهجرت صباها ببطن تهامة، وحن ابن دهمان لصباه، وسلا به التميمي عن رياه، وأنسى النميري ما تضوع برقيب من بطن نعمايه، واستشرف السمر والبان، وتخلق بخلوقة الآس والظيان، حتى إذا راقت أنفاس تحياته ورقت، وملكت نفائس النفوس، واستشرقت، ولبست دارين في ملائها، ونظمت الجوزاء في عقد ثنائها، واشتغل بها الأعشى عن روضه ولهى، وشهد ابن برد شهادة أطراف المساويك لها، خيمت في ربع الجود بغرناطة ورقت، وملأت دلوها إلى عقد ركبه، وأقبلت منابت شرقها عن غربه، لا عن عرفه، هناك تترى لها صدور المجالس تحمل صدوراً، وترايب المعالي تحلى عقوداً نفيسة وجذوراً، ومحاسن الشرف تحاسن البروج في زهرها، والأفنية في إيوانها، والأندية في شعب بوانها، لو رآها النعمان لهجر سديره، أو كسرى لنبذ إيوانه وسريره، أو سيف لقصر عن غمدانه، أو حسان جلق لغسانه.

بلاد بها نيطت على تمائمي ... وأول أرض مس جلدي ترابها

فإذا قضيت من فرض السلام ختما، وقضت من فاره الثناء حتما، ونفضت طيب عرارها على تلك الأنداء، واقتطفت أزاهر محامدها أهل الود القديم والإخاء، وعمت من هنالك من الفضلاء، وتلت سور آلائها على منبر ثنائها، وقصت وعطفت على من تحمل من الطلبة بشارتهم، وصدرت عن إشارتهم، وأنارت نجماً حول هالتهم المنيرة ودارتهم، فهناك تقص أحاديث وجدى على تلك المناهج، لا إلى صلة عالج، وشوقي إلى تلك العليا، لا إلى عبلة، والجزا إلى ذلك الشريف الجليل، فسقى الله تلك المعاهد غيداقاً يهمي دعاؤها، ويغرق روضها إغراقاً، حتى تتكلل منه نحور زندها دراً، وترنو عيون أطراف نرجسها إلى أهلها سراً، وتتعانق قدود أغصانها طرباً، وتعطف خصور مذانبها على أطراف كثبانها لعباً، وتضحك ثغور أقاحها عند رقص أدواحها عجباً، وتحمر خدود وردها حياءً، وتشرق حدائق وردها سناء، وتهدي إلى ألسنة صباها خبر طيبة، وإنباء حتى تشتغل المطرية عن روضتها المردودة، والمتكلىء، عن مشاويه المجودة، والبكرى عن شقائق رياض روضته الندية، والأخطل عن خلع بيعته الموشية. فما الخورنق وسراد والرصافة وبغداد، وما لف النيل في ملأته كرماً إلى أفدين سقايته، وحارته غمدان عن محراب، وقصر وابرية البلقاء عن غوطة ونهر، بأحسن من تلك المشاهد التي تساوي في حسنها الغائب والشاهد، وما لمصر تفخر بنيلها، والألف منها في شنيلها، وإنما زيدت الشين هنالك ليعد بذلك:

ويا لله من شوق حثيث ... ومن وجدٍ تنشط بالصميم

إذا ما هاجه وجدٌ حديث ... صبا منها إلى عهدٍ قديم

أجنح إنساني في كل جانحة. وأنطق لساني من كل جارحة، وأهيم وقلبي رهين الأنين، وصريع البين، تهفق به الرياح البليلة إذا ثارت، وتطير به أجنحة البروق الخافقة أينما طارت، وقد كنت أستنزل قربهم براحة الأجل، وأقول عسى وطن يدنيهم ولعل، وما أقدر الله أن يدني على الشحط، ويري جراح البين بعد اليأس والقنط، هذا شوقي يستعيره البركان لناره، ووجدي لا يجري قيس في مضماره، فما ظنك وقد حمت حول المورد الخصر، ونسمت ريح المنبت الخضر، ونظرت إلى تلك المعاهد من أمم، وهمست باهتصار ثمار ذلك المجد اليانع والكرم، وإن المحب مع القرب لأعظم هما، وأشد في مقاساة الغرام غماً:

وأبرح ما يكون الشوق يوماً ... إذا دنت الديار من الديار

وقربت مسافة الدوار، لكن الدهر ذو غير، ومن ذا يحكم على القدر، وما ضره لو غفل قليلا، وشفى بلقاء الأحبة غليلا، وسمح لنا بساعة اتفاق ووصل ذلك الأمل القصير بباع، وروى مسافة أيام، كما طوى مراحل أعوام.

لد إبليس أفلا أشفقت من عذابي، وسمحت ولو بسلام أحبابي: أسلمتني إلى ذرع اليبد، ومحالفة الذميل والوحيد، والتنقل في المشارق والمغارب، والتمطي في الصهوات والغوارب، يا سابق البين دع محمله، وما بقي في الجسم ما يحمله، ويا بنات جديل، ما لكن وللذميل، ليت سقمي عقيم فلم يلد ذات البين، المشتتة ما بين المحبين، ثم ما للزاجر الكاذب، وللغراب الناعب، تجعله نذير الجلا، ورايد الخلا، ما أبعد من زاجر، عن رأي الزاجر، إنما فعل ما ترى، ذات الغارب والقرى، المحتالة في الأزمة والبرى، المترددة بين التأويب والسرى، طالما باكرت النوى، وصدعت صدع الثوى، وتركت الهايم بين ربعٍ محيل، ورسم مستحيل، يقفو الأثر نحوه، ويسئل الطلل عن عهده، وإن أنصفت فما لعين معقودة، وإبل مطرودة، مالت عن الحوض والشوط، وأسلمت إلى الحبل والعصا والسوط، ولو خير النائي لأقام، ولو ترك القطا ليلا لنام، لكن الدهر أبو براقش، وسهمٌ بينه وبين بنيه غير طائش، فهو الذي شتت الشمل وصدعه، وما رفع سيفٌ بعماده إلا وضعه، ولا بل غليلاً أحرقه بنار وجده ولا نفعه. فأقسم ما ذات خضاب وطوق، شاكية غرام وشوق، برزت في منصتها، وترجمت عن قضيتها، أو غربت عن بيتها، ونفضت شرارة زفرتها

عن عينها، ميلا حكت الميلا والغريض، وعجماء ساجلت بسجعها القريض، ونصت الفود فكأنما نقرت العود، ورددت العويل، كأنما سمعت النقيل، نبهت الواله فثاب، وناحت بأشواقها فأجاب. حتى إذا افتر بريقها، استراب في أنتها، فنادى يا حصيبة الساق، مالك والأشواق، أباكيةٌ ودموعك راقيةٌ، ومحررة وأعصافك حالية، عطلت الخوافي، وحليت القوادم، وخضبت الأرجل، وحضرت المأتم. أما أنت فنزيعة خمار، وحليفة أنوار وأشجار، تترددين بين منبر وسرير، وتتهادين بين روضة وغدير، أسرفت في الغناء، وإنما حكيت خرير الماء، وولعت بتكرير الراء، فقالت أعد نظر البقير، ولأمر ما جدع أنفه قصير، أنا التي أغرقت في الرزء، فكنيت عن الكل بالجزء، كنت أربع بالفيافي ما ألافي، وآنس مع مقيلي، بكرته وأصيلي، تحتال من غدير إلى شرج، وتنتقل من سرير إلى سرج، آونة تلتقط الحب، وحيناً تتعاطى الحب، وطوراً تتراكض الفنن، وتارة تتجاذب الشجن، حتى إذا رماه الدهر بالشتات، وطرفة بالآفات، فهأنا بعده دامية العين، دائمة الأين، أتعلل بالأثر بعد العين، فإن صعدت مناري، ألهبت منقاري، أو نكأت أحشائي، خضبت رجلي بدمائي، فأقسم لا خلعت طوق عهده، حتى أردى من بعده، بل ذات خفض وترف، وجمال باهر وشرف، بسط الدهر يدها، وقبض ولدها، فهي إذا عقدت التمأيم على تريب، أو لفت العمائم على نجيب، حثت المفؤود، وأدارت عين الحسود، حتى إذا أينعت فسالها، وقضى حملها وفصالها، عمر لحدها بوحيد كان عندها وسطى، وفريد أضحى في نحر عشيرتها سمطا، استحثت له مهبأت النسيم الطارق، وخافت عليه من خطرات اللحظ الراشق، فحين هش للجياد، ووهب التمائم للنجاد ونادى الصريم، يا الآل والحريم، فشد الأناة، واعتقل القناة، وبرز يختال في عيون لامه، ويتعرف منه رمحه بألفه ولامه، فعارضه شش الكفين، عاري الشعر والمنكبين، فأسلمه لحتفه، وترك حاشية ردائه على عطفه، فحين انبهم لشاكلته ما جرى برزت لترى:

فلم تلق غير خمس قوايم ... وأشلاء لحم تحت ليثٍ سخايل

يحط على أعطافه وترايبه ... بكفٍ حديد الناب صلب المفاصل

أعظم من وجد إلى تلك الآفاق، التي أطلعت وجوه الحسن والإحسان، وسفرت عن كمال الشرف، وشرف الكمال عن كل وجه حسان، وأبرزت من ذوي الهمم المنيفة، والسير الشريفة، ما أقر عين العلياء، وحلى جيد الزمان، فتقوا للعلم أزهاراً أربت على الروض المجود، وأداروا لأدب هالةً استدارت حولها بدور السعود، نظم الدهر محاسنهم حلياً في جيده ونحره، واستعار لهم الأفق ضياء شمسه وبدره، وأعرب بهم الفخر عن صميمه، وفسح لهم المجد عن مصدره، فهم إنسان عين الزمان، وملتقى طريقي الحسن والإحسان، نظمت الجوزاء مفاخرهم، ونثرت النثرة مآثرهم، واجتلبت الشعري من أشعارهم، وطلع النور من أزرارهم، واجتمعت الثريا لمعاطاة أخبارهم، وود الدلو لو كرع في حوضهم، والأسد لو ربض حول ربضهم، والنعايم لو غذيت بنعيمهم، والمجرة لو استمدت من فيض كرمهم، عشق المسك محاسنهم فرق، وطرب الصبح لأخبارهم فخرق جبينه وشق، وحام النسر حول حمامهم وحلق، وقد الفخار جدار محامدهم وخلق، إلى بلاغة أخرست لسان ليبد، وتركت عبد الحميد غير حميد، أهل ابن هلال لمحاسنهم وكبر، وأعطى القارى ما زجر به قلمه وسطر، وأيس إياس من لحاقهم فأقصر لما قصر.

ومنها: فما للوشي تألق ناصعةٌ، وتأنق يانعه، بأحسن مما وشته أنفاسهم، ورسمته أطراسهم، فكم لهم من خريدة غذاها العلم ببره، وفريدة حلاها البيان بدره، واستضاءت المعارف بأنوارهم، وباهت الفضايل بسناء منارهم، وجليت المشكلات بأنوار عقولهم وأفكارهم، جلوا عروس المجد وحلوا، وحلوا في ميدان السيادة ونشأوا، وزاحموا السهي بالمناكب، واختطوا الترب فوق الكواكب، لزم محلهم التكبير، كما لزمت الياء التصغير، وتقدموا في رتبة الأفهام، كما تقدمت همزة الاستفهام، ونزلوا من مراتب العلياء، منزلة حروف الاستعلاء، وما عسى أن أقول ودون النهاية

مدى نازح، وما أغنى الشمس عن مدح المادح، وحسبي أن أصف ما أعانيه من الشوق، وما أجده من التوق، وأعلل نفسي بلقائهم، وأتعلل بالنسيم الوارد من تلقائهم، وإن جلاني الدهر عن ورود حوضهم، وأقعدني الزمان عن اجتناء روضهم، فما ذهب ودادي، ولا تغير اعتقادي، ولا جفت أقلامي عن مدادهم ولا مدادي، وأنا ابن جلا في وجدهم، وطلاع الثناي إلى كرم عهدهم، إن دعوا إلى ودٍ صميم وجدوني، أضع العمامة عن ذوي عهد قديم عرفوني، ولو شرعوا نحوي قلم مكاتبتهم، وأسحوا بالعلق الثمين من مخاطبتهم، لكفوا من قلبي العاني قيد إساره، وبلوا صدى وجدي المتحرق بناره، ففي الكتابة بلغة الوطر، وقد يغني عن العين الأثر، والسلام الأثير الكريم الطيب الريا، الجميل المحيا، يحضر محلهم الأثير، وكبيرهم إذ ليس فيهم صغير، ويعود على من هناك من ذوي الود الصميم، والعهد القديم، من أخٍ برٍ وصاحب حميم، ورحمة الله وبركاته.

ولا خفاء ببراعة هذه الرسالة على طولها، وكثرة أصولها، وما اشتملت عليه من وصف وعارضة، وإشارة وإحالة، وحلاوة وجزالة.

شعره

ثبت لدي من متأخر شعره قوله من قصيدة، يمدح بها ملك المغرب، أمير المسلمين، عند دنو ركابه من ظاهر تلمسان ببابه أولها:

خطرت كمياس القنا المتأطر ... ورنت بألحاظ الغزال الأعفر

ومن شعره في النسب:

زارت وفي كل لحظ طرف محترس ... وحول كل كناس كف مفترس
يشكو لها الجيد ما بالحلي من هدر ... ويشتكي الزند ما بالقلب من خرس
متى تلاحظها الزاهي الضحى نطقت ... سيوف ألحاظها من آيه الحرس
في لحظها سحر فرعون ورقتها ... آيات موسى وقلبي موضع القبس
تخفي النمومين من حلي ومبتسم ... تحت الكتومين من شعر ومن غلس
وترسل اللحظ نحوي ثم تهزأ بي ... تقول بعد نفوذ الزمية احترس
أشكو إليها فؤاداً واجلاً أبداً ... في النازعات وما تنفك من عبس
يا شقة النفس إن النفس قد تلفت ... إلا بقية رجع الصوت والنفس
هذا فؤادي وجفني فيك قد جمعا ... ضدين فاعتبري إن شئت واقتبسي
ويا لطارق نومٍ منك أرقني ... ليلا ونبهني للوجد ثم نسي

ما زال يشرب من ماء القلوب فلم ... أبصرته ذابلاً يشكو من اليبس
ملأت طرفي عن وردٍ تفتح في ... رياض خديك صلا غير مفترس
وقلت للحظ والصدغ احرسا فهما ... ما بين مصمٍ وفتاك ومنتكس
وليلة جئتها سحراً أجوس بها ... شبا العوالي وخيس الأخنف الشرس
أستفهم الليل عن أمثال أنجمه ... وأسال العيس عن سرب المها الأنس
وأهتك الستر لا أخشى بوادره ... ما بين منتهزٍ طوراً ومنتهس
بتنا نعاطي بها ممزوجةً مزجت ... حلو الفكاهة بين اللين والشرس

أنكحتها من أبيها وهي آيسةٌ ... فثار أبناؤها في ساعة العرس
نورٌ ونارٌ أضاءا في زجاجتها ... فذاك خدك يا ليلى وذا نفس
حتى إذا آب نور الفجر في وضح ... معرك جال بين الفجر والغلس
وهيمنت بالضنا تحت الصباح صباً ... قد أنذرتها ببرد القلب واللعس
قمت تجر فضول الريط آنسة ... كريمة الذيل لم تجنح إلى دنس
تلوث فوق كثيب الرمل مطرفها ... وتمسح النوم عن أجفانها النعس
فظل قلبي يقفوها بملتهب ... طوراً ودمعي يتلوها بمنبجس
دهر يلون لونيه كعادته ... فالصبح في مأتمٍ والليل في عرس

وإحسانه كثير، مقداره كبير. ثم آب إلى بلاد السودان، وجرت عليه في طريقه محنة، ممن يعترض الرفاق ويفسد السبيل. واستقر بها على حاله من الجاه والشهرة، وقد اتخذ أماء للتسرى من الزنجيات ورزق من الجوالك أولاداً كالخنافسة، ثم لم يلبث أن اتصلت الأخبار بوفاته بتنبكتو، وكان حياً في أوائل تسعة وثلاثين وسبعمائة.

ابن الحاج

إبراهيم بن عبد الله بن قاسم النميري إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أسد بن موسى بن إبراهيم ابن عبد العزيز بن إسحاق بن أسد بن قاسم النميري من أهل غرناطة، يكنى أبا إسحاق ويعرف بابن الحاج

أوليته

بيت نبيهٌ، يزعم من يعنى بالأخبار، أن جدهم الداخل إلى الأندلس ثوابة ابن حمزة النميري، ويشركهم فيه بنو أرقم الوادي شيون. وكان سكناه بجهة وادي آش، ولقومه اختصاصٌ وانتقال ببعض جهاتها، وهي شوظر، والمنظر، وقرسيس، وقطرش، تغلب العدو عليها على عهد عبد العزيز، وآوى جميعهم، إلى كنف الدولة النصرية، فانخرطوا في سلك الخدمة، وتمحض خلفهم بالعمل. وكان جده الأقرب إبراهيم، رجلا خيراً من أهل الدين والفضل والطهارة والذكاء، كتب للرؤساء من بني إشقيلولة، عند انفرادهم بوادي آش. واختص بهم، وحصل منهم على صهر بأم ولد بعضهم، وضبط المهم من أعمالهم. ثم رابته منهم سجايا، أوجبت انصرافه عنهم، وجنوحه إلى خالهم السلطان الذي كاشفوه بالثورة، فعرف حقه، وأكرم وفادته، وقبل بيانه، فقلده ديوان جنده، واستمرت أيام عمره تحت رعيه، وكنف عنايته، وكان ولده عبد الله أبو صاحبنا المترجم به، صدراً من صدور المستخدمين في كبار الأعمال، على سنن رؤسائهم، مكساباً متلافاً، سرى النفس، غاض الحواز. ولي الأشغال بغرناطة وسبتة، عند تصيرها إلى إيالة بني نصر، وجرى طلاقه هذا، في صل دنيا عريضة، تغلبت عليه بآخرة، ومضى لسبيله، مصدوقاً بالكفاية، وبراعة الخط، وطيب النفس، وحسن المعاملة.

حاله

هذا الرجل نشأ على عفاف وطهارة، امتهك صبابة ترف من بقايا عافية، أعانته على الاستظهار ببزة، وصابته من التحرف بمهنة. ثم شد وبهرت خصاله، فبطح بالشعر، وبلغ الغاية في إجادة الخط، وحاضر بالأبيات، وأرسم في كتابة الإنشاء، عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، مستحقاً حسن سمة، وبراعة خط، وجودة أدب، وإطلاق يد، وظهور كفاية، وفي أثناء هذا الحال، يقيد ولا يفتر، ويروي الحديث، ويعلق الأناشيد، ولا يغب النظم والنثر، ولا يعفي القريحة، معمي، مخولا في العناية، مشتملا على الطهارة، بعيداً في زمان الشبيبة عن الريبة، نزيهاً على الوسامة عن

الصبوة والرقية، أعانه على ذلك، نخوة في طبعه وشفوفٌ وهمة. كان مليح الدعابة، طيب الفكاهة، آثر المشرق، فانصرف عن الأندلس في محرم عام سبعة وثلاثين وسبعمائة، وألم بالدول، محركاً إياها بشعره، هازاً أعطافها بأمداحه، فعرف قدره، وأعين على طيته، فحج وتطوف، وقيد، واستكثر، ودون في رحلة سفره، وناهيك بها طرفة، وقفل إلى إفريقية، وكان علق بخدمة بعض ملوكها، فاستقر ببجايه لديه، مضطلعاً بالكتابة والإنشاء. ثم انتقل إلى خدمة سلطان المغرب، أمير المسلمين أبي الحسن، ولم ينشب أن عاد إلى البلاد المشرقية، فحج، وفصل إلى إفريقية، وقد دالت الدولة بها بالسلطان المذكور، فتقاعد عن الخدمة، وآثر الانقباض، ثم ضرب الدهر ضرباته، وآل حال السلطان إلى ما هو معروف، وثابت للموحدين برملة بجاية بارقة لم تكد تتقد حتى خنت فعاد إلى ديوانه من الكتابة عن صاحب بجاية. ثم أبي مؤثراً للدعة في كنف الدولة الفارسية، ونفض عن الخدمة يده، لا أحقق مضطراً أم اختياراً، وحجة كليهما قائمة لديه، وانقطع إلى تربة الشيخ أبي مدين بعباد تلمسان، مؤثراً للخمول، عزيزاً به، ذاهباً مذهب التجلة من التجريد والعكوف بباب الله، مفخراً، لأهل نحلته، وحجة على أهل الحرص والتهافت، من ذوي طبقته، راجع الله بنا إليه بفضله، ثم جبرته الدولة الفارسية على الخدمة، وأبرته بزة النسك، فعاد إلى ديدنه من الكتابة، رئيساً ومرؤوساً. ثم أفلت نفيه موت السلطان أبي عنان فلحق بالأندلس، وتلقى ببر وجراية، وتنويه وعناية، واستعمل في السفارة إلى الملوك، وولى القضاء في الأحكام الشرعية بالقليم بقرب الجضرة، وهو الآن بحاله الموصوفة، صدراً من صدور القطر واعيانه، يحضر مجلس السلطان، ويعد من نبهاء من ينتاب بابه، وقد توسط من الاكتهال، مقيماً لرسم الكتابة والظرف مع الترخيص للباس الحرير، والخضاب بالسواد، ومصاحبة الأبهة، والحرص على التجلة.

وجرى ذكره في التاج الحلي بما نصه: طلع شهاباً ثاقباً، وأصبح بشعره للشعري مصاقباً، فنجم وبرع، وتمم المعاني واخترع، إلى خط يستوقف الأبصار رايقه، وتقيد الأحداق حدايقه، وتفتن الألباب فنونه البديعة وطرايقه، من بليغ يطارد أسراب المعاني البعيدة فيقتنصها، ويغوص على الدرر الفريدة فيخرجها، ويستخلصها بطبع مذاهبه دافقة، وتأييد رايته خافقة، نبه في عصره شرف البيان من بعد الكرى، وانتدب بالنشاط إلى تجديد ذلك البساط وانبرى، فدارت الأكواس، وتضوع الورد والآس، وطاب الصبوح، وتبدل الروح المروح، ولم تزل نفحاته تتأرج، وعقائل بناته تتبرج، حتى دعي إلى الكتابة، وخطب إلى تلك المثابة، فطرز المفارق برقوم أقلامه، وشنف المسامع بدر كلامه، ثم أجاب داعي نفسه التي ضاق عنها جثمانه، لا بل زمانه، وعظم لها فكره وغمه، وتعب في مدارانها، وكما قال أبو الطيب المتنبي، وأتعب خلق الله من راد محمده، فارتحل لطيته، واقتعد غارب، مطيته، فحج وزار، وشد للطواف الإزار. ثم هبا إلى المغرب وحوم، وقفل قفول النسيم عن الروض بعد ما تلوم، وحط بإفريقية على نار القرى، وحمد بها صباح السرى، ولم يلبث أن تنقل، ووحر الحميم شفافه وتنغل، ثم بدا له أخرى فشرق، وكان عزمه أن يجتمع فتفرق.

مشيخته

روى عن مشيخة بلده وأشجر، وقيد واستكثر، وأخذ في رحلته عن أناس شتى بشق إحصاؤهم.

تواليفه

منها كتاب المساهلة والمسامحة في تبيين طرق المداعبة والممازحة، وإيقاظ الكرام، بأخبار المنام، وتنعيم الأشباح بمحادثة الأرواح، وكتاب الوسائل ونزهة المناظر والخمائل، والزهرات وإجالة النظرات، وكتاب في التورية على حروف المعجم، أكثره مروى بالأسانيد عن خلق كثير، والله تعالى يخره، وجزءٌ في تبيين المشكلات الحديثة الواصلة

من زبيد اليمن إلى مكة، وجزء في بيان اسم الله الأعظم، وهو كبير الفائدة، ونزهة الحدق في ذكر الفرق، وكتاب الأربعين حديثاً البلدانية، والمستدرك عليها من البلاد التي دخلتها، ورويت فيها، زيادة على الأربعين، وروضة العباد المستخرجة من الإرشاد، وهو من تأليف شيخنا القطب أبي محمد الشافعي، والأربعون حديثاً التي رويتها عن الأمراء والشيوخ، الذين رووا عن الملوك والأمراء، والشيوخ الذين رووا عن الملوك والخلفاء القريب عهدهم، ووصلت بها خاتمة ذكرت فيها فوائد مما رويته عن الملوك والأمراء، وعن الشيوخ الذين رووا عن الملوك والأمراء، وكتاب اللباس والصحبة وهو الذي جمعت فيه طرق المتصوفة، المدعي أنه لم يجمع مثله، وكتاب فيه شطر الحماسة لحبيب، وهو غير مكمل، ورجز في الفرائض على الطريقة البديعة التي ظهرت ببلاد الشرق، ورجز صغير في الحجب والسلاح، ورجز في الجدل، ورجز في الأحكام الشرعية سماه، بالفصول المقتضبة في الأحكام المنتخبة، وكتاب سماه بمثاليث القوانين، في التورية والاستخدام والتضمين، وهو كله من نظمه، وله تأليف سماه بفيض العباب، وإجالة قداح الآداب، في الحركة إلى قسنطينة والزاب.

شعره

ومن شعره في المقطوعات

طاب العذيب بماء ذكرك وانثنى ... فكأنما ما ء العذيب سلافه

واهتز من طربٍ للقياك الحمى ... فكأنما بأناته أعطافه

ومن ذلك:

لي المدح يروي منذ كنت كأنما ... تصورت مدحاً للورى وثناء

ومالي هجاء فاعجبن لشاعر ... وكاتب سرٍ لا يقيم هجاء

ومن ذلك:

ولي فرسٌ من علية الشهب سابق ... أصرفه يوم الوغى كيف أطلب

عدوت له في حلبة القوم مالكا يتا ... بعني ما شئت في السبق أشهب

وقال، وقد وقف حاجب السلطان على عين ماء فيض الثغور وشرب منها:

تعجبت من ثغر هذي البلاد ... وها أنت من عينه شارب

فلله ثغر أرى شارباً ... وعينٌ بدا فوقها حاجب

ومن ذلك:

وحمراء في الكأس مشمولة ... تحث على العود في كل بيت

فلا غرو أن جاءني سابقا ... إلى الأنس خلٌ يحث الكميت

وقا مضمنا، وقد تذكر حمراء غرناطة، وبابها الأحفل المعروف بباب الفرج:

أقول وحمراء غرناطة تشوق ... النفوس وتسبي المهج

ألا ليت شعري بطول السرى ... أرتنا الوجى واشتكت العرج

وما لي في عرجٍ رغبةٌ ... ولكن لأقرع باب الفرج

وقال ملغزا في قلم وهر ظريف:

أحاجيك ما واشٍ يراد حديثه ... ويهوى الغريب النازح الدار إفصاحه

تراه مع الأحيان أصفر ناحلا ... كمثل مريض وهو قد لازم الراحة

وقال:

وقالوا رمى في الكأس ورداً فهل ترى ... لذلك وجهاً قلت أحسن به قصدا

ألم تجد اللذات في الكأس حلبة ... فلا تنكروا فيها الكميث ولا الوردا

وقال:

كماة تلاقت تحت نقع سيوفهم ... وللهام رقصٌ كلما طلب الثار

فلا غرو أن غنت وتلك رواقص ... فيهم في مارد الحرب أوتار

وقال:

وعارضٌ في خده نباته ... فحسنه بين الورى يسحرنا

أجرى دموعي إذ جرت شوقا له ... فقلت هذا عارضٌ ممطرنا

وقال وقد توفي السلطان أبو يحيى بن أبي بكر صاحب تونس، وولى ابنه أبو حفص بعد قتله لإخوته:

وقالوا أبو حفص حوى الملك غاصباً ... وإخوته أولى وقد جاء بالنكر

فقلت لهم كفوا فما رضي الورى ... سوى عمر من بعد موت أبي بكر

وقال مضمنا، وقد حضر الفتى الكبير عنبر قتالا، وكان فارساً مذكوراً، عند بني مرين:

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين

ولقد أقول وعنبرٌ ذاك الفتى ... يلقى الفوارس في العجاج الأكور
يا عاثرين لدى الجلاد لعاً فقد ... بسقت لكم ريح الجلاد بعنبر
وقال وقد اشتاق إلى السبيكة خارج حمراء غرناطة:
وإن إفراط بكائي ... لم يرع مني عريكة
قد أذاب العين لما ... زاد شوقي للسبيكة
لما نزلت من السبيكة صادني ... ظبيٌ وددت لديه أن لم أنزل
فاعجب لظبي صاد ليثاً لم يكن ... من قبلها متخبطاً في أخبل
وقال وهو ظريف:
قد قارب العشرين ظبيٌ لم يكن ... ليرى الورى عن حبه سلوانا
وبدا الربيع بخده فكأنما ... وافي الربيع ينادم النعمانا
وقال:
أتوني فعابوا من أحب جماله ... وذاك على سمع المحب خفيف
فما فيه عيبٌ غير أن جفونه ... مراضٌ وأن الخصر منه ضعيف
وقال:
أيا عجباً كيف تهوى الملوك ... محلي وموطن أهلي وناسي
وتحسدني وهي مخدومة ... وما أنا إلا خديم بفاس
نثره

ونثره تلو نظمه في الإجادة، وقد تضمن الكتاب المسمى بنفاضة الجراب منه ذكر كل بديع فمما ثبت فيه، مما خاطبته به. وقد ولي خطة القضاء بالإقليم، أداعبه، وأثير ما تستحويه.
عجائبه
أيا قاضي العدل الذي لم تزل ... تمتار شهب الفضل من شمسك
قعدت للإنصاف بين الورى ... فاطلب لنا الإنصاف من نفسك

ما للقاضي، أبقاه الله، ضاق ذرع عدله الرحيب، عن العجيب، وهم عن العتب، وضن على صديقه حتى بالكتب، أمن المدونة الكبرى ركب هذا التحريج، أم من المبسوطة ذهب إلى هذا الأمر المريج، أم من الواضحة امتنع عن الإمام ببديع الوفاء والتعريج، من أمثالهم إرض من أخيك بعشر وده إذا ولى، وقد قنعنا والحمد لله بحبة من مده، وإشارة من درجه، وبرة وصاعةٍ، معتدلة، من زمان بلوغ أشده، فما باله يمطل مع الغني، ويحوج إلى العنا، مع قرب الجني، المحلة حلة ضالع، ومطمعٍ وطامع، ومرأى، ومستمع وسامع، والكنف الواسع، والمكان لاناءٍ ولا شاسع، والضرع حافل، والزرع كافٍ كافل، والقريحة وارية الزند، والإمامة خافقة البند، وهب أن البخل يقع بها في الخوان على الإخوان، فما باله يسمح بالبيان، وليس الخبر كالعيان، ويتعدى حظ الجنان، لاخط البنان، أعيذ سيدي من

ارتكاب رأيٍ ذميم، ينقل إلى نميرها بيت تميم، ويقصد معناه بتميم، وهلا تلاحم، وعهدي بالسياسة القاضوية، وقد نامت في مهاد أهل الظرف، نوم أهل الكهف، ولم تبال بمردد الويل واللهف، أو شربة لحفظ الصحة بختجا، ودقت لإعادة الشبيبة عفصا ورد سختجا، وغطت الصبح بالليل إذا سجا، ومدت على ضاحي البياض صلاً سجسجا، وردت سوسن العارض بنفسجا، ولبس بحرها الزاخر من طحلب البحر منتسجا، وأحكام العامة، ومزين المرأة ينصح ويرشد، ويطوي المحاسن وينشد، حتى حسنت الدارة، وصحت الاستدارة، وأعجبه الوجه الجميل، والقد الذي يميد في دكة الدار ويميل، وأغرى بالسواك السميم والتكميل، وولج بين شفرتي سيد الميل، وقيل لو صاح اليمين خاب فيك التأميل، وامتد جناح برنس السرق، واحتفل الغصن الرطيب في الورق، ورش الورد بمائه عند رشح العرق، وتهيأ لمنطلق، فقرأت عليه نساء أعوانه، وكتبة ديوانه، سورة الفلق، من بعد ما وقف الإمليق حجابه على إقدامهم، وسحبهم جلاوزته من أقوامهم، فمثلوا واصطفوا، وتألفوا والتفوا، وداروا وحفوا، وما تسللوا ولا خفوا، كأنما أسمعتهم صيحة النشر، وأخروجوا لأول الحشر. فعيونهم بملتقى المصراع معقودة، وأذهانهم لمكان الهيبة مفقودة، وحبالتهم قبل الطلب بها منقودة، فبعد ما فرش الوساد، وارتفع بالنفاق الكساد، وذارع البكا وتأرج الحساد، واستقام الكون وارتفع الفساد، وراجعت أرواحها الأجساد، جاءت السادة القاضوية فجلست، وتنعمت الأحداق بالنظر فيها واختلست، وسجت الأكف حتى أفلست، وزانت شمسها ذلك الفلك، وجلت الأنوار ذلك الحلك، وفتحت الأبواب وقالت هيت لك، ووقفت الأعوان سماطين، ومثلوا خطين، وتشكلوا مجرة تنتهي منك إلى البطين، يعلنون بالهدية ويجهرون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، من كل شهاب ثاقب وطائفٍ غاسق واقب، وملاحظ مراقب، كميش الإزار، بعيد المزار، حامل للأوبار، خصيم مبين، وراثٌ سوفسطائياً عن رثين، مضطلع بفقه البين وحريمها، فضلا عن تلقين الخصوم وتعليمها، يرأسهم العريف المقرب، والمقدم المدرب، والمشافة المباشر، والنابح الشاكر، والنهج العاشر، الذي يقتضي خلاص العقد، ويقطع الكالي والنقد، ويزكي ويجرح، ويمسك ويسرح ويطرح، ويحمل من شاء أو يشرح، والمسيطر الذي بيده ميزان الرزق، وجميع أجزاء المفترق، وكافة قابلة، وحم الدواة الفاغرة، ورشا بلالة الصدور الواغرة، فإذا وقف الخمصان بأقصى مطرح الشعان، أيان يجتمع الرعاع، وأعلنا الندا، وطلب الأعداء. وصاحا جعل الله أنفسنا لك الفدا، ورفع الأمر إلى مقطع الحق، والأولى بالمثوبة الأحق، أخذهما الأيدي دفعاً في القفي، ورفعا الستر اللطيف الخفي، وأمسكا بالحجر والأكمام، ومنعا المباشرة والإلمام، فإذا أدلى بحجته من أدلى، وسمعها دينه عدلا، وحق القول، واستقر الهول، ووجبت اليمين، أو الأداء الذي يفوت له الذخر اليمين، أو الرهن أو الضمين، أو الاعتقال الذي هو على أحدهما كالأمين، نهش الصل، الذي سليمه لأهل، ولسبت العقارب، التي لا يفلتها الهارب، ولا تخفي منها المشارب، وكم تحت ظلام الليل من غرارة يحملها غر، وصده ريح فيها صر، ويهدي ارتقاب قلة شهد، وكبش يجر بقرنيه، ويدفع بعد رفع ساقيه، ومعزى وجدي وقلائد، وسرب دجاج، ذوات بجاج، يفضحن الطارق، ويشعثن المفارق، فمتى يستفيق سيدي مع هذا اللغط العائد بالصلة، واللهو المتصلة، وتفرغ يده البيضا لأعمال ارتياض، وخط سوادٍ في بياض، أو حنينٍ للوحٍ أو رياض

أو إمتاع طرف، باكتشاف حرف، أو إعمال عدل لرسول في صرف، أو حشو طرف، بتحفة ظرف، شأنه أشد استغراقاً، ومثواه أكثر طراقاً، من ذكرى حبيبٍ ومنزل، وأم معدل، وكيف يستخدم القلم الذي يصرف ماء الحبر، بذوب التبر، في ترهاتٍ عدم جناها، وأقطع جانب الخيبة لفظها ومعناها، اللهم إلا أن تحصل النفس على كفاية تحتم لها الصدر، ويشام من خلالها اللجين الرفيع القدر، أو يحيى للفكاهة والأنس، أو ينفق لديها ذمامٌ على الجنس، فربما

تقع المخاطبة المبرورة، وتبيح هذا المرتكب الصعب الضرورة، والمرغوب من سيدنا القاضي أن يذكرنا يوماً بالإغفال في نعيمه، ولا يخيب آمالنا المتعلقة بأذيال زعيمه، ويسهمنا حظاً من فرائد خطه، لا من فرايد خطته، ويجعل لنا كفلا من فضل برينه وحنطته لا من فضل هرته وقطته، فقد غنينا عن الحلاوات بحلاوات لفظه، وعن الطرف المجموعة، بغنون حفظه، وعن قصب السكر، بقصب أقلامه، وعن جنى الروم بروامه، وبهديه، عن جديه، وبمجاجته، عن دجاجته، وبدلجه عن أترجه، وعن البر ببره، وعن الحب بحبه ولا نأمل إلا طلوع بطاقته، وقد رضينا بوسع طاقته، وإلا فلا بد أن يجيش جيش الكلام إلى عتبه، ونوالي عليه ضرايب الكتايب، حتى يتقى بضريبة كتبه. والسلام.أو إمتاع طرف، باكتشاف حرف، أو إعمال عدل لرسول في صرف، أو حشو طرف، بتحفة ظرف، شأنه أشد استغراقاً، ومثواه أ كثر طراقاً، من ذكرى حبيبٍ ومنزل، وأم معدل، وكيف يستخدم القلم الذي يصرف ماء الحبر، بذوب التبر، في ترهاتٍ عدم جناها، وأقطع جانب الخيبة لفظها ومعناها، اللهم إلا أن تحصل النفس على كفاية تحتم لها الصدر، ويشام من خلالها اللجين الرفيع القدر، أو يحيى للفكاهة والأنس، أو ينفق لديها ذمامٌ على الجنس، فربما تقع المخاطبة المبرورة، وتبيح هذا المرتكب الصعب الضرورة، والمرغوب من سيدنا القاضي أن يذكرنا يوماً بالإغفال في نعيمه، ولا يخيب آمالنا المتعلقة بأذيال زعيمه، ويسهمنا حظاً من فرائد خطه، لا من فرايد خطته، ويجعل لنا كفلا من فضل برينه وحنطته لا من فضل هرته وقطته، فقد غنينا عن الحلاوات بحلاوات لفظه، وعن الطرف المجموعة، بغنون حفظه، وعن قصب السكر، بقصب أقلامه، وعن جنى الروم بروامه، وبهديه، عن جديه، وبمجاجته، عن دجاجته، وبدلجه عن أترجه، وعن البر ببره، وعن الحب بحبه ولا نأمل إلا طلوع بطاقته، وقد رضينا بوسع طاقته، وإلا فلا بد أن يجيش جيش الكلام إلى عتبه، ونوالي عليه ضرايب الكتايب، حتى يتقى بضريبة كتبه. والسلام.
فراجعني بما نصه:

فنيت عن الإنصاف مني لأنني ... كما قلت لكم من فراقكم قاض

فمن سمعنا أو من بعينك إنني ... بكل الذي ترضاه يا سيدي راض

عمرك الله أيها الإمام الفذ، ومن بمدحه تطرب الأسماع وتلذ، أوحد الدنيا وحائز الرتبة العليا، ولولا أنك فوق ما يقال، والزلة إن لم تظهر العجز عن وصفك لا تقال، لأطلت في القول، وهدرت هدير قرع الشول، لكن تحصيل، الحاصل محال، ولكل من تهيب كمالك مقال، ومقامٌ وحال، ولولا أن الدعاء مأمول، وهو يظهر الغيب مقبول، والزيادة من فضل الله لا تنتهي، والنعم قد توافيك، فوق ما تشتهي، لاريت أن أمراً كفى، وأمرٌ ظهر فيه ما خفي إن قلت لازلت مرفوعاً فأنت كذا ... أو قلت زانك ربي فهو قد فعلا

إيه يا سيدي ما هذه الكلمات السحرية والأنفاس النفيسة الشجرية، والألفاظ التي أنالت المرغوب وخالطت بشاشتها القلوب، والنزعات الرائقة، والأساليب الفائقة، والفصاحة التي سلبت العقول، والبلاغة التي أوجبت الذهول، والبيان الذي لا يضيق صحيفه، ولا يبلغ أحد مده ونصيفه، يميناً بما احتوى من المحاسن، واللطائف التي لم يكن ماؤها بالآسن، وقسماً ببراعتك التي هي الواسي المطاع، وطرسك الذي أبهجت به الأبصار والأسماع، لقد عادلي بكتابتك عيد الشوق، وجاد لي بخطابك جد التوق، ولعهدي بنفسي رهن أشجاني، غير محلولة عقدة لساني، أشد من الصخرة جلدا، وأغلظ من الإبل كبداً، حتى إذا بدت حقيدة القلب وهب نسيمه الرطب، وأفيح مورده العذب، وأضاء بنوره الشرق والغرب، ولم يبق لي بثٌ ولا شجن، ولا شاقني أهل ولا وطن، ومضى سيف اللسان بعد النبو، ونهض طرف الفكر بعد البكر، وهزني الطرب المثير للأفراح، ومشى الجذل في أطرافي وأعطافي مشي الراح، بيد أني خجلت ولا خجلة ربة الخدر، وتضاءلت نفسي لجلالة ذلك القدر، وقلت ما لي بشربةٍ من كأس

بيانه، وقطرة من بحور إحسانه، حتى أؤدي، ولو بعض حقك، وأكتب عقد ملك رقي لرقك، إنني على ما وليت من الصدقة والصداقة وبعد طلاقك، لكني أقوم في حقك مستغفراً، ولا أرضى أن أكون لذمة المخدوم خفراً، على أنني أقول، قد كتبت فلم يرد جوابي، وجرمت فهاج الجوى بي، ولعمري قد لزمت فيه خطة الأدب، ولم أر التثقيل على المولى الرفيع الرتب، فأما وقد نفقت عندك بضاعتي المزجاة، وشملني من لدنك الحلم والأناة، وشرفتني بالخطاب الكريم، والرسالة التي عرفت في وجهها نضرة النعيم، فما أبغي إلا إيرادها عليك وكلها خراج، ولبردها في الإجادة إنهاج، ولعلك ترضى التخريج من مدونة الأخبار، والمبسوطة والواضحة، لكن من الأعذار. وأما الولاية التي يقنع بسببها من الود بالعشر، أو بحبة من المد إلى يوم النشر، فلا بد أن يكون القانع محتاجاً للوالي، ومفتقراً إلى التفقد المتوالي، وأما إذا كان القانع هو الذي تولى الخطة، وأكسب الهر الذي أشار إليه والقطة، فهو قياسٌ عكسه كان أقيس، بل تعليمٌ لمن وجد في نفسه خيفةً وأوجس، وهأنا قد فهمت وعلمت، من حسن تأديبك ما علمت، وعلى ما فرطت في جنبك ندمت، وإلى المعذرة والحمد لله ألهمت، ومع ذلك أعيد حديث الشيخ القاضي، وذكر عهدك به في الزمان الماضي، فلقد أجاد، في الخضاب بالسواد، واعتمد على قول المالكي الذي هدى إلى الرشاد، وأوجبه بعضهم في بلاد الجهاد، وبين عمر منافع الخضاب الصادقة الإشهاد، وخضب بالسواد جماعة من الصحابة الأمجاد، وكان ذلك ترخيصاً لم يعد شرعاً، لكنه دفع شراً وجلب نفعاً، لا كأخيه الذي أبكى عين الحميم، وأنشد قول الرضي يوم السقيم، وفجع قلوب أترابه، ولم يأت بيت النصف من بابه، وإلا فقد علم أن في الخير مشروع، وتعجل الشيء قبل أوانه ممنوع، وستغبط أخاك ولو بعد حين، وما كل صاحب يحمد في إيضاح وتبيين، وإني لأرجو أن تتزوجها بكراً، تلاعبها وتلاعبك، أو ثيباً تقصر عن حبها مآربك، فلا جرم ترجع إلى الخضاب، وحينئذ تمتع برشف الرضاب، وإلا قالت سيدي، لا تعظم المني، ولا تجعل القطر قبل أن يموت عمر، لعمر الله إن هذا الموقف صعب، قد ملأ الروح منه روعٌ ورعب، وإن أضاف إلى ذلك غلبة الأوهام، وظن الشيخوخة الصادرة عن نيل المرام، سكن المتحرك المصلوب، وتنغص عند ذلك المحبوب، والله يعينك أيها المولى، ويواليك من بسطه أضعاف ما ولي. وأما الأوصاف التي حسبتها أوصافي، وأوجبت حكمها بالقياس على خلافي، فهي لعمري أوصاف لا تراد، ومراعٍ لا شك أنها تراد، غير أني بعيد العهد بهذه البلاد، لا أمت لها إلا بالانتساب والميلاد لا كالقضاة الذين ذكرت، لهم عهداً، ونظمت حلاهم في جيد الدهر عقداً، ولو أنك بسرك بصرتني بشروط القضاء وسجايا أهل الصرامة والمضاء، لحققت المناط، وأظهرت الزهد والاغتباط، لكني جهلت والآن ألهمت، وما علم الإنسان إلا ليعلم، والله يهدينا إلى الذي يكون أحسن وأقوم، وإني لأعلم سيدي بخبري، وأطلع جلاله على عجري وبجري، ولكني رحلت عن تلك الحضرة، وعلمت النظرة في تلك النظرة، لبست الإهمال، واطعلت في السفر والاعتمال، فأقيم بادي الكآبة، مهتاج الصبابة، قد فارقت السكن، وخلفت الدار مثيرة الشجن:

وكانت جنتي فخرجت منها ... كآدم حين أخرجه الضرار

حتى إذا حططت رحلي بالقرى، وقنعت بالزاد الذي كفى معياراً والقرى، أدخلت إلى دار ضيقة المسالك، شديدة الظلمة كالليل الحالك، تذكرني القبر وأهواله وتنسيني الذي أهواه، بل تزيد على القبر برفل لا يتخلص، وبراغيث كزريعة الكتان حين تمحص، وبعوضٍ يطيل اللهز، ولا تغني حتى تشرب، وبوق يسقط سقوط الندى، ويزحف إلى فراشي زحف العدا، وأراقم خارجة من الكوى، وحيات بلدغها نزاعة للشوى، وجنون يسمع عزيفها، وسراق لا يعدم تخويفها، هذا ولا قرق لمن بالقهر حبس، إلا حصيرٌ قد اسود من طول ما لبس، لا يجتزي في طهارته بالنضح،

ولا يحشد من جلس عليه إلا بالجرح، حتى إذا سجا الليل، وامتد منه على الآفاق الذيل، فارقني العون فراق الكرى، ورأيت الدمع لما جرى قد جرى، فأتوسد والله ذراعي، ولأحمد والله اضطجاعي، فكلا ليلي محمومين، والوجع والسهر محمولان على الرأس والعين،حتى إذا طلع الصبح، وآن لبالي وعيون الخصوم الفتح، أتاني عونٌ قد انحنى ظهره ظهره، ونيف عن المائة عمره لا يشعر بالجون الصيب، ولا تسمعه كلمات أبي الطيب، بربري الأصل، غير عارف بالفصل، حتى إذا أذنت للخصوم، وأردت إحياء الرسوم، دخل على غولان عاقلان، وأثقل كتفي منهما ما يلان، قد أكلا الثوم النيء والبصل، وعرقا في الزنانير عرقاً اتصل، يهديان إلى تلك الروائح، ويظهران لي المخازي والفضائح، فإذا حكمت لأحدهما على خصمه، وأردت الفصل الذي لا مطمع في فصمه، هرب العون هربا، وقضى من النجاة بنفسه أربا، واجتمع إلى النصحاء، وجاء المرضى والأصحاء، كل يقول أتريد تعجيل المنايا، وإثكال الولايا، وإتعاب صديقك السيد العماد، بمرتبةٍ كما فعل مع القاضي الحداد، فأقول هذا جهاد، وما لي في الحياة مراد، فأرتكب الخطر، وأقضي في الحكم الوطر. والله يسلم، ويكمل اللطف ويتمم. وأما إذا جاء أحدكم لكتب عقد، وطمعت في نسيئةٍ أو نقد، قطعت يومي في تفهم مقصده، مستعيذاً بالله من غضبه وحرده، حتى إذا ما تخلصت منه، وملأت السجل بما أثبته عنه، كشف عن أنياب عضل، وعبس عبوس المحب لانقطاع وصل، وقال لقد أخطأت فيما كتبت، ورسمت ما أردت وأحببت، فأكتب عقداً ثانياً وثالثاً، وأرتقب مع كل كلام حادثٍ حادثاً، فإذا رضي، فأسأله كيف، وسن السالي الذي أظهره، أو اسمه أو السيف، أخرج من فمه درهماً نتناً، قد لزم ضرساً عفناً، فأعاجله في البخور، وأحكه في الصخور، حتى إذا حمل لمن يبيع خبز الذرة منتناً، ويرى أنه قد فضل بذلك أنساً وحسناً، وجده ناقصاً زايفاً، فيرجع حامله وجلاً خايفاً، ويبقى القاضي فقيد الهجوع، يشد الحجر على بطنه من الجوع، على أنني أحمد خلاء البطن، وما بجسمي لا يحكى من الوهن، لتعذر المرحاض، وبعد ماء الحياض، وكمون السباع في الغياض، وتعلق الأفاعي بالرداء القضفاض، ونجاسة الحجارة، وكثرة تردد السيارة، والانكشاف للريح العقيم، والمطر المنصب إلى الموضع الذميم. هذه الحال وعلى شرحها مجال، وقد صدقتك سنن فكري، وأعلمتك بذات صدري، فتجلى الغرارة غرور، وشهود الشهد زور، والطمع في الصرة إصرار ودون التبر يعلم الله تيار. وأما الكبش فحظى منه غباره إذا خطر، والثور بقرنه إذا العيد حضر، كما أن حظى من الجدي التأذي بمسلكه، وإن جدى السماء لأقرب لي من تملكه، وأنا من الحلاوة سالم ابن حلاوة، ولا أعهده من طرف الطرف الدماوة، ودون الدجاج كل مدجج، وعوض الأترج رجة بكل معرج، ولو عرفت أنك تقبل على علاتها الهدايا، وتوجب المزيد لأصحابك المزايا، لبعثت بالقماش، وأنفذت الرياش، وأظهرت الغنى، والوقوف بمبنى المنى، وأوردتها عليك من غير هلع، مطلعة في الجوف بعد بلع، من كل ساحلية تقرب إلى البحر، وعدوية لا تعد، وصدر مجلس الصدر، حتى أجمع بين الفاكهة والفكاهة، ويبدو لي بعد الشقف وجوه الوجاهة، وأتبرأ من الصد المذموم، ولا أكون أهدأ من القطا لطرق اللوم، لأنك زهدت في الدنيا زهد ابن أدهم، وألهمك الله من ذلك أكرم ما ألهم، فيدك من أموال الناس مقبوضة، وأحاديث اللها الفاتحة للها مرفوضة، وإذا كان المرء على دين خليله، ومن شأنه سلوك نهجه وسبيله، فالأليق أن أزهد في الصفراء والبيضاء، وأقابل زخرف الدنيا بالبغضاء، وأحقق وأرجو على يدك حسن التخلي، والاطلاع على أسرار التجلي، حتى أسعد بك في آخرتي ودنياي، وأجد بركة خاطرك في مماتي ومحياي، أبقاك الله بقاء يسر، وأمتع

بمناقبك التي يحسدها الياقوت والدر، ولا زلت في سيادة تروق نعتاً، وسعادةٍ لا ترى فيها عوجا ولا أمتاً، وأقرأ عليك سلاماً عاطر العرف، كريم التأكيد والعطف ما رثى لحالي راث، وذكرت أداية حراث، ورحمة الله وبركاته.

وكتبه أخوك ومملوكك، وشيعة مجدك، في الرابع والعشرين من جمادى الأولى عام أربعة وستين وسبعمائة.بك التي يحسدها الياقوت والدر، ولا زلت في سيادة تروق نعتاً، وسعادةٍ لا ترى فيها عوجا ولا أمتاً، وأقرأ عليك سلاماً عاطر العرف، كريم التأكيد والعطف ما رثى لحالي راث، وذكرت أداية حراث، ورحمة الله وبركاته. وكتبه أخوك ومملوكك، وشيعة مجدك، في الرابع والعشرين من جمادى الأولى عام أربعة وستين وسبعمائة.

مولده

بغرناطة عام ثلاثة عشر وسبعمائة

محنته

توجه رسولا عن السلطان إلى صاحب تلمسان السلطان أحمد بن موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمر اسن بن زيان: وظفر بالجفن الذي ركبه العدو، بأحواز جزيرة حبيبة، من جهة وهران، فأسر هو ومن بأسطول سفره من المسلمين، وبلغ الخبر فعظم الفجع، وبين نحن نروم سفر أسطول يأخذ الثار، ويستقري الآثار، فيقيل العثار، إذا اتصل الخبر بمهادنة السلطان المذكور، ففدى من أسر بذلك المال الذي ينيف على سبعة آلاف من العين في ذلك، فتخلص من المحنة لأيام قلائل، وعاد، فتولى السلطان إرضاءه عما فقد، وضاعف له الاستغناء وجدد، وكان حديثه من أحاديث الفرج بعد الشدة محسوباً، وإلى سعادة السلطان منسوباً، وأنشدته شعراً في مصابه، بعدها، وقد قضيبت له من بر السلطان على عادتي، ما جبر الكسر، وخفض الأمر:

خلصت كما خلص الزبرقان ... وقد محق النور عنه السرا

وفي السيق والرار ... في هذا سر وفي ذا أسرار

وكان تاريخ هذه المحنة المردفة المنحة، حسبما نقلته من خطه، قال اعلموا يا سيدي أبقاكم الله تعالى، أن سفرنا من ألمرية، كان في يوم الخميس السادس لشهر ربيع الآخر من عام ثمانية وستين وسبعمائة، وتغلب علينا العدو في عشية يوم الجمعة الثاني منه، بعد قتال شديد، وكان خروجنا من الأسر في يوم السبت الثاني والعشرين لربيع الثاني المذكور، وكان وصولي إلى الأندلس في أسطول مولانا نصره الله، في جمادى الآخرة من العام المذكور، بعد أن وصلوا قرطاجنة وأخذوا أجفاناً ثلاثة من أجفان العدو، وعمل المسلمون الأعمال الكريمة.

إبراهيم بن خلف القرشي العامري

إبراهيم بن خلف بن محمد بن الحبيب بن عبد الله ابن عمر بن فرقد القرشي العامري قال ابن عبد الملك، كذا وقفت على نسبه بخطه في غير ما موضع من أهل مورة، وسكن إشبيلية.

حاله

كانت متفنناً في معارفه، محدثاً، راوية، عدلاً فقيها، حافظاً، شاعراً، كاتباً، بارعاً، حسن الأخلاق، وطيء الأكناف، جميل المشاركة لإخوانه وأصحابه، كتب بخطه الكثير من كبار الدواوين وصغارها، وكان من أصح الناس كتباً، وأتقنهم ضبطاً وتقييداً، لا تكاد تلقى فيما تولى تصحيحه خللا، وكان رؤوفاً شديد الحنان على الضعفاء والمساكين واليتامى، صليباً في ذات الله تعالى، يعقد الشروط محتسباً، لا يقبل ثواباً عليها إلا من الله تعالى.

مشيخته

تلا بالسبع على أبي عمران موسى بن حبيب، وحدث عن أبي الحسن بن سليمان ابن عبد الرحمن المقرى، وعبد الرحمن بن بقى، وأبي عمرو ميمون بن ياسين، وأبي محمد بن عتاب، وتفقه بأبوى عبد الله بن أحمد بن الحاج، وابن حميد وأبي الوليد بن رشد، وأجاز له أبو الأصبغ بن مناصف، وأبو بكر بن قزمان، وأبو الوليد بن طريف.

من روى عنه، روى عنه أبو جعفر، وأبو إسحاق بن علي المزدالي، وأبو أمية إسماعيل بن سعد السعود بن عفير، وأبو بكر بن حكم الشرمسي، وابن خير، وابن تسع، وابن عبد العزيز الصدفي، وأبو الحجاج ابراهيم بن يعقوب، وأبو علي ابن وزير، وأبو الحسن بن أحمد بن خالص، وأبو زيد محمد الأنصاري، وأبو عبد الله ابن عبد العزيز الذهبي، وأبو العباس بن سلمة، وأبو القاسم بن محمد بن إبراهيم المراعي، وأبو محمد بن أحمد بن جمهور، وعبد الله بن أحمد الأطلس.

تواليفه

دون برنامجاً ممتعاً ذكر فيه شيوخه، وكيفية أخذه عنهم، وله رجزٌ في الفرائض مشهور، ومنظومٌ كثير، وترسل منوع، وخطب مختلفة المقاصد، ومجموعٌ في العروض.

دخوله غرناطة

قال المؤرخ: وفي عام أربعة وخمسين وخمسمائة، عند تغيب الخليفة بالمهدية استدعى السيد أبو سعيد الوالي بغرناطة، عند استقراره بها، الحافظ أبا بكر بن الجد، والحافظ أبا بكر بن حبيش، والكاتب أبا القاسم بن المراعي، والكاتب أبا إسحاق بن فرقد، وهو هذا المترجم به، فأقاموا معه مدة تقرب عن عامين اثنين بها.

شعره

مما ينقل عنه قصيدة شهيرة في رثاء الأندلس:

ألا مسعدٌ منجزٌ ذو فطن ... يبكي بدمعٍ معين هتن
جزيرة أندلسٍ حسرةً ... لا غالب من حقود الزمن
ويندب أطلالها آسفاً ... ويرثى من الشعر ما قد وهن
ويبكي الأيام ويبكي اليتامى ... ويحكي الحمام ذوات الشجن
ويشكو إلى الله شكوى شجٍ ... ويدعوه في السر ثم العلن
وكانت رباطاً لأهل التقى ... فعادب مناطاً لأهل الوثن
وكانت معاذاً لأهل التقى ... فصارت ملاذاً لمن لمن يدن
وكانت شجى في حلوق العدا ... فأضحى لهم مالها محتجن

وهي طويلة، ولدى خلاف فيمن أفرط في استحسانها. وشعره عندي وسط. ومن شعره وهو حجة في عمره عند الخلاف في ميلاده ووفاته. قال:

ثمانون عاماً مع ست عمرت وليتني ... أرقت دموعي بالبكاء على ذنب
فلا الدمع في محو الخطيئة غنيةٌ ... إذا هاج من قلبٍ منيب إلى الرب
فيا سامع الأصوات رحماك أرتجي ... فهب لي انسكاب الدمع من رقة القلب
وزك الذي تدريه من شيمةٍ ... تعلق بالمظلوم من شدة الكرب
وزك مثابي في العقود وكتبها ... لوجهك لم أقبل ثواباً على كتب
ولا تحرمني أجر ما كنت فاعلاً ... فحق اليتامى عندي من لذي صعب
ولا تخزني يوم الحساب وهوله ... إذا جئت مذعوراً من الهول والرعب

مولده

حسبما نقل من خط ابنه أبي جعفر، ولد يعني أباه سنة أربع وثمانين وأربعمائة.

وفاته

بعد صلاة المغرب من ليلة الثلاثاء الثامن عشر من محرم عام اثنين وسبعين وخمسمائة. ونقل غير ذلك.

إبراهيم بن محمود النفري

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عبيدس بن محمود النفري أبدي الأصل غرناطي الإستقرار، ويكنى أبا إسحاق.

حاله

خاتمة الرجال بالأندلس، وشيخ المجاهدات وأرباب المعاملات، صادق الأحوال، شريف المقامات، مأثور الإخلاص مشهور الكرامات، أصبر الناس على مجاهداته، وأدومهم على عمل وذكر وصلاة وصوم، ولا يفتر عن ذلك ولا ينام، آيه الله في الإيثار، لا يدخر شيئاً لغد، ولا يتحرف بشيء، وكان فقيهاً حافظاً، ذاكراً للغة والأدب، نحوياً ماهراً، درس ذلك كله أول أمره، كريم الأخلاق، غلب عليه التصوف فشهر به، وبمعرفة طريقه الذي ند فيها أهل زمانه، وصنف فيها التصانيف المفيدة.

ترتيب زمانه

كان يجلس إثر صلاة الصبح لمن يقصده من الصالحين، فيتكلم لهم بما يجريه الله على لسانه، وييسر من تفسير، وحديث وعظة، إلى طلوع الشمس، فيتنفل صلاة الضحى، وينفصل إلى منزله، ويأخذ في أوراده، من قراءة القرآن والذكر والصلاة إلى صلاة الظهر، فيبكر في رواحه، ويوالي التنفل إلى إقامة الصلاة، ثم كذلك في كل صلاة، ويصل ما بين العشاءين بالتنفل، هذا دأبه أبدا.

وكان أمره في التوكل عجباً، لا يلوي على سبب، وكانت تجبى إليه ثمرات كل شيء، فيدفع ذلك بجملته، وربما كان الطعام بين يديه، وهو محتاجٌ، فيعرض من يسأله، فيدفعه جملة، ويبقى طاوياً، فكان الضعفاء والمساكين له لياذاً ينسلون من كل حدب، فلا يرد أحداً منهم خائباً، ونفع الله بخدمته وصحبته، واستخرج بين يديه عالماً كثيراً.

مشيخته

أخذ القراءة عن أبي عبد الله الحضرمي، وأبي الكوم جودي بن عبد الرحمن، والحديث عن أبي الحسن بن عمر الوادي آشي، وأبي محمد عبد الله بن سليمان ابن حوط الله، والنحو واللغة عن ابن يربوع وغيره. ورحل وحج، وجاور وتكرر.

ولقي هناك غير واحد، من صدور العلماء وأكابر الصوفيه، فأخذ صحيح البخاري سماعاً منه سنة خمس وستمائة عن الشريف أبي محمد بن يونس، وأبي الحسن علي بن عبد الله بن المغرباني، ونصر بن أبي الفرج الحضرمي، وسنن أبي داود وجامع الترمذي علي أبي الحسن بن أبي المكارم نصر بن أبي المكارم البغدادي، أحد السامعين علي أبي الفتح الكروخي، وأبي عبد الله محمد بن مسترى الحمة، وأبي المعالي بن وهب بن البنا، وببجاية عن أبي الحسن علي بن عمر ابن عطية.

من روى عنه، روي عنه خلق لا يحصون كثرة، منهم أحمد بن عبد المجيد ابن هذيل الغساني، وأبو جعفر بن الزبير، وغيره.

تواليفه

صنف في طريقه التصوف وغيرها تصانيف مفيدة، منها مواهب العقول وحقائق المعقول، والغيرة المذهلة، عن الحيرة والتفرقة والجمع، والرحلة العنوية، ومنها الرسائل في الفقه والمسائل، وغير ذلك.

شعره

له أشعار في التصوف بارعة، فمن ذلك ما نقلته من خط الكاتب أبي إسحاق ابن زكريا في مجموع جمع فيه الكثير من القول:

يضيق علي من وجدي الفضاء ... ويقلقني من الناس العناء
وأرض الله واسعة ولكن ... أبت نفسي تحيط بها السماء
رأينا العرش والكرسي أعلا ... فوالينا هما حرم الولاء
فأين الأين منا أو زمانٌ ... بحيث لنا على الكل استواء
شهدنا للإله بكل حكم ... فغاب القلب وانكشف الغطاء
ويدعوني الإله إليه حقاً ... فيؤنسني من الخوف الرجاء
ويقبضني ويبسطني ويقضي ... بتفريقي وجمعي ما يشاء
ويعي في وجود الخلق نحواً ... ينعت من تولاه الفناء
فكم أخفي وجودي وقت فقدي ... كأن الفقد والإحيا سواء
فسكرٌ ثم صحوٌ ثم سكر ... كذاك الدهر ليس له انقضاء
فوصفي حال من وصفي ولكن ... ظهور الحق ليس له خفاء
إذا شمس النهار بدت تولت ... نجوم الليل ليس لها انجلاء

ومن شعره:

كم عارف سرحت في العلم همته ... فعقله لحجاب العقل هتاك
كساه نور الهدى برداً وقلده ... درأً ففي قلبه للعلم أسلاك
كسب ابن آدم في التحقيق كسوته ... إن القلوب لأنوار وأحلاك
كلف فؤادك ما يبدي عجائبه ... إن ابن آدم للأسرار دراك
كيف وكم ومتى والأين منسلب ... عن وصف باريها والجهل تباك
كبر وقدس ونزه ما أطقت فلم ... يصل إلى ملك الأملاك أملاك
كرسيه ذل والعرش استكان له ... ونزه الله أملاك وأفلاك
كل يقر بأن العجز قيده ... والعجز عن درك الإدراك دراك

وقال، وهو ما اشتهر عنه، وأنشدها بعض المشارقة في رحلته في غرض اقتضى ذلك، يقتضي ذكره طولا:

يا من أنامله كالمزن هاميةٌ ... وجود كفيه أجرى من يجاريها
بحق من خلق الإنسان من علقٍ ... أنظر إلى رقعتي وافهم معانيها
أني فقيرٌ ومسكين بلا سبب ... سوى حروف من القرآن أتلوها
سفينة الفقر في بحر الرجا غرقت ... فامنن عليها بريحٍ منك يجريها
لا يعرف الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها

وقال القاضي أبو عبد الله بن عبد الملك، وقد ذكره، على الجملة فبه ختم جلة أهل هذا الشأن بصقع الأندلس،

نفعه الله ونفع به.

مولده

ولد بجيان سنة اثنتين وخمسمائة أو ثلاث وستين.

إبراهيم بن أبي بكر التسولي

إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي من أهل تازي يكنى أبا سالم ويعرف بابن أبي يحيى.

حاله

من أهل الكتاب المؤتمن، كان هذا الرجل قيماً على التهذيب، ورسالة ابن أبي زيد، حسن الإقراء لهما، وله عليهما تقييدان نبيلان، قيدهما أيام قراءته إياهما على أبي الحسن الصغير، حضرت مجالسه بمدرسة عدوة الأندلس من فاس، ولم أر في متصدري بلده أحسن تدريباً منه. كان فصيح اللسان، سهل الألفاظ، موفياً حقوقها، وذلك لمشاركته الحضر فيما في أيديهم من الأدوات، وكان مجلسه وقفاً على التهذيب والرسالة، وكان مع ذلك شيخاً فاضلاً، حسن اللقاء، على خالق بائنة من أخلاق أهل مصرة. امتحن بصبحة السلطان، فصار يستعمله في الرسايل، فمر في ذلك حظٌ كبير من عمره ضايعاً، لا في راحة دنيا، ولا في نصيب آخرة، ثم قال هذه سنة الله فيمن خدم الملوك، ملتفتاً إلى ما يعطونه، لا إلى ما يأخذون من عمره وراحته، أن يبوؤا بالصفقة الخاسرة، لطف الله بمن ابتلى بذلك، وخلصنا خلاصاً جميلاً.

ومن كتاب عائد الصلة: الشيخ، الحافظ، الفقيه، القاضي، من صدور المغرب، مشاركاً في العلم، متبحراً في الفقه، كان وجيهاً عند الملوك صحبهم، وحضر مجالسهم، واستعمل في السفارة، فلقيناه بغرناطة، وأخذنا بها عنه، تام السراوة، حسن العهد، مليح المجالس، أنيق المحاضرة، كريم الطبع، صحيح المذهب.

تصانيفه

قيد على المدونة، بمجلس شيخه القاضي أبي الحسن، كتاباً مفيداً، وضم أجوبته على المسائل في سفر، وشرح كتاب الرسالة شرحاً عظيم الفائدة.

مشيخته

لازم أبا الحسن الصغير، وهو كان قارىء كتب الفقه عليه، وجل انتفاعه في التفقه به، وروى عن أبي زكريا بن أبي ياسين، قرأت عليه كتاب الموطأ إلا كتاب المكاتب وكتاب المدبر، فإنه سمعه بقراءة الغير، وعن أبي عبد الله بن رشد، قرأ عليه الموطأ، وشفاء، عياض، وعن أبي الحسن ابن عبد الجليل السداري، قرأ عليه الأحكام الصغرى لعبد الحق، وأبي الحسن ابن سليمان، قرأ عليه رسالة ابن أبي زيد، وعن غيرهم.

وفاته

فلج بآخرة، فالتزم منزله بفاس، يزوره السلطان فمن دونه، وتوفي بعد عام ثمانية وأربعين وسبعمائة.

إبراهيم بن أبي العاصي التنوخي

إبراهيم بن محمد بن علي بن محمد بن أبي العاصي التنوخي أصله من جزيرة طريف ونشأ بغرناطة واشتهر.

حاله

من عائد الصلة: كان نسيج وحده حياءً، وصدقة وتخلقاً، ومشاركة، وإيثاراً. رحل عند استيلاء العدو على جزيرة طريف، عام أحد وسبعين وستمائة، متحولاً إلى مدينة سبتة، فقرأ بها واستفاد. وورد الأندلس فاستوطن مدينة

غرناطة، وكتب في الجملة عن سلطانها، وترقى معارج الرتب، حالاً محالا، من غير اختلاف على فضله، ولا نزاع في استحقاقه، وأقرأ فنوناً من العلم، بعد مهلك أستاذ الجماعة، أبي جعفر بن الزبير، بإشارة منه به، وولي الخطابة والإمامة بجامعها منتصف صفر عام ستة عشر وسبعمائة، وجمع بين القراءة والتدريس، فكان مقرئاً للقرآن، مبرزاً في تجويده، مدرساً للعربية والفقه، آخذاً في الأدب، متكلماً في التفسير، ظريف الخط، ثبتاً محققاً لما ينقله، وألقى الله عليه من المحبة والقبول، وتعظيم الخلق له، ما لا عهد بمثله لأحد، بلغ من ذلك مبلغاً عظيماً، حتى كان أحب إلى الجمهور من أوصل أهلهم وآبائهم، يتزاحمون عليه في طريقه، يتمسحون به، ويسعون بين يديه، ومن خلفه، ويتزاحم مساكينهم على بابه، قد عودهم طلاقة وجهه، ومواساته لهم بقوته، يفرقه عليهم متى وجدوه، وربما أعجلوه قبل استواء خبزه، فيفرقه عليهم عجيناً. له في ذلك أخبار غريبة. وكان صادعاً بالحق، غيوراً على الدين، مخالفاً لأهل البدع، ملازماً للسنة، كثير الخشوع والتخلق على علو الهمة، مبذول المشاركة للناس والجد في حاجاتهم، مبتلى بوسواس في وضوئه، يتحمل الناس من أجله مضضاً في تأخير الصلوت ومضايقة أوقاتها.

مشيخته

قرأ ببلده على الخطيب القاضي المقرى أبي الحسن عبيد الله بن عبد العزيز القرشي المعروف بابن القارىء، من أهل إشبيلية، وقرأ بسبتة على الأستاذ إمام المقرئين لكتاب الله، أبي القاسم محمد بن عبد الرحمن بن الطيب بن زرقون القيسي الضرير، نزيل سبتة، والأستاذ أبي إسحاق الغافقي المريوني، وقرأ على الشيخ الوزير أبي الحكم بن منظور القيسي الإشبيلي، وعلى الشيخ الراوية، الحاج أبي عبد الله محمد بن الكتامي التلمساني بن الخضار، وقرأ بغرناطة على الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير، وأخذ عن أبي الحسن بن مستقور.

شعره

كان يقرض شعراً وسطاً، قريباً من الانحطاط. قال شيخنا أبو بكر ابن الحكيم في كتابه المسمى بالفوائد المنتخبة، والموارد المستعذبة، كتب إليه شيخنا وبركتنا أبو جعفر بن الزيات في شأن شخص من أهل البيت النبوي بما نصه:

رجل يدعي القرابة للبي ... ت وإن الثريا منه بمعزل
سأل مني خطابكم وهو هذا ... ولكم في القلوب أرفع منزل
فهبوه دعاءكم وامنحوني ... منه حظا ينمي الثواب ويجزل
وعليكم تحية الله ما دا ... م أمير الهدى يولي ويعزل

فأجابه:

يا إمامي ومن به قطركم ذا ... ك وحادي البلاد أطيب منزل
لم أضع ما نظمتم من يدي حتى ... أنيل الشريف تحفة منزل
وحباه بكل منح جزيل ... من غدا يمنح الثواب ويجزل
دمتم تنشرون علماً ثواب الل ... ه فيه لكم أعز وأجزل
تذكرون الله ذكراً كثيراً ... وعليكم سكينة الله تنزل
وطلبتم مني الدعاء وإني ... عند نفسي من الشروط بمعزل
لكن ادعو ولتدع لي يرضا الل ... ه وأبدى فهم ذكر قد انزل
وحديث الرسول صلى عليه ... كل وقت ورب لنا الغيث ينزل

وعليكم تحيتي كل حين ... ما اطمأنت بمكة أم بمعزل

قال، ومما أنشدني من نظمه أيضاً في معرض الوصية للطلبة:

إعمل بعلمك تؤت علماً إنما ... عدوي علوم المرء منح الأقوم

وإذا الفتى قد نال علماً ثم لم ... يعمل به فكأنما لم يعلم

وقال موطئاً على البيت الأخير:

أمولاي أنت العفور الكريم ... لبذل النوال مع المعذرة

على ذنوبٌ وتصحيفها ... ومن عندك الجود والمغفرة

إسماعيل بن فرج الأنصاري

إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد ابن خميس بن نصر بن قيس الأنصاري الخزرجي أمير المؤمنين بالأندلس رحمه الله.

أوليته

تقرر عند ذكر الملوك من قومه في اسم صنو جده، أمير المسلمين أبي عبد الله الغالب بالله.

حاله

من كتاب طرفة العصر في تاريخ دولة بني نصر، من تصنيفنا: كان رحمه الله، حسن الخلق، جميل الرواء، رجل جد، سليم الصدر، كثير الحياء، صحيح العقل، ثبتاً في المواقف، عفيف الإزار، ناشيئاً في حجر الطهارة، بعيداً عن الصبوة، برياً من المعاقرة، نشأ مشتغلا بشأنه متبنكاً نعمة الله، مختصاً بإيثار السلطان جده أبي أمه، وابن عم والده، منقطعاً إلى الصيد، معروف اللذة إلى استجادة سلاحه، وانتقاء مراكبه، واستفراه جوارحه، إلى أن أفضي إليه الأمر، وساعدته الأيام. وخدمه الجد، وتنقل إلى بيته الملك به، وثوى في عقبه الذكر، فبذلك العدل في رعيته، واقتصد في جبايته، واجتهد في مدافعة عدو الله، وسد ثلم ثغوره، فكان غرة في قومه، ودرة في بيته، وحسنةً من حسنات دهره. وسيرد نبذٌ من أحواله، مما يدل على فضل جلاله.

صفته

كان معتدل القد، وسيم الصورة، عبل اليدين، أبيض اللون، كثير اللحية، بين السواد والصهوبة أنجل أعين أفوه مليح العين، أقنى الأنف، جهير الصوت، أمه الحرة الجليلة، العريقة في الملوك، فاطمة بنت أمير المؤمنين، أبي عبد الله نخبة الملك، وواسطة العقد، وفخر الحرم، البعيدة الشأو في العز والحرمة، وصلة الرعي، وذكر التراث. واتصلت حياتها، ملتمسة الرأي، برنامجا للفوائد، تاريخاً للأنساب، إلى أن توفيت في عهد حفيدها السلطان أبي الحجاج، رحمها الله، وقد أنفت على تسعين من السنين، فكان الحفل في جنازتها، موازياً لمنصبها، ومتروكها، المفضي إليه خطيره، وقلت في رثائها:

نبيت على علم بغائله الدهر ... ونعلم أن الخلق في قبضة الدهر

ونركن للدنيا اغتراراً بقهرها ... وحسبك من يرجو الوفاء من الغدر

ونمطل بالعزم الزمان سفاهةً ... فيومٌ إلى يوم وشهرٌ إلى شهر

وتغري بها نفسي المطامع والهوى ... ونرفض ما يبقى فيا ضيعةً العمر

هو الدهر لا يبقى على حدثانه ... جديدٌ ولا ينفك من حادث نكر

وبين الخطوب الطارقات تفاضل ... كفضل من اغتالته في رفعة القدر

ألم تر أن المجد أقوت ربوعه ... وصوح من أدواحه كل مخضر
ولاحت على وجه العلاء كآبة ... فقطب من بعد الطلاقة والبشر
وثبت اسمها في الوفيات من الكتاب المذكور بما نصه: السلطانة الحرة الطاهرة، فاطمة بنت أمير المسلمين، أبي عبد الله ابن أمير المسلمين الغالب بالله، بقية نساء الملوك، الحافظة لنظام الإمارة، رعيا للمتات، وصلة للحرمة، وإسداء للمعروف، وستراً للبيوتات، واقتداء بسلفها الصالح، في نزاهة النفس، وعلو الهمة، ومتانة الدين، وكشف الحجاب، ونفاذ العزم، واستشعار الصبر، توفيت في كفالة حفيدها، أمير المسلمين أبي الحجاج، مواصلا برها، ملتمساً دعاءها، مستفيداً تجربتها وتاريخها، مباشراً مواراتها بمقبرة الجنان، داخل الحمراء، سحر يوم الأحد السابع لذي حجة من عام تسعة وأربعين وسبعمائة.

أولاده

تخلف من الولد أربعة، أكبرهم محمد، ولي الأمر من بعده، وفرج شقيقه التالي له بالسن، المنصرف عن الأندلس بعد مهلك أخيه المذكور، المتقلب في الإيالات، الهالك أخيراً في سجن قصبة ألمرية عام أحد وخمسين وسبعمائة، مظنونا به الاغتيال، ثم أخوه أمير المسلمين، أبو الحجاج، تغمده الله برحمته، أقعد القوم في الملك، وأبعدهم أمداً في السعادة، ثم إسماعيل أصغرهم سناً، المبتلي في زمان الشبيبة في الثقاف، المخيف مدة أخيه، المستقر الآن موادعاً مرفودا، بقصر المستخلص من ظاهر شالوبانية، وبنتين ثنتين من حظيته علوة، عقد عليهما أخوهما أبو الحجاج، لرجلين من قرابته.

وزراؤه

وزر له أول أمره القائد البهمة، أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح الفهري، وبيت هؤلاء القواد شهير، ومكانتهم من الملوك النصريين مكينة، أشرك معه في الوزارة الفقيه الوزير أبا الحسن علي بن مسعود بن علي بن مسعود المحاربي، من أعيان الحضرة، وذوي النباهة، فجاذب رفيقه حبل الخطة، ونازعه لباس الحظوة، حتى ذهب باسمها ومسماها، وهلك القائد أبو عبد الله بن أبي الفتح، فخلص له شربها، وسيأتي التعريف بكل على انفراد.

كتابه

كتب عنه لأول أمره بمالقة، ثم بطريقه إلى غرناطة، وأياماً يسيرة بها، الفقيه الكاتب أبو جعفر بن صفوان المتقدم ذكره، ثم ألقى المعتادة إلى كاتب الدولة قبل، شيخنا أبي الحسن بن الجياب، فاصل الخطة، وباري القوس، واقتصر عليه إلى آخر أيامه.

قضاته

استقضى أخا وزيره، الشيخ الفقيه أبا بكر بن يحيى بن مسعود بن علي، رجل الجزالة، وفيصل الحكم، فاشتد في إقامة الحكم، وغلظ بالشرع، واستعان بالجاه، فخيف سطوته، واستمر قاضياً إلى آخر أيامه

رئيس جنده الغربي

الشيخ البهمة، لباب قومه، وكبير بيته، أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء إدريس ابن عبد الله بن عبد الحق، مشاركا له في النعمة، ضارباً بسهم في المنحة، كثير التجني والدالة، إلى أن هلك المخلوع، وخلا الجو، فكان منه بعض الإقصار.

الملوك على عهده

وأولاد بعدوة المغرب، كان على عهده من ملوك المغرب السلطان الشهير، جواد الملوك، الرحب الجناب، الكثير الأمل، خدن العافية، ومحالف الترفية، مفحم النعيم، السعيد على خاصته وعامته، أبو سعيد عثمان بن السلطان

الكبير، المجاهد المرابط، أبي يوسف بن عبد الحق. وجرت بينه وبينه المراسلات، واتصلت أيامه بالمغرب بعد مهلكه، وصدراً من أيام ولده أبي عبد الله حسبما مر عند ذكره.

وبمدينة تلمسان، وطن القبلة، الأمير أبو حمو موسى بن عثمان بن يغمر اسن بن زيان، ثم توفي قتيلا على عهده بأمر ولده المذكور، واستغرقت أيام ولده المذكور الوالي بعده، إلى أن هلك في صدر أيام أبي الحجاج، وجرت بينه وبين الأمير مراسلات وهدايات.

وبمدينة تونس، الشيخ المتلقب بأمير المؤمنين أبو يحيى زكريا بن أبي حفص المدعو باللحياني، المتوثب بها على الأمير أبي البقاء خالد بن أبي زكريا بن أبي حفص، وهو كبير، إلا أن أبا حفص أكبر سناً وقدراً، وقد تملك تونس تاسع جمادى الآخرة من عام ظهر له اضطرب من بها، أحد عشر وسبعمائة، وتم له الأمر، واعتقل أبا البقاء بعد خلعه، ثم اغتاله في شوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة، ثم رحل عن تونس لما ظهر له من اضطراب أمره بها، وتوجه إلى طرابلس في وسط عام خمسة عشر، واستناب صهره الشيخ أبا عبد الله بن أبي عمر، ولم يعد بعد إليها، ثم اضطراب أمر إفريقية، وتنوبه عدة من الملوك الحفصيين، منهم الأمير أبو عبد الله بن أبي عمر المذكور، وأبو عبد الله بن اللحياني، والسلطان أبو بكر ابن الأمير أبي زكريا بن الأمير أبي إسحاق، لبنة تمامهم، وآخر رجالهم، واستمرت أيامه إلى أيام ولده الأمير بالأندلس ومعظم أيامه ولديه، رحم الله الجميع.

ومن ملوك الروم بقشتاله، كان على عهده مقروناً بالعهد القريب من ولايته، الطاغية هراندة بن شانجه بن ألهنشة بن هراندة المجتمع له ملك قشتالة وليون، وهو المتغلب على إشبيلية، وقرطبة، ومرسية، وجيان، ابن ألهنشة، الذي جرت له وعليه هزيمة الأرك والعقاب، ابن شانجه بن ألهنشة المسمى إنبرذور، وهو الذي أفرد صهره وزوج بنته بملك برتقال، إلى أجداد، يخرجنا تقصي ذكرهم عن الغرض.

ومن ملوك رغون من شرق الأندلس، الطاغية جايمش بن بطره بن جايمش الذي تغلب على بلنسية، ابن بطره بن ألهنشة، إلى أجداد عدة كذلك. ثم هلك في أخريات أيامه، فولي ملك أرغون بعده ألهنشة بن جايمش إلى أخريات أيامه.

وببرتقال ألهنشة بن يومس بن ألهنشة بن شانجه ابن ألهنشة بن شانجه بن ألهونشة، ويسمو أولا دوقاً.

ذكر تصير الأمر إليه

لما ولي الأمر بالأندلس، حرسها الله، السلطان أبو الجيوش نصر بن السلطان أبي عبد الله محمد بن السلطان الغالب بالله أبي عبد الله بن نصر، يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة، بالهجوم على أخيه أبي عبد الله الزمن المقعد، الآمن في ركن بيته، واغتيال ابن الحكيم وزيره ببابه، والإشادة بخلعه حسبما يأتي في موضعه، استقر الأمر على ضعف أخيه، وسارع دخلته، فساءت السيرة لمنافسة الخاصة، وكان الرئيس الكبير عميد القرابة، وعلم الدولة أبو سعيد فرج، ابن عم السلطان المخلوع، وأخيه الوالي بعده، راسخاً قدمه وعرفه، بمثوبة الوارث، ولنظره عن أبيه المسوغ عن جده مالقة وما إليها، ولنظره مدينة سبتة، المضافة إلى إيالة المخلوع عن عهد قريب، قد أفرد بها ولده المترجم به، وجميعهم تحت طاعته، وفي زمان انقياد سوغ مديد الدولة، بل مد سروها لما شاء عز وجل من احتوائهم في حبل هذا الدايل، يتعقبون على الرئيس الكبير أموراً تثر مخيمة الصدور، وتستدعي فرض الطاعة، وتحتوي على مظنات مخلة، واحترسوا صافيات منافعه، وأوعزوا إلى ولاة الأعمال بالتضييق على رجاله، وصرفوا سننه عن نظره. ولما بادر إلى الحضرة لإعطاء صفقة البيعة وتهنئة السلطان نصر، عن روحه، وابن عمه، على عادته، داخله بعض أرباب الأمر، محذراً، ومشيراً بالامتناع ببلده، والدعء لنفسه، ووعده بما وسعه، فاستعجل الانصراف إلى بلده، ولم

تمر إلا برهة، واشتعلت نار الفتنة، وهاجت مراجل الحفيظة، فتلاحق به ولده، وأظهر الانفراد والاستعداد في سابع عشر رمضان من هذا العام. وأقام ولده إسماعيل، برسم الملك والسلطان، ورتب له ألقاب الملك، ودون ديوان الملك بحسبه، ونازل حضرة أنتقيرة، وناصبها القتال، فتملكها، ودخلت مربلة في طاعته، وتحرك إلى بلش فنازلها، ونصب عليها المجانيق فدانت، فضخمت الدعوة، ومكنت الجباية، والتف إليه من مساعير الحروب ومن أجاب.

وتحرك إلى غرناطة في أول شهر محرم، عام اثني عشر وسبعمائة، ونزل بقرية العطشا من مرجها. وبرز السلطان نصر في جيش خشن، مستجاد العدة، وافر الرجل، فكان اللقاء ثالث عشر الشهر، فأظهر الله أقل الفئتين، وانجرت على الجيش الغرناطي الهزيمة، وكبا بالسلطان نصر فرسه في مجرى سقى لبعض الفدن، فنجا بعد لأي ودخل البلد مفلولا، وانصرف الجيش المالقي ظاهراً إلى بلده، وطال بالرئيس وولده الأمر وضرستها الفتنة، وعظم احتياجه إلى المال، وكادت تفضحه المطاولة، وزاحمه الملك بمكلف ضخم، فاقتضى ذلك إذعانه إلى الصلح، وإصغاره المهادنة، على سبيله من المقام ببلده، مسلماً للسلطان في جبايته، جاريةً وطايفةً في رياسته، وأرزاق جنده، فتم ذلك في ربيع الأول من العام المذكور. ثم لقحت فتنة في العام المذكور هاتفين بخلعان السلطان وطاعة مخلوعهم، وطالبين منه إسلام وزيره خدن الروم، المتهم على الإسلام أبي عبد الله بن الحاج. ثم لحق زعماؤهم بمالقة عند اختلال ما أبرموه، فكانت الحركة الثانية لغرناطة بعد أمور اختصرتها، من استبداد السلطان أبي الوليد بأمره، والانحطاط في القبض على أبيه، إلى هوى جنده، والتصميم في طلب حقه، فاتصل سيره، واحتل بلوشة سرار شوال فتملكها، ورحل قافلا إلى وطنه، طريد كلب الشتاء، وافر الخزانة، واقتضى الرأي القائل ممن له النظر الجاش من زعيم شيوخ جندها، اتهاماً له بالطاغية، فسجنه. ثم بدا له في أمره. ثم سرحه بعد استدعاء يمينه، فوغرت صدور حاشيته، وبعهم من كان على مثل رأيهم، وهو شوكة حادة، فصرفوا الوجوه إلى السلطان المقبل الحظ، المحبوب إليه هوى الملك، بما راعه، ثانياً من عنانه بأحواز أرجدونة، إلا تثويب داعيهم، فكر إلى المدينة وبزر إليه جيشها، ملتفا على عبد الحق بن عثمان، فأبلى، وصدق الحملة، فكادت تكون الدائرة، فلولا ثبوت السلطان لما استقبلت بأسفلهم الحملة، فولوا منهزمين، وتبعهم إلى سور المدينة، وقد خفت اللفيف والغوغا، الناعقون بالخلعان، الشرهون إلى تبديل الدعوات، وإلى تسم المآذن والمنارات والربا، وبرز أهل ربض البيازين، الهافون إلى مثل هذه البوارق، إلى شرف ربوتهم، كل يشير مستدعيا، إعلاناً بسوء الجوار، وملل الإيالات، والانحطاط، وبعد التلون والتقلب، وسآمة العافية، شنشنة معروفة في الخلق مألوفة. وبودر غلق باب إليرة، ففض قفله، ودخلت المدينة، وجاء السلطان إلى معقل الحمراء بأهله وذخيرته وخاصته، وبزر السلطان أبو الوليد بالقصبة القدمى تجاهها، بالدار الكبرى المنسوبة لابن المول، ينفذ الصكوك، ويذيع العفو، ويؤلف الشارد، وضعفت بصاير المحصورين، وفشلوا على وجود الطعمة، ووفور المال، وتمكن المنعة، فالتمسوا لهم ولسلطانهم عهداً نزلوا به، منتقلين إلى مدينة وادي آش، في سبيل العوض بمال معروف، وذخيرة موصوفة، وتم ذلك، وخرج السلطان رحمه الله مخلوعاً، ساء به القرار، جانياً على ملكه الأخابيث والأغمار، ليلة الثامن والعشرين من شوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة، واستقر بها موادعاً مرة ومحارباً أخرى، إلى أن هلك حسبما يأتي ذكره. وخلا للسلطان الجو، وصرفت إليه المقادة وأطاعة القاضي والداني، ولم يختلف عليه اثنان، والبقاء الخلص لله وحده.

مناقبه

اشتد رحمه الله على أهل البدع، وقصر الخوض على ما تضطر إليه الملة، ولقد تذوكر بين يديه أهل البيت، فبذل في فدية بعضهم ما يعز بذله، ونقل منهم بعضاً من حرف خبيثة، فزعموا أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم، فشكر له ذلك. واشتد في إقامة الحدود، وإراقة المسكرات، وحظر تجلى القينات للرجال في الولائم، وقصر طربهن على أجناسهن من الناس، وأخذ يهود الذمة بالتزام سمةٍ تشهرهم، وشارة تميزهم، وليوفي حقهم من المعاملة التي أمر بها الشارع في الخطاب والطرق، وهي شواشي صفر.

ولقد حدث من يخف حديثه، من الشيوخ أولى المجانة والدعابة، قال: كنا عاكفين على راح، وبرأسي شاشية ملف حمراء، فحاول أصحابي إنامتي، حتى أمكن ذلك، وبادروا إلى رقاع من ثوب أصفر، فصنعوا منها شاشية، ووضعوها في رأسي، مكان شاشيتي، وأيقظوني، فقمت لشأني، وقد هيئوا ثمناً لشراء بقل وفاكهة، وجهزوني لشرائه، فخرجت حتى أتيت دكان السوق، فساومته، فلما نظر إلي قال لصاحبه: جزى الله هذا السلطان خيراً، والله لقد كنت أبادر هذا اللعين بالسلام عند لقائه أظنه مسلماً، وبصق علي، فهممت أن أوقع به، ثم فطنت للحيلة، فانتزعتها وبادرت فأوسعتهم ذماً، وعظم خجلي، وسبقني إليهم عين لهم علي، فكاد الضحك يهلكهم عند دخولي. ومناقبه كثيرة.
جهاده وبعض الأحداث في مدته

والتأثت الأمور، لأول مدته، فجرت على جيشه بمظاهرة جيش المخلوع لجيش الروم، الهزيمة الشنيعة، بوادي فرتونه، أوقع بهم الطاغية بطره، كافل ملك الروم، الملك صغيرا على عهد أبيه، وعمه الذاب عنه، ففشا في الأعلام القتل، وذلك في صفر من عام ستة عشر وسبعمائة، وظهر العدو بعدها فغلب على حصن شتمانس وحصن بجيج، وحصن طشكر، وثغر روط. ثم صرفت المطامع عزمه إلى الحضرة، فقصد مرجها، وكف الله عاديته، وقمعه، ونصر الإسلام عليه، ودالت للدين عليه الهزيمة العظمى بالمرج من ظاهر غرناطة على بريد منها، واستولى على محلته النهب، وعلى فرسانه ورجاله القتل، وعظم الفتح، وبهر الصنع وطار الذكر، وثاب السعد. وكانت الوقيعة سادس جمادى الأولى من عام تسعة عشر وسبعمائة، وفي ذلك يقول كاتبه شيخنا أبو الحسن بن الجياب:
الحمد حق الحمد للرحمن ... كافي العدو وناصر الإيمان
ومكيف الصنع الكريم ودافع ال ... خطب العظيم وواهب الإحسان
في كل أمر للمهيمن حكمة ... أعيت على الأفكار والأذهان
واستقر ملكهم القتيل بأيدي المسلمين بعد فرارهم، فجعل في تابوت خشب، ونصب بالسور المنازل من الحمراء يسار الداخل بباب يعقوب من أبوابها، إذاعةً للشهرة، وتثبتاً لتخليد الفخر.
ومن الغريب أنني في هذه الأيام بعد خمسين سنة تماماً. تفقدت ذلك المكان في بعض ما أباشره، أيام نيابتي عن السلطان بدار ملكه على عادتي، فألفيته قد علا عليه كوم من الحجارة، رجم الصبيان إياه، فظهر لي تجديد الإشادة به، والاستفتاح بوقوع مثله، ولما كشف عن الرمة لتنقل إلى وعاء ثان، ألفى بعظم القطن العريض منها، سنانٌ مرهب ثبت في العظم، انتزع منه، وقد غالبتني الرقة والإجهاش، وقلت اللهم ادخر رضوانك لمن أودع في هذه الرمة الطاغية، سنان جهادك إلى اليوم، وأثبه وارفع درجته، إنك أهل لذلك.
رجعٌ واستقامت الأيام، وهلك المخلوع، فصفا الجو، واتحدت الكلمة، وأمكن الجهاد. فتحرك في شهر رجب من عام أربعة وعشرين وسبعمائة، وأعمل القصد إلى بلاد العدو، ونازل حصن إشكر، الشجى المعترض في حلق بسطة، فأخذ بمخنقة، ونشر الحرب عليه، ورمى بالآله العظمى المتخذة بالنفط كرة حديد محماة طاق البرج المنيع من معقله،

فاندفعت يتطاير شررها، واستقرت بين محصوريه، فعاثت عياث الصواعق السماوية، فألقى الله الرعب في قلوبهم، وأتوا بأيديهم، ونزلوا قسراً على حكمه في الرابع والعشرين من الشهر، وأقام بظاهره، فصيره دار جهاد، وعمل في خندقه بيده، وانصرف، فكانت غزاة جمة البركة عظمت بها على الشرق الجدوى، وأنشد الشعراء في هذه الوجهة قصائد أشادت بفضلها، وشهرت من ذكرها، فمن ذلك عن كاتب سره قوله:

أما مداك فغاية لم تلحق ... أعيت على غر الجياد السبق

ورفع إليه شيخنا الحكيم أبو زكريا بن هذيل، قصيدة أولها:

بحيث القباب الحمر والأسد الورد ... كتائب سكان السماء لها جند

أنشدني منها في وصف النفط قوله

وظنوا بأن الصعق والرعد في السما ... فحاق بهم من دونها الصقع والرعد

غرائب أشكال سما هرمسٌ بها ... مهندةٌ تأتي الجبال فتنهد

ألا إنها الدنيا تريك عجائباً ... وما في القوى منها فلا بد أن يبدو

وفي العاشر لشهر رجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة، تحرك للغزو بعد أخذ الأهبة والاستكثار والاجتهاد للمطوعة، وقصد مدينة مرتش العظيمة الساحة، الطيبة البقعة، فأضرب بها المحلات وكان القصد إجمام الناس، فصوب الحشود ووجهها إلى ما بها من بحر الكروم والملتفات، وأدواح الأشجار، فأمعنوا في إفسادها، وبزر حاميتها فناشبت الناس القتال، فحميت النفوس، وأريد منع الناس، فأعيا أمرهم وسال منهم البحر، فتعلقوا بالأسوار وقيل السلطا بادر بالركوب، فقد دخل الربض، فركب ووقف بإزائها، فدخل البلد عنوة، واعتصم أهله بالقصبة، فدخلت أيضاً القصبة عنوة، وانطلقت أيدي الغوغاء على من بها من ذكر وأنثى كبيراً أو صغيراً، فساءت القتلة، وقبحت الأحدوثة. ورفعت من الغد آكام من الجثث، صعدت ذراها المؤذنون، وقفل إلى غرناطة بنصر لا كفاً له، فكان دخوله من هذه الغزاة في الرابع والعشرين لرجب المذكور.

وفاته

ولما فصل من مرتش نقم على أحد الرؤساء من قرابته، وهو ابن عمه محمد ابن إسماعيل المعروف بصاحب الجزيرة، أمراً تقرعه عليه، وبالغ في الإهمال له، وتوعده بما أثار حفيظته، فأقدم عليه بالفتكة الشنعاء التي ارتكبها منه بباب قصره، بين عبيده وأرباب دولته، آمن ما كان سرباً، وأعز سلطاناً وجنداً، وذلك اليوم الإثنين ثالث يوم من دخوله من مرتش، بعد أن عاهد في الأمر جملة من القرابة والخدام، فوثب به، وهو مجتاز بين السماطين من ناسه إلى مجلس كان يجلس فيه للناس، فاعتنقه وانتضى خنجراً كان ملصقاً في ذراعه، فأصابه بجراحات ثلاث، إحداهن في عنقه، بأعلى ترقوته، فخر صريعاً. وصاح بكرٌ وزيره، فعمته سيوف الحاضرين من أصحاب الفاتك، ووقعت الرجة، وسلت السيوف، وتشاغل كل بمن يليه، واستخلص السلطان من يديه، وحيل بينه وبينه، وحين تشاغل القوم بالوزير، رفع السلطان وظن أنه قد أفلت جريحاً، فرقع البهت، وبادروا الفرار، فسدت المذاهب، فقتلوا حيث وجدوا، وأخذت الظنة قوماً من أبريائهم، فامتحنوا، ونهب الغوغاء دورهم، وعلقت بالجدرات أشلاؤهم، وكان يوماً عصيباً، وموقفاً صعباً، واحتمل السلطان إلى بعض دور قصره، وبه صبابة روح، أشبه شيء بالعدم، للزوق العمامة بفوهة شريانه المبتور، ففاض لحينه بنفس زوال العمامة، رحمه الله.

وكان من أخذ البيعة لولده الأمير أبي عبد الله من بعده، ما هو معروف في موضعه. ودفن غلس ليلة الثلاثاء، ثاني

يوم وفاته، بروضة الجنة من قصره، إلى جانب جده، وتنوهي الاحتفال بقبره نقشاً، وتخريماً، وإحكاماً، وحلياً، وتمويهاً، يشق على الوصف، وكتب بإزاء رأسه في لوح الرخام ما نصه، من كلام شيخنا، بعد سطر الافتتاح: هذا قبر السلطان الشهيد فتاح الأمصار، وناصر ملة المصطفى المختار ومحيي سبيل آبائه الأنصار، الإمام العادل، الهمام الباسل، صاحب الحرب والمحراب الطاهر الأنساب والأثواب، أسعد الملوك دولة، وأمضاهم في ذات الله صولة، سيف الجهاد، ونور البلاد، ذي الحسام المسلول في نصرة الإيمان، والفؤاد المعمور بخشية الرحمن، المجاهد في سبيل الله، المنصور بفضل الله، أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل ابن الهمام الأعلى، الطاهر الذات والفخار، الكريم المآثر والآثار، كبير الإمامة النصرية، وعماد الدولة الغالبية، المقدس، المرحوم أبي سعيد فرج، ابن علم الأعلام وحامي حمى الإسلام، صنوا الإمام الغالب، وظهيره المقدس العلي المراتب، المقدس، المرحوم أبي الوليد إسماعي بن نصر، قدس الله روحه الطيب، وأفاض عليها غيث رحمته الصيب، ونفعه بالجهاد والشهادة، وحياه بالحسنى والزيادة، جاهد في سبيل الله حق الجهاد، وصنع الله له في فتح البلاد، وقتل كبار الأعاد، ما يجده مذخوراً يوم التناد، إلى أن قضى الله بحضور أجله، فختم عمره بخير عمله، وقبضه إلى ما أعد له من كرامته وثوابه، وغبار الجهاد طي أثوابه، فاستشهد رحمه الله شهادةً أثبتت له في الشهداء من الملوك قدماً، ورفعت له في أعلام السعادة علماً.

ولد رضي الله عنه في الساعة المباركة بين يدي الصبح من يوم الجمعة سابع عشر شوال عام سبعة وسبعين وستمائة، وبويع يوم الخميس السابع والعشرين لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة، واستشهد في يوم الإثنين السادس والعشرين لشهر رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة، فسبحان الملك الحق، الباقي بعد فناء الخلق.

وبعده من جهة اللوح الأخير:

تخص قبرك يا خير السلاطين ... تحيةٌ كالصبا مرت بدارين
قبر به من بني نصر إمام هدى ... عالي المراتب في الدنيا وفي الدين
أبو الوليد وما أدراك من ملكٍ ... مستنصرٍ واثقٍ بالله مأمون
سلطان عدلٍ وبأسٍ غالبٍ وندىً ... وفضل تقوى وأخلاقٍ ميامين
لله ما قد طواه الموت من شرف ... وسر مجدٍ بهذا اللحد مدفون
ومن لسان بذكر الله منطلق ... ومن فؤادٍ بحب الله مسكون
أما الجهاد فقد أحيا معالمه ... وقام منه بمفروض ومسنون
فكم فتوحٍ له تزهو المنابر من ... عجبٍ بهن وأوراق الدواوين
مجاهدٌ نال من فضل الشهادة ما ... يجبى عليه بأجر غير ممنون
قضى كعثمان في الشهر الحرام ضحىً ... وفاة مستشهد في الدار مطعون
في عارضيه غبار الغزو تمسحه ... في جنة الخلد أيدي حورها العين
يسقي بها عين تسلمي وقاتله ... مردد بين زقوم وغلسين
تبكي البلاد عليه والعباد معاً ... فالخلق ما بين أحزان أفانين
لكنه حكم رب لا مردَّ له ... فأمره الجزم بين الكاف والنون
فرحمة الله رب العالمين على ... سلطان عدلٍ بهذا القبر مدفون

بعض ما رثى به وعظمت فيه فجيعة المسلمين لما ثكلوا من جهاده وعزمه، وبلوه من سعده وعز نصره، فكثرت فيه المراثي، وتراهنت في شجوه القرائح، وبكاه الغادي والرائح. فمن المراثي التي أنشدت على قبره، قول كاتبه شخنا

أبي الحسن بن الجياب.

أيا عبرة العين امزجي الدمع بالدم ... ويا زفرة الحزن احكمي وتحكمي
ويا قلب ذب وجدا وغماً ولوعةً ... فإن الأسى فرضٌ على كل مسلم
ويا سلوة الأيام لا كنت فابعدي ... إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم
وصح بأناة الصبر سحقاً تأخري ... وقل لشكاة الحزن أهلا تقدمي
ولم لا وشمس الملك والمجد والهدى ... وفتاح أبواب الندى والتكرم
ثوى بين أطباق الثرى رهن غربة ... وحيداً وأصمته الليالي بأسهم
على ملك الإسلام فاسمح بزفرةٍ ... تساقط دراً بين فذ وتوأم
على علم الأعلام والقمر الذي ... تجلى بوجه العصر غرة أدهم
على أوحد الأملاك غير منازع ... أصالة أعراق وفضل تقدم
ومن مثل إسماعيل نورٌ لمهتدٍ ... وبشرى لمكروبٍ وعفوٌ لمجرم
وما مثل إسماعيل للبأس والندى ... لأصراخ مذعور وإغناء معدم
وما مثل إسماعيل للحرب يجتني ... به الفتح من غرس القنا المتحطم
وما مثل إسماعيل سهم سعادةٍ ... أصاب به الإسلام شاكلة الدم
شهيدٌ سعيدٌ صبحته شهادة ... تبوأ منها في الخلود التنعم
أتت وغبار الغزو طي ثيابه ... ظهير أمانٍ من دخان جهنم
فتباً لدارٍ لا يدوم نعيمها ... فما عرسها إلا طليعة مأتم
ولا أنسها إلا رهينٌ بوحشة ... ولا شهدها إلا مشوبٌ بعلقم
فيا من يرى الدنيا مجاجة نحلة ... ألا فاعتبرها فهي نبتة أرقم
فمن شام منها اليوم برق تبسم ... ففي الغد تلقاه بوجه جهنم
فضاحكها باكٍ وجذلانها شجٍ ... وطالعها هاوٍ ومبصرها عم
وسراؤها تفنى وضراؤها معاً ... فكلتاهما طيف الخيال المسلم
سطت بملوك الأرض من بعد آدم ... تبدد منهم كل شملٍ منظم
فكم من قصير قصرت شأو عمره ... فخر صريعاً لليدين وللفم
وكم كسرت كسرى وفضت جيوشه ... فلم تحمه منها كتائب رستم

ولو أنها ترعى إمام هدايةٍ لأعفت ... علياً من حسام ابن ملجم
وما قتلت عثمان في جوف داره ... فقدس من مستسلم ومسلم
وما أمكنت فيروز من عمر الرضى ... فهدت من الإسلام أرفع معلم

إلى آخرها. وتضمن إجمال ما ذكر من ذلك، التاريخ المسمى بقطع السلوك المنظوم رجزاً من تأليفي بما نصه:

وعندما خيف انتثار السلك ... ووزر الروم وزير الملك
تدارك الأمر الإمام الطاهر ... فعالج الدار طبيب ماهر
وهو أبو الوليد إسماعيل ... والشمس لا يفقدها دليل
ابن الرئيس الماجد الهمام ... فرد العلا وعلم الأعلام

وجده صنو الإمام الغالب ... مناقب كالشهب الثواقب
فقاد من مالقة الجنودا ... ونشر الأعلام والبنودا
وعاد نصر بمدى حمرائه ... أتى وأمر الله من ورائه
فخلع الأمر وألقى باليد ... من بعد عهد موثق مؤكد
وسار في الليل إلى وادي الأشى ... والملك لله يعز من يشا
ولم يزل فيها إلى أن ماتا ... وطلق الدنيا بها بتاتا
واتسق الأمر وقر الملك ... وربما جر الحياة الهلك
ومن الرجز المذكور في وصف جهاده ومقتله:
وكان يوم المرج في دولته ... ففرق الأعداء من صولته
وفتح المعاقل المنيعة ... وابتهجت بعدله الشريعة
وانتبه الدهر له من نومه ... على يدي طائفة من قومه
بكى عليه الحرب والمحراب ... وندبته الضمر العراب
إسماعيل بن فرج بن نصر

إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر السلطان الذي احتال على أخيه، المتوثب على ملكه، يكنى أبا الوليد.
حاله
كان صبياً كما اجتمع وجهه، بادناً، دمث الخلق، لين الجانب، شديد البياض كثيف الحاشية، متصلا بالجفوة، لطول الحجبة، وبعد التمرن والحنكة غراً، فاقداً لحسن الأدب، عريقةً ألفاظه في العجمة. تصير الأمر إلى أخيه السلطان خيرهم ولباب بيتهم، يوم قتل أبوهما، وله مزية السن والرجاحة، والسكنى بمحل وفاة الأب، فأبقى عليه، وأسكنه بعض القصور لصقه، ولم يضايق أمه فيما استأثرت به من بيت المال، إذ كان إقليده في يدها، وبيضاؤه وصفراؤه في حكمها، ورفه متبوأه، واستدعى له ولأخيه المعلم الذي كان السبب في إفاته إرماقهما، وإعدام حياتهما، الشيخ السفلة محمد البطروجي البائس، قرد ذلك السرب فاستمرت أيام احتجابه وانتظاره على قصره، إلى رمضان من عام ستين وسبعمائة. وحرك سماسرة الفتنة له ولأمه جواز الطمع في الملك، ودندنوا لها حتى رقصت على إيقاعهم، وخفت إلى مواعدهم، وشمروا إلى خلاص الأمر، وأحام الوثبة صهره الرئيس أبو عبد الله، حلف الشؤم زوج أخته، محمد بن إسماعيل، الشهير الكائنة، المذكور في موضعه من حرف الميم. فسيرت إليه أمه المال، فبثه في الدعرة والشرار، حتى تم غرضه، واقتحم القلعة من بعض أسوارها عند البالية، وقد هدم منها شيء في سبيل إصلاحه، ليلة الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان من عام ستين وسبعمائة، والسلطان ليلتئذ غير حال بها، فملؤوها لجباً ولغطاً، وصراخاً وهولا وتنويراً، في جملة تناهز المائة، وانضاف إليهم أخوان رأيهم من حراسها وسكانها، فألبس الناس، وسقط في أيديهم. وأهدى الليل فتكته هائلة، وأداها شنيعة، فاقتصر كل على النظر لنفسه، وانقسموا فرقتين، قصدت إحداهما دار كبير الدولة، وقيوم التفويض، وشيخ رجال الملك رضوان، المستبد بإحالة كورها، الشيخ الذهول، معزوز القدر ورائب النكتة، ومعود الإقامة، وجرار رسن الأطواد، وطول الإملا، الماشي على خد الدنيا، المغضوض البصر عن النظر، المستهين بكل سبة، وحية تسعى، المعول على نظره، وقوة سعده وإجابة دعوته، مع

كونه نسيج وحده في عفافه وديانته، ورضى الناس به، وسقوط منافستهم من أجله، ومأويهم على مول لفظه، وبساط معاملته، وصحة عقده، فعالجوا بابه طويلاً وتولجوا داره، وقتلوه بين أهله وولده.

وقصدت الأخرى دار الأمير المترجم به ومعها صهره، فأخرجوه وأركبوه على فرس، راعدٍ الفرائض، منتقع اللون، مختلط القول، تحف به داياته بين مولولةٍ، وتافلةٍ ومعوذة، قد جعلوا به سيفاً مصلتاً على سبيل اللواعب بالنصول والرواقص، في مدارج اللهو، واستخرجت طبول الملك فقرعت، وقيدت الخيل من مرابطها فركبت، وقصدت الخزائن السلاحية ففرقت، وتم الأمر. وحل من الريب على دار الإمارة القصد، وخرجت الكتب إلى البلاد والقواعد، فالتفت باليد أمهاتها لقطع من بها من أولى الأمانة، بتمام الأمر، وهلاك السلطان، فتم له الأمر. وبادر أخوه السلطان لحينه لظهر سابق كان مرتبطاً عند مجرٍ له من الجنة لصق القلعة، فاستأجر الليل، ووافق الحزم، فاستقر بوادي آش. وكان أملك بها، ونازلته المحلات، وأخذ بمخنقه الحصص، واستنصرت لمنازلته الناس، وأعملت الحيل، وتأذن الله بثبوت قدمه، وانتقاله إلى ملك المغرب صبح عيد النحر من العام المذكور، إلى أن أعاد الله إليه أمره ورد عليه حقه، وتولى بعد اليأس جبره، حسبما يذكر في موضعه إن شاء الله.

وخلا الجو لهذا الأمير المضعوف، واستولى على أريكة الملك الأغمار وأولو البطالة، وأولياء صهره الرئيس، خاطبها له ابتداءً ثم ناقلها إلى فسه انتهاءً، وحاملها إلى غايته درجاً، وإلى إعاقته سلماً، وهو ما هو من غش الحبيب، وسوء العقد، ودخل السريرة، واستيطان المكروه، فأغرى منه بالعهد نفساً مطاوعةً للشهوة، متبرمة بالامتحان والخلوة، برية من نور العلم وتهذيب الحكمة، ناشئة بين أخابيث القسوة، جانيةً أماني الشهوة والمخالفة، مضادة للفلاح، حايدة عن سبيل النجاة، بمحل اغتراب عن النصحاء، وانتباذ عن مقاعد الأحرار، فجرى طلق الجموح في التخلف، حتى كبا لفيه ويديه، وأعان نسمة السوء الرئيس على نفسه، وقد كان اصطنع الرجال، واستركب أولى البسالة، وأسالف الدعرة، واختص في سبيل خدمته والذب عنه، بالبؤساء والمساعير، يشركهم في الأكلة. ويصافيهم النعمة. واظلم ما بينهما، فحذر كل جانب أخيه، إلا أن المهين كان أضعف من أن يستأثر بخطة المعالجة، ويهتدي إلى سبيل الحزم. وفي عشي يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر شعبان، شارفه من مكمن غدره الرحب بجوار قصره، وارتبط به الخيل واستكثر من الحاشية، وأخفى المساعير. وداخل المورورى المشئوم على الدولة، فبادر رجاله سد الأبواب، وانخرط في جملة أو باشه من باب السلطان، من الرجل لنظر ممالئه في العنا، وعونه على الهول المورورى، فأحاط به، وقد بادر الاعتصام بالمصنع ثاني الصرح المنسوب إلى هامان سموا ونفالاً في السكاك وسعة ذرع. وبعد ما رقى وصرخ بالناس، يناشدهم الذمام، فخف إليهم منهم الكثير، وتراكموا بالطريق تحته، وتولى استنزاله عن سويه مملوك أبيه، العلج المخذول عباد، وقد تحصل في قبضته الغادر، ففتل له في الغارب والذروة، ووعده الحياة، فنزل عن أمان فسحة الغدر الصراح، والوفاء المستباح، ولحين استهاله، أمر نقله إلى المطبق، فقيد مختبلاً كثير الضراعة إلى الأرى لصق قصره، وتعاورته السيوف وألحق به صغيره قيس، استخرج من بعض الخزاين، وقد جهدت أمه في إخفائه، فمضى لسبيله، وطرح رأسه على الرعاع المجيبين لندائه، فانفضوا لحينه، وبقي مطروحاً مواري، بجلس دابة من دواب الظهر، إلى يوم بعده، فووري هو وأخوه بمقربة من مدفن أبيهم، فكان من أمرهما عبرة. وقد استوفى ذلك الكتاب المسمى بنفاضة الجراب من تأليفنا.

وزراء دولته

قدم للوزارة عشية يوم ولايته، محمد بن إبراهيم بن أبي الفتح الفهري بطالع الشؤم، ونعبة النحس. عهدي بالطبيب الإسرائيلي الحبري العظيم المهارة في الفن النجومي، إبراهيم بن زرزار، يتطاير بتلك الولاية بكون النحس الأعظم في درجة طالعها، جنواً انفرد بنحز أديمه الجهالة، المعدودون في البهم والهمج، الذين لا يعبأ الله بهم، فكان الخبر وفوق الخبر، فلم ير في الأندلس وزارةٌ أثقل وطأة، ولا أخبث عهداً، ولا أعظم شرهاً، ولا أكثر حجراً منها، ثم كان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها، وذلك جزاء الظالمين من رجل حبركة، كمداللون، تنطف سحنته مرةً وسماً، غائر العين مطأطىء الرأس، طرفٌ في الحقد والطمع، وعي المنطق، وجمود الكف، معدنٌ من معادن الجهل، مثلٌ في الخيانة، تناول الأمر مزاحماً فيه بالرئيس المتوثب، وابن عم نفسه، الغادر الضخم الجرارة، بالوعث المهين، وثور النقل، وثعيان الفواكه، وصاعقة الاخونه، ووكيل الدولة المنحط عن خلالهم بالأبوة والنشأة، فجرت أمورها أسوأ مجاريها، إلى ان كان ما أذن الله به، من مداحلة الرئيس الغادر، على قتل أميره المسكين المهين، مقلده أنوه الرتب، وتاركه وخطة الخيانة، ثم أخذه الأخذة الرابية بيد من أمده في الغي، وظاهره في الخزي، فجعله نكالاً لما بين يديه وما خلفه، وموعظةً للمتقين، حسبما يأتي في اسمه بحول الله تعالى.

كاتبه

واستعمل في الكتابة صاحبنا الرجل الأخرق، الطوال، الأهوج البري من الخلال الحميدة، إلا ما كان من وسط الخط وسوقي السجع، والدرك الأسفل من النظم، عبد الحق بن محمد بن عطية المحاربي، الآتي ذكره. وهو الذي أفرده الله جل جلاله، بالغاية البعيدة من مجال سوء العهد، وقلة الوفاء. وتولى القضاء، أبو جعفر أحمد بن أبي القاسم بن جزي أياماً، ثم شهر به قوم من الفقهاء منافسيه، ورشقوه بما أوجب صرفه، وقدم للقضاء الشيخ المسن، الطويل السباحة في بحر الأحكام، المفرى الودجين والحلقوم بسكين القضاء، المنبور بالموبقات فيه، تجاوز الله عنه، سلمون بن علي بن سلمون. وشيخ الغزاة على عهده، يحيى بن عمر بن عبد الله ابن عبد الحق، شيخ الغزاة لأخيه، أصبح يوم الكائنة في قياده، ونصح له فأمر له، وضاعف بره.

الملوك على عهده

مولده

في يوم الإثنين الثامن والعشرين لربيع الأول من عام أربعين وسبعمائة.

وفاته

حسبما تقرر آنفاً في يوم الأربعاء السابع والعشرين لشعبان من عام أحد وستين وسبعمائة.

أبو يحيى المسوفي الصحراوي

أبو بكر إبراهيم، الأمير أبو يحيى المسوفي الصحراوي من أمراء المرابطين صهر علي بن يوسف بن تاشفين، زوج أخته، وأبو ولده منها يحيى، المشهور بالكرم.

أوليته

معروفة تستقرأ عند ذكر ملوكهم

حاله

كان مثلاً في الكرم، وآيةً في الجود، أنسي أجواد الإسلام والجاهلية إلى الغاية، في الحياء والشجاعة والتبريز في ميدان الفضائل. استوزر الوزير الحكيم الشهير أبا بكر بن الصائغ، واختصه فتجملت دولته ونبه قدره. وأخباره معه

شهيرة.

ولايته

ولي غرناطة سنة خمسمائة. ثم انتقل منها إلى سرقسطة. عند خروج المستعين ابن هود إلى روطة. فأقام بها مراسم الملك، وانهمك في اللذات، وعكف على المعاقرة، وكان يجعل التاج بين ندمائه، ويتزيا بزي الملوك، إلى أن هلك بها تحت مضايقة طاغية الروم المستولى عليها بعد.

خروجه من الصحراء

قال المؤرخ: كان أبو بكر هذا رئيساً على بعض قبيله في الصحراء، وكان ابن عمه منفرداً بالتدبير، فاتفق يوماً أن دخل على ابن عمه في خبائه، وزوج ابن عمه تمتشط في موضع قريب من الخباء، فاشتغلت نفس أبو بكر بالمرأة لحسنها وجمالها، فحين دخل قال لابن عمه، فلانة تريد الوصول إليك، وإنما قصد الاستئذان لرجل من أصحابه، فنطق باسم المرأة لشغل باله بها: فقال له ابن عمه بعد طول صمت وفكرة، وقد أنكر ذلك، عهدي بهذا الشخص لا يستأذن علينا.

فرجع عقله، وثاب لبه، وعلم قدر ما من القبيح وقع فيه، فخرج من ذلك المجلس، وركب جمله، وهان عليه مفارقة وطنه من أجل العار، واستصحب نفراً قليلاً من أصحابه على حال استعجال، ورحل ليلا ونهاراً، حتى وصل سجلماسة أولى عمالات علي بن يوسف ابن عمه، واتصل به قدومه، فأوجب حقه، وعرف قدره، وعقد له على أخته، وولاه على سرقسطة دار ملك بني هود بشرق الأندلس، بعد ولاية غرناطة.

نبذة من أخباره في الكرم

قالوا، لما حل بظاهر سجلماسة، مجهول الوفادة، خافي الأمر، نزل بظل نخلة بظاهرها، لا يعرف أحداً ولا يقصده، فجاء في ذلك الموضع رجل حدادٌ فقراه بعنز كان عنده، وتعرف له وأبو بكر يستغرب أمره، فلما فرغوا من أكلهم، قال للحداد ألا تصحبنا لموضع أملنا، وتكون أحد إخواننا، حتى تحمد لقاءنا، فأجابه، وصحبه الحداد، وخدمه، فلما قربوا من مراكش، استأذن أبو بكر، علي بن يوسف بن تاشفين، وأعلمه بنفسه، فأخرج له علي بن يوسف فرساً من عتاق خيله، وكسوة من ثيابه وألف دينار، فأمر أبو بكر بدفعها للحداد، فبهت الحداد، وانصرف الرسول موجهاً إلى مرسله فأخبره بما عاين من كرمه وفعله، فأعاده إليه في الحين بفرسٍ أخرى، وكسى كثيرة، وآلاف من المال، فلما دخل مراكش، ولقي علي بن يوسف وأنزله، أنزل الحداد مع نفسه في بيت واحد، وشاركه في الأموال التي توجه بها فانصرف يجر وراءه دنيا عريضة.

ولما ملك سرقسطة، احتضن الوزير الحكيم أبا بكر بن الصائغ، ولطف منه محله. ذكر أنه غاب يوماً عنه وعن حضور مجلسه بسرقسطة، ثم بكر من الغد، فلما دخل قال له أين غبت يا حكيم عنا؟ فقال يا مولاي أصابتني سوداء واغتممت، فأشار إلى الفتى الذي كان يقف على رأسه، وخاطبه بلسان عجيمة، فأحضره طبقاً مملوءاً مثاقيل محشمة وعليها نوادير ياسمين فدفعه كله إليه، فقال ابن باجة: يا مولاي لم يعرف جالينوس من هذا الطب، فضحك. وذكر أنه أنشد شعراً في مدحه، وقد قعد يشرب، فاستفزه الطب، وحلف أن لا يمشي إلا من فوق المال إلى منزله في طريقه، فالتمس الخدام برنسه بأن كانوا يطرحون من المال شيئاً له خطر، على أوعيته حتى يغمرها، فيمشي خطواً إلى أن وصل إلى منزله، وحسد الحكيم أصحابه، ولم يقدروا على مطالبته. واتفق أن سار الأمير أبو بكر، وأمر أصحابه بالتأهب والاستعداد، فاستعد ابن باجة، واتخذ الأقبية والأخبية، واستفره الجياد من بغال الحمولة، فكانت له

منها سبعة صفر الألوان، حمل عليها الثياب والفرش والمال، فلما نزل الأمير بمقره، مرت عليه البغال المذكورة في أجمل الهيئات، فقال لجلسائه لمن هذه البغال، ومن يكون من رجالنا هذا، فأصابوا العزة، فقالوا هي للحكيم ابن الصائغ صاحب سرقسطة، وليعلم مولانا أن في وسط كل حمل منها ألف دينار ذهباً سوى المتاع والعدة، فاستحسن ذلك. وقال أهذا حق؟ قالوا نعم، فدعا الخازن على المال، وقال له ادفع لابن باجة خمسة آلاف دينار ليكمل له ذلك اثني عشر ألفاً، فقد سمعته غير ما مرة يتمنى أن يكون له ذلك، ثم بعث عنه في الحين وقال له، يا حكيم ما هذا الاستعداد، فقال يا مولاي كل ذلك من هباتكم وأعطياتكم، ولما علمت أن أظهار ذلك يسركم، فسر بذلك.
وأخباره رحمه الله كثيرة.

محنته

قالوا، ولما ولى غرناطة سنة خمسمائة. ثار بها، وانبرى على قومه لأمر رابه، فانتبذ عنه قومه، وناصبوه الحرب، حتى استنزلوه عنوة، وقبضوا عليه، ووجهوه إلى علي بن يوسف. فآثر الإبقاء عليه، وعفا عنه، واستعمله بسرقسطة، كذا ذكره الملاحي، وأشار إليه. وعندي أن الأمر ليس كذلك وأن الذي جرى له ذلك، أبو بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين فيتحقق.

وفاته

توفي بسرقسطة في سنة عشر وخمسمائة بعد أن ضاق ذرعه بطاغية الروم، الذي أناخ عليه بكلكله. وعندما تعرف خبر وفاته، واتصلت بالأمير أبي إسحاق إبراهيم بن تاشفين، وهو يومئذ والي مرسية، بادر إلى سرقسطة، فضبطها، ونظر في ساير أمورها ثم صدر إلى مرسية.

رثاؤه

ورثاه الحكيم أبو بكر بن الصائغ بمراث اشتهر عنه منها قوله:

سلام وإلمام ووسمي مزنةٍ ... على الجدث الثاني الذي لا أزوره
أحقٌ أبو بكر تقضي فلا ترى ... ترد جماهير الوفود ستوره
لئن أنست تلك اللحود بلحده ... لقد أوحشت أقصاره وقصوره

ومن ذلك قوله:

أيها الملك المفدى لعمري ... نعي المجد ناعيك يوم قمنا فنحنا
كما تقارعت والخطوب إلى أن ... غادرتك الخطوب في الترب وهنا
غير أني إذا ذكرتك والده ... ر أخال اليقين في ذاك ظنا
وسألنا متى اللقاء فقيل الحش ... ر قلنا صبراً إليه وحزنا

إدريس بن عبد المؤمن بن علي

إدريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي أمير المؤمنين الملقب بالمأمون، مأمون الموحدين

أوليته

جده عبد المؤمن، جذع الشجرة، وينبوع الجداول، هو ابن علي بن علوي بن يعلي بن موار بن نصر بن علي بن عامر بن موسى بن عون الله بن يحيى بن ورجايغ بن سطفور بن نفور بن مطماط بن هزرج بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وكان طالباً بربرياً ضعيفاً، خرج مع عمه يؤم للشرق، وكان رأى رؤيا هالته تدل

على ملك، إذ كان صفحته من طعام على ركبتيه، يأكل منها الناس، وكانت أمه رأت وهي حاملٌ، كأن ناراً خرجت منها أحرقت المشرق والمغرب، فكانت في نفسه حركة، لأجل هذه الرؤيا، فلمات حل بسجلماسة، سمع بها عن المهدي، وكان رجلاً يعرف بأبي عبد الله السوسي، ووصف له بالعلم، فتشوف إلى لقائه، ليرى ما عنده في تأويل رؤياه، فانصرف إليه مع بعض الطلبة، فلقي رجلا قد وسمه، على ما يزعم الناس، حدثان من أبي حامد الغزالي، وعلقت به دعوة منه، في إذهاب ملك أهل اللثام، لحرق كتابه على أيديهم، فهو مغري بالخروج عليهم، مهيأ في عالم الغيب إلى تخريب دعوتهم، فوافق شن طبقه وما اجتمع الداآن إلا ليقتتلا، والله غالب على أمره. فأجلسه، وسأله عن اسمه، وبلده وسنه، ونسبه، بالتعريف، وأمره أن يخفي من أمره، وعبر له رؤياه، بأنه يملك الأرض، فاهتزت الآمال وتعاضدت، ونفذت مشيئة الله، بأن دالت الدولة، وهلك محمد بن تومرت المهدي، فأفضى الأمر إلى عبد المؤمن، واستولى على ملك اللمتونيين، فأباد خضراءهم، واستأصل شأفتهم، واستولى على ملك المغرب، فأقام به رسماً عظيماً، وأمراً جسيماً، وأورثه بنيه من بعده، والله يؤتي ملكه من يشاء.

حاله

كان رحمه الله شهماً شجاعاً، جريئاً، بعيد الهمة، نافذ العزيمة، قوي الشكيمة، لبيباً، كاتباً أديباً، فصيحاً، بليغاً، أبياً، جواداً، حازماً. وذكره ابن عسكر المالقي، في تاريخ بلده، قال دخل مالقة من قبل أخيه، فوصل إليها في الحادي عشر من محرم، وهو شاب حدث، فكان منه من نباهة القدر وجلالة النفس، وأبهة الملك، ما يعجز عنه كثير من الملوك. ولحين وصوله عقد مجلس مذاكرة، استظهر له نبهاء الطلبة، وكان الشيخ علي بن عبد المجيد يحضره. وكان يبدو منه مع حداثة سنة، من الذكاء والنبل والتفطن، ما كان يبهت الحاضرين، وكانوا ينظرون منه إلى بدري الحسن، وأسدي الهيبة، وكهلي الوقار والتؤدة، واشتغل بما يشتغل به الملوك من تفخيم البناء، كبينان رياض السيد الذي على ضفة الوادي بمالقة المعروف باسمه، لله ورسوله، وكان عرفاء البنائين لا يتصرفون إلا بنظره، واستمرت ولايته مفخم الأمر، عظيم الولاية، إلى أن نقل منها إلى قرطبة، ثم نقل إلى إشبيلية وفيها بويع الخلافة.

تصير الأمر إليه، وجوازه إلى العدوة

قام على أخيه العادل بين يدي مقلعة، بممالأة أخيه السيد أبي زيد، أمير بلنسية وتحريكه إياه، فتم له ذلك، وعقدت له البيعة بمراكش والأندلس. ثم إن الموحدين في مراكش بدا لهم في أمره، وعدلوا عنه إلى ابن عمه أبي زكريا ابن الناصر، واتصل به خبر خلعهم إياه فهاجت نفسه، ووقدت جمرته، واستعد لأخذ ثاره، ورحل من إشبيلية، واستصحب جمعاً من فرسان الروم، واستجاز البحر سنة ست وعشرين وستمائة، قاصداً مراكش، وبرز ابن عمه إلى مدافعته، والتقى الجمعان فكانت الهزيمة على يحيى بن الناصر، وفر إلى الجبال، واستولى القتل على جيشه، ودخل المأمون مراكش فأمر بتقليد شرفاتها بالرءوس فعمتها على اتساع الساحة، واستحضر الناكثين لبيعته وبيعة أخيه، وهم كبار الدولة، واستفتى قاضيه بمرأى منهم، واستحضر خطوطهم وبيعاتهم، فأفتى بقتلهم، فقتل جماعتهم، وهم نحو مائة رجل، واتصل البحث عمن أفلت منهم، وصرف عزمه إلى محو آثار دولة الموحدين، وتغيير رسمها، فأزال اسم مهديها من الخطبة والسكة والمآذن، وقطع النداء عند الصلاة تاصليت الإسلام وكذلك منسوب رب وبادري وغير ذلك، مما جرى عليه عمل الموحدين، وأصدر في ذلك رسالة حسنة، من إنشائه، يأتي ذكرها في موضعه. وعند انصرافه من الأندلس، خلا للأمير أبي عبد الله بن هود الجو، بعد وقائع خلت بينهما، وانتهز النصارى الفرصة، فعظمت الفتنة، وجلت المحنة.

دخوله غرناطة

لم يصح عندي أنه دخل غرناطة، مع غلبة الظن القريب من العلم بذلك، إلا طريقه إلى مدافعته المتوكل بن هود بجهة مرسية، فإنه تحرك لمعالجة أمره في جيش إشبيلية باستدعاء أخيه السيد أبي زيد والي بلنسية، بعد هزائم جرت بصقع الشرق لابن هود، فتحرك المأمون إليه، واحتل غرناطة، في رمضان من عام خمسة وعشرين وستمائة، وأنفذ منها كتابه إلى أخيه، يقوي بصيرته، ويعلمه بنفوذه إليه، والتف عليه جيش غرناطة وما والاها، واتصل سيره إلى الشرق، فبرز ابن هود إلى لقائه، فكان اللقاء بخارج لورقة، فانهزم ابن هود، وفر إلى مرسية، وعساكر الموحدين في عقبه، واستقصاء مثل هذا يخرج عن الغرض.

وخاطب لأول أمره، وأخذ الناس ببيعته. من بأقطار الأندلس، صادعاً بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحض على الصلوات وإيتاء الزكاة، وإيتاء الصدقات، والنهي عن شرب الخمر والمسكرات والتحريض على الرعاية فمن كتابه: الحمد لله الذي جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلين يتفرع منهما مصالح الدنيا والدين، وأمر بالعدل والإحسان، إرشاداً إلى الحق المبين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم، المبعوث بالشريعة التي طهرت الجيوب من الأدران، واستخدمت بواطن القلوب وظواهر الأبدان، طوراً بالشدة، وتارة باللين، القائل، ولا عدول عن قوله: " ومن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه " تنبيهاً على ترك الشك لليقين، وعلى آله أعلام الإسلام، الملقين راية الإسلام باليمين، الذين مكنهم الله في الأرض، فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وفاء بالواجب لذلك التمكين.

ومن فصل: وإذا كنا نوفي الأمة تمهيد دنياها، ونعني بحماية أقصاها وأدناها، فالدين أهم وأولى، والتهمم، بإقامة الشريعة وإحياء شعائرها، أحق أن يقدم وأحرى، وعلينا أن نأخذ بحسب ما يأمر به الشرع وندع، ونتبع السنن المشروعة ونذر البدع. ولنا أن لا ندخر عنها نصيحة، ولا نغبنها أداة من الأدوات مريحة، ولنا عليها أن تطيع وتسمع.

ومن فصل وأول ما يتناول به الأمر النافذ، الصلاة لأوقاتها، والأداء لها على أكمل صفاتها، وشهودها إظهاراً لشرائع الإيمان في جماعتها. فقد قال عليه الصلاة والسلام: أحب الأعمال إلى الصلاة لأوقاتها. وقال: أول ما ينظر فيه من أعمال العمد الصلاة. وقال عمر: إن أهم أموركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع. وقال: لاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة وهي الركن الأعظم من أركان الإيمان، والسور الأوثق لأعمال الإنسان، والمواظبة على حضورها في المساجد، وإيثار ما لصلاة الجماعة من المزية على صلاة الواحد، أمرٌ لا يضيعه المفلحون، ولا يحافظ عليها إلا المؤمنون. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد رأينا، وما يتخلف عنها إلا المنافق، معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتي يتهادى بين الرجلين، حتى يقام في الصف. وشهود الصبح، وعشاء الآخرة شاهد بمحضر الإيمان. ولقد جاء: حضور الصبح في جماعة يعدل قيام ليلة، وحسبكم بهذا الرجحان. ومن الواجب أن يعتني بهذه القاعدة الكبرى من قواعد الدين، ويأخذ بها في جميع الأمصار الصغير والكبير من المسلمين، ونيط في إلزامها قوله عليه الصلاة والسلام: " مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر سنين " . وهي طويلة في معاني متعددة.

نثره ونظمه

ولما غير رسوم الموحدين، وأوقع بأرباب دولتهم خبر النكث ببيعته، وبيعتي أخيه وعمه، كتب إلى الأقطار عن نفسه، ولم يكمل إنشاءه بكتابة رسالة بديعة، اشتملت على فصول كثيرة تنظر في كتاب المغرب والبيان المغرب وغير ذلك.

وكتابا بخطه إلى أهل اندوجر: إلى الجماعة والكافة من أهل فلانة، وقاهم الله عثرات الألسنة، وأرشدهم إلى محو السيئة بالحسنة، أما بعد فإنه قد وصل من قبلكم كتابكم الذي جدد لكم أسهم الانتقاد، ورماكم من السهاد، بالداهية الساد، أتعتذرون من المحال بضعف الحال، وقلة الرجال. إذاً نلحقكم بربات الحجال، كأنا لا نعرف مناحي أقوالكم، وسوء منقلبكم وأحوالكم، لا جرم أنكم سمعتم بالعدو قصمه الله، وقصده إلى ذلك الموضع عصمه الله، فطاشت قلوبكم خوراً، وعاد صفوكم كدراً، وشممتم ريح الموت ورداً وصدراً، وظننتم أنكم أحيط بكم من كل جانب، وأن الفضاء قد غص بالتفاف القنا واصطفاف المناكب، ورأيتم غير شيء فتخيلتموه طلائع الكتائب، تباً لهمتكم المنحطة، وشيمتكم الراضية، بأدون خطة، أحين ندبتم إلى حماية إخوانكم، والذب عن كلمة إيمانكم نسقتم الأقوال وهي مكذوبة، ولفقتم الأعذار وهي بالباطل مشوبة، لقد آن لكم أن تتبدلوا جل الخرصان، إلى مغازل النسوان، وما لكم ولصهوات الخيول وإنما على الغانيات جر الذيول. أتظهرون العناد تخريصاً، بل تصريحاً وتلويحاً، ونظن أن لا يجمع لكم شتا، ولا يدني منكم نزوحاً. أين المفر وأمر الله يدرككم، وطلبنا الحثيث لا يترككم، فأزيلوا هذه النزعة النفاقية من خواطركم، قبل أن نمحو بالسيف أقوالكم وأفعالكم، ونستبدل قوماً غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم. ونحن نقسم بالله لو اعتسفتم كل بيداء سملق، واعتصمتم بأمنع معقل، وأحفل فيلق، ما ونينا عنكم زماناً، ولا ثنينا عن استيصال العزم منكم عناناً فلا يغرنكم الإمهال، أيها الجهال. وهي طويلة وقال عند الإيقاع بالأشياخ أولى الفساد على الدول، وصلبهم في الأشجار والأسوار، مما كلف السلمى بحفظها واستظرافها:

أهل الحرابة والفساد من الورى ... يعزون في التشبيه بالذكار

ففساده فيه الصلاح لغيره ... بالقطع والتعليق في الأشجار

ذكارهم ذكرى إذا ما أبصروا ... فوق الجذوع وفي ذرى الأسوار

لو عم عفو الله سائر خلقه ... ما كان أكثرهم من أهل النار

توقيعه

قال ابن عسكر، وكانت تصدر منه توقيعات نبيلة. فمنها أن المرأة رفعت رقعتها بأحد من الأجناد ممن نزل دارها، وصدر لها أمر ينكر، فوقع على رقعتها: يخرج هذا النازل، ولا يعوض بشيء من المنازل. وغير ذلك مما اختصرناه.

بنوه

أبو محمد عبد الواحد ولي عهده، وأمير المؤمنين بعد وفاته، الملقب بالرشيد، وعبد العزيز، ومان، وأبو الحسن علي، الملقب بالسعيد، الوالي بعد أخيه الرشيد.

بناته: ابنة العزيز، وصفية، ونجمة، وعائشة، وفتحونة، وأمهات الجميع روميات، وسريات مغربيات.

وزراؤه

وزر له الشيخ أبو زكريا بن أبي الغمر وغيره.

كتابه، كتب له جملة من مشاهير الكتاب، منهم أبو زكريا الفازازي، وأبو المطرف بن عميرة. وأبا الحسن الرعيني، وأبوعبد الله بن عياش وأبو العباس ابن عمران وغيرهم. وما منهم إلا شهير كبير.

وفاته

توفي رحمه الله بوادي أم الربيع، وقد طوى المراحل من ظاهر سبتة، مقلعا عن حصارها، مبادراً إلى مراكش، وقد اتصل به دخول يحيى بن الناصر إياها، فأعد السير وقد اشتد حنقه على أهلها، وأقسم أن يبيح حماها للروم، ويذهب

اسمها ومسماها، فهلك عند دنوه منها فجأة، فكانت عند أهل مركش من غرر الفرج بعد الشدة، وكتمت زوجة حبابة الرومية، أم الرشيد ولده، خبر وفاته إلا عن الأفراد من قواد النصارى وبعض الأشياخ، واتفق القول على مبايعة ابنها المذكور، بيعةً خاصة ثاني يوم وفاته، ثم جعل في هودج وأشيع أنه مريض، وزحفت الجيوش على تعبيته، وبرز يحيى بن الناصر من مراكش إلى لقائه، والتقى الجمعان فانهزم يحيى واستولى الرشيد عليه، ودخل مراكش فاستقام الأمر، وكانت وفاة المأمون أبي العلا رحمه الله، ليلة الخامس عشر لمحرم عام ثلاثين وستمائة.

وجرى ذكر المأمون والمهدي وأوليتهم في الرجز المتضمن ذكر بالمسلمة من نظمي بما نصه بعد ذكر الدولة اللمتونية:

ونجم المهدي وهو الداهية ... فأصبحت تلك المباني واهية

وانحكم الأمر له وانجمعا ... في خبر نذكر منه لمعا

لم يأل فيها أن دعا لنفسه ... وكان في الحزم فريد جنسه

أغرب في ناموسه ومذهبه ... وفي الذي سطره من نسبه

وعنده سياسةٌ وعلمٌ ... وجرأةٌ وكرم وحلمٌ

ووافقت أيامه في الناس ... لدولة المسترشد العباسي

ثم انقضت أيامه المنيفة ... وكان عبد المؤمن الخليفة

فضاء لون سعده ووضحا ... ولاح مثل الشمس في وقت الضحى

ثم تلمسان وفاساً فتحا ... وملك أصحاب اللثام قد محا

ولما انتهى القول إلى المأمون المترجم به، بعد ذكر من يليه وعبد المؤمن جده، قلت:

ثم تولى أمرهم أبو العلا ... فسلط البيض على بيض الطلا

وهو الذي أركب جيش الروم ... وجد في إزالة الرسوم

أسباط بن جعفر

بن سليمان بن أيوب بن سعد السعدي

سعد بن بكر بن عفان الإلبيري هذا هو جد سعيد بن جودي، بن سوادة، بن جودي، بن أسباط، أمير المغرب. وقدرهم بهذه المدينة شهير.

حاله

وكان من أهل العلم والفقه، والدين المتين، والورع الشديد، والصلاح الشهير.

نباهته

ولاه الأمير عبد الرحمن قضاء إلبيرة حين بلغه زهده وورعه، وأنه لم يشرك إخوته في شيء من ميراث أبيه، إذ كان لم يحضر الفتح، فبرىء به إليهم وابتاع موئلاً بوطنه أنيط به ماءٌ، وانفرد به للعبادة والتبتل، فاستقدمه هشام، فركب حماره وقدم عليه في هيئة رثة بذلة، فتوسم فيه الخير، وقدمه ووسع له في الرزق، ووهب له ضياعاً كثيرة، تعرف اليوم باسمه، وتوفي هشام وهو قاض بإلبيرة، فأقره ابنه الحكم ثم ولاه شرطته، إلى أن توفي أسباط، قلت، انظر حال الشرطة عند الخلفاء من كان يختار لها لولايتها.

أسلم بن عبد العزيز بن أبان

أسلم بن عبد العزيز بن هشام بن خالد بن عبد الله بن خالد ابن حسين بن جعفر بن أسلم بن أبان مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه، يكنى أبا الجعد.

أوليته

من أهل شرق الأندلس، أصلهم من لوشة فتية غرناطة وموضعهم بها معروف، وإلى جدهم ينسب جبل أبي خالد المطل عليها، وكان لهم ظهور هنالك، وفيهم أعلام وفضلاء.

حاله

كان أسلم من خيار أهل إلبيرة، شريف البيب، كريم الأبوة، من كبار أهل العلم، وكانت فيه دعابة، لم ينسب إليه قط بسببها خزية في دين ولا زلة. قال أبو الفضل عياض، كان أسلم من خيار أهل إلبيرة، رفيع الدرجة في العلم، وعلو الهمة في الإدراك، والرواية والديانة، والصحبة، وبعد الرحلة في طلب العلم، معروف النصيحة والإخلاص للأمراء.

مشيخته

لقي بمصر، المدني، ومحمد بن عبد الحكم، ويونس، والربيع بن سليمان المؤذن، وأحمد بن عبد الرحيم البرقي. وسمع من علي بن عبد العزيز، وسليمان ابن عمران بالقيروان.

من روي عنه، سمع منه عثمان بن عبد الرحمن، وعبد الله بن يونس، ومحمد بن قاسم، وغير واحد، وانصرف إلى الأندلس من رحلته، فنال الوجاهة العظيمة.

ولايته

ولاه قضاء الجماعة بغرناطة، الناصر لدين الله، أول ولايته، وسط سنة ثلاثمائة، إلى أن استعفى سنة تسع وثلاثمائة فأعفاه، ثم أعاده. وكان في قضاء صارماً لا هوادة عنده. قال المؤرخ، كان الناصر يستخلفه في سطح القصر إذا خرج إلى مغازيه. وحكى ابن حارث، أن ابن معاذ وابن صالح أتيا يوماً، فلما أخذا مجلسهما نظر إليهما، وقال ألقوا ما أنتم ملقون فأبهتهما. ودخل عليه محمد بن وليد يوماً، فكلمه في شيء، فقال أسلم سمعنا وعصينا، فقال ابن وليد ونحن قلنا واحتسبنا. وأتاه في بعض مجالسه شهود، بعضهم من أهل المدينة بقرطبة، وبعضهم من شلار من الربض الشرقي، يشهدون في ترشيد امرأة من الربض الغربي، فلما أخذوا مجالسهم، فتح باب الخوخة التي في المجلس الذي يجلس بدهليزه، ونادى من بخارجه فاجتمعوا، اسمعوا عجباً، لله در الشاعر حيث يقول:

راحت مشرقة ورحت مغرباً ... شتان بين مشرق ومغرب

هؤلاء من أهل المدينة وشلار، يشهدون في ترشيد امرأة من ساكنات آخر بلاط مغيث، ثم سكت فدهش القوم وتسللوا. وبلغه عن بعض الشهود المتهمين أنه أرشي في شهادته ببساط، فلما أتى ليؤديها، ودخل على أسلم جعل يخلع نعليه عند المشي على بساط القاضي، فناداه أبا فلان البساط، الله الله، فتنبه بأن أمره عند القاضي، ولم يجسر على أداء شهادته تلك. وخاصم فقيهٌ عند أسلم رجلاً في خادم أغربها وجاء بشاهد أتى به من إشبيلية، فقال يا قاضي هذا شاهدي فاسمع منه، فصعد أسلم في الشاهد وصوب، وقال أمحتسب، أو مكتسبٌ أصلحك الله، فقال الشاهد أحسن الظن أيها القاضي، فليس هذا إليك، هذا إلى الله المطلع على ما في القلوب، ولم تقعد هذا المقعد لتسأل عن هذا وشبهه، وإنما عليك الظاهر، وتكل الباطن إلى الله، فإن شئت، فاسمع الشهادة كما يلزمني أداؤها، ثم أقبلها أو اضرب بها الحائط. وفي رواية أخرى، وليس لك أن تكشف الستر المنسدل بينك وبيني، فإن هذا التفسير

للشهود يوقف عن الشهادة عندك، ويعرض لإهانتك أهل لائقةٍ، وفي ذلك من ضياع الحقوق ما لا يخفي، فأخجل أسلم كلامه، وقال له، لك ما قلت، فأد شهادتك يرحمك الله. قال، فأين الخادم تحضر حتى أشهد على عينها، قال أسلم وفقيهٌ أيضاً؟ هاتوا الخادم، فجاءت من عند الأمين، فلما مثلت بين يديه، نظر منها ملياً، ثم قال، أعرف هذه الخادم ملكا لهذا الرجل، لا أعرف ملكه زال عنها بوجه من الوجوه، إلى حين شهادتي هذه، سلامٌ على القاضي، ثم خرج، فبقى أسلم متعجباً منه.

محنته

كف بصره في أخريات أيامه، فطلب لأجل ذلك الإعفاء فأعفى، ولزم بيته صابراً محتسباً إلى حين وفاته.

مولده

سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

أسد بن الفرات

بن بشر بن أسد المري

من أهل قرية الصير مورته من إقليم البساط من قرى غرناطة.

حاله

كان عظيم القدر والشرف والشهرة، أصيل المعرفة والدين.

مشيخته

خرج إلى المشرق، ولقي مالك بن أنس رضي الله عنه، روي عنه سحنون ابن سعيد.

تآليفه

ألف كتاب المختلطة، وولى القضاء بالقيروان أجمل ما كانت وأكثر علماً، وولاه زيادة الله غزو صقلية، ففتحها وأبلى بلاء حسناً.

وفاته

توفي رحمه الله محاصراً سرقوسة منها سنة ثلاث عشر ومائتين. هذا ما وقع في كتاب أبي القاسم الملاحي. وذكره عياض فذكر خلافاً في اسمه وفي أوليته.

أبو بكر المخزومي

الأعمى المورورى المدوري

حاله

كان أعمى، شديد القحة والشر، معروفاً بالهجاء، مسلطاً على الأعراض، سريع الجواب، ذكي الذهن، فطناً للمعاريض، سابقاً في ديوان الهجاء، فإذا مدح ضعف شعره.

دخوله غرناطة

وذكر شيء من شعره، ومهاترته مع نزهون بنت القلاعي.

قال أبوالحسن بن سعيد، في كتابه المسمى بالطالع السعيد، قدم على غرناطة أيام ولاية أبي بكر بن سعيد عمل غرناطة، ونزل قريباً منه، وكان يسمع به، فقال صاعقةٌ يرسلها الله عز وجل على من يشاء من عباده، ثم رأى أن يبدأه بالتأنيس والإحسان، فاستدعاه بهذه الأبيات:

يا ثانيا للمعري ... في حسن نظمٍ ونثر
وفرط ظرف ونبلٍ ... وغوص فهم وفكر
صل ثم واصل حفياً ... بكل شكر وبر
وليس إلا حديث ... كما زها عقد در
وشادنٌ قد تغنى ... على ربابٍ وزمر
وما يسامح فيه الغف ... ور من كأس خمر
وبيننا عقد حلف ... لبان شركٍ وكفر
فقم نجدده عهداً ... يطيب شكر وسكر
والكأس مثل رضاع ... ومن كمثلك يدري

ووجه له الوزير أبو بكر بن سعيد، عبداً صغيراً قاده. فلما استقر به المجلس، وأفعمته روائح الند والعود والأزهار، وهزت عطفه الأوتار، قال:

دار السعيدي ذي أم دار رضوانٍ ... ما تشتهي النفس فيها حاضرٌ دان
سقت أبارقها للند سحب ندى ... تحدو برعد لأوتار والحان
والبرق من كل دن ساكبٌ مطرا ... يحيي به ميت أفكار وأشجان
هذا النعيم الذي كنا نحدثه ... ولا سبيل له إلا بآذان

فقال أبو بكر بن سعيد ولا سبيل له إلا بآذان، فقال حتى يبعث الله ولد زنا كلما أنشدت هذه الأبيات، قال: وإن قائلها أعمى، فقال: أما أنا فلا أنطق بحرف في ذلك. فقال من صمت نجا. وكانت نزهون بنت القلاعي الآتي ذكرها حاضرة، فقالت ونراك يا أستاذ قديم النغمة، بند وغناء وطيب شراب، تعجب من تأتيه، وتشبهه بنعيم الجنة، وتقول ما كان يلم إلا بالسماع، ولا يبلغ إليه إلا بالعيان، لكن من يجيئ من حصن المدور، وينشأ بين تيوس وبقر، من أين له معرفةٌ بمجالس النغم. فلما استوفت كلامها تنحنح الأعمى، فقالت له دعه، فقال من هذه الفاعلة؟ فقالت عجوز مقام أمك، فقال كذبت ما هذا صوت عجوز، إنما هذه نغمة قحبة محترقة تشم روائح كذا منها على فرسخ، فقال له أبو بكر: يا أستاذ هذه نزهون بنت القلاعي الشاعرية الأديبة، فقال سمعت بها لا أسمعها الله خيراً، ولا أراها إلا... فقالت له يا شيخ سوءٍ تناقضت، وأي خير أفضل للمرأة.؟ ففكر المخزومي ساعة ثم قال:

على وجه نزهون من الحسن مسحة ... وإن كان قد أمسى من الضوء عاريا
قواصد نزهون تدارك غيرها ... ومن قصد البحر استقل السواقيا

فأعملت فكرها وقالت:

قل للوضيع مقالاً ... يتلى إلى حين يحشر
من المدور أنش ... ئت والخزا منه أعطر
حيث البداوة أمست ... في أهلها تتبختر
لذلك أمسيت صبا ... بكل شيء مدور

خلقت أعمى ولكن ... تهيم في كل أعور
جازيت شعراً بشعر ... فقل لعمري من أشعر
إن كنت في الخلق أنثى ... فإن شعري مذكر
فقال لها اسمعي:
ألا قل لنزهونة ما لها ... تجر من التيه أذيالها
ولو أبصرت بشةً شمرت ... كما عودتني سربالها
فحلف أبو بكر بن سعيد ألا يزيد أحدهما على الآخر في هجوه كلمة، فقال المخزومي أكون هجاء الأندلس وأكف عنها دون شيء، فقال أنا أشتري منك عرضها فاطلب، فقال بالعبد الذي أرسلته فقادني إلى منزلك، فإنه لين القد رقيق الملمس. فقال أبو بكر لولا أنه صغير كنت أبلغك فيه مرادك، وأهبه لك، ففطن لقصده، وقال أصبر عليه، حتى يكبر، ولو كان كبيراً ما آثرتني على نفسك، فضحك أبو بكر وقال قد هجوت نثراً، وإن لم تهج نظماً، فقال أيها الوزير، لا تبديل لخلق الله، وانفصل المخزومي بالعبد بعد ما أصلح بينه وبين نزهون.
وقال يمدح القاضي بغرناطة أبا الحسن بن أضحى رحمهما الله:
عجباً للزمان يطلب هضمي ... وملاذي منه على بن أضحى
جاره قد سما على النطح عزاً ... ليس يخشى من حادث الدهر نطحا

فكأني علوت قرن فلان ... أي تيس مطول القرن ألحا
فقال له ابن أضحى، هلا اقتصرت على ما أنت بسبيله، فكم تقع في الناس، فقال أنا أعمى وهم حفرٌ فلا أزال أقع فيها، فقال فأعجبني كلامه على قبحه، وحديث مقامه بغرناطة يقتضي طويلا.
وفاته: قال أبو القاسم بن خلف، كان حياً بعد الأربعين وخمسمائة.
أصبغ بن محمد بن الشيخ المهدي

يكنى أبا القاسم، عالم مشهور.
حاله
كان محققاً بعلم العدد والهندسة، مقدماً في علم الهيئة والفلك وعلم النجوم، وكانت له مع ذلك عناية بالطب. تواليفه حسان، وموضوعاته مفيدة، منها كتاب المدخل إلى الهندسة، في تفسير كتاب إقليدس، ومنها كتاب ثمار العدد المعروف بالمعاملات. ومنها كتابه الكبير في الهندسة تقصي فيه أجزاءها. ومنها كتاب في الآلة المعروفة بالأسطرلاب. ومنها تاريخه الذي ألفه وهو تاريخ كبير.
وفاته
قال ابن جماعة في تاريخه، أخبرني أبو مروان، سليمان بن عيسى الناشي المهندس، أنه توفي بمدينة غرناطة قاعدة الأمير حبوس ليلة الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت لرجب سنة ست وعشرين وأربعمائة، وهو ابن ست وخمسين سنة شمسية. وعده من مفاخر الأندلس.
أبو علي بن هدية
من أهل غرناطة
حاله

قال أبوالقاسم الملاحي فيه، من أهل الدين، والفضل، والأمانة، والعدالة، والمعرفة بالتكسير والأعمال السلطانية، وولى المستخلص بغرناطة، فثقب وأجاد النظر. قال ابن الصيرفي: ولما ولي الوزير أبو علي بن هدية المستخلص، وباشر جلائل الأمور ودقائقها بنفسه، حمي المناصفين، ورفع المؤن والكلف، عنهم، ووسع بسليف البذر عليهم، وآثرهم بالنصفة بالتزام حصة بيت المال، ولم يكن له حجاب ولا بواب، فكان القوي والضعيف، والمشروف والشريف، والكبير والصغير، والرجل والمرأة، شرعاً سواءً في الوصول إليه، والتكلم في مجلسه، فلم يهتضم جانب، ولا دحضت حجة، إلا أنه ارتفعت الرقبة، وزالت الهيبة، وأمحق نور الخطة، وخص أحباس جامع غرناطة بنظره، بفضل مال كثير من غلته، ونبه باجتماعه ليزيد بن بلاطين في مسقفه من شرقه وغربه، فأكمل الله ذلك بسعيه وعلى يديه، ورام ربع المستخلص، وزاد به في حماماته، ورم حوانيته، واستحدث منيحة سماها المستحدثة. وغرس قضبان الجوز في مواضع المياه، وعوض بما ذهب، وشمر في جمع المال، ووالي الحفز على العمل، ونصح بمقتضى جهده، ومنتهى وسعه، ولم تمد يده في مصانعة، ولا مالت إلى مداخلة، ولكنه لم يحمل في حق ولا نوقش في باطل.

أم الحسن

بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي

من أهل لوشة.

نبيلةٌ حسيبةٌ، تجيد قراءة القرآن، وتشارك في فنون من الطلب، من مبادىء غريبة، وخلف وإقراء مسائل الطب، وتنظم أبياتاً من الشعر. وذكرتها في خاتمة الإكليل بما نصه: ثالثة حمدة وولادة، وفاضلة الأدب والمجادة، تقلدت المحاسن من قبل ولادة، وأولدت أبكار الأفكار قبل سن الولادة. نشأت في حجر أبيها، لا يدخر عنها تدريجاً ولا سهماً، حتى نهض إدراكها وظهر في المعرفة حراكها، ودرسها الطب ففهمت أغراضه، وعلمت أسبابه وأعراضه. وفي ذكر.

شعرها

ولما قدم أبوها من المغرب، وحدث بخبرها المغرب، توجه بعض الصدور إلى اختبارها، ومطالعة أخبارها، فاستنبل أغراضها واستحسنها، واستطرف لسنها، وسألها عن الخط، وهو أكسد بضاعة جلبت، وأشح درة حلبت. فأنشدته من نظمها:

الخط ليس له في العلم فائدة ... وإنما هو تزيينٌ بقرطاس

والدرس سؤلي لا أبغي به بدلاً ... بقدر علم الفتى يسمو على الناس

وراجعها بعض المجان يغفر الله له:

إن فرط الدرس يا أمي سحق ... وهذا هو المشهور في الناس

فخذ من الدرس شيئاً تافها ... خطا وبالفهم يحيى كل الناس

ومن شعرها في غرض المدح:

إن قيل من الناس رب فضيلةٍ ... حاز العلا والمجد منه أصيل

فأقول رضوان وحيد زمانٍ ... إن الزمان بمثله لبخيل

بلكين بن باديس

بن حبوس بن ماكسن بن زيري

بن مناد الصنهاجي الأمير الملقب بسيف الدولة، صاحب أمر والده والمرشح للولاية بعده حاله

قال المؤرخ: كان زيري بن مناد، ممن ظهر في حرب ابن يزيد بإفريقية، واتسم هو وقومه بطاعة العبيديين أمراء الشيعة، فكانوا حرباً لأضدادهم من زناتة الموالين لأملاك المراونة لتحقق جدهم خزر بولايته عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلما صار الأمر إلى بني مناد بعد انتقال ملك الشيعة إلى المشرق، وولي الأمر باديس بن منصور بن بلكين بن زيري، ذهب أعمامه وأعمام أبيه إلى استضعافه، فلم يعطهم ذلك من نفسه، ووقعت بينهم الحرب التي قتل فيها عم أبيه ما كسن بن زيري، فرهب الباقون منهم صولة باديس، وخافوا عاديته على أنفسهم، على صغر سنه، فخاطب شيخ بيته يومئذ زاوي بن زيري ومعه أبناء أخيه، المظفر ابن أبي عامر ليجوز إليه إلى الأندلس رغبة في الجهاد، فألفى همه بعيدة، وملكاً شامخاً، ينهب إلى استخدام الأشراف واصطناع الملوك، فأذن في ذلك، فدخل منهم جماعةٌ الأندلس مع أميرهم زاوي بن زيري، ومعه أبناء أخيه حباسة وحبوس وماكسن، فأنزلهم المظفر وأكرمهم، إلا أنهم كابدوا مشقة من دهرهم الذي أصارهم يخدمون بأبواب الملوك من أعدائهم غيرهم، فلما انهدمت الإمامة، وانشقت عصا الجماعة، سعوا في الفتنة سعي غيرهم، من سائر قبائل البرابرة، عند تشديد أهل الأندلس للبربر، وانحازوا عند ظهورهم على أهل الأندلس، بملوك بني حمود، إلى بلاد تضمهم، فانحازت صنهاجة مع شيخهم ورئيسهم زاوي بن زيري إلى مدينة غرناطة. ثم آثر زاوي العودة إلى وطنه إفريقية، فخرج عن الأندلس حسبما يتفسر في موضعه. والتف قومه على ابن أخيه حبوس بن ماكسن، في جماعة عظيمة تحمي حوزته، وأقام بها ملكاً، وغلب على ما اتصل بمدينته من الكور، فتملك قبرة، وجيان، واتسع نظره، وحمى وطنه ورعيته ممن جاوره من البرابر، وكان داهية شجاعاً، فدامت رياسته، واتصل ملكه، إلى أن هلك. فولى بعده ابنه باديس، وسيأتي التعريف به، وولد له ابنه بلكين هذا المترجم به، فرشحه إلى ملكه، وأخذ له بيعة قومه، وأهله للأمر من بعده. قال المؤرخ: ونشأ لباديس ابن حبوس، ولد اسمه بلكين، وكان عاقلاً نبيلاً، فرشحه للأمر من بعده، وسماه سيف الدولة، وقال: ولي مالقة في حياة أبيه، وكان نبيلاً جليلاً، ووقعت على كتاب بخطه نصه بعد البسملة: هذا ما التزمه واعتقد العمل به، بلكين بن باديس، للوزير القاضي أبي عبد الله بن الحسن الجذامي سلمة الله. أعتقد به إقراره على خطة الوزارة، والقضاء في جميع كوره، وأن يجري من الترفيع والإكرام له، إلى أقصى غاية وأن يحمل على الجراية في جميع أملاكه بالكور المذكورة، حاضرتها وباديتها، الموروثة منها، والمكتسبة، القديمة الاكتساب والحديثة، وما ابتاع منها من العالي رحمة الله وغيره، لا يلزمها وظيفٌ بوجه، ولا يكلف منها كلفة، على كل حال، وأن يجري في قرابته، وخوله وحاشيته وعامري ضيعه، على المحافظة والبر والحرية. وأقسم على ذلك كله بلكين بن باديس بالله العظيم، والقرآن الحكيم، وأشهد الله على نفسه وعلى التزامه له، وكفى بالله شهيداً. وكتب بخط يده مستهل شهر رمضان العظيم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، والله المستعان. ولا شك أن هذا المقدار يدل على نبل، ويعرف عن كفاية.

سبب وفاته: قال صاحب البيان المغرب وغيره: وأمضى باديس كاتب أبيه ووزيره إسماعيل ابن نغرالة اليهودي على وزارته وكتابته وسائر أعماله، ورفعه فوق كل منزلة، وكان لولده بلكين، خاصة من المسلمين يخدمونه، وكان مبغضاً في اليهودي، فبلغه أنه تكلم في ذلك لأبيه، فبلغ منه كل مبلغ، فدبر الحيلة، فذكروا أنه دخل عليه يوماً فقبل الأرض بين يديه، فقال له الغلام: ولم ذلك، فقال: يرغب العبد أن تدخل داره مع من أحببت من عبيدك ورجالك،

فدخل إليه بعد ذلك، فقدم له ولرجاله طعاماً وشراباً، ثم جعل السم في الكأس لابن باديس، فرام القيء فلم يقدر عليه، فحمل إلى قصره وقضى نحبه في يومه، وبلغ الخبر إلى أبيه ولم يعلم السبب، فقرر اليهودي عنده أن أصحابه وبعض جواريه سموه. فقتل باديس جواري ولده، ومن فتيانه وبني عمه جماعة كبيرة، وخافه سائرهم ففروا عنه.
وكانت وفاته سنة ست وخمسين وأربعمائة. وبعده قتل اليهودي في سنة تسع وخمسين.
باديس بن حبوس

بن ماكسن بن زيري

ابن مناد الصنهاجي كنيته أبو مناد ولقبه الحاجب المظفر بالله، الناصر لدين الله.
أوليته

قد تقدم الإلماع بذلك عند ذكر ابنه بلكين
حاله

كان رئيساً يسساً، طاغيةً، جباراً، شجاعاً، داهية، حازماً، جلداً، شديد الأمر، سديد الرأي، بعيد الهمة، مأثور الإقدام، شره السيف، واري زناد الشر، جماعة للمال، ضخمت به الدولة، ونبهت الألقاب، وأمنت لحمايته الرعايا، وطم تحت جناح سيفه العمران، واتسع بطاعته المرهبة الجوانب ببأسه النظر، وانفسخ الملك، وكان ميمون الطائر، مطعم الظفر، مصنوعاً له في الأعداء، يقنع أقتاله بسلمه، ولا يطمع أعداؤه في حربه. قال ابن عساكر: يكنى أبا مسعود، وكان من أهل الحزم وحماية الجانب، وكان يخطب ويدعو للعلويين بمالقة، فلما توفي إدريس بن يحيى العالي، ملك مالقة سنة ثمان وأربعين وأربعمائة.
وقال الفتح في قلائده: كان باديس بن حبوس بغرناطة عاثياً في فريقه، عادلاً عن سنن العدل وطريقه، يجتريء على الله غير مراقب، ويسري إلى ما شاء غير ملتفت للعواقب، قد حجب سنانه لسانه، وسبقت إساءته إحسانه، ناهيك من رجل لم يبت من ذنب على ندم، ولم يشرب الماء إلا من قليب دم، أحزم من كاد ومكر، وأجرم من راح وابتكر، وما زال متقداً في مناحيه، متفقداً لنواحيه، لا يرام بريث ولاعجل، ولا يبيت له جار إلا على وجل.
أخباره في وقائعه
ينظر إيقاعه بزهير العامري ومن معه في اسم زهير، فقد ثبت منه هنالك نبذة، وإيقاعه بجيش ابن عباد بمالقة عندما طرق مالقة وتملكها، واستصرخ من استمسك بقصبتها من أساودها، وغير ذلك مما هو معلوم، وشهرته مغنية عن الإطالة.
ومن أخباره في الجبرية والقسوة، قال ابن حيان: عندما استوعب الفتكة بأبي نصر بن أبي نور اليفرني أمير رندة المنتزي بها وقتله، ورجوعها إلى ابن عباد، حكي أبو بكر الوسنشاني الفقيه عن ثقة عنده من أصادقة التجار، أنه حضر مدينة غرناطة، حضرة باديس بن حبوس الجبار، أيام حدث علي أبي نصر صاحب تاكرنا ما حدث، وأن أميرها باديس قام للحادثة، وقعد، وهاج من داء عصبيته ما قد سكن، وشق أثوابه، وأعلن أعواله، وهجر شرابه الذي لا صبر له عنه، وجفا ملاذه، وأوهمته نفسه الخبيثة تمالؤ رعيته من أهل الأندلس، على الذي دهي أبا نصر، فسولت له نفسه حمل السيف على أهل حضرته جميعاً، مستحضراً لهم، وكيماً ينبرهم، ويخلص برابرته وعبيده فيريح نفسه، ودبر أن يأتي ذلك إليهم عند اجتماعهم بمسجدهم الجامع الأقرب أيام الجمعة، من قوة همومه، وشاور وزيره

اليهودي يوسف بن إسماعيل، مدبر دولته الذي لا يقطع أمراً دونه، مستخلياً مستكتماً بسره، مصمماً في عزمه، إن هو لم يوافقه عليه، فنهاه عن ذلك وخطأ رأيه فيها، وسأله الأناة ومحض الروية، وقال له هبك وصلت إلى إرادتك ممن بحضرتك، على ما في استباحتهم من الخطر، فأني تقدر على الإحاطة بجميعهم من أهل حضرتك، وبسائط أعمالك؟ أتراهم يطمئنون إلى الذهول عن مصائبهم، والاستقرار في موضعهم؟ ما أراهم إلا سيوفاً ينتظمون عليك في جموعٍ، يغرقونك في لججها أنت وجندك، فرد نصيحته، وأخذ الكتمان عليه، وتقدم إلى عارضه باعتراض الجند في السلاح، والتعبية لركوبه يوم الفتكة، يوم تلك الجمعة، فارتج البلد. وذكر أن اليهودي دس نسواناً إلى معارف لهن من زعماء المسلمين بغرناطة، ينهاهم عن حضور المسجد يومهم، ويأمرهم بإخفاء أنفسهم، وفشا الخبر فتخلف الناس عن شهود الجمعة، ولم يأته إلا نفر من عامتهم، اقتدوا بمن أتاه من مشيخة البربر وأغفال القادمين، وجاء إلى باديس الخبر، والجيش في السلاح حوالي قصره، فساءه وفت في عضده، ولم يشك في فشو سره، وأحضر وزيره وقلده البوح بسره فأنكر ما قرفه به، وقال ومن أين ينكر على الناس الحذر، وأنت قد استركبت جندك وجميع جيشك في التعبية، لا لسفرٍ ذكرته، ولا لعدو وثب إليك، فمن هناك حدس القوم على أنك تريدهم، وقد أجمل الله لك الصنع في نفارهم، وقادك إصارهم، فأعد نظرك يا سيدي، فسوف تحمد عاقبة رأيي وغبطة نصحي. فنصح وزيره شيخٌ من موالي صنهاجته، فانعطف لذلك بعد لأي، وشرح الله صدره. ويجري التعريف بشيء من أمور وزيره.

قال ابن عذاري المراكشي في كتابه المسمى بالبيان المغرب: أمضى باديس كاتب أبيه ووزيره ابن نغرالة اليهودي، وعمالاً متصرفين من أهل ملته، فاكتسبوا الجاه في أيامه واستطالوا على المسلمين. قال ابن حيان، وكان هذا اللعين في ذاته، على ما زوى الله عنه من هدايته، من أكمل الرجال علماً وحلماً وفهماً، وذكاء، ودماثة، وركانة، ودهاء، ومكراً، وملكا لنفسه، وبسطاً من خلقه، ومعرفةً بزمانه، ومداراة لعدوه، واستسلالاً لحقودهم بحلمه، ناهيك من رجل كتب بالقلمين، واعتنى بالعلمين، وشغف باللسان العربي، ونظر فيه، وقرأ كتبه، وطالع أصوله، فانطلقت يده ولسانه، وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربي، فيما احتاج إليه من فصول التحميد لله تعالى، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم، والتزكية لدين الإسلام، وذكر فضائله، ما يريده، ولا يقصرفيما ينشئه عن أوسط كتاب الإسلام، فجمع لذلك، السجيج في علوم الأوائل الرياضية وتقدم منتحليها بالتدقيق للمعرفة النجومية، ويشارك في الهندسة والمنطق، ويفوق في الجدل كل مستول منه على غاية، قليل الكلام مع ذكائه، ماقتاً للسباب، دائم التفكر، جماعةٌ للكتب. هلك في العشر الثاني لمحرم سنة تسع وخمسين وأربعمائة، فجلل اليهود نعشه، ونكسوا لها أعناقهم خاضعين، وتعاقدوه جازعين، وبكوه معلنين، وكان قد حمل ولده يوسف المكنى بأبي حسين على مطالعة الكتب، وجمع إليه المعلمين والأدباء من كل ناحية، يعلمونه ويدارسونه، وأعلقه بصناعة الكتابة، ورشحه لأول حركته، لكتابة ابن مخدومه بلكين برتبة المترشح لمكانه، تمهيداً لقواعد خدمته، فلما هلك إسماعيل في هذا الوقت، أدناه باديس إليه، وأظهر الاغتباط به، والاستعاضة بخدمته عن أبيه.

مقتل اليهودي يوسف بن إسماعيل

ابن نغرالة الإسرائيلي قال صاحب البيان، وترك ابناً له يسمى يوسف لم يعرف ذل الذمة، ولا قذر اليهودية. وكان جميل الوجه، حاد الذهن، فأخذ في الاجتهاد في الأحوال، وجمع المال، واستخراج الأموال، واستعمال اليهود على الأعمال، فزادت منزلته عند أميره، وكانت له عليه عيون في قصره من نساءٍ وفتيانٍ، يشملهم بالإحسان، فلا يكاد

باديس يتنفس، إلا وهو يعلم ذلك. ووقع ما تقدم ذكره، في ذكر بلكين من اهامه بسمه، وتوليه التهمة به عند أبيه، للكثير من جواريه وخدامه، وفتك هذا بقريب له، تلو له في الخدمة والوجاهة، يدعى بالقائد، شعر منه بمزاحمته إياه فتكة شهيرة، واستهدف للناس فشغلت به ألسنتهم، وملئت غيظاً عليه صدورهم، وذاعت قصيدة الزاهد أبي إسحاق الإلبيري، في الإغراء بهم، واتفق أن أغارت على غرناطة بعوثٌ صمادحية تقول إنما باستدعائه، ليصير الأمر الصنهاجي إلى مجهزها الأمير بمدينة ألمرية. وباديس في هذه الحال منغمسٌ في بطالته، عاكفٌ على شرابه. ونمى هذا الأمر إلى رهطه من صنهاجة، فراحوا إلى دار اليهودي مع العامة، فدخلوا عليه، فاختفى، زعموا في بيت فحم، وسود وجهه، يروم التنكير فقتلوه لما عرفوه، وصلبوه على باب مدينة غرناطة، وقتل من اليهود في يومه، مقتلةٌ عظيمة، ونهبت دورهم، وذلك سنة تسع وخمسين وأربعمائة. وقبره اليوم وقبر أبيه يعرف أصلاً من اليهود ينقلونه بتواترٍ عندهم، أمام باب إلبيرة، على غلوة، يعترض الطريق، على لحده حجارة كدان جافية الجرم، ومكانه من الترفه والترف والظرف والأدب معروفٌ، وإنما أتينا ببعض أخباره لكونه ممن لا يمنع ذكره في أعلام الأدباء والأفراد إلا نحلته.

مكان باديس من الذكاء وتولعه بالقضايا الآتية: قال ابن الصيرفي حدثني أبو الفضل جعفر الفتى، وكان له صدقٌ. وفي نفسه عزة وشهامة وكرم، وأثنى عليه،وعرف به، حسبما يأتي في اسم جعفر المذكور. قال، خاض باديس مع أصحابه في المجلس العلي، من دار الشارب بقصره، واصطفت الصقاليب والعبيد بالبرطل المتصل به لتخدم إرادته، فورد عليه نبأ قام لتعرفه عن مجلسه، ثم عاد إلى موضعه وقد تجهم وجهه، وخبثت نفسه، فحذر ندماؤه على أنفسهم، وتخيلوا وقوع الشر بهم، ثم قال أعلمتم ما حدث، قالوا لا والله يطلع على خير، قال: دخل المرابط الدمنة، فسرى عن القوم، وانطلقت ألسنتهم بالدعاء بنصره، وفسحة عمره، ودوام دولته، ثم وجموا لوجومه، فلما رأى تكدر صفوهم، قال أقبلوا على شأنكم، ما نحن وذاك، اليوم خمر وغداً أمر، بيننا وبينه أمداد الفجو، والنشور الجبال وأمواج البحار، ولكن لا بد له أن يتملك بلدي، ويقعد منه مقعدي، وهذا أمر لا يلحقه أحد منا، وإنما يشقى أحفادنا، قال جعفر، فلما دخل الأمير القصر، عند خلعه حفيد باديس برحبة مؤمل، طاف بكل ركن ومكان منه، وأنا في جملته حتى انتهى إلى ذلك المجلس، فبسط له ما قعد عليه فتذكرت قول باديس، وتعجبت منه تعجباً ظهر علي، فالتفت إلى أمير المسلمين منكراً، وسألني ما بي، فأخبرته وصدقته، وقصصت عليه قول باديسن فعجب، وقام إلى المسجد بمن معه، فصلى فيه ركعات، وأقبل يترحم على قبره.

وفاته: قال أبو القاسم بن خلف: توفي باديس ليلة الأحد الموفى عشرين من شوال سنة خمسة وستين وأربعمائة، ودفن بمسجد القصر. قلت، وقد ذهب أثر المسجد، وبقي القبر يحف به حلقٌ له باب، كل ذلك على سبيل من الخمول، وجدث القبر رخام، إلى جانب قبر الأمير المجاهد أبي زكريا يحيى بن غانية المدفون في دولة الموحدين به.

وقد أدال اعتقاد الخليفة في باديس بعد وفاته، قدم العهد بتعرف أخبار جبروته وعتوه على الله سبحانه، لما جبلهم عليه من الانقياد للأوهام والانصياع للأضاليل، فعلى حفرته اليوم من الازدحام بطلاب الحوائج والمستشفين من الأسقام، حتى أولى الدواب الوجيعة، ما ليس على قبر معروف الكرخي، وأبي يزيد البسطامي.

ومن أغرب ما وقفت عليه رقعة رفعها إلى السلطان على يدي، وجل من أهل الخبر مكتب يوم في مسجد القصبة القدمى من دار باديس، يعرف بابن باق، وهو يتوسل إلى السلطان ويسأل منه الإذن في دفنه مجاوراً لقبره. وعفو الله أوسع من أن يضيق على مثله، ممن أسرف على نفسه، وضيع حق ربه. ودايره اليوم طلول قد تغيرت أشكالها وقسم التملك جناتها، ومع ذلك فمعاهدها إليه منسوبةٌ، وأخباره متداولة.

وقد ألمعت في بعض مشاهده بقولي من قصيدة، غريبة الأغراض، تشتمل على فنون أثبتها إحماضاً وفكاهة، لمن يطالع هذا الكتاب، وإن لم يكن جلبها ضرورياً فيه فمنها:

عسى خطرة بالركب يا حادي العيس ... على الهضبة الشماء من قصر باديس

بكرون بن أبي بكر

بن الأشقر الحضرمي

يكنى أبا يحيى

حاله

كان من ذوي الأصالة ومشايخ الجند، فارساً نجداً حازماً سديد الرأي، مسموع القول، شديد العضلة أيداً، فحلاً وسيماً، قائداً عند الجند الأندلسي، في أيام السلطان ثاني ملوك بني نصر، من أحفل ما كان الأمر، يجر وراءه دنيا عريضة، وجبى الجيش على عهده مغانم كثيرة.

قال شيخنا ابن شبرين في تذكرة ألفيتها بخطه، كان له في الخدمة مكانٌ كبير، وجاهٌ عريض، ثم صرفه الأمر عن رسمه، وأنزله الدهر عن حكمه، تغمدنا الله وإياه برحمته.

وفاته: في عام أربعة عشر وسبعمائة، ودفن بمقبرة قومه بباب إلبيرة.

بدر مولى عبد الرحمن بن معاوية الداخل

يكنى أبا النصر، رومي الأصل

حاله

كان شجاعاً داهية، حازماً فاضلاً، مصمماً تقياً، علماً من أعلام الوفاء. لازم مولاه في أعقاب النكبة، وصحبه إلى المغرب الأقصى، مختصاً به ذابا عنه، مشتملا عليه، وخطب له الأمر بالأندلس، فتم له بما هو مذكور.

قال أبومروان في المقتبس، إن عبد الرحمن لما شرده الخوف إلى قاصية المغرب، وتنقل بين قبائل البربر، ودنا من ساحل الأندلس وكان بها همه يستخبر من قرب، فعرف أن بلادها مفترقةٌ بفرقتي المضرية واليمانية، فزاد ذلك في أطماعه، فأدخل إليهم بدراً مولاه يحسس عن خبرهم، فأتى القوم وبلى ما عندهم، فداخل اليمانيين منهم، وقد عصفت ريح المضريين بظهور بني العباس بالمشرق، فقال لهم ما رأيكم في رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم، فيقيم أودكم ويدرككم آمالكم. فقالوا: ومن لنا به في هذه الديار، فقال بدرٌ: ما أدناه منكم، وأنا الكفيل لكم به، هذا فلان بمكان كذا وكذا يقدمن نفسه فقالوا: فجيء به أهلا إنا سراعٌ إلى طاعته، وأرسلوا بدراً بكتبهم يستدعونه، فدخل إليه بأيمن طائر، واستجمع إليه خلق كثير من أنصاره قاتل بهم يوسف الفهري، فقهره لأول وقائعه، وأخذ الأندلس منه وأورثها عقبه.

محنته

قال الراوي: وكان من أكبر من أمضى عليه عبد الرحمن بن معاوية حكم سياسته وقومه معدلته، مولاه بدر المعتق منه بكل ذمة محفوظة، الخائض معه لكل غمرة مرهوبة، وكل ذلك لم يغن عنه نقيراً لما أسلف في إدلاله عليه، وكثر من الانبساط لحرمته فجمح مركب تحامله حتى أورده ألماً يضيق الصدر عنه، وآسف أميره ومولاه، حتى كبح عنانه عن نفسه بعد ذلك كبحة أقعى بها أو شارف حمامه، لولا أن أبقى الأمير على نفسه التي لم يزل مسرفاً عليها. قال:

فانتهى في عقابه لما سخط عليه أن سلب نعمته، وانتزع دوره وأملاكه وأغرمه على ذلك كله أربعين ألفاً من صامته، ونفاه إلى الثغر، فأقصاه عن قربه، ولم يقله العثرة إلى أن هلك، فرفع طمع الهوادة عن جميع ثقله وخدمته، وصير خبره مثلا في الناس بعده.

تاشفين بن علي

بن يوسف أمير المسلمين

بعد أبيه بالعدوة، صالي حروب الموحدين

أوليته

فيما يختص به التعريف بأولية قومه، ينظر في اسم أبيه وجده إن شاء الله. قال ابن الوراق في كتاب المقياس وغيره: وفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، ولي الأمير علي بن يوسف أمير لمتونة، الشهير بالمرابط ولده الأمير المسمى بسير عهده من بعده، وجعل له الأمر في بقية حياته، ورأى أن يولي ابنه تاشفين الأندلس، فولاه مدينة غرناطة، وألمرية ثم قرطبة مضافة إلى ما بيده، قلت، وفي قولهم رأى أن يولي الأندلس فولاه مدينة غرناطة، شاهد كبير على ما وصفناه من شرف هذه المدينة، فنظر في مصالحها، وظهر له بركة في النصر على العدو، وخدمه الجد الذي أسلمه، وتبرأ منه في حروبه مع الموحدين حسبما يتقرر في موضعه، فكانت له على النصارى وقائع عظيمة بعد لها الصيت، وشاع الذكر حسبما يأتي في موضعه. قال، فكبر ذلك على أخيه سيرولي عهد أبيه، وفاوض أباه في ذلك وقال له: إن الأمر الذي أهلتني إليه لا يحسن لي مع تاشفين، فإنه قد حمل الذكر والثناء دوني، وغطى على اسمي، وأمال إليه جميع أهل المملكة، فليس لي معه اسمٌ ولا ذكرٌ. فأرضاه بأن عزله عن الأندلس وأمره بالوصول إلى حضرته، فرحل عن الأندلس في أواسط سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ووصل مراكش، وصار من جملة من يتصرف بأمر أخيه سير ويقف ببابه كأحد حجابه، فقضى الله وفاة الأمير سير على الصورة القبيحة حسبما يذكر في اسمه، وثكله أبوه واشتد جزعه عليه، وكان عظيم الإيثار والإرضاء لأمه قمر، وهي التي تسببت في عزل تاشفين وإخماله نظراً إلى ابنها، فقطع المقدار بها عن أملها بهلاكه.

ولما توفي الأمير سير، أشارت الأم المذكورة على أبيه بتقديم ولده إسحاق، وكان رؤوماً لها قد تولت تربيته عند هلاك أمه وتبنته، فقال لها، وهو صغير السن لم يبلغ الحلم، ولكن حتى أجمع الناس في المسجد خاصة وعامة، وأخبرهم فإن صرفوا الخيار إلى فعلت ما أشرت به، فجمع الناس وعرض عليهم الأمر، فقالوا كلهم في صوت واحد: تاشفين، فلم توسعه السياسة مخالفتهم، فعقد له الولاية بعده ونقش اسمه في الدنانير والدراهم مع اسمه، وقلده النظر في الأمور السلطانية، فاستقر بذلك. وكتب إلى العدوة والأندلس وبلاد المغرب ببيعته، فوصلت البيعات من كل جهة. ثم رمى به جيوش الموحدين الخارجين عليه، فنبا جده ومرضت أيامه، وكان الأمر عليه لا له بخلاف ما صنع الله له بالأندلس.

قال أبو مروان الوراق: وكان أمير المسلمين، علي بن يوسف بن تاشفين قد أمل في ابنه تاشفين ما لم تكن الأقدار تساعده به، فتشاءم به وعزم على خلعه وصرف عهده، إلى إسحاق ولده الأصغر، ووجه إلى عامله على إشبيلية أغمار، أن يصل إليه ليجعله شيخ ابنه، إلى أن وافاه خبرٌ أمضه وأقلقه ولم يمهله، فأزعج تاشفين إلى عدوه على غير أهبة بتفويضه إياه، وصرف المدد في إثره، وتوفي لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين لفعله ذلك.

ملكه ووصف حاله: فأفضى إليه ملك أبيه، بتفويضه إياه في حياته،لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وكان بطلاً شجاعاً حسن الركبة والهيئة. سالكاً ناموس الشريعة، مائلاً إلى طريقة المستقيمين، وكتب المريدين، قبل إنه لم يشرب قط مسكراً ولا استمع إلى قينة، ولا اشتغل بلذة مما يلهو به الملوك.

الثناء عليه: قال ابن الصيرفي: وكان بطلاً شجاعاً، أحبه الناس، خواصهم وعوامهم، وحسنت سياسته فيهم، وسد الثغور، وأذكى على العدو العيون، وآثر الجند، ولم يكن منه إلا الجد، ولم تنل عنده الحظوة إلا بالعناء والنجدة. وبذلك حمل على الخيل، وقلد الأسلحة، وأوسع الأرزاق، واستكثر من الرماة، وأركبهم، وأقام همتهم للاعتناء بالثغور ومباشرة الحرب، ففتح الحصون وهزم الجيوش وهابه العدو، ولم ينهض إلا ظاهراً ولا صدر إلا ظافراً، وملك الملك ومهد بالحزم وتملك نفوس الرعية بالعدل. وقلوب الجند بالنصفة. ثم قال: ولولا الاختصار الذي اشترطناه لأوردنا من سنى خلاله ما يضيق عنه الرحب، ولا يسعه الكتب.

دينه: قال المؤرخ، عكف على زيارة قبر أبي وهب الزاهد بقرطبة، وصاحب أهل الإرادة، وكان وطيء الأكناف، سهل الحجاب. يجالس الأعيان ويذاكرهم، قال ابن الصيرفي، ولما قدم غرناطة أقبل على صيام النهار، وقيام الليل، وتلاوة القرآن، وإخفاء الصدقة، وإنشاء العدل، وإيثار الحق.

دعابته

قالوا مر يوماً بمرج القرون، من أحواز قلعة يحصب فقال لزمال من عبيده كان يمازحه هذا مرجك، فقال الزمال ما هو إلا مرجك ومرج أبيك، وأما أنا فمن أنا؟ فضحك وأعرض عنه.

دخوله غرناطة: قالوا: وفي عام ثلاثة وعشرين وخمسمائة، ولي الأمير أبو محمد تاشفين بن أمير المسلمين علي بن امير المسلمين يوسف، ووافاها في السابع عشر لذي حجة، فقوي الحصون وسد الثغور وأذكى العيون، وعمد إلى رحبة القصر، فأقام بها السقائف والبيوت، واتخذها لخزن السلاح ومقاعد الرجال، وضرب السهام، وأنشأ السقي، وعمل التراس، ونسج الدروع، وصقل البيضات والسيوف، وارتبط الخيل، وأقام المساجد في الثغور، وبنى لنفسه مسجداً بالقصر، وواصل الجلوس للنظر في الظلامات، وقراءة الرقاع، ورد الجواب، وكتب التوقيعات، وأكرم الفقهاء والطلبة، وكان له يوم في كل جمعة، يتفرغ فيه للمناظرة.

وزراؤه: قال أبو بكر، وقرن الله به ممن ورد معه، الزبير بن عمر اللمتوني، ندرة الزمان كرماً وبسالة، وحزماً وأصالة. فكان كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من ولي شيئاً من أمور المسلمين فأراد الله به خيراً، جعل الله له بطانة خيرٍ، وجعل له وزيراً صالحاً، إن نسي شيئاً ذكره، وإن ذكره أعانه " .

عماله

الوزير أبو محمد الحسين بن زيد بن أيوب بن حامد بن منحل بن يزيد

كتابه

الرئيس العالم أبو عبد الله بن أبي الخصال، والكاتب المؤرخ أبو بكر الصيرفي وغيرهم.

من أخبار جهاده

خرج الأمير تاشفين في رمضان عام أربعة وعشرين وخمسمائة بجيش غرناطة ومطوعتها، واتصل به جيش قرطبة إلى حصن السكة من عمل طليطلة، وقد اتخذه العدو ركاباً لإضراره بالمسلمين، وسحنه وجم به شوكة حادة بقومس مشهور، فأحدق به، ونشر الحرب عليه، فافتتحه عنوة وقتل من كان به، وأحيا قائده فرند ومن معه من الفرسان،

وصدر إلى غرناطة، فبرز له الناس بروزاً لم يعهد مثله. وفي شهر صفر من عام خمسة وعشرين أوقع بالعدو المضيق على أوليته. وفي ربيع الأول من عام ستة وعشرين، تعرف خروج عدو طليطلة إلى قرطبة، فبادر الأمير تاشفين إلى قرطبة، ثم نهد إلى العدو في خف، وترك السيقة والثقل بأرجونة. وقد اكتسح العدو بشنت إشطيبن والوادي الأحمر. وأسرى الليل، وواصل الركض، وتلاحق بالعدو بقرية براشة. فتراءى الجمعان صبحاً، وافتضح الجيش، ونشرت الرماح والرايات، وهدرت الطبول، وضاقت المسافة، وانتبذ العدو عن الغنيمة، والتف الجمع، فتقصرت الرماح، ووقعت المسابقة، ودارت الحرب على العدو، وأخذ السيف مأخذه، فأتى القتل على آخرهم، وصدر إلى غرناطة ظافراً. وفي آخر هذا العام خرج العدو للنمط وقد احتفل في جيشه إلى بلاد الإسلام، فصبح إشبيلية يوم النصف من رجب، وبرز إليه الأمير أبو حفص عمر بن علي بن الحاج، فكانت به الدبرة في نفر من المسلمين استشهد جميعهم، ونزل العدو على فرسخين من المدينة فجللها نهباً وغارةً، فقتل عظيماً، وسبى عظيما، وبلغ الخبر الأمير تاشفين، فطوى المراحل، ودخل إشبيلية، وقد أسرها،واستؤصلت باديتها، وكثر بها التأديب والتنكيل فأخذ أعقاب العدو، وقد قصد ناحية بطليوس وباجة ويابرة في ألف عديدة من أنجاد الرجال، ومشهور الأبطال، فراش جولاً عهداً بالروع، فظفر بما لا يحصيه أحد، ولا يقع عليه عدد، وانثنى على رسل انتقل السيقة، وثقته ببعد الصارخ، وتجشمت بالأمير تاشفين الأدلاء كل ذروة وتنية، وأفضى به الإعداد إلى فلاة بقرب الزلاقة، وهو المهيع الذي يضطر العدو إليه، ولم يكن إلا كلا ولا، حتى أقبلت الطلائع منذرةً بإقبال العدو، والغنيمة في يده قد ملأت الأرض، فلما تراءى الجمعان، واضطربت المحلات، ورتبت المراكب، فأخذت مصافها، ولزمت الرجال مراكبها، فكان القلب مع الأمير ووجوه المرابطين وأصحاب الطاعات، وعليه البنود الباسقات، مكتبة بالآيات، وفي المجتبين كبار الدولة من أبطال الأندلس، عليهم حمر الرايات بالصور الهائلة، وفي الجناحين أهل الثغر والأوشاب من أهل الجلادة، عليهم الرايات المرقعات، بالعذبات المجزعات. وفي المقدمة مشاهير زناتة ولفيف الحشم بالرايات المصبغات المنبقات. والتقى الجمعان، ونزل الصبر، وحميت النفوس، واشتد الضرب والضراب وكثرت الحملات، فهزم الله الكافرين، وأعطوا رقابهم مدبرين، فوقع القتل، واستلحم العدو السيف، واستأصله الهلاك والأسار، وكان فتحاً جليلا لا كفاء له، وصدر الأمير تاشفين ظافراً إلى بلده في جمادى من هذا العام. ولو ذهبنا لاستقصاء حركات الأمير تاشفين وظهوره لاستدعى ذلك طولا كثيراً.

بعض ما مدح به: فمن ذلك:

أما وبيض الهند عنك خصوم ... فالروم تبذل ما ظباك تروم

تمضي سيوفك في العدا ويردها ... عن نفسه حيث الكلام وخيم

وهذه القصائد قد اشتملت على أغراضها الحماسية. والملك سوقٌ يجلب إليها ما ينفق عندها.

وفاته

قد تقدم انصرافه عن الأندلس سنة إحدى وثلاثين وخمسماية، وقيل سنة اثنين، واستقراره بمراكش مرؤوساً لأخيه سير، إلى أن أفضى إليه الأمر بعد أبيه قال، واستقبل تاشفين مدافعة جيش أمير الموحدين، أبي محمد عبد المؤمن بن علي خليفة مهديهم، ومقاومة أمر قضى الله ظهوره، والدفاع عن ملك بلغ مداه، وتمت أيامه. كتب الله عليه، فالتأث سعده، وفل جده، ولم تقم له قائمةٌ إلى أن هزم، وتبدد عسكره، ولجأ إلى وهران، فأحاط به الجيش، وأخذ الحصار، قالوا فكان من تدبيره أن يلحق ببعض السواحل، وقد تقدم به وصول ابن ميمون قائد أسطوله، ليرفعه إلى الأندلس، فخرج ليلا في نفر من خاصته فرقهم الليل، وأضلهم الروع، وبددتهم الأوعار، فمنهم من قتل، ومنهم من

لحق بالقطائع البحرية، وتردى بتاشفين فرسه من بعض الحافات، ووجد ميتاً في الغد، وذلك ليلة سبع وعشرين لرمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وصلبه الموحدون، واستولوا على الأمر من بعده، والبقاء لله تعالى.
ثابت بن محمد الجرجاني

ثم الإستراباذي

يكنى أبا الفتوح
حاله
قال ابن بسام، كان الغالب على أدواته علم اللسان، وحفظ الغريب، والشعر الجاهلي والإسلامي، إلى المشاركة في أنواع التعاليم، والتصرف في حمل السلاح، والحذق بأنواع الجندية، والنفاذ في أنواع الفروسية، فكان الكامل في خلال جمة. قال أبومروان: ولم يدخل الأندلس أكمل من أبي الفتوح في علمه وأدبه قال ابن زيدون لقيشة بغرناطة، فأخذت عنه أخبار المشارقة، وحكايات كثيرة، وكان غزير الأدب، قوي الحفظ في اللغة، نازعاً إلى علم الأوائل من المنطق والنجوم والحكمة، له بذلك قوة ظاهرة.
طروؤه على الأندلس
قال صاحب الذخيرة، طرأ على الحاجب منذ صدر الفتنة للذائع من كرمه فأكرمه ورفع شأنه، وأصحبه ابنه، المرشح لمكانه، فلم يزل له بهما المكان المكين، إلى أن تغير عليه يحيى لتغير الزمان، وتقلب الليالي والأيام بالإنسان، ولحق بغرناطة بعسكر البرابرة، فحلت به من أميرهم باديس الفاقرة.
من روي عنه: قال أبوالوليد، قرأت عليه بالحضرة، الحماسة في اختيار أشعار العرب، يحملها عن أحمد بن عبد السلام بن الحسين البصري، ولقيه ببغداد سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة، عن أبي رياش أحمد بن أبي هشام بن شبل العبسي بالبصرة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، وله في الفضائل أخبار كثيرة.
محنته ووفاته
لحقه عند باديس مع عمه يدير بن حباسه تهمةٌ في التدبير عليه، والتسور على سلطانه، دعتهما إلى الفرار عن غرناطة، واللحاق بإشبيلية، قال أبو يحيى الوراق، واشتد شوق أبي الفتوح إلى أهله عند هربه مع يدير إلى إشبيلية لما بلغه أن باديس قبض على زوجته وبنيه وحبسهم بالمنكب عند العبد قداح صاحب عذابه، وكان لها من نفسه موقعٌ عظيمٌ، وكانت أندلسية جميلة جداً لها طفلان ذكرٌ وأنثى، لم يطق عنهما صبراً وعمل على الرجوع إلى باديس طمعاً في أن يصفح عنه، كما عمل مع عمه أبي ريش، فاستأمن إلى باديس يوم نزوله على باب إستجه إثر انهزام عسكر ابن عباد، وفارق صاحبه يدير، ورمي هو بنفسه إلى باديس من غير توثق بأمان أو مراسلة، فلما أدخل عليه وسلم، قال له ابتدي، بأي وجهٍ جئتني يا نمام ما أجرأك على خلقك، وأشد اغترارك بسحرك، فرقت بين بني ماكسن، ثم جئت تخدعني كأنك لم تصنع شيئاً، فلاطفه، وقال اتق الله يا سيدي، وارع ذمامي، وارحم غربتي وسوء مقامي، ولا تلزمني ذنب ابن عمك، فما لي سبب فيه، وما حملني على الفرار معه إلا الخوف على نفسي لسابق خلطته، ولقد لفظتني البلاد إليك مقراً بما لم أجنه رغبة في صفحك، فافعل أفعال الملوك الذين يجلون عن الحقد على مثلي من الصعاليك، قال بل أفعل ما تستحقه إن شاء الله، أن تنطلق إلى غرناطة، فدم على حالك، والق أهلك إلى أن أقبل، فأصلح من شأنك. فاطمأن إلى قوله، وخرج إلى غرناطة وقد وكل به فارسان، وقد كتب إلى قداح بحبسه، فلما شارف إلى غرناطة قبض عليه، وحلق رأسه، وأركب على بعير، وجعل خلفه أسود فظٌ ضخم يوالي صفعه، فأدخل

البلد مشهراً، ثم أودع حبساً ضيقاً، ومعه رجل من أصحاب يدير أسر في الوقعة من صنهاجة، فأقاما في الحبس معاً إلى أن قفل باديس.

مقتله

قال أبو مروان في الكتاب المسمى بالمتين، واستراح باديس أياماً في غرناطة يهيم بذكر الجرجاني، ويعض أنامله، فيعارضه فيه أخوه بلكين، ويكذب الظنون وسعى في تخليصه، فارتبك باديس في أمره أياماً، ثم غافض أخاه بلكين فقتله وقتاً أمن فيه أمر معارضته، لاشتغاله بشرابٍ وآلة، وكانت من عادته، فأحضر باديس الجرجاني إلى مجلسه، وأقبل يشتمه ويسبه ويكته، ويطلق الشماتة ويقول، لم تغن عنك نجومك يا كذاب، ألم يعد أميرك الجاهل، يعين يدير، أنه سوف يظفر بي ويملك بلدي ثلاثين سنة، لم لم تدقق النظر لنفسك وتحذر ورطتك، قد أباح الله لي دمك. فأيقن أبو الفتوح بالموت، وأطرق ينظر إلى الأرض، لا يكلمه ولا ينظر إليه، فزاد ذلك في غيظ باديس، فوثب من مجلسه والسيف في يده، فخبط به الجرجاني حتى جد له وأمر بحز رأسة، قال، وقدم الصنهاجي الذي كان محبوساً معه إلى السيف، فاشتد جزعه، وجعل يعتذر من خطيئته، ويلح في ضراعته، فقال له باديس أما تستحي يا ابن الفاعلة، يصبر المعلم الضعيف القلب على الموت مثل هذا الصبر، ويملك نفسه عن كلامه لي واستعطافي، وأنت تجزع مثل هذا الجزع، وطال ما أعددت نفسك في أشداء الرجال، لا أقال الله مقيلك، فضرب عنقه، وانقضى المجلس. ومن تمام الحكاية مما جلبه ابن حيان. قال، وكلم الصنهاجيون باديس في جثة صنهاجهم المقتول مع أبي الفتوح، فأمرني بإسلامها إليهم، فخرجوا بها من فورهم إلى المقبرة على نعش، فأصابوا قبرا قد احتفر لميت من أهل البلد، فصبوا صاحبهم الصنهاجي فيهن ووراوه من غير غسل ولا كفن ولا صلاة، فعجب الناس من تسحيهم في الاغتصاب حتى الموتى في قبورهم.

مولده

سنة خمسين وثلاثمائة.

وفاته

كما ذكر ليلة السبت لاثنتين بقيتا من محرم سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، قال برهون من خدام باديس: أمرني بمواراة أبي الفتوح إلى جانب قبر أحمد بن عباس وزير زهير العامري، فقبراهما في تلك البقعة، متجاوران، وقال اجعل قبر عدو إلى جانب عدو إلى يوم القصاص، فيا لهما قبران أجما أدبا لا كفاء له، والبقاء لله سبحانه.

جعفر بن أحمد بن علي الخزاعي

من أهل غرناطة، ويعسوب الثاغية والراغية من أهل ربض البيازين يكنى أبا أحمد الشهير ذكره بشرق الأندلس، المعروف بكرامة الناس، المقصود الحفرة، المحترم التربة حتى من العدو، والرائق بغير هذه الملة. خرج قومه من وطنهم عند تغلب العدو على الشرق، فنزلوا ربض البيازين جوفي المدينة، وارتاشوا، وتلثموا، وبنوا المسجد العتيق، وأقاموا رسم الإرادة، يرون أنهم تمسكوا من طريق الشيخ أبي أحمد بآثاره، فلا يغبون بيته، ولا يقطعون اجتماعاً، على حالهم المعروفة من تلاوة حسنة، وإيثار ركعات، ثم ذكر ثم ترجيع أبياتٍ في طريق التصوف، مما ينسب للحسين بن منصور الحلاج وأمثاله، يعرفونها منهم مشيخةٌ، قوالون هم فحول الأجمة وضرائك تلك القطيعة، يهيجون بلابلهم، فلا ينشبون أن يحمي وطيسهم، ويخلط مريعهم بالهمل، فيرقصون رقصا غير مساوق للإيقاع الموزون، دون العجال

الغالبة منهم، بإفراد كلمات من بعض المقول، ويكر بعضهم على بعض، وقد خلعوا خشن ثيابهم، ومرقوعات قباطيهم ودرانيكهم، فيدوم حالهم حتى يتصببوا عرقاً، وقوالهم يحركون فتورهم، ويزمرون روحهم، يخرجون بهم من قول إلى آخر، ويصلون الشيء بمثله، فربما أخذت نوبة رقصهم بطرفي الليل التمام، ولا تزال المشيعة لهم يدعونهم، ويحاجونهم إلى منازلهم، وربما استدعاهم السلطان إلى قصره محمضاً في لطايف نعيمه باخشيشانهم، مبدياً التبرك بألويتهم، ولهم في الشيخ أبي أحمد والد نحلتهم، وشحنة قلوبهم، عصبية له وتقليد بإيثاره، أنفجت لعقده أيمانهم، وشرطٌ في صحة دينهم، وارتكبوا في النفور عن سماع المزمار القصبي المسمى بالشبابة الذي أرخص في حضور الولائم، مع نفخٍ برعه العدد الكثير من الجلة الصلحاء القدوة مرتكباً، حتى ألحقوه بالكبائر المربقة، وتعدوا اجتنابه جبلة وكراهةً طباعية، فتزوي عند ذكره الوجوه، وتقتحم عند الاقتمام به الدور، وتسقط فيما بينهم بفلتة سماعه أخوة الطريق، وهم أهل سذاجة وسلامة، أو لو اقتصاد في ملبس وطعمة واقتيات بأدنى بلغة، ولهم في التعصب نزعة خارجية، وأعظمهم ما بين مكتسب متسبب، وبين معالج مدرة، ومريع حياكة، وبين أظهر من الذعرة والصعاليك كثير، والطرق إلى الله عدد أنفاس الخلايق جعلنا الله ممن قبل سعيه، وارتضى ما عنده، ويسره لليسرى.

حاله: قام هذا الرجل مقام الشيخ أبي تمام قريبه على هيئة مهلكه، فسد مسده، على حال فتور وغرارة حتى لان متن الخطة، وخف عليه بالمران ثقل الوظيفة، فأم وخطب، وقاد الجماعة من أهل الإرادة. وقضى في الأمور الشرعية بالربض، تحت ضبن قاضي الجماعة وهو الآن بعده على حاله، حسن السجية، دمث الأخلاق، لين العريكة، سهل الجانب، مقترن الصدق والعفة، ظاهر الجدة، محمود الطريقة، تطأه أقدام الكلف، وتطرح به المطارح القاصية، حوا على الشفاعات، مستور الكفاية في لفق الضعف، متوالي شعلة الإدراك في حجر الغفلة، وجهٌ من وجوه الحضرة في الجمهورية، مرعى الجانب، مخفف الوظايف، مقصوداً من منتامي أهل طريقه بالهدايا، مستدعي إلى من بالجهات منهم في كثير من الفصول، ظاهر الجدوى في نفير الجهاد، رحمه الله، ونفع بأهل الخير.

مولده

عام تسعة وسبعمائة.

وفاته

يوم الإثنين التاسع والعشرين لرمضان خمسة وستين وسبعمائة.

جعفر بن سيدبونة الخزاعي

جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدبونة الخزاعي من أهل شرق الأندلس من نظر دانية، يكنى أبا أحمد الولي الشهير.

حاله

كان أحد الأعلام المنقطعي القرين في طريق كتاب الله، وأولى الهداية الحقة، فذ، شهير، شائع الخلة، كثير الأتباع، بعيد الصيت، توجب حقه حتى الأمم الداينة بغير دين الإسلام، عند التغلب على قرية مدفنه بما يقضي منه بالعجب. قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير عند ذكره في الصلة: أحد أعلام المشاهير فضلاً وصلاحاً، قرأ ببلنسية، وكان يحفظ نصف المدونة وأقرأها، ويؤثر الحديث والتفسير والفقه، على غير ذلك من العلوم.

مشيخته

أخذ القراءات السبع عن المقرىء أبي الحسن بن هذيل، وأبي الحسن بن النعمة، ورحل إلى المشرق، فلقي في رحلته جلة، أشهرهم وأكبرهم في باب الزهد وأنواع سنى الأحوال، ورفيع المقامات، الشيخ الجليل، الولي لله تعالى،

العارف، أبو مدين شعيب بن الحسين المقيم ببجاية، صحبه وانتفع به، ورجع من عنده بعجايب دينية، ورفيع أحوال إيمانية، وغلبت عليه العبادة، فشهر بها حتى رحل إليه الناس للتبرك بدعائه، والتيمن برؤيته ولقائه، فظهرت بركته على القليل والكثير منهم، وارتورا زلالا من ذلك العذب النمير، وحظه من العلم مع عمله الجليل موفور، وعلمه نورٌ على نور. لقيت قريبه الشيخ أبا تمام غالب بن حسين بن سيدبونة حين ورد غرناطة، فكان يحدث عنه بعجائب.

دخوله غرناطة

وذكر المعتنون بأخباره بالحضرة إلى طريقه، أنه دخل الحضرة وصلى في رابطة الربط من باب... وأقام بها أياماً، فلذلك المسجد المزية عندهم إلى اليوم. وانتقل الكثير من أهله وأذياله عند تغلب العدو على الشرق على بلدهم، إلى هذه الحضرة، فسكنوا منها ربض البيازين، على دين وانقباض وصلاح، فيحجون بكنوز من أسراره، ومبشراته مضنونٌ بها على الناس، وبالحضرة اليوم منهم بقية تقدم الإلماع بذكرهم.

وفاته

توفي رحمه الله بالموضع المعروف بزناتة في شوال سنة أربع وعشرين وستمائة، وقد نيف على الثمانين.

الحسين بن أبي الأحوص

الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الأحوص القرشي الفهري نشأ بغرناطة، يكنى أبا علي، ويعرف بابن الناظر.

حاله

كان متفنناً في جملة معارف، أخذ من كل علم سنى بحظ وافر، حافظاً للحديث والتفسير، ذاكراً للأدب واللغة والتواريخ، شديد العناية بالعلم، مكباً على استفادته وإفادته، حسن اللقاء لطلبة العلم، حريصاً على نفعهم، جميل المشاركة لهم. وقال الأستاذ: كان من بقايا أهل الضبط والإتقان لما رواه، وآخر مقرئي القرآن، ممن يعتبر في الأسانيد ومعرفة الطرق والروايات، متقدماً في ذلك على أهل وقته، وهو أوفر من كان بالأندلس في ذلك، أقرأ القرآن والعربية بغرناطة مدة، ثم انتقل إلى مالقة فأقرأ بها يسيراً، ثم انقبض عن الإقراء، وبقي خطيباً بقصبة مالقة نحواً من خمسة وعشرين سنة، ثم كر منتقلا إلى غرناطة، فولى قضاء ألمرية، ثم قضاء يسطة، ثم قضاء مالقة.

وصمته، قال الأستاذ: إلا أنه كان فيه خلق أخلت به، وحملته على إعداء ما ليس من شأنه، عفا الله عنه، فكان ذلك مما يزهد فيه.

مشيخته

روي عن الأستاذ المقرىء أبي محمد عبد الله بن حسين الكواب، أخذ عنه قراءة السبع وغير ذلك، وعن أبي علي وأبي الحسن بن سهل بن مالك الأزدي، وأبي عبد الله محمد بن يحيى المعروف بالحلبي، وجماعة غير هؤلاء، ورحل إلى إشبيلية فروى بها عن الشيخ الأستاذ أبي علي أكثر كتاب سيبويه تفقهاً، وغير ذلك.

وأخذ عن جماعة كثيرة من أهلها، وقدم عليها إذ ذاك القاضي أبو القاسم بن بقي فلقيه بها وأخذ عنه، ورحل إلى بلنسية، فأخذ بها عن الحاج أبي الحسن ابن خيرة، وأبي الربيع بن سالم، وسمع عليه جملةٌ صالحة، كأبي عامر بن يزيد بن أبي العطاء بن يزيد وغيرهم، وبجزيرة شقر عن أبي بكر بن وضاح، وبمرسية عن جماعة من أهلها، وبأوريولة عن أبي الحسن بن بقي، وبمالقة عن آخرين، وتحصل له جماعة نيفوا على الستين.

تصانيفه

منها المسلسلات، والأربعون حديثاً، والترشيد في صناعة التجويد، وبرنامج رواياته وهو نبيل.
شعره، كان يقرض شعراً لا يرضى لمثله، ممن برز تبريزه في المعارف.
مولده
يوم الخميس لإثني عشر ليلة بقيت من شوال سنة خمسين وستمائة.
وفاته
توفي بغرناطة لأربع عشر ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة تسع و تسعين وستمائة.
الحسن بن النباهي الجذامي
الحسن بن محمد بن الحسن النباهي الجذامي من أهل مالقة، يكنى أبا علي.
أوليته
قال القاضي المؤرخ أبو عبد الله بن أبي عسكر فيه، من حسباء مالقة وأعيانها وقضاتها، وهو جد بني الحسن المالقيين، وبيته بيت قضاء وعلم وجلالة، لم يزالوا يرثون ذلك كابراً عن كابر، استقضى جده المنصور بن أبي عامر، وكانت له ولأصحابه حكاية مع المنصور.

قال القاضي ابن بياض، أخبرني أبي، قال: اجتمعنا يوماً في منتزه لنا بجهة الناعورة بقرطبة مع المنصور بن أبي عامر في حداثة سنه، وأوان طلبه، وهو مرتج مؤمل، ومعنا ابن عمه عمرو بن عبد الله بن عسكلاجة، والكاتب ابن المرعزي، والفقيه أبوالحسن المالقي، وكانت سفرة فيها طعام، فقال ابن أبي عامر من ذلك الكلام الذي كان يتكلم به، لا بد أن نملك الأندلس، ونحن نضحك منه ومن قوله. ثم قال: يتمنى كل واحد منكم على ما شاء أوليه، فقال عمرو: أتمنى أن توليني المدينة، نضرب ظهور الجنات، وقال ابن المرعزي: وأنا أشتهي الأسفح، القضاء في أحكام السوق، وقال أبوالحسن: وأنا أحب هذه أن توليني قضاء مالقة بلدي. قال موسى بن غدرون، قال لي تمن أنت، فشققت لحيته بيدي، واضطربت به وقلت قولا قبيحاً من قول السفهاء. فلما ملك ابن أبي عامر الأندلس، ولي ابن عمه المدينة، وولي ابن المرعزي أحكام السوق، وولي أبا الحسن المالقي قضاء ريه، وبلغ كل واحد ما تمنى، وأخذ مني مالا عظيما أفقرني لقبح قولي: فبيت بني الحسن الشهير، وسيأتي من أعلامه ما فيه كفاية.
حاله

قال ابن الزبير، كان طالباً نبيلاً من أهل الدين والفضل والنهي والنباهة.
نباهته، قال ابن الزبير في كتاب نزهة البصائر والأبصار، استقضى بغرناطة.
وفاته
توفي سنة اثنين وسبعين وأربعمائة، ذكره ابن بشكوال في الصلة، وعرف بولايته قضاء غرناطة، وذكره ابن عسكر، وتوهم فيه الملاحي، فقال، هو من أهل إلبيرة.
القلنار
حسن بن محمد بن حسن القيسي من أهل مالقة، يكنى أبا علي، ويعرف بالقلنار
حاله
كان رحمه الله بقية شيوخ الأطباء ببلده، حافظاً للمسائل الطبية، ذاكراً للدواء، فسيح التجربة، طويل المزاولة، متصرفاً في الأمور التي ترجع إلى صناعة اليدين صدلة وإخراعةً، محارباً، مقدوراً عليه في أخرياته، ساذجاً، مخشوشناً،

كثير الصحة والسلامة، محفوظ العقيدة، قليل المصانعة، برياً من التشمت، يعالج معيشته بيده في صبابة فلاحة. أخذ صناعة الطب عن أبي الحسن الأركثي، ومعرفة أعيان النبات عن المصحفي وسرح معه، وارتاد منابت العشب في صحبته، فكان آخر السحارين بالأندلس، وحاول عمل الترياق الفارق بالديار السلطانية عام اثنين وخمسين وسبعمائة مبرزاً في اختيار أجزائه، وإحكام تركيبه، وإقدام على اختبار مرهوب حياته، قتلاً وصنجاً وتقريصاً، بما يعجب من إدلاله فيه، وفراهته عليه.

حسن بن محمد بن باصة

يكنى أبا علي، ويعرف بالصعلعل، رئيس المؤقتين بالمسجد الأعظم من غرناطة، أصله من شرق الأندلس.

حاله

كان فقيهاً إماماً في علم الحساب والهيئة، أخذ عنه الجلة والنبهاء قائماً على الأطلال والرخائم وآلالات الشعاعية، ماهراً في التعديل، مع التزام السنة، والوقوف عندما حد العلماء في ذلك، مداوم النظر، ذا مستنبطات ومستدركات وتواليف، نسيج وحده ورحقة وقته.

وفاته

توفي بغرناطة عام ستة عشر وسبعمائة.

الحسن بن محمد بن علي الأنصاري

من أهل يكنى أبا علي ويعرف بابن كسرى

حاله

كان متقدماً في حفظ الأدب واللغة، مبرزاً في علم النحو، شاعراً مجيداً، ممتع المؤانسة، كثير المواساة، حسن الخلق، كريم النفس، مثراً في نظم الشعر في غير فن، مدح الملوك والرؤساء، مؤثراً للخمول على الظهور وفي تخامله يقول شعراً ثبت في موضعه.

مشيخته

روي عن أبي بكر بن عبد الله بن ميمون الكندي، وأبي عبد الله الكندي، وابي الحكم بن هردوس، وأبي عبد الله بن غالب الرصافي.

ممن روي عنه، روى عنه أبو الطاهر أحمد بن علي الهواري السبتي، وأبو عبد الله إبراهيم بن سالم بن صالح بن سالم.

نباهته وإدراكه

من كتاب نزهة البصائر والأبصار، قال القاضي أبو عبد الله بن عسكر، نقلت من خط صاحبنا الفقيه القاضي رحمه الله ما معناه:

قال، حدثني الفقيه الأديب أبو علي، قال كنت بإشبيلية. وقد قصدها لبعض الملوك، فبينما أنا أسير في بعض طرقها، لقيت الشيخ أبا العباس، فسلمت عليه، ووقفت معه، وكنت قد ذكر لي أن بها رجلا من الصالحين، زاهداً، فاضلاً ينتقد من الشعر في الزهد والرقائق، ببدائع تعجب وكان بالمغرب قد قصد الهربي والنادر، فسألني أبوالعباس عن مصيري، فأعلمته بقصدي، فرغب أن يصحبني إليه، حتى أتيناه، فرأيناه رجلاً عاقلاً، قاعداً في موضع قذر، فسلمنا عليه، فرد علينا، وسألناه عن قعوده في ذلك الموضع، فقال أتذكر الدنيا وسيرها، فزدنا به غبطة، ثم استنشدناه في ذلك الغرض من كلامه، ففكر ساعة ثم أنشدنا كلاماً قبيحاً، تضمن من القبيح ومن الإقذاع والفواحش ما لا يحل سماعه، فقمنا نلعنه، وخجلت من أبي العبس، واعتذرت له. ثم اتفق أن اجتمعنا في مجلس الأمير الذي كنت قد

قصدته، فقال أبو العباس، إن أبا علي قد حفظ لبعض الحاضرين شعراً في الزهد، من أعذب الكلام وأحسنه، فسألني الأمير وطلب مني إنشاده، فخجلت ثم ثاب إلى عقلي، فنظمت بيتين فأنشدتهما إياه وهما:

أشهد ألا إله إلا الله ... محمد المصطفى رسول الله

لا حول للخلق في أمورهم ... إنما الحول كله لله

قال، فأعجب الأمير ذلك واستحسنه.

ومن مقاماته بين يدي الملوك وبعض حاله، نقلت من خط صاحبنا الفقيه القاضي أبي الحسن بن أبي الحسن، قال، المروي منسوب إلى قرية بقرب مالقة، وهو الذي قال فيه الشيخ أبو الحجاج بن الشيخ رضي الله عنه:

إذا سمعت من أسرى ... ومن إلى المسجد أسرى

فقل ولا تتوقف ... أبا علي بن كسرى

قال وهو قريب الأستاذ الأديب أبي علي الإستجي ومعلمه، وأحد طلبة الأستاذ أبي القاسم السهيلي، وممن نبع صغيراً، وارتحل إلى غرناطة ومرسية، وهو الذي أنشد في طفولته السيد أبا إسحاق بإشبيلية:

قسماً بحمص وإنه لعظيم ... وهي المقام وأنت إبراهيم

وكان بالحضرة أبو القاسم السهيلي، فقام عند إتمامه القصيدة، وقال لمثل هذا أحسيك الحسا، وأواصل في تعليمك الإصباح والإمسا، وكان يوماً مشهوداً.

وأنشد الأمير أبا يعقوب حين حلها:

أمعشر أهل الأرض في الطول والعرض ... بهذا استنادي في القيامة والعرض

لقد قال فيك الله ما أنت أهله ... فيقضي بحكم الله فيك بلا نقض

وإياك يعني ذو الجلال بقوله ... كذلك مكنا ليوسف في الأرض

وذكره ابن الزبير، وابن عبد الملك، وابن عسكر وغيرهم.

ومن شعره في معنى الانقطاع والتسليم إلى الله تعالى، وهي لزومية، ولنختتم بها، ختم الله لنا بالحسنى:

إلهي أنت الله ركني وملجيء ... وما لي إلى خلق سواك ركون

رأيت بني الأيام عقبي سكونهم ... حراكٌ وفي عقبي الحراك سكون

رضي بالذي قدرت تسليم عالمٍ ... بأن الذي لا بد منه يكون

وفاته

توفي بمدينة مالقة في حدود ثلاث وستمائة.

الحسين بن عتيق

بن الحسين بن رشيق التغلبي

يكنى أبا علي، مرسي الأصل سبتي الاستيطان، منتمٍ إلى صاحب الثورة على المعتمد.

حاله

كان نسيج وحده، وفريد دهره، إتقاناً ومعرفة، ومشاركة في كثير من الفنون اللسانية والتعالمية، متبحراً في التاريخ، رياناً من الأدب، شاعراً مفلقاً، عجيب الإستنباط، قادراً على الإختراع والأوضاع، جهم المحيا، موحش الشكل،

يضم برداه طوياً لا كفاء له، تحرف بالعدالة، وبرز بمدينة سبتة، وكتب عن أميرها، وجرت بينه وبين الأديب أبي الحكم مالك بن المرحل من الملاحات والمهاترات أشد ما يجري بين متناقضين، آلت به إلى الحكاية الشهيرة، وذلك أنه نظم قصيدة نصها:

لكلاب سبتة في النباح مدارك ... وأشدها دركاً لذلك مالك
شيخ تفاني في البطالة عمره ... وأحال فكيه الكلام الآفك
كلبٌ له في كل عرض عضة ... وبكل محصنةٍ لسانٌ آفك
متهم بذوي الخنا متزمعٌ ... متهازلٌ بذوي التقى متضاحك
أحلى شمائله السباب المفتري ... وأعف سيرته الهجاء الماعك

وألذ شيء عنده في محفلٍ ... لمزٌ لأستار المحافل هاتك
يغشى مخاطره اللئيم تفكها ... ويعاف رؤيته الحليم الناسك
لو أن شخصاً يستحيل كلامه ... خرءا للاك الخرء منه لائك
فكأنه التمساح يقذف جوفه ... من فيه ما فيه ولا يتماسك
أنفاسه وفساؤه من عنصر ... وسعاله وضراطه متشارك
ما ضرفا من معد الله ... لو أسلمته نواجذ وضواحك
في شعره من جاهلية طبعه ... أثقال أرضٍ لم ينلها فانك
صدر وقافية تعارضتا معاً ... في بيت عنسٍ أو بعرسٍ فارك
قد عم أهل الإرض بلعنه ... فللأعنية في السماء ملائك
ولأعجب العجبين أن كلامه ... لخلاله مسكٌ يروح ورامك
إن سام مكرمة جثا متثاقلا ... يرغو كما يرغو البعير البارك
ويدب في جنح الظلام إلى الخنا ... عدواً كما يعدو الظليم الراتك
نبذ الوقار لصبيةٍ يهجونة ... فسياله فرشٌ لهم وأرائك
يبدي لهم سوآته ليسوءهم ... بمسالك لا يرتضيها سالك
والدهر باكٍ لانقلاب صروفه ... ظهراً لبطن وهو لاه ضاحك
واللسن تنصحه بأفصح منطق ... لو كان ينجو بالنصيحة هالك
تب يا ابن تسعين فقد جزت المدا ... وارتاح للقيا بسنك مالك
أو ما ترى من حافديك تشابها ... ابنٌ بضاجع جده ويناسك
هيهات أية عشرة لهجت به ... هنوات مملوك وطيع مالك
يا ابن المرحل لو شهدت مرحلا ... وقد انحنى بالرحل منه الحارك
وطريد لومٍ لا يحل بمعشر ... إلا أمال قفاه صفعٌ دالك
مركوب لهو لجاجة وركاكة ... وأراك من ذاك اللجاج البارك
لرأيت للعين اللئيمة سحة ... وعلا بصفع عرك أذنك عارك
وشغلت عن ذم الأنام بشاغل ... وثناك خصمٌ من أبيك مماحك
قسماً بمن سمك السماء مكانها ... ولديه نفس رداء نفسك شائك

لأقول للمغرور منك بشيبةٍ ... بيضاء طي الصحف منها حالك
لا تأمنن للذئب دفع مضرة ... فالذئب إن أعفتيه بك فاتك
عارٌ على الملك المنزة أن يرى ... في مثل هذا للملوك مسالك
فكلامه للدين سم قاتل ... ودنوه للعرض داءً ناهك
فعليه ثم على الذي يصغي له ... ويلٌ يعاجله وحتفٌ واشك
وأتاه من مثواه آت مجهزٍ ... لدم الخناجر بالخناجر سافك

وهي طويلة تشتمل من التعريض والصريح على كل غريب، واتخذ لها كنانة خشبية كأوعية الكتب، وكتب عليها: رقاص معجل، إلى ما ملك بن المرحل. وعمد إلى كلب، وجعلها في عنقه، وأوجعه خبطاً حتى لا يأوي إلى أحد، ولا يستقر، وطرده بالزقاق متكتما بذلك. وذهب الكلب وخلفه من الناس أمة، وقرىء مكتوب الكنانة، واحتمل إلى أبي الحكم، ونزعت من عنق الكلب، ودفعت إليه، فوقف منها على كل فاقرةٍ كفت من طماحه، وغضت عن عنان مجاراته، وتحدث بها مدة، ولم يغب عنه أنها من حيل ابن رشيق، فعوق سهام المراجعة، ثم أقصر مكبوحاً، وفي أجوبته عن ذلك يقول:

كلاب المزابل آذينني ... بأبوالهن على باب داري
وقد كنت أوجعها بالعصا ... ولكن عوت من وراء الجدار

واستدعاه بآخرةٍ أمير المغرب السلطان أبو يعقوب، فاستكتبه، واستكتب أبا الحكم صدقةً، فيقال أن جر عليه خجلةً كانت سبب وفاة أبي علي. ودخل الأندلس، وحط بها بألمرية، وقد أصيب بأسر عياله، فتوسل إلى واليها من قرابة السلطان الغالب بالله، بشعر مدحه فيه من قصيدة أولها:

ملقى النوى ملقٍ لبعض نوالكا ... فاشف المحب ولو بطيف خيالكا

ومنها:

لا تحسبني من فلانٍ أو فلا ... أنا من رجال الله ثم رجالكا

ومنها:

نصب العدو حبائلا لحبائبي ... وعلقت في استخلاصها بحبالكا

وفي خاتمها:

وكفاك شر العين عيبٌ واحد ... لا عيب فيه سوى فلول نصالكا

ولحق بغرناطة، ومدح السلطان بها، ونجحت لديه مشاركة الرئيس بألمرية. فجبر الله حاله، وخلص أسره.

ومما جمع فيه بين نثره ونظمه ما كتبه لما كتب إليه الأديب الطبيب صالح بن شريف بهاتين القصيدتين، اللتين تنازع فيهما الأقوام، واتفقوا على أن يحكم بينهما الأحلام، وعبر عن ذلك الأقلام، ولينظرهما من تشوق إليهما بغير هذا الموضع.

تواليفه

وأوضاعه غريبة، واختراعاته عجيبة، تعرفت أنه اخترع في سفرة الشطرنج شكلا مستديراً. وله الكتاب الكبير في التاريخ، والتلخيص المسمى بميزان العمل وهو من أظرف الموضوعات، وأحسنها شهرة.

وفاته

كان حيا عام أربعة وسبعين وستمائة.

حبوس بن ماكسن

بن زيري بن مناد الصنهاجي

يكنى أبا مسعود ملك إليبرة وغرناطة وما والاها.

حاله وأوليته

أما أوليته فقد مر ذلك بما فيه الكفاية عند ذكر بلكين. ولما دخل زاوي ابن زيري على الأندلس غب إيقاعه بالمرتضى، الذي نصبته الجماعة، واستيلائه على محلته بظاهر غرناطة، وخاف تمالؤ الأندلس عليه، ونظر للعاقبة، فأسند الأمر إلى ابن أخيه، حبوس بن ماكسن، وكان بحصن أشتر، فلما ركب البحر من المنكب، وودعه به زعيم البلدة وكبير فقهائها أبو عبد الله بن أبي زمنين، ذهب إلى ابن أخيه المذكور واستقدمه، وجرت بينه وبين ابن عمه المتخلف على غرناطة من قبل والده، محاورة أنجلت عن رحيلة تبعاً لأبيه، وانفرد حبوس، فاستبد بالملك، ورأب الصدع سنة أحد عشر وأربعمائة، قال ابن عذارى في تاريخه: فانحازت صنهاجة مع شيخهم ورئيسهم حبوس بن ماكسن، وقد كان أخوه حباسة هلك في الفتنة، وبقي منهم معه بعد انصراف زاوي إلى إفريقية، جماعة عظيمة، فانحازوا إلى مدينة غرناطة، وأقام حبوس بها ملكاً عظيماً، وحامي رعيته ممن جاوره من سائر البرابرة المنتشرين حوله، فدامت رياسته.

وفاته

توفي بغرناطة سنة ثمان وعشرين وأربعمائة.

الحكم بن عبد الرحمن بن معاوية

الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

صفته وحاله

كان أصهب العين، أسمر، أقنى، معسل اللحية، جهير الصوت، طويل الصلب، قصير الساقين، عظيم الساعد، أفصم، وكان ملكاً جليلاً، عظيم الصيت، رفيع القدر، عالي الهمة، فقيهاً بالمذهب، عالماً بالأنساب، حافظاً للتاريخ، جماعاً للكتب، محباً في العلم والعلماء، مشيراً للرجال من كل بلد، جمع العلماء من كل قطر، ولم يكن في بني أمية أعظم همة، ولا أجل رتبة في العلم، وغوامض الفنون منه. واشتهر بهمته بالجهاد وتحدث بصدقاته في المحلول، وأملته الجبابرة والملوك.

دخوله إليبرة

قال ابن الفياض، كتب إليه من الثغر الجنوبي أن عظيم الفرنجة من النصارى حشدوا إليه وسألوه الممرة بطول المحاصرة، فاحتسب شخوصه بنفسه إلى ألمرية في رجب سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، في جحفل لجبٍ من نجدة الأولياء وأهل المراتب. ولما أحل إليبرة ورد عليه كتاب أحمد بن يعلي من طرطوشة بنصر الله العزيز وصنعه الكريم على الروم، ووافي ألمرية، وأشرف على أمورها، ونظر إلى أسطولها وجدده، وعدته يومئذ ثلاثمائة قطعة، وانصرف إلى قرطبة.

مولده

لست بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثمائة.

وفاته

لأربع خلون من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة، وعمره نحوٌ من ثلاث وستين سنة، وهو خاتمة العظماء من بني أمية.

الحكم بن هشام بن عبد الرحمن

بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن أمية

كنيته أبو العاصي.

صفته

آدم شديد الأدمة، طويل، أشم، نحيف، لم يخضب. بنوه تسعة عشر من الذكور، منهم عبد الرحمن ولي عهده.

بناته، إحدى وعشرون، أمه أم ولد اسمها زخرف.

وزراؤه وقواده، خمسة منهم إسحاق بن المنذر، والعباس بن عبد الله، وعبد الكريم بن عبد الواحد، وفطيس بن سليمان، وسعيد بن حسان.

قضاته

مصعب بن عمران، وعمر بن بشر والفرج بن كنانة، وبشر ابن قطن، وعبد الله بن موسى، ومحمد بن تليد، وحامد بن محمد بن يحيى.

كتابه

فطيس بن سليمان. وعطاف بن زيد، وحجاج بن العقيلي.

حاجبه، عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث.

حاله

كان الحكم شديد الحزم، ماضي العزم، ذا صولة تتقى، وكان حسن التدبير في سلطانه، وتولية أهل الفضل، والعدل في رعيته، مبسوط اليد بالعطاء الكثير، وكان فصيحاً، بليغاً، شاعراً مجيداً، أديباً، نحوياً.

قال ابن عذارى، كانت فيه بطالة، إلا أنه كان شجاعاً، مبسوط اليد، عظيم العفو، وكان يسلط قضاته وحكامه على نفسه، فضلا عن ولده وخاصته، وهو الذي جرت على يده الفتكة العظيمة بأهل ربض قرطبة، الذين هاجوا به وهتفوا بخلعانه، فأظهره الله عليهم، في خبر شهير، وهو الذي أوقع بأهل طليطلة أيضاً، فأبادهم بحيلة الدعاء إلى الطعام بما هو معلوم.

دخوله غرناطة

: قالوا، وبإليرة وأحوازها تلاقي مع عمه أبو أيوب سليمان بن عبد الرحمن، فهزمه وقتله حسبما ثبت في اسم أبي أيوب.

شعره

قالوا وكان له خمس جوارٍ قد استخلصهن لنفسه، وملكهن أمره، فذهب يوماً إلى الدخول عليهن، فتابين عليه، وأعرضن عنه، وكان لا يصبر عنهن، فقال:

قضبٌ من البان ماست فوق كثبان ... ولين عني وقد أزمعن هجراني

ناشدتهن بحقي فاعتزمن على ال ... عصيان حتى خلا منهن همياني
ملكنني ملك من ذلت عزيمته ... للحب ذل أسير موثقٍ عاني
من لي بمغتصبات الروح من بدني ... يغصبنني في الهوى عزي وسلطاني
ثم عطفن عليه بالوصال فقال:
نلت الوصال بعد البعاد ... فكأني ملكت كل العباد
وتناهى السرور إذ نلت ما لم ... يغن عنه تكاثف الأجناد
مناقبه
أنهى إليه عباس بن ناصح وقد عاد من الثغر أن امرأة من ناحية وادي الحجارة سمعها تقول: واغوثاه، يا حكم ضيعتنا، وأسلمتنا، واشتغلت عنا حتى استأسد العدو علينا، ورفع إليه شعر في هذا المعنى والغرض، فخرج من قرطبة كاتماً وجهته، وأوغل في بلاد الشرك، ففتح الحصون، وهدم المنازل، وقتل وسبى، وقفل بالغنائم على الناحية التي فيها تلك المرأة فأمر لأهل تلك الناحية بمال من الغنائم يفدون به أسراهم، ويصلحون به أحوالهم، وخص المرأة وآثرها، وأعطاها عدداً من الأسرى، وقال لها، هل أغاثك الحكم؟ قالت أي والله أغاثنا وما غفل عنا، أعانه الله وأعز نصره.
وفاته
توفي لأربع بقين لذي الحجة سنة ست ومائتين، وكان عمره اثنين وخمسين سنة. وجرى ذكره في الرجز من نظمي في تاريخ دول الإسلام بما نصه:
حتى إذا الدهر عليه احتكما ... قام بها ابنه المسمى حكما
واستشعر الثورة فيها وانقبض ... مستوحشاً كالليث أقعى وربض
حتى إذا فرصته لاحت تفض ... فأفحش الوقعة في أهل الربض
وكان جباراً بعيد الهمة ... لم يرع من آلٍ بها أو ذمة
حكم بن أحمد بن رجا الأنصاري
من أهل غرناطة، يكنى أبا العاصي.
حاله
: كان من قرائها، ونبهائها، وكان من أهل الفضل والطلب، وإليه ينسب مسجد أبي العاصي، وحمام أبي العاصي، ودربه بغرناطة. وكفى بذلك دليلا على الأصالة والتأثل، ذكره أبو القاسم ولم يذكر من أمره مزيداً على ذلك.
حاتم بن سعيد بن خلف

بن سعيد بن محمد بن عبد الله

ابن سعيد بن الحسن بن عثمان بن سعيد بن عبد الملك بن سعيد بن عمار بن ياسر
أوليته
: قد مر بعض ذلك وسيأتي بحول الله.
حاله

قال أبو الحسن بن سعيد في كتابه الموضوع في مآثر القلعة: كان صاحب سيف وقلم وعلم، ودخل في الفتنة المردنيشيه حسبما مر ذلك عند ذكر أخيه أبي جعفر، فصار من جلساء الأمير أبي عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش بمرسية، وأرباب آرائه، وذوي الخاصة من وزرائه، وكان مشهوراً بالفروسية والشجاعة والرأي.

حكاياته ونوادره: قال كانت التدبير والهزل قد غلبا عليه. وعرف بذلك فصار يحمل منه ما لا يحمل من غيره، قالوا، فحضر يوماً مع الأمير محمد بن سعد. يوم الجلاب من حروبه، وقد صبر الأمير صبراً جميلاً، ووالي الكر المرة بعد المرة. وذلك بمرأى من حاتم، فرد رأسه إليه، وقال يا قائداً أبا الكرم كيف رأيت، فقال له حاتم، لو رآك السلطان اليوم لزاد في مرتبك، فضحك ابن مردنيش، وعلم أنه أراد بذلك: لا تليق به المخاطرة، وإنما هو للثبات والتدبير. وقال له يوماً وقد جرى ذلك الجنات، جن اليوم يا أبا الكرم على بستانك بالزنقات، وأردت أن أكون من ضيافتك، فقال عبد الرحمن بن عبد الملك وهو إذ ذاك وزير الأمير، وبيده المجابي والأعمال لعل الأمير اغتر بسماع اسمه حاتم، ما فيه من الكرم إلا الاسم، فقال الحاتم، ولعل الأمير اغتر بسماع أمانة عبد الرحمن، فقدمة على وزرائه، وما عنده من الأمانة إلا الاسم،فقال ابن مردنيش وقد ضحك، الأولى فهمت، ولم أفهم الثانية، فقال له كاتبه أبو محمد السلمي، إنما أشار إلى قول رسول الله صلى الله عليه، في عبد الرحمن بن عوف رضي الله: أمير هذه الأمة، وأمين في أهل السماء، وأمين في أهل الأرض، فطرب ابن مردنيش، وجعل يقول: أحسنتما.

شعره

: قال أبو الحسن ولم أحفظ من شعر حاتم ما أورده في هذا المكان إلا قوله يخاطب حفصة الركونية الشاعرة، التي يأتي ذكرها، حين فر إلى مرسية، وتركها بغرناطة:

أحن إلى ديارك يا حياتي ... وأبصر ذو وهد سيل الظبات

وأهوى أن أعود إليك لكن ... خفوق البند عاق عن القنات

وكيف إلى جنابك من سبيل ... وليس يحله إلا عداتي

مولده

في سنة خمس وثلاثين وخمسمائة. وقال أبو القاسم الغافقي فيه عند ذكره: كان طالباً نبيهاً جميلاً سرياص، تام المروءة، جميل العشرة.

وفاته

قال، مات بغرناطة سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة.

حباسة بن ماكسن

بن زيري بن مناد الصنهاجي

كان شهماً، هيباً، بهمةً من البهم، كريماً في قومه، أبياً في نفسه، صدراً من صدور صنهاجة، وكان أشجع من أخيه حبوس.

وفاته

قال أبو مروان عند ذكر وقعة رمداي بطرف قرطبة في حروب البرابرة لأهلها في شوال عام اثنين وأربعمائة قال: واستلحم حباسة بن ماكسن الصنهاجي ابن أخي زاوي بن زيري، وهو فارس صنهاجة طراً وفتاها، وكان قد تقدم

إلى هذه الناحية. زعموا لما بلغه اشتداد الأمر فيها، فرمى بنفسه على طلابها، واتفق أن ركب بسرج طري العمل متفتح اللبد، وخانه مقعده عند المجاولة، لتقلبه على الصهوة، وقيل إنه كان منتبذاً على ذلك. فتطارح على من بإزائه، ومضى قدماً بسكرى شجاعته ونشوته، يصافح البيوت بصفحته، ويستقبل القنا بلباته، لا يعرض له شيء إلا حطه، إلى أن مال به سرجه، فأتيح حمامه لاشتغاله بذلك، بطعنة من يد المسمى النبيه النصراني. أحد فرسان الموالي العامريين، فسقط لفيه، وانتظمته رماح الموالي فأبادته، وحامي أخوه حبوس، وبنو عمه، وغيرهم من أنجاد البرابرة على جثته، فلم يقدروا على استنقاذها. بعد جلاد طويل، وغلب عليه الموالي فاحتزوا رأسه، وعجلوا به إلى قصر السلطان، وأسلموا جسده للعامة، فركبوه بكل عظيمة، واجتمعوا إليه اجتماع البغاث على كبير الصقورة، فجروه في الطريق وطافوا به الأسواق، وقطعوا بعض أعضائه، وأبدوا شواره وكبده بكل مكروه من أنواع الأذى، بأعظم ما ركب ميت، فلما سئموا تجراره، وأوقدوا له ناراً فحرقوه بها جرياً على ذميم عادتهم، في قبح المثلة. ولؤم القدرة، وانجلت الحروب في هذا اليوم لمصابه، عن أمر عظيم، وبلغ من جميع البرابرة الحزن عليه مناله، ورأت أن دماء أهل قرطبة جميعاً لا تعدله. من الكتاب المتين.

حبيب بن محمد بن حبيب

من أهل النجش من وادي المنصورة أخوه مالك النجشي، دباب الحلقات، ومراد أذناب المقربين.

حاله

كان على سجية غريبة من الإنقباض المشوب بالاسترسال، والأمانة مع الحاجة، بادي الزي واللسان، يحفظ الغريب من اللغة، ويحرك شعراً لا غاية وراءه في الركاكة. وله قيامٌ على الفقه وحفظ القرآن ونغمةٌ حسنة عند التلاوة. قدم الحضرة غير ما مرة، وكان الأستاذ، إمام الجماعة، وسيبويه الصناعة، أبو عبد الله ابن الفخار المعروف بالبيري، أبا مثواه ومحط طيته، يطلب منه مشاركته بباب السلطان في جراية يرغب في تسميتها، وحال يروم إصلاحها، فقصدني مصحباً منه رقعة تتضمن الشفاعة، وعرض على قصيدة من شعره يروم إيصالها إلى السلطان، فراجعت الأستاذ برقعة أثبتها على جهة الإحماض وهي: يا سيدي الذي أتشرف، وبالانتماء إلى معارفه أتميز، وصل إلى عميد حصن النجش، وناهض أفراخ ذلك العش، تلوح عليه مخائل أخيه المسمى بمالك، ويترجج به الحكم في الغاية في أمثال تلك المسالك، أشبه من الغراب بالغراب، وإنها لمن عجائب الماء والتراب، فألقى من ثنائكم الذي أوجبته السيادة والأبوة، ما يقصر عن طيب الألوة، وتخجل عند مشاهدته الغرر المجلوة، وليست بأولى بر أسديتم، ومكرمة أعدتم وأبديتم، والحسنات وإن كانت فهي إليكم منسوبة، وفي أياديكم محسوبة، وبلوت من الرجل طلعة نتفة، لم يغادر من صفات النبل صفة، حاضر بمسائل من الغريب، وقعد مقعد الذكي الأريب، وعرض على حاجته وغرضه، وطلب مني المشاركة، وهي مني لأمثالة مفترضة، ووعدني بإيقافي على قصيدة حبرها وأنسى بالخبر خبرها، وباكرني بها اليوم مباكرة الساقي بدهاقة، وعرضها على عرض التاجر نفائس أعلاقه، وطلب مني أن أهذب له ما أمكن من معانيها وألفاظها، وأجلو القذى عن ألحاظها، فنظرت منها إلى روضٍ كثرت أثغابه وجيشٍ من الكلام زاحم خواصه أو شابه، ورمت الإصلاح ما استطعت، فعجزت عن ذلك وانقطعت، ورأيت لا جدوى إلى ذلك الغرض، ما لم تبدل الأرض غير الأرض. وهذا الفن أبقى الله سيدي، ما لم يمت إلى الإجادة بسبب وثيق، وينتمي في الإحسان إلى مجد عريق، كان رفضه أحسن وأحمد، واطراحه بالفائدة أعود، وإذا اعتبره من عدل وقسط، وجده طريقين لا يقبل الوسط، فمنهما مال يقتنى ويدخر، وسافلٌ يهزء به ويسخر، والوسط ثقيل لا يتلبس به نبيل. قيل لبعضهم ألا تقول الشعر؟ فقال أريد منه ما لا يتأتى لي، ويتأتى لي منه ما لا أريده. وقال بعضهم، فلان كمغن وسط لا يجيد فيطرب،

ولا يسيء فيسلي. فاقتضى نظركم الذي لا يفارق السداد والتوفيق، وإرشادكم الذي رافقة الهدى ونعم الرفيق، أن يشير عليه بالاستغناء عن رفعها، والامتساك عن دفعها، فهو أقوى لأمته، وأبقى على سكنته وسمته، وأستر لما لديه، قبل أن يمد أبو حنيفة رجليه، وإن أصمت عن هذا العذل مسامعه، وهفت به إلى النجاح مطامعه، فليعمد على الاختصار، فذو الإكنار جم العثار، وليعدل إلى الجادة عن ثنيات الطرق، ويجتزىء عن القلادة بما أحاط بالعنق، فإذا رتبها وهذبها، وأوردها من موارد العبارة أعذبها، توليت زفافها وإهداءها، وأمطت بين يدي الكفوء الكريم رداءها والسلام.

حمدة بنت زياد المكتب

من ساكني وادي الحمة بقرية بادي من وادي آش.

حالها

قال أبو القاسم، نبيلةً، شاعرةٌ، كاتبة، ومن شعرها وهو مشهور:

أباح الدمع أسراري برادي ... له في الحسن آثارٌ بوادي

فمن نهر يطوف بكل روض ... ومن روض يطرف بكل وادي

ومن بين الظبا مهات إنس ... سبت لبي وقد سلبت فؤادي

لها لحظٌ ترقده لأمرٍ ... وذاك الأمر يمنعني رقادي

إذا سدلت ذوائبها عليها ... رأيت البدر في جنح السوادي

كأن الصبح مات له شقيق ... فمن حزن تسربل في الحدادي

ومن غرائبها:

ولما أبى الواشون إلا قتالنا ... وما لهم عندي وعندك من ثار

وشنوا على آذاننا كل غارة ... وقلت حماتي عند ذاك وأنصاري

رميتهم من مقلتيك وأدمعي ... ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

وقال أبو الحسن بن سعيد في حمدة وأختها زينب: شاعرتان، أديبتان من أهل الجمال، والمال، والمعارف والصون، إلا أن حب الأدب، كان يحملها على مخالطة أهله، مع صيانة مشهورة، ونزاهةٍ موثق بها.

حفصة بنت الحاج الركوني

من أهل غرناطة، فريدة الزمان في الحسن، والظرف، والأدب واللوذعية، قال أبوالقاسم، كانت أديبة، نبيلة، جيدة البديهة، سريعة الشعر.

بعض أخبارها

قال الوزير أبو بكر بن يحيى بن محمد بن عمر الهمداني، رغبت أختي إلى حفصة أن تكتب شيئاً بخطها فكتبت.

يا ربة الحسن بل يا ربة الكرم ... غضى جفونك عما خطه القلم

تصفحيه بلحظ الود منعمة ... لا تحفلي بقبيح الخط والكلم

قال أبوالحسن بن سعيد، وقد ذكر أنهما باتا بحوز مؤمل في جنة له هنالك على ما يبيت عليه أهل الظرف والأدب، قال:

رعى الله ليلاً لم يرع بمنمم ... رعانا ووارانا بحوز مؤمل
وقد نفحت من نحو نجد أريجه ... إذا نفحت هبت بريح القرنفل
وغرد قمريٌ على الدوح وانثنى ... قضيبٌ من ريحان من فوق جدول
يرى الروض مسروراً بما قد بدا له ... عناق وضم وارتشاف مقبل
فقالت:
لعمرك ما سر الرياض وصالنا ... ولكنه أبدى لنا الغل والحسد
ولا صفق النهر ارتياحاً لقربنا ... ولا مدح القمري الأ لما وجد
فلا تحسبن الظن الذي أنت أهله ... فما هو في كل المواطن بالرشد
فما خلت هذا الأفق أبدى نجومه ... لأمرٍ سوى كي ما يكون لنا رصد
قال أبوالحسن بن سعيد، وبالله ما أبدع ما كتبت به إليه وقد بلغها أنه علق بجارية سوداء أسعت له من بعض القصور، فاعتكف معها أياماً وليالي، بظاهر غرناطة، في ظل ممدود، وطيب هوى مقصور وممدود:
يا أظرف الناس قبل حالٍ ... أوقعه نحوه القدر
عشقت سوداء مثل ليل ... بدائع الحسن قد ستر
لا يظهر البشر في دجاها ... كلا ولا يبصر الخفر
بالله قل لي وأنت أدرى ... بكل من هام في الصور
من الذي هام في جنان ... لا نوار فيه ولا زهر
فكتب إليها بأظرف اعتذار، وألطف أنوار:
لا حكم إلا لآمر ناهٍ ... له من ذنبه معتذر
له محيا به حياتي ... أعيذ مداه بالسور
كصحبة العيد في ابتهاج ... وطلعةٍ الشمس والقمر
سعده لم أمل إليه إلا ... اطرافاً له خبر
عدمت صبحي فاسود عش ... قي وانعكس الفكر والنظر
إن لم تلح يا نعيم رو ... حي فكيف لا تفسد الفكر
قال، وبلغنا أنه خلا مع حاتم وغيره من أقاربهم، لهم طربٌ ولهو، فمرت على الباب مستترة. وأعطت البواب بطاقةً فيها مكتوب:
زائر قد أتى بجيد غزال ... طامع من محبه بالوصال
أتراكم بإذنكم مسعفيه ... أم لكم شاغلٌ من الأشغال
فلما وصلت الرقعة إليه، قال ورب الكعبة، ما صاحب هذه الرقعة إلا الرقيعة حفصة، ثم طلبت فلم توجد. فكتب إليها راغباً في الوصال والأنس الموصول:
أي شغل عن الحبيب يعوق ... يا صاحباً قد آن منه الشروق
صل وواصل فأنت أشهى إلينا ... من جميع المنى فكم ذا تشوق
بحياة الرضى يطيب صبوحٌ ... عرفاً إن جفوتنا أو غبوق
لا وذل الهوى وعز التلاقي ... واجتماع إليه عز الطريق

وذكرها الأستاذ في صلته فقال: وكانت أستاذة وقتها. وانتهت إلى أن علمت النساء في دار المنصور، وسألها يوماً أن تنشده ارتجالا فقالت:

أمنن على بصك ... يكون للدهر عدة

تخط يمناك فيه ... الحمد لله وحده

قال: فمن عليها، وحرز لها ما كان لها من ملك.

وفاتها: قالوا: توفيت بحضرة مراكش في آخر ثمانين أو إحدى وثمانين وخمسمائة.

الخضر بن أحمد

بن الخضر بن أبي العافية

من أهل غرناطة، يكنى أبا القاسم.

حاله

من كتاب عائد الصلة، كان رحمه الله صدراً من صدور القضاة، من أهل النظر والتقييد، والعكوف على الطلب، مضطلعاً بالمسائل، مسائل الأحكام، مهتدياً لمظنات النصوص، نسخ بيده الكثير، وقيد على الكثير من المسائل، حتى عرف فضله، واستشاره الناس في المشكلات. وكان بصيراً بعقد الشروط، ظريف الخطاب، بارع الأدب، شاعراً مكثراً، مصيباً غرض الإجادة. وتصرف في الكتابة السلطانية، ثم في القضاء، وانتقل في الولايات الرفيعة النبيهة. وجرى ذكره في التاج المحلي بما نصه: فارس في ميدان البيان. وليس الخبر كالعيان، وحامل لواء الإحسان، لأهل هذا الشان، رفل في حلل البدائع فسحب أذيالها، وشعشع أكواس العجائب فأدار جرياً لها، واقتحم على الفحول أغيالها، وطمح إلى الغاية البعيدة فنالها، وتذوكرت المعصلات فقال أنا لها. عكف واجتهد، وبرز إلى مقارعة المشكلات ونهد، فعلم وحصل، وبلغ الغاية وتوصل، وتولى القضاء، فاضطلع بأحكام الشرع. وبرع في معرفة الأصل والفرع، وتميز في المسائل بطول الباع، وسعة الذراع، فأصبح صدراً في مصره، وغرة في صفحة عصره، وسيمر من بديع كلامه، وهنات أقلامه، وغرر إبداعه ودرر اختراعه، ما يستنير لعلم الحليم، وتلقى له البلغاء يد التسليم.

شعره

قال في غرض الحكمة والأمثال:

عز الهوى نقصان والرأي الذي ... ينجيك منه إذا ارتأيت مروما

فإذا رأيت الرأي يتبع الهوى ... خالف وفاقهما تعد حكيما

وكيف تخاف من الحليم مراجياً ... خف من نصيحك ذي السفاهة شوما

واحذر معادات الرجال توقياً ... منهم ظلوماً كنت أو مظلوما

فالناس إما جاهلٌ لا يتقى ... عاراً ولا يخشى العقوبة لؤما

أو عاقلٌ يرمي بسهم مكيدةٍ ... كالقوس ترسل سهمها مسموما

فاحلم عن القسمين تسلم منهما ... وتسد فتدعي سيداً وحليما

ودع المعادات التي من شأنها ... أن لا تديم على الصفاء قديما

أبت المغالبة الوداد فلا تكن ... ممن يغالب ما حييت نديما
وإذا منيت بقربه فاخفض له ... جناح الذل واخضع ظاعناً ومقيما
إن الغريب لكالقضيب محاير ... إن لم يمل للريح عاد رميما
وارع الكفاف ولا تجاوز حده ... ما بعده يجنى عليك هموما
وابسط يديك متى غنيت ولا تكن ... فيما يكون به المديح ذميما
وإذا بذلت فلا تبذر إن ذا التب ... ذير يومئذ أخوه رجيما
وعف الورود إذا تزاحم موردٌ ... واحسب ورود الماء منه حميما
واصحب كريم الأصل ذا فضلٍ فمن ... يصحب لئيم الأصل عد لئيما
فالفضل من لبس الكرام فمن عرا ... عنه فليس لما يقول كريما
إن المقارن بالمقارن يقتدي ... مثلٌ جرى جرى الرياح قديما
وجماع كل الخير في التقوى فلا ... تعدم حلي التقوى تعد عديما
وقال يصف الشيب من قصيدة، وهي طويلة، أولها:
لاح الصباح صباح شيب المفرق ... فاحمد سراك نجوت مما تتقى
هي شيبة الإسلام فاقدر قدرها ... قد أعتقتك وحق قدر المعتق
خطت بفودك أبيضاً في أسودٍ ... بالعكس من معهود خطٍ مهرق
كالبرق راع بسيفه طرف الدجا ... فأعار دهمته شتات الأبلق
كالفجر يرسل في الدجنة خيطه ... ويجر ثوب ضيائه بالمشرق
كالماء يستره بقعر طحلب ... فتراه بين خلاله كالزئبق
كالحية الرقشاء إلا أنه ... لا يبرأ الملسوع منه إذا رقى
كالنجم عد لرجم شيطان الصبا ... يا ليت شيطان الصبا لم يحرق
كالزهر إلا أنه لم يستتم ... إلا بغصن ذابلٍ لم يورق
كتبسم الزنجي إلا أنه ... يبكي العيون بدمعه المترقرق
وكذا البياض قذى العيون ولا ترى ... للعين أبكي من بياض المفرق

ما للغواني وهو لون خدودها ... يجزعن من لألائه المتألق
وأخلته لمع السيوف ومن يشم ... لمع السيوف على المفارق يفرق
هو ليس ذاك ولا الذي أنكرته ... فكن خائفاً ما خفن منه واثق
داءٌ يعز على الطبيب دواؤه ... ويضيع خسرا فيه مال المنفق
لكنه والحق أصدق مقولٍ ... شين المسيء الفعل زين المتقى
ومن مقطوعاته قوله:
أقلى فما الفقر بالمرء عارٌ ... ولا دار من يألف الهون دارا
وما يكسب العز إلا الغنى ... غنى النفس فاتخذه شعارا
وما اجتمع الشمل في غيره ... فيحسن إلا وساء انتشارا
فدهر غيرك لا تنظرن ... فيألم قلبك منه انكسارا

وهزي إليك بجذع الرضى ... تساقط عليك الأماني ثمارا

وقال أيضاً:

العلم حسنٌ وزين ... والجهل قبحٌ وشين

والمال عزٌ وعيشٌ ... والفقر ذلٌ وحين

والناس أعضاء جسم ... فمنهم أستٌ وعين

هذي مقالة حق ... ما في الذي قلت مين

وقال أيضاً:

إن أراك الزمان وجهاً عبوساً ... فتلقاه من بعد ذاك طلقا

لا يهمنك حاله إن في طر ... فة عينٍ ترتاح فيه وتشقى

أي عز رأيت أو أي ذل ... لذوي الحالتين في الدهر يبقى

سل نجوم الدجى إذا ما استنارت ... ما الذي في وقت الظهيرة تلقى

وتفكر وقل بغير ارتيابٍ ... كل شيء يفنى وربك يبقى

وقال أيضاً:

لو أن أيام الشباب تعود لي ... عود النضارة للقضيب المورق

ما إن بكيت على شبابٍ قد ذوى ... وبقيت منتظراً لآخر موق

وقال في القلم:

لك القلم الأعلى الذي طال فخره ... وإن لم يكن إلا قصيراً مجوفا

تعلم منه الناس أبدع حكمة ... فها هو أمضى ما يكون محرفا

وقال في التشبيه:

كأنما السوسن الغض الذي افتتح ... ت منه كمائمه المبيضة اللون

بنان كف فتاةٍ قط ما خضبت ... تلقى بها من يراها خيفة العين

وقال يعرض بقوم من بني أرقم:

إذا ما نزلت بوادي الآشى ... فقل رب من لدغه سلم

وكيف السلامة في موطنٍ ... به عصبةٌ من بني أرقم

وقال موريا بالفقه. وهو بديع:

لي دينٌ على الليالي قديمٌ ... ثابت الرسم منذ خمسين حجة

أقاعداً بالحكم عليها أم لها ... في تقادم الدهر حجة

ونختم مقطوعاته بقوله:

نجوت بفضل الله مما أخافه ... ولم لا وخير العالمين شفيع

وما ضعت في الدنيا بغير شفاعة ... فكيف إذا كان الشفيع أضيع

وقال أيضاً:

عليك بتقوى الله فيما ترومه ... من الأمر تخلص بالمرام وبالأجر

ولا ترج غير الله في نيل حاجةٍ ... ولا دفع ضرٍ في سرار ولا جهر

فمن أم غير الله أشرك عاجلا ... وفارقه إيمانه وهو لا يدر

وفاته: توفي قاضياً ببرجة، وسيق إلى غرناطة فدفن بباب إلبيرة عصر يوم الأربعاء آخر يوم من ربيع عام خمسة وأربعين وسبعمائة.

خالد بن أبي خالد البلوي

خالد بن عيسى بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي من أهل قنتورية، من حصون وادي المنصورة.

حاله

هذا الرجل من أهل الفضل والسذاجة، كثير التواضع، منحط في ذمة التخلق، نابه الهيئة، حسن الأخلاق، جميل العشرة، محبٌ في الأدب، قضى ببلده وبغيره، وحج وقيد رحلته في سفر، وصف فيه البلاد ومن لقي، بفصول جلب أكثرها من كلام العماد الأصبهاني، وصفوان وغيرهما، من ملح. وقفل إلى الأندلس، وارتسم في تونس في الكتابة عن أميرها زماناً يسيراً، وهو الآن قاض ببعض الجهات الشرقية.

وجرى ذكره في الرحلة التي صدرت عني في صحبة الركاب السلطاني عند تفقد البلاد الشرقية، في فصل حفظه الناس، وأجروه في فكاهاتهم وهو:

حتى إذا الفجر تبلج. والصبح من باب المشرق تولج، عدنا وتوفيق الله قائدٌ، وكنفنا من عنايته صلةٌ وعائدٌ، تتلقى ركابنا الأفواج، وتحيينا الهضاب والفجاج إلى قنتورية، فناهيك من مرحلة قصيرة كأيام الوصال، قريبة البكر من الآصال، كان المبيت بإزاء قلعتها السامية الارتفاع، الشهيرة الامتناع، وقد برز أهلها في العديد والعدة، والاحتفال الذي قدم به العهد على طول المدة، صفوفاً بتلك البقعة خيلاً ورجلا كشطرنج الرقعة، لم يتخلف ولدٌ عن والدٍ، وركب قاضيها ابن أبي خالد، وقد شهرته النزعة، الحجازية، وقد لبس من الحجازي، وأرخى من البياض طيلسانا، وتشبه بالمشارقة شكلاً ولسانا، وصبغ لحيته بالحناء والكتم، ولاث عمامته واختتم، والبداوة تسمه على الخرطوم، وطبع الماء والهواء يقوده قود الجمل المخطوم، فداعبته مداعبة الأديب للأديب، والأريب للأريب، وخبرته بين خصلتين، وقلت نظمت مقطوعتين، إحداهما مدحٌ، والأخرى قدحٌ، فإن همت ديمتك، وكرمت شيمتك، فللذين أحسنوا الحسنى. وإلا فالمثل الأدنى. فقال: انشدني لأرى على أي أمري أتيت، وأفرق بين ما جنيتني وما جنيت، فقلت:

قالوا وقد عظمت مبرة خالد ... قاري الضيوف بطارفٍ وبتالد

ماذا تممت به فجئت بحجة ... قطعت بكل مجادل ومجالد

أن يفترق نسبٌ يؤلف بيننا ... أدبٌ أقمناه مقام الوالد

وأما الثانية فيكفي من البرق شعاعه، وحسبك من شر سماعه. ويسير التنبيه كافٍ للنبيه، فقال، لست إلى قراي بذي حجة، وإذا عزمت فأصالحك على دجاجة، فقلت ضريبةٌ غريبةٌ، ومؤنةٌ قريبةٌ، عجل ولا تؤجل، وإن انصرم أمد النهر فأسجل، فلم يكن إلا كلا ولا، وأعوانه من القلعة تنحدر، والبشر منهم بقدومها يبتدر، يزفونها كالعروس فوق الرؤوس، فمن قائل يقول أمها يمانية، وآخر يقول أخوها الخصي الموجه إلى الحضرة العلية، وأدنوا مرابطها من المضرب بعد صلاة المغرب، وألحقوا في السؤال، وتشططوا في طلب النوال، فقلت يا بني اللكيعة جتتم ببازي، بماذا كنت أجازي، فانصرفوا وما كادوا يفعلون، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، حتى إذا سلت لذبحها المدى، وبلغت من طول أعمارها المدى، قلت يا قوم ظفرتم بقرة العين، وابشروا باقتراب اللقاء، فقد ذبحت لكم غراب

البين.
ولقد بلغني أنه لهذا العهد بعد أن طال المدى، يتظلم من ذلك، وينطوي من أجله على الوجدة، فكتبت إليه: وصل الله عزة الفقيه النبيه، العديم النظير والتشبيه، وارث العدالة عن عمه وابن أبيه، في عزة تظلله، وولاية تتوج جاهه وتكاله.
داود بن سليمان

بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر

ابن حوط الله الأنصاري الحارثي الأندي يكنى أبا سليمان.
أوليته
قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير، من بيت علم وعفاف، أصله من أندة، حصن بشرقي الأندلس، وانتقل أبو سليمان هذا مع أخيه أبي محمد إلى حيث يذكر بعد.
حاله
قال ابن عبد الملك، كان حافظاً للقراءة، عارفاً بإقراء القرآن بها، أتقن ذلك عن أبيه، ثم أخيه كبيره أبي محمد، محدثاً متسع الرواية، شديد العناية بها، كثير السماع، مكثراً، عدلاً، ضابطاً لما ينقله، عارفاً بطرق الحديث، أطال الرحلة في بلاد الأندلس، شرقها وغربها، طالبا للعلم بها، ورحل إلى سبتة وغيرها، من بلاد الأندلس العدوية، وعني بلقاء الشيوخ كباراً وصغاراً، والأخذ منهم، أتم عناية، وحصل له بذلك ما لم يحصل لغيره، وكان فهيماً بصيراً بعقد الشروط، حاذقاً في استخراج نكتها، تلبس بكتبها زماناً طويلاً بمسجد الوحيد من مالقة، وكان محباً في العلم وأهله، حريصاً على إفادته أياهم، صبوراً على سماع الحديث، حسن الخلق طيب النفس، متواضعاً، ورعاً، منقبضاً، لين الجانب، مخفوض الجناح، حسن الهدى، نزيه النفس، كثير الحياء، رقيق القلب، تعدد الثناء عليه من الجلة.
قال ابن الزبير، كان من أهل العدالة والفضل، وحسن الخلق، وطيب النفس والتواضع، وكثرة الحياء. وقال ابن عبد المجيد، كان ممن فضله الله بحسن الخلق والحياء على كثير من العلماء. وقال أبو عبد الله بن سلمة مثل ذلك.
وقال ابن... بمثله.
مشيخته

قال الأستاذ، أقرأ بمرسيه، وأخذ بها، وبقرطبه، ومالقة، وإشبيلية، وغرناطة وسبتة، وغيرها من بلاد الأندلس.
وغرب العدوه، واعتناؤه يعينه وأخاه بباب الرواة، والأخذ عن الشيوخ، حتى اجتمع لهما ما لم يجتمع لأحد من أهل عصرهما، فمن ذلك أبوهما أبو داود، وأبو الحسن صالح بن يحيى بن صالح الأنصاري، وأبوالقاسم بن حسن، وأبوعبد الله بن حميد، وأبو زيد السهيلي، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن عراق الغافقي، وأبوالعباس يحيى بن عبد الرحمن المجريطي، وعن ابن بشكوال، وأخذ عن أبي بكر بن الجد، وأبي عبد الله بن زرقون، وأبي محمد ابن عبد الله، وأبي عبد الله بن الفخار الحافظ، وأبي العباس بن مضاء، وأبي محمد ابن بونة، وأبي محمد بن عبد الصمد بن يعيش الغساني، وأبي بكر بن أبي حمزة، وأبي جعفر بن حكم الزاهد، وأبي خالد بن يزيد بن رفاعة، وأبي محمد عبد المنعم ابن الفرس، وأبي الحسن بن كوثر، وأبي عبد الله بن عروس، وأبي بكر بن أبي زمنين، وأبي محمد بن جمهور، وأبي بكر بن النيار، وأبي الحسن بن محمد بن عبد العزيز الغافقي الشقوري، وأبي القاسم الحوفي القاضي، وأبي بكر بن بيش بن

محمد ابن بيش العبدري، وأبي الوليد بن جابر بن هشام الحضرمي، وأبي بكر ابن مالك الشريشي، وأبي عبد اليسر الجزيري، وأبي بكر بن عبد الله السكسكي وأبي الحجاج ابن الشيخ الفهري، وغيرهم ممن يطول ذكرهم.
قضاؤه وسيرته فيه

قال ابن الربيع لازمت ابني حوط الله، فكان أبو محمد يفوق أخاه والناس في العلم، وكان أبو سليمان يفوق أخاه والناس في الحلم. واستقضى بسبتة والمرية والجزيرة الخضراء، وقام قاضياً بها مدة، ثم نقل منها إلى قضاء بلنسية آخر ثمان وستمائة، ثم صرف بأبي القاسم بن نوح، وقدم على القضاء بمالقة في حدود إحدى عشر وستمائة، فشكرت أحواله كلها، وعرف في قضائه بالنزاهة. قال أبو عبد الله بن سلمة، كان إذا حضر خصوم، ظهر منه من التواضع ووطأة الأكناف، وتبيين المراشد والصبر على المداراة، والملاطفة، وتحبيب الحق، وتكريه الباطل، ما يعجز عنه، ولقد حضرته، وقد أوجبت الأحكام عنده الحدود على رجل، فهاله الأمر، وذرفت عيناه، وأخذ يعتب عليه ويؤنبه على أن ساق نفسه إلى هذا، وأمر بإخراجه ليحد بشهود في موضع آخر لرقة نفسه، وشدة إشفاقه، واستمرت ولايته بمالقة إلى أن توفي.
مولده
ببلدة أندة سنة ستين وخمسمائة
وفاته
قال أبو عبد الرحمن بن غالب، توفي إثر صلاة الصبح من يوم السبت سادس ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وستمائة، ودفن إثر صلاة العصر يوم وفاته، بسفح جبل فارة، في الروضة المدفون بها أخوه أبو محمد، فأتبعه الناس ثناءً جميلا، ذكر، واختلفوا في جنازته، وخرج إليها النساء، والصبيان داعين متبكين.
رضوان النصري

الحاجب المعظم

حسنة الدولة النصرية، وفخر مواليها.
أوليته
رومي الأصل. أخبرني أنه من أهل القلصادة، وأن انتسابه يتجاذبه القشتالية من طرف العمومة، والبرجلونية من طرف الخؤولة، وكلاهما نبيه في قومه. وأن أباه ألجأه الخوف بدم ارتكبه في محل أصالته من داخل قشتالة إلى السكني بحيث ذكر، ووقع عليه سباءٌ في سن الطفولية، واستقر بسببه بالدار السلطانية، ومحض إحراز رقه، السلطان دايل قومه، أبو الوليد المار ذكره، فاختص به، ولازمه قبل تصيير الملك إليه، مؤثراً له مغتبطاً بمحائل فضله، وتماثل استقامته، ثم صير الملك إليه فندرج في معارج حظوته، واختص بتربية ولده، وركن إلى فضل أمانته، وخلطه في قرب الجوار بنفسه، واستجلى الأمور المشكلة بصدقه، وجعل الجوائز السنيه لعظماء دولته على يده، وكان يوجب حقه، ويعرف فضله، إلى أن هلك، فتعلق بكنف ولده، وحفظ شمله، ودبر ملكه، فكان آخر اللخف، وستراً للحرم، وشجىً للعدا وعدة في الشدة، وزيناً في الرخاء، رحمة الله عليه.
حاله وصفته

كان هذا الرجل مليح الشيبة والهيئة. معتدل القد والسحنة، مرهب البدن. مقبل الصورة، حسن الخلق، واسع الصدر، أصيل الرأي، رصين العقل، كثير التجمل، عظيم الصبر، قليل الخوف من الهيعات، ثابت القدم في الأزمات، ميمون النقيبة، عزيز النفس، عالي الهمة، بادي الحشمة، آية في العفه، مثلاً في النزاهة، ملتزماً للسنة، دؤباً على الجماعة، جليس القبلة، شديد الإدراك مع السكون، ثاقب الذهن مع إظهار الغفلة، مليح الدعابة مع الوقار والسكينة، مستظهراً لعيون التاريخ، ذاكراً للكثير من الفقه والحديث، كثير الدالة على تصوير الأقاليم وأوضاع البلاد، عارفاً للسياسة، مكرماً للعلماء، متركاً للهوادة، قليل التصنع، نافراً من أهل البدع، متساوي الظاهر والباطن، مقتصداً في المطعم والملبس.

مكانته من الدين

أتفق على أنه لم يعاقر مسكراً قط ولا زن بهناة، ولا لطخ بريبة، ولا وصم بخلة تقدح في منصب، ولا باشر عقاب جاز، ولا أظهر شفاء من غائظ، ولا اكتسب من غير التجر والفلاحة مالا.

آثاره

أحدث المدرسة بغرناطة. ولم تكن بها بعد، وسبب إليها الفوائد ووقف عليها الرباع المغلة، وانفرد بمنقبها، فجاءت نسيجة وحدها بهجة وصدراً وظرفاً وفخامة، وجلب الماء الكثير إليها من النهر، فأبد سقيه عليها، وأدار السور الأعظم على الربض الكبير المنسوب للبيازين، فانتظم منه النجد والغور، في زمان قريب، وشارف التمام إلى هذا العهد، وبنى من الأبراج المنيعة في مثالم الثغور وروابي مطالعها المنذرة، ما ينيف على أربعين برجا، فهي ماثلة كالنجوم ما بين البحر الشرقي من ثغر بيرة إلى الأحواز الغربية، وأجرى الماء بجبل مورور، مهتدياً إلى ما خفي على من تقدمه، وأفذاذ أمثال هذه الأنقاب يشق تعداده.

جهاده: غزا في السادس والعشرين من محرم عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة بجيش مدينة باغة، وهي ما هي من الشهرة، وكرم البقعة، فأخذ بمخنقها، وشد حصارها وعاق الصريخ عنها، فتملكها عنوة، وعمرها بالحماة ورتبها بالمرابطة، فكان الفتح فيها عظيما، وفي أوائل شهر المحرم من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة غزا بالجيش عدو المشرق، وطوى المراحل مجتازاً على بلاد قشتالة، لورقة ومرسية، وأمعن فيها، ونازل حصن الملور، وهو حصن أمن غائلة العدو مكتنفٌ بالبلاد، مد بالبسيني، موضوعٌ على طية التجارة، وناشبه القتال، فاستولى عنوة عليه منتصف المحرم من العام المذكور، وآب مملوء الحقائب سبياً وغنماً. وغزواته كثيرة، كمظاهرة الأمير الشهير أبي مالك على منازلة جبل الفتح، وما اشتهر عنه فيه من الجد والصبر، وأوثر عنه من المنقبة، الدالة على صحة اليقين، وصدق الجهاد، إذ أصابه سهم في ذراعه وهو يصلي، فلمي شغله عن صلاته، ولا حمله توقع الإغارة على إبطال عمله.

ترتيب خدمته وما تخلل عن ذلك من محنته: لما استوثق أمر الأمير المخصوص بتربيته، محمد ابن أمير المسلمين أبي الوليد نصر، وقام بالأمر وكيل أبيه الفقيه أبو عبد الله محمد بن المحروق، ووقع بينه وبين المترجم عهدٌ على الوفاء والمناصحة، ولم يلبث أن نكبه وقبض عليه ليلة كذا من رجب عام ثمانية وعشرين وسبعمائة، وبعثه ليلا إلى مرسي المنكب، واعتقله في المطبق من قصبتها بغياً عليه، وارتكب فيه أشنوعة أساءت به العامة، وأنذرت باختلال الحال، ثم أجازه البحر، فاستقر بتلمسان، ولم يلبث أن قتل المذكور، وبادر سلطانه الموتور بفرقته عن سدته، فاستدعاه فلحق محله من هضبة الملك متملياً ما شاء من عز وعناية، فصرفت إليه المقاليد، ونيطت به الأمور، وأسلم إليه الملك، وأطلقت يده في المال، واستمرت الأحوال إلى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة، والتأث الأمر وظهر من سلطانه التنكر

عليه، فعاجله الحمام فخلصه الله منه، وولى أخوه أبو الحجاج من بعده، فوقع الإجماع على اختياره للوزارة أوائل المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، فرضي الكل به، وفرحت العامة والخاصة للخطة، لارتفاع المنافسات بمكانه، ورضي الأضداد بتوسطه، وطابت النفوس بالأمن من غائلته، تفولى الوزارة وسحب أذيال الملك، وانفرد بالأمر واجتهد في تنفيذ الأحكام، وتقدم الولاة، وجواب المخاطبات، وقواد الجيوش، إلى ليلة الأحد الثاني والعشرين من رجب عام أربعين وسبعمائة، فنكبه الأمير المذكور نكبة ثقيلة البرك، هائلة الفجأة من غير زلة مأثورة، ولا سقطة معروفة، إلا ما لا يعدم بأبواب الملوك من شرور المنافسات، ودبيب السعايات الكاذبة، وقبض عليه بين يدي محراب الجامع من الحمراء إثر صلاة المغرب، وقد شهر الرجال سيوفهم فوقه يحفون به، ويقودونه إلى بعض دور الحمراء، وكبس ثقات السلطان منزله، فاستوعبوا ما اشتمل عليه من نعمة، وضم إلى المستخلص عقاره، وسوغ الخبر عظيم غلاته، ثم نقل بعد أيام إلى قصبة ألمرية محمولا على الظهر، فشد بها اعتقاله، ورتب الحرس عليه إلى أوائل شهر ربيع الثاني من عام أحد وأربعين وسبعمائة، فبدا للسلطان في أمره واضطر إلى إعادته، ووجد فقد نصحه، وأشفق لما عدم من أمانته، والانتفاع برأيه، وعرض عليه بما لنوم الكف والإقصار عن ضره، فعفا عنه، وأعاده إلى محله من الكرامة، وصرف عليه من ماله، وعرض الوزارة فأباها، واختار برد العافية، وأنس لذة التخلي، فقدم لذلك من سد الثغور، فكان له اللفظ، ولهذا الرجل المعنى، فلم يزل مفزعاً للرأي، محلى في العظة على الولاية، كثير الآمل والغاشي، إلى أن توفي السلطان المذكور غرة شوال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة، فشعب الثأي، وحفظ البلوى، وأخذ البيعة لولده سلطاننا الأسعد أبي عبد الله، وقام خير قيام بأمره، وجرى على معهود استبرائه. وقد تحكمت التجربة، وعلت السن، وزادت أنة الخشية، وقربت من لقاء الله الشقة، فلا تسأل عما حط من خل، وأفاض من عدل، وبذل من مداراة، وحلول عقد السلم، وسد أمور الجند على القل، ودامت حاله متصلة على ما ذكره، وسنه تتوسط عشر التسعين إلى أن لحق بربه. وقد علم الله أني لم يحملني على تقرير سيرته، والإشادة بمنقبته داعيةٌ، وإنما هو قول بالحق، وتسليم لحجة الفضل، وعدل في الوصف، والله عز وجل يقول: وإذا قلتم فأعدلوا

وفاته

في ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان من عام ستين وسبعمائة، طرق منزله بعد فراغه من إحياء ثلث الليل، متبذل اللبسة، خالص الطوية، مقتضياً للأمن مستشعراً للعافية، قائماً على المسلمين بالكل حاملا للعظيمة، وقد بادره الغادرون بسلطانه، فكسروا غلقه بعد طول معالجة، ودخلوا عليه وقتلوه بين أهله وولده، وذهبوا إلى الدايل برأسهن وفجعوا الإسلام، بالسائس الخصيب المتغاضي، راكب متن الصبر، ومطوق طوق النزاهة والعفاف، وآخر رجال الكمال والستر. الضافي على الأندلس، ولوئم من الغدبين رأسه وجسده، ودفن بإزاء لحود مواليه من السبيكة ظهراً، ولم يشهد جنازته إلا القليل من الناس، وتبرك بعد بقبره. وقلت عند الصلاة عليه، أخاطبه دون الجهر من القول لمكان التقية:

أرضوان لا توحشك فتكة ظالم ... فلا موردٌ إلا سيتلوه مصدر

ولله سرٌ في العباد مغيبٌ ... يشهد بخافيه القضاء المقدر

سميك مرتاحٌ إليك مسلم ... عليك ورضوان من الله أكبر

فحث المطاليس النعيم منغصٌ ... ولا العيش في دار الخلود مكدر

زاوي بن زيري

بن مناد الصنهاجي

الحاجب المنصور، يكنى أبا مثنى.

أوليته

قد مر ما حدث بين أبيه زيري وبين قرابته من ملوك إفريقية، وباديس بن منصور من المشاحنة التي أوجبت مخاطبة المظفر بن أبي عامر في اللحاق بالأندلس، وإذنه في ذلك. فدخل الأندلس، منهم على عهده جماعة وافرة من مساعير الحروب وآثار الحتوف، مع شيخهم هذا وأميرهم، ودخل منهم معه أبناء أخيه ماكسن وحباسة وحبوس، وقاموا في جملة المظفر، وزاوي مخصوصٌ باسم الحجابة، فلما اختل بناء الخلافة، بمحمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي، أذلهم وتنكر لهم، وأشاع بينهم وبين أمثالهم من البرابر، المغايرة، فكان ذلك سبب الفتنة التي يسميها أهل الأندلس بالبربرية، فانحاشوا، ونفروا عهده، وبايعوا سليمان بن الحكم، واستعانوا بالنصارى، وحركوا على أهل قرطبة خصوصاً، وعلى أهل الأندلس عموماً، ما شاء الله من استباحة، وإهلاك النفوس، وغلبوا على ملك الأندلس، وما وراء البيضة، واقتسموا أمهات الأقطار، وانحازوا إلى بلاد تضمهم، فانحازت صنهاجة مع رئيسهم المذكور إلى غرناطة، فأووا إليها، واتخذوها ملجأ، وحماها زاوي المذكور، وأقام بها ملكاً، وأثل بها سلطاناً لنويه، فهو أول من مدن غرناطة، وبناها وزادها تشييداً ومنعة، واتصل ملكه بها، وارتشحت عروقه، إلى أن كان من ظهوره بها وأحوازها، على عساكر الموالي، الراجعين بإمامهم المرتضى إلى قرطبة، البادين بقتاله، والآخذين بكظمه، بما تقرر ويتقرر في اسم المرتضى، من باب المحمدين بحول الله.

وكان زاوي كبش الحروب، وكاشف الكروب، خدم قومه شهير الذكر أصيل المجد، المثل المضروب في الدهاء، والرأي، والشجاعة، والأنفة، والحرم. قال بعضهم، أحكم التدبير، والدولة تسعده، والمقادر تنجده، وحكيت له في الحروب حكايات عجيبة.

بعض أخباره في الرأي

قال أبو مروان، وقد مر ذكر الفتنة البربرية، لما خلص ملأ القوم، لتشاور أميرهم وهم فرض في خروجهم من قرطبة، عند ما انتهوا إلى فحص هلال، واجتمعوا على التأسي، وضرب لهم زعيمهم زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي، مثلا بأرماح خمسة جمعها مشدودة، ودفعها لأشد من حضره منهم، وقال، إجهد نفسك في كسرها كما هي وأغمزها، فعالج ذلك فلم يقدر عليه، فقال له حلها وعالجها رمحاً رمحاً، فلم يبعد عليه دقها، فأقبل على الجماعة، فقال: هذا مثلكم يا برابرة، إن جمعتم لم تطاقوا، وإن تفرقتم لم تبقوا، والجماعة في طلبكم، فانظروا لأنفسكم وعجلوا، فقالوا نأخذ بالوثيقة، ولا نلقى بأيدينا إلى التهلكة، فقال هم بايعوا لهذا القرشي سليمان، يرفع عنكم الأنفة في الرياسات، وتستميلون إليه العامة بالجنسية، ففعلوا، فلما تمت البيعة، قال إن مثل هذا الحال لا يقوى على أهل الإستطالة، فيقيد له رئيس كل قبيله منكم، قبيلة يتكفل السلطان بتقويمهم، وأنا الكفيل بصنهاجة، قال، وامتارت بطون القبائل على أرحامها، وقبائلها إلى أفخاذها وفصائلها، فاجتمع كل فريق منهم على تقديم سيده، فاجتمعت صنهاجة على كبيرها زاوي، ولم تزل تلك القبائل المتألفة بالأندلس لطاعة أميرها، المنادين له إلى ان أورثوهم الإمارة.

التوقيع قالوا، ولما نازله المرتضى الذي أجلب به الموالي العامريين بظاهر غرناطة، خاطبه بكتاب يدعوه فيه إليه طاعته، وأجمل موعده فيه، فلما قرىء على زاوي قال لكاتبه، اكتب على ظهر رقعته: قل يا أيها الكافرون السورة. فلما بلغت المرتضى أعاد عليه كتاباً يعده فيه بوعيده، فلما قرىء على زاوي، قال رد عليه: ألها كم التكاثر إلى

آخرها، فازداد المرتضى غيظاً، وناشبه القتال، فكان الظهور لزاوي.
قال المؤرخ، واقتتلت صهناجه مع أميرهم مستميتين لما دهمهم من بحر العساكر، على انفرادهم وقلة عددهم، إلى أن انهزم أهل الأندلس، وطاروا على وجوههم، مسلموهم وإفرنجهم، لا يلوون على أحد، فأوقع البرابر بهم السيف، ونهبوا تلك المحلات، واحتووا على مالا كفاء له اتساعاً وكثرة، ظل الفارس يجيء من أتباع المنهزمين ومعه العشرة، ولا تسل عما دون ذلك من فاخر النهب، وخير الفساطيط، ومضارب الأمراء والرؤساء.

قال ابن حيان: فحل بهذه الوقيعة على جماعة الأندلس مصيبةٌ أنست ما قبلها، ولم يجتمع لهم جمعٌ بعدها وفروا بإدبار، وباءوا بالصغار.
منصرفه عن الأندلس

قال المؤرخ، ولهول ما عاينه زاوي من اقتدار أهل الأندلس في أيام تلك الحروب وجعاجعهم، وإشرافهم على التغلب عليه، هان سلطانه عنده بالأندلس، وخرج عنها نظراً إلى عاقبة أمره، ودعا بجماعة من قومه لذلك فعصوه، وركب البحر بجيشه وأهله، فلحق بإفريقية وطنه. قال، فكان من أغرب الأخبار في الدولة الحمودية انزعاج ذلك الشيخ زاوي عن سلطانه بعد ذلك الفتح العظيم الذي ناله على أهل الأندلس، وعبوره البحر، بعد أن استأذن ابن عمه المعز بن باديس، فأذن له. وحرص بنو عمه بالقيروان، على رجوعه لهم لحال سنه، وتقريبهم يومئذ من مثله من مشيختهم لمهلك جميع إخوتهم، وحصوله هو على مقرر بني مناد الغريب الشأن، في أن لا تحجب عنهم نساؤهم وكن زهاء ألف امرأة في ذلك الوقت، هن ذوات محرم من بنات أخوته وبناتهن وبين بنيهن. وكان رحيل زاوي عن الأندلس سنة ستة عشر وأربعمائة. قال ابن حيان، وأخبار هذا الداهية كثيرة، وأفعاله ونوادره مأثورة.
زهير العامري

فتى المنصور بن أبي عامر

حاله

كان شهماً داهية، سديد المذهب، مؤثراً للأناة، ولي بعد خيران صاحب ألمرية، وقام بأمره أحمد قيام، سنة تسعة عشر وأربعمائة، يوم الجمعة لثلاث خلون من جمادى الأولى. وكان أميراً بمرسية، فوجه عند خيران حين أحس بالموت، فوصل إليه، وكان عنده إلى أن مات، فخرج زهير مع ابن عباس إلى الناس، فقال لهم، أما الخليفة خيران فقد مات، وقد قدم أخاه زهيراً هذا. فما تقولون: فرضي الناس به، فدامت مدة ولايته عشرة أعوان ونصف عام إلى أن قتل.
مناقبه
قال أبو القاسم الغافقي، وكان حسن السيرة جميلها، بنى المسجد في ألمرية، ودار فيه من جهاته الثلاث، المشرق والمغرب والجوف، وبني مسجداً ببجانة، وشاور الفقهاء، وعمل بقولهم، وملك قرطبة، ودخل قصرها، يوم الأحد لخمس بقين من شعبان سنة خمس وعشرين وأربعمائة، ودام سلطانه عليها خمسة عشر شهراً ونصف شهر.
قال ابن عذاري، وأما زهير الفتى فامتدت أطناب مملكته من ألمرية إلى قرطبة ونواحيها، وإلى بياسة، وإلى القج من أول طليطلة. وقالوا: قر ما بينه وبين باديس فأرسل باديس، إلى زهير رسوله مكاتباً مستدعياً تجديد المحالفة، فسارع زهير، وأقبل نحوه، وضيع الحزم، واغتر بالعجب، ووثق بالكثرة. أشبه شيء بمجيء الأمير الضخم إلى عامل من

عماله قد ترك رسم الالتقاء بالنظراء وغير ذلك من وجوه الحزم وأعرض عن ذلك كله، وأقبل ضارباً بسوطه، حتى تجاوز الحد الذي جرت العادة بالوقوف عنده من عمل باديس دون إذنه، وصير الأوعار والمضايق خلف ظهره، فلا يفكر فيها، واقتحم البلد، حتى صار إلى باب غرناطة. ولما وصل خرج باديس في جمعه، وقد أنكر اقتحامه عليه، وعده حاصلاً في قبضته، فبدأه بالجميل والتكريم، وأوسع عليه وعلى رجاله في العطاء والقرى، والتعظيم بما مكن اغترارهم، وثبت طمأنينتهم، ووقعت المناظرة بين زهير وباديس، ومن حضرهما من رجال دوليتهما، فنشأ بينهما عارض الخلاف لأول وهلة، وحمل زهير أمره على التشطط، فعزم باديس على اللقاء ووافقه عليه قوم من خدامه، فأقام المراتب، ونصب الكتائب، وقطع قنطرة لا محيد عنها لزهير، والحائن لا يشعر، وغاداه عن تعبية محكمة، فلم يرعه إلا رجة القوم راجعين، فدهش زهير وأصحابه، إلا أنه أحسن تدبير الثبات لو استتمه، وقام فنصب الحرب، وثبت في قلب العسكر، وقدم خليفته هذيلا في وجوه أصحابه إلى الموالي، فلما رأتهم صنهاجة، علموا أنهم الحماة والشوكة، ومتى حصدوا لم يثبت من وراءهم، فاختلطوا بهم، واشتد القتال، فحكم الله لأقل الطائفتين من صنهاجة ليرى قدرته، فانهزم زهير وأصحابه وتقطعوا، وعمل السيف فيهم فمزقوا، وقتل زهير، وجهل مصرعه، وغنم رجال باديس من المال والمرافق والأسلحة والحيلة والعدة والغلمان والخيام، ما لا يحاط بوصفه. وكانت وفاة زهير يوم الجمعة عقب شوال، سنة تسع وعشرين وأربعمائة بقرية ألفنت خارج غرناطة.

طلحة بن عبد العزيز

بن سعيد البلطيوسي

وأخواه أبو بكر وأبو الحسن بنو القبطرنة يكنى أبا محمد.

حالهم

كانوا عيوناً من عيون الأدب بالأندلس، ممن اشتهروا بالظرف، والسرو والجلالة. وقال أبو الحسن بن بسام وقد ذكر أبا بكر منهم، فقال، أحد فرسان الكلام، وحملة السيوف والأقلام، من أسرة أصالة، وبيت جلالة، أخذوا العلم أولا عن آخر، وورثوه كابراً عن كابر، ثلاثة كهقعة الجوزاء، وإن أربوا عن الشهر في السنا والسناء. كتب أبو محمد عبد العزيز وأخواه عن ملك لمتونة، ودخلوا معه غرناطة. ذكر ذلك غير واحد. واجتزأت بذكر أبي محمد، وأتبعه أخويه اختصاراً.

شعره

من شعر أبي محمد، قوله في الاستدعاء:

هلم إلى روضنا يا زه ... ير وخ في سماء المنى يا قمر

وفوق إلى الأنس سهم الإخا ... ء فقد عطلت قوسه والوتر

إذا لم تكن عندنا حاضراً ... فما بغصون الأماني ثمر

وقعت من القلب وقع المنى ... وحزت من العين حسن الحور

قال أبو نصر، بات مع أخويه في أيام صباه، واستطابة جنوب الشباب وصباه، بالمنية المسماة بالبديع، وهو روض كان المتوكل يكلف بموافاته، ويبتهج بحسن صفاته، ويقطف ريحانه وزهره، ويقف عيه إغفاءه وسهره، ويستفزه الطرب متى ذكره، وينتهز فرص الأنس فيه روحاته وبكره، ويدير حمياه على ضفة نهره، ويخلع سره فيه لطاعة

جهره، ومعه أخواه، فطاردوا اللذات حتى أنضوها، ولبسوا برود السرور فما نضوها، حتى صرعتهم العقار، وطلحتهم تلك الأوقار، فلما هم رداء الفجر أن يندي، وجبين الصبح أن يبتدي، قام الوزير أبو محمد فقال:

يا شقيقي وافي الصباح بوجهه ... ستر الليل نوره وبهاؤه

فاصطبح واغتنم مسرة يومٍ ... لست تدري بما يجيء مساؤه

ثم استيقظ أخوه أبو بكر فقال:

يا أخي قم تر النسيم عليلا ... باكر الروض والمدام شمولا

في رياض تعانق الزهر فيها ... مثل ما عانق الخليل خليلا

لا تنم واغتنم مسرة يوم ... إن تحت التراب نوماً طويلا

ثم استيقظ أخوهما أبو الحسن وقد ذهب من عقله الوسن فقال:

يا صاحبي ذرا لومي ومعتبتي ... قم نصطبح قهوة من خير ما ذخروا

وبادرا غفلة الأيام واغتنما ... فاليوم خمرٌ ويبدو في غد خبر

وقال أبو بكر في بقرة أخذها له الرنق صاحب قلمورية، وقد أعاد أرضه:

وأفقدنيها الرنق أما حفية ... إذا هي حفت ألفت بين وفدين

تعنفني أمي على أن رثيتها ... وأن أتبعتها الدم من عين

لها الفضل عندي أرضعتني ... وبالرغم ما بلغتني وأمي حولين

محمد بن إسماعيل بن نصر

محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر الرئيس المتوثب على الملك، وحي كرسي الإمارة، وعاقد صفقة الخسران المبين، يكنى أبا عبد الله.

أوليته، معروفة.

حاله

: من نفاضة الجراب وغيره كان شيطاناً، ذميم الخلق، حرفوشاً، على عرف المشارقة، مترامياً للخسائس، مألفاً للدعرة والأجلاف والسوار وأولى الريب، خبيثاً كثير النكر، منغمساً في العهن، كلفاً بالأحداث، متقلباً عليهم في الطرق، خليع الرسن، ساقط الحشمة، كثير التبذل، قواد عصبة كلاب، معالجاً لأمراضها، مباشراً للصيد بهما، راجلاً في ثياب منتاب الشعر من الجلود والسوابل والأسمال، عقد له السلطان على بنته لوقوع القحط في رجال بيتهم، ونوهه بالولاية، وأركبه، وأغضى له عن موبقات تقصر به، إلى أن هلك، وحاد الأمر عن شقيق زوجه، واستقر في أخيه، وثقل على الدولة، لكراهة طلعته، وسوء الأحدوثة به، فأمر بترك المباشرة، والدخول للقلعة، وأذن له في التصرف في البلد والفحص، وأبقيت عليه النعمة، فداخل أم زوجه، وضمن لها تمام الأمر لولدها، وأمدته بالمال، فنظر من المساعير شيعةً، من كسرة الأغلاق، وقتلة الزقاق، ومختلسي البضائع، ومخيفي السابلة، واستضاف من أسافلة الدولة، من آسفته بإقصار قصد، أو مطل وعد، أو حط رتبة، أو عزل عن ولاية، فاستظهر منهم بعدد ولا، كالشقي الدليل الموروي، الغريب الطور، وإبراهيم بن أبي الفتح المنبوذ بالإضليع، قريع الجهل، ومستور العظيمة، وارتادوا عورة القلعة، فاهتدوا منها إلى ما شاءوا وتألفوا بخارج، ثم تسللوا ببطن الوادي المعروف بهداره، إلى أن لصقوا بجناح السور الصاعد، الراكبة قوسه جرية النهر، وصعدوا مساوقين جناحه المتصل بسور القلعة، وقد نقص كثير من ارتفاعه، لحدثان إصلاح فيه، فتسوروه عن سلم، ودافع بعض محاربيهم بعضاً، في استباق أدراجه،

فدخلوا البلد في الثلث الأخير من ليلة الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان، عام ستين وسبعمائة، ثم استغلظوا بالمشاعل، وقتلوا نائب الملك رضواناً النصري، سايس الأمر، وبقية المشيخة، واستخرجوا السلطان الذي هو يزيفه، فنصبوه للناس، وتم الأمر، بما دل على احتقار الدنيا عند الله، وانخرط هذا الخب، في طور غريب من التنزل للسلطان، والاستخدام لأمه، والتهالك في نصحه، وخلط نفسه فيه، وتبذل في خدمته، يتولى له الأمور، ويمشي في زي الأشراط بين يديه، ويتأتى لشهواته، ويتظاهر بحراسته. ولما علم أن الأمر يشق تصيره إليه من غير واسطة، بغير انقياد الناس إليه، من غير تدريج كاده، فألطف الحيلة في مساعدته على اللذات، وإغرائه بالخبائث، وشغله بالعهر، وقتله بالشهوات المنحرفة، وجعل يترأ من دنيته وينفق بين الناس من سلع اغتيابه، ويرى الجماهير الإنكار لصنيعه، ويزين لهم الاستعاضة منه بعد ما غلظت شوكته، وضم الرجال إلى نفسه موريا بحفظه، والاستظهار على صونه. وفي الرابع من شعبان عام أحد وستين وسبعمائة، ثار به في محل سكناه في جواره، واستجاش أولياء غدره، وكبس منزله، مداخلا للوزير المشئوم، عاقداً معه صفقة الغدر. وامتنع السلطان بالبرج الأعظم، فاستنزله وقتله، كما مر في اسم المذكور قبل، واستولى على الملك، فلم يختلف عليه اثنان، واشغل طاغية الروم بحرب، كان بينه وبين القطالنيين، فتمالأ لمسالمته، فاغتبط الصنيع وهنا المنحة، وتشطط على الروم في شروط غير معتادة، سامحوه بها مكيدة واستدراجاً، واجتاز أمير المسلمين المصاب بغدره إلى الأندلس، طالباً لحقه، ومبادراً إلى رد أمره، فسقط في يده، ووجه الجيش إليه بمثواه من بلد رندة، فانصرف عنها خائباً، ورجع أدراجه، يشك في النجاة، وتفرغ إليه الطاغية، ففض عليه جمه، وقد أجرت عليه شوكته وقيعةً، نصر الله فيها الدين، وأملى لهذا الوغد فلم يقله العثرة بعدها. ونازل حصونه المهتضمة واستولى على كثير منها، وحام فلم يصحر غلوة، وأكذب ما موه به من البسالة. وظهر للناس بلبس الصوف، وأظهر التوبة على سريرة دخلة، وفسق مبين، وقل ما بيده، ونفد بيت ماله، فلم يجد شيئاً يرجع إليه، من بعد ما سبك الآنية والحلية، وباع العقار لبتذيره، وسحه المال سحاً، في أبواب الأراجيف والاختلاف، والبهج بالغنا، فشرف الإنقاب إلى الفرار، وأزمع إلى الانسلال. وعندما تحرك السلطان إلى غربي مالقة، ونجع أهلها بطاعته ودخلوا في أمره، وسقط عليه الخبر. اشتمل على الذخيرة جمعاء، وهي التي لم تشتمل خزائن الملوك مطلقاً على مثلها، من الأحجار واللؤلؤ والقصب، والتف عليه الجمع المستميت، جمع الضلال ومرد الغي، وخرج عن المدينة

ليلة الأربعاء السابع عشر من جمادى الآخرة. وصوب وجهه إلى سلطان قشتالة، مكظومٌ تجنيه، وموتور سوء جواره، من غير عهد، إلا ما أمل من التبقي عنده من التذميم به، وضمان إتلاف الإسلام، واستباحة البلاد والعباد بنكرته.ة الأربعاء السابع عشر من جمادى الآخرة. وصوب وجهه إلى سلطان قشتالة، مكظومٌ تجنيه، وموتور سوء جواره، من غير عهد، إلا ما أمل من التبقي عنده من التذميم به، وضمان إتلاف الإسلام، واستباحة البلاد والعباد بنكرته. ولما استقر لديه نزله، تقبض عليه، وعلى شر ذمته المنيفة على ثلاثمائة فارس من البغاة، كشيخ جنده الغربي إدريس بن عثمان بن إدريس بن عبد الله بن عبد الحق، ومن سواه، تحصل بسببهم بيد الطاغية، كل ما تسمو إليه الآمال، من جواد فاره، أومنطقة ثقيلة، وسلاح محلي، وجوشن رفيع، ودرع حصينة، وبلبلة منيعة، وبيضة مذهبة، وبزة فاخرة، وصامت عتيد، وذخيرة شريفة، فتخل منهم متولي التسور فجعلهم أسوة رأسهم في القتل، خر بعضهم يومئذ على بعض، في القتل، وأخذتهم السيوف، فحلوا بعد الشهرة، والتمثيل في أزقة المدينة، وإشاعة النداء في الجزيرة، ثاني رجب من العام المؤرخ به، وركب أسوق سايرهم الأداهم، واستخلصهم الإسار، وبارد بتوجيه رؤسهم، فنصبت من فوق العورة التي كان منها تسورهم القلعة، فمكثت بها إلى أن استنزلت ووريت، وانقضى

أمره على هذه الوتيرة مشئوماً دبيراً، لم يمتعه الله بالنعيم، ولا هناه سكنى المحل الكريم، ولا سوغه راحة، ولا ملأه موهبة، ولا أقام على فضله حجة، ولا أعانه على زلفة، إنما كان رئيس السراق وعريف الخراب، وإمام الشرار، ندر يوماص في نفسه، وقد رفعت إليه امرأة من البدو تدعى أنها سرقت دارها، قال: إن كان ليلا بعد ما سد باب الحمراء علي وعلى ناسي، فهي والله كاذبة، إذ لم يبق سارق في الدنيا، أو في البلاد، إلا وقد تحصل خلفه، وقانا الله المحن، وثبتنا على مستقر الرشد، ولا عاقنا عن جادة الاستقامة.

وزراء دولته

استوزر الوزير المشئوم ممدةً في الغي، الوغد، الجهول، المرتاش من السرقة، الحقود على عباد الله لغير علة عن سوء العاقبة، المخالف في الأدب سنن الشريعة، البعيد عن الخير بالعادة والطبيعة، دودة القز، وبغل طاحونة الغدر، وزق القطران، محمد بن إبراهيم بن أبي الفتح الفهري، فانطلقت يده على الإبشار، ولسانه على الأعراض، وعينه على النظر الشزر، وصدره على التأوه والرين، يلقى الرجال كأنه قاتل أبيه، محدقاً إلى كميه، يحترش بهما خبيئة، أو يظن بهما رشوة، فأجاب الله دعاء المضطرين، ورغبات السائلين، وعاجله بالأخذة الرابية، والبطشة القاضية فقبض عليه في ليلة السبت العاشر لرمضان من العام المذكور، وعلى ابن عمه العصر فوط وعلى الحيرا من نواهض بيتهما وأنفذ الأمر بتعريضهم، فمضى حكم الله بهذه المنية الفرعونية فيهم لا تبديل لكلمات الله، قاهر الجبابرة، وغالب الغلاب، وجاعل العاقبة للمتقين.

واستوزر بعده، أولى الناس وأنسبهم إلى دولته، وأحقهم بمظاهرته، المسوس الجبار اليأس والفطرة، المختبل الفكرة، القيل، المرجس، الحول، الشهير، الضجر، محمد بن علي بن مسعود، فميا يلي الناس على طول الحمرة، وانفساح زمان التجربة، أسوأ تدبيراً، ولا أشر معاملة، ولا أبذأ لساناً، ولا أكثر شكوى ومعاتبة، ولا أشح يداً، ولا أجدب خواناً، من ذلك المشئوم، بنعق البوم، ينعق بما لا يسمع، ويسرد الأكاذيب، ويسيء السمع، فيسيء الإجابة، ويقود الجيش فيعود بالخيبة، إلى أن كان القرار، فصحبه إلى مصرعه، وكان ممن استؤثر به القيد الثقيل، والأسر الشديد، والعذاب الأليم، عادة بذلك عبد المالاخوينا، التي كان يحجب سمتها، زمان ترفيهه، فقضت عليه سيء الميتة، مطرح الجثة. سترنا الله بستره ولا سلبنا في الحياة، ولا في الممات ثوب عنايته.

كاتب سره

صاحبنا الفقيه الأهوج، قصب الريح، وشجرة الخور، وصوت الصدى، أبو محمد عبد الحق بن عطية، المستبد بتدبير الدبير، خطاً فوق الرقاع الجاهلة، ومسارةً في الخلوات الفاسقة، وصدعاً فوق المنابر الكيبة، بحلة لث الراية، ويذب عنه ذب الوالدة، ينتهي في الاعتذار عن هناته إلى الغايات القاصرة.

قضاته

شيخنا أبو البركات، قيس ليلى القضاء، المخدوع بزخرف الدنيا على الكبرة والعناء، لطف الله به، وألهمه رشده.

شيخ الغزاة على عهده: إدريس بن عثمان بن إدريس بن عبد الحق بن محيو، بقية بيت الدبرة ووشيجة الشجرة المجتثة، عذب في الجملة من أهل بيته عند القبض عليهم، واستقر في القبض الأشهب من قبيله بالمغرب، مطلق الإقطاع، مرموقاً بعين التجلة، مكنوفاً بشهرة الأب، إلى أن سعى به إلى السلطان، نسيج وحده فارس بن علي، واستشعر البث فطار به الذعر لا يلوي عناناً، حتى سقط بإفريقية، وعبر البحر إلى ملك برجلونة، ثم اتصل بالدولة النصرية، بين إدالة الغدر، وإيالة الشر، فقلده الدائل مشيخة الغزاة، ونوه به، فاستراب معزله يحيى بن عمر، ففر إلى

أرض الروم حسبما يذكر في اسمه، فقام له بهذا الوظيف، ظاهر الشهرة والأبهة، مخصوصاً منه بالتجلة، إلى أن كان ما كان من إزمانه وفراره، فوفى له وصحبه ركابه، وقاسمه المنسجة شق الأبلة، واستقر بعد قتله أسيراً عانياً علق الدهر، لضنانة العدو بمثله، إلى أن أفلت من دون الأغلاق، وشد الوثاق، ولحق بالمسلمين في خبر لم يشتمل كتاب الفرج بعد الشدة على مثله، والأغراب منه، يستقر في اسمه إلماعٌ به، ثم استقر بالمغرب معتقلا. ثم مات رحمه الله.

من كان على عهده من الملوك: وأولاً بمدينة فاس دار ملك المغرب، السلطان، الخير، الكريم الأبوة، المودود قبل الولاية، اللين العريكة، الشهير الفضل في الحياة، آية الله في إغراب الصنع، وإغراب الإدبار، أبو سالم إبراهيم بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، أمير المسلمين، المترجم به في حرف الألف. ولما قتل يوم الحادي والعشرين لذي قعدة من عام اثنتين وستين، قام بالأمر بعده أخوه المتحيل أبو عامر تاشفين بن علي إلى أواخر صفر عام ثلاثة وستين، ولحق بالبلد الجديد، الأمير أبو محمد زيان بن الأمير أبي عبد الرحمن بن علي بن عثمان المترجم به في بابه، ثم المتولي من عام ثمانية وستين وسبعمائة السلطان أبو فارس عمه المؤمل للم الشعث، وضم النشر، وتجديد الأمر بحول الله، ابن السلطان الكبير المقدس، أبي الحسن بن سعيد بن يعقوب بن عبد الحق، وهو بعد متصل الحال إلى اليوم.

وبتلمسان الأمير أبو حمو، موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى ابن يغمر اسن بن زيان.

وبإفريقية الأمير الخليفة على عرفهم، إبراهيم بن أمير المؤمنين أبي يحيى ابن حفص.

وبقشتالة، بطره بن ألهنشة بن هراندة بن شانجه المصنوع له، ولي النعمة منه، ومستوجب الشكر من المسلمين لأجله، بإراحته منهم.

وبرغون، بطره بن شانجه.

وبرندة، مزاحمه بالملك الفخم، أمير المسلمين حقيقة، المرتب الحق، المعقود البيعة، وصاحب الكرة، وولي حسن العاقبة، مجتث شجرته الخبيثة، وصارخ إيالته الدنية، أبو عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبي الحجاج، بن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر.

مولده

مولد هذه النسمة المشئومة أول يوم من رجب عام اثنين وثلاثين وسبعمائة.

وفاته

توفي قتيلاً ممثلا به بطيلاطه، من ظاهر إشبيلية، في ثاني من رجب عام ثلاثة وستين وسبعمائة، وسيقت رؤوس أشياعه، الغادرين مع رأسه إلى الحضرة فصلبت بها. وفي ذلك قلت:

في غير حفظ الله من هامةٍ ... هام بها الشيطان في كل واد

لا خلفت ذكراً ولا رحمةً ... في فم إنسانٍ ولا في فؤاد

محمد بن إسماعيل بن يوسف

محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد ابن أحمد بن خميس بن نصر الخزرجي أمير المسلمين بالأندلس بعد أبيه رحمه الله.

أوليته: معروفة.

حاله

كان معدوداً في نبلاء الملوك، صيانة، وعزاً وشهامة، وجمالاً، وخصلاً، عذب الشمائل، حلواً لبقاً، لو ذعياً هشاً، سخياً، المثل المضروب به في الشجاعة المقتحمة حد التهور، حلس ظهور الخيل، وأفرس من جال على ظهورها، لا تقع العين، وإن غصت الميادين على أدرب بركض الجياد منه، مغرماً بالصيد عارفاً بسمات السقار وشتات الخيل، يحب الأدب، ويرتاح إلى الشعر وينبه على العيون، ويلم بالنادرة الحارة. أخذت له البيعة يوم مهلك أبيه، وهو يوم الثلاثاء السابع والعشرين لرجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة. وناله الحجب، واشتملت عليه الكفالة إلى أن شب وظهر، وفتك بوزيره، المتغلب على ملكه، وهو غلام لم يبقل خده، فهيب شأنه، ورهبت سطوته، وبرز لمباشرة الميادين، وارتياد المطارد، واجتلاء الوجوه، فكان ملء العيون والصدور.

ذكاؤه

حدثني القائد أبو القاسم بن الوزير عبد الله بن عيسى وزير جده، قال، تذوكر يوماً بحضرته تباين قول المتنبي:

ألا خدد الله ورد الخدود ... وقد قدود الحسان القدود

وقول امرىء القيس:

وإن كنت قد ساءتك مني خليقةً ... فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

وقول إبراهيم بن سهل:

أني له من دمي المسفوك معتذراً ... أقول حملته في سفكه تعبا

فقال رحمه الله، بديهة: بينهما ما بين نفس ملك عربي وشاعر، ونفس يهودي تحت الذمة، وإنما تتنفس بقدر همتها، أو كلاماً هذا معناه. ولما نازل مدينة قبرة ودخل جفنها عنوة، ونال قصبتها، ورماها بالنفط، وتغلب عليها، وهي ما هي عند المسلمين، وعند النصارى، من الشهرة والجلالة، بادرناه نهنيه بما نسق له، فزوي وجهه عنا، وقال، ماذا تهنونني به، كأنكم رأيتم تلك الخرقة بكذا يعني العلم الكبير في منار إشبيلية، فعجبنا من بعد همته، ومرمى عزمه.

شجاعته

أقسم أن يغير على باب مدينة بيانة في عدة قليلة عينها الميمن، فوقع البهت وتوقعت الفاقرة، لقرب الصريخ، ومنعة الحوزة، وكثرة الحامية، واتصال تخوم البلاد، ووفور الفرسان بذلك الصقع، وتنخل أهل الحفاظ، وهجم على باب الكفار نهاراً، وانتهى إلى باب المدينةن وقد برزت الحامية، وتوقع فرسان الروم الكمناء، فأقصروا عن الإحصار، وحمى المسلمون فشد عليهم، فأعطوهم الضمة ودخلوا أمامهم المدينة، ورمي السلطان أحد الرجال الناشبة بمزراق كان بيده محلى السنان رفيع القيمة، وتحامل يريد الباب فمنع الإجهاز عليه، وانتزاع الرمح الذي كان يجره خلفه، وقال اتركوه يعالج به رمحه أن كان أخطأته المنية، وقد أفلت من أنشوطة خطر عظيم.

جهاده ومناقبه

كان له وقائع في الكفار، على قلة أيامه، وتحرك ونال البلاد، وفتح قبرة، ومقدم جيش العدو الذي بيت بظاهرها وأثخن فيه، وفتح الله على يده مدينة باغوة، وتغلب المسلمون على حصن قشتالة، ونازل حصن قشرة بنفسه لدى قرطبة، فكاد أن يتغلب عليه، لولا مددٌ اتصل للنصارى به. وأعظم مناقبه تخليص جبل الفتح، وقد أخذ الطاغية بكظمه، ونازله على قرب العهد من تلك المسلمين إياه، وناخ بكلكله، وهد بالمجانيق أسواره، فداري الطاغية، واستنزل عزمه وتحفه، ولحق في موضع اختلاله، إلى أن صرفه عنه، وعقد له له صلحاً، ففازت به قداح الإسلام، وتخلصه من بين ناب العدو وظفره، فكان الفتح عظيماً لا كفاء له.

بعض الأحداث في دولته: وفي شهر المحرم من عام سبعة وعشرين وسبعمائة، نشأت بين المتغلب على دولته، وزيره، وبين شيخ الغزاة وأمير القبائل العدوية، عثمان بن أبي العلاء، الوحشة وألحقت ربحها السعايات، فصبت على المسلمين شؤبوب فتنة عظم فيهم أثرها معاطباً، وسئم الانصراف عن الأندلس، فلحق بساحل ألمرية، وأحوزته المذاهب، وتحامت جواره الملوك، فداخل أهل حصن أندرش، فدخل في طاعته، ثم استضاف إليه ما يجاوره، فأعضل الداء، وتفاقمت اللأواء، وغامت سماء الفتنة، واستنفد خزائن الأموال المستعدة لدفاع العدو، واستلحق الشيخ أبو سعيد عم السلطان، وقد استقر بتلمسان، فلحق به، وقام بدعوته في أخريات صفر عام سبعة وعشرين وسبعمائة، واغتنم الطاغية فتنة المسلمين فنزل ثغربيرة، ركاب الجهاد، وشجى العدو، فتغلب عليه، واستولى على جملة من الحصون التي تجاوره، فاتسع نطاق الخوف، وأعيى داء الشر، وصرف إلى نظر ملك المغرب، في أخريات العام، رندة ومربلةً وما يليهما، وترددت الرسائل بين السلطان وبين شيخ الغزاةن فأجلت الحال عن مهادنة، ومعاودة للطاعة، فصرف أميرهم أدراجه إلى العدوة، وانتقلوا إلى سكنى وادي آش على رسم الخدمة والحماية على شروط مقررة، وأوقع السلطان بوزيره، وأعاد الشيخ إلى محله من حضرته، أوائل عام ثمانية وعشرين بعده، واستقدم القائد الحاجب أبا النعيم رضوان من أعاصم حباليه قتيله، فقام بأمره أحسن قيام. وعبر البحر بنفسه بعد استقرار ملكه في الرابع والعشرين من شهر ذي حجة من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة، فاجتمع مع ملك المغرب السلطان الكبير أبي الحسن بن عثمان، فأكرم نزله، وأصحبه إلى الأندلس، وحباه بما لا يحب به ملك تقدمه، من مغربيات الخيل، وخطير الذخيرة، ومستجاد العدة، ونزل الجيش على أثره جبل الفتح، وتوجه الحاجب أبو النعيم بأكبر إخوة السلطان، مظاهراً على سبيل النيابة، وهيأ الله فتحه، ثم استنقاذه بلحاق السلطان، ومحاولة أمره كما تقدم، فتم ذلك يوم الثلاثاء الثاني عشر لذي الحجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة.

وزراء دولته

وزر له وزير أبيه، وأخذ له البيعة، وهو مثخن بالجراحات، التي أصابته يوم الفتك بأبيه السلطان أبي الوليد، ولم ينشب أن أجهز جرح تجاوز عظم الدماغ، بعد مصابرة ألم العلاج الشديد، حسبما يأتي في اسمه، وهو أبو الحسن علي بن مسعود بن يحيى بن مسعود المحاربي، وترقى إلى الوزارة والحجابة وكيل أبيه محمد بن أحمد المحروق، من أهل غرناطة، يوم الإثنين غرة شهر رمضان من عام خمسة وعشرين وسبعمائة، ويأتي التعريف بهم. ثم اغتيل بأمره، عشي ثاني يوم من محرم فاتح تسعة وعشرين وسبعمائة. ثم وزر له، القائد أبو عبد الله بن القائد أبي بكر عتيق بن يحيى بن المول من وجوه الدولة، وصدور من يمت بوصله، إلى السابع عشر من رجب من العام، ثم صرف إلى العدوة، وأقام رسم الوزارة والحجابة والنيابة، أبو النعيم مولى أبيه، إلى آخر مدته، بعد أن التأث أمره لديه، وزاحمه بأحد المماليك المسمى بعصام حسبما يأتي ذكره في موضعه إن شاء الله.

رئيس كتابه: كتب له كاتب أبيه قبله وأخيه بعده، شيخنا نسيج وحده، أبو الحسن علي بن الجياب الآتي ذكره في موضعه إن شاء الله.

قضاته

استمرت الأحكام لقاضي أبيه، أخي وزيره، الشيخ الفقيه أبي بكر بن مسعود رحمه الله إلى عام سبعة وعشرين وسبعمائة، ووجهه رسولاً عنه إلى ملك المغرب، فأدركته وفاته بمدينة سلا، فدفن بمقبرة سلا. رأيت قبره بها رحمه الله. وتخلف ابنه أبا يحيى مسعود عام أحد وثلاثين وسبعمائة، وتولى الأحكام الشرعية القاضي أبو عبد الله محمد بن

يحيى بن بكر الأشعري، خاتمة الفقهاء، وصدر العلماء، رحمة الله، فاستمرت له الأحكام إلى تمام مدة أخيه بعده.
أمه
رومية اسمها علوة وكانت أحظى لداتها عند أبيه، وأم بكره، إلى أن نزع عنها في أخريات أمره، لأمر جرته الدالة، وتأخرت وفاتها عنه إلى مدة أخيه.

من كان على عهده من الملوك بأقطار المسلمين والنصارى: فبفاس، السلطان الكبير، الشهير، الجواد، خدن العافية، وحلف السعادة، وبحر الجود، وهضبة الحلم، أبو سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الذي بذل المعروف، وقرب الصلحاء والعلماء، وأدنى مكانهم، وأعمل إشارتهم، وأوسع بأعطيته المؤمنين المسترفدين، وعظم قدره، واشتهر في الأقطار صيته، وفشا معروفه، وعرفت بالكف عن الدماء والحرمات عفته، إلى أن توفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة عام أحد وثلاثين وسبعمائة، ثم صار الأمر إلى ولده السلطان، مقتفي سننه في الفضل والمجد، وصخامة السلطان، مبراً عليه، بالبأس المرهوب، والعزم الغالب، والجد الذي لا يشوبه هزل، والاجتهاد الذي لا يتخلله راحة، الذي بعد مداه، وأذعن لصولته عداه، واتصلت ولايته مدته، ومعظم مدة أخيه الوالي بعده.
وبتلمسان الأمير عبد الرحمن بن موسى بن يغمر اسن، ومن بني عبد الواد، مشيد القصور، ومروض الغروس، ومتبنك الترف، واتصل إلى تمام مدته، وصدرا من مدة أخيه بعده.
وبتونس الأمير أبو يحيى، أبو بكر بن الأمير أبي زكريا بن الأمير أبي إسحاق لبنة تمام قومه، وصقر الجوارح من عشه، وسابق الجياد من حلبته، إلى تمام المدة، وصدراً كبيراً من دولة أخيه بعده.
ومن ملوك النصارى، ملك على عهده الجفرتين القنيطية والتاكرونية، الطاغية المرهوب الشبا، المسلط على دين الهدى، ألهنشة بن هراندة بن شانجه بن ألفتش بن هراندة، الذي احتوى على كثير من بلاد المسلمين حتى الجفرتين واتصلت أيامه إلى أخريات أيام أخيه، وأوقع بالمسلمين على عهده، وتملك الجزيرة الخضراء وغيرها.
وبرغون ألفنش بن جايمش بن ألفنش بن بطره بن جايمش الذي استولى على بلنسية، ودام إلى آخر مدته، وصدراً من مدة أخيه. وقد استقصينا من العيون أقصى ما سح به الاستقصاء، وما أغفلناه أكثر، ولله الإحاطة.
مولده

في الثامن من شهر المحرم من عام خمسة عشر وسبعمائة.
وفاته
وإلى هذا العهد مات، وغرت عليه رؤوس الجند، من قبائل العدوة، الصدور، وشحنت عليه القلوب غيظاً، وكان شرها لسانه، غير جزوع ولا هياب، فربما يتكلم بملىء فيه من الوعيد الذي لا يخفى على المعتمد به، وفي ثاني يوم من إقلاع الطاغية من الجبل، وهو يوم الأربعاء الثاني عشر من ذي حجة، وقد عزم على ركوب البحر من ساحل مربلة، فهو مع وادي ياروا من ظاهر جبل الفتح، تخفيفاً للمؤنة، واستعجالا للصدور، وقد أخذت على حركته المراصد، فلما توسط كمين القوم، ثاروا إليه وهو راكب بغلا أثابه به ملك الروم، فشرعوا في عتبه بكلام غليظ، وتأنيب قبيح، وبدأوا بوكيله فقتلوه، وعجل بعضهم بطعنه، وترامى عليه مملوك من مماليك أبيه، زنمة من أخابيث العلوج يسمى زياناً، صونع على مباشرة الإجهاز عليه، فقضى لحينه بسفح الربوة الماثلة، يسرة العابر للوادي ممن يقصد جبل الفتح، وتركوه بالعراء بادي البوار، مسلوب البزة، سيء المصرع، قد عدت عليه نعمه، وأوبقه سلاحه،

وأسلمه أنصاره وحماته.

ولما فرغ القوم من مبايعة أخيه السلطان أبي الحجاج، صرفت الوجوه يومئذ إلى دار الملك، ونقل القتيل إلى مالقة، فدفن على حاله تلك برياضٍ تجاور منية السيد، فكانت وفاته ضحوة يوم الأربعاء الثالث عشر لذي حجة من عام ثلاث وثلاثين وسبعمائة. وأقيمت على قبره بعد حين قبة، ونوه بقبره، وهو اليوم ماثلٌ رهن غربةٍ، وجالب عبرة، جعلنا الله للقائه على حذر وأهبة، وبلوح الرخام الماثل عند رأسه مكتوب: هذا قبر السلطان الأجل، الملك الهمام، الأمضى الباسل، الجواد ذي المجد الأثيل، والملك الأصيل، المقدس، المرحوم، أبي عبد الله محمد بن السلطان الجليل، الكبير، الرفيع، الأوحد، المجاهد، الهمام، صاحب الفتوح المسطورة، والمغازي المشهورة، سلالة أنصار النبي صلى الله عليه وسلم، أمير المؤمنين، وناصر الدين، الشهيد، المقدس، المرحوم أبي الوليد بن فرج، بن نصر، قدس الله روحه وبرد ضريحه. كان مولده في الثاني لمحرم عام خمسة عشر وسبعمائة، وبويع في اليوم الذي استشهد فيه والده رضي الله عنه السادس والعشرين لرجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة، وتوفي رحمه الله في الثالث عشر لذي حجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة، فسبحان من لا يموت.

يا قبر سلطان الشجاعة والندى ... فرع الملوك الصيد أعلام الهدى
وسلالةٍ السلف الذي آثاره ... وضاحة لمن اقتدى ومن اهتدى
سلفٌ لأنصار النبي نجاره ... قد حل منه في المكارم محتدا
متوسط البيت قد أس ... سته سادة الأملاك أوحد أوحدا
بيتٌ بناه محمدون ثلاثةٌ ... من آل نصر أورثوه محمدا
أودعت وجهاً قد تهلل حسنه ... بدراً بآفاق الجلالة قد بدا
وندا يسح على العفاة مواهباً ... مثنى الأيادي السابغات وموحدا
يبكيك مذعورٌ بك استعدى على ... أعدائه فسقيتهم كاس الردى
يبكيك محتاجٌ أتاك مؤملا ... فغدا وقد شفعت يداك له اليدا
أما سماحك فهو أسنى دية ... أما جلالك فهو أسمى مصعدا
جادت ثراك من الإلة سحابةٌ ... لرضاه عنك تجود هذا المعهدا

وشر ما تبع هذا السلطان تواطؤ قتلته من بني أبي العلاء وأصهارهم وسواهم من شيوخ خدامه، كالوكيل في مدة أخيه بعد، الشيخ الذهول مسافر بن حركات وسواه، على اكتتاب عقد بعد وفاته، بأمور من القول تقدح في أصل الديانة، وأغراض تقتضي إلى الوهن في الدين، وهنات تسوغ إراقة دمه الذي توفرت الدواعي على حياطته، والذب عنه، تولي كبرها شيخنا أبو الحسن بن الجياب، مرتكباً منها وصمة محت على غرر فضله إلى كثير من خدامه وممالكيه، وبعثوا بها إلى ملك المغرب، فاقتطعت جانب التمهيل والتأخير واللبث عن الحكم، والتعليل عن السماع، وبروز الأغراض، واتباع السيئة أمثالها. وقد كان رحمه الله من الجهاد وإقامة رسم الدين، بحيث تزل عن هذه الهنات صفاته، وتنكر هذه المذمات صفاته وكان بمكان من العز، وإرسال السجية، ربما عذله الشيخ في بعض الأمر، فيسجم إضجاراً وتمليحاً بإخراجه، ولم يمر إلا الزمان اليسير، وأوقع الله بالعصبة المتمالئة عليه من أولاد عبد الله، فسفتهم رياح النكبات، واستأصلت نعمهم أيدي النقمات، ولم تقم لهم من بعد ذلك قائمة، والله غالب على أمره. وتبعت هذا السلطان نفوس أهل الحرية، ممن له طبع رقيق، وحسٌ لطيف، ووفاءٌ كريم، ممن كان بينه وبين سطوته دفاعٌ، وفي جو اعتقاده له صفاءٌ، فصدرت مراث مؤثرة، وأقاويل للشجون مهيجة، نثبت منها يسيراً على العادة.

فمن ذلك ما نظمه الشيخ الكاتب القاضي أبو بكر بن شبرين، وكان على فصاحة ظرفه، وجمال روايته، غراب قربه، ونائحة مأتمه، يرثيه ويعرض ببعض من حمل عليه من ناس وخدامه:

استقلا ودعاني ... ظائفاً بين المغاني

وانعما بالصبر إني ... لا أرى ما تريان

ومن قوله:

عينٌ بكى لميت غادروه ... في ثراه ملقى وقد غدروه

دفنوه ولم يصل عليه ... أحدٌ منهم ولا غسلوه

إنما مات يوم مات شهيداً ... فأقاموا رسماً ولم يقصدوه

محمد بن قيس الخزرجي

محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن نصر بن قيس الخزرجي ثالث الملوك من بني نصر، يكنى أبا عبد الله.

أوليته معروفة.

حاله

كان من أعاظم أهل بيته، صيتاً وهمة، أصيل المجد، مليح الصورة، عريق الإمارة، ميمون النقيبة، سعيد النصبة عظيم الإدراك، تهنأ العيش مدة أبيه، وتملى السياسة في حياته، وباشر الأمور بين يديه، فجاء نسيج وحده إدراكاً، ونبلا، وفخاراً، وشأواً. ثم تولى الأمر بعد أبيه فأجراه على ديدنه، وتقبل سيرته، ونسج على منواله، وقد كان الدهر ضايقه في حصته، ونغصه ملاذ الملك بزمانة، سدكت بعينيه لمداخلة السهر، ومباشرة أنوار ضخام الشمع، إذ كانت تتخذ له منها جذوع في أجسادها مواقيت تخبر بانقضاء ساعات الليل، ومضى الربع، وعلى التزامه لكنه وغيبوبته في كسر بيته، فقد خدمته السعود، وأملت بابه الفتوح، وسالمته الملوك، وكانت أيامه أعياداً. وكان يقرض الشعر، ويصغي إليه، ويثيب عليه، فيجيز الشعراء، ويرضخ للندماء، ويعرف مقادر العلماء، ويواكل الأشراف والرؤساء، ضاربا في كل إصلاح بسهم، مالئا من كل تجربة وحنكة، حار النادرة، حسن التوقيع، مليح الخط، تغلب عليه الفظاظة والقسوة.

شعره

كان له شعر مستظرف من مثله، لا بل يفضل به الكثير ممن ينتحل الشعر من الملوك.ووقعت على مجموع له، ألفه بعض خدامه، فنقلب من مطولاته:

واعدني وعدا وقد أخلفا ... أقل شيء في المليح الوفا

وحال من عهدي ولم يرعه ... ما ضره لو أنه أنصفا

ما بالها لم تتعطف على ... صاحب لها ما زال مستعطفا

يستطلع الأنباء من نحوها ... ويرقب البرق إذا ما هفا

خفيت سقماً عن عيون الورى ... وبان حبي بعد ما قد خفا

لله كم من ليلةٍ بتها ... أدير من ذاك اللمى قرقفا

متعتني بالوصل منها وما ... أخلفت وعداص خلت أن يخلفا

ومنها:

ملكتك القلب وأني امرؤٌ ... على ملك الأرض قد وقفا

أوامري في الناس مسموعةٌ ... وليس مني في الورى أشرفا

يرهف سيفي في الوغى متسلطاً ... ويبقي عزمي إذا ما أرهفا

وترتجي يمناي يوم الندى ... تخالها السحب غدت وكفا

نحن ملوك الأرض من مثلنا ... حزنا تليد الفخر والطرفا

نخاف إقداماً ونرجى نداً ... لله ما أرجى وما أخوفا

لي رايةٌ في الحرب كم غادرت ... ربع العدا قاعاً بها صفصفا

يا ليت شعري والمنى جمة ... والدهر يوماً هل يرى منصفا

هل يرتجي العبد تداينكم ... أو يصبح الدهر له مسعفا

مناقبه

وأعظم مناقبه المسجد الجامع بالحمراء، على ما هو عليه، من الظرف والتنجيد، والترقيش، وفخامة العمد، وإحكام أنوار الفضة، وإبداع ثراها، ووقف عليه الحمام بإزائه وأنفق فيه مال الجزية، وأغرمها لمن يليه من الكفار، فدوا به زرعاً، نهد إليه صائفته لا تتسافه، وقد أهمتهم فتنة، فظهر بها منقبة يتيمة، ومعلوة فذة، فاق بها من تقدمه، ومن تأخره من قومه.

جهاده

أغزى الجيش لأول أمره مدينة المنظر، فاستولى عليها عنوة، وملك من احتوت عليه المدينة، ومن جملتهم الزعيمة صاحبة المدينة، من أفراد عقائل الروم، فقدمت الحضرة في جملة السبي، نبيهة المركب، ظاهرة الملبس، رائقة الجمال، خص بها ملك المغرب، فاتخذها لنفسه، وكان هذا الفتح عظيماً، والصيت بمزايه عظيماً بعيداً أنشدني.

ما نقل عنه من الفظاظة والقسوة: هجم لأول أمره على طائفة من مماليك أبيه، وكان سيء الرأي فيهم، فسجنهم في مطبق الأرى من حمرائه، وأمسك مفتاح قفله عنده، وتوعد من يرمقهم بقوت بالقتل، فمكثوا أياما، وصارت أصواتهم تعلو بشكوى الجوع، حتى خفتت ضعفاً بعد أن اقتات آخرهم موتاً من لحم من سبقه، وحملت الشفقة حارساً كان برأس المطبق، على أن طرح لهم خبزاً يسيراً، تنقص أكله مع مباشرة بلواهم، وتمنى إليه ذلك، فأمر بذبحه على حافة الجب، فسالت عليهم دماؤه وقانا الله مصارع السوء، وما زالت المقالة عنها شنيعة، والله أعلم بجريرتهم لديه.

وزراؤه

بقي على خطة الوزارة. وزير أبيه أبو سلطان عزيز بن علي بن عبد المنعم الداني، الجاري ذكره بحول الله في محله، متبرماً بحياته إلى أن توفي، فأنشد عند موته:

مات أبو زيد فواحسرتا ... إن لم يكن مات من جمعة

مصيبة لا غفر الله لي ... أن كنت أجريت لها دمعة

وتمادى بها أمره، يقوم بها حاشيته، وقد ارتاح إليها متوليها بعده، المترفع بدولته، القائد الشهير، البهمة أبو بكر بن المول. حدث قارىء العشر من القرآن بين يدي السلطان، ويعرف بابن بكرون، وكان شيخاً متصاوناً ظريفاً، قال:

عزم السلطان على تقديم هذا الرجل وزيراً، وكان السلطان يؤثر الفال، وله في هذا المعنى وساوسٌ ملازمة، فوجه إلى الفقيه الكاتب صاحب القلم الأعلى يومئذ، أبو عبد الله بن الحكيم المستأثر بها دونه، والمتلقف لكرتها قبله، وخرج لي عن الأمر، وطلب مني أن أقرأ آياً يخرج فألها عن الغرض، قال فلما غدون لشآني تلوت بعد التعوذ قوله عز وجل: " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالاً، ودوا ما عنتم، قد بدت البغضاء من أفواههم، إلى قوله لنا " فلما فرغت الآية، سمعته حاد عن رأيه الذي كان أزمعه. وقدم للوزارة كاتبه أبا عبد الله بن الحكيم في ذي قعدة من عام ثلاثة وسبعمائة. وصرف إليه تدبير ملكه، فلم يلبث أن تغلب على أمره، وتقلد جميع شئونه، حسبما يأتي في موضعه إن شاء الله.

كتابه

استقل برياسته وزيره المذكور، وكان ببابه من كتابه جملةٌ تباهي بهم دسوت الملوك، أدباً وتفنناً وفضلاً وظرفاً، كشيخنا تلوه وولي الرتبة الكتابية من بعده، وفاصل الخطبة على أثره. وغيره ممن يشار إليه في تضاعيف الأسماء، كالشيخ الفقيه القاضي أبي بكر بن شبرين، والوزير الكاتب أبي عبد الله بن عاصم، والفقيه الأديب أبي إسحاق بن جابر. والوزير الشاعر المفلق أبي عبد الله اللوشي، من كبار القادمين عليه، والفقيه الرئيس أبي محمد الحضرمي، والقاضي الكاتب أبي الحجاج الطرطوشي، والشاعير المكثر أبي العباس القراق وغيرهم.

قضاته

استمرت ولاية قاضي أبيه الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن هشام الألثي قاضي العدل، وخاتمة أولى الفضل، إلى أن توفي عام أربعة وسبعمائة.

وتولي له القضاء، القاضي أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد القرشي المنبور بابن فركون، وتقدم التعريف به، والتنبيه على فضله، إلى آخر أيامه.

من كان على عهده من الملوك بالأقطار وأول ذلك بفاس، كان على عهده بها، السلطان الرفيع القدر، السامي الخطر، المرهوب الشبا، المستولى في العز وبعد الصيت على المدى، أبو يعقوب يوسف بن يعقوب المنصور، بن عبد الحق، وهو الذي وطد الدولة المرينية، وجبا الأموال العريقة، واستأصل من تتقي شوكته من القرابة وغيرهم، وجاز إلى الأندلس في أيام أبيه وبعده، غازياً، ثم حاصر تلمسان، وهلك عليها في أوائل ذي قعدة عام ستة وسبعمائة، فكانت دولته إحدى وعشرين سنة وأشهراً. ثم صار الأمر إلى حافده أبي ثابت عامر بن الأمير أبي عامر عبد الله بن يوسف بن يعقوب بعد اختلاف وقع، ونزاع انجلى عن قتل جماعة من كبارهم منهم الأمير أبو يحيى بن السلطان أبي يوسف، والأمير أبو سالم بن السلطان أبي يعقوب، واستمر الأمر للسلطان أبي ثابت إلى صفر من عام ثمانية وسبعمائة، وصار الأمر إلى أخيه أبي الربيع سليمان تمام مدة ملكه وصدرا من دولة أخيه نصر، حسبما يذكر في موضعه إن شاء الله.

وبتلمسان الأمير أبو سعيد عثمان بن يغمر اسن ثم أخوه أبو عمران موسى، ثم ولده أبو تاشفين عبد الرحمن إلى آخر مدة أخيه.

وبتونس، السلطان الفاضل، الميمون النقيبة. المشهور الفضيلة، أبو عبد الله محمد بن الواثق يحيى بن المستنصر أبي عبد الله بن الأمير أبي زكريا بن أبي حفص، من أولى العفة، والنزاهة، والتؤدة والحشمة، والعقل، عني بالصالحين، واختص بأبي محمد المرجاني، فأشار بتقويمه، وظهرت عليه بركته، وكان يرتبط إليه، ويقف في الأمور عنده، فلم تعدم الرعية بركة ولا صلاحاً في أيامه، إلى أن هلك في ربيع الآخر عام تسعة وسبعمائة، ووقعت بينه وبين هذا الأمير المترجم به

المراسلة والمهاداة.

وبقشتالة، هراندة بن شانجة بن أدفونش بن هراندة، المستولي على إشبيلية وقرطبة، ومرسية، وجيان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هلك أبوه وتركه صغيراً، مكفولا على عادتهم، فتنفس المخنق، وانعقدت السلم، واتصل الأمان مدة أيامه، وهلك في دولة أخيه.

وبرغون، جايمش بن ألفنش بن بطره.

الأحداث

في عام ثلاثة وسبعمائة، نقم على قريبه الرئيس أبي الحجاج بن نصر الوالي بمدينة وادي آش، أمراً أوجب عزله عنها، وكان مقيماً بحضرته فاتخذ الليل جملا وكان أملك بأمرها، وذاع الخبر، فاستركب الجيش، وقد حد ما ينزل في استصلابه، وجدد الصكوك بولايته خوفاً من اشتعال الفتنة، وقد أخذ على يديه، وأغرى أهل المدينة بحربه، فتداعوا لحين شعورهم باستعداده وأحاطوا به، فدهموه وعاجلوه، فتغلبوا عليه، وقيد إلى بابه أسيراً مصفداً، فأمر أحد أبناء عمه فقتله صبراً، وتملا فتحاً كبيراً، وأمن فتنة عظيمة، وفي شهر شوال من عام خمسة وسبعمائة قرع الأسماع النبأ العظم، الغريب من تملك سبتة وحصولها في قبضته، وانتزاعها من يد رئيسها أبي طالب عبد الله بن أبي القاسم، الرئيس الفقيه، ابن الإمام المحدث أبي العباس العزمي حسبما يتقرر في اسم الرئيس الفقيه أبي طالب إن بلغنا الله ذلك، واستأصل ما كان لأهلها من الذخائر والأموال، ونقل رؤساءها، وهم عدة، إلى حضرته غرناطة في غرة المحرم من العام، فدخلوا عليه، وقد احتفل بالملك، واستركب في الأبهة الجند، فلثموا أطرافه، واستعطفه شعراؤهم بالمنظوم من القول، وخطباؤهم بالمنثور منه، فطمأن روعهم وسكن جأشهم، وأسكنهم في جواره، وأجرى عليهم الأرزاق الهلالية، وتفقدهم في الفصول إلى أن كان من أمرهم ما هو معلوم.

اختلاعه في يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة أحيط بهذا السلطان، وأتت الحيلة عليه، وهو مصاب بعينيه، مقعدٌ في كنه، فداخلت طائفة من وجوه الدولة أخاه، وفتكت بوزيره الفقيه أبي عبد الله بن الحكيم،ونصبت للناس الأمير أبا الجيوش نصراً أخاه، وكبست منزل السلطان، فأحيط به، وجعل الحرس عليه، وتسومع بالكائنة فكان البهت، وسال من الغوغاء البحر، فتعلقوا بالحمراء، يسألون عن الحادثة، فشغلوا بانتهاب دار الوزير، وبها من مال الله ما يفوت الوصف، وكان الفجع في إضاعته على المسلمين، وإطلاق الأيدي الخبيثة عليه عظيماً، وفي آخر اليوم عند الفراغ من الأمر، دخل على السلطان المخلوع، الشهداء، عليه بخلعه، بعد نقله من دار ملكه إلى دار أخرى، فأملى رحمه الله، زعموا، وتقية خلعه، مع شغب الفكر، وعظم الداهية، وانتقل رحمه الله بعد، إلى القصر المنسوب إلى السيد بخارج الحضرة، أقام به يسيراً، ثم نقل إلى مدينة المنكب، وكان من أمره ما يذكر إن شاء الله.

ومما يؤثر من ظرفه، حدث من كان منوطاً به من خاصته، مدة أيام إقامته بقصر نجد، قبل خلعه، قال: أرسل الله الأغربة على سقف القصر، وكان شديد التطير والقلق لذلك حسبما تقدم من الإشارة إلى ذلك بحديث العشر، وكان من جملتها غرابٌ، شديد الإلحاح، حاد النعيب والصياح، فأغرى به الرماة من مماليكه بأنواع القسى، فأبادوا من الغربان أمة، وتخطأ الحتف ذلك الغراب الخبيث العبقان، فلما انتقل إلى سكنى الحمراء، ظهر ذلك الغراب على سقفه، ثم لما أهبط مخلوعاً إلى قصر شنيل تبعه، وقام في بعض السقف أمامه، فقال يخاطبه رحمه الله: يا مشئوم، يا محروم بين الغربان، قد خلصت أمرنا، ولم يبق لك علينا طلب، ولا بيننا وبينك كلام، إرجع إلى هؤلاء المحارم فاشتغل بهم، قال، فأضحكنا على حال الكآبة بعذوبة منطقه، وخفة روحه.

وفاته

قد تقدم ذكر استقراره بالمنكب، وفي أخريات شهر جمادى الآخرة عام عشرة وسبعمائة، أصابت السلطان نصراً سكتةٌ، توقع منها موته، بل شك في حياته، فوقع التفاوض الذي تمحض إلى التوجيه عن السلطان المخلوع الذي بالمنكب ليعود إلى الأمر، فكان ذلك وأسرع إلى إيصاله إلى غرناطة في محفة، فكان حلوله بها في رجب من العام المذكور. وكان من قدر الله، أن أفاق أخوه من مرضه، ولم يتم للمخلوع الأمر، فنقل من الدار التي كان بها إلى دار أخيه الكبرى، فكان آخر العهد به. ثم شاعت وفاته أوائل شوال من العام المذكور، فذكر أنه اغتيل غريقاً في البركة في الدار المذكورة لما توقع من عادية جواره، ودفن بمقبرة السبيكة، مدفن قومه، بجوار الغالب بالله جده، ونوه بجدثه وعليه مكتوب ما نصه:

هذا قبر السلطان الفاضل، الإمام العادل، علم الأتقياء، أحد الملوك الصلحاء، المخبت الأواه، المجاهد في سبيل الله، الرضي الأورع، الأخشى الله الأخشع، المراقب في السر والإعلان، المعمور الجنان بذكره واللسان، السالك في سياسة الخلق وإقامة الحق، منهاج التقوى والرضوان، كافل الأمة بالرأفة والحنان، الفاتح لها بفضل سيرته، وصدق سريرته، ونور بصيرته، أبواب اليمن والأمان، المنيب الأواب، العامل ما يجده نوراً مبيناً يوم الحساب، ذي الآثار السنية، والأعمال الطاهرة، القائم في جهاد الكفار بماضي العزم وخلص النية، المقيم قسطاس العدل، المنير منهاج الحلم والفضل، حامي الذمار، وناصر دين المصطفى المختار، المقتدي بأجداده الأنصار، المتوسل بفضل ما أسلفوه من أعمال البر والجهاد، ورعاية العباد والبلاد، إلى الملك القهار، أمير المسلمين، وقامع المعتدين، المنصور بفضل الله، أبي عبد الله، ابن أمير المسلمين الغالب بالله، السلطان الأعلى، إمام الهدى، وغمام الندى، محيي السنة، حسن الأمة، المجاهد في سبيل الله، الناصر لدين الله، أبي عبد الله، ابن أمير المسلمين الغالب بالله، أبي عبد الله، بن يوسف بن نصر،كرم الله وجهه ومثواه، ونعمه برضاه. ولد رضي الله عنه يوم الأربعاء الثالث لشعبان المكرم من عام خمسة وخمسين وستمائة. وتوفي قدس الله روحه، وبرد ضريحه، ضحوة يوم الإثنين الثالث لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة، رفعه الله إلى منازل أوليائه الأبرار، وألحقه بأئمة الدين، لهم عقبى الدار، وصلى الله على سيدنا محمد المختار، وعلى آله، وسلم تسليما.

ومن الجانب الآخر:

رضي الملك الأعلى يروح ويغتدي ... على قبر مولانا الإمام المؤيد
مقر العلى والملك والبأس والندى ... فقدس من مغنى كريم ومشهد
ومثوى الهدى والفضل والعدل والتقي ... فبورك من مثوى زكي وملحد
فيا عجباً طود الوقار جلالة ... ثوى تحت أطباق الصفيح المنضد
وواسطة العقد الكريم الذي له ... مآثر فخرٍ بين مثنى وموحد
محمد الرضى سليل محمد ... إمام الندى نجل الإمام محمد
فيا نخبة الأملاك غير منازعٍ ... ويا علم الأعلام غير مفند
بكتك بلادٌ كنت تحمي ذمارها ... بعزمٍ أصيلٍ أو برأي مسدد
وكم معلم للدين أوضحت رسمه ... بني لك في الفردوس أرفع مصعد
كأنك ما سست البلاد وأهلها ... بسيرة ميمون النقيبة مهتد
كأنك ما قدت الجيوش إلى العدا ... فصيرتهم نهب القنا المتقصد
وفتحت من أقطارهم كل مبهم ... فتحت به باب النعيم المخلد

كأنك ما أنفقت عمرك في الرضى ... بتجديد غزوات وتشييد مسجد
وإنصاف مظلومٍ وتأمين خائفٍ ... وإصراخ مذعورٍ وإسعاف مجتد
كأنك ما احييت للخلق سنة ... تجادل عنها باللسان وباليد
كأنك ما أمضيت في الله عزمة ... تدافع فيها بالحسام المهند
فإن تجهل الدنيا عليك وأهلها ... بذاك ثوب الله يلقاك في غد
تعوضت ذخراً من مقام خلافة ... مقيمٍ منيبٍ خاشع متعبد
وكل الورى من كان أو هو كائنٌ ... صريع الردى إن يكن فكأن قد
فلا زال جاراً للرسول محمد ... بدار نعيمٍ في رضى الله سرمد
وهذي القوافي قد وفيت بنظمها ... فيا ليت شعري هل يصيخ لمنشد
محمد بن نصر الأنصاري الخزرجي

محمد بن محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر الأنصاري الخزرجي ثاني الملوك الغالبين من بني نصر، وأساس أمرهم، وفحل جماعتهم
أوليته
تقرر بحول الله في اسم أبيه الآتي بعد حسب الترتيب المشترط.
حاله

من كتاب طرفة العصر من تأليفنا، كان هذا السلطان أوحد الملوك جلالة وصرامة، وحزماً. مهد الدولة، ووضع ألقاب خدمتها، وقرر مراتبها، واستجاد أبطالها، وأقام رسوم الملك فيها، واستدر جباياتها، مستظهراً على ذلك، بسعة الذرع، وأصالة السياسة، ورصانة العقل، وشدة الأسر ووفور الدهاء، وطول الحنكة، وتملؤ التجربة، مليح الصورة، تام الخلق، بعيد الهمة، كريم الخلق، كثير الأناة. قام بالأمر بعد أبيه، وباشره مباشرة الوزير أيام حياته، فجرى على سنن أبيه، من اصطناع أجناسه، ومداراة عدوه، وأجرى صدقاته، وأربى عليه بخلال، منها براعة الخط، وحسن التوقيع، وإيثار العلماء، والأطباء، والعدلين، والحكماء، والكتاب، والشعراء، وقرض الأبيات الحسنة، وكثرة الملح، وحرارة النادرة. وطما بحرٌ من الفتنة لأول استقرار أمره، وكثر عليه المنتزون والثوار، وارتجت الأندلس، وسط أكلب الكفار، فصبر لزلزالها، رابط الجأش، ثابت المركز، وبذل من الاحتيال، والدهاء، المكنوفين بجميل الصبر، ما أظفره بخلو الجو. وطال عمره، وجد صيته، واشتهر في البلاد ذكره، وعظمت غزواته، وسيمر من ذكره ما يدل على أجل من ذلك إن شاء الله.
شعره وتوقيعه

وقفت على كثير من شعره، وهو نمطٌ منحط بالنسبة إلى أعلام الشعراء ومستظرفٌ من الملوك والأمراء. من ذلك، يخاطب وزيره:
تذكر عزيز ليالٍ مضت ... وأعطاءنا المال بالراحتين
وقد قصدتنا ملوك الجها ... ت ومالوا إلينا من العدوتين
وإذا سأل السلم منا اللعي ... ن فلم يحظ إلى بخفي حنين

وتوقيعه يشذ عن الإحصاء، وبأيدي الناس إلى هذا العهد كثير من ذلك، فمما كتب به على رقعة كان رافعها يسأل التصرف في بعض الشهادات ويلح عليها:

يموت على الشهادة وهو حي ... إلهي لا تمته على الشهادة

وأطال الخط عند إلهي إشعاراً بالضراعة عند الدعاء والجد. ويذكر أنه وقع بظهر رقعة اشتكى ضرر أحد الجند المنزلين في الدور، ونبزه بالتعرض لزوجه: يخرج هذا النازل ولا يعوض بشيء من المنازل.

بنوه

ثلاثة، ولي عهده أبو عبد الله المتقدم الذكر، وفرج المغتال أيام أخيه، ونصر الأمير بعد أخيه.

بناته: أربع، عقد لهن، جمع أبرزهن إلى أزواجهن، من قرابتهن، تحت أحوال ملوكية، ودنيا عريضة، وهن: فاطمة، ومؤمنة، وشمس، وعائشة. وفاطمة منهن أم حفيده إسماعيل الذي ابتز ملك بنيه عام ثلاثة عشر وسبعمائة.

وزيره

كان وزيره، الوزير الجليل الفاضل، أبو سلطان، لتقارب الشبه، زعموا في السن والصورة، وفضل الذات، ومتانة الدين، وصحة الطبع، وجمال الرواء، أغنى وحسنت واسطته، ورفعت إليه الوسائل، وطرزت باسمه الأوضاع، واتصلت إلى أيامه أيام مستوزره، ثم صدراً من أيام ولي عهده.

كتابه

ولي له خطة الكتابة والرياسة العليا في الإنشاء جملةٌ، منهم كاتب أبيه أبو بكر ابن أبي عمرو اللوشي، ثم الأخوان أبو علي الحسن والحسين، إبنا محمد بن يوسف ابن سعيد اللوشي، سبق الحسن وتلاه الحسين، وكانا توأمين، ووفاتهما متقاربة، ثم كتب له الفقيه أبو القاسم محمد بن محمد بن العابد الأنصاري، آخر الشيوخ، وبقية الصدور والأدباء، أقام كاتباً مدة إلى أن أبرمه انحطاطه في هوى نفسه، وإيثاره المعاقرة، حتى زعموا أنه قاء ذات يوم بين يديه. فأخره عن الرتبة، وأقامة في عداد كتابه إلى أن توفي تحت رفده. وتولى الكتابة الوزير أبو عبد الله بن الحكيم، فاضطلع بها إلى آخر دولته.

قضاته

تولي له خطة القضاء، قاضي أبيه، الفقيه العدل، أبو بكر بن محمد بن فتح الإشبيلي الملقب بالأشبرون. تولى قبل ذلك خطة السوق، فلقي سكران أفرط في قحته، واشتد في عربدته، وحمل على الناس، فأفرجوا عنه، فاعترضه واشتد عليه حتى تمكن منه بنفسه، واستنصر في حده، وبالغ في نكاله، واشتهر ذلك عنه، فجمع له أمر الشرطة وخطة السوق، ثم ولي القضاء، فذهب أقصى مذاهب الصرامة، إلى أن هلك، فولي خطة القضاء بعده الفقيه العدل أبو عبد الله محمد بن هشام من أهل ألش، لحكاية غبطت السلطان بدينه، ودلته على محله من العدل والفضل، فاتصلت أيام قضائه إلى أيام مستقضية، رحمه الله.

جهاده: وباشر هذا السلطان الوقائع، فانجلت ظلماتها، عن صبح نصره، وطرزت مواقعها بطراز جلادته وصبره، فمنها وقيعة المطران وغيرها، مما يضيق التأليف عن استقصائه. وفي شهر المحرم من عام خمسة وتسعين وستمائة، على تفئة هلاك طاغية الروم، شانجه بن أدفونش، عاجل الكفار لحين دهشهم، فحشد أهل الأندلس، واستنفر المسلمين، فاغتنم الداعية، وتحرك في جيش، يجر الشوك والشجر، ونازل مدينة قيجاطة وأخذ بكظمها، ففتحها الله على يديه، وتملك بسببها جملة من الحصون التي ترجع إليها، وكان الفتح في ذلك عظيما، وأسكنها جيشاً من المسلمين، وطائفة من الحامية، فأشرقت العدو بريقه. وفي صائفة عام تسعة وتسعين وستمائة، نازل مدينة القبذاق فدخل جفنها،

واعتصم من تأخر أجله بقصبتها، ذات القاهرة العظيمة الشأن، الشهيرة في البلدان، فأحيط بهم، فخذلوا وزلزل الله أقدامهم، فألقوا باليد، وكانوا أمنع من عقاب الجو، وتملكها على حكمه، وهي من جلالة الوضع، وشهرة المنعة، وخصب الساحة، وطيب الماء، والوصل إلى أفلاذ الكفر، والاطلاع على عوراته، بحيث شهر. فكان تيسر فتحها من غرائب الوجود، وشواهد اللطف، وذلك في صلاة الظهر من يوم الأحد الثامن لشهر شوال عام تسعة وتسعين وستمائة، وأسكن بها رابطة المسلمين، وباشر العمل في خندقها بيده رحمه الله، فتساقط الناس، من ظهور دوابهم إلى العمل، فتم ما أريد منه سريعاً.

وأنشدني شيخنا أبو الحسن الجياب بهنئه بهذا الفتح:

عدوك مقهورٌ وحزبك غالب ... وأمرك منصور وسهمك صائب

وشخصك مهما لاح للخلق أذعنت ... لهيبته عج الورى والأعارب

وهي طويلة.

من كان على عهده من الملوك.

كان على عهده بالمغرب، السلطان الجليل، أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق، الملقب بالمنصور، وكان ملكاً صالحاً، ظاهر السذاجة، سليم الصدر، مخفوض الجناح، شارعاً أبواب الدالة عليه منهم، أشبه بالشيوخ منه بالملوك، في إهمال اللفظ، والإغضاء عن الجفوة، والنداء بالكنية. وهو الذي استولى على ملك، الموحدين، واجتث شجرتهم من فوق الأرض، وورث سلطانهم، واجتاز إلى الأندلس، كما تقدم مرات ثلاث أو أزيد منها، وغزا العدو، وجرت بينه وبين السلطان المترجم به أمور، من سلم ومنقاضة، وإعتاب، وعتب، حسبما تدل على ذلك القصائد الشهيرة المتداولة، وأولها ما كتب به على عهده، الفقيه الكاتب الصدر، أبو عمرو بن المرابط، في غرض استنفاد للجهاد:

هل من معيني في الهوى أو منجدي ... من متهم في الأرض أو منجد

وتوفي السلطان المذكور بالجزيرة الخضراء في عنفوان وحشة بينه وبين هذا السلطان في محرم خمسة وثمانين وستمائة، وولي بعده ولده، العظيم الهمة، القوي العزيمة، أبو يعقوب يوسف، وجاز إلى الأندلس على عهده، واجتمع به بظاهر مربلة، وتجدد العهد، وتأكد الود، ثم عادت الوحشة المفضية إلى تغلب، العدو على مدينة طريف، فرضة المجاز الأدنى، واستمرت أيام السلطان أبي يعقوب إلى آخر مدة السلطان المترجم به، ومدة ولده بعده.

وبوطن تلمسان، أبو يحيى يغمور، وهو يغمر اسن بن زيان بن ثابت بن محمد ابن بندوسن بن طاع الله بن علي بن يمل، وهو أوحد اهل زمانه جرأة وشهامة، ودهاء، وجزالة، وحزماً. مواقفه في الحروب شهيرة، وكانت بينه وبين بني مرين وقائع، كان عليه فيها الظهور، وربما ندرت الممانعة، وعلى ذلك فقوى الشكيمة، ظاهر المنعة. ثم ولي بعده ولده عثمان إلى تمام مدة السلطان المترجم به، وبعضاً من دولة ولده.

وبوطن إفريقية، الأمير الخليفة، أبو عبد الله بن أبي زكريا بن أبي حفص، الملقب بالمستنصر، المثل المضروب، في البأس والأنفة، وعظم الجبروت، وبعد الصيت، إلى أن هلك سنة أربعة وسبعين وستمائة، ثم ولده الواثق بعده، ثم الأمير أبو إسحاق وقد تقدم ذكره. ثم كانت دولة الدعي ابن أبي عمارة المتوثب على ملكهم، ثم دولة أبي حفص مستنقذها من يده، وهو عمر بن أبي زكريا ابن عبد الواحد، ثم السلطان الخليفة الفاضل، الميمون النقيبة، أبو عبد الله محمد بن الواثق يحيى بن المستنصر أبي عبد الله، بن الأمير زكريا.

وبوطن النصارى، بقشتالة، ألفنش بن هراندة، إلى أن ثار عليه ولده شانجه، واقتضت الحال إجازة سلطان المغرب، واستجار به، وكان من لقائه بأحواز الصخرة من كورة تاكرنا ما هو معلوم. ثم ملك بعده ولده شانجه، واتصلت

ولايته مدة أيام السلطان، وجرت بينهما خطوب إلى أن هلك عام أربع وسبعين وستمائة. وولي بعده ولده هراندة سبعة عشر عاماً، وصار الملك إليه، وهو صبيٌ صغير فتنفس مخنق أهل الأندلس، وغزا سلطانهم وظهر إلى آخر مدته. وبرغون، ألفنش بن جايمش بن بطره بن جايمش المستولى على بلنسية، ثم هلك وولي بعده جايمش ولده، وهو الذي نازل مدينة ألمرية على عهد نصرٍ ولده، واستمرت أيام حياته إلى آخر مدته. وكان لا نظير له في الدهاء، والحزم، والقوة.

من الأحداث في أيامه

على عهده تفاقم الشر، وأعيا داء الفتنة، ولقحت حرب الرؤساء، الأصهار من بني إشقيلولة، فمن دونهم، وطنب سرادق الخلاف، وأصاب الأسر وفحول الثروة الرؤساء، فكان بوادي آش الرئيسان أبو محمد وأبو الحسن، وبمالقة وقمارش الرئيس أبو محمد عبد الله، وبقمارش: رئيس آخر هو الرئيس أبو إسحاق، فأما الرئيس أبو محمد فهلك، وقام بأمره بمالقة، ولده، وابن أخت السلطان المترجم به. ثم خرج عنها في سبيل الانحراف والمنابذة إلى ملك المغرب، ثم تصير أمرها إلى السلطان، على يد واليها من بني علي. وأما الرئيسان فصابرا المضايقة، وعزماً على النطاق والمقاطعة بوادي آش زماناً طويلاً. وكان آخر أمرهما الخروج عن وادي آش إلى ملك المغرب: معوضين بقصر كتامة، حسبما يذكر في أسمائهم. إن بلغنا الله إليه.

في أيامه

كان جواز السلطان المجاهد أبي يوسف يعقوب بن عبدالحق، إلى الأندلس، مغازياً ومجاهداً في سبيل الله. في أوائل عام اثنين وسبعين وستمائة، وقد فسد ما بين سلطان النصارى وبين ابنه، واغتنم المسلمون الغرة، واستدعى سلطان المغرب إلى الجواز، ولحق به السلطان المترجم به، وجمع مجلسه بين المنتزين عليه وبينه، وأجلت الحال عن وحشة، وقضيت الغزاة، وآب السلطان إلى مستقره.

وفي العام بعده، كان إيقاع السلطان ملك المغرب بالزعيم، ذنوبه، واستئصال شأفته، وحصد شوكته. ثم عبر البحر ثانية بعد رجوعه إلى العدوة، واحتل بمدينة طريف في أوائل ربيع الأول عام سبعة وسبعين وستمائة، ونازل إشبيلية، وكان اجتماع السلطانين بظاهر قرطبة، فاتصلت اليد، وصلحت الضمائر، ثم لم تلبث الحال أن استحالت إلى فساد، فاستولى ملك المغرب على مالقة، بخروج المنتزي بها إليه، إلى يوم الأربعاء التاسع والعشرين لرمضان عام سبعة وسبعين وستمائة. ثم رجعت إلى ملك الأندلس بمداخلة من كانت بيده ولنظره، حسبما يأتي بعد إن شاء الله.

وعلى عهده نازل طاغية الروم الجزيرة الخضراء، وأخذ بمخنقها، وأشرف على افتتاحها، فدافع الله عنها، ونفس حصارها، وأجاز الروم بحرها، على يد الفئة القليلة من المسلمين، فعظم المنح، وأسفر الليل، وانجلت الشدة، في وسط ربيع الأول من عام ثمانية وسبعة وسبعين وستمائة.

مولده

بغرناطة عام ثلاثة وثلاثين وستمائة، وأيام دولته ثلاثون سنة، وشهر واحد، وستة أيام.

وفاته

من كتاب طرفة العصر من تأليفنا في التاريخ، قال، واستمرت الحال إلى أحد وسبعمائة، فكانت في ليلة الأحد الثامن من شهر شعبان في صلاة العصر، وكان السلطان رحمه الله في مصلاه، متوجهاً إلى القبلة لأداء فريضته، على أتم ما يكون عليه المسلم من الخشية والتأهب، زعموا أن شرقاً كان يعتاده لمادة كانت تنزل من دماغه، وقد رجمت الظنون في غير ذلك لتناول عشية يومه كعكا اتخذت له بدار ولي عهده، والله أعلم بحقيقة ذلك. ودفن منفرداً، عن مدفن

سلفه، شرقي المسجد الأعظم في الجنان المتصل بداره، ثم ثني بحافده السلطان أبي الوليد، وعزز بثالث كريم من سلالته، وهو السلطان أبو الحجاج ابن أبي الوليد، تغمد الله جميعهم برحمته، وشملهم بواسع مغفرته وفضله.
الجزء الثاني

محمد بن يوسف بن قصر الخزرجي

محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج بن يوسف بن قصر الخزرجي

أمير المسلمين لهذا العهد بالأندلس، صدر الصدور، وعلم الأعلام، وخليفة الله، وعماد الإسلام، وقدوة هذا البيت الأصيل، ونير هذا البيت الكريم، ولباب هذا المجد العظيم، ومعنى الكمال، وصورة الفضل، وعنوان السعد، وطاير اليمن، ومحول الصنع، الذي لا تبلغ الأوصاف مداه، ولا توفى العبارة حقه، ولا يجري النظم والنثر في ميدان ثنايه، ولا تنتهي المدائح إلى عليائه.
أوليته

أشهر من إمتاع الضحى، مستولية على المدا، بالغلة بالسعة بالانتساب إلى سعد بن عبادة عنان السماء، مبتجحة في جهاد العدا؛ بحالة من ملك جزيرة الأندلس، وحسبك بها، وهي بها في أسنى المزاين والحلى، وقدماً فيه بحسب لمن سمع ورأى.
حاله
هذا السلطان أيمن أهل بيته نقيبة، وأسعدهم ميلاداً وولاية، قد جمع الله له بين حسن الصورة، واستقامة البنية، واعتدال الخلق، وصحة الفكر، وثقوب الذهن، ونفوذ الإدراك. ولطافة المسايل، وحسن التأني؛ وجمع له من الظرف ما لم يجمع لغيره، إلى الحلم، والأناة اللذين يحبهما الله، وسلامة الصدر، التي هي من علامة الإيمان، ورقة الحاشية، وسرعة العبرة، والتبرين في ميدان الطهارة والعفة، إلى ضخامة التنجد، واستجادة الآلات، والكلف بالجهاد، وثبات القدم، وقوة الجأشِ، ومشهور البسالة، وإيثار الرفق، وتوخي السداد، ونجح المحاولة. زاده الله من فضله، وأبقى أمره في ولده، وأمتع المسلمين بعمره. ساق الله إليه الملك طواعية واختياراً، إثر صلاة عيد الفطر على بغتة وفاة المقدس أبيه، من عام خمسة وخمسين وسبعمائة، لمخايل الخير، ومزية السن، ومظنة البركة، وهو يافع، قريب العهد بالمراهقة، فأنبته الله النبات الحسن، وسدل به الستر؛ وسوغ العافية، وهنأ العيش؛ فلم تشح في مدته السماء، ولا كلب الأعداء، ولا تبدلت الألقاب، ولا عونيت الشدائد، ولا عرف الخوف، ولا فورق الخصب، إلى أن كانت عليه الحادثة، ونابه التمحيص، الذي أكسبه الحنكة، وأفاده العبرة، فشهد بعناية الله في كف الأيدي العادية، وأخطأ ألم السهام الراشقة، وتخييب الآمال المكايدة، وانسدال أروقة الستر والعصمة، ثم العودة، الذي عرف الإسلام، بدار الإسلام قدرها، وتملأ عزها، ورجح وزنها، كما اختبر ضدها فرصة الملك، وشاع العدل، وبعد الصيت، وانتشر الذكر، وفاض الخير؛ وغزر القطر، فظهرت البركات، وتوالت الفتوح، وتخلدت الآثار. وسيرد من بيان هذه الجمل، ما يسعه الترتيب بحول الله.
ترتيب دولته الأولى
إذ هو ذو دولتين، ومسوغ ولايتين، عززهما الله، بملك الآخرة، بعد العمر الذي يملأ صحايف البر، ويخلد حسن الذكر، ويعرف إلى الوسيلة، ويرفع في الرفيق الأعلى الدرجة، عند الله خير وأبقى للذين آمنوا، وعلى ربهم

يتوكلون.
وزراؤه وحجابه أنتدب إلى النيابة عنه، والتشمير إلى الحجابة ببابه، الشيخ القايد المعتمد بالتجلة، المتحول من الخدام النبهاء، المتسود الأبوة، المخصوص بالفدح المعلى من المزية، المسلم له في خصوصية الملك والتربية، ظهير العلم والأدب، وأمين الجد، ومولى السلف، ومفرغ الرأي إلى هذا العهد، وعقد سفرة السلطان، وبقية رجال الكمال من مشيخة المماليك، وخيار الموالي، أبا النعيم رضوان رحمه الله، فحمد الكل، وخلف السلطان، وأبقى الرتب، وحفظ الألقاب، وبذل الإنصاف، وأوسع السكنف، واستدعى النصيحة، ولم يأل جهداً في حسن السيرة، وتظاهر المحض، وأفردني بالمزية وعاملني بما يرتد عنه جسر أطرف الموالاة والصحبة، ووفى لي الكيل الذي لا يقتضيه السن، والقربة من الاشتراك في الرتبة، والتزحزح عن الهضبة، والاختصاص باسم الوزارة على المشهر والغيبة، والمحافظة على التشيع والقدمة، بلغ في ذلك أقصى الغايات. مدارج التخلق المأثور عن الجلة، والتودد إلى المرة بعد المرة، واختصصت بفوت المدة بالسلطان، فكنت المنفرد بسره دونه، ومفضي همه، وشفاء نفسه، فيما ينكره من فتنة تقع في سيرته، أو تصير توجيه السذاجة في معاملاته، وصلاح ما يتغير عليه من قلبه، إلى أن لحق بربه.
شيخ الغزاة ورئيس الجند الغربي لأول أمره

أقر على الغزاة شيخهم على عهد أبيه، أبا زكريا يحيى بن عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق، مطمح الطواف، وموفي الاختيار، ولباب القوم، وبقية السلف. حزماً ودهاء، وتجربة وحنكة وجداً وإدراكاً ناهيك من رجل فذ المنازع، غريبها، مستحق التقديم، شجاعة وأصالة، ورأياً ومباحثة، نسابة قبيله، وأضحى قسهم، وكسرى ساستهم، إلى لطف السجية، وحسن التأني، لغرض السلطان، وطرق التنزل للحاجات، ورقة غزل الشفاعات. وإمتاع المجلس، وثقوب الذهن والفهم، وحسن الهيئة. وزاده خصوصية ملازمته مجلس الرفاع المعروضة. والرسل الواردة. وسيأتي ذكره في موضعه بحول الله تعالى.
كاتب سره قمت لأول الأمر بين يديه بالوظيفة التي أسندها إلي أبوه المولى المقدس، رحمه الله، من الوقوف على رأسه، والإمساك في التهاني والمبايعة بيده. والكتابة والإنشاء والعرض والجواب. والخلعة والمجالسة، جامعاً بين خدمة القلم، ولقب الوزارة، معزز الخطط برسم القيادة، مخصوصاً بالنيابة عنه في الغيبة، على كل ما اشتمل عليه سور القلعة والحضرة، مطلق أمور الإيالة، محكماً في أشتاته تحيكم الأمانة، مطلق الجراية، ظاهر الجاه والنعمة. ثم تضاعف العز، وتأكد الرعي، وتمحض القرب، فنقلني من جلسة المواجهة، إلى صف الوزارة؛ وعاملني بما لا مزيد عليه من العناية، وأحلني المحل الذي لا فوقه في الخصوصية، كافأ الله فضله، وشكر رعيه، وأعلى محله عنده.
وأصدر لي هذا الظهير لثاني يوم ولايته: هذا ظهير كريم، صفي شربه. وسفرني في الرسالة عنه، إلى السلطان، الخليفة الإمام، ملك المغرب، وما إليه من البلاد الإفريقية، أبي عنان، حسبما يأتي ذكره. ثم أعفاني في هذه المدة الأولى، عن كثير من الخدمة، ونوه بي عن مباشرة العرض بين يديه بالجملة، فاخترت للكل والبدلة، وما صان عنه في سبيل التجلة، وإن كان منتهي أطوار الرفعة، الفقيه أبا محمد بن عطية، مستنزلاً عن قضاه وادي آش وخطابتها، فكان يتولى ما يكتب بنظري، وراجعاً لحكمي، ومتردداً لبالي، مكفي المؤنة في سبيل الحمل الكلي، إلى وقوع الحادثة، ونفوذ المشيئة بتحويل الدولة.
قضاته حدد أحكام القضاء والخطابة لقاضي أبيه الشيخ الأستاذ الشريف، نسيج وحده، وفريد دهره، إغراباً في الوقار، وحسن السمت وأصالة البيت، وتبحراً في علوم اللسان، وإجهازاً في فصل القضايا، وانفراداً ببلاغة الخطبة، وسبقاً في ميدان الدهاء والرجاحة، أبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسني، الجانح إلى الإيالة النصرية من مدينة

سبتة. وسيأتي التعريف به في مكانه إن شاء الله. وتوفي رحمه الله بين يدي حدوث الحادثة، فأرجئ الأمر بمكانه، إلى قدوم متلفق الكرة، ومتعاور تلك الخطة، الشيخ الفقيه القاضي، أبي البركات قاضي أبيه. ووليها الأحق بها بعده، إذ كان غايباً في السفارة عنه، فوقع التمحيص قبل إبرام الأمر على حال الإستنابة.

الملوك على عهده وأولهم بالمغرب، السلطان، الإمام، أمير المسلمين، أبو عنان ابن أمير المسلمين أبي الحسن بن أمير المسلمين أبي سعيد بن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، البعيد الشأو في ميدان السعادة، والمصمى أغراض السداد، ومعظم الظفر، ومخول الموهبة، المستولي على آماد الكمال، عقلاً وفضلاً وأبهةً ورواءاً، وخطاً وبلاغة، وحفظاً وذكاء وفهماً وأقداماً، تغمده الله برحمته، بعثني إلى بابه رسولاً على إثر بيعته، وتمام أمره، وخاطباً إثره ووده، مسترفداً من منحة قبوله، فألفيت بشراً مبذولا، ورفداً ممنوحاً، وعزاً باذخاً، يضيق الزمان عن جلالته، وتقصر الألسنة عن كنه وصفه، فكان دخولي عليه في الثامن والعشرين من شهر ذي قعدة عام خمسة وخمسين المذكور، وأنشدته بين يدي المخاطبة، ومضمن الرسالة:

خليفة الله ساعد القدر ... علاك ما لاح في الدجا قمر

فأحسب وكفى، واحتفل واحتفى، وأفضت بين يدي كرمته، إلى الحضور معه في بعض المواضع المطلة على مورد وحب. هاج به الخدام أسداً، أرود، شثن الكفين مشعر اللبدة، حتى مرق عن تابوت خشبي كان مسجونا به، من بعد إقلاعه، من بعض كواه، وأثارته من خلقه، واستشاط وتوقد بأساً. وجلب ثور عبل الشوى، منتصب المروى، يقدمه صوار من الجواميس، فقربت الخطا، وحميت الوغى، وبلغ الزئير والجوار ما شاء، في موقف من ميلاد الشيم العلي يخشى الجبان مقارعة العدا، ويوطن نفسه الشجاع على ملاقة الردى، وخار الأسد عن المبارزة، لما بلغ منه ثقافاً عن رد المناوشة، ومضطلعاً بأعباء المحاملة، فتخطاه إلى طائفة من الرجالة، أولى عدة، وذوي دربة، حمل نفسه متطارحاً كشهاب الرجم، وسرك الدجا، وأخذته رماحهم بإبادته، بعد أن أردى بعضهم، وجدل بين يدي السلطان، متخبطا في دمه. وعرض بعض الحاضرين، وأغرى بالنظم في ذلك، فأنشدته:

أنعام أرضك تقهر الآسادا ... طبعاً كسا الأرواح والأجسادا

وخصايص لله بث ضروبها ... في الخلق ساد لأجلها من سادا

إن الفضايل في حماك بضايع ... لم تخش من بعد النفاق كسادا

كان الهزبر محارباً فجزيته ... بجزاء من في الأرض رام فسادا

فابغ المزيد من آلايه بشكره ... وأرغم بما خولته الحسادا

فستحسن تأتى القريحة، وإمكان البديهة، مع قيد الصفة، وهيبة المجلس. وكان الانصراف بأفضل ما عاد به سفير، من واد أصيل، وإمداد موهوب، ومهاداة أثيرة وقطار مجنوب، وصامت محمول، وطعمة مسوغة. وكان الوصول في وسط محرم من عام ست وخمسين وسبع ماية، وقد نجح السعي، وأثمر الجهد، وصدقت المخيلة، وقد تضمن رحلى الوجهة، والأخرى قبلها جزء. والحمد لله الذي له الحمد في الأولى والآخرة. وتوفى زعموا بحيلة، وقيل حتف أنفه، لما نهكه المرض، وشاع عنه الإرجاف، وتنازع ببابه الوزراء، وتسابق إلى بابه الأبناء. وخاف مدبر أمره، عايدة ملامته، على توقع برئه، وكان سيفه يسبق على سوطه، والقبر أقرب إلى من تعرض لعتبه من سجنه، فقضى موضع هذا السبيل خاتمة الملوك الجلة، من أهل بيته. جدد الملك، وحفظ الرسوم، وأجرى الألقاب، وأغلظ العقاب، وصير إيالته أضيق من الخد. وأمد الأندلس، وهزم الأضداد، وخلد الآثار، وبنى المدارس والزوايا، واستجلب الأعلام. وتحرك إلى تلمسان فاستضافها إلى إيالته، ثم ألحق بها قسنطينة وبجاية، وجهز أسطوله إلى تونس، فدخلها وتملكها

ثقاته في رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعمائة، واستمرت بها دعوته إلى ذي قعدة من العام، رحمة الله عليه. وكانت وفاته في الرابع عشر لذي حجة من عام تسع وخمسين وسبعمائة. وصار الأمر إلى ولده المسمى بالسعيد، المكنى بأبي بكر، مختار وزيره ابن عمر الفدووي. ورام ضبط الإيالة المشرقية فأعياه ذلك، وبايع الجيش الموجه إليها منصور بن سليمان، ولجأ الوزير وسلطانه إلى البلد الجديد، مثوى الخلافة المرينية، فكان أملك بها. ونازله منصور بن سليمان، ثم استفضى إليه أمر البلد لحزم الوزير وقوة شكيمته. وغادر السلطان أبو سالم إبراهيم بن السلطان أبي الحسن أخو الهالك السلطان أبي عنان الأنلسي، وقد كان استقر بها بإبعاد أخيه إياه عن المغرب، كما تقدم في اسمه، فطلع على الوطن الغربي بإعانة من ملك النصارى، عانى فيها هولاً كثيراً، واستقر بآخرة بعد إخفاق شيعته المراكشيةِ، بساحل طنجة، مستدعي ممن بجبال غمارة، ودخلت سبتة وطنجة في طاعته. وفر الناس عن منصور بن سليمان، ضربة لازب، وتقبض عليه وعلى ابنه، فقتلا صبراً، نفعهما الله. وتملك السلطان أبو سالم المدينة البيضاء يوم الخميس عشر لشعبان عام ستين وسبعمائة، بنزول الوزير وسلطانه عنها إليه. ثم دالت الدولة. وكان من لحاق السلطان برندة، واستعانته على رد ملكه ما يأتي في محله، والبقاء لله سبحانه.

وبتلمسان السلطان أبو حمو موسى بن يوسف بن يحيى بن عبد الرحمن بن يغمراسن بن زيان، قريب العهد باسترجاعها، لأول أيام السعيد.

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين

وبتونس الأمير إبراهيم بن الأمير أبي بكر بن الأمير أبي حفص بن الأمير أبي بكر ين أبي حفص بن إبراهيم بن أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد، لنظر الشيخ رأس الدولة، وبقية الفضلاء، الشهير الذكر، الشائع الفضل، المعروف السياسة، أبي محمد عبد الله بن أحمد بن تأفراقين. تحت مضايقة من عرب الوطن.

ومن ملوك النصارى بقشتالة، بطره بن ألهنشة بن هراندة بن شانجه بن ألفنش بن هراندة، إلى الأربعين، وهو كما اجتمع وجهه، تولى الملك على أخريات أيام أبيه في محرم عام أحد وخمسين وسبعمائة. وعقد معه سلم على بلاد المسلمين. ثم استمر ذلك بعد وفاته في دولة ولداه المترجم به، وغمرت الروم. وألقت العصا، وأغضت القضاء، وأجالت على الكثير من الكبار الردى، بما كان من إخافته ساير إخواته لأبيه، من خاصته، العجلة الغالبة على هواه، فنبذوه على سوء بعد قتلهم أمهم، وانتزوا عليه بأقطار غرسهم فيها أبوهم قبل موته بمرعية أمهم. وسلك لأول أمره سيرة أبيه في عدوله عن عهوده بمكابيه لمنصبه، إلى اختصاص عجلة، أنف بحراه كبار قومه، من أجل ضياع بذره وانقراض عقبه، فمال الخوارج عليه، ودبروا القبض عليه، وتحصل في أنشوطة، يقضي أمره بها إلى مطاولة عقله أو عاجل خلع، لولا أنه أفلت وتخلص من شراراها. فاضطره ذلك إلى صلة السلم، وهو الآن بالحالة الموصوفة.

الأحداث في أيامه لم يحدث في أيامه حدث إلا العافية المسحة والهدنة المتصلة، والأفراح المتجددة، والأمنة المستحكمة، والسلم المنعقدة. وفي آخر جمادى عام ست وخمسين وسبعمائة لحق بجبل الفتح فشمم شعبته، وأبر متبوته، كان على ثغره العزيز على المسلمين، من لدن افتتاحه، الموسوم الخطة، المخصوص بمزية تشييده، عيسى بن الحسن بن أبي منديل، بقية الشيوخ أولي الأصالة والدهاء، والتزيي بزي الخير، والمثل الساير في الانسلاخ من آية السعادة، والإغراق في سوء العقبى. والله غالب على أمره، فكان أملك بمصامه، وقر عينه بلقاء ولده، والتمتع منه بجواد عتيق. ملي من خلال السياسة، أرداه سوء الحظ، وشؤم النصبة، وأظلم ما بينه وبين سلطانه، مسوغه برداء العافية على تفه صغر، وملبسه رداء العفة على قدح الأمور، أبدى منها الخوف على ولده، وعرض ديسم عزمه، على ذوبان الجبل، فاتحطوا في هواه، وغروه بكاذب عصبة، فأظهر الامتناع سادس ذي قعدة من العام المذكور، واتصلت الأخبار، وساءت الظنون، وضاقت الصدور، ونكست الرؤوس لتوقع الفاقرة، بانسداد باب الصريخ. وانبتات سبب النصرة. وانبعاث طمع العدو واتحطت الأطماع في استرجاعه واستقالته، لمكان حصانته، وسمو الذروة، ووفور العدة، ووجود الطعمة، وأخذه بتلاشي الفرصة. ثم ردفت الأخبار بخروج جيشه صحبة ولده إلى منازلة أشتبونة، وإخفاق أمله فيها. وامتساك أهلها بالدعوة، وانتصافهم من الطائفة العادية؛ فبودر إليها من مالقة بالعدد. وخوطب السلطان من ملك المغرب أيده الله بالجلية، فتحققت المنابذة، واستقرت الظنون. وفي الخامس والعشرين من شهر ذي قعدة، ثار به أهل الجبل وتبرأ منه أشياعه، وخذلوه بالفرار، فأخذت شعابه ونقابه، فكر راجعاً أدراجه إلى القاعدة الكبيرة. وقد أعجله الأمر، وحملته الطمأنينة على إغفال الاستعداد بها. وكوثر فألقى به، وقد لحق به بعض الأساطيل بسبتة. لداعي تسور توطي على إمارته، فقيد هو وأبنه، وخيض بهما البحر للحين: ولم ينتطح فيها عنزان، رحمه الله، سنام فئة ألقت بركها، وأناخت بكلكلها، وقد قدر أنها واقعة، ليس لها من دون الله كاشفة، فقد كان من بالجبل برموا على إيالة ذينك المرتسمين.

وألقوا أجوارها، وأعطوهما الصفقة، بما أطمعهما في الثورة، ولكل أجل كتاب. واحتمل إلى الباب السلطاني بمدينة

فاس، وبرز الناس إلى مباشرة إيصالهما مجلوبين في منصة الشهرة، مرفوعين في هضبة المثلة. ثم أمضى السلطان فيهما حكم الفساد، بعد أيام الحرابة، فقتل أشيخ بخارج باب السمارين من البلد الجديد. بأيدي قرابته، فكان كما قال الأول:

أضحت رماح بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق

وقطهن رجل الولد ويده. بعد طول عمل وسوء تناول، ولم ينشب أن استنفذه حمامه فأضحى عبرة في سرعة انقلاب حالهما من الأمور الحميدة، حسن طلعة، وذياع حمد، وفضل شهرة. واستفاضة خيرية، ونباهة بيت، وأصالة عز، إلى ضد هذه الخلال، وقانا الله مصارع السوء، ولا سلب عنا جلباب الستر والعافية.

وسد السلطان ثغر الجبل بآخر من ولده اسمه السعيد، وكنيته أبو بكر، فلحق به في العشر الأول من المحرم من عام سبعة وخمسين وسبعمائة، ورتب له بطانته، وقدر له أمره، وسوغه رزقاً رغداً، وعيشاً خفضاً. وبادر السلطان المترجم له، إلى توجيه رسوله؛ قاضياً حقه، مقرر السرور بجواره، وأتبع ذلك ما يليق من الحال من بر ومهاداة ونزل، وتعقبت بعد أيام المكافآت، فاستحكم الود، وتحسنت الألفة إلى هذا العهد. والله ولي توفيقهم ومسني الخير والخيرة على أيديهم.

الحادثة التي جرت عليه

واستمرت أيامه كأحسن أيام الدول، خفض عيش، وتوالى خصب، وشياع أمن، إلا أن شيخ الدولة القايد أبا النعيم رحمه الله، أضاع الحزم. وإذا أراد الله إنفاذ قضايه وقدره، سلب ذوي العقول عقولهم، بما كان من أمنه جانب القصر الملزم دار سكناه، من علية فيها أخو السلطان، بتهاونه يحيل أمه المداخلة في تحويل الأمر إليه، جملة من الأشرار، دار أمرهم على زوج ابنتها اللائيس محمد بن إسماعيل بن فرج من القرابة الأخلاف، وإبراهيم بن أبي الفتح. والدليل الموروري. وأمدته بالمال، فداخل القوم جملة من فرسان القيود، وعمرة السجون، وقلاميد الأسوار. وكانت تتردد إليه في سبيل زيارة بنتها الساكنة في عصمة هذا الخبيث، المنزوع العصمة، خارج القلعة حتى تم يوم الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان من العام، اجتمعوا وقد خفى أمرهم، وقد تألفوا عددا يناهز الماية بالقوس الداخل من وادي هداره إلى البلد، لصق الجناح الصاعد منه إلى الحمراء، وكان بسورها ثلم، لم يتم ما شرعوا فيه من إصلاحه؛ فنصبوا سلماً أعد لذلك، وصعدوا منه. ولما استوفوا، قصدوا الباب المضاع المسلحة، للثقة بما قبل؛ فلما تجاوزوه أعلنوا بالصياح، واستغلظوا بالتهويل. وراعوا الناس بالاستكثار من مشاعل الخلفاء، فقصدت طايفة منهم دار الشيخ القايد أبي النعيم؛ فاقتحمته غلاباً وكسرت أبوابه؛ وقتلته في مضجعه، وبين أهله وولده، وأنتهبت ما وجدت به. وقصدت الأخرى دار الأمير، الذي قامت بدعوته، فاستجزته واستولت على الأمر. وكان السلطان متحولاً بأهله إلى سكني جنة العريف خارج القلعة، فلما طرقه النبأ، وقرعت سمعه الطبول سدده الله؛ وساند أمره في حال الحيرة، إلى امتطاء جواد كان مرتبطاً عنده في ثياب تبذله ومصاحباً لأفراد من ناسه؛ وطار على وجهه، فلحق بوادي آش قبل سبوق نكبته، وطرق مكانه بأثر ذلك، فلم يلف فيه، واتبع فاعيا المتبع. ومن الغد، استقام الأمر لأولي الثورة، واستكملوا لصاحبهم أمر البيعة، وخاطبوا البلاد فألقت إلى صاحبهم أمر البيعة، وخاطبوا البلاد فألقت إلى صاحبهم بالأزمة، وأرسلوا إلى ملك النصارى في عقد الصلح. وشرعوا في منازلة وادي أش، بعد أنثبت أهلها مع المعتصم بها، فلازمته المحلات وولي عليه التضييق. وخيف فوات البدر ونفاد القوة، فشرع السلطان في النظر نفسه، وخاطب السلطان أبا سالم ملك المغرب في شأن القدوم عليه، فتلقاه بالقبول وبعث من يمهد الحيث في

شأنه، فتم ذلك ثاني يوم عيد النحر من العام. وكنت عند الحادثة على السلطان، ساكناً بجنتي المنسوبة إلي من الحضرة، منتقلاً إليها بجملتي، عادة المترفين، إذ ذاك من مثلي، فتخطائى الحتف، ونالتني النكبة، فاستأصلت النعمة العريضة، والجدة الشهيرة، فما ابتقت طارفاً ولا تليداً، ولا ذرت قديماً ولا حديثاً، والحمد لله مخفف الحساب، وموقظ أولي الألباب، ولطف الله بأن تعطف السلطان بالمغرب إلى شفاعة بي بخطه، وجعل أمري من فصول قصده. ففكت عني أصابع الأعداء، واستخلصت من أنيابهم، ولحقت بالسلطان بوادي آش. فذهب البأس، واجتمع الشمل. وكان رحيل الجميع ثاني عيد النحر المذكور، فكان النزول بفحص ألفنت، ثم الانتقال إلى لوشة، ثم إلى أنتقيه، ثم إلى ذكوان، ثم إلى مربلة يضم أهل كل محل من هذه مأتماً للحسرة، ومناحة للفرقة. وكان ركوب البحر صحوة الرابع والعشرين من الشهر، والاستقرار بمدينة سبتة، وكفى بالسلامة غنما، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

وكان الرحيل إلى باب السلطان، تحت بر لا تسعه العبارة، ولقاؤنا إياه بظاهر البلد الجديد لإلمام ألم عاقه عن الإصحار والتغني على البعد، يوم الخميس السادس لمحرم من عام أحد وستين بعده. في مركب هايل، واحتفال رايع رايق، فعورض فيه النزول عن الصهوات، والبر اللايق بمناصب الملوك، والوصول إلى الدار السلطانية، والطعام الجامع للطبقات وشيوخ القبيل. وقمت يومئذ فوق رأس السلطان وبين يدي مؤمله، فأنشدته مغرياً بنصره، كالوسيلة بقولي:

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ... وهل أعشب الوادي ونم به الزهر

فهاج الامتعاض، وسالت العبرات، وكان يوماً مشهوداً، وموقفاً مشهوراً، طال به الحديث، وعمرت به النوادي، وتوزعتنا النزايل على الأمل، شكر الله ذلك وكتبه لأهله، يوم الافتقار إلى رحمته. واستمرت الأيام، ودالت الدولة للرئيس بالأندلس، والسلطان تغلبه المواعيد، وتونسه الآمال، والأسباب تتوفر، والبواعث تتأكد. وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه، واستقرت بي الدار بمدينة سلا، مرابطاًن مستمتعاً بالغيبة، تحت نعمة كبيرة، وإعفاء من التكليف.

وفي اليوم السابع لشوال من عام التاريخ، قعد السلطان بقبة العرض بظاهر جنة المصارة لتشييعه، بعد اتخاذ ما يصلح لذلك؛ من آلة وحلية، وقد برز الخلق، لمشاهدة ذلك الموقف المسيل للدموع، الباعث للرقة. المتبع بالدعوات، لما قذف الله في القلوب من الرحمة، وصحبه به في التغرب من العناية، فلم تنب عنه عين، ولا حمل له موكب، ولا تقلصت عنه هيبة، ولا فارقته حشمة، كان الله له في الدنيا الآخرة. وأجاز، واضطربت الأحوال. بما كان من هلاك معينه السلطان أبي سالم، وغدر الخبيث المؤتمن على قلعته به، عمر بن عبد الله بن علي، صعر الله حزبه، وخلد خزيه، وسقط في يده، إلا أنه ثبتت في رندة من إيالة الأندلس، الراجعة إلى إيالة المغرب، قدمه، فتعلل بها، وارتاش بسببها، إلى أن فتح الله عليه، وسدد عزمه، وأراه لما ضعفت الحيل صنعه، فتحرك إلى بر مالقة، وقد فغر عليها العدو فمه، ثم أقبل على مالقة، مستميتاً دونها، فسهل الله الصعب، وأنجح القصد، واستولى عليها، وأنثالت عليه لحيتها البلاد، وبدا الريس المتوثب على الحضرة، بعد أن استوعب الذخيرة والعدة، في جملة ضخمة ممن خاف على نفسه، لو وفى بذمة الغادر وعهده، واستقر بنادي صاحب قشتالة، فأخذه بجريرته، وحكم الحيلة في جنايته وغدره، وألحق به من شاركه في التسور من شيعته، ووجه إلى السلطان بؤوسهم تبع رأسه. وحث السلطان أسعده الله خطاه إلى الحضرة، يتلقاه الناس، مستبشرين، وتتزاحم عليه أفواجهم مستقبلين مستغفرين، وأحق الله الحق بكلماته، وقطع دابر الكافرين.

وكان دخول السلطان دار ملكه، وعوده إلى أريكة سلطانه، وحلوله بمجلس أبيه وجده، زوال يوم السبت الموفي

عشرين لجمادى الثانية من عام ثلاثة وستين وسبعمائة، وجعلنا الله من هم الدنيا على حذر، وألهمنا لما يخلص عنده من قول وعمل. وتخلف الأمير وولده بكره، أسعده الله، بمدينة فاس فيمن معه من جملة، وخلفه من حاشية. ولد المستولي على ملك المغرب في إمساكه إلى أن يسترجع رندة في معارضة هدفه. ثم إن الله جمع لأبيه بجمع شمله، وتمم المقاصد بما عمه من سعده. وكان وصولي إليه معه، في محمل اليمن والعافية، وعلى كسر التيسير من الله والعناية يوم السبت الموفي عشرين شعبان عام ثلاثة وستين وسبعمائة.

ترتيب الدولة الثانية السعيدة الدور إلى بيعة الكور

هنأ المسلمين ببركتها الوافرة، ومزاياها المتكاثرة. السلطان أيده الله قد مر ذكره، ويسر الله من ذلك ما تيسر. وزراؤه

اقتضى حزمه إغفال هذا الرسم جملة، مع ضرورته في السياسة، وعظم الدخول، حذراً من انبعاث المكروه له من قبله، وإن كان قدم بهذا اللقب في طريق منصرفه إلى الأندلس، وإياماً من مقامه برندة، فنحله عن كره، علي بن يوسف بن كماشة، من عتاق خدامه وخدام أبيه، مستصحباً إياه، مسدول التجمل على باطن نفرة، مختوم الجرم، على شوكه، في حطبه في حبل المتغلب، وإقراضه السيئة من الحسنة، والمنزل الخشن، إلى الإنفاق منه على الخلال الذميمة، ترأسها خاصة الشوم، علاوة على حمل الشيخ الغريب الأخبار، والطمع في أرزاق الدور، والاسترابة بمودة الأب، وضيق العطن، وقصر الباب، وعي اللسان، ومشهور الجبن. ولما وقع القبض، وساء الظن، بعثه من رندة إلى الباب المريني ليخلى منه جنده، ويجس مرض الأيام، بعد أن نقل من الخطة كعبه، فتيسر بعد منصرفه الأمر، وتسني الفتح. وحمله الجشع الفاضح، والهوى المتبع، على التشطط لنفسه، والكدح لخويصته بما أقطعه الجفوة، وعسر عليه العودة على السلطان بولده، إلى أن بلغ الخبر برجوع أمره، ودخول البلاد في طاعته. فألقى ما تعين إليه، وأهوى به الطمع البالغ في عرش الدولة، ويرتاش في ريق انتقامها. وتحرك وراية الإخفاق خافقة على رأسه، قطب مخلصه، وجوجوة عوده، من شيخ تدور بين فتكه رحى جعجعة، وتثور بين أضلاعه حية مكيدة، وينعق فوق مساعيه غراب شوم وطيرة، وحدث حرفاؤه صرفاً من مداخلة سلطان قشتالة، أيام هذه المجاورة، فبلغ أمنيته من ضرب وعد، واقتنا عهد، واتخاذ مدد، وترصيد دار قرار، موهماً نفسه البقاء والتعمير والتملي، وانفساح المدة والأمر، وقيادة الدجن عند تحول الموطن لملة الكفر، يسمح لذلك لنقصان عقله، وقلة حيائه وضعف غيرته. وطوى المراحل، وقيض حمى تزلزل لها فكاه، أضلها الحسرة، وانتزاء الخبائث. وتلقاه بمالقة، إيعاز السلطان بالإقامة بها، لما يتصل به من سوء تصريفه، ثم أطلع شافع الحياء في استقامة وطنه طوق عتبه، وصرفه إلى منزله، ناظراً في علاج مرضه. ثم لما أفاق وقفه دون حده، ولم يسند إليه شيئاً من أموره، فشرع في ديدنه من الفساد عليه، وقرس سلطان قشتالة، شاكياً إليه بثه، وأضجر لسكني باديته بالثغر، فراب السلطان أمره، وأهمه شأنه، فتقبض عليه وعلى ولده، وصرفا في جملة من دائرة السوء ممن ثقلت وطأته، فغربوا إلى تونس، أوايل شهر رمضان من عام ثلاثة وستين. ثم لما قفل من الحج، واستقر ببجاية يريد المغرب، حن إلى جوار النصانية، التي ريم سلفه العبودية إليها، فعبر البحر إلى برجلونه، ينفض عناء طريق الحج على الصلبان، ويقفو على آثار تقبيل الحجر الأسود، تقبيل أيدي الكفار. ثم قصد باب المغرب رسولاً عن طاغية برجلونه في سبيل فساد على المسلمين، فلم ينجح فيه قصده، فتقاعد لما خسر فيه ضمائه، وصرف وكره إلى الاتصال بصاحب قشتالة، وعن علي كتب إليه بخطه، يتنفق عنده ويغريه المسلمين، فتقبض عليه، وسجن بفاس

مع أرباب الجرائم. وعلى ذلك استقر حاله إلى اليوم، وأبرأ إلى الله من التجاوز في أمره. ومن يضلل الله فما له من هاد.

ولما وفدت على السلطان بولده، وقرت عيني بلقايه، تحت سداده وعزه، وفوق أريكة ملكه، وأديت ما يجب من حقه؛ عرضت عليه غرضي، ونفضت له خزانة سري، وكاشفته ضميري بما عقدت مع الله عهدي، وصرفت إلى التشريق وجهي، فعلقت بي لركومه علوق الكرامة، ولاطفني بما عاملت البر بين الدعر والضنانة، ويضرب الآماد وخرج لي عن الضرورة، وأراني أن مؤازرته أبر القرب، وراكنني إلى عهد بخطه، فسح فيه لعامين أمد الثواء، واقتدى بشعيب صلوات الله عليه في طلب الزيادة على تلك النسبة، وأشهد م حضر من العلية، ثم رمى إلى بعد ذلك بمقاليد رأيه، وحكم عقلي في اختيار عقله، وغطى جفائي بحلمه، وحثا في وجوه شهواته تراب زجري، ووقف القبول على وعظي، وصرف هواه في التحول ثانياً وقصدى، واعترف بقبول نصحي، فاستعنت بالله، وعاملت وجهه فيه.
وصادقني مقارضة الحق بالجهاد، ورمى إلي بدنياه، وحكمني فيما ملكته يداه، وغلبني على أمره لهذا العهد، والله غلب على أمره. فأكمل المقام ببابه إلى هذا التاريخ مدة أجرى الله فيها، من يمن النقيبة، واطراد السداد، وطرد الهوى، ورفض الزور، واستشعار الجد، ونصح الدين، وسد الثغور، وصون الجباية، وإنصاف المرتزقة، ومحاولة العدو، وقرع الأسماع بلسان الصدق، وإيقاظ العيون من نوم الغفلة، وقدح زناد الرجولة، ما هو معلوم، يعضد دعواه، ولله المنة، سجية السذاجة، ورفع التسمت، وتكور المنسأه، وتفويت العقار في سبيل القربة، والزهد في الزبرج، وبث حبال الآمال، والتعزيز بالله عن الغنيمة، وجعل الثوب غطاء الليل، ومقعد المطالعة فراش النوم، والشغل لمصلحة الإسلام، لريم الأنفاس، فأثمر هذا الكرخ، وأثبج هذا المسعى مناقب الدولة، بلغت أعنان، وآثاراً خالدة، ما بقيت الخضراء على الغبراء، وأخباراً تنقل وتروى، إن عائدها الحاسد، فضحه الصباح المنير، وكاثره القطر المنثال، وأعياه السيل المتدافع: فما يختص من ذلك بالسلطان، فخامة الرتبة، ونباهة الألقاب، وتجمل الرياش، وتربع الشريعة، وارتفاع التشادر ببابه، والمنافسة الاغتباط منه، بمجالس التنبيه والمذاكرة، وبدر الدموع في حال الرقة، والإشادة باحتقار الدنيا بين الخاصة، وتعيين الصدقات في الأوقات العديدة، والقعود لمباشرة المظالم ستة عشر يوماً في كل شهر من شهور الأهلة، يصل إليه فيها اليتيم والأرملة، فيفرح الضعيف، وينظر حضور الزمن، ويتغمد هفوة الجاهل، ويتأثر لشكوى المصاب، ويعاقب الوزعة على الأغلاط، إلى إحسان الملكة في الأسري، والأغراب في باب الحلم، والإعياء في ترك الحظ، والتبري من سجية الانتقام، والكلف بإرباط الخيل، واقتناء أنواع السلاح، ومباشرة الجهاد، والوقار في الهيعات، وإرسال سجية الإيمان، وكساد سوق المكيدة، والتصامم عن السعاية؛ هذا مع الشباب الغض، والفاحم الجعد، وتعدد حبائل الشيطان في مسالك العمر، ومطاردة قانص اللذات في ظل السلم، ومغازلة عيوم الشهوات من ثنايا الملوك. وأيم الله الذي له تستخلص الحقوق، وتيسر الستور، وتستوثق العهود ولا تطمئن القلوب إلا يه؛ ما كاذبته، ولا راضيت في الهوادة طوله، ولا سامحته في نقيض هذه الخلال. ولقد كنت أعجب من نفاق أسواق الذكري لديه، وانتظام أقسية النصح عنده، وإيقاع نبات الرشد فيه نصيحة، وأقول بارك الله فيها من سجية، وهنأ المسلمين بها من نفس زكية. وسيأتي بيان هذه النتائج، وتفسير مجمل هذه الفضايل بحول من لا حول إلا به سبحانه. والحال متصلة على عهده الوثير من إعانته بالوسوع، والخروج له عن هذه العهدة، والتسليم له في البقية، إرهاقاً لسيف جهاده، وجلاء لمرآة نصحه وتسوية إيزان عدله، وإهابة لحمد رشده، شد العقدة، عقدة وغيرة على حرمة ماله وعرضه، ورعاية للسان العلم المنبئ عن شأنه، ونيابة عنه في معقل ملكه، ومستودع ماله وذخيرته، ومحافظة على سره وعلانيته لحرمه وولده، وعمراناً للجوانح بتفضيله وحبه، معاملة أخلص

الله قصدها لوجهه، وأمحضها من أجله، ترفعه عن جراية رحل هلالها، وإقطاع تنجع قدرته، أو فصلة تعبث البنان بنشيرها، وخطة تشد إليه على منشورها. والله يرجح ميزاني عنده، ويحظى وسيلتي لديه، ويحرك مكافأة سعيي في خواطر حجه، وينبه لتبليغ أملي من حج بيت الله، وزيارة رسول الله، بمنه وكرمه، فما على استحثاث الأجل من قرار، ولا بعد الشيب من إعذار، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أولاده كمل له في هذا الوقت من الولد أربعة، ثلاثتهم ذكور، يوسف بكره، وأراه يتلوه سعد، ثم نصرن غلمة روقة، قد أفرغهم الله في قالب الكمال، إذا رايتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً، فسح الله لهم أمد السعادة، وجعل مساعيهم جانحة إلى حسني العقبى، سالكاً بهم سبيل الاهتداء بفضل الله ورحمته.

قضاته قدم لأول قدومه. الفقيه القاضي، الحسين الخير، أبا جعفر بن أحمد بن جزي، شاكراً بلاءه بمالقة، إذ كان قد ألقاه قاضياً بها للمتغلب، فلم يأل جهداً في الإجلاب على من اعتصم بقصبتها، والتحريض على استنزالهم، فاتخذ زلفة لديه، فأجرى الأحكام، وتوخى السداد. ثم قدم إليها الفقيه القاضي الحسين أبا الحسن علي بن عبد الله بن الحسن، عين الأعيان ببلده مالقة، والمخصوص برسم التجلة، والقيام بوظيفة العقد والحل بها في الدولة الأولى، وأصالة البيت، والانقطاع إليه، ومصاحبة ركابه في طلب الملك، ومتسور المشاق من أجله، وأولى الناس باستدار خلف دولته، فسدد وقارب، وحمل الكل، وأحسن فصاحة الخطبة والخطة، وأكرم المشيخة وأرضى، واستشعر النزاهة، ولم يقف في حسن التأني عند غاية، واشتمل معها لفق الخطابة، فأبرز وأعلم، تسمياً وحفظاً وجهورية، فاتفق في ذلك على رجاحته، واستصحب نظره على الأحباس. فلم يقف في النصح عند غاية، أعانه الله.

كتابه أسند الكتابة إلى الفقيه المدرك، المبرز في كثير من الخلال، ملازمه أيضاً في طلب الملك. ومطاردة قنص الحظ أبي عبد الله بن زمرك، ويأتي التعريف بجميعهم.

شيخ عزاته متولي ذلك في الدولة الأولى، الشيخ أبو زكريا يحية بن عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق، قدمه إليها معتباً إياه، طاوياً بساط العدو بالجملة، قدموها بابنه عثمان على الخاصة يومئذ، لما ظهرته في الوجهة، وسعيه في عودة الدولة. واستمرت الحال إلى اليوم الثالث عشر لشهر رمضان من عام أربعة وستين وسبعمائة، وكان القبض على جملتهم، وأجلى هذا البيت من سفرة السياسة مدة، مجتزياً فيه بنظره على رسمه في الوزاة من قبيله. ثم قدم إليها موعده بها القديم الخدمة، وسالف الأدمة، لما لجأ إلى وادي آش مفلتاً من وبقة الحادثة، الشيخ أبا الحسن علي بن بدر الدين بن موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق. حلف السداد أيامه، والمقاربة والفضل والدمائة، المخصوص على اختصار بيمن النقيبة، واستمرت أيامه إلى نقبة القفول عن غزوة جيان أخريات محرم من عام تسعة وستين، وتوفي رحمه الله حتف أنفه، فاحتفل لمواراته، وإقرابه من تأبيه، واستغفاره، وتوفي رحمه الله حتف أنفه، فاحتفل لمواراته، وإقرابه من تأبيه، واستغفاره، والاعتراف بصدق موالاته، وتفجيعه لفقده، وما أعرب به من وفاء نجده، وقدم لها عهداً طرف اختياره، الأمين، الشهم، والبهمة، خدن الشهرة، والمشار إليه بالبسالة، وفرع الملك والأصالة، عبد الرحمن بن الأمير أبي الحسن علي بن السلطان أبي علي عمر بن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، إذ كان قد لحق به، بعد ظهور أتيح له بوطنه من المغرب، استقر مبايعاً بعمالة سجلماسة وما إليها، وطن جده، وميراث سلفه، ففسح له جانب قبوله، وأحله من قربه محل مثله، وأنزله بين ثغر الأغتاط ونحره، ثم استظهر به على هذا الأمر، فأحسن الاختيار. وأعز الخطة، وهو القايم عليه لهذا العهد، وإلى الله أسباب توفيقه.

ظرف السلطان وحسن توقيعه لا بد في هذا الباب من تقدمه، وكثرة وقوعه، بحيث لا يعد نادره، وقليل الشيء يدل

على كثيره. مر بي يوماً ومعي ولده، يرم اتخاذ حنق القرآن، فقلت له أيدك الله، الأمير يريد كذا، ولا بد له من ذلك، وأنا وكيله عليك في هذا، فقال حسبنا الله ونعم الوكيل. ولا خفاء ببراعة هذا التوقيع. وغرابة مقاصده. ومجالسه على الأيام معمورة بهذا ومثله.

الملوك على عهده

بالمغرب السلطان الجليل إبراهيم بن السلطان أبي الحسن، بن السلطان أبي سعيد بن السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق. تولى ملك المغرب حسبما تقدم في اسمه، وألقى إليه بالمقاليد، واستوسقت له الطاعة، وبحسب ما بث الله من إشرباب الخلق إليه، وتعطشهم. إلى لقاية، ورغبتهم في إنهاضه إلى ملك أبيه، كان انقلابهم إلى ضد هذه الخلال، شرقاً بأيامه وإحصاء لسقطاته، وولعاً باغتيابه وتربصاً لمكروه به، إذ أخفقت فيه الأمال، واستولت الأيدي من خدامه على ملكه. وقيض الله لإبادة أمره، وتغير حالة وهد ركنه، الخائن الغادر نسمة السوء وقذار ناقة الملك، وصاعقة الوطن وحرد السيد عمر بن عبد الله بن علي مؤتمنة على البلد الجديد، دار ملكه ومستودع ماله وذخيرته، فسد الباب دونه. وجهر بخلعانه. وفض في اتباع الناعق المشئوم سور ماله، وأقام الدعوة باسم أخيه أبي عمر، ذي اللوثة، الميئوس من إفاقته، وذلك صحوة اليوم الثامن عشر لشوال من عام اثنين وستين وسبعمائة. وبادر السلطان أبو سالم البيعة من متحول سكناه بقصر البلد القديم، وصابر الأمر عامة اليوم. ولما جن الليل، فر لوجهة، وأسلم وزراءه، وخاصته، وقيدت خطاه الخيرية، فأوى إلى بعض البيوت، وبه تلاحق متبعه، فقيد إلى مصرعه السوء بظاهر بلده، وحز رأسه، وأوتى به إلى الغادر. وكان ما بين انفصال السلطان عنه مودعاً إلى الأندلس بإعانته، ومطوق فضل تلقيه وقوله وحسن كفالته، ثمانية أشهر ويوم واحد. واستمرت دعوة أخيه المموه به إلى الرابع والعشرين من صفر من عام ثلاثة وستين وسبعمائة، واستدعى من باب قشتالة الأمير محمد أبو زيان بن الأمير أبي زيد بن عبد الرحمن بن السلطان المعظم أبي الحسن. وقد استقر نازعاً إليه أيام عمه السلطان أبي سالم، وقع عليه اختيار هذا الوزير الغادر، إذ وافق شن تغلبه طبق ضعفه، وأعمل الحيلة في استجلابه، فوصل حسب غرضه، وأجريت الأمور باسمه، وأعيد أخوه المعتوه إلى مكانه، واستمرت أيام هذا الأمير مغلوباً عليه، مغري بالشراب على فيه وبين الصحب إلى أن ساءت حاله، وامتلأت بالموجدة على الوزير نفسه، فعاجله بحتفه، وباشر اغتياله، وأوعز إلى خدامه بخنقه، وطرحه بحاله في بعض سواقي قصره، متبعاً ببعض أواني خمره وهم بذلك قابله، ترديه سكراً، وهويه طفوحاً. ووقف عليه بالعدول عند استخراجه، وندب الناس إلى مواراته، وبايع يومه ذلك أبا فارس عبد العزيز وارث ملك أبيه السلطان أبي الحسن، المنفرد به، وخاطب الجهات بدعوته، وهو صبي ظاهر النبل والإدراك، مشهور الصون، وأعمل الحيلة لأول أمره، على هذا الوزير مخيف أريكو ملكه، ومظنة البدا في أمره، فطوقه الحمام واستأصل ما زراه من مال وذخيرة، شكر الله على الدولة صنيعه وفي ذلك يقول:

لقد كان كالحجاج في فتكاته ... تحاذره الرآء دوماً وتخشاه

تغدأً به عبد العزيز مبادراً ... وعاجله من قبل أن يتعشاه

وكان بعده وليه الحق ونصيره لا إله إلا هو. وهو اليوم ملك المغرب، مزاحماً بابن أخيه، السلطان أبي سالم، المعقود البيعة بمراكش وما إليها، جمع الله شتات الإسلام، ورفع عن البلاد والعباد مضرة الفتنة.

وبتلمسان السلطان أبو حمو موسى بن الأمير أبي يعقوب يوسف بن عبد الرحمن ابن يحيى بن يغمراسن بن زيان. حسبما كان في الدولة الأولى، متفقها منه على خلال الكرم والحزم مضطلعاً بأمره والقيام على ما بيده.

وبتونس، الأمير أبو سالم إبراهيم بن الأمير أبي يحيى بن أبي حفص، حسبما تقدم ذكره.
ومن ملوك النصارى

فبقشتالة سلطانها المتقدم الذكر في الدولة الأولى، بطره بن السلطان ألهنشة نب هراندة بن شانجه بن ألهنشة بن هراندة، متأكدة بينهما السلم الجمة، والهدنة المبرمة، بما سلف من مظاهرته إياه، والحرص على ما استحاله من المغرب في أطوله، وبعثه إليه برأس عدوه المتوثب على ملكه، ورؤوس أشياعه، الظالمين الغدرة، وأتباعه الفجرة، مستمرة أيامه إلى وسط شعبان عام سبعة وستين، صارفاً وجهه إلى محاربة صاحب برجلونة، مستولياً على كثير من قواعده الشهيرة، وقلاعه المنيعة، لما أسلفه به من إجازته أخيه أندريق للدعو بالقند، ومظاهرته حتى ساءت أحواله وأحوال عدوه، وأوهنت الحركات قوى جيشه، وأضعف الاحتشاد عمرة أرضه، واشرأبت القلوب إلى الانحراف عن دعوته، ومالت النفوس إلى أخيه، وقامت البلاد بدعوته، وتلاحقت الوجوه بجهته، ورام التمسك بإشبيلية دار ملكه، فثار أهلها به في عام سبعة وستين. فخرج فاراً عنها به والسلاح يهش إليه، وبعد أن استظهر بخويصته، وأحمل ما قدر عليه من ذخيرة، ورفع من له من ولد وحرمة، رأى سخنة العين من انتهاب قصوره، وتشعيث منازله، وعياث الأيدي في خزائنه، وأسمعه الناس من محض التأنيب وأعراض الشتمات، ما لا مزيد عليه، ولاذ بصاحب برتغال، فنأى عنه جانبه لما يجنيه أبواه من مخالفة رأي الأمة فيه، فقصد بلاد غليسية، وتلاحق أخوه أندريق بحضرة إشبيلية، فاستوى على الملك وطاعت لأمره البلاد، وعاجله المسلمون لأول أمره، فاستولوا على كثير من الثغور والحمد لله.

ولما توسد له الأمر تحول لاستئصال شأفة المخلوع، فأجلى عن غليسية في البحر، واستقر ببلد بيونة، مما وراء دروب قشتالة، وانتبذ عن الخطة القشتالية وأمر نفسه، ولجأ إلى ابن صاحب الأنتكيرة، وهو المعروف ببرقسين أبي الأمير، وبين أول أرضه وبين قشتالة؛ ثمانية أيام، فقبله ولد السلطان المذكور، الساكن بأول ما تلقاه من تلك الأرض، وسفر بينه وبين أبيه. فأنكر الأب استئذانه إياه، والمراجعة في نصره، جمية له؛ وامتعاضاً للواقع. وحال هذه الأمة غريبة في الحماية المزدودة بالوفاء والرقة، والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمد، وبين يدي العشايق، عادة العرب الأول. وأخبارهم في القتال غريبة، من الاسترجال والزحف على الأقدام، أميرهم ومأمورهم، والجثو في الأرض، أو دفن ببعض الأرض في التراب، والاستظهار في حال المحاربة ببعض الألحان المهيجة، ورماتهم قسيهم غريبة جافية، وكلهم في دروع، والإحجام عندهم، والتقهقر مقدار الشبر ذنب عظيم. وعار شنيع، ورماتهم يثبتون للخيل في الطراد، وحالهم في باب التحلي بالجواهر، وكثرة آلات الفضة، غريب. وبعد انقضاء سبعة عشر يوماً كان رجوعه ورجوع البرنس المذكور معه مصاحباً بأمراء كثيرين من خترانه وقرابته، وبعد أن أسلفوه مالاً كثيراً، واختص من ه صاحب الأنتكيرة، بمائتي ألف دينار من الذهب إلى ما اختص به غيره، وارتهنوا فيه ولده وذخيرته. وكان ينفق على نفسه وجيشه بحسب دينار واحد من الذهب للفارس في ثلاثة أيام، وكان تأليف الجيوش في بنبلونة في أزيد من ثلاثين ألفاً، وعسر عليهم المجاز على فحص أحدونيه، لبلاد تمسك لطاعة القند أخيه؛ فصالح القوم صاحب نباره على الإفراج لهم، ونزلت المحلات في فحص نبارة، ما بين حدود أرض نبارة وقشتالة، ونزل المتصير إليه أمر قشتالة، القند بإزايها في جموع لم تنظم لمثله، إلا أنه لشهامته واغتراره، أجاز خندقاً كان بين يديه، وعبر جسراً نشب فيه عند الجولة. وكان اللقاء بين الفريقين يوم السبت سادس إبريل العجمي، وبموافقة شعبان من عام ثمانية وستين. وكان هذا الجموع الإفرنجي الآتي من الأرض الكبيرة في صفوف ثلاثة، مرتبة بعضها خلف بعض، ليس فيهم فارس واحد،

وإنما هم رجالة، سواء أميرهم ومأمورهم، في أيديهم عصي جافية في غلظ المعاصم؛ يشرعونها أمامهم، بعد إثبات زجاجها فيما خلفهم من الأرض، يستقبلون منها وجوه عدوهم، ونحور خيله، ويجعلونها دعايم وتكآت لبناء مصافهم، فلم تقلقهم المحلات، وبين أيديهم من الرماح الناشبة الدارعة، ما لا يحصيهم إلا الله عز وجل. وسايرهم السلطان، مستدعي نصرهم راجلاً أميالاً برأيهم؛ إلى أن أعيا بعد ميلين منها فأركبوه بغلة حملوه بينهم عليها، إلى موقف اللقاء والقند. وكان على مقدمة القوم الدك أخو البرنس، والبرنس مع السلطان مستجيره في القلب، والقند المعروف بقندار مانيان، وكثير من الأمراء؛ ردا وسيفه دونهم، ومن خلف الجميع الخيل بجنبها ساستهم وغلمانهم وخدامهم، ووراءها دواب الظهر وأبغالهم، وفي أثنا هذه العبية من البنود وآلات الحرب والطرب والأبواق ما يطول ذكره. وكان في مقدمة القند المستأثر بملك قشتالة؛ أخوه شانجه في رجل قشتالة، قد ملأ السهل والجبل، ومن خلفهم أولو الخيل الجافية القبيلية، المسبغة الدروع، من رأس إلى حافر، فينحو ألف وخمسماية، وفي القلب أخوه الآخر دنطية في جمهور الزعماء والفرسان والدرق، وهو الأكثر من رجال الجيش اليوم، ومن رائهم السلطان أندريق في لفيف من الناس. ولما حمل بعضهم على بعض أقدم رماة الفرنج، ثقة بدروعهم، فعظم أثرهم فيمن بإزايهم من رماة عدوهم ورجالهم، لكونهم كشفاء، فكشفوا إياهم. وحملت خيل قشالة الدارعة، فزحزحت كر المصاف الإفرانجي، واتصل الحرب بالبرنس، وهو مطل عليهم في ربوة، فصاح بهم بحيث أسمع، وتناول شيئاً من التراب فاستفه، وكسر ثلاث عصيي، وفعل من معه مثل فعله، وهي عادتهم عند الغضب، وعلامة الإقدام الذي لا نكوص بعده. ووجه إلى أخيه في المقدمة، يقول له، إن وجدت نفسك ضعفاً، فاذكر أنك ولد صاحب الأنتكيرة. وحمل الكل حملة رجل واحد، فلم تجد الخيل الدارعة سبيلاً، وقامت في نحورها تلك الأسنة، فولوا منهزمين.

ولما رأى القند هزيمة أخيه، تقدم بنفسه بمن معه من مدد الأمة الرغونية، وهو ينادي، يا أهل قشتالة، يا موالي، إياكم والعار. هأنذا، فلم يثبت أمره، وتراجع فله. فعند ذلك فر في أربعة من أولى ثقته، واستولى القتل والأسر على خاصته، وتردى المنهزمون في الوادي خلفهم. فكان ذلك أعون الأسباب على هلكهم، فأناف عدد من هلك في هذه الوقيعة، حسبما اشتهر، خمسين ألفاً. وامتلأت أيدي هذه الأمة من الأسلحة والأموال والأمتعة والأسرى الذين يفادونهم بمال عظيم، واتصل القند المنهزم بأرض رغون، ثم تجم من البلاد الفرنسية. ودخل أخوه بهذه أمة أوايل البلاد معترفاً بحميد سعيهم، وعزيز نصرهم، وقد رابه استيلاؤهم، وأوجسه تغلبهم، وساءه في الأرض الرعادة عيائهم فاستأذنهم في اللحوق بقواعد أرضه، وقبض الأموال التي تجبى منها نفقاتهم، وقبض منها ديونهم قبله، وحث السير، فوصل طليطلة، لا يصدق بالنجاة، وخاطب السلطان المترجم به، وقدر وده، وحذره سورة هذه الأمة التي فاض بحرها وأعيا أمرها، وأنهى إليه شرها، وشره إلى استيصال المسلمين. وحد له مواعدها التي جعلت لذلك. ووصل إشبيلية، وانثالت البلاد عليه، وعادت الإيالة إلى حكمه، ثم شرع في جعل الضرايب، وفرض الأموال، وأخاف الناس بالطلب والتبعات فعاد نفورهم عنه جزعاً. وامتنعوا من الغرم، وطردوا العمال، وأحس بالشر، فتحصن بإشبيلية، وجهاتها على نفسه، وطال على الأمة الواصلة في سبيل نصره الأمر. فرجعت إلى بلادها، ووقيت نفرة الفرسان، وأولى الأتباع، وأظهروا الخلاف، وكشفت ديان وجهها في خلعانه، والرجوع إلى دعوة أخيه المتصرف، فتحرك إليها السلطان المترجم به، بعد أن احتشد المسلمين، فكان من دخولها عنوة، واستباحة المسلمين إياها وتخريبها، ما هو مذكور في موضعه. ثم ألحقت بها مدينة أبدة، الذاهبة في مخالفة مذاهبها والحمد لله. وخالفت عليه قرطبة، واستقر بها من الكبار جملة، كاتبوا أخاه، واستعجلوا، فتعرف في هذه الأيام، أنه قد بلغ أرض برغش، ونار الفتنة بينهم، ويد الإسلام لهذا العهد، والمنية لله، وحده غالبة.

وإنما مددنا القونل في ذكر هذه الأحوال الرومية، لغرابة تاريخها، ولستشعر الحذر، ويؤخذ من الأمة المذكورة وغيرها، والله ولي نصر المؤمنين بفضله. وبأرض رغون سلطانها الكاين على الدولة الأولى.

؟بعض مناقب الدولة لهذا العهد وأولا ما يرجع إلى مناقب الحلم والكظم من مآزق الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس.

فمن ذلك أن السلطان لما جرت الحادثة، وعظه التمحيص، وألجأ إلى وادي آش لا يملك إلا نفسه في خبر طويل، بادر إلى مخاطبة ثقته بقصبة ألمرية، قلعة الملك، ومظنة الامتناع، ومهاد السلامة، ومخزن الجباية والعدة، وقد أصبح محل استقراره، بينها، وبين المنترى سداً، وبيعة أهلها لم ينسخ الشرع منها حكماً يناشده الله في رمقه، ويتملقه في رعي ذمته، والوفاء له، وإبراء غربته، وتمسكه من أمانته، فرد عليه أسوأ الرد. وسجن رسوله في المطبق، وخرج منها لعدوه، وناصح بعد في البغي عليه. فلما رد الله الأمر، وجبر الحق، أعتب وأجرى عليه الرزق. ولما ثار في الدولة الثانية الدليل البركي، هاتفاً بالدعوة لبعض القرابة، وأكذبه الله، وعقه الشيطان بعد نشر راية الخلاف، وجعل للدولة، علو اليد، وحسن العاقبة، وتمكن من المذكور، أبقى عليه، وغلب حكم المصلحة العامة في استحيائه، وهو من مغربات الحلم المبني على أساس الدين، وابتغاء وجه الله.

ولما أجلى عن الترشيح من القرابة، بعد تقرب التهمة، وغمس الأيدي في المعصية، صرفوا إلى المغرب صرف العافية، وأجرى على من تخلفوه عوايد الأرزاق، ومرافق المواسم، ووعد ضعفاءهم بالإرفاد، وتجوف عما يرجع للجميع من عقار ورباع، وأسعفت آمالهم في لحاق ذويهم من أهل وولد.

ومما يرجع إلى عوايد الرفق، ومرافق العدل من مأزق في جهاد النفس، وقوف وكيل الدولة، مع من يجاور مستخلص السلطان من العامرين ومما ولي الفلاحة، وقد ادعوا أضراراً، يجره الحوار بين يدي القاضي بالحضرة، حتى بعد منقطع الحق، على ما يخص السلطان من الأصول التي جرها الميراث عن كريم السلف. ولا كقضية التاجر المعروف بالحاج اللباس، من أهل مدينة وادي آش، وقد تحصلت في داره، من قبل التاجر المذكور جارية من بنات الروم، في سبيل تفوت النمم، ومستهلك المتولات، وترقت إلى تربية ولده، وأصبحت بعض الآظار لأمرايه واتصل بها كلفه، وزاد هيمانه، وغشي مدافن الصاحين من أجلها، وألهيت إليه خبره وبثه. وقررت عنده شجوه، وألمعت بما ينقل في هذا الباب عن الملوك قبله، فبادر إلى إخراجها من القصر بنفسه، وانتزاعها من أيدي الفبطة، انتزاع القهر، بحاله في جميل الزي، فمكنت منها يد عاشقها الذاهل، وقد خفت نفسه، وسكن حسه، وكاد لقاؤه إياها أن يقضي عليه. ونظاير هذا الباب متعددة.

ومن مواقف الصدق والإحسان من خارق جهاد النفس. بناء المارستان الأعظم حسنة هذه التخوم القصوى. ومزية المدينة الفضلى. لم يهتد إليه غيره من الفتح الأول، مع توفر الضرورة، وظهور الحاجة، فأغرى به همة الدين، ونفس التقوى، فأبرزه موقف الأخدان، ورحلة الأندلس، وفذلكة الحسنات، فخامة بيت، وتعدد مساكن، ورحب ساحة، ودرور مياه، وصحة هواء، وتعدد خزاين ومتوضآت، وانطلاق جراية وحسن ترتيب، أبر على مارستان مصر، بالساحة العريضة، والأهوية الطيبة، وتدفق المياه من فورات المرمل، وأسود الصخر، وتموج البحر، وانسدال الأشجار. إلى موافقته إياي، وتسويغه ما اخترعتنه بإذنه، وأجريته بطيب نفسه، من اتخاذ المدرسة والزاوية، وتعيين التربة، مغيراً في ذلك كله على مقاصد الملوك، نقشاً عليه، بطيب اسمه في المزيد، وتخليد في الجدرات للذكر، وصوناً للمدافن غير المعتادة، في قلب بلده بالمقاصر والأصونة، وترتيل التلاوة، آناء الليل، وأطراف النهار. وكل ذلك إنما ينسب إلى صدقاته، وعلو همته، ويشهد بما ينبه الحس إلى المنقبة العظمى، في هذا الباب، من إمداد جبل الفتح، مع

كونه في إيالة غيره، وخارج عن ملكة حكمه، وما كان من إعانته، وسد ثغره، فانهار إليه على خطر السرى، والظهر البعيد المسعى، ما ملأ الأهواء، وقطع طمع العداة، أنفقت عليه الأموال؛ ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، بودر بذلك، بين يدي التفاؤل، بنزول العدو إياه، فكان الكرى على إيصال الطعام إليه، بحساب درهم واحد وربع درهم للرطل من الطعام، منفعة فذة، وحسنة كبرى، وبدعاً من بدع الفتوى.

وفي موقف الاستعداد لعدو الإسلام، من خارق جهاد النفس، إطلاق البنى، للمدة القريبة، والزمان الضيق، باثنين وعشرين ثغراً من البلاد المجاورة للعدو، والمشتركة الحدود، مع أراضيه، المترامية النيران لقرب جوابه، منها ثغر أرجدونة، المستولي عليه الخراب. وأنفق في تجديد قبضته. واتخاذ جبه. ما يناهز عشرين ألفاً من الذهب، فهو اليوم شجي العدو، ومعتصم المسلمين. وحصن أشر، وما كان من تحصين جبله بالأسوار والأبراج، على بعد أقطاره. واتخاذ جباب الماء به، واحتفار السانية الهايلة برضه، وترك بها من الآثار ما يشهد بالقوة لله، والعناية بالإسلام. ثم ختم ذلك بنديد حصن الحمراء، رأس الحضرة، ومعقل الإسلام، ومفزع الملك، ومعقد الأيدي. وصوان المال والذخيرة، بعد أن صار قاعاً صفصفاً. وخراباً بلقعاً، فهو اليوم عروس يحلى المهضب، ويغازل الشهب، سكن لمكانه الإرجاف، وذوت نجوم الأطماع، ونقل إليه مال الجباية، المنفصل لهذا العهد، بحسب التدبير، ونفد الخراج، وصون الألقاب، وقمع الخزانة بما لم يتقدم به عهد، من ثمانين سنة، والحمد لله. وتجديد أساطيل الإيلام، وإزاحة علل جيوش المرج، وعساكر البحر، فهي لهذا العهد، ملس الأديم، شارعة الشبا، منقضة جفاتها إلى مساواة الأعداء، راكبة ظهور المحاسن، قلقة الموافق، قدماً إلى الجهاد، قد تعدد إعزاؤها، وجاست البحر سوابحها، وتعرفت بركتها والحمد لله، وأنصاب جيش الجهاد، استغرق الشهور المستقبلة، لرود الصفراء والبيضاء الأهلة إلى أكف أهلها، على الدوام، بعد أن كانت يتحيفها المطل، وينقصها المطال، والحمد لله.

وفي مواقف الجهاد الحسي، وبيع النفوس من الله، وهو ثمرة الجهاد الأول، ما لا يحتاج عليه إلى دليل، من الجوف إلى حصن أشر، قبل الثغر، والجارح المطل على الإسلام، والعزم على افتتاحه. وقد غاب الناس من مساورته، وأعيى عليهم فتحه، فلزمه السلطان بنفسه، بياض يوم القيظ، محرضاً، للمقاتلة، مواسياً لهم، خالطاً نفسه بالمستنفرة، يصابر لهيب النار، ووقع السلاح، وتعميم الدخان، مفدياً للكلمات، محرضاً لذوي الجراح، مباشراً الصلاة على الشهداء إلى أن فتحه الله على يده، بعزمه وصبره، فباشر رم سوره بيده، وتحصين عورته بنفسه، ينقل إليه الصخر، وينال الطين، ويخالط الفعلة، لقرب محل الطاغية، وتوقع المفاجأة. ثم كان هذا العمل قانوناً مطرداً في غيره، وديدناً في سواه، حسبما نذكر في باب الجهاد.

وفي باب النصيحة للمسلمين من مآزق الجهاد الأكبر، ما صدر في هذه الدولة، من مخاطبة الكافة، بلسان الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، صدعت بذلك الخطباء من فوق أعواد المنابر، وأسمعت آذان المحافل، ما لم يتقدم به عهد في الزمان الغابر.

نص الكتاب ولما صحت الأخبار بخروج الأمة الإفرنسية إلى استئصال هذه البقيعة، والله متم نوره، ولم كره الكافرون، صدر من مخاطبة الجمهنور في باب التحريض بما نصه: من أمير المسلمين عبد الله محمد، بن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج بن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد نصر، أيده الله ونصره، وأوى أمره، وخلد مآثره. إلى أوليائنا الذين نوقظ من الغفلة أحلامهم، وندعوهم لما يطهر من الارتياب إيمانهم، ويخلص لله أسرارهم وإعلانهم، يرثي لعدم إحسانهم، وخيبة قياسهم، ويغار من استيلاء الغفلات على أنواعهم وأجناسهم، ونسأل الله لهم ولنا إقالة العثرات، وتخفيض الشدائد المعتورات، وكف أكف العوادي المبتدرات. إلى أهل فلانة، دافع الله عن فتنتهم الغريبة، وعرفهم

في الذراري، والحرم، عوارف اللطائف القريبة وتداركهم بالصنايع العجيبة، سلام عليكم أجمعين، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي لا نشرك به أحداً، ولا نجد من دونه ملتحداً، مبتلى قلوب المؤمنين أيها أقوى جلداً، وأبهد في الصبر مداً، ليزيد الذين اهتدوا هدى. والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الذي أنقذ من الردى، وتكفل بالشفاعة لم غداً ضارباً هام العدا، ومجاهداً من اتخذ مع الله ولدا، والرضى عن آله الذين كانوا لسماء ملته عمداً، فلم ترعهم الكتايب الوافرة، وكانوا لهم أقل عدداً، ولا هالتهم أمم الكفر، وإن كانت أظهر جمعاً، وأكثر عدداً صلاة لا تنقطع أبداً، ورضى، لا يبلغ مداً. فإنا كتبنا إليكم، كتبكم الله فيمن امتلأ قلبه غضباً لأعدايه وحمية، ورمى بفكره غرض السداد، فلم يخط منه هدفاً ولا رمية. وقد اتصل بنا الخبر، الذي يوجب نصح الإسلام، ورعى الجوار والذمام، وما جعل الله للمأموم على الإمام، فوجب علينا إيقاظكم من مراقدكم المستغرقة، وجمع أهوايكم المفترقة، وتهيئكم إلى مصادمة الشدايد المرعدة المبرقة، وهو أن كبير النصرانية، الذي أليه ينقادون، وفي مرضاته يصادقون ويعدون، وعند رؤية صليبه يبكون ويسجون، لما رأى الفتن قد أكلتهم خضماً وقضماً. وأوسعتهم هضماً فلم تبق لهم عصباً ولا عظماً، ونثرت ما كان نظماً، أعمل نظره فيما يجمع منهم ما افترق، ويرفع ما طرق، ويرفى ما مزق الشتات وخرق، فرمى الإسلام بأمة عددها كالقطر المغثال، والجراد الذي تضرب به الأمثال، وعاهدهم وقد حضر التمثال، وأمرهم وشأنهم الامتثال، أن يدمنوا لمن ارتضاه الطاعة، ويجمعوا من ملته الجماعة، ويطلع الكل على هذه الفئة القليلة الغريبة، لغتة كقيام الساعة وأقطعهم، قطع الله بهم، العباد والبلاد. والطارف والتلاد، وسوغهم الحريم المستضعف والأولاد، وبالله نستدفع مالا نطيقه. ومنه نسأل عادة الفرج، فما سدت لديه طريقه، إلا أنا رأينا غفلة الناس مع تصميمهم مؤذنة بالبوار. وأشفقنا للذين من وراء البحار، وقد أصبح معظمهم في لهوات الكفار، وأردنا أن نهزهم بالموعظة التي تكحل البصاير بميل الاستبصار. وتلهمكم الاستنصار بالله، عند عدم الانتصار، فإن جبر الله الخواطر بالضراعة إليه، والانكسار ونسخ الإعسار بالإيسار، وأنجد اليمين بانتهاء اليسار، وإلا فقد تعين في الدنيا والآخرة حظ الخسار فإن من ظهر عليه عدو دينه، وهو عن الله مصروف، وبالباطل مشغوف، وبغير العرف معروف. وعلى الحطام المسلوب ملهوف، فقد تله الشيطان للجبين، وخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. ومن نفذ فيه قدر الله عن أداء الواجب وبذل المجهود، وآجر بالعبودية وجه الواحد الأحد المعبود، ووطن النفس عن الشهوات الموبقة في دار الخلود، العايدة بالحياة الدايمة والوجود، أو الظهور على عدوه المحشود إليه صبرا على المقام المحمود وبيعاً تكون املائكة فيه من الشهود، حتى تعيث يد الله في ذلك البناء المهدوم، بقوة الله المحمود، والسواد الأعظم الممدود، كان على أمر ربه بالحياء المردود " قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا، فتربصوا إنا معكم متربصون " . فالله الله في الهمم، فقد خبت ريحها. والله الله في العقايد. فقد خفت مصابيحها. والله الله في الرحولة فقد فل حدها. والله الله في الغيرة. فقد نعس حدها. والله الله في الدين، فقد طمع العدو في تحويله. والله الله في الحريم. فقد مد إلى استرقاقه يد تأميله. والله الله في المساكن التي زحف لسكناها والله الله في الملة التي يردي إطفاء نورها وسناها وقد كمل فضلها وتناهى. والله الله في القرآن العظيم. والله الله في الجيران. والله الله في الطارف والتالد، والله الله في الوطن الذي توارثه الولد عن والوالد. اليوم تستأسد النفوس المهينة. اليوم يستنزل الصبر والسكينة. اليوم تحتنج الهمم أن ترعى هذه النفوس الكريمة النمم، اليوم يسلك سبيل العزم والحزم والشدة والشمم اليوم يرجع إلى الله تعالى المصرون اليوم يقيق من نومه الغافلون والمغترون. قبل أن يتفاقم الهول، ويحق القول، ويسد الباب، ويحيق العذاب، ويسترق بالكفر والرقاب. فالنساء تقي بأنفسهن

أولادهن الصغار. والطيور ترفرف لتحمي الأوكار، إذا أحست العياث بأفراخها والأضرار. تمر الأيام عليكم مر السحاب وذهاب الليالي لكم ذهاب. فلا خبر يفضي إلى العين، ولا حديث في الله تعالى يسمع بين اثنين، ولا كد إلا

لزينة يحلى بها نحر وجيد، ولا سعي إلى في متاع لا يغني في الشدائد ولا يفيد. وبالأمس ندبتم إلى التماس رحمي أو رضى مسخر السحاب، واستقالة أكاشف العذاب، وسؤال مرسل الديمة، ومحيي البشر والبهيمة، وقد أمسكت عنكم رحمة السماء؛ واغبرت جوانبكم المخضرة احتياجاً إلى إيالة الماء، وفي السماء رزقكم وما توعدون. وإليها الأكف تمدون، وأبوابها بالدعاء تقصدون، فلم يصرح منكم عدد معتبر، ولا ظهر للإنابة ولا للصدقة خبر، وتنوقوون عن إعادة الرغبة إلى الغنى الحميد، والولي الذي إن شا يذهبكم ويأت بخلق جديد. وأيم الله لو كان لهوا لارتقبت الساعات وضاقت المتسعات. وتزاحمت على جماله وغصت الجماعات. أتعززاً على الله وهو القوي العزيز، وتلبيساً على الله، وهو الذي يميز الخبيث من الطيب، والشبه من الإبريز، أمنابذة والنواصي بيده، أغروراً في الشدايد بالأمل والرجوع بعد إليه. من يرجى في الشدايد والأزمات، من يوجد في المحيا والممات، أفي الله شك يختلج القلوب، أم غير الله يدفع المكروه، وييسر المطلوب. تفضلون على اللجأ إليه في الشدايد، بواسم الجهل، وثرة الأهل وطايفة منكم قد بررت إلى استسقاء رحمته، تمد إليه الأيدي والرقاب. وتستكشف بالخضوع لعزته العقاب، وتستعجل إلى مواعد إجابته الارتقاب، وكأنكم أنتم، عن كرمه قد استغنيتم، أو على الامتناع من الرجوع إليه بنيتم. أما تعلمون كيف كان نبيكم صلوات الله وسلامه عليه من التبلغ باليسير، والاستعداد إلى دار الرحيل الحق والمسير، ومداومة الجوع، وهجر الهجوع، والعمل على الإياب إلى الله والرجوع. دخلت عليه فاطمة رضي الله عنها، وبيدها كسرة شعير، فقال ما هذه يا فاطمة، فقالت يا رسول الله، خبزت قرصة، وأحببت أن تأكل منها، فقال يا فاطمة، أما أنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث. وكان صلى الله عليه وسلم، يستغفر في اليوم سبعين مرة، يلتمس رحماه، ويقوم وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، حتى تورمت قدماه، وكان شأنه الجهاد، ودأبه الجد والاجتهاد ومواقف صبره تعرفها الربى والوهاد. فإذا لم تقتدوا به فبمن تقتدون. وإذا لم تهتدوا بهدية فبمن تهتدون، وإذا لم ترضوه باتباعكم، فكيف تعتزون إليه وتنتسبون، وإذا لم ترغبوا في الاتصاف بصفاته غضباً لله تعالى وجهاداً، وتقللاً من العرض الأدنى وسهاداً ففيم ترغبون، فابتروا حبال الآمال، فكل آت قريب، واعتبروا بمثلات ما دهم من تقدم من أهل البلاد والقواعد، فذهولكم عنها غريب، وتفكروا في منابرها التي كان يعلوها واعظ أو خطيب، ومطيل ومطيب، ومساجدها المتعددة الصفوف، والجماعات المعمورة بأنواع الطاعات، وكيف أخذ الله فيها بذنب المترفين من دونهم، وعاقب الجمهور بما أغمضوا عيونهم، وساءت بالغفلة عن الله عقبى جميعهم، وذهبت النقمات بعاصيهم، ومن داهن في أمره من مطيعهم، وأصبحت مساجدهم مناصب للصلبان، واستبدلت مآذنهم بالنواقيس من الأذان. هذا والناس ناس، والزمان زمان. فما هذه الغفلة عن من إليه الرجعى وإليه المصير وإلى متى التساهل في حقوقه، وهو السميع البصير، وحتى متى مد الأمل في الزمن القصير وإلى متى نسيان اللجأ إلى الولي النصير. قد تداعت الصلبان مجلبة عليكم، وتحركت الطواغيت من كل جهة إليكم. أفيخذلكم الشيطان وكتاب الله قائم فيكم، وألسنة الآيات تناديكم، لم تمح سطورها، ولا احتجب نورها، وأنتم بقايا من افتحها من عدد قليل، وصابر فيها كل خطب جليل، فوالله لو تمحض الإيمان ورضي الرحمن، ما ظهر التثليث في هذه الجزيرة على التوحيد، ولا عدم الإسلام فيها عزم التأييد. ولكن شمل الداء، وصم النداء، وعميت الأبصار، فكيف الاهتداء، والباب مفتوح، والفضل ممنوح، فتعالوا نستغفر الله جميعاً، فهو الغفور الرحيم، ونستقبل مقيل العثرات، فهو الرؤوف الحليم، ونصرف الوجوه إلى الاعتراف بما قدمت أيدينا، فقبول المعاذير من شأن الكريم. سدت الأبواب،

وضعفت الأسباب، وانقطعت الآمال إلا منك يا كريم يا فتاح، يا وهاب. يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم، ويثبت أقدامكم يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة، واعلموا أن الله مع المتقين. ولا تهنوا ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. يا أيها الذين آمنوا، اصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون. أعدوا الخيل وارتبطوها

وروضوا النفوس على الشهادة واغبطوها، فمن خاف الموت رضيي بالدنية، ولا بد على كل حال من المنية، والحياة مع الذل ليست من شيم أهل العقول والنفوس السنية، واقتنوا السلاح والعدة، وتعرفوا إلى الله في الرخاء يعرفكم في الشدة، واستشعروا القوة بالله تعالى على أعدايكم، واستميتوا من دون أبنايكم. وكونوا كالبنيان المرصوص لحملات العدو النازل بفنايكم، وحطوا بالتعويل على الله وحجة بلادكم. واشتروا من الله جل جلاله أبيناءكم.وضوا النفوس على الشهادة واغبطوها، فمن خاف الموت رضيي بالدنية، ولا بد على كل حال من المنية، والحياة مع الذل ليست من شيم أهل العقول والنفوس السنية، واقتنوا السلاح والعدة، وتعرفوا إلى الله في الرخاء يعرفكم في الشدة، واستشعروا القوة بالله تعالى على أعدايكم، واستميتوا من دون أبنايكم. وكونوا كالبنيان المرصوص لحملات العدو النازل بفنايكم، وحطوا بالتعويل على الله وحجة بلادكم. واشتروا من الله جل جلاله أبيناءكم.

ذكروا أن امرأة احتمل السبع ولدها. وشكت إلى بعض الصالحين، فأشار عليها بالصدقة فتصدقت، برغيف، فأطلق السبع ولدها. وسمعت النداء يا هذه لقمة بلقمة، وإنا لما استودعناه لحافظون. أهجروا الشهوات، واستدركوا الباقيات من قبل الفوات، وأفضلوا لمساكينكم من الأقوات، واخشعوا لما أنزل الله تعالى من الآيات، وخذوا نفوسكم بالصبر على الأزمات، والمواساة في المهمات، وأيقظوا جفونكم من السنات، واعلموا أنكم رضع ثدي كلمة التوحيد، وجيران البلد الغريب، والدين الوحيد، وحزب التمحيص، ونفر المرام العويص، فتفقدوا معاملتكم مع الله تعالى، فمهما رأيتم الصدق غالباً. والقلب للمولى الكريم مراقباً، وشهاب اليقين ثاقباً، فثقوا بعناية الله التي لا يغلبكم معها غالب؛ ولا ينالكم من أجلها عدو مطالب، وأنكم في الستر الكثيف. وعصمة الخبير اللطيف. ومهما رأيتم الخواطر متبددة، والظنون بالله مترددة، والجهات التي تخاف، وترجى متعددة، والغفلة عن الله ملابسها متجددة. وعادة دواعي الخذلان دايمة، وأسواق الشهوات قايمة. واعلموا أن الله منفذ فيكم وعده ووعيده في الأمم الغافلين، وأنكم قد ظلمتم أنفسكم. ولا عدوان إلا على الظالمين. والتوبة ترد الشارد، والله يحب التوابين، ويحب المتطهرين. وهو القائل: " إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين " . وما أقرب صلاح الأحوال، إذا صلحت العزايم، وتوالت على حزب الشيطان الهزايم، وخملت الدنيا الدنية في العيون، وصدقت فيها عند الله الظنون: " يا أيها الناس إن وعد الله حق، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور " . وتوبوا سراعاً إلى طهارة القلوب، وإزالة الشوب، واقصدوا أبواب الشدايد، ويسد طريق العوايد، فلا تمطلوا بالتوبة أزمانكم، ولا تأمنوا مكر الله، فتغشوا إيمانكم، ولا تعلقوا منابكم بالصرائر. فهو علام السراير، وإنما عليا معاشر الأولياء أن ننصحكم، وإن كنا أولى بالنصيحة. ونعتمدكم بالموعظة الصريحة، الصادرة علم الله عن صدق القريحة. وإن شاركناكم في الغفلة، فقد نادينا كم إلى الاسترجاع والاستغفار، وإنما لكم الدنيا نفس مبدولة في جهاد الكفار. وتقدم إلى ربكم العزيز الغفار، وقتدم لديكم إلى موافق الصبر. التي لا ترضى، بتوفيق الله الفرار، واجتهاد فيما يعود بالحسنى وعقبى الدار، والاختيار لله ولي الاختيار. ومصرف الأقدر وها نحن نسرع في الخروج إلى مجافعه هذا العدو.

ونفدى بنفوسنا البلاد والعباد. والحريم المستضعف والأولاد. ونصلى من دونهم نار الجلاد، ونستوهب منكم الدعاء إلى من وعد بإجابته. وتقبل من صرف إليه وجه إنابته. اللهم كنم لنا في هذا الانقطاع نصيراً، وعلى أعدائك ظهيراً، ومن انتقام عبدة الأصنام مجيراً، اللهم قومن ضعفت حيلته، فأنت القوي المعين، وانصر من لا نصير له إلا أنت، إياك نعبد، وإياك نستعين. اللهم ثبت أقدامنا وانصرنا عند تزلزل الأقدام، ولا تسلمنا عند لقاء عدو الإسلام، فقد ألقينا إليك يد الاستلام، اللهم دافع بملايكتك المسومين، عمن ضيقت أرجاؤه، وانقطع إلا منك رجاؤه. اللهم هيئ لضعفائنا، وكلنا ضعيف فقير إليك. ذليل بين يديك حقير، رحمة تروي بالأزمة وتشبع، وقوة تطرد وتستتبع، يا غلاب الغلاب، يا هازم الأحزاب. يا كريم العوايد، يا مفرج الشدايد، ربنا أفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين. اللهم اجعلنا ممن تيقظ فتيقظ، وذكر فتذكر، ومن قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل، لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم. وقد وردت علينا المخاطبات من قبل إخواننا المسلمين، الذين عرفنا في القديم والحديث اجتهادهم، وشكرنا في ذات الله تعالى جهادهم، بني مرين، أولى الامتعاض الله والحمية، والمخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المزية، بعزمهم على الامتعاض لحق الجوار، والمصارخة التي تليق بالأحرار والنفرة لانتهاك ذمار بيتهم المختار، وحركة سلطانهم محل أخينا بمن له من الأولياء والأنصار، إلى الإعانة على هؤلاء الكفار، ومدافعة أحزاب الشيطان وأهل النار، فاسألوا الله تعالى إعانتهم على هذا المقصد الكريم الآثار، والسعي الضمين للعز والأجر والفخار، والسلام الكريم يخصكم أيها الأولياء ورحمة اله وبركاته. في

الثاني عشر من شهر رمضان المعظم من عام سبع وستين وسبعمائة. عرفنا الله خيره. صح هذا. فكان دفاع الله أقوى، وعصمته أكفى. والحمد لله على عوايده الحسني.ي عشر من شهر رمضان المعظم من عام سبع وستين وسبعمائة. عرفنا الله خيره. صح هذا. فكان دفاع الله أقوى، وعصمته أكفى. والحمد لله على عوايده الحسني.
ومن الغيرة على الدين، وتغير أحوال الملحدين، من مآزق جهاد النفس، ما وقع به العمل من إخماد البدع. وإذهاب الآراء المضلة، والاشتداد على أهل الزيغ الزندقة. وقد أضاقت أرباب هذه الأضاليل الشريعة، وسدت مضرهم في الكافة، فيسلط عليهم الحكام. واستدعيت الشهادات. وأخذهم التشريد، فهل تحس منهم أحداً، أو تسمع لهم ركزاً.
وقيد في ذلك عني مقالات أخرى. منها رسالة الغيرة على أهل الحيرة، ورسالة حمل الجمهور على السنن المشهور. ورسالة أنشدت على أهل الرد. فارتفع الخوض، وكسدت تلك الأسواق الخبيثة. وصم منها الصدا، ووضح نار الهدى، والحمد لله، ولو تتبعت مناقب الهدا، لأخرج ذلك عن الغرض.
الأحداث وفي غرة ذي الحجة كانت الثورة الشنعاء، المجحفة بالدولة، وقد كان السلطان أنذر بطائفة، تداخل بعضه القرابة، فعاجله بالقبض عليه، وهو في محل ولايته، فصفد وأحمل إلى قصبة ألمرية، وخاف أرباب المكيدة افتضاح الأمر، فتعجلوا إبراز الكامن، وإظهار الخبث، وتولى ذلك جملة من بني غرون ذنابي بيت الإدبار، وقد عابهم من بني مطرون، يدور أمرهم على الدليل البركي، فأكذب الله دعوهم، بعد أن أركبوا الشيخ علياً بن نصر، ونصبوه تلقاء القلعة بباب البنود، ودعوا الناس إلى بيعته. وأخذ السلطان حذره وناصبهم القتال، وأشاع العطا، واستركب الجيش، وعمر الأسوار، فأخفق القصد، وفر الدليل البركي، وتقبض على الرئيس المذكور، وجعل الله العاقبة الحسنة للسلطان.

وكان مما أمليته يومئذ بين يدي السلطان من الكلام المرسل ما هو نصه بعد الصدر: وإلى هذا فمما أفادته القطر السليمة، والحلم والقضا بالشريعة، والنقل الشرعي والسنن المرعى، أن مغلوب، ومزاحم الله مهزوم، ومكابر البرهان بالجهل موسوم، ومرتع الغي مهجور، وسيف العدوان مفلول، وحظ الشيطان موكوس، وحزب السلطان منصور. ولا خفاء بنعمة الله علينا، التي اطردها في المواطن العديدة؛ والهضبات البعيدة. والشبهات غير المبينة، والظلمات الكثيفة، معلن بوفور الحظ من رحمته، وإبراز القداح في مجال كرامته، والاختصاص بسيما اختياره، فجعل العصمة ليلة الحادث علينا من دون مضجع أماناً، ونهج لنا سبيل النجاة بين يدي كسبه علينا، وسخر لنا ظهري الطريف والطريق، بعد أن فرق لنا بحر الليل، وأوضح لنا خفي المسلك، وعبد لنا عاصي الحزم، ودمث غمر الشعراء، وأوطأنا صهوة المنعة، وضرب وجوه الشرذمة المتبعة، بعد أن ركضوا قنيب البراذن البادئة، من خزاين إهداينا، المتجملة بحلى ركبنا؛ وتحملوا السلاح والرياش المختار من أثير صلاتنا، وأبهروا الأنفاس التي طال ما رفعها إيناسنا وأبلغها الريق تأميننا، وصببوا العرق الذي أفضله طعامنا، شرهين إلى دمنا، المحظور بالكتاب والسنة، المحوط بسياج البيعة، المحصن عنهم بتقديم النعمة، وحرمة الأب ومتعدد الأذمة، فجعل الله بيننا وبينهم حاجزاً، وسد ليأجوجهم من المردة مانعاً، وانقلبوا يعضون الأنامل الغضة من سريط جفاننا، ويقلبون الأكف التي أجدبها الدهر، ترفيعاً من المهن المترتبة في خدمتنا، قد حالهم صغار القدر، وذل الخيبة، وكبح الله جماعتهم عن التنفق بتلك الوسيلة. واحتللنا قصبة وادي آش، لا تملك إلا أنفساً، لم يشبها غش الملة، ولا كياد الأمة، ولا دنسها والحمد لله عار الفاحشة، ولا وسمها الشوم في الولاية، ولا أحبط عمل نجابتها دخل اعقيدة، ولا مرض السريرة، مذ سلمنا المقادة لمن عطف علينا القلوب، وصير إلينا ملك أبينا من غير حول ولا حيلة، نرى أنها أملك لحرمتنا، وأعلم بما كنا، وأرحم بنا. فتشبثت بها القدم، وحميت لنا من أهلها، ورعاهم الله الهمم، وصدقت في الذب عنا العزايم، وحاصرنا جيش العدو، وأولياء الشياطين، وظهر الباطل، فيان الظفر والاسقتبال، وظهرت الفية القليلة، والله مع الصابرين، فغلبوا هناك وانقلبوا صاغرين. ومع ما لنا من الضيق، وأهمنا من الأمر، فلم نطلق به غارة، ولا شرهنا إلى تغيير نعمة، ولا سرحنا عنا اكتساح على هجمة، ولا شعنا لبساً في بيت ولا حلة، وأمسكنا الأرماق بيسير الحلال الذي اشتملته خزايننا من أعشار وزكوات، وحظوظ من زراعات، وارتقبنا الفرج ممن محص بالشدة، والإقالة ممن نبه من الغفلة، وألهم الإقلاع والتوبة. ثم وفقنا سبحانه، وألهمنا من أمرنا رشداً، وسلك بنا طريقاً في بحر الفتنة يبساً، فدناه بحقن الدماء، وتأمين الأرجاء، وشكرنا على البلاء، كشكرنا إياه على الآلاء. وخرجنا عن الأندلس، ولقد كاد، لولا عصمته، بأن نذهب مذاهب الزوراء، ونستأصل الشأفة، ونستأصل العرصة، سبحانه ما أكمل صنعه، وأجمل علينا ستره، إلى أن جزنا البحر، ولحقنا بجوار سلطان المغرب، لم تنب عنا عين، ولا شمخ علينا أنف، ولا حمل علينا بركب، ولا هتفت حولنا غاشية، ولا نزع عنا للتقوى والعفاف ستر، بل كان الناس يوجبون لنا الحق الذي أغفله الأوغاد من أبناء دولتنا، والضفادع ببركة نعمتنا، حتى إذا الناس عافوا الصيحة، وتملوا الحسرة، وسيموا الخسار والخيبة، وسامهم الطغام الذين لا يرجون لله وقاراً، ولا يألون لشعايره المعظمة احتقاراً، كلاب الأطماع، وعبدة الطاغوت، ومدبرو حجون الجهل، ومياسيس أسواق البعد عن الرب، وعرايس محرم الزينة، ودود القز، وثغار النهم. الأعزة على المؤمنين بالباطل. الأذلة في أنفسهم بالحق، ممن لا يحسن المحاولة، ولا يلازم الصهوة، ولا يحمل السلاح، ولا ينزه مجتمع الحشمة عن الفحشاء، ولا يطعم المسكين، ولا يشعر بوجود الله، جارا من شقيهم المحرم، على مضعوف ملتف في الحرم المحصور، محتف بلطف المهد، معلل بالخداع، مسلوب الجرأة بأيدي انتهازهم، شؤم على الإسلام،

ومعرة في وجه الدين، أخذ الله منهم حق الشريعة، وأنصف أيمة الملة فلم ينشبوا أن تمارشوا، فعض بعضهم، واستأصلهم البغي، وألحم للسيف، وتفنن القتل، فمن بين مجدل، يواري بأحلاس الدواب الوبرة، وغريق

يزف به إلى سوء الميتة، وأستينت حرمة الله، واستضيم الدين، واستبيحت المحرمات، واستبصعت الفروج في غير الرشدة، وسات في عدو الدين الحيلة، فتحركنا عن اتفاق من أرباب الفتيا، وعزم من أولى الحرية، وتحريض من أولى الحفيظة الهمة، وتداحير من الشوكة، وتحريك من وراء البحر من الأمة، فكان ما قد علمتم من تسكين الثايرة وإشكا العديم، وإصمات الصارخ، وشعب الثأي، ومعالجة البلوى، وتدارك القطر، وقد أشفى، وكشف الضر والبأسا أما الحبوة فالتمسها، وجل الرب، واستشاط عليها جو السماء. وأما مرافق البحر ومرافده. فسدت طرقها أساطيل الأعداء. وأما الحمية فبددها فساد السيرة، وغمط الحق، وتفضيل الأذى. وأما المال فاصطلم السفه بيضاءه وصفراءه، وكبس خزاينه حتى وقع الإدقاع والإعدام، وأقوى العامر، وأفتقرت المجابي والمغابن، واغتربت جفون السيوف من حلاها. وجردتموه الآلة إلى أعلاها، والدغل المستبطن الفاضح، ويمحض الحين، وأسلمت للدواء العرصة، وتخربت الثغور من غير مدافعة، واكتسحت الجهات فلم يترك بها نافخ، ووقع القول، وحق البهت، وخذل الناصر، وتبرأتن الأواصر، فحاكمنا العدو إلى النصفة. ولم نقره على الدنية، وبايناه أحوج ما كنا إلى كدحه، وأطمع ما أصبحنا في مظاهرته على الكفار مثله، اعتزازاً بالله، وثقة به، ولجأ إليه وتوكلاً عليه، سبحانه ما أبهر قدرته، وأسرع نصرته، وأودى أمره، وأشد قهره. وركبنا بحر الخطر، بجيش من التجربة وتهدنا قدماً، لا تهاب الهول ولا تراقبه، وأطللنا على أحوازريه في الجمع القليل، إلا من مدد الصبر المفرد، إلا من مظاهرة الله الغفل، إلا من زينة الحق المظلل جناح عقابه يجتاح الروح، تسد جياده بصهيل العز، المطالعة غرره بطليعة النصر. فلما أحس بنا المؤمنون المطهرون بساحتهم انتزوا من عقال الإيالة الظالمة، والدعوة الفاجرة، وتبرأوا من الشرذمة الغاوية. والطايفة المناصبة لله المحاربة، وأقبلوا ثنيات وأفراداً، وزرافات ووجداناً. ينظرون بعيون لم ترو من غيبتنا، من محيا رحمة، ولا اكتحلت بمنظر رأفة، ووجوه عليها قسوة الخسلف، وإبشار عليها بوس الجهد، يتعلقون بأذيالنا تعلق الغريق، يئنون من الجوع والخوف أنين المرضى، ويجهشون بالبكاء، ويعلنون لله ولنا بالشكوى، فعرفناهم الشأمان من الأعداء، وأول عارفه جعلونا عليهم، وصرفنا وجه التأمين والتأنيس، وجميل الود إليهم، وخارطناهم الإجهاش والرقعة، ووثبنا لهم من الذلة، واستولينا على دار الملك ببلدهم، فأنزلنا منها أخابيث كان الأشقياء مخلفوهم بها، من أخلاف لا يزال تضأ إبشارهم الحدود، وتأنف من استكفايهم اليهود، وانثالت علينا البلاد، وشكمر الطاغية ذيله عن الجهات، وراجع الإسلام رمق الحياة، وحثثنا السير إلى دار الملك، وقد فرعتها الشقي الغاصب، بشوكة بغيه، التي أمدته في الغي، وأجرته على حرمة الله، وقصد دار قشتالة، بكل ما صانت الحقاق من ذخيرة، وحجبت الأمهاء من خرزة ثمينة يتوعدون المسلمين بإدالة الكفر من الإيمان، واقياد جيوش الصلبان، وشد الحيازم إلى تبديل الأرض غير الأرض، وسوم الدين، وطمس معالم الحق، كياداً لرسول الله في أمته، ومناصبة له في حنيفيته، وتبديلاً لنعمة الله كفراً، ولمعروف الحق نكراً، أصبح له الناس على مثل الرضف، يرتقبون إطلال الكريهة، وسقوط الظلة، وعودة الكرة، وعقبى المعرة، والله من ورائهم محيط، وبما يعلمون محيط، ولدعاء المستضعفين من المؤمنين مجيب، ومنهم وإن قعدوا في أقصى الأرض قريب. ولم نقزف به إلى سوء الميتة، وأستينت حرمة الله، واستضيم الدين، واستبيحت المحرمات، واستبصعت الفروج في غير الرشدة، وسات في عدو الدين الحيلة، فتحركنا عن اتفاق من أرباب الفتيا، وعزم من أولى الحرية، وتحريض من أولى الحفيظة الهمة، وتداحير من الشوكة، وتحريك من وراء البحر من الأمة، فكان ما قد علمتم من تسكين الثايرة وإشكا العديم، وإصمات الصارخ، وشعب الثأي، ومعالجة البلوى، وتدارك

القطر، وقد أشفى، وكشف الضر والبأسا أما الحبوة فالتمسها، وجل الرب، واستشاط عليها جو السماء. وأما مرافق البحر ومرافده. فسدت طرقها أساطيل الأعداء. وأما الحمية فبددها فساد السيرة، وغمط الحق، وتفضيل الأذى. وأما المال فاصطلم السفه بيضاءه وصفراءه، وكبس خزاينه حتى وقع الإدقاع والإعدام، وأقوى العامر، وأفتقرت المجابي والمغابن، واغتربت جفون السيوف من حلاها. وجردتموه الآلة إلى أعلاها، والدغل المستبطن الفاضح، ويمحض الحين، وأسلمت للدواء العرصة، وتخربت الثغور من غير مدافعة، واكتسحت الجهات فلم يترك بها نافخ، ووقع القول، وحق البهت، وخذل الناصر، وتبرأتن الأواصر، فحاكمنا العدو إلى النصفة. ولم نقره على الدنية، وبايناه أحوج ما كنا إلى كدحه، وأطمع ما أصبحنا في مظاهرته على الكفار مثله، اعتزازاً بالله، وثقة به، ولجأ إليه وتوكلاً عليه، سبحانه ما أبهر قدرته، وأسرع نصرته، وأودى أمره، وأشد قهره. وركبنا بحر الخطر، بجيش من التجربة وتهدنا قدماً، لا تهاب الهول ولا تراقبه، وأطللنا على أحوازريه في الجمع القليل، إلا من مدد الصبر المفرد، إلا من مظاهرة الله الغفل، إلا من زينة الحق المظلل جناح عقابه يجتاح الروح، تسد جياده بصهيل العز، المطالعة غرره بطليعة النصر. فلما أحس بنا المؤمنون المطهرون بساحتهم انتزوا من عقال الإيالة الظالمة، والدعوة الفاجرة، وتبرأوا من الشرذمة الغاوية. والطايفة المناصبة لله المحاربة، وأقبلوا ثنيات وأفراداً، وزرافات ووجداناً. ينظرون بعيون لم ترو من غيبتنا، من محيا رحمة، ولا اكتحلت بمنظر رأفة، ووجوه عليها قسوة الخسلف، وإبشار عليها بوس الجهد، يتعلقون بأذيالنا تعلق الغريق، يئنون من الجوع والخوف أنين المرضى، ويجهشون بالبكاء، ويعلنون لله ولنا بالشكوى، فعرفناهم الشأمان من الأعداء، وأول عارفه جعلونا عليهم، وصرفنا وجه التأمين والتأنيس، وجميل الود إليهم، وخارطناهم الإجهاش والرقعة، ووثبنا لهم من الذلة، واستولينا على دار الملك ببلدهم، فأنزلنا منها أخابيث كان الأشقياء مخلفوهم بها، من أخلاف لا يزال تضأ إبشارهم الحدود، وتأنف من استكفايهم اليهود، وانثالت علينا البلاد، وشكمر الطاغية ذيله عن الجهات، وراجع الإسلام رمق الحياة، وحثثنا السير إلى دار الملك، وقد فرعتها الشقي الغاصب، بشوكة بغيه، التي أمدته في الغي، وأجرته على حرمة الله، وقصد دار قشتالة، بكل ما صانت الحقاق من ذخيرة، وحجبت الأمهاء من خرزة ثمينة يتوعدون المسلمين بإدالة الكفر من الإيمان، واقياد جيوش الصلبان، وشد الحيازم إلى تبديل الأرض غير الأرض، وسوم الدين، وطمس معالم الحق، كياداً لرسول الله في أمته، ومناصبة له في حنيفيته، وتبديلاً لنعمة الله كفراً، ولمعروف الحق نكراً، أصبح له الناس على مثل الرضف، يرتقبون إطلال الكريهة، وسقوط الظلة، وعودة الكرة، وعقبى المعرة، والله من ورائهم محيط، وبما يعلمون محيط، ولدعاء المستضعفين من المؤمنين مجيب، ومنهم وإن قعدوا في أقصى الأرض قريب. ولم نق

م مذ حللنا بدار الملك شيئاً على مراسلة صاحب قشتالة في أمره، نناشده العهد، ونطري له الوفاء، ونناجزه إلى الحق، ونقوده إلى حسن التلطف، إلى الذي نشاء من الأمن، فحسم الداء، واجتث الأعداء، وناصح الإسلام وهو أعدا عدوه، وحزم الدين، وهو المعطل من أدوايه، وصارت صغرى عناية الله بنا، التي كانت العظمى، واندرجت أولاها في الأخرى، وأتت ركايب اليمن واليمين، تترى، ورأى المؤمنون أن الله لم يخلق هذا الصقع سدى ولا هباء عبثاً، وأن له فينا خبيئة غيب، وسر عناية، ويبلغنا إياها، ويطوقنا طوقها، لا مانع لعطايه، ولا معدد لآلايه، له الحمد ملئ أرضه وسمايه.

فمن اضطردت له هذه العجايب، فحملته عوايق الاستقامة مزية جيوب التقوى، كيف لا يتمنى، ويدين لله بمناصحته، ويحذر عناد الله بمخالفته، ويخشى عاقبة أمره، إنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

فقلمنا أظفار الطالبة وأغضينا عن البقية وسوغنا من كشف وجهه في حربنا نعمة الإبقاء وأقطعنا رحم من قطع طاعتنا جانب الصفح، وأدررنا لكثير ممن شح عنا ولو بالكلمة الطيبة جورية الرزق، ووهنا ما وجب لنا من الحق، ودنا له بكظم الغيظ؛ وعمرنا الرتب بأربابها، وجردنا الألقاب بعد خرابها، وقبضتا الجباية محملة كتد العادة، مقودة بزمام الرفق. ممسوحاً عطفها بكف الطواعية. فبللنا صدأ الجيش الممطول بالأماني، المعلل بالكذب، المستخدم في الذب عن مجاثم الفحشاء، ومراقد العهر، ودارينا الأعداء، وحسمنا الداء، وظهر أمر الله وهم كارهون. إلا أن تلك الشرذمة الخبيثة، أبقت جراثيم نفاق، ركبها انحجار الغدر، وبذر بها حصيد الشر، وأخلطوا الحقايب اللعنة ممن ساء ظنه، وخبث فكره، وظن أن العقاب لا يفلته، والحق لا يذره، والسياسة لا تحفزه، فدبت عقاربهم، وتدارت طوافاتهم، وتأبت فسادهم، فدبروا أمراً تبره الله تتبيراً، وأوسعه خزياً وبيلا، وجفلوا يرتادون من أذيال القرابة، من استخلصه الشيطان وأصحبه الخذلان، من لا يصلح لشيء من الوظائف، ولا يستقل ببعض الكلف، فحركوا منهم زاهق زمانه، من شر اللواب الذين لا يسمعون، فأجرهم رسنه، وتوقف وقفة العين بين الورد والصدر. بخلال ما أطلعنا الله طلع نيته، فعاجلناه بالقبض، واستودعناه مصفداً ببعض الأطباق البعيدة، والأجباب العميقة، فخرج أمرهم، وخافوا أن نحترش السعايات، صباب مكرهم، وتتبع نفاقهم، فأقدموا إقدام العير على الأسد، استعجالاً للحين، ورجعاً لحكم الخيار، وإقداماً على التي هي أشد، تولي كبرها، وكشف وجهه في معصيتها الخبيث البركي حلف التهور والخرق، المموه بالبسالة وهو الكنوب النكوث الفلول، تحملنا هفوته، وتغمدنا بالعفو قديماً وحديثاً زلته، وأعرضنا فيه عن النصيحة، وأبقينا له حكم الولاية، وأنسنا من نفرته، وتعاففنا عن غرته، وسوغنا الجرايم التي سبقت، والجراير التي سلفت، من إفساد العهد وأسر المسلمين، والافتيات على الشرع، والصدوع بدعوى الجاهلية، فلم يفده، إلا بطراً، ولم يزده إلا مكراً، والخير في غير أهله يستحيل شراً، والنفع ينقلب ضراً. والتفت عليه طايفة من الخلايق بنو غرون قرعاء الجبل والمشأمة. وأذناب بيت الإدبار، ونفاية الشرار، عرك جرأتهم مكان صهرهم البائس، ابن بطرون، الضعيف المنة السقيط الهمة، الخامل النفصيل والجملة، وغيرهم ممن يأذن الله بضلال كيدهم وتخييب سعيهم، فاقتحموا البلد صيحة يهتفون بالناس أن قد طرق حكامهم، وأن العدو قد دهمهم، ملتفتين يرون أنهم في أذيالهم، وأن رماحهم تنهشهم وتنوشهم، وسرعانهم ترهقهم، كأنهم سقطوا من السماء، أو ثاروا من بين الحصباء. ثم جالوا في أزقة البلد يقذفون في الصفاح نار الحباحب ركضاً فوق الصخر المرصوف، وخوضاً في الماء غير المرهوف، ثم قصدوا دار الشيخ البايس علي بن أحمد بن نصر، نفاية البيت، ودردى القوم، ممسوخ الشكل، قبيح اللتغ ظاهر الكدر، لإدمان المعاقرة، مزنون بالمعاقرة والربت على الكبرة ساقط الهمة. عديم الدين والحشمة، منتمت في البخل والهلع، إلى أقصى درجات الخسة، مثل في الكذب والنميمة، معيب المثانة. لا يرق بوله، واليجف سلسه، فاستخرجوه مبايعاً في الخلافة، منصوباً بأعلى كرسي الإمامة، مدعوماً بالأيدي لكونه قلقاً لا يثبت على الصهوة مختاراً لحماية البيضة. والعدل في الأمة، مغتما للذب عن الحنيفية السمحة، وصعدوا به إلى ربوة بإزاء قلعتنا، منتترا باب البنود، مستندا إلى الربض. مطلاً على دار الملك، قد أقام له رسم الوزارة ابن مطرون الكاري، الكسح الدروب برسم المسومة، الحرد، المهين الحجة، فحل طاحوثة الغدر، وقدر السوق والخيانة، واليهودي الشكل والنحل، وقرعتن حوله طبول الأعراس، إشادة بخمول أمره، واستهجان آلته، ونشرت عليه راية فال رأيها، وخلب سعيها ودارت به زعنفة من طغام من لا يملي ولا يزيد المكا والصغير من حيله، وأنبث في سكك البلد مناديه، وهتف أوليا باطله باسمه وكنيته. وانتجزوا مواعيد الشيطان فأخلفت، ودعوا سماسير الغرور فصمت، وقدحوا زناد الفتنة فصلدت وما

أوارت. ولحين شعرنا بالحادثة، ونظرنا إلى مرج الناس، واتصل بنا ريح الخلاف، وجهير الخلعان، استعنا بالله وتوكلنا عليه، وفوضنا أمرنا إلى خير الناصرين، وقلنا ربنا افتح بيننا وبين قومن ا بالحق، وأنت خير الفاتحين، واستركبنا الجند وأذعنا خبر العطاء، وأطلقنا بريح الجهاد، ونفير الجلاد، وملأنا الأكف بالسلاح، وعمرنا الأبارج بالرجال، وقرعنا طبول الملك، ونشرنا ألوية الحق؛ واستظهرنا بخالصة الأمراء أولياء الدعوة، وخاطبنا فقيه الربض، نخبر مخبره؛ ونسبر غوره، فالفيناه متوارياً في وكره، مرعيا على دينه، مشفقاً من الإخطار برمه، مشيراً بكمه. وتفقدنا البلد، فلم نرتب بأحد من أهله. فلما كملت البيعة، وفخمت الجملة، أنهدنا الجيش، ولي أمرنا، الذي اتخذناه ظهيراً؛ واستنبطناه مشيراً، والتزمناه جليساً وصهيراً. ولم ندخر عنه محلا أثيراً، الشيخ الأجل، أبا سعيد عثمان بن الشيخ أبي زكريا يحيى بن عمر بن رحو، ممهد الرعب بقدومه، والسعد في خدمتنا بخدمه، في جيش كثيف الحملة، سابغ العدة، مزاح العلة، وافر الناشية، أخذ بباب الربض وشعابه، ولف عليه أطنابه، وشرع إليه أمله. ولم يكن إلا كلاً ولا حتى داسه بالسنابك، وتخلفه مجر العوالي، ومجرى السوابق، وهو الحمى الذي لا يتوعد، والمجد الذي لا يغرب، فلولا تظاهر مشيخته بشعار السلم؛ واستظلاله بظلال العافية، لحث الفاقرة، ووقعت به الرزية. وفر الأعداء لأول وهلة، وأسلموا شقيهم أذل من تد في قاع، وسلحفة في أعلى يفاع، فتقبض عليه، وأخذت الخيل أعقاب الغدرة أشياعه، وقيد إلينا يرسف في قيد المهزم، ثعبان مكيدة، وشكية ضلال مظنة فضيحة، وأضحوكة سمر. فتضرع بين أيدينا، وأخذته الملامة، وعلاه الخزي، وثل إلى المطبق، حتى نستدعي حكم الله في جرمه، ونقتضي الفتيا في جريرته، ونختار في أقسام ما عرضه الوحي من قتلته. وهدأت الثايرة، والحمد لله من يومها، واجتثت شجرة الخلاف من أصلها، فالحمد لله الذي أتم نوره ولو كره الكافرون " إن هؤلاء متبر ما هم فيه، وباطل ما كانوا يعملون " . وماذا رأيهم منا، أصغر الله منقلهم، وأخزى مردهم، وأستأصل فلكهم،. أولا يتبنى أمر وارثه. ثم عوده إلينا طواعية، ثم رفعنا وطأة العدو وحربه، ومددنا ظلال الأمن دفعة، وأنفأنا رمتي الثغور، حين لم يجدوا حيلة إلا ما عرفوا من أمنه، وبلوا من حيطته وتسوغاً من هدنه، وانسحبت فوق آمالهم وحريمهم من عفة. وأظهر الله علينا من نعمة. ربنا أنك تعلم ما نخفي وما نعلن، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء. اللهم ألبسنا سريرتنا، وعاملنا بدخلتنا فيهم، وإن كنا أردنا لجماعتهم شراً، وفي دينهم إغماضاً، وعن العدل فيهم عدولاً، فعاملنا بحسب ما تبلوه من عقيدنا، وتستكشفه من خبيئتنا، وإن كنت تعلم صحة مناصحتنا لسوادهم؛ واستنفادنا الجهد في إتاحة عافيتهم، ورعى صلاحهم، وتكيف آمالهم، فصل لنا عادة صنعك فيهم، ومسلنا طاعتهم، واهدبنا جماعتهم، وارفع بنظرنا إطاعتهم، يا أرحم الراحمين.رت. ولحين شعرنا بالحادثة، ونظرنا إلى مرج الناس، واتصل بنا ريح الخلاف، وجهير الخلعان، استعنا بالله وتوكلنا عليه، وفوضنا أمرنا إلى خير الناصرين، وقلنا ربنا افتح بيننا وبين قومن ا بالحق، وأنت خير الفاتحين، واستركبنا الجند وأذعنا خبر العطاء، وأطلقنا بريح الجهاد، ونفير الجلاد، وملأنا الأكف بالسلاح، وعمرنا الأبارج بالرجال، وقرعنا طبول الملك، ونشرنا ألوية الحق؛ واستظهرنا بخالصة الأمراء أولياء الدعوة، وخاطبنا فقيه الربض، نخبر مخبره؛ ونسبر غوره، فالفيناه متوارياً في وكره، مرعيا على دينه، مشفقاً من الإخطار برمه، مشيراً بكمه. وتفقدنا البلد، فلم نرتب بأحد من أهله. فلما كملت البيعة، وفخمت الجملة، أنهدنا الجيش، ولي أمرنا، الذي اتخذناه ظهيراً؛ واستنبطناه مشيراً، والتزمناه جليساً وصهيراً. ولم ندخر عنه محلا أثيراً، الشيخ الأجل، أبا سعيد عثمان بن الشيخ أبي زكريا يحيى بن عمر بن رحو، ممهد الرعب بقدومه، والسعد في خدمتنا بخدمه، في جيش كثيف الحملة، سابغ العدة، مزاح العلة، وافر الناشية، أخذ بباب الربض وشعابه، ولف عليه أطنابه، وشرع إليه أمله. ولم يكن إلا كلاً ولا حتى داسه بالسنابك، وتخلفه مجر العوالي، ومجرى السوابق، وهو الحمى الذي لا يتوعد، والمجد الذي لا

يغرب، فلولا تظاهر مشيخته بشعار السلم؛ واستظلاله بظلال العافية، لحث الفاقرة، ووقعت به الرزية. وفر الأعداء لأول وهلة، وأسلموا شقيهم أذل من تد في قاع، وسلحفة في أعلى يفاع، فتقبض عليه، وأخذت الخيل أعقاب الغدرة أشياعه، وقيد إلينا يرسف في قيد المهزم، ثعبان مكيدة، وشكية ضلال مظنة فضيحة، وأضحوكة سمر.
فتضرع بين أيدينا، وأخذته الملامة، وعلاه الخزي، وثل إلى المطبق، حتى نستدعي حكم الله في جرمه، ونقتضي الفتيا في جريرته، ونختار في أقسام ما عرضه الوحي من قتلته. وهدأت الثايرة، والحمد لله من يومها، واجتثت شجرة الخلاف من أصلها، فالحمد لله الذي أتم نوره ولو كره الكافرون " إن هؤلاء متبر ما هم فيه، وباطل ما كانوا يعملون " . وماذا رأيهم منا، أصغر الله منقلهم، وأخزى مردهم، وأستأصل فلكهم. أولا يتبنى أمر وارثه. ثم عوده إلينا طواعية، ثم رفعنا وطأة العدو وحربه، ومددنا ظلال الأمن دفعة، وأنفأنا رمتي الثغور، حين لم يجدوا حيلة إلا ما عرفوا من أمنه، وبلوا من حيطته وتسوغاً من هدنه، وانسحبت فوق آمالهم وحريمهم من عفة. وأظهر الله علينا من نعمة. ربنا أنك تعلم ما نخفي وما نعلن، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء. اللهم ألبسنا سريرتنا، وعاملنا بدخلتنا فيهم، وإن كنا أردنا لجماعتهم شراً، وفي دينهم إغماضاً، وعن العدل فيهم عدولاً، فعاملنا بحسب ما تبلوه من عقيدنا، وتستكشفه من خبيئتنا، وإن كنت تعلم صحة مناصحتنا لسوادهم؛ واستنفادنا الجهد في إتاحة عافيتهم، ورعى صلاحهم، وتكيف آمالهم، فصل لنا عادة صنعك فيهم، ومسلنا طاعتهم، واهدبنا جماعتهم، وارفع بنظرنا إطاعتهم، يا أرحم الراحمين.

ولما أسفر صبح هذا الصنع عن حسن العفو، وأستقر على التي هي أزكى، وظهر لنا لا تخاف بالله دركا ولا تخشى، وأن سبيل الحق أنجى ومحجته أحجى، خاطبناكم تجلو نعم الله قبلنا عليكم، ونشيد بتقوى الله بناديكم، وعنايته لدينا ولديكم، ونهدي طرف صنعه الجميل قبلنا إليكم ليكسبكم اعتباراً، فزجوا الله وقارا، وتزيدوا يقيناً واستبصاراً، وتصفوا العين من اختار لكم اختيارا. وهو حسبنا ونعم الوكيل، والله يصل سعدكم، ويحرس مجدكم. كتب في كذا. والسلام عليكم ورحمت الله وبركاته. صح هذا
الجهاد في شعبان

من عام سبعة وستين وسبعمائة

اقتضى نظر الحزم، ورأى الاجتهاد للإسلام، إطلاق الغارات على بلد الكفرة من جميع جهات المسلمين، فعظم الأثر، وشهر الذكر، واكتسحت الماشية، وألحم السيف. وكان ثغر برغة، الفايزة به يد الكفرة، لهذا السنين القريبة، قد أهم القلوب، وشغل النفوس، وأضاق الصدور، لانبتات مدينة رندة، بحيث لا يخلص الطيف، ولا تبلغ الرسالة من الطير وغيرها إلى ناحية العدو. فوقع العمل على قصده، واستعانة الله عليه، واستنفر لمنازلته أهل الجهات الغربية من مالقة ورندة، وما بينهما، ويسر الله في فتحه، بعد قتال شديد، وحرب عظيمة، وجهاد شهير، واستولى المسلمون عليه، فامتلأت أيديهم أثاثاً وسلاحاً ورياشاً وآلة، وطهرت للحين مساجده، وزينت بكلمة الله مشاهده وأنست بالمؤمنين معاهده ورتبت فيه الحماة والرماة، والفرسان الكماة، واتصلت بفتحة الأيدي، وارتفعت العوايق، وأوضحت بين المسلمين وأخوانهم السبل، والحمد لله. وتوجهت بفتحه الرسايل، وعظمت المنن الجلايل، وفر العدو لهذا العهد عن حصن السهلة، من حصون الحفرة اللويشية، وسد الطريق الماثلة، وذلك كله في العشر الأوسط لشعبان من هذا العام. ثم أجلب المسلمون في يرندة في أخرياته وقصدوا باغة وجيرة فاستنزلوا أهلها، وافتتحوها،

فعظمت النعمة، واطرد الفتح، واتسعت الجهة.
وكانت مما خوطبت به الجهة المرينية من إملائي:

المقام الذي نبشره بالفتح ونحييه، ونعيد له خبر المسرة بعد أن نبديه؛ ونسأل الله أن يضع لنا البركة فيه. ونشرك مساهمته فيما نهصره من أغصان الزهور ونجنيه ونعلم أن عزة الإسلام وأهله أسنى أمانيه، وإعانتهم أهم ما يعنيه. مقام محل أخينا الذي نعظم قدره، ونلتزم بره، ونعلم سره في مساهمة المسلمين وجهره؛ السلطان الكذا، الذي أبقاه الله في عمل الجهاد ونيته؛ متكلفة بنشر كلمة الله طويته، متممة من ظهور الدين الحنيف أمنيته، معظم جلاله، ومجزل ثنايه، ومؤمل عادة احتفاله بهذا الوطن الجهادي واعتنايه، أيد الله أمره، وأعز نصره. سلام كريم عليكم، ورحمة الله وبركاته. أما بعد حمد الله، واصل سبب الفتوح، ومحزل مواهب النصر الممنوح. ومؤيد الفية القليلة بالملايكة والروح، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه، الآتي بنور الهدى بين الوضوح، الداعي من قبوله ورضوانه إلى المنهل المورود والباب المفتوح، الرضا عن آله وأصحابه، أسود السروج، وجماة السروج، والمقتفين نهجه في جهاد عدو الله بالعين القارة والصدر المشروح، والدعاء لمقامكم العلي بالعز الرفيع الصروح فإنا كتبناه إليكم، كتب الله لكم سبوغ المواهب، ووضوح المذاهب وعزة الجانب، وظفرة الكتايب، من حمراء غرناطة حرسها الله، ونعم الله واكفة السحايب، كفيلة بنيل الرغايب، والله يصل لنا ولكم عوارف اللطايف، ويجعل الشهيد دليلاً على الغايب. وإلى هذا وصل الله إزازكم، وحرس أحوازكم وعمر بالحقيقة من أمراد مجازنا ومجازكم. فإنا بادرنا تعريفكم بما فتح الله علينا من الثغر العزيز على الإسلام، العايد رزؤه الفادح على عبادة الأصنام، ركاب الغارات، وممكن حياة المضرات، ومخيف الطريق السابلة؛ والمسارح الآهلة، حصن برغة ويسر الله في استرجاعه مع شهرة امتناعه، وتطهر من دنس الكفار وأنيرت مئذنته بكلمة الشهادة الساطعة الأنوار، وعجلنا ذلك على حين وضعت الحرب فيه أوزارها، ووفت الأوتار أوبارها، فسار الكتاب إليكم، وأجير الأجر لم يجف عرقه، وعذر الاستعجال لأحبة طرقه. ولما عدنا إلى حضرتنا، بعد ما حصناه وعمرناه، وأجزلنا نظر الحزم له وفرقناه. لم تكد البنود لمسرة فتحه أن تعاد إلى أماكن صوهما، مرتقبة عادة الله ف يعوهما، حتى طرقت الأنباء السارة بتوالي الصنع وانفراده بتشفيع أفراده، وذلك أن أهل رندة حرسها الله، نافسوا جيرانهم من أهل مالقة، كان الله لجميعهم، وتولى شكر صنيعهم، فيما كان من امتيازهم بحصن برغة، الجار المصاقب لها، فحميت هممهم السنية، وهانت في الله موارد المنية، وتضافر العمل والنية، وظهر نجح المقاصد الدينية في إتاحة الفتح الهنية، فوجهوا نحو حصن وحبر، وهو الداين صحر المدينة ونحرها. والعدو الذي لا يفتر عن ضرها، والحية الذكر التي هي مروان أمرها؛ ففتحوه بعون الله وقوته، وهمنوا بعده سلوك الطريق، وإشاعة الريق، ومراصد الحرس. ومجلوا الجرس، وأنصفوا، وانصرفوا إلى حصن باغة، من مشاهد تلك الحفرة، فناشبوه القتال، وأذاقوه الوبال، وفوقوا إليه النبال، ففتحة الله فتحاً هيناً. لم تفت فيه للمسلمين نفس ولا تطرق لنصر التيسير لبس، فقابلنا بها لشكر هذه النعم المتوالية، والمنن المتقدمة والتالية. و أعدنا الأعلام إلى مراكزها المشرفة المراقب، والطبول إلى قرعها عملاً من الإشارة بالواجب، وشكرنا الله على اتصال المواهب، ووضوح المذاهب، وخاطبنا مقامكم الذي ترى الصنايع متواترة بنيته الصالحة وقصده، ويعتد في الحرب والسلم بمجده، علماً بأن هذه المسرات، نصيبكم منها النصيب الأوفى؛ وارتياحكم أي لمثلها لا يخفى، ونحن نرقب ما تنجلي عنه هذه النكايات، التي تفتت كبد العدو تناليها، وتروع أحوازه وما يليها، ولا بد له من امتعاض يروم به صرع المعرة، ويأبى الله أن ذلك يأتي بالكرة، والله يجعلها محركان لحتفه المرقوب، وحينه المجلوب، ويحقق حق القلوب، في نصرة المطلوب، عرفنا كم بما تريدون عملاً بواجب بركم، ومعرفة بقدركم، وما يتزايد نعرفكم به، ويتصل سبب

التأكيد والتعجيل بسببه والسلام.

الغزاة إلى حصن أشر

وفي أوائل شهر رمضان بعده. أعمل السلطان الحركة السعيدة إلى حصن أشر، وهو قفل الثغر الذي فضه الطاغية، وسورها الذي فرغه الكفر. وجارحه المحلق على البلاد. والمتحكم لو لا فضل الله في الأموال والأولاد، فتأذن الله برد مغتصبه، والشفا من وصبه، وأحاط به وناصبه الحرب، ففتحة الله على يده عنوة. على سمو ذروته، وبعد صيته وشهرته، واختيار الطاغية في حاميته بعد حرب لم يسمع بمثله، فاز بمزية الحمد فيها السلطان، لمباشرته إياها بنفسه، وحمل كلها فوق كاهله، واتقاد ما خمد من الحمية بتحريضه. ثم لما كان بعد الفتح من استخلاص القصبة وسد ثلمها بيده، ومصابرة جمو القيظ عامة يومه، فجاز ذكراً جميلاً وحل من القلوب محلا أثيراً، ورحل منها، بعد أن أسكن بها من الفرسان رابطة متخيرة، ومن الرماة جملة، وتخلف سلاحاً وعدة، فكان الفتح على المسلمين. في هذا المعقل العزيز عليهم جليلاً، والمن من الله جزيلا، والصنع كثيراً. في هذا المعقل العزيز عليه جليلاً، والمن من الله جزيلا، والصنع كثيراً، وصدرت الخاطبة للمغرب بذلك، على الأسلوب المرسل الخلي من السجع الغني.

الغزاة المعملة إلى أطريرة في شهر شعبان من عام ثمانية وستين وسبعمائة، كانت الحركة إلى مدينة أطريرة بنت إشبيلية. وبلدة تلك الناحية الآمنة. مهاد الهدنة البعيدة عن الصرمة، حرك إليها بعد المدى،وآثرها بمحض الردى، من بين بلاد العدا، ما أسلف به أهلها المسلمين، من قتل أسراهم في العام قبله. فنازلها السلطان أول رمضان، وناشبها الحرب واستباح المدينة وربضها عنوة. ولجأ أهلها إلى قصبتها المنيعة، ذات الأبراج المشيدة، وأخذ القتال بمخنقهم، وأعان الزحام على استنزالهم، فاستنزلوا على حكم المسلمين، فيما يناهز خمسة، بما لم يتقدمه عهد؛ ولا اكتحلت به في هذه المدة عين. ولا تلقته عنها أذن، وامتلأت أيدي المسلمين، بما لم يعالمه إلى الله، من شتى الغنايم، وأنواع الفوايد، واقتسم الناس السبي رنعاً على الأكفال والظهور، وتقديرا بقدر الرجال، وحملا فوق الظهور للفرسان، وعمرانا للسروج والأعضاد بالصبية، وبرز الناس إلى ملاقاة السلطان. في هول من العز شهير من الفخر، وبعيد من الصيت، قرت له أعينهم، وقعد لبيعتهم أياماً تباعاً، وملأبهم البلاد هدايا وتحفاً والحمد لله وصدرت المخاطبة بذلك إلى السلطان بالمغرب بما نصه من الكلام المرسل من إنشائي.

الغزاة إلى فتح جيان وفي آخر محرم من عام تسعة وستين وسبعمائة، كانت الحركة الكبرى إلى مدينة جيان، إحدى دور الملك، ومدن المعمود، وكرسية الإمارة، ولوان المدن الشهيرة، افتتحها الله عنوة، ونقل المسلمون ما اشتملت عليه من النعم والأقوات والأموال والأنعام والأثواب والدواب والسلاح، ومكنهم من قتل المقاتلة، وسبي الذرية، وتخريب الديار، ومحو الآثار، واستنساف النعم، وقطع الأشجار. وهذا الفتح خارق. تعالى أن يحيط به النظم والنثر، فذكره أطير، وفخره أشهر، وصدرت في ذلك المخاطبة من إملائي إلى ملك المغرب. وأصاب الخلق عقب القفول في هذه الغزاة. مرض وافد، فشا في الناس كافة، وكانت عاقبته السلامة، وتدارك الله بلطفه، فلم يتسع المجال لإنشاد الشعراء، ومواقف الإطراء، إلى شغل عن ذلك.

الغزاة إلى مدينة أبدة وفي أو لربيع الأول من هذا العام، كان الغزو إلى مدينة أبدة، واحتل بظاهرها جيش المسلمين، وأبلى السلطان في قتالها، وقد أخذت بعج جارتها جيان أقصى أهبة. واستعدت بما في الوسع والقوة، وكانت الحرب بها مشهورة. وافتتحها للمسلمون فانتهبوها، وأعفوا مساكنها العظيمة البناء، وكنايسها العجيبة المرأى، وألصفوا أسوارها بالثرى، ورأوا من سعة ساحتها، وبعد أقطارها، وضخامة بناها، ما يكذب الخبر فيه المرأى، ويبلد الأفكار،

ويحير النهي. ولله الحمد على آلايه التي لا تحصى. وقفل المسلمون عنها، وقد أخربوها، بحيث لا تعمر رباعها، ولا تأتلف حجورها وجموعها. وصدرت المخاطبة بذلك إلى صاحب المغرب من إنشائي بما نصه:

وإلى هذا العهد جرت الحادثة على ملك قشتالة، بطره بن أدفونش بن هراندة بن شانجه، وهو الذي تهيأ به الكثير من الصنع للمسلمين، بمزاحمة أخيه أندريق في الملك وتضييقه عليه، وحياز سبعة من كبار أصحابه، وأهل ملته إليه، وافتقار بطره المذكور إلى إعانة المسلمين، وإجلابهم على من آثر طاعته ضده، فانهزم بظاهر حصن منتيل، ومعه عدد من فرسان المسلمين، ولجأ إلى الحصن على غير أهبة ولا استعداد، فأخذ أخوه الذي هزمه بمخنقه، وأدار على الحصن البنا، وفر جيش المحصور، فاجتمع فله بأحواز أبدة، وراسلوا المسلمين في مظاهرتهم على استنقاذهم، فتوجهت الفتيا بوجوب ذلك. ووقع الاستنفار والاحتشاد حرصاً على تخليثه، لسبب بقاؤه بقاء الفتنة تستأصل الكفر، ونشغل بعض العدو ببعضه.

وفي أثناء هذه المحاولة تباطن الحاين المحصور بمن معه، وبعد عليه الخلاص من ورطته، ومساهمة المسلمين إياه في محنته؛ وانقطعت عنه الأنباء بفرج من كربته، فداخل بعض أمراء أخيه وظهراه، ممن يباشر حصاره، وكان قومساً شهيراً من المدد الذي ظاهره، من أهل إفرنسية، ووعده بكل ما يطمع من مال ومهد، وتوفية عهد. فأظهر له القبول وأضمر الخديعة. ولما نزل إليه سجنه ومن لحق به من الأدلاء وأولى الحرة بالأرض وأمسكه، وقد طير الخبر إلى أخيه، فأقبل في شرذمة من خواصه وخدامه، فهجم عليه وقتله، وأوس العفو من كان محصوراً معه، وطير إلى البلاد برأسه، وأوغر التبن في جثته، ولبس ثياب الحزن من أجله، وإن كان معترفاً بالصواب في قتله، وخاطب البلاد التي كانت على مثل الجمر من طاعة، الجاهر بمظاهرة المسلمين، وما جر ذلك من افتتاح بلادهم، وتخريب كنايسهم، والإتيان على نعمهم، فأجابته ضربة، وانفقت على طاعته، فلم يختلف عليه منها اثنان، إلا ما كان من مدينة قرمونة.
واجتمعت كلمة النصارى، ووقع ارتفاع شتاتهم، وصرفوا وجوههم إلى المسلمين، وشاع استدعاؤهم جميع من بأرض الشرق من العدو والثقيل ببرجلونة، وعدو الأشبونة، والعدو الثقيل الوطأة بإفرانسية. وقد كان الله جل جلاله، ألهم أهل البصاير النظر في العواقب، والفكر فيما بعد اليوم أعمل. ووقع لي إذن السلطان، المخلى بيني وبين النصائح، في مخاطبة سلطان النصارى المنكوب لهذا العهد، فأشرت عليه بالاحتراز من قومه، والتفطن لمكايد من يحطب في حبل أخيه، وأريته اتخاذ معقل بحرز ولده وذخيرته، ويكون له به الخيار على دهره، واستظهرت له على ذلك بالحكايات المتداولة، والتواريخ المعروفة، لتتصل الفتنة بأرضهم، فقبل الإشارة وشكر النصيحة، واختار لذلك مدينة قرموتة، المختصة بالجوار المكتب، من دار ملكهم إشبيلية، فشيد هضابها، وحصن أسوارها، وملأها بالمخازن طعاماً وعدة، واشتكثر من الآلات، واستظهر عليها بالثقات، ونقفل إليها المال والذخيرة، وسجن بها رهان أكابر إشبيلية، وأسرى المسلمين، وبالغ في ذلك، فيما الغاية وراءه ولا مطمع، ولا ينصرف إلى مصرعه الذي دعاه القدر إليه، حتى تركها عدة خلقه، وأودع بها ولده وأهله، ولجأ إليها بعض من خدامه من لا يقبل مهدنة ضده، ولا يقر أمان عدوه، والتقوا على صغير من ولده كالنحل على شهده، ولجأوا إلى المسلمين، فبغض عليهم الكرة والفتح بقاء هذا الشجي، المعترض في حلقه، وأهمه تغيير أمره، وجعجع به المسلمون لأجله. وأظهروا لمن انحاز بقرمونة.
الامتساك بعهده، فعظم الخرق، وأظهر الله نجح الحيلة. وصدق بها المخيلة، وتفتر الأمر. وخمدت نار ذلك الإرجاف. واشتغل الطاغية بقرمونة، بخلال ما خوطب به صاحب الأرض الكبيرة، فطمعه في المظاهرة. وتحطب له ملك قشتالة، وعقد السلم مع صاحب برطغال والأشبونة، ونشأت الفتن بأرضهم. وخرجت عليهم الخوارج، فأوجب إزعاجه إلى

تلك الجهة. وإقرار ما بالبلاد المجاورة للمسلمين من الفرسان والحماة تقاتل وتدافع عن أحوازها وجعل الخصص موجهة قرمونة وانصرف إلى سد الفتوق التي عليه بلطف الحيلة. ببواطن أرضه وأحشاء عمالته، وصار في ملكه أشغل من ذات النحيين. فساغ الريق. وأمكن العذر، وانتهز الغرة، واستؤنفت الحركة، فكانت إلى حصن منتيل والحويز، ففتحهما الله في رمضان من عام سبعين وسبعمائة، ثم إلى ثغر روطة. ففتحه الله عن جهد كبير، واتصل به حصن زمرة. فأمن الإسلام عادية العدو بتلك الناحية، وكبس أهل رندة. بإيعاز من السلطان إليها، وإلى من بالجبل جبل الفتح، حصن برج الحكيم والقشتور، فيسر الله فتحهما في رمضان أيضاً.

ثم كانت الحركة إلى الجزيرة الخضراء، باب الأندلس، وبكر الفتح الأول، فكانت الحركة إليها شهر ذي الحجة من العام المذكور. ووقع تحريض الناس بين يدي قصدها في المساجد بما نصه:

معاشر المسلمين المجاهدين. وأولي الكفاية عن ذوي الأعذار من القاعدين. أعلى الله بعلو أيديكم كلمة الدين. وجعلكم في سوى الأجر والفخر من الزاهدين، إعلموا رحمكم الله أن الإعلام بالأندلس ساكن دار، والجزيرة الخضراء بابه، ومبعد مغار، والجزيرة الخضراء ركابه، فمن جهتها اتصلت في القديم والحديث أسبابه، ونصرته على أعدايه وأعداء الله أحبابه، ولم يشك العدو الكافر الذي استباحها، وطمس بظلمة الكفر صباحها، على أثر اغتصابها، واسوداد الوجوه المؤمنة لمصابها، وتبديل محاربها، وعلوق أصله الخبيث في طيب تراثها، أن صريع الدين الحنيف بهذا الوطن الشريف. لا ينتعش ولا يقوم، بعد أن فرى الحلقوم. وأن الباقي رمق يذهب وقد سد إلى التدارك المذهب. لو لا أن الله دفع الفاقرة ووقاها. وحفظ المسكنة واستبقاها، وإن كان الجبل عصمه الله نعم البقية. وبمكانه حفت التقية، فحسبك من مصراع باب فجع بثانيه، ومضايق جوار حيل بينه وبين أمانيه. والآن يا عباد الله قد أمكنكم الانتهاز، فلا تضيعوا الفرصة، وفتر المنخنق فلا تسوغه غصة، واعمروا البواطن بحمية الأحرار، وتعاهدوا مع الله معاهد الأولياء الأبرار. وانظروا للعون من الذراري والأبكار، والنشأة الصغار، زغب الحواصل في الأكوار، والدين المنتشر بهذه الأقطار، واعملوا للعواقب، تحمدوا عملكم، واخلصوا لله الضماير، يبلغكم من فضله أملكم، فما عذر من سلم في باب وكره. وماذا ينتظر من أذعن لكيد عدوه ومكروه. من هذه الفرضة، دخل الإسلام تروع أسوده. ومن هذه الجهة طلع الفتح الأول تخفق بنوده، ومنها تقتحم الطير الغريب، إذا رامت الجواز وفوده، فيبصر بها صفات والدليل يقوده. الباب المسدود يا عباد الله فافتحوه، وجه النصر تجلى يا عباد الله فالمحوه، الداء العضال يا عباد الله فاستأصلوه، حبل الله يا رجال الله قد انقطع فصلوه. في مثلها ترخص النفوس الغالية، في مثلها تختبر الهمم العالية، في مثلها تشهر العقايد الوثيقة، وتدس الأحباس العريقة، فنضر الله وجه من نظر إلى قلبه، وقد امتلأته حمية الدين، وأصبح لأن تكون كلمة الله هي العليا متهلل الجبين.

اللهم إنا نتوسل إليك بأسرار الكتاب الذي أنزلته، وعناية النبي العربي الذي أوفدت من خصوص الرحمات وأجزلت، وبكل نبي ركع لوجهك الكريم وسجد، وبكل ولي سده من إمدادك كما وجد. ألا ما رددت علينا ضالتنا الشاردة، وهنأتنا بفتحها من نعمك الواردة، يا مسهل المآرب العسرة، يا جابر القلوب المنكسرة، يا ولي الأمة الغريبة، يا منزل اللطايف القريبة، اجعل لنا ملايكة نصرك مدداً، وانجز لنا من تمام نورك الحق موعداً. ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشداً.

فوقع الانفعال، وانتشرت الحمية، وجهزت الأساطيل. وكانت منازلتها يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر المذكور، وعاطاها المسلمون الحرب، فدخلت البنية وهي المدينة الملاصقة لها عنوة، قتل بها من الفرسان الدارعة عدة، وصرفت الغنايم إلى المدينة الكبرى. فرأوا من أمر الله ما لا طاقة لهم به، وخذلهم الله جل جلاله، على منعة

الأسوار وبعد مهاوي الأغوار، وكثرة العهد والعدد. وطلبوا الأمان لأنفسهم. وكان خروجهم عنها يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر المذكور، السعيد على المسلمين، في العيد والسرور، برد الدين. ولله الحمد على آلايه، وتوالي نعمه وإرغام أعدايه.

وفي وسط ربيع الأول من عام أحد و سبعين وسبعمائة، أعمل الحركة إلى أحواز إشبيلية دار الملك، ومحل الشوكة الحادة، وبها نايب سلطان النصارى، في الجمع الخشن من أنجاد فرسانهم، وقد عظم التضييق ببلدة قرمونة، المنفردة بالانتزاء على ملك النصارى، والانحياز إلى خدمة المسلمين، فنازل المسلمون مدينة أشونة، ودخلوا جفنها عنوة، واعتصم أهلها بالقصبة، فتعاصت، واستعجل الإقلاع منها لعدم الماء المروى والمحلات، فكان الانتقال قدماً إلى مدينة مرشانة وقد أحدقوا بها. وبها العدة والعديد من الفرسان الصناديد ففتحها الله سبحانه، إلا القصبة، واستولى المسلمون فيها، وفي جارتها. من الدواب والآلات على ما لا يأخذه الحصر. وقتل الكثير من مقاتلتها. وعم جميعها العدم والإحراق، ورفعت ظهور دواب المسلمين التوسعة، انحطاط الأسعار، وأودب الغلاء في أرض الكفار، وقفل والحمد لله في عز وظهور. وفرح وسرور.

مولده السعيد النشيبة

الميمون الطلوع والجيبة

المقترن بالعافية، منقولاً من تهليل نشأته المباركة. وحرز طفولته السعيدة، في نحو ثلث ليلة الاثنين والعشرين من جمادى الآخرة عام تسعة وثلاثين وسبعمائة. قلت، ووافقه من التاريخ الأعجمي رابع ينير من عام لف وثلاثمائة وسبعة وسبعين لتاريخ الأعجمي رابع ينير من عام ألف وثلاثمائة وسبعة وسبعين لتاريخ الصفر. واقتضت صناعة التعديل بحسب قيمودا وبطليموس، أن يكون الطالع ببرج القمر، لاستيلائه على مواضع الاستقبال المتقدم للولادة، ويكون التخمين على ربع ساعة وعشر ساعة، وثلث عشر الساعة السادسة من ليلة الاثنين المذكورة. والطالع من برج السنبلة، خمس عشرة درجة وثمان وأربعون دقيقة من درجة. كان الله له في الدنيا والآخرة. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

محمد بن يوسف الخزرجي الأنصاري

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الأنصاري من ولد سعد بن عبادة، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ابن سليمان ابن حارثة بن خليفة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة ابن عمر بن يعرب بن يشجب بن قحطان بن هميسع بن يمن بن نبت بن إسماعيل ابن إبراهيم، صلى الله عليه وعلى محمد الكريم. أمير المسلمين بالأندلس ودايلها وخدمة انصريين بها، يكنى أبا عبد الله ويلقب بالغالب بالله.

أوليته

وقد اشتهر عند كثير ممن عني بالأخبار أن هذا البيت النصري من ذرية سعد بن عبادة سيد الخزرج. وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وصنف الناس في اتصال نسبهم بقيس بن سعد بن عبادة غير ما تصنيف وأقوى ما ذكر، قول الرازي: دخل الأندلس من ذرية سعد بن عبادة رجلان، نزل أحدهما أرض تاكرونا ونزل الآخر قرية من قرى سقرسطونة تعرف بقرية الخزرج، ونشأ بأحواز أرجونة من كنبانية قرطبة، أطيب البلاد مدرة، وأوفرها غلة، وهو بلده، وبلد جده، في ظل نعمة، وعلاج فلاحة، وبين يدي نجدة وشهرة، بحيث اقتضى ذلك، أن يفيض شريان الرياسة، وانطوت أفكاره على نيل الإمارة ورآه مرتادو أكفاء الدول أهلاً، فقدحوا رغبته، وأثاروا طمعه.

حدث شيخنا الكاتب الشاعر محمد بن محمد بن عبد الله اللوشي اليحصبي، وقد أخبرني أنه كان يوجد بمدينة جيان رجل من أهل المالية، وكان له فرس أنثى من عتاق الخيل. على عادة أولى المالية، وكان له من أهل الثغور، من ارتباط الخيل، والتنافس في إعداد القوة. وشهرت هذه الفرس، في تلك الناحية، وبعث الطاغية ملك الروم في ابتياعها، فعلقت بها كف هذا الرجل، وآهر بها نفسه، وازداد غبطة بها لديه، ورأى في النوم قايلاً يقول له، سر إلى أرجونة، بفرسك وابحث عن رجل اسمه كذا، وصفته كذا، فاعطه إياها، فإنه سيملط جياناً وسواها، ينتفع بها عقبلك، وأرجي الأمر، فعرض عليه ثانية، وحث في ذلك في الثالثة، فسأل ثقة له خبيراً بتلك الناحية وأهلها، فقال له المخبر وكان يعرف بابن يعيش، فوصفه له، فتوجه الفقيه إلى أرجونة، ونزل بها، وتسومع به، وأقبل السلطان وأظهاره وتكلموا في شأنه. فذكر غرضه فيه، وأظهر العجز عن الثمن، وسأل منه تأخير بعضه، فأسعفه. واشترى منه الفرس، بمال له خطر. فلما كمل له القصد. طلب منه الخلوة به في المسجد من الحصن، وخرج له عن الأمر، وأعطاه بيعته، وصرف عليه الثمن. واستكتمه السلطان خيفة على نفسه وانصرف إلى بلده.

قال: وفي العام بعده، دعا إلى نفسه بأرجونة، وتملك مدينة جيان. واختلف في السبب الذي دعاه إلى ذلك، فقيل إن بعض العمال، أساء معاملته في حق مخزني، وقيل غير ذلك.

حاله

هذا الرجل كان آية من آيات الله في الذاجة والسلامة والجمهورية، جندياً، ثغرياً شهماً، أيداً، عظيم التجلد، رافضاً للدعة والراحة، مؤثراً للتقشف، والاجتراء باليسير، متبلغاً بالقليل، بعيداً عن التصنع، جافي السلاح، شديد العزم، مرهوب الإقدام، عظيم التشمير، مقرياً لضيفه، مصطنعاً لأهل بيته، فظاً في طلب حظهم، محمياً لقرابته وأقرائه وجيرانه. مباشراً للحروب بنفسه، تتعالى الحكاة في سلاحه، وزينة دبوره. يخصف النعل، ويلبس الخشن، ويؤثر البداوة، ويستشعر الجد في أموره. سعد بيوم الجمعة، وكان فيه الصدقة الجارية على ضعفاء الحضرة، ومنايهم إلى اليوم. وتملك مدينة إشبيلية في أخريات ربيع الأول من عام ظهوره، وهو عام تسعة وعشرين وستماية نحواً من ثلاثين يوماً. وملك قرطبة في العشر الأول لرجب من العام المذكور، وكلاهما عاد إلى ملك ابن هود. ولما تم له القصد من تملك البيضة، والحصول على العمال، مباشراً للحسابات بنفسه، فتوفر ماله، وغصت بالصامت خزاينه، وعقد السلم الكبير، وتهنأ أمره، وأمكنه الاستعداد، فأنعم الأهواء. وملأ بطن الجبل المتصل بالقلعة حبوباً مختلفة. وخزاين درة ومالاً وسلاحاً وارية ظهراً، وكراعاً. فوجد فايدة استعداده، ولجأ إلى ما ادخره من عتاده.

سيرته

تظاهر لأول أمره بطاعة الملوك بالعدوة وإفريقية، يخطب لهم زماناً يسيراً. وتوصل بسبب ذلك إلى إمداد منهم وإعانة. ولقبل ما افتتح أمره بالدعاء للمستنصر العباسي ببغداد، حاذياً حذو سميه ابن هود، للهج العامة في وقته. بتقلد تلك الدعوة، إلى أن نزع عن ذلك كله.

وكان يعقد للناس مجلساً عاماً، يومين في كل أسبوع، فترفع إليه الظلامات، ويشافه طالب الحاجات، وتنشده الشعراء. وتدخل إليه الوفود، ويشافه أرباب النصايح في مجلس اختص به أهل الحضرة، وقضاة الجماعة، وأولى الرتب النبيهة في الخدمة، بقراءة أحاديث من الصحيحين، ويختم بأعشار من القرآن، ثم ينتقل إلى مجلس خاص، ينظر فيه في أموره فصرف كل قصد إلى من يليق به ذلك، ويؤاكل بالعشيات خاصته من القرابة؛ ومن يليهم من نبهاء

القواد.

أولاده

أعقب ثلاثة من الذكور، محمداً ولي عهده، وأمير المسلمين على أُره؛ والأميرين أبا سعيد فرج، وأبا الحجاج يوسف، توفيا على حياته؛ حسبما يتقرر بعد إن شاء الله.

وزراء دولته

وزر له جماعة، الوزير أبو مروان عبد الملك بن يوسف بن صناديد زعيم قاعدة جبان؛ وهو الذي مكنه من ناصية جيان المذكورة. واستوزر علي ابن إبراهيم الشيباني من وجوه حضرته، وذوي النسب من الفضلاء أولي الدماثة والوقار. واستوزر الرييس أبا عبد الله بن الرييس أبي عبد الله الرميمي. واستوز الوزير أبا يحيى ابن الكاتب من أهل حضرته. وغيرهم ممن تبلغ به الشهرة مبلغاً فيهم.

كتابه

كتب له من الجلة جماعة، كالكاتب المحدث الشهير أبي الحسن علي بن محمد ابن محمد بن سعيد اليحصبي اللوشي، ولما توفي كتب عنه ولده أبو بكر بن محمد. هؤلاء مشاهير كتابه، ومن المرءوسين أعلام كأبي بكر بن خطاب وغيره.

قضاته

ولي له قضاء الجماعة، القاضي العالم الشهير، أبنو عامر يحيى بن عبد الرحمن ابن ربيع الأشعري، من جلة أهل الأندلس في كبر البيت، وجلالة المنصب، وغزارة العلم. ثم ولي بعده الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الجليل ابن غالب الأنصاري الخزرجي، ثم ولي بعده الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن عبد السلام التميمي. وهذا الرجل من أهل الدين والأصالة، وآخر قضاة العدل. ثم ولي بعده الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن عياض بن موسى اليحصبي، ثم ولي بعده الفقيه القاضي الحسيب أبنو عبد الله بن أضحى، وبيته شهير، ولم تطل مدته. وولي بعده آخر قضاته أبو بكر محمد بن فتح بن علي الإشبيلي الملقب بالأشبرون.

الملوك على عهده

بمراكش المأمون إدريس، مأمومن الموحدين، مزاحماً بأبي زكريا يحيى ابن الناصر ابن المنصور بن عبد المؤمن بالجبل. ولما توفي المأمون ولي الرشيد، أبو محمد عبد الواحد في سنة ثلاثين وستماية، وولي بعده أبو حفص عمر بن إسحاق المرتضى، إلى أن قتله إدريس الواثق أبو دبوس في عام خمسة وستين. وولي بعده يسيراً بنو عامر بن علي بمراكش، وتعاقب منهم على عهده جلة؛ كالأمير عثمان وابنه حمو، وأخيه أبي يحيى بن عبد الحق. واستمر الملك في أسن أملاكهم، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق بن محيو إلى آخر أيامه.

وبتلمسان، شبيهه يغمراسن بن زيان أول ملوكهم، وتقدمه أخوه أكبر منه برهة. ويغمراسن أول من أثل الملك، وحاز الذكر، واستحق الشهرة.

وبتونس، الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص. وخاطبه السلطان المترجم به، والتمس رفده، وقد حصل على إعانته، وولي بعد موته ولده المستنصر أبو عبد الله، ودامت أيامه إلى أول أيام ولد السلطان المترجم له عام أربعة وسبعين.

وبقشتالة هراندة بن ألهنشة بن شانجه الإنبرطور. وهراندة هذا هو الذي ملك قرطبة وإشبيلة، ولما هلك ولي بعده ألفنش ولده ثلاثاً وثلاثين سنة، واستمر ملكه مدة ولايته. وصدرا من دولة ولده بعده.

ويرغون جايمش ابن بطره ابن ألفونش قمط برجلونه. وجايمش هذا هو الذي ملك بلنسية، وصيرها دار ملكه من

يد أبي جميل زيان ابن مردنيش.
لمع من أخباره

قام ابن أبي خالد بدعوته بغرناطة، كما ذكر في اسمه، ودعاه وهو بجيان. فبادر إليها في أخريات رمضان من عام خمس وثلاثين وستمائة، بعد أن بعث إليه الملأ من أهلها ببيعتهم مع رجلين من مشيختهم، أبي بكر الكاتب، وأبي جعفر التيزولي.
قال ابن عذارى في تاريخه، أقبل ومازيه بفاخر، ونزل عشي اليوم الذي وصفل بخارج غرناطة، على أن يدخلها من الغد، ثم بدا له فدخلها عند غروب الشمس، نظراً للحزم.
وحدث أبو محمد البسطي قال: عاينته يوم دخوله وعليه شاشية ملف مضلعة أكتافها مخرقة، وعندما نزل بباب جامع القصبة، كان مؤذن المغرب في الحيعلة، وإمامه يومئذ أبو المجد المرادي قد غاب، فدفع الشيخ السلطان إلى المحراب، وصلى بهم، على هيئته تلك، بفاتحة الكتاب. وإذا جاء نصر الله والفتح. والثانية بقل هو الله أحد، ثم وصل قصر باديس، والشمع بين يديه.
وفي سنة ثلاث وأربعين وستماية، صالح طاغية الروم، وعقد معه السلم، الذي طاحت في شروطه جيان. وكان واقع بالعدو الراتب تجاه حضرته، المختص بحصن بليلش على بريد من الحضرة. وكان الفتح عظيماً. ثم حالفه الصنع بما يضيق المجال عن استيعابه. وفي حدود اثنين وستين وستمائة صالح طاغية الروم، وعقد معه السلم، وعقد البيعة لولي عهده، واستدعى القبائل للجهاد.
مولده
في عام خمسة وتسعين وخمسمائة بأرجونة، عام الأرك.
وفاته
في منتصف جمادة الثانية من عام واحد وسبعين وستمائة، ورد عليه وقد سن. جملة من كتاب الزعايم، يقودون جيشاً من أتباعهم، فبرز إلى لقايهم بظاهر حضرته، ولما كر أيباً إلى قصره، سقط ببعض طريقه، وخامره خصر، وهو راكب، وأردفه بعض مماليكه، واسمه صابر الكبير، وكانت وفاته ليلة الجمعة التاسع والعشرين لجمادى الثانية المذكورة، ودفن بالمقبرة الجامعة العتيقة بسنام السبيكة، وعلى قبره اليوم منقوش:

" هذا قبر السلطان الأعلى، عز الإسلام، جمال الأنام، فخر الليالي والأيام، غياث الأمة، غيث الرحمة، قطب الملة، نور الشريعة، حامي السنة، سيف الحق، كافل الخلق، أسد الهيجاء، حمام الأعداء، قوام الأمور، ضابط الثغور، كاسر الجيوش، قامع الطغاة، قاهر الكفرة والبغاة، أمير المؤمنين، علم المهتدين، قدوة المتقين، عصمة الدين، شرف الملوك والسلاطين، الغالب بالله، المجاهد في سبيل الله، أمير المسلمين، أبو عبد الله محمد بن يوسف ين نصر الأنصاري، رفعه الله إلى أعلى عليين، وألحقه بالذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، ولد رضي الله عنه، وأتاه رحمة من لدنه عام أحد وتسعين وخمسمائة، وبويع له يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان عام خمسة وثلاثين وستماية، وكانت وفاته يوم الجمعة بعد صلاة العصر التاسع والعشرين لجمادى الآخرة عام أحد وسبعين وستماية، فسبحان من لا يفنى سلطانه، ولا يبيد ملكه، ولا ينقضي زمانه، لا آله إلا هو الرحمن الرحيم " .
ومن جهة أخرى:
هذا محل العلى والمجد والكرم ... قبر الإمام الهمام الطاهر العلم

لله ما ضم هذا اللحد من شرف ... ومن شيم علوية الشيم
بالجود والباس ما تحوي صفايحه ... لا بأس عنترة ولا ندى هرم
مغنى الكرامة والرضوان يعهده ... فخر الملوك الكريم الذات والشيم
مقامه في كلا يومي ندى ووغى ... كالغيث في مجد وكالليث في أجم
مآثر تليت آثارها سوراً ... تقر بالحق فيها جملة الأمم
كأنه لم يسر في محفل لجب ... تضيق عنه بلاد العرب والعجم
ولم يباد العدا منه ببادرة ... بفتر منها الهدى عن ثغر مبتسم
ولم يجهز لهم خيلاً مضمرة ... لا تشرب الماء إلا من قليب دم
ولم يقم حكم عدل في سياسته ... تأوى رعيته منه إلى حرم
من كان يجهل ما أولاه من نعم ... وما حواه لدين الله من حرم
فتلك آثره في كل مكرمة ... أبدى وأوضح من نار على علم
لا زال تهمي على قبر تضمنه ... سحايب الرحمة الوكافة الديم
محمد بن عبد الله بن عبد الملك المعافري

محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر بن محمد ابن أبي الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، المنصور بن أبي عامر معظم الظفر، وخدن السعد، وملقي عصيي الجد، وجو رياح الشهرة، وديوان فنون السياسة، وحجاج الدولة العبشمية، في النخوم المغربية، المزي بالظرف وكمال السجية، والجهاد العظيم، العريق في بحبوحة بلاد الكفار، رحمه الله تعالى.

أوليته

دخل جده عبد الملك الأندلس مع طارق مولى موسى بن نصير في أول الداخلين من المغرب، وكان له في فتحها أثر جميلا. وإلى ذلك أشار مادحه محمد بن حسان:

وكل عدو أنت تهزم عرشه ... وكل فتوح عنك يفتح بابها
برأيك عبد المليك الذي له ... حلا فتح قرطبة وانتهابها

ونزل عبد الملك الجزيرة الخضراء لأول الفتح، فساد أهلها، وكثر عقبه بها، وتكررت فيهم النباهة، وجاوروا الخلفاء بقرطبة. وكان والد محمد هذا، من أهل الدين والعفاف والزهد في الدنيا والقعود عن السلطان. سمع الحديث، وأدى الفريضة، ومات منصرفاً عن الحج بإطرابلس.

حاله

كان هذا الرجل بكر الدهر، وفايدة الأيام، وبيضة العمر، وفرد الخلق في اضطراد السعد، وتملد العاجل من الحظ، حازماً، داهية، مشتملاً على أقطار السؤدد، هوياً إلى الأقاصي، وطموحاً، سوساً حمياً، مصطنعاً للرجال، جالباً للأشراف، مستميلاً للقلوب، مطبقاً المفاصل، مزيحاً للعلل، مستبصراً في الاستبداد، خاطباً جميل الذكر، عظيم الصبر، رحيب الذرع، طموح الطرف، جشع السيف، مهادي جياد العقاب والمثوبة، مهيباً، جزلاً، منكسف اللون، مصفر الكيف، آية الله جل جلاله في النصر على الأعداء ومصاحبة الظفر، وتوالى الصنع.

نباهته

قال المؤرخ، سلك سبيل القضاء في أوليته، مقتفياً آثار عمومته وخؤولته، يطلب الحديث في حداثته، وكتب منه كثيراً ولقي الجلة من رجاله، ثم صحب الخليفة الحكم متحزباً في زمرته، وولي له الأعمال من القضاء والإمامة، ثم استكفاه، فعدل عن سبيله، وصار في أهل الخدمة. ثم اختصه بخدمة أم ولده هشام، فزاد بخاصته لولي العهد، عزاً ومكانة من الدولة فاحتاج الناس إليه. وغشوا بابه، وبلغ الغاية من أصحاب السلطان معه، إسعاف، وكرم لقاء، وسهولة حجاب، وحسن أخلاق. فاستطار ذكره، وعمر بابه، وساعده الجد. ولما صار أمر المسلمين إليه، فبلغ التي لا فوقعها عزاً وشهرة.

الثناء عليه

قال: وفي الدولة العامرية، وأعين محمد على أمره، مع قوة سعده، بخصال مؤلفة لم تجتمع لمن قبله، منها الجود، والوقار، والجد والهيبة، والعدل والأمن، وحب العمارة، وتثمير المال، والضبط للرعية، وأخذهم بترك الجدل والخلاف والتشغب، من غير وهن في جبنه، وصحة الباطن، وشرح كل فضل، وجلب كل ما يوجب عن المنصور فيه.

غزواته وظهوره على أعدايه

واصل رحمه الله الغزو بنفسه، فيما يناهز خمسين غزوة، وفتح فيها البلاد، وخضد شوكة الكفر، وأذل الطواغيت وفض مصاف الكفار، وبلغ الأعماق، وضرب على العدو الضرايب، إلى أن تلقاه عظيم الروم بنفسه وأتحفه بإبنته في سبيل الرغبة في صهره، فكانت أحظى عقايله، وأبرت في الدين والفضل على ساير أزواجه، وعقد اثني عشر بروزاً إلى تلقي ملوك الروم القادمين عليه مصطهرين بإلحاح سيفه منكبين على لثم سريره.

شعره

ومما يؤثر من شعره:

رميت بنفسي هول كل عظيمة ... وخاطرت والحر الكريم يخاطر

وما صاحبي إلا جنان مشيع ... وأسمر خطى وأبيض باتر

ومن شيمتي أني على طالب ... أجود بمال لا تقيه المعاذر

وإني لزجاء الجيوش إلى الوغى ... أسود تلاقيها أسود خوادر

فسدت بنفسي أهل كل سيادة ... وكاثرت حتى لم أجد من أكاثر

وما شدت بنيانا ولكن زيادة ... على ما بني عبد المليك وعامر

رفعنا العلى بالعوالي سياسة ... وأورثناها في القديم معافر

وبلغ في ملكه أقطار المغرب، إلى حدود القبلة، وبمدينة فاس، إثر ولده المقلد فتح تلك الأقطار، ونهد أوليك الملوك الكبار.

دخوله غرناطة

قال صاحب الديوان في الدولة العامرية، وقد مر ذكر المصور، قومس الغرنجة بمدينة برشلونة: وهذه الأمة أكثر النصرانية جمعاً، وأوسعها، وأوفرها من الاستعداد، وما أوطئ من الممالك والبلاد، وفتح من القواعد، وهزم من الجيوش. وقفل المنصور عنها، وهو أطمع الناس في استسيصالها؛ ثم خصهم بصايفة سنة خمس وسبعين، وهي الثالثة عشر لغزواته؛ وقد احتفل لذلك، واستبلغ في النفير. واستوفى أتم الأبهة، وأكمل العدة، فجعل طريقه على شرقي الأندلس، لاستكمال ما هنالك من الأطعمة، فسلك طريق إلبيرة، إلى بسطة، إلى تدمير؛ وهزم في هذه الغزوات

بريل ملك فرنجة ونازل مدينة برجلونة؛ فدخلها عنوة يوم الاثنين النصف من صفر، سنة أربع وسبعين أو خمس بعدها.

قلت وفي دخول المنصور بجيشه بلد إلبيرة: ما يحقق دعوى من ادعى دخول المعتمدين من أهل الأندلس لذلك العهد، إذ كان يصحب المنصور في هذه الغزوة، من الشعراء المرتزقين بديوانه من يذكر؛ فضلاً عن ساير الأصناف على تدارة هذه الصنف من الخدام، بالنسبة للبحر الزاخر من غيرهم.

والذي صح أنه حضر ذلك، أبو عبد الله محمد بن حسين الطبني. أبو القاسم حسين بن الوليد، المعروف بابن العريف. أبو الوضاح بن شهيد. عبد الرحمن بن أحمد. أبو العلا صاعد بن الحسن اللغوي. أبو بكر زيادة الله بن علي بن حسن اليمني. عمر بن المنجم البغدادي. أبو الحسن علي بن محمد القرشي العباسي. عبد العزيز بن الخطيب المحرود. أبو عمر يوسف بن هارون الزيادي. موسى بن أبي طالب. مروان بن عبد الحكم بن عبد الرحمن. يحيى بن هذيل بن عبد الملك بن هذيال المكفوف. سعد بن محمد القاضي. ابن عمرون القرشي المرواني. علي النقاش البغدادي. أبو بكر يحيى بن أمية بن وهب. محمد بن إسماعيل الزبيدي صاحب المختصر في اللغة. أحمد بن دراح القسطلي متنبي الأندلس. أبو الفرج منيل بن منيل الأشجعي. محمد بن الحسن القرشي من أهل المشرق. أبو عبيدة حسان بن مالك بن هاني. طاهر بن محمد المعروف بالمهند. محمد بن مطرف بن شخيص سعيد بن عبد الله الشنتربني، وليد بن مسلمة المرادي، أغلب بن سعيد. أبو الفضل أحمد بن عبد الوهاب. أحمد بن أبي غالب الرصافي. محمد بن مسعود البلخي، عبادة بن محمد بن ماء السماء. عبد الرحمن بن أبي الفهد الإلبيري. أبو الحسن بن المضيئ البجلي الكاتب. عبد الملك بن سهل. الوزير عبد الملك بن إدريس الجزيري. قاسم بن محمد الجياني.

قال المؤرخ، هؤلاء من حفظته منهم. وهم أكثر من أن يحصوا، فعلى هذا يتبنى القياس في ضخامة هذا الملك، وانفساح هذا العز.

وفاته

توفي رحمه الله منصرفاً من غزاته المسماه بقنالش والريد، وقد دوخ أقطار قشتالة، ليلة الاثنين سبع وعشرين لرمضان عام اثنين وتسعين وثلاثمائة، وقد عهد أن يدفن ببلد وفاته، بعد وصية شهيرة صدرت عنه، إلى المظفر ولده، فدفن بمدينة سالم، التي بناها في نحر العدو من وادي الحجارة، وبقصرها. وقبره معروف إلى اليوم. وكان قد اتخذ له من غبار ثيابه الذي علاها في الجهاد. وعاء كبير بحديه رحمه الله. وكتب على قبره هذا الشعر:

آثاره تنبيك عن أخباره ... حتى كأنك بالعيان تراه

تا لله لا يأتي الزمان بمثله ... أبداً ولا يحمى الثغور سواه

محمد بن عطاف بن نعيم

محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل ابن قريش ابن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم، لخمي النسب

أوليته

دخل الأندلس جده عطاف مع بلج بن بشر القشيري، من أشراف الطالعة البلجية، وهم من عرب حمص من أرض الشأم، وموضعه بها يعرف بالعريش في آخر الجفار بين مصر والشأم. ونزل عطاف بقرية تعرف بيومين من إقليم طشانة على ضفة النهر الأعظم من أرض إشبيلية. ولما هلك قريش، ورث السيادة إسماعيل بن قريش، وهو القاضي

المشهور بالفضل والدهاء، وسكنى أبا الوليد. ولي الشرطة الوسطى لهشام بن الحكم، وخصة الإمامة إلى صلاة الجمعة. ثم خلفه أبو القاسم المنفرد برياسة إشبيلية، المتحف فيها بخطط الوزارتين والقضاء والمظالم. وعز جاهه، وكثرت حاشيته، وتعددت غلمانه، وأذعنت له عداته. ثم خلفه الأمير المعتضد ولده، وكان خيراً حازماً، سديد الرأي، مصنوعاً له في الأعداء، فلما توفي، تصير الأمر إلى ولده المترجم به، المكنى أبا القاسم إلى حين خلعه.

حاله

قالوا كلهم، كان المعتمد، رحمه الله، فارساً شجاعاً. بطلاً مقداماً، شاعراً ماضياً، مشكور السيرة في رعيته. وقال أبو نصر في قلائده وكان المعتمد على الله ملكاً قمع العدا، وجمع بين البأس والندا. وطلع على الدنيا بدر هدى. لم يتعطل يوماً كفه، ولا بنانه، آونة يراعه. وآوثة سنانه. وكانت أيامه مواسم، وثغوره بواسم. لقبه أولاً الظافر. ثم تلقب بالمعتمد. كلفاً بجاريته اعتماد، لما ملكها. لتتفق حروف لقبه بحروف اسمها. لشدة ولوعه بها.

وزراؤه

ابن زيدون. وابن عمار. وغيرهم.

أولاده المملكون

عبيد الله، يكنى أبا الحسن، وهو الرشيد، وهو الذي لم يوافق أباه على استصراخ المرابطين، وعرض بزوال الملك عنهم، فقال: أحب إلى أن أكون راعي إبل بالعدوة من أن ألقى الله، وقد حولت الأندلس دار كفر وكان قد ولاه عهده، وبويع له بإشبيلية، وهو المحمول معه إلى العدوة. ثم الفتح، وهو الملقب بالمأمون، كان قد بويع له بقرطبة، وهو المقتول بها، المحمل رأسه إلى محلة العدو المرابطين. المحاصرة لأبيه بإشبيلية. ثم يزيد الراضي، وكان قد ولاه رندة، فقتل لما ملكها المقونيون، ثم عبد الله. ويكنى أبا بكر. هؤلاء الأربعة من جاريته اعتماد السيدة الكبرى. والمدعوة بالرميكية منسوبة إلى مولاها رميك بن حجاج الذي ابتاعها منه المعتمد.

ملمته

لما تكالب أدفونش بن فردلاند على الأندلس بعد أخذه مدينة طليطلة ضيق بالمعتمد، وأجحف في الجزية، التي كان يتقي بها على المسلمين عاديته، وعلى ذلك أقسم أخذها وتجني عليه، وطمع في البلاد، فحكى بعض الإخباريين أنه وجه إليه رسله في آخر أمره لقبض تلك الضريبة، مع قوم من رؤساء النصارى، ونزلوا خارج باب إشبيلية، فوجه إليهم المال، مع بعض الوزراء، فدخلوا على اليهودي المذكور في خبايه، وأخرجوا المال، فقال لهم، لا أخذت منه هذا العيار ولا أخذت منه إلا ذهباً مشجراً، ولا يؤخذ منه في هذا العام إلى أجفان البلاد ونقل كلامه إلى المعتمد، فبادر بالقبض عليه وعلى النصارى، ونكل بهم، وقتل اليهودي بعد أن بذل في نفسه زنة جسمه ذهباً، فلم يقبل منه، واحتبس النصارى، وراسله الطاغية في إطلاقهم، فأبى غلا أن يخلي منه حصن الحدود، فكان ذلك. واستصرخ اللمتونيين، وأجاز البحر بنفسه وأقسم الطاغية بإيمائه المفلطة ألا يرفع عنه يده. وهاجت حفيظة المعتمد، واجتهد في جواز المرابطين، وكان مما هو معلوم من الإيقاع بالطاغية في وقعة الزلاقة فإنه الذي أثلى نارها بنفسه، فعظم بلاؤه، وشهر بلاؤه، وشهر صبره، وأصابته الجراح في وجهه ويده، رحمه الله. وفي ذلك يقول أبو بكر بن عبادة المري:

وقالوا كفه جرحت فقلنا ... أعاديه تواقعها الجراح

وما لمرتد الجراحة ما رأيتم ... فتوهنها المناصل والرماح

ولكن فاض سيل البأس منها ... ففيها من مجاريه انسياح

وقد صحت وسحت بالأماني ... وفاض الجود منها والسماح
رأى منه أبو يعقوب فيها ... عقاباً لا يهاض له جناح
فقال له لك القدح المعلى ... إذا ضربت بمشهدك القداح

ولما اتصلت به الصيحة؛ بين يدي دخول المدينة، ركب في أفراد من عبيده؛ وعليه قميص يشف عن بدنه، والسيف منتضي بيده، ويممم باب الفرج، فقدم الداخلين فردهم على أعقابهم؛ وقتل فارساً منهم؛ فانزعجوا أمامه؛ وخلفوا الباب؛ فأمر بإغلاقه؛ وسكنت الحل؛ وعاد إلى قصره. وفي ذلك يقول:

إن يسلب القوم العدا ... ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه ... لم تلم القلب الضلوع
قد رمت يوم نزالهم ... ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميص عن الحشاشيئ دفوع
أجل تأخر لم يكن ... بهوادي ذني والخضوع
ما سرت قط إلى القتال ... وكان من ملي الرجوع
شيم الأولى أنا منهم ... والأصل تتبعه الفروع

جوده

وأخبار جوده شهير، ومما يؤثر من ذلك، على استصحاب حال العز، ووفور ذات اليد، وأدوات الملك؛ غيب، والشاهد المقبول بقاء السدية ومصاحبة الخلق الملكية؛ مع الغقتار والإيسار؛ وتقلب الأطوار، وتعرض له الحصرى القرموني الضرير بخارج طنجة؛ وهو يجتاز عليها في السواحل من قهر واعتقال؛ بأشعار ظاهرة المقت، غير لايقة بالوقت؛ ولم يكن بيده زعموا غير ثلاثين ديناراً كانت بخفه، معدة لضرورة وأزمة، وأطبع عليها دمه، وأدرج قطعة شعر طيها اعتذار عن نزرها، راغباً في قبول أمرها، فلم يراجعه الحصري بشيء عن ذلك، فكتب إليه:

قل لمن جمع العلم ... وما أحصى صوابه
كان في الصرة شعر ... فانتظرنا جواره
قد أتيناك فهلأ ... جلب الشعر جوابه

حلمه

رفع إليه صدر دولته شعر، أغرى فيه، بأبي الوليد بن زيدون، وهو شهير، وتخير له موقع وترصد حين، وانتظر به مؤجره، وهو:

يا أيها الملك الأعز الأعظم ... أقطع وريدي كل باغ يسلم
واتحسم بسيفك كل منافق ... يبدي الجميل وضد ذلك يكتم
لا تتركن للناس موضع شبهة ... وأحزم فمثلك في العظائم يحزم
قد قال شاعر كندة فيما مضى ... قولاً على مر الليالي يعلم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

فوقع على الرقعة:

كذبت مناكم صرحوا أو جمجموا ... الدين أمتن والسجية أكرم
خنتم ورمتم أن أخون وإنما ... حلولتم أن يستخف بلملم

وأردتم تضييق صدر لم يضق ... والسمر في صدر النحور تحطم
وزحفتم بمحالكم لمجرب ... ما زال يثبت للمحال فيهزم
أتى رجوتم غدر من جربتم ... منه الوفاء وظلم من لا يظلم
أنا ذا كم لا السعي يثمر غرسه ... عندي ولا مبني الصنيعة يهدم
كفوا وإلا فارقبوا لي بطشة ... يبقى السفيه بمثلها يتحلم
توقيعه ونثره في البديهة

كتب مع الحمايم إلى ولده الرشيد عق ب الفراغ من وقعة الزلاقة.
يا بني، ومن أبقاه الله وسلمه، ووقاه الأسواء وعصمه. وأسبغ عليه آلاءه وأنعمه كتبته، وقد أعز الله الدين، وأظهر المسلمين، وفتح لهم على يدي مستدعيات الفتح المبين، بما يسره الله في أمسه وسناه، وقدره سبحانه وقضاه، من هزيمة أدفونش ابن فردلند لعنه الله وأصلاه، وإن كان طاح للجحيم، ولا أعدمه وإن كان أهل العيش الذميم، كما قنعه الخزي العظيم. وأتى القتل على أكثر رجاله وجماته، واتصل النهب ساير اليوم، والليلة المتصلة به، جميع محلاته، وجمع من رؤوسهم بين يدي، من مشهوري رجالهم، ومذ كوري أبطالهم، ولم يختر منهم إلا من شهر وقرب، وامتلأت الأيدي مما سلب ونهب. والذي لا مرية فيه، أن الناجي منهم قليلش، والمفلت من سيوف الجزع والبعد قتيل، ولم يصبني بفضل الله إلا جرح أشو، وحسن الحال عندنا والله وزكى، ولا يشغل بذلك بال، ولا يتوهم غير الحال التي أشرت إليها حال، والأدفونش بن فرذلاند، إن لم يصبح تحت السيوف فسيموت لا محالة كمداً، وإن كان لم تعلقه أسراد الحمام فغداً، فإن برأسه طمرة ولحام. فإذا ورد كتابي هذا، فمر بجمع الخاص والعم، من أهل إشبيلية، وجيرانها الأقربين، وأصفيائنا المحبين، في المسجد الجامع، أعزهم الله. وليقرأ عليهم فيه، ليأخذوا من المسرة بأنصبايهم، ويضيفوا شكراً لله إلى صالح دعايهم والحمد لله على ما صنع حق حمده جل المزيد لأمر حين، إلا من عنده. والسلام.
تلطفه وظرفه
قال أبو بكر الداني: سألني في بعض الأيام عند قدومي عليه بأغمات، قاضياً حق نعمته، مستكثراً من زيارته، مستمتعاً برايق أدبه، على حال محنته، عن كتبي، فأعلمته بذهابيها في نهب حضرته. وكنت قد جلبت في سفرتي تلك، الأشعار الستة، بشرح الأستاذ أبي الحجاج الشنتمري الأعلم، وكانت مستعارة، فكتمتها عنه. ووشي إليه أحد الأصحاب. فخجل بكرمه وحسن شيمته، من الأخذ معي في ذكر ما كتمته، فاستطرد إلى ذلك بغرض نبيل، ونحا فيه نحواً، يعرب عن الشرف الأصيل، وأملى علي في جملة ما كان يمليه:
وكواكب لم أدر قبل وجوهها ... أن البدور تدور في الأزرار
نادمتها في جنح ليل دامس ... فأعرنه مثلاً من الأنوار
في وسط روضة نرجس كعيونها ... ما أشبه النوار بالنوا
فإذا وصفنا الحديث حسبتني ... ألهو بملتقط الدر نثار
فإذا اكتحلت برق ثغر باسم ... سكبت جفوني أغزر الأمطار
حذر الملام وخيفة من جفوة ... تذر الصدور على شفير هار
ترك الجواري الآنسات مذاهبي ... وسولها ظفر بريشة الأشعار
فلم أمالك عند ذلك ضحكاً، وعلمت أن الأمر قد سرى إليه، فأعلمته قصتها، فبسط العذر بفضله. وتأول الأمر

وقسم الأشعار على ثلاثة من بنيه. ذوي خط رائع، ونقل حسن. وأدب بارع. أخذوا في نسخها. وصرفوا الأصل لأجل قريب.

محنته

ولم يلبث أمير الملمتونيين بعد جوازه إلى الأندلس، وظهوره على طايفة الروم، أن فسد ما بينه وبين رؤساء الطوائف بالأندلس، وعزم على خلعهم. فأجاز من سبتة العساكر، وضرب الأمداد. وأخذ المعتمد بالعزم يحصن حصونه، وأودع المعاقل عدته، وقسم على مظان الامتناع ولده، وصمدت الجموع صمدة بنيه، ونازل الأمير سير إشبيلية، دار المعتمد، وحضرة ملكه، ونازل الأمير محمد بن الحاج قرطبة، وبها المأمون، ونزل جرور من قواده رندة، وبها الراضي ابن المعتمد. واستمر الأمر، واتصلت المحاصرة، ووقعت أمور يضيق الكتاب عن استقصايها. فدخلت قرطبة في جمادى الآخرة عام أربع وثمانين وأربعمائة، وقتل الراضي، وجلب رأسه فطيف به بمرأى من أبيه. وكان دخول إشبيلية على المعتمد، دخول القهر والغلبة، يوم الأحد لعشر بقين من رجب. وشملت الغارة. واقتحمت الدور، وخرج ابن عباد في شكته. وابنه مالك في أمته معيماً فقتل مالك الملقب بفخر الدولة ورهقت الخيل، وكثر، فدخل القصر ملقياً بيده. ولما جن الليل، وجه ابنه الأكبر الرشيد إلى الأمير، فحجب عنه، ووكل بعض خدمه به، وعاد إلى المعتمد فأخبره بالإعراض عنه، فأيقن بالهلكة، وودع أهله وعلا البكاء، وكثر الصراخ، وخرج هو وابنه، فأنزلا في خباء حصين، ورقبا بالحرس، وأخرج الحرم من قصره، وضم ما اشتمل عليه، وأمر بالكتب إلى ولده برندة ففعل. ولما نزل، واستوصلت ذخيرته، سلا، وأجيز المعتمد البحر. ومن معه إلى طنجة. فاستقر بها في شعبان من العام. وفي هول البحر عليه في هذا الحال، يقول رحمه الله:

لم أنس والموت يدنيني ويقصيني ... والموت كأن المني يأتيني
أبصرت هولاً لو أن الدهر أبصره ... لما خوفا لأمر ليس بالدون
قد كنت ضاناً بنفس لا أجود بها ... فبعتها باضطرار بيع مغبون
كم ليلة بت مطوياً على حرق ... في عسر من عيون الدبر في العين
فتلك أحسن أم ظلت به ... في ظل عزة سلطان وتمكين
ولم يكن والذي تعنو الوجوه له ... عرضى مهاناً ولا مالي بمخزون
وكم خلوت من الهيجا بمعترك ... والحرب ترفل في أثوابها الجون
يا رب إن لم تدع حالاً أسر به ... فهب لعبدك أجراً غير ممنون

وجرى على بناته شيء يوم خروجهن، وأضطرهن الضيعة إلى معيشتهن من غزل أيديهن، وجرت عليه محن طال لها شجنه وأقعده قيده. إلى أن نقل إلى أغمات وريكة، وحل عنه الاعتقال، وأجرى عليه رزقه، تبلغ به لمدة من أعوام أربعة، واستنقذه حمامه، رحمة الله عليه.

وصوله إلى غرناطة

قال ابن الصيرفي وقد أجرى ذكر تملك يوسف بن تاشفين غرناطة، وخلع أميرها عبد الله بن بلقين حفيد باديس، يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من رجب عام ثلاثة وثمانين: ولحق ابن عباد وحليفة ابن مسلمة بخيل ورجل ورماة وعدد، وحل ذلك من ابن عباد تضمناً لمسرة أمير المسلمين، وتحققاً موالاته، فدخلا عليه، وهنياه، وقد تحكمت في نفس ابن عباد الطماعية في إسلام غرناطة إلى ابنه، بعد استصفاء نعمة صاحبها، عوضاً عن الجزيرة الخضراء، وكان

قد أشخصه معه، فعرض بغرضه، فأعرض أمير المسلمين عن الجميع إعراضاً، كانت منية كل منهما التخلص من يده، والرجوع إلى بلده. فأعمل ابن عباد الحيلة. فكتب، يزعم أنه وردت عليه تحثه من إشبيلية في اللحاق، أثناء مهمة طرقت بتحرك العدو، واستأذن بها في الصدور، فأخذ له ولخليفه ابن مسلمة، فانتهزا الفرصة، وابتدرا الرجعة. ولحق كل بموضعه يظن أنه ملك رياسة أمره.

مولده

ولد المعتمد على الله بمدينة باجة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة. وولي سنة إحدى وستين. وخلع سنة أربع وثمانين.

وفاته

كانت وفاة المعتمد على الله بأعمات في ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، بعد أن تقدمت وفاته وفاة الحرة اعتماد. وجزع عليها جزعاً، أقرب سرعة لحاقه بها. ولما أحس بالمنية رثى نفسه بهذه الأبيات وأمر أن تكتب على قبره:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي ... حقاً ظفرت بأسلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت ... بالخصب أن أجدبوا بالري لصادي

بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا ... بالموت أحمر بالضرغامة العادي
بالدهر في نقم بالبحر في نعم ... بالبدر في ظلم بالصدر في النادي
نعم هو الحق فاجأني على قدر ... من السماء ووافاني لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه ... أن الجبال تهادي فوق أعواد
كفاك فارفق بما استودعت من كرم ... رواك كل قطوب البرق رعاد
يبكي أخاه الذي غيبت وابله ... تحت الصفيح بدمع رائح غادي
حتى يجودك دمع الضل منهمراً ... من أعين الزهر لم تبخل بإسعاد
فا تزل صلوات الله نازلة ... على دفينك لا تحصى بتعداد

بعض ما رثي به

قال ابن الصيرفي، وخالف في وفاة المعتمد. فقال: كانت في ذي حجة. فلما انفصل الناس من صلاة العيد. حف بقبره ملأ، يتوجعون ويترحمون عليه، وأقبل ابن عبد الصمد، فوقف على قبره وأنشد:

ملك الملوك أسامع فأنادي ... أم قد عدتك عن السماع عوادي
لما خلت منك القصور فلم تكن ... فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعاً ... وتخذت قبرك موضع الإنشاد

ثم خر يبكي ويقبل القبر ويعفر وجهه في التراب، فبكى ذلك الملأ حتى أخضلوا ملابسهم، وارتفع نشيجهم فلله در ابن عبد الصمد، وملاذ ذلك البلد.

محمد بن مردنيش الجذامي

محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش الجذامي قال بعضهم ينتمي في تجيب الأمير أبو عبد الله.

أوليته

معروفة، وعلى يد أبيه جرت الوقيعة الكبرى بظاهر إفراغة. على ابن رذمير الطاغية، فجلت الشهرة، وعظمت الأثرة، قال بعضهم، تولى أبوه سعد قيادة إفراغة وما إليها. وضبطها. ونازلها ابن رذمير. فشهر غناؤه بها في دفاعه. وصبره على حصاره، إلى أن هزمه الله عز وجل، على يدي ابن غانيه. وظهر بعد ذلك فحسن بلاؤه. وبعد صيته. ورأس ابنه محمد، ونفق في القته. وكان بين هوبين ابن عياض المتأمر بمرسية صهر، ولاه لأجله بليسة. فلما توفي ابن عياض، بادرها ابن سعد، وبلغه أثناء طريقه، غدر العدو بحصن جلالن فكر وقاد له وفتحه. وعاد فملك بلنسية، وقد ارتفع له صيت شهير، ثم دخلت مرسية في أمره، واستقام له الشرق. وعظمت حاله.

حاله

قال ابن حمامة، ساد من صغره بشجاعته ونجابته، وصيت أبيه، فمال بذلك إلى القيادة. وسنه أحجى وعشرون سنة، ثم ارتقى إلى الملك الراسخ، والسلطان الشامخ، بباهر شجاعته وشهامته. فسما قدره. وعظم أمره. وفشي في كل أمة ذكره.

قال غيره، كان بعيد الغور، قوي الساعد أصيل الرأي. شديد العزم، بعيد العفو، مؤثراً للانتقام، مرهوب العتوبة. قوال في مختصر ثورة المريدين كان عظيم القوة في جسمه، ذا أيد في عظمته. جزارة في لحمه، وكان له فروسية، وشجاعة، وشهامة، ورياسة.

بطالته وجوده

قال وكان له يومان في كل جمعة. الاثنين والخميس، يشرب مع ندمايه فيهما، ويجود على قواده، وخاصته وأجناده، ويذبح البقر فيهما، ويفرق لحومها على الأجناد، ويحضر القيان بمزاميرهن وأعوادهن، ويتخلل ذلك لهو كثير، حتى ملك القلوب من الجند، وعاملوه بعاية النصح، وربما وهب المال في مجالس أنسه. ذكر أنه ستدعى يوماً ابن الأزرق أحد قواده، فشرب معه ومع القرابة، في مجلس قد كسان بأحمر الوشي والوطئ والآنية من الفضة وغيرها، وتمادى في لهو وشراب عامة اليوم. فلما كمل نهاره معهم، وهبهم الآنية. وكل ما كان في المجلس من الوشي أو غير ذلك.

ما نقم عليه ووصم به

قالوا: كان عظيم الانهماك في ميدان البطالة، واتخذ جملة من الجواري. فصار يراقد منهن جملة تحت لحاف واحج. وانهمك في حب القيان، والزمر والرقص. قالوا: وكان له فتى اسمه حسن، ذو رقبة سمينة، وقفاً عريض، فإذا شرب، كان يرزه، ويعطيه بعد ذلك عطاء جزيلاً. وفي ذلك يقول كاتبه المعروف بالسالمي، وكان يحضر شرابه. ويخمر.

أدر كؤوس المدام والرز ... فقد ظفرنا بدولة العز

نعم ما لكف من قفا حسن ... فإنها في ليانة الخز

وصاحب إن طلبت أخدعه ... فلم يكن في بذله بمعتز

انحنى على أخذاعي فاطربني ... وهز عطفي أيما هز

وأجزل صلة السالمي حين أنشدها إياه، واشتهرت هذه الأبيات بالشرق، واستظرفها الناس. فرد مرسية دار مجونه، وبلغ في زمانه ألفا وأربعين. وآثر زي النصارى من الملابس، والسلاح، واللجم، والسروج. وكلف بلسانهم بتكلم مباهتة، وألجأه الخروج عن الجماعة. والانفراد بنفسه إلى الاحتماء بالنصارى، ومصانعتهم، والاستعانة بطواغيتهم. فصالح صاحب برشلونة لأول أمره على ضرية. وصالح ملك قشتالة على أخرى. فكان يبذل لهم في السنة خمسي ألف مثقال. وابتنى لجيشه من النصارى منازل معلومات وحانات للخمور، وأجحف برعيته، لأرزاق من استعان به منهم، فعظمت في بلاده المغارم وثقلت، واتخذ حوانيت بيع الأدم والمرافق، تخنتنق بجانبه، وجعل على الأغنام

وعروض البقر، مؤناً غريبة. وأما رسوم الأعراس والملاهي فكانت قبالاتها غريبة. حدث بعض المز رخين عن الثقة، قال كنت بجيان مع الوزير أبي جعفر الوقشي، فوصل إليه رجل من أهل مرسية، كان يعرفه، فسأله الوزير عن أحوال ابن مردنيش وعن سيره فقال الرجل، أخبرك بما رأيته من جور عماله وظلمهم. وذلك أن أحد الرعية بشاطبة واسمه محمد بن عبد الرحمن، كان له بنظر شاطبة، ضويعة يعيش بها، وكان لازمها أكثر من فايدها، فأعطى لازمها حتى افتقر، وفر إلى مرسية. وكان أمر ابن مردنيش، أنه من فر من الرعية أمام الغزو، أخذ ماله للمخزن. قال الرجل الشاطبي، فلما وصلت إلى مرسية فاراً عن وطني، وخدمت الناس في البنيان، فاجتمع لي مثقالان سعديان، فبينما أنا أمشي في السوق. وإذا بقوم من أهل بلدي شاطبة، ومن قرابتي، فسألتهم عن أولادي وزوجتي، فقالوا إنهم باقية بيد أولادك، فقلت لهم عسى تبيتوا عندي الليلة، فاشتريت لحماً وشراباً، وضربنا دفاً. فلما كان عند الصباح، وإذا بنقر عنيف بالباب. فقلت من أنت؟ فقال أنا الطرقون الذي بيده قبالة اللهو، وهي متفقة بيدي، وأنتم ضربتم البارحة الدف فأعطنا حق العرس الذي عملت. فقلت له والله ما كانت لي عرس. فأخذت وسجنت. حتى افتديت بمثقال واحد من الذي خدمت به. وجئت إلى الدار. فقيل لي أن فلاناً وصل من شاطبة الساعة. فمشيت لأسأله عن أولادي. فقال تركتهم في السجن. وأخذت الضويعة من أيديهم في رسم الجبالى، فرجعت إلى الدار. إلى قرابتي. وعرفتهم بالذي طرأ علي. وبكيت طول ليلتي، وبكوا معي. فلما كان من الغد. وإذا بناقر بالباب. فخرجت فقال أنا رجل صاحب المواريث. أعلمنا أنكم بكيتم البارحة. وأنه قد مات لكم ميت من قرابتكم غني. وأخذتم كل ما ترك. فقلت والله ما بكيت إلا نفسي، فكذبني وحملني إلى السجن، فدفعت المثقال الثاني، ورجعت إلى الدار وقلت أخرج إلى الوادي، إلى باب القنطرة، أغسل ثيابي من درن السجن، وأفر إلى العدوة فقلب لإمرأة تغسل الثياب، إغسلي مما علي. وجردتها. ودفعت لي زناراً ألبسه. فبينا أنا كذلك. وإذا بالخصى قائد ابن مردنيش يسوق ستين رجلاً من أهل الجبل، لابس الزنانير. فرآني على شكلهم، فأمر بحملي إلى السخرة والخدمة بحصن مسقوط عشرة أيام. فلبثت أخدم وأحضر مدة عشرة أيام، وأنا أبكي واشتكي للقايد المذكور، حتى أشفق علي وسرحني. فرجعت أريد مرسية، فقيل لي عند باب البلد، كيف أسمك فقلت محمد بن عبد الرحمن، فأخذني الشرطي، وحملت إلى القابض بباب القنطرة. فقالوا هذا من كتبته من أرباب الحالي بكذا وكذا دينار. فقلت والله ما أنا إلا من شاطبة. وإنما إسمي وافق ذلك الاسم، ووصفت له ما جرى علي، فأشفق وضحك مني؛ وأمر بتسريحي فسرت على وجهي إلى هنا.

بعض الأحداث في أيامه

ونبذ من أخباره

استولى على بلاد الشرق، مرسية وبلنسية وشاطبة ودانية، ثم اتسع نطاق ملكه، فولي جيان وأبدة وبياسة، وبسطة ووادي آش، وملك قرمونة، ونازل قرطبة وإشبيلية، وكاد يستولي علة جميع بلاد الأندلس. فولي صهره ابن همشك، وقد مر في باب إبراهيم، مدينة جيان وأبدة وبياسة، وضيق منها على قرطبة، واستولى على إستجة، ودخل غرناطة سنة سبع وخمسين وخمسماية وثار عليه يوسف بن هلال من أصهاره بحصن مطرنيش وما إليه. ثم تفاسد ما بينه وبين صهره الآخر ابن همشك. فكان سبب إدبار أمره، واستولى العدو في مدة ابن سعد على مدينة طرطوشة عام ثلاثة وأربعين وخمسماية، وعلى حصن إقليج. وحصن شرانية.

دخوله غرناطة ولما دخل ابن همشك مدينة غرناطة، وامتنعت عليه قصبتها، وهزم الجيش المصرخ لمن حصر بها من

الموحدين بمرج الرقاد وثاب أثناء ذلك أمر الموحدين. فتجهز لنصرهم السيد أبو يعقوب. وأجار البحر. واجتمعوا بالسيد أبي سعيد بمالقة. استمد ابن همشك صهره الأسعد أبا عبد الله محمد بن سعد، فخرج بنفسه في العسكر الكبير من أهل الشرق والنصارى. فوصل إلى غرناطة، واضطربت محلته بالربوة السامية المتصلة برابض البيازين. وتعرف إلى اليوم بكدية مردنيش وتلاحق جيش الموحدين بأحواز غرناطة. فأبيتوا جيش عدوهم، فكانت عليه الدبر، وفر ابن مردنيش فلحق بجيان، واتصلت عليه الغلبة من لدن منتصف عام ستين فلم يكن له بعده ظهور. وفاته وظهر عليه أمر الموحدين، فاستخلصوا معظم ما بيده، وأوقعوا بجنده الوقايع العظيمة. وحصر بمدينة مرسة، واتصل حصاره، فمات أثناء الحصار في عشر رجب من عام سبعة وستين وخمسماية وله ثمانية وأربعون عاماً، ووصل أمره أبو القمر هلال، وألقى باليدين إلى الموحدين، فنزل على عهد ورسوم حسيما يأتي في موضعه.

محمد بن يوسف بن هود الجذامي

أمير المسلمين

بالأندلس، يكنى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب السلطانية بالمتوكل على الله.

أوليته

من ولد المستعين بن هود. وأوليتهم معروفة، ودولتهم مشهورة، وأمراؤهم مذكورون. خرج من مرسية تاسع رجب عام خمسة وعشرين وستماية إلى الصخور من جهاتها في نفر يسير من الجنود معه وكان الناس يستشعرون ذلك. ويرتقبون ظهور مسمى باسمه واسم أبيه، ويندون. بإخرته وسلطانه. وجرى عليه بسبب ذلك امتحان في زمن الموحدين مرات، إذ كان بعض الهاتفين بالأمور الكاينة، والقضايا المستقبلة، يقول لهم، يقوم عليكم قايم من صنف الجند، اسمه محمد بن يوسف. فقتلوا بسبب ذلك شخصاً من أهل جيان. ويقال إن شخصاً ممن ينتحل ذلك، لقي ابن هود، فأمعن النظر إليه، ثم قال له أنت سلطان الأندلس، فانظر لنفسك، وأنا أدلك على من يقيم ملكك، فاذهب إلى المقدم الغشتي فهو القايم بأمرك. وكان الغشتي رجلاً صعلوكاً يقطع الطريق، وتحت يده جماعة من أنجاد الرجال، وسباع الشرار، قد اشتهر أمرهم، فنهض إلى المقدم، وعرض عليه الأمر، وقال نستفتح بمغاورة إلى أرض العدو، على اسمك وعلى سعدك، ففعلوا، فجلبوا كثيراً من الغنايم والأسرى، وانضاف إلى ابن هود طوايف مثل هؤلاء، وبايعوه بالصخيرات كما ذكر، من ظاهر مرسية، وتحرك إليه السيد أبو العباس بعسكر مرسية، فأوقع به وشرده، ثم ثاب إليه ناسه، وعدل إلى الدعاء للعباسيين، فتبعه اللفيف، ووصل تقليد الخليفة المستنصر بالله ببغداد، فاستنصر الناس في دعوته، وشاع ذكره، وملك القواعد، وجيش الجيوش، وقهر الأعداء، ووفي للغشتي بوعده، فولاه أسطول إشبيلية، ثم أشطول سبتة، مضافاً إلى أمرها، وما يرجع إليه، فصار به أهلها بعد وخلعوه، وفر أمامهم في البحر، وخفي أثره إلى أن تحقق استقراره أسيراً في البحر بغرب الأندلس، ودام زماناً، ثم تخلص في سن الشيخوخة، ومات برباط آسفي.

حاله

كان شجاعاً، ثبتاً، كريماً حيياً، فاضلاً، وفياً، متوكلاً عليه، سليم الصدر، قليل المبالاة، فاستعلى لذلك عليه ولاته بالقواعد، كأبي عبد الله بن الرميمي بألمرية، وأبي عبد الله بن زنون بمالقة، وأبي يحيى عتبة بن يحيى الجزولي بغرناطة. وكان مجدوداً، لم ينهض له جيش. ولا وفق لرأي، لغلبة الخفة عليه، واستعجاله الحركات، ونشاطه إلى اللقاء، من

غير كمال استعداد.

بعض الأحداث في أيامه

جرت عليه هزائم منها هزيمة السلطان الغالب بالله إياه مرتين، إحداهما بظاهر إشبيلية، وركب البحر فنجا بنفسه. ثم هزمه بإلبيرة من أحواز غرناطة، زعموا ذلك في سنة أربع وثلاثين وستماية أو نحوها.

وفي سنة خمس وثلاثين كان اللقاء بينه وبين المأمون إدريس أمير الموحدين بإشبيلية، فهزمه المأمون أقبح هزيمة، واستولى على محلته، ولاذ منه بمدينة مرسية.

ثم شغل المأمون الأمر، وأهمته الفتنة الواقعة بمراكش، فصرف وجهه إليها وثاب الأمر للمتوكل، فدخلت في طاعته ألمرية، ثم غرناطة، ثم مالقة. وفي سبع وعشرين وستماية، تحرك بفضل شهامته بجيوش عظيمة، لإصراخ مدينة ماردة، وقد نازلها العدو وحاصر، ولقي الطاغية بظاهرها، فلم يتأن زعموا، حتى دفع بنفسه العدو، ودخل في مصافه. ثم لما كر إلى ساقته، وجد الناس منهزمين لما غاب عنهم، فاستولت عليه هزيمة شنيعة. واستولى العدو على ماردة بعد ذلك.

وفتح عليه في أمور منها تملكه إشبيلية سنة تسع وعشرين وستماية، وولي عليها أخاه الأمير أبا النجاة سالماً الملقب بعماد الدولة. في سنة إحدى وثلاثين. رجعت قرطبة إلى طاعته، واستوسق أمره. وتملك غرناطة ومالقة عام خمسة وعشرين وستمائة، ودانت له البلاد. وفي العشر الأول من شوال. دخل في طاعته الريسان أبو زكريا، وأبو عبد الله، إبنا الرئيس أبي سلطان عزيز بن أبي الحجاج بن سعد. وخرجا عن طاعة الأمير أبي جميل، وأخذا البيعة لابن هود على ما في أيديهما. وفي سنة ست وعشرين وستمائة، تملك الجزيرة الخضراء عنوة، يوم الجمعة التاسع لشعبان من العام. وفي العشر الوسط من شوال ورد عليه الخبر ليلاً بقصد العدو وجهة مدينة وادي آش. فأسرى ليله مسرجاً بقية يومه، ولحق بالعدو على ثمانين ميلاً، فأتى على آخرهم ولم ينج منه أحد.

أخوته

الرئيس أبو النجاة سالم، وعلامته وثقت بالله، ولقبه عماد الدولة، والأمير أبو الحسن عضد الدولة، وأسره العدو في غارة، وافتكه بمال كثير، والأمير أبو إسحاق شرف الدولة. وكلهم يكتب عنه، من الأمير فلان.

ولده

أبو بكر الملقب بالواثق بالله، أخذ له البيعة على أهل الأندلس. في كذا، وولي بعده ولي عهده، واستقل بملك مرسية. ثم لم ينشب أن هلك..

دخوله غرناطة

دخل غرناطة مرات عديدة، إحداها في سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وقد وردت عليه الراية والتقليد من الخليفة العباسي ببغداد. وبمصلى غرناطة، قرئ على الناس كتابه، وهو قايم، وزيه السواد، ورايته السوداء بين يديه، وكان يوم استسقاء، فلم يستتم على الناس قراءة الكتاب يومئذ، إلا وقد جادت السماء بالمطر، وكان يوماً مشهوداً، وصنعاً غريباً، وأمر بعد انصرافه، أن يكتب عنه بتلك الألقاب التي تضمنها الكتاب المذكور إلى البلاد.

وفاته

اختلف الناس في سبب وفاته، فذكر أنه قد عاهد زوجه ألا يتخذ عليها امرأة طول عمره، فلما تصير إليه الأمر، أعجبته رومية حصلت له بسبب السبي من أبناء زعمائهم، من أجمل الناس، فسترها عند ابن الرميمي خليفته،

فزعموا أن الن الرميمي علق بها. ولما ظهر حملها خاف افتضاح القصة، فدبر عليه الحيلة، فلما حل بظاهر ألمرية، عرض عليه الدخول إليها، فاغتاله ليلاً، بأن أقعد له أربعة رجال، قضوا عليه خنقاً بالوسايد. ومن الغد داعي أنه مات فجأة، ووقف عليه العدول، والله أعلم بحقيقة الأمر سبحانه. وكانت وفاته ليلة الرابع والعشرين من جمادى الآخرة عام خمسة وثلاثين وستماية. وفي إرجاف الناس بولاية ابن هود، والأمر قبل وقوعه، يقول الشاعر:

همام به زاد الزمان طلاقة ... ولذت لنا فيه الأماني موردا

فقل لبني العباس ها هي دولة ... أغار بها الحق المبين وأنجدا

فإن الذي قد جاء في الكتب وصفه ... بتمهيد هذي الأرض قد جاء فاهتدا

فإن بشرتنا بابن هود محمد ... فقد أظهر الله ابن هود محمدا

محمد بن أحمد الغافقي

محمد بن أحمد بن زيد بن أحمد بن زيد بن الحسن بن أيوب ابن حامد بن زيد بم منخل الغافقي يكنى أبا بكر من أهل غرناطة. وسكن وادي آش

أوليته

أصل هذا البيت من إشبيلية، وذكره الرازي في الاستيعاب، فقال، وبإشبيلية بيت زيد الغافقي، وهم هناك جماعة كبيرة، فرسان ولهم شرف قديم، وقد تصرفوا في الخدمة. بلديون، ثم انتقلوا إلى طليطلة، ثم قرطبة، ثم غرناطة. وذكر الملأحي في كتابه، الحسن بن أيوب بن حامد بن زيد ابن الحسن هو المقتول يوم قيام بني خالد، بدعوة السلطان أبي عبد الله الغالب بالله بن مصر، وكان عامل المتوكل على الله بن هود بها، وعمن جمع له بين الدين والفضل والمالية.

حاله ونباهته وحنته ووفاته

كان هذا الرجل عيناً من أعيان الأندلس، وصدراً من صدورها. نشأ عفاً متصاوناً عزوفاً، وطلاوة نزيهاً أبياً كريم الخؤولة، طيب الطعمة، حر الأصالة، نبيه الصهر. ثم استعمل في الوزارة ببلده، ثم قدم على من به من الفرسان، فأوردهم الموارد الصفية بإقدامه، واستباح من العدو الفرصة، وأكسبهم الذكر والشهرة، وأنفق في سبيل الله، إلى غضاضة الإيمان، وصحة العقد، وحسن الشيعة، والاسترسال في ذكر التواريخ، والأشعار الجاهلية، والأمثال، والتمسك بأسباب الدين، وسحب أذيال الطهارة، وهجر الخبايث، وإيثار الجد، والانحطاط في هوى الجماعة.

مشيخته

قرأ بغرناطة على شيخ الجماعة أبي عبد الله بن الفخار، وببلده على الأستاذ أبي عبد الله الطرسوني، وبه انتفاعه، وكان جهوري الصوت، متفاضلاً، قليل التهيب في الحفل. ولما حدث بالسلطان أبي عبد الله من كياد دولته، وتلاحق بوادي آش مفلتاً، قام بأمره، وضبط البلد على دعوته، ولم المداهنة في أمره، وجعل حيل عدوه دبر أذنه، إلى أن خرج عنها إلى العدوة، فكان زمان طريقه مفدياً له بنفسه، حتى لحق بمأمنه، فتركها مغربة.

خبر في وفاته ومعرجه

وكانت الحمد لله على محمده، واستأثر به الداخل، فشد عليه يد اغتباطه، وأغرى به عقد ضنانته، وخلطه بنفسه، ثم أغرى به لمكانته من الشهامة والرياسة، فتقبض عليه، وعلى ولده، لباب بني وقته، وغرة أبناء جنسه، فأودعهما مطبق أرباب الجرايم، وهم باغتيالهما، ثم نقلهما إلى مدينة المنكب ليلة المنتصف لمحرم من عام اثنين وستين وسبعمائة في

جملة من النبهاء، مأخوذين بمثل تلك الجريرة ثم صرف الجميع في البحر إلى بجاية، في العشر الأول لربيع الأول مصفدين. ولما حلوا بها، أقاموا تحت بر وتجلة؛ ثم ركبوا البحر إلى تونس، فقطع بهم أسطول العدو بأحواز تكرنت، ووقعت بينه وبين المسلمين حرب، فكرم مقام المترجم يومئذ، وحسن بلاؤه. قال المخبر، عهدي به، وقد سل سيفاً، وهو يضرب بالعدو ويقول، اللهم اكتبها لي شهادة. واستولى العدو على من كان معه من المسلمين، ومنهم ولده؛ وكتب افتك الجميع ببلد العناب، وانصرف ابنه إلى الحج، وآب لهذا العهد بخلال حميدة كريمة. من سكون وفضل ودين وحياء، وتلاوة، إلى ما كان يجده من الركض، ويعانية من فروسية، فمضى على هذا السبيل من الشهادة، نفعه الله، في ليلة الجمعة الثامن لرجب من عام اثنين وستين وسبعمائة.

شعره

أنشدني قاضي الجماعة أبو الحسن بن الحسن له:

يا أيها المرتجى لطف خالقه ... وفضله في صلاح الحال والمال

لو كنت توقن حقاً لطف قدرته ... فاشمخ بأنفك عن قيل وقال

فإن لله لطفاً عز خالقنا ... عن أن يقاس بتشبيه وتمثال

وكل أمر وإن أعياك ظاهره ... فالصنع في ذاك لا يجري على بال

محمد بن أحمد بن محمد الأشعري

من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن المحروق، الوكيل بالدار السلطانية، القهرمان بها، المستوزر آخر عمره، سداد من عون.

حاله وأوليته وظهوره

كان رحمه الله من أهل العفاف والتصاون، جانحاً إلى الخير، محباً في أهل الإصلاح، مغضوض الطرف عن الحرم، عفيفاً عن الدماء، متسمسكاً بالعدالة، من أهل الخصوصية، كتب الشروط، وبرز في عدول الحضرة، وكان له خط حسن، ومشاركة في الطلب، وخصوصاً في الفرايض، وحظه تافه من الأدب، امتدح الأمراء، فترقى إلى الكتابة مرؤوساً مع الجملة. وعند الإيقاع بالوزير ابن الحكيم، تعين لحصر ما استرفع من منتهب ماله، وتحصل بالدار السلطانية من آثاثه وخرثيه، فحزم واضطلع بما كان داعية ترقيه إلى الوكالة، فساعده الوقت، وطلع له جاه كبير، تملك أموالاً غريضة، وأرضاً واسعة، فجمع الدنيا بحزمه ومثابرته على تنمية داخله وترقى إلى سماء الوزارة في الدولة السادسة من الدول النصرية، بتدبير شيخ الغزاة، وزعيم الطايفة عثمان بن أبي العلاء، فوصله إلى إدوار دنياه، والله قد خبأ له المكروه في المحبوب، وتأذن الله سبحانه بنفاد أجله على يده، فستولى وحجب السلطان. ثم وقعت بينه وبين مرشحه، الوحشة الشهيرة، عام سبع وعشرين وسبعمائة، مارساً لمكان الفتنة، صلة فارط في حجب السلطان، وأجلى جمهور ما كان ببابه، ومنع من الدخول إليه، فاضطربت حاله، وأعمل التدبير عليه، فهجم عليه بدار الحرة الكبيرة جدة السلطان، وكان يعارضها في الأمور، ويجعلها تكأة الغرضه، فتيان من أحداث المماليك، المستبقين مع محجوبه، تناولاه سطاً بالخناجر، ورمى نفسه في صهريج الدار، وما زالا يتعاورانه من كل جانب حتى فارق الحياة رحمه الله تعالى.

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، وكانت له فيه فراسة صادقة.

محمد بن فتح بن علي الأنصاري

يكنى أبا بكر ويشهر بالأشبرون. قاضي الجماعة.

حاله

كان طرفاً في الدهاء والتخلق والمعرفة بمقاطع الحقوق، ومغامز الريب، وعلل الشهادات، فذاً في الجزالة، والصرامة، مقداماً، بصيراً بالأمور، حسن السيرة، عذب الفكاهة، ظاهر الحظوة، علي الرتبة، خرج من إشبيلية عند تغلب العدو عليها، وولي القضاء بمالقة وبسطة. ثم ولي الحسبة بغرناطة، ثم جمعت له إليها الشرطة، ثم قدم قاضياً، واستمرت ولايته نحواً من ثلاثين سنة.

محمد بن الزيات الكلاعي

محمد بن أحمد بن علي بن حسن بن علي بن الزيات الكلاعي ولد الشيخ الخطيب أبي جعفر بن الزيات، من أهل بلش يكنى أبا بكر.

حاله

من عائد الصلة من تأليفنا. كان رحمه الله شبيهاً بأبيه، في هديه، وحسن سمته ووقاره، إلا أنه كان حافظاً للرتبة. مقيماً للأبهة، مستدعياً بأبيه ونفسه للتجلة، بقية من أبناء المشايخ، ظرفاً وأدباً ومروءة وحشمة، إلى خط بديع قيد البصر، ورواية علاية، ومشاركة في فنون، وقراءة، وفقه، وعربية، وأدب وفريضة، ومعرفة بالوثاق والأحكام. تولى القضاء ببلده، وخلف أباه على الخطابة والإمامة، فأقام الرسم، واستعمل في السفارة، فسد مسد مثله، وأقرأ ببلده، فانتفع به.

مشيخته

قرأ على الأستاذ الخطيب أبي محمد بن أبي السداد الباهلي. وبغرناطة، على شيخ الجماعة الأستاذ أبي جعفر بن الزبير. ومن أعلام مشيخته، جده للأم خال أبيه، الحكيم العارف أبو جعفر ابن الخطيب أبي الحسن بن الحسن المذحجي الحمى، والخطيب الرباني أبو الحسن فضل بن فضيلة، والوزير أبو عبد الله ابن رشيد.

محمد بن علي بن الحاج

محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج يكنى أبا بعد الله، ويعرف بابن الحاج.

أوليته وحاله

كان أبوه نجاراً من مدجنى مدينة إشبيلية من العارفين بالحيل الهندسية، بصيراً باتخاذ الآلات الحربية الجافية، والعمل بها، وانتقل إلى مدينة فاس على عهد أبي يوسف المنصور بن عبد الحق، واتخذ له الدولاب، المنفسخ القطر البعيد المدى، ملين المركز والمحيط، المتعدد الأكواب، الخفي الحركة، حسبما هو اليوم مائل بالبلد الجديد، دار الملك بمدينة فاس، أحد الآثار التي تحدو إلى مشاهدتها الركاب، وبناء دار الملك بمدينة فاس، أحد الآثار التي تحدو إلى مشاهدتها الركاب، وبناء دار الصنعة بسلا. وانتقل بعد مهلك أبيه إلى باب السلطان ثاني الملوك من بني نصر، ومت إليه بوسيلة، أدنت محله، وأسنت جراياته، إلى أن تولى وزارة ولده أمير المسلمين، أبي الجيوش نصر، واضطلع بتدبيره. ونقم الناس عليه إيثاره لمقالات الروم، وانحطاطه في مهوى لهم، والتشبيه بهم في الأكل والحديث، وكثير من الأحوال والهيئات والاستحسان؛ وتطريز المجالس بأمثالهم وحكمهم، سمة وسمت منه عقلاً، لنشأته بين ظهرانيهم، وسبقت إلى قوى عقله المكتسب في بيوتهم، فلم يفارقه بحال، وإن كان آية في الدهاء، والنظر في رجل بعيد الغور، عميق الفكر، قايم على الدمنة، منطو على الرضف، لين الجانب، مبذول البشر، وحيد زمانه في المعرفة بلسان الروم وسيرهم، محكم الأوضاع في أدب الخدمة، ذرب بالتصرف في أبواب الملوك.

وكان من ثورة العامة بسلطانه ما تقدم، وجهروا بإسلامه إليهم، وقد ولوه بسبب الثورة، وطوقوه كياد الأزمة. فضن به السلطان ضنانة، أعربت عن وفايه، وصان مهجتة، واستمر الأمر إلى أن خلع الملك عن الملك. وكان نزول الوزير المذكور تحت خفارة شيخ الغزاة، وكبير الطايفة، عثمان بن أبي العلي، فانتقل محفوظ الجملة، محوط الوفر، ولم ينشب إلى أن لجأ إلى العدوة، واتصل بالأمير أبي علي عمر بن السلطان الكبير أبي سعيد، فحركه. زعموا، على محادة أبيه، وحمله على الانتزاء، فكان ما هو معلوم من دعاية إلى نفسه، ومنازعة أبيه، ولقايه إياه بالمقرمدة وفل جيشه، وفي أثناؤه هلك المترجم به.

وفاته

توفي بفاس الجديد في العشر الأول من شعبان عام أربع عشرة وسبعماية.

محمد بن أرقم النميري

محمد بن رضوان بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أرقم النميري من أهل وادي آش، يكنى أبا يحيى.

حاله

كان صدراً شهيراً، عالماً علما، حسيباً، أصيلاً، جم التحصيل، قوي الإدراك، مضطلعاً بالعربية واللغة، إماماً في ذلك، مشاركاً في علوم من حساب وهيئة وهندسة. قال الشيخ: كان في هذا كله أبرع من لقيته، إلى سراوة وفضل وتواضع ودين، جارياً في ذلك على سنن سلفه. وعلو محتده. جالسته. رحمه الله، كثيراً عند علية من أدركته بغرناطة، لإقامته بها وتكرر لقائي إياه بها وبغيرها، فرأيت أصيلاً جليلاً، قد جمع علماً وفضلاً، وحسن خلق، وكان حسن التقييد، لخطه رونق يمتاز به، ويبعد عن غيره، ولي القضاء ببلجه، ثم ولي بعد مدة ببرشانة فحمدت سيرته.

مشيخته

أخذ القراءات السبع عن أبي كرم جودى بن عبد الرحمن، وقرأ عليه الغريب واللغة، ولازمه في ذلك، وأجاز له إجازة عامة. وأخذ من غيره ببلده، وصحب بغرناطة جملة من العلماء بها، أيام اختلافه إليها، وإقامته بها.

تواليفه

ألف كتاباً سماه الاحتفال في استيفاء ما للخيل من الأحوال، وهو كتاب ضخم وفقت عليه من قبله وأفدته.

واختصر الغريب المصنف، وله تقاييد منثور ومنظوم في علم النجوم، ورسالة في الإسطرلاب الخطى والعمل به.

وشجرة في أنساب العرب.

وفاته

توفي ليلة السبت السابع عشر لشهر ربيع الآخر عام سبع وخمسين وسبعماية.

محمد بن محمد أبو عيشون

محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ابن محمد بن خلف بن محمد بن سليمان بن سوار بن أحمد بن حزب الله بن عامر بن سعد الخير بن عياش، المكنى بأبي عيشون بن حمود، الداخل إلى الأندلس صحبة موسى بن نصير، ابن عنبسة بن حارثة بن العباس بن المرداس، يكنى أبا البركات، بلفيقي الأصل، مروى النشأة والولادة والسلف، يعرف بابن الحاج، وشهر الآن في غير بلده بالبلفيقي، وفي بلده بالمعرفة القديمة.

أوليته

قد تقدم اتصال نسبه بحارثة بن العباس بن مرادس، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحد خطبايه وشعرايه، رييس في الإسلام، ورييس في الجاهلية. وكان لسلفه، وخصوصاً لإبراهيم من الشهرة بولاية الله؛ وإيجاب الحق من خلقه ما هو مشهور، حسبما تنطق به الفهارس، يعضد هذا المجد من جهة الأمومة، كأبي بكر بن صهيب، وابن عمه أبي إسحاق، وغيرهم، الكثير ممن صنف في رجال الأندلس، كأبي عبد المجيد المالقي، وابن الأبار، وابن طلحة، وابن فرتون، وابن صاحب الصلاة، وابن الزبير، وابن عبد الملك، فلينظر هناك.

حاله

نشأة ببلده ألمرية عمود العفة، فضفاض جلباب الصيانة، غضيض طرف الحياء، نائي جنب السلام، حليف الانقباض والازورار، آوياً إلى خالص النشب وبحت الطعمة، لا يرى إلا في منزل من سأله، وفي حلق الأسانيد، أو في مسجد من المساجد خارج المدينة المعدة للتعبد، لا يجيئ سوقاً، ولا مجمعاً، ولا وليمة، ولا مجلس حاكم أو وال، ولا يلابس أمراً من الأمور التي جرت عادته أن يلابسها بوجه من الوجوه. ثم ترامى إلى رحلة، فجاس خلال القطر الغربي إلى بجاية، نافضاً إياه من العلماء والصلحاء والأدباء والآثار بتقييده، وأخذه قيام ذكر، وإغفال شهرة. ثم صرف عنانه إلى الأندلس، فتصرف في الإقراء، والقضاء، والخطابة. وهو الآن نسيج وحده في أصالة عريقة، وسجية على السلامة مفطورة فما شيت من صدر سليم، وعقد وثيق، وغور قريب، ونصح مبذول، وتصنع مرفوض ونفس ساذجة، وباطن مساو للظاهر، ودمعة سريعة، وهزل يثمر تجلة. وانبساط يفيد حسن نية، إلى حسن العهد، وفضل المشاركة، ورقة الحاشية، وصلابة العود، وصدق العزيمة، وقوة الحامية، وبلاغة الموعظة، وجلة الوقت. وفايدة العصر، تفنناً وإمتاعاً، فارس المنابر غير الهيابة، ولا الجزوع، طيب النغمة بالقرآن، مجهشاً في مجال الرقة، كثير الشفقة لصالح العامة، متأسفاً لضياع الأوقات، مدمعاً على الفيئة، مجماً، محولاً في رياسة الدين والدنيا. هذا ما يسامح فيه الإيجاز، ويتجافى عنه الاختصار، ويكفى فيه الإلماع والإشارة، أبقى الله شيخنا أبا البركات.

مشيخته ولايته

تقدم قاضياً بقنالش، في جمادى الثانية عام خمسة عشر وسبع مائة ثم ولي مربلة، وإستبونة ثم كانت رحلته إلى بجاية. ثم عاد فقعد بمجلس الإقراء من مالقة للكلام على صحيح مسلم، متفقاً على اضطلاعه بذلك. ثم رحل إلى فاس. ثم آب إلى الأندلس، واستقر ببلده ألمرية، فقعد بمسجدها الجامع للإقراء ثم قام قاضياً ببرجة ودلاية، والبنيول وفنيانة، ثم نقل عنها إلى بيرة، ثم غربي ألمرية. ثم قدم قاضياً بمالقة، ثم قدم بغربها مضافاً إلى الخطابة، ثم أعيد إلى قضاء ألمرية، بعد وفاة القاضي أبي محمد بن الصايغ. ومن كتاب طرفة العصر من تأليفنا في خبر ولايته ما نصه: فتقلد الحكم في الثالث والعشرين لشعبان من عام سبع وأربعين وسبعمائة، ثالث يوم وصوله مستدعي، وانتابه الطلبة، ووجوه الحضرة والدولة، مهنئين بمثواه من دار الصيانة، ومحل التجلة، إحدى دور الملوك بالحمراء، فطفقوا بغشونه بها زرافات ووجداناً في إتاحة الخير، وإلهام السداد، وتسويغ الموهبة. وكان وصوله، والأفق قد اغبر، والأرض قد اقشعرت لانصرام حظ من أيام الشتاء الموافق لشهر ولايته، لم يسح فيه الغمام بقطرة، ولا لمعت السماء بنزعة، حتى أضرت الأنفس الشح، وحسر العسر عن ساقه، وتوقفت البذور، فساعده الجد بنزول الرحمة عند نزوله من مرقاة المنبر، مجابة دعوة استسقايه، ظاهرة بركة خشوعه، ولذلك ما أنشدته في تلك الحال:

ظمئت إلى السقيا الأباطح والربا ... حتى دعونا العام عاما مجدباً

والغيث مسدول الحجاب وإنما ... علم الغمام قدومكم فتأدبا

وتولى النظر في الأحكام فأجال قداحها، مضطلعاً بأصالة النظر، وإرجاء المشبهات، وسلك في الخطابة طريقة مثلى، يفرغ في قوالب البيان أغراضها، ويصرف على الأحكام الكواين والبساطات أساليبها. من المحاكاة، باختلاف القبض والبسط، والوعد والوعيد، حظوظها على مقبض العدل. وسبب الصواب يقوم على كثير مما يصدع به، من ذلك شاهد البديهة. ودليل الاستيعاب، قال شيخنا أبو البركات: ثم صرفت عنها للسبب المتقدم. وبقيت مقيماً بها، لما اشتهر من وقوع الوباء بألمرية، ثم أعدت إلى القضاء والخطابة بألمرية، وكتب بذلك في أوايل رجب عام تسعة وأربعين. وبقيت على ذلك إلى أن صرفت بسبب ما ذكر. ثم أعدت إليها في أواخر رجب سنة ست وخمسين، عسى أن سكون الانقطاع لله سبحانه. فأنا الآن أتمثل بما قاله أبو مطرف بن عميرة رحمه الله:

قد نسبنا إلى الكتابة يوماً ... ثم جاءت خطة القضاء تليها

وبكل لم نطق للمجد إلا ... منزلاً نابياً وعيشاً كريها

نسبة بدلت فلم تتغير ... مثل ما يزعم المهندس فيها

بدل من لفظ الكتابة إلى الخطابة. وأغرب ما رأيت ما أحكى لك، وأنت أعلم ببعض ذلك، أن أفضل ما صدر عني في ذلك، الخطة من العمل الذي أخلصت لله فيه، ورجوت منه المثوبة عليه، وفيه مع ذلك مفتخر لمن أراد أن يفتخر غير ملفت للدنيا، فعليه عولت سبحانه. انتهى كلامه.

تصانيفه

كتب إلي بخطه ما نصه، وهو فصل من فصول: وأما تواليفي فأكثرها، أو كلها عير متممة في مبيضات. منها كتاب قد يكبو الجواد في أربعين غلطة عن أربعين من النقاد، وهو نوع نمن تصحيق الحفاظ لدار قطني، منها سلوة الخاطر فيما أشكل من نسبة النسب الرتب إلى الذاكر. ومنها كتاب قدر جم في نظم الجمل. ومنها كتاب خطر فبطر، ونظر فحظر، على تنيهات على وثائق ابن فتوح، ومنها كتاب الإفصاح فيمن عرف بالأندلس بالصلاح. ومها حركة الدخولية في المسألة المالقية. ومنها خطرة المجلس في كلمة وقعت في شعر استنصر به أهل الأندلس جزء صغير. ومنها تاريخ ألمرية غير تام. ومنها ديوان شعره المسمى بالعذب والأجاج في شعر أبي البركات ابن الحاج. ومختصرة سماه القاضي الشريف اللؤلؤ والمرجان اللذان من العذاب والأجاج يستخرجان. ومنها عرايس بنات الخواطر المجلوة على منصات المنابر يحتوي على فصول الخطب التي أنشئت بطول بني والخطابة. ومنها المؤتمن على أنباء أبناء الزمن. ومنها تأليف في أسماء الكتب، والتعريف بمؤلفيها، على حروف المعجم. ومنها ما اتفق لأبي البركات فيما يشبه الكرامات ومنها كتاب ما رأيت وما رؤى لي من المقامات. ومنها كتاب المرجع بالدرك على من أنكر وقوع المشترك ومنها مشبهات اصطلاح العلوم. ومنها ما كثر وروده في مجلس القضاء. ومنها الغلسيات، وهو ما صدر عني من الكلام على صحيح مسلم أيام التكلم عليه في التغليس. ومنها الفصول والأبواب، في ذكر من أخذ عني من الشيوخ والأتباع والأصحاب.

ثم قال: وقد ذهب شرخ الشباب ونشاطه، وتقطعت أوصاله، ورحل رباطه، وأصبحت النفس تنظر لهذا كله بعين الإمهال والإغفال، وقلة المبالاة التي لا يصل أحد بها إلى منال. وهذه الأعمال لا ينشط إليها إلا المحركات التي هي مفقودة عندي، أحدها طلبة مجتمعون متعطشون إلى ما عندي متشوفون غاية التشوف، وأين هذه بألمرية. الثاني، طلب رياسة على هذا، متى يرأس أحد بهذا اليوم، وعلى تقدير أن برأسي به وهو محال في عادة هذا الوقت، فالتشوف لهذه الرياسة مفقود عندي. الثالث، سلطان يملأ يد من يظهر مثل هذا، على يده غبطة، وما تم هذا.

الرابع، نية خالصة لوجه الله تعالى في الإفادة، وهذا أيضاً مفقود عندي، ولا يد من الإنصاف. الخامس، قصد بقاء الذكر، وهذا خيال ضعيف بعيد عني. السادس، الشفقة على شيء ابتدى، وسعى في تحصيل مباديه، أن يضيع على قطع ما سوى هذا الإشفاق، وهذا السادس، هو الذي في نفسي منه شيء، وبه أنا أقيد أسماء من لقيت، وما أخذت، ويكون إن شاء الله إبراز إذا الصحف نشرت. وأكثر زماني يذهب في كيفية الخروج عما أنا فيه، فإذا ينظر إلى العاقل في هذا الوقت بعين البصيرة، لا يسعه إلا الشفقة علي. والرحمة لي. فإنه يرى رجلاً مطرقاً أكثر نهاره، ينظر إلى مآله، فلا ينشط إلى إصلاحه، وهو سابع ولا يلبس بالعبادة وهو في زمانها المقارب للفوت، ولا ينهض إلى إقامة حق كما ينبغي لعدمك المعين، ولا يجنح إلى شيء من راحات الدنيا، ويشاهد من علوم الباطل الذي لا طاقة له على رفعه ما يضيق صدر الحر يقضى نصف النهار، محتلاً في مكان غير حسن، تارة يفكر، وتارة يكتب ما هو على يقين منه أنه كذا لا ينتفع به، ونصف النهار يقعد للناس، تارة يرى ما يكره، وتارة يسمع مايكره، لا صديق يذكره بأمر الآخرة، ولا صديق يسليه بأمر الدنيا، يكفيني من هذه الغزارة. اللهم إليك المشتكى يا من بيده الخلف، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

شعره

من مطولاته في النزعة الغربية التي انفرد بها، منقولاً من ديوانه. قال: ومما نظمته بسبتة في ذي الحجة من عام خمسة وعشين وسبعمائة، في وصف حالي، وأخذها عني الأستاذ بسبتة، أبو عبد الله بن هانئ، والأديب البارع أبو القاسم الحسيني، وأبو القاسم بن حزب الله، وسواهم. ولما انفصلت من سبتة إلى بلاد الريف زدت عليها إبياتاً في أولها وكثر ذلك بوادي لو من بلاد الريف وهي:

تأسفت لا كن حين عز التأسف ... وكفكت دمعاً حين لا عين تذرف
ورام سكوناً وهو في رجل طاير ... ونادى بأنس والمنازل تعنف
أراقب قلبي مرة بعد مرة ... فالفيه ذياك الذي أنا أعرف
سقيم ولا كن لا يحس بدايه ... سوى من له في مأزق الموت موقف
وجاذب قلباً ليس يأوى لمألف ... وعالج نفساً داؤها يتضاعف
وأعجب ما فيه استواء صفاته ... إذ الهم يشقيه أو السر ينزف
إذا حلت الضراء لم ينفعل لها ... وإن حلت السراء لم يتكيف
مذاهبه لم تبد غاية أمره ... فؤاد لعمري لا يرى منه أطرف
فما أنا من قوم قصارى همومهم ... بنوهم وأهلهم وثوب وأرغف
ولا لي بالإسراف فكر محدث ... سيغدو جبيبي أو سيشعر مطرف
ولا أنا ممن لهوه جل شأنه ... بروض أنيق أو غزال مهفهف
ولا أنا ممن أنسه غاية المنى ... بصوت رخيم أو نديم وفرقف
ولا أنا ممن تزدهيه مصانع ... ويسبيه بستان وليهيه مخرف
ولا أنا ممن همه جمعها فإن ... تراءت يشب بسعي لها وهو مرجف
على أن دهري لم تدع لي صروفه ... من المال إلا مسحة أو مجلف
ولا أنا ممن هذه الدار همه ... وقد غره منها جمال وزخرف
ولا أنا ممن للسؤال قد انبرى ... ولا أنا ممن صان عنه التعطف

ولا أنا ممن نجح اله سعيهم ... فهمتهم فيها مصلى ومصحف
فلا في هوى أضحى إلى اللهو قايداً ... ولا في تقي أمس إلى الله يزلف

أحارب دهري في نقيض طباعه ... وحربك من يقضى عليك تعجرف
وأنظره شزراً بأصلف ناظر ... فيعرض عني وهو أزهى وأصلف
وأضبطه ضبط المحدث صحفه ... فيخرج في التوقيع أنت المصحف
ويأخذ مني كل ما عز نيله ... ويبدو بجهلي منه في الأخذ محتف
أدور له في كل وجه لعلني ... سأتبته وهو الذي ظل يحذف
ولما يئسنا منه ثمنا ضرورة ... فلم تبق لي فيها عليه تشوف
تكلفت قطع الأرض أطلب سلوة ... لنفسي فما أجدى بتلك التكلف
وخاطرت بالنفس العزيزة مقدماً ... إذا ما تخطى النصل قصد مرهف
وصرفت نفسي في شئون كثيرة ... لحظة فلم يظفر بذاك التصرف
وخضت فلأنواع المعارف أبحراً ... ففي الحين ما استجرتها وهي تترف
ولم أحل من تلك المعاني بطايل ... وإن كان أهلوها أطالوا وأسرفوا
وقد مر من عمري الألذ وها أنا ... على ما مضى من عهده أتلهف
وإني على ما قد بقي منه إن بقي ... لحرمة ما قد ضاع لي أتخوف
أعد ليالي العمر والفرض صومها ... وحسبك من فرض المحال تعف
على أنها إن سلمت جدليه ... تعارض آمالاً عليها ينيف
تحدثني الآمال وهي كدينها ... تبدل في تحديثها وتحرف
بأني في الدنيا سأقضي مآربي ... وبعد يحق الزهد لي والتقشف
ورب أخلاء شكوت إليهم ... ولكن لفهم الحال إذ ذاك لم يف
فبعضهم يزوي علي وبعضهم ... يغض وبعض يرثي ثم يصدف
وبعضهم يومي إلي تعجباً ... وبعض بما قد رأيته يتوقف
وبعضهم يلقى جوابه على ... مقتضى العقل الذي عنه يتوقف
يسيء استماعاً ثم يعد إجابة ... على غير ما تحذوه يحذو ويخصف
ولا هو يبدي لي على تعقلا ... ولا هو يرثي لي ولا هو يعنف
وما أمرنا إلا سواء وإنما ... عرفنا وكل منهم ليس يعرف
فلو قد فرغنا من على نفوسنا ... وحطوا الدنية من عليل وأنصف
أما لهم من علة أرمت بهم ... ولم يعرفوا أغوارها وهي تتلف
وخضنا لهم في الكتب عن كنه أمرهم ... ومثلي عن تلك الحقائق يكشف
وصنفت في الآفات كل غريبة ... فجاء كما يهوى الغريب المصنف
وليس عجيباً من تركب جهلهم ... فإن يحجبوا عن مثل ذاك وصرف
إذا جاءنا بالسخف من نزو عقله ... إذا ما مثلناه أزهى وأسخف
فما جاءنا إلا بأمر مناسب ... أينهض عن كف الجبان المثقف

ولا كن عجيب الأمر علمي وغفلتي ... فديتكم أي المحاسن أكشف
إلا أنها الأقدار يظهر سرها ... إذا ما وفي المقدور فالرأي يخلف
أيا رب إن اللب طاش بما جرى ... به قلم الأقدار والقلب يرجف
وإنا لندعوهم ونخشى وإنما ... على رسمك الشرعي من لك يعكف
أقول وفي أثناء ما أنا قايل ... رأيت المنايا وهي لي تتخطف
وإني مع الساعات كيف تقلبت ... لأسهمها إن فوقت متهدف
وما جر ذا التسويف إلا شبيتي ... تخيل لي طول المدى فأسوف
إذا جاء يوم قلت هو الذي يلي ... ووقتك في الدنيا جليس مخفف
أقدم رجلاً عند تأخير أختها ... إذا لاح شمس فالنفس تكف
كأني لداني المراقد منهم ... ولم أودعهم والخض ريان ينسف
وهبني أعيش هل إذا شاب مفرقي ... وولي شبابي هل يباح التشوف
وكيف ويستدعى الطريق رياضة ... وتلك على عصر الشباب توظف

متى يقبل التقويم غير عطوفة ... وبي بعد حساً فالنار تنسف
ولو لم يكن إلا ظهورة سره ... إذا ما دنا التدليس هان التنطف
أمولي الأسارى أنت ألى بعذرهم ... وأنت على المملوك أحق وأعطف
قذفنا بلج البحر والقيد آخذ ... بأرجلنا والريح بالموج تعصف
وفي الكون من سر الوجود عجايب ... أطل عليها العارفون وأشرف
وكعت عليهم نكثة فتأخروا ... وددت بأن القوم بالكل أسعف
فليس لنا إلا أن نحط رقابنا ... بأبواب الاستسلام والله يلطف
فهذا سبيل ليس للعبد غرها ... وإلا فماذا يستطيع المكلف

وقال: وضمتها محاورة بينه وبين نفسه، وقيدها عنه زوال يوم الثلاثاء التاسع والعشرين لمحرم خمس وخمسين وسبعمائة، برابكة العقاب، متعبد الشيخ ولي الله أبي إسحاق الإلبيري، رحمه الله، فمنها:

يأبى شجون حديثي الإفصاح ... إذ لا تقوم بشرحه الألواح
قالت صفية إذ مررت بها ... أفلا تنزل ساعة ترتاح
فأجبتها لولا الرقيب لكان لي ... ما تبتغى بعد الغدو رواح
قالت وهل في الحي حي غيرنا ... فاسمح فديتك فالسماح رياح
فأجبتها إن الرقيب هو الذي ... بيديه منا هذه الأرواح
وهو الشهيد على موارد عبده ... سيان ما الإخفاء والإفصاح
قالت وأين يكون وجود الله إذ ... تخشى ومنه هذه الأفراح
فافرح بإذن الله جل جلاله ... واشطح فنشوان الهوى شطاح
وانهج على ذمم الرجال ولا تخف ... فالحكم رحب والنوال مباح
وانزل على حكم السرور ولا تبل ... فالوقت صاف ما عليك جناح
واخلع عذارك في الخلاعة يا أخي ... باسم الذي دارت به الأقداح

وانظر إلى هذا النهار فسنه ... ضحكت ونور جبينه وضاح
أنواره ضحكت وأترع كأسه ... فقد استوى ريحانه والراح
وانظر إلى الجنيا بنظرة رحمة ... فجفاؤها بوفائها ينزاح
فأجبتها لو كنت تعلم ما الذي ... يبدو لتاركها وما يلتاح
ما كان معنى غامض من أجله ... قد ساح قوم في الجبال وتاح
حتى لقد سكروا من الأمر الذي ... هاموا به عند العيان وساح
فاترك صفيك قارعاً باب الرضى ... والله جل جلاله الفتاح
يا حي حي على الفلاح وخلني ... فجماعتي حثوا المطي وراح

وقيدت من خطه في جملة ما كتب إلي ما نصه: ومما نظمته بغرناطة، وبعضه ببرجة، وهو مما يعجبني، وأظنه كتبه لك، وهو غريب المنزع، وإنه لكما قال:

خذها على رغم الفقيه سلافة ... تجلى بها الأقمار في شمس الضحى
أبدي أطباء القلوب لأهلها ... منها شراباً للنفوس مبرحا
وإذا امرؤ قال في نشوانها ... قل أنت بالإخلاص فيمن قد صحا
يا قوتة دارت على أربابها ... فاهتزت الأقدام منها واللحا
مزجت فغار الشيخ من إظهارها ... فاشتد يبتدر الحجاب ملوحا
لا تعترض أبداً على مسترفد ... قد غار من أسرارها أن يفضحا
وكذاك لا تعتب على مستهتر ... لم يدر ما الإيضاح لما أوضحا
سكران يعثر في ذيول لسانه ... كفراً ويحسب أنه قد سبحا
كم الهوى حرب بعض وبعض ... ضاق ذرعاً بالغرام فبرحا
لا تخشين على العدالة هاتفاً ... ثغر ارتياح العاشقين فجرحا
الحب خمر العارفين وقد ضفت ... حتماً على من ذاقها أن يشطحا
فاشطح على هذا الوجود وأهله ... عجباً فليس براجح من رجحا
كبر عليهم أنهم موتى على ... غير الشهادة ما أغر وأقبحا
واهزأ بهم فمتى يقل نصحاؤهم ... أهج فقل حتى ألاقي مفلحا

وإذا أريبهم استخف فقل له ... بالله يا يحيى بن يحيى دع جحا
أبني سليم قد نجا مجنونكم ... مجنون ليلى العارفين به قد محا
هل يستوي من لم يبح بحبيبه ... مع من بذكر حبيبه قد أفصحا
فافرح وطب وأبهج وقل ما شئت ما أملح الفقراء يا ما أملحا

ومن مقطوعاته التي هي آيات العجايب، وطرر حلل البدايع في شتى الأغراض والمقاصد، قوله يعتذر لبعض الطلبة، وقد استدبره ببعض حلق العلم بسبتة:

إن كنت أبصرتك لا أبصرت ... بصيرتي في الحق برهانها
لا غرو أني لم أشاهدكم ... فالعين لا تبصر إنسانها

ومنها قوله في غرض التورية، وهو بديع في معناه:

يلومونني بعد العذار على الهوى ... ومثلي في وجدي له لا يفند
يقولون لي أمسك عنه قد ذهب الصبا ... وكيف يرى الإمساك والخيط أسود
ومنها قوله في المجنبات، وهو من الغريب البديع:
ومصفرة الخدين مطوية الحشا ... على الجبن والمصفر يؤذن بالخوف
لها هيئة كالشمس عند طلوعها ... ولكنها في الحين تغرب في الجوف
ومنها قوله في النصح، ولها حكاية تقتضي ذلك:
لا تبذلن نصيحة إلا لمن ... تلقى لبذل النصح منه قبولا
فالنصح إن وجد القبول فضيلة ... ويكون إن عدم القبول فضولا
ومنها في الحكم:
ما رأيت الهموم تدخل إلا ... من دروب العيون والآذان
غض طرفاً وسد سمعاً ومهما ... تلق هماً فلا تثق بضمان
ومنها قوله، وهو من المعاني المبتكرات:
حزنت عليك العين يا مغنى الهوى ... فالدمع منها بعد بعدك ما رقا
ولذاك قد صبغت بلون أزرق ... أو ما ترى ثوب المآتم أزرقا
ومنها قوله في المعاني الغريبة، قال: ومما نظمته في عام أربعة وأربعين في التفكر في المعاني، مغلق العينين:
أبحث فيما أنا حصلته ... عند انغماض العين في جفنها
أحسبني كالشاة مجترة ... تمضغ ما يخرج من بطنها
وقال: ومما نظمته بين أندرش وبرجة عام أربعة وأربعين، وأنا راكب مسافر، وهو مما يعجبني، إذ ليس كل ما يصدر عني يعجبني. قلت وبحق أن يعجبه:
تطالبني نفسي بما ليس لي به ... يدان فأعطيها الأمان فتقبل
عجبت لخصم لج في طلباته ... يصالح عنها بالمحال فيفصل
قال ومما نظمته في السنة المذكورة من ذم النساء:
ما رأيت النساء يصلحن إلا ... للذي يصلح الكنيف من أجله
فعلى هذه الشريطة صالحهن لا تعد بأمرئ عن محله
قال: ومما نظمته في السنة المذكورة:
قد هجرت النساء دهراً فلم أبلغ آذاني صفاتهن الذميمة
ما عسى أن يقال في هجو من قد ... خصه المصطفى بأقبح شيمة
أو يبقى لنا قصر العقل والدين إذا عدت المثالب قيمة
وقال: وما نظمته في تاريخ لا أذكره الآن، هذان البيتان، ولم أر معناهما لمن مضى. ولو رحل رجل إلى خراسان، ولم يأت إلا بهما، كان ممن لم يخفق مسعاه، ولا أجدب مرعاه، ينفتح بهما للقلب باب من الراحة فسيح، إذا أجهده ما يكابد من المضاضة، ونقض العهود، واختلاف الوعود. وهذه المحنة من شر ما ابتلى به بنو آدم، شنشنة نعرفها من أمرهم. ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي:
رعى الله إخوان الخيانة إنهم ... كفونا مؤونات البقا على العهد

فلو قد وفوا كنا أسارى عقوقهم ... نراوح بين النسئة والنقد

وقال يداعبني، وعلى سبيل الكناية يخاطبني، ولقد لقيت، رجلاً ببلاد الهند يعرف بأبي البركات ابن الحاج، وكان برد في بستان كان له، فقلت أهجوه عام أربعة وأربعين وسبعمائة:

قالوا أبو البركات جم ماؤه ... فغدا أبو البركات لا أبا البركات

قلنا لأن يكنى بموجوداته ... أولى من أن يكنى بمعدومات

ومما نظمته عام خمس وأربعين وسبعمائة:

قد كنت معذوراً بعلمي وما ... أبث من وعظي بين البشر

من حيث قد أملت إصلاحهم ... بالوعظ والعلم فخان النظر

فلم أجد أوعظ للناس من ... أصوات وعاظ جلود البقر

ومما نظمته بمرسى تلهى، من بلد هنين، عام ثلاثة وخمسين، وقد أصابني هوس في البحر وخاطبت به بعض الأصحاب:

رأسي به هوس جديد لا الذي ... تدريه من هوس قديم فيه

قد حل ما أبديه من هذا كما ... قد حل من ذاك الذي أخفيه

ومن الملح قوله، قال: وبت بحمام الخندق من داخل ألمرية ليلة الجمعة الثامن من شهر محرم عام اثنين وثلاثين منفرداً، فطفى المصباح، وبقيت مفكراً، فخطر ببالي ما يقول الناس من تخيل الجن في الأرحاء والحمامات، وعدم إقدام كافة الناس إلا ما شذ عند دخولها منفردين بالليل، لا سيما في الظلام، واستشعرت قوة في نفسي عند ذلك، أعراض وأوهام، فقلت مرتجلاً، رافعاً بذلك صوتي:

زعم الذين عقولهم قدرها ... إن عرضت للبيع غير ثمين

أن الرحا معمورة بالجن والحمام عندهم كذا بيقين

إن كان ما قالوه حقاً فاحضروا ... للحرب هذا اليوم من صفين

فلئن حضرتم فاعلموا بحقيقة ... بأني مصارع قيس المجنون

قال: ودخلت رياضاً يوماً، فوجدت كساء منشوراً للشمس لم أعرفه من حوايجي، ولا من حوايج حارسة البستان، فسألتها فقالت، هو لجارتي فقلت:

من منصفي من جارتي جارت على ... مالي كأني كنت من أعدائها

عمدت إلى الشمس التي انتشرت على ... أرضي وأمت فيه ييس كسائها

لولا غيوم يوم تييس الكسا ... سرت لحجب السحب جل ضياءا

لقضيت منهم الخسار لأنني ... أصبحت مزوراً على بخلائها

قلت، وصرت إلى مغنى بحمة بدانة وسار معي كلب كان يحرس رياضي اسمه قطمير، وهو فيما يذكر كلب أهل الكهف، في بعض الأقوال، فتبعني من ألمرية إلى الحمة، ثم من الحمة إلى ألمرية، فقلت:

رحلت وقطمير كلبي رفيقي ... يونس قلبي بطول الطريق

فلما ألخت أناخ حذائي ... يلاحظني لحظ خل شفيق

ويرعى أذمة رفقي كما ... يتغنى الصديق الصدوق

على حين قومي بني آدم ... بلؤمهم لم يوفوا حقوق

ولا فرق بين الأباعد منهم ... وبين أخ مستحب شفيق
أو ابن متى تلقاه تلقه ... هوى اشتياق بقلب خفوق
فما منهم من ولي حميم ... ولا ذي إخاء صحيح حقيق
وناهيك ممن يفضل كلباً ... عليهم فيا وليهم من رفيق
ألا من يرق لشيخ غريب ... أبي البركات الفتى البلفيق
وقال: ومما نظمته بتاريخ لا أذكره هذان البيتان:
وأين الخير من زماني وأهله ... على أنني للشر أول سابق
لحا الله دهراً قد تقدمت أهله ... فتلك لعمر الله إحدى البوايق
ومن النزعات الشاذة الأغراض:
لا بارك الله في الزهاد إنهم ... لم يتركوا عرض الدنيا لفضلهم
بل أثقلتهم تكاليف الحياة فلم ... يصايروها فملوا ثقل حملهم
وعظم الناس منهم تركها فغدوا ... من غبطة الترك في حرص لأجلهم
نعم أسلم أن القوم إذ زهدوا ... زاداً وأعلى الناس طراً فضل تركهم
من حيث قد أحرز والترجيح دونهم ... لا شيء أبين من ترجيح فضلهم
فالمال والجود والراحات غاية ما ... يحكى لنا الزهد في ذاعن أجلهم
والزاهدون براحات القلوب مع الأبدان سروا وعزوا بعد ذلهم
فكل ما فرقوا قد حصلوا غرضاً ... منه وزادوا ثناء الناس كلهم
قال: ومما نظمته عام أربعين في ذم الخمر من جهة الدنيا، لا من جهة الدين، إذ ليس بغريب:
لقد ذم بعض الخمر قوم لأنها ... تكر على دين الفتى بفساد
وقد سلموا قول الذي قال إنها ... تحل من الدنيا بأعظم ناد
وتذهب بالمال العظيم فلن ترى ... لمدمنها من طارف وتلاد
فيمسي كريماً سيداً ثم يغتدي ... سفيهاً حليف الغي بعد رشاد

وقالوا تسلى وهو عارية لها ... وإلا فلم يأتوا لذاك بشاد
وصلة ونور وحسناء طفلة ... ومرأى به للطريف سير جواد
وهل يدانوي من مرارتها التي ... أواخرها مقرونة بمهاد
ولو أشرب الإنسان مهلاً بهذه ... لأصبح مسروراً بأطيب زاد
ومن حسن حال الشاربين يقينها ... بالرغم من برق وساد
ومن حسن ذا المحروم أن مدامه ... إذا غلبت تكسوه ثوب رقاد
فيختلف الندمان طراً لروحه ... ويحدوهم نحو المروءة حادي
ومن حسنه بين الورى ضرب ظهره ... فيمسي بلا حرب رهين جلاد
مجانين في الأوهام قد ضل سعيهم ... يخففون بيعاً بحسن غواد
ومن نظمه في الإنحاء على نفسه، واستبعاد وجوه المطالب في جنسه، مما نظمته يوم عرفة عام خمسين وأنا منزو في غار ببعض جبال ألمرية:

زعموا أن في الجبال قوماً ... صالحين قالوا من الأبدال
وادعوا أن كل من ساح فيها ... فسيلقاهم على كل حال
فاخترقنا تلك الجبال مراراً ... بنعال طوراً ودون نعال
ما رأينا فيها سوى الأفاعي ... وشبا عقرب كمثل النبال
وسباعاً يخترون بالليل عدواً ... لا تسلني عنهم بتلك الفيال
ولو كنا لدى العدوة الأخرى ... رأينا نواجذ الريبال
وإذا أظلم الدجى جاء إبليس إلينا يزور طيف الخيال
هو كان الأنيس فيها ولولا ... ه أصيبت عقولنا بالخبال
خل عنك المحال يا من تعني ... ليس تلقى الرجال غير الرجال
قال: ومن المنازع الغريبة ذم الأصحاب ومدح الأعداء، فمن ذلك قولي:
جزى الله بالخير أعداءنا ... فموردهم أنسى المصدر
هم حملونا على العرف كرهاً ... وهم صرفونا عن المنكر
وهم أقعدونا بمجلس حكم ... وهم بوؤونا ذرى المنبر
وهم صيرونا أئمة علم ودين وحسبك من مفخر
عدوي بأول فدى مأثم ... وإن جيت بالإثم لم يعذر
وأنت ترى تمحيص من يعدل بين المسيء وبين البر
ولا زود الله أصحابنا بزاد تقى ولا خير
هم جرؤونا على كل إثم ... وما كنت لو لاهم بالمخبر
وعدوا من إكبار آثامنا ... فكانوا أضر من الفاتر
أعاريني القوم ثوب التقى ... وإني مما أعاروني بري
إذا خدعوني ولم ينصحوا ... وإني بالنصح منهم حر
فمن كان يكذب حال الرضى ... يصدق في غضب يفتر
بلى سوف تلقى لدى الحالتين ... يحكم النفس هوى الفر
فيا رب أبق علينا عقولنا ... نبيع بها وبها نشتر
قال: وما رأيت هذا المعنى قط لأحد، ثم رأيت بعد ذلك لبعضهم ما معناه:
عداتي لهم فضل على ومنة ... فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا
فوقع حافري على ساق هذا. قال: وما نظمته، متخيلاً أني سابق معناه:
خلنا ليلة من كف دهر ... ضنين بالليالي الطيبات
سلكنا للهوى والعقل فيها ... مسالك قد جلين عن الشتات
قضينا بعض حق النفس فيها ... وحق الله مرعى الثبات
فلم نر قبله في الدهر وقتاً ... بدت حسناته في السيئات
ثم رأيت بعد ذلك على هذا.

لا وليال على المصلى ... تسرق في نسكها الذنوب
فوقعت ساقي على حافر هذا المحروم، إلا أني جردت ذلك في المعنى، وأوضحته، وجلوته على كرسي التقعيد والتنجيد، فلولا التاريخ لعاد سارق البرق.
نثره

وأما نثره فنمط مرتفع عن معتاد عصره، استنفاراً وبلاغة، واسترسالاً وحلاوة، قلما يعرج على السجع، أو يأمر على التكليف، وهو كثير بحيث لا يتعين عيونه، ولكن نلمع منه نبذة، ونجلب منه يسيراً. كتب إلي عند إيابي من الرسالة إلى ملك المغرب، متمثلاً ببيتين لمن قبله، صدر بهما:

يا أيتها النفس إليه اذهبي ... فحبه المشهور من مذهبي
إيأسى التوبة من حبه ... طلوعه شمساً من المغرب
بل محلك، أمثل من التمثيل بالشمس، فلو كان طلوعك على هذه الأقطار شمساً، لأصبح جلها لك عباد. ولو كان نزولك مطراً لتكيفت الصخور تراباً دمثاً. ولولا معرفتنا معشر إخوان الصفا، بأقرار أنفسنا، لحكمنا بأن قلوبنا تمايم لأصدقائنا، ولكن سبقت عيو السعادة، بالكلات فلو تصادف بالرضى محلاً، لأن تحصيل الحاصل محال، لا زلت محروساً، بعين الذي لا تأخذه سنة ولا نوم مكنوفة ببركة الذي يرومه رايم والسلام.
وكتب إلي عندما تقلدت من رياسة الإنشاء ما تقلدت: تخصكم يا محل الإبن الأرضى ولادة، والأخ الصادق إخلاصاً وودا، خصكم الله من السعادة بأعلاها مرقى، وأفضلها عقبى، وأحمدها غنى، وأكرمها مسعى، تحية اللهفان إلى أيام لقائك، المسلى عنها بتأميل العود إليها، المزجى أوقاته بترداد الفكر فيها، محمد بن الحاج، أبقاه الله، عن شوق، والذي لا إله إلا هو، لم أجد قط مثله إلى ولي حميم. والله على ما نقول وكيل، معرفاً أنني بعلاقمه، وتصليني عن كسره مجامعه، لما اعتني به من توقلكم بالرتبة، التي ما زال أحباؤكم بها ممطولي بره. على أنك لم تزد بذلك رتبة على ما كنت باعتبار الأهلية، والمكانة العلية، إلا عند الأطفال والأغفال، والمخلقين من النساء والرجال، لا كن أفزعتنا هذه المخاطبة المحظية في قالب الجمهور، ولم نسر فيها، على الأصح، لا كن على الجمهور. ولو كانت مصارف الوجود بيدي، والفتك من الوجود، منازل أسمايه منازل، وأوطأتك أفلاكه مراكب، وأوردتك كوثره مشرباً، وأحللتك أرفعه معقلاً، وأقبستك بدره مصباحاً، وأهدتك أسراره تحفاً. وقد تبلغ المقاصد مبالغ لا تنتهي أقاصيها الأعمال، فنحن وما نضمره لتلك الجملة الجليلة الفاضلة، مما الله رقيب عليه، ومحيط بدقايقه. ولو كانت لهذا العبد الغافل، المأسور في قيد نفسه، المحزون على انتهاب الأيام، رأس عمره في غير شيء، دعوة يساعدها الوجد حتى يغلب على ظنه، أن العليم بذات الصدور، ولاها من قبوله بارقة، لخصك بها، والله شهيد على ما تكنه الأفئدة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.
والفضل جم، والمحاسن عديدة، فلنقصر اضطراراً، ولنكف امتثالاً للرسم، وانقياداً، أمتع الله به.
محمد بن عبد الله بن منظور القيسي

من أهل مالقة يكنى أبا بكر
أوليته

أصله من إشبيلية، من البيت المشهور بالتعيين والقدم، والأصالة، تشهد بذلك جملة أوضاع، منها الروض المحظوري أوصاف بني منظور. وغيره.

حاله

من كتاب عائد الصلة. كان جم التواضع والتخلق، كثير البر، مفرط الهشة، مبذول البشر، عظيم المشاركة، سريع اللسان إلى الثناء، مسترسلاً في باب الإطراء، درباً على الحكم، كثير الحنكة، قديم العالة، بصيراً بالشروط، ولي القضاء بجهات كثيرة، وتقدم بمالقة، بلده فشكرت سيرته، وحمدت مدارته، وكان سريع العبرة، كثير الخشية، حسن الاعتقاد، معروف الإيثار والصدقة، شايع الإقراء لمن ألم بصقعه، واجتاز على محل ولايته، جارياً على سنن سلفه، ينظم وينثر، فلا يقصر.

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي محمد بن أبي السداد الباهلي، ولازمه وانتفع به، وسمع على غيره من الأعلام، كالخطيب الولي أبي عبد الله الطنجالي، والعدل الرواية المسن أبي عبد الله بن الأديب، والمسن أبي الحكم مالك بن المرحل، وعلى الشيخ الصوفي أبي عبد الله محمد بن أحمد الأقشري القاس، ولبس عنه خرقة التصوف، وعلى الخطيب أبي عبد الله بن رشيد، وعن الشيخ القاضي أبي المجد بن خميس بالجزيرة الخضراء، وعلى الخطيب الزاهد أبي عبد الله السلال. وكتب إليه بالإجازة، أبو عبد الله بن الزبير، والفقيه أبو الحسن ابن عقيل الرندي، والوزير المعمر أبو عمر الطنجي، وأبو الحكم بن منظور ابن عم أبيه، والأستاذ أبو عبد الله بن الكماد. نقلت ذلك من خطه.

تواليفه

أخبرني أنه ألف نفحات المسوك، وعيون التبر المسبوك في أشعار الخلفاء والوزراء والملوك. وكتاب السحب الواكفة والظلال الوارفة، في الرد على ما تضمنه المضنون به على غير أهله من اعتقاد الفلاسفة. وكتاب الصيب الهتان الواكف بغايات الإحسان المشتمل على أدعية مستخرجة من الأحاديث الصحيحة النبوية وسور القرآن. وكتاب البرهان والدليل في خواص سور التنزيل، وما في قراءتها في النوم من بديع التأويل. وكتاب يشتمل على أربعين حديثاً في الرقايق. موصولة الأسانيد، وكتاب تحفة الأبرار في مسألة النبوة والرساة، وما اشتملت عليه من الأسرار. وكتاب الفعل المبرور. والسعي المشكور، فيما وصل إليه، أو تحصل لديه من نوازل القاضي أبي عمر بن منظور.

شعره

ومن شعره قوله:

ما للعطاس ولا للفال من أثر ... فثق فدينك بالرحمن واصطبر

وسلم الأمر فالأحكام ماضية ... تجري على السن المربوط بالقدر

محمد بن هارون الغساني

محمد بن علي بن الخضر بن هارون الغساني من أهل مالقة يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن عسكر

حاله

من كتاب الذيل والتكملة. كان مغرباً مجوداً، نحوياً متوقد الذهن، متفنناً في جملة معارف. ذا حظ صالح من رواية الحديث، تاريخاً، حافظاً، فهيماً، مشاوراً، دؤوباً في الفتوى، متيناً في الدين، تام المروءة، سنياً فاضلاً، معظماً عند الخاصة والعامة، حسن الخلق، جميل العشرة، رحيب الصدر، مسارعاً إلى قضاء الحوايج، شديد الإجمال، محسنا إلى

من أساء إليه، نفاعاً بجاهه، سمحاً بذات يده، متقدماً في عقد الوثائق، بصيراً بمعانيها، سريع البديهة في النظم والنثر، مع البلاغة، والإحسان في الفنين.

ولي قضاء مالقة نايباً عن القاضي أبي عبد الله بن الحسن مدة، ثم ولي مستبداً بتقديم الأمير أب يعبد الله بن نصر، يوم السبت لليلتين بقيتا من رمضان عام خمس وثلاثين. وأشفق من ذلك وامتنع منه وخاطبه مستقفياً، وذكر أنه لا يصلح للقيام بما قلده من تلك الخطة تورعاً منه فلم يسعفه. فتقلدها، وسار فيها أحسن سيرة، وأظهر الحقوق التي كان الباطل قد غمرها، ونفذ الأحكام.

وكان ماضي العزيمة، مقداماً، مهيباً، جزلاً في قضائه، لا تأخذه في الله لومة لأئم، واستمر على ذلك بقية عمره.

مشيخته

روى عن أبي إسحاق الزوالي، وأبي بكر بن عتيق بن منزول، وأبي جعفر الجيان، وأبي حسن الشقوري، وأبي الحجاج بن الشيخ، وأبي الخطاب بن واجب، وأبي زكريا الإصبهاني مقيم غرناطة.

من روى عنه

روى عنه أبو بكر بن خميس ابن أخته، وأبو العون، وأبو عبد الله ابن بكر الإلبيري. وحدث عنه بالإجازة، أبو عبد الله الأبار، وأبو القاسم ابن عمران، وكتب بالإجازة للعراقيين من أهل بغداد الذين استدعوها من أهل الأندلس، حسبما تقدم في رسم أبي بكر بن هشام، وضمنها نظماً ونثراً اعترف له بالإجادة فيهما.

تصانيفه

صنف كتباً كثيرة، أجاد فيها وأفاد. منها المشرع الروي في الزيادة على المروى. ومنها أربعون حديثاً التزم فيها موافقة اسم شيخه، اسم الصابي، وما أراه سبق إلى ذلك، وهو شاهد بكثرة شيوخه، وسعة روايته، ومنها نزهة الناظر في مناقب عمار بن ياسر. ومنها الخبر المختصر، في السلوى عن ذهاب البصر، ألفه لأبي محمد بن أبي الأحوص الضرير الواعظ. ومنها رسالة في ادخار الصبر، وافتخار القصر والفقر، ومنها الإكمال والإتمام في صلة الإعلام بمجالس الأعلام من أهل مالقة الكرام وله اسم آخر، وهو مطلع الأنوار ونزهة الأبصار، فيما احتوت عليه مالقة من الرؤساء والأعلام والأخيار، وتقيد من المناقب والآثار. واختر منه المنية عن إتمامه فتولى إتمامه ابن أخته أبو بكر محمد بن خميس المذكور، وقد نقلت منه في هذا الكتاب.

شعره

ومن شعره، وقد نعيت إليه نفسه قبل أن تغرب من سماء معارفه شمسه:

ولما انقضى إحدى وخمسون حجة ... كأني منها بعد كرب أحلم

ترقيت أعلاها لأنظر فوقها ... مدى الحتف مني على منه أسلم

إذا هو قد أدنت إليه كأنما ... ترقيت في نحوة وهو سلم

وقال في أحدب:

وأحدب تحسب في ظهره ... جابه في نهر عايمة

مثلث الخلقة لاكنه ... في ظهره زواية قايمة

ومن أمثال نظمه قوله، وقد استدعيت منه إجازة:

أجبتك لأني لما رمته أهل ... ولا كن ما أجبت محتمل سهل

وما العلم إلا بحر طال مدانه ... ومالي محم في الورود ولا نهل

فكيف أراني أهل ذاك وقد أتى ... على المحيتان البطالة والجهل
وأسأل ربي العفو عني فإنه ... لما يرتجيه العبد من فضل أهل
مولده: تخميناً في نحو أربع وثمانين وخمسماية.
وفاته: ظهر يوم الأربعاء لأبرع خلون من جمادى الآخرة، عام ستة وثلاثين وستماية.
محمد بن يحيى الأشعري المالقي

محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن أحمد بن محمد ابن أبي بكر بن سعد الأشعري المالقي يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن بكر، من ذرية بلج بن يحيى بن خالد بن عبد الرحمن بن يزيد بن أبي بردة. واسمه عامر بن أبي عامر بن أبي موسى. واسمه عبد الله بن قيس صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ذكره ابن حزم في جملة من دخل الأندلس من العرب.
حاله
من عائد الصلة. كان من صدور العلماء، وأعلام الفضلاء، سذاجة ونزاهة ومعرفة وتفنناً. الأشعري المالقي فسيح الدرس، أصيل انظر، واضح المذهب، مؤثراً للإنصاف، عارفاً بالأحكام والقراءات، مبرزاً في الحديث، تاريخاً وإسناداً، وتعديلاً وتجريحاً، حافظاً للأنساب والأسماء والكنى، قايماً على العربية، مشاركاً في الأصول والفروع، واللغة والعروض والفرايض والحساب مخفوض الجناح، حسن التخلق، عطوفاً على الطلبة، محباً في العلم والعلماء، مجلاً لأهله، مطرح التصنع، عديم المبالاة بالملبس، بادي الظاهر، عزيز النفس، نافذ الحكم، صوالة. معروف بنصرة من أزر إليه. تقدم للشياخة ببلده مالقة، ناظراً في أمور العقد والحل، ومصالح الكافة. ثم ولي القضاء بها، فأعز الخطة، وترك الهوادة، وإنفاد الحق ملازماً للقراءة والإقراء، محافظاً للأوقات، حريصاً على الإفادة.
ثم ولي القضاء والخطابة بغرناطة في العشر الأول لمحرم سبعة وثلاثين وسبعماية، فقام بالوظايف، وصدع بالحق، وجرح الشهود فزيف منهم ما ينيف على السبعين عدداً، واستهدف بذلك إلى معادة ومناضلة، خاض تبجهاً، وصادم تيارها، غير مبال بالمغبة، ولا حافل بالتبعة، فناله لذلك من المشقة، والكيد العظيم، ما نال مثله. حتى كان يمشي إلى الصلاة ليلاً في مسلة. لا يطمئن على حاله. جرت في هذا الباب حكايات إلى أن استمرت الحال على ما أراده الله. وعزم عليه الأمير في بعض من الخطة، ليرده إلى العدالة، فلم يجد في قناته مغمزاً، ولا في عوده معجماً، وتصدر لبث العلم بالحضرة، يقري فنوناً منه جمة، فنفع وخرج، ودرس العربية والفقه والأصول، وأقرأ القرآن، وعلم الفرايض والحساب، وعقد مجالس الحديث، شرحاً وسماعاً، على سبيل من انشراح الصدر، وحسن التجمل. وخفض الجناح.
وذكره القاضي المؤرخ أبو الحسن بن الحسن، فقال، وأما شيخنا، وقريبنا مصاهرة، أبو عبد الله بن أبي بكر، فصاحب عزم ومضاء، وحكم صادع وقضاء. كان له رحمه الله، مع كل قولة، وصولة، وعلى كل رابع لا يعرف ذرة، فأحرق قلوب الحسدة والصب، وأعز الخطة، بما أزال عنها من الشوائب، وذهب وفضض كواكب الحق بمعارفه، ونفذ في المشكلات، وثبت في المذهلات، واحتج وبكت، وتفقه ونكت.
توقيعه
قال: وحدثنا صاحبنا، أبو جعفر الشقوري، قال كنت قاعداً في مجلس حكمه، فرفعت إليه امرأة رقعة، مضمونها أنها محبة في مطلقها، وتبتغي من يستشفع لها في رجها، فتناول الرقعة، ووقع في ظهرها للحين من غير مهلة: الحمد لله، من وقف على ما بالمقلوب، فليصغ لسماعه إصاغة مغيث، وليشفع للمرأة عند زوجها، تأسياً بشفاعة رسول الله

صلى الله عليه وسلم لبربرة في مغيث. والله يسلم لنا العقل والدين، ويسلك بنا مسالك المهتدين. والسلام يعتمد على من وقف على هذه الأحرف من كاتبها، ورحمة الله. قال صاحبنا، فقال لي بعض الأصحاب، هلا كان هو الشفيع لها. فقلت الصحيح أن الحاكم لا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه على النصوص.

شعره

ولم يسمع له شعر إلا بيتين في وصف قوس عربي النسب في شعر من لا شعر له، وهما:

هام الفؤاد في بنت النبع والنشم ... زوراً تزري بعطف البان والصنم

قوام قامتها تمام معطفها ... من يلق مقتلها تصميه أو تصم

مشيخته

قرأ على الأستاذ المتفنن الخطيب أبي محمد بن أبي السداد الباهلي القرآن العظيم جمعاً وإفراداً، وأخذ عنه العربية والفقه والحديث، ولازمه، وتأدب به. وعلى الشيخ الراوية الصالح أبي عبد الله محمد بن عياش الخزرجي القرطبي، قرأ عليه كثيراً من كتب الحديث، منها كتاب صحيح مسلم، وسمع عليه جميعه إلا دولة واحدة. ومن أشياخه القاضي أبو القاسم قاسم بن أحمد بن حسن بن السكوت. والفقيه المشاور، الصدر الكبير، أبو عبد الله بن ربيع، والخطيب القدوة الولي أبو عبد الله بن أحمد الطنجالي، والشيخ القاضي أبو الحسن ابن الأستاذ العلامة أبي الحجاج بن مصامد، والأستاذ خاتمة المقريين أبو جعفر بن الزبير، والخطيب المحدث أبو عبد الله بن رشيد. والخطيب الولي الصالح أبو الحسن بن فضيلة، والأستاذ أبو الحسن بن اللباد المشرفي. والشيخ الأستاذ أبو عبد الله بن الكماد السطي اللبليسي. وأجازه من أهل سبتة شيخ الشرفا أبو علي بن أبي تلنقة تخر بم ربيع، والعدل الراوية أبو فارس عبد العزيز بن الهواري، وأبو إسحاق التلمساني، والحاج العدل الراوية أبو عبد الله بن الحصار، والأستاذ المقري ابن أبي القاسم بن عبد الرحيم القيسي، والأستاذ أبو بكر ابن عبيدة، والشيخ المعمر أبو عبد الله بن أبي القاسم بن عبيد الله الأنصاري. ومن أهل إفريقية الأديب المعمر أبو عبد الله محمد بن هارون، وأبو العباس أحمد ابن محمد الأشعري المالقي نزيل تونس ومحمد بن سيد الناس اليعمري، وعثمان بن عبد القوي البلوى. ومن أهل مصر النسابة شرف الدين عبد المؤمن ابن خلف الدمياطي. والمحدث الراوية أبو المعالي أحمد بن إسحاق، وجماعة غيرهم من المصريين والشاميين والحجازيين.

مولده

في أواخر ذي حجة من عام أربعة وسبعين وستماية.

وفاته

فقد في مصاب المسلمين يوم الناجزة بطريف شهيداً محرضاً، زعموا أن بغلة كان عليها كبت به، وأفاق رابط الجأش، مجتمع القوى. وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب فلم يكن عند قوة عليه. وقال انصرف هذا يوم الفرج، إشارة إلى قوله تعالى في الشهداء " فرحين بما آتاهم الله من فضله " ، وذلك ضحى يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى عام أحد وأربعين وسبعمائة.

محمد بن حيون بن القاسم

محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن محمد ابن علي بن موسى بن إبراهيم بن محمد بن ناصر بن حيون بن القاسم بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالي عنه.

حسبما نقل من خطه:

أوليته

معروفة كان وليته مثله.

حاله

هذا الفضل جملة من جمل الكمال، غريب في الوقار والحصافة، وبلوغ المدى، واستولى على الأمم حلماً وأناة، وبعداً عن الريب، وتمسكاً بعرى النزاهة، واستمساكاً مع الاسترسال، وانقباضاً مع المداخلة، معتدل الطريقة، حسن المداراة، مالكاً أزمة الهوى، شديد الشفقة، كثير المواساة، مغار حبل الصبر، جميل العشرة، كثيف ستر الحيا، قوي النفس، رابط الجأش، رقيق الحاشية، ممتع المجالسة، متوقد الذهن، أصيل الإدراك، بارعاً بأعمال المشيخة، إلى جلال المنتمى، وكرم المنصب، ونزاهة النفس، وملاحة الشيبة، وحمل راية البلاغة، والإعلام في ميادين البيان، رحلة الوقت في التبريز بعلوم اللسان، حلية الخصل والفضل في ميدانها، غريبة غريزة الحفظ. مقنعة الشاهد. مستبحرة النظر، أصيلة التوجيه، برية عن النوك والغفلة، مرهفة باللغة والغريب، والخبر والتاريخ والبيان. وصناعة البديع. وميزان العروض، وعلم القافية وتقدماً في الفقه، ودرساً له، وبراعة في الأحكام، وإتقان التدريس، والصبر، والدؤوب عليه، بارع التصنيف، حاضر الذهن، فصيح اللسان مفخرة من مفاخر أهل بيته.

ولايته

قدم على الحضرة في دولة الخامس من ملوك بني نصر، كما استجمع شبابه، يفهق علماً باللسان، ومعرفة بمواقع البيان، وينطق بالعذب الزلال من الشعر، فسهل له كنف البر، ونظم في قلادة كتاب الإنشاء، وهو إذ ذاك ثمينة الخزرات، محكمة الرصف فشاع فضله، وذاع رجله. ثم تقدم، فثقل من طور الحكم، إلى أن قلد الكتابة والقضاء والخطابة بالحاضرة، بعد ولاية غيرها التي أعقبها ولاية مالقة في الرابع من شهر ربيع الآخر عام سبع وثلاثين وسبعماية. فاضطلع بالأحكام. وطبق مفصل الفضل ماضي الصريمة، حي الإجهار، نافذ الأمر. عظيم الهيبة، قليل الناقد، مطعم التوفيق، يصدع في مواقف الخطب بكل بليغ من القول. مما يريق ديباجته، ويشف صقاله، وتبرأ من خلال الخطباء جوانبه وأطرافه. واستعمل في السفارة للعدو ناجح المسعى، ميمون النقيبة. جزيل الحياء والكرامة. إلى أن عزل عن القضاء في شعبان من عام سبعة وأربعين وسبعة ماية. من غير زلة تخفض، ولا هنة تؤثر، فتحيز إلى التحليق لتدريس العلم، وتفرغ لإقراء العربية والفقه ولم ينشب أميره المنطوي على الهاجس، المغري بمثله، أن قدمه قاضياً بوادي آش، بنت حضرته، معززة بسندها الكبير الخطة. فانتقل إليه بجملته، وكانت بينه وبين شيخنا أبي الحسن بن الجياب صداقة صادقة، ومودة مستحكمة، فجرت بينهما أثناء هذه النقلة. بدايع. منها قوله. يوش عنه خطة القضاء التي اخترعها، ويوليها خطة الملامة:

لا مرحباً بالناشز الفارك ... إن جهلت رفعة مقدارك

لو أنها قد أوتيت رشدها ... ما برحت تعشو إلى نارك

أقسمت بالنور المبين الذي ... منه بدت مشكاة أنوارك

ومظهر الحكم الحكيم الذي ... يتلو عليه طيب أخبارك

ما لقيت منك كفواً لها ... ولا أوت أكرم من دارك

ثم أعيد إلى القضاء بالحضرة، فوليها، واستمرت حاله وولايته على متقدم سمته من الفضل والنزاهة والمراجعة فيما يأنف فيه من الخروج عن الجادة، إلى أن هلك السلطان مستقضية مأموماً به، مقتدياً بسجدته، يوم عيد الفطر، خمسة

وخمسين وسبعماية، وولي الأمر ولده الأسعد، فجد ولايته، وأكد تجلته، ورفع رتبته. واستدعى مجالسته.

مشيخته

قرأ ببلده سبتة على أبيه الشريف المطاهر، نسيج وحده في القيام. وعلى أبي عبد الله بن هاني وبه جل انتفاعه؛ وعليه جل استفادته. وأخذ عن الإمام شيخ المشيخة أبي إسحاق الغافقي. وروى عن الخطيب أبي عبد الله الغماري، والخطيب المحدث أبي عبد الله بن رشيد، والقاضي أبي عبد الله القرطبي، والفقيه الصالح أبي عبد الله بن حريث، وأخذ عن الأستاذ النظار أبي القاسم بن الشاط وغيره.

محنته

دارت عليه يوم مهلك السلطان المذكور رحى الوقيعة، فعركته بالثقال، وتخلص من شرارها هولاً، لتطارح الأمير المتوثب أمام ألمرية عليه. خاتماً في السجدة ودرس الحماة إياه عند الدجلة، من غير التفات لمحل الوطأة. ولا افتقاد لمحل صلاة تلك الأمة، فغشيه من الأرجل، ورجل الربى كثيرة.

والتف عليه مرسل طيلسانه. ساداً مجرى النفس إلى قلبه. فعالج الحمام وقتاً. إلى أن نفس الله عنه فاستقل من الرداى، وانتبذ من مطرح ذلك الوغى، وبودر بالفصاد، وقد أشفى، فكانت عثرة لقيت لماً ومتاعاً، فسمح له المدى آخر من يوثق به من محل البث. ومودعات السر من حظيات الملك، أن السلطان عرض عليه قبل وفاته في عالم الحلم، كونه في محراب مسجده، مع قاضيه المترجم به، وقد أقدم عليه كلب أصابه بثوبه، ولطخ ثوبه بدمه، فأهمته رؤياه، وطرقت به الظنون مطارقها، وهم بعزل القاضي، انقياداً لبواعث الفكر، وسداً لأبواب التوقيعات. وقد تأذن الله بإرجاء العزم وتصديق الحلم، وإمضاء الحكم، جل وجهه، وعزت قدرته. فكان من الأمر ما تقرر في محله.

تصانيفه

وتصانيفه بارعة، منها، رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة، شرح فيها مقصورة الأديب أبي الحسن حازم بما تنقطع الأطماع فيه. ومنها رياضة الأبي في قصيدة الخزرجي، أبدع في ذلك بما يدل على الإطلاع وسداد الفهم، وقيد على كتاب التسهيل لأبي عبد الله بن مالك تقييداً جليلاً، وشرحاً بديعاًن قارب التمام. وشرع في تقييد على الخبر المسمى، بدرر السمط في خبر السبط. ومحاسنه جمة، وأغراضه بديعة.

شعره

وإما الشعر فله فيه القدح والمعلى، والحظ الأوفى، والدرجة العليا، طبقة وقته، ودرجة عصره. وحجة زمانه، كلامه متكافي في اللفظ والمعنى، صريح الدلالة، كريم الخيم، متحصد الحبل، خالص السبك، وأنا أثبت منه جزماً، خصني به، سماه جهد المقل، اشتمل من حر الكلام، على ما لا كفاء له.

الحمد لله تردده أخرى الليالي، فهو المسئول أن يعصمنا من الزلل، زلل القول. وزلل الأعمال. والصلاة على سيدنا محمد خاتم الإرسال. هذه أوراق ضمنتها جملة من بنات فكري، وقطعاً مما يجيش به في بعض الأحيان صدري، ولو حزمت لأضربت عن كتبها كل الإضراب، ولزمت في دفنها وإخفايها دين الأعراب، لاكني آثرت على المحو الإثبات، وتمثلت بقولهم إن خير ما أوتيته العرب الأبيات. وإذا هي عضت علي ذلك المجد، وسألها كيف نجت من الوأد فقد أوتيتها من حرمكم إلى ظل ظليل، وأحللتها من بنايكم، معرساً ومقيل، وأهديتها علماً بأن كرمكم، بالإغضاء عن عيوبها جد كفيل، فاغتنم قلة التهدية مني، إن جهد المقل غير قليل، فحسبها شرفاً أن تبوأت في

جنابك كنفاً، وكفاها مجداً وفخراً. أن عقدت بينها وبين فكرك عقداً وجواراً، ومما قلت في حرف الهمزة.
مولده

بسبتة في السادس لشهر ربيع الأول من عام سبعة وتسعين وستماية.
وفاته
توفي قاضياً بغرناطة في أوايل شعبان من عام ستين وسبعماية
محمد بن عبد الملك الفشتالي
محمد بن أحمد بن عبد الملك الفشتالي قاضي الجماعة ببيضة الإسلام فاس، يكنى أبا عبد الله.
حاله
هذا الرجل له أبوة صالحة، وأصالة زاكية، قديم الطلب، ظاهر التخصص، مفرط في الوقار نابه البزة والركبة، كثير التهمة، يوهم به الفار، وصدر الصبور في الوثيقة والأدب، فاضل النفس، ممحوض النصح، جميل العشرة لإخونه، مجرى الصداقة نصحاً، ومشاركة، وتنفيقاً، على سجية الأشراف وسنن الحسباء، مديد الباع في فن الأدب، شاعر مجيد، كاتب بليغ، عارف بالتحسين والتقبيح، من أدركه، أدرك علماً من أعلام المشيخة. قدمه السلطان الكبير العالم أبو عنان فارس، قاضياً بحضرته، واختصه، واشتمل عليه، فاتصل بعده سعده، وعرف حقه. وتردد إلى الأندلس في سبيل الرسالة عنه، فذاع فضله، وعلم قدره، ولما كان الإزعاج من الأندلس نحو النبوة التي أصابت الدولة، بلوت من فضله ونصحه وتأنيسه، ما أكد الغبطة، وأوجب الثناء، وخاطبته بما نصه:
من ذا يعد فضائل الفشتالي ... والدهر كاتب آيها والتالي
علم إذا التمسوا القنون بعلمه ... مرعى المشيح ونجعة المكتال
نال الذي لا فوقها من رفعة ... ما أملتها حيلة المحتال
وقضى قياس تراثه عن جده ... إن المقدم فيه عين التالي

قاضي الجماعة، بماذا أثني على خلالك المرتضاة، أبقديمك الموجب لتقديمك، أم بحديثك الداعي لتكحل حديثك، وكلاهما غاية بعد مرماها، وتحامى المنصور حماها، والضالع لا يسام سبقاً، والمنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقة. وما الظن بأصالة تعترف بها الآثار وتشهد، وأبوة صالحة؛ كانت في غير ذات الحق تزهد، وفي نيل الاتصال به تجهد، ومعارف تقرر قواعد الحق وتمهد، وتهزم الشبه إذا تشهد. وقد علم الله أن جوارك لم يبق للدهر على جوار، ولاحت من غصني ورقاً ولا نوارا. هذا وقد زأر على أسد وحمل ثوراً. فقد أصبحت في ظل الدولة التي وقف على سيدي اختيارها، وأظهر خلوص إبريزه معياها، تحت كنف وعز مؤتنف، وجوار أبي جلف، وعلى ثقة من الله بحسن خلف. وما منع من انتساب ما لديه من الفضائل إلا رحلة، لم يبرك بعد حملها، ولا قر عملها، وأوحال حال بيني وبين مسور البلد القديم مهلها. ولولا ذلك لاغتبطت الزايد، واقتنيت الفوايد، والله يطيل بقاه، حتى تتأكد القربة، التي تنسى بها الغربة، وتعظم الوسيلة، التي لا تذر معها الفضيلة، وأما ما أشار به من تقييد القصيدة التي نفق سوقها استحسانه، وأنس باستظرافها إحسانه، فقد أعمل وما أمهل، والقصور باد إذا تأمل، والإغضاء أولى ما أمل، فإنما هي فكرة، قد أخمدت نارها الأيام، وغيرت آثارها الليام. وقد كان الحق إجلال مطالعة سيدي من خللها، وتنزيه رجله عن تقبيل مرتجلها. لا كن أمره ممتثل، وأتى من المجد أمراً لا مرد له مثل. والسلام على سيدي من معظم قدره، وملتزم بره، ابن الخطيب، ورحمة الله.

فكتب إلي مراجعاً، وهو الملئ بالإحسان:

وافت يجر الزهو فضلة بردها ... حسناء قد أضحت نسيجة وحدها

له أي قصيدة أهديت لو ... يهتدي المعارض نحو غاية قصدها

لابن الخطيب بها محاسن جمة ... قارعت عنه الخطوب ففلت من حدها

سر البلاغة عنه أودع حافظاً ... قد صانه حتى فشى من عندها

في غير عقد نفثته بسحرها ... فلذا أتى سلساً منظم عقدها

لم أدر ما فيها وقمت معاوناً ... من طرسها أو معلماً من بردها

حتى دفعت بها لأبعد غاية ... باعاً تقصر في البلوغ بحدها

حدان من نظم ونثر إن من ... يلقاهما منها بذلة عبدها

أولى يداً بيضا موليها فما ... لي مزية أن أقوم بحمدها

ورفضت تكذيب المنى متشيعاً ... لعلي مرآها يصادق وعدها

فبذلت شعري رافعاً من برها ... وهززت عطفي رافلاً من بردها

خذها أعز الله جنابك، وأدال للأنس على الوحشة اغترابك، كغبة الطائر المتجعد، ونهبة الثاير المستوفز، ومقة اللحظ، قليلة اللفظ، قد جمعت من سوامها وانفحامها، بين نظم قيد، وصلود زند، وتوعت، فعلى إقدامها وانحجامها إلى قاصر ومعتد، وليتني إذا جادت سحابة ذلك الخاطر الماطر الودق، وإنجاب العاني عن مزنة فكرتي، بتقاضي الجواب، انجياب الطوق، وأيقنت أني قد سد علي باب القول وأرتج، وقلت هذه السالفة الكلية فصدت لها الداعة من تكلم الإمرة ولم أفه إذ أعوزت المرة بالحلوة، لاكني قلت، وجد المكثر كجهد المقل، والواجب قد يقل الامتثال فيه بالأقل. فبعثت بها على علاتها، وأبلغتها عذرها. في أن كتبت عن شوقها بلغاتها، وهي لا تعدم من سيدي في إغضاء كريم، وإرضاء سليم. والله عز وجل يصل بالتأنيس الحبل، ويجمع الشمل. والسلام الكريم يخص تلك السيادة ورحمة الله وبركاته. من محمد بن أحمد الفشتالي.

وهو الآن قاض بفاس المذكورة، محمود السيرة أبقاه وأمتع به.

محمد بن محمد بن داود القرشي

محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن ابن أبي بكر بن علي بن داود القرشي المقرى، يكنى أبا عبد الله، قاضي الجماعة بفاس وتلمسان.

أوليته

نقلت من خطه. قال، وكان الذي اتخذها من سلفنا قراراً بعد أ، كانت لمن قبله مراراً، عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقرى، صاحب أبي مدين، الذي دعا له ولذريته، بما ظهر فيهم من قبول وتين. وهو أبي الخامس فأنا محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحية بن عبد الرحمن، وكان هذا الشيخ عروي الصلاة، حتى أنه ربما امتحن بغير شيء فلم يؤنس منه التفات، ولا استشعر منه شعور. ويقال إن هذا الحضور مما أدركه من مقامات شيخه أبي مدين. ثم اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة، فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار. واتخذوا طبل الرحيل، وراية التقدم عند المسير. وكان ولد يحيى، الذي كان أحدهم أبو بكر، خمسة رجال. فعقدوا الشركة بينهم فيما ملكوه، وفيما يملكونه على السواء بينهم والاعتدال، وكان أبو بكر ومحمد، وهما أرومتا نسبي من جميع جهات

الأم والأب بتلمسان، وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة، وعبد الواحد وعلي. وهما شقيقاهم الصغيران، بأي والاتن فاتخذوا هذه الأقطار والحوايط والديار، فتزوجوا النساء. واستولدوا الإماء. وكان التملساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع. ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر، والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الرجحان والخسران، ويكاتبهما بأحوال التجار، وأخبار البلدان، حتى اتسعت أموالهم، وارتفعت في الفخامة أحوالهم، ولما افتتح التكرور كورة أي والاتن وأعمالها، أصيبت أموالهم، فيما أصيب من أموالها، بعد أن جمع من كان بها منهم إلى نفسه الرجال، ونصب دون ماله القتال، ثم اتصل بملكهم فأكرم مثواه، ومكنه من التجارة بجميع بلاده، وخاطبه بالصديق الأحب، والخلاصة الأقرب، ثم صار يكاتب من بتلمسان، يستقضي منهم مآربه، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة، وعندي من كتبه وكتب الملوك بالمغرب، ما ينبئ عن ذلك. فلما استوثقوا من الملوك، تذللت لهم الأرض للسلوك، فخرجت أموالهم عن الحد، وكادت تفوق الحصر والعد، لأن بلاد الصحراء، قبل أن يدخلها أهل مصر كانت تجلب لها من المغرب ما لا بال له من السلع، فيعاوض عنه بما له بال من الثمن. ثم قال أبو مدين: الدينا ضم جنب أبي حمو، وشمل ثوبهاه. كان يقول لو لا الشناعة لم أزل في بلادي تاجراً من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع، ويأتون بالتبر الذي كل أمر الدنيا له تبع، ومن سواهم يحمل منها الذهب، ويأتي إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب، إلى ما يغير من العوايد، ويجر السفهاء إلى الفساد.

ولما هلك هؤلاء الأشياخ، جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم، وصادفوا توالي الفتن، ولم يسلموا من جور السلطان، فلم تزل حالهم في نقصان إلى هذا الزمان فها أنا ذا لم أدرك في ذلك إلا أثر نعمة اتخذنا فصوله عيشاً، وأصوله حرمة. ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، وأسباب كثيرة تعين على الطلب، فتفرغت بحول الله عز وجل للقراءة، فاستوعبت أهل البلد لقاء، وأخذت عن بعضهم عرضاً وإلقاء، سواء المقيم القاطن والوارد والظاعن.

حاله

هذا الرجل مشار إليه بالعدوة المغربية اجتهاداً، ودؤوباً، وحفظاً وعناية، واطلاعاً، ونقلاً ونزاهة، سليم الصدر، قريب الغور، صادق القول، مسلوب التصنع، كثير الهشة، مفرط الخفة، ظاهر السذاجة، ذاهب أقصى مذاهب التخلق، محافظ على العمل، مثابر على الانقطاع، حريص على العبادة، مضايق في العقد والتوجه، يكابد من تحصيل النية بالوجه واليدين مشقة، ثم يغافض الوقت فيها، ويوقعها دفعة متبعاً إياها زعقة التكبير، برجفة، ينبو عنها سمع من لم يكن تأنس بها عادة، بما هو دليلي على حسن المعاملة، وإرسال السجية، قديم النعمة، متصل الخيرية، مكب على النظر والدرس والقراءة، معلوم الصيانة والعدالة، منصف في المذاكرة، حاسر الذراع عند المباحثة، راحب عن الصدر في وطيس المناقشة، غير مختار للقرن، ولا ضان بالفايدة، كثر الالتفاف، متقلب الحدقة، جبير بالحجة، بعيد عن المراء والمباهتة، قايل بفضل من الطلبة، يقوم أتم القيام على العربية والفقه والتفسير، ويحفظ الحديث، ويتهجر بحفظ الأخبار والتاريخ والآداب، ويشارك مشاركة فاضة في الأصلين والجدل والمنطق، ويكتب ويشعر مصيباً في ذلك غرض الإجادة، ويتكلم في طريقة الصوفية كلام أرباب المقال، ويعتني بالتدوين فيها. شرق وحج، ولقي جلة، واضطبن رحلة مفيدة، ثم آب إلى بلده، فأقرأ به، وانقطع إلى خجمة العلم. فلما ولي ملك الغرب السلطان، محالف الصنع ونشيدة الملك، وأثير الله من بين القرابة والإخوة أمير المسلمين أبو عنان فارس، اجتذبه وخلطه بنفسه، واشتمل عليه، وولاه قضاء الجماعة بمدينة فاس، فاستقل بذلك أعظم الاستقلال، وأنفذ الحكم، وألان الكلمة، وآثر التسديد، وحمل الكل، وخفض الجناح، فحسنت عنه القالة، وأحبته الخاصة والعامة. حضرت بعض مجالسه للحكم،

فرأيت من صبره على اللدد، وتأتيه للحجج ورفقه بالخصوم، ما قضيت منه العجب.
دخوله غرناطة

ثم لما أخر عن القضاء، استعمل بعد لأي في الرسالة، فوصل الأندلس، أوايل جمادى الثانية من عام ست وخمسين وسبعمائة. فلما قضى عرض الرسالة، وأبرم عقد وجهته، واحتل مالقة في متصرفه، بدا له في نبذ الكلفة، واضطراح وظيفة الخدمة، وحل التقيد، إلى ملازمة الإمرة، فتقاعد، وشهر غرضه، وبت في الانتقال، وطمع من كان صحبته، وأقبل على شأنه، فخلى بينه وبين همه. وترك وما انتحله من الانقطاع إلى ربه. وطار الخبر إلى مرسله، فأنف من تخصيص إيالته بالهجرة، والعدول عنها، بقصد التخلي والعبادة، وأنكر ما نحله غاية الإنكار، من إبطال عمل الرسالة، والانقباض قبل الخروج عن العهدة، فوغر صدره على صاحب الأمر، ولم يبعد حمله على الظنة والمواطأة على النفرة، وتجهزت جملة من الخدام المجلين في مآزق الشبهة؛ المضطلعين بإقامة الحجة، مولين خطة الملام مخيرين بين سحايب عاد من الإسلام مظنة إغلاق النعمة، وإيقاع المثلة، والإساءة بسبب القطيعة والمنابذة. وقد كان المترجم به لحق بغرناطة فتذمم بمسجدها، وجار بالإنقطاع إلى الله، وتوعد من يجيره، بنكير من يجير ولا يجار عليه سبحانه فأهم أمره، وشغلت القلوب آيدته، وأمسك الرسل بخلال ما صدرت شفاعة اقتضت له رفع التبعة، وتركه إلى تلك الوجهة.
ولما تحصل ما تيسر من ذلك، انصرف محفوفاً بعالمي القطر، قاضي الجماعة أبي القاسم الحسني المترجم به قبله، والشيخ الخطيب أبي البركات بن الحاج، مستهلين لوروده، مشافهين للشفاعة في غرضه، فأقشعت الغمة، وتنفست الكربة. وجرى أثناء هذا من المراسلة والمراجعة، ما تضمنه الكتاب المسمى بكناسة الدكان بعد انتقال السكان المجموع بسلا ما صورته:

المقام الذي يحب الشفاعة، ويرعى الوسيلة، وينجز العدة، ويتمم الفضيلة، ويضفي مجده المنن الجزيلة، ويعيى حمده المادح العريضة الطويلة. مقام محل والدنا الذي كرم مجده، ووضح سعده، وصح في الله تعالى عقده، وخلص في الأعمال الصالحة قصده؛ وأعجز الألسنة حمده، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه الله سبحانه لوسيلة يرعاها، وشفاعة يكرم مسعاها، وأخلاق جميلة تجيب دعوة الطبع الكريم إذا دعاها، معظم سلطانه الكبير، وممجد مقامه الشهير، المتشيع لأبوته الرفيعة، قولاً باللسان، واعتقاداً بالضمير، المعتمد منه بعد الله على الملجأ الأحمى، والولي النصير، فلان. سلام كريم، طيب بر عميم، يخص مقامكم الأعلى، وأبوتكم الفضلى، ورحمة الله وبركاته.
أما بعد حمد الله، الذي جعل الخلق الحميدة دليلاً على عنايته بمن حلاه حلاها، وميز بها النفوس النفيسة، التي اختصها بكرامته وتولاها، حمداً يكون كفواً للنعم التي أولاها، وأعادها ووالاها، والصلاة والسلامة على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله، المترقي من درجات الاختصاص أرفعها وأعلاها، الممتاز من أنوار الهداية بأوضحها وأجلاها، مطلع آيات السعادة يروق مجتلاها. والرضا عن آله وصحبه الذين خبر صدق ضمائرهم لما ابتلاها، وعسل ذكرهم في الأفواه فيما أعذب أوصافهم على الألسن وأحلاها. والدعاء لمقام أبوتكم، حرس الله تعالى علاها، بالسعادة التي يقول الفتح أنا طلاع الثنايا وابن جلاها، والصنائع التي تخترق المفاوز بركائبها المبشرات فتفلى فلاها. فإنا كتبنا إليكم، كتب الله تعالى لكم عزة مشيدة البناء، وحشد على أعلام صنائعكم الكرام جيوش الثناء،

وقلدكم قلائد مكارم الأخلاق، ما يشهد لذاتكم منه بسابقة الاعتناء. من حمراء غرناطة حرسها الله، والود باهر السناء، مجد على الأناء، والتشيع رحب الدسيعة والفناء.

وإلى هذا، وصل الله تعالى سعدكم، وحرس مجدكم، فإننا خاطبنا مقامكم الكريم، في شأن الشيخ الفقيه الحافظ الصالح أبي عبد الله المقرى، خار الله تعالى لنا وله، وبلغ الجميع من فضله العميم أمله، جواباً عما صدر من مثابتكم فيه، من الإشارة المتمثلة، والمآرب المعملة، والقضايا غير المهملة، نصادركمن بالشفاعة التي مثلها بأبوابكم لا يرد، وظمآها عن منهل قبولكم لا تجلى ولا تصد، حسبما سنة الأب الكريم والجد، والقبيل الذي وضح منه في المكارم، الرسم والحد. ولم نصدر الخطاب حتى ظهر لنا من أحواله صدق المخيلة، وتبلج صبح الزهاد والفضيلة، وجود النفس الشحيحة بالعرض الأدنى البخيلة، وظهر تخليه عن هذه الدار، واختلاطه باللفيف والغمار، وإقباله على ما يعني مثله من صلة الأوراد، ومداومة الاستغفار، وكنا لما تعرفنا إقامته بمالقة لهذا الغرض الذي شهره، والفضل الذي أبرزه للعيان وأظهره، أمرنا أن يعتنى بأحواله، ويعان على فراغ باله، ويجري عليه سيب من ديوان الأعشار الشرعية وصريح ماله، وقلنا أما أتاك من غير مسألة مستند صحيح لاستدلاله، ففر من مالقة على ما تعرفنا لهذا السبب، وقعد بحضرتنا مستور المنتمى والمنتسب، وسكن بالمدرسة بعض الأماكن المعدة لكني المتسمين بالخبر، والمحترفين ببضاعة الطلب، بحيث لم يتعرف وروده ووصوله إلا ممن لا يؤبه بتعريفه، ولم تتحقق زوائده وأصوله لقلة تصريفه. ثم تلاحق إرسالكم الجلة، فوجبت حينئذ الشفاعة، وعرضت على سوق الحلم والفضل من الاستلطاف والاستعطاف البضاعة، وقررنا ما تحققناه من أمره، وانقباضه عن زيد الخلق وعمره، واستقباله الوجهة التي من ولي وجهه شطرها فقد آثر أثيراً، ومن ابتاعها بمتاع الدنيا، فقد نال فضلاً كبيراً، وخيراً كثيراً، وسألنا منكم أن تبيحوه ذلك الغرض الذي رماه بعزمه، وقصر عليه أقصى همه. فما أخلق مقامكم أن يفوز منه طالب الدنيا، فقد نال فضلاً كبيراً، وخيراً كثيراً، وسألنا منكم أن تبيحوه ذلك الغرض الذي رماه بعزمه، وقصر عليه أقصى همه. فما أخلق مقامكم أن يفوز منه طالب الدنيا بسهمه، ويحصل منه طالب الآخرة على حظه الباقي وقسمه، ويتوسل الزاهد بزهده والعالم بعلمه، ويعول البريء على فضله، ويثق المذنب بحلمه، فوصل الجواب الكريم بمجرد الأمان، وهو أرب من آراب، وفائدة من جراب، ووجه من وجوه إعراب، فرأينا أن المطل بعد جفاء، والإعادة ليس يثقلها خفاء، ولمجدكم بما ضمنا عنه وفاء، وبادرنا الآن إلى العزم عليه في ارتحاله، وأن يكون الانتقال عن رضاً منه من صفة حاله، وأن يقتضي له ثمرة المقصد، ويبلغ طية الإسعاف في الطريق إن قصد، إذ كان الأمان لمثله ممن تعلق بجناب الله. من مثلكم حاصلاً، والدين المتين بين نفسه وبين المخافة فاصلاً، وطالبنا كيمياء السعادة بإعانتكم واصلاً. ولما مدت اليد في تسويغ حالة هذيكم عليها أبداً يحرض، وعلمكم يصرح بمزيتها ولا يعرض، فكملوا أبقاكم الله ما لم تسعنا فيه مشاحة الكتاب، وألحقوا بالأصل حديث هذه الإباحة، فهو أصح حديث في الباب، ووفوا غرضنا من مجدكم، وخلوا بينه وبين مراده من ترك الأسباب، وقصد غافر الذنب وقابل التوب بإخلاص المتاب، والتشمير ليوم العرض وموقف الحساب، وأظهروا عليه عناية الجناب، والذي تعلق به، أعلق الله به يدكم من جناب، ومعاذ الله أن تعود شفاعتنا من لدنكم غير مكملة الآراب. وقد بعثنا من ينوب عنا في مشافهتكم بها أحمد المناب، ويقتضى خلاصها بالرغبة لا بالغلاب، وهما فلان وفلان، ولولا الأعذار لكان في هذا الغرض إعمال الراب بسبق إعلام الكتاب، وأنتم تولون هذا القصد من مكارمكم ما يوفر الثناء الجميل، ويربي على التأميل، ويكتب على الود الصريح العقد وثيقة التسجيل. وهو سبحانه يبقيكم لتأييد المجد الأثيل، وإنالة الرفد الجزيل، والسلام الكريم يخص مقامكم الأعلى، ومثابتكم الفضلى، ورحمة الله تعالى وبركاته. في الحادي والعشرين لجمادة الآخرة من عام سبعة وخمسين وسبعمائة والله ينفع بقصده،

وييسر علينا الرجعة إلى وجهه وفضله.

مشيخته

قال: فممن أخذت عنه، واستفدت منه علماها يعني تلمسان الشامخان، وعالماها الراسخان، أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى إبنا محمد بن عبد الله بن الإمام، وحافظها ومدرسها ومفتيها أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المشذالي، صهر شيخ المتأخرين، أبي علي ناصر الدين على إبنته، ومشكاة الأنوار التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن حكيم الكناني السلوى رحمه الله. ومهم القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور، والشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسن البروني، وأبو عمران موسى بومن المصمودي الشهير بالبخاري. قال سمعت البروني يقول: كان الشيخ أبو عمران يدرس البخاري، ورفيق له يدرس صحيح مسلم، وكانا يعرفان بالبخاري ومسلم، فشهدا عند قاضي، فطلب المشهود عليه بالإذار فيهما، فقال له أبو عمران أتمكنه من الإعذار في الصحيحين، البخارس ومسلم، فضحك القاضي، وأصلح بين الخصمين. ثم قال، ومن شيوخي الصلحاء الذين لقيت بها، خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخباط، أدرك أبا إسحاق الطيار. ومنهم أبو عبد الله بن محمد الكرموني، وكان بصيراً بتفسير الرؤيا، فمن عجايب شأنه، أنه كان في سجن أبي يعقوب يوسف ابن عيد الحق مع من كان فيه، من أهل تلمسان أيام محاصرته لها، فرأى أبا جمعة على التلالسي الجرايحي منهم، كأنه قايم على ساقيه دايرة، وجميع أقداحها وأقواسها نصب في نقير في وسطها، فجاء ليشرب، فاغترف الماء، فإذا فيه فرث ودم، فأرسله، واغترف فإذا هو كذلك، ثلاثاً أو أكثر، ثم عدل إلى خاصة ماء، فجاءها وشرب منها. ثم استيقظ، وهو النهار، فأخبره، فقال إن صدقت الرؤيا، فنحن عن قليل خارجون من هذا السجن. قال كيف، قال الساقية الزمان، والنقير السلطان، وأنت جرايحي، تدخل يدك في جوفه فينالها الفرث والدم، وهذا ما لا يحتاج معه إلى دليل، فأخرج، فوجد السلطان مطعوناً بخنجر، فأدخل يده في جوفه، فناله الفرث والدم، فخاط جراحته وخرج، فرأى خاصة ماء، فغسل يده وشرب. ولم يلبث السلطان أن توفي، وسرحوا من كان في سجنه، ومن أشياخه الإمام نسيج وحده، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن أحمد الآبلى التلمساني، وهو رحلة الوقت في القيام على الفنون العقلية، وإدراكه وصحة نظره.

حدث قال: قدم على مدينة فاس، شيخنا أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي، عرف بن المسفر. رسولا من صاحب بجاية. وزاره الطلبة، فكان مما حدثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين، يستشكلون كلاماً وقع في تفسير سورة الفاتحة من كتب فخر الدين، واستشكله الشيخ معهم. وهذا نصه: ثبت في بعض العلوم العقلية، أن المركب مثل البسيط في الجنس، والبسيط مثل المركب في الفصل، وأن الجنس أقوى من الفصل. فأخبروا بذلك الشيخ الآبلي لما رجعوا إليه، فتأمله ثم قال، هذا كلام مصحف، وأصله أن المركب قبل البسيط في الحس، و البسيط قبل المركب في العقل، وإن الحس أقوى من العقل، فأخبروا ابن المسفر، فلج: فقال لهم الشيخ، التمسوا النسخ، فوجدوا في لفظ بعضها كما قال الشيخ.

رحلته

رحل إلى بجاية مشرقاً، فلقي بها جلة، منهم الفقيه أبن عبد الله محمد بن يحيى الباهلي، ابن المسفر. ومنهم قاضيها أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي يوسف يعقوب الزواوي، فقيه ابن فقيه. ومنهم أبو علي حسن بن حسن إمام المعقولات بعد ناصر الدين. وبتونس قاضي الجماعة وفقيهها أبو عبد الله بن عبد السلام، وحضر دروسه، وقاضى المناكح أبو

محمد بن محمد بن عبد الرحمن التوزري المعروف بخليل، وإمام المقام أبا العباس رضي الدين الشافعي، وغير واحد من الزايرين والمجاورين وأهل البلد. ثم دخل الشام، فلقي بدمشق، شمس الدين بن قيم الجوزية صاحب ابن تيمية، وصدر الدين الغماري المالكي، وأبا القاسم بن محمد اليماني الشافعي وغيرهم. وببيت القدس أبا عبدالله بن مثبت، والقاضي شمس الدين ابن سالم، والفقيه أبا عبد الله بن عثمان، وغيرهم.

تصانيفه

ألف كتاباً يشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية، ضمنها كل أصيل من الرأي والمباحثة. ودون في التصوف، إقامة المريد، ورحلة المتبتل، وكتاب الحقايق والرقايق، وغير ذلك.

شعره

نقلت من ذلك قوله. هذه لمحة العارض لتكملة ألفية ابن الفارض، سلب الدهر من فرايدها مائة وسبعة وسبعين، فاستعنت على رجها بحول الله المعين.

من فصل الإقبال

رفضت السوى وهو الطهارة عندما ... تلفعت في مرط الهوى وهو زينتي
وجئت الحمى وهو المصلى ميمماً ... بوجهه قلبي وجهها وهو قبلتي
وقمت وما استفتحت إلا بذكرها ... وأحرمت إحراماً لغير تجلة
فديني إن لاحت ركوع وإن دنت ... سجود وإن لاهت قيام بحسرة
على أننا في القرب والبعد واحد ... تألفنا بالوصل عين التشتت
وكم من هجير خضت ظمآن طاوياً ... إليها وديجور طويت برحلة
وفيها لقيت الموت أخمر والعدا ... مزرقة أسنان الرماح وحدة
وبيني وبين العذل فيها منازل ... تنسيك أيام الفجار ومؤنة
ولما اقتسمنا خطتينا فحامل ... فجار بلا أجر وحامل برة
خلا مسمعي من ذكرها فاستعدته ... فعاد ختام الأمر أصل القضية
وكم لي على حكم الهوى من تجلد ... دليل على أن الهوى من سجيتي
يقول سميري والأسا سالم الأسى ... ولا توضع الأوزار إال لمحنة
لو أن مجوساً بت موقد نارها ... لما ظل إلا منهلاً ذا شريعة
ولو كنت بحراً لم يكن فيه نضحة ... لعين إذا نار الغرام استحرت
فلا رجم من نقيب المعاول آمن ... ولا هدم إلاك شيد بقوة
فمم تقول الاسفطسات منك أو ... علام مزاج ركبت أو طبيعة
فإن قام لم يثبت له منك قاعد ... وإلا فأنت الدهر صاحب قعدة
فما أنت يا هذا الهوى ماء أو هوا ... أم النار أم دساس عرق الأمومة
وإني على صبري كما أنت واصف ... وحالي أُوى القائمين بحجة
أقل الضنى إن عج من جسمي الضنى ... وما شاكله معشار بعض شكيتي
وأيسر شقي أنني ما ذكرتها ... ولم أنسها إلا احترقت بلوعة
وأخفى الجوى قرع الصواعق منك في ... جواي وأخفى الوجد صبر المودة

وأسهل ما ألقى من العذل أنني ... أحب أفلى ذكرها وفضيحتي
وأوج حظوظي اليوم منها حضيضها ... بالأمس وسل حر الجفون الغزيرة
وأوجز أمري إن دهري كله ... كما شاءت الحسناء يوم الهزيمة
أروح وما يلقى التأسف راحتي ... وأغدو وما يعدو النفج خطتي
وكالبيض بيض الدهر ولاسمر سوده ... مساءتها في طي طيب المسرة
وشأن الهوى ما قد عرفت ولا تسل ... وحسبك أن لم يخبر الحب رؤيتي
سقام بلا برء ضلال بلا هدى ... أوام بلا ري دم لا بقيمة
ولا عتب فالأيام ليس لها رضاً ... وإن ترض منها الصبر فهو بغيتي
ألا أيها اللوام عني قوضوا ... ركاب ملامي فهو أول محنتي
ولا تعذلوني في البكاء ولا البكى ... وخلو سبيلي ما استطعتم ولوعتي
فما سلسلت بالدمع عيني إن جنت ... ولكن رأت ذاك الجمال فجنت
تجلى وأرجاء الرجاء حولك ... ورشدي غاو والعمايات عمت
فلم يستبن حتى كأني كاشف ... وراجعت أبصاري له وبصيرتي
ومن فصل الاتصال
وكم موقف لي في الهوى خضت دونه ... عباب الردى بين الظبا والأسنة
فجاوزت في حدي مجاهدتي له ... مشاهدتي لما سمت بي همتي
وحل جمالي في الجلال فلا أرى ... سوى صورة التنزيه في كل صورة
وغبت عن الأغيار في تيه حالتي ... فل أنتبه حتى امتحي اسمي وكنيتي

وكاتبت ناسوتي بأمارة الهوى ... وعدت إلى اللاهوت بالطمئنة
وعلم يقيني صار عيناً حقيقة ... ولم يبق دوني حاجب غير هيبتي
وبدلت بالتلوين تمكين عزة ... ومن كل أحوالي مقامات رفعة
وقد غبت بعد الفرق والجمع موقفي ... مع المحو والإثبات عند تثبتي
وكم جلت في سم الخياط وضاق بي ... لبسطى وقبضي بسطوجه البسيطة
وما اخترت إلا دن بقراط زاهدا ... وفي ملكوت النفس أكبر عبرة
وفقري مع الصبر اصطفيت على الغنى ... مع الشكر إذ لم يحظ فيه مثوبتي
وأكتم جبي ما كنى عنه أهله ... وأكنى إذا هم صرحوا بالخيبة
وإني في جنسي ومنه لواحد ... كنوع ففصل النوع علة حصتي
تسببت في دعوى التوكل ذاهباً ... إلى أن أجدى حيلتي ترك حيلتي
وآخر حرف صار مني أولا ... مريداً وحرف في مقام العبودة
تعرفت يوم الوقف منزل قومها ... فبت بجمع سدد خرق التشتت
فأصبحت أقضي النفس منها منى الهوى ... وأقضي على قلبي برعي الرعية
فبايعتها بالنفس داراً سكنتها ... وبالقلب منه منزلاً فيه حلت
فخلص الاستحقاق نفسي من الهوى ... وأوجب الاسترقاق تسليم شفعة

فيا نفس لا ترجع تقطع بيننا ... ويا قلب لا تجزع ظفرت بوحدة
ومن فصل الإدلال
تبدت لعيني من جمالك لمحة ... أبادت فؤادي من سناها بلفعة
ومرت بسمعي من حديثك ملحة ... تبدت لها فيك القران وقرت
ملامي أبن عذري استبن وجدي استعن ... سماعي أعن حالي أبن قائلي أصمت
فمن شاهدي سخط ومن قاتلي رضا ... وتلوين أحوالي وتمكين رتبتي
مرامي إشارات مراعي تعكر ... مراقي نهايات مراسي تثبت
وفي موقفي والدار أوقرت رسومها ... تقرب أشواقي تبعد حسرتي
معاني إمارات مغاني تذكر ... مباني بدايات مثاني تلفت
وبث غرام والحبيب بحضرة ... ورد سلام والرقيب بغفلة
ومطلع بدر في قضيب على نقا ... فويق محل عاطل دون دجية
ومكمن من سحر بابلي له بما ... حوت أضلعي فعل القنا السمهرية
ومنبت مسك من شقيق ابن منذر ... على سوسن غض بجنة وجنة
ووصف اللآلى في اليواقيت كلما ... تعل بصرف الراح في كل سحرة
سل السلسبيل العذب عن طعم ريقه ... ونكهته يخبرك عن علم خبرة
ورمان كافور عليه طوابع ... من الند لم تحمل به بنت مزنة
ولطف هواء بين خفق وبانة ... ورقة ماء في قوارير فضلة
لقد عز عنك الصبر حتى كأنه ... سراقة لحظ منك للمتلفت
وأنت وإن لم تبق مني صبابة ... منى النفس لم تقصد سواك بوجهة
وكل فصيح منك يسري لمسمعي ... وكل مليح منك يبدو لمقلتي
تهون على النفس فيك وإنها ... لتكرم أن تغش سواك بنظرة
فإن تنظريني بالرضا تشف علتي ... وإن تظفريني باللقا تطف غلتي
وإن تذكريني والحياة بقيدها ... عدلت لأمتي منيتي بمنيتي
وإن تذكريني بعد ما أسكن الثرى ... تجلت دجاه عند ذاك وولت
صليني وإلا جددى الوعد تدركي ... صبابة نفس أيقنت بتفلت
فما أم بوها لك بتنوفة ... أقيم لها خلف الحلاب قدرت
فلما رأته لا ينازع خلفها ... إذا هي لم ترسل عليه وضنت
بكت كلما راحت عليه وأنها ... إذا ذكرته آخر الليل حنت

بأكثر مني لوعة غير أنني ... رأيت وقار الصبر أحسن حلية
فرحت كما أغدو إذا ما ذكرتها ... أطامن أحشائي على ما أجنت
أهون ما ألقاه إلا من القلى ... هوى ونوى نيل الرضا منك بغيتي
أخوض الصلى أطفي العلا والعلو لا ... أصل السلا أرعى الخلى بين عبرتي
ألا قاتل الله الحمامة غدوة ... لقد أصلت الأحشا نيران لوعة

وقاتل مغناها وموقف شجوها ... على الغصن ماذا هيجت حين غنت
فغنت غناء أعجمياً فهيجت ... غرامي من ذكري عهود تولت
فأرسلت الأجفان سحباً وأوقدت ... جواي الذي كانت ضلوعي أكنت
نظرت بصحراء البريقين نظرة ... وصلت بها قلبي قصل وصلت
فيا لهما قلباً شجياً ونظرة ... حجاكية لوجن طرف لجنت
ووا عجباً للقلب كيف اعترافه ... وكيف بدت أسراره خلف سترة
وللعين لما سوئلت كيف أخبرت ... وللنفس لما وطنت كيف دلت
وكنا سلكنا في صعود من الهوى ... يسامى بأعلام العلا كل رتبة
إلى مستوى ما فوقه مستوى ... فلما توافينا ثبت وزلت
وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا ... على نحر قربان لدي قبر شيبة
مؤكدة بالنذر أيام عهده ... فلما تواثقنا اشتددت وحلت
ومن فصل الاحتفال
أزور اعتماراً أرضها بتنسك ... وأقصد حجا بها بتحلة
وفي نشأتي الأخرى ظهرت بما علت ... له نشأتي الأولى على كل فطرة
ولولا خفاء الرمز ألوان ولم ... تجدها لشملي مسلكاً بتشتت
ولو لم يحدد عهدنا عقد خلة ... قضيت ولم يقض المنى صدق توبة
بعثت إلى قلبي بشيراً بما رأت ... على قدم عيناي من فكفت
فلم يعد أن شام البشارة شام ما ... جفا الشام من نور الصفات الكريمة
فيا لك من نور لو أن النفاتة ... تعارض منه بالنفوس النفيسة
تحدث أنفاس الصبا أن طيبها ... بما حملته من حراقة حرقة
وتنبئ آثال الربيع عن الربا ... وأشجاره إن قد تجلت فجلت
وتخبر أصوات البلابل أنها ... تغنت بترجيعي على كل أيكة
فهذا جمالي منك في بعد حسرتي ... فكيف به إن قربتني بخلة
تبدي وما زال الحجاب ولادنا ... وغاب ولم يفقده شاهد حضرتي
له كل غير في تجلية مظهر ... ولا غير إلا ما محت كف غيرة
تجلى دليل واحتجاب تنزه ... وإثبات عرفان ومحو تثبت
فما شئت من شيء وآليت أنه ... هو شيء لم تحمد فجار أليتي
وفي كل خلق منه كل عجيبة ... وفي كل خلق منه كل لطيفة
وفي كل خاف منه مكمن حكمة ... وفي كل باد منه مظهر جلوة
أراه يقلب القلب واللغز كامناً ... وفي الزجر والفال الصحيح الأدلة
وفي طي أوفاق الحساب وسر ما ... يتم من الأعداد فابدأ بستة
وفي نفثات السحر في العقد التي ... تطوزع لها كل الطباع الأبية
صور شكلاً مثل شكل ويعتلى ... عليه بأوهام النفوس الخبيثة

وفي كل تصحيف وعضو بذاته اختلاج وفي التقويم مجلى لرؤية
وفي خضرة الكمون تزجة شرابه ... مواعيد عرقوب على أثر صفرة
وفي شجر قد خوفت قطع أصلها ... فيان بها حمل لأقرب مدة
وفي النخل في تلقيحة واعتبر بما ... أتى فيه عن خير البرية واسكت
وفي الطابع السبتي في الأحرف التي ... يبين منها النظم كل خفية
وفي صنعة الطلسم والكيمياء والكنوز وتغوير المياه المعينة

وفي حرز أقسام المؤدب محرز ... وحزب أصيل الشاذلي وبكرة
وفي سيمياء الحاتمي ومذهب ابن سبعين إذ يعزى إلى شر بدعة
وفي المثل الأولى وفي النحل الألى ... بها أوهموا لم اتساموا بسنة
وفي كل ما في الكون من عجب وما ... حوى الكون إلا ناطقاً بعجيبة
فلا سر إلا وهنو فيه سريرة ... ولا جهر إلا وهو فيه كحلية
سل الذكر عن إنصاف أصناف ما ابتنى ... عليه الكلام من حروف سليمة
وعن وضعها في بعضها وبلوغ ما ... أتت فيه أمضى عدها وتثبت
فلا بد من رمز الكنوز لذي الحجا ... ولا ظلم إلا ظلم صاحب حكمة
ولولا سلام ساق للأمن خيفتي ... لعاجل مس البرد خوفي لميتبي
ولو لم تؤانسني عنا قبل لم ولم ... قضى العتب مني بغية بعد وحشتي
ونعم أقامت أمر ملكي بشكرها ... كما هونت بالصبر كل بلية
ومن فصل الاعتقال
سرت بفؤادي إذ سرت فيه نظرتي ... وسارت ولم تثن العنان بعطفة
وذلك لما أطلع الشمس في الدجى ... محياً إبنة الحيين في خير ليلة
يمانية لو أنجدت حين أنجدت ... لا أبصرت عيناك حياً كميت
لأصحمة في نصحها قدم نبي ... لكل نجاشي بها حصن ذمة
ألمت فحطت رحلها ثم لم يكن ... سوى وقفة التوديع حتى استقلت
فلو سمحت لي بالتفات وحل من ... مهاوي الهوى والهون جد تفلتي
ولكنها همت بنا فتذكرت ... قضاء قضاة الحسن قدما فصدت
أجلت خيالاً إنني لا أجله ... ولم أنتسب منه لغير تعلة
على أنني كلي وبعضي حقيقه ... وباطل أوصافي وحق حقيقتي
وجنسي وفصلي والعوارض كلها ... ونوعي وشخصي والهواء وصورتي
وجسمي ونفسي والحشا وغرامه ... وعقلي وروحانيتي القدسية
وفي كل لفظ عنه ميل لمسمعي ... وفي كل معني منه معنى للوعتي
ودهري به عيد ليوم عروبة ... وأمري أمرى والورى تحت قبضتي
ووقتي شهود في فناء شهدته ... ولات وقت لي إلا مشاهد غيبة
أراه معي حساً ووهماً وأنه ... مناط الثريا من مدارك رؤيتي

وأسمعه من غير نطق كأنه ... مناط الثريا من مدارك رؤيتي
وأسمعه من غير نطق كأنه ... يلقن سمعي ما توسوس مهجتي
ملأت بأنوار المحبة باطني ... كأنك نور في سرار سريرتي
وجليت بالإجلال أرجاء ظاهري ... كأنك في أفقي كواكب زينة
فأنت الذي أخفيه عنج تستري ... وأنت الذي أبديه في حين شهرتي
فته أحتمل واقطع أصل وأعل استفل ... ومر أمتثل وأملل أمل وارم أثبت
فقلبي إن عاتبته فيك لم أجد ... لعتبي فيه الدهر موقع نكنة
ونفسي تنبو عن سواك نفاسة ... فلا تنتمي إلا إليك بمنة
تعلقت الآمال منك بفوق ما ... أرى دونه ما لا ينال بحيلة
وحامت حواليها وما وافقت حمى ... سحائب كيس أمطرت ماء عبرتي
فلو فاتني منك الرضى ولحقتني ... بعفو بكيت الدهر فوت فضيلة
ولو كنت في أهل اليمين منعماً ... بكيت على ما كان من سبقية
وكم من مقام قمت عنك مسائلاً ... أرى كل حي كل حي وميت
أتيت بفاراب أبا نصرها فلم ... أجد عنده علماً يبرد غلتي
فهل في ابن رشد بعد هذين مرتجى ... وفي ابن طفيل الحتناث مطيتي
لقد ضاع لولا أن تداركني حمى ... من الله سعى بينهم طول مدتي

فقيض لي نهجاً إلى الحق سالكاً ... وأيقظني من نوم جهلي وغفلتي
فحصنت أنظار الجند جنيدها ... بترك فلى من رغبة ريح رهبة
وكسرت عن رجل ابن أدهم أدهماً ... وأنقذته من أس رحب الأسرة
وعدت على حلاج سكرى بصلبه ... وألقيت بلعام النفاني بهوة
فقولي مشكور ورأيي ناجح ... وفعلي محمود بكل محلة
رضيت بعرفاني فأعليت للعلا ... وأجلسني بعد الرضا فيه جلتي
فعشت ولا ضيراً أخاف ولا قلى ... وصرت حبيباً في ديار أحبتي
فها أنا ذا أمسي وأصبح بينهم ... مبلغ نفسي منهم ما تمنت
وأنشدني قوله في حال قبض وقيدها عنه:
إليك بسطت الكف أستنزل الفضلا ... ومنك قبضت الطرف أستشعر الذلا
وها أنا ذا قد قدمت يقمني الرجا ... ويحجمني الخوف الذي خامر العقلا
أقدم رجلا إن يضيء برق مطمع ... وتظلم أرجائي فلا أنقل الرجلا
ولي عثرات لست آمل أن هوت ... بنفسي ألا أستقل وأن أصلى
فإن تدركني رحمة أنتعش بها ... وإن تكن الشأخرى فأولى بي الأولى
قال: ومما نظمته من الشعر:
وجد تسعره الضلو ... ع وما تبرده المدامع
هم تحركه الصبا ... بة والمهابة لا تطاوع

أملي إذا وصل الرجا ... أسبابه فالموت قاطع
بالله يا هذا الهوى ... ما أنت بالعشاق صانع
قال ومما كتبت به لمن بلغني عنه بعض الشيء:
نحن إن نسأل بناس معشر ... أهل ماء فجرته الهمم
عرب من بيضهم أرزاقهم ... ومن السمر الطوال الخيم
عرضت أحسابهم أرواحهم ... دون نيل العرض وهي الكرم
أورثونا المجد حتى أننا ... نرتضي الموت ولا نزدحم
ما لنا في الناس من ذنب سوى ... أننا نلوى إذا ما اقتحموا
قال: وما قلته مذيلاً به قول القاضي أبي بكر بن العربي:
أما والمسجد الأقصى وما يتلى به نصا
لقد رقصت بنات الشو ... ق بين جوانحي رقصا
قولي:
فأقلع بي إليه هوى ... جناحا عزمه قصا
أقل القلب واستعدى ... على الجثمان فاستعصى
فقمت أجول بينهما ... فلا أدنى ولا أقصى
قال: ومما قلته في التورية بشأن راوي المدونة:
لا تعجبن لظبي قد دها أسداً ... فقد دها أسداً من قبل سحنون
قال: ومما قلته من الشعر:
أنبت عوداً بنعماء بدأت بها ... فضلاً وألبستها بعد اللحى الورقا
فظل مستشعراً مستدثرا أرجا ... ريان ذا بهجة يستوقف الحدقا
فلا تشنه بمكروه الجني فلكم ... عودته من الجميل من لدن خلقا
وأنف القذى عنه وأثر الدهر منبته ... وغذه برجاء واسقه غدقا
واحفظه من حادثات الدهر أجمعها ... ما جاء منها على ضوء وما طرقاً

ومما قيدت عنه أيام مجالسته ومقامه بغرناطة، وقد أجرى ذكر أبي زيد ابن الإمام، أنه شهد مجلساً بين يدي السلطان أبي تاشفين عبد الرحمن ابن أبي حمو، ذكر فيه أبو زيد المذكور، أن ابن القاسم مقيد بالنظر بأصول مالك، ونازعه أبو موسى عمران بن موسى المشذالي، وادعى أنه مطلق الاجتهاد، واحتج له بمخالفته لبعض ما يرويه أو يبلغه عنه لما ليس من قوله، وأتى من ذلك بنظائر كثيرة. قال فلو تقيد بمذهبه، لم يخالفه لغيره. فاستظهر أبو زيج بنص لشرف الدين بن التلمساني، ومثل فيه الاجتهاد المخصوص باجتهاد ابن القاسم، بالنظر إلى مذهب مالك، والمزني إلى الشافعي. فقال أبو موسى عمران، هذا مثال، والمثال لا يلزم صحته، فصاح به أبو زيد ابن الإمام وقال لأبي عبد الله بن أبي عمر تكلم فقال لا أعرف ما قال هذا الفقيه، والذي أذكره من كلام أهل العلم أنه لا يلزم من فساد المثال فساد الممثل به، فقال أبو موسى للسلطان، هذا كلام أصولي محقق، فقلت لهما يومئذ، وأنا حديث السن، ما أنصفهما الرجل، فإن المثل كما يؤخذ على عجهة التحقيق، كذلك يؤخذ على جهة التقريب، ومن ثم جاء منا قال هذا الشيخ، أعني ابن أبي عمران، وكيف لا وهذا سيبويه يقول، وهذا مثال ولا يتكلم به، فإذا صح أن المثال قد

يكون تقريباً، فلا يلزم صحة المثال، ولا فساد الممثل لفساده فهذان القولان من أثل واحد.
وقال: شهدت مجلساً آخر عند هذا السلطان، قرئ فيه على أبي زيد ابن الإمام حديث: لقنوا موتاكم لا إله إلا الله، من صحيح مسلم. فقال له الأستاذ أبو إسحاق بن حكم السلوى هذا الملقن محتضر حقيقة، ميت مجازاً فما وجه ترك محتضريكم إلى موتاكم، والأصل الحقيقة، فأجابه أبو زيد بجواب لم يقنعه. وكنت قد قرأت على الأستاذ بعض التنقيح، فقلت زعم القرافي أن المشتق إنما يكون حقيقة في الحال، مجازاً في الاستقبال. مختلفاً فيه في الماضي. إذا كان محكوماً به. وأما إذا كان متعلق الحكم كما هنا، فهو حقيقة مطلقاً إجماعاً، وعلى هذا التقرير، لا مجاز ولا سؤال.
ولا يقال إنه احتج على ذلك بما فيه نظر، لأنا نقول إنه نقل الإجماع. وهو أحد الأربعة، التي لا يطالب عنها بالدليل، كما ذكر أيضاً، بل نقول إنه أساء حيث احتج في موضع الوفاق، كما أساء اللخمي وغيره في الاحتجاج على وجوب الطهارة ونحوها. بل هذا أشنع لكونه مما علم كونه من الدين ضرورة. ثم إنا لو سلمنا نفي الإجماع، فلنا أن نقول إن ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التي يعقبها الموت عادة، لأن تلقينه قبل ذلك، إن لم يدهش، فقد يوحش، فهو تنبيه على وقت التلقين، أي لقنوا من تحكمون بأنه ميت. أو يقال إنما عدل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام. ألا ترى اختلافهم فيه، هل هو أخذ من حضور الملايكة أو حضور الأجل، أو حضور الجلاس. ولا شك أن هذه حالة خفية يحتاج في نصها إلى دليل الحكمة أو إلى وصف ظاهر يضبطها. وهو ما ذكرناه، أو من حضور الموت، وهو أيضاً مما لا يعرف بنفسه. بل بالعلامات. فلما وجب اعتبارا. وجب كون تلك التسمية إشارة إليها. والله أعلم.
وقال: وكان أبو زيد يقول فيما جاء من الأحاديث، ما معنى قول ابن أبي زيد. وإذا سلم الإمام، فلا يلبث بعد سلامه ولينصرف، وذلك بعد أن ينتظر من يسلم من خلفه لئلا يمر بين يدي أحد، وقد ارتفع عنه حكمه، فيكون كالداخل مع المسبوق جمعاً بين الأدلة.
وقلت، وهذا من ملح الفقية. وقال كان أبو زيد يعنى الإمام، يصحف قول الخونجي في الجمل والمقارنات التي يمكن اجتماعه معها، فيقول، والمفارقات، ولعله في هذا كما قال أبو عمرو بن العلاء للأصمعي لما قرأ عليه:
وغررتني وزعمت أنك لابن في الصيف تأمر
فقال:
وغررتني وزعمت أنك لا تني بالضيف تأمر
فقال، أنت في تصحيفك أشهر من الحطيئة، أو كما يحكى عن الشافعي أنه لما صلى في رمضان بالخليفة، لم يكن يومئذ يحفظ القرآن، فكان ينظر في المصحف، وقرأ الآية " صنعة الله أصيب بها من أساء. إنما المشركون نجس. وعدها إياه، تقية لكم خير لكم. هذا أن دعوا للرحمن ولدا. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه " .

وقال، ذكر أبو زيد بن الإمام في مجلسه يوماً، أنه سئل بالمشرق عن هاتين الشريطتين: " ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون " فإنهما يستلزمان بحكم الإنتاج " ولو علم الله فيهم خيراً لتولوا وهم معرضون " وهو محال. ثم أراد أن يرى ما عند الحاضرين، فقال ابن حكم؛ قال الخونجي، والإهمال إطلاق لفظه، لو وأن في المتصلة، فهاتان القضيتان على هذا مهملتان، والمهملة في قوة الجزيئة، ولا قياس على جزئيتين. فلما اجتمعت ببجاية بأبي علي حسين بن حسين، أخبرته بهذا، وبما أجاب به الزمخشري وغيره، مما يرجع إلى انتفاء أمر تكرار الوسط. فقال لي الجوابان في المعنى سواء، لأن القياس على الجزئيتين إنما امتنع لانتفاء أمر تكرار الوسط. وأخبرت بذلك شيخنا أبا عبد الله الآبلي، فقال إنما يقوم القياس على الوسط، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من جزئيتين ولا سالبتين، إلى ساير ما يشترط. فقلت ما المانع من كون هذه الشروط تفصيلاً لمجمل ما ينبئى عله الوسط

وغيره، وإلا فلا مانع لما قاله ابن الشروط تفصيلاً لمجمل ما ينبئى عليه الوسط وغيره، وإلا فلا مانع لما قاله ابن حسين. قال الآبلي؛ وأجبت بجواب السلوى، ثم رجعت إلى ما قاله الناس، لوجوب كون مهملات القرآن كلية، لأن الشرطية لا تنتج جزئية. فقلت هذا فيما يساق منها للحجة مثل " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا " . أما في مثل هذا فلا قلت. وكان يلزم السؤال الأول لو لم يكن للمتولى سبب تأخر، حسبما تبين في مسألة، لو لم يطع الله، فلينظر ذلك في اسم شيخنا أبي بكر يحيى بن هذيل رحمه الله.

وقال، لما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن بن فرحون، نزيل طيبة، على تربتها السلام سأل ابن حكم عن معنى هذين البيتين:

رأت قمر السماء فأذكرتني ... ليالي وصلنا بالرقمتين

كلانا ناظر قمراً ولكن ... رأيت بعينها ورأت بعيني

ففكر ثم قال لعل هذا الرجل كان ينظر إليها، وهي تنظر إلى قمر السماء، فهي تنظر إلى القمر حقيقة، وهو لفرط الاستحسان يرى أنها الحقيقة. فقد رأى بعينها لأنها ناظرة الحقيقة. وأيضاً وهو ينظر إلى قمر مجازاً، وهو لإفراطه استحسانها يرى أن قمر السماء هو المجاز، فقد رأت بعينه لأنها ناظرة المجاز. قلت، ومن هذا يعلم وجه الفاء في قوله تعالى " فاذكروني أذكركم " والفاء فأذكرتني بمثابة قولك أذكرتني، فتأمله، فإن بعض من لا يفهم كلام الأستاذ كل الفهم، ينشده وأذكرتني. فالفاء في البيت الأول، منبهة على الثاني، وهذا النحو يسمى الإيذان في علم البيان وقال، سألني ابن حكم عن نسب هذا المجيب في هذا البيت:

ومهفهف الأعطاف قلت له انتسب فأجاب ما قتل المحب حرام.

ففكرت ثم قفلت له، أراه تميمياً لإلغائه " ما " النافية. فاستحسنه مني لصغر سني يومئذ. وسأل ابن فرحون ابن حكم يوماً، هل تجد في التنزيل ست فاءات مرتبة ترتيبها في هذا البيت:

رأى فحب فرام الوصل فامتنعت ... فسام صبراً فأعيا نيله فقضى

ففكر ابن حكم، ثم قال نعم قوله عز وجل " فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون، فاصبحت كالصريم، فتنادوا إلى آخرها " فمنع لهم بناء الآخرة لقراءة الواو. فقلت له امنع ولا تسند، فيقال إن المعاني قد تختلف باختلاف الحروف، وإن كان السند لا يسمع الكلام عليه. وأكثر ما وجدت الفاء تنتهي في كلامهم إلى هذا العدد، سواء بهذا الشرط وبدونه، كقول نوح عليه السلام فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم. وكقول امرئ القيس غشيت ديار الحي بالبكرات، البيتين لا يقال قوله، فالحب سابع، لأنا نقول إنه عطف على عاقل المجرد منها، ولعل حكمة الستة أنها أول الأعداد التامة، كما قيل في حكمة خلق السموات والأرض فيها. وشأن اللسان عجيب.

وقال، سمعت ابن حكم يقول، كتب بعض أدباء فاس إلى صاحب له:

إبعث إلي بشيئ ... مدار فاس عليه

وليس عندك شيء ... مما أشير إليه

فبعث إليه ببطة من مرى شرب يشير بذلك إلى الرياء وحدث أن قاضيها أبا محمد عبد الله بن أحمد بن الملجوم دعى إلى وليمة، وكان كثير البلغم، فوضع بين يديه صهره أبو العباس بن الأشقر غضارا من اللوز المطبوخ بالمرى، لمناسبته لمزاجه، فخاف أن يكون قد عرض له بالرياء. وكان ابن الأشقر يذكر بالوقوع في الناس، فقدم له القاضي غضار المقروض، فاستحسن الحاضرون فطنته.

وقال عند ذكر شيخه أبي محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي دخلت عليه بالفقيه أبي عبد الله السطى في أيام

عيد، فقدم لنا طعاماً، فقلت لو أكلت معنا، فرجونا بذلك ما يرفع من حديث. " من أكل مع مغفور له، غفر له " فتبسم، وقال لي، دخلت على سيدي أبي عبد الله الفاسي بالأسكندرية، فقدم لنا طعاماً، فسألته عن هذا الحديث، فقال وقع في نفسي شيء، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فسألته عنه، فقال لم أقله، وأرجو أن يكون كذلك، وصافحته بمصافحته الشيخ أبا عبد الله زيان، بمصافحته أبا سعيد عثمان بن عطية الصعيدي، بمصافحة أبا العباس أحمد الملثم، بمصافحته المعمر، بمصافحته رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحدث عن شيخه أبي محمد الدلاصي، أنهن كان للملك العادل مملوك اسمه محمد، فكان يخصه لدينه وعقله، بالنداء باسمه، وإنما كان ينعق بمماليكه يا ساقي، يا طباخ، يا مزين. فناداه ذات يوم، يا فراش، فظن أن ذلك لموجدة عليه. فلم ير اثر ذلك، وتصورت له به خلوة، فسأله عن مخالفته لعادته، فقال له لا عليك، كنت يومئذ جنباً، فكرهت أن أذكر اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، على تلك الحالة. وقال أنشدني المجاصي، قال أنشدني الإمام نجم الدين الواسطي، قال أنشدني شرف الدين الدمياطي، قال أنشدني تاج الدين الآمدي، مؤلف الحاصل، قال أنشدني الإمام فخر الدين لنفسه:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ودبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا مسرعين وزالوا

وكم من رجال قد رأينا ودولة ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا

وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجال فماتوا والجبال جبال

وقال، وقد مر من ذكر الشريف القاضي أبي علي حسين بن يوسف بن يحيى الحسني في عداد شيوخه وقال حدثني أبو العباس الرندي، عن القاضي أبي العباس ابن الغماز. قال لما قدم القاضي أبو العباس بن الغماز من بلنسية، نزل بجاية، فجلس بها في الشهود مع عبد الحق بن ربيع، فجاء عبد الحق يوماً، وعليه برنس أبيض، وقد حسنت شارته، كملت هيئته، فلما نظر إليه ابن الغماز أنشده:

ليس البرنس الفقيه فباهى ... ورأى أنه المليح فتاها

لو زليخا رأته حين تبدي ... لتمنته أن يكون فتاه

وقال أيضاً إن ابن الغماز جلس لارتقاب الهلال بجامع الزيتونة، فنزل الشهود من المئذنة وأخبروا أنهم لم يهلوه. وجاء حفيد له صغير، فأخبره أنه أهله، فردهم معه؛ فأراهم إياه، فقال ما أشبه الليلة بالبارحة، وقد وقع لنا مثل هذا مع ابي الربيع بن سالم، فأنشدنا فيه:

توارى هلال الأفق عن أعين الورى ... وأرخى حجاب الغيم دون محياه

فلما تصدى لارتقاب شقيقه ... تبدى له دون الأنام فحياه

وجرى في ذكر أبي عبد الله بن النجار، الشيخ التعالمي من أهل تلمسان، فقال ذكرت يوماً قول ابن الحاجب فيما يحرم من النساء بالقرابة، وهي أصول وفصول، أول أصوله، وأول فصل من كل أصل وإن علا، فقال إن تركب لفظ التسمية العرفية من الطرفين حلت وإلا حرمت، فتأملته. فوجدته كما قال، لأن أقسام هذا الضابط أربعة، التركيب من الطرفين، كابن العم وابنة العم مقابله كالأب والبنت. والتركيب من قبل الرجل، كإبنة الأخ والعم مقابله كابن الأخت والخالة.

وذكر الشيخ الرئيس أبا محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمي. وقال. كان ينكر إضافة الحول إلى الله عز وجل، فلا يجيز أن يقال بحول الله وقوته، قال، لأنه لم يرد إطلاقه، والمعنى يقتضي امتناعه لأن الحول كالحيلة، أو قريب منها.

وحكى عن شيخه أبي زيد عبد الرحمن الصنهاجي، عن القاضي أبي زيد عبد الرحمن بن علي الدكالي، أنه اختصم عنده رجلان في شاة. ادعى أحدهما أنه أودعها الآخر، وادعى الآخر أنها ضاعت منه فأوجب اليمين على المودع أنها ضاعت من غير تضييع، فقال كيف أضيع. وقد شغلتني، حراستها عن الصلاة، حتى خرج وقتها، فحكم عليه بالغرم، فقيل له في ذلك، فقال تأولت قول عمر ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع.

وحكى عن الشيخ الفقيه رحلة الوقت أبي عبد الله الآبلي. حكاية في باب الضرب، وقوة الإدراك، قال، كنت يوماً مع القاسم بن محمد الصنهاجي، فوردت عله طومارة من قبل القاضي أبي الحجاج الطرطوشي فيها:

خيرات ما تحويه مبذولة ... ومطلبي تصحيف مقلوبها

فقال لي ما مطليه، فقلت نارنج، ودخل عليه وأنا عنده بتلمسان الشيخ الطبيب أبو عبد الله الدباغ المالقي، فأخبرنا أن أديباً استجدى وزيراً بهذا الشطر: " ثم حبيب قلما ينصف " فأخذته وكتبته، ثم قلبته وصحفته فإذا به قصبتا ملف شحمى.

وقال، قال شيخنا الآبلي، لما نزلت تازة مع أبي الحسن بن بري، وأبي عبد الله الترجالي، فاحتجت إلى النوم، وكرهت قطعهما إلى الكلام، فاستكشفت منها عن معنى هذا البيت للمعري:

أقول لعبد الله لما سقاؤنا ... ونحن بوادي عبد شمس وهاشم

فجعلا يفكران في، فنمت حتى أصبحا ولم يجاه، وسألوني عنه، فقلت معناه أقول لعبد الله لما، وهي سقاؤنا، ونحن بوادي عبد شمس، شم لنا برقا.

قلت، وفيه نظر، وإن استقصينا مثل هذا، خرجنا عن الغرض.

مولده

نقلت من خطه، كان مولدي بتلمسان، أيام أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان. وقد وفقت على تاريخ ذلك، ورأيت الصفح عنه، لأن أبا الحسن بن موسى، سأل أبا الطاهر السلفي عن سنه، فقال، أقبل على شأنك، فإني سألت أبا الفتح بن زيان بن مسعدة عن سنه، فقال، أقبل على شأنك، فإني سألت محمد بن علي بن محمد اللبان عن سنه فقال، أقبل على شأنك، فإني سألت حمزة بن يوسف السهمي عن سنه، فقال، أقبل على شأنك، فإني سألت بعض أصحاب الشافعي عن سنه، فقال، أقبل على شأنك، فإني سألت أبا إسماعيل الترمذي عن سنه، فقال، أقبل على شأنك، فإني سألت الشافعي عن سنه، فقال، أقبل على شأنك، فإني سألت مالك بن أنس عن سنه، فقال، أقبل على شأنك، ليس من المروءة إخبار الرجل عن سنه.

وفاته

توفي بمدينة فاس في أخريات محرم من عام تسعة وخمسين وسبعمائة وأراه توفي في ذي حجة من العام قبله. ونقل إلى تربة سلفه بمدينة تلمسان حرسها الله.

محمد بن عياض بن موسى اليحصبي

محمد بن عياض بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبي من أهل سبتة، حفيد القاضي الإمام أبي الفضل عياض، يكنى أبا عبد الله.

حاله

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير. كان من عدول القضاة. وجلة سراتهم. وأهل النزاهة فيهم. شديد التحري في الأحكام، والاحتياط، صابراً على الضعيف فيهم والملهوف، شديد الوطأة على أهل الجاه وذوي السطوة فاضلاً وقوراً، حسن السمت، يعرفه كلامه أبداً، ويزينه ذلك لكثرة وقاره، محباً في العلم وأهله، مقرباً لأصاغر الطلبة، ومكرماً لهم، ومعتنياً بهم، معملا جهده في الدفع عنهم، لما عسى أن يسوءهم. ليحبب إليهم العلم وأهله، ما رأينا بعده في هذا مثله. سكن مالقة مع أبيه، عند انتقال أبيه إليها، إلى أن مات أبوه سنة خمس وخمسين وستماية.

حدثني شيخنا أبو الحسن بن الجياب، وجرى ذكر إعرابه لفظ من حديثه عن شيوخه، قال دخلت على القاضي المذكور، فسأل أحدنا عن أبيه، فقال ابن فلان؛ وذكر معرفة مشتركة بين تجار فاس. فقال أيهما الذي ينحت في الخشب، والذي يعمل في السلاح، فما فطن لقصده لسذاجته وحدثني عن ذكر جزالته. أنها كانت تقع له مع السلطان مستقضية، مع كونه مرهوباً، شديد السطوة، وقايع تنبي عن تصميمه، وبعده عن الهوادة. منها أن السلطان أمر بإطلاق محبوس، كان قد سجنه فأنفذ بين يدي السلطان الأمر للسجان بحبسه، وتوعده إن أطلقه. ومنها إذاعة ثبوت العيد، في أخريات يوم، كان قد أمل السلطان البروز إلى العيد في صباحه، فنزل عن القلعة ينادي، عبد الله يا ميمون، إخبر الناس عن عيدهم اليوم، وأمثال ذلك.

مشيخته

قرأ بسبتة، وأسنديها، فأخذ عن أبي الصبر أيوب بن عبد الله الفهري وغيره، ورحل إلى الجزيرة الخضراء. فأخذ بها كتاب سيبويه وغيره تفقيهاً على النحوي الجليل أبي القاسم عبد الرحمن، ابن القاسم القاضي المتقن. وأخذ بها أيضاً كتاب إيضاح الفارسي عن الأستاذ أبي الحجاج بن مغرور، وأخذ بإشبيلية وغيرها عن آخرين. وقرأ على القاضي أبي القاسم بن بقي بن نافحة. وأجاز له. وكتب له من أهل المشرق جماعة كثيرة، منهم أبو جعفر محمد ابن أحمد بن نصر بن أبي الفتح الصيدلاني، وأجاز له بإصبهان، وهو سبط حسن ابن مندة، أجاز له في شوال سنة ثمان وتسعين وخمسمائة. وتحمل عن أبي علي الحداد، شيخ السلفى الحافظ عن محمود الصيرفي ونظايرهما، وجماعة من إصبهان كثيرة كتبوا له بالغجازة. وكتب له من غيرها من البلاد نيف وثمانون رجلا، منهم أحد وستون رجلاً كتبوا له مع الشيخ المحدث أبي العباس المغربي، والقاضي أبي عبد الله الأزدي، وقد نصح على جميعهم في برنامجيهما، واستوفى أبو العباس الغربي نصوصو الإسترعات، وفيها اسم القاضي أبو عبد الله بن عياض.

؟ومن روى عنه قال الأستاذ أبو جعفر رحمه الله، أجاز لي مرتين اثنين. وقال حدثني أبو عبد الله مشافهة بالإذن، أنبأنا أبو الطاهر بركات بن إبراهيم الخشوعي كتابة من دمشق، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن أحمد الرازي المعروف بابن الحطاب بالحاء المهملة، أخبرنا محمد بن أحمد بن عبد الوهاب البغدادي بالقسطاط، أخبرنا موسى ابن محمد بن عرفة السمسار ببغداد، قال أبو عمرو بن أحمد بن الفضل النفزي، أخبرنا إسماعيل بن موسى، أخبرنا عمر بن شاكر عن أنس بن مالك، قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، " يأتي على الناس زمان، الصابر منهم على دينه، كالقابض على الجمر " .

هذا الإسناد قريب يعز مثله في القرب لأمثالنا، ممن مولده بعد الستمائة، وإسماعيل بن موسى من شيوخ الترمذي،

قد خرج عنه الحديث المذكور، لم يقع له في مصنفه ثلاثي غيره.
؟؟

مولده

بسبتة سنة أربع وثمانين وخمسمائة.
وفاته
توفي بغرناطة يوم الخميس الثامن والعشرين لجمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستماية.
محمد بن موسى بن عياض اليحصبي
محمد بن عياض بن موسى بن عياض بن عمر ابن موسى بن عياض اليحصبي، من أهل سبتة ولد الإمام أبي الفضل، يكنى أبا عبد الله.
حاله
كان فقيهاً جليلاً، أديباً، كاملاً. دخل الأندلس، وقرأ على ابن بشكوال كتاب الصلة، وولي قضاء غرناطة، قال ابن الزبير، وقفت على جزء ألفه في شيء من أخبار أبيه، وحاله في أخذه وعلمه، وما يرجع إلى هذا، أوقفني عليه حفدته بمالقة.
وفاته
توفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة.
محمد بن أحمد بن جبير الكناني
محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن سعيد ابن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير الكناني، الواصل إلى الأندلس.
أوليته
دخل جده عبد السلام بن جبير في طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيري في محرم ثلاث وعشرين ومائة. وكان نزوره بكوؤة شدونة. وهو من ولد ضمرة ابن كنانة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. بلنسي الأصل، ثم غرناطي الاستيطان. شرقن وغرب، وعاد إلى غرناطة.
حاله
كان أديباً بارعاً، شاعراً مجيداً، سنياً فاضلاً، نزيه المهمة، سري النفس، كريم الأخلاق، أنيق الطريقة في الخط. كتب بسبتة عن أبي سعيد عثمان ابن عبد المؤمن، وبغرناطة عن غيره من ذوي قرابته، وله فيهم أمداح كثيرة. ثم نزع عن ذلك، وتوجه إلى المشرق، وجرت بينه وبين طايفة من أدباء عصره، مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته. ونظمه فايق، ونثره بديع. وكلامه المرسل، سهل حسن، وأغراضه جليلة، ومحاسنه ضخمة، وذكره شهير، ورحلته نسيجة وحدها، طارت كل مطار، رحمه الله.
رحلته

قال من عنى بخبره، رحل ثلاثاً من الأندلس إلى المشرق، وحج في كل واحدة منها. فصل عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس لثمان خلون من شوال، ثمان وسبعين وخمسماية، صحبة أبي جعفر بن حسان، ثم عاد إلى وطنه غرناطة

لثمان بقين من محرم واحد وثمانين، ولقى بها أعلاماً يأتي التعريف بهم في مشيخته، وصنف الرحلة المشهورة، وذكر مناقله فيها وما شاهده من عجايب البلدان، وغرايب المشاهد، وبدايع الصنايع، وهو كتاب مؤنس ممتع، مثير سواكن النفوس إلى الرفادة على تلك المعالم المكرمة والمشاهد العظيمة ولما شاع الخبر المبهج بفتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، قوي عزمه على عمل الرحلة الثانية، فتحرك إليها من غرناطة، يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة خمس وثمانين وخمسماية، ثم آب إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشر خلت من شعبان سبع وثمانين. وسكن غرناطة، ثم مالقة، ثم سبتة، ثم فاس، منقطعاً إلى إسماع الحديث والتصوف، وتروية ما عنده. وفضله بديع، وورعه يتحقق، وأعماله الصالحة تزكو. ثم رحل الثالثة من سبتة، بعد موت زوجته عهاتكة أم المجد بنت الوزير أبي جعفر الوقشي، وكان كلفاً بها، فعظم وجده عليها، فوصل مكة، وجاور بها طويلاً، ثم بيت المقدس، ثم تجول بمصر والإسكندرية، فأقام يحدث، ويؤخذ عنه إلى أن لحقي بربه.

مشيخته

روى بالأندلس عن أبيه، وأبي الحسن بن محمد بن أبي العيش، وأبي عبد الله بن أحمد بن عروس، وابن الأصيلي. وأخذ العربية عن أبي الحجاج بن يسعون. وبسبتة عن أبي عبد الله بن عيسى التميمي السبتي. وأجاز له أبو الوليد ابن سبكة، وإبراهيم بن إسحاق بن عبد الله الغساني التونسي، وأبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشي الميانجي، نزيلاً مكة، وأبو جعفر أحمد بن علي القرطبي الفنكي، وأبو الحجاج يوسف بن أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد البغدادي، وصدر الدين أبو محمد عبد اللطيف الحجري رييس الشافعية بإصبهان. وببغداد العالم الحافظ المتبحر نادرة الفلك أبو الفرج، وكناه أبو الفضل ابن الجوزي. وحضر بعض مجالسه الوعظية وقال فيه فشاهدنا رجلاً ليس بعمرو ولا زيد، وفي جوف الفراكل الصيد. وبدمشق أبو الحسن أحمد بن حمزة بن علي بن عبد الله بن عباس السلمي الجواري، وأبو سعيد عبد الله بن محمد ابن أبي عصرون، وأبو الطاهر بركات الخشوعي، وسمع عليه، وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني من أئمة الكتاب، وأخذ عنه بعض كلامه، وغيره، وأبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الأخضر بن علي بن عساكر، وسمع عليه، وأبو الوليد إسماعيل بن علي بن إبراهيم والحسين بن هبة الله بن محفوظ بن نصر الرقبعي، وعبد الرحمن بن إسماعيل بن أبي سعيد الصوفي، وأجازوا له، وبحران الصوفي العارف أبو البركات حيان بن عبد العزيز، وابنه الحاذي حذوه.

من أخذ عنه

قال ابن عبد الملك، أخذ عنه أبو إسحاق بن مهيب، وابن الواعظ، وأبو تمام ابن إسماعيل، وأبو الحسن بن نصر بن فاتح بن عبد الله البجائي، وأبو الحسن بن علي الشادي، وأبو سليمان بن حوط الله، وأبو زكريا، وأبو بكر يحيى بن محمد بن أبي الغصن، وأبو عبد الله بن حسن بن مجير. وأبو العباس بن عبد المؤمن البناني، وأبو محمد بن حسن اللواتي وابن تامتيت، وابن محمد الموروري، وأبو عمر بن سالم، وعثمان بن سفيان بن أشقر التميمي التونسي.

وممن أخذ عنه بالإسكندرية، رشيد الدين أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله، وبمصر رشيد الدين بن العطار. وفخر القضاة بن الجياب، وابنه جمال القضاة.

تصانيفه

منها نظمه، قال ابن عبد الملك: وقفت منه على مجلد متوسط يكون على قدر ديوان أبي تمام حبيب بن أوس، ومنه جزء سماه نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح في مراثي زوجه أم المجد. ومنه جزء سماه نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان. وله ترسيل بديع، وحكم مستجادة، وكتاب رحلته. وكان أبو الحسن الشادي، يقول

إنها ليست من تصانيفه، وإنما قيد معاني ما تضمنته، فتولى ترتيبها، وتنضيد معانيها بعض الآخذين عنه، على ما تلقاه منه. والله أعلم.

شعره

من ذلك القصيدة الشهيرة التي نظمها، وقد شارف المدينة المكرمة طيبة، على ساكنها من الله أفضل الصلوات، وأزكى التسليم:

أقول وآنست بالليل نارا ... لعل سراج الهدى قد أنارا
وإلا فما بال أفق الدجى ... كأن سنا البرق فيه استطارا
ونحن من الليل في حندس ... فما باله قد تجلى نهارا
وهذا النسيم شذا المسك قد ... أعير أم المسك منه استعارا
وكانت رواحلنا تشتكي ... وجاها فقد سابقتنا ابتدارا
وكنا شكونا عناء السرى ... فعدنا نباري سراع المهارا
أظن النفوس قد استشعرت ... بلوغ هوى تخذته شعارا
بشاير صبح السرى آدنت ... بأن الحبيب تدانى مزارا
جرى ذكر طيبة ما بيننا ... فلا قلب في الركب إلا وطارا
حنيناً إلى أحمد المصطفى ... وشوقاً يهيج الضلوع استعارا
ولاح لنا أحد مشرقاً ... بنور من الشهداء استعارا
فمن أجل ذلك ظل الدجى ... يحل عقود النجوم انتثارا
ومن طرب الركب حث الخطا ... إليها ونادى البدار البدارا
ولما حللنا فناء الرسول ... نزلنا بأكرم مجد جوارا
وحين دنونا لفرض السلام ... قصرنا الخطا ولزمنا الوقارا
فما نرسل اللحظ إلا اختلاساً ... ولا نرجع الطرف إلا انكسارا
ولا نظهر الوجد إلا اكتتاماً ... ولا نلفظ القول إلا سرارا
سوى أننا لم نطق أعيناً ... بأدمعها غلبتنا انفجارا
وقفنا بروضة دار السلام ... نعيد السلام عليها مرارا
ولولا مهابته في النفوس لثمنا الثرى والتزمنا الجدارا
قضينا بزورته حجنا ... وبالعمرتين ختمنا اعتماراً
إليك إليك نبي الهدى ... ركبت البحار وجبت القفارا
وفارقت أهلي ولا منة ... ورب كلام يجر اعتذارا
وكيف نمن على من به ... نؤمل للسيئات اغتفاراً
دعائي إليك هوى كامن ... أثار من الشوق ما قد أثارا
فناديتك لبيك داعي الهوى ... وما كنت عنك أطيق اصطباراً
ووطنت نفسي بحكم الهوى ... علي وقلت رضيت اختيارا
أخوض الدجى وأروض السرى ... ولا أطعم النوم إلا غرارا

ولو كنت لا أستطيع السبيل ... لطرت ولو لم أصادف مطارا
وأجدر من نال منك الرضى ... محب ثراك على البعد زارا
عسى لحظة منك لي في غد ... تمهد لي في الجنان القرارا
فما ضل من بمسراك اهتدى ... ولا ذل من بذراك استجارا
وفي غبطة من ممن الله عليه لحج بيته، وزيارة قبره صلى الله عليه وسلم يقول:
هنيئاً لمن حدج بيت الهدى ... وحط عن النفس أوزارها
وإن السعادة مضمونة ... لمن حج طيبة أو زارها
وفي مثل ذلك يقول:
إذا بلغ المرء أرض الحجاز ... فقد نال أفضل ما أمله
وإن زار قبر نبي الهدى ... فقد أكمل الله ما أمله
وفي تفضيل المشرق:
لا يستوي شرق البلاد وغربها ... الشرق حاز الفضل باستحقاق
أنظر إلى جمال الشمس عند طلوعها زهراء تعجب بهجة الإشراق
وانظر إليها عند الغروب كئيبة ... صفراء تعقب ظلمة الآفاق
وكفى بيوم طلوعها من غربها ... أن تؤذن الدنيا بعزم فراق
وقال في الوصايا:
عليك بكتمان المصايب واصطبر ... عليها فما أبقى الزمان شفيقا
كفاك بالشكوى إلى الناس أنها ... تسر عدواً أو تسيء صديقا
وقال؛
وصانع المعروف فلتة عاقل ... إن لم تضعها في محل عاقل
كالنفس في شهواتها إن لم تكن ... وقفاً لها عادت بضر عاجل
نثره

من حكمه قوله: إن شرف الإنسان، فشرف وإحسان. وإن فاق ففضل وإفاق. ينبغي أن يحفظ الإنسان لسانه. كما يحفظ الجفن إنسانه. فرب كلمة تقال، يحدث عثرة لا تقال. كم كست فلتات الألسنة الحداد، من ورائها ملابس حداد. نحن في زمن لا يحظى فيه بنفاق إلا من عامل بنفاق. شغل الناس عن طريق الآخرة بزخارف الأغراض. فلجوا في الصدود عنها والإعراض. وآثروا دنيا هي أضغاث أحلام، وكم هفت في حبها من أحلام، أطالوا فيها آمالهم، وقصروا أعمالهم. ما بالهم، لم يتفرغ لغيرها بالهم، ما لهم في غير ميدانها استباق، ولا بسوى هواها اشتياق. تلله لو كسشفت الأسرار، لما كان هذا الإصرار، ولسهرت العيون، وتفجرت من شئونها الجفون، فلو أن عين البصيرة من سنتها هابة، لرأت جميع ما في الدنيا ريحاً هابة ولكن استولى العمى على البصاير ولا يعلم الإنسان ما إليه صاير، أسأل الله هداية سبيله، ورحمة تورد نسيم الفردوس وسلسبيله، إنه الحنان المنان لا رب سواه.
ومنها: فلتات الهبات، أشبه شيء بفلتات الشهوات. منها نافع لا يعقب ندماً، ومنها ضار يبقى في النفس ألماً. فضرر الهبة وقوعها عند من لا يعتقد لحقها أداء، وربما أثرت عنده اعتداء. وضرر الشهوة أن لا توافق ابتداء، فتصير لمتبعها داء، مثلها كمثل السكر يلتذ صاحبه بحلاوة جناه، فإذا صحا يعرف قدر ما جناه. عكس هذه القضية هي

الحالة المرضية.

مولده

ببلنسية سنة تسع وثلاثين وخمسماية وقيل بشاطبة سنة أربعين وخمسماية.

وفاته

توفي بالإسكندرية ليلة الأربعاء التاسع والعشرين لشعبان أربع عشرة وستماية

ابن شبرين

محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن عبد الرحمن بن علي بن شبرين، يكنى أبا بكر، شيخنا الفقيه القاضي المؤرخ الكاتب البارع رحمة الله عليه

أوليته

أصله من إشبيلية، من حصن شلب من كورة باجة، من غربي صقعها، يعرفون فيها ببني شبرين، معرفة قديمة. ولي جده القضاء بإشبيلية، وكان من كبار أهل العلم تشهد بذلك الصلاة. وانتقل أبوه منها عند تغلب العدو عليها عام ستة وأربعين وستماية، فاحتل رندة ثم غرناطة، ثم انتقل إلى سكنى سبتة، وبها ولد شيخنا أبو بكر، وانتقل عند الحادثة إلى غرناطة، فارتسم بالكتابة السلطانية، وولي القضاء بعدة جهات، وتأثل مالاً وشهرة، حتى جرى مجرى الأعيان من أهلها.

حاله

كان فريد دهره، ونسيج وحده في حسن المست والرواء، وكما الظرف وجمال الشارة، وبراعة الخط، وطيب المجالسة، خاصياً، وقوراً، تام الخلق، عظيم الأبهة، عذب التلاوة لكتاب الله، من أهل الدين والفضل والعدالة، تاريخاً، مقيداً، طلعة اختيار أصحابه محققاً لما ينقله، فكها مع وقاره، غزلاً، لوذعياً، على شأن الكتابة، جميل العشرة، أشد الناس على الشعر، ثم على المحافظة، ما يحفظه من الأبيات من غير اعتيام ولا تنقيح، يناغي الملكين في إثباتها، مقررة التواريخ، حتى عظم حجم ديوانه، تغردت أشعاره بما أبر على المكثرين مليح الكتابة، سهلها، صانعاً، سابقاً في ميدانها، راجحاً كفة المنثور. وكانت له رحلة إلى تونس، اتسع بها نطاق روايته. وتقلب بين الكتابة والقضاء، منحوس الحظ في الاستعمال، مضيقاً فيه، وإن كان وافر الجد، موسعاً عليه.

وجرى ذكره في كتاب التاج المحلى بما نصه:

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين

خاتمة الحسنين، وبقية الفصحاء اللسنين، ملأ العيون هدياً وسمتاً، وسلك من الوقار طريقة؛ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ما شئت من فضل ذات، وبراعة أدوات. إن خط، نزل ابن مقلة عن درجته وإن خط. وإن نظم أو نثر، تبعت البلغاء ذلك الأثر. وإن تكلم أنصت الحفل لاستماعه، وشرع لدرره النفيسة صدق أسماعة. وفد على الأندلس عند كاينة سبتة، وقد طرحت النوى برحاله، وظعن عن ربعه بتوالي إمحاله، ومصرف بلاده، والمستولي على طارفها وتالدها، أبو عبد الله بن الحيكم، قدس الله صداه، وسقى متداه، فاهتز لقدومه اهتزاز الصارم، وتلقاه تلقي الأكارم، وانهض إلى لقايه آماله، وألقى له قبل الوسادة ماله، ونظمه في سمط الكتاب، وأسلاه عن أعمال الاقتاد، ونزل ذمامه تأكداً في هذه الدولة، وقوفي له الآتية منها على الأول، فتصرف في القضاء بجهاتها، ونادته السيادة هاك وهاتها، فجدد عهد حكامه العدول من سلفه وقضاتها. وله الأدب الذي تحلت بقلايده اللبات والنحور، وقصرت عن جواهره البحور. وسيمر من ذلك في تضاعيف هذا المجموع ما يشهد بسعة ذرعه، ويخبر بكرم عنصره، وطيب نبعه.

مشيخته

قرأ على جده لأمه الأستاذ الإمام، أبي بكر بن عبيدة الإشبيلي، وسمع على الريس أبي حاتم، وعلى أخيه أبي عبد الله الحسين، وعلى الأستاذ أبي إسحاق الغافقي، وعلى الشريف أبي علي بن أبي الشرف، وعلى الإمام أبي عبد الله بن حريث. وسمع على العدل أبي فارس عبد العزيز الجزيري. وسمع بحضرة غرناطة على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، وعلى العدل أبي الحسن بن مستقور وعلى الوزير أبي محمد بن المؤذن، وعلى الخطيب أبي عبد الله بن رشيد. وبمالقة على الخطيب ولي الله تعالى، أبي عبد الله الطنجالي، وعلى الوزير الصدر أبي عبد الله ابن ربيع، وعلى القاضي العدل أبي عبد الله بن برطال. وبجاية على الإمام أبي علي ناصر الدين المشذالي، وعلي أبي العباس الإبريني. وبتونس على أبي علي بن علوان، وعلى قاضي الجماعة أبي إسحاق بن عبد الرفيع، وسمع على الخطيب الصوفي ولي الله تعالى، أبي جعفر الزيات، والصوفي أبي عبد الله بن برطال، وعلى الصدر أبي القاسم محمد بن قايد الكلاعي. وأجازه علام كثير من أهل المشرق والمغرب.

؟؟

شعره

وشعره متعدد الأسفار، كثير الأغراض. وفي الإكثار مجلل الإختيار. فمنه قوله:

أخذت بكظم الروح يا ساعة النوى ... وأضرمت في طي الحشى لا عج الجوى
فمن مخبري يا ليت شعري متى اللقا ... وهل تحسن الدنيا وهل يرجع الهوى
سلا كل مشتاق وأكثر وجده ... وعند النوى وجدي وفي ساكن الهوى
ولي نية ما عشت في عهدهم ... إلى يوم ألقاهم وللمرء ما نوى

وقال:

باتوا فمن كان باكياً يبك ... هذي ركاب الشرى بلا شك
فمن ظهور الركاب معملة ... إلى بطون الربى إلى الفلك
تصدع الشمل مثلما انحدرت ... إلى صبوب جواهر السلك
كن بالذي حدثوا على ثقة ... ما في حديث الفراق من إفك
من النوى قبل لم أزل حذراً ... هذا النوى جل من مالك الملك
وقال:
يا أيها المعرض اللاهي ... يسوءني هجرك والله
فيا ليت شعري كم أرى فيك ... لا أقفك عن ويه وعزاه
ويحي مغيري إلى باخل واه ... من ذا الذي رآه
من يرد الله في فتنة ... يشغله في الدنيا بتياه
يا غصن البان ألا عطفة ... على معني جسمه واه
أو سعني بعدك ذلاً وقدراً ... يثنى عندك ذا جاه
ذكرك لا ينفك عن خاطري ... وأنت عني غافل ساه
يكفيك يا عثمان من جفوني ... لو كان ذنبي ذنب جهجاه
هيهات لا معترض لي على ... حكمك أنت الآمر الناه
قلت جهجاه المشار إليه رجل من غفار قيل إنه تناول عصا الخطبة من يد عثمان رضي الله عنه، فكسرها على ركبته، فوقعت فيها الأكلة فهلك.
وقال:
يا من أعاد صباحي فقده حلكا ... قتلت عبدك لكن لم تخف دركا
مصيبتي ليست كالمصائب لا ... ولا بكائي عليها منث لكل بكا

فمن أطالب في شرع الهوى بدمي ... لحظى ولحظك في قتلي قد اشتركا
وقال، وقد سبقه إليه الرصافي؛ وهو ظريف:
أشكو إلى الله فرط بلبالي ... ولوعة لا تزال تذكى لي
بمهجتي حايك شغلت به ... حلو المعاني طرازه عالي
سألته لثم خاله فأبي ... ومن ذا نخوة وإلال
وقال حالي يصون خالي ... يدني فويحي بالحال والحال
يقربني الآل من مواعده ... وأتقي منه سطوة الآل
لكن على ظلمه وقسوته ... فلست عنه المان بالسالي
وقال أيضاً مضمناً:
لي همة كلما حاولت أمسكها ... على المدلة في أرجاء أرضيها
قالت ألم تكن أرض الله واسعة ... حتى يهاجر عبد مؤمن فيها
وقال مسترجعاً من ذنبه، ومستوحشاً من شيبه:
قد كان عيبي من قبل في غيب ... فمذ بدا شيبي بدا عيبي

لا عذر اليوم ولا حجة ... فضحتني والله يا شبي

وقال:

أثقلتني الذنوب ويحي وويسي ... ليتني كنت زاهداً كأويس

وجرت بينه وبين السلطان ثالث الأمراء من بين نصر، بعد خلعه من ملكه، وانتثار سلكه، واستقراره بقصبة المنكب، غيباً من قومه، معوضاً بالسهاد من نومه، قد فل الدهر سباته، وتركه يندب ما فاته، والقاضي المترجم به يومئذ، مدبر أحكامها، وعلم أعلامها، ومتولي نقضها، وإبرامها، فارتاح يوماً إلى إيناسه، واجتلاب أدبه والتماسه، وطلب منه أن يعبر عن حاله ببيانه، وينوب في بثه عن لسانه، فكتنب إليه:

قفا نفساً فالخطب فيها يهون ... ولا تعجلا إن الحديث شجون

علمنا الذي قد كان من صرف دهرنا ... وسنا على علم بما سيكون

ذكرنا نعيماً قد تقضى نعيمه ... فأقلقنا شوق له وحنين

وبالأمس كنا كيف شئنا وللدنا ... حراك على أحكامنا وسكون

وإذا بابنا مثوى الفؤاد ونحونا ... تمد رقاب أو تشير عيون

فنغص من ذاك السرور مهنأ ... وكدر من ذاك النعمي معين

ونبا عن الأوطان بين ضرورة ... وقد يقرب الإنسان ثم يبين

أيا معهد الإسعاد حييت معهداً ... وجادك من سكب الغمام هتون

تريد الليالي أن تهين مكاننا ... رويدك إن الخير ليس يهون

فإن تكن الأيام قد لعبت بنا ... ودارت علينا للخطوب فنون

فمن عادة الأيام ذل كرامها ... ولكن سبيل الصابرين مين

لئن خاننا الدهر الذي كان عبدنا ... فلا عجب إن العبيد تخون

وما غض منا مخبرى غير أنه ... تضاعف إيمان وزاد يقين

وكتب إلى الحكم بن مسعود، وهو شاهد المواريث بهذه الدعابة التي تستخف الوقور، وتلج السمع الموقور:

أطال الله بقاء أخي وسيدي، لأهل الفرايض، يحسن الاحتيال في مداراهم، وللمنتقلين إلى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط في أمواهم، ودامت أقلامه مشرعة لصرم الأجل المنسأ، معدة لتحليل هذا الصنف المنشأ من الصلصال والحمأ. فمن ميت يغسل وآخر يقبر، ومن أجل يطوى، وكفن ينشر، ومن رمس يفتح، وباب يغلق. ومن عاصب يحبس، ونعش يطلق. فكلما خربت ساحة، نشأت في الحانوت راحة. وكلما قامت في شعب مناحة، اتسعت للرزق مساحة. فيباكر سيدي الحانوت، وقد احتسى مرقته، وسهل عنقفته، فيرى الصعبة بالمناصب شطراً. فيلحظ هذا برفق، وينظر إلى هذا شزراً. ويأمر بشق الجيوب تارة، والبحث عن الأوساط أخرى. ثم يأخذ القلم أخذاً رفيقاً. ويقول وقد خامره السرور، رحم الله فلاناً، لقد كان لنا صديقاً، وربما أدبره بالانزعاج الحثيث، وقال مستريح منه كما جاء في الحديث. وتختلف عند ذلك المراتب، وتتبين الأصدقاء والأجانب، فينصرف هذا، وحظه التهذيب، والنظر الحديد، وينفصل هذا، وبين يديه المنذر الصيت، والنعش الجديد. ثم يغشى دار الميت ويسل عن الكيت والكيت، ويقول علي بما في البيت. أين دعاء الثاغبة والراغية. أين عقود الأملاد بالبادية. وقد كانت لهذا الرجل حالاً في حال. وقد ذكر في الأسماء الخمسة فقيل ذو مال. وعيون الأعوان ترنوا من عل، وأعناقهم تشريب إلى خلف الكلل، وأرجلهم تدب إلى الأسفاط دبيب الصقور إلى الحجل. والموتى قد وجبت منهم الجنوب، وحضر

الموروث والمكسوب. وقيد المطعوم والمشروب. وعدت الصحاح. ووزنت الأرطال، وكيلت الأقداح. والشهود يغلظون على الورثة في الشالية ويصونهم بالبتات في النشأة الأولية. والروائح حين تفعم الأرض طيباً، وتهدي الأرواح شذاً يفعل في إزعاجها على الأبدان فعلاً عجيباً. والدلال يقول هذا مفتاح الباب. والسمسار يصيح قام الندا فما نتنظرون بالثبات. والشاهد يصيح فتعلوا صيحته، والمشرف يشرب فتسقط سبحته. والمحتضر يهس ألا حي فلا تسمعون ويباهي لون العباء عليه الجواب رب أرجعون. ما هذا النشيج والضجيج. مت كلا لم أمت. ومن حج له الحجيج. فترتفع له الأصوات، كي لا يفسح فيه الممات. ويبقر بطنه برغمه، ويحفر له بجانب أبيه وبحذا أمه. ثم يشرع في نفسه الفرض، ولو أكفئت السوات على الأرض. ويقال لأهل السهام، أحسنوا، فالإحسان ثالث مراتب الإسلام. وقد نص ابن القاسم على أجرة القاسم. وسوغه أصبغ وسحنون، ولم يختلف فيه مطرف وابن الماجشون. إن قيل إيصال الحقائق إلى أرجايها، حسن فجزاه الإحسان إحسان. وقيل إخرج النسب والكسور كفاية، فللكاهنين حلوان. اللهم غفراً، ونستقيل الله من انبساط يجر غدراً، ونسل الله حمداً يوجب المزيد من نعمايه وشكراً. ولولا أن أغفل عن الخصم، وأثقل رحل الفقيه أبي النجم، لأستغلن المجلس شرحاً، ولكان لنا في بحر المباسطة سبح، ولأفضنا في ذكر الوارث والوراث. وبينا العلة في أقسام الشهود، مع المشتغل بنسبة الذكور مع الأناث. والله يصل عز أخي ومجده، ويهب له قوة تخصه بالفايدة، وجدهن ويزيده بصيرة يتبع بها الحقوق إلى أقصاها، وبصراً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ودام يحصى الخراريب والفلوس والأطمار، ويملأ الطوامر بأقلامه البديعة الصنعة، ويصل الطومار بالطومار والسلام.

والشيء بالشيء يذكر، قلت، ومن أظرف ما وقعت عليه في هذا المعنى. قال بعض كتاب الدولة الحكمية بمنورقة، وقد ولاه خطة المواريث، وكتب إليه راغباً في الإعفاء:

وما نلت من شغل المواريث رقعة سوى شرح نعش كلما مات ميت

وأكتب للأموات صكاً كأنهم ... يخاف عليهم في الجباب التفلت

كأني لعزرائيل صرت ماقضاً ... بما هو يمحو كل يوم وأثبت

وقال، فاستظرفها الريس أبو عثمان بن حكم وأعفاه.

مولده: في أواخر أربعة وسبعين وستماية.

وفاته

قال في العايد، ومضى لسبيله، شهاباً من شهب هذا الأفق، وبقية من بقايا حلبة السبق، رحمه الله، في ليلة السبت الثاني من شهر شعبان المكرم عام سبعة وأربعين وسبعماية، وتخلف وقراً لم يشتمل على شيء من الكتب، لإيثاره اقتناء النقدين، وعين جراية لمن يتلو كتاب الله على قبره على حد من التعزرة والمحافظة على الإتقان. ودفن بباب إليبرة في دار اتخذها لذلك.

محمد بن أحمد بن قطبة الدوسي

من أهل غرناطة، يكنى أبا القاسم.

حاله

مجموع خلال بارعة، وأوصاف كاملة، حسن الخط، ذاكر للتاريخ والأخبار، مستول على خصال حميدة من حسن رواء وسلامة صدر، إلى نزاهة الهمة، وإرسال السجية، والبعد عن المصانعة، والتحلي بالوقار والحشمة، شاعر، كاتب. ومناقبه يقصر عنها الكثير من أبناء جنسه، كالفروسية، والتجند، والبسالة، والرماية، والسباحة، والشطرنج، متحمد بحمل القنا، مع البراعة، مديم على المروءة، مواس للمحاويج من معارفه. ارتسم في الديوان فظهر غناؤه، وانتقل إلى الكتابة، معززة بالخطط النبيهة العلمية، وحاله الموصوفة متصلة إلى هذا العهد، وهو معدود من حسنات قطره.

وثبت في التاج المحلى بما نصه: سابق ركض المحلى، أتى من أدواته بالعجايب، وأصبح صدراً في الكتاب، وشهماً في الكتايب. وكان أبوه رحمه الله، بهذه البلدة، قطب أفلاكها، وواسطة أسلاكها، ومؤتمن روسايها وأملاكها، وصدر رجالها، وولي أرباب مجالها، قد نثل ابنه سهامها، فخبر عدالة وبراعة وفهماً، وألقاه بينهم قاضياً شهماً، فظهر منه نجيباً، ودعاه إلى الجهاد سميعاً مجيباً، فصحب السرايا الغريبة المغيرة، وحضر على هذا العهد من الوقايع الصغرة والكبيرة، وعلى مصاحبة البعوث، وجوب السهول والوعوث، فما رفض اليراعة الباتر، ولا ترك الدفاتر للزمان الفاتر.

شعره

وله أدب بارع المقاصد قاعد للإجادة بالمراصد، وقال من الروضيات وما في معناها:

دعيني ومطلول الرياض فإنني ... أنادم في بطحايها الآس والوردا
أعلل هذا بخضرة شارب ... وأحكي بهذا في تورده الخدا
وأزهر غض البان رايد نسبة ... ذكرت به لين المعاطف والقدا

وقال:

يومنا يوم سرور فلتقم ... تصدع الهم بكاسات المدام
إنما الدنيا منام فلتكن ... مغرماً فيها بأحلى المنام

وقال:

وبي منك ما لو كان للشرب ماصحاً ... وبالهيم ماروت صداها المناهل
أحبك ما هبت من الروض نسمة ... وما اهتز غصن في الحديقة مايل
فإن شئت أن تهجر وإن شئت فلتقبل فإني لما حملتني اليوم حامل

وقال:

كم قلت للبدر المنير إذ بدا ... هيهات وجه فلانة تحكي لنا
فأجابني بلسان حال واعتنى ... لا الشمس تحكيها فأحكيها أنا
وصرفت وجهي نحو غصن أملد ... قد رام يشبه قدها لما انثنا
فضحكت هزءاً عند هز قوامها ... إذا رام أن يحكى قواماً كالقنا

وكتب إليه في غرض يظهر من الأبيات:

جوانحنا نحو اللقاء جوانح ... ومقدار ما بين الديار قريب
وتمضي الليالي والتزاور معوز ... على الرغم منا وإن ذا لغريب
فديتك عجلها لعيني زيارة ... ولو مثل ما رد اللحاظ مريب

وإن لقائي جل عن ضرب موعد ... لأكرم ما يهدي الأريب أريب
فراجعني بقوله، والتجني شيمة:
لعمرك ما يومي إذا كنت حاضراً ... سوى يوم صب من عداه يغيب
أزور فلا ألقي لديك بشاشة ... فيبعد مني الخطو وهو قريب
فلا ذنب للأيام في البعد بيننا ... فإني لداعي القرب منك مجيب
وإن لقاء جاء من غير موعد ... ليحسن لاكن مرة ويطيب
وإحسانة كثير، وفيما ثبت كفاية ليلا نخرج عن غرض الاختصار.
محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدوسي
يكنى محمد أبا بكر، أخو الذي قبله.
حاله

تلوه في الفضل والسراوة، وحسن الصورة ونصاعة الطرف مرب عليه بمزيد من البشاشة والتنزل، وبذل التودد، والتبريز في ميدان الانقطاع، متأخر عنه في بعض خلال غير هذا. ذكي الذهن، مليح الكتابة، سهلها، جيد العبارة متأتي اليراع، مطلق اليد، حسن الخط، سريع بديهة المنثور، معم، مخول في التخصص والعدالة. كتب الشروط بين يدي أبيه، ونسخ كثيراً من أمهات الفقه، واستظهر كتباً، من ذلك المقامات الحريرية. وكتب بالدار السلطانية، واختص بالمراجعة عمن بها، والمفاتحة أيام حركات السلطان عنها إلى غيرها. حميد السيرة، حسن الوساطة، نجدي الجاه، مشكور التصرف، خفيف الوطأة. وولي الخطابة العلية. مع الاستمساك بالكتابة. ولم يؤثر عنه الشعر، ولا عول عليه.
محمد بن محمد بن محمد بن قطبة الدوسي

يكنى أبا بكر، وقد ذكرنا أباه وعمه، ويأتي ذكر جده.
حاله
نبيل المقاصد في الفن الأدبي، مشغول به، مفتوح من الله عليه فيه شاعر مطبوع مكثر انقاد له مركب النظم، في سن المراهقة، واشتهر بالإجادة، وأنشد السلطان، وأخذ الصلة، وارتسم لهذا العهد في الكتابة. وشرع في تأليف يشتمل على أدباء عصره.
شعره
ومما خاطب به أحد أصحابه:
إذا شمت من نحو الحمى في الدجا برقا ... أبي الدمع إلا أن يسيل ولا يرقى
ومهما تذكرت الزمان الذي مضى ... تقطعت الأحشاء من حر ما ألقى
خليلي لا تجزع لحل فأدمعي ... تبادر سقياً في الهوى لمن استسقى
وما ضر من أصبحت ملك يمينه ... إذا رق لي يوما وقد حازني رقا
فنيت به عشقا وإن قال حاسد ... أضل الورى من مات في هاجر شقا
تلهب قلبي من تلهب خده ... فيا نعم ذاك الخد فاض بأن أشقى
ومنها:

وكم من صديق كنت أحسب أنه ... إذا كذبت أوهامنا رفع الصدقا

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة اللوسي

ابن عم المذكورين قبله، يكنى أبا القاسم.

حاله

حسن الصورة، لازم القراءة على شيوخ بلده، ونظم الشعر على الحداثة، وترشح للكتب بالدار السلطانية مع الجماعة، ممن هو في نظمه.

ومن شعره، كتب إلي بما نصه:

أحسب وحده يوم رأسك ربما ... تعطى السلامة في الصراع سلماً

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة اللوسي

أخو الفقيه أبي بكر بن القاسم بن محمد المذكور

حاله

شاب حسن فاضل، دمث، متخلق، جميل الصورة، حسن الشكل، أحمر الوجنتين. حفظ كتبا من المبادي النحوية، وكتب خطا حسنا، وارتسم في ديوان الجند مثل والده، وهو الآن بحاله الموصوفة.

شعره

قيد أخوه لي من الشعر الذي زعم أنه من نظمه، قوله:

حلفت بمن ذاد عني الكرى ... وأسهر جفني ليلاً طويلا

وألبس جسمي ثياب النحول ... وعذب بالهجر قلبي العليلا

ما حلت عن وده ساعة ... ولا اعتضت منه سواه بديلا

ابن جزى الكلبي

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن يحيى ابن عبد الرحمن بن يوسف بن جزى الكلبي، من أهل غرناطة وأعيانها، يكنى أبا عبد الله.

أوليته

تنظر في اسم أبيه في ترجمة المقريين والعلماء.

حاله

من أعلام الشهرة على الفتاوة. وانتشار الذكر على الحداثة. تبريزاً في الأدب، واضطلاعا بمعاناة الشعر، وإتقان الخط، وإيضاحاً للأحاجي والملغزات. نشأ بغرناطة في كنف والده رحمه الله، مقصور التدريب عليه، مشاراً إليه في ثقوب الذهن؛ وسعة الحفظ، ينطوي على نبل لا يظهر أثره على التفاتة، وإدراك، تغطجي شعلته مخيلة غير صادقة، من تغافله. ثم جاش طبعه، وفهق حوضه، وتفجرت ينابيعه، وتوقد إحسانه.

ولما فقد والده، رحمه الله، ارتسم في الكتابة، فبذ جلة الشعراء، إكثارا واقتدارا، ووفور مادة، مجيدا في الأمداح، عجيباً في الأوضاع، صديقاً في النسيب، مطبوعا في المقطوعات، معتدلا في الكتابة، نشيط البنان، جلداً على العمل، سيال المجاز، جموح عنان الدعابة، غزلا، مؤثرا للفكاهة، انتقل إلى المغرب لشفوف خصله، على ما قد قصم الحظوظ. سبحانه من رزقه بهذه البلاد. فاستقر بباب ملكه. مرعى الجناح، أثير الرتبة. مطلق الجراية، مقرر السهام،

معتبا وطنه راضيا عن جيرته. ديدن من يستند إلى قديم، ويتحيز إلى أصالة.

تواليفه

أخبرني عند لقايه أياي بمدينة فاس في غرض الرسالة، عام خمس وخمسين وسبعماية، أنه شرع في تأليف تاريخ غرناطة، ذاهباً هذا المذهب، الذي انتدبت إليه، ووقفت على أجزاء منه تشهد باضطلاعه، وقيد بخطه من الأجزاء الحديثة والفوايد والأشعار ما يفوت الوصف، ويفوق الحد. وجرى ذكره في التاج بما نصه: شمس في البلاغة بازغة، وحجة على بقاء الفطرة الغريزية في هذه البلاد الغربية بالغة، وفريدة وقت أصاب من فيها نادرة أو نابغة، من جذع ابن علي القادح، وجرى من المعرفة كل بارح، لو تعلقت الغوامض بالثريا لنالها، وقال أنا لها. وربما غلبت الغفلة على ظاهره، وتنطفق أكمامها على أزاهره، حتى إذا قدح في الأدب زنده، تقدم المواكب بنده، إلى خط بارع، يعنو طوال الطويل منه إلى سر وبراعة، كما ترضى المسك والكافور عن طرس وحبر.

شعره

فمن غرامياته وما في معناها قوله:

متى يتلاقى شايق ومشوق ... ويصبح عير الحب وهو طليق
أما أنها أمنية عز نيلها ... ومرمى لعمري في الرجا سحيق
ولكني خدعت قلبي تعلة ... أخاف انصداع القلب فهو رقيق
وقد يرزق الإنسان من بعد يأسه ... وروض الربى بعد الذبول يروق
تباعدت لما زادني القرب لوعة ... لعل فؤادي من جواه يفيق
ورمت شفاء الداء بالداء مثله ... وإني بألا أشتفي لحقيق
وتالله ما للصب في الحب راحة ... على كل حال إنه لمشوق
ويا رب قد ضاقت علي مسالكي ... فها أنا في بحر الغرام غريق
ولا سلوة ترجى ولا صبر ممكن ... وليس إلى وصل الحبيب طريق
ولا الحب عن تعذيب قلبي ينثني ... ولا القلب للتعذيب منه يطيق
شجمن يضق الصدر عن زفراتها ... وشوق نطاق الصبر عنه يضيق
نثرت عقود الدمع ثم نظمتها ... قريضاً فذا در وذاك عقيق
بكيت أسى حتى بكى حاسدي معي ... كأن عذولي عاد وهو صديق
ولو أن عند الناس بعض محبتي ... لما كان يلقى في الأنام مفيق
أيا عين كفى الدمع ما بقى الكرى ... إذا منعوك النوم سوف تذوق
ويا نايماً عن ناظري أما ترى ... لشمسك من بعد الغروب شروق
رويدك رفقاً بالفؤاد فإنه ... عليك وإن عاديته لشفيق
نقضت عهودي ظالما بعد عقدها ... إلا إن عهدي كيف كنت وثيق
كتمتك حبي يعلم الله مدة ... وبين ضلوعي من هواك حريق
فما زلت بي حتى فضحت فإن أكن ... صبرت بعد اليوم لست أطيق

وقال:

ومورد الوجنات معسول اللمى ... فتاك بلحظ العين في عشاقه

الخمر بين لثاته والزهر في ... وجناته والسحر في أحداقه
ينادي غصن البان في أثوابه ... ويلوح بدر التم في أطواقه
من للهلاك بثغره أو خده ... هب أنه يحكيه في إشراقه
ولقد تشبهت الظبا بشبهة ... من خلقه وعجزن عن أخلاقه
نادمته وسناً محياً الشمس قد ... ألقى على الآفاق فضل رواقه
في روضة ضحكت ثغور أقاحها ... وأمال فيها المزن من آماقه
أسقيه كأس سلافة كالمسك في ... نفحاته والشهد عند مذاقه

صفراء لم يدر الفتى أكواسها ... إلا تداعى همه لفراقه
ولقد تلين الصخر من سطواته ... فيعود للمعهود من أشفاقه
وأظل أرشف من سلافة ثغره ... خمراً تداوي القلب من إحراقه
ولربما عطقته عندي نشوة ... فشقى الخيال بضمه وعناقه
أرجو نداه إذا تبسم ضاحكا ... وأخاف منه العتب في إطراقه
أشكو القساوة من هواى وقلبه ... والضعف من جلدي ومن ميثاقه
يا هل لعهد قد مضى من عودة ... أم لا سبيل بحالة للحاقه
يا ليت شعري لو كانت لذلك حيلة ... أو كان يعطى المرء باستحقاقه
فلقد يروق الغصن بعد ذبوله ... ويتم بدر التم بعد محاقه
ومما اشتهر عنه في هذا الغرض:
ذهبت حشاشة قلبي الصدوع ... بين السلام ووقفه التوديع
ما أنصف الأحباب يوم وداعهم ... صباً يحدث نفسه برجوع
أتجد بغيثك يا غمام فإنني ... لم أرض يوم البين قل دموع
من كان يبكي الظاعنين بأدمع ... فأنا الذي أبكيهم بنجيع
إيه وبين الصدر منى والحشا ... شجن طويت على شجاه ضلوع
هات الحديث عن الذين تحملوا ... واقدح بزند الذكر نار ولوع
عندي شجون في التي جنت النوى ... أشكو الغداة وهن في توديع
ليت الذي بيني وبين صبابتي ... بعد الذي بيني وبين هجوع
يا قلب لا تجزع لما فعل النوى ... فالحر ليس لحادث بجزوع
أبعد ما غودرت في أشراكه ... تبغي النزوع ولات حين نزوع
ومهفهف مهما هبت ريح الصبا ... أبدت له عطفاه عطف مطيع
جمع المحاسن وهو منفرد بها ... فاعدب لحسن مفرد مجموع
والشمس لولا إذنه ما آذنت ... خجلا وإجلالاً له مطلوع
ما زلت أسقى خده من أدمعي ... حتى تفتح عن رياض ربيع
إن كان يرنو عن نواظر شادن ... فلرب ضرغام بهن صريع
عجباً لذاك الشعر زاد بفرقه ... حسنا كحسن الشعر بالتصريع

منع الكرى ظلما وقد منع الصفا ... فشقيت بالممنوح والممنوع
جردت ثوب العز عني طائعاً ... أتراه يعطفه على خضوع
لم أنتفع لبسا من الملبوس في ... حبي ولا بعذارى المخلوع
بجماله استشفعت في إجماله ... ليحوز أجر منعم وشفيع
يا خادعي عن سلوتي وتصبري ... لولا الهوى ما كنت بالمخدوع
أوسعتني بعد الوصال تفرقا ... وأثبتني سوءاً لحين صنيع
أسرعت فيما ترتضي فجزيتني ... بطويل هجران إلى سريع
أشرعت رمحا من قوامك دايلاً ... فمنعت من ماء الرضاب شروعي
خذ من حيث تولعي وتولهي ... خبراً صحيحاً ليس بالمصنوع
يرويه خدي مسندا عن أدمعي ... عن مقلتي عن قلبي المصدوع
كم من ليال في هواك قطعتها ... وأنا لذكراهن في تقطيع
لا والذي طبع الكرام على الهوى ... وبر سوا أن الهوى المطبوع
ما عيرتني الحادثات ولم أكن ... بمذيع سر للعهود مضيع
لا خير في الدنيا وساكنها معا ... إن كان قلبي منك غير جميع
وقال في غير ذلك في غرض يظهر من الأبيات:
وقالوا عداك البخت والحزم عندما ... غدوت غريب الدار منزلك الفنت
ألم يعلموا أن اغترابي حرامة ... وأن ارتحالي عن دارهم هو البخت
نعم لست أرضى عن زماني أو أرى ... تهادي السفن المواخر والبخت
لقد سيمت نفسي المقام ببلدة بها العيشة النكراء والمكسب السحت

يذل بها الحر الشريف لعبده ... ويجفوه بين السمت من سنة ست
إذا اصطافها المرء اشتكى من سمومها ... أذى ويرى فيه أداً يبت
ولست كقوم في تعصبهم عتوا ... يقولون بغداد لغرناطة أخت
رغبت بنفسي أن اساكن معشراً ... مقالهم زور وودهم مقت
يدسون في لين الكلام دواهياً ... هي السم بالآل المشود لهالت
فلا در در القوم إلا عصيبة ... إلي بإخلاص المودة قد متوا
وآثرت أقواماً حمدت جوارهم ... مقالهم صدق وودهم بحت
لهم عين عيان الفاحشات إذا بدت ... تعام وعن ما ليس يعينهم صمت
فما ألفوا لهوا ولا عرفوا خنى ... ولا علموا أن الكروم لها بنت
به كل مرتاح إلى الضيف والوغى ... إذا ما أتاه منهما النبأ البغت
وأشعث ذي طمرين أغناه زهده ... فلم يتشوف للذي ضمه التخت
صبور على الإيذاء بغيض على العدا ... معين على ما يتقي جاشه الشت
ولي صاحب مثلي يمان جعلته ... جليسي نهاراً أو ضجيعي إذا بت
وأجرد جرار الأعنة فارح ... كميت وخير الخيل قداحها الكمت

نسامت به الأعراق في آل أعوج ... ولا عوج في الخلق منه ولا أمت
وحسبي لعضات النوائب منجدا عليها الكميت الهند والصارم الصلت
قطعت زماني خبرة وبلوته ... فبالغدر والتخفيف عندي له نعت
ومارست أبناء الزمان مباحثا ... فأصبح حبلي منهم وهو منبث
وذي صلف يمشي الهوينا ترفقا ... على نفسه كيلا يزايلها السمت
إذا غبت فهو المروة القوم عندهم ... له الصدر من ناديهم وله الدست
وإن ضمني يوما وإياه مشهد ... هو المعجم السكيت والعمة الشخت
فحسبي عداتي أن طويت مآربي ... على عزمهم حتى صفا لهم الوقت
وقلت لدنياهم إذا شئت فاغربي ... وكنت متى أعزم فقلبي هو البت
وأغضيت عن زلاتهم غير عاجز ... فماذا الذي يبغونه لهم الكبت

وقال:

لا تعد ضيفك إن ذهبت لصاحب ... تعتده لكن تخير وانتق
أو ما ترى الأشجار مهمار كبت ... إن خولفت أصنافها لم تغلق

ومنه في المقطوعات:

وشادن تيمني حبه ... حظى منه الدهر هجرانه
ورد الخدين حلو اللمى ... أحمر مضني الطرف وسنانه
لم تنطو الأغصان في الروض بل ... ضلت له نسجد أغصانه
يا أيها الظبي الذي قلبه ... تضرم في القلب نيرانه
هل عطفة ترجى لصب شبح ... ليس يرجى عنك سلوانه
يود أن لو زرته في الكرى ... لو متعت بالنوم أجفانه
قد رام أن يكتب ما نابه ... والحب لا يمكن كتمانه
فأفضيت أسراره واستوى ... إسراره الآن وإعلانه

وقال:

نهار وجه وليل شعر ... بينهما الشوق يستثار
قد طلبا بالهوى فؤادي ... فأين لي عنهما الفرار
وكيف يبغى النجاة شيء ... يطلبه الليل والنهار

وقال في اللوبيت:

زارت ليلا وأطلعت فجرها ... صبحاً فجمعت بين صبح وظلام
لما بصرت بالشمس قالت يا فتى ... جمع الإنسان بين الأختين حرام

وقال في غرض التورية:

أبح لي في رياض المحاسن نظرة ... إلى ورد ذاك الخد أروى به الصدى
وبالله لا تبخل علي بعطفة ... فإني رأيت الروض يوصف بالندا

وقال:

وعاشق صلى ومحرابه ... وجه غزال ظل يهواه
قالوا تعبد فقلت نعم ... تعبداً يفهم معناه
وقال هو مليح جداً:
وصديق شكى بما حملوه ... من قضاء يقضى بطول العناء

قلت فاردد ما حملوك عليهم ... قال من يستطع رد القضاء
لسانان هجيا من خاصماه ... لسان الفتى ولسان القضاء
إذا لم تحز واحداً منهما ... فلست أرى لك أن تنطقا
وقال:
تلك الذؤابة ذبت من شوقي لها ... واللحظ يحميها بأي سلاح
يا قلب فانجح لا إخال ناجياً ... من فتنة الجعدي والسفاح
وإحسانه كثير. ويدل بعض الشيء على كله. ويحجر طل الغيث على وبله.
وفاته

اتصل بنا خبر وفاته بفاس مبطوناً في أوايل ثمانية وخمسين وسبعماية. ثم تحققت أن ذلك في آخر شوال من العام قبله.
ابن الحكيم اللخمي
محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم ابن يحيى بن محمد بن الحكيم اللخمي، يكنى أبا القاسم.
حاله
من كتاب عائد الصلة: فرع دوحة الأصالة والخصوصية، والعلم والدين، والمكانة والجلالة، مجلي بيته. ومجدد مآثره براً، ومجاملة، وخيرية. نشأ بأطراف جملته من الفنون، من حساب وفريضة وأدب وقراءة ووثيقة، إلى خط حسن، وأدب تكفله، حتى انقاد له أو كاد. أعبط في وقيعة الطاعون قاضياً ببعض الجهات. وكاتباً للدار السلطانية، فكانت فيه الفجيعة عظيمة.
وجرى ذكره في التاج المحلى بما نصه: من فروع مجد وجلالة، ورث الفضل لا عن كلالة. أشرف، مجيد، معظم، مخول في العشيؤة، وصل لباب المجد بفرايد الخلال الأثيرة، وأصبح طرفاً في الخير والعفاف، واتصف من العدالة بأحسن اتصاف، وسلك من سنن سلفه، أثر هذا، لا يزال يرشده ويدله، ويسدده فيما يعقده أو يحله، واتسم بميسم الحيا، والحيا خير كله، إلى نزاهة لا ترضي بالدون، ونجابة تتهالك في صون الفنون. وطمح في هذا العهد إلى نمط في البلاغة رفيع، وجنح إلى مساجلة ما يستحسنه من مخترع وبديع، وصدرت منه طرف تستملح، وتستحلي إذا استحلى. ونحن نورد ما أمكن من آياته، ونجلي بعض غرره وشياته.
شعره
ومن مقطوعات آياته:
وهبت فهزت عند ما رأت به ... الطلا مثل الطفل يرضع في المهد
والروض حياه المزن خلعة برقة ... وباتت رباه من حباه على وعد
يحدثنا عن كرمها ما من مزنها ... فتبدي ابتسام الزهر في لثمة الخد
عجبنا لما رأينا من برها ... بدور حباب الكأس تلعب بالنرد

وقال:

شربنا وزبحى الدياجي موقد ... مصابيح من زهر النجوم الطوالع

عقاراً رأته حين أقبل حالكاً ... فجاءت بمصفر من اللون فاقع

عجبت لها ترتاع منه وإنها ... لفي الفرقد قرت لدم المدامع

وقال:

لاح في الدر العقيق فحيا ... أم مزاج أداه صرف المحيا

من بنات الكروم والروم بكرا ... أقبلت ترتدي حياً يهيا

خلتها والحباب يطفو عليها ... شفقاً فوقه نجوم الثريا

قهوة كالعروس في الكأس تجلى ... صاغ من لؤلئها المزج حليا

وقال:

ويوم أنس صقيل الجو ذي نظر ... كأنه من وميض البرق قد خلقا

ما زلت فيه لشمس الطست مصطحباً ... وبالنجوم وبالأكواس مغتبقا

صفراء كالعسجد المسبوك إن ... شربت تبدي احمراراً على الخدين مؤتلقا

كذلك الشمس في أخرى عشيتها ... إذا توارت أثارت بعدهها شفقا

وقال:

بنفسي حبيب صال عامل قده ... علي ولما ينعطف وهو كالغصن

ويا عدباً منه متى صار ذابلا ... ونضرته تنار عن حوطة اللدن

وأعجب من ذا أن سيف لحاظه ... يمزق أفلاذ الحشى وهو في الجفن

وقال:

يأبى وغير أبي غزال نافر ... بين الجوانح يغتدي ويروح

قمر تلألأ واستتار حبيبه ... غارت به بين الكواكب بوح

لم يرض غير القلب منزلة فهل ... يا ليت شعري بالذراع يلوح

ومما نسب لنفسه وأنشدنيه:

ليل الشاب انجاب أول وهلة ... عن صبح شيب لست عنه براض

إن سرني يوماً سواد خضابه ... فنصوله عن ساق ببياض

هلا اختفى فهو الذي سرق الصبا ... والقطع في السرقات أمر ماض

فعليه ما استطاع الظهور بلمتي ... وعلي أن ألقاه بالمقراض

وفاته

توفي رحمه الله بغرناطة في السابع عشر شهر ربيع الآخر عام خمسين وسبعمائة، في وقيعة الطاعون، ودفن بباب إلبيرة رحمة الله عليه.

ابن محمد اللوشي اليحصبي

محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن علي ابن محمد اللوشي اليحصبي، يكنى أبا عبد الله ويعرف باللوشي أوليته

من لوشة. وقرأ العلم بها، وتعرف بالسلطان الغالب بالله محمد قبل تصير الملك له وتقدم عنده. تضمن ذكره الكتاب المسمى بطرفة العصر في أخبار بني نصر، وتقرر ذلك في حرف الحاء في اسم أبي عمر اللوشي، كاتب الدولة النصرية رحمه الله.

حاله

من كتاب عايد الصلة. كان رحمه الله من أهل الحسب والأصالة، شاعراً، مداحا. نشأ مدللاً في حجور الدولة النصرية، خفيفاً على أبوابها، مفضلاً على مداحها. ثم تجنى بآخره، ولزم طوراً من الخمول في غير تشك، أعرض به عن أرباب الدنيا، وأعرض عنه، واقتصر على تبلغ من علالة مؤمل كان له خارج غرناطة غير مساد من ثلمه، ولا مصلح في خلله، أخذ نفسه بالتقشف، وسوء المسكن، والتهاون بالملبس، حملا عليها في غير أبواب الرياضة، مجانباً أرباب الخطط، وفياً لمن لحقته من السلطان موجدة، تختلف معاملته لمن يعرفه في اليوم مرات، من إعراض عنه، وقبول عليه، ولصوق به، كل ذلك عن سلامة، وتهيب نفس. مليح الدعابة، ذاكرا لفنون من الأناشيد، حسن الجد، متجافياً عن الأعراض.

ودرى ذكره في التاج بما نصه: شاعر مفلق، وشهاب في أفق البلاغة متألق، طبق مفاصل الكلام بحسام لسانه، وقلد نحور الكلام، ما يزري بجواهر الملوك من إحسانه. ونشأ في حجور الدولة النصرية مدللاً بمتاته، متقلباً من العز في أفانينه وأشتاته، إذ لسلفه النمام الذي صفت منه الحياض والحمام، والوداد الذي قصرت عنه الأنداد، والسابقة التي أزرى بخبرها العيان، وشهدت بها أرجونة وجيان، محيز ثمرة الطيب. وله همة عالية، بعيدة المرمى، كريمة المتمى، حملته بآخرة على الانقباض والازدراء، والزهد في الازدياد والاستكثار، والاقتصاد والاقتصار، فعطف على انتجاع غلته، والتزام محلته، ومباشرة فلاحة صان بها وجهه، ووفاه الدهر حقه ونجمه، واحتجبت عقايل بيانه لهذا العهد وتقنعت، وراودتها النفس فتمنعت، وله فكاهة، وأنس الزمان، مناجاة القينات، عند البيات، وأعذب من معاطاة الراح في الأقداح.

شعره

قال، وله أدب بلغ في الإجادة الغاية، ورفع للجبين من السنن الراية. ومن مقطوعاته يودع شيخنا الفقيه القاضي أبا البركات بن الحجاج:

رأوني وقد أغرقت في عبراتي ... وأحرقت في ناري لدى زفراتي

فقالوا سلوه تعلموا كنه حاله ... فقلت سلوا عني أبا البركات

فمن قال إني بالرحيل محدث ... روت عنه أجفاني غريب ثبات

ونادى فؤادي ركبه فأجابه ... ترحل وكن في القوم بعض عدات

ومن مقطوعاته البديعة من قصيدة مجازية:

سيخطب قس العزم في منبر السرى ... وهل في الدنا يوم المسير أطيق

وأقطع زند الهجر والقطع حقه ... فما زال طيب العمر عني يسترق

مولده: في حدود ثمانية وسبعين وستماية

وفاته

في الموفي عشرين من شهر ربيع الثاني من عام اثنين وخمسين وسبعماية
ابن الحكيم اللخمي
محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن الحكيم اللخمي يكنى أبا بكر
أوليته
مرت في اسم ذي الوزارتين
حاله

من كتاب عائد الصلة: كان صدر أبناء أصحاب النعم، وبقية أعلام البيوت، ترف نشأة، وعز تربية، وكرم نفس، وطيب مجالسة، وإمتاع محاضرة، وصحة وفاء، وشياع مشاركة في جملة فاضلة، محدثاً تاريخياً، كاتباً بليغاً، حسن الخط، مليح الدعابة، ظريف التوقيع، متقدم الحيلة في باب التحسين والتنقيح. يقرض الشعر، ويفك المعمى، ويقوم على جمل الكتاب العزيز. حفظاً وتجويداً. وإتقاناً، ويسرد نتف التاريخ. وعيون الأخبار، إلى حسن الخلق، وكمال الأبهة، وحلاوة البساطة، واحتمال المنابشة. والمثابرة على حفظ المودة، والاستقالة من الهفوة، والتمسك بالاستعتاب والمذرة. كتب بالدار السلطانية أكثر عمره، وتصدر بعد في قيادة المواضع النبيهة، محارباً ذا قدرة في ذلك. ومع ذلك فشايع المعروف، ذايع المشاركة، قيد الكثير. ودون وصنف، وحمل عن الجلة ممن يشق إحصاؤهم، وكان غرة من غرر هذا القطر، وموكبا من مواكب هذا الأفق، لم يتخلف بعده مثله.
وجرى ذكره في التاج المحلى بما نصه: ماجد أقام رسم المجد بعد عفايه، فوفى الفضل حق وفايه. بيته في رندة، أشهر في الأصالة من بيت امرئ القيس، وأرسى في بحبوحة الفخر، من قواعد الرضوى وأبي قيس، استولى على الجود البديع البعيد المدا، وحجت إليه من كل فج طلاب الندا، وعشت إلى ضوء ناره، فوجدت على النار النقى والهدى. ولي الوزارة النصرية، التي اعتصر منها طريقاً بتالد، فأحيت مآثرها الخالدة مآثر يحيى بن خالد. ولما أدار عليها الدهر كأس النوايب، وخلص إليها سهمه الصايب بين صحايف الكتب وصفايح الكتايب، تطلعت من خلالها الرايقة لباب الوجود، وبكتها بسيل أجفانها عين الباس والجود، وطلع على أعقاب هذه الفضايل محلى من صفحاتها، وأعاد لو ساعده الدهر من لحاتها، وارتقى من الكتابة إلى المحل النبية، واستحقها من بعض ميراث أبيه، وبني وشيد، ودن فيها وقيد وشهر في كتب الحديث وروايته، وجني ثمرة رحلة أبيه، وهو في حجر ذؤابته. وأنشأ الفهارس، وأحيي الأثر الدارس، وألف كتابه المسمى بالموارد المستعذبة والمقاصد المنتخبة فسرح الطرف، وروضه طيب الجني والعرف، وله شعر أنيق الحلية، حاز في نمط العلية. وبيني وبين هذا الفاضل وداد صافي الحياض، وفكاهة كقطع الرياض، ودعابة سحبت الدالة أذيالها، وأدارت الثقة والمقة جريالها. وسيمر في هذا الديوان كل رايق الحيا، عاطر الريا.
مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي جعفر الحريري، والأستاذ أبي الحسن القيجاطي، والأستاذ إسحق بن أبي العاصي. وأخذ عن العلم والرم، من مشايخ المشرق والمغرب. فمنهم الولي الصالح فضل بن فضيلة المعافري، إلى العدد الكثير من أهل الأندلس، كالخطباء الصلحاء أبي عبد الله الطنجالي، وأبي جعفر الزياتي، وأبي عبد الله بن الكماد، وغيرهم من الرنديين والمالقيين والغرناطيين، حسبما تضمنه برنامجه.
؟؟

تواليفه

ألف الكتاب المسمى، الفوائد المتخبة والموارد المستعذبة. وكمل التاريخ المسمى بميزار العمل لابن رشيق. ودون كتاباً في عبارة الرؤيا سماه بشارة القلوب بما تخبره الرؤيا من الغيوب والأخبار المذهبة والإشارة الصوفية، والنكت الأدبية. والهودج في الكتب. والإشارة في ألف إنشاده.

شعره وكتابته

قال في التاريخ ما نصه: وتهادته إلى هذا العهد رتب السيادة، واستعمل في نبيهات القيادة؛ فوجه إلى معقل قرطمة من كورة ريه وهو واليه، وبطاحه في مجرى جياده وصحر عواليه. وقد حللت مالقة صحبة الركب السلطاني في بعض التوجهات، إلى تلك الجهات، في بعض ما أتحف من مقعده، المتصل المستمر، بهدية مشتملة على ضروب من البر. فخاطبته مقيما لسوق الانبساط، وغير حايد عن الوداد والاغتباط، على ما عول عليه من حمل الإفراط، والانتظام في هذا المعنى والانخراط:

ألام على أخذ القليل وإنما ... أعامل أقواماً أقل من الذر

فإن أنا لم آخذه منهم فقدته ... ولا بد من شيء بعين على الدهر

سيدي أطلق الله يدك بما تملك، وفتر عن منحك البخل ليلاً تملك. كنت قد هومت، وحذرني القلق فتلومت. ولومي كما علمت سيئ الخصال، عزيز الوصال. يمطل ديني، ويعاف طيره ورد عيني. فإذا الباب يدق بحجر، فأنبأني عن ضجر، وجار الجنب يزخذ بالذنب. فقمت مبادراً وجزعت. وإن كان الجزع مني نادراً. واستفهمت من وراء الفلق، عن سبب هذا القلق. فقالت امرأة من سكان البوادي. رابطة الفؤاد يا قوم، رسول خير، وناعق طير، وقرع إذلال لا فرع إدلال. حطوا شعار الحرب والحرب، فقد ظفرتم ببلوغ الأرب، فتأخرت عن الإقدام، وأهمدت إليه، فحن عمر بن أبي ربيعة عمن كان بالدار من الخدام. فأسفرت الوقيعة عن سلام وسلم، ولم يزن أحد منا بكلم. ونظرت إلى رجل قرطبي الطلعة والأخلاق، خاو على الإطلاق. تنهد قبل أن يسلم، وارتمض لام ذهب من الشبيهة وتألم. شنشنة معروفة. وعين تلك الجهات معاذ الله مصروفة. وقد حملته سيادتكم من المبرة ضروباً شتى. وتجاوزت في المسرات غاية حتى. ولم تضع عضواً من جسده، فضلاً عن منكبه ويده، إلا علقته وعاء ثقيلا، وناطت به زنبيلا. واستلقى كالمني إذا ترك المعترك. وعلت حوله تلك الأثقال. وتعاورها الانتقال وكثر بالزقاق القيل والقال. فلما تخلصت إلى الدار، وسترت معرفتها بالجدار، وتناولها الاختبار الفاضح، وبان قصورها الواضح، فتلاشت، بعد ما جاشت، ونظرت إلى قعب من اللبن الممزوق الذي لا يستعمل في البيوت، ولا يباع في السوق، فأذكرتني قول الشاعر:

في تلك المكارم لا قعبان من البن ... شيبت بماء فعاد بعد أبوالا

أما زبده فرفع، وأما جبنه فاقتيت به وانتفع. وأما من بعثه من فضلاء الخدام فدفع، وكأبي به قد ألح وصفع، والتفت إلى قفة فد خيطت، وبعنق ذاك البايس قد نيطت، رمس فيها أفراخ الحمائم، وقلدت بجيده كما يتقلد بالتمائم، وشد حبلها بمخنقه، وألزم منها في العاجل طائره في عنقه، هذا بعد ما ذبحت، وأما حشوها فربحت. ولو سلكتم الطريقة المثلى، لحفظتم جثتها من العفن؛ كما تحفظ جثة القتلى، وأظنكم لم تغفلو هذا الغرض الأدنى، ولا أهملتم هذه الهمم الذي غريزة في المبنى. فإني رميت منها اللهو رمي المختبر، فكلح من مرارة الصبر، ولما أخرجتها من كفن القفة، واستدعيت لمواراتها أهل الصفة، تمثلت تمثل اللبيب بقول أبي تمام حبيب:

هن الحمام فإن كسرت عيافة ... من حائهن فإنهن حمام

ولو أن إحدى الدجاجتين لاحت عليها مخيلة سر. لكانت من بقايا مواطني ديوك بني مر، وبعث بها حلالك حلاله. وأهدى منها اجتهاد من أحسن. ولم يكن بالهدية ما يذكر، ولا كانت مما ينكر، أستغفر الله، فلو لم تكن التحفة، إلا تلك الفكاهة العاطرة والغمامة الماطرة. التي أحسبها الأمل الأقصى، وتجاوزت إلا من التي لا تعد ولا تحصى، للزم الشكر ووجب، وبرز من حر المحج ما تيسر واحتجب. فالمكارم وإن تغيرت أنسابها، وجهل انتسابها. وادعى إرثها واكتسابها، إليكم تنشر يدها، وتسعى لأقدامها، ولبيتكم تميل بهواديها، وبساحتكم يسيب واديها، وعلى أرضكم تسح غواديها. ومثلي أعزكم الله، لا يغضى من قدر تحفكم الحافلة، ولا يقجر من شكرها على فريضة ولا نافلة، ولكنها دعابة معتادة، وفكاهة أصدرتها ودادة. ولا شك أنكم بما جبلتم عليه قديماً وحديثاً، تغتفرون جفائي، الذي سيرتموه سمراً وحديثاً، في جنب وفائي، وتغضون وتتحملون، وبقول الشاعر تتمثلون، وأسمع من الألفاظ اللغوية التي يسر بها سمعي، وإن ضمنت شتمي ووصفي:

بعثت بشيء كالجفاء وإنما ... بعثت بعذري كالمدل إلى غدر
وقلت لنفسي لا تردعي فإنه ... كما قيل شيء قد يعين على الدهر
وما كان قدر الود والمجد مثله ... فخذه على قدر الحوادث أو قدري
وإن كنت لم أحسن صنعي فإنني ... سأحسن في حسن القبول له شكري
وقدرك قدر النيل عندي وإنني ... لدي قدرك العلي أدق من الذر
قنعت وحظي من زماني وودكم ... هباء ومثلي ليس يقنع بالنزر
أتاني كتاب منك باه مبارك ... لقيت به الآمال باهتة الثغر
جلا من بنات الفكر بكراً وزفها ... إلى ناظري تختال في حبر الحبر

فألفاظها كالزهر والزهر يانع ... وقدر المعاني في الأصالة كالزهر
نجوم معان في سماء صحيفة ... ولكنها تسرى النجوم ولا تسري
تضمن من نوع الدعابة ما به ... رجوت الذي قد قيل في نشوة الخمر
رعى الله مسراها الكريم فجل ما ... جلته من البشرى وأبدت من البشر
لعمري لقد أذكرتني دوله الصبا ... وأهديت لي نوع الجلال من السحر
ولما أتت تلك الفكاهة غدوة ... وجدت نشاطاً سائر اليوم في بشري
ولا سيما إن كان ملحم بردها ... عميد أولى الألباب نادرة العصر
نشرت بها ما قد طويت بساطه ... زماناً وبي طي الأمور مع النشر
ونعم خيل الخير أنت محافظاً ... على سنن الإخلاص في السر والجهر
ودونكها تلهو بها وتديرها ... سحيرية الأنفاس طيبة النشر

فراجعني بقوله: وقد من سيدي الجواب، محتوياً على العجب العجاب، فيالك من فكاهة كوثرية المناهل، عنبرية المسايل، ولو لم يكن إلا وصف القرطبي المستوي الطلعة، الشرطي الصنعة. وأما وصف اللبن وفراخ الحمام، فقد بسطتم في المزاح القول. وامتنعتم في الكلام الفصل. وذلك شيء يعجز عن مساجلتكم فيه فيه أرباب البلاغة والبيان، فكيف بمثلي ممن له القول المهلهل النسيج، الواهي البيان. ولا بد من عرض ذلك على سيدي القطب الكبير الإمام، وأستاذنا علم الأعلام، وكبير أيمة الإسلام. فيحكم بيننا بحكم الفصل. وينصف بما لديه من الحق

والعدل. وقد كنت أحيد عن مراجعتكم حيدة الجبان. وأميل عن ذلك ميلة الكودن عن مجارا السمر الهجان. وأعدل عن مساجلة أدبكم الهتان. عدول الأعزل عن مبارزة جيد السنان. إلى أن وثقت بالصفح. وعولت على ما لديكم من الإغضاء والسمح، ووجهت حاملة السر والظروف، كي تتصل الهدايا ولا ينقطع المعروف. وأستقيل من انبساط يجر عذراً. وأسأله سبحانه وتعالى حمداً يوجب المزيد من إنعامه وشكراً. دام سيدي وآماله مساعدة. والكلمة على فضله واحدة.

ومن شعره في النسك واللجأ إلى الله تعالى:

أيا من له الحكم في خلقه ... ومن بكر بي له أشتكي

تول أموري ولا تسلمني ... وإن أنت أسلمتني أهلك

تعاليت من مفضل منعم ... ونزهت من طالب مدرك

ومن ذلك ونقلته من خطه:

تصبر إذا ما أدركتك ملمة ... فصنع إله العالمين عجيب

وما يدرك الإنسان عار بنكبة ... ينكب فيها صاحب وحبيب

ففي من مضى للمرء ذي العقل أسوة ... وعيش كرام الناس ليس يطيب

ويوشك أن تهمى سحايب نعمة ... فيخصب من ربع السرور جديب

إلهك يا هذا مجيب لمن دعا ... وكل الذي عند القريب قريب

مولده: عام خمسة وستين وستماية.

وفاته

من عائد الصلة. قال، وختم الله عمره بخير العمل من الإنابة والتهدج، والتزام الورد، وإن كان مستصحب الخيرية. وحل ببلد ولا ينهم رندة، فكانت بها تربته في الثالث والعشرين لربيع الآخر عام خمسين وسبعماية.

ابن العابد الأنصاري

محمد بن محمد بن علي بن العابد الأنصاري ولد المذكور بعد، الكاتب بالدار السلطانية.

حاله

من كتاب طرفة العصر وغيره، قال، كان كاتباً مشهوراً، بليغاً، ذا معرفة، بارع الخط، وأحد زمانه في ذلك، وقوراً، معذب اللفظ، منحصاً في وفي نفسه، محارفاً بحرفة الأدب على جلالة قدره. وكتابته نقية، جانحة إلى الاختصار.

شعره

وثيق تقل فيه أرواح المعاني، كشعر أبيه، وتوشيحه فائق. تولي كتابة الإنشاء لثاني الملوك النصريين، واستمر قيامه بها على حجر شديد من السلطان ومحمل، لملازمته المعاقرة وانهماكه في البطالة، واستعمال الخمر، حتى زعموا أنه قاء يوماً بين يديه، فأخره عنها، وقدم الوزير أبا عبد الله بن الحكيم. وفي ذلك يقول:

أمن عادة الإنصاف والعدل أن أجفا ... لأن زعموا أني تحسيتها صرفا

وأقام بقية عمره تحت رفد وبر.

وفاته

توفي في حدود التسعين وستماية. وكان شيخنا ابن الجياب قد آثره بكتبه. وكانت نفيسة أعلاها بخط أبيه رحمه الله.
المري الطغنري

محمد بن مالك المري الطغنري من أهل غرناطة، من ذوي البيتية والحسب فيها. ذكره الأستاذ، في الكتاب المسمى بالصلة، والغافقي، وغيرهما.
حاله
أديب نبيل، شاعر، على عهد الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس صاحب غرناطة. قال وكان أولا يميل إلى البطالة والراحة. ثم إنه استيقظ من غفلته، وأقلع عن راحته، وأجب في توبته. وكان من أهل الفضل والخير والعلم.
من تواليفه كتابه الشهير في الفلاحة، وهو بديع، سماه زهرة البستان، ونزهة الأذهان، عبرة في الظرف. قال، وجرى له مع سماجة، خليفة عبد الله بن بلقين قصة. إذ فاجأه سماجة مع إخوان له، ولم يشعروا به، فأنشده ابن مالك ارتجالاً، وقد أخذ بلجام دابته:
بينما نحن في المصلى نساق ... وجناح العشي فيه جنوح
إذا أتانا سماجة يتلألأ ... ردى الشمس من تجليه يوح
فطفقنا يقول بعض لبعض ... أغبوق شرابنا أم صبوح
قال، فتكلم الوزير سماجة باللسان البربري مع عبيده، فرجعوا مسرعين، ووقف سماجة مع الوزير ابن مالك، إلى أن أتاه عبيده، بوعاء فيه جملة كبيرة من الدراهم، تنيف على الثلاثمائة دينار. فقال ادفعوها إليه، وانصرف. وأتاهم العبيد مع الدراهم، بطعام وشراب. قال ابن مالك، وذلك أول مال تأثلته.
شعره
ومنه:
صب على قلبي هوى لاعج ... ودب في جسمي ضناً دارج
في شادن أحمر مستأنس ... لسان تذكاري به لاهج
قدر نعمان إذا ما مشى ... وما عسى يفعله عالج
فقده من رقة مايس ... وردفه من ثقله مايج
عنوان ما في ثوبه وجهه ... تشابه الداخل والخارج
فلا تقيسوه ببدر الدجى ... ذا معلم الوجه وذا ساذج
وقد نسبها بعض الناس لغيره
وفاته
قال الأستاذ، كان حياً سنة ثمانين وأربعمائة، وأمر أن يكتب على قبره:
يا خليلي عرج على قبري تجد ... من أكلة الترب بين جنبي ضريح
خافت الصوت إن نطقت ولكن ... أي نطق إن اعتبرت فصيح
أبصرت عيني العجايب لكن ... لما فرق الموت بين جسمي وروح
ابن عبد الملك الأوسي
امحمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن عبد الملك الأوسي المدعو بالعقرب، من إقليم الآش
حاله

كان حسن النظم والنثر، ذكياً من أهل المعرفة بالعربية والأدب، موصوفاً بجودة القريحة، والنبل والفطنة.

أدبه وشعره

ذكره الملاحي، وقال حدثني قاضي الأحكام بغرناطة، أبو القاسم الحسن بن قاسم، الهلالي صاحبنا. قال، كان الأستاذ أبو عبد الله العقرب جارنا، قد وقع بينه وبين زوجه، زهرة بنت صاحب الأحكام أبي الحسن علي بن محمد تنازع؛ فرفعته إلى القاضي بغرناطة، أبي عبد الله بن السماك العاملي، وكنت يومئذ كاتباً له، فرأى القاضي قوته وقدرته على الكلام وضعفها، وإخفاق نظمها، وشفق لحالها. وكان يرى أن النساء ضعاف، وأن الأغلب من الرجال يكون ظالمهن. وكان كثيرا ما يقول في مجلسه: رويدك، رفقاً بالقوارير. وحين رأى، ما صدر عن القاضي من الجمل، فقلت له وأين حلاوة شعرك، والقاضي أديب، يهتز إليه ويرتاح، فطلب مني قرطاساً، وجلس غير بعيد، ثم كتب على البديهة بما نصه:

لله حي يا أميم حواك ... وحمايم فوق الغصون حواك

غنين حتى خلتهن عنيني ... بغنايهن فنحت في مغناك

ذكرتني ما كنت قد أنسيته ... بخطوب هذا الدهر من ذكراك

أشكو الزمان إلى الزمان ومن شكى صرف الزمان إلى الزمان فشاكي

يا ابن السماك المستظل برمحه ... والعزل ترهب ذا السلاح الشاكي

راع الجوار فبيننا في جونا ... حق السرى والسير في الأفلاك

وابسط إلى الخلق المنوب ببسطة ... ظرف الكرام بعفة النساك

وأنا ذاكر إن لم يفت من لم يمت فدارك ثم دارك ثم ذاك

ثم دفعها إلى القاضي، فكتب القاضي بخطه في ظهر الرقعة: لبيك، لبيك. ثم أرسلني أصلح بين العقرب وزوجه، فإن وصل صلحهما إلى خمسين دينارا، فأنا أؤديها عنه من مالي، فجمعت بينهما، وأصلحت بينهما عن تراض منهما، رحمهما الله تعالى.

القيسي العرادي

محمد بن علي بن عبد الله بن علي القيسي العرادي من أهل غرناطة

حاله

كان فتى حسن السمت، ظاهر السكون، بادي التصون والعفة، دمث الأخلاق، قليل الكلام، كثير الحياء، مليح الخط، ظريفه، بادي النجابة. أبوه وجده من تجار سوق العطر، نبهاء السوق. نظم الشعر، فجاء منه بعجب، استرسالا وسهولة، واقتداراً، ونفوذا في المطولات، فأنفت له من الإغفال، وجذبتنه إلى الدار السلطانية، واشتدت براعته، فكاد يستولي على الأمر. لو لا أن المنية اخترمته شاباً، فثكل منه الشعر، قريع إجادة، وبارع ثنية شهرة، لو انفسح له الأمد.

مولده: في ذي الحجة عام أحد وثلاثين وسبعمائة.

وفاته

توفي مبطوناً على أيام قريبة من إسراعه بغرناطة، عن سن قريبة من العشرين، في عام خمسة وخمسين وسبعمائة، وأبوه أمين العطارين.

محمد بن علي بن العابد الأنصاري

يكنى أبا عبد الله، أثله من مدينة فاس.

حاله

من خط القاضي أبي جعفر بن مسعدة، علم كتاب دار الإمارة النصرية الغالبية، الذي بنوره يستصبحون؛ وسراجهم الذي بإشراقه وبهجته، ونهج محدته يهتدون. رفع لواء الحمد، وارتدى بالفهم والعلم والحلم. كان رحمه الله إماماً في الكتابة، والأدب، واللغة، والإعراب، والتاريخ والفرايض والحساب، والبرهان عليه عارفاً بالسجلات والتوثيق أربى على الموثقين من الفحول، المبرزين في حفظ الشعر ونظمه، ونسبته إلى قائله حافظاً مبرزاً. درس الحديث، وحفظ الأحكام لعبد الحق الإشبيلي، ونسخ الدواوين الكبار، وضبط كتب اللغة. وقيد على كتب الحديث، واختصر التفسير للزمخشري، وأزال عنه الاعتزال، لم يفتر قط من قراءة أو درس أو نسخ أو مطالعة، ليه ونهاره. لم يكن في وقته مثله.

مشيخته

أخذ بفاس عن أبي العباس أحمد بن قاسم بن البقال الأصولي، وأبي عبد الله بن البيوت المقري، وعن الزاهد أبي الحسن بن أبي الموالي، وغيرهم.

شعره

ومنه قوله:

طرقت تتيه على الصباح الأبلج ... حسناء تختل اختيال تبرج

في ليلة قد ألبست بظلامها ... فضفاض برد بالنجوم مدبج

وشعره مدون كثير.

وفاته

توفي بحضرة غرناطة عام اثنين وستين وسبعمائة في ذي القعدة منه.

الأزدي الإلبيري الغرناطي

محمد بن هاني بن محمد بن سعدون الأزدي الإلبيري الغرناطي من أهل قرية سكون، يكنى أبا القاسم، ويعرف الأندلسي، وكأنها تفرقة بينه وبين الحكمى أبي نواس.

أوليته

قال غير واحد من المؤرخين، هو من ذرية يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، وقيل من ولد أخيه روح بن حاتم.

حاله

كان من فحول الشعراء، وأمثال النظم، وبرهان البلاغة، لا يدرك شأوه، ولا يشق غباره، مع المشاركة في العلوم، والنفوذ في فك المعمى. خرج من الأندلس ابن سبع وعشرين سنة، فلقي جوهراً المعروف بالكاتب مولى المعز بن المنصور العبيدي صاحب المغرب وامتدحه، وكان لئيماً، فأعطاه مائتي درهم، فوجد لذلك، وقال أها هنا كريم يقصد، فقيل بلى، جعفر بن يحيى بن علي بن فلاح بن أبي مروان، وأبو علي بن حمدون، فامتدحهما، ثم اختص بجعفر

بن يحيى وأبي علي، فبالغا في إكرامه، وأفاضا عليه من النعم والإحسان ما لم يمر بباله، وسارت أشعاره فيهما، حتى أنشدت للمعز العبيدي، فوجهه جعفر بن علي إليه في جملة طرف وتحف بعث بها إليه، كان أبو القاسم أفضلها عنده، فامتدح المعز لدين الله، وبلغ المعز من إكرامه الغاية. ثم عاد إلى إفريقية، ثم توجه إلى مصر، فتوفي ببرقة. وجرى ذكره في تخليص النهب من تأليفنا بما نصه: العقاب الكاسرة، والصمصامة الباترة، والشوارد التي تهادتها الآفاق، والغايات التي أعجز عنها السباق.

وصمته: وذكره ابن شرف في مقاماته، قال: وأما ابن هاني محمد، فهو نجدي الكلام، سردى النظام، إلا أنه إذا ظهرت معانيه، في جزالة مبانيه، رمى عن منجنيق لا يؤثر في النفيق. وله غزل معرى، لا عذرى، لا يقنع بالطيف، ولا يصفع بغير السيف وقد قده به الذات، وعظم شأنه فاحتمل الثواب، وكان يقف دولته في أعلى منزلته ناهيك من رجل يستعين على صلاح دنياه، بفساد أخراه، لرداءة دينه، وضعف يقينه. ولو عقل ما ضاقت عليه معاني الشعر، حتى يستعين عليه بالكفر.

شعره

كان أو لما مدح به جعفر بن علي قوله:

أحبب بتياك القباب قبابا ... لا بالحداة ولا الركاب ركابا

فيها قلوب العشقين تخالها ... عنماً بأيدي البيض العنابا

وقال يمدح جعفر بن علي منم القصيدة الشهيرة:

أليتنا إذ أرسلت وارداً وجفاً ... وبانت لنا الجوزاء في أذنها شنقاً

وبات لنا ساق يقوم على الدجى ... بشمعة صبح لا تقط ولا تعطفا

أغن غضيض جفف اللين قده ... وأثقلت الصهباء أجفانه الوطفا

ولم يبق إرعاش المدام له يداً ... ولم يبق إعنات التثني له عطفاً

نزيف قضاه السكر إلا ارتجاجه ... إذا كل عنها الخصر حملها الردفا

يقولون حقف فوقي خيزرانة ... أما يعرفون الخيزرانة والحقفا

جعلنا حشايانا ثياب مدامنا ... وقدت لنا الظلماء من جلدها لحفا

فمن كبد تدنى إلى كبد هوى ... ومن شفة توحي إلى شفة رشفا

بعيشك نبه كأسه وجفونه ... فقد نبه الإبريق من بعد ما أغفا

وقد فكت الظلماء بعض قيودنا ... وقد قام جيش الليل للصبح فاصطفا

وولت نجوم للثريا كأنها ... خواتيم تبدو في بنان يد تخفا

ومر على آثارها دبرانها ... كصاحب ردئ كمنت خليه خلفا

وأقبلت الشعرى العبور ملمة ... بمرزمها اليعسوب تجنبه طرفا

وقد قبلتها أختها من ورائها ... لتخرق من ثنيا مجرتها سجفا

تخاف زئير الليث قدم نثرة ... وبربر في الظلماء ينسفا نسفا

كأن معلا قطبها فارس له ... لواءان مر كوزان قد كره الزحفا

كأن السماكين اللذين تظاهرا ... على لبتيه ضامنان له الحتفا

فذا رامح يهوى إليه سنانه ... وذا أعزل قد عض أنمله لهفا
كأن قدامي النسر والنسر واقع ... قصصن فلم تسم الخوافي له ضعفا
كأن أخاه حين دوم طايرا ... أتي دون نصف البدر فاختطف النصفا
كأن رقيب الليل أجدل مرقب ... يقلب تحتن الليل في ريشه طرفا
كأن بني نعش ونعش مطافل ... بوجرة قد أضللن في مهمه قشفا
كأن سهاها عاشق بين عود ... فآونة يبدو وآونة يخفا
كأن سهيلا في مطالع أفقه ... مفارق إلق لم يجد بعده إلفا
كأن الهزيع الأبنوسي موهنا ... سرى بالنسيج الخسرواني ملتفاً
كأن ظلام الليل إذ مال ميلة ... صريع مدام بات يشربها صرفا
كأن نجوم الصبح خاقان معشر ... من الترك نادى بالنجاشي فاستخفا
كأن لواء الشمس غرة جعفر ... رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا
وقد جاشت الظلماء بيضاً صوراماً ... ومركوزة سمرا وفضفاضة زعفا
وجاءت عتاق الخيل تردي كأنها ... تخط لنا أقلام آذانها صحفا
هنالك تلقى جعفراً خير جعفر ... وقد بدلت يمناه من لينها عنفا
فكاين تراه في الكريهة عاجلا ... عزيمته برقاً وصولته خطفاً
وشعره كثير مدون، ومقامه شهير، وفيما أوردناه كفاية، وهو من إلبيرة الأصلية.
؟وفاته

قالوا، لما توجه إلى مصر، شرب ببرقة وسكر ونام عريانا، وكان البرد شديداً فأفلج، وتوفي في سنة إحدى وستين وثلاثمائة؛ وهو ابن اثنين وأربعين سنة. ولما بلغت المعز وفاته، تأسف عليه وقال، هذا رجل كنا نطمع أن نفاخر به أهل المشرق.

الغساني البرجي الغرناطي

محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن علي بن إبراهيم بن علي الغساني البرجي الغرناطي، يكنى أبا القاسم من أهل غرناطة.

حاله

فاضل مجمع على فضله، صالح الأبوة، طاهر النشأة، بادي الصيانة والعفة، طرف في الخير والحشمة، صدر في الأدب. جم المشاركة، ثاقب الذهن، جميل العشرة، ممتع المجالسة، حسن الخط والشعر والكتابة، فذ في الانطباع، صنيع اليدين، يحكم على الكثير من الآلات العلمية، ويجيد تفسير الكتاب، رحل إلى العدة، وتوسل إلى ملكها، مجدد الرسم، ومقام الجلة، وعلم دست الشعر والكتابة أمير المسلمين أبي عنان فارس، فاشتمل عليه، ونوه به، وملأ بالخير يده، فاقتنى جدة وحظوة وشهرة، وذكراً؛ وانقبض مع استرسال الملك، وآثر الراحة، وجهد في التماس الرحلة الحجازية، ونبذ الكل، وسلا الخطة، فأسعفه سلطانه بغرضه، وجعل حبله على غاربه، وأصحبه رسالة إلى النبي الكريم من إنشايه، متصلة بقصيدة من نظمه، وكلاهما تعلن في الخلفاء بعد شأوه، ورسوخ قدم علمه، وعراقة البلاغة، في نسب خصله، حسبما تضمنه الكتاب المسمى بمساجلة البيان. ولما هلك وولي ابنه، قدمه قاضياً بمدينة

ملكه، وضاعف التنويه به، فأجرى الخطة، على سبيل من السداد والنزاهة. ثم لما ولي السلطان أبو سالم عمه، أجراه على الرسم المذكور. وهو الآن بحاله الموصوفة، مفخر من مفاخر ذلك الباب السلطاني على تعدد مفاخره يحظى بكل اعتبار.

شعره

ثبت في كتاب نفاضة الجراب من تأليفنا، عند ذكر المدعي الكبير بباب ملك المغرب، ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر من أنشد ليلتئذ من الشعراء ما نصه: وتلاه الفقيه الكاتب الحاج القاضي، جملة السذاجة، وكرم الخلق، وطيب النفس، وخدن العافية، وابن الصلاح والعبادة، ونشأة القرآن، المتحيز إلى حزب السلامة، المنقبض عن الغمار، العزوف عن فضول القول والعمل، جامع المحاسن، من عقل رصين، وطلب ممتع، وأدب نقادة، ويد صناع، أبو القاسم ابن أبي زكريا البرجي، فأنشدت له على الرسم المذكور هذه القصيدة الفريدة:

أصغى إلي الوجد لما جد عاتبه ... صب له شغل عمن بعاتبه
لم يعط للصبر من بعد الفراق يدا ... فضل من ظل إرشاداً يخاطبه
لو لا النوى لم يبت حيران مكتئبا ... يغالب الوجد كتماً وهو غالبه
يستودع الليل أسرار الغرام وما ... تمليه أشجانه فالدمع كاتبه
لله عصر بشرقي الحمى سمحت ... بالوصل أوقاته لو عاد ذاهبه
يا جيرة أو دعوا إذ ودعوا حرقا ... يصلى بها من صميم القلب ذائبه
يا هل ترى تجمع الأيام فرقتنا ... كعهدنا أو يرد القلب ساكبه
ويا أهيل ودادي والنوى قذف ... والقرب قد أبهمت دوني مذاهبه
هل ناقض العهد بعد البعد حافظه ... وصادع الشمل يوم الشعب شاعبه
ويا ربوع الحمى لا زلت ناعمة ... يبكي عهودك مضني الجسم شاحبه
يا من لقب مع الأهواء منعطف ... في كل أوب له شوق يجاذبه
يسمو إلى طلب الباقي بهمته ... والنفس بالميل للفاني تطالبه
وفتنة المرء بالمألوف معضلة ... والأنس بالإلف نحو الإلف جاذبة
أبكي لعهد الصبا والشيب يضحك بي ... يا للرجال سبت جدي ملاعبه
ولن ترى كالهوى أشجاه سالفه ... ولا كوعد المنى أحلاه كاذبه
وهمة المرء تغليه وترخصه ... من عز نفساً لقد عزت مطالبه
ما هان كسب المعالي أو تناولها ... بل هان في ذاك ما يلقاه طالبه
ولا سرى الفلك السامي لما ظهرت ... آثاره ولما لاحت كواكبه
في ذمة الله ركب للعلا ركبوا ... ظهر السرى فأجابتهم نجائبه

يرمون عرض الفلا بالسير عن غرض ... طي السجل إذا ما جد كاتبه
كأنهم في فؤاد الليل سر هوى ... لولا الضرام لما خفت جوانبه
شدوا على لهب الرمضاء وطأتهم ... فغاص في لجة الظلماء راسبه
وكلفوا الليل من طول السرى شططاً ... فخلفوه وقد شابت ذوائبه
حتى إذا أبصروا الأعلام مائله ... يجانب الحرم المحمى جانبه

بحيث يأمن من مولاه خائفه ... من ذنبه وينال القصد راغبه
فيها وفي طيبة الغراء لي أمل ... يصاحب القلب منه ما يصاحبه
لم أنس لا أنس أياماً بظلمها ... سقى ثراه عميم الغيث ساكبه
شوقي إليها وإن شط المزار بها ... شوق المقيم وقد سارت حبائبه
إن ردها الدهر يوماً بعد ما عبثت ... في الشمل منا يداه لا نعاتبه
معاهد شرفت بالمصطفى فلها ... من فضله شرف تعلو مراتبه
محمد المجتبى الهادي الشفيع إلى ... رب العباد أمين الوحي عاقبه
أوفى الورى ذمماً أسماهم همماً ... أعلاهم كرماً جلت مناقبه
هو المكمل في خلق وفي خلق ... زكت حلاه كما طابت مناسبه
عناية قبل بدء الخلق سابقة ... من أجلها كان آتيه وذاهبه
جاءت تبشرنا الرسل الكرام به ... كالصبح تبدو تباشيراً كواكبه
أخباره سر علم الأولين وسل ... بدير تيماء ما أبداه راهبه
تطابق الكون في الشرى بمولده ... وطبق الأرض أعلاماً تجاوبه
فالجن تهتف إعلاناً هواتفه ... والجن تقذف إحراقاً ثواقبه
ولم تزل عصمة التأييد تكنفه ... حتى انجلى الحق وانزاحت شوائبه
سرى وجنح ظلام الليل منسدل ... والنجم لا يهتدي في الأفق ساربه
يسمو لكل سماء منه منفرد ... عن الأنام وجبرائيل صاحبه
لمنتهى وقف الروح الأمين به ... وامتاز قرباً فلا خلق يقاربه
لقاب قوسين أو أدنى فما علمت ... نفس بمقدار ما أولاه واهبه
أراه أسرار ما قد كان أودعه ... في الخلق والأمر باديه وغائبه
وآب والبدر في بحر الدجى غرق ... والصبح لما يؤب للشرق آيبه
فأشرقت بسناه الأرض واتبعت ... سبل النجاة بما أبدت مذاهبه
وأقبل الرشد والتاحت زواهره ... وأدبر الغير فانجابت غياهبه
وجاء بالذكر آيات مفصلة ... يهدي بها من صراط الله لاحبه
نور من الحكم لا تخبو سواطعه ... بحر من العلم لا تفنى عجائبه
له مقام الرضا المحمود شاهده ... في موقف الحشر إذ نابت نوائبه
والرسل تحت لواء الحمد يقدمها ... محمد أحمد السامي مراتبه
له الشفاعات مقبولاً وسائلها ... إذا دهى الأمر واشتدت مصاعبه
والحوض يروى الصدى من عذي مورده ... لا يشتكي غلة الظمآن شاربه
محامد المصطفى لا ينتهي أبدا ... تعدادها هل يعد القطر حاسبه
فضل تكفل بالدارين يوسعها ... نعمى ورحمى فلا فضل يناسبه
حسبي التوسل منها بالذي سمحت ... به القوافي وجلتها غرائبه
حياه من صلوات الله صوب حساً ... تحدى إلى قبره الزاكي نجائبه

وخلد الله ملك المستعين به ... تحدى إلى قبره الزاكي نجائبه
إمام عدل بتقوى الله مشتمل ... في الأمر والنهي يرضيه يراقبه
مسدد الحكم ميمون نقيبته ... مظفر العزم صدق الرأي صائبه
مشمر للتقى أذيال مجتهد ... جرار أذيال سحب الجود ساحبه

قد أوسعت أمل الراجي مكارمه ... وأحسبت رغبة العافي رغائبه
وفاز بالأمن محبوراً مسالمه ... وباء بالخزي مقهوراً محاربه
كم وافد آمل معهود نائله ... أثنى وأثنت بما أولى حقائبه
ومستجير بعز من مثابته ... عزت مراميه وانقادت مآربه
وجاءه الدهر يسترضيه معتذراً ... مستغفراً من وقوع الذنب تائبه
لولا الخليفة إبراهيم لانبهمت ... طرق المعالي ونال الملك غاصبه
سمت لنيل تراث المجد همته ... والملك ميراث مجد وهو عاصبه
ينميه للعز والعليا أبو حسن ... سمح الخلائق محمود ضرائبه
من آل يعقوب حسب الملك مفتخراً ... بباب عزهم السامي تعاقبه
أطواد حلم رسا بالأرض محتده ... وزاحت منكب الجوزا مناكبه
تحفها من مرين أبحر زخرت ... أمواجها وغمام ثار صائبه
بكل نجم لدي الهيجاء ملتهب ... ينقض وسط سماء النقع ثاقبه
أكفهم في دياجيها مطالعه ... وفي نحور أعاديهم مغاربه
يا خير من خلصت لله نيته ... في الملك أو خطب العلياء خاطبه
جردت والفتنة الشعواء ملبسة ... سيفاً من العزم لا تنبو مضاربه
وخطتها غير هياب ولا وكل ... وقلما أدرك المطلوب هائبه
صبرت نفساً لعقبي الصبر حامدة ... والصبر مذ كان محمود عواقبه
فليهن دين الهدى إذ كنت ناصره ... أمن يواليه أو خوف يجانبه
لا زال ملكك والتأييد يخدمه ... تقضي بخفض مناويه قواضبه
ودمت في نعم تضفوا ملابسها ... في ظل عز علاً تصفو مشاربه
ثم الصلاة على خير البرية ما ... سارت إليه بمشتاق ركائبه

ومن شعره ما قيده لي بخطه صاحب قلم الإنشاء بالحضرة المرينية، الفقيه الرئيس الصدر المتفنن أبو زيد بن خلدون.

صحا القلب عما تعلمين فأقلما ... وعطل من تلك المعاهد أربعا
وأصبح لا يلوى على حد منزل ... ولا يتبع الطرف الخلي المودعا
وأضحى من السلوان في حرز معقل ... بعيد على الأيام أن يتضعضا
يرد الجفان النجل عن شرفاته ... وإن لحظت عن كل أجيد أتلعا
عزيز على داعي الغرام انقياده ... وكان إذا ناداه للوجد أهطعا
أهاب به للشيب أنصح واعظ ... أصاخ له قلباً منيباً ومسمعا
وسافر في أفق التفكر والحجا ... زواهره لا تبرح الدهر طلعا

لعمري لقد انضيت عزمي تطلباً ... وقضيت عمري رقية وتطلعا
وخضت عباب البحر أخضر مزبدا ... ودست أديم الأرض أغبر أسفعا
ومن شعره حسبما قيده المذكور:
نماه النهي بعد طول التجارب ... ولاح له منهج الرشد لاحب
وخاطبه دهره ناصحاً ... بألسنة الوعظ من كل جانب
فأضحى إلى نصحه واعياً ... وألغى حديث الأماني الكواذب
وأصبح لا تستبيه الغواني ... ولا تزدريه حظوظ المناصب
وإحسانه كثير في النظم والنثر، والقصار والمطولات. واستعمل في السفارة إلى ملك مصر وملك قشتالة، وهو الآن قاضي مدينة فاس، نسيج وحده، في السلامة والتخصيص، واجتناب فضول القول والعمل، كان الله له.
ابن زمرك

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد ابن يوسف بن محمد الصريحي، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن زمرك. أصله من شرق الأندلس، وسكن سلفه ربض البيازين من غرناطة، وبه ولد ونشأ، وهو من مفاخره.
حاله

هذا الفاضل صدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجبائها، محتص، مقبول، هش، خلوب، عذب الفكاهة، حلو المجالسة حسن التوقيع، خفيف الروح، عظيم الانطباع، شره المذاكرة، فطن بالمعاريض، حاضر الجواب، شعلة من شعل الذكاء، تكاد تحتدم جوانبه، كثير الرقة، فكه، غزل، مع حياء وحشمة، جواد بما في يده، مشارك لإخوانه. نشأ عفاً، طاهراً، كلفا بالقراءة، عظيم الدؤوب، ثاقب الذهن، أصيل الحفظ، ظاهر النبل، بعيد مدى الإدراك، جيد الفهم، فاشتهر فضله، وذاع أرجه، وفشا خبره، واضطلع بكثر من الأغراض، وشارك في جملة من الفنون، وأصبح متلقف حكرة البحث، وصارخ الحلقة وسابق الحلبة، ومظنة الكمال. ثم ترقى في درج المعرفة والاضطلاع، وخاض لجة الحفظ، وركض قلم التقييد والتسويد والتعليق، ونصب نفسه للناس، متكلماً فوق الكرسي المنصوب وبين الحفل المجموع، مستظهرا بالفنون التي بعد فيها شأوه، من العربية والبيان واللغة، وما يقذف به في لج النقل، من الأخبار والتفسير. متشوفاً مع ذلك، إلى السلوك، مصاحباً للصوفية، آخذاً نفسه بارتياض ومجاهدة، ثم عانى الأدب، فكان أملك به، وأعمل الرحلة في طلب العلم والازدياد، وترقى إلى الكتابة، عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب، أبي سالم إبراهيم ابن أمير المسلمين أبي الحسن علي بن عثمان ابن يعقوب، ثم عن السلطان، وعرف في باب الإجادة. ولما جرت الجادثة على السلطان صاحب الأمر بالأندلس، واستقر بالمغرب، أنس به، وانقطع إليه، وكر صحبة ركابه، إلى استرجاع حقه، فلطف منه محله، وخصه بكتابة سره. وثابت الحال، ودالت الدولة، وكانت له الطايلة، فأقره على رسمه، معروف الانقطاع والصاغية، كثير الدالة، مضطلعاً بالخطة، خطاً وإنشاء ولسناً ونقداً، فحسن منابه، واشتهر فضله، وظهرت مشاركته، وحسنت وساطته ووسع الناس تخلقه، وأرضى السلطان حمله، وامتد في ميدان النثر والنظم باعه، فصدر عنه من المنظوم في أمدحه، قصائد بعيدة الشأو في مدى الإجادة، حسبما يشهد بذلك، ما تضمنه اسم السلطان أيده الله في أول حرف الميم، في الأغراض المتعددة من القصائد والميلاديات، وغيرها. وهو بحاله الموصوفة إلى الآن. أعانه الله وسدده.
شيوخه

قرأ العربية على الأستاذ رحلة الوقت في فنها أبي عبد الله بن الفخار ثم على إمامها القاضي الشريف. إمام الفنون اللسانية، أبي القاسم محمد بن أحمد الحسني، والفقه والعربية على الأستاذ المفتي أبي سعيد بن لب، واختص بالفقيه الخطيب الصدر المحدث أبي عبد الله بن مرزوق، فأخذ عنه كثيراً من الرواية، ولقي القاضي الحافظ أبا عبد الله المقري عندما قدم رسولا إلى الأندلس وذاكره، وقرأ الأصول الفقهية على أبي علي منصور الزواوي، وروى عن جملة، منهم القاضي أبو البركات بن الحاج، والمحدث أبو الحسن بن التلمساني، والخطيب أبو عبد الله بن اللوشي، والمقرئ أبو عبد الله بن بيبش. وقرأ بعض الفنون العقلية بمدينة فاس على الشريف الرحلة الشهير أبي عبد الله العلوي التلمساني واختص به اختصاصاً لم يخل فيه من إفادة مران، وحنكة في الصناعة.

شعره

وشعره مترام إلى نمط الإجادة، خفاجي النزعة، كلف بالمعاني البديعة، والألفاظ الصقيلة، غزير المادة. فمنه في غرض النسيب:

رضيت بما تقضي علي وتحكم ... أهان فأقصى أم أصافي فأكرم
إذا كان قلبي في يديك قياده ... فما لي عليك في الهوى أتحكم
على أن روحي في يديك بقاوه ... بوصلك يحيى أو بهجرك يعدم
وأنت إلى المشتاق نار وجنة ... ببعدك يشقى أو بقربك ينعم
ولي كبد تندى إذا ما ذكرتم ... وقلب بنيران الشوق يتضرم
ولو كان ما بي منك بالبرق ما سرى ... ولا استصحب الأنواء تبكي وتبسم
أراعي نجوم الأفق في الليل ما دجى ... وأقرب من عيني للنوم أنجم
وما زلت أخفي الحب عن كل عادل ... وتشفى دموع الصب ما هو يكتم
كساني الهوى ثوب السقام وإنه ... متى صح حب المرء لا شيء يسقم
فيا من له العقل الجميل سجية ... ومن جود يمناه الحيا يتعلم

وعنه يروي الناس كل غريبة ... تخط على صفح الزمان وترسم
إذا أنت لم ترحم خضوعي في الهوى ... فمن ذا الذي حنى علي ويرحم
وحلمك حلم لا يليق بمذنب ... فما بال ذنبي عند حلمك يعظم
ووالله ما في الحي حي ولم ينل ... رضاك وعمته أياد وأنعم
ومن قبل ما طوقتني كل نعمة ... كأني وإياها سوار ومعصم
وفتحت لي باب القبول مع الرضى ... يغض الحي طرفي كأني مجرم
ولو كان لي نفس تخونك في الهوى ... لفارقتها طوعاً وما كنت أندم
وأترك أهلي في رضاك إلى الأسى ... وأسلم نفسي في يديك وأسلم
أما والذي أشقى فؤادي في الهوى ... وإن كان في تلك الشقاوة ينعم
لأنت من قلبي ونزهة خاطري ... ومورد آمالي وإن كنت أحرم

ومن ذلك ما خاطبني به، وهي من أول نظمه، قصيدة مطلعها: " أما وانصداع النور في مطلع الفجر " وهي طويلة. ومن بدائعه التي عقم عن مثلها قياس قيس، واشتهرت بالإحسان اشتهار الزهد بأويس، ولم يحل مجاريه ومباريه إلا بويح وويس، وقله في إذار الأمير ولد سلطانه المنوه بمكانه، وهي من الكلام الذي عنيت الإجادة بتنهيبه وتهذيبه،

وناسب الحسن بني مديحه ونسيبه:

معاذ الهوى أن أصحب القلب ساليا ... وأن يشغل اللوام بالعذل باليا

دعاني أعط الحب فضل مقادتي ... ويقضي علي والوجد ما كان قاضيا

ودون الذي رام العواذل صبوة ... رمت بي في شعب الغرام المراميا

وقلب إذا ما انبرق أو مض موهناً ... قدحت به زنداً من الشوق وارياً

خليلي إني يوم طارقة النوى ... شقيت بمن لو شاء أنعم باليا

وبالخيف يوم النفر يا أم مالك ... تخلفت قلبي في حبالك عانيا

وذي أشر عذب الثنايا مخصر ... يسقى به ماء النعيم الأقاحيا

أحوم عليه ما دجى الليل ساهرا ... وأصبح دون لورد ظمآن ضاريا

يضيء ظلام الليل ما بين أضلعي ... إذا البارق النجدي وهنا بداليا

أجيرتنا بالرمل والرمل منزل ... مضى العيش فيه بالشبيبة حاليا

ولم أر ربعا منه أقضى لبانه ... وأشجى حمامات وأحلى مجانيا

سقت طله الغر الغوادي ونظمت ... من القطر في جيد الغصون لآليا

أبثكم أني على النأي حافظ ... ذمام الهوى لو تحفظون ذماميا

أناشدكم والحر أوفى بعهده ... ولن يعدم الخير والأحسان جازيا

وورد على السلطان أبي سالم ملك المغرب رحمة الله تعالى عليه وفد الأحابيش بهدية من ملك السودان، ومن جملتها الحيوان الغريب المسمى بالزرافة، فأمر من يعاني الشعر من الكتاب بالنظم في ذلك الغرض، فقال وهي من بدائعه:

لو لا تألق بارق التذكار ... ما صاب واكف دمعي المدرار

لكنه مهما تعرض خافقاً ... قدحت يد الأشواق زند أواري

وعلى المشوق إذا تذكر معهدا ... أن يغري الأجفان باستعبار

أمذكري غرناطة حلت بها ... أيدي السحاب أزرة النوار

كيف التخلص للحديث وبيننا ... عرض الفلاة وطافح زخار

وغريبة قطعت إليك على الونى ... بيداً تبيد بها هموم الساري

تنسيه طيته التي قد أمها ... والركب فيها مت الأخبار

يقتادها من كل مشتمل الدجى ... وكأنما عيناه جذوة نار

خاضوا بها لجج الفلا فتخلصت ... منها خلوص البدر بعد سرار

سلمت بسعدك من غوائل مثلها ... وكفى بسعدك حامياً لذمار

وأتتك يا ملك الزمان غريبة ... قيد النواظر نزهة الأبصار

موشية الأعطاف رائقة الحلى ... رقمت بدائعها يد الأقدار

راق العيون أديمها فكأنه ... روض تفتح عن شقيق بهار

ما بين مبيض وأصر فاقع ... سال اللجين به خلال نضار

يحكى حدائق نرجس في شاهق ... تنساب فيه أراقم الأنهار

وأنشد السلطان في ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب ما فرغ من البنية الشهيرة ببابه رحمه الله تعالى.

تأمل أطلال الهوى فتألما ... وسيما الجوى والسقم منها تعلما
أخو زفرة هاجت له منه ذكرة ... فأنجد في شعب العزام وأتهما
وأنشد السلطان في وجهة للصيد أعملها، وأطلق أعنة الجياد في ميادين ذلك الطراد وأرسلها قوله:
حياك يا دار الهوى من دار ... نوء السماك بديمة مدرار
وأعاد وجه رباك طلقاً مشرقاً ... متضاحكاً بمباسم النوار
أمذكري دار الصبابة والهوى ... حيث الشباب يرف غصن نضار
عاطيتني عنها الحديث كأنما ... عاطيتني عنها كؤوس عقار
إيه وإن أذكيت نار صبابتي ... وقدحت زند الشوق بالتذكار
يا زاجر الأظعان وهي مشوقة ... أشبهتها في زفرة وأوار
حنت إلى نجد ولست دارها ... وصبت إلى هندية والقار
شاقت به برق الحمى واعتادها ... طيف الكرى بمزارها المزوار
ومن شعره في غير المطولات:
لقد زادني وجداً وأغرى بي الجوى ... ذيال بأذيال الظلام قد التفا
تشير وراء الليل منه بنانة ... مخضبة والليل قد حجب الكفا
تلوح سناناً حين لا تنفح الصبا ... وتبدو سواراً حين تثنى له العصفا
قطعت به ليلا يطارحني الجوى ... فآونة يبدو وآونة يخفى
إذا قلت لا يبدو أشال لسانه ... وإن قلت لا يخبو الصبابة إذ لفا
إلى أن أفاق الصبح من غمرة الدجى ... وأهدى نسيم الروض من طجيبة عرفا
لك الله يا مصباح أشبهت مهجتي ... وقد شفها من لوعة الحب ما شفا
ومما ثبت له في صدر رسالة:
أرور بقلبي معهد الأنس والهوى ... وأنهب من أيدي النسيم رسائلا
ومهما سألت البرقق يهفو من الحمى ... يبادره دمعي مجيباً وسائلا
يا ليت شعري والأمان ستعلل ... أيرعى لي الحي الكرام الوسائلا
وهل جيرتي الأولى كما قد عهدتهم ... يوالون بالإحسان من جاء سائلا
ومن أبياته الغراميات:
قيادي قد تملكه الغرام ... ووجدي لا يطاق ولا يرام
ودمعي دونه صوب الغوادي ... وشجون فوق ما يشدو الحمام
إذا ما الوجد لم يبرح فؤادي ... على الدنيا وساكنها السلام
وفي غرض يظهر من الأبيات:
ومشتمل بالحسن أحوى مهفهف ... قضى رجع طرفي من محاسنه الوطر
فأبصرت أشباه الرياض محاسناً ... وفي خده جرح بدا من ه لي أثر
فقلت لجلاسي خذوو الحذر إنما ... به وصب من أسهم الغنج والحور
ويا وجنة قد جاورت سيف لحظة ... ومن شأنها تدمى من اللمح بالبصر

تخيل للعينين جرحاً وإنما ... بدا كلف منه على صفحة القمر

ومما يرجع إلى باب الفخر، ولعمري لقد صدق في ذلك:

يا لايمي في الجود والجود شيمتي ... جبلت على آثارها يوم مولدي

ذريني فلو أني أخلد بالغنى ... لكنت ضنيناً بالذي ملكت يدي

ومن مقطوعاته:

لقد علم الله أني امرؤ ... أجرر ثوب العفاف القشيب

فكم غمض الدهر أجفانه ... وفازت قداحي بوصل الحبيب

وقيل رقيبك في غفلة ... فقلت أخاف الإله الرقيب

وفي مدح كتاب الشفا طجلبه الفقيه أبو عبد الله بن مرزوق عندما شرع في شرحه:

ومسرى ركاب للصبا قد ونت به ... نجائب سحب لللتراب نزوعها

تسل سيوف البرق أيدي حداتها ... فتنهل خوفاً من سطاها دموعها

ومنها:

ولا مثل تعريف الشفاء حقوقه ... فقد بان فيه للعقول جميعها

بمرآة حسن قد جلتها يد النهى ... فأوصافه يلتاح فيه بديعها

نجوم اهتداء والمداج يجنها ... وأسرار غيب واليراع تذيعها

لقد حزت فضلا يا أبا الفضل شاملا ... فيجزيك عن نصح البرايا شفيعها

ولله ممن قد تصدى لشرحه ... فلباه من غر المعاني مطيعها

فكم مجمل فصلت منه وحكمة ... إذا كتم الإدماج منه تشيعها

محاسن والإحسان يبدو خلالها ... كما افتر عن زهر البطاح ربيعها

إذا ما أصول المرء طابت أرومة ... فلا عجب أن أشبهتها فروعها

بقيت لأعلام الزمان تنيلها ... هدى ولأحداث الخطوب تروعها

ومما امتزج فيه نثره ونظمه، وظهر فيه أدبه وعلمه، قوله يخاطبني جواباً عن رسالة خاطبت بها الأولاد، وهم مع مولانا أيده الله بالمنكب:

مالي بحمل الهوى يدان ... من بعد ما أعوز التداني

أصبحت أشكو من زمان ... ما بت منه على أمان

ما بال عينيك تسجمان ... والدمع يرفض كالجمان

ناداك والإلف عنك وان ... والبعد من بعده كوان

يا شقة النفس من هوان ... لجج في أبحر الهوان

لم يثن عن هواك ثان ... يا بغية القلوب قد كفان

يا جانحة الأصيل، أين يذهب قرصك المذهب، وقد ضاق بالشوق المذهب. أمست شموس الأنس محجوبة عن عيني، وقد ضرب البعد الحجاب بينها وبيني، وعلى كل حال. من إقامة وارتحال. فما محلك من قلبي محلا بينها. وما كنت لأقنع من وجهك تخيلا وشبيهاً. ومن أين انتظمت لك عقول التشبيه واتسقت، ومن بعض المواقع والشمس لو قطعت. صادك منذور، وأنت تتجمل بثوبي زور، وجيب الظلام على ديناركِ حتى الصباح مزرور، ووراءك من

الغروب غريم لا يرحم، ومطالب تتقلب منه في كفه المطالب. ويا برق الغمام من أي حجاب تبتسم، وبأي صبح ترتسم، وأي غفل من السحاب تسم أليست مباسم الثغور لا تنجد بأفقي ولا تغور. هذا وإن كانت مباسمك مساعدة، والجو ملبس لها من الوجوم شعاراً، فلطالما ضحكت فأبكت الغوادي، وعقت الرايح والغادي. أعوذ بواشم البروق، بنواسم الطفل والشروق، ذوات الزايرات المتعددة الطروق، فهي التي قطعت وهاداً ونجادا، واهتدت بسيف الصباح من السحاب قرابا. ومن البروق نجادا، واهتدت خبر الذين أحبهم مستظرفاً مستجاداً، فعالها ولعلها. والله يصل في أرض الوجود نهلها وعلها، وأن يبل ظعين الشوق بنسيمها البليل، وأن نعوضه من نار الغليل، بنار الخليل، وخير طبيب يداوي الناس وهو عليل. فشكواي إلى الله لا أشكو إلى أحد. هل هو إلا فرد تسطو رياح الأشواق على ذبالته، وعمر الشوق قد شب على الطوق، ووهب الجمع للفرق، ولم يقنع بالمشاهدة بالوصف دون الذوق. وقلب تقسم أحشاؤه الوجد، وقسم باله الغور والنجد. وهموم متى وردت قليب القلب، لم تبرح ولم تعد، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

أستغفر الله يا سيدي الذي يوقد أفكاري حلو لقائه، وأتنسم أرواح القبول من تلقايه. وأسأل الله أن يديم لي آمالي بدوام بقايه. إن بعد مداه، قربت منا يداه، وإن أخطأنا رفده أصبنا نداه. فقمرات آدابه الزهر تجيء إلينا، وسحايب بنانه الغر تصوب دوالينا أو علينا، على شحط هواه، وبعد منتواه. ولا كرسالة سيدي الذي عمت فضايله وخصت، وتلت على أولياء نعمته أنباء الكمال وقصت، وآي قضى كل منها عجبا، ونال من التماح غرتها واجتلاء صفحتها أرباً. فلقد كرمت عنه بالاشتراك في بنوته الكريمة نسباً، ووصلت لي بالعناية منه سبباً. تولى سيدي خيرك من يتولى خير المحسنين، ويجزل شكر المنعمين. أما ما تحدث به من الأغراض البعيدة العذيبة، وأخبر عنه من المعاني الغريدة العجيبة، والأساليب المطيلة، فيعجز عن وصفه، وإحكام رصفه، القلم واللسان، ويعترف لها بالإبداع المستولي على أمد الإحسان البديع وحسان. ولقد أجهدت جياد الأرتجال، في مجال الاستعجال، فما سمحت القريحة إلا بتوقع الآجال، وعادت من الإقدام إلى الكلال. فعلمت أن تلك الرسالة الكريمة، من الحق الواجب على من قرأها وتأملها، أن لا يجري في لجة من ميادينها، ويديم يراع سيدي الإحسان كرينها، لا كن على أن يفسح الرياض للقصى مدى ويقتدي بأخلاق سيدي التي هي نور وهدى. فإنه والله يبقيه، ويقيه مما يتقيه، بعد ما أعاد ي شكوى البين وأبدى، وتظلم من بالبعد واتسعدى، ورفع حكم العتاب عن ذرات النسيم والاقعاب، ورعى وسيلة ذكرها ف محكم الكتاب. وولي فضله ما تولى، وصرف هواه إلى هوى مولى أن صور السعادة على رأيه، أيده الله تجلى، وثمرة فكره المقدس، أيده الله تتحلى. شكر الله له عن جميع نعمه التي أولى، وحفظ عليه مراتب الكمال التي هو الأحق بها والأولى. وقد طال الكلام، وجمحت الأقلام. ولسيدي وبركتي الفضل، أبقى الله بركته، وأعلى في الدارين درجته، والسلام الكريم يخصكم، من مملوككم ابن زمرك، ورحمة الله وبركاته، في الخمس عشر لجمادى الأولى عام تسعة وستين.

وخاطبني كذلك، وهو من الكلام المرسل: أبو معارفي، وولي نعمتي، ومعيد جاهي، ومقوم كمالي، ومورد آمالي، ممن توالى نعمه علي، ويتوفر قسمه لدي؛ وأبوء له بالعجز، عن شكر أياديه. التي أحيت الأمل، وملأت أكف الرغبة، وأنطقت الحدايق، فضلا عن اللسان، وأياديه البيض وإن تعددت، ومننه العميمة، وإن تجددت، تقصر عن إقطاع أسمى شرف المجلس في الروض المطور بيانه. فماذا أقول، فيمن صار مؤثراً إلي بالتقديم، جالياً ثورة تشريفي، بالانتساب إليه في أحسن التقويم.... وإني ثالث اثنين أتشرف بخدمتها، وأسحب في أذيال نعمتها.

خليلي هل أبصرتما أو سمعتما ... بأكرم من تمشى إليه عبيد

اللهم أوزعني شكر هذا المنعم، الذي أثقلت نعمه ظهر الشكر، وأنهضت كمال الحمد، اللهم أدم بجميع حياته، وأمتع بدوام بقايه الإسلام والعباد، وأمسك بيمن آرائه رمق ثغر الجهاد. يا أكرم مسئول، وأعز ناصر. تفضل سيدي، والفضل عادته، بالتعريف بما يقر عين التطلع ويقنع غلة التشوف. ولقد كان المماليك لما مثلنا بين يدي مولانا، أيده الله، لم يقدم عملاً عن السؤال ولا عن الحال، إقامة لرسم الزيارة، وعملاً بالواجب، فإنني أرى الديار بطرفي، فعلى أن أرى الديار بعيني، وعلى ذلك يكون العمل إن شاء الله. وإن سأل سيدي شكر الله احتفاءه، وأبقى اهتمامه، عن حال المماليك، من تعب السفر، وكذ الطريق، فهي بحمد الله دون ما يظن. فقد وصلنا المنكب تحت الحفظ والكلاءة، محرزين شرف المساوقة، لمواكب المولى، يمن الله وجهته، وكتب عصمته، واستقر جميعنا بمحل القصبة، وتاج أهبتها، ومهب رياح أجرايها، تحت النعم الثرة، والأنس الكامل الشامل. قرب الله أمد لقايكم وطلع على ما يسر من تلقايكم. ولما بلغنا هذه الطية، وأنخنا المطية، قمنا بواجب تعريفكم على الفور بالأدوار، ورفعنا مخاطبة المالك على الابتداء، والسلام.

مولده: في الرابع عشر من شوال ثلاث وثلاثين وسبعمائة ومن الطارئين منهم في هذا الباب

ابن أبي خيثمة الجبائي

محمد بن أحمد بن محمد بن أبي خيثمة الجبائي سكن غرناطة يكنى أبا الحسن

حاله

كان مبرزاً في علوم اللسان نحواً ولغة وأدباً، متقدما في الكتابة والفصاحة؛ جامعاً فنون الفضائل، على غفلة كانت فيه.

مشيخته

روى عن أبي الحسن بن سهل، وأبي بكر بن سابق، وأبي الحسن بن الباذش، وأبي علي الغساني وغيرهم. وصحب أبا الحسن بن سراج صحبة مواخاة.

تواليفه

صنف في شرح غريب البخاري مصنفاً مفيداً.

توفي ليلة الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة أربعين وخمس ماية.

الإستتجي الحميري

محمد بن أحمد بن عبد الله بن أحمد الإستتجي الحميري من أهل مالقة، وأصله من إستجة، انتقل سلفه إلى مالقة، يكنى أبا عبد الله.

حاله

كان من جملة لحملة العلم، والغالب عليه الأدب، وكان من أهل الجلالة، ومن بيت علم ودين. أقرأ ببلده، وقعد بالجامع الكبير منه، يتكلم على صحيح البخاري، وانتقل في آخر عمره إلى غرناطة.

وقال الأستاذ، كان من أبرع أهل زمانه في الأدب نظماً ونثراً.

شعره

منقولا من خط الوزير الراوية أبي محمد عبد المنعم بن سماك، وقد ذكر أشياخه فقال: الشيخ المتفنن الأديب، البارع، الشاعر المفلق، قرأ على أشياخها، وأقرأ وهو دون العشرين سنة. وكانت بينه وبين الأستاذ المقري الشهير أبي العباس الملقب بالوزعي قرابة، وله قصيدة أولها:

ما للنسيم لدى الأصيل عليلا

ومنها:

حتى النسيم إذا ألم بأرضهم ... خلعوا عليه رقة ونحولا

وكان يقول: كان الأستاذ أبو العباس، يستعيدني هذا البيت، ويقول نعم أنت قريبي، وقدم على غرناطة أظن سنة تسع وثلاثين وستمائة.

محنته

قال الأستاذ جرى له قصة، نقل بعض كلامه فيها، على بعض أحاديث الكتاب من جهة استشهاد أدبي عليه فيها؛ غالب أدبه. فأطلق عنان الكلام، وما أكثر مما يطلق فيما يأنفه، إداركات تلك الأفهام. ولكل مقام مقال. ومن الذي يسلم من قيل وقال. وكان ذلك سبب الانقطاع، ولم يؤت من قصر باع، وانتقل إلى غرناطة، فتوفي في أثر انقطاعه وانتقاله.

شعره

من ذلك قوله في غرض يظهر من الأبيات:

قضوا في ربي نجد ففي القلب مرساه ... وغنوا إن أبصرتم ثم مغناه

أما هذه نجد أما ذلك الحمى فهل عميت عيناه أم صمت أذناه

دعوه يوفي ذكره باتشامه ... ديون هواه قبل أن يتوفاه

ولا تسألوه سلوة فمن العنا ... رياضة من قد شاب في الحب فوداه

أيحسب من أصلي فؤادي بحبه ... أني أسلو عنه حاشاه حاشاه

متى غدر الصب الكريم وفي له ... وإن أتلف القلب الحزين تلافاه

وإن حجروا معناه وصرحوا به ... فإن معناه أحق بمعناه

ويا سابقاً عيسى الغرام سيوفه ... وكل إذا يخشاه في الحب يخشاه

أرحها ذابت من الوجد والسرى ... ولم يبق إلا عظمها أو بقاياه

ويا صاحبي عج بي على الخيف من منى ... وما التعني لي من بأني ألقاه

وعرج على وادي العقيق لعلني ... أسايل عمن كان بالأمس مأواه

وقل لليالي قد سلقن بعيشه ... وعمر على رغم العذول قطعناه

هل العود أرجوه أم العمر ينقضي ... فأقضي ولا يقضى الذي أتمناه

ومن شرعه أيضاً، قوله، رحمه الله:

سرت من ربي نجد معطرة الريا ... يموت لها قلبي وآونة يحيا

تمسح أعطاف الأراك بليلة ... وتنثر كافوراً على التربة اللميا

ومرتد في حجر الرياض مريضة ... فتحيي بطيب العرف من لم يكن يحيا

وبشرت بأنفاس الأحبة سحرة ... فيسرع دمع العين في إثرها جريا

سقني الله دهراً ذكره بنعيمه ... فكم لجفوني عند ذكراه نم سقيا
ملني محياه الأنيق وحسنه ... ومن خلقي قد كنت لا أحمل النأيا
وبي رشأ من أهل غرناطة غدا ... يجود بتعذيبي ويبخل باللقيا
رماني فأصابني بأول نظرة ... فيا عجباً من علم الرشأ الرميا
وبدد جسمي نوره وكأنه ... أشعة شمس قابلت جسدي ملياً
تصور لي من عالم الحسن خالصاً ... فمن عجب أن كان من عالم الدنيا

وهم بأن يرقى إلى الحور جسمه ... فثقلته كتباً وحملته حليا
إذا ما انثنى أو لاح أوجاح أو رنا ... سبا القصب والأقمار والمسك والضيا
رعى الله دهراً كان ينشر وصله ... برود طواها البين في صدره طيا

مشيخته

ومما يشتمل على أسماء شيوخه، ويدل على تبحره في الأدب ورسوخه، إجازته أبا الوليد إسماعيل بن تبر الأيادي، وعندها يقال، أتى الوادي.

إن لي عند كل نفحة بستان ... من الورد أو من الياسمينا
نظرة والتفاتة أتمنى ... أن تكوني حللت فيما تلينا

ما هذه الأنوار اللايحة، والنوار الفاتحة، إني لأجد ريح الحكمة، ولا مفند، وأرد مورد النعمة ولا منكد، أمسك دارين ينهب، أم المندل الرطب في الغرام الملهب، أم نفحت أبواب الجنة ففاح نسيمها، وتوضحت أسباب المنة، فلاح وسيمها.

محياك أم نور الصباح تبسما ... ورياك أم نور الأقاح تنسما
فمن شم من ذا نفحة رق شيمة ... ومن شام من ذا لمحة راق مبسما

أجل خلق الإنسان من عجل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، " لتفهموا أسرار الحكم وتعوا، وإذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا " ، يعني مجالس الذكر، ومأنس النظر والفكر، ومطالع المناظرة، وخواضع المحاضرة، فهذه بتلك، وقد انتظمت الجواهر النبيوية في سلك، ولهان حمى للعطارة وطيس، بين مسك المداد، وكافور القراطيس. فيا أيها المعلم الأوحد، والعالم الذي لا تنكر أمامته ولا تجحد، حومت على علم الملوك، ولزمت بحلم طريق الحكم المسلوك، فلم تعد أمل الحكماء، ولم تعد إلا بعمل العلماء، وقد قال حكيمهم الفاضل وعظيمهم الذي لا مناظر له ولا مفاضل، إذا خدمت الأمراء، فكن بين استلطاف واستعطاف، تجن المعارف والعوارف، دانية القطاف. فتعلمهم وكأنك تتعلم منهم، وترويهم، وكأنك تروي عنهم، فأجريت الباب، وامتريت من العلم اللباب، ثم لم تبعد، فقد فعل النحويون ذلك في يكرم، ويعد، ويعز، ولا غرو أن تقرأ على من هو دونك. وستتجيز الإجازة عن القوم العظام، يقصدونك. فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد أمره الله بأن يقرأ على أبي بن كعب، " فهل في حي الخواطر الذكية من حي " ، فقال له رضي الله عنه، الله أمرك أن تقرأ علي، والعناية الربانية، تنادى إلي إلي، وإذا قال لي من أحب مولاي، واستعار لزينته حلاي:

فما على الحبيب من اعتراض ... وللطبيب تصرف في المراض
قد يرحل المرء لمطلوبه ... والسبب المطلوب في الراحل

عجت متواضعاً، فما أبرمت في معاجك، ولا ظلمت في السؤال، نعجته إلى نعاجك، فإنه سر الله، لا يحل فيه الإفشاء، وحكمة الله البالغة، والله يؤتى الكمة من يشاء، وإن لبست من التواضع شعاراً، ولبست عن الترفع تنبيهاً على السر المكتوم وإشعاراً. فهذه الثريا من العجايب إذا ارتفعت في أعلى صعودها، وأسمى راياتها الخافقة وبنودها. نهاية وجودها الحسي عدم، وغاية وصفها الشبهي، أن تشبه بقدم، فإذا همت بالركوع، وشمت في المغرب ريح الوقوع، كان لها من السمو القدح المعلى، وعادت قرطاً تنزين به الآذان وتتحلى.

وفي الشرق كأس وفي مغاربها ... قرط وفي وسط السماء قدم

هذه آثار التواضع متلوة السور، مجلوة الصور، وكان بعضهم إذا أعطى الصدقة، يعطيها ويده تحت يد لسايل، وهكذا تفهم المايل. فإنه لما سمع النبوة تقول، اليد العليا، خير من اليد السفلى، أراد أن يؤثر المقام الأعلى. ولما أعطى أبو بكر، رضي الله عنه. ماله كله، أعطى عمر رضي الله عنه النصف من المال لا احتياطاً على ماله؛ ولكن ليقف لأبي بكر في مقام القصور عن كماله، تفويضاً وتسليماً، وتنبيهاً لمن كان له قلب وتعليما. ورؤى الدار قطني رحمة الله عليه يحبس أباه بركابه، فلا ينكر عليه، فقيل له في ذلك، فقال رأيته يبادر إلى فضيلة فكرهت مخالفته.

فوق السماء وفوق الزهر ما طلبوا ... وإذا ما أرادوا غاية نزلوا

وإلى هذا وصل الله حفظك، وأجزل من الخيرات حظك، فإنه وصلتني الكراسة المباركة، الدالة على التفنن في العلوم والمشاركة، فبينما أنا أتلو الإجازة، وأريق سلور البيان وإعجازه، ألقي إلي كتاب كريم، إنه من أبي الوليد، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، فحرت، ووقفت كأنني سحرت، وقلت ساحران تظاهرا معاً، وأحدهما قاتلي، فكيف إذا اجتمعا.

فلو كان رمحاً واحداً التقيته ... ولا كنه رمح وثان وثالث

ومن لعبت بشيمته المثاني ... فأحرى أن تطير به المثالث

وطار بي الشوق كل مطار، وقرأت سماء فكرتي سورة الانفطار، وكدت أصعد إلى السماء توقداً، واختلط بالهواء توددا.

كانت جواهرنا أوايل قبل ذان ... فالآن صارت بالتحول ثوان

وجدت وراء الحسن وهي كثيفة ... فوجودهن الآن في الأذهان

ولم يكف أن بهرت بالحسن الخلوب، حتى أمرت أن أنظم على ذاك الأسلوب، وبالحرى لذلك النثر البديع، الحريري أو البديع، ولذلك النظم العجيب، المتنبي أو حبيب، ولذلك التصوف الرقيق، الحارث بن أسد ذي التحقيق. وأما الحديث، فما لك تقطع تلك المسالك، إلا أن العربية ليس لأحد معه فيها دليل، أستغفر الله إلا للخليل، لا كن أصول الدين مجرية، تركت تلك الميادين. هناك الله جمع كل منقبة جليلة، فترى الفضيلة لا ترد فضيلة، فمر الرديف وقد ركب غضنفرا، أو المدعي صفة فضل، وكل الصيد في جوف الفرا، من يزحم البحر بغرق، ومن يطعم الشجر يشرق. وهل يباري التوحيد بعمل، أو يجاري البراق بجمل. ذلك انتهى إلى سدرة المنتهى. وهل انبرى ليطم خده في الثرى. لا تقاس الملايكة بالحدادين، ولا حكماء يونان بالقدادين. أفي طريق الكواكب يسلك، وعلى الفلك الأثير يستملك. أين الغد من الأمس، وظلمة الغسق من وضح الشمس. ولولا ثقتي بغمام فضلك الصيب لتمثلت لنفسي بقول أبي الطيب:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق ... أراه غبارى ثم قال له الحق

فإن رضيت أيها العلم، فما لجرح إذا أرضاكم ألم. تر كيف أجاري أعوج بمغرب أهوج وأجاري ذا العقال بجحش

في عقال. ظهر بهذه الظلمة، ذلك الضياء، وبضدها تتبين الأشياء. وما يزكو بياض العاج حتى يضاف إلى سواد الأبنوس. ألفاظ تذوب رقة، وأغراض تملك حب الكريم ودرة الزهر، والزهر بين بنان وبيان، والدر طوع لسان وإحسان.

وقالوا ذاك سحر بأهلي ... فقلت وفي مكان الهاء باء

وأما محاسن أبي الوليد، فيقصر عنها أبو تمام وابن الوليد.

معان لبسن ثياب الجمال ... وهزت لها الغانيات القدودا

كسون عبيداً ثياب عبيد ... وأضحى ليد لديها بليداً

وكيف أعجب من إجرايك لهذه الجياد، وأياديك من إياد. أو رثت هذه البراعة المساعدة، عن قس بن ساعدة. أجدك أنت الذي وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال، كأني أنظر إليه في سوق عكاظ على جمل أورق، وهو يقول أيها الناس: مطر ونبات، وآباء وأمهات، إلى قوله:

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصاير

لما رأيت موارد للموت ... ليس لها مصادر

أيقنت أني لا محالة ... حيث صار القوم صاير

إيه بغير تمويه. رجع الحديث الأول إلى ما عليه المعول. سألتني إيها السيد الذي يجب إسعافه، أن أرغم أنف القلم حتى يجري رعافه، وأن أكحل جفون الأوراق بمداد الأقلام، وأن أجمع الطروس والأمدة، بين إصباح وإظلام، وأطرز بياض السوسن بخضرة الآس، وأبرز العلم الأبيض تحت راية بين العباس، فقلت مبادراً ممتثلاً، وجلت في ميدان الموافقة متمثلاً:

لبيك لبيك أضعافاً مضاعفة ... إني أجبت ولكن داعي الكرم

أتى من المجد أمر لا مرد له ... أمشي على الرأس فيه لا على القدم

دعاء والله نجاب، ونداء ليس دونه حجاب

كتبت ولو أني أستطيع ... لإجلال قدرك بين البشر

قددت البراعة من أنملي ... وكأن المداد سواد البصر

نعم أجزت سيدي الفقيه الأجل، الخطيب الأكرم، العالم العلم، الأحد الأكمل، الحسيب الأحفل الأطول، أبا الوليد بن الفقيه الأجل، المعظم الموقر، المكرم المبارك الأظهر، المرحوم أبي زكريا يحيى بن سعيد بن قترى الأيادي القنرموني، وبنيه السادات، النجباء المباركين، أبا القاسم أحمد. وأبا إسحق إبراهيم، وأبا الحسين بتزيل. ونعمت الأغصان والشجرة، والأفنان والثمرة، أقر الله بهم أعين المجد، ولا زالوا بدورا في مطالع السعد، ولا برحوا في مكارم، يجنون نوارها، ويجتلون أنوارها، وتفيض عليهم يد العناية الآلهية، نهرها الكوثري ونهارها، جميع ما رويته، قراءة وسماعاً، وإجازة ومناولة من العلوم على اختلافها، وتباين أصنافها، بأي وجه رويته، وعلى أي وصف تقلدته ودريته، وكذلك أجزتهم جميع ما قلته وأقوله. من مسطور ومرسوم، ومنثور ومنظوم، وتصرفت فيه من منقول ومفهوم، وقصايدي المسماة بالروحانيات، ومعشراتي الحبيبات، وما نظمته من الوتريات، وشرحي لشعر أبي الطيب المسمى بظهور الإعجاز بين الصدور والأعجاز، وكتابي المسمى شمس البيان في لمس البنان، والزهرة الفايحة في الزهرة اللايحة، ونفح الكمامات في شرح المقامات، واقتراح المتعلمين في اصطلاح المتكلمين، وكتاب التصور والتصديق في التوطية لعلم التحقيق، ورقم الحلل في نظم الجمل، ومفتاح الإحسان في إصلاح اللسان. وما أنشأته من السلطانيات

نظماً ونثراً، وخطابة وشعراً. والله تعالى يجعل أعمالنا خالصة لوجهه بمنه وكرمه، فليقل الفقيه الأجل، وبنوه الأكرمون رضي الله عنهم، أنبأنا وأخبرنا وحدثنا أو ما شاءوا من ألفاظ الرواية، بعد تحري الشروط المرعية، في الإجازات الشرعية، وإن ذهبوا حفظ الله كمالهم، وأراهم في الدارين آمالهم، إلى تسمية من لي من المشايخ قدس الله أرواحهم، وزحزح عن النار أشباحهم: فمنهم الأستاذ الخطيب الكبير، العالم الفاضل الجليل، البقية الصالحة، آخر الأدباء، وخاتمة الفضلاء، أبو جعفر أحمد بن يحيى بن إبراهيم الحميري القرطبي الدار، رضي الله عنه. قرأت عليه بقرطبة، شعر أبي الطيب، قراءة فهم لمعانيه، وأعراب لألفاظه؛ وتحقيق للغته، وتنقير عن بديعه. وكذلك قرأت عليه أكثر شعر أبي تمام. وسمعت عليه كتاب الكامل لأبي العباس المبرد، ومقامات التميمي، كان يرويها عن منشيها، وكانت عنده بخط أبي الطاهر. وتفقهت عليه تبصرة الضمري. وكان على شياخته رحمه الله، ثابت الذهن، مقبل الخاطر، حافظاً المعيا.

يروع ركانة وينوب ظرفا ... فما تدري أشيخ أم غلام

نأتيه بمقاطع الشعر فيصلحها لنا، ويقف على ما نستحسنه منها، فنجده أثبت منا، ولقد أنشدته يوماً، في فتى مفقود العين اليسرى:

لم تزو إحدى زهرتيه ولا انثت ... عن نورها وبديع ما تحويه

لكنه قد رام يغلق جفنه ... ليصب بالسهم الذي يرميه

فاستفادهما وحفظهما. ولم يزل رحمه الله، يعيدهما مستحسناً لهما، متى وقع ذكري. وكان يروى عن الأمام المازري بالإجازة، وعن القاضي أبي مروان بن مسرة، وعن الأستاذ عباس، وعن أبي عبد الله بن أبي الخصال.

ومنهم الفقيه الأجل العالم العدل، المحدث الأكمل، المتفنن، الخطيب، القاضي أبو محمد بن حوط الله، سمعت عليه كتباً كثيرة بمالقة، بقراءة الفقيه الأستاذ أبي العباس بن غالب، ولقيته بقرطبة أيضاً، وهو قاضيها. وحدثني عن جدي، وعن جملة شيوخ. وله برنامج كبير. وأخوه القاضي الفاضل، أبو سليمان أيضاً منهم.

ومنهم الفقيه الأجل، العالم العلم، الأوحد. النحوي، الأديب المتقن، أبو علي عمر بن عبد المجيد الأزدي، قرأت عليه القرآن العزيز مفردات، وكتاب الجمل، والإيضاح وسيبويه تفقهاً، وكذلك الأشعار الستة تفقهاً، وما زلت مواظباً له إلى أن توفي رحمه الله. وكان فريد عصره في الذكاء، ولم يكن في حلبة الأستاذ أبي زيد السهيلي أنجب منه على كثرتهم. وقد قال الأستاذ أبو القاسم السهيلي للإمام المنصور رضي الله، هو أقعد لكتاب سيبويه منا. وقال لي يوما، وقد نظر إلى طالب يصغي بكليته إلى ثان، فقلت ماذا، فقال إن حب الشيء يعمي ويصم، فقلت له، ويعيد الصبح ليلاً مدلهم، فاستحسنه.

ومنهم الفقيه الأجل، الأديب الأريب الكامل، اللغوي الشهير، أبو علي ابن كسرى الموري، قريبي ومعلمي. وكان من طلبة أبي القاسم السهلي، وممن نبغ صغيراً. وهو الذي أنشد في طفولته السيد أبا أسحق الكبير بإشبيلية:

قسما بحمص وإنه لعظيم ... فهي المقام وأنت إبراهيم

وكان بالحضرة الأستاذ أبو القاسم السهيلي، فقام عند إتمامه القصيدة، فقال لمثل هذا كنت أحسيك الحسا، ولمث هذا كنت أواصل في تعليمك الإصباح والإمساء وقد أنشد هذا لأمير المؤمنين أب يعقوب رضي الله عنه:

أمعشر أهل الأرض بالطول والعرض ... بهذا أنادي في القيامة والعرض

فقد قال الله فيك ما أنت أهله ... فيقضي بحكم الله فيك بلا نقض

فإياك يعني ذو الجلال بقوله ... كذلك مكنا ليوسف في الأرض

ومهم الفقيه الأجل، العالم المحدث، الحافظ الفاضل المؤثر، السيد أبو محمد القرطبي. قرأت عليه القرآن بالروايات مفردات، وتفقهت في الجمل والأشعار، وأجازني جميع ما رواه. وكذلك فعل كل واجد ممن تقدم ذكره. وكان رحمه الله آخر الناس علماً ونزاهة وحسن خلق، وجمال سمت وأبهة ووقار، وإتقان وضبط، وجودة وحفظ.

ومنهم الفقيه الأجل، الحاج الفاضل، الشهيد في كاينة العقاب، المحدث الورع، الزاهد الطاهر، أبو عبد الله بن حسين بن صاحب الصلاة الأنصاري، وعليه كان ابتداي للقراءة، وكان مبارك التعليم. حسن التفهيم، شديد التواضع.

ومنهم الفقيه الأجل الفاضل الورع، المحدث، الحاج الملهم، المجاب الدعوة، الميمون النقيبة الأواب. أبو الحجاج بن الشيخ. رضي الله عنه. وهذا الكتاب على الإطالة مني. ولكن القرطاس فني، والسلام الأتم عليكم، ورحمة الله وبركاته. قال ذلك، وكتبه، العبد المعترف بذنبه، الراجي رحمة ربه. محمد بن عبد الله الحميري ثم الإستجي، في أواسط شعبان المكرم من عام أحد وأربعين وستمائة.

وفاته

من خط الوزير أبي محمد عبد المنعم بن سماك. قال، قدم غرناطه، أظن سنة تسع وثلاثين وستمائة، وشكى علة البطن مدة ثمانية أشهر بدار أبي رحمه الله، مرضناه الثلاثة الأخوة، إلى أن توفي رحمه الله، ودفن بمدفنه، مغنى الأدب، بروضة الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك.

محمد بن أحمد بن علي الهواري

يكنى أبا عبد الله، ويرعف بابن جاب رمن أهل ألمرية.

حاله

رجل كفيف البصر، مدل على الشعر، عظيم الكفاية والمنة، على زمانته. رحل إلى المشرق، وتظافر برجل من أصحابنا يعرف بأبي جعفر الإليري، صارا روحين في جسد، ووقع الشعر منهما بين لحسي أسد، وشمر للكدية، فكان وظيف الكفيف النظم، ووظيف البصير الكتب، وانقطع الآن خبرهما. وجرى ذكره في الإكليل بما نصه: محسوب، من طلبتها الجلة، ومعدود فيمن طلع بأفقها من الأهلة، رحل إلى المشرق، وقد أصيب ببصره، واستهان في جنب الاستفادة بمشقة سفره، على بيان عذره، ووضوح ضره.

شعره

وشعره كثير، فمنه قوله:

سلوا مسر ذاك الخال في صفحة الخد ... متى رقموا بالمسك في ناعم الورد

ومن هو غصن القد منها لفتنتي ... وأودعه رمانتي ذلك النهد

ومزمتي القصب اللدان بوصلها ... إلى أن أعزر الحسن من ذلك القد

فتاة تفت القلب مني بمقلة ... له رقة الغزلان في سطوة الأسد

تمنيت أن تهدي إلى نهودها ... فقالت رايت البدر يهداه أو يهد

فقلت وللرمان بد من الجنا فتاهت وقالت باللواحظ لا الأيد

فقلت ليس للقلب عندك حاصل ... وقالت قلوب الناس كلهم عندي

وقلت اجعليني من عبيدك في الهوى ... فقالت كفاني كم لحسني من عبد

إذا شئت أن أرضاك عبداً فمت ... هوى ولا تشكي واصبر على ألم الصد

ألم تر أن النحل يحمل ضرها ... لأجل الذي تجنيه من خالص الشهد
كذلك بذل النفيس سهل لذي النهى ... لما يكسب الإنسان من شرف الحمد
ألست ترى أزجاته طالما أضاع ... كريم المال في طلب المجد
ومن شعره أيضاً قوله:
عرج على بان العذيب وناد ... وأنشد فديتك إن حل فؤادي

وإذا مررت على المنازل بالحما ... فاشرح هنالك لوعتي وسهادي
إيه فديتك يا نسيمة خبري ... أرب الأحبة والحمى والوادى
يا سعد قد بان العذيب وبانه ... فانزل فديتك قد بدا إسعادى
خد في البشارة مهجتي يوما إذا ... بان العذيب ونور حسنه سعادي
قد صح عيدي يوم أبصر حسنها ... وكذا الهلال علامة الأعياد
ومما نقلناه من خبر قيده لصاحبنا الفقيه الأستاذ أبي علي منصور الزواري، ومما أدعاه لنفسه:
علي لكل ذي كرم ذمام ... ولي بمدارك المجد اهتمام
وأحسن ما لدي لقاء حر ... وصحبته معشر بالمجد هام
وإني حين أنسب من أناس ... على قمم النجوم لها مقام
يميل بهم إلى المجد ارتياح ... كما مالت بشارتها المرام
هم لبسوا أديم القيل برداً ... ليسفر من مرادهم الظلام
هم جعلوا متون العيش أرضا ... فمذ عزموا الرحيل فقد أقام
فمن كل البلاد لنا ارتحال ... وفي كل البلاد لنا مقام
وحول موارد العلياء منها ... لنا مع كل ذي شرف زحام
تصيب سهامنا غرض المعالي ... إذا ضلت عن الغوص السهام
وليس لنا من المجد اقتناع ... ولو أن النجوم لنا قيام
ننزه عرضنا عن كل لوم ... فليس يشين سؤددنا ملام
ونبذل لا نقول العام ماذا ... سواء كان خصب أو حطام
إذا ما المحل عم بلاد قوم ... أثبناها فجاد بنا الغمام
وإن حضر الكرام ففي يدينا ... ملاك أمورهم ولنا الكلام
وفينا المستشار بكل علم ... ومنا الليث والبطل الهمام
فميدان الكلام لنا مداه ... وميدان الحروب بنا يقام
كلا الأمرين ليس له بقوم ... سوانا يوم نازلة تمام
يريق دم المداد بكل طرس ... وليس سوى اليراع لنا سهام
ونكتب بالمثقفة العوالي ... بحيص الطرس لبات وهام
إذا عبست وجوه الدهر منا ... إليها فانثنت ولها انتقام
لقد علمت قلوب الروم أنا ... أناس ليس يعوزنا مرام
وليس يضيرنا أنا قليل لعمر أبيك ما كثر الكرام

إذا ما الراية الحمراء هزت ... نعم فهناك للحرب ازدحام
وما أحمرت سدى بل من دماً ... ليس على جوانبها انسجام
تظلل من بني نصر ملوكا ... حلال النوم عندهم حرام
فكم قطعوا الدجى في وصل مجد ... ومكم سهروا إذا ما الناس نام
أبا الحجاج لم تأت الليالي ... بأكرم منك إن عد الكرام
ولا حملت ظهور الخيل أمضى ... وأشجع منه إن هز الحسام
وأني جئت من شرق لغرب ... ورمت بي الزمان كما ترام
وجربت الملوك وكل شخص ... تحدث عن مكارمه الأنام
فلم أر مثلكم يا آل نصر ... جمال الخلق والخلق العظام
ومنها:
لأندلس بكم شرف وذكر ... تود بلوغ أدناه الشآم
سعى صوب الغمام بلاد قوم ... هم في كل مجدبة غمام
إليك بها مهذبة المعاني ... يرينها ابتسام وانتظام
لها لجناب مجدكم انتظام ... طواف وفي أركان إسلام
تجزت وما كادت، وقد وطى الإيطاء صروحكم، وأعيا الإكثار حارثها وسروجها، الله ولي التجاوز بفضله.
ابن الحداد الوادي آش

؟محمد بن أحمد بن الحداد الوادي آش يكنى أبا عبد الله.
؟

حاله

شاعر مفلق، وأديب شهير، مشار إليه في التعاليم، منقطع القرين منها، في الموسيقى، مضطلع بفك المعمى. سكن ألمرية، واشتهر بمدح رؤسائها من بني صمادح. وقال ابن بسام، كان أبو عبد الله هذا، شمس ظهيرة، وبحر خبر وسيرة، وديوان تعاليم مشهورة، وضح في طريق المعارف، وضوح الصبح المتهلل، وضرب فيها بقدح ابن مقبل، إلى جلالة مقطع، وأصاله منزع، ترى العلم ينم على أشعاره، ويتبين في منازعه وآثاره.
تواليفه

ديوان شعر كبير معروف. وله في العروض تصنيف، مزج فيه بين الأنحاء الموسيقية، والآراء الجليلة.
بعض أخباره
حدث بعض المؤرخين، مما يدل على ظرفه، أنه فقد سكناً عزيزاً عليه، وأحوجت الحال إلى تكلف سلوة، فلما حضر الندماء، وكان قد رصد الخسوف بالقمر، فلما حقق أنه قد ابتدأ، أخذ العود وغنى:
شقيقك غيب في لحده ... وتشرق يا بدر من بعده
فهلا خسفت وكان الخسوف ... حداداً لبست على فقده
وجعل يرددها، ويخاطب البدر، فلم يتم ذلك، إلا واعترضه الخسوف، وعظم من الحاضرين التعجب. قال، وكان

مني في صباه بصبية من الروم، نصرانية، ذهبت بلبه وهواه، تسمى نويرة، افتضح بها، وكثر نسيبه.

شعره

قال في الغرض المذكور:

حديثك ما أحلى فزيدي وحدثي ... عن الرشإ الفرد الجمال المثلث

ولا تسأمي ذكراه فالذكر مؤنس ... وإن بعث الأشواق من كل مبعث

وبالله فارقي خبل نفسي بقوله ... وفي عقد وجدي بالإعادة فابعث

أحقاً وقد صرحت ما بي أنه ... تبسم كاللاهي بنا المتعبث

وأقسم بالغنجيل أني شابق ... وناهيك دمعي من محق محنث

ولا بد من قصي على القس قصتي ... عساه مغيث المدنف المتغوث

ولم يأتهم عيسى بدين قساوة ... فيقسو على بني ويلهو بمكرث

وقلبي من حلى التجلد عاطل ... هوى في عزال الواديين المرعث

سيصبح سرى كالصبح مشهراً ... ويمسي حديثي عرضه المتحدث

ويغري بذكرى بين كأس وروضة ... ويشد وبشعري فوق مثنى ومثلث

ومن شعره في الأمداح الصمادحية:

لعلك بالوادي المقدس شاطئ ... وكالعنبر الهندي ما أنت واطئ

وإني في رياك واجد عرف ريحهم ... فروح الجوى بين الجوانح ناشئ

ولي في السرى من نارهم ومنارهم ... هداة حداة والنجوم طوافئ

لذلك ما حنت ركابي وحمحمت ... عرابي وأوحي سيرها المتباطئ

فهل هاجها ما هاجني أو لعلها ... إلى الوخد من نيران وجدي لواجئ

رويداً فذا وادي لبيني وإنه ... لورد لباناتي وإني لظامئ

ميادين تهيامي ومسرح ناظري ... فللشوق غايات لها ومبادئ

ولا تحسبوا غيداً حمتها مقاصر ... فتلك قلوب ضمنتها جآجئ

ومنها:

محاملة السلوان مبعث حسنه ... فكل إلى دين الصبابة صابئ

فكيف أرقى كلم طرفك في الحشا ... وليس لتمزيق المهند رافئ

ومالي لا أسمو مراداً وهمة ... وقد كرمت نفسي وطابت ضآضئ

وما أخرتني عن تناه مبادئ ... ولا قصرت بي عن تباه مناشئ

ولكنه الدهر المناقض فعله ... فذو الفضل منحط وذو النقص نامئ

كأن زماني إذ رآني جذيله ... يلابسني منه عدو ممالئ

فداريت إعتابا ودارأت عاتباً ... ولم يغنني أني مدار مدارئ

فألقيت أعباء الزمان وأهله ... فما أنا إلا بالحقائق عابئ

ولازمت سمت الصمت لا عن مذامة ... فلي منطق للسمع والقلب صابئ

ولولا علا الملك ابن معن محمد ... لما برحت أصدافهن اللآلئ

لآلئ إلا أن فكرى غائص ... وعلمي ذوماء ونطقي شاطئ
تجاوز حد الوهم واللخط والمنى ... وأعشى الحجا لألاؤه المتلألئ
تنعكس الأبصار وهي حواسر ... وتنقلب الأفكار وهي خواسئ

وقال من أخرى:
أقبلن في الحبرات يقصرن الخطا ... ويرين حلل الوارشين القطا
سرب الجوى لا الجو عود حسنه ... أن يرتعى حب القلوب ويلقطا
مالت معاطفهن من سكر الصبا ... ميلا يخيف قلودها أن تسقطا
ما أخجل البدر المنير إذا مشى ... يختال والخوط النضير إذا خطا
ومنها في المدح.
يا وافدي شرق البلاد وغربها ... أكرمتما خيل الوفادة فاربطا
ورأيتما ملك البرية فاهنآ ... ووردتما أرض المرية فاحططا
يلمي نحور الدارعين إذا ارتأى ... ويذل عز العالمين إذا سطا
وإحسانه كثير. دخل غرناطة، ومن بنات عملها وطنه رحمه الله.
محمد بن إبراهيم بن خيرة

يكنى أبا القاسم. ويعرف بابن المواعين، حرفة أبيه، من أهل قرطبة. واستدعاه السيد أبو سعيد الوالي بغرناطة إليه، فأقام عنده مدة من عامين في جملة من الفضلاء مثله.
حاله
قال ابن عبد الملك، كان كاتباً بليغاً، شاعراً مجيداً، إستكتبه أبو حفص ابن عبد المؤمن، وحظي عنده حظوة عظيمة، لصهر كان بينهما بوجه ما، ونال فيه جاهاً عظيما، وثروة واسعة. وكان حسن الخط، رايقه، سلك فيه في ابتدايه مسلك المتقن أبي بكر بن خيرة.
مشيخته
روى عن أبي بكر بن عبد العزيز، وابن العربي، وأبي الحسن شريح، ويونس بن مغيث، وأبي عبد الله حفيد مكي، وابن أبي الخصال، وابن بقي.
تواليفه
له تصانيف تاريخية وأدبية منها ريحان الآداب، وريعان الشباب لا نظير له. والوشاح المفضل. وكتاب في الأمثال السايرة. وكتاب في الأدب؛ نحا فيه منحى أبي عمر بن عبد البر في بهجة المجالس.
توفي بمراكش سنة أربع وستين وخمسمائة.
ابن باق الأموي
محمد بن إبراهيم بن علي بن باق الأموي مرسي الأصل، غرناطي النشأة، مالقي الإسكان، يكنى أبا عبد الله.
حاله
من عايد الصلة: كان رحمه الله، كاتباً أديباً ذكيا، لوذعيا، يجيد الخط، ويرسل النادرة، ويقوم على العمل، ويشارك في القريضة. وبذ السباق في الأدب الهزلي المستعمل بالأندلس. عمر زمانا من عمره، محارفاً للفاقة، يعالج بالأدب

الكدية، ثم استقام له الميسم، وأمكنه البخت من امتطاء غاربه، فأنشبت الحظوة فيه أناملها بين كاتب وشاهد ومحاسب ومدير تجر، فأثرى ونما ماله، وعظمت حاله، وعهد عند ما شارف الرحيل، بجملة تناهز الألف من العين، لتصرف في وجوه من البر، فتوهم أنها كانت زكاة امتسك بها.

وجرى ذكره في التاد بما نصه: مدير أكواس البيان المعتق، ولعوب بأطراف الكلام المشقق، انتحل لأول أمره الهزل من أصنافه، فأبرز در معانيه من أصدافه، وجنى ثمرة الإبداع لحين قطافه. ثم تجاوزه إلى المعرب وتخطاه، فأدار كأسه المترع وعاطاه، فأصبح لفنه جامعاً، وفي فلكيه شهاباً لامعاً، وله ذكاء يطير شرره، وإدراك تتبلج غرره، وذهن يكشف الغوامض، ويسبق البارق الوامض، وعلى ذلاقة لسانه، وانفساح أمد إحسانه، فشديد الضنانة يشعره. مغل لسعره.

شعره

أخبرني الكاتب أبو عبد الله بن سلمة، أنه خاطبه بشعر أجابه عنه بقوله، في رويه:

أحرز الخصل من بني سلمة ... كاتب تخدم الظبا قلمه
يحمل الطرس عن أنامله ... إثر الطرس كلما رقه
ويمد البيان بفكرته مرسلاً حيث يممت ديمه
خصني متحفاً بخمس إذا ... بسم الروض فقن مبتسمة
قلت أهدى زهر الربا خضلا ... فإذا كل زهرة كلمة
أقسم الحسن لا يفارقها ... فأبر انتقاؤها قسمه
خط أسطارها ونمقها ... فأتت كالعقود منتظمة
كاسياً من حلاه لي حللاً ... رسمها من بديع ما رسمه
طالباً عند عاطش نهلا ... ولديه الغيوث منسجمة
يبتغي الشعر من أخي بله ... أخرس العي والقصور فمه
أيها الفاضل الذي حمدت ... ألسن المدح والثنا شيمه
لا تكلف أخاك مقترحا ... نشر عار لديه قد كتمه
وابق في عزة وفي دعة ... صافي العيش وارداً شبمه
ما ثنى الغصن عطفه طرباً ... وشدا الطير فوق نغمه

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي جعفر الزبير، والخطيب أبي عثمن بن عيسى.

توفي بمالقة في اليوم الثامن والعشرين لمحرم عام اثنين وخمسين وستمائة، وأوصى بعد أن حفر قبره، بين شيخيه الخطيبين أبي عبد الله الطنجالي، وأبي عثمن بن عيسى، أن يدفن، وأن يكتب على قبره هذه الأبيات:

ترحم على قبر ابن باق وحيه ... فمن حق ميت الحي تسليم حيه
وقل آمن الرحمن روعة خائف ... لتفريطه في الوجبات وغيه
قد اختار هذا القبر في الأرض راجياً ... من الله تخفيفاً بقرب وليه
فقد يشفع الجار الكريم لجاره ... ويشمل بالمعروف أهل نديه

وإني بفضل الله أوثق واثق ... وحسبي وإن أذنبت حب نبيه

ابن فضيلة المعافري

محمد بن إبراهيم بن سالم بن فضيلة المعافري من أهل ألمرية يدعى بالبيو، ويكنى أبا عبد الله.

حاله

من الإكليل الزاهر، شيخ أخلاقه لينة، ونفسه كما قيل هينة، ينظم الشعر سهلا مساقه، محكما اتساقه، على فاقة ما لها من إفاقة. أنشد السلطان بظاهر بلده قوله:

سرت ريح نجد من ربي أرض بابل ... فهادت إلى مسرى سراها بلابل

وذكرني عرف النسيم الذي سرى ... معاهد أحباب سراة أفاضل

فأصبحت مشغوفاً بذكري منازل ... ألفت فوا شوقي لتلك المنازل

فيا ريح هبي بالبطاح وبالربا ... ومري على أغصان زهر الخمائل

وسيري بجسمي للتي الروح عندها ... فروحي لديها من أجل الوسائل

وقولي لها عني معناك بالهوى ... له شوق معمود وعبرة ثاكل

فيا بأبي هيفاء كالغصن تثنى ... بقد يقد كاد ينقد مايل

فتاة براها الله من فتنة ... فمن رآها ولم يفتن فليس بعاقل

لها منظر كالشمس في رونق الضحا ... ولحظ كحيل ساحر الطرف بابل

بطيب شذاها عطرت كل عاطر ... كما بحلاها زينت كل عاطل

رمتني بسهم من سهام جفونها ... فصادف ذاك السهم مني مقاتل

فظلت غريقاً في بحار من الهوى ... وما الحب إلا لجة دون ساحل

فيا من سبت عقلي وأفنت تجلدي ... صلبني فإن البعد لا شك قاتل

فلي كبد شوقي إليك تفطرت ... وقلب بنيران الجوى في مشاعل

ولي أدمع تحكي ندا كف يوسف ... أمير العلى الأرضيي الجميل الفضايل

إذا مد بالجود الأنامل لم تزل ... بحور الندى تهمى بتلك الأنامل

ومن شعره قوله من قصيدة:

بهرت كشمس في غلالة عسجد ... وكبدر تم في قضيب زبرجد

ثم انثنت كالغصن هزته الصبا ... طرباً فتزرى بالغصون الميد

حوراء بارعة الجمال غريدة تزهى ... فتزري بالقضيب الأملد

إن أدبرت لم تبق عقل مدبر ... أو أقبلت قتلت ولكن لاتد

تواليفه

قال شيخنا أبو البركات، ابتلى باختصار كتب الناس، فمن ذلك مختصره المسمى بالدرر المنظومة الموسومة في اشتقاق حروف الهجا المرسومة، وكتاب في حكايات تسمى روضة الجنان، وغير ذلك.

توفي في أواخر رمضان من عام تسعة وأربعين وسبع ماية، ودخل غرناطة غير مرة.

ابن مرج الكحل

محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم من أهل جزيرة شقر، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن مرج الكحل حاله

كان شاعراً مفلقا غزلا، بارع التوليد، رقيق الغزل. وقال الأستاذ أبو جعفر: كان شاعراً مطبوعاً، حسن الكفاية، ذاكراً للأدب، متصرفاً فيه. قال ابن عبد الملك: وكانت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات، ظهرت فيها إداته. وكان مبتذل اللباس، على هيئة أهل البادية، ويقال إنه كان أمياً.

من أخذ عنه

روى عنه أبو جعفر بن عثمان الوراد، وأبو الربيع بن سالم، وأبو عبد الله بن الأبار، وابن عسكر، وابن أبي البقاء، وأبو محمد بن عبد الرحمن بن برطلة، وأبو الحسن الرعيني.

شعره ودخوله غرناطة

قال في عشية بنهر الغنداق، خارج بلدنا لوشة بنت الحضرة، والمحسوب من دخلها فقد دخل إليبرة، وقد قيل إن هذا النهر ن أواز برجة، وهذا الخلاف داع إلى ذكره.

عرج بمنعرج الكثيب الأعفر ... بين الفرات وبين شط الكوثر
ولنغتبقها قهوة ذهبية ... من راحتي أحوى المرشف أحور
وعشية قد كنت أرقب وقتها ... سمتحت بها الأيام بعد تعذر
نلنا بها آمالنا في روضة ... تهدي لنا بشقها شميم العنبر
والدهر من ندم يسفه رأيه ... فيما مضى منه بغير تكدر
والورق تشدو والأراكة تنشني ... والشمس ترفل في قميص أصفر
والروض بين مفضض ومذهب ... والزهر بين مدرهم ومدنر
والنهر مرقوم الأباطح والربى ... بمضدل من زهره ومعصفر
وكأنما ذاك الحباب فرنده ... مهما طفا في صفحة كالجوهر
وكأنه وجهاته محفوفة ... بالآس والنعمان خد معذر
نهر يهيم بحسنه من لم يهم ... ويجيد فيه الشعر من لم يشعر
ما اصفر وجه الشمس عند غروبها ... إلا لفرقة حسن ذاك المنظر

ولا خفاء ببراعة هذا النظم. وقال أيضا:

أرات جفونك مثله من منظر ... ظل وشمس مثل خد معذر

وهذا تتميم عجيب لم يسبق إليه. ثم قال منها:

وقرارة كالعشر بين خميلة ... سالت مذانبها بها كالأسطر
فكأنها مشكولة بمضدل ... من يانع الأزهار أو بمعصفر
أمل بلغناه بهضب حديقة ... قد طرزته يد الغمام الممطر
فكأنه والزهر تاج فوقه ... ملك تجلى في بساط أخضر
راق النواظر منه رايق منظر ... يصف النضارة عن جنان الكوثر
كم قاد خاطر خاطر مستوفز ... وكم استفز جماله من مبصر

لو لاح لي فيما تقدم لم أقل ... عرج بمنعرج الكثيب الأعفر
قال أبو الحسن الرعيني، وأنشدني لنفسه:
وعشية كانت قنيصة فتية ... ألفوا من الأدب الصريح شيوخا
فكأنما العنقاء قد نصبوا لها ... من الانحناء إلى الوقوع فخوخاً
شملتهم آدابهم فتجاذبوا ... سر السرور محدثاً ومصيخا
والورق تقرأ سيرة الطرب التي ... ينسيك منها ناسخاً منسوخا
والنهر قد صفحت به نارنجة ... فتيممت من كان فيه منيخا
فتخالهم حلل السماء كواكبا ... قد قارنت بسعودها المريخا
خرق العوائد في السرور نهارهم ... فجعلت أبياتي لهم تاريخا
ومن أبياته في البديهة:
وعندي من مراشفها حديث ... يخبر أن ريقتها مدام
وفي أجفانها السكرى دليل ... وما ذقنا ولا زعم الهمام
تعالى الله ما أجرى دموعي ... إذا عنت لقلتي الخيام
وأشجاني إذا لاحت بروق ... وأطربني إذا غنت حمام
ومن قصيدة.
عذيري من الآمال خابت قصودها ... ونالت جزيل الحظ منها الأخابث
وقالوا ذكرنا بالغنى فأجبتهم ... خمولاً وماذكر مع البخل ماكث
يهون علينا أن يبيد أثاثنا ... وتبقى علينا المكرمات الأثابث
وما ضر أصلا طيبا عدم الغنى ... إذا لم يغيره من الدهر حادث
وله يتشوق إلى أبي عمرو بن أبي غياث:
أبا عمرو متى تقضي الليالي ... بلقياكم وهن قصصن ريش
أبت نفسي هوى إلا شريشاً ... وما بعد الجزيرة من شريش
وله من قصيدة:
طفل المساء وللنسم تضوع ... والأنس ينظم شملنا ويجمع
والزهر يضحك من بكاء غمامة ... ريعت لشيم سيوف برق تلمع
والنهر من طرب يصفق موجه ... والغصن يرقص والحمامة تسجع
فانعم أبا عمران واله بروضة ... حسن المصيف بها وطاب المربع

يا شادن البان الذي دون النقا ... حيث التقى وادي الحمى والأجرع
الشمس يغرب نورها ولربما ... كسفت ونورك كل حين يسطع
إن غاب نور الشمس بتنا نتقي ... بسناك ليل تفرق يتطلع
أفلت فناب سناك عن إشراقها ... وجلاً من الظلماء ما يتوقع
فأمنت يا موسى الغروب ولم أقل ... فوددت يا موسى لو أنك يوشع
وقال:

ألا يشروا بالصبح مني باكياً ... أضر به الليل الطويل مع البكا
ففي الصبح للصب المتيم راحة إذا الليل أجرى دمعه وإذا شكا
ولا عجب أن يمسك الصبح عبرتي ... فلم يزل الكافور للدم ممسكا
ومن بديع مقطوعاته قوله:
مثل الرزق الذي تطلبه ... مثل الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه متبعا ... فإذا وليت عنه أتبعك
وقال:
دخلتم فأفسدتم قلوباً بملككم ... فأنتم على ما جاء في سورة النمل
وبالعدل والإحسان لم تتخلقوا ... فأتم على ما جاء في سورة النحل
وقال أبو بكر محمد بن محمد بن جهور: رأيت لابن مرج الكحل مرجاً أحمر قد أجهد نفسه في خدمته فلم ينجب، فقلت:
يا مرج كحل ومن هذي المروج له ... ما كان أحوج هذا المرج للكحل
يا حمرة الأرض من طيب ومن كرم ... فلا تكن طمعاً في رزقها العجل
فإن من شأنها إخلاف آملها ... فيما تفارقها كيفية الخجل
فقال مجيباً بما نصه:
يا قائلا إذ رأى مرجى وحمرته ... ما كان أحوج هذا المرج للكحل
هو احمرار دماء الروم سيلها ... بالبيض من مر من آبائي الأول
أحببته إن من فتنت به ... في حمرة الخد أو إخلافه أملي
وفاته

توفي ببلده يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وستماية، ودفن في اليوم بعده.
محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري
من أهل مرسية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن الجنان
حاله
كان محدثاً راوية، ضابطا، كاتباً بليغا، شاعراً بارعا، رايق الخط، دينا فاضلا، خيراً، زكياً. استكتبه بعض أمراء الأندلس، فكان يتبرم من ذلك، ويقلق منه، ثم خلصه الله منه. وكان من أعاجيب الزمان في إفراط القماءة، حتى يظن راثيه إذا استدبره، أنه طفل إبن ثمانية أعوام أو نحوها، متناسب الخلقة؛ لطيف الشمايل، وقورا، خرج من بلده، حين تمكن العدو من بيضته عام أربعين وستماية، فاستقر بأوريولة، إلى أن استدعاه إلى سبتة، الرييس بها، أبو علي بن خلاص، فوفد عليه، فأجل وفادته، وأجزل إفادته، وحزظي عنده حظوة تامة. ثم توجه إلى إفريقية، فاستقر ببجاية. وكانت بينه وبين كتاب عصره مكاتبات، ظهرت فيها براعته.
مشيخته
روى ببلده وغيرها عن أبي بكر عزيز بن خطاب، وأبي الحسن بن سهل ابن مالك، وابن قطرال، وأبي الربيع بن سالم، وأبي عيسى بن أبي السداد، وأبي علي الشلوبين، وغيرهم.
من روى عنه

روى عنه صهره أبو القاسم بن نبيل، وأبو الحسن محمد بن رزيق.

شعره

قال القاضي أبو عبد الله بن عبد الملك، وكان له في الزهد، ومدح النبي صلى الله عليه وسلم بدايع، ونظم في المواعظ للمذكرين كثيرا. فمن ذلك قوله في توديع رمضان وليلة القدر:

فضى رمضان وكأن بك قد مضى ... وغاب سناه بعد ما كان أومضا
فيا عهده ما كان أكرم معهدا ... ويا عصره أعزز علي أن انقضا
ألم بنا كالطيف في الصيف زائرا ... فخيم فينا ساعة ثم قوضا
فيا ليت شعري إذ نوى غربة النوى ... أبالسخط عنا قد تولى أم الرضا
قضى الحق فينا بالفضيلة جاهداً ... فأي فتى فينا له الحق قد قضا
وكم من يد بيضاء أسدى لذي تقى ... بتوبته فيه الصحايف بيضا
وكم حسن قد زاده حسناً وسنى ... محاه وبالإحسان والحسن عوضا
فلله من شهر كريم تعرضت ... مكارمه إلا لمن كان أعرضا

نفي بينه وبين شجونك معلما ... وفي إثره أرسل جفونك فيضا
وقف بثنيات الوداع فإنها ... تمحص مشتاقاً إليها وتمحضا
وإن قضيت قبل الفرق وقفة ... فمقضيها من ليلة القدر ما قضا
فيا حسنها من ليلة جل قدرها ... وحض عليها الهاشمي وحرضا
لعل بقايا الشهر وهي كريمة ... تبين سراً للأواخر أغمضا
وقد كان أضفى ورده كي يفيضه ... ولا كن تلاحى من تلاحي فقيضا
وقال اطلبوها تسعدوا بطلابها ... فحرك أرباب القلوب وأنهضا
جزى الله عنا أحمد الجزا على ... كرم أضفاه برداً وفضفضا
وصلى عليه من نبي مبارك ... رؤوف رحيم للرسالة مرتضا
له عزة أعلى من الشمس منزلا ... وعزمته أمضى من السيف منتضا
له الذكر يهمى فض مسك ختامه ... تأرج من ريا فضايله القضا
عليه سلام الله ما انهل ساكب ... وذهب موشي الرياض وفضضا

ومن ذلك قصيدة في الحج:

تذاكر الذكر وتهيج اللواعجا ... فعالجن أشجاناً يكاثرن عالجا
ركاباً سرت بين العذيت وبارق ... نوابيج في تلك الشعاب نواعجا
تيممن من وادي الأراك منازلا ... يطرنها إلا في الأراك سجاسجا
لهن من الأشواق حاد فإن ... ونت حداه يرجعن الحنين أهازجا
ألا بأبي تلك الركاب إذا سرت ... هوادي يملأن الفلاة هوادجا
براهم سوامح أو سراهم فأصبحوا ... رسوماً على تلك الرسوم عوالجا
لهم في مني أسنى المنا ولدي الصفا ... يرجون من أهل الصفا المناهجا
سما بهم طوف ببيت طامح ... أراهم قباباً للعلى ومعارجا

فأبدوا من اللوعات ما كان كامنا ... وأذروا دموعاً بل قلوباً مناضجا
ولما دنوا نودوا هنيا وأقبلوا ... إلى الركن من كل الفجاج أدارجا
وقضوا بتقبيل الجدار ولثمه ... حقوقاً تقضى للنفوس حوايجا
إذا اعتنقوا تلك المعالم خلتهم ... أساور في إيمانها وجهالجا
فلله ركب يمموا نحو مكة لقد ... كرموا قصداً وحلوا مناسجا
أناخوا بأرجاء الرجاء وعوسوا ... فأصبح كل ما بز القدح فالجا
فبشروا لهم كم خولوا من كرامة ... فكانت لما قدموه نتايجا
بفتح باب للقبول وللرضا ... ووفدهم أضحى على الباب والجا
تميز أهل السبق لاكن غيرهم ... غعدا همجاً بين الخليقة هامجا
أيلحق جلس للبيوت مداهم ... ولم يلعب في تلك المدارج دارجا
ألا ليت شعري للضرورة هل أرى ... إلى الله والبيت المحجب خارجا
له الله من ذي كربة ليس يرتجى ... لمرتجيها يوما سوى الله فارجا
قد أسهمت شتى المسالك دونه ... فلا نهج يلقى فيه لله ناهجاً
يخوض بحار الذنب ليس يهابها ... ويصعق ذعراً إن يرى البحر هائجا
جبان إذا عن الهدى وإذا الهوى ... يعن له كان الجريء المهارجا
يتيه ضلالا في غيابة همه ... فلا حجر تهديه لرشد ولا حجا
فوا حربا لاح الصباح لمبصر ... وقلبي لم يبصر سوى الليل إذ سجا
لعل شفيعي أن يكون معاجلا ... لداء ذنوب بالشفا معالجا
فينشقني بيت الإله نوافحاً ... ويعبق لي قبر النبي نوافجا
فمالي لإمالتي سوى حب أحمد ... وصلت له من قرب قلبي وشايجا
عليه سلام الله من ذي صبابة ... حليف شجاً يكنى من البعد ناشجا

ولو أنصفت أجفانه حق وجده ... سفكت دما للدموع موازجا

كتابته

وكتابته شهيرة، تضرب بذكره فيها الأمثال، وتطوى عليه الخناصر. قالوا، لما عقد أمير المسلمين؛ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود البيعة لابنه الواثق بالإمارة من بعده، تولى إنشاءها، وجعل الحاء المهلة سجعها مردفا إياها بالألف، نحو صباحا وصلاحا، وما أشبه ذلك، طال مجموعها فناهزت الأربعين. وطاب مسمعها، فأحرزت بغية المستمعين: فكتب إليه بو المطرف بن عميرة، رسالته الشهيرة، يداعبه في ذلك، وهي التي أولها: " تحييك الأقلام تحية كسرى، وتقف دون مداك حسرى " . ومنها في الغرض: " ومالك أمنت تغير الحالات، فشننت غارتك على الحاءات، ونفضت عنها المهارك، وبعث في طلبها السوابق، ولفظتها من الأفواه، وطلبتها بين الشفاه، حتى شهد أهل اللسان، بتزحزحها عن ذلك المكان، وتوارت بالحلوق. ولو تغلغلت إلى العروق، لآثرتها جيادك، واقتنصها قلمك ومدادك " وهي طويلة

فراجعه بقوله: ما هذه التحية الكسروية، وما هذا الرأي، وما هذه الروية، أتنكيت من الأقلام، أم تبكيت من الأعلام، أم كلا الأمرين توجه القصد إليه وهو الحق مصدقا لما بين يديه. وإلا فعهدي بالقلم، يتسامى عن عكسه، ويترامى إلى الغاية البعيدة بنفسه، فمتى لانت أنابيبه للعاجم، ودانت أعاربه بدين الأعاجم. واعجبا لقد استنوق الجمل، واختلف القول والعمل. لأمر ما جدع أنفه قصير، وارتد على عقبه الأعمى أبو بصير. أمي استسقى من سحابه، فلا يسقيني، واستشفى بأسمايه فلا يشفيني، واليوم يحلني محل أنوشروان، ويشكو مني شكوى اليزيدية من بني مروان، ويزعم أني أبطلت سحره، كما أبطل سحر بردوران، ويخفي في نفسه ما الله مبديه، ويستجدي بالأثر ما عند مستجديه. فمن أين جاءت هذه الطريقة المتبعة، والطريفة المبتدعة، أيظن أن معماه لا يفك؛ وأنه لا يتجلى هذا الشك. هل هذا منه إلا إمحاض النية، وإحماض تفنية، ونشوة من خمرة الهزل، ونخوة من ذي ولاية آمن العزل. تالله لولا محله من القسم، وفضله في تعليم النسم، لأسمعته ما ينقطع به صلفه، وأودعنه ما ينصدع به صدفه، وأشدت بشرف المشرقي ومجده، وأشرت إلى تعاليه عن اللعب بجده. ولكن هو القلم الأول، فقوله على أحسن الوجوه يتأول، ومعدود في تهذيبه، كل ما لسانه يهذي به. وما أنسانيه إلا الشيطان أياديه أن أذكرها، وإنما أقول ليت التحية كانت لي فأشكرها، ولا عتب إلا على الحاء، المبرحة بالبرحاء، فهي التي قيمت قيامتي في الأندية، وقامت على قيام المعتدية، ينظلم وهو عين الظالم، ويلين القول، وتحته سم الأراقم، ولعمر البراعة وما نصعته، واليراعة وما صنعت، ما خامرني هواها؛ ولا كلفت بها دون سواها. ولقد عرضت نفسها على مرارا، فأعرضت عنها أزرواراً، ودفعتها عني بكل وجه، تارة بلطف، وأخرى بنجه، وخفت منها السآمة، وقلت أنكحي أسامة. فرضيت منها بأبي جهم وسوء سلكته، وابن أبي سفيان وصعلكته، وكانت أسرع من أم خارجة للخطبة، وأسمج من استنجاح تلك الخطبة. ولقد كنت أخاف من انتقال الطباع في عترتها، واستنقال الاجتماع من عشرتها، وأرى من الغبن والسفاه أخذها، وترك بنات الأفواه والشفاه إذ هي أيسر مؤنة، وأكثر معونة. فغلطي فيها، أن كانت بمنزل تتوارى صوناً عن الشمس، ومن نسوة خفرات لا ينطقن إلا بالهمس، ووجدتها أطوع من البنان للكف، والعنان للوكف، والمعنى للاسم، والمغني للرسم، والظل للشخص، ولا مستبدل للنص، فما عرفت منها إلا خبرا أرضاه حتى حسبتها من الحافظات للغيب بما حفظ الله؛ فعجبت لها الآن كيف زلت نعلها، ونشرت فنشرت ما استكتمها بعلها، واضطربت في رأيها اضطراب المختار أبي عبيد، وضربت في الأرض تسعى علي بكل مكر وكيد، وزعمت أن حرف الجيم خدعها، والآن أخدعها، وأخبرها أن سيبلغ بخبرها الخابور، وأحضرها لصاحبها كما أحضر بين يدي قيصر سابور، فقد جاءت إفكاً وزورا، وكثرت من أمرها شزورا، وكانت كالقوس أرنت وقد أصمت القنيص والمراودة، قالت ما جزاء، وهي التي قدت القميص، وربما يظن بها الصدق، وظن الغيب ترجيم، ويقال لقد خفضت الحاء، بالمجاورة لهذا الأمر الجسيم، وتنتصر لها أختها التي خيمت بني النرجسة والريحانة، وختمت السورة باسم جعلت ثانية أكرم نبي على الله سبحانه، فإن امتعضت لهذه المتظلمة، تلك التي سبقت بكلمتها بشارة المتكلمة، فأنا ألوذ بعدلها، وأعوذ بفضلها، وأسألها أن تقضي قضاء مثلها، وتعمل بمقتضى: فابعثوا حكماً من أهله، وحكماً من أهلها. على أن هذه التي قد أبدت مينها، ونسيت الفضل بيني وبينها، أن قال الحكمان منها كان النشوز، عادت حرورية العجوز، وقالت التحكم في دين الله لا يجوز، فعند ذلك يحصحص الحق، ويعلم من الأولى بالحكم والأحق، ويصيبها ما أصاب أروى، من دعوة سعيدة حين الدعوى، ويا ويحها أن أرادت أن تجني علي فجنت لي، وأناخت لي مركب السعادة، وما ابتغت إلا ختلي، فأتى شرها بالخير، وجاء النفع من طريق ذلك الضير. أتراها علمت بما يثيره اعوجاجها، وينجلي عنه عجاجها. فقد أفادت عظيم الفوايد، ونظيم القرايد، ونفس الفخر، ونفيس الذخر، وهي

لا تنكر أن كانت من الأسباب، ولا تذكر إلا يوم الملاحاة والسباب. وإنما يستوجب الشكر جسيماً، والثناء الذي يتضوع نسيماً، الذي شرف إذ أهدى أشرف السحاءات، وعرف بما كان من انتحاء تلك الحاء المذمومة في الحاءات، فإنه

وإن ألم بالفكاهة، فما أملي من البداهة، وسمي باسم السابق السكيت، وكان من أمر مداعبته كيت وكيت، وتلاعب بالصفات، تلاعب السيل بالصفاة، والصبا بالبانة، والصبا بالعاشق ذي اللبانة، فقد أغرب بفنونه، وأغرى القلوب بقتونه، ونفث بجفنه الأطراف، وعبث من الكلام المشقق الأطراف، وعلم كيف يلخص البيان، ويخلص العقيان. فمن الحق أن أشكره على أياديه البيض، وأن آخذ لفظه من معناه في طرف النقيض. تالله أيها الإمام الأكبر، والغمام المستمطر، والخبر الذي يشفي سايله، والبحر الذي لا يرى ساحله، ما أنا المراد بهذا المسلك، ومن أين حصل النور لهذا الحلك، وصح أن يقاس، بين الحداد والملك، إنه لتواضع الأعزة. وما يكون للأكارم عند المكارم من العزة، وتحريض الشيخ للتلميذ؛ في إجازة الوضوء بالنبيذ. ولو حضر الذي قضى له بجانب الغربي أمر البلاغة، وارتضى ماله في هذه الصناعة، من حسن السبك لحليتها والصياغة، وأطاعته فيما أطلعته طاعة القوافي الحسان، وأتبعته فيما جمعته لكن بغير إحسان لأذعن كما أذعنت، وظعن عن محل دعوى الإجادة، كما ظعنت. وأنى يضاهي الفرات المعبن بالنغبة، ويباهي بالفلوس من أوتى من الكنوز ما أن مفاتحه لتنوء بالعصبة، وأي حظ للكلالة في النشب، وقد اتصل للورثة عمود النسب، هبهات والله بعد المطلب، وشتان الدر والخشلب، وقد سيم الغلب، ورجع إلى قياجة السلب، وإن كنا ممن تقدم لشدة الظمأ إلى المنهل، وكمن أقدم إلى عين تبوك بعد النهي للعل والنهل. فقد ظهرت بذلك المعجزة عياناً، وملئ ما هناك جناناً، وما تعرضنا بإساءة الأدب واللوم، ولكن علمنا أن آخر الشراب ساقي القوم، وإن أسهبنا فيما نلنا رتبة ذلك الإيجاز، وإن أعرقنا فهو فهوانا في الحجاز، فلكم أسهبنا فما نلنا رتبة ذلك الإيجاز، وإن أعرقنا فهوانا في الحجاز، فلكم قصيرات الحجال، ولنا قصيرات الخطا في هذا المجال، وإكثارنا في قلة، وجارنا من الفقر في فقر وذلة. ومن لنا بواحدة يشرق شياؤها، ويخفى للنجوم خجلها منها وحياؤها، إن لم تطل فلأنها للفروع كالأصل، وفي الجموع كليلة الوصل. فلو سطع نورها الزاهر، ونورها الذي تطيب منه الأنوار الأزاهر، لسجدت النيران ليوسف ذلك الجمال، ووجدت نفحات رياها في أعاطاف الجنوب والشمال، وأسرعت نحوها النفوس إسراع الحجيج يوم النفر، وسار خبرها وسرى، فصار حديث المقيمين والسفر. وما أظن تلك الساخرة في تدليها، إلا الساحة بتجنيها، إذ كانت ريبتها، بل ربتها، هذه التي سبقتني لما سقتني بسينها، ووجدت ريحها، لما فصلت من مصرها غيرها. وحين وصلت، لم يدلني على سابقها إلا عبيرها، وكم رامت أن تستتر عني بليل حبرها ي هذه المغاني. فأغراني بهاؤها، وكل مغرم مغرى ببياض صبح الألفاظ والمعاني. وهل كان ينفعها تلفحها بمرطها وتلفعها، إذ نادتها المودة، فقد عرفناك يا سودة. فأقبلت على شم نثرها، وعرفها ولثم سطرها وحرفها، وقريتها الثناء الحافل، وقراها فزينت بها المحاضر والمحافل. ورمت أمر الجواب، فغرتني في الخطاب، لكن رسمت هذه الرقعة التي هي لديكم بعجزي واشية، وإليكم مني على استحياء ماشية، وإن رق وجهها فما رقت لها حاشية، فمنوا بقبولها عل علاتها، وانقعوا بماء سماحتكم حر غللها، فإنها وافدة من استقر قلبه عندكم وثوى، وأقر بأنه يلقط في هذه الصناعة ما يلقى للمساكين من النوى. بقيتم، سيدي الأعلى للفضل والإغضاء، ودمتم غرة في جبين السمحة البيضاء، واقتضيتم السعادة المتصلة مدة الاقتضاء، بيمن الله سبحانه. انتهى.وإن ألم بالفكاهة، فما أملي من البداهة، وسمي باسم السابق السكيت، وكان من أمر مداعبته كيت وكيت، وتلاعب بالصفات، تلاعب السيل بالصفاة، والصبا بالبانة، والصبا بالعاشق ذي اللبانة، فقد أغرب بفنونه، وأغرى القلوب بقتونه، ونفث بجفنه الأطراف،

وعبث من الكلام المشقق الأطراف، وعلم كيف يلخص البيان، ويخلص العقيان. فمن الحق أن أشكره على أياديه البيض، وأن آخذ لفظه من معناه في طرف النقيض. تالله أيها الإمام الأكبر، والغمام المستمطر، والخبر الذي يشفي سايله، والبحر الذي لا يرى ساحله، ما أنا المراد بهذا المسلك، ومن أين حصل النور لهذا الحلك، وصح أن يقاس، بين الحداد والملك، إنه لتواضع الأعزة. وما يكون للأكارم عند المكارم من العزة، وتحريض الشيخ للتلميذ؛ في إجازة الوضوء بالنبيذ. ولو حضر الذي قضى له بجانب الغربي أمر البلاغة، وارتضى ماله في هذه الصناعة، من حسن السبك لحليتها والصياغة، وأطاعته فيما أطلعته طاعة القوافي الحسان، وأتبعته فيما جمعته لكن بغير إحسان لأذعن كما أذعنت، وظعن عن محل دعوى الإجادة، كما ظعنت. وأنى يضاهي الفرات المعين بالنغبة، ويباهي بالفلوس من أوتى من الكنوز ما أن مفاتحه لتنوء بالعصبة، وأي حظ للكلالة في النشب، وقد اتصل للورثة عمود النسب، هبهات والله بعد المطلب، وشتان الدر والخشلب، وقد سيم الغلب، ورجع إلى قياجة السلب، وإن كنا ممن تقدم لشدة الظمأ إلى المنهل، وكمن أقدم إلى عين تبوك بعد النهي للعل والنهل. فقد ظهرت بذلك المعجزة عياناً، وملئ ما هناك جناناً، وما تعرضنا بإساءة الأدب واللوم، ولكن علمنا أن آخر الشراب ساقي القوم، وإن أسهبنا فيما نلنا رتبة ذلك الإيجاز، وإن أعرقنا فهو فهوانا في الحجاز، فلكم أسهبنا فما نلنا رتبة ذلك الإيجاز، وإن أعرقنا فهوانا في الحجاز، فلكم قصيرات الحجال، ولنا قصيرات الخطا في هذا المجال، وإكثارنا في قلة، وجارنا من الفقر في فقر وذلة. ومن لنا بواحدة يشرق شياؤها، ويخفى للنجوم خجلها منها وحياؤها، إن لم تطل فلأنها للفروع كالأصل، وفي الجموع كليلة الوصل. فلو سطع نورها الزاهر، ونورها الذي تطيب منه الأنوار الأزاهر، لسجدت النيران ليوسف ذلك الجمال، ووجدت نفحات رياها في أعاطاف الجنوب والشمال، وأسرعت نحوها النفوس إسراع الحجيج يوم النفر، وسار خبرها وسرى، فصار حديث المقيمين والسفر. وما أظن تلك الساخرة في تدليها، إلا الساحة بتجنيها، إذ كانت ربيتها، بل ربتها، هذه التي سبقتني لما سقتني بسينها، ووجدت ريحها، لما فصلت من مصرها غيرها. وحين وصلت، لم يدلني على سابقها إلا عبيرها، وكم رامت أن تستتر عني بليل حبرها ي هذه المغاني. فأغراني بهاؤها، وكل مغرم مغرى ببياض صبح الألفاظ والمعاني. وهل كان ينفعها تلفحها بمرطها وتلفعها، إذ نادتها المودة، فقد عرفناك يا سودة. فأقبلت على شم نشرها، وعرفها ولثم سطرها وحرفها، وقريتها الثناء الحافل، وقراتها فزينت بها المحاضر والمحافل. ورمت أمر الجواب، فغرتني في الخطاب، لكن رسمت هذه الرقعة التي هي لديكم بعجزي واشية، وإليكم مني على استحياء ماشية، وإن رق وجهها فما رقت لها حاشية، فمنوا بقبولها عل علاتها، وانقعوا بماء سماحتكم حر غللها، فإنها وافدة من استقر قلبه عندكم وثوى، وأقر بأنه يلقط في هذه الصناعة ما يلقى للمساكين من النوى. بقيتم، سيدي الأعلى للفضل والإغضاء، ودمتم غرة في جبين السمحة البيضاء، واقتضيتم السعادة المتصلة مدة الاقتضاء، بيمن الله سبحانه. انتهى.

ومحاسنه عديدة، وآماده بعيدة.

دخوله غرناطة

دخلها مع المتوكل مخدومه، أو وجده بها.

من روى عنه: روى عن أبي الحسن سهل بن مالك.

وفاته

قال الأستاذ في الصلة: انتقل إلى بجاية فتوفي بها في عشر الخمسين وستمائة.

ابن شلبطور الهاشمي

محمد بن محمد بن أحمد بن شلبطور الهاشمي من أهل ألمرية، يكنى أبا عبد الله. من وجوه بلده وأعيانه، نشأ نبيه البيت، ساحباً بنفسه وبماله ذيل الحظوة، متحلياً بخصل من خط وأدب. وزيراً، متجنداً، ظريفاً، درباً على ركوب البحر وقيادة الأساطيل. ثم انحط في هواه انحطاطاً، أضاع مروءته، واستهلك عقاره، وهد بيته، وألجأه أخيراً إلى اللحاق بالعدوة فهلك بها.

وجرى ذكره في الإكليل بما نصه: مجموع شعر وخط، وذكاء عن درجة الظرفاء، غير منحط إلى مجادة أثيلة البيت، شهيرة الحي والميت. نشأ في حجر الترف والنعمة، محفوفاً بالمالية الجمة، فلما غفل عن ذاته، وترعرع بين لداته، أجرى خيول لذاته، فلم يدع منها ربعاً إلا أقفره، ولا عقاراً إلا عقره، حتى حط بساحلها، واستولى بسعر الإنفاق على جميع مراحلها، إلا أنه خلص بنفس طيبة، وسراوة سماؤها صسبة، وتمتع ما شاء من زير وبم، وتأنس لا يعطى القياد لهم. وفي عفو الله سعة، وليس مع التوكل على الله ضعة.

شعره

من شعره قوله يمدح السلطان، وأنشدها إياه بالمضارب من وادي الغيران عند قدومه من ألمرية

أثغرك أم سمط من الدر ينظم ... وريقك أم مسك به الراح تختم

ووجهك أم باد من الصبح نير ... وفرعك أم دارج من الليل مظلم

أعلل منك النفس والوجد متلفي ... وهل ينفع التعليل والخطب أعظم

وأقنع من طيف الخليل يزورني ... لو أن جفوني بالمنام تنعم

حملت الهوى حيناً فلما علمته ... سلوت لأني بالمكارم مغرم

ولي في أمير المسلمين محبة ... فؤادي مشغوف بها ومتيم

بلغت المنى لما لثمت يمينه ... فها أنذا في جنة الخلد أنعم

يصوغ قومي الشعر في طيب ذكره ... ويحسن فيه النظم من ليس ينظم

فاستمسك الدين الحنيف زمانه ... وقام منار الحق والشرك مغرم

له نظر في المشكلات مؤيد ... والله مهد إلى الرشد ملهم

ويستغرق طارحاً فيه وابل جوده ... فمن فعله في جوده يتعلم

فلو أن أملاك البسيطة أنصفوا ... لألقوا إليه الأمر طوعاً وسلم

وفي الدين والدنيا وفي البأس والندى ... لكم يا بني نصر مقام معظم

ومنها:

إليك أمير المسلمين اقتضيتها ... حمايل شكر طيرها مترنم

تنم بعرف المسك أنفاسها ... إذا يفوه لراو في الندى بها فم

فباسمك سيرت في المسامع ذكرها ... ويغزي في أقصى البلاد ويشمم

ولو أنني في المدح سبحان وائل ... وألجدني فيه حبيب ومسلم

لما كنت إلى عن علاك مقصر ... ومن بعض ما نشدت وتولى وتنعم

بقيت ملاذاً للأنام ورحمة ... وساعدك الإسعاد حيث يتمم

ومن شعره مذيلاً على البيت الأخير حسبما نسب إليه:

نامت جفونك يا سؤلي ولم أنم ... ما ذاك إلا لفرط الوجد والألم

أشكو إلى الله ما بي من محبتكم ... فهو العليم بما نلقى من السقم

إن كان سفك دمي أقصلاى مرادكم ... فما غلت نظرة منكم بسفك دم

ومما نسب إليه كذلك:

قف بي وناد بين تلك الطلول ... أين الألى كانوا عليها نزول

أين ليالينا بهم والمنى ... تجنيه عضاً بالرضا والقبول

لا حملوا بعض الذي حملوا ... يوم تولت بالقباب الحمول

إن غبتم يا أهل نجد ففي ... قلبي أنتم وضلوعي حلول

ومما خاطبني به:

تالله ما أورى زناد القلق ... سوى ريح لاح لي بالأبرق

أيقنت بالحين فلولا نفحة ... نجدية منكم تلافت رمق

لكنت أقضي بتلظي زفرة ... وحسرة بين الدموع تلتق

فآه من هول النوى وما جني ... على القلوب موقف التفرق

يا حاكي الغصن انثني متوجا ... بالبدر تحت لمة من غسق

الله في نفس معنى أقصدت ... من لاعج الشوق بما لم تطق

أتى على أكثرها برح الأسى ... دع ما مضى منها وأدرك ما بق

ولو بإلمام خيال في الكرى ... إن ساعد الجفن رقيب الأرق

فرب زور من خيال زائر ... أقر عيني وإن لم يصدق

شفيت من برح الأسى لو أن من ... أصبح رقى في يديه معتق

ففي معاناة الليالي عائق ... عن التصابي وفنون القلق

وفي ضمان ما يعاني المرء من ... نوايب الدهر مشيب المفرق

هذا لعمري مع أني لم أبت ... منها بشكوى روعة أو فرق

فقد أخذت من خطوب غدرها ... بابن الخطيب إلا من مما أتق

فخر الوزارة الذي ما مثله ... بدر علا في مغرب أو مشرق

ومذ أرانيه زماني لم أبل ... من صرفه من مرعد أو مبرق

لا سيما مذ حططت في حما ... جواره الأمنع رحل أينق

أيقنت أني في رجائي لم أخب ... وأن مسعى بغيتي لم يخفق

ندب له في كل حسن آية ... تناسبت في الخلق أو الخلق

في وجهه مسحة بشر إن بدت ... تبهرجت أنوار شمس الأفق

تعتبر الأبصار في لألأتها ... عليه من نور السماح المشرق

كالدهر في استينائه وبطشه ... كالسيف في حد الظبا والروق

إن بخل الغيث استهلت يده ... بوابل من غيث جود غدق

وإن وشت صفحة طرس انجلا ... ليل دجاها عن سني مؤتلق
بمثلها من حبرات أخجلت ... حواشي الروض خدودج المهرق
ما راق في الآذان أشناف سوى ... ملتقطات لفظه المفترق
تود أجياد الغواني أن يرى ... حليها من در ذاك المنطق
فسل به هل آده الأمر الذي ... حمل في شرخ الشباب المونق
إذا رأى الرأى فلا يخطئه ... يمن اختيار للطرق الأفق
أيه أبا عبد الإله هاكها ... عذراء تحثو في وجوه السبق
خذها إليك بكر فكر يزدري ... لديك بالأعشى لدى المحلق
لا زلت مرهوب الجناب مرتجى ... موصول عز في سعود ترتق
مبلغ الآمال فيما تبتغي ... مؤمن الأغراض فيما تتقي

ناب في القيادة البحرية عن خاله القايد أبي علي الرنداحي، وولي أسطول المنكب برهة. توفي بمراكش في عام خمسة وخمسين وسبعمائة رحمه الله.

ابن مشتمل الأسلمي

محمد بن محمد بن جعفر بن مشتمل الأسلمي من أهل ألمرية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالبلياني.

حاله

قال شيخنا أبو البركات، ناب عني في بعض الأعمال بألمرية، وخطب بنحانس من غربيها، ثم خطب بحمة مرشانة، وهو الآن بها، وعقد الشروط قبل بألمرية. عفيف طاهر الذيل، نبيل الأغراض، مهذب الأخلاق، قيم على القراءات، والنحو والأدب، جيد الشعر والكتابة..... من الضبط، وإجادة العبارة عن المعنى المراد.

تواليفه

قال، له رجز في علم الكلام جيد، ورجز آخر في ألفاظ فصيح ثعلب، عري عن الحشو، على تقعير فيه يغتفر لما جمع من اقتصاره، وله تأليف في الوبا سماه بإصلاح النيلة في المسلة الطاعونية.

مشيخته

قال، أخذ عني وعن أبيه جملة من الدواوين، وعن غيري من أهل بلده.

شعره

قال، ومما أنشدني من شعره قوله:

هفا بي من بين المغاني عقيقها ... ومن بينه انفضت لعيني عقيقها
ومالت لليد قبابه وأشرقني بالدمع منها شروقها
يهيج أنفاسي غراماً نسيمها ... وتقدح نار الشوق عندي بروقها

ومن دون واديها ظباً خوادل ... حكى لحظها ماضي الشفار رقيقها
فلو برزت الشمس منهن في الضحى ... مخدرة أضحت كمالا تفوقها
نسيم الصبا أن سيرت نحو الحمى ... فقل تحيى الديار النازحات تشوقها
غريب كيبب مستهام متيم ... جريح الجفون الساهرات عريقها

فهل عطفة ترجى وهل أمل يرى ... بعودة أيام تقضى أنيقها
سقى وتعلم من أدمع الصب جودها ... من ديم الغيث الملتات ريقها
قال وأنشدني أيضاً، وقال كلفت إجازة هذا البيت الأول من هذه القصيدة، إذ ليس لي:
من عادى ومن ناصرى ومنصفي ... هذا دمعي سفكته بنت المنصف
أو من يخلصني وقد أوهى صحيح ... الجسم مني لحظ طرف مدنف
جفن تحير والهوى يهديه ... لفؤاد كل من الهوى لم يألف
متناعس يهدي السهاد ويصرع ... البطل الكمى بلحظه المتضعف
تبدو وتشدو للعيون وللمسامع ... فهي بين مكحل ومشنف
ملكت بصنعتها عنان عنانها ... وعدت عليه كأن لم تعرف
تغنى إذا غنت بطيب صوتها ... عن أن يزود لحنها بالمعزف
أما تغنت أو تشت تهتف ... قمري نغمتها وغض المعطف
يأتي على تكرر ما عنت به صدقاً ... بكل غريب أو مستطرف
تهدي للنفوس على اختلاف طباعها ... من نبلها ما تشتهي بتلطف
كنا وجفن الدهر عنا ناعس ... خلف ستر للأمان مسجف
حتى وشي باسر دهر حاسد ... كلف بتنغيص الكريم الأشرف
وخجلنا إن لم أمت يوم النوى ... لهفاً وما إن كنت بعد بمنصف
لكنني مما نحلت وذبت لم ... يرني الحمام فكنت عنه أختف
كم ذا أبيت وليس لي من مسعد ... في حالتي غير الدموع الذرف
يا هل ترى هذا الزمان وصرفه ... هل يسمحان بعودة وتألف
صبراً أبا يعقوبهم فهي النوى ... لولا همت شوقا للقيا يوسف
قال وأنشدني أيضاً لنفسه، والبيت الأخير لغيره:
ما للأحبة في أحكامهم جاروا ... نأوا جميعاً فلا خل ولا جار
كيف البقا وقد بانت قبابهم ... وقد خلت منهم وا أسفي الدار
حداة تمسهم بالقلب قد رحلوا ... يا ليتهم حملوا الجثمان إذ سار
جار الزمان علينا في فراقهم ... من قبل أن تنقضي للصب أوطار
ساروا فحيمت الأشواق بعدهم ... مالي عليها سوى الآماق أنصار
تراك ياربعهم ترجو رجوعهم ... يا ليت لو ساعدت في ذاك أقدار
ودعت منهم شوساً ما مطالعها ... إلا من الوشي أطواق وأزرار
أستودع الله من فاز الفراق بهم ... وخلفوا ودمع العين مدرار
قلت، ولا خفاء بتخلف هذا النمط عن الإجادة، والله يقبض ويبسط، وشافعنا عرض الإكثار.
توفي في آخر أربعة وستين وسبع ماية.
محمد بن محمد بن حزب الله

من أهل وادي آش، يكنى أبا عبد الله، ويعرف باسم جده.
حاله
دمث؛ متخلق، سهل الجانب، كثير الدعابة، خفيف الروح، له خط حسن ووراقة بديعة، وإحكام لبعض العملية، واقتدار على النظم. اتصل بباب السلطان ملك المغرب، وارتسم كاتبا مع الجملة، فارتاش، وحسنت حاله.

وجرى ذكره في الإكليل الزاهر بما نصه: راقم واشي، رقيق الجوانب والحواشي، تزهى بخطه المهارق والطروس، وتتجلى في حلل بدايعه، كما تتجلى العروس، إلى خلق كثير التجمل، ونفس عظيمة التحمل. ودود سهل الجانب، عذب المذانب. لما قضيت الوقيعة بطريف، أقال الله عثارها، وعجل ثارها، قذف به موج ذلك البحر، وتفلت إفلات الهدى المقرب إلى النحر، ورمى به إلى رندة القرار، وقد عرى من أثوابه، كما عرى الغرار، فتعرف للحين بأديبها المفلق، وبارقها المتألق أبي الحجاج المنتشا فرى، فراقه يبشر لقايه، ونهل على الظمأ في سقاته، وكانت بينهما مخاطبات، أنشدنيها بعد إيابه، وأخبرني بما كان من ذهاب زاده، وسلب ثيابه.
وخاطبني من شرح حاله في ارتجاله بما نصه: ولما دخلت رندة الأنيقة البطاح، المحتوية على الأدب والسماح، والعلم والصلاح، أبرز القدر أن لقيت بها شيخنا المعمر رئيس الأدباء، وقدوة الفقهاء، أبا الحجاج المنتشافري، وكنت لم أشاهده قبل هذا العيان، ولا سمح لي بلقاية صرف الزمان، ولم أزل أكلف بمقطوعاته العجيبة، وأولع بضرايبه الغريبة، وتأتى منه مخاطبات تزري بالعقود بهجة، وتطير لها العقود لهجة. نظم كما تنفيس الصبح عن تسنيمه، ونثر كما تأسس الدر بتنظيمه، فأحلني منه محل الروح من الجسد، وشهد لي أني أعز من عليه ورد، ورآني قد ظهرت على مضاضة الاكتياب، لكوني قريب عهد بالإياب، مهزوماً انهزام الأحزاب، خالي الوطاب، نزر الثياب، فقال فيم الجزع، ذهب بحول الله الخوف، وأمن الفزع، فأجبته عجلاً، وقلت أخاطبه مرتجلا.

لا تجزعى نفسي لفقد معاشري ... وذهاب مالي في سبيل القادر
ورندة ها أنت خير بلاده ... وبها أبو حجاج المنتشافري
سيريك حسن فرايد من نظمه ... فتزيل كل كآبة في الخاطر

فأجابني مرتجلا:

سراى يا قلبي المشوق وناظري ... بمزار ذي الشرف السني الطاهر
روض المعارف زهرها الزاهي ... ومن أوصافه أعيت ثنا الشاكر
ولواد آش فخار لم يزل ... من كاين حزب الله نور الناظر
وافي يشرف رندة بقدومه ... فغدت به أفقا لبدر زاهر
من روضة الأدباء أبدي زهرة ... قد أينعت عن فكر حبر ماهر
جمع المآثر بالسناة وبالسنا ... أعظم به من صانع لمآثر
ما زلت أسمع من ثناء مآثراً ... كانت لسامعها معاً والذاكر
حتى رأى بصرى حقائق وصفه ... فتنعمت كالأقمار نواظري
لا زال محبواً بكل مسرة ... تجري له بالحظ حكم مغادر

ثم خاطبه القاضي المنتشافري بعد انصرافه إلى وطنه بقوله:

أبى الدمع بعدك إلا انفجارا ... للهر ببعدك في الحكم جارا
أذاق اللقاء الحلو لو لم يصل به ... للنوى جرعات مرارا

رعى الله لمح ذاك اللقاء وإن ... يك أشواقنا قد أثاراً
قصاراى شكواي طول النوى ... وفقدي أناة وصل قصاراً
سقت القداح من بعده ... فوادي القريح قد أذكت أوارا
ألا يا صباً هب من أربعي ... إلى واد آش تحيي الديارا
ألا خص من ربعها منزلا ... بأربابه الأكرمين استنارا
وهم إلى حزب الإله الألى ... تسامو فخاراً وطابوا نجاراً
فأجابه بأبيات منها:
تألق برق العلا واستنارا ... فأجج إذ لاح في القلب نارا
وذكرني وقت أنس مضا برندة ... حيث الجلال استشارا
وكانت لنفسي سنا في حماها ... طوالا فأصبحت لديها قصارا
فأجريت دمع العيون اشتياقاً ... ففاضت لأجل فراقي بحارا
وقالت لي النفس من لم يجد ... نصيراً سوى الدمع قل انتصارا
قطعت المنا عندها لمحة ... وودعتها وامتطيت القفارا
وضيعت تلك المنا غفلة ... ووافيت أبغي نابس ديارا
ومنها:
أرقت لذاك السنا ليلة ... وما نومها ذقت إلا غرارا

وجسمي أجل الجسوم التهابا ... وقلبي أشد القلوب انكسارا
إلى أن تجرعت كأس النوى ... وقلت زماني على الشمل جارا
وصبرت نفسي لفقدانها ... هنالك بالرغم ليس اختيارا
وقال من قصيدة:
حللت لبرق لاح من سرحتي نجد ... حنين تهامى تحن إلى نجد
وقلت لعل القلب تبرا كلومه ... ومن ذا يصد النار عن شيمة الوقد
إن شاركتني في المحبة فرقة ... فها أنا في وجدي وفي كلفي وجد
وهو إلى هذا العهد بالحال الموصوفة.
ابن عيسى بن داود الحميري

محمد بن إبراهيم بن عيسى بن داود الحميري من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن عيسى
حاله
كان أديباً، حسن الخط، جيد النظم، متظرفاً، لوذعياً، مطبوعاً، منحطاً في هواه، جامحاً في ميدان بطالته، معاقراً للنبيذ، على حفظ للرسم، واضطلاع بالخدمة، وإيثار للمروءة، ومعرفة بمقادير الأمور، وتشبث بأذيال الحظوة. كتب للرياسة السعيدية بمالقة، ونظر على ألقاب جبايتها، وانتفع الناس بجاهه وماله، ووقع الثناء على حسن وساطته. ثم سافر عنها، وقد سمت مجادة السلطان في غرض انتقالها إلى العدوة، معوضة بمدينة سلا من مالقة. وكان ما كان من معاجلة الأمر، والقبض على الريس، وقيام ولده بالأمر، فأنتب المذكور بالعدوة، وكانت بها وفاته.

وجرى ذكره في الإكليل الزاهر بما نصه: علم من أعلام هذا الفن، ومشعشعي راح هذا الدن، بمجموع أدوات، وفارس يراعة، ظريف المنزع، أنيق المرآى والمسمع، اختص بالرياسة، وأدار فلك إمارتها، واتسم باسم كتابتها ووزارتها، ناهضاً بالأعباء، راقياً في درح التقريب والاجتباء، مصانعاً دهره في راح وراحة، آوياً إلى فضل وسماحة، وخصب ساحة، كلما فرغ من شأن خدمته، وانصرف عن رب نعمته، عقد شرباً، وأطفأ من الاهتمام بغير الأيام حرباً، وعكف على صوت يستعيده، وظرف يبديه ويعيده. فلما تقليت بالرياسة الحال، وقوضت منها الرحال، استقر بالمغرب غريباً، يقلب طرفاً مستريبا، ويلحظ الدنيا تبعة عليه وتثريباً، وإن كان لم يعدم من أمرايها حظوة وتقريباً، وما برح يبوح بشجنة، ويرتاح إلى عهود وطنه.

شعره وكتابته

مما كتبه، وبين فيه أدبه قوله:

يا نازحين ولم أفارق منهم ... شوقاً تأجج في الضلوع ضرامه

غيبتم عن ناظري وشخصكم ... حيث استقر من الضلوع مقامه

رمت النوى شملي فشنت نظمه ... والبين رام لا تطيش سهامه

وقد اعتدى فينا وجد مبالغا ... وجرت بمحكم جوره أحكامه

أترى الزمان مؤخراً في مدتي ... حتى أراه قد انقضت أيامه

تحملها يا نسيم تجديه النفحات، وجدية اللفحات، يؤدي عني نغمها إلى الأحبة سلاماً، ويورد عليهم لفحها برداً وسلاماً، ولا تقل كيف تحملني ناراً، وترسل على الأحبة مني إعصارا. كلا إذا أهديتهم تحية إيناسي، وأنسوا من جانب هبوبك نار ضرام أنفاسي، وارتاحوا إلى هبوبك، واهتزوا في كف مسرى جنوبك، وتعللوا بها تعليلا، وأوسعوا آثار مهبك تقبيلا، أرسلها عليهم بليلا، وخاطبهم بلطافة تلطفك تعليلا. ألم تروني كيف جئتكم بما حملني عليلا.

كذاك تركته ملقى بأرض ... له فيها التعلل بالرياح

إذا هبت إليه صبا إليها ... وإن جاءته من كل النواح

تساعده الحمايم حين يبكي ... فما ينفك موصول النياح

يخاطبن مهما طرن شوقاً ... أما فيكن واهية الجناح

ولولا تعلله بالأماني، وتحدث نفسه بزمان التداني، لكان قد قضى نحبه، ولم أبلغكم إلا نعيه أو ندبه، لا كنه يتعلل من الآمال بالوعد الممطول، ويتطارح باقتراحاته على الزمن المجهول، ويحدث نفسه، وقد قنعت من بروق الآمال بالخلب، ووثقت بمواعيد الدهر القلب؛ فيناجيها بوحي ضميره، وإيماء تصويره، كيف أجدك يوم الالتقاء بالأحباب، والتخلص من ربقة الاغتراب، أبائنة الحضور أم بادية الاضطراب. كأني بك وقد استفزك وله السرور، فصرفك عن مشاهدة الحضور، وعاقتك غشاوة الاستعبار للاستبشار، عن اجتلاء محيا ذلك النهار.

يوم يداوي زماناتي من أزماني ... أزبر تنغيص أحياني فأحياني

جعلت لله نذراً صومه أبداً ... أفي به وأوفي شرط إيماني

إذا ارتفعنا وزال البعد وانقطعت ... أشطان دهر قد التفت بأشطاني

أعدده خير أعياد الزمان إذا ... أوطأني السعد فيه ترب أوطاني

أرأيت كيف ارتياحي إلى التذكار، وانقيادي إلى معللات توهمات الأفكار، كأن البعد باستغراقها، قد طويت شقته،

وذهبت عني مشقته، وكأني بالتخيل بين تلك الخمايل أتنسم صباها، وأتسنم رباها، وأجتني أزهارها، وأجتلي أوارها، وأجول في خمايلها. وأتنعم ببكرها وأصايلها، وأطوف بمعالمها، وأتنشق أزهار كمايمها، وأصيخ بإذن الشون إلى سجع حمايمها، وقد داخلتني الأفراح، ونالت مني نشوة الارتياح. ودنا السرور لتوسم ذهاب الأتراح. فلما أفقت من غمرات سكري، ووثبت من هفوات فكري، وجددت مرارة ما شابه لبي في استغراق دهري، وكأني من حينئذ عالجت وقفة الفراق، وابتدأت منازعة الأشواق، وكأنما أغمضتني للنوم، وسمح لي بتلك الفكرة الحلم:

ذكر الديار فهاجه تذكاره ... وسرت به من حينه أفكاره

فاحتل منها حيث كان حلوله ... بالوهم فيها واستقر قراره

يا لقرب الآمال من هفواته ... لو أنه قضت بها أوطاره

فإذا جيتها أيها القادم، والأصيل قد خلع عليها برداً مورساً، والربيع قد مد على القيعان منها سندساً، اتخذها فديتك معرساً، واجرر ذيولك فيها تبختراً، وبث فيها من طيب نفحاتك عنبرا، وافتق عليها من نوافح أنفاسك مسكاً أذفراً، واعطف بعاطف بانها، وارقص قضب ريحانها، وصافح صفحات نمرها، ونافح نفحات زهرها. هذه كلها أمارات، وعن أسرار مقاصدي عبارات، هنالك تنتعش بها صبابات، تعالج صبابات، تتعلل بإقبالك، وتعكف على لثم أذيالك؛ وتبدو لك في صفة الفاني المتهالك، لاطفها بلطافة اعتلالك، وترفق بها ترفق أمثالك، فإذا أمالت بهم إلى هواك الأشواق، ولووا إليك الأرؤس والأعناق، وسألوك عن اضطرابي في الآفاق، وتقلبي بين الأشآم والأعراق، فقل لهم عرض له في أسفاره، ما يعرض للبدر في سراره، من سر السرار، وطاق المحاق، وقد تركته وهو يسامر الفرقدين، ويساير النيرين، وينشد إذا راعه البين:

قد نكون وما يخشى تفرقنا ... واليوم نحن وما يرجى تلاقينا

لم يفارق وعثاء الأسفار، ولا ألقى من يده عصا التسيار، يتهاداه للغور والنجد. ويتداوله الأرقال والوخد، وقد لفحته الرمضاء، وسيمه الإنضاء. فالجهات تلفظه، والآكام تبهظه، تحمل هومه الرواسم، وتخفى به النواسم.

لا يستقر بأرض حين يبلغها ... ولا له غير حدو العيس إيناس

ثم إذا استوفرا سؤالك عن حالي، وتقلبي بين حالي حلي وترحالي، وبلغت القلوب منهم الحناجر، وملأت الدموع المحاجر، وابتلت ذيولك بمائها، لا بل تضرجت بدمائها، فحيهم عني تحية منفصل، وودعهم وداع مرتحل. ثم اعطف عليهم ركابك، ومهد لهم جنابك، وقل لهم إذا سألني عن المنازل بعد سكانها، والربوع بعد ظعن أظعانها، بماذا أجيبه، وبماذا يسكن وجيبه، فسيقولون لك هي البلاقع المقفرات التي أصبحت نكرات.

سم صداها وعفى رسمها ... واستعجمت عن منطق السايل

قل لهم كيف الروض وآسه، وعماذا تتأرج أنفاسه، عهدي به والحمام يردد أسجاعه، والذباب يغني به هزجاً، فيحك بذراعه ذراعه، وغصونه تعتنق، وأحشاء جداوله تصطفق، وأسحاره تتنسم، وآصاله تغتبق، كما كانت بقية نضرته، وكما عهدتها أنيقة خضرته، وكيف التفاتة عن أزرق نهره، وتأنقه في تكليل أكليله بيانع زهره. وهل رق نسيم آصاله، وصفت موارد جداوله، وكيف انفساح ساحاته، والتفاف دوحاته، وهل تمتد كما كانت مع العشي فينانة سرحاته. عهدي بها، المديدة الظلال، المزعفرة السربال، فلم تحدق الآن به عيون نرجسه، ولا سد بساط سندسه. وأين منه مجالس لذاتي، ومعاهد غدواتي وروحاتي، إذ أباري في المجون لمن أباري، وأسابق إلى اللذات كل من يجاري. فسيقولون لك ذوت أفنانه، وانقصفت أغصانه، وتكدرت غدرانه، وتغير ريحه وريحانه، وأقفرت معالمه، وأخرست حمايمه، واستحالت به حلل خمايله، وتغيرت وجوه بكره وأصايله. فإن صلصل حنين رعد، فعن لبي لفراقه

خفق، وإن تلألأ برق، فعن حر حشاي ائتلق، وإن سحت السحب فمساعدة لجفني، وإن طال بكاؤها فعني، حياها الله منازل لم تثن الريح من أغصانها معطفاً، أعاد الله الشمل فيها إلى محكم نظامه، وجعل الدهر الذي فرقه يتأنق في أحكامه. وهو سبحانه يجبر الصدع، ويعجل الجمع، إنه بالإجابة جدير، وعلى ما يشاء قدير. إيه بني كيف حال من استودعتهم أمانتك، وألزمتهم صونك وصيانتك، وألبستهم نسبك، ومهدت لهم حسبك، الله في حفظهم، فهو اللائق بفعالك، والمناسب لشرف خلالك، إرع لهم الاغتراب لديك، والانقطاع إليك، فهم أمانة الله تعالى في يديك، وهو سبحانه بحفظهم، ويوالي بلحظك أسباب لحظهم، وإن ذهبتم إلى معرفة الأحوال، فنعم الله ممتدة الظلال، وخيراته ضافية السربال، لولا الشوق الملازم، والوجد الذي سكن الحيازم.

ووقفت من شعره على قصيدة من جملة رسالة، أثبتها وهي:

أللبرق يبدو تسطير الجوانح ... وللورق تشدو وتستهل السوابح
وقلبي للبرق الخفوق مساعد ... ووجدي للورق الثكالى مطارح
إذا البرق أورى في الظلام زنادي ... فللوجد في زند الصبابة قادح
وكم وقفة لي حيث مال بي الهوى ... أغاد بها شكوى الجوى وأراوح
تنازعني منها للشجون فأشتكي ... ويكثر بثي عندها فأسامح
أبت شجوني والحمام يصيخ لي ... ويسعدني فيما تبيح التبارح
وتطرب أغصان الأراك فتنثني ... إلى صفحة النهر الثقيل تصافح
فتبتسم الأزهار منها تعجباً ... فتهدي إليها عرفها وتنافح
كذلك حتى ماد عطف شغفي ... وطرفي أبدى هزة وهو مارح
فلما التظى وجدي ترنم صاهلاً ... فقلت أمثلي يشتكي الوجد نابح
صرفت عدو البيد أرخو عنانه ... وقلت له شمر فإنني سابح
تهيأ لقطع البيد واعتسف السرى ... سيلقاك غيظان بها وممايح
فحمحم لو يستطيع نطقاً لقال له ... بمثلي تلقى هذه وتكافح
وحملتة عزماً تعود مثله ... فقام به مستقبلا من يناطح
ويممت بيداً لم أصاحب لجوها ... سوى جلد لا يتقي منه فاضح
وماضي الغرارين استجدت مضاه ... إذا جردت يوم الجلاد الصفايح
ومنلمج صدق الأنابيب نافذ به ... عند كرى في الحروب أفاتح
وسرت فلا ألقى سوى الوحش نافراً ... وقد شردت في الظبا السوانح
تحدق نحوي أعيناً لم يلح لها ... سناً لك أسنى ولا هو لايح
وقد زأرت أسد تقحمت غيلها ... فقلت تعاوت إنها لنوايح
وكم طاف بي للخبر من طايف بها ... فلم أصغ سمعاً نحوها وهو صايح
ويعرض لي وجهاً دميماً منظراً ... شنيعاً له تبدو عليه القبايح
فما راعني منه تلون حاله ... بل أيقظ عزمي فانثنى وهو كالح
فلما اكتست شمس العشي شحوبها ... ومالت إلى أفق الغروب تنازح

تسربلت للإدلاج جنح دجنة ... فها أنذا غرسي إلى القصد جانح
فخضت ظلام الليل والنجم شاخص ... إلي بلخط طرفه لي لامح
يرده شزراً إلي كأنما ... علي له حقد به لا يسامح
وراقب من شكلى السماك نظزيره ... خلا لزمكلى أعزل وهو رامح
يخط وميض البرق لي منه أسطراً ... على صفحة الظلماء فهي لوايح
إذا خطها ما بين عيني لم أزل ... أكلف دمعي نحوها فهو طامح
وما زلت سراً في حشى النبل كامناً ... إلى أن بدا من ناسم الصبح فاتح
وهب نسيم الصبح فانعطفت له ... قدود غصون قد رقتها صوادح
تجاذب ذكري أحاديث لم أزل ... يرددها مني مجد ومازح
وملت إلى التعريس لما انقضى السرى ... أروض له نفسي وعزمي جامح
ومال الكرى بي ميلة سكنت لها على نصب الوعثاء مني الجوارح
كمن أخذت منه الشمول بثارها ... فبات يشقى وهو ريان طافح
وقربت الأحلام لي كل معمل ... فأدنته مني وهو في الحق نازح
أرتني وجوهاً لو بذلت لقربها ... حياتي لمن بالقب منه يسامح
لقل لها عمري وما ملكت يدي ... وحدثت نفسي أن تجرى رابح
وما زلت أشكو بيننا غصص النوى ... وما طوحت بن في الزمان الطوايح
فمنها ثغور للسرور بواسم ... لقربه ومنها للفراق نوايح
تقربها الأحلام مني ودونها ... مهامه فيها للهجير لوافح
وبحر طمت أمواجه وشآبيب ... وقفر به للسالكين جوامح
قضيت حقوق الشوق في زورة ... للكرى فإن زيارات الشجون فوادح
وعدت إلى شكوى البلاء ولم أزل ... أرددها والعذر مني واضح
وما بلغت عني مشافهة الكرى ... تبلغها عني الرياح اللوافح
وحسبك قلب في أسار اشتياقة ... وقد أسلمته في يديه الجوانح
وفاته

قال شيخنا أبو بكر بن شبرين، توفي بسجلماسة في صفر عام ستة عشر وسبعماية.
ابن مقاتل
محمد بن محمد بن عبد الله بن مقاتل من أهل مالقة، يكنى أبا بكر.
حاله
من كتاب الإكليل: نابغة مالقية، وخلق وبقية، ومغربي الوطن أخلاقه مشرقية. أزمع الرحيل إلى المشرق، مع اخضرار العود، وسواد المفرق، فلما توسطت السفينة اللجج، وقارعت الثبج، مال عليها البحر، فسقاها كأس الحمام، وأولدها قبل التمام، وكان فيمن اشتملت عليه أعوادها، وانضم على نوره سوادها، جملة من الطلبة والأدباء، وأبناء السراة الحسباء، أصبح كل منهم مطيعاً لداعي الردى وسميعاً، وأحيوا فرادى وماتوا جميعاً، فأجروا الدموع حزناً، وأرسلوا العبرات عليهم مزنا. وكان البحر لما طمس سبل خلاصهم وسدها، وأحال هضبة سفينتهم

وهدها، غار على نفوسهم النفيسة واستردها. والفقيه أبو بكر، مع إكثاره، وانقياد نظامه، ونثاره، لم أظفر من أدبه إلا بالقاليل التافه، بعد وداعه وانصرافه.

فمن ذلك قوله وقد أبصر فتى عاثراً:

ومهفهف هافي المعاطف أحور ... فضحت أشعة نوره الأقمارا

زلت له قدم فأصبح عاثراً ... بين الأنام لعا لذاك عثارا

لو كنت أعلم ما يكون فرشت في ... ذاك المكان الخد والأشفارا

وقال متغزلا:

أيا لبنى الرفاء تنضى ظباؤهم ... جفون ظباهم والفؤاد كليم

لقد قطع الأحشاء منهم مهفهف ... له التبر خد واللجين أديم

يسدد إذ يرمى قسى جواجب ... وأسهمها من مقلتيه تسوم

وتسقمني عيناه وهي سقيمة ... ومن عجب سقم جناه سقيم

ويذبل جسمي في هواه صبابة ... وفي وصله للعاشقين نعيم

توفي في حدود أخريات عام تسعة وثلاثين وسبعماية غريقاً بأحواز الغبطة من ساحل ألمرية.

ابن صفوان القيسي

محمد بن أحمد بن أحمد بن صفوان القيسي

ولد الشيخ أبي الطاهر، من أهل مالقة.

من كتاب الإكليل: نبل فطن، متحرك ذهن، كان أبوه رحمه الله، يتبرم بجداله، ويخشى مواقع رشق نباله، ويشيم بارق الاعتراض في سؤاله، فيشفق من اختلال خلاله، إذ طريقه إنما هي أذواق لا تشرح، وأسرار لا تفضح. وكان ممن اخترم، وجد حبل أمله وصرم، فأفل عقب أبيه، وكان له أدب يخوض فيه.

فمن ذلك، وقد أبصر فتى وسيما على ريحانه:

بدر تجلى على غصن من الآسى ... يبري ويسقم فهو الممرض الآسى

عادى المنازل إلا القلب منزلة ... فماله وجميع الناس من ناس

وقال:

يا عالما بالسر والجهر ... وملجأى في العسر واليسر

جد لي بما أملته منك ... يا مولاي واجبر بالرضا كسري

وفاته: في عام خمسة وسبعماية.

ابن محمد البلوي

محمد بن محمد بن عبد الواحد بن محمد البلوي من أهل ألمرية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بنسبه، وقد مر ذكر أبيه ي العمال.

حاله

هذا الرجل من أبناء النعم، وذوي البيوتات، كثير السكون والحياء، آل به ذلك أخيراً للولوثة، لم يستفق منها لطف الله به. حسن الخط، مطبوع الأدب، سيال الطبع، معينه. وناب عن بعض القضاة، وهو الآن رهين ما ذكر، يتمنى

أهله وفاته، والله ولي المعافاة، بفضله.

وجرى ذكره في الإكليل بما نصه: من أولى الخلال البارعة والخصال، خطا رايقا، ونظما بمثله لايقاً، ودعابة يسترها بحبهم، وسكوتاً فيطيه إدراك وتفهم. عني بالرواية والنقيد، ومال في النظم إلى بعض التوليد، وله أصالة ثبتت في السرو عروقها، وتألقت في سما المجادة بروقها، وتصرف بين النيابة في الأحكام الشرعية، وبين الشهادات العملية المرعية.

شعره

ومن شعره فيما خاطبني به، مهنئاً في إعذار أولادي أسعدهم الله، افتتح ذلك بأن قال.

قال، يعتذر عن خدمة الأعذار، ويصل المدح والثنا على بعد الدار، وذلك بتارخ الوسط من شعبان في عام تسعة وأربعين وسبعمائة:

لا عذر لي عن خدمة الإعذار ... وإن نأى وطني وشط مزاري

أو عاقني عنه الزمان وصرفه ... نقض الأمان عادة الأعصار

قد كنت أرغب أن أفوت بخدمتي ... وأخطر حلى عند باب الدار

باب المسرة بالضبع وأهله ... متشمراً فيه بفضل إزار

من شاء أن يلقى الزمان وأهله ... ويرى جلا الإشعاع في الأفكار

فليأت حي ابن الخطيب ملبيا ... فيفوز بالإعظام والإكبار

كم ضم من جيد كرام فضلهم ... يسمو ويعلو في ذوي الأقدار

إذ حيث ناديه فقف عني ... وقل نلت المنى بتلطف ووقار

يا من له الشرف القديم ومن ... له الحب الصميم العد يوم فحار

يهنيك ما قد نلت من أمل به ... في الفرقدين النيرين يسار

نجلاك قطبا كل تجر باذخ ... أملان مرجوان في الاعتبار

عبد الإله وصنوه قمر العلا ... فرعان من أصل زكا وبحار

ناهيك من قمرين في أفق العلا ... ينميهما نور من الأنوار

زاكي الأرومة مغرق في مجده ... جم الفضايل طيب الأخبار

رقت طبايعه وراق جماله ... فكأنما خلقا من الأزهار

وجلت شمايل حسنه فكأنما ... خلعت عليه رقة الأسحار

فإذا تكلم قلت ظل ساقط ... أو وقع در من نحور جوار

أو فت مسك الحبر في قرطاسه ... بالروض غب الواكف المدرار

تتسم الأقلام بين بنانه ... فيريك نظم الدر في الأسطار

فتخال من تلك البنان كأنما ... نهلت تفتح ناضر النور

تلقاه فياض الندى متهللا ... يلقاك بالبشر والاستبشار

بحر البلاغة قسها وأيادها ... سحبانها خبر من الأخبار

إن ناظر العلماء فهو أمامهم ... شرف المعارف واحد النظار

أربى على العلماء بالصيت الذي ... قد كان في الآفاق كل مطار

ما ضره إن لم يجئ متقدماً ... السبق يعرف آخر المضمار
إن كان أخره الزمان لحكمة ... ظهرت وما خفيت كضوء نهار
الشمس تحجب وهي أعظم تبر ... وترى من الآفاق إثر درار
يا ابن الخطيب خطبتها لعلاكم ... بكراص تزف لكم من الأفكار
جاءتك من خجل على قدم الحيا ... قد طيبت بشايك المعطار
وأنت تؤدي بعض حق واجب ... عن نازح الإمكان والأفكار
مدت يد التطفيل نحو علاكم ... فتوحشت من جودكم بنضار
فابذل لها في النقد صفحك إنها ... شكوى التقصير في الأشعار
لا زلت في دعة وعز دايم ... ومسرة تترى مع الأعصار
ومن السلطانيات قوله من قصيدة نسيبها:
تبسم ثغر الدهر في القضب الملد ... فأذكى الحيا خجلة وجنة الورد
ونبه وقع الطل ألحاظ نرجس ... فمال الوسنان وعاد إلى الشهد
ونم سبر الروض في مسكة الدجا ... نسيم شذا الخير كالمسك والند
وغطى ظلام الليل حمرة أفقه ... كما دار مسود العذار على الخد
وياتت قلوب الشهب تخفق رقة ... لما حل بالمشتاق من لوعة الوجد
وأهمى عليه الغيم أجفان مشفق ... بذكره فاستمطر الدمع للخد
ومنها:
كأني لم أقف في الحي وفقة عاشق ... غداة افترقنا والنوى رندها يعد
وناديت حادي العسيس عرج ... لعلي أبثك وجدي إن تمر على نجد
فقال اتيد يا صاح مالك ملجأ ... سوى الملك المنصور في الرفق والرفد
ومما خاطبني به قوله:
عللوني ولو بوعد محال ... وحلوني ولو بطيف خيال
واعلموا أنني أسير هواكم ... لست أنفك إلا عن عقال
فدموعي من بينكم في انسكاب ... وفؤادي من سحركم في اشتغال
يا أهيل الحمى كفاني غرامي ... حسبي بما قد جر..... ال
من مجيري من لحظ ريم ظلوم ... حلل الهجر بعد طيب الوصال
ناعس الطرف أسمر الجفن مني ... طال منه الجوى بطول الليال
بابلي اللحاظ أصمى فؤاده ... ورماه من غنجه بنبال
وكما الجسم من هواه نحولا ... قصده في النوى بذاك النحال
ما ابتدا في الوصال يوماً بعطف ... مذ روى في الغرام باب اشتغال
ليس لي منه في الهوى من محبر ... غير تاج العلا وقطب الكمال
علم الدين عزه وسناه ذرؤه ... المجد بدر أفق الجلال
هو غيث الندا وبحر العطايا ... هو شمس الهدى فريد المعال

إن وشى في الرقاع بالنقش قلنا ... صفحة الطرس حليت باللآل
أو دجا الخطب فيهو فيه شهاب ... راية الصبح في ظلل الضلال
أوينا العضب فهو في الأمن ماض ... صادق العزم ضيق المجال
لست تلقى مثاله في زمان ... جل في الدهر يا أخي عن مثال
قد نأى حبي له عن دياري ... لا لجدوى ولا لنيل نوال
لكن اشتقت أن أرى منه وجهاً ... نوره فاضح لنور الهلال
وكما همت فيه ألثم كفا قد ... أتت بالنوال قبل السؤال
سألها ابن الخطيب هذراً أجابت ... تلثم النعل قبل شسع النعال
وتوفي حق الوزارة عمن هو ... ملك لها على كل حال
محمد بن محمد بن الشديد

من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله.
حاله
ذكر في الإكليل بما نصه: شاعر مجيد، حوك الكلام، ولا يقصر فيه عن درجة الأعلام. رحل إلى الحجاز لأول أمره، فطال بالبلاد المشرقية ثواؤه. وعميت أنباؤه، وعلى هذا العهد وقفت له على قصيدة بخطه غرضها نبيل، ومرعاها غير وبيل، تدل على نفس ونفس، وإضاءة قبس. وهي:
لنا في كل مكرمة مقام ... ومن فوق النجوم لنا مقام

روينا من مياه المجد لما ... وردناها وقد كثر الزحام
ومنها:
فنحن هم وقل لي من سوانا ... لنا التقديم قدماً والكلام
لنا الأيدي الطوال بكل ضرب ... يهز به لدى الروع الحسام
ونحن اللابسون لكل درع ... يصيب الشمس منهن انثلام
بأندلس لنا أيام حرب ... مواقفهن في الدنيا عظام
ثوى منها قلوب الروم خوفاً ... يخوف منه في المهد الغلام
حمينا جانب الدين احتسابا ... فها هو لا يهان ولا يضام
وتحت الراية الحمراء منا ... كتايب لا تطلق ولا ترام
بنو نصر وما أدراك ماهم ... أسود الحرب والقوم الكرام
لهم في حربهم فتكات عمرو ... فللأعمار عندهم انصرام
يقول عداتهم مهما ألموا ... أتونا ما من الموت اعتصام
إذا شرعوا الأسنة يوم حرب ... فحقق أن ذاك هو الحمام
كأن رماحهم فيها نجوم ... إذا ما أشبه الليل الغمام
أناس تخلف الأيام ميتاً ... بحي منهم فلهم دوام
رأينا من أبي الحجاج شخصاً ... على تلك الصفات له قيام

موقى العرض محمود السجايا ... كريم الكف مقدام همام
يجول بذهنه في كل شيء ... فيدركه وإن عز المرام
قويم الرأي في نوب الليالي ... إذا ما الرأي فارقه القوام
له في كل معضلة مضاء ... مضاء الكف ساعده الحسام
رؤوف قادر يغضي ويعفو ... وإن عظم اجتناء واجترام
تطوف ببيت سؤدده القوافي ... كما قد طاف بالبيت الأنام
وتسجد في مقام علاه شكرا ... ونعم الركن ذلك والمقام
أفارسها إذا ما الحرب أخنت ... على أبطالها ودنا الحمام
وممطرها إذا ما السحب كفت ... وكف أخي الندى أبداً غمام
لك الذكر الجميل بكل قطر ... لك الشرف الأصيل المستدام
لقد جينا البلاد فحيث سرنا ... رأينا أن ملكك لا يرام
فضلت ملوكها شرقاً وغرباً ... وبت لملكها يقظاً ونام
فأنت لكل معلوة مدار ... وأنت لكل مكرمة إمام
جعلت بلاد أندلس إذا ما ... ذكرت تغار مصر والشآم
مكان أنت فيه مكان عز ... وأوطان حللت بها كرام
وهبتك من بنات الفكر بكرا ... لها من حسن لقياك ابتسام
فنزه طرف مجدك في حلاها ... فللمجد الأصيل بها اهتمام

ابن أبي الخصال الغافقي

محمد بن مسعود بن خالصة بن فرج بن مجاهد ابن أبي الخصال الغافقي، الإمام البليغ، المحدث الحجة، يكنى أبا عبد الله. أصله من فرغليط من شقورة، من كورة جيان، وسكن قرطبة وغرناطة.

حاله

قال ابن الزبير عند ذكره: ذو الوزارتين، أبو عبد الله بن أبي الخصال، كان من أهل المعارف الجمة، والإتقان لصناعة الحديث، والمعرفة برجاله، والتقييد لغريبه، وإتقان ضبطه، والمعرفة بالعربية واللغة والأدب، والنسب والتاريخ، متقدماً في ذلك كله. وأما الكتابة والنظم؛ فهو إمامهما المتفق عليه، والمتحاكم فيهما إليه.

لوما ذكره أبو القاسم الملاحي بنحو ذلك قال: لم يكن في عصره مثله، مع دين وفضل وورع.

قال أبو عمرو بن الإمام الإستجي في سمط الجمان، لما ذكره: البحر الذي لا يماتح ولا يشاطر، والغيث الذي لا يساجل ولا يقاطر، والروض الذي لا يفاوح ولا يعاطر، والطود الذي لا يزاحم ولا يخاطر، الذي جمع أشتات المحاسن، على ماء غير ملح ولا آسن؛ وكثرت فواضله، فأمنت المماثل والمحاسن، الذي قصرت البلاغة على محتده، وألقيت أزمة الفصاحة في يده، وتشرفت الخطابة والكتابة باعتزائهما إليه، فنقل كنانتها، وأرسل كمائنها، وأوضح أسرارها ودفاينها، فحسب الماهر التحرير، والجهبذ العلامة البصير إذا أبدع في كلامه، وأينع في روض الإجادة نثاره ونظامه، وطالت قنى الخطية الذبل أقلامه، أن يستنير بأنواره، ويقتضي بعض مناهجه وآثاره وينثر على أثوابه مسك غباره، وليعلم كيف يتفاضل الخبر والإنشاء، ويتلو إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشأ.

وعضة العقور أبو نصر في قلائده. حيث قال، هو وإن كان خامل المنشأ نازله، لم ينزله المجد مناله، ولا فرع للعلاء هضابا، ولا ارتشف للسنا رضابا، فقد تميز بنفسه، وتحيز من أبناء جنسه، وظهر بذاته، وفخر بأدواته.

مشيخته

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير، في الصلة، روى عن الغساني، والصدفي وأبي الحسن بن الباذش، وأبي عمران بن تليد، وأبي بحر الأسدي، وأبي عبد الله النفزي، وجماعة غيرهم.

تواليفه

قال الأستاذ، وأما كتبه وشعره وتواليفه الأدبية، فكل ذلك مشهور، متداول بأيدي الناس، وقل من يعلم بعده، أن يجتمع له مثله، رحمه الله.

من روى عنه

روى عنه ابن بشكوال، وابن حبيش، وابن مضاء وغيرهم، وكل ذلك ذكره في رحاله، وهو أعرف بتقدمه في احتفاله.

شعره

وله شعر كثير. فمن إخوانياته ما خاطب به أبا إسحق بن خفاجة:

هب النسيم هبوب ذي إشفاق ... يذهبن الهوى بجناحه الخفاق
وكأنما صبح الغصون بنشوة ... باحت لها سراير العشاق
وإذا تلاعبت الرياح ببانه ... لعب الغرام بمهجة المشتاق
مه يا نسيم فقد كبرت عن الصبا ... لم يبق من تلك الصبابة باق
إن كنت ذاك فلست ذاك ولا ... أنا قد أذنتك مفارقي بفراق
ولقد عهدت سراك من عدد الهوى ... والموت في نظري وفي استشاق
أيام لو عن السلو لخاطرى ... قربته هدياً إلى أشواق
الهوى إلفي والبطالة مركبي ... والأمن ظلي والشباب رواق
في حيث قسمت المدامة قسمة ... ضيزى لأن السكر من أخلاق
لا ذنب للصهباء أني غاضب ... ولذاك قام السكر باستحقاق
ولقد صددت الكأس فانقبضت ... بها من بعدما انبسطت يمين الساق
وتركت في وسط الندامى خلة ... هامت بها الوسطى من الأعلاق
فاستسرفوني مذكرين وعندهم ... أني أدين اللهو دين نفاق
وحبابها نفث الحباب وربما ... سدكت يد الملسوع منه براق
وكأنه لما توقر من فوقها ... نور تجسم من ندى الأحداق
لو بارح نفح النوى في روضة ... فأثارها وسرى عن الأحداق
ولقد جلوا والله يدرأ كيدهم ... فتأنة الأوصاف والأعراق
أغوى بها إبليس قدماً أدماً ... وهي السر يرتمي في هواها الباق
تالله أصرف نحوها وجد الرضا ... لو شعشعت برضا أبي إسحاق

ومن نسيبه:

وليل عنبرية الأفق ... رويت فيها السرور من طرق
وكست حران فاقتدحت بها ... نارا من الراح بردت حرق
وافت بها عاطلا وقد لبست ... غلالة فصلت من الحدق
فأجابها الدهر من بنيه دجا ... لقيته كالإصباح في نسق
قامت لنا في المقام أوجههم ... وراحهم بالنجوم والشفق
وأطلع البدر من ذرى غصن ... تهفو عليه القلوب كالورق
من عبد شمس بدا سناه ... وهل ذاك النور إلا لذاك الأفق
مد بحمراء من مدامته ... بيضاء كف مسكية العبق

فخلتها وردة منعمة ... تحمل من سوسن على طبق
نشرت في الراح حين نشرتها ... ما غادرت مقلتاه من رمقي
وقال:
يا حبذا ليله لنا سلفت ... أغرت بنفسي الهوى وما عرفت
دارت بظلمائها المدام فكم ... نرجسة من بنفسج قطفت
وقال في مغن زار، بعده أغب وشط المزار.
وافي وقد عظمت علي ذنوبه ... في غيبة قبحت بها آثاره
فمحا إساءته لنا إحسانه ... واستغفرت لذنوبه أوتاره
وقال يعتذر عن استبطاء مكاتبة:
ألم تعلموا والقلب رهن لديكم ... يخبركم عني بمضجره بعدي
فلو قلبتني الحادثات مكانكم ... لأثبتها وفرى واو دلاتها خدي
ألم تعلموا أني وأهلي وواحد ... فدا ولا أرضى بتفدية وحدي
ومن قوله في غرض المدح يخاطب تاشفين بن علي ويذكر الوقعة بكركي، يقول فيها:
الله أعطاك فتحاً غير مشترك ... ورد عزمك عن فوت إلى درك
أرسل عنان جواد أنت راكبه ... واضمم يديك ودعه في يد الملك
حتى يصير إلى الحسني على ثقة ... يهدي سبيلك هاد غير مؤتعك
قد كان بعدك للأعداء مملكة ... حتى استدرت عليهم كورة الفلك
سارت بك الجردا وطار القضا بها ... والحين قد قيد الأعداء في شرك
فما تركت كميا غير منعفر ... ولا تركت نجيعاً غير منسفك
ناموا وما نام موتور عل حنق ... أسدى إذا فرصة من السلك
فصبحتهم جنود الله باطشة ... والصبح من عبرات الفجر في مسك
من كل مبتدر كالنجم منكدر ... تفيض أنفسهم غيظاً من المسك
فطاعنوكم بأرماح وما طعنت ... وضاربوكم بأسياف ولم تحك
تعجل النحر فيهم قبل موسمه ... وقدم الهدى منهم كل ذي نسك
فالطير عاكفة والوحش واقفة ... فد أثقلتها لحوم القوم عن حرك

عدت على كل عاد منهم أسر ... بعثه في حنجر رحب وفي حنك
كلي هيئاً مريئاً واشكري ملكاً ... قرنك أسيافه في كل معترك
فلو تنضدت الهامات إذ نشرت ... بالقاع للغيظان بالنبك
أبرح وطالب بباقي الدهر ماضيه ... فيوم بدر أقامه الفيئ في فدك
وكم مضى لك من يوم بنت له ... في ماقط برماح الحظ مشتبك
بالنقع مرتكم بالموت ملتيم ... بالبيض مشتمل بالشمر محتبك
فحص القباب إلى فحص الصعاب ... إلى أريولة مداسات إلى السكك
وكم على حبر محمود وجارته ... للروم من مرتكل غير مترك
وفيت للصغر حتى قيل قد غدروا ... سموت تطلب نصر الله بالدرك
فأسلمتهم إلى الإسلام غدوتهم ... وأذهب السيف ما بالدن من حنك
يا أيها الملك السامي بهمته ... إلى رضي الله لا تعدم رضى الملك
ما زلت تسمعه بشرى وتطلعه ... أخرى كدر على الأجياد منسلك
بيضت وجه أمير المؤمنين بها ... والأرض من ظلمة الإلحاد في حلك
فاستشعر النصر واهتزت منابره ... بذكر أروع للكفار محتنك
فأخلدك ولمن والاك طاعته ... خلود بر بتقوى الله ممتسك
وافيت والغيث زاخر قد بكا طرباً ... لما ظفرت وكم بلله من الضحك
وتمم الله ما أنشأت من حسن ... بكل منسبك منه ومنتمك
وعن قريب تباهى الأرض من زهير سماها بها غضة الحبك
فعد وقد واعتمد وأحمد وسد وأبد ... وقل وصل واستطل واستول وانتهك
وحسبك الله فرداً لا نظير له ... تغنيك نصرته عن كل مشترك
ومن قوله في غرض الرثاء، يرثي الفقيد أبا الحسن بن مغيث:
الدهر ليس على حر بمؤتمن ... وأي علق تخطته يد الزمن

يأتي العفا على الدنيا وساكنها ... كأن أدبر لم يسكن إلى سكن
يا باكيا فرقة الأحباب عن شحط ... هلا بكيت فراق الروح للبدن
نور تقيد في طين إلى أجل ... وانحاز عنواً وخلى الطين في الكفن
كالطير في شرك يسمو إلى درك ... حتى تخلص من سقم ومن درن
إن لم يكن في رضي الله التقا وهما ... فيا لها صفقة بتت على دغن
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتنقا ... أظنها محرقة كانت على دخن
ورب سار إلى وجه يسر به ... وافي وقد نبت المرعى على الدمن
أتى إلى الله لا سمع ولا بصر ... يدعو إلى الرشد أو يهدي إلى السنن
في كل يوم فراق لا بقاء له ... من صاحب كرم أو سيد قمن
أعيا أبا حسن فقد الذين مضوا ... فمن لنا بالذي أعيا أبا حسن
كأن البقية في قوم قد انقرضوا ... فهاج ما شاء ذاك القرن من شجن

يعد فداً وفي أثوابه رمز من ... كل ذي خلق عمرو وذي فطن
وإن من أوجدتنا كل مفتقد ... حياته لعزيز الفقد والظعن
من للملوك إذا خفت حلومها ... بما يقاوم ذاك الطيش من سكن
ومنها:
يا يونس لا تسر أصبحنا لوحشتنا ... نشكو اغتراباً وما بنا عن الوطن
ويا مطاعا مطيعاً لا عناد له ... في كل أمر على الإسلام مؤتمن
كم خطت كارتجاج البحر مبهمة ... فرجتها بحسام سل من لسن
طود المهابة في الجلا وإن جذبت ... عنانة خلوة هزت ذرى وتر
أكرم به سبباً تلقى الرسول به ... لخمس واردة في الفرض والسنن
ناهيك من منهج سم القصور به ... هوى فمن قدر عال إلى فدن
من كل وادي التقى يسقى الغمام به ... فيستهل شروق الضرع باللبن
تجملت بك في أحسابها مضر ... وأصل مجدك في جرثومة اليمن
من دولة حولها الأنصار حاشدة ... في طامح شامخ الأركان والقنن
من الذين هم رووا وهم نصروا ... من عيسة الدين لا من جذوة الفتن
إن يبد مطلع منهم ومستمع ... فارغب بنفسك عن لحظ وعن أذن
ما بعد منطقه وشي ولا زهر ... ولا لأعلاق ذاك الدر من ثمن
أقول وفينا فضل سودده ... استغفر الله ملء السر والعلن
محمد ومغيث نعم ذا عوضاً ... هما سلالة ذاك العارض الهتن
تقيلا هديه في كل صالحة ... نصر السوابق عن طبع وعن مرن
ما حل حبوته إلا وقد عقدا حباً ... بما اختار من أيد ومن منن
غر الأحبة عند حسن عهدهما ... وإن يونس في الأثواب والجنن
علماً وحلماً وترحيباً وتكرمة ... للزايرين وإغضاء على زكن
يا وافد الغيث أوسع قبره نزلا ... وروماً حول ذاك الديم من ثكن
وطبق الأرض وبلا في شفاعته ... فنعم رايد ذاك الريف واليمن
وأنت يا أرض كوني مرة بأبي ... مثوى كريم ليوم البعث مرتهن
وإن تردت بترب فيك أعظمه ... فكم لها في جنان الخلد من ردن
ومن شعره قوله مخمساً كتب بها، وقد أقام بمراكش يتشوق إلى قرطبة:
بدت لهم بالغور والشمل جامع ... بروق بأعلام العذيب لوامع
فباحت بأسرار الضمير المدامع ... ورب غرام لم تنله المسامع
أذاع بها من فيضها التصويب.
ألا في سبيل الشوق قلب مؤثل ... بركب إذا شاء والبروق تحمل
هو الموت إلا إنني أتحمل ... إذا قلت هذا منهل عز منهل
وراية برق نحوها القلب يجنب.

أبى الله إما كل بعد فثابت ... وإما دنو الدار منهم ففايت
ولا يلفت البين المصمم لافت ... ويا رب حي البارق المتهافت
غراب بتفريق الأحبة ينعب.
خذوا بدمي ذاك الوسيق المضرجا ... وروضاً بغيض العاشقين تأرج
عفى الله عنه قاتلاً ما تحرجا ... تمشي الردى في نشره وتدرجا
وفي كل شيء للمنية مذهب.
سقى الله عهداً قد تقلص ظله ... حيا قطره يحيي الربا مستهله
وعى به شخصاً كريماً أجله ... يصح فؤادي تارة ويعله
ويلمه بالذكر طوراً ويشعب
رماني على قرب بشرخ ذكائه ... فأعشت جفوني نظرة من ذكايه
وغصت بأدنى شعبة من سمايه ... شعابي وجا البحر في غلوئه
فكل قرب ردع خديه يركب
ألم يأته أني ركنت قعوداً ... وأجمعت عن وفز الكلام قعودا
ولم أعتصر للذكر بعدك عودا ... وأزهقني هذا الزمان صعودا
فربع الذي بين الجوانح سبسب.
على تلك من حال دعوت سميعا ... وذكرت روضاً بالعقاب مريعا
وتملأ الشعب المذحجي جميعاً ... وسرباً بأكناف الرصافة ريعا
وأحدق عين بالحمام تقلب
ولم أنس ممشانا إلى القصر ذي النخل ... بحيث تجافي الطود عن دمث سهل
وأشرف لا عن عظم قدر ولا فضل ... ولكنه للملك قام على رجل
يقيه تباريح الشمال ويحجب.
وبيضاء للبيض البهاليل تعتريه ... وتعتز بالبان جلالا وتنتزي
سوى أنها بعد الصنيع المطرز ... كساها البلى والثكل أثواب معوز
يبكي وتبكي للزايرين وتندب.
وكم لك بالزهراء من متردد ... ووقفة متسق المجامع مقصد
يسكن من خفق الجوانح باليد ... ويهتك حجب الناصر بن محمد
ولا هيبة تخشبي هنالك وترهب.
لنعم مقام الخاشع المتنسك ... وكانت في محل العبشمين المملك
متى يورد النفس العزيزة يسفك ... وإن يسم نحو الأبلق الفرد يملك
وأي مرام رامه يتصعب
قصور كان الماء يعشق مبناها ... فطوراً يرى تاجاً بمفرق أعلاها
وطوراً يرى خلخال أسوق سفلاها ... إذا زل وهناً عن ذوايب يهواها
يقول هوى بدراً أو انقض كوكب

أتاها على رغم الجبال الشواهق ... وكل منيف للنجوم مراهق
وكم دفعت في الصدر منه بعانق ... فأودع في أحشائها والمفارق
حساباً بأنفاس الرياح يذرب
هي الخود من قرن إلى قدم حسناً ... تناصف أقصاها جمالا مع الأدنى
ودرح كالأفلاك مبني على مبنى ... توافقن في الإتقان واختلف المعنى
وأسباب هذا الحسن قد تتشعب
فأين الشموس الكالفات بها ليلاً ... وأين الغصون المائسات بها ميلا
وأين الظبا السابحات بها ذيلا ... وأين الثرى رجلا وأين الحصا خيلا
فوا عجبا لو أن من يتعجب
كم احتضنت فيها القيان المزاهرا ... وكم فاوحت فيها الرياض المجامرا
وكم ساهرت فيها الكواكب سامرا ... وكم قد أجاب الطير فيها المزامرا
عظيم من الدنيا شعاع مطنب
كأن لم يكن يقضي بها النهي والأمر ... ويجبي إلى خزائنها البر والبحر
ويسفر مخفوراً بنعمتها الفخر ... ويصبح مختوماً بطينتها الدهر
وأيامه تعزي إليها وتنسب
ومالك عن ذات القسي النواضح ... وناصحة تعزى قديماً لناصح
وذي أثر على الدهر واضح ... يخبر عهد هنالك صالح
ويعمر ذكر الذاهبين ويخرب
تلاقى عليه فيض نهر وجدول ... تصعد من سفل وأقبل من عل
فهذا جنوبي وذلك شمأل ... وما اتفقا إلا على خير منزل
وإلا فإن الفضل منه مجرب
كأنهما في الطيب كانا تنافرا ... فسارا إلى وصل القضاء وسافرا

ولما تلاقى السابقان تناظرا ... فقال ولي الحق مهلاً تظافرا
فكلكما عذب المجاجة طيب
ألم يعلما أن اللجاج هو المقت ... وأر الذي لا يقبل النصف منبت
وما منكما إلا له عندنا وقت ... فلما استبان الحق واتجه السمت
تقشع من نور المودة غيهب.
وإن لها بالعامرية لمظهرا ... ومستشرفاً يلهي العيون ومنظراً
وروضنا على شطي خضارة أخضرا ... وجو سق ملك قد علا وتجبرا
له ترة عند الكواكب تطلب
غيره في عنفوان الموارد ... وأثبته في ملتقى كل وارد
وأبرزه للأريحي المجاهد ... وكل فتى عن حرمة الدين زايد
حفيظته في صدره تتلهب

تقدم عن قصر الخلافة فرسخا ... وأصحر بالأرض الفضاء ليصرخا
فحالته أرض الشرك فيها منوخا ... كذلك من جاس الديار ودوخا
فردعته في القلب تسرى وترهب
أوليك قوم قد مضوا وتصدعوا ... قضوا ما قضوا من أمرهم ثم ودعوا
فهل لهم ركز يحس ويسمع ... تأمل فهذا ظاهر الأرض بلقع
إلفا أنهم في بطنها حيث غيب.
ألست ترى أن المقام على شفا ... وأن بياض الصبح ليس بذي خفا
وكم رسم دار للأجنة قد عفا ... وكأن حديثاً للوفود معرفاً
فأصبح وحش المنتدى يتجنب
ولله في الدارات ذات المصانع ... أخلاء صدق كالنجوم الطوالع
أشيع بينهم كل أبيض ناصع ... وأرجع حتى لست يوماً براجع
فيا ليتني في قسمتي أتقيب
أقرطبة لم يثنني عنك سلوان ... ولا بمثل إخواني بمغناك إخوان
وإني إذا لم أسق ماءك ظمآن ... ولكن عداني عنك أمر له شان
وموطني آثار تعد وتكتب
لك الحق والفضل الذي ليس يدفع ... وأنت لشمس الدين والعلم مطلع
ولولاك كان العلم يطوى ويرفع ... وكل التقى والهدى والخير أجمع
إليك تناهى والحسود معذب
ألم تك خصت باختيار الخلايف ... ودانت لهم فيها ملوك الطوايف
وعض ثقاف الملك كل مخالف ... بكل حسام مرهف الحد راعف
به تحقن الآجال طوراً وتسكب
إلى ملكها انقاد الملوك وسلموا ... وكتبتها ندا الوفود ويمموا
وفيها استفادوا شرحهم وتعلموا ... وعاذوا بها من دهر وتحرموا
فنكب عنهم صرفه المتحسب
علوت فما في الحسن فوقك مرتقا ... هواؤك مختار وتربك منتقا
وجسرك للدنيا وللدنيا وللدين ملتقى ... وبيتك مربوع القواعد بالتقا
إلى فضله لأكباب تنضي وتضرب
تولى خيار التابعين بقاءه ... وخطوا بأطراف العوالي فناءه
ومدوا طويلا صيته وثناء ... فلا زال مخلوع عليه سناه
ولا زال سعي الكايدين يخيب
وبالغ فيه كل أروع أصيد ... طويل المعالي والمكارم واليد
وشادوا وجادوا سيداً بعد سيد ... فبادوا جميعاً عن صنيع مخلد
يقوم عليه الثناء ويخطب

مصابيحه مثل النجوم الشوابك ... تمزق أثواب النجوم الحوالك
وتحفظه من كل لاه وسالك ... أجاد تنقض انقضاض النيازك
فإبشارهم بالطبطبية تنهب
أجدك لم تشهد بها ليلة القدر ... وقد جاش بر الناس منه إلى بحر
وقد أسرجت فيه جبال من الزهر ... فلو أن ذلك النور يقبس من فجر
لأوشك نور الفجر يفني ونضب
كأن للثرياوات أطواد من نرجس ... ذوايبه تهفو بأدنى تنفس
وطيب دخان الند من كل معطس ... وأنفاسه في كل جسم ملبس
وأذياله فوق الكواكب تسحب
إلى أن تبدت راية الفجر تزحف ... وقد قضى الذي لا يسوف
تولوا وأزهار المصابيح تقطف ... وأبصارها صوناً تغض وتطرف
كما تنصل الأرماح ثم تركب

سلام على غيابها وحضورها ... سلام على أوطانها وقصورها
سلام على صحرايها وقبورها ... ولا زال سور الله من دون سورها
فحسن دفاع الله أحمى وأرهب
وفي ظهوها المعشون كل مرفع ... وفي بطنها الممشوق كل مشفع
متى تأته شكوى الظلامة ترفع ... وكل بعيد المستغاث مدفع
من الله في تلك المواطن يقرب
وكم كربة ملئ الجوانح والقلب ... طرقت وقد نام المواسون من صحب
بروعتها قبر الولى لي رهب ... وناديت في الترب المقدس يا رب
فأبت بما يهوى الفؤاد ويرغب
فيا صحبي حان قبلك مصرعي ... وكنت على عهد الوفا والرضا معي
فحط بضاحي ذلك السرى مضجعي ... وذرني فجار القوم غير مروع
فضدهم للجار أهل ومرحب
رعى الله من يرعى العهود علىالنوى ... ويظهر بالقول المحبر ما نوى
ولبيته من مستحكم الود والهوى ... يرى كل واد غير واديه مجتوى
وأهدي سبيله الذي يتجنب
كتابته

وكتابة ذي الوزارتين رحمه الله، كالشمس شهرة، والبحر والقطر كثرة؛ ونحن نثبت له شيئاً من ذلك ليلاً يخلو هذا الكتاب من شيء من بيانه. كتب يرجع الوزير أبا بكر بن عبد العزيز، من رسالة، كتب بها إليه مع حاج يضرب القرعة: أطال الله بقاء وليي، وإمامي، الذي له إكباري وإعظامي، وفي سلكه اتسامى وانتظامي، وإلى ملكه انتسابي واعتزابي، وبوده افتخاري وانترابي، للفضايل مجيباً ومبدياً، وللمحامد مشتملا ومرتدياً، وبالغرايب متحفاً ومهدياً،

ولا زال الرخاء وأزل، وجد من المصافاة وهزل، وسحت من المراعاة وزل. وصل كتابه صحبة عراف اليمامة، وفخر نجد وتهامه، يقرظه ويزكيه، ويصفه بالخب يفسره ويجليه، والخفي يظهره ويبديه، ولعله رائد، لابن أبي صايد، أو هاد للمسيح الدجال قايد. أشهد شهادة إنصاف؛ أن عنده لعضباً صاف، ولو كان هناك ناظر صادق طاف، ولله خطايا الألطاف، لقلت هو باد غير خاف، من بين كل ناعل وحاف. وسأخبرك أيدك الله، بما اتفق، وكيف طار ونعق، وتوسد الكرامة، وارتفق، طرق له وصفك ونعتك، وثقفه بريك ونحتك، ورفعه للعيون جدك وبختك، وامتدت نحوه النواظر، واستشرفه الغايب والحاضر، وتسابق إليه النابه والخامل، وازدحم عليه العاطل والعامل. هذا يلتمس مزيداً، وذاك يبتغي حظاً جديداً، وهذا يطلب تقليداً، وذلك يسل إلى مغاليقه إقليداً. فكلما حزب، وغل وجلب، حلب واستدر، وتلقاه وإن ساءه الغيب بما سر. وكنت واتغت جملة من الأعيان، ووافقت ثلة من جلة الإخوان، على تمشية أمره، وتوشية ذكره؛ فلما صدقت تلك الفرقة، واستوت بهم تلك الفرقة، أحضرناه للسبار، وأقعدناه للنقد والاختيار، وأردنا أن نقف على جلايا تلك الأخبار، فأحضرنا طحناً ونطعاً، وسرينا عنه من الوحشة قطعاً، وقلنا له خذ هفوك، ولا توردنا إلا صفوك، ولا تصانعنا في الكريهة التي نراها، والحادثة تستفظع ذكراها؛ فما عندنا جهل، وما منا إلا محتنك كهل، لا يتكاده حزن، ولا يستخفه سهل، فسكن جايش فوره، وضرب بلحيته على زوره، ثم صدفينا النظر وصوب، واستهل صارخاً وثوب وتحرج من الكذب وتحوب، وقال لست للعشرة خابطاً، ولا للطرف غامضاً، ولا عن الصدق إذا صدع حايداً، ولا للغدر ممن وقع منه ذايداً، ولا بمعجزات النبوة لاعباً، ولا لصريح الجد مداعياً، ولا تطيبني مسألة ولا حلوان، ولا تستفزني نضايد كثيرة ولا ألوان. وإنما هو رسم وخط، ورفع وحط، ونحس وسعد، ونقد ووعد، ويوم وغد.

فقلنا له الآن صحت الوفادة وأينعت الإرادة. ثم نظر إلينا نظر المستقل واجتذب النطع اجتذاب المدل، ونثل الطجن وهاله، وأداره حتى استدار هاله، ثم قال يا أيها الملأ هذا المبتدأ، فأيكم يبدأ. فرمقني القوم بأبصارهم، وفغروا وكبروا، وليتهم عند ذلك صفروا. فقلت يا قوم قد عضضت على ناجذي حلماً، وقتلت شأني كله علماً، وعقدت بيني وبين غد سلماً، فكيف أستكشف عما أعرف، وأسبقهم عما لا يستبهم. على الرحمن توكلت، وعلى الشيطان تركلت، ومن كسبي أكلت، وفي مبرك السلامة بركت، وجسيمات الأمور تركتني وتركت، والنفس المطمئنة رجوت، ولعلني قد نجوت، وأصبت فيما نحوت. فلحظتني عند هذه المقالة عينه، وطواني صدقه ومينه. ثم صار القوم دوني أنيجية، وأعد له كل تورية وتعمية. فقال قايل منهم، نعالوا نشترك في ضمير، ونرمه بهذا الطاغية ابن رذمير ففي كل قلب منه ندب كبير، والسؤال عنه دين وأدب، فإن أصابه استرحنا من النصب والشخوص، وحرنا من العموم إلى الخصوص، وإن أخطأه فهو لما سواه أخطأ، ولما يدعيه ويريده منه أبطأ. فقالوا نعم ما عرضت، وأحسن بما رويت وفرضت. فلما رأيناه يثقل التعريض، ويحكم التقرير والتعويض، قلنا له حقق ضميرك كل التحقيق، وضع مسبحتك في الدقيق. فابتدر ما أمر وحسر عن ذراعه وشمر، ومرت أصبعه في خطه مر الذر المتهالك، ووقعت وقع القطر المتدارك، لا تمس الطحن إلا تحليلا، وغمزاً كالوهم قليلا فطوراً يستقيم سبيلا، وتارة يستدير إكليلا، وآونة يأتي بالسماء ونجومها قبيلا. فكان هنالك لنعش من بنات، وللثريا من إخوات، وطير قابضاتن، وصافات وأسراب ناشرات خافقات. فلما استوفى عدده، وبلغ أمده، وختم طرائقه وقدده، وأعطى الأصول وفروعها، وتدبر تفاريقها وجموعها. فجمع وتقبض، وفتر ثم انتفض، وصعد ذهنه وتسافه، وأخذ الطحن فسافه، وزفر وشهق، وعشر ونهق، وألصق بظهره حشاه، وكتم الربو ثم أفشاه، وقال هذا الذي كنت أخشاه، عميتم الأثر، وكتمتم حقيقة الخبر، وعثرتم خاطي فيما عثر، ونثرتم نظام الحدس فما انتثر.

سألتم عن روح شارد، وشيطان مارد، وصادر مع اللحظات وارد. لا وطن داراً. ولا يأوي قراراً ولا يطعم النوم إلا غراراً. نعم أمره عندي مستقر. هو زنديق مستتر، وشهاب من شهب الكفر مستمر. ثم رجع البصر واختصر. وعاد إلى الحساب يتقراه، والصواب يتحراه. وتتبع أديم الطحن ففراه، وقال أعوذ بالله من شر ما أراه. إلى كم أرى في غلاء وبلاء؛ كأني لست ذا أمرار وأحلاء، تالله لو كانت قرعة رفعة وعلا؛ ما غاب عني اللحياني ذو السبلة، ولواجهنا البياض ذو الغرة المستقلة، مواجهة حسان لجبله. النحس على هذا الروح قد رتب؛ وكتب عليه من الشقاء ما كتب، وأخرج النصرة الداخلة من العتب. ثم أشار إلى الحمرة، وكأنما وضع يده على جمرة، وقال كوسج نعي، وسناط الوجه شقي، وثقاف وطريق، وجماعة وتفريق، وقبض خارج، ومنكوس مارج. ثم وضع عمامته، ولولب هامته، وأمال وجهه فجراً طلقاً، ثم عرضه مجناً مطرقاً، وعقد أنامله عضا، وأدمى صدره دعاً ورضاً، وقطع بصره لحاً وغضاً، وتكفأ وتقلع وأدلع لسانه فاندلع. فقلنا شر تأبطه، أو شيطان يتخبطه، أو قرين يستنزله ويختله أو رؤى في الذرة والغارب يفتله. ثم تجاحظ وتحاذر، وتضاءل وتنازر، وقال، والذي أحيا عزر، وأخرج إبراهيم من آزر، وملك عنان الريح وأذعن له كل شيء بالسجود والتسبيح، إنه لمن عباد المسيح. هيهات هيهات، لا أضعضع بظن، ولا يقعقع لي بشن، ولا أنازع من هذه الفنون في فن. قد ركبت أثباج البحار، وقطعت نياط المفاوز والقفار. وشافهني الحرم والبيت، وصافحني الحجر الكميت، وأحرمت ولبيت، وطفت ووفيت، ورزت المصطفى صلى الله عليه وسلم وتحفيت. ثم ملت على عدن، وانحدرت عن اليمن، واستسقيت كل راعدة، وأتيت كل قاعدة؛ ورأيت صاحب الجمل قس بن ساعدة، وردت عكاظ، وصدقت الحفاظ، وقدت العصية بنسع، ومسحت الشامات بأخمس وتسع، ووقفت حيث وقف الحكمان، وشهدت زحف التركمان، وكيف تصاوات القروم، وغلبت الروم، وهزم المدبر المقبل، واكتسحت الجحا الإبل. فقلنا لله أنت، لقد جليت عن نفسك، وأربى يومك على أمسك، ولقد صدق مطريك، ووفت صحيفة تزكيك، وما كانت فراستنا لتخيب فيك.

فماذا تستقري من اللوح، وترى في ذلك الروح، بعيشك ألاما أمتعتنا بالإفشاء والبوح. فرجع في البحث أدراجه، وطالع كواكبه وأبراجه، وظل على مادة الطحن، يرقم ويرمق، ويفتق ويرتق. ثم جعل يتبسم، وقال أحلف بالله وأقسم، لقد استقاما النسم، وإنه لكما أرسم وأسم، وإني لا أجده إلا لاغباً مبهوراً، ومنكوداً مقهوراً. ولن يلبث إلا شهوراً، قد أفل طالع جده، وفل حده وأتى عليه نقي خده، وصي لم يملك أبوه وملك جده، فقلنا صرحت وأوضحت، وشهرت هذا المستور وفصحت وإن ساعدك قدر، وكان لك عن هذا الورود صدر، فحظك مبتدر؛ وخطك صاف لا يشوبه كدر. فقال هذا أمر قد آن أو كان، وسيأتيكم الخبر الآن. فانفصلنا وأصغينا الآذان، وجعلنا نتلقى الركبا، فلم يرعنا إلا النعمى الناجمة، والبشرى الهاجمة بما بان، فأدهنا في شأنه، ولم يكن يعاوده خوف طغيانه، فإذا الخبر لم يخط صماخه، وكأنما كان عوداً وافي مناخه، أو طايراً أم أفراخه. فلم ينشب أن أقبل يصمد نحونا أي صمد، ويتعرضنا على عمد، تعرض الجوزاء للنجوم؛ وينقض انقضاض نيازك النجوم، وقال ألم يأن أن تدينوا لي بالإكبار، وتعلموا أني من الجهابذة الكبار، فقلنا منك الإسجاح، فقد ملكت ومنك ولك النجاح، أية سلكت. فأطرق زهواً، وأعرض عنا لهواً، وقال اعلموا أن القرعة لو طوت أسرارها، ومنعتني أخبارها، لمزقت صدراها، وذروت غبارها، ولكان لي عنها أوسع منتدح، وأنجد زناد يقدح، أين أنتم عن رصدي الأحلاك، وعلمي بالأفلاك، أنا في مرج الموج، وأوج الأوج، والمنفرد بعلم الفرد والزوج، ومسترط السرطان، ومستدير الدبران، وبايع المشتري بالميزان، والقابض بيوم الحساب والعمل، على روق الثور وذنب الحمل، أعقد نصل العقرب، وأقيد الأبعد والأقرب، لصيد أوابدها بالدقايق الدرج، حتى اضطر سارحها إلى الحرج، وأصبحها في أضيق منعرج، أنا

استذكرت بالأنبار فرحة الإقبال وترحة الإدبار، وطالعت إقليدس، فاستنبطته، وصارعت المجسطي فجسطنته، وارتمطت إلى الأرتماطيق، وأطقت الألوطيق، ولحظت التحليل بحل ما عقده، وانتضيته ما مطل به الجهابذة، فنفذه. وعاينت زحل، حين استقل على بعيره ورحل، وضايقته في ساحته، وحصرته في مساحته، وحضرت قرانه، وشهدت تقدمه ومرانه، وشاهدته شفراً بشفر، وناجاني برقاً يعد في الكفر، وتخريبه لملك الصفر، وتغريقه لبلاد اللطينة وإنجاز الوعد في فتح قسطينة. أنا عقدت رشا الدلو، وذروت غبار الحوت للغلو. أنا اقتدحت سقط الجوزهر، فلاح بعد خفايه وظهر. أنا استشرت الهلال من مكامن سره، وأخذت عليه ثنايا سفره، وقددت قلامته من ظفره، ودللت طير الصاير على شجره، فجنيت المر من ثمره، أنا طرقت الزهرة في خدرها، صافحتها من الفكرة بيد لم تدرها. أنا أذكيت على ذكاء فظلت تلتهب. وأحرزتها من الوهم شطنا، أجذبها به فتنجذب. أنا أنعي للمعتبرين حياتها، فيشبهون الحسنة، ويتحرون أوقاتها، حتى تنتشر بعد الطي حياتها، وتستقيل من العثار آياتها.

أنا انتضيت للشباب شرخاً، واضرمت للمريخ عقاراً ومرخاً، حتى أتغنى بملاحم حروبه، وحوادث طلوعه وغروبه، وتلمظه إلى النجيع، وولوغه في مهجة البطل السجيع. أنا أبري من اللمم، وأشفي من الصمم، وأنقل العطس إلى الشمم فقلنا أما الأولى، فقد سلمنا لك جميعها، وأما هذه الثلاثة فلن تستطيعها. قال فلم تعجزون ولا تستخزون. فقلنا من كان له علاج فبنفسه يبدأ، ونغب بغيره. ولسنا نريدك، ولكن تهتز يدك. قال أما من بينهم روى. وأقي في روعه ما ألقى في روعي، فمثله كالصارم، حسنه في فرنده، لا غمده، وجماله في حده لا في خده، والمرء كما قيل بأصغريه، لا بمنخريه، والشأن في الحيزوم، لا في الخيشوم، وفي الذكرين، لا في الأنثيين، وبعد فهو كلام ظاهره إجمال، وباطنه احتمال، وسأنبئكم بغزارة سيله، وفجر ليله. أما الأفطس فيدلي الضغنة، وتيزوج في آل جفنه. فإن الله أتم، جاء الولد أتم، وإن نام عرق خاله، بقي الولد بحاله. وأما الأصم، فيخرج عن الغلام، وبلا قال، ويطلب في بني السميعة بركة الإسمية والفال، فإن الله أراد، ظفر بالمراد، وجاء ابنه أسمع من قراد. فأحس من بعض الحاضرين تمريضاً، وعاين طرفاً غضيضاً، فتعكر وتشذر، وطوف وحذر، وقال صاحب الشريعة، سماهم بني السميعة، قوموا يا بني اللكيعة، فقد قطعتم رزقي، وآذيتم طرقي، وأذللتم ضربي وطرقي، وسددتم طوقي، وأخذتم على أفقي غربي وشرقي، ذروني للتي هي للبلية تجني، ثم الوجد يعني، لو شرب نواديه إثر تجني. ثم نجا بعزمته سميلاً، وأرسل بنات نعش ذيلا، وقد أفاد بما استصحب من ميامنك ليلاً كذبني أيدك الله عند نواه ولم يطلعني طلع ما نواه؛ وما ذاك إلا لمطمع لواه، ومغنم هواه فرفعت لي بعد وداعه نجوه، ورمتني بشخصه فجوة فقلت ما أراك إلا غائل، أوثت عنك الحبائل. فسراك سرى قين، وحديثك مين، ألم تعبر دجيلا، ويممت سهيلا. فقال طربت إلى الأصفية الصغار، وشاقني الشوق بين الطواغيت والأصفار. فقلت له هلم إلى خط نعيده، وحظ نستفيد. فقال لولا أن تقولوا الساعة متى، وتطالبوني بإجياء الموتي، لما أجمعت إلى الغرب غروباً، ولأريتكم من الحذق ضروباً. ثم قال إن لي بالحضرة أفراخاً، وأما استصرخت عليها استصراخاً، وانسلخت منها انسلاخاً، وأعيا على أمره، فلم أعلم له ظعناً ولا مناخاً. فلبثت كذلك أياماً، قد اعتم علي أمره اعتياماً، ولم أعرف له إنجاداً ولا اهتماماً، فإذا به وقد اضمرت عنه بأساً، ولم أطمع فيه رأساً، قد أشب لي شباباً، ولمعت صلعته شهاباً، تكتنفه صرة، وبيمناه قوصرة. وتوود يسراه جرة. فقلت له قاتلك الله. ما أشد فقدانك، إلا فقدتك، وما أذكر وجداتك إلا وجدتك أين أفراخك، والأم التي جنبها استصراخك. فقال الصعلوك، لو أعلم مذاهبه، تحرم مناهبه، وتحدم مراهبه. ذرني وعلاجي، أحاجي وأداجي، وأعاين وأناجي، وأتقلب في بركة دعاء الباجي. فقلت له مالك وللميت، ورحم الله من سميت. قال، لما أذن الله فالتأمت الشيمة، وتمزقت عني المشيمة، هممت بالسرق ولففت في الخرق، وفارقت من الضيق منتداه، وأفلتتني يداه؛

فحنكني السعد بتمر المدينة، وسقاني من ماء البلدة الأمينة، وعوذني بدعوات متينة، فها أنا كما ترى أتهادى واجتذب وأستحلي وأستعذب. فقلنا لعمرك إنه لفضل عميم، لولا الصميم، وإنها لمنقبة؛ لولا العقبة وأثرة ملتمسة، لولا العطسة. فقال دعنا من زخاريفك، وأغضض من عنان تصاريفك. البازل لا يكون إلا ذميما، والليث لا يوجد إلا شميما ثم قام وحمل، وابتدر وارتجل:

عيشنا كله خدع ... فاترك اللوم عنك ودع

أنا كالليث والليوث لأرسالها ترع

ولها الأوجه السيمة ... من يلقها يرع

أي حسن لمازن ... بيد الدل يخترع

أنا كالسيف حده ... لا يبالي بما وقع

إنما الحسن للمهاة وللظبي يا لكع

فقلت تباً لك ساير اليوم، إنك لتريش وتبري، وتقد وتفري، وتحاسن وتقابح، وتارش وتنابح، وتحب وتتأمل، وتحسن وتغلغل وتشاعر وتراجز، وتناطح وتناجز. وأنت على هذا كله مصر، ما جزاؤك إلا ريح فيها صر، فما هو إلا أن غفلت عنه لمحة طرف، أو نفحة عرف، ثم التفت، وإذا به قد أفلس، وكأنما كان رقاً خلس، ولم أدر أقام أو جلس.

ومحاسنه القطر الذي لا يعد، والأمر الذي يأخذه الحد. وكفى بهذه الرسالة دليلا على جلالة مقداره، وتدفق بحاره وفخازه، لما اشتملت عليه من بلاغة وبيان، وبساط حال أنت على خبره بعيان، وعلوم ذات افتنان، خلد الله عليه الرحمة، وضاعف له المنة والنعمة.

مولده: بأوايل ربيع الثاني عام خمس وستين وأربع ماية.

وفاته

من خط الحافظ المحدث أبي القاسم بن بشكوال رحمه الله. كان ممن أصيب أيام الهرج بقرطبة، فعظم المصاب به، الشيخ الأجل، ذو الوزارتين، السيد الكامل الشهير الأثير، الأديب اللغوي السري الكاتب البليغ، معجزة زمانه وسابق أقرانه، ذو المحاسن الجمة، الجليلة الباهرة، والأدوات الرفيعة الزكية، الطاهرة الكاملة، المجمع على تناهي نباهته، وحمد خصاله وفصاحته؛ من لا يشق غباره، ولا تلحق آثاره، معجزة زمانه في صناعة النثر النظم، أبو عبد الله بن أبي الخصال رحمه الله تعالى ورضي عنه ونضر وجهه. ألفى مقتولا قرب باب داره بالمدينة، وقد سلب ما كان عليه، بعد نهب داره، واستيصال حاله، وذهاب ماله. وذلك يوم السبت الثاني عشر من شهر ذي الحجة من سنة أربعين وخمسماية. فاحتمل إلى الربض الشرقي بحومة الدرب، فغسل هنالك وكفن، ودفن بمقبرة ابن عباس عصر يوم الأحد بعده، ونعى إلى الناس وهم مشغولون بما كانوا بسبيله من الفتنة. فكثر التفجع لفقده، والتأسف على مصاب مثله، وأجمعوا على أنه كان آخر رجال الأندلس علماً وحلما، وفهماً ومعرفة. وذكاء وحكمة ويقظة، وجلالة ونباهة، وتفنناً في العلوم. وكان له رحمه الله اهتمام بها، وتقدم في معرفتها وإتقانها. وكان رحمه الله، صاحب لغة وتاريخ وحديث، وخبر وسير، ومعرفة برجال الحديث، مضطلعا بها، ومعرفة بوقائع العرب وأيام الناس، وبالنثر والنظم. وكان جزل القول، عذب اللفظ، حلو الكلام عذب الفكاهة فصيح اللسان، بارع الخط حسنه ومتقنه. كان في ذلك كله واحد عصره. ونسيج وحده، يسلم إليه في ذلك كله، مع جمال منظره، وحسن خلقه، وكرم

فعاله، ومشاركته لإخوانه. وكان مع ذلك كله جميل التواضع، حسن المعاشرة لأهل العلم مسارعاً لمهماتهم، نهاضاً بتكاليفهم، حافظاً لعهدهم، مكرماً لنبهائهم، واسع الصدر، حسن المجالسة والمحادثة، كثير المذاكرة، جم الإفادة. له تصانيف جليلة نبيهة، ظهر فيها علمه وفهمه، أخذها الناس عنه مع ساير ما كان يحمله ويتقنه، عن أشياخه الذين أخذ عنهم، وسمع منهم، وقرأ عليهم.

وقال غيره: قتل بدرب الفرعوني بقرب رحبه أبان، بداخل مدينة قرطبة، قرب باب عبد الجبار يوم دخلها النصارى مع أميرهم ملك طليطلة، يوم قيام ابن حمدين، واقتتاله مع يحيى بن علي بن غانية المسوفي الملثم المرابطي يوم الأحد لثلاث عشرة مضت من ذي الحجة عام أربعين وخمسمائة. قتله بربر المصامدة رجالة أهل دولة اللثام لحسن ملبسه، ولم يعرفوه، وقتلوا معه ابن أخته عبد الله بن عبد العزيز بن مسعود، وكان أنكحه إبنته، فقتلا معا. وكان محمد خيرة الشيوخ، وعبد الله خيرة الأحداث، رحمهما الله تعالى.

محمد بن مفضل بن مهيب اللخمي

يكنى أبا بكر من أهل شلب من العليا.

حاله

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير، كان منقبضاً عن الناس، أديباً، شاعرا، خمس عشرينيات الفازازي، رحمه الله تعالى. وذكره صاحب الذيل. وقال لي شيخنا أبو البركات، وهو جده، أبو أبيه، ما معناه: كان شريفاً عالي الهمة، عظيم الوقار، ألوفا، صموتا، نحيف الجسم، آدم اللون، خفيف العارض، مقطب الوجه، دايم العبوس، شامخ الأنف، إلا أنه كان رجلا عالما راسخا؛ عظيم النزاهة، حافظا للمروءة، شهير الذكر، خطيباً مصقعاً، مهيباً كشهرته، قديم الرياسة، يعضد حديثه قديمه. واستقر بألمرية، لما تغلب العدو على بلد سلفه. ولما توفي شيخ المشايخ، أبو إسحق بن الحجاج. تنافس الناس من البلدين، وغيرهم، في خطبة إبنته. قال شيخنا أبو البركات؛ ومن خصه نقلت، وكان ابن مهيب واحداً منهم في الإلحاح بالخطبة، متقدماً في حلبتهم، بجيوش الأشعار. ورام غلبته ذوو اليسار، من حيث كان بحمراء جيش الإعسار، فأذلهم بالمقابلة في عقر الدار، فلم يرجعوا من الغنيمة إلا بالفرار. قلت، وجلب في هذا المعنى شعراً كثيراً، ناسب الغرض. ونال من المتغلب على ألمرية، على عهده، حظوة، فاستظهر به تارة على معقل مرشانة وتارة على الرسالة إلى الحضرة الحفصية بتونس. ولما آب من سفره إليها، سعى به لديه بما أوجب أن يحجر عليه التصرف، وسجنه بمنزله. فلما قصد ألمرية الغالب بالله، مستخلصا إياها من يد الرييس أبي عبد الله بن الرميمي ونزل بمدينتها، وحاصر قصبتها، وقع اختيار الحاصر والمحصور على تعيين ابن مهيب، بمحاولة الأمر، وعقد الصلح، رضي بدينه وأمانته، فعقد الصلح بينهما على أن يسلم ابن الرميمي القصبة، ويعان على ركوب البحر بماله وأهله وولده، فتأتى ذلك واكتسب عند الغالب بالله، ما شاء من عزة وتجلة.

وقفني شيخنا أبو البركات على ظهير سلطاني، صدر عن الأمير الغالب بالله، يدل على جلالة قدره نصه:

هذا ظهير كريم، أظهر العناية الحافلة لمستوحيها ومستحقها، وأجراه من الرعاية الكاملة على الحب طرقها. أمر بإحكام أحكامه، والتزام العمل بفصوله وأقسامه، الأمير عبد الله محمد بن يوسف بن نصر، نصر الله أعلامه، وأدام لإقامة قسط العدل أيامه، لوليه العلي المكانة، وصفيه المليء بأثرتي المعرفة والديانة، الحري بما اختصه، أيده الله، من الحفظ لمرتبته السامية والصيانة. للشيخ الفقيه، الجليل، العالم، الأوحد، العلم، الأتقى، الأزهر، الفاضل، الخطيب الأرفع، المحدث الثقة، الراوية، الصالح، السني، الحافظ، الحافل، الماجد، السري، الطاهر، المكرم، المبرور، الكامل،

أبي بكر بن الشيخ الوزير الأجل، الفقيه، الحسيب، الأصيل، الأمجد، المكرم، المبرور، الأفضل، المرحوم، أبي عمرو ابن مهيب، أدام الله عزة جانبه، ووصل بالعلم والعمل أرتقاء مراتبه، أقام به الشواهد على اعتقاده، أنه أخلص أوليائه وداً، وأفضلهم قصداً، وأكرمهم عهداً، حين ظهرت له. أيده الله، آثار آرايه الأصيلة، وبانت في الصلاح والإصلاح، ميامن مناقبه الجميلة، ووجب له من العناية والمزيات، أتم ما توجبه معارفه، وتقتضيه مجادته وزهادته، التي لا يفند في وصفها واصف. وأعلن، بأنه دام عزه، أحق من حفظت عليه، مرتبة صدور العلماء الراسخين في العلم، وأبقيت مزية ما تميز به من التقى والورع الكافلي والحلم، وبرع بصلة العناية بجانبه، لما أهلته إليه معرفته من نف المتعلمين، وإرشاد من يسترشده في مسايل الدين من المسلمين، وأفصح بأنه أولى مخصوص بالتجلة والتوقي، وأجدر منصوص على أن قدره لديه معتمد بالتكريم والتكبير. وأمر، أعلى الله أمره، أن يستمر له، ولزوجه الحرة الأصيلة الزكية، التقية الصالحة، المصونة المكرمة المبرورة، عائشة بنت الشيخ الفقيه الجليل العالم الصالح السني، الزاهد الفاضل، المرحوم المقدس. الأرضي، أبي إسحق بن الحاج، ما اطردت به العادة لهما قديماً وحديثاً، وتضمنه الظهيران الكريمان. المؤرخ أحدهما بالعشر الأواخر لشوال عام خمسة وثلاثين وستماية، من صرف النظر في أعشارهما وزكواتهما إليهما، لضعا ذلك في أحق الوجوه، ويؤديا فيه حق لله تعالى، ما مثلهما علماً وديناً من يؤديه، موكولاً ذلك لله، إلى ما لديهما، من نشر الأمانة، مصروفاً إلى نظرهما الجاري، مع العلم والديانة، وتجديد أحكام ما بأيديهما من الظهاير والأوامر القديمة والحديثة، المتضمنة تسويغ الأملاك، على اختلافها، وتباين أجناسها وأوصافها، لهما ولأعقاب أعقابهما، على التأبيد والتخليد، والمحاشاة من اللوازم، والمعلوز وللغارم، وأن يطرد لشركائهما، وعمرة أملاكهما، ووكلايهما، وحواشيهما، ومن اتصل بهما، جميل العناية، وحفيل الرعاية، وموصول الحماية، الاستمرار الذي يطرد العمل به مدى الأيام، وتتوالى التمشية له، من غير انصرام على الدوام، موفي بذلك، ما يحق لجانب الفقيه العالم، الأوحد الأسنى، أب يبكر، أدام الله عزته، من حظوظ الإجلال، منتهي فيه، إلى أبعد آماد العنايات الشريفة، الفسيحة المجال، مقضي على حق ما انفرد به من العلم، واتصف به من الديانة، اللذين أضفيا عليه ملابس البهاء والجلال. فمن وقف على هذا الظهير الكريم من الولاة والعمال، وساير ولاة الأشغال، وليتلقه بغاية الائتمار والامتثال، إن شاء الله. وكتب في الثاني عشر من ذي الحجة عام ثلاثة وأربعين وستمائة.

مشيخته

أخذ عن أبي العباس أحمد بن منذر الإشبيلي، تلا عليه بإشبيلية، وعلى عباس ابن عطية أبي عمرو. وروى عن أبي محمد عبد الكبير الإشبيلي، وصحب أبا الحسن بن زرقون وتفقه عليه. وانتقل إلى ألمرية. فصحب أبا إسحق البليفيقي وأخذ عنه، وتزوج ابنته. وأجاز له أبو عبد الله بن هشام الشواش وغيره. ثم انتقل آخر عمره إلى سبتة.

شعره

نقلت من خط شيخنا أبي البركات قوله في غرض الوصية:

الليل النوى هل من سبيل إلى فجر ... ويا قلب كم تأسى ويا دمع كم تجري

أبى القلب إلا أن يهيم بحبكم ... وأن تبرحوا إلا القليل عن الفكر

رحلت عنكم لا بقلبي وإنما ... تركت لديكم حين ودعتكم سري

أعود بدهر الوصل من حين هجركم ... ورب وصال مستعاد من الهجر

للعباب نفسي لست أنفق قربكم ... لزهدي فيكم بل حرصت على البر
تقطع أكباد عليكم صبابة ... فاصبر إن الخير أجمع في الصبر
ويا لقلب من لا يصلح الصبر عنهم ... وإن كان خيرا فهو عنهم من الشر
فلولاهم ما كنت أحسب ساعة ... فقدتكم فيها عياناً من العمر
ألا يا أخي فاسمع وصاتي فإنها ... لبتك لعمري من أخ سالم الصدر
يحبك في ذات الإله ويبتغي ... بحبك عند الله مدخر الأجر
لا إنما التوفيق كنت من أهله ... مراعاة حق الله في السر والجهر
بتوجيده في ذاته وصفاته ... وأفعاله أيضاً وفي الندى والأمر
فثابر على القرار والأثر الذي الذي ... يصح عن المختار والسادة الغر
وعد لك الخيرات عما سواها ... وكن بها مستمسكا أبد الدهر
إذا يسلك الشيطان فجاً سوى الذي ... سلكت ولا يلفى سبيلا إلى مكر
وفرق الأجناس حاشى تقيهم ... فقد ظهر الإفساد في البر والبحر
ولا تنسني واذكر أخاك بدعوة ... فإنك منه يا أخي لعلى ذكر
قال شيخنا أبو البركات، ومن شعره، ومن خطه نقلت:
للصالحين إلى الصلاح طريق ... رحبت بهم وعدت عليك تضيق
صرفوا النفوس من الهوى عن صوبها ... فغدت إلى طلب النجاة تتوق
منها بعد أبيات:
يا قرة العين استمع من ناصح ... في صدره قلب عليك شفيق
أنت الشقيق ولادة ولذلك لي ... روح لروحك في الخلوص شقيق
لا تخد عنك ترهات أحدثت ... وخز عبلات للجهول تروق
واعكف على القرآن دهرك واجتمع ... فالشغل عنك لغيره تفريق
واهجر بني الدنيا فإن بهجرهم ... يتضاعف الإيمان والتصديق
والحق بقوم قد عنوا بتجارة ... نفقت لهم يوم القيامة سوق
واحفظ لسانك عن إذاية مسلم ... فسبابه قال الرسول فسوق
لا تبك هم الرزق فهو مقدر ... والعبد طول حياته مرزوق
ولترض بالرحمن رباً حاكماً ... ودع الفضول فمنه ضل فريق
حلوا عقال عقولهم وتحكموا ... إن التحكم بالعقول مروق
ولقد أتتك نصيحتي ولشمسها ... في أفق حبك يا حبيب شروق
فكن القريب مكانه من نفعها ... فمكان سدتها إليك سحيق
واصطد بباري العزم أطيار الرضا ... فأخوك غاية بازه التحقيق
ولتجعل التسبيح شأنك إنه ... في الصعب من شأنه التصفيق
واقنع بعلم الوحي علماً ثم لا ... يذهب بك التشقيق والتوفيق
لا ترض فيه بالدنية ولتمت ... عطشاً إذا لم تسق منه رحيق

ما كل علم يهتدى بحصوله ... منه الركيك نعم ومنه رقيق
كمدارك الأصوات منها طيب ... تسلو النفوس به ومنه نهيق
وعليكم مني تحية من له ... قلب إليكم أجمعه مشوق
وقال، ألفيت بخطه ما نصه، وكان بعض السفهاء قد كتب إلي بيتين من شعروهما:
إليك أبا بكر رفعت وسيلتي ... ومثلك من تلقى إليه الوسائل
غرقت ببحر الذل يوما وليس لي ... بأرضكم إلا اهتمامك ساحل
وأساء المحاولة في دفعها، فصرفته، ولم أقف عليهما، فضرب عليهما، وكتب في ظهرهما:
حللت أبا بكر بموطن عزة ... فأنسيت ما قد كنت فيه من الذل
وأصلك من كبر وكن متكبراً ... وكيف يطيب الفرع من ذلك الأصل
وكتبت إليه صحبة دراهم وجهت بها إليه:
جفوت وما زال الجفا سجية ... لمثلك ما إن زال تبلى بها مثل

وما قلت في أصلي فكذبة فاجر ... رأى الفرع محموداً فعاب على الأصل
وبالإفك ما عثرت لا بحقيقة ... فما الكبر من شأني ولا كنت في ذل
وما زلت والله الحميد مكرماً ... وفي نائبات الدهر للعقد والحل
ولو كنت من يتقى الله لم تكن ... تمد متى تسخط وعند الرضا تحل
أما قلت أني ساحل لك عندما ... غرقت ببحر الذل في زمن المحل
وكيف نسخت المدح بالذم قبل أن ... تبث لي الشكوى وتدلي بما تدل
ولكن لؤم الطبع يحمل أهله ... على الصعب من سب الكرام أو النيل
إن كان بعض الكبر نقصا فإنه ... عليك من الأوغاد يحسب في الفصل
وما الذل إلا ما أتى بك نحونا ... فقيراً من التقوى سليباً من العقل
ومطلوبك الدنيا فخذها خسيسة ... توافي خسيس النفس والقول والفعل
وما الجود إلا ما أصبت مكانه ... ومهما فقدت الأصل لا عار في البخل
ومثلك من يجفي ويقلب خاسئاً ... فلست لإسداء الصنيعة بالأهل
ولكنني عودت نفسي عادة من البذل لم أعدل بها قط عن نذل
فخذها لحاك الله غير مبارك ... لسعيك فيها يا بن خانية النعل
ومثلي من يوذي فيحتمل الأذى ... ولكنه قد يدر الجهل بالجهل
وقد قال من لا شك في قوله ... من الحكما القتل أذهب للقتل
فإن زدتنا زدنا وإن كنت نادماً ... قبلناك أخذاً في أمورك بالعدل
ففي كل شيء لست عنك مقصرا ... بما شئت من قطع وما شئت من وصل
قال الشيخ، قول الهاجي، وأصلك من كبر، معناه التعريض يكون سلف أبي بكر بن مهيب، علوا في أنفسهم وتكبروا، فثاروا بسبب ذلك بطبيرة وجهاتها، ثار منهم عبد الرحمن جد أبي بكر، ثم حسن، ثم عامر أخوه، وإلى هذا أشار أبو بكر بن مهيب بقوله في بعض شعره:
إن لم أكن ملكا فكنت ريساً

وأنشد في الصلة الزبيرية قوله رحمه الله:

أملي من الدنيا المباحة كسرة ... أبقى بها رمقي ودار نابية

قد أضرب الزمان عن سكانها ... فكأنها في القفر دار خالية

ومن شعره في المقطوعات:

ترحل صبري والولوع مقيم ... وصح اشتياقي والسلو سقيم

فيا ليت شعري هل أفوز بعطف ... من زينت خدي ورداً عليه أقوم

ويا جنة قد حيل بينها ... بقلبي من شوقتي إليك جحيم

دخوله غرناطة

قال الشيخ، دخل غرناطة مرتين، أخبرني بذلك الشيخ القاضي أبو الحسن ابن عبيدة، وهو بصير بأخباره، إذ هو من أصحاب سلفه، وممن رافق جده في الكتب عن بعض الأمراء مدة، وفي الخطابة بألمرية أخرى.

توفي بسبتة أو لليلة من جمادة الآخرة عام خمسة وأربعين وستماية.

ابن خطاب الغافقي

محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي

حاله

من صلة ابن الزبير: كان كاتباً بارعاً، شاعراً مجيداً، له مشاركة في أصول الفقه وعلم الكلام، وغير ذلك، مع نباهة وحسن فهم، ذو فضل وتعقل وحسن سمت. وورد على غرناطة، واستعمل في الكتابة السلطانية مدة، وكان معلوم القدر، معظما عند الكافة. ثم إنه رجع إلى مرسية، وقد ساءت أحوالها، فأقام بها مدة، ثم انفصل عنه، وقد اشتدت أحوالها، واستقر بالعدوة بعد مكابدة.

قلت، أخبرني شيخنا أبو الحسن الجياب رحمه الله، قال، كان شكس الأخلاق، متقاطباً، زاهياً بنفسه؛ ابتدأ يوماً كتاباً مصدراً مخطبته، فقال فيه يصف صاحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عفوة العفوة، وتركه لأمر عرض له، فنظر إليه الفقيه عمر اللوشي، وهو كاتب المقام السلطاني، فظن لقصوره أنه وهم، وأراد الصفوة فأصلحه، فلما عاد ونظر إليه مزقه، وكسر الآلة، وقال لا أقيم بموضع بلغ فيه الجهل إلى هذا القدر، وبتسور به الإصلاح، على قلم يطمع بعد في مقامه. وانصرف، واستقر بتلمسان، كاتباً عن سلطانها أبي يحيى يغمراسن بن ريان. وزعموا أن المستنصر أبا عبد الله بن الأمير أبي زكريا، استقدمه على عادته في استدعاء الكتاب المشاهير والعلماء وبعث إليه ألف دينار من الذهب العين، فاعتذر ورد عليه المال، وكانت، أشق ما مر على المستنصر، وظهر له علو شأنه، وبعد همته.

مشيخته

روى عن القاضيين أبي عيسى بن أبي السداد، وأبي بكر محرز، وعن الأستاذ أبي بكر محمد بن محمد المعروف بالقرشي، وقرأ وسمع على هؤلاء ببلده، وأجاز له كتابة أبو الربيع بن سالم وغيره.

شعره

من ذلك قوله:

أقنع بما أوتيته تنل الغنا ... وإذا دهتك ملمة فتصبر

واعلم بأن الرزق مقسوم فلو ... رمنا زيادة ذرة لم تقدر

والله أرحم بالعباد فلا تسل ... أحداً تعش عيش الكرام وتؤجر

وإذا سخطت لبؤس حالك مرة ... ورأيت نفسك قد غوت فلتبصر

وانظر إلى من كان دونك تذكر ... لعظيم نعمته عليك وتشكر

ومما قاله في صباه:

يا دعوة شاك ما قد ... دهاه من لحاظ رشاك

ظبي تصدى للقلوب يصيدها ... من ناظريه في سلاح شاك

ورمى وإن قالوا رنا عن ... فاتر ساج عليه سيم النساك

قد كنت أحذر بطشه لو أنني ... أبصرت منه مخايل الفتاك

أو ما عليه ولا عليه حاكم ... يحمي ثغورك أو يحوط حماك

أو ما لجارك ذمة مرعية ... أبذا يظل دم الغريب طلاك

إني استتمت إلى ظلالك ضلة ... فإذا ظباءك ماضيات ظباك

ما لي أخاطب بانة ما أن تعي ... قولا ولا ترثي لدمعة باك

أكريمة الحيين هل لمتيم ... رحمي لديك فأرتجي رحماك

أصبتني بعد المشيب وليس من ... عذر لمن لم يصبه ثراك

ولا ما جذبت عنائي لوعة ... والله يشهد أنني لولاك

لما دعا داعي هواك أجبته ... من لا يجيب إذا دعت عيناك

أصليتني نار الصدود وإنني ... راض بأن أصلى ولا أسلاك

وأبحت ما منع التشرع من دمي ... بالله من أفتاك قتل فتاك

وتركت قلبي طايراً متخبطا ... شباك ختلك أو بطعن سباك

ومنعت أجفاني لذيذ منامها ... كي لا يتيح لي الكرى لقياك

ولقد عجبت وأنت جد بخيلة ... أن أعرت الشمس بعض حلاك

إني لأيأس من وصلك تارة ... لكن أعلل مطمعي بعلاك

أسماك أنك قد خفضت مكانتي ... هلا خلعت علي من سيماك

إني معناك المتيم فليكن ... حظي لديك مناسباً مغناك

تثني معاطفك الصبا خوطية ... وكذا الصبا فصباك مثل حماك

أبعدتني منها بطعنة رامح ... ألذاك سمتك الورى بسمك

أأموت من عطش وثغرك مورد ... فيه الحياة استودعتها فاك

هلا تني عن حلوة فلعله ... وضعت أداة النفي في اسم لماك

وقال يجيب أبا عبد الله بن خميس رحمه الله، عن قصيدة بعث بها إليه أولها:

رد في حدايق مايها مرتاد ... قد لذ مورود وطاب مراد

زرق الأسنة دون زرق حمامها ... وظباً كما رنت العيون حداد

هذه الأبيات:

نعم المراد لمن غدى يرتاد ... مرعى يرف نباته ومهاد

سالت على العافي جداوله ... كما صالت على العادي بدا ناد

فشددت رحل مصيتي منه ... إلى حيث السيادة تبتنى وتشاد

وركبت ناجية مبارية الصبا ... خضراً فوق خضارة تعتاد

يغتادها سكانها قلب على ... من كان من سكانها استبداد

عجباً لهم أحلامهم عادية ... تمضي عليهم حكمها أعواد

خبر تلمساناً بأنني جيتها ... لما دعاني نحوها الرواد

وعاقتها سمعاً ولم أر حسنها ... لما دعاني نحوها الرواد

وعاقتها سمعاً ولم أر حسنها ... إلا أناساً حدثوا فأجاد

ولرب حسن لا ثواه ناظر ... وبراه لا يخفى عليه فؤاد

ودخلتها فدخلت منها جنة ... سكانها لا تخفى ولا حياد

ورأيت فضلا باهرا ومكارما ... وعلا تغاضر دونها التعداد

أهل الرواية والدراية والندا ... في نورهم أبدا لنا استمداد

فهم إذا سيلوا بحار معارف ... ولدى السكينة والنهى أطواد

درجاتها ينحط عنها غيرهم ... ومن الورى قتر ومنه وهاد

فأجلهم وأحلهم من مهجتي ... بمكانة ما فوقها مزداد

وأود حين أخط أطيب ذكرهم ... لو أن أسود مقلتي مداد

وقال يخاطبه وقد وقف على بعض قصيدة:

رقت حواشي طبعك ابن خميس ... فهفا قريضك بن وهاج رسيسى

ولمثله يصبو الحليم ويمترى ... ما للشروق به وسير العيس

لك في البلاغة والبلاغة بعض ما تحويه من أثر محل رييسى

نظم ونثر لا تباري فيهما ... تمهدت ذاك وذا بعلم الطوس

وقال عند وفاته وربما نسبت لغيره:

رب أنت الحليم فاغفر ذنوبي ... ليس يغفو عن الذنوب سواكا

رب ثبت عند السؤال لساني ... وأقمني على طريق هداكا

رب كن إذا وقفت ذليلا ناكس الرأي استحي أن أراكا

رب من لي والنار قد قربت لي ... وأنا قد أبحت عهد حماكا

رب مالي من عدة لمآلى ... غير أني أعددت صدق رجاكا

رب أقررت أني عبد سوء ... حلمك الجم غره فعصاكا

رب أنت الجواد بالخير دوماً ... لم تزل راحماً فهب لي رضاكا

رب إن لم أكن لفضلك أهلاً ... باجترايي فأنت أهل لذاكا

نثره

ومن نثره ما خاطب به صديقين له بمرسية من مدينة إشبيلية:

كتبت، كتب الله لكما فوزاً بالحسنى، وأجناكما من ثمرات إحسانه أكثر ما يجنى. من إشبيلية، وحالي بحمد الله حسنة، ونفسي بحب قربكما مرهنة، وعلى بما لديكما من السراوة التي جبلتما على فطرتها، وامتزتما في الاجتلاء بغرتها، علم لا يدخله الشك، ونسبتي إلى ودكما الذي لبسته معلماً وتقلدته محرماً، لا يعبر عن معناها إلا بما لا يزال، ولا ينفك. فلنثن عنان القلم عن مداده، ونأخذ في حديث سواه. وصلنا إشبيلية ضحوة يوم الثلاثاء خامس ربيع الآخر، ولقينا الإفانت على ميلين، وفزنا بما ظهر من بشره واعتنايه بقرار الخاطر، وقرة العين، ونزلنا في الأخبية خارج البلد، موضعا يعرف بالقنب، قد تفجر عيونا، وجمع ماؤه وهواؤه من المحاسن فنونا، وعرض علينا النزول في الديار داخل المدينة، فرأينا المقام فيه، أحد الأسباب المسعدة على حفظ الصحة المعينة، ورغبنا عن المدينة لحرها الوهاج، وغبارها العجاج، ومايها الأجاج. ولما ثاب من النشاط البارح، واستقل من المطي الرازح، طفت في خارجها وداخلها، ووقفت على مباينها المشيدة ومنازلها، ورأيت انسياب أراقشها؛ وتقصيت آثار طريانتها وبراقشها فشاهدت من المباني العتيقة، والمنارة الأنيقة، ما يملا أعين النظار، وينفسح فيه مجال الاعتبار. على أين ما رأيتها إلا بعد ما استولى عليها الخسف. وبان عنها الظرف، ونبا عنها الطرف، فلا ترى من مغانيها إلا طللا دارسا، والتلمح من بدايعها إلا محياً عابسا، لكن الرائي إذا قدر وضعها الأول، وركب وهمه من مباينها ما تحلل، وتخيل في ذهنه حسنها وتمثل، تصور حسناً يدعو إلى المجون، ويسلى عن الشجون لولا أنها عرضت لأشمط راهب. لما دان إلا بدن، ولا تقرب بغير قارب وحسبي أن أصفها بما يقيها من القبول، وأقول إنها في البلاد بمنزلة الربيع من الفصول، ولولا أن خاطري مقسم وفكري حده مثلم، لقضيت من الإطناب وطراً، ولم أدع من معاهدها عيناً إلا وصفتها ولا أثراً.
توفي بتلمسان يوم عاشوراء سنة ست وثمانين وستماية.

ابن الصايغ

محمد بن عبد الله بن محمد بن لب الأمي يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن الصايغ، بالصاد المهملة، والغين المعجمة، من أهل ألمرية.

حاله

من خط شيخنا أبي البركات في الكتاب المؤتم على أنباء أبناء الزمن. كان سهلا، سلس القياد، لذيذ العشرة، دمث الأخلاق، ميالا إلى الدعة، نفورا عن النصب، يركن إلى فضل نباهة وذكا، يحاسب بها عند التحصيل والدراسة، والدؤوب على الطلب، من رجل يجري من الألحان على مضمار لطيف، ولم يكن له صوت رخيم، يساوق إنطباعه في التلحين، يخبر ذلك بالأوتار. وحاول من ذلك بيده مع أصحابه، ما لاذ به الظرفاء منهم. واستعمل بدار الأشراف بألمرية، فأحكم تلك الطريقة في أقرب زمان، وجاء زمامه يروق من ذلك العمل شأنه. ثم نهضت به همته إلى أرفع من ذلك، فسار إلى غرناطة، وقرأ بها العربية وغيرها، وانخرط في سلك نبهاء الطلبة لأدنى مدة، ثم رحل إلى بلاد المشرق في حدود العشرين وسبعمائة، فلم يتجاوز القاهرة لموافقة هواها علة..... كان يشكوها، وأخذ في إقراء العربية بها، وعرف بها إلى أن صار يدعي بأبي عبد الله النوي. قال شيخنا المذكور، ورأى في صغره فارة أنثى،

فقال هذه قرينة، فلقب بذلك، وصار هذا اللقب أغلب من إسمه ومعرفته.

وجرى ذكره في التاج بما نصه: لج معرفة لا يغيض، وصاحب فنون يأخذ فيها ويفيض. نشأ ببلده مسشمراً عن ساعد اجتهاده، وشارك في قنن العلم ووهاده، حتى أينع روضه، وفهق حوضه. ثم أخذ في إراحة ذاته، وشام بإرقة لذاته، ثم سار في البطالة سير الجموح، وواصل الغبوق بالصبوح، حتى قضى وطره، وسيم بطره، وركب الفلك، وخاض اللجج الحلك، واستقر بمصر على النعمة العريضة، على شك في قضائه الحجة العريضة، وهو بمدرستها الصالحية، نبيه المكانة، معدود في أهل العلم والديانة.

مشيخته

قرأ بألمرية على المكتب أبي عبد الله الميرقي، وأخذ عن شيخ الجماعة أبي الحسن بن أبي العيش، وقرأ بالحضرة على الخطيب أبي الحسن القيجاطي وغيره. وأخذ بالقاهرة عن الأستاذ أبي حيان، وانتفع به وبجاهه.

شعره

قال شيخنا أبو البركات، وكان أخذ من قرض جيد الشعر بالحظ الوافر. فمن شعره ما نقله إلينا الحاج الحافظ المكتب أبو جعفر بن غصن، حسبما قيده عنه بمصر.

بعد المزار ولوعته أشواق ... حكما بفيض مدامع الأماق
وخفوق نجي النسيم إذا سرى ... أذكى لهيب فؤادي الخفاق
أمعللي ن التواصل في غد ... من ذا الذي لغد فدينك باق
إن الليالي سبق قد أقبلت ... وإذا تولت لم تنل بلحاق
فصفح تمدونه على الحمى سقى الحما ... صوب الغمام الواكف الرقراق
فيه لذي القلب السليم وداده ... قلب سليم يا له من راق
قلب غداة فراقهم فارقته ... لا كان في الأيام يوم فراق
يا سارياً والليل ساج عاكف ... يفتري للعلا بنجايب ونياق
عرج على مثوى النبي محمد ... خير البرية ذي المنخل البراق
ورسول رب العالمين ومن له ... حفظ العهود وصحة الميثاق
الظاهر الآيات قام دليلها ... والطاهر الأخلاق والأعراق
بدر الهدى البادي آياته ... وجبينه كالشمس في الإشراق
الشافع المقبول من عم الورى ... بالجود والإرفاد والإرفاق
والصادق المأمون أكرم مرسل ... سارت رسالته إلى الآفاق
أعلى الكرام نداً وأبسطهم يداً ... قبضت عنان المجد باستحقاق
وأشد خلق الله إقداما إذا ... حمي الوطيس وشمرت عن ساق
أمضاهم والخيل تعثر في القنا ... وتجول سبحاً في الدم المهراق
من صير الأديان ديناً واحدا ... من بعد إشراق مضى ونفاق
وأجحلنا من حرمة الإسلام في ... ظل ظليل وارف الأوراق
لو أن للبدر المنير كماله ... ما ناله كسف ونكس محاق
لو أن للبحرين جود يمينه ... أمن السفين غوايل الإغراق

لو أن للآباء رحمة قلبه ... ذابت نفوسهم من الإشفاق
ذو العلم والخفي المنجلي ... والجاه والشرف القديم الباق
آياته شهب وغر بنانه ... سحب النوال تدر بالأرزاق
فاحت فيوح الأرض وهو غياثها ... وربت ربي الإيمان وهو الشاق
ذو رأفة بالمؤمنين ورحمة ... وهدى وتأديب بحسن سياق
وخصال مجد أفردت بالخصل في ... مرسى الفخار وغاية السباق
ذو المعجزات الغر والآى التي ... كم آية فقدت وهن بواق
ثنت المعارض خيراً لما حكت ... فلق الصباح وكان ذا إفلاق
يقظ الفؤاد سرى وقد هجع ... الورى لمقام صدق فوق ظهر براق
وسما وأملاك السما تحفه ... حتى تجاوزهن سبع طباق
منها:
يا ذا الذي اتصل الرجا بحبله ... وانبت من هذا للورى بطلاق
حبي إليك وسيلتي وذخيرتي ... إني من الأعمال ذو إملاق
وإليك أعملت الرواحل ضمراً ... تختال بين الوخد والأعناق
يحدو بهن من النحيب مردد ... وتقودهن أزمة الأشواق
غرض إليه فوقنا أسهماً ... وهي القسى برين كالأفواق
وألختها بفنايك الرحب الذي ... وسع الورى بالنايل الدقاق
وقوي مؤملك الشفاعة في غد ... وكفى بها هبة من الرزاق
وعليك يا خير الأنام تحية ... تحيي النفوس بنشرها الفتاق
تتأرج الأرجاء من لفحاتها ... أرج الندى بمدحك المصداق
منها:
قسماً بطيب تراب طيبة إنه ... مسك الأنوف وأثمد الأحداق
وأثبار مسجده الذي برحابه ... لمعامل الرحمن أي نفاق
لا جود فيه بأدمع أسلاكها ... منظومة بترايب وتراق
أغدو بتقبيل على حصبايه ... وعلى كرام جدره بعناق

وعليك ذا النورين تسليم له ... نور يلوح بصفحه المهراق
كفواً لنبي وكفوا على جنة ... خيرت له بشهادة وصداق
وعلى أب السبطين من سبق الألى ... سبقوا إلى الإسلام أي سباق
الطاهر الصهر ابن عم المصطفى ... شرف على التعميم والإطلاق
مبدي القضا من وراء حجابها ... ومقتح الأحكام عن إغلاق
يغزو العداة بغلظة فيعيدهم ... بصوارم تفري القفار رقاق
راياته لا شيء من عقيابها ... بمطار يوم وغي ولا بمطاق
وعلى كرام سنة عثرت بهم ... عند النظام ليالي النساق

ما بين أروع ما جد نيرانه ... جنح الظلام تشب للطراق
وأخي حروب صده رشف القنا ... عما قدود مثلهن رقاق
ما غردت شجواً مطوقة وما ... شقت كمام روض عن أطواق
وعلى القرابة والصحابة كلهم ... والتابعين لهم ليوم تلاق

ولما سني الله في الروم الوقعة المبيرة والوقيعة الشهيرة، التي أجلت عن قتل مليكهم معركتها، وانتهت للفتح معركتها وحركتها، وعمت الإسلام بإتعاس فل الكفر بركتها، قدم مع الوفود من أهل بلده، وهنأ أمير المسلمين بفتحه ذلك، وطلوع ولده، فقال:

أمليك أم بدر الدجا الوضاح ... وحسامه أم بارق لماح
أعلى المسالك ما بنته يد التقى ... وعمادها الأعلام والأرماح
وأحق من يدعي خليفة ربه ... ملك خلافته هدى ونجاح
كأمير أندلس وناصرها الذي ... أفنى العداة حسامه السفاح
أسمى الملوك أبو الوليد المرتضى ... وأعز من شرفت به الأمداح
هو دوحة الملك العلي فروعها ... وبراحتيه ترزق الأدواح
وبمحو رسم عداته بلباته ... نطق الكتاب وخطت الألواح
بدر الكمال لو أن بدرا مثله ... لم يبد خشية نوره الإصباح
بحر النوال لو أن بدرا مثله ... لارتاع خشية فيضه الملاح
ولمثله قاد الجياد عدوه ... فخبا له قدح وخاب قداح
أهواه شيطان الهوى في لجة ... إن الهوى بأليفه طماح
طمع الشقي أضله وأذله ... كل المطامع للغبي فصاح
فأبادهم وملوكهم فتح بدا ... وبسعد جدك ربنا فتاح
وقواصل تبري بهن مفاصل ... وصفاح يفري بهن صفاح
لم تفن كلهم سيوف الهند بل ... لسيوف جودك في النفوس جراح
ما زال حي عداك يحسد ميتهم ... ويحث فوتاً عاجلا فيراح
فاقتل كبيرهم واحي صغيرهم ... واسب النسا فيما عليك جناح
تستبيح ما حاط العداة وما حموا ... وحماك يا منصور ليس يباح
يامة الكفران تفنيداً وهل ... لجفون أعمى ينجلي مصباح
وجوان يرتشف الندى فنديمه غربانه ووساده الصفاح
وكذلك المطران جاد رسومه ... قطر المنايا الصارم الطفاح
أروس أم تبيض النعام بمرجنا ... أصنافكم هذي أم الأشباح
ما للمطامير اشتكت من ضيقها ... بالمال والأسرى وهن فساح
جارت بكم أبطالنا فكأنكم ... كشح وجيش المسلمين وشاح
تبا لرومي يهيم براحة ... أيرام عن خيل الإله براح
قصت قوادمكم فما إقدامكم ... ولليل جنح الكفر تغيض جناح

هذا فلا تستعجلوا ببلادكم ... سترون كيف يكون الاستفتاح
قد انشت بطحاؤنا بحطامكم ... ونباتها الريحان والتفاح
تالله ما كنتم بأول عسكر ... أمل النجاح وحينه يجتاح
القس غركم ليهلك نسلكم ... بسيوفنا إن إفكه لصراح
كم ذا يسخركم ويسخر منكم ... غدراً ومكراً إنه لوقاح
منها:

وفوارس نشوا لهب فراس ... طلبوا انتشاو الدما للراح
أربوا على الأسد الهزبر بسالة ... مع أنهم غر الوجوه صباح
خاضوا بحار الحرب يطمو بحرها ... ووطيسها حامي الصلى لفاح
ما هم ببذل نفوسهم ونفيسهم ... عن النوال والنزال سجاح
وإذا هم ذكروا بناد فانتشق ... مسكا تضوع عرفه النفاح
فغدا وراح النصر يقدم جمعهم ... ويحفهم حيث اعتلوا أو راح
سناك مولانا بسعد مقيل ... خلصاء قد عمتهم له أفراح
وبنجلك البدر الذي آفاقه ... ملك وهمالته هدى وصلاح
بدر البدور فلا بدار عليه ... وبذا نارت أربع وبطاح
فلكم عدو أفل بزوغه ... خسفت به الأوجال والأتراح
وهنا ونالك بالأمير تجدد ... كل بحبك نفسه ترتاح
قد جاء بعد العسر يسر شامل ... قد جاء بعد الشدة الإنجاح
فالحمد لله الذي قد خصنا ... ولنا بحمدك بعده إفصاح
وعلى المقام المولوي تحية ... كالزهر إذ تهدى شذاه رياح
ما خط مدحك في الطروس محبر ... ومحيي دجاجر الأصيل صباح
وقال يرثي الخطيب ببلده، الشهير الفاضل، أبا الحسن بن شعيب رحمه الله.
بوادي لقد حملت ما ليس لقواه ... فراق ولي شرق الأرض تقواه
بليت بذا التفريق فاصبر فربما ... بلغت بحسن الصبر ما تمناه
شجا كل نفس فقد أنفس جوهر ... تعد ولاتحصى كرام سجاياه
بكى كلنا حزناً عليه كما بكى ... لفرقته محرابه ومصلاه
فلله خطب جليل لقد رمى ... أجل خطيب بالجلالة مصماه
فلولاكم يغلب تأسينا الأسى ... ولم يشمل الشمل التفجع لولاه
فلم يبق إلا من جفا جفنه الكرى ... ومن جانبت وصل المضاجع جنباه
وفاة لمري وفي فوفي أجره ... وأصفى بإصفاه الإله وصافاه
أبي الحسن العدل الرضا المحسن الذي أتته بأضعاف الزيادة حسناه
خطيب جلا فصل الخطاب بيانه ... وأعدل قاض فاضل في قضاياه
وجسم الهدى الرحب السيل وروحه ... ولفظ العلى الفخ الأصيل ومعناه

مطيع رفيع خاضع متواضع كريم ... حليم طاهر القلب أواه
متى يمشي هوناً ليس إلا لمسجد ... تميد خجلا أرض بها حط نعلاه
تكلمه عرف وذكر وحكمة ... تلذ بها الأسماع ما كان أحلاه
كذا صمته خوف وفكر وخشية ... فما زال يخشى الله والكل يخشاه
يصوم وقد طال النهار مهجراً ... وتبحر بالليل للتغمض عيناه
فكم دارس أحياه من أربع التقا ... وكم غاسق من حندس الليل أحياه
فيا طيبا أصلاً وذكراً وترية ... ومنه استفاد الطيب أطيب رياه
وفي حشرقة تحن ومرتجاً وباطنا ... وأمن سني شمس الضحى من محياه
محياً يروي الناظرين تهللاً ... فتعرفه في الصاحلين بسيماه
بحبك هامت كل نفس منيبة ... كذا من أحب الله حببه الله
فما أنعم الأرض التي بك قدست ... وآثر ذياك الضريح وأنداه
بشراك إنا قد شغلنا بحزننا ... ورضوان بشراه بذلك بشراه
عزاً لأهليه الأهلة أنهم ... لهم يعتري من بعده العز والجاه
نال شعيب في الزمان بدوره ... ولم تكن الشمس المنيرة إلاه
أعزي أولى الإيمان كلا بفقده ... نعم أسنيه بحبه مأواه
سقى الله وسمى الحيا ذلك الثرى ... وغاداه صوب الغاديات ومياه
كما قد سقاه ليلة الدفن ربه ... من الغيث وكاف السحاب وأسخاه
ترضوا عن القاضي الإمام خطيبكم ... فقد رضي الحمن عنه وأرضاه

وصلوا على هادي الأنام نبيكم ... صلاة بها يمحو المسيء خطاياه
عليك سلام الله ما الروض فاح ... إن سرت سحراً ريح الصبا بخزاماه
توفي رحمه الله في رمضان تحقيقاً من سنة خمس على شك وسبع ماية، أخبرني بذلك من يوثق به.
محمد بن عبد الله بن الحاج البضيعة

من أهل مالقة، وتردد كثيراً على الحضرة، مسترفداً ومنشداً، وفي غير ذلك من الأغراض يكنى أبا عبد الله.
حاله وشعره
من الإكليل: شاعر اتخذ النظم بضاعة، وما ترك السعي في مذاهبه ساعة، أجرى في الملا، لا في الخلا، وجعل ذكره دلوه في الدلا، وركض في حبلة النجبا النجايب، ورمى في الخواطي بسهم صايب، فخرج بهرجه ونفق، وارتفد بسببه وارتفق. وهو الآن قد سالمته السنون، وكأنما أمن المنون، من رجل مكفوف الأذى، حسن الحالة إلا إذا، هذا قلت، ثبت هذا والمذكور حي، وقد مات رحمه الله.
ومن شعره:
رجاي في المولى العظيم عظيم ... غنيت به حيث الغنى بمديم
وحسبي الرجا فيمن عليه معولي ... حديث حديث لم يزل وخديم
وما عرفت نفسي سوى باب فضله ... على ثقة أن الكريم كريم

فإن قيل عني مذنب قلي سيد كفيل بغفران الذنوب رحيم
وما اعتصم المملوك إلا بحبله ... فجانبه نعمى لنا ونعيم
رضاه سبيل للنجاة وحبه ... طريق لجنات النعيم قديم
وأنشد يوماً الأمير ثالث الأمراء من بين نصر يهنيه بالملك ويعزيه:
على من تنشر اليوم البنود ... وتحت لواء من ترى الجنود
وقال على هذا الكذا، الذي بين يديك فخجل، وعظم استظراف الحاضرين لذلك.
توفي في كذا وسبعمائة.
محمد بن عبد الله بن فطيس
يكنى أبا عبد الله من أهل مالقة. وقال الأستاذ من بيت فطيس الأليريين.
حاله
قال، طبيب ماهر، وأديب شاعر؛ كان في أيام بني حسون، يخف عليهم، وله فيهم أمدح كثيرة. يذكر أنه دخل يوماً على القاضي أبي مروان بن حسون، بعد انقطاع عن زيارته، فعتبه القاضي، فاعتذر، ثم أنشد:
يا حاملاً من علاه تاجاً ... ومن سنا وجهه سراجا
لو كان رودي عديل ودي ... لكنت من بابك الرتاجا
إ، لم يعرج عليك شخصي ... نفسي وروحي عليك عاجا
وذكره ابن عسكر في كتابه.
ابن الحكيم اللخمي
محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن فتوح ابن محمد بن أيوب ابن محمد بن الحكيم اللخمي ذو الوزارتين، يكنى أبا عبد الله رندي النشأة، إشبيلي الأصل، يرجع بيته، وبيت بين حجاج، وبيت بين عباد، إلى خرثومة واحدة، وانتقل سلفه إلى رندة في دولة بني عباد، ويحيى جد والده هو المعروف بالحكيم لطلبه. وقدم ذو الوزارتين على حضرة غرناطة أيام السلطان أبي عبد الله محمد بن محمد بن نصر، إثر قفوله من الحج في رحلته التي رافق فيها العلامة أبا عبد الله بن رشيد الفهري، فألحقه السلطان بكتابه، وأقام يكتب له في ديوان الإنشاء، إلى أن توفي هذا السلطان، وتقلد الملك بعده ولي عهده أبو عبد الله المخلوع، فقلده الوزارة والكتابة، وأشرك معه في الوزارة، أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الداني. فلما توفي أبو سلطان، أفرده السلطان بالوزارة، ولقبه ذا الوزارتين، وصار صاحب أمره، إلى أن توفي بحضرة غرناطة قتيلا، نفعه الله تعالى. غدوة يوم الفطر، مستهل شوال سنة ثمان وسبعمائة، وذلك لتاريخ خلع سلطانه، وخلافة أخيه أمير المسلمين، أبي الجيوش، مكانه.
حاله

كان رحمه الله تعالى علماً في الفضيلة والسراوة، ومكارم الأخلاق، كريم النفس، واسع الإيثار، متين الحرمة، عالي الهمة، كاتباً بليغاً، أديباً، شاعراً، حسن الخط، يكتب خطوطاً على أنواع، كلها جميلة الانطباع، خطيباً، فصيح القلم، زاكي الشيم، مؤثراً لأهل العلم والأدب، براً بأهل الفضل والحسب، نفقت بمدته للفضائل أسواق، وأشرقت بإمداده للفضائل آفاق. ومن عائد الصلة: كان رحمه الله فريد دهره سماحة، وبشاشة، ولوذعية، وانطباعاً، رقيق الحاشية، نافذ العزمة، مهتزاً للمديح، طلقاً لأمل، كهفاً لغريب، برمكي المائدة، مهلبي الحلوى، ريان من الأدب، مضطلعاً بالرواية، مستكثراً من الفائدة. يقوم على المسائل الفقهية، ويتقدم الناس في باب التحسين والتقبيح، ورفع

راية الحديث والتحديث، نفق بضاعة الطلب، وأحيا معالم الأدب، وأكرم العلم والعلماء، ولم تشغله الساسة عن النظر، ولا عاقه تدبير الملك، عن المالعة والسماع، والإفراط في اقتناء الكتب، حتى ضاقت قصوره عن خزائنها، وأثرت أنديته من ذخائرها. قام له الدهر على رجل، وأخدمه صدور البيوتات، وأعلام الرياسات، وخوطب من البلاد النازحة، وأمل من الآفاق النائية.

رحلته ونباهته

رحل إلى الحجاز الشريف من بلده، على فتاء سنة، أول عام ثلاث وثمانين وستمائة، فحج وزار، وتجول في بلاد المشرق، منتجعاً عوالي الرواية في مظانها، ومنقراً عنها عند مسني شيوخها، وقيد الأناشيد الغريبة، والأبيات المرقصة، وأقام بمكة شرفها الله، من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم، فأخذ بها عن جماعة يأتي ذكرهم في مشيخته. وانصرف إلى المدينة المشرفة، ثم قفل مع الركب الشامي إلى دمشق، ثم كر إلى المغرب، لا يمر بمجلس علم أو تعلم إلا روى أو روى. واحتل رندة حرسها الله أواخر عام خمسة وثمانين وستمائة، وأقام بها عيناً في قرابته، وعلماً في أهله، معظماً عندهم، إلى أن أوقع السلطان بالوزراء من بني حبيب، الوقيعة البرمكية. وورد رندة في أثر ذلك، في شهر جمادة الآخرة من عام ستة وثمانين وستماية فتعرض إليه، ومدحه، وهنأه بقصيدة طويلة، من أوليات شعره، أولها:

ل إلى رج عشيات الوصال ... سبب أم ذاك من ضرب المحال

فلما أنشدها إياه، أعجب به، وبحسن خطه ونصاعة ظرفه، فأثنى عليه، واستدعاه إلى الوقادة على حضرته، فوفد إليها في آخر العام المذكور، فأثبته في خواص دولته، وأحظاه لديه إلى أن رقاه إلى كتابة الإنشاء ببابه. واستمرت حاله، معظم القدر، مخصوصاً بالمزية، إلى أن توفي السلطان، ثاني الملوك من بني نصر، وتقلد الملك بعده، ولي عهده أبو عبد الله، فزاد في إحظائه وتقريبه، وجمع له بين الكتابة والوزارة، ولقبه بذي الوزارتين؛ وأعطاه العلامة، وقلده الأمر، فبعد الصيت وطاب الذكر، إلى أن كان من الأمر ما يأتي به الذكر قريباً إنشاء الله تعالى.

مشيخته

قرا برندة على الشيخ النحوي أبي الحسن علي بن يوسف العبدري السفاح، القرآن العظيم بالروايات السبع. والعربية وغير ذلك. وعلى الخطيب بها أبي القاسم ابن الأيسر، وأخذ عن والده جميع مروياته. واستجاز له في صغره أعلام ذلك الزمان، وأخذ في رحلته عن الجلة من الجملة الذين يضيق عن أمثالهم الحصر.

فمنهم أبو اليمن جار الله بن عساكر، لقيه بالحرم الشريف، وانتفع به، واستكثر من الرواية عنه. ومنهم الشيخ أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم الحراني المعروف بابن هبة الله الحراني. ومنهم الشيخ الشريف أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمر بن معطي بن الإمام الجزائري، جزائر المغرب، نزيل بغداد. ومنهم الشيخ أبو الصفا خليل بن أبي بكر بن محمد المرادي الحنبلي، لقيه بالقاهرة. ومنهم الشيخ رضي الدين القسطميني أبو بكر. ومنهم الشيخ شرف الدين الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي إمام الديار المصرية في الحديث ومؤرخها وحافظها. ومنهم عبد المنعم بن محمد بن يوسف بن أحمد الخيمي شهاب الدين أبو عبد الله نزيل مشهد الحسين بن علي، قرأ عليه قصيدته البائية الفريدة التي أولها:

يا مطلباً ليس لي في غريه أرب ... إليك آل النقصي وانتهى الطلب

ومنها البيت المشهور الذي وقع النزاع فيه:

يا بارقاً بأعالي الرقمتين بدا ... لقد حكيت ولكن فاتك السبب

ومنهم عبد المولى يحيى بن حماد البعلبكي، مولده سنة إحدى عشرة وستمائة. ومنهم محمد بن بكر بن خلف بن أبي القاسم الصفار. ومنهم الشيخ أبو الفضل الأديب جمال الدين بن أبي الخير بن علي بن عبد الله بن رواحة. ومنهم محمد بن يحيى بن عبد الله القرشي جمال الدين أبو صادق، ومن تخريجه الأربعون المروية بالأسانيد المصرية. وسمع الحلبيات من ابن عماد الحراني، والشيخ أبي الفضل عبد الرحيم خطيب الجزيرة، ومولده سنة ثمان وتسعين وخمسمائة. ومنهم الشيخ محمد بن عباس الأشعري تقي الدين الحافظ أبو القاسم. ومنهم الشيخ محمد بن إسماعيل بن عبد الله بن عبد المجيد الأنماطي. ومنهم أبو البدر بن عبد الله ابن أبي الزبير الكاتب المصري. ومنهم الشيخ عبد الرحيم بن عبد المنعم بن خلف التدميري. ومن رؤساء شيوخه؛ الشيخ محيي الدين أبو الفضل. ومنهم زينب بنت الإمام الفضل، وسمعت من أبيها. ومنهم محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد الخراساني، أبو عبد الله موقر الدين، وألبسه خرقة التصوف. ومنهم الشيخ محمد بن يحيى بن هبيرة الشيباني شرف الدين. ومنهم الشيخ شهاب الدين أحمد بن عيسى بن عيسى بن يوسف بن إبراهيم بن إسماعيل السلفي. ومنهم الشيخ علي بن عبد الكريم بن عبد الله الدمشقي، أبو الحسن، ولد سنة سبع وتسعين وخمسماية. ومنهم الشيخ غازي بن أبي الفضل بن عبد الوهاب الجلاوي. ومنهم الشيخ نور الدين علي بن محمد أبي البركات الأنصاري المقرئ بحرم الخليل، سمع من أبي الحسن علي بن شجاع. ومنهم يوسف بن داود بن عيسى بن أيوب الحنفي.

ومنهم الملك الأوحد يعقوب بن الملك الناصر صلاح الدين، وداود بن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب. ومنهم عبد المنعم بن يحيى بن إبراهيم بن علي بن جعفر القرشي الزهري خطيب القدس. ومنهم الشيخ عبد الحفيظ ابن بدران ويدعى علي الدين من أهل بانياس، سمع من ابن صيصري. ومنهم الشيخ علي بن عبد الرحمن بن عبد المنعم المقدسي. ومنهم الشيخ محمد بن محمد بن سالم ابن يوسف بن اسلم القرشي، جمال الدين.

ومنهم عبد الواسع بن عبد الكافي شمس الدين. ومنهم الشيخ أحمد بن أحمد الزجاجي البغدادي الغمام تقي الدين.

ومنهم عبد الجميل بن أحمد ين الزجاج. ومنهم فاطمة بنت إبراهيم بن محمد بن محمود بن جوهر البعلبكي، الشيخة الكاتبة الخيرة أم الخير. ومنهم الشيخ يوسف ابن أبي ناصر السفاوي. ومنهم الشيخ عبد السلام بن محمد بن مزروع أبو محمد عفيف الدين. ومنهم الشيخ أحمد بن عثمان، بن محمد الشافعي البخاري شمس الدين. ومنهم الشيخ عبد الله بن خير بن أبي مجمد بن خلف القرشي. ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الباقي بن علي الصواف شرف الدين. ومنهم الشيخ علي بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن زريق الكاتب، لقيه بتونس. ومنهم الشيخ سليمان بن علي بن عبد الله الكاتب التلمساني عفيف الدين الصوفي الأديب نزيل دمشق، ومولده بتلمسان. ومنهم الشيخ محمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أحمد الميموني البستي القسطلاني قطب الدين، الغمام المفتي شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة المعزية ومنهم الشيخ عبد الكريم بن علي بن جعفر القرشي جمال الدين. ومنهم الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الظاهر جمال الدين. ومنهم محمد بن محمد بن إبراهيم النجاشي. ومنهم الشيخ عبد الله بن محمد بن محمد بن أبي بكر الطبري إمام الروضة النبوية ثم الصخرة القدسية. ومنهم الشيخ فخر الدين عثمان بن أبي محمد بن إسماعيل بن جندرة. ومنهم الشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العلي بن أنسكرت فخر الدين. ومنهم الشيخ ثابت بن علي بن عبد العزيز بن قاسم بن عبد الرازق، سمع على ابن المغير البغدادي. ومنهم الشيخ أمين الدين أبو الهامات جبريل بن إسماعيل بن سيد الأهل الغساني. ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الله الأندلسي الأصل شرف الدين، سمع من علم الدين

الشيخوني وغيره. ومنهم الشيخ محمد بن محمد الشامي الشافعي الدمشقي إمام مسجد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، يدعى شمس الدين، سمع من الزبيدي. ومنهم الشيخ يحيى بن الخضر بن حاتم الأنصاري، يعرف بابن عز الدولة.

وأجاز له جماعة، منهم ابن عماد الحراني، ومنهم ابن يحيى بن محمد بن محمد الهمداني كمال الدين، وسمع من ابن الزجاج وابن رواح الحميري. ومنهم الشيخ عبد الملك أبو المعالي بن مفضل الواسطي، عرف بابن الجوزي سمع على جماعة، منهم شعيب الزعفراني، ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن ياسر بن شاكر الحاكمي. ومنهم الإمام مفتي المسلمين رضي الله عنه. ومنهم أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن خليل العسقلاني المكي. ومنهم الخطيب أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد بن محمد بن رحيمة الكناني خطيب بجاية. ومنهم قاضي القضاة ببلاد إفريقية أبو العباس ابن الغماز البلتسي، لقيه بتونس. ومنهم الفقيه العلامة الوزير أبو القاسم محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف ين جزي الكلبي. ومنهم الشيخ أبو محمد عبد اله بن يوسف الخلابي. ومنهم الشيخ المغربي أبو محمد الحجاج ابن يوسف بن إبراهيم بن عتاب، لقيه بتونس. ومنهم الشيخ المغربي أبو محمد الحجاج ابن يوسف ين إبراهيم بن عتاب، لقيه بتونس. ومنهم الشيخ الفقيه أبو بكر بن محمد ابن إبراهيم بن محمد بن يربوع السبتي. ومنهم الإمام قدوة النحاة أبو الحسين عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن عبد الله بن أبي الربيع القرشي. ومنهم الإمام أبو علي ناصر الدين منصور بن أحمد ابن عبد الحق الزواوي المشدالي من أهل بجاية. ومنهم الخطيب القاضي أبو عمرو إسحق بن أبي إسحق بن عبد الوهاب الرندي. إلى طائفة كبيرة من أهل المشرق والمغرب.

محنته

أغلى به الأمير ولي العهد، بسبب أمور اختلف فيها، منها أبيات في هجو الدولة النصرية، الله أعلم بصحة نسبتها إليه، فأوقع به وناله بين يديه نكال كبير أفلت منه برفق، واختفى مدة في المآذن المقفلة والأماكن الخفية، حتى أصحى له جو سخطه، وقضى الله برد أمره إليه، وستيلايه على ما وراء بابه.

من روى عنه

أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحق بن أبي العاصي، وتدبج معه رفيقه عبد الله بن رشيد وغير واحد. وكان ممدوحاً، وممن مدحه الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي، والرئيس أبو الحسن بن الجياب، وناهيك بهما. ومن بديع مدح ابن الجياب له، قصيدة راثية رائقة، يهنيه فيها بعيد الفطر منها في أولها:

يا قادماً عمت الدنيا بشائره ... أهلا بمقدمك الميمون طائره
ومرحباً بك من عيد تحف به ... من السعادة أجناد تظاهره
قدمت فالخلق في نعمى وفي جذل ... أبدي بك البشر باديه وحاضره
الأرض قد لبست أثواب سندسها ... والروض قد بسمت منه أزهره
حاكت يد الغيث في ساحاته حللا ... لما سقاها دراكاً منك باكره
فلاح فيها من الأنوار باهرها ... وفاح فيها من النوار عاطره
وقام فيها خطيب الطير مرتجلا ... والزهر قد رصعت منه منابره
موشي ثوب طواه الدهر آونة ... فها هو اليوم للأبصار ناشره
فالغصن من نشوة يثني معاطفه ... والطير من طرب تشدو مزاهره
وللكمام انشقاق عن أزاهرها ... كما بدت لك من خل ضمائره

لله يومك ما أذكى فضائله ... قامت لدين الهوى فيه شعائره
فكم سريرة فضل فيك قد خبئت ... وكم جمال بدا للناس ظاهر
فافخر بحق على الأيام قاطبة ... فما لفضلك من ند يظاهره
فأنت في عصرنا كابن الحكيم إذا ... قيست بفخر أولي العليا مفاخره
يلتاح منه بأفق الملك نور هدى ... تضاءل الشمس مهما لاح زاهره
مجد صميم على عرش السماك سما ... طالت مبانيه واستعلت مظاهره
وزارة الدين والعلم الذي رفعت ... أعلامه والندى الفياض زاخره
وليس هذا بدع من مكارمه ... ساوت أواثله فيه أواخره
يلقى الأمور بصدر مه منشرح ... بحر وآراؤه العظمى جواهره
راعى أمور بصدر منه منشرح ... بحر وآراؤه العظمى جواهره
راعي أمور الرعايا معملاً نظراً ... كمثل علياه معدوماً نظائره

والملك سير في تدبيره حكماً ... تنال ما عجزت عنه عما كره
سياسة الحكم لا بطش يكدرها ... فهو المهيب وما تخشى بوادره
لا يصدر الملك إلا عن إشارته ... فالرشد لا تتعداه مصائره
تجري الأمور على أقصى إرداته ... كأنما دهره فيه يشاوره
وكم مقام له في كل مكرمة ... أنست موارده فيها مصادره
ففضلها طبق الآفاق أجمعها ... كأنه مثل قد سار سائره
فليس يجحده إلا أخو حسد ... يرى الصباح فيعشي منه ناظره
لا ملك أكبر من ملك يدبره ... لا ملك أسعد من ملك يؤازره
يا عز أمر به أشتدت مضاربه ... يا حسن ملك به ازدانت محاضره
تثني البلاد وأهلوها بما عرفوا ... ويشهد الدهر آتيه وعابره
بشرى لآمله الموصول مأمله ... تعساً لحاسده المقطوع دابره
فالعلم قد أشرقت نوراً مطالعه ... والجود قد أسبلت سحاً مواطره
والناس في بشر والملك في ظفر ... عال على كل عالي القدر قاهره
والأرض قد ملئت أمناً جوانبها ... بيمن من خلصت فيها سرائره
وإلى أياديه من مثنى وواحدة ... تساجل البحر إن فاضت زواخره
فكل يوم تلقانا عوارفه ... كساه أمواله الطولي دفاتره
فمن يؤدي لما أولاه من نعم ... شكراً ولو أن سحبانا يظاهره
يا أيها العبد بادر لثم راحته ... فلثمها خير مأمول تبادره
وافخر بأن لقيت ابن الحكيم على ... عصر يباريك أو دهر تفاخره
ولي الصيام وقد عظمت حرمته ... فأجره لك وافيه ووافره
وأقبل العيد فاستقبل به جذلاً ... واهنأ به قادماً عمت بشائره
ومن مدح الرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي له قوله:

تراءى سحيرا والنسيم عليل ... وللنجم طرف بالصباح كليل
وللفجر نهر خاضه الليل فاعتلت ... شوى أدهم الظلماء منه خجول
بريق بأعلى الرقمتين كأنه ... طلائع شهب السماء تجول
فمزق ساجي الليل منه شرارة ... وخرق ستر الغيم منه نصول
تبسم ثغر الروض عند ابتسامه ... وفاضت عيون للغمام همول
ومالت غصون البان نشوي كأنها ... يدار عليها من صباه شمول
وغنت على تلك الغصون حمائم ... لهن حفيف فوقها وهديل
إذا سجعت في لحنها ثم قرقرت ... يطيح خفيف دونها وثقيل
سقى الله ربعاً لا يزال يشوقني ... إليه رسوم دونها وطلول
وجاد رياه كلما ذر شارق ... من الودق هتان أجش هطول
ومالي أستسقي الغمام ومدمعي ... سفوح على تلك العراص همول
وعاذلة باتت تلوم على السرى ... وتكثر من تعذالها وتطيل
تقول إلى كم ذا فراق وغربة ... ونأي على ما خيلت ورحيل
ذريني أسعى للتي تكسب العلا ... سناء وتبقى الذكر وهو جميل
فأما تريني من ممارسة الهوى ... نحيلا فحد المشرفي نحيل
وفوق أنابيب البراعة صفوة ... تزين وفي قد القناة ذبول
ولولا السرى لم يحتل البدر كاملا ... ولا بات منه للسعود نزيل
ولولا اغتراب المرء في طلب العلا ... لما كان نحو المجد منه وصول
ولولا نوال ابن الحكيم محمد ... لأصبح ربع المجد وهو محيل
وزير سما فوق السماك جلالة ... وليس له إلا نجوم قبيل
من القوم أما في الندى فإنهم ... هضاب وأما في الندى فسيول
حووا شرف العلياء إرثا ومكسباً ... وطابت فروع منهم وأصول

وما جونة هطالة ذات هيدب ... مرتها شمول مرجف وقبول
لها رجل من رعدها ولوامع ... من البرق عنها للعيون كلول
كما هدرت وسط القلاص وأرسلت شقاشقها عند الهياج فحول
بأجود من كف الوزير محمد ... إذا ما توالت للسنين محول
ولا روضة بالحسن طيبة الشذا ... يتم عليها أذخر وجليل
وقد أذكيت للزهر فيها مجامر ... تعطر منها للنسيم ذيول
وفي مقل النور للطل عبرة ... ترددها أجفانها وتحيل
بأطيب من أخلاقه الغر كلما ... تفاقم خطب للزمان يهول
حويت أبا عبد الإله مناقباً ... تفوت يدي من رامها وتطول
فغرناطة مصر وأنت خصيبها ... ونائل يمناك الكريمة نيل
فداك رجال حاولوا درك العلا ... ببخل وهل نال العلاء بخيل

تخيرك المولى وزيراً وناصحاً ... فكان له مما أراد حصول
وألقي مقاليد الأمور مفوضا ... إليك فلم يعدل يمينك سول
وقام بحفظ الملك منك مؤيد ... نهوض بما أعيا سواك كفيل
وساس الرعاي منك أشوس باسل ... مبيد العدا للمعتفين منيل
وأبلج وقاد الجبين كأنما ... على وجنتيه للنضار مسيل
تميم به العلياء حتى كأنها ... بثينة في الحب وهو جميل
له عزمات لو أعير مضاؤها ... حسام لما نالت ظباه فلول
سرى ذكره في الخافقين فأصبحت إليه قلوب العالمين تميل
وأغدي قريضي جوده وثناؤه ... فأصبح في أقصى البلاد يجول
إليك أيا فخر الوزارة أرقلت ... برحلي هوجاء الشجاء ذلول
فليت إلى لقياك ناصية الفلا ... بأيدي ركاب سيرهن ذميل
تسددني سهماً لكل ثنية ... ضوامر أشباها لقسي نحول
وقد لفظتني الأرض حتى رمت إلى ... ذراك برحلي هوجل وهجول
فقيدت أفراسي به وركائبي ... ولذ مقام لي به وحلول
وقد كنت ذا نفس عزوف وهمة ... عليها لأحداث الزمان دحول
وتهوي العلا حظي وتغري بضده ... لذاك اعترته رقة ونحول
وتأبي لي الأيام إلا إدالة ... فصونك لي أن الزمان مديل
فكل خضوع في جنابك عزة ... وكل اعتزاز قد عداك خمول
شعره

وبضاعته في الشعر مزجاة، وإن كان أعلم الناس بنقده، وأشدهم تيقظاً لمواقعه الحسنة وأضدادها. فمن ذلك قوله، ورفعه إلى السلطان ببلده رندة، وهو إذا ذاك فتى يملأ العين أبهة، ويستميل القلوب لباقة، وهي، ومن خطه نقلت:

هل إلى رد عشيات الوصال ... سبب أم ذاك من ضرب المحال
حالة يسرى بها الوهم إلى ... أنها تثبت براءاً باعتلال
وليالي ما تبقى بعدها ... غير أشواقي إلى تلك الليال
إذا مجال الوصل فيها مسرحي ... ونعيمي آمر فيها ووال
ولحالات التراضي جوله ... مزجت بين قبول واقتبال
فبوادي الخيف خفي مسعد ... وبأكناف مني أسني نوال
لست أنسى الأنس فيها أبداً ... لا ولا بالعذل في ذاك أبال
وغزال قد بدا لي وجهه ... فرأيت البدر في حال الكمال
ما أمال التيه من أعطافه ... لم يكن إلا على فضل اعتدال
خص بالحسن فما أنت ترى ... بعده للناس حظاً في الجمال
من تسلى عن هواه فأنا ... بسواه عن هواه غير سال
فلئن أتعبني حبي له ... فكم نلت به أنعم حال

إذ لآلئ حيده من قبلي ... ووشاحاه يميني وشمال
خلف النوم لي السهد به ... وترامى الشخص لا طيف الخيال
فيداوي بلماه ظمئي ... مزجك الصبهاء بالماء لزلال
أو أشادت ثنا الملك الأوحد الأسمى الهمام المتعال

ملك إن قلت فيه ملكاً ... لم تكن إلا محقاً في المقال
أيد الإسلام بالعدل فما ... أن ترى رسماً لأصحاب الضلال
ذو أياد شملت كل الورى ... ومعال يا لها خير معال
همة هامت بأحوال التقى ... وصفات بالجلالات حوال
وقف النفس على إجهادها ... بين صوم وصلاة ونوال
ومنها في ذكر القوم الموقع بهم:
وفريق من عتاة عاندوا ... أمره فاستوجبوا سوء نكال
غرهم طول التجافي عنهم ... مع شيطان لهم كان موال
فلقد كانت بهم رندة أو ... أهلها في سوء تدبير وحال
ما يعود اليوم إلا بادروا ... برواة ونكيرات ثقال
طوقوا النعمى فلما أنكروا ... طوقوا العدل بذي البيض العوال
ما طل الدهر بهم غريمه ... فهو الآن وفي بعد المطال
ولقد كنت غريم الدهر إذ ... شدني جورهم شد عقال
ولكم نافرته مجتهداً عندما ... ضاق بهم صدر احتمال
أعقبوا جزاء ما قد أسلفوا ... في الدنا ويعقبوه في المآل
وهي طويلة ومنها:
أيها المولى الذي نعماؤه ... أعجزت عن شكرها كنه المقال
ها أنا أنشدكم مهنئاً من ... بديع النظم بالسحر الحلال
فأنا العبد الذي حبكم ... لم يزل والله في قلبي وبال
أورقت روضة آمالي لكم ... وتولاها الكبير المتعال
واقتنيت الجاه من خدمتكم ... فهو ما أدخره من كنز مال
ومنها:
يا أمير المسلمين هذه ... خدمة تنبئ عن أصدق حال
هي بنت ساعة أو ليلة ... سهلت الحب في ذاك الجلال
ما عليها إذ أجادت مدحها ... من بعيد الفهم يلغيها وقال
فهي في تأدية الشكر لكم ... أبداً بين احتفاء واحتفال
وكتب رحمه الله يخاطب أهله من مدينة تونس:
حي حي بالله يا ريح نجد ... وتحمل عظيم شوقي ووجدي
وإذا ما بثثت حالي فبلغ ... من سلامي لهم على قدر ودي

ما تناسيتهم وهل في مغيبي ... هم نسوني على تطاول بعدي
بي شوق إليهم ليس يعزى ... لجميل ولا لسكان نجد
يا نسيم الصبا إذا جئت قوماً ... ملئت أرضهم بشيح ورند
فتلطف عند المرور عليهم ... وحقوقاً لهم على فأد
قل لهم قد غدوت من وجدهم ... في حال شوق لكل رند وزند
وإن استفسروا حديثي فإني ... باعتناء الإله بلغت قصدي
فله الحمد إذ حباني بلطف ... عنده قل كل شكر وحمد

قال شيخنا أبو بكر ولده، وجدت بخطه رحمة الله عليه، رسالة خاطب بها أخاه أبا إسحق إبراهيم افتتحها بقصيدة أولها.

ذكر اللوى شوقاً إلى أقماره ... فقضى أسى أو كاد من تذكاره
وعلا زفير حريق نار ضلوعه ... فرمى على وجناتنه بشراره
لو كنت تبصر خطه في خده ... لقرأت سر الوجد من أسطاره
يا عاذليه اقصروا فلربما ... أفضى عتابكم إلى إضراره
إن لم تعينوه على برجانه ... لا تنكروا بالله خلع عذاره
ما كان اكتمه لأسرار الهوى ... لو أن جند الصبر من أنصاره
بخل اللوى بالساكنيه وطيفهم ... وحديثه ونسيمه ومزاره
يا برق خذ دمعي وعرج باللوى ... فأسفحه في باناته وعراره
وإذا لقيت بها الذي بإخائه ... ألقى خطوب الدهر أو بجواره
فاقر السلام عليه قدر محبتي ... فيه وترفيعي إلى مقداره
وألمم بسائر أخوتي وقرابتي ... من لم أكن لجوارهم بالكاره
ما منه إلا أخ أو سيد ... أبداً أرى دأبي على إكباره

فاثبت لذاك الحي أن أخاهم ... في حفظ عهدهم على استبصاره
ما منزل اللذات في أوطانه ... كلا ولا السلوان من أوطاره

وقال رحمه الله في غرض كلفه سلطانه القول فيه:

ألا واصل مواصلة العقار ... ودع عنك التخلق بالوقار
وقم واخلع عذارك في غزال ... يحق لمثله خلع العذار
قضيب مائس من فوق دعص ... تعمم بالدجى فوق النهار
ولاح بخده ألف ولام ... فصار معرفاً بين الدراري
رماني قاسم والسين صاد ... بأشفار تنوب عن الشفار
وقد قسمت محاسن وجنتيه ... على صدين من ماء ونار
فذاك الماء من دمعي عليه ... وتلك النار من فرط اسعار
عدبت له أقام بربع قلبي ... على ما شب فيه من الأوار
ألفت الحب حتى صار طبعاً ... فما أحتاج فيه إلى ادكار

فمالي عن مذاهبه ذهاب ... وهذا فيه أشعاري شعار

وقال العلامة ابن رشيد في ملئ العبة، لما قدمنا المدينة سنة ٦٨٤ للهجرة كان معي رفيقي الوزير أبو عبد الله بن أبي القاسم الحكيم، وكان أرمد، فلما دخلنا ذا الحليفة أو نحوها، نزلنا عن الأكوار، وقوي الشوق لقرب المزار، فنزل وبادر إلى المشي على قدميه احتساباً لتلك الآثار، وإعظاماً لمن حل في تلك الديار، فأحس بالشفاء، فأنشد لنفسه في وصف الحال قوله:

ولما رأينا من ربوع حبيبنا ... بيثرب أعلاماً أثرن لنا الحبا

وبالترب مها إذ كحلنا جفوننا ... شفينا فلا بأساً نخاف ولا كربا

وحين تبدى للعيون جمالها ... ومن بعدها عنا أديلت لنا قربا

نزلنا من الأكوار نمشي كرامة ... لمن حل فيها أن نلم به ركبا

نسح سجال الدمع في عرصاتها ... ونلثم من حب لواطئه التربا

وإن بقائي دونه لخسارة ... ولو أن كفي تملأ الشرق والغربا

فيا عجباً ممن يحب بزعمه ... يقيم مع الدعوى ويستعمل الكتبا

وزلات مثلي لا تعد كثيرة ... وبعدي عن المختار أعظمها ذنبا

ومن شعره قوله:

ما أحسن العقل وآثاره ... لو لازم الإنسان إيثاره

يصون بالعقل الفتى نفسه ... كما يصون الحر أسراره

لا سيما إن كان في غربة ... يحتاج أن يعرف مقداره

وقوله رحمه الله:

إني لأعسر أحياناً فيلحقني ... يسر من الله أن العسر قد زالا

يقول خير الورى في سنة ثبتت ... أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا

وهو من أحسن ما قاله رحمه الله.

ومن شعره قوله:

فقدت حياتي بالفراق ومن غدا ... بحال نوى عمن يحب فقد فقد

ومن أجل بعدي من ديار ألفتها ... جحيم فؤادي قد تلظى وقد وقد

وحكى أن ذا الوزارتين المترجم، لما اجتمع مع الفقيه الكاتب ابن أبي مدين. أنشده ابن أبي مدين:

عشقتكمو بالسمع نبل لقاكم ... وسمع الفتى يهوي لعمر كطرفه

وحببني ذكر الجليس إليكمو ... فلما التقينا كنتم فوق وصفه

فأنشده ذو الوزارتين ابن الحكيم قوله:

ما زلت أسمع عن علياك كل سني ... أبهى من الشمس أو أجلى من القمر

حتى رأى بصرى فوق الذي سمعت ... أذنى فوفق بين السمع والبصر

ومن نظمه مما يكتب على قوس:

أنا عدة للدين في يد من غدا ... لله منتصراً على أعدائه

أحكي الهلال وأسهمي في رجمها ... لمن اعتدى تحكي رجوم سمائه

قد جاء في القرآن أني عدة ... إذ نص خير الخلق محكم آياته
وإذا العدو أصابه سهمي فقد ... سبق القضاء بملكه وفنائه

ومن توقيعه ما نقلته من خط ولده أبي بكر في كتابه المسمى بالموارد المستعذبة، وكان بمدينة وادي آش الفقيه الكذا أبو عبد الله محمد بن غالب الطريفي، فكتب يوماً إلى الشيخ خاصة والدي وخلاصته أبي جعفر ابن داود قصيدة طويلة على روى السين يشتكي فيها من جور مشرف بلدهم إذ ذاك أبي القاسم بن حسان منها:
فيا صفى أبي العباس كيف ترى ... وأنت كيس من فيها من أكياس
ولوه إن كان ممن ترتضون به ... فقد دنا الفتح للأشراف في فاس
ومنها يستطر ذكر ذي الوزارتين رحمه الله:
للشرق فضل منه أشرقت شهب ... من نورهم اقبسونا كل مقباس
فوقع عليها رحمة الله تعالى عليه ورضوانه:
إن أفرطت بابن حسان غواثله ... فالأمر يكسوه ثوب الذل والياس
وإن تزل به في جوره قدم ... كان الجزاء له ضرباً على الراس
فقد أقامني المولى بنعمته ... لبث أحكامه بالعدل في الناس
كتابته

وهي مرتفعة عن نمط شعره. فمن ذلك رسالة كتبها عن سلطانه في فتح مدينة قيجاطة: من الأمير فلان، أيده الله ونصره، ووفقه لما يحب، حتى يكون ممن قام بفرض الجهاد ونشره. إلى ابننا الذي تمنحه الحب والرضى، ونسأل الله أن يهبه الخلال التي تستحسن، والشيم التي ترتضى، الولد الأنجب، الأرضى، الأنجد، الأرشد، الأسعد، محمد، والى الله تعالى إسعاده، وتولى بالتوفيق والإرشاد سداده، وأطلع عليه من أنباء الفتوح المبشرة بالنصر الممنوح، ما يكمل من بغيته في نصر دين الإسلام ويسني مراده.

أما بعد حمد الله، الذي جعل الجهاد في سبيله أفضل الأعمال، الذي يقربه إلى رضاه، وندب إليه بما وعد من الثواب عليه، فقال يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال، تنبيهاً على محل الثقة، بأن الفئة القليلة من أوليائه، تغلب الفئة الكثيرة من أعدائه، وتدارك دين الإسلام بإنجاز وعده في قوله، ولينصرن الله من ينصره، على رغم أنف من ظن أنه خاذله، تعالى الله عن خذلان جنده. والصلاة والسلام على نبيه ورسوله ومجتباه، لهداية الخلق لسلوك سبيل الحق، والعمل بمقتضاه. قال تعالى فيما أنزل: " قاتلوا الذين يلونكم من الكفار " ، تحريضاً على أن يمحوا ظلام ضلالهم بنور هداه. صلى الله عليه وسلم؛ وعلى آله الأبرار، وأصحابه الأشداء على الكفار، الذين جردوا في نصرة دينه صوارم العزم، وأمضوا ظباه، وفتحوا ما زوى له من مشارق الأرض ومغاربها، حتى عم الإسلام حد المعمور ومنتهاه. فإنا كتبنا لكم. كتب الله لكم من سماع البشائر ما يعود بتحويل الأحوال، وأطلع عليكم من أنباء الفتوح ما يلوح بآفاق الآمال، مبشرا باليمن والإقبال. من قيجاطة، وبركان ثقتنا بالله وحده، تظهر لنا ورد مشرع الفتح فترج عذب نطافه، والحمد لله الذي هدانا لأن نتقلد نجادها، ونمتطي جوادها، ونستوري زنادها، ونستفتح بها مغالق المآرب، ولطائف المطالب حتى دخلت الملة الحنيفية في هذه الجزيرة الأندلسية، أغوارها وأنجادها. وقد تقرر عند الخاص والعام من أهل الإسلام، واشتهر في جميع الأقطار اشتهار الصبح في سواد الظلام، أنا ما قصرنا في الاستنصار

والاستنفار ولا قصرنا عن الاعتضاد لكل من أملنا معونته والاستظهار، ولا اكتفينا بمطولات الرسائل وبنات الأفكار، حتى اقتحمنا بنفوسنا لجج البحار، وسمحنا بالطارف من أموالنا والتلاد، وأعطينا رجاء نصرة الإسلام موفور الأموال والبلاد، واشترينا بما أنعم الله به علينا، ما فرض الله على كافة أهل الإسلام من الجهاد، فلم يكن بين تلبية المدعو وزهده، وبين قبوله ورده، إلا كما يحسو الطائر ماء الثماد، ويأبى الله أن يكل نصر هذه الجزيرة إلى سواه، وأن يجعل فيها سبباً إلا لمن أخلص لوجهه الكريم علانيته ونجواه. ولما أسلم الإسلام بهذه الجزيرة الغريبة إلى مثاويه، وبقي المسلمون يتوقعون حادثاً ساءت ظنونهم لمباديه؛ ألقينا إلى الثقة بالله تعالى وحده يد الاستسلام، وشمرنا عن ساعد الجد والاجتهاد في جهاد عبدة الأصنام، وأخذنا بمقتضى قوله العالى، وأنفقوا في سبيل الله أخذ الاعتزام، فأمدنا الله تعالى بتوالي البشائر، ونصرنا بألطاف أغنى فيها خلوص الضمائر عن قواد العساكر، ونقلنا على أيدي قوادنا ورجالنا من السبايا والغنائم، ما عد ذكره في الآفاق كالمثل السائر، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، وكيف يحصيها المحصي أو يحصرها الحاصر. وحين أبدت لنا العناية الربانية وجوه الفتوح سافرة المحيا. وانتشقنا نسيم النصر الممنوح عبق الريا، استخرنا الله تعالى في الغزو بأنفسنا، ونعم المستخار، وكتبنا إلى من قرب من عمالنا بالحض على الجهاد والاستنفار. وحين وافى من خف للجهاد من الأجناد والمطجوعين، وغدوا بحكم رغبتهم في الثواب على طاعة الله مجتميعن، خرجنا بهم، ونصر الله تعالى أهدى دليل، وعناية الله بهذه الفئة المفردة من المسلمين، تقضي بتقريب البعيد من آمالنا، وتكثير القليل. ونحن نسأل الله تعالى أن يحملنا على جادة الرضا والقبول، وأن يرشدنا إلى طريق يفضي إلى بلوغ الأمنية والمأمول، إلى أن حللنا عشية يوم الأحد ثاني يوم خروجنا بمقربة حصن اللقوة، فأدرنا به. التدبير، واستشرنا من أوليائنا من تحققنا نصحه فيما يشير، فاقتضى الرأي المقترن بالرشاد، المؤذن بالإسعاد، قصد قيجاطة لما رجى من تيسير فتحها، وأملا في إضاءة فجر الأماني لديها، وبيان صبحها، فسرنا نوها في جيش، يجر على المجرة ذيل النقع المثار، ويضيق عن كثرته واسع الأقطار، ويقر عين الإسلام، بما اشتمل عليه من الحماة والأنصار تطير بهم نياتهم بأجنحة العزم إلى قبض أرواح الكفار. فلما وصلنا إلى وادي يانه على مقربة منها، نزلنا به نريح الجياد، ونكمل التأهب للقتال الاستعداد، وبات المسلمون ليلتهم يسألون الله تعالى بأن يمنحهم الإعانة بتأييده والإمداد. وحين فجر الفجر وأنار النهار، وقدحتن به الأصباح زند الأنوار، ركبنا إليها والعساكر قد انتظمت عقودها

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين

والسيوف قد كادت تلفظها غمودها، وبصاير الأولياء المجاهدين قد لاح من نصر الله تعالى معهودها. فلما وصلناها، وجدنا ناسنا قد سبقوا إليها بالبوس، وهتكوا ستر عصمتها المحروس، وأذن لها بزوال النعم، وذهاب النفوس، فعاجلها الأولياء بالقتال، وأهدوا إليها حمر المنايا من زرق النصال، ورشقوا جنودها بالنبال، وجلوا بنات الآجال، فلما رأوا ما لا طاقة لهم به، لاذوا بالفرار من الأسوار، وولوا الأدبار، وودعوا الديار وما فيها من الآثار. وتسنم المسلمون ذروة البلد الأول فملكوه، وخرقوا حجاب الستر المسدول عليه وهتكوه، وتسرعوا إلى البلد الثاني، وقد ملأ النصارى أسواره من حماة رجالهم، وانتقوهم من متخيري أبطالهم، ممن وثقوا بإقدامه في حماية ضلالهم، فحمل عليهم المسلمون حملة عرفوهم بها كيف يكون اللقاء، وصرفوهم إلى ما تنصرف إليه أرواحهم من الشقاء، وأظهروا لهم من صدق العزايم ما علموا به أن لدين الإسلام أنصاراً لا يرغبون بأنفسهم عن الذب عنه وحماية راياته، ولا يصدرون إلا إلى طاعة الله ابتغاء مرضاته. وبادر جماعة إلى إضرام باب المدينة بالنيران، وعقدوا تحت سماء العجاج منها سماء الدخان، ورموا النصارى من النبال بشهب تتبع منهم كل شيطان. فهزم الله النصارى؛ وولوا أدبارهم، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فأخلوا بروجهم وأسوارهم، وتسنمها المسلمون معلنين شعار الإسلام، رافعين من الرايات الحمر كواكب في سماء السعادة تبشر بتيسير كل مرام. ودخلوا المدينة، فألفوا بها من القوت والعتاد، والمتاع الفاخر، الذي يربو على العتداد، ما ملأ كل يمين وشمال، وظهروا عليها بعد بلوغ الأماني على الكمال، وقتلوا بها من الحماة أعداء، أبدوا في حماية ضلالهم ماضي الغنا والاعتزام وأعملوا فيهم ماضي العوامل وشبا الإضرام. وارتفع الصارى إلى القصبة لائذين بامتناعها، معتصمين بعلوها وارتفاعها، متخليلين لضلالهم، وعدم استبصارهم أن نور الهدى لا يحل بديارهم. فرأينا أن نرقى الرجال إلى أبراج البلد وأسواره، وأمرناهم أن يبيتوا طول ليلتهم مضيقين على من اعتصم بالقصبة في حصاره، وعمدنا بالعسكر المظفر إلى موضع استيطانه من المحلة المنصورة واستقراره. فلما بدا ضوء الصباح بنور الإشراق، ولاح وجه الغزالة طارحاً شعاعه على الآفاق، أمرنا بترتيب العساكر على القصبة للحصار، وعينا لكل جماعة مهنهم جهة يبادرون إلى منازلتها بالقتال أشد البدار، فانتهى المسلمون من ذلك إلى غاية لم تخطر للكافرين ببال، وجرعوهم كؤوس المنايا، وأداروا بها بنات الحنايا، فأفضت السجال وأظهر الكفار، مع وقوعهم في بحر الموت صبرا وطمعوا، أن يقيموا بذلك لصلباتهم عذرا. فلما رأوا من عزمنا ما لم تتخيله ظنونهم وأوهامهم، وصابرهم المسلمون عند النزال مصابرة عظم فيها إقدامهم وثبتت أقدامهم ألقوا بأيديهم إلى التهلكة، إلقاء من هاله لمعان الأسنة، واهتزاز ردينيات القنا، ولاذوا بطلب الأمان لياذ الغريق بالساحل، بعد ما أشرف على الفناء، وهبط زعيمهم، مقتحماً خطر تلك المسالك، متضرعاً تضرع من طمع في الحياة بعد ما أخذته أيدي المهالك، وشرط أن يملكنا القصبة. ويبقى خديماً لنا بما بيده من البلاد الكثيرة والكتيبة المتخبة، فلم نظهر له عند ذلك قبولاً، ولم نجعل له إلى تكميل ما رغب فيه سبلا، فقاده البأس الشديد إلى الإذعان، ورغب أن يكمل ما نريده على شرط الأمان. فأسعفنا رغبته على شروط، بعد عهد المسلمين بمثلها، وهيئت الأسباب بما نعتمده من الثقة بالله وحده في أمورنا كلها، وذلك على كذا وكذا. وحين كملت الشروط حق التكميل، وظهرت لنا منه إمارات الوفاء الجميل، دخلنا القصبة حماها الله، وقد أغنى يوم النصر عن شهر السلاح، كما أغنى ضوء الصبح عن نور المصباح، ورفعت على أبراجها حمر الأعلام، ناطقة عن الإسلام، بالتعريف والإعلام.

وفي الحين وجهنا من يقبض تلك الحصون، ويزيل ما بها من جرم الكفر المأفون، أمناء ردالنا. فالحمد لله على هذه النعمة التي أحدثت للقلوب استبشاراً، وخفضت علم التثليث، ورفعت للتوحيد مناراً، وأظهرت للملة الحنيفية على أعدائها اعتلاء واستكباراً. وهذا القدر من الفتح وإن كان سامي الفخر، باقي الذكر بقائ الدهر، فإننا لنرجو من الله أن يتبعه بما هو أعلى منه متانة، وأعظم في قلوب أهل إيمان موقعاً وأعز مكانة، وأن يرغم بما يظهر على

أيدينا من عز الإسلام، أنف من أظهر له عناداً وخذلانا. فاستبشروا بهذا الفتح العظيم وبشروا، واشكروا الله عليه، فواجب أن تشكروا. وقد كتبنا هذا، ونحن على عزمنا في غزو بلاد الكفار، والسعي الحميد إلى التنكيل بهم والإضرار، والمسلمون أعزهم الله في أرضهم يشنون المغار، ويمتلكون الأنجاد منها والأغوار، ويكثرون القتل والإسار، ويحمون أينما نزلوا السيف والنار، والسلام.ا من عز الإسلام، أنف من أظهر له عناداً وخذلانا.
فاستبشروا بهذا الفتح العظيم وبشروا، واشكروا الله عليه، فواجب أن تشكروا. وقد كتبنا هذا، ونحن على عزمنا في غزو بلاد الكفار، والسعي الحميد إلى التنكيل بهم والإضرار، والمسلمون أعزهم الله في أرضهم يشنون المغار، ويمتلكون الأنجاد منها والأغوار، ويكثرون القتل والإسار، ويحمون أينما نزلوا السيف والنار، والسلام.
ومن نثر آخر إجازة ما صورته: وها أنا أجري منه على حسن معتقده، وأكله في هذا الغرض إلى ما رآه بمقتضى تودده، وأجيز له ولولديه، أقر الله بهما عينه، وجمع بينهما وبينه، رواية جميع ما نقلته وحملته، وحسن اطلاعه يفصل من ذلك ما أجملته، فقد أطلقت لهم الإذن في جميعه، وأبحت لهم الحمل عني، ولهم الاختيار في تنويعه. والله سبحانه وتعالى يخلص أعمالنا لذاته، و يجعلها في ابتغاء مرضاته. قال هذا محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم حامداً لله عز وجل، ومصلياً ومسلماً.
وفاته

قتل حمه الله صبيحة عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة، وذلك لتاريخ خلع سلطانه. واستولت يد الغوغاء على منازله، شغلهم بها مدبر الفتنة، خيفة من أن يعاجلوه قبل تمام أمره. فضاع بها مال لا يكتب، وعروض لا يعلم لها قيمة من الكتب، والذخيرة والفرش والآنية والسلاح والمتاع والخرثي، وأخفرت ذمته، وتعدى به عدوة القتل إلى المثلة، وقانا الله مصارع السوء، فطييف بشلوه، وانتهب فضاع ولم يقبر، وجرت فيه شناعة كبيرة، رحمه الله تعالى.
مولده
برندة ظهر يوم الاثنين الحادي والعشرين من ربيع الأول المبارك، من عام ستين وستمائة. وممن رثاه شيخنا أبو بكر بي شبرين رحمه الله تعالى بقوله:
سقى الله أشلاء كرمن على البلى ... وما غض من مقدارها حادث البلا
ومما شجاني أن أهين مكانها ... وأهمل قدر ما عهدناه مهملا
ألا أصنع بها يا دهر ما أنت صانع ... فما كنت إلا عبدها المتذللا
سفكت وما كان الرقوء نواله ... لقد جئتها شنعاء فاضحة الملا
يكفي سبنتي أزرق العين مطرق ... عدا فغدا في غيه متوغلا
لنعم قتيل القوم في يوم عيده ... قتيل تبكيه المكارم والعلا
إلا إن يوم ابن الحكيم لمثكل ... فؤادي فما ينفك ما عشت مثكلا
فقدناه في يوم أغر محجل ... ففي الحشر نلقاه أغر محجلا

سمت نحوه الأيام وهو عميدها ... فلم تشكر النعمى ولم تحفظ الولا
وخانته رجل في الطواف به سعت ... فناء بصدر للعلوم تحملا
وجدل لم يحضره في الحي ناصر ... فمن مبلغ الأحياء أن مهلهلا
يد الله في ذاك الأديم ممزقا ... تبارك ما هبت جنوباً وشمألا
ومن حزني أن لست أعرف ملحداً ... له فأرى للترب منه مقبلا
رويدك يا من قد غدا شامتاً به ... فبالأمس ما كان العماد المؤملا
وكنا نغادي أو نراوح بابه ... وقد ظل في أوج العلا متوقلا
ذكرناه يوماً فاستهلت جفوننا ... بدمع إذا ما أمحل العام أخضلا
وما زج منه الحزن طول اعتبارنا ... ولم ندر ماذا منهما كان أطولا
وهاج لنا شجواً تذكر مجلس ... له كان يهدي الحي والملأ الألى
به كانت الدنيا تؤخر مدبراً ... من الناس حتماً أو تقدم مقبلا
لتبك عيون الباكيات على فتى ... كريم إذا ما أسبغ العرف أجزلا
على خادم الآثار تتلى صحائحا ... على حامل القرآن يتلى مفصلا

على عضد الملك الذي قد تضوعت ... مكارمه في الأرض مشكاً ومندلا
على قاسم الأموال فينا على الذي ... وضعنا لديه كل إصر على علا
وأني لنا من بعده متعلل ... وما كان في حاجاتنا متعللا
ألا يا قصير العمر يا كامل العلا ... يميناً لقد غادرت حزناً مؤثلا
بسوء المصلى أن هلكت ولم تقم ... عليك صلاة فيه يشهدها الملا
وذاك لأن الأمر فيه شهادة ... وسنتها محفوظة لن تبدلا
فيا أيها الميت الكريم الذي قضى ... سعيداً حميداً فاضلاً ومفضلا
لتنهل من رب السماء شهادة ... تلاقي ببشرى وجهك المتهللا
رثيتك عن حب ثوى في جوانحي ... فما ودع القلب العميد وما قلا
ويا رب من أوليته منك نعمة ... وكنت له ذخراً عتيداً وموئلا
تناساك حتى ما تمر بباله ... ولم يدكر ذاك الندى والتفضلا
يرابض في مثواك كل عشية ... صفيف شواء أو قديداً معجلا
لحي الله من ينسى الأذمة رافضاً ... ويذهل مهما أصبح الأمر مشكلا
حمانيك يا بدر الهدى فلشد ما ... تركت بدور الأفق بعد أفلا
وكنت لآمالي حياة هنيئة ... فغادرت مني اليوم قلباً مقتلا
فلا وأبيك الخير ما أنا بالذي ... على البعد يئس من ذمامك ما خلا
فأنت الذي آويتني متغرباً ... وأنت الذي أكرمتني متطفلا
فإن لم أنل منك الذي كنت آملاً ... فما كنت إلا المحسن المتفضلا
فآليت لا ينفك قلبي مكمداً ... عليك ولا ينفك دمعي مسبلا

العقيلي الجراوي

محمد بن عبد الرحمن العقيلي الجراوي من أهل وادي آش، وسكن غرناطة.

حاله

فقيه أديب متطبب، متقن في علوم جمة، شاعر مطبوع، يكنى أبا بكر.

مدح الأمير علي بن يوسف اللمتوني بقوله:

رحلوا الركايب موهناً ... فأذاع عرفهم السنا

والحلى قد أغرى بهم ... لما ترنم معلنا

كم حف حول حماهم ... من كل خطار القنا

قال أبو جعفر بن الزبير، ينفك منها قصايد:

رحلوا الركاب موهناً ليكتموا ... ظعن الحمول وهل توارى الأنجم

فأذاع سرهم السنا ورمى بهم ... فل الذميل شذاهم المتنسم

كم حف حمل قبابهم وركابهم ... من ليث غاب في براثنه الدم

من كل خطار القناة مموه ... بين الرحيل نصبه يستسلم

وهي طويلة، خاطب بها أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين. وقال في وصف القصيدة:

أبا ملكاً يسمو بسعد مساعد ... وقدر على علو الكواكب صاعد

نظمت قصيداً في علاك مضمناً ... ثلاث قواف في ثلاث قصايد

إذا فصلت أغنى عن البعض بعضها ... وإن وصلت كانت ككعب وساعد

فأجازه بظهير كريم بتحرير ماله وتنويهه.

محمد بن عبد الرحمن المتأهل

من أهل وادي آش يعرف بعمامتي

حاله

من التاج: ناظم أبيات، وموضح غرر وشيات، وصاحب توقيعات رفيعات، وإشارات ذوات شارات، وكان شاعراً مكثاراً، وجواداً لا يخاف عثاراً. أدخل على أمير بلده المخلوع عن ملكه، بعد انتثار سلكه، وخروج الحضرة عن ملكه، واستقراره بوادي آش، مروع البال، معللا بالآمال، وقد بلغه دخول طبرنش في طاعته، فأنشده من ساعته:

خذها إليك طبرنشا ... شفع بها وادي الأشا

والأم تتبع بنتها ... والله يفعل ما يشا

ومن نوادره العذبة يطلب خطة الحسبة:

أنلني يا خير البرية خطة ... ترفعني قدراً وتكسبني عزاً

فأعتز في أهلي كما اعتز بيدق ... على سفرة الشطرنج لما انثنى فرزاً

فوقع الأمر بظهر رقعته، ما ثبت في حرف النون عند ذكره؛ والاحتجاج بفضله.

وفاته

كان حياً بعد سنة سبع عشرة وسبعمائة. وفد على الحضرة مرات كثيرة.

ابن طفيل القيسي

محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي من أهل وادي آش، يكنى أبا بكر.

حاله

كان عالماً، صدراً، حكيماً، فيلسوفاً، عارفاً بالمقالات والآراء، كلفاً بالحكمة المشرقية، محققاً، متصوفاً، طبيباً ماهراً، فقيهاً بارع الأدب، ناظماً، ناثراً، مشاركاً في جملة من الفنون.

مشيخته

روى عن أبي محمد الرشاطي، وعبدالحق بن عطية وغيرهما.

حظوته ودخوله غرناطة

اختص بالريس أبي جعفر، وأبي الحسن نب ملحان. قال ابن الأبار في تحفته، وكتب لوالي غرناطة وقتاً.

تواليفه

رسالة حي بن يقظان، والأرجوزة الطبية المجهولة، وغير ذلك.

شعره

قال، وهو القايل من قصيدة في فتح قفصة سنة ست وتسعين وأنقذت إلى البلاد:

ولما انقضى الفتح الذي كان يرتجى ... وأصبح حزب الله أغلب غالب

وانجزنا وعد من الله صادق ... كفيل بإبطال الظنون الكواذب

وساعدنا التوفيق حتى بينت ... مقاصدنا مشروحة بالعواقب

وأذعن من عليا هلال بن عامر ... أبي ولبي الأمر كل مجانب

وهبوا إذا هب النسيم كما سرى ... ولم يتركوا بالشرق علقة آيب

يغص بهم عرض الفلا وهو واسع ... وقد زاحموا الآفاق من كل جانب

كأن بسيط الأرض حلقة خاتم ... بهم وخضم البحر بعض المذانب

ومد على حكم الصغار لسلمنا ... يديه عظيم الروم في حال راغب

يصرح بالرويا وبين ضلوعه ... نفس مذعور ونفرة راهب

وعي من لسان الحال أفصح خطبة ... ما وضحت عنه فصاح القواضب

وأبصر متن الأرض كفة حامل ... عليه وإصراه في كف حالب

أشرنا بأعناق الجياد إليكم ... وعدباً عليكم من صدور الركايب

إلى بقعة قد بين الله فضلها ... بمن حل فيها من ولي وصاحب

على الصفوة الأدنين منا تحية ... توافيهم بين الصبا والجنايب

وله أيضاً:

ألمت وقد نام الرقيب وهوما ... وأسرت الوادي العقيق من الحما

وراح إلى نجد فرحت منجدا ... ومرت بنعمان فأضحى منعما

وجرت على ترب المخصب ذيلها ... فما زال ذاك الترب نهباً مقسما

تناقله أيدي التجار لطيمة ... ويحمله الدارين أيان يمما

ولما رأت أن لا ظلام يجنها ... وأن سراها فيه لن يتكتما

سرت عذبات الربط عن حر وجهها فأبدت شعاعاً يرفع اليوم مظلما

فكان تجليها حجاب جمالها كشمس الضحى يعشى بها الطرف كلما
ولما رأت زهر الكواكب أنها ... هي النير الأسمى وإن كان باسما
بكت أسفاً أن لم تغز بجوارها ... وأسعدها صوب الغمام فأسجما
فجلت يمج القطر ريان بردها ... فتنفضه كالدر فذاً وتوأما
يضم علينا الماء فضل زكاتها كمل بل سقط الطل نوراً مكمماً
ويفتق نضح الغيث طيب عرفها ... نسيم الصبا بين العرار منسما
وجلت عن ثناياها وأومض برقها ... فلم أدر من شق الدجنة منهما
وساعدني جفن الغمام على البكا ... فلم أدر وجداً أينا كان أسجما
ونظم سمطى ثغرها ووشاحها ... فأبصرت در الثغر أحلى وأنظما
تقول وقد ألمت أطراف كمها ... يدي وقد أنعلت أخمثها الغما
نشدتك لا ينهب بك الشوق مذهباً ... يسهل صعباً أو يرخص مأثما
فأقصرت لا مستغنياً عن نوالها ... ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرما
وقال:
أتذكر إذ مسحت بفيك عيني ... وقد حل البكا فيها عقوده
ذكرت بأن ريقك ماء ورد ... فقابلت الحرارة بالبرودة
وقال:
سألت من المليحة برء دايي ... برشف برودها العذب المزاج
فما زالت تقبل في جفوني ... وتبهرني بأصناف الحجاج
وقالت إن طرفك أصلاً لدايك ... فليقدم في العلاج

توفي بمراكش سنة إحدى وثمانين وخمسماية وحضر السلطان جنازته.
ابن عياش التجيبي البرشاني

محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن عياش التجيبي البرشاني، من أهل حصن برشانة المحسوب في هذه العمالة، يكنى أبا عبد الله، كاتب الخلافة.
حاله
قال القاضي أبو عبد الله بن عبد الملك، كان كاتباً بارعاً، نصيحاً، مشرفاً على علوم اللسان، حافظاً للغات والآداب، جزلاً، سري الهمة، كبير المقدار، حسن الخلق، كريم الطباع، نفاعاً بجاهه وماله، كثير الاعتناء بطلبة العلم، والسعي الجميل لهم، وإفاضة المعروف على قصاده، مستعيناً على ذلك بما نال من الثروة والحظوة والجاه، عند الأمراء من بني عبد المؤمن، إذ كان صاحب القلم الأعلى، على عهد المنصور وابنه، رفيع المنزلة والمكانة لديهم، قاصداً الإعراب في كلامه، لا يخاطب أحداً في كلامه من الناس، على تفاريق أحوالهم، إلا بكلام معرب، وربما استعمله في مخاطبة قدمته وأمته، من حوشي الألفاظ، ما لا يكاد يستعمله، ولا يفهمه إلا حفاظ اللغة من أهل العلم، عادة ألفها واستمرت حاله عليها.
مشيخته

روى عن أبي عبد الله بن حميد، وابن أبي القاسم السهيلي، وابن حبيش، وروى عنه بنوه أبو جعفر، وأبو القاسم، وعبد الرحمن، وأبو جعفر ابن عثمان، وأبو القاسم البلوي.

تواليفه

له اختصار حسن في إصلاح المنطق، ورسايل مشهورة، تناقلها الناس، وشعره يحسن في بعضه.

جاهه

حدث الشيخ أبو القاسم البلوي، قال كنت أخف إليه، وأشفع عنده في كبار المسايل، فيسرع في قضايها. ولقد عرضت لبعض أصحابي من أهل بلاد الأندلس حاجة مهمة كبيرة، وجب علي السعي فيها، ورحوته من جميل أثره في تيسير أمرها، وكان قد أصابه حينئذ التياث لزم من أجله داره، ودخلت عليه عايداً، فأطال السؤال عن حالي، وتبسط معي في الكلام، مبالغة في تأنيس، فأجلت ذكر الحاجة، ورغبت منه في الشفاعة عند السلطان في شأنها، وكان مضطجعاً، فاستوى جالساً، وقال لي، جهل الناس قدري، وكررها ثلاثاً، في مثل هذا أشفع إلى أمير المؤمنين، هات الدواة والقرطاس، فناولته إياهما، فكتب برغبتي، ورفعه إلى السلطان، فصرف في الحين معلماً، فاستدعاني، ودفعه إلي، وقال يا أبا القاسم، لا أرضى منك أن تحجم عني في التماس قضاء حاجة تعرضت لك خاصة، وإن كانت لأحد من معارفك عامة، كبرت أو صغرت؛ فألتزم قضاءها، وعلى الوفا، فإن لكل مكتسب زكاة، وزكاة الجاه بذله.

وحدثني شيخي أبو الحسن بن الجياب، عمن حدثه من أشياخه، قال، عرض أبو عبد الله بن عياش والكاتب ابن القالمي على المنصور كتابين، وهو في بعض الغزوات، في كسلب البرد، وبين يديه كانون جمر. وكان ابن عياش بارع الخط، وابن القالمي ركيكه، ويفضله في البلاغة، أو بالعكس الشك مني. وقال المنصور أي كتب لو كان بهذا الخط، وأي خط لو كان بهذا الكتب، فرضي ابن القالمي، وسخط ابن عياش. فانتزع الكتاب من يد المنصور، وطرحه في النار وانصرف. قال، فتغير وجه المنصور، وابتدر أحد الأشياخ؛ فقال يا أمير المؤمنين، طعنتم له في الوسيلة التي عرفته ببابكم، فعظمت غيرته لمعرفته بقدر السبب الموصل إليكم. فسرى عن المنصور، وقال لأجد خدامه، إذهب إلى السبي، فاختر أجمل نساء الأبكار؛ وأت بابن عياش، فقل له هذه تطفي من خلقك. قال ابن عياش يخاطب ولده، وقد حدث الحديث: هي أمك يا محمد أو فلان.

بعض أخباره مع المنصور

ومحاورته الدالة على جلالة قدره

قال ابن خميس؛ حدثني خالي أبو عبد الله ابن عسكر، أن الكاتب أبا عبد الله بن عياش، كتب يوماً كتاباً ليهودي، فكتب فيه، ويحمل على البر والكرامة. فقال له المصور، من أين لك أن تقول في كافر، ويحمل على ابر والكرامة. فقال له المنصور، من أين لك أن تقول في كافر، ويحمل على البر والكرامة. فقال ففكرت ساعة، وقد علمت أن الاعتراض يلزمني، فقلت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ " إذا أتاكم كريم قوم، فأكرموه " ؛ وهذا عام في الكافر، وغيره. فقال نعم هذه الكرامة، فالمبرة أين أخذتها، قال فسكت ولم أجد جواباً، قال فقرأ المنصور، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " لا ينهاكم الله عن الدين، لم يقاتلونكم في الدين، ولم يخرجوحكم من ديارهم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين " . قال فشهدت بذلك؛ وشكرته.

شعره

من شعره:

بلنسية بيني عن العلياء سلوة ... فإنك روض لا أحن لزهرك

وكيف يجب المرء داراً تقسمت ... على صارمي جذع وفتنة مشرك

وذكره الأديب أبو بحر صفوان بن إدريس في زاد المسافر عند اسم ابن عياش؛ قال، اجتمعنا في ليلة بمراكش، فقال أبو عبد الله ابن عياش:

أشفارها أم صارم الحجاج ... وجفونها أم فتنة الحلاج

فإذا نظرت لأرضها وسمائها ... لم تلف غير أسنة وزجاج

وقال في المصحف الإمام، المنسوب إلى عثمان بن عفان، لما أمر المنصور بتحليته بنفيس الدر من قصيده:

ونقلت من كل ملك ذخيرة ... كأنهم كانوا برسم مكاسبه

فإن ورث الأملاك شرقاً ومغرباً ... فكم قد أخلوا جاهلين بواجبه

وألبسته الدر والياقوت حلية ... وغيرك قد رواه من دم صاحبه

كتابته

قال ابن سعيد في المرقصات والمطربات، أبو عبد الله بن عياش، كاتب الناصر وغيره، من بني عبد المؤمن وواسطة عقد ترسيله، قوله في رسالة كتبها في نزول الناصر على المهدية بحراً وبراً، واسترجاعها من أيدي الملثمين: ولما حللنا عرى السفر، بأن حللنا حمى المهدية، تفاءلنا بأن تكون لمن حل بساحتها هدية، فأحدقنا بها إحداق الهدب بالعين، وأطرنا لمختلس وصالها غربان البين، فبانت بليلة باسنية، وصابح يوماً صافحته فيه يد المنية. ولما اجتلينا منها عروساً، قد مد بين يديها بساط الماء، وتوجهت بالهلال، وقرطته بالثريا، ووشجت بنجوم السماء، والسحب تسحب عليها أردانها، فترتديها تارة متلثمة، وطوراً سافرة، وكأنما شرفاتها المشرفة أنامل مخضبة بالدياجي، مختتمة بالكواكب الزاهرة، تضحي عن شنب لا تزال تقبله أفواه المجانيق، وتمسي باسمة عن لعس، لا تبرح ترشفه شفاه سهام الحريق، خطبناها، فأرادت التنبيه على قدرها، والتوفير في إعلاء مهرها، ومن خطب الحسناء، لم يغله المهر، فتمنعت تمنع المقصورات في الخيام، وأطالت إعمال العامل في خدمتها، وتجريد الحسام، إلى أن تحققت عظم موقعها في النفوس، ورأت كثرة ما ألقى لها من نثار الرؤوس، جنحت إلى الإحصان بعد النشوز، ورأت اللجاج في الامتناع من قبول الإحسان لا يجوز، فأمكنت زمامها من يد خاطبها، فبانت معرساً، حيث لا حجال إلا من البنود، ولا خلوق إلا من دماء أبطال الجنود، فأصبح وقد تلألأت بهذه البشاير وجوه الأفكار؛ وطارت بمسارها سوايح البراري، وسوانح البحار. فالحمد لله الذي أقر الحق في نصابه، واسترجعه من أيدي غصابه، حمداً يجمع شمل النعم، ويلقحها كما تلقح الرياح الديم، فشنفوا الأسماع بهذه البشاير، واملئوا الصدور بما يرويه لكم من أحاديثها كل وارد وصادر، فهو الفتح الذي تفتحت له أبواب السماء وعم الخير واليمن به بسيطي الشرق والماء؛ فشكر الله عليه فرض، في كل قطر من أقطار الأرض.

دخل غرناطة، مرتاداً، ومتعلماً، ومجتازاً.

مولده: ببرشانة بلده، عام خمسين وخمس ماية.

وفاته: توفي بمراكش في شهر رجب الفرد من عام ثمانية عشرة وستماية، رحمه الله.

ابن محمد الهمداني

محمد بن علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد الهمداني من أهل وادي آش، يكنى أبا القاسم ويعرف بابن البراق.
حاله

قال ابن عبد الملك، كان محدثاً حافظاً، راوية مكثرا، ثقة ضابطاً، شهر بحفظ كتب كثيرة، من الحديث، وغيره، ذا نظر صالح في الطلب، أديباً بارعاً، كاتباً بليغاً، مكثراً لجيده، سريع البديهة في النظم والنثر، والأدب أغلب عليه.
قال أبو القاسم بن المواعيني، ما رأيت في عباد الله، أسرع ارتجالاً منه.
مشيخته

روى عن أبي بحر يوسف بن أحمد بن أبي عيشون، وأبي بكر بن زرقون، وابن قيد، وابن إبراهيم بن المل، وابن النعمة وصحبه، ولقيه بمراكش، ووليد بن موفق، وأبي عبد الله بن يوسف بن سعادة، ولازمه أزيد من ست سنين، وأكثر عنه، وابن العمرسي، وأبي العباس بن إدريس، والخروبي، وتلا عليه بالسبع، وأكثر عنه، وعرض عليه من حفظه كثيراً، وابن مضاء، وأبي علي بن عرب، وأبي القاسم بن حييش، وابن عبد الجبار، وأبي محمد بن سهل الضرير، وعاشر وقاسم بن دحمان، وأبي يوسف بن طلحة. وأجاز له أبو بكر بن العربي، وابن خير، وابن مندلة. وابن تمارة، وأبو الحسن شريح، وابن هذيل، ويونس بن مغيث، وأبو الجليل مفرج ين سلمة، وأبو عبد الله حفيد مكي، وأبو عبد الرحمن بن مساعد، وأبو عامر محمد بن أحمد السالمي، أبو القاسم بن بشكوال، وأبو محمد بن عبيد الله وأبو مروان البياض، وابن قزمان، وأبو الوليد بن حجاج.
من روى عنه
روى عنه ابنه أبو القاسم، وأبو الحسن بن محمد بن بقي الغساني، وأبو عبد الله محمد بن يحيى السكري، وأبو العباس النباتي، وأبو عمرو بن عياد، وهو أسن منه وأبو الكرم جودى.
تواليفه
صنف في الأدب مصنفات منها بهجة الأفكار، وفرصة التذكار، في مختار الأشعار، ومباشرة ليلة السفح، ومقاله في الإخوان، خرجها من شواهد الحكم، ومصنف في أخبار معاوية، والدر المنظم في الإحسار المعظم، ومجموع في الألغاز، ورضة الحدائق في تأليف الكلام الرائق، مجموع نظمه ونثره، وملقي السبل في فضل رمضان، وقصيدته في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، وخطرات الواجد في رثاء الواحد، ورجوم الإنذار بهجوم العذار، إلى غير ذلك.
محنته
غربه الأمير ابن سعد من وطنه، وألزمه سكنى مرسية، ثم بلنسية. ولما مات ابن سعد آخر يوم من رجب سبع وستين وخمس ماية، عاد إلى وطنه واستقر به يفيده الدية، إلى آخر عمره.
شعره
وشعره كثير. فمن ذلك القصيدة الشهيرة في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر صحابته:
بالهضب هضب زرود أو تلعاتها ... ساقتك هاتفة على نغماتها
مصدورة تفتن في جيعها ... فيبين نفث السحر في نفثاتها
إن راغها راد الضحى أو راعها ... جنح الدجا سيان في ذكراتها
هذا يمنعها وذاك يشوقها ... والموت في يقظاتها وسناتها
ولولا التعلل بالكرى ينتابها ... نضحت فزور الطيف برح شكاتها

لكن بين جفونها وهنامها ... خرزاً تثير النهب في كراتها
ولئن نصقت لها به فتقول من ... يلقى الرياح بملتقى هباتها
مطلولة الفرعين يلحفها الربى ... كنفاً ويلثمها المنى زهراتها
وتسيغها ماء النخيلة جرعة ... لغياضها من مجتني نجلاتها
منها:
يا من تبلج نوره عن صادع ... بالواضحات الغر من آياتها
يا شارعاً في أمة جعلت به ... وسطاً فغالت مستدام حياتها
في دار خلد لا يشيب وليدها ... حيث الشباب يرف في وجناتها
يا مصطفاها مرفع قدرها ... بأكنفها يا منتهى علياتها
يا منتقاها من راومة هاشم ... يا هاشم الصلبان في نزواتها
يا خاضداً للشرك شوكة حزبه ... يا يا فعاً للعرب في جمراتها
قلت، نقل الشيخ أزيد من ذلك أو ضعفه أو نحوه. إلى أن قال، وهي طويلة، قلت وثقيلة الروح. ولقد صدق في قوله.
ومن شعره:
يا بدر تم طالعاً في الحشيي ... برح بي منك أوان المغيب
حظك من قلبي تعذيبه ... وحظه منك الأسى والوجيب
فمن يكن يزهى بلبس المنى ... فإن زهوى بلحاس النحيب
في ساعة قصر أنيابها ... غيبته لي وحضور الرقيب
وقال:

رثوا القباب بأدمع مغضوضة ... ذوي للفراق وأكبد تتصرم
فللنفس في تلك الربوع حبيبة ... والقلب في إثر الوداع مقسم
هل لي بهاتيك الظبا إلماعة ... أم هل لذاك السرب شمل ينظم
حقاً فقدت الذات عند فراقهم ... فالشخص يوجد والحقيقة تعلم
وفاته

توفي ببلده لثلاث بقين من رمضان ست وتسعين وخمس ماية. قال أبو القاسم المواعيني، عثر في مشيه فسقط، فكان سبب منيته، ودخل غرناطة، في غير ما وجهة منها، راويا عن أبي القاسم بن الفرس. ومع ذلك فهو من أحوازها وبنياتها.
ابن خاتمة الأنصاري
محمد بن علي بن نحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري من أهل ألمرية، يكنى أبا عبد الله.
حاله
من كتاب الإكليل ما نصه: ممن ثكلته اليراعة، وفقدته البراعة، تأدب بأخيه، وتهذبن وأراه في النظم المذهب، وكساه من التفهم والتعليم البرد المذهب، فاقتفي واقتدى، وراح في الحلبة واغتدى، حتى نبل وشدا. ولو أمهله الدهر لمبلغ

المدا. وأما خطه فقيد الأبصار، وطرفة من طرف الأمصار، واعتبط يانع الشبيبة، مخضر الكتيبة.

شعره

كفوا الملام فلا أصغى إلى العذل ... عقلي وسمعي عن العذال في شغل

يقول في هذه القصيدة:

هزل المحبة جد والهوان هوى ... والصب يتلف بين الجد والهزل

من مسعد وفؤادي لا يساعدني ... أو من شفيعي وذلي ليس يشفع لي

أعلل النفس بالآمال أطمعها ... حتى وقعت من التعليل في علل

لئن كنت تجهل ما في الحب من محن ... أنا الخبير فغيري اليوم لا تسل

أنا الذي قد حلبت الحب أشطره ... فلم يفدني لا حولي ولا حيل

لا أشرب الراح كي أحلو براحتها ... لكن لأدفع ما بالنفس من كسل

ولا أجول بطرفي في الرياض سوى ... ذكري لأيامنا في ظلها الأول

أنا العهد مضى ما كان أعذبه ... لم يبق لي غير آيات من الخبل

كم فديتك يا قلبي وأنت على ... تلك الغواية لم تبرح ولم تزل

فاختر لنفسك إما أن تصاحبني ... حلواً وإلا فدعني منك وارتحل

فقد تبعتك حتى سرت من شغفي ... ولوعتي في الهوى أعجوبة المثل

ومن شعره:

ومض البرق فثار القلق ... ومضى النوم وحل الأرق

وينعاني من غرامي قد شكا ... ودموعي من ولوعي تنطق

ودليلي في غليلي زفرتي ... وعذابي بانتحابي أصدق

وحسودي من وقودي رق لي ... ضمناً فيها الحمى والأيفق

وعشيات تقضت باللوى ... في مخيلي الدهر منها رونق

إذ شبابي والتصابي جمعا ... ورياض الأنس غض مونق

شت يوم البين شملي ... ليت ما خلق البين لقلب يعشق

آه من يوم قضى له فرقة ... شاب مني يوم حلت مفرق

ومن ذلك:

أيا جيرة الحي المنمع جاره ... سقى ريقكم دمعي إذا بخل الوبل

متى غبتم عني فأنتم بخاطري ... وإن تقصدوا ذلي فقد لذني الذل

عذابكم قرب وبخلكم ندى ... وإذلاكم عز وهجرانكم وصل

وأنتم نعيمي لا نعمت بغريكم ... وروضي لا ما أريد ولا ظل

ومن ظريف نزعاته قوله:

الرفع نعتكم لا خابك أمل ... والخفض شيمة شأني والهوى دول

هل منكم لي عطف بعد بعدكم ... إذ ليس لي منكم يا سادتي بدل

وفاته

اعتبط في الطاعون في أوايل ربيع الأول عام خمسين وسبعماية. ورد إلى الحضرة غير ما مرة.

ابن قزمان الزهري

محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان الزهري من أهل قرطبة يكنى أبا بكر

حاله

نسيج وحده، أدباً وظرفاً ولوذعية وشهرة. قال ابن عبد الملك، كان أديباً بارعاً، محسناً، شاعراً حلو الكلام، مليح التدير، مبرزاً في نظم الطريقة الهزلية، بلسان عوام الأندلس، الملقب بالزجل. قلت وهذه الطريقة بديعة يتحكم فيها ألقاب البديع، وتنفسخ لكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر. وبلغ فيها أبو بكر مبلغاً حجره الله عن سواه. فهو آيتها المعجزة، وحجتها البالغة، وفارسها العلم، والمبتدي فيها والمتمم، رحمه الله. وقال الفتح فيه: مبرز في البيان، ومحرز السبق عند تسابق الأعيان، اشتمل عليه المتوكل على الله اشتمالاً رقاه إلى مجالس، وكساه ملابس، واقتطع أسمى الرتب وتبوأها، ونال أسنى الخطط وما تمالأها.

شعره

قال الفتح، وقد أثبت له ما يعلم به رفيع قدره، ويعرف كيف أسا الزمن بغدره، قوله:

ركبوا السيول من الخيول وركبوا ... فوق العوالي السمر زرق قطاف

وتجللوا الغدران من ماذيهم ... مرتجة إلا على الأكتاف

وكتب إليه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أبي الخصال يستدعيه إلى مجلس أنس:

أني أهزك هز الصارم الخذم ... وبيننا كل ما تدريه من ذمم

ذاك شاك من قطع أنس أنت واصله ... بما لديك من الآداب والحكم

وشت شمل كرام أنت ناظمه ... ورد دعوة أهل المجد والكرم

ولو دعيت إلى أمثالها لسعت ... إليك سعي مشوق هائم قدم

وإن نشطت لتصريفي صرفت له ... وجهي وكنت من الأعوان والخدم

وما أريد سوى عفو تجود به ... وفي حديثك ما يشفي من الألم

أنت المقدم في فخر وفي أدب ... فاطلع علينا طلوع السيد العمم

فأجابه رحمه الله:

أتى من المجد أمر لا مرد له ... نمشي على الرأس فيه لا على القدم

لبيك لبيك أضعافاً مضاعفة ... إني أجبت ولكن داعي الكرم

لي همة ولأهل العز مطمحها ... لا زلت في كل مجد مطمح الهمم

وإن حقك معروف وملتزم ... وكيف يوجد عندي غير ملتزم

زفن ورقص وما أحببت من ملح ... عندي وأكثر ما تدريه من شيم

حتى يكون كلام الحاضرين بها ... عند الصباح وما بالعهد من قدم

يا ليلة السفح هلا عدت ثانية ... سقى زمانك هطال من الديم

وقال في غرض النسيب:

يا رب يوم زادني فيه ... من أطلع من غربه كوكبا

ذو شفة لمياء معسولة ... ينشع من خديه ماء الصبا
قلت له وهب لي بها قبلة ... فقال لي مبتسما مرحبا
فذقت شيئاً لم أذق مثله ... لله ما أحلى وما أعذبا
أسعدني الله بإسعاده ... يا شقوتي يا شقوتي لو أبا
وقال:
جئت لتوديعه وقد ذرفت ... عيناي من حسرة وعيناه
في موكب البين باكين ولا ... أصعب من موقف وقفناه
معانقاً جيده على حذر ... فمن رآني مقبلاً فاه
نغص توديعه لعاشقه ... ما كان من قبل قد تمناه
وقال يعتذر ارتجالا وأحسن ما أراد:
يا أهل ذا المجلس السامي سراوته ... ما ملت لكنني مالت بن الراح
وإن أكن مظعناً مصباح بيتكم ... فكل من فيكم في البيت مصباح
وقال يهني بعرسك
صرفت إليك وجوهها الأفراح ... وتكنفتك سعادة ونجاح
فاقض المآرب في زمان صالح ... لا سد عنك من الزمان صلاح
إن كان كالشمس المنيرة حسنها ... فالبدر أنت وما عليك جناح
لا فرق بينكما لرأي فاستوى ... زي النساء قلادة ووشاح
هل يوقد المصباح عند كما مهجاً ... وكلاكما ببهائه مصباح
أحرزت يا عبد العزيز محاسنا ... كثرت فلم تستوفها الأمداح
يا من له كف تجود وأضلع ... مطوى على حفظ الوداد شجاح

ما ألقت الحاجات دوني قفلها ... إلا ويمن يمينك المفتاح
في كل ما تنحو إليه ملاحة ... وكذاك أفعال المليح ملاح
ومن الحكمة قوله:
كثير المال تبذله فيبقى ... ولا يبقى مع البخل القليل
ومن غرست يداه ثمار جود ... ففي ظل الثناء له مقيل
وقال رحمه الله:
وعهدي بالشباب وحسن قدي ... حكى ألف ابن مقلة في الكتاب
فصرت اليوم منحنياً كأني ... أفتش في التراب على الشباب
وقال رحمه الله:
يمسك الفارس رمحاً ... وأنا أمسك فيها قصبة
وكلانا بطل في حربه ... إن الأقلام رماح الكتبة
قال ابن عبد الملك: أنشدت على شيخنا أبي الحسن الرعيني، قال، أخبرنا الراوية أبو القاسم بن الطيلسان، قال سألته، يعني أبا القاسم أحمد بن أبي بكر هذا، أن ينشد شيئاً من شعر أبيه المغرب، فأخرج لي قطعة بخط أبيه وأنشده.

وقال أنشدني أبي رحمه الله لنفسه:

أحسن ما نيط في الدعا لمن ... رتب في خطة من الخطط
خلصك الله من عوايقها ... ودمت في عصمة من الغلط
مقرباً منك ما تسر به ... وكل مكروهة على شحط
الكل بالعدل منك مغتبط ... وليس في الناس غير مغتبط
وليس يخليك من أنا لكها ... من عمل بالنجاة مرتبط
فانفذ بعون الله مجتهدا ... بقلب صفي بالضمير مرتبط
يا صاحب الأمر والذي يده ... نايلها للعفاة غير بط
رفعتم يا بني رفاعة ما كان ... من المعلوات في هبط
ومنبر الحق من سواه بكم ... فها هو الآن غير مختلط
وانضبط الأمر واستقام لكم ... ولم يكن من قبل ذا بمنضبط
أتيت في كل ما أتيت به ... فالغيث بعد الرجا والقنط
جللت عمن سواك منزلة ... فلست ممن سواك في نمط
أنت من المجد والعلا طرف ... وكلهم في العلا من الوسط

كتابته

وقفت من ذلك على أفانين. منها في استهلال شهر رمضان قوله:

سلام على أنس المجتهدين، وراحة المتهجدين، وقرة أعين المهتدين، والذي زين الله به الدنيا، وأعز به الدين. شرف الله به الإسلام، وجعل أيامه رقوماً في عواتق الأيام. وشهوره غرراً في جباه الأعلام، وحل به عن رقاب الأمة قلايد الآثام، ونزه فيه الأسماع عن المكاره، وصان الأفواه من رفث الكلام. أشهد أن اله أنبني عليك، وأدخل من شاء الجنة على يديك، وخصك من الفضايل بما يمشي فيه التفسير حتى يكل ويسأم، ذلك اللسان ويمل، وأبادت ذنوب الأمة بمثل ما أبادت الشمس الظل، ذلك الذي يتهلل للسماء هلاله، ويهتز العرش لجلاله، وترتج الملايكة في حين إقباله، وتدخل الحور العين في زينتها تكريماً، وتلتزم إجلاله وتعظيماً، ويهتدي فيه الناس إلى دينهم صراطاً مستقيماً، وتغل الشياطين على ما خليت. وتذوق وبال ما كادت به وتخيلت، ويشمر التقي لعبادة ربه ذيلاً، وتهبط الملايكة إلى سماء الدنيا ليلا، وينتظم المتقون في ديوانه انتظام السلك. ويكون خلوف فم الصايم عند الله أطيب من ريح المسك، وتفتح الجنة أبواباً، ويغفر لمن صامه إيماناً واحتساباً، جزاء من ربك عطاء حسابا، وبما فضلك الله على سائر الشهور، وقضى لك بالشرف والفضل المشهور. فرضك في كتابه، ومدحك في خطابه، حيث قال، شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان، يعني تكبير الناس عليك، وتقليب أحداقهم بالنظر إليك، حين لثمت بالسحاب، ونظرت من تحت ذلك النقاب، وقد يمتاز الشيب وأن استتر بالخضاب، حتى إذا وقف الأيمة منك على الصحيح، وصرحوا برؤيتك كل التصريح، نظرت كل جماعة في اجتماعها، وتأهبت القراء لإشفاعها، واندفعت الأصوات باختلاف أنواعها، وتضرعت الألباب، وطلبت المواقف أواخر العشار والأحزاب، وابتديت ألم ذلك الكتاب، عندما أوقدت قناديل كأنما قد بدت من الصباح، ورقصت رقص النواهد عند هبوب الرياح، والله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، فأملك المسلمون في سر وجهر، وحطت

أثقال السيئات عن كل ظهر، والتمست الليلة التي هي خير من ألف شهر، فنشط الصالحون بك صوماً، وهجر المتهجدون في ليلك نوماً، وأكملناك إن أذن الله ثلاثين يوما. فيا أيها الذي رحل، رحل بعد مقامة، وقام للسفر من مقامه، ورأى من قضى حقه، ومن قصر في صيامه، فمشى الناس إلى تشييعه، وبكوا لفراقه وتوديعه، وندم المضيع على ما كان من تضييعه، ولم يتق بدوام العيش إلى وقت رجوعه، فعض على كفه ندماً، وبكت عيه ماء وكبده دماً. رويداً حتى أمرح في ميدان فراتك، وأتضرع إلى حنانك وإشفاقك، وأتشفى من تقبيلك وعناقك، وأسل منك حاجة إن أراد الله قضاها، وشاء نفوذها وإمضاها، إذا أنت وقفت لرب العالمين، فقبلك من قوم، وردك في وجوه آخرين. إن تثنى جميلاً، فعسى يصفح لعهده وإن أسا، فعلم الله أني نويت التوبة أولا وآخراً، وأملت الأداء باطنا وظاهرا، وكنت على ذلك لو هدى الله قادراً، وإنما علم، من تقصير الإنسان ما علم، وللمرء ما قضى عليه به وحكم، وإن النفس لأمارة بالسوء غلا من رحم، فإن غفر فبطوله وإحسانه، وإن عاقب فيما قدمت يد العبد من عصيانه، فيا وحشة لهذه الفرقة، ويا أسفاً على بعد الشقة، ويا شد ما خلفته لنا بفراقك من الجهد والمشقة، ولطالما هجر الإنسان بك ذنبه، وراقب إعظاماً لكربه، وشرحت إلى أعمال البر قلبه. ومع هذا أتراك ترجع وترى، أم تضم علينا دونك أطباق الثرى. فيا ويلنا إن حل الأجل، ولم أقض دينك، ورجعت وقد حال الموت بيني وبينك. فأغرب، لا جعله الله آخر التوديع، وأي قلب يستطيع.

وقال في استهلال شوال:

ولكل مقام مقال. الله أكبر هذا هلال شوال قد طلع، وكر في منازله وقطع، وغاب أحد عشر شهراً، ثم رجع. مالي أراه رقيق الاستهلال، خفي الهلال، وروحاً تردد في مثل انملال، ما باله أمسى الله رسمه، وصحح جسمه، ورفع في شهور العام اسمه، على وجهه صفرة بينة، ونار إشراقه لينة، وأرى السحاب تعتمده وتقف، وتغشاه سويعة وتنصرف، ما أراه إلا بطول ذلك المقام، وتوالي الأهوال العظام. أصابه مرض في فصل من فصول العام، فعادته كما يعاد المريض، وبكته الأيام الغر والليالي البيض، وقلن كلأك الله وكفاك، وحاطك وشفاك، وقل كيف نجدك، لا فض فاك، هذا على الظن لا على التحقيق، ومجاز لا يحكم التصديق. وإنه ليبعد مثل هذا المقدار، أن يقدح فيه طول الغيب، وتواتر الأسفار. أليس هو قد ألف مجالي الرياح، وصحب برد الصباح، وشاهد الأهوية مع الغدو والرواح، وطواها بتجربته طي الوشاح. ما ذاك إلا أنه رأى الشمس في بعض الأيام ماشية، والحسن يأخذ منها وسطاً وحاشية، ودلائل شبابها ظاهرة فاشية، فوقع منها في نفسه ما وقع، وثبت على قلبه من النظر ما زرع، ووقع في شركها، وحق له أن يقع. فرثت هي لحاله وأشفقت، ونهجت بوصالها وتأنقت، وقطعت من معدن نيلها وأنفقت، ورأت أنها له شاكله يبلغ أملها، وتبلغ مأمله، ولذلك ما مدت لنيذ السماح، فتعرضت بالعشي، وارتصدها في الصباح، مع ما أيقنا به من النقطاع، ويمسنا من الاجتماع، كما نفد القدر، وصدر الخبر. وقال تعلن لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، فوجد لذلك وجداً شديداً، وأذاقه مع الساعات شوقاً جديداً، وأصبح بها دنفاً، وأمسى عميداً، حتى سلب ذلب بهاه، وأذهب سناه، ورده النحول كما شاه، ولقي مها مثل ما لقي غيلان من ميته، وجميل من بثينته، وحن إليها حنين عروة إلى عفرا، وموعدهما يوم وهب ناقته الصفراء. على رسك أني وهمت، وحسبت ذلك حقاً وتوهمت، والآن وقد فطنت، وأصبت الفص فيما ظننت، إنه لقي رمضان ي إقباله، وضمه نقصان هلاله، وصامه فجأة ولم يك في باله، فأثر ذلك في وجهه الطلق، وأضعفه كما فعل بساير الخلق، وها هو قد أقبل من سفره البعيد، فقل هو هلال الفطر أو قل هو هلال العيد، فلقه صباح مشى الناس فيه مشيى الحباب، ولبسوا أفضل الثياب، وبرزوا إلى مصلاهم من كل باب، فارتفعت همة الإسلام. وشرفت أمة محمد عليه السلام، وخطب بالناس ودعا

للإمام، عندما طلعت الشمس بوجه المرآة، ولون كصفا المهراة. وخرج لا ينسيها ريم الفلاة. وقضوا السنة، وبذلوا الجهد في ذلك والمنة، وسألوا من الله أن يدخلهم الجنة، ثم خطبوا حمداً لله وشكراً، وذكروه كذكرهم آبائهم أو أشد ذكراً، ثم انصرفوا راشدين، وافترقوا حامدين، وشبك الشيخ بيديه، ونظر الشاب في كفيه. ورجعوا على غير الطريق الذي أتوا عليه، فلقد استشفى من الرؤية ذو عينين، وتذكر العاشق موقف البين، وشق المتنزه بين الصفين، فنقل عينيه من الوشيي إلى الديباج، ووجوه كضوء السراج، وعيون أقتل من سيف الحجاج، ونظرات لا يدفع داؤها بالعلاج، وقد زينت العيون بالتكحيل، والشعور بالترجيل، وكرر السواك على مواضع التقبيل، وطوقت الأعناق بالعقود، وضرب الفكر في صفحات الخدود، ومد بالغالية على مواضع السجود، وأقبلت صنعاً بأوشيتها، وعنت بأرديتها، ودخلت العروس في حليتها، ورقمت الكفوف بالحناء، وأثني على الحسن وهو أحق بالثناء، وطلقت التوبة ثلاثاً بعد البناء، وغص الذراع بالسوار، وتختم في اليمين واليسار، وأمسكت الثياب بأيدي الأبكار، ومشت الإماء أمام الأحرار، وتقدمت الدايات بالأطفال الصغار، وامتلأت الدنيا سروراً، وانقلب الكل إلى أهله مسروراً. وبينما كانت الحال كما نصصت، والحكاية كما قصصت، إذ لألأت الدنيا برقاً، وامتد مع الأفقين غرباً وشرقاً، ورد لمعانه عيون الناظرين زرقاً، ولولا أنه جرب حتى يدرا، لقيل قد طلعت مع الشمس شمس أخرى، حتى أقبل من شرفت العرب بنسبه، وفخر الإسلام بسببه، من انتسب إلى زهرة وقصي، وازدانت به آل غالب وآلي لؤي، من إذا ذكر المجد فهو ممسك بنده، أو الفضل فهو لابس برده، أو الفخر فهو واسطة عقده، أو الحسن فهو نسيج وحده، الذي رفع لواء العليا، وعارضت مكارمه صوب الحبا، وحكت محاسنه زهرة الحياة الدنيا. فأما وجهه فكما شرقت الشمس وأشرقت، وغربت كواكب سمايها وشرقت، وتفتحت أطواق الليل عن غرر ومجده وتشققت. ولولا حياً يغلب

عليه، وخفر يصحبه إذا نظرت إليه، لاستحال النهار، وغارت لنوره كواكب الأسحار، ولكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، لا يخفل بالصبح إذا انفلق، ولا بالفجر إذا عم آفاق الدجا وطبق، ولو بدا للمسافر في ليله لطرق، قد عجم الأبنوس على العاد، وأدار جفناً كما عطف على أطفالها النعاج، يضرب بها ضرب السيف، ويلم بالفؤاد إلمام الطيف، ويتلقاها السحر تلقي الكريم للضيف، لو جردها على الريم لوقف، أو على فرعون ما صرف من سحره ما صرف، أو على بسطام ابن قيس لألقى سلاحه وانصرف. وأما أدواته فكما انشقت الأرض عن نباتها، وأخذت زخرفها في إنباتها، ونفخ عرف النسيم في جنباتها، يتفنن أفانين الزهر، ويتقلب تقلب الدهر، وتطلع له نوادر كالنجوم الزهر، لو أبصره مطرف ما شهر بخطه، ولا جر من العجب ذيل مرطه، ولا كان المخبر معه من شرطه. وأما أنه لو قرى على سحبان كتابه، وانحدر على نهره عبابه، وملأت مسامعه أطنابه وأسبابه، ما قام في بيانه ولا قعد، ولنزل عن مقامه الذي إليه صعد، ولا خلف من بلاغته ما وعد. لعمرك ما كان بشر بن المعتمر بتفنن للبلاغة فنوناً، ولا يتقبلها بطوناً ومتوناً، ولا أبو العتاهية ليشرطها كلاماً موزوناً، ولا نمق الحسن بن سهل الألفاظ، ولا رفع قس بن ساعدة صوته بعكاظ، ولا أغلظ زيد بن علي، هشاماً بما أغاظ. وأما مكارمه فكما انسكب الغيث عن ظلاله وخرج الودق من غلاله، فتدارك النعمة عن فوتها، وأحيا الأرض بعد موتها. ذلك الشريف الأجل، الوزير الأفضل، أبو طالب ابن القرشي الزهري، أدام الله اعتزازه، كما رقم في حلل الفخر طرازه، فاجتمعت به السيادة بعد افتراقها. وأشرق وجه الأرض لإشراقها، والتفت الثياب بالثياب، وضم الركاب بالركاب، ولا عهد كأيام الشباب، فوصل القريب البعيد، وهنوه كما جرت العادة بالعيد، فوقف مع ركابه وسلمت، وجرت كلاماً وبه تكلمت، فقلت تقبل الله سعيك، وزكى عملك، وبلغك فيما توده أملك، ولا تأملت وجهاً من السرور غلا تأملك،

ونفعك بما أوليت، وأجزل حظك على ما صمت وصليت، ووافقتك لعل وساعدتك ليت، وهناك عيد الفطر وهنأته، وبداك بالمسرات وبدأته، وتبرأ لك الدهر مما تحسد وبرأته. وهكذا بحول الله أعياد واعتياد، وعمر في دوام، وعز في ازدياد، والسنة تفصح بفضلك إفصاح الخطباء من إياد، وأقرأ عليك سلام الله ما أشرق الضحا، ودام الفطر والأضحى.، وخفر يصحبه إذا نظرت إليه، لاستحال النهار، وغارت لنوره كواكب الأسحار، ولكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، لا يحفل بالصبح إذا انفلق، ولا بالفجر إذا عم آفاق الدجا وطبق، ولو بدا للمسافر في ليله لطرق، قد عجم الأبنوس على العاد، وأدار جفناً كما عطف على أطفالها النعاج، يضرب بها ضرب السيف، ويلم بالفؤاد إلمام الطيف، ويتلقاها السحر تلقي الكريم للضيف، لو جردها على الريم لوقف، أو على فرعون ما صرف من سحره ما صرف، أو على بسطام ابن قيس لألقى سلاحه وانصرف. وأما أدواته فكما انشقت الأرض عن نباتها، وأخذت زخرفها في إنباتها، ونفخ عرف النسيم في جنباتها، يتفنن أفانين الزهر، ويتقلب تقلب الدهر، وتطلع له نوادر كالنجوم الزهر، لو أبصره مطرف ما شهر بخطه، ولا جر من العجب ذيل مرطه، ولا كان المخبر معه من شرطه. وأما أنه لو قرى على سحبان كتابه، وانحدر على نمره عبابه، وملأت مسامعه أطنابه وأسبابه، ما قام في بيانه ولا قعد، ولنزل عن مقامه الذي إليه صعد، ولا خلف من بلاغته ما وعد. لعمرك ما كان بشر بن المعتمر بتفنن للبلاغة فنوناً، ولا يتقبلها بطوناً ومتوناً، ولا أبو العتاهية ليشرطها كلاماً موزوناً، ولا نمق الحسن بن سهل الألفاظ، ولا رفع قس بن ساعدة صوته بعكاظ، ولا أغلظ زيد بن علي، هشاماً بما أغاظ. وأما مكارمه فكما انسكب الغيث عن ظلاله وخرج الودق من غلاله، فتدارك النعمة عن فوتها، وأحيا الأرض بعد موتها. ذلك الشريف الأجل، الوزير الأفضل، أبو طالب ابن القرشي الزهري، أدام الله اعتزازه، كما رقم في حلل الفخر طرازه، فاجتمعت به السيادة بعد افتراقها. وأشرق وجه الأرض لإشراقها، والتفت الثياب بالثياب، وضم الركاب بالركاب، ولا عهد كأيام الشباب، فوصل القريب البعيد، وهنوه كما جرت العادة بالعيد، فوقف مع ركابه وسلمت، وجرت كلاماً وبه تكلمت، فقلت تقبل الله سعيك، وزكى عملك، وبلغك فيما توده أملك، ولا تأملت وجهاً من السرور غلا تأملك، ونفعك بما أوليت، وأجزل حظك على ما صمت وصليت، ووافقتك لعل وساعدتك ليت، وهناك عيد الفطر وهنأته، وبداك بالمسرات وبدأته، وتبرأ لك الدهر مما تحسد وبرأته. وهكذا بحول الله أعياد واعتياد، وعمر في دوام، وعز في ازدياد، والسنة تفصح بفضلك إفصاح الخطباء من إياد، وأقرأ عليك سلام الله ما أشرق الضحا، ودام الفطر والأضحى.

دخوله غرناطة

دخل غرناطة، وتردد إليها غير ما مرة، وأقام بها؛ وامتدح ابن أضحى وابن هاني، وابن سعيد وغيرهم من أهلها. قال ابن سعيد في طالعه، وقد وصف وصول ابن قزمان إلى غرناطة، واجتماعه بجنبته بقرية الزاوية من خارجها، بنزهون القليعية الأديبة، وما جرى بينهما، وأنها قالت له بعقب ارتجال بديع، وكان لبس غفاره صفراء، أحسنت يا بقرة بني إسرائيل، إلا أنك لا تسر الناظرين، فقال لها إن لم أسر الناظرين، فأنا أسر السامعين، وإنما يطلب سرور الناظرين منك، يا فاعلة يا صانعة. وتمكن السكر من ابن قزمان، وآل الأمر إلى أن تدافعوا معه حتى رموه في البركة، فما خرج منها إلا وثيابه تقطر، وقد شرب كثيراً من الماء، فقال إسمع يا وزير ثم أنشد:

إيه أبا بكر ولا حول لي ... بدفع أعيان وأنذال

وذات جرح واسع دافق ... بالماء يحكي حال أذيال

غرقتني في الماء يا سيدي ... كفره بالتغريق في المال

فأمر بتجريده، وخلع عليه ما يليق به ولمن يمر لهم بعد عهدهم بمثله.

ولم ينتقل ابن عزمان من غرناطة، إلا بعد ما أجزل من الإحسان، ومدحه بما هو في ديوان أزجاله.

محنته

جرت عليه بابن حمدين محنة كبيرة، عظم لها نكاله، بسبب شكاسة أخلاق كان موصوفاً بها، وحدة شقي بسببها.

وقد ألم الفتح في قلايده بذلك، واختلت حاله بآخرة، واحتاج بعد انفصال أمر مخدومه الذي نوه به.

توفي بقرطبة لليلة بقيت من رمضان سنة خمس وخمسين وخمس ماية، والأمير ابن سعد يحاصر قرطبة. رحمه الله.

محمد بن غالب الرصافي

يكنى أبا عبد الله، بلنسي الأصل، سكن غرناطة مدة، ثم مالقة.

حاله

قال الأستاذ، كان فحلاً من فحول الشعراء، ورئيساً في الأدباء، عفيفاً، ساكناً، وقوراً، ذا سمت وعقل. وقال القاضي، كان شاعراً مجيداً، رقيق الغزل، سلس الطبع، بارع التشبيهات، بديع الاستعارات، نبيل المقاصد والأغراض، كاتباً بليغاً، دنياً، وقوراً، عفيفاً، متفقهاً، عالي الهمة، حسن الخلق والخلق والسمت، تام العقل، مقبلاً على ما يعنيه من التعيش بصناعة الرفي التي كان يعالجها بيده، لم يبتذل نفسه في خدمة، والتعرض لانتجاع بقافية، خلا وقت سكناه بغرناطة، فغنه امتدح واليها حينئذ، ثم نزع عن ذلك، راضياً بالخمول حالاً، والقناعة مالاً، على شدة الرغبة فيه، واغتنام ما يصدر عنه.

أخبار عقله وسكونه

قال الفقيه أبو الحسن شاكر بن الفخار المالقي، وكان خبيراً بأحواله: ما رأيت عمري رجلاً أحسن سمتاً، وأطول صمتاً، من أبي عبد الله الرصافي. وقال غيره من أصحابه، كان رفاء، فما سمع له أحد من جيرانه كلمة في أحد. وقال أبو عمرو ابن سالم، كان صاحباً لأبي، ولقيته غير ما مرة، وكان له موضع يخرج إليه في فصل العصير، فكنت أجتاز عليه مع أبي فألثم يده، فربما قبل رأسي، ودعا لي، وكان أبي يسله الدعاء فيخجل، ويقول أنا والله أصغر من ذلك. قال، وكان بإزايه أبو جعفر البلنسي. وكان متوقد الخاطر، فربما تكلم مع أحد التجار، فكان منه هفوة، فيقول له جلساؤه، شتان والله بينك وبين أبي عبيد الله في العقل والصمت، فربما طالبه بأشياء ليجاوبه عليها، فما يزيد على التبسم. فلما كان أحد الأيام، جاء البلنسي ليفتح دكانه. فتعمد إلقاء الغلق من يده، فوقع على رأس أبي عبد الله. وهو مقبل على شغله، فسال دمه، فما زاد على أن قام ومسح الدم، ثم ربط رأسه، وعاد إلى شغله. فلما رأى ذلك منه أبو جعفر ترامى عليه، وجعل يقبل يديه، ويقول، والله ما سمعت برجل أصبر منك، ولا أعقل.

شعره

وشعره لا نهاية فوفه رونقاً ومائية، وحلاوة وطلاوة، ورقة ديباجة، وتمكن ألفاظ، وتأصل معنى. وكان رحمه الله، قد خرج صغيراً من وطنه، فكان أبداً يكثر الحنين إليه، ويقصر أكثر منظومه عليه. ومحاسنه كثيرة فيه، فمن ذلك قوله:

خليلي ما لليد قد عبقت نشرا ... وما لرؤوس الركب قد رجحت سكرا

هل المسك مفتوتاً بمدرجة الصبا ... أم القوم أجروا من بلنسية ذكرا

خليلي عوجا بي قليلاً فإنه حديث ... كبرد الماء في الكبد الحرا

قفا غير مأمورين ولتتصديا ... على ثقة للمزن فاستسقيا القطرا

بجسر معان والرصافة إنه على القطر أن يسقى الرصافة والجسرا
بلادي التي ريشت قويد متى بها ... فريخاً وأورثتني قرارتها وكرا
فبادي أنيق العيش في رريق الصبا ... أبى الله أن أنسى اغتراري بها غراً
لبسنا بها ثوب الشباب لباسها ... ولكن عرينا من حلاه ولم تعرا
أمنزلنا عصر الشبيبة ما الذي ... طوى دوننا تلك الشبيبة والعصرا
محل أغر العهد لم نبد ذكره ... على كبد إلا امترى أدمعاً حمرا
أكل مكان كان في الأرض مسقطاً ... لرأس الفتى يهواه ما عاش مضطرا
ولا مثل مدحو من المسك تربة ... تملي الصبا فيه حيقتها عطرا
نبات كأن الخد يحمل نوره ... تخال لجيناً في أعاليه أو تبرا
وما كثر صيع المجرة جللت ... نواصيه الأزهار واشتبكت زهرا
أنيق كريان الحياة التي خلت ... طليق كريعان الشباب الذي مرا
وقالوا هل الفردوس ما قد وصفته ... فقلت وما الفردوس في الجنة الأخرا
بلنسية تلك الزمردة التي ... تسيل عليها كل لؤلؤة نهرا
كأن عروساً أبدع الله حسنها ... فصير من شرخ الشباب لها عمرا
يويد منها شعشعانية الضحى ... مضاحكة الشمس البحيرة والبحرا
تراجم أنفاس الرياح بزهرها ... نجوماً فلا شيطان يغربها ذعرا
وإن كان قد مدت يد البين بيننا من الأرض ما يهوى المجد به شهرا
هي الدرة البيضاء من حيت جدتها ... أضاءت ومن للدر أن يشبه الدرا
خليلي أن أسدر لها فإنها ... هي الوطن المحبوب أوكلته الصدرا
ولم أطوعنها الخطو هجراً لها إذاً ... فلا لثمت نعلي مساكنها الخضرا
ولكن إجلالاً لتربتها التي ... تضم فتاها الندب أو كهلها الحرا
أكارم عاث الدهر ما شاء فيهم ... فبادت لياليهم فهل أشتكى الدهرا
هجوع ببطن وأرض قد ضرب الردى عليهم قبيبات فويق الثرى غبرا
تقضوا فمن نجم سالك ساقط ... أبي الله أن يرعى السماك أو والنشر
ومن سابق هذا إذا شا غاية شا ... وغير محمود جياد العلى خضرا
أناس إذا لاقيت من شيت منهم ... تلقوك لا غث الحديث ولا غمرا
وقد درجت أعمارهم فتطلعوا ... هلال ثلاث لو شفا رق أو بدرا
ثلاثة أمجاد من النفر الألى ... زكوا خبراً بين الورى وزكوا خبرا
تكلتهم ثكلاً دهى العين والحشى ... فعجرذا أماً وسجر ذا جمرا
كفى حزناً أني تباعدت عنهم ... فلم ألق من سرى منها ولا سرا
وإلى متى أسل بهم كل راكب ... ليظهر لي خيراً تأبط لي شرا
أباحثه عن صالحات عهدتها هناك ... فيسبني بما يقصم الظهرا
محياً خليل عاض ماء حياته ... وساكن قصر أضر مسكنه القبرا

وأزهر كالإصباح قد كنت أجتلي ... سناء كما يستقبل الأرق الفجرا
يصرف ما بين اليراعة والقنا ... أنامله لا بل هواطله الغرا
طويل نجاد السيف لان كأنما ... تخطى به في البرد خطية سمرا
سقته على ما فيك من أريحية ... خلايق هن الخمر أو تشبه الخمرا
ونشر محيا للمكارم لو سرت ... حمياه في وه الأصيل لما اصفرا
هل السعد إلا حيث حط صعيده ... لمن بل في شفري ضريح له شفرا
طوين الليالي طيهن وإنما ... طوين عني التجلد والصبرا
فلا حرمت سقياه أدمع مزنة ... ترى مبسم النوار عنبر معترا
وما دعوتي للمزن عذراً لدعوتي ... إذا ما جعلت البعد عن قربه عذرا
وقال برثي أبا محمد بن أبي العباس بمالقة:

أبنى البلاغة فيم حفل النادى ... هبها عكاظ فأين قس أياد
أما البيان فقد أجر لسانه ... فيكم بفتكته الحمام العاد
عرشت سما علايكم ما أنتم ... من بعد ذلكم الشهاب الهادي
حطوا على عمد الطريق فقد خبت ... لآلى ذاك الكوكب الوقاد
ما فل لهزمه الصقيل وإنما ... نثرت كعوب قناكم المناد
إيه عميد الحي غير مدافع ... إيه فدى لك غابر الأمجاد
ما عذر سلك كنت عقد نظامه ... إن لم يصر برداً إلى الأباد
كثف الحجاب فما ترى منفضلا ... في ساعة تصغي به وتناد
ألم بربعك غير مأمور فقد ... غص القنا بأرجل القصاد
خبراً يبلغه غير مأمور فقد ... غص القنا بأرجل القصاد
خبراً يبلغه إليك ودونه ... أمن العداة وراحة الحساد
قد طأطأ الجبل المنيف قذاله ... للجار بعدك واقشعر الواد
أعد التفاتك نحونا وأظنه ... مثل الحديث لديك غير معاد
وامسح لنا عن مقلتيك من الكرى ... نوماً تكابد من بكى وسهاد
هذا الصباح ولا تهب إلى ... متى طال الرقاد ولات حين رقاد
وكأنما قال الردى نم وادعاً ... سبقت إلى البشرى بحسن معاد
أموسداً تلك الرخام بمرقد ... أخشن به من مرقد ووساد
خضبت بقدرك حفرة فكأنها ... من جوفها في مثل حرف الصاد
وثر لجنبك من أثاث مخيم ... ترب ند وصفايح أنضاد
يا ظاعناً ركب السرى في ليلة ... طار الدليل بها وحاد الحاد
أعزز علينا أن حططت بمنزل ... تبل عن الزوار والعواد
جار الأفراد هنالك جيرة ... سقياً لتلك الجيرة الأفراد
الساكنين إلى المعاد قبابهم ... منشورة الأطناب والأعماد

من كل ملقية الجراب بمضرب ... ناب البلى فيه عن الأوتاد
بعرس السفر الألى ركبوا ... السرى مجهولة الغايات والآماد
سيان فيهم ليلة ونهارها ... ما أشبه التأويب بالإسناد
لحق البطون من اللعب على الطوى ... وعلى الرواحل عنفوان الزاد
لله هم فلشد ما نفضوا من ... أمتعة الحياة في حقايب الأجساد
ياليت شعري ولامنا لك جنة ... والحال مرذنة بطول بعاد
هل للعلا بك بعدها من نهضة ... أم لانقضاء نواك من ميعاد
بأبي رقد ساروا بنعشك صارم ... كثرت حمايله على الأكناد
ذلت عوانق حاميك فإنها ... شاموك في غمد بغير نجاد
نعم الذما البر ما قد غوروا ... جثمانه بالأبرق المنقاد
عليا خص بها الضريح وإنما ... نعم الغوير بأبؤس الأنجاد
أبنى العباس أي حلاحل ... سلبتكم الدنيا وأي مصاد
هل كان إلا العين وافق سهمها ... قدراً فأقصد أيما إقصاد
أخلل جد لا يسد مكانه ... بالإخوة النجباء والأولاد
ولكم يرى بك من هضاب لم يكن ... لولاك غير دكادك ووهاد
ما زلت تنعشها بسيبك قابضاً ... منها على الأضباع والأعضاد
حتى أراك أبا محمد الردى ... كيف انهداد بواذخ الأطواد
يا حرها من جمرة مشبوبة ... يلقى لها الأيدي على الأكتاد
كيف العزاء وإنها لرزية ... خرج الأسى فيها عن المعتاد
صدع النعاة بها فقلتن لمدمعي ... كيف انسكابك يا أبا الجواد
لك من دمي ما شيت غير منهنه ... صب كيف شيت معصفر الأبراد

بقصير مجتهد وحسبك غاية ... لو قد بلغت بها كبير مراد
أما الدموع فهي أضعف ناصر ... لكنهن كثيرة التعداد
ثم السلام ولا أغب قراره ... وأرتك صوب روايح وغواد
تسقيك ما سفحت عليك يراعة ... في خد قرطاس دموع مداد
ومن غرامياته وإخوانياته قوله من قصيدة:
عاد الحديث إلى ما جر أطيبه ... والشيء يبعث ذكر الشيء عن سبب
إيه عن الكدية البيضاء إن لها ... هوى يغلب أخيك الواله الوصب
راوح بها السهل من أكنافها ... وأرح ركابنا ليلنا هذا من التعب
وانضح نواحيها من مقلتيك وسل ... من الكثيب الكريم العهد في الكتب
وقل لسرحته يا سرحة كرمت ... على أبي عامر عزي عن السحب
يا عذبة الماء والظل انغمى ... طفلا حييت ممسية ميادة الغضب
ماذا على ظلك الألمى وقد قلصت ... أفياؤه لو ضفى شياً لمغترب

أهكذا تنقضي نفسي لديك ظما ... الله في رمق من جارك الجنب
لولاك يا سرح لم يبق الفلا عطلا ... من السرى والدجا خفاقة الطنب
ولم نبت نتقاضى من مدامعنا ... ديناً لتربك من رقراقها الرب
إنا إذا ما تصدى من هوى طلل ... عجنا عليه فحييناه عن كثب
مستعطفين سخيات الشئون له ... حتى يحاك عليه موق العشب
سلي خميلتك الريا بأية ما ... كانت ترف بها ريحانة الأدب
عن فتية نزلوا على سرارتها ... عفت محاسنهم إلا من الكتب
محافظين على العليا وربما ... هزوا السجايا قليلاً بابنة النب
حتى إذا ما قضوا من كأسها وطراً ... وضاحكوها لدى جد من طرب
راحوا رواحاً وقد ريدت عمايمهم ... حلماً ودارت على أسفي من السبب
لا يظهر الشكر حالاً في ذوايبهم ... إلا التفات الصبا في السن العذب
المنزلين القوافي ن معاقلها ... والخاضدين لديها شوكة العرب
ومن مقطوعاته قوله:
دعاك خليل والأصيل كأنه ... عليل يقضي مدة الزمن الباق
إلى شط منساب كأنك ماؤه ... صفاً ضميراً وعذوبة أخلاق
ومهوي جناح للصبا يمسح الربا ... خفي الخوافي والقوادم خفاق
وفتيان صدق كالنجوم تألفوا ... على النأي من شتى بروج وآفاق
على حين راح البرق في الجو مغمداً ... ظباه ودمع المزن في جفنه راق
وجالت بعيني في الرياض التفاتة ... حبست بها كأسي قليلاً عن الساق
على سطر خيري ذكرتك فانثنى ... يميل بأعناق ويرنو بأحداق
وقف وقفة المحبوب منه فإنها ... شمايل مشغوف بمرآك مشتاق
وصل زهرات منه صفر كأنها ... وقد خضلت قطراً محاجر عشاق
وقال وكلفها في حايك وهو بديع.
قالوا وقد أكثروا في حبه عذل ... لو لم تهم بمزال القدر مبتذل
فقلت لو أن أمري في الصبابة لي ... لاخترت ذاك ولكن ليس ذلك ل
في كل قلب عزيزات مذللة للحسن ... والحسن ملك حيث جل ول
علقته حبيبي الثغر عاطره ... دري لون المحيا أحور المقل
إذا تأملته أعطاك ملتفتاً ... ما شيت من لحظات الشادن الوجل
هيهات أبغي به من غيره بدلا ... أخرى الليالي وهل في الغير من بدل
غزيل لم تزل في الغزل جايلة ... بنانه جولان الفطر في الغزل
جذلان تلعب بالمحراك أنمله ... على السدي لعب الأيام بالأمل
ما أن يني تعب الأطراف مشتغلا ... أفديه من تعب الأطراف مشتغل

ضرباً بكفيه أو فحصاً بأخمصه ... تخبط الظبي في أشراك محتبل
وقال:

ومهفهف كالغصن إلا أنه ... سلب التثني النوم عن أثنايه
أضحى ينام وقد تخدد خده ... عرقاً فقلت الورد رش بمايه
وقال:
أدرها فالغمامة قد أجالت ... سيوف البرق في لمم البطاح
وراق الروض طاووساً بهياً ... تهب عليه أنفاس الرياح
تقول وقد ثنى قزح عليه ... ثياب الغيم معلمة النواح
خذوا للصحو أهبتكم فإني ... أعرت المزن قادمتي جناح
وقال:
أدرها على أمر فما ثم من بأس ... وإن جددت آذانها ورق الآس
وما هي إلا ضاحكا غمايم ... لواعب من ومض البروق بمقياس
ووفد رياح زعزع النهر مدة ... كما وطيت درعاً سنا بك أفراس
وقال في وصف مغن محسن:
ومطارح مما تحس بنانه ... صوتاً أفاض عليه ماء وقاره
يثني الحمام فلا يروح لو كره ... طرباً ورزق بنيه في منقاره
وقال يصف جدول ماء عليه سرحة، ولها حكاية معروفة:
ومهدل الشطين تحسب أنه ... متسيل من درة لصفايه
فاءت عليه مع العشية سرحة ... صدئت لفيئتها صفيحة مايه
فتراه أزرق في غلالة سمرة ... كالدارع استلقى بظل لوايه
نثره

قال من مقامة يصف القلم:
قصير كالأنابيب لكنه ... يطول مضاً طوال الرماح
إذا عب للنفس في دامس ... ودب من الطرس فوق الصفاح
تجلت به مشكلات الأمور ... ولان له الصعب بعد الجماح
فلولا هو لغدت أغصان الاكتساب ذاوية، وبيوت الأموال خاوية، وأسرعت إليها البوسى، وأصبحت كفؤاد أم موسى، فهو لا محالة تجرها الأربح، وميزانها الأرجح. به تدر ألبانها، وتثمر أفنانها، وتستمر أفضالها وإحسانها، وهو رأس مالها، وقطب عمالها وأعمالها. وصاحب القلم قد حوى الملكة بأسرها، وتحكم في طيها ونشرها، وهو قطب مدارها، وجهينة أخبارها، وسر اختيارها واختبارها، ومظهر مجدها وفخارها، يعقد الرايات لكل وال، ويمنحهم من المبرة كل صافية المقيل، ضافية السربال، يطفي جمرة الحرب العوان، ويكايد العدو بلا صارم ولا سنان، يقد المفاصل، ويتخلل الأباطح والمعاقل، ويقمع الحواسد والعواذل.

وفاته: توفي بمالقة يوم الثلاثاء لإحدى عشرة بقيت من رمضان سنة اثنين وسبعين وخمسماية. وقبره مشهور بها.

ابن أبي بكر القرشي المالقي

محمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي من أهل مالقة، وسكن غرناطة وتردد إليها

حاله

كان لبيباً لوذعياً، جامعاً لخصال؛ من خط بارع وكتابة، ونظم، وشطرنج، إلى نادر حار، وخاطر ذكي، وجرأة. توجه إلى العدوة، وارتسم بها طبيباً، وتولى النظر على المارستان بفاس في ربيع الثاني من عام أربعة وخمسين وسبعمائة.

شعره

أنشدني بمدينة فاس عام ستة وخمسين، في وجهتي رسولا إلى المغرب، قوله في رجل يقطع في الكاغد:

أبا علي حسينا ... أين الوفا منك أينا

قد بين الدمع وجدي ... وأنت تزداد بينا

بلت لحاظك قلبي ... تا لله ما قلت مينا

قط المقص لهذا ... سبب الصب مينا

بقيط تفتر حسنا ... وجمت تزداد زينا

وقال أيضاً:

فضل التجارات باد في الصناعات ... لولا الذي هو فيها هاجر عات

حاز الجمال فأعياني وأعجزني ... وإن دعيت بوصاف ونعات

وكان شديد المغالطة، ذاهباً أقصى مذاهب القحة، يحرك من لا يتحرك، ويغضب من لا يغضب. عتب يوماً جدته على طعام طبخته له، ولم يستطبه، وكان بين يديه القط يصدعه بصياد طلبه، فقال له ضجراً، خمسمائة سوط، فقالت له جدته لم تعط هذه السياط للقط، إنما عنيتني بها، وأعطيتها باسم القط، فقال لها حاش لله يا مولاتي، وبهذا البخل تدريني أو الزحام عليها، بل ذلك للقط حلالاً طيباً، ولك أنت ألف من طيبة قلب، فأرسلها مثلا، وما زلنا نفكه بذلك، وكان في هذا الباب لا يشق غباره.

مولده: بمالقة عام ثلاثة وسبع ماية.

وفاته: بعث إلي الفقيه أبو عبد الله الشديد، يعرفني أنه توفي في أواسط عام سبعة وخمسين وسبعمائة.

محمد بن سليمان بن القصيرة

أبو بكر، كاتب الدولة اللمتونية، وعلم وقته.

حاله

قال ابن الصيرفي الوزير الكاتب، الناظم، الناثر، القايم بعمود الكتابة، والحامل للواء والبلاغة، والسابق الذي لا يشق غباره، ولا تخمد أبداً أنواره. اجتمع له براعة النثر، وجزالة النظم، رقيق النسيج، حصيف المتن، رقعته ماشيت في العين واليد. قال ابن عبد الملك؛ وكان كاتباً مجيداً، بارع الخط، كتب عن يوسف بن تاشفين.

مشيخته

روى عن أبي الحجاج الأعلم، وأبي الحسن بن شريح، وروى عنه أبو الوليد هشام بن يوسف بن الملجوم، لقيه بمراكش.

شعره

وهو عندي في نمط دون ما وصف به. فمن ذلك قوله من قصيدة أنحى فيها على ابن ذي النون، ومدح ابن عباد، عند خلع ابن جهور، أبي الوليد، وتصيير قرطبة إليه:

فسل عنه أحشاء ابن ذي النون هل ... سرى إليها سكون منذ زلزلها الذعر

وهل قدرت مذ أوحشته طلايع ... الظهور عليه أن تؤنسه الخمر

ألم يجن يحيى من تعاطيك ظله ... سجا لك هيهات السهى من ك يا بدر

لجاراك واستوفيت أبعد غاية ... وآخره عن شأوك الكف والعثر

فأحرزت فضل السبق عفواً ... وكفه على رغمه مما توهمه صفر

ويا شد ما أغرته قرطبة وقد ... أبشرتها خيلنا فكان لك الدر

ومنها:

أتتك وقد أزرى ببهجة حسنها ... ولا لأنها من جور مالكها طمر

فألبستها من سابغ العدل حلة ... زهاها بها تيه وغازلها كبر

وجاءتك متفالا فضمخ حيها ... وازدانها من ذكرك المعتلى عطر

وأجريت ماء الجود في عرصاتها ... فروض حتى كاد أن يورق الصخر

وطاب هوا أفقها فكأنها تهب نسيماً فيه أخلاقك الزهر

وما أدركتهم في هواك هوادة ... وما أتتمروا إلا لما أمر البر

وما قلدوك لأمر إلا لواجب ... جئته فيه الجر والغمر

وبوأهم في ذروة المجد معقلا ... حرام على الأيام إلمامه حجر

وأوردهم من فضل سيبك مورداً ... على كثرة الوارد مشرعه غمر

فلولاك لم تفصل عرى الإصر عنهم ... ولا انفك من ربق الأذى لهم أسر

أعدت نهار ليلهم ولطالما ... أراهم نجوم الليل في أفقه الظهر

ولا زلت تؤويهم إلى ظل دوحة ... من العز في أرحابها النعم لخضر

كتابته

وهي من قلة التصنع والإخشوشان، بحيث لا يخفى غرضها. ولكل زمان رجاله. وهي مع ذلك تزينها السذاجة، وتشفع لها الغضاضة. كتب عن الأمير يوسف بن تاشفين ولاية عهده لولده:

هذا كتاب تولية عظيم جسيم، وتوصية حميم كريم، مهدت على الرضا قواعده، وأكدت بيد التقوى مواعده ومعاقده، وسددت إلى الحسني مقاصده، وأبعدت عن الهوادة والهوى مصادره وموارده. أنفذه أمير المسلمين، وناصر الدين، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين، أدام الله أمره، وأعز نصره، وأطال فيما يرضيه منه، ويرضى به عنه عمره، غير محاب، ولا تارك في النصيحة لله ولرسوله والمسلمين، وموضع ارتياب لمرتاب، للأمير الأجل أبي الحسن علي ابنه، المتقبل همه وشيمه، المتأثل حلمه وتحلمه، الناشئ في حجر تقويمه وتأديبه، المتصرف بين يدي تخريجه، وتدريبه، أدام الله عزه وتوفيقه، ونهج إلى كل صالح من الأعمال طريقه، وقد تهمم بمن تحت عصاه من المسلمين، وهدى في

انتقاء من يخلفه هدى المتقين، ولم ير أن يتركهم بعد سدى غير مدينين واعتام في النصاب الرفيع، واختار واستنصح أولي الرأي والتشاور إلا لديه. فولاه عن استحكام بصيرة، وبعد طول مشورة، عهده، وأفضى إليه الأمر والنهي، والقبض والبسط عنده بعده، وجعله خليفته الساد في رعاياه مسده، وأووطأ عقبه جماهير الرجال، وناط به مهمات الأمور والأعمال، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع، ولا يعدل عن سمت العدل وحكم الكتاب والسنة، في أحد عصا أو أطاع، ولا ينام عن حماه الحيف والخوف بالاضطجاع، ولا يتلين دون معلن شكوى، ولا يتصام عن مستصرخ لذي بلوى، وأن ينظم أقصى البلاد وأدناها في سلك تدبيره، ولا يكون بين القريب والبعيد بون في إحصائه وتقديره. ثم دعا أدام الله تأييده، لمبايعته، أدام الله عزه ونصره، من حضر ودنا من المسلمين، فلبوا مسرعين، وأتوا مهطعين، وأعطوا صفقة إيمانهم متبرعين متطوعين، وبايعوه على السمع والطاعة، والتزام سنن الجماعة، وبذل النصيحة جهد الاستطاعة، ومناصفة من ناصفه، ومحاربة من حاربه، ومكايدة من كايده، ومعاندة من عانده، لا يدخرون في ذلك على حال المنشط مقدرة، ولا يحتجون في حالتي الرضا والسخط إلى معذرة. ثم أمر بمخاطبة ساير أهل البلاد لمبايعته، كل طائفة منهم في بلدها، وتعطيه كما أعطاه من حضر، وصفقة يدها، حتى ينتظم في التزام طاعته القريب والبعيد، ويجتمع على الاعتصام بحبل دعوته، الغايب والشهيد، وتطمين من أعلام الناس وخيارهم نفوس قلقة، وتنام عيون لم تزل مخافة إقذئها مورقة، ويشمل الناس كافة السرور والاستبشار، وتتمكن لديهم الدعة، ويتمهد القرار، وتنشأ لهم في الصلاح آمال، ويستقبلهم جد صالح وإقبال. والله يبارك لهم بيعة رضوان، وصفقة رجحان، ودعوة يمن وأمان، إنه على ما يشاء قدير، لا إله إلا هو، نعم المولى ونعم النصير. شهد على إشهاد أمير المسلمين بكل ما ذكر عنه فوق هذا من بيعته، ولقيه حملة عنه ممن التزم البيعة المنصوصة قبل، وأعطة صفقته طائعاً متبرعاً بها. وبالله التوفيق. وكتب بحضرة قرطبة في ذي الحجة سنة ست وتسعين وأربعمائة.

دخل غرناطة غير ما مرة، وحده، وفي ركاب أميره.

توفي في جمادى الآخرة من عام ثمانية وخمسمائة.

التميمي المازني

محمد بن يوسف بن عبد الله بن إبراهيم التميمي المازني من أهل سرقسطة، ودخل غرناطة، وروى عن أبي الحسن بن الباذش بها، يكنى أبا الطاهر. وله المقامات اللزوميات العروفة.

حاله

كان كاتباً لغوياً شاعراً، معتمداً في الأدب، فرداً، متقدماً في ذلك في وقته، وله المقامات المعروفة، وشعره كثير مدون.

مشيخته

روى عن أبي علي الصدفي، وأبي محمد بن السيد، وأبي الحسن بن الأخضر، وأبي عبد الله بن سليمان المعروف بابن أخت غانم، وأبي محمد بن عتاب، وأبي الحسن بن الباذش. وأبي محمد عبد الله بن محمد التجيبي الدكلي، وأبي القاسم ابن صوابه، وأبي عمران بن أبي تليد، وغيرهم. أخذ عنه القاضي أبو العباس ابن مضاء، أخذ عنه الكامل للمبرد، قال. وعليه اعتمد في تقييده. وروى عنه المقري المسن، الخطيب أبو جعفر بن يحيى الكتامي، وذكره هو وابن مضاء. توفي بقرطبة ظهر يوم الثلاثاء، الحادي والعشرين من جمادى الأولى، سنة ثمان وثلاثين وخمسماية، بزمانة لازمته نحوا من ثلاثة أعوام، نفعه الله.

شعره

أيا قمر أتطلع من وشاح ... على غض فاخر من كل راح
أدار السحر من عينيه خمراً ... معتقة فأسكر كل صاح

وأهدى إذ تهادى كل طيب ... كخوط البان في أيدي الرياح
وأحيا حين حيا نفس صب ... غدت في قبضة الحب المتاح
وسوغ منه عتبي بعد عتب ... وعللني براح فوق راح
وأجناني الأماني في أمان ... وجنح الليل مسدول الجناح
وقال أيضاً:
ومنعم الأعطاف معسول اللما ... ما شيت من بدع المحاسن فيه
لما ظفرت بليلة من وصله ... والصب غير الوصل لا يشفيه
أنضحت وردة خده بنفسي ... وظللت أشرب ماءها من فيه
وقال أيضاً:
رحكت السلاف صفاته بحبابها ... من ثغره ومذاقها من رشفه
وتوردت فحكت شقايق خده ... وتأرجت فيسيمها من عرفه
لعبت بألباب الرجال وغادرت ... أجسامهم صرعى كفعلة طرفه
ومن الغرباء في هذا الحرف

محمد بن حسن العمراني الشريف

من أهل فاس
حاله
كان جهوياً ساذجاً، خشن البزة، غير مرهف التجند، ينظم الشعر، ويذكر كثيراً من مسائل الفروع، ومعانات الفرائض، يجعجع بها في مجالس الدروس، تشقى به المدرسون، على وتيرة من صحة السجية وحسن العهد، وقلة التصنع. وجرى ذكره في الكليل: كريم الانتماء، مستظل بأغصان الشجرة الشماء، من رجل، سليم الضمير، ذي باطن أصفى من الماء النمير، له في الشعر طبع بشهد بعروبية أصوله، ومضاء نصوله.
فمن ذلك قوله يخاطب السلطان أمير المسلمين، وقد أمر له بكسوة:
منحت منحت النضر والعز والرضا ... ولا زلت بالإحسان له مقرضاً
ولا زلت للعليا جني مكارماً ... وللإمر الملك العزيز مقيضا
ولا زالت الأملاك باسمك تتقي ... وجيشك وفراً يملأ الأرض والفضا
ولا زلت ميمون النقيبة ظافراً ... مهيباً ووهاباً وسيفك منتضا
تقر به الدين الحنيف وأهله ... تقمع جباراً وتهلك مبغضا
وصلت شريف البيت من آل هاشم ... وخولته أسنى مراد ومقتضا
وجدت بإعطاء اللجين وكسوة ... ستكسي ثوباً من النور أبيضا
وما زالت الأنصار تفعل هكذا ... نال علي في الزمان الذي مضا

هم نصروا الهادي وآووا وجدلوا ... بحد ذباب السيف من كان معرضا
فخذ ذا أبا الحجاج من خير مادح ... لخير مليك في البرية مرتضا
فقد كان قبل اليوم غاض قريضه ... فلما رأى الإحسان منك تفيضا
ومن حكم القول اللهى متح اللهى ... ومن مدح الأملاك يرجو التعرضا
فلا زال يهديك الشريف قاصدا ... ينال بها منك المودة والرضا
وقال يخاطب من أخلفته بوارق الأمل فيه، وخابت لديه وسائل قوافيه:
الشعر أسنى كلام خص بالعرب ... والجود في كل صنف خير مكتسب
وأفضل الشعر أبيات يقدمها ... في صدر حاجته من كان ذا أدب
فما يوفي كريم حق مادحه ... لو كان أولاه ما يحويه من نشب
المال يفني إذا طال الثواء به ... والمدح يبقى مدى الأزمان والحقب
وقد مدحت لأقوام ذي حسب ... فيما ظننت وليسوا من ذوي حسب
مدحتهم بكلام لو مدحت به ... دهري أمنت من الإملاق والنصب
فعاد مدحي لهم هجواً يضدقه ... من لؤمهم عودتي عنهم بلا أرب
فكان ما قلت من مدحهم كذباً ... أستغفر الله من زور ومن كذب
وقال في غرض يظهر من الأبيات، يخاطب السلطان:
مالي أرى تاج الملوك وحوله ... عبدان لا حلم ولا آداب
فكأنه البازي الصيود وحوله ... نغر يقلب ريشه وغراب
يا أيها الملك الكرام جدوده ... أسنى المحافل غيرها أتراب
أبدلهما من بالبيض من صفيهما ... إن العبيد محلها الأبواب
وفاته
توفي في حدود ثمانية وأربعين وسبعمائة أو بعد ذلك.
ابن العشاب
محمد بن محمد بن إبراهيم بن المرادي ابن العشاب

قرطبي الأصل، تونسي الولادة والمنشأ، ابن نعمة وغذى جاه وحرمة.
حاله

كان حيياً فاضلاً كريماً، سخياً. ورد على الأندلس، مفلتاً من نكبة أبيه، وقد عركته عرك الرحى لثقالها، على سنن من الوقار والديانة والحما، يقوم على بعض الأعمال النبيهة.
وجرى ذكره في الإكليل بما نصه: جواد لا يتعاطى طلقه، وصبح فضل لا يماثل فلقه. كانت لوالده رحمه الله، من الدول الحفيصة منزلة لطيفة المحل، ومفاوضة في العقد والحل، ولم يزل يسمو به قدم النجابة، من العمل إلى الحجابة. ونشأ ابنه هذا، مقضي الديون، مفدي بالأنفس والعيون. والدهر ذو ألوان، ومارق حرب عوان، والأيام كرات تتلقف، وأهوال لا تتوقف، فألوى بهم الدهر وألحى، وأغام جوهم بعقب ما أضحى، فشملهم الاعتقال؛ وتعاورتهم النوب الثقال، واستقرت بالمشرق ركابه، وحطت به أقتابه؛ فحج واعتمر، واستوطن تلك المعاهد وعمر، وعكف

على كتاب الله فجود الحروف، وأحكم الخلف المعروف وقيد وأسند، وتكرر إلى دور الحديث وتردد، وقدم على هذا الوطن قدوم النسيم البليل على كبد العليل. ولما استقر به قراره، واشتمل على جفنه غراره، بادرت إلى مؤانسته، وثابرت على مجالسته. فاجتليت للسرو شخصاً، وطالعت ديوان الوفا مستقصا.

شعره

وشعره ليس بحايد عن الإحسان، ولا غفل من النكت الحسان. فمن ذلك ما خاطبني به:

بيمن أبي عبد الله محمد يمن ... هدأ القطر وانسجم القطر

أفاض علينا من جزيل عطايه ... بحور الديم المد ليس لها جزر

وأنسنا لما عدمنا مغانياً ... إذا ذكرت في القلب من ذكرها عبر

هنيياً بعيد الفطر يا خير ماجد ... كريم به تسمو السيادة والفخر

ودمت مدى الأيام في ظل نعمة ... تطيع لك الدنيا ويعنو لك الدهر

ومما خاطب به سلطانه في حال الاعتقال:

لعل عفوك بعد السخط يغشاني ... يوماً فينعش قلب الوالد العان

مولاي رحماك إني قد عهدتك ... ذا حلم وعفو وإشفاق وتحنان

فاصرف حنانك واعطف علي ... وجد برحمة منك تحيي جسمي الفان

فقد تناهى الأسى عندي وعذبني ... وشرد النوم عن عيني وأعيان

وحق ألايك الحسنى وما لك من ... طول وفضل وإنعام وإحسان

إني ولو حلت البلوى على كيدي ... وأسبكت فوق خد دمعي القان

لواثق بجمتم منك يطرقني ... عما قريب وعفو عاجل دان

دامت سعودك في الدنيا مضاعفة ... تذل طوعاً كل سلطان

ابن عبد الملك

محمد بن محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصاري الأوسي، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن عبد الملك، من أهل مراكش، وسكن غرناطة.

حاله

من عايد الصلة: كان رحمه الله غريب المنزع، شديد الانقباض، محجوب المحاسن، تنبو العين عنه جهامة، وغرابة شكل، ووحشة ظاهر، في طي ذلك أدب غض، ونفس حرة، وحيديث ممتع، وأبوة كريمة، أحد الصابرين على الجهد، المتمسكين بأسباب الحشمة، الراضين بالخصاصة. وأبوه قاضي القضاة، نسيج وحده، الإمام العالم، التاريخي، المتبحر في الأدب، تقلبت به أيدي الدهر بعد وفاته لتبعة سلطت على نسبه، فاستقر بمالقة، متحارفاً مقدوراً عليه، لا يهتدي لمكان فضله، إلا من عثر عليه جزافا.

شعره

من لم يصن في أمل وجهه ... عنك فصن وجهك عن رده

وأعرف له الفضل وعرف به ... حيث أحل النفس من قصده

ومما خاطبني به قوله:

وليت ولاية أحسنت فيها ... ليعلم أنها شرفت بقدرك

وكم وال أساء فقيل فيه ... دني القدر ليس لها بمدرك
وأنشدني في ذلك أيضاً رحمة الله عليه:
وليت فقيل أحس خير وال ... فعاق مدى مدركها بفضله
وكم وال أساء فقيل ... دنا فمحا محاسنها بفعله
ومما خاطب به السلطان يستعديه على من مطله من العمال، وعذر عليه واجبه من الطعام والمال:
مولاي نصيراً فكم يضام ... من ما له غيرك اعتصام
أمرت لي بالخلاص فمر لي ... عنده المال والطعام

فقال ما اعتاده جواباً ... وحسبي الله والإمام
هذا مقام ولا فعال ... بغير مولاي والسلام
وفاته

فقد في وقيعة على المسلمين من جيش مالقة بأخواز إستبة في ذي قعدة من عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة.
ابن خميس
محمد بن خميس بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد ابن خميس الحجري حجرذي رعين التلمسان، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن خميس
حاله
من عايد الصلة: كان رحمه اله نسيج وحده زهداً وانقباضاً، وأدباً وهمة، حسن الشيبة، جميل الهيئة، سليم الصدر، قليل التصنع، بعيد عن الريا والهوادة عاملاً على السياحة والعزلة، عالما بالمعارف القديمة. مضطلعاً بتفاريق النحل، قايماً على صناعة العربية والأصلين، طبقة الوقت في الشعر، وفحل الأوان في النظم المطول، أقدر الناس على اجتلاب الغريب، ومزج الجزالة بالسلاسة، ووضع الألفاظ البيانية مواضعها. شديد الانتقا وإلا رجا، خامد نار الروية، منافساً في الطريقة منافسة كبيرة. كتب بتلمسان عن ملوكها من بني زيان، ثم فر عنهم، وقد أوجس منهم خيفة. لبعض ما يجري بأبواب الملوك. وبعد ذلك بمدة، قدم غرناطة، فاهتز الوزير ابن الحكيم لتلقيه، ومت إليه بالوسيلة العلمية، واجتدبه بخطبة التلميذ، واستفزه بتأنيسه وبره، وأقعده للإقراء بجواره. وكان يروم الرحلة، وينوي السفر، والقضاء يثبطه. حدثني شيخنا الرئيس أبو الحسن بن الجياب، قال بلغ الوزير أبا عبد الله الحكيم أنه يروم السفر فشق ذلك عليه، وكلفنا تحريك الحديث بحضرته. وجرى ذلك. فقال الشيخ أنا كالدم بطبعي، أتحرك في كل ربيع.
شعره
وشعره بديع. فمن ذلك قوله يمدح أبا سعيد بن عامر، ويذكر الوحشة الواقعة بينه وبين أبي بكر بن خطاب:
مشوق زار ربعك يا إماما ... محا آثار دمنتها التثاما
تتبع ريقه الطل ارتشافاً ... فما نفعت ولا نقعت أواما
وقبل خد وردتها جهارا ... وما راعى لضرتها ذماما
وما لحريم بيتك أن يدانى ... ولا لعلا قدرك أن يساما
ولكن عاش في رسم مغنى ... تجشمه سلاماً واستلاماً

نفس روضة المطول وهنا ... فحن وشم رياه فهاما
تلقى طيب حديثا ... روت مسنداً عنه النعاما
فيا نفس الصبا إن جيت ساحا ... ولم تعرف لساكنها مقاما
وأخطأت الطريق إلى حماها ... فردتك العرادة والخزآما
فلا تبصر بسرحتها قضيباً ... ولا تذعر بمسرحها سواما
وعانق قربانتها اراتباطاً ... وصافح كف سوسنها التزاما
ونافح عرف زهرتها كباً ... تعاطك ماء ريقتها مداما
ويا برقاً أضاء على أوال ... يمانياً متى جيت الشآما
أثغر إمامة أنت ابتساماً ... أم الدر الأوامي انتظاما
خفقت ببطن واديها لواً ... ولحت على ثنيتها حساما
أمشبه قلبي المضني احتداما ... على م ذدت عن عيني المناما
ولم أسهرتني وطردت عني ... خيالاً كان يأتيني لماما
وأبلغ منه تأريقاً لجفني ... كلام أثخن الأحشا كلاما
تعرض لي فأيقظت القوافي ... ولو ترك القطا يوماً لناما
وقيل وما أرى يومي كأمسي ... جدعت رواطبا وقلبت هاما
وجرعت العدو سماً زعافاً ... فكان لحسد موتاً زواما
نزعت شواه كبشهم نطاحا ... ولم أترك لقرمهم سناما
أضام وفي يدي قلبي لماذا ... أضام أبا سعيد أو علاما
به وبما أذلق من لساني ... أفل الصارم العضب انهزاما
وغرام الوزير أبي سعيد ... أصرفه إذا شيت انتقاما
به وبنجله البر انتصارى ... لما أكلوه من لحمي حراما
وردت فلم أرد إلا سرابا ... وشمت فلم أشم إلا جهاما
قطعت الأرض طولاً ثم عرضاً ... أزور بني ممالكها الكراما

وجا جانبي على كرم نداهم ... وأعجلت الخوافي والقداما
وذللت المطامع من إبايي ... وقبلت البراجم والسلاما
ومن أدبي نصبت لهم حبالا ... أصيد بها النعام ولا النعاما
فلم أر مثل ربعي دار أنس ... ولم أر مثل عثمن إماما
ولا كأبيه أو كنى أبيه ... أبي يحيى غيوثاً أو رهاما
كفاني بابن عامر خفض عيش ... ورفع مكاتبي إلا أضاما
وإني من ولايك في يفاع ... أقابل منهم بدرهم التمام
ومن شعره رحمه الله قوله:
تراجع من دنياك ما أنت تارك ... وتسلها العتيي وها هي فارك
تؤمل بعد الترك رجع ودادها ... وشر وداد ما تود الترائك

حلالك منها ما خلا لك في الصبا ... فأنت على حلوايه متهالك
تظاه بالسلوان عنها تجملا ... فقلبك محزون وثغرك ضاحك
تنزهت عنها نخوة لا زهادة ... وشعر عذاري أسود اللون حالك
ليالي تغري بي وإن هي أعرضت ... زنانب من ضواتها وعواتك
غصون قدود في حقاف روادف ... تمايل من ثقل بين الأرايك
تطاعنني منهن في كل ملعب ... ثدي كأسنان الرماح فواتك
وكم كلة فيها هنكت ودونها ... صدور العوالي والسيوف البواتك
ولا خدن إلا ما أعدت ردينه ... لطالبها أو ما تحير هالك
تضل فواد المرء عن قصد رشده ... فواتر ألحاظ للظبا الفواتك
وفي كل سن لابن آدم وإن تطل ... سنوه طباع جمة وعوايك
وإلا فمالي بعد ما شاب مفرقي ... وأعجز رأيي عجز من الركارك
أجوب إليها كل بيداء سملق ... ترافقني فيها الرجال الجواتك
واسترشد الشهب الشوابك جار ... إذا اشتبهت فيها هي المسالك
نهازز أمثال الجياد تودة ... أغوارب أمثال الهضاب توامك
ظما وما غير السماوة مورد ... وينحى وما دون الصواة مبارك
ذو أهل عن عض الرجال ظهورها ... إذا ما اشتكت عض السروج الموارك
إذا ما نبا عن سنبك الأرض سنبك ... هلعن فلانت تحتهن السنابك
تقد بنا في كل قاع وفدفد ... بوايكها والمنغيات الدراهك
فأمامها ري كالسحاب موالع ... وأمامها ركاً كالرياح بواشك
قلاص بأطواف الجديل بوالع ... وجرد لأوساط الشكيم عوالك
ترامى بها ليد النوق كل مرتمي ... فهن نواح للردى أو هوالك
وكم منزل خليته لطلابها ... تعفيه تعدي السافيات السواهك
يمر به زواره وعفاته ... وما آن به إلا الصوق الحبايك
وآثارتنا تقادم عهدهم ... وهن عليه جانيات بوارك
لوارب أفراس ونؤى حذاة ... ثلاث أثاف كالحمام سوادك
تمر عليه نسمة الفجر مثلما ... تمر على طيب العروس المدارك
وأرك بكالشهذ ينفح برده ... لجهول حسي ماله للدهر مبانك
يطلبها مني غريم مماحك ... ويمطلني منها عديم مماعك
أحاول منها لما تعذر في الصبا ... ومن دونه وقع الحمام المواشك
فمنها ملال دايم لا تمله ... وترور إفك عن رضى الحق آفك
تهاون بالإفك الرجال جهالة ... وما أهلك الأحياء إلا الأفايك
تزن طول تسهادي وقدري تململى ... طوال الليالي والنجوم النوابك

تغير على الدهر منه جحافل ... كأن مدوم الرجم فيها نيازك
فليت الذي سودت فيها معوض ... بما بيضت مني دجاها الحوالك

ألا لا تذكريني تلمسان والهوى ... وما دهكت منا الخطوب الدواهك
فإن ادكار ما مضى من زمانها ... لجسمي وللصبر الجميل لناهك
ولا تصفن أمواهها لي فإنها ... لنيران أشواقي إليها محارك
ومن حال عن عهد أو أخفر ذمة ... فإني على تلك العهود لرامك
سقى منزلي فيها وإن مح رسمه ... عهاد الغوادي والدموع السوافك
وجادت ثرى قبر بمسجد صالح ... رواعدها والمدجنات الحواشك
ولا أقلعت عن دار يونس مزنة ... هوى صداه لقطرها المتدارك
إلى أن يروق الناظرين رواؤها ... ويرضى الرعاوي نبتها المتلاحك
ويصبح من حول الحيا في عراصها ... زرق تحكى بسطها ودرانك
ولا برحت منه ملايكة الرضى ... تصلي على ذاك الصدى وتبارك
وطوبى لمن روى منازله الحيا ... وبشرى لمن صلت عليه الملايك
ألا ليت شعري هل تقضي لبانتي ... إذا ما انقضت عشر عليها دكادك
وهل تمكن الطيف المغب زيارة ... فيرقب أو تلقى إليه الروامك
وهل تغفل الأيام عنها بقدر ما ... تودي إليها بالعتاب الحالك
ويا ليت شعري أرض تقلني إذا ... كل عن رحلي الجلال اللكالك
وأي غرار من صفاها يحثني ... إذا فقدتني مسها والدكادك
إذا جهل الناس الزمان فإنني ... بدونهم دون الأنام لحاتك
تثبت إذا ما قمت تعمل خطوة ... فإن بقاع الأرض طراً شوائك
ولا تبذل وجهاً لصاحب نعمة ... فما مثل بذل الوجه للستر هاتك
تجشم ما استطعت واحذر أذاهم ... ولا تلقهم إلا وهرك شانك
فكل على ما أنعم الله حاسد ... وكل إذا لم يعصم الله حاسك
ولا تأنس ريبة الزمان فإنه ... بمن فات منا لا محالة فانك
تمنى مصاب بربر وأعاره ... وترضى ذكامي فارس والهنادك
وبدرت الليالي الجون حوضى لجاجها ... وتعرف إقدامي عليها المهالك
فما أذعنت إلا إلى عشار ... ولا أصفقت إلا على الشكاشك
ولا قصدت إلا فنابي وقودها ... ولن أملت إلا قتامى الضرارك
به شرفت أذواوها وملوكها ... كما شرفت بالنويهار البرامك
فلا تدعون غيري لدفع ملمة ... إذا ما دهى من حادث الدهر داهك
فما إن لذاك الصوت غيرى سامع ... وما إن لبيت المجد بعدي سامك
يغص ويشجي نهشل ومجاشع ... بما أورثتني حمير والسكاسك
تفارقني روحي التي لست غيرها ... وطيب ثناي لاصق بي صايك

وماذا عسى ترجو لداتي وأرتجي ... وقد شمطت منا اللحا والأفانك
يعود لنا شرخ الشباب الذي مضى ... إذا عاد للدنيا عقيل ومالك
ومن شعره أيضاً قوله:
سحت بساحك يا محل الأدمع ... وتصرمت سفاً عليك الأضلع
ولطالما جادت ثرى الأمال من ... جاوي مؤمك الغيوث الهمع
لله أيام بها قضيتها ... قد كنت أعلم أنها لا ترجع
فلقد رشفت بها رضاب مدامة ... بنسيم أنفاس البديع تشعشع
في روضة يرضيك منها أنها ... مرعى لأفكار الندام ومشرع
تجري بها فقر سكنت رهانها ... أجدى بميدان الكلام وأسرع
فقر كريعان الشباب وعهدنا ... بجنابها وهو الجناب الأمنع
نفاثة الأنواء في عقد الثرى ... والنفت في عقد الثرى لا يمنع
حتى إذا حاك الربيع برودها ... وكسا رباها وشيه المتنوع
بدأت كمايم زهرها تبدي بها ... بدعاً تفرق تارة وتجمع

قد صم منها ما تجمع مغلق ... إذ بت منها ما تفرق مصقع
وكلاهما مهما أردت مسالم ... ومحارب ومؤمن ومروع
كل له شرع البيان محلل ... المنكر في مثل هذا مدفع
حيث ازدهت أنوار كل حديقة ... أدباً ينظم تارة ويسجع
فمرجل من رقمها ومهلل ... ومسمط من نظمها ومصرع
أبدي البديع بها بدايع صنعه ... فمجنس ومبدل ومرصع
وموشح ومرشح ومصدر ... ومكرر ومفرع ومتبع
كل بروق بها بحسن روايه ... وإذا تزين به كلامك تبرع
ولقد غدوت بها وفي وكناتها ... طير لها فوق الغصون ترجع
بمطهم الفكر الذي ما إن له ... إلا بمستن الأدلة مرتع
قيد المطالب لا يزال تحبه ... بين الجياد لعتقه أو يوضع
أرمى به الأمد البعيد وإنه ... حمل يضل به الدليل الأصمع
من بعد ما عفت النواري سبله ... ومحت معالمه البرياح الأربع
لكنني جددت دانر رسمه ... فطريقه من بعد ذلك مهيع
أوضحت فهم حدوده وضروبه ... والكل في كل المسالك ينفع
حتى وردت من السماع مواردا ... فيها لظمآن المباحث مكرع
مع كل مصقل الذكاء فحدسه ... لذكاء أسرار الطبايع مطلع
يرتاد من نجع العناصر نجعه ... فيها مصيف للعقول ومرتع
لا شيء أبدع من تجاورها وما ... يبتدي بها ذاك التجاور أبدع
فإذا تشعشع مزجها أورى بها ... نار الحباحب مرجها المتشعشع

فمكين سر حياته بحبابها ... من بعد قدح زنادها مستودع
وهنا تفاض عليه صورته التي ... لبهائها شم الطبايع تخضع
من واهب الصور التي قد خصها ... ببديع حكمته الحكيم المبدع
رب له في كل شيء حكمة ... يقضي بها البدعي والمتشرع
وحللت من أرض الرياضة أربعاً ... نفسي الفداء لها وهذي الأربع
قامت زوايها فما أوتادها ... إلا تقوم ما تقيم الأضلع
وتناسب أقدارها نسباً لها ... لو كنت تبصرها فروع فرع
فأجل ما قد سمته بحولها ... من بارق لجناب رشدي يلمع
لا شك أن وراءه مطراً له ... في كل ضرب من قياسي موقع
بحر روى مترع ملاحه ... من فيضه هذا الروي المترع
لم لا أضيع بها عهاد مدامعي ... إني إذاً لعهوها لمضيع
خلي لو لم تسعداني في البكا ... لقطعت من حبليكما ما يقطع
أرأيتما نفساً تفارق جسمها ... وبه تنعمها ولا تتوجع
عظمت رزيتها وأي رزية ... ظلت لها أكبادنا تتصدع
هذي حمامك يا علي سواجع ... وأخالها أسفاً عليها تسجع
إن طارحتني ورقها فبأضلعي ... شوق يطارحه ادكار موجع
آه على جسمي الذي فارقته ... لا كنت ممن جسمه لا يرجع
ومر العجاب رجوع ما أودى به ... دهر بتشتت الأحبة مولع
الحور منه إذا استمر طبيعة ... والعدل منه إذا استقام تطبع
هذي عقوبة زلة سلفت بها ... من أكل طعمته التي لا تشبع
قد كنت أمنع رسخ نفسي قبلها ... واليوم أوجب أنه لا يمنع
لم لا وقد أصبحت بعد محلة ... فيها السحايب بالرغايب تهمع
دار يدر الرزق من أخلاقها ... ولكم دعا داع بها من يوضع
وكأن مجلسها البهي بصدرها ... ملك بأعلى دسته متربع
وكأن مجمر عنبر بفنايها ... يذكي ما قد سيف منه يسطع
وكأنها المتوكلية بهجة ... وعلي بن الجهم فيها يبدع
في حجر ضب خافض بجواره ... من كان قبل له العوامل ترفع

يا نفثة المصدور كم لك قبلها ... من زفرة بين الجوانح تسفع
وعساك تنقع غل بك إنها ... بجحيم ما أسبلته لا تنقع
لله أنت مذاعة أودعتها ... من كل سر بالضمائر يودع
بدوية في لفظها ونظامها ... حضرية فيما به يترجع
لم لا تشفع في الذي أشكو بها ... ومثالها في مثله يتشفع
كملت وما افترعت فأي خريدة ... لو كان يفرعها همام أروع

بارت علي فأصبحت لحيائها ... منى بضافي مرطها تتلفع

ومن شعره قوله يمدح ذا الوزارتين أبا عبد الله بن الحكيم، وهي من مشاهير أمداحه:

سل الريح إن لم تسعد السفن أنواء ... فعند صباها من تلمسان أنباء

وفي خفقان البرق منها إشارة ... إليك بما تنمي إليها إيماء

تمر الليالي ليلة بعد ليلة ... وللأذن إصغاء وللعين إكلاء

وإني لأصبو للصبا كلما سرت ... وللنجم مهما كان للنجم أصباء

وأهدي إليها كل حين تحية ... وفي رد إهداء التحية إهداء

واستجلب النوم الغرار ومضجعي ... قتاد كما شاءت نواها وسلاء

لعل خيالاً من لدنها يمر بي ... ففي مره بي من جوى الشرق إبراء

وكيف خلوص الطيف منها وحولها ... عيون لها في كل طالعة راء

وإني لمشتاق إليها ومنبئ ... ببعض اشتياقي لو تمكن إنباء

وكم قايل تفنى غراماً بحيها ... وقد أخلقت منها ملاء وإملاء

لعشرة أعوام عليها تجرمت ... إذا مضى قيظ بها جاء إهراء

يطنب فيها عابثون وحزب ... ويرحل عنها قاطنون وأحياء

كأن رماح الذاهبين لملكها ... قداح وأموال المنازل أبداء

فلا تبغين فيها مناخاً لراكب ... فقد قلصت منها ظلال وأفياء

ومن عجبي أن طال سقمي ونزعها ... وقسم إضناء علينا وإطناء

وكم أرجفوا غيظاً بها ثم أرجؤا ... فيكذب إرجاف ويصدق إرجاء

يرددها عياً بها الدهر مثلما ... يردد حرف الفاء في النطق فأفاء

فيا منزلاً نال الردى منه ما اشتهى ... ترى وهل لعمر الأنس بعدك إنساء

وهل للظى الحرب التي فيك تلتظي ... إذا ما انقضت أيام بوسك إطفاء

وهل لي زمان أرتجي فيه عودة ... إليك ووجه البشر أزهر وضاء

فوا سيئى حالي إن هلكت ولم أقل ... لصحبي بها الغر الكرام الاهاؤا

ولم أطرق الدير الذي كنت طارقاً ... كعادي وبدر الأفق أسلغ مسناء

أطيف به حتى تهر كلابه ... وقد نام عساس وهوم سباء

ولا صاحب الأحسام ولهذم ... وطرف لخد الليل مذ كان وطاء

وأسحم قاري كشعري حلكة ... تلألأ فيه من سنى الصبح أضواء

فما لشرابي في سواك مرارة ... ولا لطعامي دون بابك إمراء

وباداري الأولى بدرب حلاوة ... وقد جد عيث في بلاها وأرداء

أما آن أن يحمى حماك كعهده ... وتجتاز أحماش عليك وأحماء

أما آن أن يعشو لنارك طارق ... جنيب له رفع إليك ودأداء

يرجى نوالا أو يؤمل دعوة ... فما زال قار في ذراك وقراء

أحن لها ما أطت النيب حولها ... وما عاقها عن مورد الماء إظماء

فما فاتها مني نزاع على النوى ... ولا فاتني منها على القرب إجشاء
كذلك جدي في صحابي وأسرتي ... ومن لي به من أهل ودي إن فاؤوا
ولولا جوار ابن الحكيم محمد ... لما فات نفسي من بني الدهر إقماء

حماني فلم تنتب محلى نوايب ... بسوء ولم ترزأ فؤادي أرزاء
وأكفاء بيتي في كفالة جاهه ... فصاروا عبيداً لي وهم لي أكفاء
يؤمون قصدي طاعة ومحبة ... فما عفتة عافوا وما شئته شاء
دعاني إلى المجد الذي كنت آملا ... فلم يك لي عن دعوة المجد إبطاء
وبوأني من هضبة العز تلعة ... يناجي السها منه صعود وطأطاء
يشايعني فيها إذا سرت حافظ ... ويكلأني منها إذا نمت كلاء
ولا مثل نومي في كفالة غيره ... وللذيب إلمام وللصل إلماء
بغيضة ليث أو بمرقب خالب ... تند كساً فيه وتقطع أكساء
إذا كان لي من نايب الملك كافل ... ففي حيثما هومت كن وإدفاء
وأخوان صدق من صنايع جاهه ... يبادرني منهم قيام وإيلاء
سراع لما يرجى من الخير عندهم ... ومن كل ما يخشى من الشر إبراء
إليك أيا عبد الآله صنعتها ... لزومية فيها لوجدي إفشاء
مبراة مما يعيب لزومها ... إذا عاب أكفاء سواها وإيطاء
أذعت بها السر الذي كان قبلها ... عليه لأحناء الجوانح إضناء
وإن لم يكمن كل الذي كنت آملاً ... واعوز إكلاء فما عاز إكماء
ومن يتكلف مفحما شكر منة ... فما لي إلى ذاك التكلف إلجاء
إذا منشد لم يكن عنك ومنشئ ... فلا كان إنشاد ولا كان إنشاء
ومن شعره قوله.
أطار فؤادي برق ألاحا ... رقم ضم بعد لو كر جناحا
كأن تألقه في الدجا ... حسام جبان يهاب الكفاحا
أضاء وللعين إغفاءة ... تلذ إذا ما سنى الفجر لاحا
كمعني خفي بدا بعضه ... وزيد بيانا فزاد اتضاحا
كأن النجوم وقد غربت ... نواهل ماء صدرن قماحا
لواغب باتت تجد السرى ... فأدركها الصبح روحى طلاحا
وقد لبس الليل أسما له ... فمحت عليه بلا وانصياحا
وأيقظ روض ابربا زهره ... فمحت عليه بلا وانصياحا
وأيقظ روض الربا زهره ... فحيا نسيم صباه الصباحا
كأن النهار وقد غالها ... مبيت مال حواه اجتياحا
أتى يستفيض دموعي امتياحا ... ويلهب نار ضلوعي اقتداحا
فلم يلق دجن انتحابي شحيحا ... ولم يلف زند اشتياقي شحاحا

ولولا توقد نار الحشى ... لانفدت ماء جفوني امتياحا
ومما يشرد عني الكرى ... هديل حمام إذا نمت صاحا
ينوح علي وأبكي له ... فأقطع ليلى بكاً أو نباحا
أعين أريحى أطلب الأسى ... عليك وما زدت إلا انتزاحا
دعيني أرد ماء دمعي فلم ... أرد بعد مايك ماء قراحا
أحن إليك إذا سفت ريحا ... وأبكي عليك إذا ذقت راحا
وأفني التياحا إليك وكم ... أشحت بوجهي عنك اتشاحا
ولولا سخايم قوم أبوا ... إيابي ركبت إليك الرياحا
أباحوا حماي وكم مرة ... حميت حمى عرضهم أن يباحا
ودافعت عنهم بشعري انتصارا ... فكان الجزاء جلاى المتاحا
أباعوا ودادي بخسا فسل ... أكان سماحهم بي رباحا
وأغروا بنفسي طلابها ... سراراً فجاءوا لقتلي صراحا
وآلو يمينا على أن ما ... توهمت لم يك إلا مزاحا
فشاورت نفسي في ذا فما ... رأت لي بغير الفلاة فلاحا
فبت أناغي نجوم الدجا ... نجاء فلم ألق إلا نجاحا

أجوب الدياجير وحدي ولا ... مؤانس إلا القطا والسراحا
وإلا الثعالب تحتس في ... مبيتي فتملأ سمعي ضباحا
أجوز الأفاحيص فيحاً قفارا ... وأعرو الأداحي غبرا فساحا
فأعيي شوارد هذي عداء ... وأعلو لواغي تلك صياحا
وجواب بدو إذا استنبحوا ... أجابوا عواء وأموا النباحا
يرون قتالي في الحجر حلاً ... وإذهاب نفسي فيه مباحا
قصدت هناهم فلم أخطهم ... أعاجم شوس العيون قباحا
فسل كيف كان خلاصي من ... أسارهم أسرى أم سراحا
ولا مثل بيت تيممته فلم ... ألف إلا الغنا والسماحا
عيابا ملاء ونيباً سمانا ... وغيداً خدالا وعوداً أقاحا
وإلا أعاريب شم الأنوف ... كرام الجدود فصاحاً صباحا
وإلا يعافير سود العيون ... يرين فساد المحب صلاحا
يرددن فينا لحاظاً مراضا ... يمرضن منا القلوب الصحاحا
وتحت الوجا طلاً ربرب ... لو أن القيان رفعن الوجاحا
أراني محاسن منه فلم ... أطق عن حماه بقلبي براحا
محياً وسيماً وفرعاً أثيثا ... وقداً قويماً وردفاً رداحا
وأبدي لعيني بدايع لم ... يدع لي عقلاً بها حين راحا
إذا لم يرد غير سفك دمي ... فحل وبل له ما استباحا

وما زلت سمحاً بنفسي كذا ... متى ما رأيت الوجوه الملاحا
وباين رشيد تعوذت من ... هواه فقد زدت فيه افتضاحا
وقد ضاق صدري عن كتمه ... وأودعته جفن عيني فباحا
وبابن رشيد تعوذت من ... خطوب أجلن علي القداحا
ألح الزمان بأحداثه ... فألقيت طوعاً إليه السلاحا
أعاد شبابي مشيباً كما ... سمعت وصير نسكي طلاحا
وفرق بيني وبين الأهيل ... ولم ير ذا عليه جناحا
أخي وسمي أصخ مسعداً ... لشجو حزين إليك استراحا
فقد جب ظهري على ضعفه ... كداماً وأدهاى شواتي نطاحا
وطوح بي عن تلمسان ما ... ظننت فراقي لها أن يتاحا
وأعجل سيري عنه ولم ... يدعني أودع تلك البطاحا
نأى بصديقك عن ربعه ... فكان له النأي موتاً صراحا
وكان عزيزاً على قومه ... إذا هاج خاضوا إليه الرماحا
فها هو إن قال لم يلتفت ... إليه امتهاناً له واطراحا
عجبت لدهري هذا وما ... ألاقي مساء به وصباحا
لقد هد مني ركناً شديداً ... وذلل مني حياء لقاحا
وقيت الردى من أخ مخلص ... لو استطعت طرت إليه ارتياحا
وإني على فيح ما بيننا ... لأتبع ذاك الشذا حيث فاحا
أحن إليه حنين الفحول ... ونوح الحمام إذا ما ألاحا
إن شيت عرفان حالي وما ... يعانيه جسمي ضني أو صحاحا
فقلب يذوب إليك اشتياقا ... وصدر يفاح إليك انشراحا
وغرس وداد أصاب فضاء ... نديا وصادف أرضاً براحا
كراسخ مجد تأثلته ... فلم تخش بعد عليه امتصاحا
وعلياء بوئتها لو بغى ... سمواً إليها السماك لطاحا
مكارم جمعت أفذاذها ... فكانت لعطف علاك وشاحا
ودرس علوم تهيم بها ... عمرت الغدو به والرواحا
نشأت عن الخير واعتدته ... فلم تدر إلا التقي والصلاحا
وقمت لها أيما رحلة ... كسحت المعارف فيها اكتساحا

بهرت رجال الحديث اقتداء ... وفت رجال الكمال اقتراحا
فما إن جليس إذا قلت قال ... أو أن الخطيب إذا لحت لاحا
ولو لم تحج بها مكة ... لحج الملايك عنك صراحا
وأما أنا بعد نهي النهى ... فما زادني الطبع إلا جماحا
أدير كؤوس هواي اغتباقا ... وأشرب ماء دموعي اصطباحا

فبرد جواي برد جواب ... توبخ فيه مشي الوقاحا
وهن بنيات فكري وقد ... أتينك فاخفض لهن الجناحا
ومن شعره رحمه الله قوله يمدح ذا الوزارتين المتقدم ذكره، ويذكر غفارة وجهها له مع هدية:
كبت العدى إنعامك البغت ... فلي الهنا وللعدى الكبت
يا من إلى جدوي أنامله ... يزجي للسفين وتزجر البخت
لولاك لم يوصل بناحية ... وخد ولم يقطع بها دشت
لولاك لم يطلع بها نشر ... منه ولم يهبط بها خبت
خولتني ما لم تسعه يدي ... فأصابني من كثره غمت
شتى أياد كلما عظمت ... عندي تلكأ خاطري الهت
يعيي لساني عن إذاعتها ... ويضيق عن شكري لها الوقت
وطأت لي الدنيا فلا عوج ... فيما أرى منها ولا أمت
أمكنتني منها فما ليدي ... ردء ولا لمقالتي عت
بالغت في بري ولا نسب ... أدلي إليك ودادي البحت
بوركت من رجل برؤيته ... يوسي الضنا ويعالج الغت
لو سار في بهماء مقفرة ... في حيث لا ماء ولا نبت
لتفجر الماء النمير بها ... ولأعشبت أرجاؤها المرت
لا تحسبن البخت نيل عني ... نيل الرضا منه هو البخت
آلت جلالته وحق لها ... أن لا يحيط بكنهها نعت
أظهرت دين الله في زمن ... ما زال يغلب حقه البهت
شيدته وهددت ممتعضاً ... لضياعه ما شيد الجبت
أمنت أرض المسلمين فلا ... ذئب يخاف بها ولا لصت
وحفظتها من كل نايبة ... تخشى فأنت حفيظها الثبت
ونهجت سبيل المكرمات فما ... لمؤمل عن غايه ألت
لم تبق غفلاً من متالعها ... إلا وفيه لحاير برت
هادن ظفاة الكفر ما هدأت ... حتى يجيء نهارها المحت
دعها تودع في معاقلها ... ما لم تعد جفاتها العفت
كم ذدتها عنا وقد هبرت ... لهراشنا أشداقها الهرت
بوقوف طرفك عند شدته ... يبأى ويفخر ملكها الرت
ويشكر ما اظهرت من كرم ... في ذاك تفصح عجمها المرت
لك من ممالكها وإن رغمت ... ما جال فيه جوادك الحت
ولكل أصيد من بطارقها ... في كل أرى له دعت
لولا لباك البيض ما أرقت ... للقايها أفراسنا الكمت
عنده لمن ينتابه مقة ... ولمن ينيب لغيره مقت

ولو أن بيضك لم تسل لما ... ذلت أنوف طغاتها السلت
يا ابن الحكيم أمنت صرف ردى ... أبداً له في أثلتي نحت
وبيمنه أنست من أملي ... ما لم يكن يوماً له عرت
مثني الوزارة موئلي وله ... ما دمت أملك قدرتي أقت
وببأسه أطفى شرارة من ... يعثو وأقدح أنف من يعت
عم الورى جوداً وفضل غنى ... حتى تساوى العد والغلت
وهمي على عال ومنخفض ... لم يبق فوق لا ولا تحت
ظل إذا نصطاف معتدل ... عطر الشذا وحياً إذا نشت
يتضاءل الصبح المنير إذا ... لاقى سناه جبينك الصلت
حتى كأن شمس الضحى قمر ... وكأن ضوء شعاعها فخت

وغيبة في لطف صنعتها ... يمضي الزمان وما لها أخت
ينأى الندى بها إذا لبست ويتيه إن طويت بها التخت
زنجية لكن لمحتدها ... في الروم يعنو القس والشنت
مثل العروس على منصتها ... من شأنها التزيين والزت
لأكون أنحل ما أكون هدى ... فيها فيعبل جسمي الشخت
وبمثل شيبي فوق حلكتها ... يبدو الوقار ويحفظ السمت
تظهريني بلباسها وبه ... عندي لها الإيثار ما عشت
لا زلت تؤثرني بها أبداً ... ولا تف من يشقي بذا السلت
وبقيت تدرك ما تريد وما ... تهوي بقاء ما له فت
ومن شعره أيضاً في المدح قوله رحمه الله من قصيدة ثبتت في ديوان مجموع من أمداحه منها قوله:
طرقتك وهناً أخت آل علاج ... والركب بين دكادك وحراج
في ليلة ليلاء لم ينبح بها ... كلب ولم يصرخ أذين دجاج
أني اهتدت لمضللين توهنوا ... منها لهتك دياجر ودياج
متسربلى برد الظلام كأنهم ... فيه قداح في رماية ساج
وثقوا بمحمود السرى وتسلموا ... لمخارم مجهولة وفجاج
ومنازل درس الرسوم بلاقع ... أخوين من هيج ومن هجهاج
محت معالمهن غير مثلم ... كسوار تاج أو كدملج عاج
ومواثل مثل الحمام جواثم ... ورق وأسمج دائم التشحاج
ومشجج ما زال منهل الحيا ... يبكي صداه بدمعه الثجاج
حتى أعاد لعوده أوراقه ... خضر الظلال ذكية الآراج
وكسا عراة عراصه من وشيه ... حللا تبور صنعة الديباج
لا مثل ليلات مضين سريعة ... بردت حرارة قلبي المهتاج
أدركت منها في صباي مطالبي ... وقضيت منها في شبابي حاج

كم ليلة مرت ولم يشعر بها ... غيري وغير منادمي وسراج
بتنا نذير إلى انبلاج صباحها ... كأس الهوى صرفاً بغير مزاج
وتدير أعيننا حديث غرامنا ... بمرامز من فضها وأحاج
بمآرج النفحات من دارين أو ... بمدارج النسمات من دراج
وخلوص ود في نقاء سريره ... كسلاف راح في صفاء زجاج
أمحضته حظي من الزمن الذي ... أعيي مراسي أهله وعلاج
واخترت قرب جواره لخلوصه ... وتركت كل مماذق مراج
ما في زمانك غير فاخلص له ... غيباً وداهن من أردت وداج
لا تحلفن بغيره واستعفين ... بوقاره عن كل غمر ماج
أترك بني الدنيا وأعرض عنهم ... فعساك تطعم لذة الإثلاج
نزهت نفسي عنهم بنواله ... وحفظتها من جاهه بسياج
أصبحت من آلايه وولايه ... في عزة ضحيا وعز داج
ولو أنني عجت الركاب ميمما ... أحداً سواه ما حمدت معاج
طلق إذا احتلك الزمان أنار في ... ظلمائه كالكوكب الوهاج
طود الرصانة والرزانة والحجا ... بحر الندى المتلاطم الأمواج
وغمامه الهامي على آماله ... من غير إرعاد ولا إرعاج
وهزبر آجام القنى الضاري إذا ... سقطت عواتمها على الأزجاج
ضمن الإله له على أعدايه ... ما شاء من ظفر ومن إفلاج
أبقى أبو عبد الإله محمد ... ما شاد والده أبو الحجاج
وبني أبو إسحق قبل وصنوه ... ركنا الضعيف ومعدنا المحتاج
وجرى على آثار أسلاف لهم ... درجوا وكلهم على منهاج
ما منهم إلا أعز مبارك ... مصباح ليل أو صباح عجاج
بيت بنوه من سراوة حمير ... في الذروة العلياء من صنهاج

كم كان في الماضين من أسلافهم ... من رب إكليل وصاحب تاج
أساس كل رياسة ورؤس ... كل سياسة وليوث كل هياج
أعيت نجوم الليل من سهر وما ... أعيا أبو موسى من الإدلاج
حتى أصارته لرحمة ربه ... يوم العقاب وقيعة الأعلاج
وأقيم نجل أخيه بعد مقامه ... فيهم يطاعن مثله ويواج
فردا يلف كتايباً بكتايب ... ويكب أفواجا على أفواج
حتى تجلى دجن كل عجاجة ... عنهم وأمسك رعد كل ضجاج
من مثل يوسف قراع كتايب ولقاء أعداء وخوض لجاج
أو من يشق من الأنام غباره ... في رد آراء ونقض حجاب
إن خاض يوماً في بيان حقيقة ... ألهى عن الثوري والحلاج

وإذا تكلم في الغريب وضبطه ... لم يعبأ بالعتبي والزجاج
جمع الفصاحة والصباحة والتقا ... والجود في وجد وفي إحراج
تخشاه أسد الغاب في أجماتها ... والروم في الأسوار والأبراج
إنا بني قحطان لم تخلق لغير غياث ملهوف ومنعة لاج
نبري طلا الأعراب في الهيجا وفي ... اللأواء سوف تماري الأعراج
بسيوفنا البيض اليمانية التي ... طبعت لحز غلاصم ووداج
تأبى لنا الإحجام عن أعدائنا ... يوم اللقاء طهارة الأمشاج
أنصار خير العالمين وحزبه ... وحماته في الجحفل الرجراج
وفداته بنفوسهم ونفيسهم ... من غدر مغتال وسبة هاج
هم صفوة الخلق التي اختيرت له ... وسواهم همج من الأهماج
إلا الألى سبقوا بباهر فضلهم ... من ساير الأصحاب والأزواج
وكفى بحكمتنا إقامة حجة ... وبركتنا من كعبة الحجاج
ولنا مفاخر في القديم شهيرة ... كالصبح في وضح وفي إبلاج
منا التبابعة الذين بباهم ... كانت تنيخ جباة كل خراج
ولأمرهم كانت تدين ممالك الدنيا بلا قهر ولا إحراج
من يقتدح زنداً فإن زنادهم ... في الجود وارية بلا إخراج
بوابهم مفتوحة لضيوفهم ... أبداً بلا قفل ولا مزلاج
ومما اشتهر من شعره قوله:
أرق عيني بارق من أثال ... كأنه في جنح ليلي ذبال
أثار شوقاً في ضمير الحشى ... عبرتي في صحن خدي أسال
حكى فؤاد قلقاً واشتعال ... وجفن عيني أرقاً وانهمال
جوانح تلفح نيرانها ... وأدمع تنهل مثل العزال
قولوا وشاة الحب ما شئتم ... ما لذة الحب سوى أن يقال
عذراً للوامي ولا عذر لي ... فزلة العالم ما إن تقال
قم نطرد الهم بمشمولة ... تقصر الليل إذا الليل طال
وعاطها صفراء ذمية ... تمنعها الذمة من أن تنال
كالمسك ريحاً واللما مطمعا ... والتبر لوناً والهوا في اعتدال
عتقها في الدن خمارها ... والبكر لا تعرف غير الحجال
لا تثقب المصباح لا واسقني ... على سنى البرق وضوء الهلال
فالعيش نوم والردى يقظة ... والمرء ما بينهما كالخيال
خذها على تنغيم مسطارها ... بين خواييها وبين الدوال
في روضة باكر وسميها ... أخمل دارين وأنسى أوال
كأن فار المسك مغبوقة ... فيها إذا هبت صباً أو شمال

من كل ساجي الطرف ألحاظه ... مفوقات أبداً للنضال
من عاذري والكل لي عاذل ... من حسن الوجه قبيح الفعال
من خلني الوعد كذابه ... ليان لا يعرف غير المطال
كأنه الدهر وأي امرئ ... يبقى على حال إذا الدهر حال
أما تراني آخذاً ناقضاً ... عليه ما سوغني من محال

ولم أكن قسط له عائباً ... كمثل ما عابته قبلي رجال
يأبى ثراء المال علمي وهل ... يجتمع الضدان علم ومال
وتأنف الأرض مقامي بها ... حتى تهاداني ظهور الرجال
لولا بنو زيان ما لذ لي العيش ولا هانت على الليال
هم خوفوا الدهر وهم خففوا ... على بني الدهر خطاه الثقال
ورثت من عامرهم سيداً ... غمر رداء الحمد عمر النوال
وكعبة للجود منصوبة ... يسعى إليها الناس من كل حال
خذها أبا زيان من شاعر ... مستملح النزعة عذب المقال
يلتفظ الألفاظ لفظ النوى ... وينظم الآلاء نظم اللآل
مجارياً مهيار في قوله ... ما كنت لولا طمعي في الخيال

ومما قال أيضاً، واشتمل ذلك على شيء من نظمه ونثره. وهذا الرجل مغرب النزعة، في شفوف نظمه على نثره:

عجباً لها أينوق طعم وصالها ... من ليس يطمع أن يمر ببالها
وأنا الفقير إلى تعلة ساعة ... منها وتمنعني زكاة جمالها
كم ذا وعن عيني الكرى متأنف ... يبدو ويخفى في خفي مطالها
يسمو لها بدر الدجا متضايلاً ... كتضاءل الحسناء في أسمالها
وابن السبيل يجيء يقبس نارها ... ليلاً فتمنحه عقيلة مالها
يعتادني في النوم طيف خيالها ... فتصيبني ألحاظها بنبالها
كم ليلة جادت به فكأنما ... زفت على ذكا وقتت زوالها
أشري فعطرها وعطل شهبها ... يأبى شذا المعطار من معطالها
وسواد طرته كجنح ظلامها ... وبياض غرته كضوء هلالها
دعني أشم بالوهم أدنى لمحة ... من نغرها وأشم مسكة خالها
ما راد طرفي في حديقة خدها ... إلا لفتنته بحسن دلالها
أنسيب شعري رق مثل نسيمها ... فشمول راحك مثل ريح شمالها
واتقل أحاديث الهوى واشرح غريب لغاتها وأذكر ثقات رجالها
وإذا مررت برامة فتوق من ... أطلايها وتمش في أطلالها
وانصب لمغزلها حبالة قانص ... ودع الكرى شر كالصيد غزالها
وأسل جداولها بفيض دموعها ... وانضح جوانحها بفضل سجالها
أنا من بقية معشر عركتهم ... هذي النوى عرك الرحى بثقالها

أكرم بها فئة أريق نجيعها ... بغياً فراق العين حسن جمالها
حلت مدامة وصلها وحلت لهم ... فإن انتشوا فبحلوها وحلالها
بلغت بهرمس غاية ما نالها ... أحد وناء بها لبعد منالها
وعدت على سقراط صورة كأسها فهريق ما في الدن من جريالها
وسرت إلى فاراب منها نفحة ... قدسية جاءت بنخبة آلها
ليصوغ من ألحانه في حانها ... ما سوغ القسيس من أرمالها
وتعلقت في سهر ورد فأسهرت ... عيناً يؤرقها طروق خيالها
فخبا شهاب الدين لما أشرقت ... وخبا فلم يثبت لنور جلالها
ما جن مثل جنونه أحد ولا ... سمحت يد بيضاء بمثل نوالها
وبدت على الشوذي منها نفحة ... ما لاح منها غير لمعة آلها
بطلت حقيقته وحالت حاله ... فيما يعبر عن حقيقته حالها
هذي صبابتهم ترق صبابة ... فيروق شاربها صفاء زلالها
إعلم أبا الفضل بن يحيى أنني ... من بعدها أجري على آسالها
فإذا رأيت مولهاً مثلي فخذ ... في عذله إن كنت من عذالها
لا تعجبن لما ترى من شأنها ... في حلها إن كان أو ترحالها
فصلاحها بفسادها ونعيمها ... بعذابها ورشادها بضلالها
ومن العجايب أن أقيم ببلدة ... يوماً وأسلم من أذى جهالها
شغلوا بدنياهم أما شغلتهم ... عني فك م ضيعت من أشغالها
حجبوا بجهلهم فإن لاحت لهم ... شمس الهدى عشوا بضوء ذبالها

وإن انتسبت فإنني من دوحة ... تتقيل الأقيال برد ظلالها
من حمير من ذي وعين من ذرى ... حجر من العظماء من أقيالها
وإذا رجعت لطينتي معنى فما ... سلسالهم بأرق من صلصالها
لله درك أي نجل كريمة ... ولدته فاس منك بعد حبالها
ولأنت لاعد منك والد فخرها ... وسماك سؤددها وبدر كمالها
أغلظ على من عاث من أنذالها ... واخشع لمن تلقاه من أبدالها
والبس بما أوليتها من نعم ... حلل الثناء وجر من أذيالها
خذها أبا الفضل بن يحيى تحفة ... جاءتك لم ينسج على منوالها
ما جال في مضمارها شعر ولا ... سمحت قريحة شاعر بمثالها
واتل أبا البركات من بركاتها ... وادفع محال شكوكه بمحالها

هذه أمتع الله ببقايك، وأسعد بلقايك. وأراها بما تؤمله من شريف اعتنايك، وترجوه من جميل احتفايك، ما تعرف به من احتذايك، وتعترف له ببركة اعتفايك، كريمة الأحياء، وعقيلة الأموات والأحياء، بنت الأذواء والأقيال، ومقصورة الأسرة والحجال؛ بل أسيره الأساوير والأحجال. على أنها حليفة جاورت سيف بن ذي يزن في رأس غمدان، وجاوزت مسلمة بن مخلد يوم جابية الجولان، وذلقت لسان ابن أخته حسان، فتضاءلت لرقة حده جسوم

بني عبد المدان، وقربه ما شيم من غمده قيد ابن الغطنابة بين يدي النعمان، قربت ببني جفنة مزار جلق، وسعرت لبني تميم نار محلق؛ ومرت على معتاد غالب، فما أنست ناره، وطافت ببيت عبد الله بن دارم، فلم ترض جواره، ولو حلت بفناية، واستحلت ما أحل لها من مبذول حبائه، لاغتفر لها ما جنته ببطن أواره، ولحلت لها حبوتاً مجاشع وزرارة، مزقت على مزيقيا حللاً، وأذهبت يوم حليمة مثلا، وأركبت عنزاً شر يومها يجدع جملا، وناطت بأذن مارية قرطها، وجرت على أثر الكندي مرطها، وقفها بين الدخول فحومل فوقفت، وأنفها يوم دارة جلجل فأنفت منه ومنا ألفت، عقر ناقته وانتهس عبيطها، ودخل خدر عنيزة وأمال غبيطها. وأغرت أبا قابوس بزياد، واسرجت للزبيدي فرس أبي داود، ونافرت بحاتم طي كعب إياد، وساورت للمساور بمثل جوده الساير. ولئن بلت الجعفري لبيدا، فلقد استعبدت الأسدي عبيداً، وقطعت به في أثر سليماه الأسدية بيداً، أرته المنية على حربة هندها الملحوب، وما حال قريضه دون جريضه، وأقفر من أهله ملحوب، وما زالت تخبط في شعاب الأنساب، فترشد، وتنشد ضالتها اليمانية، فتنشد:

إن كنت من سيف بن ذي يزن ... فانزل بسيف البحر من عدن

وذر الشآم وما بناه به الرومي من قصر ومن فدن

تعلف سيل العرم، وترد غسان، وتمهد لها أهضام تبالة، فتقول مرعي ولا كالسعدان، تساجل عن سميحة بابن خرام، وتناضل بسمير يوم خزام، وتنسي قاتل ستة آلاف، وكاسي بيت الله الحرام ثلاثة الأفواف، فلو ساجلت بنبعها أبا كرب، وأرته ضراعة خدها الترب، لساجلت به أخضر الجلدة في بيت العرب، ما جداً يملا الدلو إلى عقد الكرب، بل لو حطت بفناء بيتها الحجري رحلها، وساجلت بفناء حدها ذي رعين، لاستوفت سجلها. كم عاذت بسيفها اليزني، فأدركت ذحلها، ولاذت بركنها اليمني فأجزل محلها. ولو استسقت بأوديتها، لأذهبت محلها. كافحت عن دينها الحنيفي، فما كهم حسامها، ونافحت عن نبيها الأمي، فأيدت بروح القدس سهامها. سدت باب الدرب دون بني الأصفر، وشدت لموته ثوب موت أحمر، وما شغلها كسر تاج كسرى عن قرع هامة قيصر. ولقد حلت من سنام نسبها اليعربي باسمك ذروة، وتعلقت من ذمام نبيها العربي بأوثق عروة. تفرد صاحب تيماء بأبلقه الفرد فعز، وتمرد رب دومة الجندل لما كان من مارد في حرز، فما ظنك، أعزك الله، بمن حل من قدسي عقله، بمعقل قدس، يطار إليه فلا يطار، وراد من فردوس أدبه، في جنة لا يضام رايدها ولا يضار. زها بمجاورة الملك فازدهى رؤساء الممالك، وشغف بمجاورة الملك، فاشتغل عن مطالعة المسالك، أيشق غباره، وعلى جبين المرزم مثاره، أو ينتهك ذماره، وقلب الأسد بيته، ودار أخيه أسامة زاره. ولما قضت من أنديتها العربية أوطارها، واستوفت على أشرف منازعها الأدبية أطوارها، وعطرت بنوافح أنفاسها الذكية آثارها، وأطلعت في ظلم أنفاسها الدجوجية كواكبها النيرة وأقمارها، عطفت على معقلتها الشاذليلة فحلت عقالها، وأمر لها فراق الوطن. فلما استمر لها حلالها، استودعت بطنان تبالة آلها، وتركت أهضامها المخصبة وحلالها. أطلت على دارات العرب فحيت أطلالها، ودعت لزيارة أختها اليونانية، أذواء حمير وأقيالها. أطمعتها بلمعية ألمعيتها الأعجمية، ومثلها يطمع، وجاء بها من قدماء الحكماء كل أوحدي الأحوذية، فباتت تخب إليه وتوضع، باحثة عن مركز دارهم الفيثاغورية؛ آخذة في إصلاح هيئتهم الإنكساغورية، مؤثرة لما تدل عليه دقائق حقائق بقايا علوم مقايسهم البراهانية، وتشير إليه رموز كنوز وصايا علماء نواميسهم الكلدانية، من مأثور تأثير لاهوتية قواهم السيماوية، راغبة فيما يفاض على مادتها الجسمانية، ويطرأ على عاقليتها الهيولانية، من علويات آثار مواهبها الربانية، موافقة لمثلهم المفارقة أفضل موافقة، موافقة لما وافق من شوارد آرايهم الموفقة أحسن موافقة. وتحت هذه الأستار محذرات أسرار أضر بها الإسرار، وطالما

نكر معارفها الإنكار، ونقلت من صدور أولئك الصدور، إلى بطون هذه الأوراق، في ظهور فوق دفاتر فلسفيات معاني علومهم الرقاق. وفي تلك المغاني، أبكار معاني، سكن الجوانح والصدور، بدل الأرايك والخدور، ولحن في دياجي ظلم هذه الأحاجي، كأقمار في أطمار، بهرن وما ظهرن، وسطعن وما لمعن، فعشقن وما رمقن، واستملحن وما ملحن. أدرن خمور أجفانهن على ما خوريات ألحانهن، فهيجت البلابل نغم هذه البلابل، واستفرغته الأكياس، مترعات تلك الأكواس. ما سحر بابل، كخمر بابل، ولا منتقى أغانيهن الأوايل، كحمايمكم الهوادل، إن وصلت هديلها بخفيف، وصلن ثقيلهن بخفيف. إيه أيها الشمري المشمعل، دعنا من حديثك المضمحل، سر بنا أيها الفارس الندس، من حظيرة النفس، إلى حضرة القدس، صرح بإطلاق الجمال، وجل من عالميتك الملكوتية في أفسح مجال، تمش بين مقاصر قصورها، ومعاصر خمورها، رخي البال، مرخي السربال، فما ينسج لك على منوال، نادم عليها من شغف دن سقراط، إن استحسنت لها حسان، فما يصلح لك، صالح بن علاط. بت صريع محياها، فقد أوصت بمعالجة عقير معاقرة عقارها بقراط، لا تخش صاحب شرطتها، فلا شرط له عليك ولا اشتراط، مالك غير مبديك الأول، من قال امتثل الأمر، وما عليك من أمر وال. على رسلك ما هذا العجل، لا خطأ تتوقعه ولا خطل، أمكره أنت في هذه الكريهة، أم بطل. لو علم أنك ضبارية هذا الخميس، وخبعثة ذلك الخميس، لما عاني اليم رسيس، شوقاً إليك محمد بن خميس، على أن لا غالب اليوم لأني غالب، ولا طالب يدرك شأو هذا الطالب، فقه بلا تفهيق، وحذق في تحذلق. أقسم أبا الفضل بمالك على أبي البركات من الفضل، ذلك العراقي الأرومة، لا هذا الفارس الجرثومة، وإن يك

ذلك، إسرايلي الأصل، وهذا إسمعيلي الجنس، علوي الفضل. فلتلك الذات، شرف تلك الأدوات. قدم لي غالبنا المذكور، من بأسه الغر لأرفع، وأسمى من مقعد، وقوطيهم المشهور، من إغرناطة الحمراء، ومن متبوأ أبي أميتهم المرحوم، من جنات جزيرتهم الخضراء، فيما لنت أبا الفضل من هذه العربجة، وألوك. أرأيت في عمرك، مثل هذا الصعلوك، لا والله ما على ظهر هذه الغبراء، من يتظاهر بمثل هذه المعرفة في بني غبرا. فأي شيء هذا المنزع إيش، لا حال لنا معك ولا عيش، من يضحك على هذا الطيش. ما هذا الخبل، أخمار بك أم ثمل، إرجع إلى ما كنت بصدده، وقيت الزلل، خذ في الجد فما يليق بك الهزل. رق عن ذلك فحك لنا منه أرق غزل، ماذا أقول، وأي عقل يطاوعني على هذا المعقول. أفحمتني والله عن مكالمتكم هذه المحن، ومنعتني من طلب مسالمتكم، ما لكم علي في دنياكم هذه من الإحن. إن تكلمت كلمت، وإذا استعجمت عجمت. أما لهذه العلة آس، أم على هذه القيلة مواس؛ ما حيلتي في طبع بلدكم الجاسي. إما يلين لضعفي أما يرق قلب زمانكم القاسي. ما هذه الدمن يا بني حضروات الدمن، أظهرتم المحن، فقلب لكم ظهر المجن. إن مر بكم الولي حمقتموه، وإن زجركم العالم فجرتم عليه ففسقتموه، وإذا نجم فيكم الحكيم، غصصتم به، فكفرتموه وزندقتموه، كونوا فوضى، فما لكم اليوم مسراً سواه واذهبوا من مراعيكم المستوبلة، حيث شئتم، فقد أهملكم الرعاة. ضيعتم النص والشرائع، وأظهرتم في بدعكم العجايب والبدايع. نفقتم النفاق، وأقمتم سوق الفسوق على ساق. استصغرتم الكباير، وأبحتم الصغاير. أين غنيكم الشاكر، يتفقد فقيركم الصابر، أين عالمكم الماهر، يرشد متعلمكم الحاير. مات العلم بموت العلماء، وحكم الجهل بقطع دابر الحكماء. جرد لنا شريعتك يا أفضل الشارعين. أتم فيها موعظتك يا أفصح التابعين. لا والله ما يوقظكم من هذا الوسن، وعظ الحسن، ولا ينقذكم من فتن هذا الزمن، إلا سيف معلمه أبي الحسن والسلام.ذلك، إسرايلي الأصل، وهذا إسمعيلي الجنس، علوي الفضل. فلتلك الذات، شرف تلك الأدوات. قدم لي غالبنا المذكور، من بأسه الغر لأرفع، وأسمى من مقعد، وقوطيهم المشهور، من إغرناطة الحمراء، ومن متبوأ أبي أميتهم المرحوم، من جنات

جزيرتهم الخضراء، فيما لنت أبا الفضل من هذه العربجة، وألوك. أرأيت في عمرك، مثل هذا الصعلوك، لا والله ما على ظهر هذه الغبراء، من يتظاهر بمثل هذه المعرفة في بني غبرا. فأي شيء هذا المنزع إيش، لا حال لنا معك ولا عيش، من يضحك على هذا الطيش. ما هذا الخبل، أخمار بك أم ثمل، إرجع إلى ما كنت بصدده، وقيت الزلل، خذ في الجد فما يليق بك الهزل. رق عن ذلك فحك لنا منه أرق غزل، ماذا أقول، وأي عقل يطاوعني على هذا المعقول. أفحمتني والله عن مكالمتكم هذه المحن، ومنعتني من طلب مسالمتكم، ما لكم علي في دنياكم هذه من الإحن. إن تكلمت كلمت، وإذا استعجمت عجمت. أما لهذه العلة آس، أم على هذه الفيلة مواس؛ ما حيلتي في طبع بلدكم الجاسي. إما يلين لضعفي أما يرق قلب زمانكم القاسي. ما هذه الدمن يا بني حضروات الدمن، أظهرتم المحن، فقلب لكم ظهر المجن. إن مر بكم الولي حمقتموه، وإن زجركم العالم فجرتم عليه ففسقتموه، وإذا نجم فيكم الحكيم، غصصتم به، فكفرتموه وزندقتموه، كونوا فوضى، فما لكم اليوم مسراً سواه واذهبوا من مراعيكم المستوبلة، حيث شئتم، فقد أهملكم الرعاة. ضيعتم النص والشرائع، وأظهرتم في بدعكم العجايب والبدايع. نفقتم النفاق، وأقمتم سوق الفسوق على ساق. استصغرتم الكباير، وأبحتم الصغاير. أين غنيكم الشاكر، يتفقد فقيركم الصابر، أين عالمكم الماهر، يرشد متعلمكم الحاير. مات العلم بموت العلماء، وحكم الجهل بقطع دابر الحكماء. جرد لنا شريعتك يا أفضل الشارعين. أتم فيها موعظتك يا أفصح التابعين. لا والله ما يوقظكم من هذا الوسن، وعظ الحسن، ولا ينقذكم من فتن هذا الزمن، إلا سيف معلمه أبي الحسن والسلام.

قدم غرناطة في أواخر عام ثلاثة وسبعماية. وتوفي في يوم مقتل صاحبه الوزير أبي عبد الله بن الحكيم، فر من دهليز جاره فيمن كان بها من الأعلام، بعد أن نهبت ثيابه، حسبما جرى على غيره من الحاضرين، وهو يقول، هكذا تقوم الساعة بغتة. ولقيه بعض قرابة السلطان، ممن كان الوزير قد وتره، فشرع الرمح إليه، فتوسل إليه برسول الله، فلم يقبل منه، وطعنه، فقتله يوم عيد الفطر عام ثمانية وسبعماية، وآخر العهد به، مطرحاً بالعراء، خارج باب الفخارين، لا يعلم قبره، لمكان الهرج في تلك الأيام. نسل الله جميل ستره. وساء بأثر قتله إياه حال ذلك الرجل وفسد فكره، وشرد نومه وأصابته علة ردية، فكان يثب المرة بعد الأخرى، يقول ابن خميس يقتلني، حتى مات لأيام من مقتل المذكور.

ابن إبراهيم الملكشي

محمد بن عمر بن علي بن إبراهيم الملكشي يكنى أبا عبد الله.

حاله

كان فاضلا، متخلقاً، أديباً، شاعراً، صوفياً، جميل العشرة، حسن الخلق كريم العهد، طيب النفس. كتب عن الأمراء بإفريقية، ونال حظوة، ثم شرق وحج، ولقي جلة، ووصل الأندلس عام ثمانية عشر وسبعماية، فلقي بغرناطة حفاية، وانسحبت بها عليه جراية، ثم انصرف إلى وطنه، وناله به اعتقال، ثم تخلص من النكبة، وأقام به، يزجي وقته إلى آخر عمره.

وجرى ذكره في الإكليل الزاهر: كاتب الخلافة، ومشعشع الأدب المزري بالسلافة، كان يرحمه الله، بطل مجال، ورب روية وارتجال، قدم على هذا البلاد، وقد نبا به وطنه، وضاق ببعض الحوادث عطنه، فتلوم بها تلوم النسيم بين الخمايل، وحل بها محل الطيف من الوشاح الجايل، ولبث مدة إقامته تحت جراية واسعة، ومبرة يانعة. ثم آثر قطره، فولي وجهه شطره، واستقبله دهره بالإنابة، وقدله خطة الكتابة، واستقامت حاله، وحطت رحاله، وله شعر أنيق،

وتصوف وتحقيق، ورحلته إلى الحجاز، سببها في الخبر وثيق، ونسبتها في الصالحات عريق.

شعره

نقلت من خط الوزير أبي بكر بن ذي الوزارتين، مما قيد عنه، وكان خبيراً بحاله:

رضي نلت من كل ما يهوى ... فلا توقفني موقف الذل والشكوى

وصفحاً عن الجاني المسيء لنفسه ... كفاه الذي يلقاه من شدة البلوى

بما بيننا من خلوة معنوية أرق من النجوى وأحلى من السلوى

قفي أتشكى لوعة البين ساعة ... ولا يك هذا آخر العهد بالنجوى

قفي ساعة في عرصة الدار وانظري إلى عاشق لا يستفيق من البلوى

وكم قد سألت الريح شوقاً إليكم ... فما حن مسراها إلي ولا ألوى

فيا ريح حتى أنت ممن يغار بي ... ويا نجد حتى أنت تهوي الذي أهوى

خلقت ولي قلب جليد على النوى ... ولاكن على فقد الأحبة لا يقوى

وحدث بعض من عني بأخباره أيام مقامه بمالقة واستقراره؛ أنه لقي ليلة بباب الملعب في أبوابها ظبية من ظبيات الأنس، وفتنة من فتن هذا الجنس، فخطب وصالها، واتقى بفؤاده نصالها، حتى همت بالانقياد، وانعطفت انعطاف الغصن المياد، فأبقى على نفسه، وأمسك، وأنف من خلع العذار، بعد ما تنسك، وقال:

لم أنس وقفتنا بباب الملعب ... بين الرجا واليأس من متجنب

وعدت فكنت مراقباً لحديثها ... يا ذل وقفة خايف مترقب

وتذللت فذللت بعد تعزز ... يأتي الغرام بكل أمر معجب

بدوية أبدي الجمال بوجهها ... ما شيت من خد شريق مذهب

تدنو وتبعد نفرة وتجنباً ... فتكاد تحسبها مهاة الرباب

ورنت بلحظ فاتر لك فاتن ... أنضى وأمضى من حسام المضرب

وأرتك بابل سحرها بجفونها ... فسبت وحق لمثها أن تستب

وتضاحكت فحكت بنير ثغرها ... لمعات نور ضياء برق خلب

بمنظم في عقد سمطى جوهر ... عن شبه ثور الأقحوان الأشنب

وتمايلت كالغصن أخضله الندى ... ريان من ماء الشبيبة مخصب

تثنيه أرياح الصبابة والصبا ... فتراه بين مشرق ومغرب

أبت الروادف أن تميل بميله ... فرست وجال كأنه في لولب

منسوجاً بهلال وجه لاح في ... خلل السجوف لحاجب ومحجب

يا من رأى فيها محباً مغرماً ... لم ينقلب إلا بقلب قلب

ما زال مذ ولي يحاول حيلة ... تدنية من نيل المنى والمطلب

فأجال نار الفكر حتى أوقدت ... في القلب نار تشوق وتلهب

فتلاقت الأرواح قبل جسومها ... وكذا البسيط يكون قبل مركب

ومن مقطوعاته البديعة، مما سمع منه بغرناطة، حرسها الله، أيام مقامه بها قوله:

أرى لك يا قلبي بقلبي محبة ... بعثت بها سرى إليك رسولا

فقابله بالبشر واقبل عشية ... فقد هب مسكي للنسيم عليلا
ولا تعتذر بالقطر أو بلل الندى ... فأحسن ما يأتي النسيم بليلا

ونقلت من خط الفقيه القاضي أبي جعفر الرعيني، مما أملاه علي بمنزله بغرناطة. قال وحضرت في عام ثلاثة عشر وسبعماية، يوم إحرام الكعبة العلية، وذلك في شهر ذي القعدة على اصطلاحهم في ذلك، وصفته أن يتزين سدنة البيت من شيبة بأحسن زي، ويعمدوا إلى كرسي، يصل فيه صاعده، إلى ثلث الكسوة، ويقطعها من هنالك، ويبقى الثلثان إلى الموبم، وهو يوم مشهود عند سكان الحرم، يحتفل له، ويقوم المنشدون أدراج الكعبة ينشدون. فقلت في ذلك:

ألم ترها قد شمرت تطلب الجدا ... وتخبر أن الأمر قد بلغ الحدا
فجد كما جدت إليها وشمر عن الساعد الأقوى تنل عندها سعدا
طوت بردها طي السجل كناية ... لأمر خفي سره طوت البردا
وأندت محياها فحيا جماله ... وقبل على صون المقلة ذلك الخدا
فكم سترت سود البرود جمالها ... وغطته لاكن عن سنها الرمدا
وكم خال ذاك الخال عما مقصر ... عن العلم بالأنساب لا يعرف الحدا
لقد سفرت عن وجهها الكعبة التي ... لها المسني في حسنها المبدا
وقالت ألا أين مكللي، قصدوا إلى جمالي فقد أبدي الحجاب الذي أبدا
فلبت لها العاشق من كل جانب ... يومونها يستقربون لها البعدا
فمن ندف أشفى على تلف ومن ... محب على قرب يهيم بها وجدا
ومن ساهر على النجوم ولم يذق بعينيه طعم النور أو يبلغ القصدا
بسائل عن بدر وبدر تجاهه ... كذلك اشتراك اللفظ قد ينغص الخدا
ومن مستهام لا يقر قراره ... كأن به من حر أشواقه وقدا
يقلب قلباً بين جنبيه موريا ... أوار الأسى فيه فتحسبه زندا
إذا ما حدى حادي الركاب ركابه ... كأن قلوب الراكبين له نجدا
أحاد بها إن أنت جئت بها مني ... ونلت المنى والأمن فانزل ورد وردا
ولا خوف هذا الخيف والتربة التي ... سرت قد عين المصطفى عدا
وفي عرفات فاعترف وانصرف إلى ... مشاعر فيها يرحم المالك العبدا
وإن كنت من أوفى العبيد جرايما ... فحسن نبيل العقد من ربك العقدا
لين صدقت فيك الوعيد جرايم ... فعفواً لجميل الصفح يصدقك الوعدا
وعد مفضياً للبيت طف واستلم وقم ... بها للمقام الرحب واسجد وكن عبدا
ورد في الثنا والحمد والشكر واجتهد ... فمن عرف الإحسان زادته حمدا
وعج نحو فرض الحب وأقض حقوقه ... وزر قبر من أولاك من هديه رشدا

قال، وكنت في زمن الحداثة، أفضل الأصيل على السحر، وأقول فيه رقة المودع ورقة المعتذر. فلما كان أوان الأسفار، واتصلت ليالي السير، إلى أوقات الأسحار، وأيت أفق الشرق أشرق، ووجدت القايل يفضل السحر أصدق، فابتدأت راكباً، فلما جيت لذكر الجناب العلي النبوي، أتممت ماشياً، وأنا في رملة بين مصر وعقبة إيله،

وقلت:

ما أحسن الأفق الشرقي إسفارا ... فكم هذا في دجى الإدلاج أسفارا
إذا بدا سارت الأظعان هادية ... له وصارت به الظلماء أنوارا
يجلو غياهب ليل طالما سدلت ... على المحبين في الظلماء أستار
ونم من ه نسيم ثم ذا بعد على ... أحاديث كانت ثم أسرارا

سرت سحيرا فبرت سر ذي سحر ... أهدت له ريح من يهواه معطارا
سرت ببانات أكناف اللوى ... فغدت كأن دارين قد أصبحت دارا
طابت بطيبة أرواح معطرة ... بها فأصبح أفق الشوق عطارا
كأنما فلق الغصباح حين بدا ... خدر بهجة حسن الشمس قد وارا
حقي بدت وتبدت حسن صورتها ... فعممته الأرض أنجاداً وأغوارا
كأنه دعوة المختار حين بدت ... دانت لها الخلق إعلاناً وإصرارا
من نوره كل نور أنت تبصره ... ونوره زاد الأبصار إبصارا
هدا به الله أقواماً به سعداء ... لولاه كانوا مع الكفر كفارا
هو الشفيع الذي قالت شفاعته ... للموبقين ألا لا تدخلوا النارا
هو العفو عن الجاني وإن عظمت ... من المسيء ذنوب كان غفارا
هو الكريم الذي ما رد سائله ... يوما ولو كرر التسآل تكرارا
هو الحبيب الذي ألقى محبته ... في كل قلب فقلبي نحوه طارا
أحبه كل مخلوق وهام به ... حتى الجمادات أحجاراً وأشجاراً
وانشق بدر الدجا من نور غرته ... وانهلت السحب من كفيه أنهارا

ومن مقطوعاته، قال، ومما نظمته في ليل السرى، وتخيل طيف الكرى، أقصيد قصدته أي معنى أردته، أشغل عنه ما بي منه:

منع الهجر من سليمي هجوعا ... فانثنى طبعها يريد الرجوعا
بعثته ليلا يعلل قلباً ... مستهاماً بها محباً ولوعا
لم يجد غير طرف جفن قريح ... شاخصا نحوها يذر الدموعا

وكتب إلى صديقه شيخنا أبي بكر بن شبرين من بجاية، وهو معتقل بقصبتها، وقد امتحنه بذلك أبو عبد الله بن سيد الناس:

شرح حالي لمن يريد سؤالي ... إنني في اعتقال مولي الموال
مطلق الحمد والثناء عليه ... وهو للعطف والجميل موال
لا أرى للولاة في احتكاما ... وولي مال على كل وال
أرتجي بالمصاب تكفير ذنبي ... حسبما جاء في اصحاح العوال
لا تدوم الدنا ولا الخير فيها ... وكذا الشر ذا وذا للزوال
فاغتنم ساعة الوصال وكم ... من محنة وهي منحة من نوال
فإذا غبت عنك فاحضر ... تجدها للجواب المفيد عن السؤال

فهي نور للنهار والنور منها ... وهي الأنس في الليالي الطوال
فاستدمها تدم ولا تضج منها ... وأدرها على اليمين ووال
فإن الكأس مجراها على اليمين، ومسراها لفي الصبح المبين، تغنى عن الإصباح والمصباح، وتدنى لهم معنى النور المشرق في الوجوه الصباح، وتجرى في الأشباح، فتسرى في الأرواح. وهذه الرسالة طويلة، فيها كل بديع من نظم ونثر.
فأجابه رحمه الله:
أرغمن هذه القيود الثقال ... رب ود مصيره للتغال
طال صبري على الجديدين حتى ... كدت مما لقيت أن يشفقا ل
إن بعض الرضا لديه فسيح ... أي مدد به وأي ابتقال
حاش لله أن أكون لشيء ... شاده الصانع القديم بغال
إن عندي من الثناء عليه ... لأماني لم يملهن القال
يا إماء الذي بودي لو ... أمكن نصي إليه أوار قال
أرج دنياك وأرج مولاح واعلم ... أن راجي سواه غير مقال
وابتغاء الثواب من ربك اعمل ... فهو يجزي الأعمال بالمثقال
واغتنم غيبة الرقيب ففيها ... لقلوب الرجال أي صقال
وأحل في الوجود فكر غني ... عن ضروب الإنعام والأحقال
وإذا الوقت ضاق وسعه ... بالصبر ولا تنس من شهير المقال
ربما تكره النفوس من الأمر ... له فرحة كحل العقال

لا غرو أن وقع توان، أو تلوم دهر ذو ألوان، فالأمر بين الكاف والنون، ومن صبر، لم يبوء بصفقة المغبون. وللسعداء تخصيص، ومع التقريب تمحيص، وما عن القضاء محيص، والمتصرف في ماله غير معتوب، وقديم الحقيقة إلى الحيف ليس بمنسوب. وقد ورد خطاب عمادي أطاب الله محضره، وسدد إلى المرامي العلية نظره، ناطقاً بلسان التفويض، سارحا من الرضا في الفضاء العريض، لايذاً بالانقياد والتسليم، قايماً على أسكفة باب الأدب، لمثابة حكم الحكيم.
ومنها: والوقايع عافاكم الله وعاظ ونحن هجود. وفي الحي إيقاظ، وما كل المعاني تؤديها الألفاظ. وهذا الفناء الذي نشأ عن الوقت، هو إن شاء الله عين البقيا. وإذا أحب الله عبداً حماه الدنيا، وما هي إلا فتون، وجنون فنون، وحديث كله مجون. وقد يجمع الله الشتيتين، ولن يغلب عسر يسرين ولا بأس، ويا خطب لا مساس وأبعد الله اليأس، وإنما يوفي الأجر الصابرون، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. وهي طويله بديعة.
أسمع بحضرة غرناطة لما قدم عليها، وارتسم في جملة الكتاب بها، وحدث عن رضي الدين أبي أحمد إبراهيم الطهري، بسماعه من الشريف يونس بن يحيى الهاشمي، وبسماعه من أبي الوقت طراد. وعن الإمام سراج الدين أبي حفص عمر بن طراد المعري القاضي بالحرم الشريف، وعن شرف الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الحميد الهمداني، وعن الإمام بهاء الدين الخميري عن أبي الطاهر السلفي، وعن جماعة غيرهم. وكان وروده على الأندلس في أوايل عام خمسة عشر وسبعماية، وحضر بها غزوات، ولقي من كان بها من الأعلام. ثم انصرف عنها في أوايل عام ثمانية عشر، وأحل بسبتة، فأكرم رييسها أبو عمر يحيى بن أبي طالب العزفي قدومه، وأنزله بدار جليلة، كان بها علو مطل على

البحر، لم يتمكن من مفتاحه، لأمر اقتضى ذلك، فكتب إليه:
يا صاحب البلد المليح المشرق ... ما مثله في مغرب أو مشرق
ومنها:
وخفضت عيشي فيه فارفع ... منزلي حتى أرى الدنيا بطرف مطرق
وتجول في البلاد، ولقي من بها، واتصل بالأمير أبي علي بسجلماسة. ومدحه بقصيدة حفظ منها:
فيا يوسفى الحسن والصفح والرضا ... تصدق على الدنيا بسلطانك العدل
ثم اتصل بوطنه.
وفاته

نقلت من خط شيخنا أبي بكر المذكور: وفي عام أربعين وسبعماية، توفي بتونس صاحبنا الحاج الفاضل المتصوف، الكاتب أبو عبد الله محمد بن علي المليكثي الشهير بابن عمر، صدر في الطلبة والكتاب، شهير ذو تواضع وإيثار، وقبول حسن، رحمه الله.
ابن راجح الحسني
محمد بن علي بن الحسن بن راجح الحسني من أهل تونس يكنى أبا عبد الله.
حاله
هذا الرجال الفاضل، صاحب رواء وأبهة، نظيف البزة، فاره المركب، صدوف عن الملة، مقيم للرسم، مطفف في مكيال الإطراء، جموح في إيجاب الحقوق، مترام إلى أقصى آماد التوغل، سخي اللسان بالثناء ثرثاره، فكه مطبوع، حسن الخلق، عذب الفكاهة، مخصوص حيث حل من الملوك والأمراء بالأثرة، وممن دونهم بالمداخلة والصحبة، ينظم الشعر، ويحاضر بالأبيات، ويتقدم في باب التحسين والتقبيح، ويقوم على تاريخ بلده، ويثابر على لقاء أهل المعرفة، والأخذ عن أولى الرواية. قدم على الأندلس في إحدى جمادين، عام خمسين وسبعماية، مفلتاً من الوقيعة بالسلطان أبي الحسن بالجهات الشرقية، بأيدي بني زيان وأحلافهم، فمهد له سلطانها، رحمه الله، كنف بره، وأواه إلى سعة رعيه، وتأكدت بيني وبينه صحبة.
شعره
كتبت إليه لأول قدومه بما نصه؛ أحذو حذو أبيات، ذكر أن شيخنا أبا محمد الحضرمي خاطبه بها:
أمن جانب الغربي نفحة بارح ... سرت منه أرواح الجوى في الجوانح
قدحت بها زند الغرام وإنما ... تجافيت في دين السلو لقادح
وما هي إلا نسمة حاجرية ... رمى الشوق منها كل قلب بقادح
رجحنا لها من غير شك كأنها ... شمايل أخلاق الشريف ابن راجح
فتى هاشم سبقاً إلى كل علية ... وصبراً معار الحبل في كل فادح
أصيل العلاجم السيادة ذكره ... طراز نضار في برود المدايح
وفرقان مجد يصدع الشك نوره ... حبا الله منه كل صدر بشارح

وفارس ميدان البيان إذا انتضى ... صحايفه أنست مضاء الصفايح
رقيق كما راقتك نغمة هاجع ... وجزل كما راعتك صولة جارح

إذا ما احتبى مستحفزاً في بلاغة ... وخيض خضم القول منه بسايح
وقد شرعت في مجمع الحفل نحوه ... أسنة حرب للعيون اللوامح
فما ضعضعت منه لصولة صادح ... ولا ذهبت منه بحكمة ناصح
تذكرت قساً قديماً في عطاظه ... وقد غص بالشم الأنوف الجحاجح
ليهنك شمس الدين ما حزت من علا خواتمها موصولة بالفواتح
رعى الله ركباً أطلع الصبح مسفراً ... لمرآك من فوق الربى والأباطح
ومنها:
أقول لقومي عندما حط كورها ... وساعدها السعدان وسط المسارح
ذروها وأرض الله لا تعرضوا لها ... بمعرض سوء فهي ناقة صالح
إذا ما أردنا القول فيها فمن لنا ... بطوع القوافي وانبعاث القرايح
بقيت مني نفس وتحفة رايد ... ومورد ظمآن وكعبة مادح
ولا زلت تلقى الرحب والبر حيثما ... أرحت السرى من كل غاد ورايح
فأجابني بما نصه:
أمن مطلع لأنوار لحة لامح ... تعار لمفقود عن الحي نازح
وهل بالمني من مورد الوصل يرتوي ... غليل عليل للتواصل جانح
فيا فيض عين الدمع مالك والحمى ... ورند الحمى والشيح شيح المشايح
مرابع آرامى ومورد ناقتي ... فسقياً لها سقياً لناقة صالح
سقى الله ذاك الحي ودقاً فإنه ... حمى لحات العين عن لمح سامح
وأبدى لنا حور الخيام تزف في ... حلى الحسن والحسني وحلى الملايح
ترى حي تلك الحور للحور مهيع ... يدل وهل حسم لداء التبارح
ويا دوحة الرويحان هل لي عودة ... لعقر عقار الأنس بين الأباطح
وهل أنت إلا طلة حاتمية ... تغص نواديها بغاد ورايح
أقام بها الفخر ابن الخطيب منابراً ... لترتيل آيات للندى والمنايح
وشفع بالإنجيل حمد مديحه ... وأوتر بالتوراة شفع المدايح
وفرق بالفرقان كل فريقة ... نأت عن رشاد فيه معنى النصايح
وهل هو إلا للبرية مرشد ... لكل هدى هاد لأرجح راجح
فبشراك شمس الدين سادبك الورى وأورى الهدى للرشد أوضح واضح
متى قلت لم تترك مقالا لقايل ... فإن لم تقل لم يغن حمد لمادح
فمن حام بالحي الذي أنت أهله ... وعام يحر من عطايك طافح
يحق له أن يشفع الحمد بالثنا ... ويغدو بذاك البحر أسبح سابح
ويا فوز ملك دمت صدر صدوره ... وبشى له قد راح أربح رابح
بآرايك التي تدل على الهدى ... وتبدي لمن خصصت سيل المناجح
ملكت خصال السبق في كل غاية وملكت من ملكت يا بان الجحاجح

مطامح آمال لأشرف همة ... أقل مراميها أجل المطامح
فدونكها يا مهدي المدح مدحة ... أجبت بها عن مدح أشرف مادح
يهنيك بالعام الذي عم حمده ... مواهب هاتيك البحار الطوافح
فخذها سمى الفخر يا خير مسبل ... على الخلق أغضا ستور التسامح
ودم خاطب العليا لها خير خاطب ... وأتوق تواق وأطمح طامح
وتلقاني بمالقة عند قدومي من الرسالة إلى المغرب، في محرم عام ستة وخمسين وسبعماية، ونظم لي هذه الأبيات، ولا حول ولا قوة إلا بالله:
قدومك ذا أبدي لذي الراية الحمرا ... ثغور الرضا تعبر عن شنب البشرا
وأينع فجر الرشد من فلق الهدى ... وكونه نهرا وفجره فجرا
ونصبح في أحيان المن نستلم ... مواطنكم شفعاً وآثاركم وترا
ونخطب ما يا ابن الخطيب تشا ... من كرايم ذاك الحي إذ نهز الشعرا

فقابلت بالإقبال والبر والرضا ... وأقريت من يقرا وأقررت من قرا
فأبنا قدس الحمد حضرة قدسنا ... وأقدامنا تملا وأمداحكم تقرا
هنيا لنا نلنا ونلنا ولم نزل ... ننال ولاكن هذه المنة الكبرا
رأينا وزير الملد والملك واللوى ... وحزب اللوى كل يشد به أزرا
سجدنا وكبرنا وقلنا رسولنا ... أتى بالذي يرضى بشرى لنا بشرا
ويهني الورى هذا الإياب فإن في ... نتايجه للدهر ما يسهر الدهرا
أرانا سنا ذا اليوم أجمل منظر ... وجلى لنا من وجهك الشمس والبدرا
أما والذي أوليت من نعمة غدت ... تعلمنا للمنعم الحمد والشكرا
لأنت لسان الدين للدين حجة ... تؤيده سراً وتعضده جهرا
بقيت لنا كتفاً منيعاً مشرفاً ... ودمت له عضداً ودمت له نصرا
ودمنا بكم في كل أمن ومنة ... ندير المنا خمرا أو نصلى العدا جمرا
ومن أمثل ما مدح به السلطان لأول قدومه بالنسبة إلى غير ذلك من شعره:
أما والعيون النجل ترمق عن سحر ... وورد رياض الخد والكأس والخمر
وريحانه والراح والطل والطلا ... ونرجسه والزهر والنور والنهر
ونور جبين الشمس في رونق الضحا ... وهالة بدر التم منتصف الشهر
لقد قلدت آراء يوسف ملكه ... قلايد نصر لن تبيد مع الدهر
وقد أيده الإسلام منه بناصر ... نصير وخير النصر نصر بني نصر
هم القوم أنصار النبي محمد وحزبه وعصبة الأعلام في اليسر والعسر
وحسبك من قوم حموا سيد الورى ... وقاموا بنصر الحق في السر والجهر
سقى شرعة الإسلام ودق سيوفهم ... رحيق الأماني طيب العرف والنشر
فأصبح روض الرشد يعبق طيبه ... ودوح الهدى بالزهر أزهاره تزرى
فيا سايلي عنه وعن سطواته إذا ... لاح محفوفاً براياته الحمر

وجز مع الأقدام جيشاً عرمرما ... وشرد بالتأييد شرذمة الكفر
لخليلة تنبيك عما وراءها ... ولا غرو فالإفصاح يعرف بالعجز
فيا فوز من أدناه بالغنم والغنا ... ويا ويل من أقصاه للقفر والفقر
يميناً بما اختارت يداك وأحرزت ... من الملك والتأييد والنهي والأمر
لقد أصعدت مجدى مدائحك التي ... ومجدك والعليا مدحت بها شعر
وحق لمثلي يشع الحمد بالثنا ... ويتلو معانيه مع الشفع والوتر
فاحنى ثمار الأنس من روضة المنا ... وأقطف زهير الحمد من شجر الشكر
وأشرب ماء الفوز عذباً ختامه ... رحيق براح السمح في أكوس البشر
ولا برحت أمداحكم تعدز النهى ... وإلا فكم تنجني ن العسر لليسر
ولا زالت الأقدار تخدم رأيكم ... وراياتكم ما دام نجم للسر يسر
وكتب إلي في غرض يظهر منه نص المراجعة، وحسبنا الله:
أما والذي لي في حلاك من الحمد ... وما لك ملاكى علي من الرفد
لقد أشعرتني النفس أنك معرض ... عن المسرف اللايي لفطرك يستجد
فإن زلة بدت لك جهرة فصفحا ... فما والله إذ كنت عن عمد
فراجعته بقولي:
أجلك عن عتب يغض من الود ... وأكرم وجه العذر منك عن الرد
ولاكنني أهدي إليك نصيحتي ... وإن كنت قد أهديتها ثم لم تجد
إذا مقول الإنسان جاوز حده ... تحولت الأغراض منه إلى الضد
فأصبح منه الجد هزلاً مذمماً ... وأصبح منه الهزل في معرض الجد
فما استطعت فيضاً للعنان فإنه ... أحق السجايا بالعلا والمجد
توفي يوم الخميس الثالث لشعبان عام خمسة وستين وسبعماية، وقد ناهز السبعين سنة، ودفن بروضتنا بباب إلبيرة، وأعفي شارب الشعر من نابي مقصه. وغير هذه الدعوى قرارها تجاوز القضية.

محمد بن علي بن عمر العبدري

من أهل تونس، شاطبي الأصل، يكنى أبا عبد الله، صاحبنا.
حاله
كان فاضلا منأبناء النعم، وأخلاف العافية، ولي أبوه الحجابة بتونس عن سلطانها برهة، ثم عدا عليه الدهر، واضطر ولده هذا إلى اللحاق بالمشرق، فاتصل به سكناه وحج، وآب إلى هذه البلاد. ظريف النزعة حلو الضريبة، كثير الانطباع، يكتب ويشعر، ويكلف بالأدب، ثم انصرف إلى وطنه. وخاطبني إلى هذا العهد، يعرفني بتقلده خطة العلامة، والحمد لله.
وجرى ذكره في كتاب الإكليل بما نصه: غذي نعمة هامية، وقريع رتبة سامية، صرفت إلى سلفه الوجوه، ولم يبق بإفريقية إلا من يخافه ويرجوه، وبلغ هو مدة ذلك الشرف، الغاية من الترف. ثم قلب الدهر له ظهر المجن، واشتد به الخمار عند فراغ الدن، ولحق صاحبنا هذا بالمشرق، بعد خطوب سيرة، وشدة كبيرة، فامتزج بسكانه وقطانه، ونال

من اللذات ما لم ينله في أوطانه؛ واكتسب الشمايل العذاب، وكان كابن الجهم، بعث إلى الرصافة، ليرق فذاب، ثم حوم على وطنه تحويم الطائر، وألم بهذه المدينة إلمام الخيال الزاير، فاغتنمت صفقة وده، لحين وروده، وخطبت موالاته على انقباضه وشروده، فحصلت منه على درة تقتنى، وحديقة الجنى.

شعره

أنشدني في أصحاب له بمصر قاموا ببره:

لكل أناس مذهب وسجية ... ومذهب أولاد النظام المكارم

إذا كنت فيهم ثاوياً كنت سيداً ... وإن غبت عنهم لم تنلك المظالم

أولئك صحبي لا عدمت حياتهم ... ولا عدموا السعد الذي هو دايم

أغنى بذكراهم وطيب حديثهم ... كما غردت فوق الغصون الحمايم

ومن شعره يتشوق إلى تلك الديار، ويتعلل بالتذكار، قوله:

أحبتنا بمصر لو رأيتم ... بكائي عند أطراف النهار

لكنتم تشفقون لفرط وجدي ... وما ألقاه من بعد المزار

ومن شعره:

تغني حمام الأيك يوماً بذكرهم ... فأطرب حتى كدت من ذكرهم أفنا

فقلت حمام الأيك لا تبك جيرة ... ناءوا وانقضت وصلهم عنا

فقال ولم يردد جواباً لسايل ... ألا ليتنا كنا جميعاً بذا ألحقنا

ومن جيد شعره الذي أجهد فيه قريحته، قوله يمدح السلطان المعظم أبا الحسن في ميلاد عام سبعة وأربعين وسبعماية:

تقر ملوك الأرض أنك مولاها ... وأن الدنا وقف عليك قضاياها

ومنها:

طلعت بأفق الأرض شمساً منيرة ... أنار على كل البلاد محياها

حكيت لنا للفاروق حتى كأننا ... بعين لا تكذب رؤياها

وسرت على آثاره خير سيرة ... قطعنا بأن الله ربك يرضاها

إذا ذكرت سير الملوك بمحفل ... ونادى بها النادي وحسن دنياها

فجودك رواها وملكك زانها ... وعدلك زاها وذكرك حلاها

ومنها بعد كثير:

ومنكم ذوو التيجان والهمم التي ... أناف على أعلى السماكين أدناها

إذا غاب منهم مالك قام مالك ... مجدد للبيت المقدس علياها

بناها على التقوى وأسس بيتها ... أبو يوسف الزاكي وسير مبناها

وأورثها عثمن خير خليفة ... وأحلم من ساس الأنام وأنداها

وقام علي بعده خير مالك ... وخير إمام في الورى راقب الله

علي بن عمر بن يعقوب ذو العلا ... مذيق الأعادي حيثما سار بلواها

أدام الله وأعطى الخلافة وقتها ... ونور أحلاك الخطوب وجلاها

ووصلني كتاب منه مؤرخ في التاسع عشر من شهر شعبان المكرم من عام أربعة وستين وسبعماية جدد عهدي من

شعره بما نصه:

رحلنا فشرقنا وراحوا فغربوا ... ففاضت لروعات الفراق عيون

فيا أدمعي منهلة إثر بينهم ... كأن جفوني باللمع عيون

فيا معهداً قد بنت عنه مكلفا ... بديلي منه أنة وحنين

سقتك غوادي المزن كرعشية ... ودادك محلول النطاق هتون

فإن تكن الأيام لم تقض بيننا ... بوصل فما يقضى فسوف يكون

يعز علينا أن نفارق ربعكم ... وأنا على أيدي الخطوب نهون

ولو بلغتني العير عنكم رسالة ... وساعد دهر باللقاء ضنين

لكنا على ما تعلمون من الهوى ... ولاكن لأحداث الزمان فنون

الجزء الثالث

محمد بن أحمد العزفي

محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن أحمد العزفي من أهل سبتة، أبو القاسم بن أبي زكريا بن أبي طالب حاله

من أهل الظرف والبراعة، والطبع المعين، والذكاء، رييس سبتة، " وابن رؤساها " ، وانتقل إلى غرناطة عند خلعه، وانصرافه عن بلده. أقام بها. تحت رعيٍ حسن الروا، مالقاً للظرفاء، واشتهر بها أدبه، ونظر في الطب، ودون فيه، وبرع في بالتوشيح. ثم انتقل إلى العدوة، انتقال غبطة وأثرة، فاستعمل بها في " خطط نبيهة " ، وكتب عن ملوكها وهو الآن بالحالة الموصوفة.

وجرى ذكره في " الأكليل " بما نصه: فرع تأود من الرياسة في دوحة. وتردد بين غدوة في المجد وروحة، نشأ والرياسة العزفية، تعله وتنهله. والدهر يسير أمله الأقصى ويسهله. حتى اتسقت أسباب سعده، وانتهت إليه رياسة سلفه من بعده. فألقت إليه رحالها وحطت، ومتعته بقربها بعدما شطت. ثم كلح له الدهر بعد ما تبسم، وعاد زعزعاً نسيمه الذي كان يتنسم، وعاق هلاله عن تمه، ما كان من تغلب ابن عمه، واستقر بهذه البلاد، نائى الدار بحكم الأقدار، وإن كان نبيه المكان والمقدار، وجرت عليه جراية واسعة، ورعاية متتابعة، وله أدب كالروض باكرته الغمايم، والزهر تفتحت عنه الكمايم، رفع منه راية خافقة، وأقام له سوقاً نافقة. وعلى تدفق أنهاره، وكثرة نظمه واشتهاره، فلم أظفر منه إلا باليسير التافه بعد انصرافه.

شعره

قال:

أفديك ياريح الصبا ... عوجى على تلك الربا

واحد النامي سحرا ... ترسل غماماً صبا

على ربى غرناطة ... لكى تقضي ما ربا

ثم أبلغى يا ربح عن صب سلاماً طيباً

ومن منظومة أيضاً في بعض القضاة الفاسيين، وهو من البديع، وورى فيه ببابين من أبواب المدينة:

وليت بفاس أمور القضا ... فأحدثت فيه أموراً شنيعة
فتحت لنفسك باب الفتوح ... علقت للناس باب الشريعة
فبادر مولى الورى فارس ... بعزلك عنها قبيل الذريعة
وقال:
دع عنك قول عواذل ووشاة ... وأدر كؤوسك يا أخا اللذات
واخلع عذارك لاهياً في شربها ... واقطع زمانك بين هاك وهات
خذها إليك بكف ساقٍ أغيد ... لين المعاطف فاتر الحركات
قد قام من ألحاظه إنسانها ... مثبتا في فترة اللحظات
يسقيكها حمراء يسطع نورها ... في بالكاس كالمصباح في المشكات
رقت وراقت في الزجاجة منظراً ... لما عدت تجلى على الرحات
ر تمزجنها في بالأبارق إنها ... تبدو محاسنها لدى الكاسات
عجباً لها كالشمس تعزب في ... فم لاكن مطالعها من الوجنات
نلنا بها ما نشتهيه من المنا ... في جنة تزهى على الجنات
رفت عليها كل طل سجسج ... من كل غض يانع الثمرات
ما بين خضر حدايق وخمايل ... وجداول تفضى إلى دوحات
سرى النسيم بها يصافح زهره ... فيهب وهو مورج النفحات
وشدا لنا فيها مغن شادن ... حاز المدا سبقاً إلى الغايات
طربت له القضب اللدن وبادرت ... رجعا له تختال في بالحبرات
مرت عليه ركعاً لا كنها ... جعلت تحيتها لدى الركعات
قصرت صلاة الخوف منه فقربت ... فربانها وحفته بالزهرات
والعود مشاه يطابق زيها ... في ردانات على رنات
إن جس مثلثه بأن بفنة ... في اليم من ثقيلة النغمات
فكان ما غنت عليه الورق من ... ألحانها ألقاه للقينات
عكفت على ألحانها تشأ ولنا ... خلف الستاير باختلاف لغات

فكأنها عجم تورات بالحجاب ... ووددت سوراً من التورات
نطقت بأفصح نغمه في شدوها ... تتلو علينا هذه الآيات
ومما أنشده ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم:
إذا لم أطلق نحو نجد وصولاً ... بعثت الفؤاد إليها رسولاً
وكم حل قلبي رهيناً بها ... غداة نوى الركب فيها النزولا
محل بها في الحلال إلى ضحى ... أصبح القوم فيها حلولا
وكم بت فيها غداة النوى ... أسح من العين دمعاً همولا
على شمس حسن سما ناظري ... إليها وعنى توارت أقولا
وقفت بوادي الغضا ساعة ... لعى أندب فيها الطلولا

وفي البان من أيكه ساجع ... يرجع بالقضب منها الهديلا
بعمق الهوى يا حمام الحمى ... ترفق بقلبي المعنى قليلا
فقد هجت تالله أشواقه ... بذكرك إلفا ثاني أو خليلا
ألم تدر أن ادكارى الهوى ... يديب ويغنى الفؤاد العليلا
رعى الله تلك المطايا التي ... إلى الحج وخداً سرت أو ذميلا
ويا عجبا كيف خفت بهم ... وحملت القلب حملاً ثقيلاً
وود عنى الصبر إذ ودعوا ... فما أن وحدت إليه سبيلا
وآثرت يا ويح نفسي المقام ... وآثر أهل الوداد الرحيلا
وجادوا رجا الرضا بالنفوس ... وكنت بنفسي ضنيناً بخيلاً
ندمت على السير إذا فأتى ... ولازمت حزنى دهرا طويلا
وفاز المخفون إذا يمموا ... منازل آثارها لن تزولا
وحجوا وزاروا إلى الهدى ... محمداً الهاشمي الرسولا
وفازوا بإدراك ما أملوا ... ونالوا لديه الرضا والقبولا
ولو كنت في عزمهم مثلهم ... إذا لانصرفت إليه عجولا
ولا كنني أثقلتنى الذنوب ... وما كنت للثقل منها حمولاً
ركبت مطية جهل الصبا ... وكانت أو أن التصابى ذلولا
ومالت بي النفس نحو الهوى ... وقد وجدتني غراً جهولاً
فطربى لمن حل في طيبةً ... وعرس بالسفح منها الحمولا
ونال المنى في منى عندما ... نوى بالمنازل منها نزولا
وأصفى الضماير نحو الصفا ... يؤمل للوصل فيه الوصولا
وجاء إلى البيت مستبشراً ... ليطهر بالأمن فيه دخولا
وطاف ولبى بذاك الحما ... ونال من الحجر قصداً وسولا
بلاد بها حل خير الورى ... فطوبى لمن مال فيها الحلولا
نبى كريم سما رفعة وقدراً جليلاً ومجداً أصيلا
وكان لأمته رحمة بفض الشفاعة فيهم كفيلا
وكان رؤوفاً رحيماً لهم ... عطوفاً شفيعاً عليهم وصولاً
له يفزعون إذا ما رأوا ... لدى الحشر خسفاً وأمراً مهولا
وإن جاء في ذنبهم شافعاً ... بدى الرحب من ربه والقبولا
له معجزات إذا عددت تفوت النهى وتكل العقولا
ولن يبلغ القول معشارها ... وإن كان الوصف فيها مطيلا
وقس البيان وسحبانه يرى ... ذهنه في مداها كليلا
تخبره الله في خلقه فكان الخطير لديه المثيلا
ولم ير في الناس نداله ول ... ا في الخلايق منه بديلا

وأبقى له الحكم في أرضه ... فكان الأمين عليها الوكيلا
وكل ظلام وطلم بها على الفور لما أتى قد أزيلا
وكانت كنار لظى فتنة فعادت من المن ظلاً ظليلاً
وقد زان حسن الدجا جيله ... إذا ذكر الدهر جيلاً فجيلاً
وأيامه غرر قد بدت بوجه ... الدنا والليالي حجولاً
رسول كريم إذا جيته ... ويممت مغناه تلقى القولا
بمولده في زمان الربيع ... ربيع أنانا يجر الذيولا

فأهلا به الآن من زاير ... أنانا بفضل يفوق الفضولا
وقام الإمام به المرتضى ... فنال ثواباً وأجراً جزيلا
هو السمتعين أبو سالم مليك ... ترفع قدراً جليلاً
وحاز من الصيت ذكراً أثيراً ... ومن كرم الخيم مجداً أثيلا
سليل على غمام الندى ... ألا أيد الله ذالك السليلا
فتى أوسع الناس من جوده ... عطاً جزيلاً وبراً حفيلاً
حلاه الوقار ولاقيه إذا ... ارتاح للجود يلفى عجولاً
وقد شاع عنه جميل الثنا ... وعم البسيطة عرضاً وطولا
وما من بالوعد إلا وفى ... فلم يك بالوعد يوماً مطولا
ولا في علاه مغالٍ لمن ... يكثر في الملك قالاً وقيلا
تفرد بالفضل في عصره ... وكان بعرف الأيادي كفيلا
أطاعت له حين وافى البلاد ... رضى عندما حل فيها حلولا
وجا لطاعته أهلها سراعاً ... يرومون فيها الدخولا
فيه قدر الموإلى بها ... وأكسف فيها المعادى خمولاً
ومهد بالأمن أفكارها وأمن بالعدل فيها السبيلا
وكف أكف التعدي بها ... فلا يظلم الناس فيها فتيلا
وعصر الكروب الذي قد مضى ... زمان المسرات منه أديلا
أنانا إلى الغرب في شوكةٍ ... بها عاد جمع الأعادي قليلاً
وفوق رؤوس الطغاة انتضى ... حساماً ليسمع فيها صليلاً
وجرد من عزمه مرهفاً ... لحسم أمور المناوى صقيلا
وكل كفور معادلة ... سيأخذه الله أخذاً وبيلا
أعز الخلايق لما ولى ... ونوه من كان منهم ذليلا
وراعى لمن جاءه داخلاً حماه من القاصدين الدخيلا
فكان بأفعاله قصده إلى ... منهج الفضل قصداً جميلا
وصح انتعاش المعالي به ... وقد كان شخص المالي عليلاً
وشيد مبنى العلا بالندى ... ووثقه خشية أن يميلا

ينيل ويعطى جزيل العطا ... فما زال أخرى الليالي منيلا
ودام مدى الدهر في رفعة ... تثير من الحاسدين الغليلا
ولا برح السعد في بابه ... يوم به مربعاً أو مقيلا
محمد المكودى

من أهل فاس يكنى أبا عبد الله
حاله
من " الإكليل " : شاعر لا يتعاطى ميدانه، مرعى بيان ورف عضله، وأينع سعدانه، يدعو الكلام فيهطع لداعيه، ويسعى في اجتلاب المعاني فتنجح مساعيه. غير أنه أفرط في الانهماك، وهوى إلى السمكة من أوج السماك. وقدم على هذه البلاد مفلتاً من رهق تلمسان حين الحصار، صفر اليمين، واليسار من اليسار، ملئ هوى أنحى على طريفه وتلاده، وأخرجه من بلاده. ولما " جدبه " الين، وحل هذه البلاد " بحال تقبحها العين " والسيف بهزته، لا بحسن بزتة، دعوته إلى مجلس، أعاره البدر هالته، وخلع عليه الأصيل غلا لته، وروض تفتح كمامه، وهما عليه غمامه، وكاس أنس تدور، فتتلقى نجومها البدور. فلما ذهبت المؤانسة بخجله، وتذكر هواه، ويوم نواه، حتى خفنا حلول أجله، جذبنا للمؤانسة زمامه، واستقينا منها غمامه، فأمتع وأحسب، ونظر ونسب، وتلكم في المسائل، وحضر بطرف الأبيات، وعيون الرسايل، حتى نشر الصباح رايته، واطلع النهار آيته.
ومما أنشدنا ونسب لنفسه:
غرامي فيك جل عن القياس ... وقد أسقيتنيه بكل كاس
ولا أنسى هواك ولو جفاني ... عليك أقاربي طرا وناس
ولا أدرى لنفسي من كمال سوى ... أني لعهدك غير ناس
وقال في غرض معروف:
بعثت بخمرٍ فيه ماء وإنما ... بعثت بما فيه رايحة الخمر
فقل عليه الشكر إذا قل سكرنا ... فنحن بلا سكر وأنت بلا شكر
ومما خاطبني به:
رحماك بي فلقد خلدت في خلدي ... هوى أكابد منه حرة الكبد
حللت عقد سلوى في فؤادي ... إذ حللت منه محل الروح في جسد

مرآك بدري وذكراك التذاذ فمي ... ودين حبك أضماري ومعتقدي
ومن جمالك نور لاح في بصري ... ومن ودادك روح حل في خلدي
لا تحسبن فؤادي عنك مصطبر ... فقبل حبك كان الصبر طوع يدي
وهاك جسمي قد أودى النحول به ... فلو طلبت وجوداً منه لم تجد
بما بطرفك من غنج ومن حور ... وما بثغرك من در ومن برد
فقال لي قد جعلت القلب لي وطناً ... وقد قضيت على الأجفان بالسهد
وكيف تطلب عدلاً والهوى حكم ... وحكمه قط لم يعدل على أحد
من لي بأغيد لا يرثى إلى شجن ... وليس يعرف ما يلقاه ذو كمد

ما كانت من قبل إذ عانى لصولته ... أخال أن الرشا يسطو على الأسد
إن جاد بالوعد لم تصدق مواعده ... فإن قنعت بزور الوعد لم يعد
شكوته علتي منه فقال الأمر للطبيب فما برء الضنا بيدي
فقلت إن شئت برني أو شفا ألمي ... فبار تشاف لماك الكوثري جد
وإن بخذت فلى مولى يجود على ... ضعفى ويبرى ما أضنيت من جد
وخرج إلى المدح فأطال
المقرئون والعلماء

محمد بن أحمد بن جزي الكلبي

محمد بن أحمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزي الكلبي يكنى أبا القاسم من أهل غرناطة وذوي الأصالة والنباهة فيها، شيخنا رحمة الله عليه

أوليته

أصل سلفه من ولمة من حصون البراجلة، نزل بها أولهم عند الفتح صحبة قريبهم أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي، وعند خلع دعوة المرابطين، وكانت لجدهم بجيان رياسة وانفراد بالتدبير.

حاله

كان رحمه الله، على طريقة مثلى من العكوف على العلم. والاقتصاد على الاقتيات من حر النشب، والاشتغال بالنظر، والتقييد والتدوين فقيها حافظاً، قايماً على التدريس، مشاركاً في فنون " من " العربية، والفقه، والأصول، والقراءات، والحديث، والأدب، حفظه للتفسير مستوعباً للأقوال، جماعة للكتب، ملوكى الخزانة. حسن المجلس، ممتع المحاضرة، قريب الغور، صحيح الباطن. تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم من بلده على حداثة سنة، فاتفق على فضله، وجرى على سنن أصالته.

مشيخته

قرأ على الإستاذ أبي جعفر بن الزبير، وأخذ عنه العربية والفقه والحديث والقرآن. وروى أبي الحسن بن مستقور. وقرأ القرآن على الأستاذ المقرى الراوية المكثر أبي عبد الله بن الكماد، ولازم الخطيب أبا عبد الله بن رشيد، وسمع على الشيخ الوزير أبي محمد عبد الله بن أحمد أبن المؤذن، وعلى الراوية المسن أبي الوليد الحضرمي. يروي عن سهل بن مالك وطبقته. وروى عن الشيخ الراوية أبي زكريا البرشاني، وعن الراوية الخطيب أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي الأنصاري، والقاضي أبي المجد بن أبي على بن أبي الأحوض، والقاضي أبي عبد الله بن برطال، والشيخ الوزير ابن أبي عامر بن ربيع، والخطيب الولى أبي عبد الله الطنجالي، والأستاذ النظار المتفنن أبي القاسم قاسم بن عبد الله بن الشاط. وألف الكثير في فنون شتى.

تواليفه

منها كتاب " وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم " وكتاب " الأنوار السنية في الكلمات السنية " وكتاب " الدعوات والأذكار المخرجة من صحيح الأخبار " وكتاب " القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية " " والتنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية " وكتاب " تقريب الوصول إلى لعم الأصول " وكتاب " النور المبين في قواعد عقايد الدين " وكتاب " المختصر البارع في قراءة نافع " وكتاب " أصول القراء الستة غير نافع " وكتاب "

الفوايد العامة في لحن العامة " ، إلى غير ذلك مما قيده في التفسير والقراءات وغير ذلك. وله فهرسة كبيرة. اشتملت على جملة من أهل المشرق والمغرب.

شعره

قال في الأبيات الغينية ذاهباً مذهب الجماعة كأبي العلاء المعري. والرييس أبي المظفر، وأبي الطاهر السلفى، وأبي بالحجاج بن الشيخ، وأبي الربيع بن سالم، وأبي علي بن أبي الأحوص، وغيرهم، كلهم نظم في ذلك:

لكل بني الدنيا مراد ومقصد ... وإن مرادي صحة وفراغ

لأبلغ في علم الشريعة مبلغاً ... يكون به لي للجنان بلاغ

وفي مثل هذا فلينافس أولو النهى ... وحسبي من الدنيا الغرور بلاغ

فما الفوز إلا في نعيم مؤيد ... به العيش رغد والشراب يساغ

وقال في الجناب النبوى:

أروم امتداح المصطفى وبردنى ... فصورى عن إدراك تلك المناقب

ومن لي بحصر البحر والبحر زاخر ... ومن لي بإحصا الحصا والكواكب

ولم أن إعضائى غدت ألسنا إذا ... لم بلغت في المدح بعض مآرب

ولو أن كل العالمين تألفوا على ... مدحه لم يبلغوا بعض واجب

فأمسكت عنه هيبة وتأدباً ... وخوفاً وإعظاماً لأرفع جانب

ورب سكوت كان فيه بلاغه ... ورب كلام فيه عتب لعاتب

وقال رحمه الله مثفقاً من ذنبه:

يا رب إن ذنوبي اليوم قد كثرت ... فما أطيق لها حصراً ولا عدداً

وليس لي بعذاب النار من قبل ... ولا أطيق لها صبراً ولا جلداً

فانظر إلهي إلى ضعفى ومسكنتي ... لا تذيقني حر الجحيم غدا

وقال في مذهب الفخر:

وكم من صفحة كالشمس تبدو ... قيسلى حسن قلب الحزين

غضضت الطرف عن نظرى إليها ... محافظة على عرضى وديني

وفاته

فقد وهو يشخد الناس ويحرضهم، ويثبت بصايرهم، يوم الكاينة بطريف، ضحويوم الإثنين السابع لجمادى االإلى عام أحد وأربعين وسبعماية، تقبل الله شهادته. عقبه ظاهر بين القضاء والكتابة.

ابن شقرال اللخمى

محمد بن أحمد بن فتوح بن شقرال اللخمى شرقي الأصل من سكان غرناطة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالطرسونى حاله

نقلت من خط شيخنا أبي البركات بن الحاج، أمتع الله به كنى نفسه أبا عبد الرحمن، ودعى بها وقتاً، وكوتب بها. وكان له ابن سماه عبد الرحيم، فقلنا له سمه عبد الرحمن، ليعضد لك الكنية التي اخترت، فأبى. كان هذا الرجل قيماً على النحو والقراءات واللغة، مجيداً في ذلك، محكماً لما يأخذ فيه منه، وكانت لديه مشاركة في الأصلين والمنطق،

طمح إليهما بفض نباهته وذكايه، وشعوره بمراتب العلوم، دون شيخ أرشده إلى ذلك. يجمع إلى ماذكر خطا بارعاً، وظرفاً وفكاهة، وسخا نفس، وجميل مشاركة لأصحابه. بأقصى مايستطيع. وكان صناع اليدين يرسم بالذهب، ويسفر ويحكم عمل التراكيب الطيبة. وعلى الجملة فالرجل من أجل نبلاء عصره، الذين قل أمثالهم.

مشيخته

أخذ القراءات عن الشيخ الأستاذ " أبي الحسن " ابن أبي بالعيش، وبه تفقه ببلده المراية. وقرأ على الأستاذ أبي بجعفر بن الزبير، والخطيب أبي جعفر بن الزيات، والراوية أبي بالحسن بن مستقور، والولى أبي عبد الله الطمجالي، وصهره الخطيب أبي تمام غالب بن حسن بن سيدبونه، والخطيب أبي الحسن القيجاطي، والخطيب المحدث أبي عبد الله بن رشيد وغيرهم.

شعره

من شعره قوله:

إذا قذفت بي حيثما شاءت النوى ... ففي كل شعب لي إليك طريق

وإن أنا لم أبصر محياك باسماً ... فإنسان عيني في الدموع غريق

فإن لم تصل كفى بكفك وافياً ... " فأسمال أحبابي لدى فتوق "

محنته

أحظاه وزير الدولة أبو عبد الله ابن المحروق، واختصه، ورتب له بالحمراء جراية، وقلد نظره خزانة الكتب السلطانية. ثم فسد ما بينهما، فاتهمه ببراءات كانت تطرح بمذامه بمسجد البيازين، وترصد ما فيها، فزعم أنه هو الذي طرحها بمحراب المسجد، فقبض عليه واعتقل ثم جلاه إلى إفريقية.

وفاته

ولما بلغته بإفريقية وفاة مخيفة، كر راجعاً إلى الأندلس، فتوفي في طريقه ببونه، من بلاد العناب أو بأحوازها في أواخر عام ثلاثين، أو أقرب من الأواخر وسبعماية.

محمد بن جابر بن يحيى بن محمد بن ذي النون التغلبي ويعرف بابن الرمالية، من أهل غرناطة، ويعرف خلفه الآن، ببني مرزبة، ولهم أصالة وقدم وجدة.

حاله

فقيه، نبيه، نبيل، ذكي، عنده معرفة بالفقه والأدب والعربية، حسن المشاركة والمحاضرة، حاضر الذهن، ذاكر لما قرأه.

مشيخته

روى عن الإمام أبي بكر بن العربي. قال أبو القاسم الملاحي، وحدثني سنة أربع وسماية، قال حدثني الإمام أبو بكر بن العربي رضي الله عنه، قال حدثني محمد بن عبد الملك السبتي، قال خرجت مع أبي الفضل الجزيري مشيعين لقافلة الحاج من بغداد، ومودعين لها من الغد، وحين أصبحنا أثيرت الجمال، وفرض الناس الرحال، ونحن بموضع يعرف بجب عميرة، إذا بفتى شاحب اللون، حسن الوجه، يشيع الرواحل، راحلة بعد أخرى، فنيت، ومشى الحاج، وهو يقول في أثناء تردده ونظره أليها:

أحجاج بيت الله في أي هودج ... وفي أي بيت من بيوتكم حبى

أأبقى رهين القلب في أرض غربة ... وحاديكم يحدو فؤادي مع الركب

قول أسفاً لم أقض منكم لبانتي ... ولم أتمتع بالسلام وبالقرب
وفرق بيني بالرحيل وبينكم ... فها أنذا أقضي على إثركم نحبي
يقولون هذا آخر العهد منكم ... فقلت وهذا آخر العهد من قلب
قال، فلما كمل الحج المشى. وانقطع رجاؤه، وجعل يخطو هايماً، وهو ينشد، ثم رمى بنفسه إلى الأرض وقال:
خل دمع العين ينهمل ... بأن من تهواه وارتحل
أي دمع صاله كلف ... فهو يوم البين ينهمل
قال، ثم مال على الأرض، فبادرنا إليه فوجدناه ميتاً، فحفرنا له لحداً، وغسلناه كفناه في رداء وصلينا عليه. ودفناه.
وفاة المترجم به سنة خمسين وستماية
محمد بن محمد بن يبش العبدري

من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن يبش
حاله
كان خيراً، منقبضاً، عفا، متصاوناً، مشتغلاً بما يعنيه. مضطلعاً بالعربية، عاكفا عمره على تحقيق اللغة، مشاركاً في الطب. متعيشاً من التجارة في الكتب. أثرى منها، وحسنت حاله. وانتقل إلى سكنى سبتة، إلى أن حططت بها رسولاً في عام اثنتين وخمسين وسبعماية. فستدعيته ونقلته إلى بلده، فقعد للاقراء به إلى أن توفي.
وجرى ذكره في بعض الموضوعات الأدبية بما نصه: معلم مدرب، مسهل مقرب، له في صنعة العربية باع مديد، وفي هدفها سهم سديد، ومشاركة في الأدب، لايفارقها تسديد، خاصى المنازع، مختصرها، مرتب الأحوال، مقررها، تميز لأول وقته بالتجارة في الكتب، فسلطت عليها منه أرضة آكلة، وسهم أصاب من رميتها شاكلة، أترب بسببها وأثرى، وأغنى جهة، وأفقر أخرى، وانتقل لهذا العهد الأخير إلى سكنى غرناطة مسقط رأسه، ومنبت غرسه، وجرت عليه جراية من أحباسها، ووقع عليه قبول من ناسها، وبها تلاحق به الحمام، فكان من ترابها البداية وإليه التمام. وله شعر لم يقصر فيه عن المدا، وأدب توشح بالإجادة وارتدى.
مشيخته
قرأ على شيخ الجماعة ببلده أبي جعفر بن الزبير، وعلى الخطيب أبي عبد الله بن رشيد، والوزير أبي محمد بن المؤذن المرادي، والأستاذ عبد الله بن الكماد، وسمع على الوزير المسن أبي محمد عبد المنعم بن سماك. وقرأ بسبتة على الأستاذ أبي إسحاق الغافق.
شعره
أنشدني بدار الصناعة السلطانية من سبتة تاسع جمادى الأولى من عام اثنين وخمسين المذكور، عند توجهي في غرض الرسالة إلى السلطان ملك المغرب، قوله يجيب عن الأبيات المشهورة، التي أكثر فيها الناس وهي:
يا ساكنا قلبي المعنى ... وليس فيه سواك ثان
لأي معنى كسرت قلبي ... وما ألتقى فيه ساكنان
تحلتني طايعاً فؤاداً ... فصار إذ حزته مكان
لاغرو إذا كان لي مضافاً ... اني على الكسر فيه بان
وقال يخاطب أبا العباس عميد سبتة، أعزه الله، وهي مما أنشدنيه في التاريخ المذكور، وقد أهدى إليه أقلاماً:
أنا ملك الغر التي سيب جودها ... يفيض كفيض المزن بالصيب القطر

أتتني منها تحفة مثل عدها إذا ... انتضيت كانتكمرهفة السمر
هي الصفر لاكن تعلم البيض انها ... محكمة فيها على النفع والضر
مهذبة الأوصال ممشوقة كما ... تصاع سهام الرمى من خالص التبر
فقبلتها عشراً ومثلث أني ... ظفرت بلثم في أناملك العشر
وأنشدني في التاريخ المذكور في ترتيب حروف الصحاح قوله:
أساجعة بالواديين تبوئى ... ثماراً جنتها حاليات خواضب

دعى ذكر روض زاره سقى شربه ... صباح ضحى " طير طما " عصايب
غرام فؤادي قاذف كل ليلة ... متى مانأى وهنا هواه يراقب
ومن مطولاته ما رفعه على يدي السلطان وهو قوله:
ديار خطها مجد قديم ... وشاد بناءها شرف صميم
وحل جنابها الأعلى علاً ... يقصر عنه رضوى أو شميم
سقى نجداً بها وهضاب نجد ... عماد ثرة وحياً تميم
ولا عدمت رباه رباب مزن ... يغادى روضهن ويستديم
فيصبح زهرها يحكى شذاه ... فتيت المسك يذكيه النسيم
وتنشره الصبا فتريك دراً ... نشيراً خانه عقد نظيم
وظلت في طلال الأيك تشدو ... مطرقة لها صوت رخيم
ترجع في الغصون فنون شجع ... بألحان لها يصبو الحليم
أهم بملتقى السوادى تجد ... وليس سواه في واد أهيم
وكنت صرفت عنه النفس كرها ... وما برحت على نجد تحوم
له بيت سما فوق الثريا ... وعز لايخيمولايريم
تبوأ من بني نصر علاها ... وأنصار للنبي له أروم
أفاض على الورى نيلاً وعدلاً ... سواء فيه مثرٍ أوعديم
ملاذ للملوك إذا ألمت ... صروف الدهر أو خطب جسيم
تؤمله فتامن في ذراه ... وتدنو من علاه فيستقيم
ويبدو في ندى الملك بدراً ... تحف به الملوك وهم نجوم
يوجه يوسفى الحسن طلق ... يضى بنوره الليل البهيم
وتلقاه للعافة له ابتسام ... ومنه للعدى أخذ لليم
فيا شرف الملوك لك انقطاعي ... وإني في محلكم خديم
وآمالي أملت لمليك حتى ... وردن على نداك وهن هيم
فللظماورودك خير ورد ... نمير ماؤه عذب جيم
ولا أضحى وفي معناك ظل ... ظليل حين تحدم السموم
ركبت البحر نحوك والمطايا ... تسير لها ذميل أو رسيم
وإن علاك إن عطفت بلحظ ... على فذلك العز المقيم

فوا أسفى على عمر تقضي ... بدارٍ ليس لي فيه حميم
سوى ثمر للفؤاد ذهبت عنه ... وبين جوانحي منه كلوم
ودون لقاها عرض الفيافي ... ونجد موجه طود عظيم
لعل الله ينعم باجتماع ... وينظم شلنا اليسر الرحيم
بقيت بغبطة وقرارعن ... يملك سعده أبداًيدوم
كما دامت حلى الأنصار تتلى ... يشيد بذكرها الذكر الحكيم
عليك تحية عطر شذاها ... تعرف الروض جادته الغيوم

مولده بغرناطة في رجب ثمانين وستماية. وتوفي عام ثلاثة وخمسين وسبعماية، ودفن بباب البيرة، وتبعه من الناس ثناء حسن، رحمه الله.

محمد بن محمد النمري الضرير

من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بنسبه

حاله

من عايد الصلة: كان حافظاً للقرآن، طيب النغمة به، طرفاً في ذلك من أهل المشاركة في العلم، واعظاً بليغاً، أستإذا يقوم على العربية قيام تحقيق، ويستحضر الشواهد من كتاب الله، وخطب العرب وأشعارها، بعيد العرين في ذلك، آخذاً في الأدب، حفظة للأناشيد والمطولات، بقية حسنة ممتعة.

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي عبد الله بن الفخار الأركشي وبه تأدب، ولازمه كثيراً، فانتفع به.

شعره

مما صدر به رسالة لزوجه وهو نازح عنها ببعض البلاد. فقال:

سلام كرشف الطل في مييم الورد ... وسيل نسيم الريح بالقضب الملد
سلام كما ارتاح المشوق مبشراً ... برويا من يهواه من دون مما وعد
سلام كما يرضى المحب حبيبه من ... الجد في الإخلاص والصدق في الوعد
سلام وتكريم وبر ورحمة ... بقدر مزيد الشوق أو منتهى الود
على ظبية في الأنس مرتعها الحشا ... فتدوى إليه لا لشيح ولا ررند

ومن أطلع البدر التمام جبينهايرى ... تحت ليلٍ من دجا الشعر مسود
وثغر أقاحٍزانه سمط لؤلؤ ... يجب به المرجان في أحكم النضد
يجول به سلسال راحٍ معتق ... حمته ظبا الألحاظ صوناً عن الورد
فلله عينا من رأى بدر أسعد ... وروضة أزهار علت غصن القد
وبشرى لصب فاز منها بلمحة ... من القرب بشراه بمستكمل السعد
وأضحى هواها كامناً بين أضلعي ... كمزن خفي النار في باطن الزند
وراحت فراح الروح إثر رحلها ... وودعت صبرى حين ودعها كبد
وصارت لي الأيام تبدو لياليا ... وقد كان ليل الوصل صبحاً بها يبد

فساعاتها كالدهر طولاً وطالما ... حكى الدهر ساعات بها قصراً عندي

ومنها:

ترى قلبها هل هام مني بمثل ما ... بقلبي من الحب الملازم والوجد

وهل ترعى ذمتي ومودتي كما ... أنا أرعاها على القرب والبعد

إليك خطابي والحديث لغايب ... كنيت بلفظي عن مغيبك بالعمد

عليك سلامي إني متشوق ... للقياك لي أو من جوابك بالرد

توفي ببغرناطة تحت جراية من أمرايها، لاختصاصه بقراءة القرآن على قبورهم، في التاسع عشر من شعبان عام ستة وثلاثين وسبعماية.

محمد بن عبد الولى الرعيني

من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالعواد

حاله

من " عايد الصلة " : الشيخ المكتب، والأستاذ الصالح، سابق الميدان وعلم أعلام القرآن، في إتقان تجويده، والمعرفة بطرق روايته، والاضطلاع بفنونه، لايشق غباره، ولايتعاطى طلقه، ولا تأتي الأيام بمثله. تستقصر بين يديه مدارك الأعلام، وتظهر سقطات الأيمة. مهتدياً إلى مكان الحجج على المسايل. مصروف عنان الأشغال إليه، مستنداً إلى نغمةٍ رخيمة، وإتقان غير متكلف، وحفظ غزير، وطلب إلى التصدر للإفراد، فأبى لشدة انقباضه. فنبهت بالباب السلطاني على وجوب نصيه للناس، فكان " ذلك " في شهر شعبان من عام وفاته، فانتفع به. وكان أدأب الناس على سنة، والزمهم لميقات ورد. يجعل جيرانه حركته إلى ذلك ليلاً. ميقاتاً لايختلف ولا يكذب، في ترحيل الليل. " شديد الطرب " مليح الترتيب، لاتمر به ساعة ضياعاً، إلا وقد عمرها بشأن ديني، أو ديناوي، ضروى مما يسوغه الورع، يلازم المكتب، ناصح التعليم، مسوياً بين أبناء النعم، وحلفاء الحاجة، شامخ الأنف على أهل الدنيا، تغص السكك عند ترنمه بالقرآن، مساوقاً لتلاوة التجويد، ومباشراً أيام الأخمسة والأثانين، العمل في مويل كان له، على طريقة القدماء من الإخشيشان عند المهن ونقل آلة الخدمة، غير مفارق للظرف والخصوصية. ويقرأ أيام الجمعات، كتب الوعظ والرقايق على أهله، فيصغى إليه الجيران، عداة لاتختلف. وكان له لكل عمل ثوب، ولكل مهنة زي، ما رأيت أحسن ترتيباً منه. وهو أستاذي وجاري الألصق، لم أتعلم الكتاب العزيز إلا في مكتبه. رحمة الله عليه.

مشيخته

قرأ على بقية المقريين الأستاذ أبي جعر بن الزبير، ولازمه وانتفع به، وعلى الأستاذ أبي جعفر الجزيري الضري، وأخذ عن الخطيب المحدث أبي عبد الله بن رشيد.

مولده: في حدود عام ثمانين وستماية.

وفاته. توفي رحمة لله عليه في الموفى ثلاثين لذي قعدة من عام خمسين وسبعماية.

محمد بن علي بن أحمد الخولاني

بكنى أبا عبد الله أصله من مجلقر ويعرف بابن الفخار وبالبيرى، شيخنا رحمه الله

حاله

من " عايد الصلة " : أستاذ الجماعة، وعلم الصناعة، وسيبويه العصر، وآخر الطبقة من أهل هذا الفن، كان رحمه الله فاضلاً، تقياً منقبضاً. عاكفاً على العلم، ملازماً للتدريس، إمام الأيمة من غير مدافع، مبرزاً أمام أعلام البصريين من النحاة، منتشر الذكر، بعيد الصيت عظيم الشهرة، مستجر الحفظ، ينفجر بالعربية تفجر البحر، ويسترسل استرسال القطر، قد الطت دمه ولحمه، لايشكل عليه منها مشكل، ولا يعوزه توجيه، ولاتشذ عنه حجة. جدد بالأندلس ما كان قد درس من لسان العرب، من لدن وفاة أبي على الشلوبين، مقيم السوق على عهده. وكانت له مشاركة في غير صناعة العربية من قراءات وفقه، وعروض، وتفسير. وتقدم خطيباً بالجامع الأعظم، وقعد للتدريس بالمدرسة النصرية، وقل في الأندلس من لم يأخذ عنه من لطلبة. واستعمل في السفارة إلى العدوة، مع مثله من الفقهاء فكانت له حيث حل الشهرة وعليه الازدحام والغاشبة، وخرج، ودرب، وأقرأ، وأجاز، لايأخذ على ذلك " أجراً " وخصوصاً فيما " دون " البداية، إلا الجراية المعروفة، مقتصداً في أحواله، وقوراً، مفرط الطول، نحيفاً، سريع الخطو، قليل الالتفات والتعريج، متوسط الزي، متبذلاً في معالجة مايتملكه بخارج البلد، قليل الدهاء والتصنع، غريب النزعة، جامعاً بين الحرص والقناعة.

مشيخته

قرأ بسبتة على الشيخ الإمام أبي إسحق الغافقى، ولامه كثيراً، وأخذ عنه، وأكثر عليه. وقرأ على الإمام الصالح أبي عبد الله بن حريث، والمقررى الشريف الفاضل أبي العباس الحسنى، والشيخ الأستاذ النظار أبي القاسم بن الشاط. وأخذ عن الخطيب المحدث أبي عبد الله بن رشيد. والقاضي أبي عبد الله بن القرطبي وغيرهم. وهو أستاذي، قرأت عليه القرآن، وكتابي الجمل والإيضاح، وحضرت عليه دولاً من الكتاب، ولازمته مدة، وعاشرته، وتوجه صحبتي في الرسالة إلى المغرب.

توفي بغرناطة ليلة الإثنين الثاني عشر من رجب عام أربعة وخمسين وسبعماية، وكانت جنازته حالفة. وخمدت قرايح الآخذين عنه، ممن يدلى دلو أدب. فيأتي بماء أو حماة، على كثرتهم، تقصيراً عن الحق، وقدحاً في نسب الوفاء، إلا ما كان من بعض من تأخر أخذه عنه. وهو محمد بن عبد الله اللوشي، فإنه قال: وعين هذه الأبيات قراها:

ويوم نعى الناعي شهاب المحامد ... تغيرت الدنيا لمصرع واحد
فلا عذر للعينين إن لم تسايحا ... بدمع يحكاكي الوبل يشفى لواحد
مضى من بني الفخار أفضل ماجد ... جميل المساعي للعلا جد شاهد
طواه الردى ماكل حي يهابه ... وما ورده عاراً بشين لوارد
لقد غيبت منه المكارم في بالثرى ... غداة نوى وانسد باب الفوايد
فياحاملي أعواده ما علمتم بسؤدده الجم الكريم المحاند
وياحفرة خطت له اليوم مضجعاً ... سقتك الغوادي الصادقات الرواعد
إلا ياحمام الأيك ساعدني بالبكا ... على لم الدنيا وزين المشاهد
على أني لو استطعت الفدا فديته ... بأنفس آل من طريف وتالد
محمد ماللنعمى لموتك غضة ... توقف ولا ماء الحياة ببارد
وكيف وباب العلم بعدك مغلق ... ومورده المتروك بين الموارد
أأستاذنا كنت الرجا لآمل ... فأصبحت مهجور الفنا لقاصد
فلا تبعدن شيخ المعارف والحجا ... ليس الذي تحت التراب بباعد

لتبك العلوم بعدك شجوها ... وبقفر لها ربع العلا والمعاهد
ليبك عليك الجود والدين والتقا ... وحسب البكا أن صرت ملحود لاحد
أولاي من للمشكلات يبينها ... فيجلى عمى كل القلوب الشواهد
ومن ذا يحل المقفلات صعابها ... ومن ذا الذي يهدي السبيل لحايد
فياراحلا عنا فزعنا لفقده ... لقد أونست منك القبور بوافد
وبالكوكبا غال النهار ضياءه ... وشيكاً وهل هذا الزمان بخالد
سأبكيك ما لاحت بروق لشايم ... وأرعاك ما كان الغمام بعابد
عليك سلام الله ما دامت الصبا ... يغصنٍ في الأراكة مايد

" قلت: العجب من الشيخ ابن الخطيب. كيف قال، وخمدت قرايح الآخذين عنه، وهو من أجل من أخذ عنه، حسبما قرره آنفاً، بل أخص من ذلك، المعاشرة والسفارة للعدوة. وهو مع ذلك أقدرهم على هذا الشأن، وأسخاهم قريحة في هذا الميدان، وإن أتى غيره بماء أوحمأة، أتى هو بالبحر الذي لاساحل له. ولعمري لو قام هو بما يجب من ذلك، لزال القدح في نسب وفاء الغيرر، فعين مانسبه من التقصير عن الحق في ذلك، متوجه عليه، ولاحق له، ولايبعد عنده أن يكون وقع بينهما ما أوجب إعراضه مما يقع في الأزمان، ولاسيما بين أهل هذا الشأن، فيكون ذلك سبباً في إعراض الغير مشياً في غرضه، ومساعدة له. والله أعلم بحقيقة ذلك كله "

محمد بن محمد البلنسى

من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله

حاله

طالب هش، حسن اللقاء عفيف النشأة، مكب على العلم، حريص على استفادته، مع زمانةٍ أصابت يمنى يديه، نفعه الله. قيد بأختها وانتسخ، قايم على العربية والبيان، ذاكر الكثير من المسائل، حافظ متقن، على نزعه عربية، من التجاذع في المثى، وقلة الالتفات إلا بجملة، وجهورية الصوت، متحل بسذاجة، حسن الإلقاء والتقرير، مت للمتغلب على الدولة بضن، أفاده جاها واستعمالاً في خطة السوق، ثم اصطناعاً في الرسالة إلى ملك المغرب، جر عليه آخر النكبة، وقاد المحنة، فأرصد له السلطان أبو عبد الله في أخرياتها، رجالاً بعثهم من رندة، فأسروه في طريقه، وقدموا به سلبياً، قدوم الشهرة والمثلة، موقناً بالقتل. ثم عطف عليه حنيناً إلى حسن تلاوته في محبسه ليلاً، فانتاشه لذلك من هفوة بعيدة ونكبة مبيرة. ولما عاد لمكله، أعاده للإقراء.

مشيخته

جل انتفاعه بشيخ الجماعة أبي عبد الله الفخار، لازمه وانتفع به، وأعاد دول تدريسه، وقرأ على غيره. وألف كتاباً في تفسير القرآن، متعدد الأسفار، واستدرك على السهيلي في أعلام القرآن كتاباً نبيلاً، رفعه على يدي للسلطان. وهو من فضلاء جنسه، أعانه الله وسدده.

ابن عبد الرحمن بن بقى

محمد بن سعد بن محمد بن لب بن حسن ابن حسن بن عبد الرحمن بن بقى، يكنى أبا عبد الله، ويعرف باسم جده

أوليته

كان القاضي العدل أبو عبد الله بن هشام، قاضي الجماعة بالأندلس يجل سلفه، وبنسبة إلى بقي بن مخلد، قاضي بالخلافة بقرطبة. وابن هشام ممن يحتج به.

حاله

هذا الرجل فاضل، حسن الخلق، جميل العشرة، كريم الصحبة، مبذول المشاركة، معروف الذكاء والعفة، مبسوط الكنف، مع الانقباض، فكه مع الحشمة، تسع الطوائف أكناف خلفه، ويعم المتضادين رحب ذرعه. طالب محصل. حصيف العقل، حسن المشاركة في فنون، من فقه وقراءات ونحو وغير ذلك. تلكم للناس بجامع الربض ثم بمسجد البكلاي المجاور للزاوية والتربة اللتين أقمتهما بأخشارش من داخل الحضرة، وحلق به لتعليم العلم، فأنثال عليه المتعلم والمستفيد والسامع، لاجادة بيانه، وحسن تفهيمه.

مشيخته

قرأ القرآن بحرف نافع، على أبيه، وعلى الشيخ الخطيب المكتب أبي عبد الله بن عامور. وقرأ العربية على إمام الجماعة الأستاذ أبي عبد الله بن الفخار، وجود عليه القرآن، بالقراءات السبع، وقرأ على الأستاذ أبي سعيد بن لب

شعره

أنشدني من ذلك قوله بعد الانصراف من مواراة جنازة:

كم أرى مدمن لهو ودعه ... لست أخلى ساعة من تبعه

كاكن لي عذر لدى عهد الصبا ... وأنا آمل في العمر سعه

أو ما يوقظنا من كلنا ... أنفاً لقبره قد شيعه

سيما وقد بدا في مفرقي ... ماإخال الموت قد جاء معه

فدعوني ساعة أبكي على ... عمر أمسيت ممن ضيعه

ومن شعره في النوم، وهو كثير مايطرفه:

أباد البين أجناد التلاقي ... وحالت بيننا خيل الفراق

فجودوا وارحموا وارثوا ورقوا ... على من جفنه سكب المآقي

ومن ذلك ما أنشد في النوم على لسان رجل من أصحابه:

ياصاحبي قفا المطايا ... واشفقاً فالعبيد عبده

إذا انتهى وانقضى زمان ... هل يرسل الله من يرده

مولده

في الثاني عشر لصفر من عام اثنين وعشرين وسبعماية.

الطراز

محمد بن علي بن يوسف الأنصاري

من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالطراز

حاله

من صلة ابن الزبير: كان رحمه الله مقرياً جليلاً، ومحدثاً حافلاً، به ختم بالمغرب هذا الباب البتية. وكان ضابطاً متقناً، ومقيداً حافلاً، بارع الخط، حسن الوراقة، عارفاً بالأسانيد والطرق والرجال، وطبقاتهم، مقرباً عارفاً

بالأسانيد والقراءات، ماهراً في صناعة التجويد، مشاركاً في بعلم العربية والفقه والأصول وغير ذلك، كاتباً نبيلاً، مجموعاً فاضلاً متخلقاً، ثقة فيما روى، عدلاً ممن يرجع إليه فيما قيد وضبط، ولإتقانه وحذقه. كتب بخطه كثيراً، وترك أمهات حديثية، اعتمدها الناس بعده، وعولوا عليها. وتجرد آخر عمره، إلى كتاب " مشارق الأنوار " تأليف القاضي أبي الفضل عياض، وكان قد تركه في ميضة، في أنهى درجات النسخ والإدماج والإشكال، وإهمال الحروف حتى اخترمت منفعتها، حتى استوفى ما نقل منه المؤلف، وجمع عليها أصولاً حافلة، وأمهات جامعة، من الأغربة وكتب اللغة، فتخلص الكتاب على أتم وجه وأحسنه، وكمل من غير أن يسقط منه حرف ولا كلمة. والكتاب في ذاته لم يؤلف مثله.

مشيخته

روى عن القاضي ابن الطباع، وعن أبي عبد الله بن صاحب الأحكام والمتكلم، وأبي محمد بن عبد الصمد بن أبي رجا وأبي القاسم الملاحى، وأبي محمد الكواب وغيرهم، " أخذ عن هؤلاء كلهم ببلده " ، وبقرطبة عن جماعة، وبمالقة كذلك، وبسبتة. وبإشبيلية عن أبي بالحسن بن زرقون، وابن عبد النور. وبفاس وبمرسية عن جماعة.

قلت: هذه الترجمة في الأصل المختصر منه هذا طويله، واختصرتها لطولها.

توفي ببغرناطة ثالث شوال عام خمسة وأربعين وستماية، وكانت جنازته من أحفل جنازة، إذ كان الله قد وضع له ودا في قلوب المؤمنين.

ابن حيان النفزي

محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفزي من أهل غرناطة، يكنى أبا حيان، ويلقب من الألقاب المشرقية بأثير الدين

حاله

كان نسيج وحده في ثقوب الذهن، وصحة الإدراك " والحفظ " والاضطلاع بعلم العربية، والتفسير وطريق الرواية، إمام النحاة في زمانه غير مدافع، نشأ ببلده غرناطة، مشاراً إليه في التبريز بميدان الإدراك، وتغيير يالسوابق في مضمار التحصيل. ونالته نبوة لحق بسببها بالمشرق، واستقر السوابق في مضمار التحصيل. ونالته نبوة لحق بسببها بالمشرق، واستقر بمصر، فنال ما شاء من عز وشهرة، وتأثلٍ وبروحظوة، وأضحى لمن حل بساحته من المغاربة، ملجاً وعدة. وكان شديد البسط، مهيباً، جهورياً، مع الدعابة والغزل، وطرح السمت، شاعراً مكثراً، مليح الحديث، لايمل وإن أطال، وأسن جداً، وانتفع به. قال بعض أصحابنا، دخلت عليه، وهو يتوضأ، وقد استقر على إحدى رجليه لغسل الأخرى، كما تفعل البرك والأوز، فقال لو كنت اليوم جار شلير ما تركني لهذا العمل في هذا السن.

مشيخته

قرأ ببلده على الأستاذ حايز الرياسة أبي جعفر بن الزبير ولازمه، وانتسب إليه، وانتفع به، وشاد له بالمشرق ذكراً كبيراً. ويقال إنه نادى في الناس عندما بلغه نعية، وصلى عليه بالقاهرة، وله إليه. مخاطبات أدبية اختصرتها، وعلى الأستاذ الخطيب أبي جعفر علي بن محمد الرعيني الطباع، والخطيب الصالح ولي الله أبي الحسن فضل بن محمد بن علي ابن ابراهيم بن فضيلة المافري. وروى عن القاضي المحدث أبي على الحسين ابن عبد العزيز بن أبي ألأحواض الفهرى، والمكتب أبي بسهل اليسر بن عبد الله ابن محمد بن خلف بن اليسر القشيري، والأستاذ أبي الحسن بن الصايغ، والأديب الكاتب أبي محمد عبد الله بن هرون الطائي بتونس، وعلى المسند صفى الدين أبي محمد عبد الوهاب بن حسن بن إسماعيل بن مظفر بن الفرات الحسنى بالأسكندرية، والمسند الأصولي وجيه الدين أبي عبد الله

محمد ابن عبد الرحمن بن أحمد بن عمران الأنصاري بالثغر، والمحدث نجيب الدين أبي عبد الله محمد ىبن أحمد بن محمد بن المؤيد الهمداني بالقاهرة، وغيرهم ممن يشق إحصارهم. كالإمام بهاء الدين محمد بن ابراهيم ابن محمد بن أبي نصر بن النحاس الشافعي. قرأ عليه جميع كتاب سيبويه في سنة ثمان وثمانين وستماية، وقال له عند ختمه، لم يقرأه على أحد غيره.

تواليفه

وتواليفه كثيرة، منها شرحه كتاب " تسهيل الفوايد لابن مالك: وهو بديع، وقد وقفت على بعضه بغرناطة في عام سبعة وخمسين وسبعماية. وكتابه في تفسير الكتاب العزيز، وهو المسمى " بالبحر المحيد " تسمية زعموا موافقة للغرض. وألف كتاباً في نحو اللسان التركى، حدثنا عنه الجملة الكثيرة من أصحابنا، كالحاج أبي يزيد خالد بن عيسى، والمقرى الخطيب أبي جعفر الشقورى، والشريف أبي عبد الله بن راجح، وشيخنا الخطيب أبي عبد بن مرزوق. وقال حدثنا الأستاذ العلامة المتفنن أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير، سماعاً من لفظه، وكتباً من خطه بغرناطة، عن الكاتب أبي إسحق بن عامر الهمداني الطوسى بفتح الطاء، حدثنا أبو عبد الله بن محمد العنسى القرطبي، وهو آخر من حدث عنه، أخبرنا أبو علي الحسن بن محمد الحافظ الجياني، ناحكم بن محمد، نا أبو بكر بن المهندس، نا عبد الله ابن محمد، نا طالوت بن عياد بن بصال بن جعفرن سمعت أبا إمامة الباهلي بقول، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أكفلوا لي بيت أهل لكن في الجنة، إذا حدث أحدكم بلا كذب، وإذا ايتمن فلا يخن، وإذا وعد فلا يخلف. غضوا أيساركم، وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم. وقال، أنشدنا الخطيب أبو جعفر الطباع. قال أنشدنا ابن خلفون. قال أنشدنا أبو عبد الله محمد بن سعيد. قال أنشدنا أبو عمران موسى ابن أبي تليد لنفسه:

حالي مع الدهر في تقلبه ... كطاير ضم رجله التسرك

فهمه في خلاص مهجته ... يروم تخليصها فيشتبك

ومن ملحه: قال قدم علينا الشيخ المحدث أبو العلاء محمد بن أبي بكر البخاري الفرضى بالقاهرة في طلب الحديث. وكان رجلاً حسناً طيب الأخلاق، لطيف المزاج، فكنا نسايره في طلب الحديث، فإذا رأى صورة حسنة، قال هذا حديث على شرط البخاري، فنظمت هذه الأبيات:

بدا كهلال العيد وقت طلوعه ... وماس كغصن الخيزران المنعم

غزال رخيم الدل وافي مواصلا ... موافقة منه على رغم لوم

مليح غريب الحسن أصبح معلماً ... بخمرة خد بالمحاسن معلم

وقالوا على شرط البخاري قد أتى ... فقلنا على شرط البخاري ومسلم

فقال مولاي أنا البخاري فمن مسلم ... فقلت له أنت البخاري وأنا مسلم

محنته

حملته حدة الشبيبة على " التعريض للأستاذ " أبي جعفر الطباع، وقد وقعت بينه وبين أستاذه ابن الزبير الوحشة فنال منه، وتصدى للتأليف في الرد عليه، وتكذيب روايته، فرفع أمره إلى السلطان، فامتعض له، ونفذ الأمر بتنكيله، فاختفى، ثم أجاز البحر مختفياً، ولحق بالمشرق يلتفت خلفه.

شعره

وشعره كثير بحيث يتصف بالإجادة وضدها. فمن مطولاته رحمه الله قوله:

لا تعذلاه فما ذو الحب معذول ... العقل مختبل والقلب متبول
هزت له أسمراً من خوط قامتها ... فما انثنى للصب إلا وهو مقتول
جميلة فصل الحسن البيع لها ... فكم لها جمل منه وتفصيل
فالنحر ذو غنجٍ والعرف ذو أرج ... والخصر مختطف والعنق مجدول
هيفاء ينبس في الخصر الوشاح لها ... ردماً تخرس في الساق الخلاخيل
من اللواتي غذاهن النعيم فما ... يشقين آباؤها الصيد البهاليل
نزر الكلام غميات الجواب إذا ... سلن بعد الصحا حصر مكاسيل
من حليها ومناها مونس وهدى ... فليس يلحقها ذعر وتضليل
حلت بمنعقد الزوراء زارة ... شوسا غياري فعقد الصبر محلول
فمد عن ذكر ليلى إن ذكرها ... على التنالي لتعذيب وتعليل
أتاك منك نذير فأنذرن به ... وبادر التوب إن التوب مقبول
وأمل العفر واسلك مهمها ... قدفا إلى رضى الله إن العفو مأمول
إن الجهاد وحج البيت مختتما ... بزورة المصطفى للعفو تأميل
فشق حيزوم هذا الليل ممتطياً ... أخا خرام به قد يبلغ السؤل

أقب أعوج يعزي للوجيه له ... وجه أغر وفي الرجلين تحجيل
جفر حوافره معر قوايمه ... ضمر أياطله وللذيل عثكوك
إذا توجه أصغى وهو ملتفت ... ساعر اعتقا فيهن تأليل
إن تعارض به هوجا هاج له ... جرى يرى البرق عنه وهو مخذول
يحمى حوزة الإسلام ملتقياً ... كتايبا غص منها العرض والطول
كتايباً قد عموا عن كل واضحةٍ ... من الكتاب وغرتهم أباطيل
في رماقط ضرب الموت الزوام به ... سرادقاً فعليهم منه تخييل
هيجا يشرف فيها المشرفي على ... هام العدو ويصحب النقع تظليل
تدير كاس شعوب في شعوبهم ... فكلهم منهل بالموت معلول
إذا قضيت غزاة فالتفت عملا ... للحج فالحج للإسلام تكميل
وأصل بسر يابن أندلس والط ... رف أدهم بالأشطان مغلول
يلاطم الريح منه أبيض نفق له ... من السحب المزبد اكليل
يعلو حضارة منه شامخ جلل ... سام طفا وهو بالنكباء محمول
كأنما هو في طخيا لجة أيم ... يعرو أديم السيل شمليسل
مازالت الموج تعليه وتخفضه ... حتى بدا من منار الثغر قنديل
وكبر الناس أعلاه الرنيم ... وكلهم طرفه بالشهد مكحول
وصافحوا البيد بعد اليم وابتدروا ... سبلاً بها لجناب الله توصيل
على نجايب تتلوه أجنابها خيل ... بها الخير معقود ومعقول

في موكب تزحف الأرض الفضاء به ... أضحت وموحشها بالناس مأمول
يطارد الوحش منه فيلق لجب ... حتى لقد ذعرت في بيدها الغول
سيوفهم طرب نحو الحجاز فهم ... ذوو ارتياح على أكوارها ميل
شعث رؤسهم يبس شفاهم ... خوص عيونهم غرب مهازيل
حتى إذا لاح من بيت الإله لهم ... نور إذا هم على الغبرا أراحيل
يعفرون وجوهاً طالما سمت ... باكين حتى أديم الأرض مبلول
حفوا بكعبة مولاهم فكعبهم ... عالٍ بها لهم طوف وتقبيل
وبالصفا وقتهم صافٍ بسعيهم ... وفي منى لمناهم كان تنويل
تعرفوا عرفات واقفين بها ... لهم إلى الله تكبير وتهليل
لما قضينا من الغراء منسكنا ... ثرنا وكل بنار الشوق مشمول
شدنا إلى الشد قميات التي سكنت أبدانهن وأفناهن تنقيل
إلى الرسول تزجي كل تعلمة ... أجل من نجوة تزجى المراسيل
من أنزلت فيه آيات مطهرة ... وأورثت فيه تورته وإنجيل
وعطرت من شذاه كل ناحية ... كأنما المسك في الأرجاء محلول
سر من العالم العلوي ضمنه ... جسم من الجوهر الأرضي محمول
نور تمثل في أبصارنا بشراً ... على الملايك من سيماه تمثيل
لقد تسامى وجبريل مصاميه ... إلى مقام راخى فيه جبريل
أوحى إليه الذي أوحاه من كثب ... فالقلب واع بسر الله مشغول
يتلو كتاباً من الرحمن جاء به ... مطهراً ظاهر منه وتأويل
جارٍ على منهج الأعراب أعجزهم ... باقٍ مع الدهر لاياتيه تبديل
بلاغه عندها كع البليغ فلم ... ينطق وفي هديه صاحت أضاليل
ومنها:
وطولبوا أن يجيبوا حين رابهم ... بسورةٍ مثله فاستعجز القيل
لاذو بذوبان خطى وبتر ظبا ... يوم الوغا واعتراهم منه تنكيل
فمونف في جبال الوهد منحدر ... وموثق في حبال الغد مكبول

مازال بالعضب هتاكاً سوابغهم ... حتى انثنى العصب مهم وهو مفلول
وقد تحطم في نحر العدا قصد ... أصم الوشج وخانتها العواميل
من لايعدله القرآن كان له ... من الصفاد وبيض البتر تعديل
وكم له معجزا غير القرآن أتى ... فيه من الحق منقول ومعقول
فللرسول انشقاق البدر نشهده ... كما لموسى انفلاق البحر منقول
ونبع ماء فرات من أنامله كالعين ثرت فجا الهتان ماء النيل
رووا الخميس وهم زهاء سبع ... مي مع الركاب فمشروب محمول
ومى عين بكف جاء يحملها ... قتادة وله شكوى وتعويل

فكانت أحسن عينيه ولا عجب ... مست أناميل فيها اليمن مجعول
والجذع حن إليه حين فارقه ... حنين ولهى لها للروم مثكول
وأشبع الكثر من قل الطعام ولم ... يكن ليعوزه بالكثر تقليل
وفي جراب لي هن عجايب كم ... يمتار منه فمبذول ومأكول
وفي ارتواء لي ذر بزمزم مايكفى تبدن منه وهو مهزول
والعنكبوت بباب الغار قد نسجت ... حتى كأن رداءً منه مسدول
وفرخت في حماه الورق ساجعة ... تبكي وما دمعها في الخد مطول
هذا وكم معجزات للرسول أتت ... لها من الله أمداد وتأصيل
غدت من الكثر أعداد النجوم فما ... يحصى لها عدداً كتب ولاقيل
قد انقضت معجزات الرسل منذ قضوا نحباً وأعجم منها ذلك الجيل
ومعجزات رسول الله باقية ... محفوظة مالها في الدهر تحويل
تكفل الله هذا الذكر يحفظه ... وهل يضيع الذي بالله مكفول
هدى المفاخر لايحظى الملوك بها ... الملك منقطع والوحي موصول
ومن مطولاته في غرض يظهر منها:
هو العلم لاكالعلم شيء تراوده ... لقد فاز باغيه وأجح قاصده
وما فضل الإنسان إلابعلمه ... ومامتاز إلا ثاقب الذهن واقده
وقد قصرت أعمارنا وعلومنا ... يطول علينا حصرها ونكابده
وفي كلها خير ولكن أصلها ... هو النحو فاحذر من جهول يعانده
به يعرف القرآن والسنة التي هما ... أصل دين الله ذو أنت عابده
وناهيك من علم على مشيد ... مبانيه أعزز بالذي هو شايده
لقد حاز في الدنيا فخاراً وسوددا ... أبو الأسود الديلي فللجر سانده
هو استنبط العلم الذي جل قدره ... وطار به للعرب ذكر نعاوده
وساد عطا نجله ابن هرمز ... ويحيى ونصر ثم ميمون ماهده
وعنبسة قد كان أبرع صحبه ... فقد قلدت جيد المعالي قلايده
ومازال هذا العلم تنميه سادة ... جهابذة تبلى به وتعاضده
إلى أن أتى الدهر العقيم بواحد ... من الأزد تنميه إليه فرايده
إمام الورى ذاك الخليل بن أحمد ... أقرله بالسبق في العلم حاسده
وبالبصرة الغرا قد لاح فجره ... فنارت أدانيه وضاءت أباعده
ياذكى الورى ذهناً وأصدق لهجة ... إذا ظن أمراً قلت ماهو شاهده
وما أن يروى بل جميع علومه ... بداية أعيت كل حبرٍ تجالده
هو الواضع الثاني الذي فاق أولا ... ولاثالث في الناس تصمى قواصده
فقد كان ربانى أهل زمانه ... صوم قوم راكع الليل ساجده
يقيم منه دهره في مثوبة ... وثوقاً بأن الله حقاً مواعده

فعام إلى حج وعام لغزوة ... فيعرفه البيت العتيق ووافده
ولم يثنه يوماً عن العلم والتقى ... كواعب حسن تنثنى ونواهده
وأكثر سكناه بقفر بحيث لا ... تناغيه إلا عفره وأوابده
وما قوته إلا شعير يسيغه ... بماء قراح ليس تغشى موارده

عزوباً عن الدنيا وعن زهراتها ... وشوقاً إلى المولى وما هو واعده
ولما رأى من سيبويه نجابة ... وأيقن أن الحين أدناه باعده
تخيره إذ كان وارث علمه ... ولا طفه حتى كأن هو والده
وعلمه شيئاً فشيئاً علومه ... إلى أن بدت سيماه واشتد ساعده
فإذ ذاك وافاه من الله وعده ... وراح وحيد العصر اذ جاء واحده
أتى سيبويه ناشراً لعلومه ... فلولاه أضحى للنحو عطلاً شواهده
وأبدى كتاباً كان فخراً وجوده ... لحطان إذ كعب بن عمرو محاتده
وجمع فيه ما تفرق في الورى ... فطارفه يعزى إليه وتالده
بعمرو بن عثمان بن قنبر الرضا ... أطاعت عواصيه وتابت شوارده
عليك قرآن النحو نحو ابن قنبر ... فآياته مشهودة وشواهده
كتاب أبي بشر فلا تلك قارياً ... سواه فكل ذاهب الحسن فاقده
هم خلج بالعمل مدت فعندما ... تناءت غدت تزهي وليست تشاهده
ولا تعد عما حازه إنه الفرا ... وفي جوفه كل الذي أنت صائده
إذا كنت يوماً محكماً في كتابه ... فإنك فينا نابه القدر ماجده
ولست تبالي إن فككت رموزه ... أعضك دهر أم عرتك ثرايده
هو العضب إن تلق الهياج شهرته ... وإن لاتصب حرباً فإنك غامده
تلقاه كل بالقبول وبالرضى ... فذور الفهم من تبدو إليه مقاصده
ولم يعترض فيه سوى ابن طراوة ... وكان طرياً لم تقادم معاهده
وجسره طعن المبرد قبله ... وإن الثمالي بارد الذهن خامده
هما ماهما صارامدى الدهر ضحكة ... يزيف ماقالا وتبدو مفاسده
تكون صحيح العقل حتى إذا ترى ... تبارى أبا بشرٍ، إذا أنت فاسده
يقول امرؤ قد خامر الكبر رأسه ... وقد ظن أن النحو سهل مقاصده
ولم يشتغل إلا بنزر مسايل من ... الفقه وفي أوراقه هو راصده
وقد نال بين الناس جاهاً ورتبه ... وألهاك عن نيل المعالي ولا بده
وما ذاق للآداب طعماً ولم ... يبت يعنى بمنظوم ونثر يجاوده
فينكح أبكار المعاني ويبتغي لها ... الكفو من لفظ بها هو عاقده
رأى سيبويه فيه بعض نكادة ... وعجمة لفظ لا تحل معاقده
فقلت أتيت ما أنت أهل لفهمه ... وما أنت إلا غايض الفكر راكده
لعمرك ماذو لحية وتسمت ... وإطراق رأس والجهات تساعده

فيمشي على الأرض الهوينا كأنما ... إلى الملإ الأعلى تناهت مراصده
وإيهامك الجهال أنك عالم ... وأنك فرد في الوجود وزاهده
بأجلب للنحو الذي أنت هاجر ... من الدرس بالليل الذي أنت هاجده
أصاح تجنب من غوى مخذل ... وخذ في طريق النحو أنك راشده
لك الخير فادأب ساهراً في علومه " فلم تشم " إلا ساهر الطرف ساهده
ولا ترج في الدنيا ثواباً فإنما ... لدى الله حقاً أنت لاشك واجده
ذوو النحو في الدنيا قليل حظوظهم ... وذو الجهل فيها وافر الحظ زايده
لهم أسوة فيها على لغدٍ مضى ... ولم يلق في الدنيا صديقاً يساعده
مضى بعده عنها الخليل فلم ... ينل كفافاً ولم يعدم حسوداً يناكده
ولاقي أبا بشرٍ سفيهها ... غداة تمالت في ضلال يماددده
أتى نحو هارون يناظر شيخه ... فنفحة حتى تبدت مناكده
فأطرق شيئاً ثم أبدى دوابه ... بحق ولا كن أنكر الحق جاحده
وكاد على عمراً إذا صار حاكماً ... وقد ما على كان عمرو يكايده

سقاه بكأس لم يفق من خمارها ... وأورده الأمر الذي هو وارده
ولابن زياد شركة في مراده ولابن رشيد بشرك للقلب رابده
هما جرعا إلى على وقنبر ... أفاويق سم لم تنجد أساوده
أبكى على عمرو ولا عمر مثله ... إذا مشكل أعيا وأعوز ناقده
قضى نحبه شرخ الشيبة لم يرع ... بشيب ولم تعلق بذام معاقده
لقد كان للناس اعتناء بعلمه ... بشرقٍ وغربٍ تستنار فوايده
والآن فلا شخص على الأرض قارئ ... كتاب أبي بشرٍ ولا هو رايده
سوى معثر بالغرب فيهم تلفت ... إليه وشوق ليس يخبو مواقد
وما زال منا أهل أندلس له ... جهابذ تبدى فضله وتناجده
وإني في مصر على ضعف ناصري ... لناصره ما دمت حياً وعاضده
أثار أثير الغرب للنحو كامناً ... وعالجه حتى تبدت قواعده
وأحيا أبو حيان ميت علومه ... فأصبح علم النحو ينفق كاسده
إذا مغربي حط بالثغر رحله ... تيقن أن النحو أخفاه لاحده
منينا بقوم صدروا في مجالس ... لإقراء علم ضل عنهم مراشده
لقد أخر التصدير عن مستحقه ... وقدم غمر خامد الذهن جامده
وسوف يلاقي من سعى في جلوسهم ... عقبى ما أكنت عقايده
علا عقله فيهم هواه فما ذرى ... بأن هوى الإنسان للنار قايده
أقمنا بمصر عشرين حجة يشاهدنا ... ذو أمرهم ونشاهده
فلما ننل منهم مدى الدهر طايلا ... ولما نجد فيهم صديقاً نوادده
لنا سلوة فيمن سردنا حديثهم ... وقد يتسلى بالذي قال سارده

أخي إن تصل يوماً وبلغت سالماً ... لغرناطة فانفذ لما أنا عاهده
وقبل ثرى أرض بها حل ملكنا ... وسلطاننا الشهم الجميل عوايده
مبيد العدا قتلاً وقد عمر شرهم ... ومحي الندى فضلاً وقد رم هامده
أفاض على الإسلام جوداً ونجدةً ... فعز مواليه وذل معانده
وعم بها إخواننا بتحية ... وخص بها الأستاذ لاعاش كايده
جزى الله عنا شيخنا وإمامنا ... وأستاذنا الحبر الذي عم فايده
لقد أطلعت جيان أوحد عصره ... فللغرب فخر أعجز الشرق خالده
مؤرخة نحوية وإمامة محدثة ... جلت وصحت مسانده
جاه عظيم من ثقيف وإنما به ... استوثقت منه العرى ومساعده
وما أنسى لاأنسى سهادى ببابه ... بسبق وغيري نايم الليل راقده
فيجلو بنور العلم ظلمة جهلنا ... ويفتح علماً مغلقاتٍ رصايده
وإني وإن شطت بنا غربة النوى ... لشاكر له في كل وقت وحامده
بغرناطة روحي وفي مصر جثتي ... ترى هل يثنى الفرد من هو فارده
أبا جعفر خذها قوافى من فتى ... تتيه على غر القوافي قصايده
يسير بلا إذن إلى الأذن حسنها ... فيرتاح سماع لها ومناشده
غريبة شكل كم حوت من غرايب ... مجيدة أصل أنتجتها أما جده
فلولاك يامولاى ما فاه مقولي ... بمصر ولا حبرت ما أنا قاصده
لهذبتني حتى أحوك مفوقاً ... من النظم لايبلى مدى الدهر آبده
وأذكيت فكري بعد ما كان خامداً ... وقيد شعري بعد ما ند شارده
جعلت ختاماً فيه ذكرك إنه ... هو المسك بل أعلى وإن عز ناشده
ومما دون المطولات قوله رحمه الله:
تفردت لما أن جمعت بذات ... وأسكنت لما أن بدت حركات
فلم أر في الأكوان غيراً لأنني ... أزحت عن الأغيار روح حيات
وقدستها عن رتبة لو تعينت ... لها دائماً دامت لها حسرات

فها أنا قد أصعدتها عن حضيضها ... إلى رتبة تقضى لها بثبات
تشاهد معنى روضة أذهب العنا ... وأيقظني للحق بعد سنات
أقامت زماناً في حجاب فعندما ... تزحزح عنها رامت الخلوات
لنقضي بها مافات من طيب أنسنا بها وننال الجمع بعد شتات ومن النسيب قوله:
كتم اللسان ومدمعى قد باحا ... وثوى الأسى عندي وأسى راحا
إني أحب طي ما نشر الهوى ... نشراً وما زال الهوى إفصاحاً
ومهجتي من لا أصرح باسمه ... ومن الإشارة ما يكون صراحاً
ريم أروم حنوه وجنوحه ... ويروم عني جفوة وجماحاً
أبدى لنا من شعره وجبينه ... ضدين ذا ليلاً وذاك صباحاً

عجباً له يأسو الجسوم بطبه ... ولكم بأرواحٍ أثار جراحاً
فبلقطه برء الأخيذ ولحظه ... أخذ البرى فما بطيق براحاً
ناديته في ليلة لا ثالث إلا ... أخوه البدر عارف لاحا
يا حسنها من ليلة لو أنها دامت ... ومدت لتوصال جناحاً
وقال:
نور بخدك أم توقد نار ... وضنى بجفناك أم فتور عقار
وشذاً بريقك أم تأرج مسكة ... وسنى بثغرك أم شعاع درار
جمعت معاني الحسن فيك فقد ... غدت قيد القلوب وفتنة الأبصار
متصاون خفير إذا ناطقته ... أغضى حياً في سكون وقار
في وجهه زهرات لفظ تجتلي ... من نرجس مع وردة وبهار
خاف اقتطاف الورد من جنباتها ... فأدار من أسر سياج عذار
وتسللت نمل العذار بخده ... ليردن شهدة ريقه المعطار
وبخده ورد حمتها وردها ... فوقفن بين الورد والإصدار
كم ذا أوارى في هواه مجتى ... ولقد وشى بي فيه فرط أوار
ومن نظمه من المقطوعات في شتى الأغراض قوله رحمه الله:
أزحت نفسي من الإيناس بالناس ... لما غنيت عن الأكياس بالياس
وصرت في البيت وحدي لا أرى أحداً ... بنات فكري وكتبر هن جلاس
وقال:
وزهدني في جمعي المال إنه إذا ... ما انتهى عند الفتى فارق العمرا
فلا روحه يوماً أراح من العنا ... ولم يكتسب حمداً ولم يدخر أجراً
وقال:
سعت حية من شعره نحو صدغه ... وما انفصلت من خده إن ذا عجب
وأعجب من ذا أن سلسال ريقه ... برود ولاكن شب في قلبي اللهب
وقال:
سعت حية من شعره نحو صدغه ... وما انفصلت من خده إن ذا عجب
وأعجب من أن سلسا يقه ... برود ولا كن شب في قلبي اللهب
وقال:
راض حبيبي عارض قد بدا ... يا حسنه من عارض رابض
وظن قوم أن قلبي سلا ... والأصل لا يعتد بالعارض
وقال:
سال في الخد للحبيب عذار ... وهو لاشك سايل مرحوم
وسألت التثامه فتجنى ... فأنا اليوم سايل محروم
وقال:

جننت بها سوداء لون وناظر ... ويا طالما كان الجنون بسوداء
وجدت بها برد النعيم وإن ... فؤادي منها في جحيم ولأواء
وقال:
جننت بها سوداء لون وناظر ... ويا طالما كان الجنون بسوداء
وجدت بها برد النعيم وإن ... فؤادي منها في جحيم ولأواء
وقال في فتى يسمى مظلوم:
وما كنت أدري أن مالك مهجتي ... يتسمى بمظلوم وظلم جفاوه
إلى أن دعاني للصبا فأجبته ... ومن يك مظلوماً أجيب دعاؤه
وقال:
جن غيري بعارض فترجى ... أهله أن يفيق عما قريب
وفؤادي بعارضين مصاب ... فهو داء أعي دواء الطبيب
وقال:
شكى الخصر منه ما يلاقي بردفه ... وأضعف غصن البان جر كثيب
إذا كان منه البعض يظلم بعضه ... فما حال شط المزار غريب
وقال:

وذو شفةٍ لميا زينت بشامة ... من المسك في رشافها يذهب النسك
ظميت إليها ريقةً كوثرية ... بمثل لقايي ثغرها ينظم السلك
تعل بمعسول كأن رضابه ... مدام من الفرد وسر خاتمه مسك
وقال:
أجل شفيعٍ ليس يمكن رده ... دراهم بيض للجروح مراهم
تصير صعب الأمر أسهل ماترى ... ويقضي لباناتٍ للفتى وهو نايم
وقال:
نعيد ود قريب ضل ... كبير عتب قليل عتباً
كالشمس ظرفاً كالمسك عرفاً ... كالخشف طرفاً كالصخر قلباً
وقال:
عداتي لهم فضل على ومنة ... فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا
هم بحثوا عن رتى فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا
مولده: ولد بغرناطة عام اثنين وخمسين وستماية.
وفاته: أخبرني الحاج الخطيب الفاضل أبو جعفر الشقوري رحمه الله.
قال، توفي عام خمسة وأربعين وسبع ماية بمصر، ودفن بالقرافة. وكانت جنازته حافلة.
ومن الطارين عليها في هذا الحرف
ابن الكماد اليكي

محمد بن أحمد بن داود بن موسى بن مالك اللخمي اليكي من أهل بلش يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن الكماد

حاله

من " عايد الصلة " : كان من جلة صدور " الفقهاء " الفضلاء زهدا وقناعة وانقباضاً، إلى دماثة الخلق، ولين الجانب " وحسن اللقاء " والسذاجة المموهة بالغفلة، والعمل على التقشف والعزلة، قديم السماع والرحلة، إماما مشهوراً في القراءات، يرحل إليه، ويعول عليه، إتقاناً ومعرفة منها بالأصول، كثير المحافظة والضبط، محدثاً ثبتاً، بليغ التحرز، شديد الثقة، فقيهاً متصرفاً في المسايل، أعرف الناس بعقد الشروط، ذا حظ من العربية واللغة والأدب. رحل إلى اللعدوة، وتجول في بلاد الأندلس، فأخذ عن كثير من الأعلام، وروي وقيد وصنف وأفاد، وتصدر للإقراء بغرناطة وبلش وعيرهما، وتخرج بين يديه جملة وافرة من العلماء والطلبة، وانتفعوا به.

مشيخته

قرأ ببلده مرسية على الأستاذ أبي الحسن على بن محمد بن لب بن أحمد ابن أبي بكر الرقوطي، والمقرى أبي الحسن بن خلف الرشاطي، والمحدث الجليل أبي محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي المرسى. وممن أجازه الفقيه أبو عثمان سعيد بن عمرو البطرني، والقاضي أبو علي بن أبي الأحوص، لقيه ببلش مالقة وبسطة، فروى عنه الكثير، والأستاذ أبو القاسم بن الأصهر الحارثي لقيه بألمرية. ولقي بغرناطة الأستاذ أبا جعفر الطباع، والوزير الراوية أبا القاسم محمد بن يحيى بن عبد الرحمن ابن جزى الكلبي، روى عنه وأجازه. وكتب له بالإجازة جماعة كبيرة من أهل المشرق والمغرب، حسبما تضمنه برنامجه.

تواليفه

اختصر كتاب " المقنع " في القراءات اختصاراً بديعاً وسماه كتاب " الممتع في تهذيب المقنع " وغير ذلك.

شعره

من ذلك وقد وقف على أبيات ابي القاسم بن الصقر في فضل الحديث:

لقد حاز أصحاب الحديث وأهله ... شأواً وتوتيراً ومجداً مخلداً

وصحت لهم بين الأنام مزيه ... أبانت لهم عزاً مجداً وسوددا

بدعوة خير الخلق أفضل مرسل ... محمد المبعوث بالنور والهدا

بدعوة خير الخلق أفضل مرسل ... محمد المبعوث بالنور والهدا

فهم دونوا علم الحديث وأتقنوا ... ونصوا بتبيين صحيحاً ومسندا

وجاءوا بأخبار الرسول وصحبه ... على وجهها لفظاً ورسماً مقيدا

وهم نقلوا الآثار والسنن التي ... من أصبح ذا لفظاً ورسماً مقيداً

وهم نقلوا الآثار والسنن التي ... من أصبح ذا أخذ بها فقد اهتدا

وما قصروا فيها بفقهٍ ولا ونوا ... بل التزموا حداً وحزماً مؤكداً

وهم أوضحوا من بعدهم باجتهادهم ... وبينهم سبل الهدى لمن اقتدا

جزاهم إله العرش عنا بنصحهم ... بأحسن ماجازي نصيحاً ومرشداً

ونسله سبحانه نه هديهم ... وسعياً إلى التقوى سبيلاً ومقصداً

ومن شعره رحمه الله قوله:

عليك بالصبر وكن راضياً ... بما قضاه الله تلقى النجاح
واسلك طريق المجد والهج به ... فهو الذي يرضاه أهل الصلاح
وقد ألف شيخنا أبو البركات بن الحاج، جزءاً سماه " شعر من لا شعر له " ، فيه من شعر هذا يالرجل الفاضل ومثله كثير
مولده

قبل الأربعين وستماية. وتوفي ثاني شهر الله المحرم عام اثنى عشر وسبعماية
ابن حفيد الأمين
محمد بن أحمد بن علي الغساني من أهل مالقه، يكنى أبا القاسم، ويعرف بابن حفيد الأمين
حاله
كان من أهل العلم والفضل والدين المتين، والدؤوب على تدريس كتب الفقه. استظهر كتاب " الجواهر " لابن شاس، واضطلع بها، فكان مجلسه من مجالس الحفاظ، حفاظ المذهب، وانتفع به الناس، وكان معظماً فيهم، متبركاً به، على سنن الصالحين، من الزهد، والانقباض، وعدم المبالاة بالملبس والمطعم. وقال صاحبنا الفقيه أبو الحسن النباهي في تذييله لتاريخ مالقة: كان رجلا ساذجاً، مخشوشناً، سنى المنازع، شديد الإنكار على أهل البدع. جلس للتحليق العام بالمسجد الجامع، وأقرأ به الفقه والعربية والفرايض.
مشيخته
قال، منهم أبو علي بن أبي الأخوص، وأبو جعفر بن الزبيز، وأبو محمد بن أبي السداد، والقاضي أبو القاسم ابن السكوت. قال، وأنشد للزاهد أبي اسحق بن قشوم، قوله:
يروقك يوم العيد حسن ملابس ... ونعمة أجسام ولين قدود
أجل لحظات الفكر منك فلا ترى ... سوى خرق تبلي وطعمة دود
وأنشد لأبي عمرو الزاهد:
تختبر الدنير في ميذاق ... والدرهم الزايف إذ يبهم
والمرء إن رمت اختباراً له ... ميذاقه الدنير والدرهم
من عف عن هذا وهذا مما ... فهو التقى الورع المسلم
تواليفه
له تقييد حسن في الفرايض، وجزء في تفضيل التين على التمر، وكلام على نوازل الفقه.
وتوفي في الكائنة العظمى بطريف.
محمد بن أحمد بن علي بن قاسم المذحجي
من هل ملتماس، يكنى أبا عبد الله
حاله
من العايد: كان رحمه الله من بلده وأعيانهم، أستاذا متفنناً مقرياً لكتاب الله، كاتباً بليغاً، شديد العناية بالكتب، كثير المغالاة في قيمها وأثمانها، حتى صار له من أعلاقها وذخايرها، ماعجز عن تحصيله كثير من أهل بلده. كتب بخطه، وقيد كثيراً من كتب العلم. وكان مقرباً مجوداً، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالعربية، ثقة ضابطاً، مبرزاً في العدالة،

حريصاً على العلم استفادة ثم إفادة، لا يأنف من حمله عن أقرانه، وانتفع به هل بلده، والغرباء أكثر.

مشيخته

أخذ عن طايفة من أهل العلم. منهم الشيخان الرحلتان، أبو عبد الله ابن الكماد، وأبو جعفر بن الزيات عظيماً بلده، والخطيب ولي الله أبو عبد الله الطنجالي، والقاضي أبو عبد الله بن بكر. وروى عن الشيخ الوزير أبي عبد الله بن ربيع، وابنه الراوية أبي عامر، والخطيب الصالح أبي إسحق بن أبي العاصي. وروى عن الشيخ الراوية الرحال أبي عبد الله ابن عامر الوادي أشي وغيرهم، ودخل غرناطة.

مولده ولد ببلش عام ثمانية وثمانين وستماية وفاته: توفي ببلش عاشر شهر شعبان من عام أربعة وثلاثين وسبعماية.

محمد بن أحمد بن علي الغساني

من أهل مالقة، يكنى أبا الحكم، ويعرف بابن حفيد الأمين

حاله

من العايد: كان هذا الشيخ من أهل العلم والدين المتين، والجرى على سنن الفقهاء والتقدمين، عقد الشروط بمالقة مدة طويلة، في العدول المبرزين، وجلس للتحليق في المسجد الأعظم من مالقة، بعد فقد أخيه أبي القاسم، وخطب بمسجد مالقة الأعظم. ثم أخر عن الخطبة لمشاحنة وقعت بينه وبين بعض الولاة، أثمرت في إحنته. ولم يزل على ما كان عليه من الاجتهاد في العبادة، والتقييد للعلم، والاشتغال به، والعناية بأهله، إلى أن توفي على خير عمل.

مشيخته

قرأ على الأستاذ الخطيب أبي محمد الباهلي، وروى عن جلة من الشيوخ مثل صهره الخطيب الوالي أبي عبد الله الطنجالي، وشاركه في أكثر شيوخه، والأديب الحاج الصالح أبي القاسم القبتوري وغيرهم مولده: ولد بمالقة عام ثلاثة وسبعين وستماية

وفاته: توفي بمالقة يوم الأربعاء الثامن عشر لذي حجة من عام تسعة وأربعين وسبعماية. ودخل غرناطة غير ما مرة مع الوفود من أهل بلده، وفي أغراضه الخاصة.

محمد بن أحمد الرقوطي المرسي

يكنى أبا بكر

حاله

كان طرفاً في المعرفة بالفنون القديمة، المنطق والهندسة والعدد والموسيقا الطب، فيلوسفاً، طبيباً ماهراً، آية الله في المعرفة بالألسن. يقرى الأمم بألسنتهم، فنونهم التي يرغبون في تعلمها، شديد الباو، مترفعاً. متعاطياً. عرف طاغية الروم حقه، لما تغلب على مرسية، فبنى له مدرسة يقرى فيها المسلمين والنصارى واليهود، ولم يزل معظماً عنده. ومما يحكى من ملحه معه، أنه قال له يوماً، وقد أدنى منزلته، وأشاد بفضله، لو تنصرت وحصلت الكمال، كان عندي لك كذا وكذا، وكنت كذا، فأجابه بما أقنعه. ولما خرج من عنده، قال لأصحابه، أنا الآن أعبد واحداً، وقد عجزت عما يجب له، فيكف يحالي لو كنت أعبد ثلاثة كما أراد مني وطلبه سلطان المسلمين، ثاني الملوك من بني نصر، واستقدمه، وتلمذ له، وأسكنه في أعدل البقع من حضرته. وكان الطلبة يغشون منزله المعروف له، وهو يبدى الآن، فتعلم عليه الطب والتعاليم وغيرها، إذا كان لا يجاري في ذلك. وكان قوى العارضة، مضطلعاً بالجدل، وكان السلطان يجمع بينه وبين منتابي حضرته، ممن يقدم منتحلا صناعة أو علماً، فيظهر عليهم، لتمكنه ودالته، حسبما يلى

في إسم أبي الحسن الأبدي، وأبي القاسم بن خلصون إن شاء الله. وكان يركب إلى باب السلطان، عظيم التودة، معار البغلة، رايق البزة، رفيق المشي، إلى أن توفي بها. سمح الله له.

ابن الدباغ الإشبيلي

محمد بن ابراهيم بن المفرج الأوسي المعروف بابن الدباغ الإشبيلي.

كان واحد عصره في حفظ مذهب مالك، وفي عقد الوثائق، ومعرفة عللها، عارفاً بالنحو واللغة والأدب والكتابة والشعر والتاريخ. وكان كثير البشاشة، عظيم انقباض، طيب النفس، جميل المعاشرة، كثير المشاركة، شديد الواضع، صبوراً على المطالعة، سهل الألفاظ في تعليمه وإقرايه. أقرأ بجامع غرناطة لأكابر علمايها، الفقه وأصوله، وأقرأ به الفروع والعقايد للعامة مدة. وأقرأ بجامع باب الفخارين، وبمسجد ابن عزرة وغيره.

مشيخته

قرأ على والده الأستاذ أبي إسحق ابراهيم، وعلى الأستاذ أبي الحسن الدباج، وعلى القاضي أبي الوليد محمد بن الحاج التجيبي القرطبي، وعلى القاضي أبي عبد الله بن عياض

وفاته

توفي برندة يوم الجمعة أول يوم من شوال عند انصراف الناس من صلاة الجمعة من عام ثمانية وستين وستماية

ابن الرقام

محمد بن إبراهيم بن محمد الأوسي ابن أهل مرسية، نزيل غرناطة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن الرقام الشيخ الأستاذ المتفنن.

حاله

كان نسيج وحده، وفريد دهره، علماً بالحساب والهندسة والطب والهيئة، وغير ذلك مديد الباع. أصيل المعرفة. مضطلعاً، متجراً لايشق غبارة. أقرأ التعاليم والطب والأصول بغرناطة لما استقدمه السلطان ثاني الملوك من بني نصر من مدينة بجاية، فانتفع الناس به، وأوضح المشكلات، وسيل من الأقطار النازحة في الأوهام العارضة، ودون في هذه الفنون كلها، ولخص، ولم يفتر من تقييد وشرح وتلخيص وتدوين.

تواليفه

وتواليفه كثيرة، منها كتابة الكبير على طريقة كتاب " الشفا " والزيج القويم الغريب المرصد، والبنية رسايله على جداول ابن إسحق، وعدل مناخ الأهلة، وعليه كان العمل. وقيد أبكار الأفكار في الأصول، ولخص المباحث، كتاب الحيوان والخواص. ومقالاته كثيرة جداً، ودواوينه عديدة.

وفاته: توفي عن سن عالية بغرناطة في الحادي والعشرين لصفر من عام خمسة عشر وسبع ماية

محمد بن جعفر بن أحمد بن خلف بن حميد

ابن مأمون الأنصاري ونسبه أبو محمد القرطبي، أمويا من صريحهم، بلنس الأصل يكنى أبا عبد الله

حاله

كان صدراً في متقنى القرآن العظيم، وأيمة تجويده، مبرزاً في النحو، إماماً معتمداً عليه، بارع الأدب، وافر الحظ من البلاغة، والتصرف البديع في الكتابة، طيب الإمتاع بما يورده من الفنون، كريم الأخلاق، حسن السمت، كثير البشر، وقوراً، ديناً، عارفاً، ورعاً، وافر الحظ من رواية الحديث.

مشيخته

روى عن أبي إسحق بن صالح، وأبي بكر بن أبي ركب، وأبي جعفر ابن ثعبان، وأبي الحجاج القفال، وأبي الحسن شريح، وأبي محمد عبد الحق ابن عطية، وأبي الحسن بن ثابت، وأبي الحسن بن هذيل، وتلا عليه بالسبع، وأبو عبد الله بن عبد الرحمن المذحجي الغرناطي، وابن فرح القيسي، و أبي القاسم خلف بن فرتون. ولم يذكر أنهم أجازوا له. وكتب له أبو بكر عبد العزيز بن سدير، وابن العزفي، وابن قندلة، فأبو الحسن طارق بن موسى، وابن موهب، ويونس بن مغيث، وأبو جعفر بن أيوب، وأبو الحكم عبد الرحمن بن غشيان، وأبو عبد الله الجياني المعروف بالبغدادي. وذكر أبو عبد الله بن يربوع أن له راوية عن أبي الحسن بن الطراوة.

من روى عنه

روى عنه أبو بحر صفوان بن إدريس، وأبو بكر بن عتيق الأزدى وابن قترال، وأبو جعفر الجيار، والذهبي، وابن عميرة الشيهد، وأبو الحسن بن عزمون، وابن عبد الرزق، وأبو الحسن عبيد الله بن عاصم الداري، وأبو الربيع بن سالم، وأبو زكريا الجعفري، وأبو سليمان ابن حوط الله، وأبو عبد الله الأندرشي، وابن الحسين بن محبر، وابن ابراهيم الريسى، وابن صلتان، وابن عبد الحق التلمسني، وابن يربوع، وأبو العباس العزفي، وأبو عثمن سعد الخفار، وأبو علي عمر بن جميع، وأبو عمران بن إسحق، وأبو القاسم الطيب بن هرقال، وعبد الرحيم ابن إبراهيم بن قريش الملاحي، وأبو محمد بن دلف بن اليسر، وأبو الوليد ابن الحجاج.

تواليفه

له شرح على " إيضاح الفارسي " ، وآخر على جمل الزجاجي " مولده: ببلنسية سنة ثلاث عشرة وخمسماية وفاته: توفي بمرسية إثر صدوره عن غرناطة عشى يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى سنة ست وثمانين وخمسماية

محمد بن حكم بن أحمد بن باق الجذامي

من أهل سرقسطة. سكن غرناطة ثم فاس، يكنى أبا جعفر

حاله

كان مقرباً مجوداً محققاً بعلم الكلام وأصول الفقه، محصلاً لهما، متقدماً في النحو، حافظاً للغة، حاضر الذكر لأقوال تلك العلوم، جيد النظر، متوقد الذهن، ذكي القلب. فصيح اللسان. ولي أحكام فاس وأفتى فيها، ودرس بها العربية، كتاب سيبويه وغير ذلك.

مشيخته

روى عن أبي الأصبغ بن سهل، وأبوى الحسن الحضرمي، وابن سابق، وأبي جعفر بن جراح، وأبي طالب السرقسطي، الأديبين، وأبوي عبد الله ابن نصر، وابن يحيى بن هشام المحدث، وأبيالعباس الدلاءي، وأبي عبيد الله البكري، وأبي عمر أحمد بن مروان القيرواني، وأبي محمد ابن قورش، وأبي مروان بن سراج. وأجاز له أبو الوليد الباجي رحمه الله.

من روى عنه

روى عنه أبو إسحق بن قرقول، وأبو الحسن صالح بن خلف، وأبو عبد الله بن حسن السبتي، وأبو الحسن الأبدي، وتوفي قبله، وابن خلف بن الأيسر، والنميري، وأبو العباس بن عبد الرحمن ابن الصقر، وأبو علي حسن بن الجزار، وأبو الفضل بن هرون الأزدي، وأبو محمد عبد الحق بن بونه، وقاسم بن دحمان، وأبو مروان بن الصقيل الوقشى.

تواليفه

شرح " إيضاح الفارسي " ، وكان قيماً على كتابة، وصنف في الجدل مصنفين، كبيراً وصغيراً. وله عقيدة جيدة.
وفاته: توفي بفاس، وقيل بتلمسان سنة ثلاث وثلاثين وخمس ماية محمد بن حسن بن محمد بن عبد الله بن خلف بن يوسف ابن خلف الأنصاري من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن الحاج، وبابن صاحب الصلاة.
حاله
كان مقرياً صدراً في أيمة التجويد، محدثاً متقناً ضابطاً، نبيل الخط والتقييد، ديناً، فاضلا. وصنف في الحديث، وخطب بجامع بلده. وأم في الفريضة زماناً، واستمرت حاله كذلك، من نشر العلم وبثه إلى أن كرمه الله بالشهادة في وقيعة العقاب.
دخوله غرناطة، راوياً عن ابن الفرس، وابن عروس، وغرهما
مشيخته
روى بالأندلس عن الحجاج ابن الشيخ، وأبي الحسن بن كوثر، وأبي خالد يزيد بن رفاعة، وأكثر عنه، وأبوى عبد الله بن عروس، ابن الفخار، وأبي محمد بن حوط الله، وعبد الحق بن بونه، وعبد الصمد ابن يعيش، وعبد المنعم بن الفرس، وأجازوا له. وتلا القرآن على أبي عبد الله الإستجي. وروى الحديث عن أبي جعفر الحصار. وحج في نحو سنة ثمانين وخمسماية. وأخذ عن جماعة من أهل المشرق، كأبي الطاهر الخشوعي وغيره.
وفاته: توفي شهيداً محرضاً صابرا يوم الاثنين منتصف صفر عام تسعة وستماية.
ابن قرال

محمد بن محمد بن أحمد بن على الأنصاري يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن قرال، من أهل مالقة
حاله

طالب عفيف مجتهد خير. قرأ بغرناطة، وقام على فن العربية قياماً بالغاً، وشارك في غيره، وانتسخ الكثير من الدواوين بخط بالغ أقصى مبالغ الإجادة والحسن، وانتقل إلى مالقة فأقرأ بها العربية، واقتدى بصهره الصالح أبي عبد الله القطان، فكان من أهل الصلاح والفضل. وتوفي في محرم عام خمسين وسبعماية.
القللوس
محمد بن محمد بن إدريس بن مالك بن عبد الواحد ابن عبد الملك ابن محمد بن سعيد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الله القضاعي من أهل إسطبونة، يكنى أبا بكر، ويعرف بالقللوس.
حاله
كان رحمه الله إماماً في العربية والعروض والقوافي، موصوفاً بذلك، منسوباً إليه، يحفظ الكثير من كتاب سيبويه، ولايفارقه بياض يومه، شديد التعصب له، مع خفة وطيش يحمله على التوغل في ذلك. حدثني شيخنا أبو الحسن بن الجياب رحمه الله، قال، وقف أبو بكر القللوس يوماً على القاضي أبي عمرو بن الرندون، وكان شديد الوقار، مهيباً، وتكلم في مسألة من العربية، نقلها عن سيبويه، فقال القاضي أبو عمرو. أخطأ سيبويه. فأصاب أبا بكر القللوس قلق كاد يلبط به الأرض، ولم يقدر على جوابه بما يشفى به صدره لمكان رتبته، قال، فكان يدور بالمسجد، والدموع تنحدر على وجهه، وهو يقول أخطأ من خطاه، يكررها والقاضي أبو عمرو يتغافل عنه، ويزرى عليه. وكان مع ذلك. مشاركاً في فنون، من فقه وقراءات. وفرايض، من أعلام الحفاظ للغة، حجة في العروض والقوافي، يخطط بالقافي عند ذكره في الكتب. وله في ذلك العروض والقوافي، يخطط بالقافي عند ذكره في الكتب. وله في ذلك

تواليف بديعة. وولى الخطابة ببلده مدة، وقعد للتدريس به، وانثال عليه الناس وأخذوا عنه. ونسخ بيده الكثير وقيد، وكان بقطره علماً من أعلام الفضل والإيثار والمشاركة.

تواليفه

نظم رجزاً شهيراً في الفرايض علماً وعملاً، ونظم في العروض والقوافي وألف كتاب " الدرة المكنونة في محاسن إسطبونة " ، وألف تأليفاً حسناً في ترحيل يالشمس، وسوسطات الفجر، ومعرفة الأوقات، ونظم أرجوزة في شرح ملاحن ابن دريد، وأرجوزة في شرح كتاب " الفصيح " . ورفع للوزير ابن الحكيم كتاباً في الخواص وصنعة الأمدة والتطبع الشاب. غريباً في معناه.

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي الحسن بن أبي الربيع، ولازمه، وأخذ عنه. وعن أبي القاسم بن الحصار الضرير السبتي، وعلى الأستاذ أبي جعفر بن الزبير بغرناطة وغيرهم.

شعره

من شعره قوله من قصيدة يمدح ابن الحكيم:

علاه رياض أورقت بمحامد ... تنور بالجدوى وتثمر بالأمل

تسح عليها من نداه غمامة ... تروى ثرى المعروف بالعل والنيل

وهل هو إلا الشمس نفساً ورفعة ... فيغرب بالجدوى ويبعد بالأمل

تعم أياديه البرية كلها فدان ... وقاصٍ جود كفيه قد شمل

وهي طويلة. ونقلت من خط صاحبنا أبي الحسن النباهي. قال يمدح أبا عبد الله الرنداحي:

أطلع بأفق الراح كاس الراح ... وصل الزمان مساءه بصباح

خذها على رغم العذول مدامة ... تنفى الهموم وتأت بالأفراح

والأرض قد لبست برود أزاهر ... وتمنطقت من نهرها بوشاح

والجو إذ يبكي بدمع غمامة ... ضحك الربيع له بثغر أقاح

والروض مرقوم بوشى أزاهر ... والطير يفصح أيما إفصاح

والغصن من طرب يميل كأنما ... سقيت بكف الريح كأس الراح

والورد منتظم على أغصانه ... يبدو فتحسبه خدود ملاح

وكأن عرف الريح من زهر الربى ... عرف امتداح القايد الرنداح

وفاته

ببلده عصر يوم الجمعة الثامن عشر لرجب الفردسنة سبع وسبعماية

ابن أبي الجيش

محمد بن محمد بن محارب الصريحي من أهل مالقة. يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن أبي الجيش

حاله وأوليته

أصل سلفه من حصن يسر من عمل مرسية، من بيت حسب وأصالة، ولخؤولته بالجهة التاكرونية ثورة

وقفلت فيه في عايد الصلة: كان من صدور المقرين، وأعلام المتصدرين تفنناً واضطلاعاً، وإدراكاً، ونظراً. إماماً في الفرايض والحساب قايماً على العربية، مشاركاً في الفقه والأصول، وكثير من العلوم العقلية. قعد للإقراء بمالقة،

وخطب بجامع الربض.

مشيخته

قرأ على الأستاذ القاضي المتفنن أبي عبد الله بن بكر، ولازمه. ثم ساء مابينهما في مسألة وقعت بمالقة، وهي تجويز الخلف في وعد الله، شنع فيها على شيخنا المذكور، ونسبه إلى أن قال، وعد الله ليس بلازم الصدق، بل يجوز فيه الخلف، إذ الأشياء في حقه متساوية، وكتب في ذلك أسئلة للعلماء بالمغرب، فقاطعه وهجره. ولما ولى القاضي أبو عبد الله بن بكر القضاء، خافه، فوجه عنه إثر ولايته، فلم يشك في الشر، فلما دخل عليه، رحب به، وأظهر له القبول عليه، والعفو عنه، واستانف مودته، فكانت تعد في مآثر يالقاضي رحمه الله ورحل المذكور إلى سبتة، فقرأ بها على الأستاذ أبي إسحق الغافقي، ومن عاصره، ثم عاد إلى مالقة، فالتزم التدريس بها إلى حين وفاته.

دخوله غرناطة

دخل غرناطة مرات، متعلماًن وطالب حاج. ودعى إلى الإقراء بمدارستها النصرية، عام تسعة وأربعين وسبع ماية، فقدم على الباب السلطاني، واعتذر بما قبل فيه عذره. وكان قد شرع في تقييد مفيد على كتاب التسهيل لابن مالك. في غاية النبل والاستيفاء والحصر والتوجيه، عاقته المنية عن إتمامه.

وفاته: توفي بمالقة في كاينة الطاعون الأعظم في أخريات ربيع الآخر من عام خمسين وسبعماية، بعد أن تصدق بمال كثير، وعهد بريع مجد لطلبة العلم، وحبس عليهم كتبه.

ابن لب

محمد بن محمد بن لبي الكناني من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن لب

حاله

كان ذاكراً للعلوم القديمة. معتنياً بها. عاكفاً عليها، متقدماً في علمها على أهل وقته، لم يكن يشاركه أحد في معرفتها، من الرياضيات والطبيعيات والإلآهيات، ذاكراً لمذاهب القدماء، ومآخذهم في ذلك حافظاً جداً، ذاكراً لمذاهب المتكلمين، من الأشعرية وغيرهم، إلا أنه يوثر ماغلب عليه من مآخذ خصومهم، وكان نفوذه في فهمه، دون نفوذه في حفظه، فكان معتمده على حفظه في إيراده ومناظرته، وكان ذاكراً مع ذلك لأصول الفقه وفروعه، عجباً في ذلك، إذا وردت مسألة، أورد ماللناس فيها من المذاهب. وعزم عليه آخر عمره، فقعد بجامع مالقة، يتكلم على الموطا، وما كان من قبل تهيأ لذلك، إلا أنه ستر عليه حفظه، وتعظم أهل بلده له. قال ابن الزبير، وكانت فيه لوثة، واخشيشان، وكان له أرب في التطواف، وخصوصاً بأرض النصارى، يتكلم مع الأساقفة في الدين، فيظهر عليهم، وكانت أموره غريبة، من امتزاج اليقظة بالغفلة، وخلط السذاجة بالدعابة. يحكى عنه أنه كانت له شجرة تين بداره بمالقة، فباع ما عليها من أحد أهل السوق، فلما هم بجمعها، ذهب ليمهد للتين بالورق في الوعاء، فمنعه من ذلك، وقال له إنما اشتريت التين، ولم تدخل الورق في البيع، فتعب ذلك المشترى ما شاء الله، وجلب ورقاً من غيرها، حتى انقضى الأمر، وعزم على معاملته في السنة الثانية، فأول مااشترط الورق، فرغ من الغلة، دعاه فقال له، احمل ورقك، فإنه يوذيني، فأصابه من المشقة في جمعه من أطراف الغصون مالم يكن يحستب، ولم تات السنة الثالثة، إلا وللرجل فقيه، اشترط مقدار الكفاية من الورق، فسامحه ورفق به.

دخل غرناطة وغيرها، وأخباره عجيبة. قال أبو جعفر بن الزبير: عرض لي بمالقة مسايل، يرجع بعضها إلى الطريقة البيانية، والمآخذ الأدبية، وضحت ضرورة إلى الأخذ معه فيها، وفي آيات من الكتاب العزيز، فاستدعيته إلى منزلي، وكان فيه تخلق، وحسن ملاقاة. مع خفته الطبيعية وتشتت منازعه، فأجاب، وأخذت معه في ذلك، فألفيته صايماً عن

ذلك جملة.

وصمته

قال، وكان القاضي الجليل، أبو القاسم بن ربيع، وأخوه أبو الحسن ينافرانه على الإطلاق، ويحذران منه، وهو كان الظاهر من حاله. قال، واستدعاني في مرض اشتد به، قبل خروجي من مالقة على انفراد، فتتصل لي مما كان يذن به، وأكثر البكاء، حتى رثيت له.

وفاته: توفي بمالقة، ووصى قبل موته بوصايا من ماله. في صدقات وأشباهها، وحبس داره وطايفة من كتبه على الجامع الكبير بمالقة.

محمد بن محمد البدوي

الخطيب بالربض من بلش، يكنى أبا عبد الله.

حاله

من العايد: كان رحمه الله حسن التلاوة لكتاب الله، ذا قدمٍ في الفقه، له معرفة بالأصلين، شاعراً مجيداً، بصيراً، بليغاً في خطبته، حسن الوعظ، سريع الدمعة. حج ولقى جلة. وأقرأ ببلش زماناً، وانتفع به، ولقى شدايد، أثلها الحسد.

مشيخته

قرأ العلم على الشيخين المقريين، الحجتين، أبي جعفر بن الزيات، وأبي عبد الله بن الكماد، وقرأ العربية والأصلين، على الأستاذ أبي عمرو ابن منظور، ولازمه وانتفع به، وقرأ الفقه على الشيخ القاضي أبي عبد الله ابن عبد السلام بمدينة تونس.

شعره

من شعره قوله في غرض النسيب:

خال على خدك أم عنبر ... ولؤلؤ ثغرك أم جوهر

أوريت نار الوجد طي الحشا ... فصارت النار به تسعر

لو جدت لي منك برشف اللما ... لقلت خمر عسل سكر

دعني في الحب أذب حسرة ... سفك دم العاشق لا ينكر

وقال:

عيناي تفهم من عينيك أسرارا ... وورد خدك يذكي في الحشا نارا

ملكت قلب محب فيك مكتيب ... قد أثر الدمع في خديه آثارا

رضاب ثغرك يروي حر غلته ... يا ليت نفسي تقضي منه أوطارا

أنعم بطيف منك ألمحه ... مإذا عليك بطيف منك لو زارا

نفسي فداؤك من ظبي به كلف ... يصبو له القلب مضطراً ومختارا

وقال:

أيها الظبي ترفق ... بكيب قد هلك

ألذنب تتجنى ... أم لشيء يوصلك

إن روحي لك ملك ... وكذا قلبي لك

إنما أنت هلال ... فلك القلب فلك

ومن مجموع نظمه ونثره ما خاطبني به، وقد طلبت من أدبه لبعض ما صدر عني من المجموعات: يا سيدي أبقاك الله بهجة للأعيان الفضلاء، وحجة لأعلام العلاء، ولا زلت تسير فوق النسر، وتجري في الفضايل على كرم النجر. ذكر لي فلان أنكم أردتم أن يرد على كمالكم، بعض الهذيان، الصادر عن معظم جلالكم، فأكبرت ذلك، ورأيتني لست هنالك، وعجبت أن ينظم مع الدر السبج، أو يضارع العمش الدعج، بيد أن لنظم الدر صناع، والحديث قد يذاع، ولا يضاع، وحين اعتذرت له فلم يعذرني، وانتظرته فلم ينظرني، بعد أن استعفيته فأبى، واستنهضت جواد الإجابة فكبى، وسلك غير طريقي، ولم يبلغني ريقي، وفيت الغرض، وقضيت من إجابته الحق المفترض، ورددت عن تعذاله النصيح، وأثبت هنا ما معناه صحيح، ولفظه غير فصيح:

بريت من حولي ومن قوتي ... بحول من لا حول إلا له

وثقت بالخالق فهو الذي ... يدبر العبد وأفعاله

وقلت بالحرم عند الملتزم من المنظوم في مثل ذلك:

أمولاي بالباب ذو فاقة ... وهذا يحط خطايا الأمم

فجد لي بعفوك عن زلتي ... يجود الكريم بقدر الكرم

ومما أعددته للوفادة على خير من عقدت عليه ألوية السيادة:

حمدت إليك مع الصباح سراها ... وأتتك تطلب من نداك قراها

وسرت إليك مع النسيم يمينها ... شوقاً في السرى يسراها

ولولا العجر لوصلت، والعذر لأطلت، لكن ثنيت عناني لثايك، لحسن اعتنايك، وقلت معتذراً من الصورة لمجدكم، وتالياً سورة حمدكم:

المجد تخبر عن صدق مآثره ... وناظم المجد في العلياء ناثره

والجود إن جد جد المرء ينجده ... وقلما ثم في الأيام ذاكره

من نال ما نلت من مجد ومن شرف ... فليس في الناس شخص يناظره

يا سيداً طاب في العلياء محتده ... ماجداً رسخت فيه أواصره

سريت في الفضل مستناً على ... سنن في الفضل مآربه حقاً وسامره

ورثته عن كبير أوحد علم ... كذاك يحمله أيضاً أكابره

مبارك الوجه وضاح الجبين له ... نور ينير أغر النور باهره

موفق بكفيل من عنايته مرفع ... العذر سامي الذكر طاهره

رعيت في الفضل حق الفضل مجتهداً مفهوم مجدك هذا الحكم ظاهره

علوت كالشمس إشراقاً ومنزلة ... فأنت كالغيث يحيى الأرض ماطره

ينم بالفضل منك الفضل مشتهرا ... كما ينم بزهر الروض عاطره

دم وابق للمجد كهفاً والعلا وزراً ... فإنما المجد شخص أنت ناظره

مؤملاً منك خيراً أنت صانعه ... وصانع الخير عند الله شاكره

وما وليت وما أوليت من حسن ... فللناس والعالم العلوي ذاكره

بقيت تكسب من والاك مكرمة ... وناصراً أبداً من قل ناصره

عذراً لك الفضل عما جيت من خطإ ... أن يخط مثلي يوماً أنت عاذره
ثم السلام على علياك من رجل ... تهدى الذي يخفى ضمايره
دخوله غرناطة: دخلها غير ما مرة، ولقيته بها لتقضي بعض أغراض بباب السلطان، مما يليق بمثله.
مولده: . . . . . .
وفاته: توفي ببلش في أخريات عام خمسين وسبعماية.
ابن عبد الله العبدري

محمد بن عبد الله بن ميمون بن إدريس بن محمد ابن عبد الله العبدري قرطبي، استوطن مدينة مراكش، يكنى أبا بكر.
حاله
كان عالماً بالقراءات، ذاكراً للتفسير، حافظاً للفقه واللغات والأدب، شاعراً محسناً، كاتباً بليغاً، مبرزاً في النحو، جميل العشرة، حسن الخلق، متواضعاً، فكه المحاضرة، مليح المداعبة. وصنف في غير ما فن من العلم وكلامه كثير مدون، نظماً ونثراً.
مشيخته
روى عن أبي بكر بن العربي، وأبي الحسن شريح، وعبد الرحمن ابن بقي، وابن الباذش، ويونس بن مغيث، وأبي عبد الله بن الحاج، وأبي محمد بن عتاب، وأبي الوليد بن رشد، ولازمه عشرين سنة. قرأ عليهم وسمع، وأجازوا له، وسمع أبا بحر الأسدي، وأبوي بكر عياش ابن عبد الملك، وابن أبي ركب، وأبا جعفر بن سانجة، وأبا الحسن عبد الجليل، وأبا عبد الله بن خلف الأيسري، وابن المناصف، وابن أخت غانم، ولم يذكر أنهم أجازوا له، وروى أيضاً عن أبوي عبد الله مكي، وابن المعمر، وأبي الوليد بن طريف.
من روى عنه: روى عنه أبو البقاء بعيش بن القديم، وأبو الحسن ابن مؤمن، وأبو زكريا المرجيعي، وأبو يحيى أبو بكر الضرير واختص به.
تواليفه
من مصنفاته مشاحذ الأفكار في مآخذ النظار وشرحاه الكبير والصغير على جمل الزجاجي، وشرح أبيات الإيضاح العضدي، ومقامات الحريري، وشرح معشراته الغزلية، ومكفراته الزهدية، إلى غير ذلك، وهما مما أبان عن وفور علمه، وغزارة مادته، واتساع معارفه، وحسن تصرفه.
دخل غرناطة راوياً عن الحسن بن الباذش ومثله.
محنته
كان يحضر مجلس عبد المؤمن مع أكابر من يحضره من العلماء، فيشف على أكثرهم بما كان لديه من التحقيق بالمعارف، إلى أن أنشد أبا محمد عبد المؤمن أبياتاً كان نظمها في أبي القاسم عبد المنعم بن محمد ابن تست وهي:
أبا قاسم والهوى جنة ... وها أنا من مسها لم أفق
تقحمت جامح نار الضلوع ... كما خضت بحر دموع الحدق
أكنت الخليل أكنت الكليم ... أمنت الحريق أمنت الغرق
فهجره عبد المؤمن، ومنعه من الحضور بمجلسه، وصرف بنيه عن القراءة عليه، وسرى ذلك في أكثر من كان يقرأ

عليه، ويتردد إليه. على أنه كان في الطبقة العليا من الطهارة والعفاف.

شعره

قال في أبي القاسم المذكور، وكان أزرق، وقد دخل عليه ومعه أبو عبد الله محمد بن أحمد الشاطبي، وأبو عثمان سعيد بن قوسرة. فقال ابن قوسرة:

عابوه بالزرق الذي يجفونه ... والماء أزرق والعينان كذلك

فقال أبو عبد الله الشاطبي:

الماء يهدي للنفوس حياتها ... والرمح يشرع للمنون مسالكا

فقال أبو بكر بن ميمون المترجم به:

وكذلك في أجفانه سبب الردى ... ولاكن أرى طيب الحياة هنالكا

ومما استفاض من شعره قوله في زمن الصبا عفا الله عنه:

لا تكثرت بفراق أوطان الصبا ... فعسى تنال بغيرهن سعودا

والدر ينظم عند فقد بحاره ... بجميل أجياد الحسان عقودا

ومن مشهور شعره:

توسلت يا ربي بأني مؤمن ... وما قلت أني سامع ومطيع

أيصلى بحر النار عاص موحد ... وأنت كريم والرسول شفيع

وقال في مرضه:

أيرتجى العيش من عليه ... دلائل للردى جلية

أولها مخبر بثان ... ذاك أمان وذا منية

وفاته: توفي بمراكش يوم الثلاثاء اثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة سبع وستين وخمسماية، ودفن بمقبرة تاغزوت داخل مراكش، وقد قارب السبعين سنة.

محمد بن أرقم النميري

محمد بن عبد الله بن عبد العظيم بن أرقم النميري من أهل وادي آش، يكنى أبا عامر.

حاله

كان أحد شيوخ بلده وطلبته، مشاركاً في فنون، من فقه وأدب وعربية، وهي أغلب الفنون عليه، مطرح السمت، مخشوشن الزي، قليل المبالاة بنفسه، مختصراً في كافة شيونه، مليح الدعابة، شديد الحمل، كثير التواضع، وبيته معمور بالعلماء أولي الأصالة والتعين تصدر ببلده للفتيا والتدريس والإسماع.

مشيخته

قرأ على الأستاذ القاضي أبي خالد بن أرقم، والأستاذ أبي العباس ابن عبد النور. وروى عن أبيه مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن الوزير العالم أبي عبد الله بن ربيع، والقاضي أبي جعفر بن مسعدة، والأستاذ أبي جعفر بن الزبير، وولي الله الحسن بن فضيلة.

ورحل إلى العدوة، فأخذ بسبتة عن الأستاذ أبي بكر بن عبيدة، والإمام الزاهد أبي عبد الله بن حريث، وأبي عبد الله

بن الخضار، وأبي القاسم بن الشاط، وغيرهم.

شعره

وهو من الجزء المسمى بشعر من لا شعر له والحمد لله. فمن ذلك قوله يمدح أبا زكريا العزفي بسبتة، ويذكر ظفره بالأسطول من قصيدة أولها:

أما الوصال فإنه كالعيد ... عذر المتيم واضح في الغد

وفاته: توفي ببلده عام أربعين وسبعماية. ودخل غرناطة، راوياً ومتعلماً، وغير ذلك.

محمد بن الجد الفهري

محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فرج بن الجد الفهري الحافظ الجليل يكنى أبا بكر، جليل إشبيلية، وزعيم وقته في الحفظ. لبلي الأصل، إشبيلي، استدعاه السيد أبو سعيد والي غرناطة، فأقام بها عنده، في جملة من الفضلاء مثله سنين. ذكر ذلك صاحب كتاب ثورة المريدين.

حاله

كان في حفظ الفقه بحراً يغرف من محيط. يقال إنه ما طالع شيئاً من الكتب فنسيه، إلى الجلالة والأصالة، وبعد الصيت، واشتهار المحل. وكان مع هذا يتكلم عند الملوك، ويخطب بين يديها، ويأتي بعجاب، وفي كتاب الإعلام شيء من خبره، قال ابن الزبير.

مشيخته

روى عن أبي الحسن بن الأخضر، أخذ عنه كتاب سيبويه وغيره ذلك، وعن أبي محمد بن عتاب، وسمع عليه بعض الموطأ، وعن أبي بحر الأسدي، وأبي الوليد بن طريف، وأبي القاسم بن منظور القاضي، وسمع عليه صحيح البخاري كله، وشريح بن محمد، وأبي الوليد بن رشد، وناوله كتاب البيان والتحصيل. وكتاب المقدمات. لقي هؤلاء كلهم، وأجازوا له عامة. وأخذ أيضاً عن مالك بن وهيب.

من حدث عنه

أبو الحسن بن زرقون، وأبو محمد القرطبي الحافظ، وإبنا حوط الله، وغيرهم. وعليه من ختمت به المائة السادسة كأبي محمد بن جمهور، وأبي العباس بن خليل وإخوته الثلاثة أبي محمد عبد الله، وأبي زيد عبد الرحمن، وأبي محمد عبد الحق. قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: حدثني عنه ابن خليل وأبو القاسم الجياني، وأبو الحسن بن السراج.

مولده: بلبلة في ربيع الأول سنة ست وثمانين وخمسماية. ذكره ابن الملجوم، وأبو الربيع بن سالم، وابن فرتون.

ابن أحمد بن الفخار الجذامي

محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن محمد ابن أحمد بن الفخار الجذامي يكنى أبا بكر، أركشي المولد المنشأ، مالقي الاستيطان، شريشي التدرب والقراءة.

حاله

من عايد الصلة: كان رحمه الله خيراً صالحاً، شديد الانقباض، مغرقاً في باب الورع، سليم الباطن، كثير العكوف على العلم والملازمة، قليل الرياء والتصنع. خرج من بلده أركش عند استيلاء العدو على قصبتها، وكان يصفها، وينشد فيها من شعر أستاذه الأديب أبي الحسن الكرماني:

أكرم بأركش دارا ... تاهت على البدر قدرا

يخاطب المجد عنها ... لقلب تدنى شكرا

واستوطن مدينة شريش، وقرأ بها، وروى بها عن علمائها، واقرأ بها. ولما استولى العدو عليها لحق بالجزيرة الخضراء، فدرس بها، ثم عبر البحر إلى سبتة. فقرأ بها وروى. ثم كر إلى الأندلس، فقصد غرناطة، وأخذ عن أهلها. ثم استوطن مالقة، وتصدر للإقراء بها، مفيد التعليم، متفننه، من فقه وعربية وقراءات وأدب وحديث، عظيم الصبر، مستغرق الوقت، يدرس من لدن صلاة الصبح إلى الزوال. ثم يسند ظهره إلى طاق المسجد بعد ذلك، فيقرى، وتأتيه النساء من خلفه للفتيا، فيفتيهن عل حال سؤالا تهن إلى نصف ما بين العصر والعشاء الأولى. ثم يأتي المسجد الأعظم بعد الغروب، فيقعد للفتيا إلى العشاء الآخرة، من غير أن يقبل من أحد شيئاً. ومن أخذ منه بعد تحكيم الورع، أثابه بمثله. ما رئي في وقته أورع منه. وكان يتخذ رومية مملوكة، لا يشتمل منزله على سواها، فإذا أنس منها الضجر للحصر وتمادى الحجاب، أعتقها، وأصحبها إلى أرضها. ونشأت بينه وبين فقهاء بلده خصومة في أمور عدوها عليه، مما ارتكبها لاجتهاده في مناط الفتوى، وعقد لهم أمير المسلمين بالأندلس، مجلساً، أجلى عن ظهوره فيه، وبقاء رسمه، فكانت محنة، وخلصه الله منها. وبلغ من تعظيم الناس إياه، وانحياشهم إليه مبلغاً لم ينله مثله، وانتفع بتعليمه، واستفيد منه الأدب، على نسكه وسذاجته.

مشيخته

قرأ ببلده شريش على المكتب الحاج أبي محمد عبد الله بن أبي بكر ابن داود القيسي، وعلى الأستاذ أبي بكر محمد بن الرباح، وعلى الأستاذ أبي الحسن علي بن إبراهيم بن حكيم السكوني الكرماني. أخذ عنه العربية والأدب، وعلى الحافظ أبي الحسن علي بن عيسى المعروف بابن متيوان، وعلى الأصولي الكاتب أبي الحسن هلال بن أبي سنان الأزدي المراكشي، وعلى الخطيب أبي العرب إسمعيل بن إبراهيم الأنصاري، وعلى الفقيه أبي عبد الله الجنيدي المعروف بالغراق؛ وعلى الفقيه العددي أبي عبد الله محمد بن علي بن يوسف المعروف بابن الكاتب المكناسي. وقرأ بالجزيرة الخضراء على الخطيب الصالح أبي محمد الركبي، وروى عنه، وقرأ بها على الخطيب أبي عبيد الله بن خميس، وعلى الأصولي أبي أمية. وقرأ بسبتة على الأستاذ الفرضي إمام النحاة أبي الحسن بن أبي الربيع، وعلى أبي يعقوب المجساني، وعلى المحدث أبي عمرو عثمان بن عبد الله العبدري، وعلى الفقيه المالكي الحافظ أبي الحسن المتيوي، والأصولي أبي الحسن البصري، والفقيه المعمر الراوية أبي عبد الله محمد الأزدي، والمحدث الحافظ أبي محمد بن الكماد، وعلى الأستاذ العروضي الكفيف أبي الحسن بن الخضار التلمساني. ولقي بغرناطة قاضي الجماعة أبا القاسم ابن أبي عامر بن ربيع، والأستاذ أبا جعفر الطباع، وأبا الوليد إسمعيل ابن عيسى بن أبي الوليد الأزدي، والأستاذ أبا الحسن بن الصايغ. ولقي بمالقة الخطيب الصالح أبا محمد عبد العظيم بن الشيخ، والراوية أبا عبد الله محمد بن علي بن الحسن الجذامي السهيلي. وسمع على الراوية أبي عمرو ابن حوط الله، وعلى الأستاذ أبي عبد الله بن عباس القرطبي.

تواليفه

كان رحمه الله مغري بالتأليف، فألف نحو الثلاثين تأليفاً في فنون مختلفة، منها كتاب تحبير نظم الجمان في تفسير أم القرآن، و " انتفاع الطلبة النبهاء في اجتماع السبعة القراء " . و " الأحاديث الأربعون بما ينتفع به القارئون والسامعون " ، وكتاب " منظوم الدرر في شرح كتاب المختصر " و " كتاب نصح المقالة في شرح الرسالة " ، وكتاب " الجواب المختصر المروم في تحريم سكنى المسلمين ببلاد الروم " ، وكتاب " استواء النهج في تحريم اللعب بالشطرنج " ، وكتاب " جواب البيان على مصارمة أهل الزمان " ، وكتاب تفضيل صلاة الصبح للجماعة في آخر الوقت المختار على صلاة الصبح للمنفرد في أول وقتها بالابتجدار " ، وكتاب " إرشاد السالك في بيان إسناد زياد

عن مالك " ، وكتاب " الجوابات المجتمعة عن السؤالات المنوعة " ، وكتاب " إملا فوايد اللول في ابتداء مقاصد الجمل " وكتاب " منهج الضوابط المقسمة في شرح قوانين المقدمة " ، وكتاب " التكملة والتبرية في إعراب البسملة والتصلية " ، وكتاب " سح مزنة الانتخاب في شرح خطبة الكتاب " . ومنها اللايح المعتمد عليه في الرد على من رفع الخبر بلا إلى سيبويه، وغير ذلك من مجيد ومقصر.

شعره

وشعره كثير، غريب النزعة، دال على السذاجة، وعدم الاسترابة والشعور، والغفلة المعربة عن السلامة، من ارتكاب الحوشى، واقتحام الضرار، واسعمال الألفاظ المشتركة التي تتشبث بها أطراف الملاحين والمعاريض، ولع كثير من أهل زمانه بالرد عليه، والتملح بما يصدر عنه، منهم القاضي أبو عبد الله بن عبد الملك.

ومن منتخب شعره قوله:

أنظر إلى ورد الرياض كأنه ... ديباج خد في بنان زبرجد

قد فتحته نضارة فبدا له ... في القلب رونق صفرةٍ كالعسجد

حكت الجوانب خدحب ناعم ... والقلب يحكى خد صب مكمد

حدث الفقيه العدل أبو جعفر أحمد بن مفضل المالقى، قال، قال لي يوماً الشيخ الأستاذ أبو بكر بن الفخار، خرجت ذات يوم وأنا شاب من حلقة الأستاذ بشريش، أعادها الله للإسلام، في جملة من الطلبة، وكان يقابل باب المسجد حانوت سراج، وإذا فتى وسيم في الحانوت يرقم جلداً كان في يده، فقالوا لي لاتجاوز هذا الباب، حتى تصنع لنا شعراً في هذا الفتى. فقلت:

ورب معذر للحب داع ... يروق بماء منظره البهيج

وشى في وجنتيه وشياً ... كوشى يديه في أدم السروج

مولده

بحصن أركش بلده، وكان لا خبر به، في ما بين الثلاثين والأربعين وست ماية.

وفاته

توفي بمالقة في عام ثلاثة وعشرين وسبعماية، وكانت جنازته بمالقة مشهورة

ابن العربي

محمد بن علي بن عمر بن يحيى بن العربي الغساني من أهل الحمة من عمل المرية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن العربي وينتمي في بني أسود من أعيانها.

حاله

من العايد: كان رحمه الله من أهل العلم والدين والفضل، طلق الوجه، حسن السير، كثير الحياء، كأنك إذا كلمته تخاطب البكر العذراء، لا تلقاه إلا مبتسماً، في حسن سمت، وفضل هوىً، وجميل وقار، كثير الخشوع، وخصوصاً عند الدهول في الصلاة، تلوح عليه بذلك، عند تلاوته سيمى الحضور، وحلاوة الإقبال. وكان له تحقق بضبط القراءات، والقيام عليها، وعناية بعلم العربية، مع مشاركة في غير ذلك من الفنون السنية، والعلوم الدينية. انتصب للإقراء والتدريس بالحمة المذكورة، فقرب النجعة على أهل الحصون والقرى الشرقية، فصار مجتمعاً لأرباب الطلب من أهل تلك الجهات ومرتفقاتهم. وكان رجلاً صالحاً، مبارك النية، حسن التعليم، نفع الله به من هنالك، وتخرج

على يديه جمع وافر من الطلبة، عمرت بهم ساير الحصون. وكان له منزل رحب للقاصدين، ومنتدى عذب للواردين. تجول في آخرة بالأندلس والعدوة، وأخذ عمن لقى بها من العلماء، وأقام مدة بسبتة، مكباً على قراءة القرآن والعربية. وبعد عوده من تجواله لزم التصدر للإقراء بحيث ذكر، وقد كانت الحواضر فقيرة لمثله، غير آنه آثر الوطن، واختار الاقتصارد.

؟

مشيخته

أخذ بألمرية عن شيخها أبي الحسن بن أبي العيش، وبغرناطة عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، والعدل أبي الحسن بن مستقور. وببلش عن الأستاذ أبي عبد الله بن الكماد، والخطيب أبي جعفر بن الزيات. وبمالقة عن الأستاذ أبي عبد الله بن الفخار، والشيخ أبي عبد الله محمد بن يحيى بن ربيع الأشعري. وبالجزيرة عن خطيبها أبي العباس بن خميس. وبسبتة عن الأستاذ أبي إسحق العافقي، والخطيب أبي عبد الله بن رشيد، والإمام الصالح أبي عبد الله محمد بن محمد بن حريث، والقاضي أبي عبد الله القرطبي، والزاهد أبي عبد الله بن معلى، الشيخ الخطيب أبي عبد الله العغماري. وبمكناسة عن القاضي واريَاش. وبفاس من الحاج الخطيب أبي الربيع سليمان بن مفتاح اللجاي، والأستاذ أبي الحسن بن سليمان، والأستاذ أبي عبد الله بن أجروم الصنهاجي، والحاج أبي القاسم بن رجا ابن محمد بن علي وغيرهم، وكل من ذكر أجازله عامة، ألا قاضي مكناسة أبي عبد الله محمد بن علي الكلبي الشهير بواريَاش.

مولده: في أول عام اثنين وثمانين وستماية وفاته: توفي بالحمة ليلة الإثنين الثامن عشر لشهر محرم عام ثمانية وأربعين وسبعماية.

اليتيم

محمد بن علي بن محمد العبدري من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف باليتيم

حاله

كان رحمه الله أحد الظرفاء من أهل بلده، مليح الشكل، حسن الشيبة، لوذعياً في وقار، رشيق النظم والنثر، غزلا مع الصون، كثير الدعابة من غير إفحاش، غزير الأدب، حسن الصوت، رايق الخطبن بديع الوراقة، معسول الألفاظ، ممتع المجالسة، طيب العشرة. أدب الصبيان مدة، وعقد الشروط أخرى، وكان يقرأ كتب الحيدث والتفسير والرقايق للعامة بالمسجد الأعظم، بأعذب نغمة، وأمثل طريقة، مذ أزيد من ثلاثين سنة، لم يخل منها وقتاً إلا ليلتين، إحداهما بسبب امتساكناب به في نزهة برياض بعض الطلبة. لم يخلف مثله بعده. وخطب بقصبه مالقة، ومال أخيراً إلى نظر الطب، فكان الناس يميلون اليه، وينتفعون به لسياغ مشاركته، وعموم انقياده، وبره، وعمله على التودد والتجمل.

وجرى ذكره في " التاج المحلى " بما نصه: مجموع أدوات حسان، من خط ونغمة ولسان، أوراقه روض تضوع نسماته، وبشره صبح تتألق قسماته، ولايخفى سماته. يقرطس أغراض الدعابة ويصميها، ويفوق سهام الفكاهة إلى مراميها، فكلما صدرت في عصره قصيدة هازلة، أو أبيات منحطة عن الإجادة نازلة، خمس أبياتها وذيلها، وصرف معانيها وسهلها، وتركها سمر الندمان، وأضحوكة الزمان. وهو الآن خطيب المسجد الأعلى من مالقة، متحل بوقار وسكينة، حال من أهلها بمكانةٍ مكينة، لسهولة جانبه، واتضاح مقاصده في الخير ومذاهبه. ، واشتغل لأول أمره

بالتعليم والتكتيب، وبلغ الغاية في الوقار والترتيب، وللشباب لم ينصل خضابه، ولا شلت للمشيب عضابه، ونفسه بالمحاسن كلفة، وشأنه كله هوى ومحبة، ولذلك ماخاطبه به بعض أودايه، وكلاهما رمى أهله بدايه، حسبما يأتي خلال هذا المقول وفي أثنايه بحول الله.

شعره

كتبت إليه أسأل منه ماأثبت في كتاب " التاج " من شعره، فكتب إلى:

أما العرام فلم أخلل بمذهبه ... فلم حرمت فؤادي نيل مطلبه

يامعرضاً عن فؤادٍ لم يزل كلفاً ... بحبه ذا حذار من تجنبه

قطعت عنه الذي عودته فغدا ... وحظه من رضاه برق خلبه

أيام وصلك مبذول وبرك بي ... مجدد قد صفا لي عذب مشربه

وسمع ودك عن إفك العواذل في ... شغلٍ وبدر الدجى ناسٍ لمغربه

ألأنت تمنعني نيل الرضا كرماً ... ولا فؤادي بوانٍ ف يتطلبه

لله عرفك ماأذكى تنسمه ... لو كنت تمنحني استشاق طيبه

أنت الحبيب الذي لم أتخذ بدلاً ... منه وحاش لقلبي من تقلبه

يا ابن الخطيب الذي قد فقت كل سناً ... أزال عن ناظري إظلام غيهبه

محمد الحسن في خلقٍ وفي خلق ... كملت باسمك معنى الحسن فازه به

نأيت أو غبت مالي عن هواك غنى ... لانيقص البدر حسناً في بتغيبه

سيان حال التداني والبعاد وهل ... لمبصر البدر نيل في ترقبه

يامن أحسن ظنى في رضاه وما ... ينفك يبدى قبيحاً من تغضبه

إن كان ذنبي الهوى فالقلب مني ... لايصغى لسمع ملامٍ من مؤنبه

فأجبته بهذه الرسالة، وهي ظريفة في معناها:

" ياسيدي، الذي إذا رفعت راية ثنايه تلقيتها باليدين، وإذا قسمت سهام وداده على ذوي اعتقاده، كنت صاحب الفريضة والدين، دام بقاؤك لطرفةٍ تبديها، وغريبةٍ تردفها، بأخرى تليها، وعقيلة بيان تحليها ونفس أخذ الحزن بكظمها، وكلف الدهر بشت نظمها، تونسها وتسليها، لم أزل أعزك الله، أشد على بدايعها بد الضنين، وأقتنى درر كلامك، ونفثات أقلامك، اقتناء الدر الثمين، والأيام بلقياك تعد ولا تسعد، وفي هذه الأيام انثالت على سماؤك بعد قحط، وتوالت على آلاوك على شحط، وزارتني من عقايل بيانك كل فاتنة الطرف، عاطرة العرف، رافلةٍ في حلل البيان والظرف، لو ضربت بيوتها بالحجار، لأقرت لنا العرب العاربة بالإعجاز، ماشيت من رصف المبنى، ومطاوعة اللفظ لغرض المعنى، وطيب الأسلوب، والتشبث بالقلوب. غير أن سيدى أفرط في التنزل، وخلط المخاطبة بالتغزل، وراجع الالتفات، ورام استدراك مافات. يرحم الله شاعر المعرة، فلقد أجاد في قوله، وأمكر مناجاةً للشوق، بعد انصرام حوله فقال:

أبعد حولٍ تناجي للشوق ناجية ... هلا ونحن على عشر من العشر

وقد تجاوزت في الأمل، وأنسيت أخبار صاحبك عبد الصمد، فأقسم بألفات القدود، وهمزات الجفون السود، وحاملى الأرواح مع الألواح، بالغدو والرواح، لولا بعد مزارك، ماأمنت غايلة ماتحت إزارك ثم إني حققت الغرض،

وبحثت عن المشكل الذي عرض، فقلت للخواطر انتقال، ولكل مقام مقال، وتختلف الحوايج باختلاف الأوقات، ثم رفع اللبس خبر الثقات.

ومنها: وتعرفت ما كان من مراجعة سيدي لحرفة التكتيب والتعليم، والحنين إلى العهد القديم، فسررت باستقامة حاله، وفضل ماله، وإن لاحظ الملاحظ ماقال الجاحظ، فاعتراض لا يرد، وقياس لا يضطرد، جبذا والله عيش أهل التاديب، فلا بالضنك ولا بالجديب، معاهدة الإحسان.

ومشاهدة الصور الحسان، يميناً إن المعلمين لسادة المسلمين، وإني لأنظر منهم، كلما خطرت على المكاتب، أمراً فوق المراتب، من كل مسيطرالدرة، متقطب الأسرة، متنمر للوارد تنمر الهرة، يغدو إلى مكتبه، والأمير ف يموكبه، حتى إذا استقل في فرشه، واستولى على عرشه، وترنم بتلاوة قانونه وورشه، أطهر للخلق احتقاراً، وأندى بالجبال وقاراً، ورفعت إليه الخصوم، ووقف بين يديه الظالم والظلوم، فتقول كسرى في إيوانه، والرشيد في زمانه، والحجاج بين أعوانه. وإذا استولى على البدر السرار، وتبين للشهر القرار، وتحرك إلى الخوج، تحرك القرد إلى القرج. أستغفر الله مما يشق على سيدي سماعه، وتشمئز من ذكراه طباعه، شيم اللسان، خلط الإساءة بالإحسان، والغفلة من صفات الإنسان.

فأي عيش هذا العيش، وكيف حال أمير هذا الجيش، طاعة معروقة، ووجوه إليه مصروفة، فإن أشار بالإنصات، تتحقق الفصات، فكأنما طمس الأفواه، ولام بين الشفاه. وإنه أمر بالإفصاح، وتلاوة الألواح، علا الضجيج والعجيج، وحف به كما حف بالبيت الحجيج. وكم بين ذلك من رشوة تدمن، وغمزة لاتحس، ووعد يستجز، وحاجةٍ تستعجل وتحفز. هنا الله سيدي ماخوله، وأنساه بطيب آخره أوله. وقد بعثت بدعابتي هذه مع إجلال قدره، والثقة بسعة صدره، فليتلقها بيمينه، ويفسح لها في المرتبة بينه وبين خدينه، ويفرغ لمراجعتها وقتاً من أوقاته، بمقتضى دينه، وفضل يقينه، والسلام.

ومن شعره ما كتب به إلى:

آيات حسنك حج للقال ... في الحب قايمة على العذال
يا من سبا طوعاً عقول ذوي النهى ... ببلاغةٍ قد أيدت بجمال
يستعبد الأبصار والأسماع ما ... يجلو ويتلو من سنى مقال
وعليك أهواء النفوس بأسرها ... وقفت فطيرك لا يمر ببال
رفعت لريه في البلاغة راية ... لما احتللت بها وحيد كمال
وغدت تباهي منك بالبدر الذي ... تعنو البدور لنوره المتلال
مإذا ترى يا ابن الخطيب لخاطب ... وداً ينافس فيك كل مقال
جذبته نحو هواك غر محاسن ... مشفوعة أفرادها بمعال
وشمايل رقت لرقة طبعها ... فزلالها يزري بكل زلال
وحلى آداب بمثل نفيسها ... تزهو الحلا ويحل قدر الحال

يستخدم الياقوت عند نظامها ... فمقصر من قاسها بلال
سبق الأخير الأولين بفضلها ... فغدا المقدم تابعاً للتال
شغفي بذكر من عقايلها إذا ... تبدو تصان من الحجا بحجال
فابعث بها نلت المنا ممهورة ... طيب الثنا لنقدها والكال

لا زلت شمساً في الفضايل يهتدي ... بسناك في الأفعال والأقوال
ثم السلام عليك يترى ما تلت ... بكر الزمان رواف الآصال
ومن الدعابة، وقد وقعت إليها الإشارة من قبل، ما كتب به إليه صديقه الملاطف أبو علي بن عبد السلام:
أبا عبد الله نداء خل وفي ... جاء يمنحك النصيحة
إلى كم تألف الشبان غياً ... وخذلانا أما تخشى الفضيحة
فأجابه رحمه الله:
فديتك صاحب السمة المليحة ... ومن طابت أرومته الصريحة
ونم قلبي وضعت له محلاً ... فما عنه يحل بأن أزيحه
نأيت فلمع عيني في انسكاب ... وأكباد لفرقتكم قريحة
وطرفي لا يتاح له رقاد ... وهل نوم لأجفان جريحة
وزاد تشوقي أبيات شعر ... أتت منكم بألفاظ فصيحة
ولم تقصد بها جداً ولاكن ... قصدت بها مداعبة قبيحة
فقلت أتألف الشبان غيا ... وخذلانا أما تخشى الفضيحة
وفيهم حرفتي وقوام عيشي ... وأحوالي بخلطتهم نجيحة
وأمري فيهم أمر مطاع ... وأوجههم مصابيح صبيحة
وتعلم أنني رجل حصور ... وتعرف ذاك معرفة صحيحة
قال في التاج: ولما اشتهر المشيب بعارضه ولمته، وخفر الدهر لعمود صباه وإذمته، أقلع واسترجع، وتألم لما فرط وتوجع، وهو الآن من جلة الخطباء، طاهر العرض والثوب، خالص من الشوب، باد عليه قبول قابل التوب.
وفاته رحمه الله: في آخر صفر من عام خمسين وسبعماية في وقيعة الطاعون العام، ودخل غرناطة.
ومن الغرباء في هذا الباب
محمد بن مرزوق العجيسي

محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي من أهل تلمسان، يكنى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب المشرقية بشمس الدين
حاله
هذا الرجل من طرف دهره ظرفاً وخصوصية ولطافة، مليح التوسل حسن اللقاء، مبذول البشر، كثير التودد، نظيف البزة، لطيف التأتي، خير البيت، طلق الوجه، خلوب اللسان، طيب الحديث، مقدر الألفاظ، عارف بالأبواب، درب على صحبة الملوك والأشراف، متقاض لإيثار السلاطين والأمراء، يسحرهم بخلابة لفظه، ويفتلهم في الذروة والغارب بتنزله، ويهتدي إلى أغراضهم الكمينة بحذقه، ويصنع غاشيتهم بتلطفه، ممزوج الدعابة بالوقار، والفكاهة بالنسك، والحشمة بالبسط، عظيم المشاركة لأهل وده، والتعصب لإخوانه، إلف مألوف، كثير الأتباع والعلق، مسخر الرقاع في سبيل الوساطة، مجدي الجاه، غاص المنزل بالطلبة، منقاد الدعوة، بارع الخط، أنيقه، عذب التلاوة، متسع الرواية، مشارك في فنون، من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف، فلا يعدو السداد في ذلك، فارس منبر غير جزوع ولا هيابة. رحل إلى المشرق في كنف حشمة نم جناب والده رحمه الله، فحج وجاور، ولقي الجلة، ثم فارقة، وقد عرف بالمشرق حقه، وصرف وجهه إلى المغرب، فاشتمل عليه السلطان أبو

الحسن أميره، اشتمالاً خلطه بنفسه، وجعله مفضي سره، وإمام جمعته وخطيب منبره، وأمين رسالته، فقدم في غرضها على الأندلس في أواخر عام ثمانية وأربعين وسبعماية، واجذبه سلطانها رحمه الله، وأجراه على تلك الوتيرة، فقلده الخطبة بمسجده في السادس لصفر عام ثلاثة وخمسين وسبعماية، وأقعده للإقراء بالمدرسة من حضرته. وفي أخريات عام أربعة وخمسين بعده أطرف عنه حفن بره، في أسلوب طماح ودالة، وسبيل هوى وقحة، فاغتنم العبرة، وانتهز الفرصة، وأنفذ في الرحيل العزمة، وانصرف عزيز الرحلة، مغبوط المنقلب، في أوايل شعبان عام أربعة وخمسين وسبعماية، فاستقر بباب ملك المغرب، أمير المؤمنين أبي عنان فارس في محل تجلة، وبساط قرب، مشترك الجاه، مجدي التوسط، ناجع الشفاعة، والله يتولاه ويزيده من فضله.

مشيخته

من كتابه المسمى عجالة المتسوفز المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز، من أئمة المغرب والشام والحجاز. فممن لقيه بالمدينة المشرفة على ساكنها الصلاة والسلام، الإمام العلامة عز الدين محمد أبو الحسن ابن علي بن إسمعيل الواسطي صاحب خطتي الإمامة والخطابة بالمسجد النبوي الكريم، وأفرد جزءاً في مناقبه. ومنهم الشيخ الإمام جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخزرجي السعدي العبادي، تحمل عن عفيف الدين أبي محمد عبد السلام بن مزروع وأبي اليمن وغيره. والشيخ الإمام خادم الوقت بالمسجد الكريم ونائب الإمامة والخطابة به، ومنشد الأمداح النبوية هنالك. وبمكة شرفها الله، الشيخ المعمر الثقة شرف الدين أبو عبد الله عيسى بن عبد الله الحجي المكي. ولا شيخ الصالح شرف الدين خضر بن عبد الرحمن العجمي. والشيخ مقري الحرم برهان الدين إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم الآبلي المصري. والشيخ الإمام الصالح أبو محمد عبد الله بن أسعد الشافعي الحجة، انتهت إليه الرياسة العلمية والخطط الشرعية بالحرم. والشيخ قاضي القضاة وخطيب الخطباء عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة الكناني قاضي القضاة بمصر. وبمصر الشيخ علاء الدين القونوي. والتقي السعدي، وقاضي القضاة القزويني، والشرف أقضى القضاة الإخميمي، وكثيرون غيرهم. وسمع من عدد عديد آخر من أعلام القضاة والحفاظ والعلماء بتونس، وبجاية، والزاب، وتلمسان.

محنته

اقتضى الخوض الواقع بين يدي تاميل الأمير أبي الحسن رحمه الله، وتوقع عودة الأمر إليه، وقد ألقاه اليم بالساحل بمدينة الجزاير، أن قبض عليه بتلمسان، أمراؤها المتوثبون عليها في هذه الفترة، من بني زيان، إرضاء لقبيلهم، المتهم بمداخلته، وقد رحل عنهم دسيساً من أميرهم عثمن بن يحيى بن عبد الرحمن بن يغمراسن، فصرف مأخوذاً عليه طريقه، منتهباً رحله، منتهكة حرمته، وأسكن قرارة مطبق عميق القعر، مقفل المسلك، حريز القفل، ثاني اثنين.
ولأيام قتل ثانيه ذبحاً بمقربة من شفى تلك الركية، وانقطع لشدة لاثقاف أثره، أيقن الناس بفوات الأمر فيه. ولزمان من محنته ظهرت عليه بركة سلفه، في خبر ينظر بطرقه إلى الكرامة، فنجا ولا تسل كيف، وخلصه الله خلاصاً جميلاً، وقدم على الأندلس، والله ينفعه بمحنته.

شعره وما وقع من المكاتبة بيني وبينه

ركب مع السلطان خارج الحمراء، أيام ضربت اللوز قبابها البيض، وزينت الفحص العريض، والروض الأريض، فارتجل في ذلك:

أنظر إلى النوار في أغصانه ... يحكى النجوم إذا تبدت في الحلك

حياً أمير المسلمين وقال قد ... عميت بصيرة من بغيرك مثلك
يا يوسفاً حزت الجمال بأسره ... فمحاسن الأيام تومي هيت لك
أنت الذي صعدت به أوصافه ... فيقال فيه ذا مليك أو ملك

ولما قدمت على مدينة فاس في غرض الرسالة، خاطبني بمنزل الشاطبي على مرحلة منها بما نصه:

يا قادماً وافي بكل نجاح ... أبشر بما تلقاه من أفراح
هذي ذرى ملك الملوك فلذ بها ... تنل المنى وتفز بكل سماح
مغني الإمام أبي عنان يممن ... تظفر ببحر في العلى طفاح
من قاس جود أبي عنان ذي الندى ... بسواه قاس البحر بالضحضاح
ملك يفيض على العفاة نواله ... قبل السوال وقبل بسطة راح
فلجود كعب وابن سعدي في الندى ... ذكر محاه من نداه ماح
ما أن رأيت ولا سمعت بمثله ... من أريحي للندى مرتاح
بسط الأمان على الأنام فأصبحوا ... قد ألحفوا منه بظل جناح
وهمي على العافين سيب نواله ... حتى حكى سح الغمام الساح
فنواله وجلاله وفعاله فاقت ... وأعيت ألسن المداح
وبه الدنا أضحت تروق وأصبحت كل المنى تنقاد بعد جماح
من كان ذا ترح فرؤية وجهه ... متلافة الأحزان والأتراح
فانهض أبا عبد الإله تفز بما ... تبغيه من أمل ونيل نجاح
لا زلت ترتشف الأماني راحة ... من راحة المولى بكل صباح

والحمد لله يا سيدي وأخي على نعمه التي لا تحصى حمداً يؤم به جميعنا المقصد الأسنى، فيبلغ الأمد الأقصى، فطالما كان معظم سيدي للأسى في خبال، وللأسف بين اشتغال بال، واشتغال بلبال، ولقدومكم على هذا المقام العلي في ارتقاب، ولمواعدكم بذلك في تحقق وقوعه من غير شك ولا ارتياب، فها أنت تجتلي، من هذا المقام العلي، لتشيعك وجوه المسرات صباحاً، وتتلقى أحاديث مكارمه ومواهبه مسندة صحاحاً بحول الله. ولسيدي الفضل في قبول مركوبه الواصل إليه بسرجه ولجامه، فهو من بعض ما لدي المحب من إحسان مولاي وإنعامه. ولعمري لقد كان وافداً على سيدي في مستقره مع غيره. فالحمد لله الذي يسر في إيصاله على أفضل أحواله.

فراجعته بقولي:

راحت تذكرني كؤوس الراح ... والقرب يخفض للجنوح جناح
وسرت تدل على القبول كأنما ... دل النسيم على انبلاج صباح
حسناء قد غنيت بحسن صفاتها ... عن دملج وقلادة ووشاح
أمست تحض على اللياذ بمن جرت ... بسعوده الأقلام في الأفراح
بخليفة الله المؤيد فارس ... شمس المعالي الأزهر الوضاح
ما شيت من همم ومن سيم غدت ... كالزهر أو كالزهر في الأدواح
فضل الملوك فليس يدرك شأوه ... أني يقاس الغمر بالضحضاح
أسنى بني عباسهم بلوانه المنصور أو بحسامه السفاح

وغدت مغاني الملك لما حلها ... تزهي ببدر هدى وبحر سماح
وحياة من أهداك تحفة قادم ... في العرف منها راحة الأرواح
ما زلت أجعل ذكره وثناءه ... روحي وريحاني الأريج وراح
ولقد تمازج حبه بجوارحي ... كتمازج الأجسام بالأرواح
ولو أنني أبصرت يوماً في يدي ... أمري لطرت إليه دون جناح
فالأن ساعدني الزمان وأيقنت ... من قربه نفسي بفوز قداح
إيه أبا عبد الإلآه وإنه ... لنداء ود في علاك صراح
أما إذا استنجدتني من بعد ما ... ركدت لما خبت الخطوب رياح
فأليكها مهزولة وأنا امرؤ ... قررت عجزي وأطرحت سلاح

سيدي: أبقاك الله لعهد تحفظه، وولي بعين الولاء تلحظه. وصلتني رقعتك التي ابتدعت، وبالحق من مدح المولى الخليفة صدعت، وألفتني وقد سطت بي الأوحال، حتى كادت تتلف الرحال، والحاجة إلى الغذاء، قد شمرت كشح البطين، وثانية العجماوين قد توقع فوات وقتها، وإن كانت صلاتها صلاة الطين، والفكر قد غاض معينه، وضعف وعلى الله جزاء المولى الذي يعينه، فعزتني بكتيبة بيان أسدها هصور، وعلمها منصور، وألفاظها ليس فيها قصور، ومعانيها عليها الحسن مقصور، واعتراف مثلي بالعجز في المضايق حول ومنة، وقول لا أدري للعالم فكيف لغيره جنة. لا كنها بشرتني بما يقل لهديه بذل النفوس وإن جلت، وأطلعتني من اسراء على وجه تحسده الشمس إذا تجلت، بما أعلمت به من جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيده الله، في عبده، وصدق المخيلة في كرم مجده. وهذا هو الجود المحض، والفضل الذي شكره هو القرض. وتلك الخلافة المولوية تتصف بصفة من يبدأ بالنوال، من قبل الضراعة والسؤال، من غير اعتبار للأسباب، ولا مجازاة للأعمال. نسأل الله أن يبقى منها على الإسلام أوفي الظلال، ويبلغها من فضله أقصى الآمال. ووصل ما بعثه سيدي صحبتها من الهدية، والتحفة الودية، وقبلتها امتثالاً، واستجليت منها عتقاً وجمالاً. وسيدي في الوقت أنسب إلى اتخاذ ذلك الجنس، وأقدر على الاستكثار من إناث اليهم والإنس. وأنا ضعيف القدرة، غير مستطيع لذلك إلا في الندرة، فلو رأى سيدي، ورأيه سداد، وقصده فضل ووداد، أن ينقل القضية إلى باب العارية من باب الهبة مع وجوب الحقوق المترتبة، لبسط خاطري وجمعه، وعمل في رفع المؤنة على شاكلة ونجره، وسيدي في الإسعاف على الله أجره، وهذا أمر عرض، وفرض فرض، وعلى نظره المعول، واعتماد إغضائه هو المعقول الأول. والسلام على سيدي من معظم قدره، وملتزم بره، ابن الخطيب، في ليلة الأحد السابع والعشرين لذي قعدة سنة خمسة وخمسين وسبعماية، والسماء قد جادت بمطر سهرت منه الأجفان، وظن أنه طوفان، واللحاق في غد بالباب المولوي، مؤمل بحول الله.

ومن الشعر المنسوب إلى محاسنه، ما أنشد عنه، وبين يديه، في ليلة الميلاد المعظم، من عام ثلاثة وستين وسبعماية بمدينة فاس المحروسة:

أيا نسيم السحر ... بالله بلغ خبر
إن أنت يوماً بالحمى ... جررت فضل المئزر
ثم حثثت الخطو من ... فوق الكثيب الأعفر
مستقرياً في عشبه ... خفي وطئ المطر
تروى عن الضحاك في الروض حديث الزهر

مخلق الأذيال ... بالعبير أو بالعنبر
وصف لجيران الحمى ... وجدي بهم وسهري
وحقهم ما غيرت ... ودي صروف الغير
لله عهد فيه قضيت حميد الأثر
أيامه هي التي أحسبها من عمري
ويا لليل فيه ما ... عيب بغير القصر
العمر فينان ووجه الدهر طلق الغرر
والشمل بالأحباب منظوم كنظم الدرر
صفو من العيش بلا ... شائبة من كدر
ما بين أهل تقطف ... الأنس حنى الثمر
وبين آمال تبيح القرب صافي الغدر
يا شجرات الحي حياك الحيا من شجر
إذا أجال الشوق في ... تلك المغاني فكري
خرجت من خدي حديث الدمع فوق الطرر
وقلت يا خد ارو من ... دمعي صحاح الجوهري
عهدي بحادي الركب ... كالورقاء عند السحر
والعيس تجتاب الفلا ... واليعملات تنبرى
تخبط بالأخفاف مظلوم البرا وهو بري
قد عطفت عن ميد ... والتفت عن حور
قسي سير ما سوى العزم لها من وتر
حتى إذا الأعلام حلست لحفي البشر
واستبشر النازح بالقرب ونيل الوطر
وعين الميقات للسفر نجاح السفر
والناس بين محرم ... بالحج أو معتمر
لبيك لبيك إله الخلق باري الصور
ولاحت الكعبة بيت الله ذات الأثر
مقام إبراهيم والمأمن عند الذعر
واغتنم القوم طواف القادم المبتدر
وأعقبوا ركعتي السعي استلام الحجر
وعرفوا في عرفات ... كل عرف أذفر
ثم أفاض الناس سعياً في غد للمشعر

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين

فوقفوا وكبروا ... قبل الصباح المسفر
وفي منى نالوا المنى ... وأيقنوا بالظفر
وبعد رمى الجمرا ... ت كان حلق الشعر
أكرم بذاك الصحب ... والله وذاك النفر
يا فوزه من موقف ... يا ربحه من متجر
حتى إذا كان الودا ... تع وطواف الصدر
فأي صبر لم يخن ... أو جلد لم يغدر
وأي وجد لم يصل ... وسلوة لم تهجر
ما أفجع البين لقلب الواله المستغفر
ثم ثنوا نحو رسو ... ل الله سير الضمر
فعاينوا في طيبة ... لألاء نور نير
زاروا رسول الله واستشفعوا بلثم الجدر
نالوا به ما أملوا ... وعرجوا في الأثر
على الضجيعين أبي ... بكر الرضا وعمر
زيارة الهادي الشفيع جنة في المحشر
فأحسن الله عزا ... ء قاصد لم يزر
ربع ترى مستنزل الآي به والسور
وملتقى جبريل بالهادي الزكي العنصر
وروضة الجنة بين روضة ومنبر
منخب الله ومختار الورى من مضر
والمنتقى والكون من ... ملابس الخلق عرى
إذ لم يكن في أفق ... من زحل أو مشتر
ذو المعجزات الغر أمثال النجوم الزهر
يشهد بالصدق له ... منها انشقاق القمر
والضب والظبي إلى ... نطق الحصى والشجر
من أطعم الألف بصا ... ع في صحيح الخبر
والجيش رواه بما ... ء الراحة المنهمر
يا نكتة الكون التي ... فاتت منال الفكر
يا حجة الله على الرا ... ئح والمبتكر
يا أكرم الرسل على ... الله وخير البشر

يا من لدي مولده المقدس المطهر
إيوان كسرى ارتج إذ ... ضاقت قصور قيصر
وموقد النار طفا ... كأنها لم تسعر
يا عمدتي يا ملجئي ... يا مفزعي يا وزري
يا من له اللواء والحوض وورد الكوثر
يا منقد الغرقي وهم ... رهن العذاب الأكبر
إن لم تحقق أملي ... بؤت بسعي المخبر
صلى عليك الله يا ... نور الدجا المعتكر
يا ويح نفسي كم أرى ... من غفلتي في غمر
واحسروا من قلة الزاد وبعد السفر
يحجني والله بالبرهان وعظ المنبر
يا حسنها من خطب ... لو حركت من نظر
يا حسنها من شجر ... لو أورقت من ثمر
أومل الأوبة والأمر بكف القدر
أسوف العزم بها ... من شهر لشهر
من صفر لرجب ... من رجب لصفر
وليس ما مر من ... الأيام بالمنتظر
وقل ما أن حمدت ... سلامة في غرر
ولي غريم لا يني ... عن طلب المنكسر
يا نفس جدي قد بدا الصبح ألا فاعتبري
واتعظي بمن مضى وارتدعى وازدجرى
ما بعد شيب الفود من ... مرتقب فشمري
أنت وإن طال المدى ... في قلعة أو سفر
وليس من عذر يقيم حجة المعتذر
يا ليت شعري والمنى ... تسرق طيب العمر
هل ارتجى من عودة ... أو رجعة أو صدر
مقتدياً بمن مضى ... من سلف ومعشر
نالوا جوار الله وهو الفخر للمفتخر
أرجو بإبراهيم مو ... لانا بلوغ الوطر
فوعده لا يمتزي ... في الصدق منه الممتر
فهو الإمام المرتضى ... والخير ابن الخير
أكرم من نال المنى ... بالمرهفات البتر
ممهد الملك وسيف الحق والليث الجري

خليفة الله الذي ... فاق بحسن السير
وكان منه الخبر في ... العلباء وفق الخبر
فصدق التصديق من مرآه للتصور
ومستعين الله في ... ورد له وصدر
فاق الملوك الصيد بالمجد الرفيع الخطر
فأصبحت ألقابهم ... منسية لم تذكر

وحاز منهم أوحد ... وصف العديد الأكثر
برأيه المأمون أو ... عسكره المظفر
بسيفه السفاح أو ... بعزمه المقتدر
بالعلم المنصور أو ... بالذابل المستنصر
بابن الإمام الطاهر البر الزكي السير
مدحك قد علم نظم الشعر من لم يشعر
فإن يقصر ظاهري ... فلم يقصر مضور

ووردت على باب السلطان الكبير العالم أبي عنان، فبلوت من مشاركته. وحميد سعيه، ما يليق بمثله. ولما نكبه لم أقصر عن ممكن حيلة في أمره ولما هلك السلطان أبو عنان رحمه الله، وصار الأمر لأخيه المتلاحق من الأندلس أبي سالم بعد الولد المسمى بالسعيد كان ممن دمث له الطاعة، وأناخ راحلة الملك، وحلب ضرع الدعوة، وخطب عروس الموهبة، فأنشب ظفره في متات معقود من لدن الأب، مشدود من لدن القربة، فاستحكم عن قرب، واستغلظ عن كثب، فاستولى على أمره، وخلطه بنفسه، ولم يستأثر عنه بيثة، ولا انفرد بما سوى بضع أهله. بحيث لا يقطع في شيء إا عن رأيه، ولا يمحو ويثبت إلا واقفاً عند حده، فغشيت بابه الوفود، وصرفت إليه الوجوه، ووقفت عليه الآمال، وخدمته الأشراف، وجلبت إلى سدته بضايع العقول والأموال، وهادته وخدمته الأشراف، وجلبت إلى سدته بضايع العقول والأموال، وهادته الملوك، فلا تحدو الحداة إلا إليه، ولا تحط الرحال إلا لديه. إن حضر أجرى الرسم، وأنفذ الأمر والنهي لحظاً أو سراراً أو مكاتبة، وإن غاب، ترددت الرقاع، واختلفت الرسل. ثم انفرد أخيراً ببيت الخلوة، ومنتبذ المناجاة، من دونه مصطف الوزراء، وغايات الحجاب، فإذا انصرف تبعته الدنيا، وسارت بين يديه الوزراء، ووقفت ببابه الأمراء، قد وسع الكل لحظه، وشملهم بحسب الرتب والأموال رعيه، ووسم أفذادهم تسويده، وعقدت بينان عليتهم بنانه. لاكن رضي الناس غاية لا تدرك، والحقد بين بني آدم قديم، وقييل الملك مباين لمثله، فطويت الجوانح منه على سل، وحنيت الضلوع على بث، وأغمضت الجفون على قذى إلى أن كان من نكبته ما هو معروف جعلها الله له طهوراً.

ولما جرت الحادثة على السلطان بالأندلس، وكان لحاق جميعنا بالمغرب، جنيت ثمرة ما أسلفته في وده، فوفي كيل الوفا، وأشرك في الجاه، وأدر الرزق، ورفع المجلس بعد التسبيب في الخلاص، والسعي في الجبر، جبره الله تعالى وكان له أحوج ما يكون إلى ذلك، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

ولما انقضى أمر سلطانه رحمه الله، وقذف به بحر التمحيص إلى شطه، وأضحى جو النكبة بعد انطباقه، آثر التشريق بأهله وجملته، واستقر بتونس، خطيب الخلافة، مقيماً على رسمه من التجلة، ذايع الفضل هنالك والمشاركة، وهو بحاله الموصوفة إلى الآن كان الله له.

وكنت أحسست منه في بعض الكتب الواردة، صاغية إلى الدنيا، وحنيناً لما فارق من غرورها، فحملني الطور الذي ارتكبته في هذه الأيام بتوفيق الله، على أن خاطبته بهذه الرسالة، وحقها أن يجعلها خدمة الملوك ممن ينسب إلى نبل، أو يلم بمعرفة، مصحفاً يدرسه، وشعاراً يلتزمه، وهي: سيدي، الذي يده البيضاء لم تذهب بشهرتها المكافاة، ولم تختلف في مدحها الأفعال، ولا تغايرت في حمدها الصفات، ولا تزال تعترف بها العظام الرفات، أطلقك الله من أسر الكون، كما أطلقك من أسر بعضه، ورشدك في سمايه العالية وأرضه، وحقر الحظ في عين بصيرتك بما يحملك على رفضه. اتصل بي الخبر السار من تركك لشأنك، وإجناء الله إياك ثمرة إحسانك، وإنجياب ظلام الشدة الحالك، عن أفق حالك. فكبرت لانتشاق عفو الله العاطر، واستعبرت لتضاؤل الشدة بين يدي الفرج، لا بسوى ذلك من رضى مخلوق يومر فيأتمر، ويدعوه القضاء فيبتدر، إنما هو فيئ وظل ليس له من الأمر شيء، ونسأله جل وتعالى أن يجعلها آخر عهدك بالدنيا وبنيها، وأول معارج نفسك، التي تقربها من الحق وتدنيها، وكأنني والله أحس بثقل هذه الدعوة على سمعك، ومضادتها ولا حول ولا قوة إلا بالله لطبعك، وأنا أنافرك إلى العقل الذي هو قسطاس الله في عالم الإنسان، والآلة لبث العدلي والإحسان، والملك الذي يبين عنه ترجمان اللسان، فأقول ليمت شعرى ما الذي غبط سيدى بالدنيا. وإن بلغ من زبرجها الرتبة العليا، وأفرض المثال لحالة إقبالها، ووصل حبالها، وضراعة سبالها، وخشوع جبالها. ألتوقع المكروه صباح مسا، وارتقاب الحوالة التي تديل من النعيم الباسا، ولزوم المنافسة التي تعادى الأشراف والرؤسا. ألترثبق العتب، حتى على التقصير في الكتب، وظعينة جار الجنب، وولوع الصديق بإحصاء الذنب. ألنسبة وقايع الدولة إليك وأنت بري، وتطويقك الموبقات وأنت منها عرى. ألا ستهدافك للمضار التي تنتجها غيرة الفروج، والأحقاد التي تضطبنها ركبة السروج وسرحة المروج، ونجوم السما ذات البروج. ألتقليدك التقصير فيما ضاقت عنه طاقتك، وصحت إليه فاقتك، من حاجة لا يقتضي قضاها الوجود، ولا يكيفها الركوع للملك والسجود. ألقطع الزمان بين سلطان يعبد، وسهام للغيوب تكبد، وعجاجة شر تلبد، وأقبوحة تخلد وتوبد ألوزير يصانع ويداري، وذي حجة صحيحة يجادل في مرضاة السلطان ويمارى، وعورة لاتوارى. ألمباكرة كل عايب حاسد، وعدو ومستأسد، وسوق للإنصاف والشفقة كاسد، وحال فاسد، أللوفود تتزاحم بسدتك، مكلفة لك غير ما في طوقك، فإن لم تنل أغراضها، قلبت عليك السما من فوقك. ألجلساء ببابك، لا يقطعون زمن رجوعك وإيابك، إلا بقبيح اغتيابك، فالتصرفات تمقت، والقواطع النجوميات توقت، والألاقى تبث، والسعايات تحث، والسماجد يشتكى قيها البث، يعتقدون أن السلطان في يدك، بمنزلة الحمار المدبور، واليتيم المحجور، والأسير المامور، ليس له شهرة ولا غضب. ولا أمل في الملك ولا أرب، ولا موجدى لأحد كامنة، وللشر ضامنة، وليس في نفسه عن رأي نفرى، ولا بإزاء مالا يقبله نزوة وطفرة، إنما هو جارحة لصيدك، وعان في قيدك، وآلة لتصرف كيدك، وأنك علة حيفه، ومسلط سيفه. الشرار يسملون عيون الناس باسمك، ثم يمزقون بالغيبة مزق جسمك، قد تنخلهم الوجود أخبث مافيه، واختارهم السفيه فالسفيه، إذا الخير يسره الله عن اللول ويخفيه، ويقنعه بالقليل فيكفيه. فهم يمتاحون بك، ويولونك الملامة، ويقتحمون عليك أبواب القول، ويسدون طرق السلامة، وليس لك في أثناء هذه إلا مايعوزك مع ارتفاعه، ولايفوتك مع انقشاعه، وذهاب صداعه، من غذاء يشبع، وثوب يقنع، وفراش ينيهم، وخديم يقعد ويقيم. وماالفاية في فرش تحتها حمر الغضا، ومال من ورايه سوء القضا، وجاه يحلق عليه سيف مننضا، وإذا بلغت النفس إلى الالتذاذ بما لاتملك، واللجاج حول المسقط الذي تعلم أنها فيه تملك، فكيف ينسب إلى نبل أو يسر مع السعادة في سبل، وإن وجدت في القعود بمجلس التحية بعض الأريحية، فليت شعرى أي شيء زادها، أو معنى أفادها، إلا مباكرة وجه الحاسد، وذي القلب الفاسد، ومواجهة العدو المستاسد. أو شعرت ببعض

الإيناس في الركوب بين الناس، هل التذت إلا بحلم كاذب، أو جذبها غير الغرور مجاذب. إنما الحلية وافتك من يحدق إلى البزة، ويستطيل مدة العزة، ويرتاب إذا حدث بخبرك، ويتبع بالنقد والتجسس مواقع نظرك

ويمنعك من شارة أنسك، ويحتال على فراغ كيسك، ويضمر الشر لك ولرسيك، وأي راحة لمن لايباشر قصده، ويسير متى شا وحده، ولو صح في هذه الحال لله حظ، وهبه زهيداً، أوعين للرشد عملاً حميداً، لساغ الصاب، وخفت الأوصاب، وسهل المصاب. لاكن الوقت أشغل والفكر أوغل، والزمن قد غمرته الحصص الوهمية، واستنفدت منه الكمية. أما ليله ففكر أو نوم، وعتب يجر الضراس ولوم، وأما يومه فتدبير، وقبيل ودبير، وأمور يعيا بها ثبير، وبلاء مبير، ولغط لايدخل فيه حكيم كبير، وأنا بمثل ذلك خبير. ووالله ياسيدي، ومن فلق الحب وأخرج الأب، وذرا من مشى ومادب، وسمى نفسه الرب، لو تعلق المال الذي يجده هذا الكدح، ويورى سقيطه هذا القدح، بإذيال الكواكب، وزاحمت البدر بدره بالمناكب، لاورثه عقب، ولاخلص به محتقب، ولا فاز به سافر ولا منتقب. والشاهد اللول والمشايم الأول. فأين الرباع المقتناة، وأين الديار المبتداة، وأين الحدايق المغترسات، وأين الذخاير للمختلسات، وأين الودايع المؤملة، وأين الأمانات المحملة، تأذن الله بتتبيرها، وإدناء وتار التيار من دنانيرها، فقفلما تلقى أعقابهم إلا أعرباً للطمور، مترمقين بجرايات الشهور، متعللين بالهباء المنثور، يطردون من الأبواب التي حجب عندها آباؤهم، وعرف منها إباؤهم، وشم من مقاصيرها عنبرهم وكباؤهم، لم تسامحهم الأيام إلا في إرث محررٍ، أو حلال مقرر، وربما محقة الحرام، وتعذر منه المرام. هذه أعزك الله حال قبولها مالها مع الترفيه، وعلى فرض أن يستوفي العمر في العز مستوفيه. وأما ضده من عدو يتحكم وينتقم، وحوت بغى يبتلع ويلتقم، وطبق يحجب الهواء ويطيل في التراب الثوا، وثعبان قميد يعض الساق، وشوبوب عذاب يمزق الإبشار الرقاق، وغيلة يهديها الواقب الغاسق، ويوجرعها العدو الفاسق، مع الأفوال ولا شروق، فهل في شئ من هذا مغتبط لنفس حرة، أو مايساوى جرعة حالٍ مرة. . واحسرتاه للأحلام ضلت، وللأقدام زلت، ويالها مصيبة جلت، ولسيدي أن يقول حكمت على باستثقال الموعظة واستجفالها، ومراودة الدنيا بين خلالها وأكفايها، وتناسى عدم وفايها، فأقول الطبيب بالعلل أدرى، والشفيق بسوء الظن مغرى. وكيف لا وأنا أقف على السحاآت، بخط سيدي، من مطارح الاعتقال، ومثاقف النوب الثقال، وحلوات الاستعداد للقاء الخطوب الشداد، ونوش الأسنة الحداد، وحيث يجمل تمثله ألا تصرف في غير الخضوع لله بناناً، ولايثنى لمخلوق عناناً. وأتعرف أنها قد ملأت الجو الدو، وقصدت الجماد والبو، تقتحم أكف أولى الشمات، وحفظة المذمات، وأعوان النوب الملمات، زيادة في الشقا، وقصد أبرياء من الاختيار والانتق، مشتملة من التجاوز على إغرب من العنقا، ومن النقاق على أشهر من البلقا. فهذا يوصف بالإمامة، وهذا ينسب في الجود إلى كعب بن مامة، وهذا يجعل من أهل الكرامة، وهذا يجعل من أهل الكرامة، وهذا يكلف الدعاء وليس من أهل، وهذا يطلب منه لقا الصالحين وليسوا من شكله، إلى ما أحفظني والله من البحث عن السموم، وكتب النجوم، والمذموم من المعلوم، هلا كان من ينظر في ذلك قد قوطع بتاتاً، وأعتقد أن الله جعل لزمن الخير والشر ميقاتاً، وأنا لانملك موتاً ولا نشوراً ولا حياتاً، وأن اللوح قد حصر الأشياء محوراً وإثباتاً، فكيف نرجو لما منع منالاً، أو نستطيع مما قدر إفلاتاً. أفيدونا ما يرجح العقيدة المقررة، نتحول إليه، وبينوا لنا الحق، نعول عليه. الله الله ياسيدي في النفس المرشحة، وللذات المحلات بالفضايل الموشحة، والسلف الشهير الخير، والعمر المشرف على الرحلة بعد حث السير، ودع الدنيا لأهلها، فما أركس حطوظهم، وأخس لحوظهم، وأقل متاعهم، وأعجل إسراعهم، وأكثر عناؤهم، وأقصر أناؤهم:ك من شارة أنسك، ويحتال على فراغ كيسك، ويضمر الشر لك ولرسيك، وأي راحة لمن لايباشر قصده، ويسير متى شا وحده، ولو صح في هذه الحال لله حظ، وهبه زهيداً، أوعين

للرشد عملاً حميداً، لساغ الصاب، وخفت الأوصاب، وسهل المصاب. لاكن الوقت أشغل والفكر أوغل، والزمن قد غمرته الحصص الوهمية، واستنفدت منه الكمية. أما ليله ففكر أو نوم، وعتب يجر الضراس ولوم، وأما يومه فتدبير، وقيل ودبير، وأمور يعيا بها ثبير، وبلاء مبير، ولغط لايدخل فيه حكيم كبير، وأنا بمثل ذلك خبير. ووالله ياسيدي، ومن فلق الحب وأخرج الأب، وذرا من مشى ومادب، وسمى نفسه الرب، لو تعلق المال الذي يجده هذا الكدح، ويورى سقيطه هذا القدح، بإذيال الكواكب، وزاحمت البدر بدره بالمناكب، لاورثه عقب، ولاخلص به محتقب، ولا فاز به سافر ولا منتقب. والشاهد الدول والمشايم الأول. فأين الرباع المقتناة، وأين الديار المبتداة، وأين الحدايق المغترسات، وأين الذخاير المختلسات، وأين الودايع المؤملة، وأين الأمانات المحملة، تأذن الله بتتبيرها، وإدناء وتار التيار من دنانيرها، فقفلما تلقى أعقابهم إلا أعرباً للطمور، مترمقين بجرايات الشهور، متعللين بالهباء المنثور، يطردون من الأبواب التي حجب عندها آباؤهم، وعرف منها إباؤهم، وشم من مقاصيرها عنبرهم وكباؤهم، لم تسامحهم الأيام إلا في إرث محررٍ، أو حلال مقرر، وربما محقة الحرام، وتعذر منه المرام. هذه أعزك الله حال قبولها مالها مع الترفيه، وعلى فرض أن يستوفي العمر في العز مستوفيه. وأما ضده من عدو يتحكم وينتقم، وحوت بغى يبتلع ويلتقم، وطبق يحجب الهواء ويطيل في التراب الثوا، وثعبان قميد يعض الساق، وشوبوب عذاب يمزق الإبشار الرقاق، وغيلة يهديها الواقب الغاسق، ويوجرعها العدو الفاسق، مع الأفوال ولا شروق، فهل في شئ من هذا مغتبط لنفس حرة، أو مايساوى جرعة حالٍ مرة. . واحسرتاه للأحلام ضلت، وللأقدام زلت، ويالها مصيبة جلت، ولسيدي أن يقول حكمت على باستثقال الموعظة واستجفالها، ومراودة الدنيا بين خلالها وأكفايها، وتناسى عدم وفايها، فأقول الطبيب بالعلل أدرى، والشفيق بسوء الظن مغرى. وكيف لا وأنا أقف على السحاآت، بخط سيدي، من مطارح الاعتقال، ومثاقف النوب الثقال، وحلوات الاستعداد للقاء الخطوب الشداد، ونوش الأسنة الحداد، وحيث يجمل تمثله ألا تصرف في غير الخضوع لله بناناً، ولايثنى لمخلوق عناناً. وأتعرف أنها قد ملأت الجو اللو، وقصدت الجماد والبو، تقتحم أكف أولى الشمات، وحفظة المذمات، وأعوان النوب الملمات، زيادة في الشقا، وقصد أبرياء من الاختيار والانتق، مشتملة من التجاوز على إغرب من العنقا، ومن النقاق على أشهر من البلقا. فهذا يوصف بالإمامة، وهذا ينسب في الجود إلى كعب بن مامة، وهذا يجعل من أهل الكرامة، وهذا يجعل من أهل الكرامة، وهذا يكلف الدعاء وليس من أهل، وهذا يطلب منه لقا الصالحين وليسوا من شكله، إلى ما أحفظني والله من البحث عن السموم، وكتب النجوم، والمذموم من المعلوم، هلا كان من ينظر في ذلك قد قوطع بتاتاً، وأعتقد أن الله جعل لزمن الخير والشر ميقاتاً، وأنا لانملك موتاً ولا نشوراً ولا حياتاً، وأن اللوح قد حصر الأشياء محوراً وإثباتاً، فكيف نرجو لما منع منالاً، أو نستطيع مما قدر إفلاتاً. أفيدونا ما يرجح العقيدة المقررة، نتحول إليه، وبينوا لنا الحق، نعول عليه. الله الله ياسيدي في النفس المرشحة، وللذات المحلات بالفضايل الموشحة، والسلف الشهير الخير، والعمر المشرف على الرحلة بعد حث السير، ودع الدنيا لأهلها، فما أركس حطوظهم، وأخس لحوظهم، وأقل متاعهم، وأعجل إسراعهم، وأكثر عناؤهم، وأقصر أناؤهم:

ماتم إلا ما رأيت ... وربما تعي السلامة
والناس إما جائر ... أو حاير يشكو ظلامه
والله ما احتقب الحريص سوى الذنوب أو الملامة
هل ثم شك في المعاد ... الحق أو يوم القيامة
قولوا لنا ماعندكم ... أهل الخطابة والإمامة

وإن رميت بأحجارى، وأوحرت المر من أشجارى، فوالله ماتلبست منها لليوم بشيء قديم ولا حديث، ولا استاثرت بطيب فضلاً عن خبيث. وما أنا إلا عابر سبيل، وهاجر مرعى وبيل، ومرتقب وعد قدر فيه الإنجاز، وعاكف على حقيقة لا تعرف المجاز قد فررت من الدنيا كما يفر من الأسد، وحاولت المقاطعة، حتى بين روحي والجسد، وغسل الله قلبي، وله الحمد، من الطمع والحسد، فلم أبق عادة إلا قطعتها، ولا جنة للصبر إلا ادرعتها. أما اللباس فالصوف، وأما الزهد فيما في أيدي الناس فمعروف، وأما المال الغبيط فعلى الصدقة مصروف. ووالله لو علمت أن حالي هذه تتصل، وعراها لاتنفصل، وأن ترتيبي هذا يدوم، ولا يجيزني الوعد المحتوم، والوقت المعلوم، لمت أسفاً، وحسبي الله وكفا ومع هذا ياسيدي، فالموعظة تتلقى من لسان الوجود، والحكمة ضالة المؤمن يطلبها ببذل المجهود، ويأخذها من غير اعتبار بمحلها المذموم أو المحمود. ولقد أعملت نظرى فيما يكافئ عني بعض يدك، أو ينتمي في الفضل إلى أمدك، فلم أر لك الدنيا كفا. هذا لو كنت صاحب دنيا، وألفيت بذل النفس قليلاً لك من غير شرطٍ ولا ثنيا، فلما ألهمني الله لمخاطبتك بهذه النصيحة المفرغة في قالب الجفا، لمن لايثبت عين الصفا، ولا يشيم بارقه الوفا، ولايعرف قاذورة الدنيا معرفة مثلى من المتدنسين بها لا منهمكين، وينظر عوراه القادح بعين اليقين، يعلم أنها المومسة التي حسنها زور، وعاشقها مغرور، وسرورها شرو، تبين لي أني قد كافيت صنيعتك المتقدمة، وخرجت عن عهدتك الملتزمة، ومحضت لله النصح الذي يقر بعز الله ذاتك، ويطيب حياتك، ويحي مواتك، ويريح جوارحك من الوصب، وقلبك من النصب، ويحقر الدنيا وأهلها في عينك إذا اعتبرت، ويلاشى عظايمها لديك إذا اختبرت، كل من تقع عليه عينك حقير قليلن وفقير ذليل، لايفضلك بشيء إلا باقتفاء رشد أو ترك غى، أثوابه النبيهة يجردها الغاسل، وعروة غيره يفصلها الفاصل، وماله الحاضر الحاصل، يعيث فيه الحسام القاصل، والله ماتعين للخلف إلا ماتعين للسلف، ولامصير المجموع إلا إلى التلف، ولا صح من الهياط والمياط، والصياح والعياط، وجمع القيراط إلى القيراط، والاستظهار بالوزعة والأشراط، والخبط والخباط، والاستكثار والاغتباط، الغلو والاشتطاط، وبنا الصرح وعمل الساباط، ورفع العماد وإدارة القسطاط، إلا ألم يذهب القوة، وبنسى الآمال المرجوة، ثم نفس يصعد، وسكرات تتردد، وحسرات لفراق الدنيا تتجدد، ولسان يثقل، عين تبصر الفراق الحق وتمقل. قل هو نبأ عظيم، أنتم عنه معرضون. ثم القبر وما بعده، والله منجز وعيده ووعده. فالإضراب وافضراب، والتراب التراب، وإن اعتذر سيدى بقلة الجلد، لكثرة الولد، فهو ابن مرزوق، لا ابن رزاق، وبيده من التسبب، ما يتكفل بإمساك أرماق. أين النسخ الذي يتبلغ الإنسان بأجرته، في كن حجرته، لابل السؤال الذي لاعار عند الحاجة بمعرته، السؤال والله أقوم طريقاً، وأكرم فريقاً، من يد تمتد إلى حرام، لا يقوم بمرام، ولا يومن من ضرام أحرقت فيه الحلل، وقلبت الأديان والملل، وضربت الابشار، ونحرت العشار، ولم يصل منه على يدي واسطة السوؤ المعشار. ثم طلب عند الشدة ففضح، وبان سومه ووضح، اللهم طهر منا أيدينا وقلوبنا، وبلغنا من الانصراف إليك مطلوبنا، وعرفنا بمن لايعرف غيرك، ولا يسترفد إلا خبرك ياألله. وحقيق على الفضلاء إن جنح سيدي منها إلى إشارة، أو أعمل في احتلابها إضباره. أولبس منها شارة، أو تشوف إلى خدمة إمارة، ألا يحسنوا ظنونهم بعدها بابن ناس، ولا يغتروا بسمت ولا خلقٍ ولا لباس، فما عدا عما بدا. تقضي العمر في سجن وقيد، وعمرو وزيد، وضر وكيد، وطراد صبد، وسعد وسعيد، وعبد وعبيد، فمتى تظهر الأفكار، ويقر القرار، وتلازم الأدكار، وتشام الأنوار، وتتجلى الأسرار، ثم يقع الشهود الذي تذهب معه الأفكار، ثم يحق الوصول الذي إليه من كل ماسواه القرار، وعليه السدار. وحق الحق، الذي ماسواه فباطل، والفيض الرحماني، الذي ربابه لابد هاطل، ماشاب مخاطبتي لك شايبة بريب، ولقد محضت لك مايمحضه الحبيب إلى الحبيب، فيحمل جفا في الذي حملت عليه الغيرة، ولاتظن بي غيره.

وإن أقدر قدرى في مكاشفة سيادتك بهذا البث، في الأسلوب الرث، فالحق أقدم، وبناؤه لايهدم، وشأني معروف في مواجهة الجبابرة، على حين يدى إلى رفدهم ممدودة، ونفس في النفوس

المتهافتة عليهم معدودة، وشبابي فاحم، وعلى الشهوات مزاحم، فكيف بي اليوم مع الشيب، ونصح الجيب، واستكشاف العيب، إنما أنا اليوم على كل من عرفني كل ثقيل، وسيف العدل في كفى صقيل، أعذل أهل الهوى، وليست النفوس في القبول سوا، ولا لكل من ضر دوا، وقد شفيت صدري، وإن جهلت قدري، فاحملني حملك الله على الجادة الواضحة، وسحب عليك ستر الأبوة الصالحة، والسلام.ة عليهم معدودة، وشبابي فاحم، وعلى الشهوات مزاحم، فكيف بي اليوم مع الشيب، ونصح الجيب، واستكشاف العيب، إنما أنا اليوم على كل من عرفني كل ثقيل، وسيف العدل في كفى صقيل، أعذل أهل الهوى، وليست النفوس في القبول سوا، ولا لكل من ضر دوا، وقد شفيت صدري، وإن جهلت قدري، فاحملني حملك الله على الجادة الواضحة، وسحب عليك ستر الأبوة الصالحة، والسلام.

ولما شرح كتاب " الشفا " ... للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى

ابن عياض رحمه الله، واستبحر فيه، طلب أهل العدوتين بنظم مقطوعات تتضمن الثناء على الكتاب المذكور، وإطراء مؤلفة، فانثال عليه من ذلك الطم والرم، بما تعددت منه الأوراق، واختلفت في الإجاجة وغيرها الأرزاق، وإيثاراً لغرضه، ومبادرة من أهل الجهات لإسعاف أريه، وطلب مني أن ألم في ذلك بشيء، فكتبت في ذلك:

شفا عياض للصدور شفاء ... وليس بفض قد حواه خفاء

هدية بر لم يكن لجزيلها ... سوى الأدر والذكر الجميل كفاء

وفي لنبى الله حق وفاته ... وأكرم أوصاف الكرام وفاء

وجاء به بحراً بقول بفضله ... على البحر طعم طيب وصفاء

وحق رسول الله بعد وفاته ... رعاه وإغفال الحقوق جفاء

هو الذخر يغنى في الحياة عتاده ... ويترك منه اليقين رفاء

هو الأثر المحمود ليس يناله دثور ولا يخشى عليه عفاء

حرصت على الإطناب في نشر فضله وتمجيده لو ساعدتني فاء

واستزاد من هذا الغرض، الذي لم يقنع منه بالقليل، فبعثت إليه من محل انتقالي بمدينة سلا حرسها الله:

أأزاهير رياض ... أم شفاء لعياض

جدل الباطل للحق ... بأسياف مواض

وشفى من يشتكي الغلة في زرق الحياض

أي بنيان معار ... آمن فوق انقضاض

أي عهد ليس يرمى ... بانتكاث وانتقاض

ومعان في سطور ... كأسود في غياض

وشفاء لصدور ... من ضنى الجهل مراض

حرر القصد فما شين بنقد واعتراض

يا أبا الفضل أذر بأن الله عن سعيك راض

فاز عبد أقرض الله ... برجحان القراض

وجبت عز المزايا ... من طوال وعراض
لك يا أصدق راو ... لك يا أعدل قاض
لرسول الله وفيت ... بجد وانتهاض
خير خلق الله في حالٍ وفي آت وماض
سدد الله ابن مرزوق ... إلى تلك المراض
زبدة العرفان معنى ... كل نسك وارتباض
فتولى بسط ما أجملت ... من غر انقباض
ساهر لم يدر في استخلاصه طعم اغتماض
دام في علو ومن عاداه يهوى في انخفاض
ما وشى الصبح الدياجي ... في سواد ببياض

ثم نظمت له أيضاً في الغرض المذكور، والإكثار من هذا النمط، في هذا الموضع، ليس على سبيل التبجح بغرابته وإجادته، ولاكن على سبيل الإشادة بالشرح المشار إليه، فهو بالغ غاية الإستبحار.

حييت يا مختط يبت بن نوح ... بكل مزن يغتدى أو يروح
وحمل الريحان ريح الصبا ... أمانة ي كل إلى كل روح
دار أبي الفضل عياض الذي ... أضحت برياه رياضاً تفوح
يا ناقل الآثار يعنى بها ... وواصلاً في العلم جرى المجموح
طرفك في الفخر بعيد المدا ... طرفك للمجد شديد الطموح
كفاك إعجازاً كتاب الشفا ... والصبح لا ينكر عند الوضوح
لله ما أجزلت فينا به من ... منحة تقصر عنها المنوح
فمن بيان الحق زهر ند ... ومن لسان الصدق طير صدوح

تأرج العرف وطاب الجنى ... وكيف لا يثمر أو لا يفوح
تأرج العرف وطاب الجنى ... وكيف لايثمر أو لا يفوح
وحلة من طيب خير الورى ... في الجيب والأعطاف منها نضوح
ومعلم للدين شيدته ... فهذه الأعلام منه تلوح
فقل لهامان كذا أو فلا ... يامن أضل الرشد تبنى الصروح
في أحسن التقويم أنشأته ... خلقاً جديداً بين جسم وروح
فعمره المكتوب لا ينقضى ... إذا تقضى عمر سام ونوح
كأنه في الحف ريح الصبا ... وكل عطف فهو غض مروح
ما عذر مشغوف بخير الورى ... إن هاج منه الذكر أن لا يبوح
عجبت من أكباد أهل الهوى ... وقد سطا البعد وطال النزوح
إن ذكر المحبوب سالت دما ... ما هن أكباد ولكن جروح
يا سيد الأوضاع يا من له ... بسيد الإرسال فضل الرجوع
يا من له الفخر على غيره ... والشهب تخفى عند إشراق يوح

ياخير مشروح وفي واكتفى ... منه ابن مرزوق بخير الشروح
فتح من الله جاه به ... ومن جناب الله تاتى الفتوح
مولده: بتلمسان عام أحد عشر وسبعماية
التميمي التسلى الكرسوطى

محمد بن عبد الرحمن بن سعد التميمي التسلى الكرسوطى من أهل فاسن نزيل مالقة يكنى أبا عبد الله.
حاله
الشيخ الفقيه المتكلم أبو عبد الله، غزير الحفظ، متبحر الذكر، عديم القرين، عظيم الاطلاع، عارف بأسماء الأوضاع، ينثال منه على السايل كثيب مهيل، ينقل الفقه منسوباً إلى أمانة، ومنوطاً برجاله، والحديث بأسانيده ومتونه، خوار العنان، وساع الخطو، بعيد الشأو، يفيض من حديث إلى فقه، ومن أدب إلى حكاية، ويتعدى ذلك إلى غرايب المنظومات، مما يختص بنظمه أولو الشطارة والحرفة من المغاربة، ويستظهر مطولات القصاص، وطوابير الوعاظ، ومساطير أهل الكدية، في أسلوب وقاحٍ يفضحه الإعراب، حسن الخلق جم الاحتمال. مطرح الوقار، رافض التصنع، متبذل اللبسة، رحيب أكناف المرارة لأهل الولايات، يلقى بمعاطنهم البرك، وينوط بهم الوسائل، كثير المشاركة لوصلايه، محصب على أهل بيته، حدب على بنيه. قدم على الأندلس عام اثنين وعشرين وسبعماية، فأقام بالجزيرة مقرياً بمسجد الصواع منها، ومسجد الرايات. ثم قدم على مالقة وأقرأ بها، ثم قدم على غرناطة عام خمسة وعشرين وسبعماية، فتعرف على أرباب الأمر، بما نجحت حيلته، وخف به موقعه، فلم يعدم صلة، ولافقد مرفقة، حتى ارتاش وتأثل بمحل سكناه من مالقة، مدرة مغلة، وعقارا مفيدا. وطال قعوده لسرد الفقه بمسجدها الجامع، نمير في الركب، مهجور الحلقة، حملا من الخاصة والعامة، لتلبسه بالعرض الأدنى. وهو الآن خطيب مسجد القصبة بها، ومحله من الشهرة، بالحفظ والاستظهار لفوع الفقه، كبير.
مشيخته
قرأ القرآن على الجماعة بالمغرب والأندلس، منهم أبوه، والأستاذ أبو الحسن القيجاطي البلوى، وأبو إسحق الحريرى، وأبو الحسن بن سليمن، وأبو عبد الله بن أجروم. وقرأ الفقه على أبي زيد الجزولي، وعبد الرحمن بن عفان، وأبي الحسن الصغير، وعبد المؤمن الجاناتي، وقرأ الكتاب بين يديه مدة، ثم عزله، ولذلك حكاية. حدثني الشيخ أبو عبد الله الكرسوطي، المترجم به، قال قرأت بين يديه، في قول أبي سعيد في التهذيب، والدجاج والأوز المخلات، فقال أنظر هل يقال الدجاج أو الجداد، لغة القرآن أفصح، قال الله تعالى: وجدد بيض وحمر مختلف ألوانها، وغرابيب سودٍ. فأرزى به، ونقل إليه إزاره، فعزله. وقعد بعد ذلك للاقراء بفاس، كذا حدث. وأخذ عن أبي إسحق الزناتي، وعن خلف الله الجاصى، وأبي عبد الله بن عبد الرحمن الجزولى، وأبي الحسين الزدغى، وأبي الفضل ابنه، وأبي العباس بن راشد المراني، وأبي عبد الله بن رشيد. وروى الحديث بسبتة عن أبي عبد الله الغمارى، وأبي عبد الله بن هاني، وذاكر أبا الحسن بن وشاش، وبمالقة عن الخطيب الصالح الطنجالي، وأبي عمرو بن منظور. وبغرناطة عن أبي الحسن القيجاطى، وأبي إسحق بن أبي العاصي. وببلش عن أبي جعفر الزيات.

تواليفه

منها الغرر في تكميل الطرر، طرر أبي إبراهيم الأعرج. ثم الدرر في اختصار الطرر المذكور. وتقييدان على الرسالة، كبير وصغير، ولخص التهذيب لابن بشير، وحذف أسانيد المصنفات الثلاثة، البخاري، والرمذي، ومسلم، والزم إسقاط التكرار، واستدراك الصحاح الواقعة في التهذيب على مسلم والبخاري. وقيد على مختصر الطليطلى، وشرعي تقييد على قواعد الإمام أبي الفضل عياض بن موسى ابن عياضن برسم ولدى أسعده الله.

شعره

أنشدني، وأنا أحاول بمالقة لوث العمامة، وأستعين بالغير على إصلاح العمل، وإحكام اللياثة:

أمعمما قمرا تكامل حسنه ... أربى على الشمس المنبرة في البها

لا تلتسم ممن لديك زيادة ... فالبدر لا يمتاز من نور السها

ويصدر منه الشعر مصدراً، لا تكنفه العناية

محنته

أسر ببحر الزقاق، قادماً على الأندلس، في جملة من الفضلاء، منهم والده. واستقر بطريف عام ستة وعشرين وسبعماية، لقى بها شدة ونكالاً، ثم شرح والده، لمحاولة فكاك نفسه، وفك ابنه، ويسر الله عليه، فتخلصا من تلك المحنة في سبيل كدية، وأفلت من بين أنياب مشقة.

بعض أخباره

قال، لقيت الشيخ ولي الله أبا يعقوب بساحل بادس، في جملة من الفضلاء، منهم والده. واستقر بطريف عام ستة وعشرين وسبعماية، ولقى بها شدة ونكالاً، ثم سرح والده، لمحاولة فكاك نفسه، وفك ابنه، ويسر الله عليه، فتخلصا من تلك المحنة في سبيل كدية، وأفلت من بين أنياب مشقة.

بعض أخباره

قالن لقيت لاشيخ ولي اله أبا يعقوب بساحل بادس، قاصداً الأخذ عنه، والتبرك به، ولم يكن رآني قط، وألفيت بين يديه عند دخولي عليه، رجلاً يقرأ عليه القرآن. فلما فرغ، أراد أن يقرأ عليه أسطراً من الرسالة، فقال له، اقرأها على هذا الفقيه، وأشار إلى، ورأيت في عرصةٍ له أصول خص، فتمنيت الأكل منها، وكان رباعها غير حاضر، فقام عن سرعة، واقتلع منها أصولاً ثلاثة، ودفعها إلى، وقال كل. فقلت في نفسي، تصرف في الخضرة قبل حضور رباعها، فقال لي، إذا أردت الأكل من هذه الخضر، فكل من هذا القسم فإنه لي. قلت، وخبرت من اضطلاع هذا المترجم به بعبارة الرؤيا، ماقضيت منه العجب في غير ماشيء جربته. وهو الآن بحاله الموصوفة. وأصابه لهذا العهد جلاء عن وطنه، لتوفي الحمل عليه من الخاص والعام، بما طال به نكده. ثم آلت حاله إلى بعض صلاحن والله يتولاه.

مولده: بمدينة فاس عام تسعين وستماية.

محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن عبد المنعم، من أهل سبتة، الأستاذ الحافظ.

حاله

من العايد: كان رحمه الله رجل صدق، طيب اللهجة، سليم الصدرن تام الرجولة، صالحاً، عابداً، كثير القرب والأوراد في آخر حاله، صادق اللسان. قرأ كثيراً، وسنه تنيف على سبع وعشرين، ففات أهل الدؤب والسابقة، وكان من صدور الحفاظ، لم يستظهر أحد في زمانه من اللغة ما استظهره، فكاد يستظهر كتاب التاج للجوهري وغيره، آية تتلى، ومثلاً يضرب، قايماً على كتاب سيبويه، يسرده بلفظه. اختبره الفاسيون في ذلك غير ما مرة. طبقة

في الشطرنج، يلعبها محجوباً، مشاركاً في الأصول آخذاً في العلوم العقلية. مع الملازمة للسنة، يعرب أبداً كلامه ويزينه.

مشيخته

أخذ ببلده عن الأستاذ أبي إسحق الغافقي، ولازم أبا القاسم بن الشاط، وانتفع به وبغيره من العلماء.

دخوله غرناطة

قدم غرناطة مع الوفد من أهل بلده، عندما صارت إلى إيالة الملوكح من بني نصرن لما وصلوا بالبيعة.

وفاته: كان من الوفد الذين استأصلهم الموتان عند منصرفهم عن باب السلطان، ملك المغرب، بأحواز تيزى، حسبما وقع التنبيه على بعضهم.

ابن رشيد

محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن إدريس بن سعيد ابن مسعود بن حسن بن محمد بن عمر بن رشيد الفهرى من أهل سبتة، يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن رشيد

حاله

من عيد الصلة: الخطيب المحدث، المتبحر في علوم الرواية والإسناد. كان رحمه الله فريد دهره عدالة وجلالة، وحفظاً وأدباً، وسمتاً وهدياً، واسع الأسمعة، عالي الإسناد، صحيح النقل، أصيل الضبط، تام العناية بصناعة الحديث، قيماً عليها بصيراً بها، محققا فيها، ذاكراً فيها للرجال، جماعة للكتب، محافظاً على الطريقة، مضطلعاً بغيرها، من العربية واللغة والعروض، فقيهاً أصيل النظر، ذاكراً للتفسير، ريان من الأدب، حافظاً للأخبار والتواريخ، مشاركاً في الأصلين، عارفاً بالقراءات، عظيم الوقار والسكينة، بارع الخط، حسن الخلق، كثير التواضع، رقيق الوجه، متجملاً، كلف الخاصة والعامة، مبذول الجاه ولا شفاعة. كهفاً لأصناف الطلبة. قدم على غرناطة في وزارة صديقه، ورفيق طريقه في حجه وتشريقه، أبي عبد الله بن الحكيمن فلقى براً، وتقدم للخطابة بالمسجد الأعظم، ونفع الله لديه بشفاعته المبذولة، طايفة من خلقه، وانصرف إثر مقتله إلى العدوة، فاستقر بمدينة فاس، معظماً عند الملوك والخاصة، معروف القدر عندهم.

مشيخته

قرأ ببلده سبتة على الأستاذ إمام النحاة أبي الحسن بن أبي بالربيع كتاب سيبويه، وقيد على ذلك تقييداً مفيداً، وأخذ عنه القراءات. وأخذ أيضاً عن الأستاذ أبي الحسن بن الخطار. ورحل من بلده سبتة لأداء الفريضة.

حج ولقى المشايخ عام ثمانية وثمانين وستماية، فوافى في طريقه الحاج المحدث الراوية، ذا الوزاريتين بعد، أبا عبد الله الحكيم، وأخذ عن الجلة الذين يشق إحصاؤهم. فممن لقى بإفريقية الراوية العدل أبا محمد عبد الله بن هارون يروى عن ابن بقى، والأديب المتبحر أبا الحسن حازم ابن محمد القرطاجني. وروى بالمشرق عن العدد الكثير كالإمام جار الله أبي اليمن بن عساكر، لقيه بباب الصفا تجاه الكعبة المعظمة، وهو موضع جلوسه للسماع، غرة شوال عام أربعة وثمانين وستماية، وعن غيره، كأبي العز عبد الرحمن بن عبد المنعم بن علي بن نصر بن منظور بن هبة الله وغيرهم ممن ثبت في اسم مرافقة في السماع والرحلة أبي عبد الله بالحكيم رحمه الله، فلينظر هنالك.

تواليفه

ألف فوايد رحلته في كتاب سماه ملئ العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين، إلى مكة وطيبة. قال شيخنا أبو بكر ابن شبرين، وقفت على مسودته، ورأيت فيه فنوناً وضروباً من الفوايد العلمية والتاريخ، وطرفاً من الأخبار الحسان. والمسندات العوالي والأناشيد. وهو ديوان كبير، ولم يسبق إلى مثله. قلت ورأيت شيئاً من مختصره بسبتة.

دخوله غرناطة

ورد على الأندلس في عام اثنين وتسعين وستماية. فعقد مجالس اللخاص والعام، يقرى بها فنوناً من العلم. وتقدم خطيباً وإماماً بالمسجد الأعظم منها. حدثني بعض شيوخنا، قال، قعد يوماً على المنبر، وظن أن المؤذن الثالث قد فرغ، فقام يخطب والمؤذن قد رفع صوته بإذانه، فاستعظم ذلك بعض الحاضرين، وهم آخر بأشعاره وتنبيهه. وكلمه آخر، فلم يثنه ذلك عما شرع فيه، وقال بديهة، أيها الناس، رحمكم الله، إن الواجب لا يبطله المندوب، وأن الإذان الذي بعد الأول غير مشروع الوجوب، فتأهبوا لطلب العلم، وانتبهوا، وتذكروا قوله عز وجل: وما أتاكم الرسول فحدوء، ومانهاكم عنه فانتهوا، وقد روينا عنه صلى الله عليه وسلم، أنه قال، من قال لأخيه والإمام يخطب، وأصمت، فقد لغا، ومن لغا فلا جمعة له. جعلنا الله وإياكم ممن علم فعملن وعمل فقبل، وأخلص فتخلص. وكان ذلك مما استدل به على قوة جناته، وانقياد لسانه لبيانه.

شعره

وله شعر يتكلفه إذا كان لا يزن أعاريضه إلا بميزان العروضن فمن ذلك ما حدث به، قال لما حللت بدمشق، ودخلت دار الحديث الأشرفيه، برسم رؤية النعل الكريمة، نعل المصطفى صلوات الله عليه، ولثمتها، حضرتني هذه الأبيات:

هنيئاً لعيني أن رأت نعل أحمد ... فيا سعد جدي قد ظفرت بأسعد
وقبلتها أشفى الغليل فزادني ... فيا عجباً زاد الظما عند مورد
فلله ذاك اللثم فهو ألذ من ... لما شفة لميا وخد مورد
ولله ذاك اليوم عيداً ومعلماً ... بتاريخه أرخت مولد أسعد
عليه صلاة نشرها طيب كما ... يحب ويرضى ربنا لمحمد

وقال، وقلت في موسم عام ستة وثمانين وستماية، بثغر سبتة حرسها الله تعالى:

أقول إذا هب النسيمن المعطر ... لعل بشيراً باللقاء يبشر
وعالي الصبا مرت على ربع جيرتي ... فعن طيبهم عرف النسيم يعبر
وأذكر أوقاتي بسلمى وبالحمى ... فتذكو لظى في أضلعي حين أذكر
ربوع يود المسك طيب رابها ... ويهوى حصى فيها عقيق وجوهر
بها جيرة لا يخفرون بذمة ... هم لمواليهم جمال ومفخر
إذا ما اجتلت زهر النجوم جمالهم ... تغار لباهي نورهم فتغور
ومن جود جدواهم يرى الليث ... يعمر ون خوف عدواهم يذعر
ومن سيب يمناهم يرى الروض يزهر ... ومن فيض نعماهم يرى البحر يزخر
رعى الله عهداً بالمصلى عهدته ... وروض المنى غض يرق وينضر
زماناً نعمنا فيه الظل وارف ... بجنات عدن تحتها العذاب يخضر
ولله أيام المصلى وطيبها وأنفسنا بالقرب والأنس تجبر

بحيث يرى بدر الكمال وشمسه ... وروضته فردوس وحوض ومنبر
أروم دنواً من بهاء جمالها ... ولثماً فتأبى هيبة وتوقر
خضعت وذلي للحبيب تعزز ... فطرفي مغضوض وخدي معفر
ووجه سروري سافر متهلل ... وحالي بهم حلل وعيشي أخضر
فطوبى لمن أضحى بطيبة ثاوياً ... يجر أذيال الفخار وينشر
وإذ فات عيني أن تراهم فرددوا على مسمعي ذكر المصلى وكرروا
وردت فيا طيب الورود بطيبة ... صدرت فوا حزني فلا كان مصدر
رماني زماني بالفراق فغربني ... على مثل من فارقت عز التصبر
وأضمرت أشجاني ودمعي مظهر ... وأسررت هجراني وحالي تخبر
فمن أدمعي ماء يفيض ويهمر ... ومن أضلعي نار تفور وتسعر
فجسمي مصفر وفودي أبيض ... وعيشي مغبر ودمعي أحمر
وحين دنا التوديع ممن أحبه ... وحان الذي ما زلت منه أحذر
ونادى صحابي بالرحيل وأزمعوا ... وسارت مطاياهم وظلت أقهقر
وألوي إليه الجيد حتى وجعته ... وظل فؤادي لوعة يتفطر
وقفت لأقضي زفرة وصبابة ... ولا أنثني فالموت أجدى وأجدر
ولو أنني بعت الحياة بنظرة ... لأبت وحظي فيه أوفى وأوفر
وما باختياري إنما قدر جرى ... رضيت بما يقضي الآله ويقدر
حنيني إلى مغنى الجمال مواصل ... وشوقي إلى معنى الجمال موفر
وغير جميل أن يرى عن جمالها ... فؤادي صبوراً والمسير ميسر
أيصبر ظمآن يغال بغلة ... وفي روضة الرضوان شهد وكوثر
فيا عينها الزرقاء إن عيونها ... من الحزن فيض بالنجيع تفجر
سأقطع ليلى بالسرى أو أزورها ... وأحمي الكرى عيناً لبعدك يظهر
وأنضي المطايا أو أوافي ربعها ... فتجدني طوراً وطوراً تغور
حظرت على نفسي الحذار من الردى ... أتحذر نفس الحبيب تسير
أينكر تغرير المشوق بنفسه ... وقد علموا أن المحب مغرر
وقفت على فتوى المحبين كلهم ... فلم أجد التغرير في الوصل ينكر
وإني إذا ما خطرة خطرت قصت بهمي وعزمي همة لا تأطر
أقيم فألقي بين عيني وهمتي ... وسيري في سبل العلا ليس ينكر
إذا ما بدت للعين أعلام طيبة ولاحت قباب كالكواكب تزهر
وللقبة الزهراء سمك سما علاً ... وراق سنى كالشمس بل هو أزهر
لها منظر قيد النواظر والنهى ... لها ساكن من نوره البدر يبدر
فعرجوا على كمل الكمال وسلموا ... سلمتم وبلغتم مناكم فأبشروا
بنفسي لا بالمال أرضى بشارة ... إذا لاح نور في سناها مبشر

وما قدر نفسي أن تكون كفاً ... ولكنها جهد المقل فأعذر
أقول إذا أوفيت أكرم مرسل ... قراى عليكم أن ذنبي يغفر
وأحظى بتقريب الجوار مكرماً ... وأصفح عن جور البعاد وأعذر
وأرتع في ظل الجنان منعماً ... وأمني بقرب من حماك وأجبر
هناك هناك القرب فانعم بنيله ... بحيث ثوى جسم كريم مطهر
ودع عنك تطواف البلاد وخيمن ... بطيبة طابت فهي مسك وعنبر
فخرت بمدحي للنبي محمد ومن ... مدحه المداح يزهى ويفخر
أطلت وإني في المديح مقصر ... فكل طويل في معاليك يقصر
فما بلغت كف أمري متناول بها ... المجد إلا والذي نلت أكبر
وما بلغ المهدون في القول مدحة ... وإن أطنبوا إلا الذي فيك أفخر
عليك صلاة الله ما مر سبق ... إليك وما هب النسيم المعطر
وقال يرثي إبنا نجيباً ثكله بغرناطة:
شباب ثوى شابت عليه المفارق ... وغصن ذوي تاقت إليه الحدايق
على حين راق الناظرين بسوقه ... رمته سهام للعيون رواشق
فما أخطأت منه الفؤاد بعمدها ... فلا أبصرت تلك العيون الرواق
وحين تداني للكمال هلاله ... ألم به نقص وجدت مواحق
إلى الله أشكو فهو يشكي نوازعاً ... عظاماً سطاها للعظام عوارق
ولا مثل فقدان البني فجيعة ... وإن طال ما لجت وجالت بوايق
محمد إن الصبر صبر وعلقم ... على أنه حلو المثوبة سابق
فإن جزعاً فالله للعبد عاذر ... وإن جلداً فالوعد لله صادق
وتالله ما لي بعد عيشك لذة ... ولا راقني مرأي لعيني رايق
فأني به والمذكرات عديدة ... فنبل وهم للعوايد خارق
فأين التفت فالشخص للعين مائل ... وإن أستمع فالصوت للأذن طارق
وإن أدع شخصاً باسمه لضرورة ... فإن اسمك المحبوب للنطق سابق
وإن تقرع الأبواب راحة قارع ... يطير عندها قلب لذكرك خافق
وكل كتاب قد حويت فمذكر ... آثاره كل إليك توابق
سبقت كهولة في الطفولة لا تني ... وأرهقت أشياخاً وأنت مراهق
فلو لم يغلك الموت دمت مجلياً ... واقبل سكيتاً وجيبة ولاحق
على مهل أحرزت ما شيت ثانياً ... عنانك لا تجهد وأنت مسابق
رأتك المنايا سابقاً فأغرتها ... فجد طلاباً إنهن لواحق
لين سلبت مني نفيس ذخائر ... فإني بمذخور الأجور لواثق
وقد كان ظني أنني لك سابق ... فقد صار علمي أنني بك لاحق
غريبين كنا فرق البين بيننا ... فأبرح ما يلقى الغريب المفارق

فبين وبعد بالغريب توكلاً ... قد رعى بما حملت والله ضايق
عسى وطن يدنو فتدنو مني ... وأي الأماين والخطوب عوايق
فخط الأسى خطا تروق سطوره ... وتمحو البكا فالدمع ماح وساحق
فيا واحداً قد كان للعين نورها ... اتل ضياً بعد بعدك غاسق
عليك سلام الله ما جن ساجع ... وما طلعت شمس وما ذر شارق
وما همعت سحب غواد روايح ... وما لمعت تحدو الرعود بوارق
وجاد على مثواك غيث مروض ... عباد لرضوان الإله موافق

محنته

تعرض إليه قوم، يوم قتل صديقه أبي عبد الله الحكيم بإذاية قبيحة، وأسمع كل شارق من القول على ألسنة زعانفة فجر وترهم القتيل، فتخلص ولا تسل كيف، وأزمع الرحيل فلم يلبث بعد ذلك.
وفاته: كانت وفاته بمدينة فاس، في اليوم الثامن من شهرم المحرم

مفتتح عام أحد وعشرين وسبعماية. ودفن في الجبانة التي بخارج باب الفتوح بالروضة المعروفة بمطرح الجنة، التي اشتملت على العلماء والصلحاء والفضلاء، من الغرباء الواردين مدينة فاس. وكان مولده بسبتة عام سبع وخمسين وستماية.

محمد بن علي بن هاني اللخمي السبتي

يكنى أبا عبد الله، ويعرف باسم جده، أصلهم من إشبيلية

حاله

كان رحمه الله فريد دهره في سمو الهمة، وإيثار الاقتصاد والتحلي بالقناعة، وشموخ الأنف على أهل الرياسة، مقتصراً على فايدة ربع له ببلده، يتبلغ مع الاستقامة، مع الصبر والعمل على حفظ المروءة، وصون ماء الوجه، إماماً في علم العربية، مبرزاً متقدماً فيه، حافظاً للأقوال، مستوعباً لطريق الخلاف، مستحضراً لحجج التوجيه، لا يشق في ذلك غباره، ريان من الأدب، بارع الخط، سهل مقادة الكلام، مشاركاً في الأصلين، قايماً على القراءات، حسن المجلس، رايق البزة، بارع المحاضرة، فايق الترسل، متوسط النظم، كثير الاجتهاد والعكوف، مليح الخلق، ظاهر الخشوع، قريب الدمعة، بيته شهير الحسب والجلالة.
وجرى ذكره في الإكليل الزاهر بما نصه: علم تشير إليه الأكف ويعمل إلى لقاية الحافر والخف، رفع للعربية ببلده راية لا تتأخر، ومرج منها لجة تزخر، فانفسخ مجال درسه، وأثمرت أدواح غرسه، فركض يماشا وبرح، ودون وشرح، إلى شمايل تملك الظرف زمامها، ودعابة راشت الحلاوة سهامها. ولما أخذ المسلمون في منازلة الجبل وحصاره، وأصابوا الكفر منه بجارحة أبصاره، ورموا بالثكل فيه نازح أمصاره، كان ممن انتدب وتطوع، وسمع الندا، فأهطع، فلازمه إلى أن نفد لأهله القوت، وبلغ من فتحة الأجل الموقوت، فأقام الصلاة محرابه، وقد غير محياه طول اغترابه، وبادره الطاغية قبل أن يستقر نصل الإسلام في قرابه، أو يعلق أصل الدين في ترابه. وانتدب إلى الحصار به وتبرع، ودعاه أجله فلبى وأسرع. ولما هدر عليه الفتيق، وركعت إلى قبلته المجانيق، أصيب بحجر دوم عليه كالجارح المحلق، وانقض إليه انقضاض البارق المتألق، فاقتنصه، واختطفه، وعمد إلى زهره فقطفه فمضى إلى الله

طوع نيته، وصحبته غرابة المنازع حتى في منيته.

مشيخته

قرأ على الأستاذ العلامة أبي إسحق الغافقي، وعلى الأستاذ النحوي أبي بكر بن عبيدة، واعتمد عليه، وقرأ على الإمام الصالح أبي عبد الله ابن حريث.

تواليفه

ألف كتباً، منها كتاب شرح التسهيل لابن مالك، وهو أجل كتبه، أبدع فيه، وتنافس الناس فيه. ومنها الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة، ومنها إنشاد الضوال، وإرشاد السوال في لحن العامة، وهو كتاب مفيد، وقوت المقيم. ودون ترسل رييس الكتاب أبي المطرف بن عميرة وضمه في سفرين. وله رجز في الفرايض مفيد.

شعره

حدثنا شيخنا القاضي الشريف، نسيج وحده، أبو القاسم الحسني، قال، خاطبت الأستاذ أبا عبد الله بن هاني رحمه الله بقصيدة من نظمي أولها:

هلت الحديث عن الكرب الذي شخصا

فأجابني عن ذلك بقصيدة في رويها:

لولا مشيب بفودى للفؤاد عصا ... نضيت في مهمه التشبيب لي قلصا

واستوقفت عبراتي وهي جارية ... وكفاء توهم ربعاً للحبيب قصا

مسايلاً عن لياليه التي انتهزت ... أيدي الأماني بها ما شيته فرصا

وكنت جاريت فيها من جرى طلقاً ... من الإجادة لم يحجم ولا نكصا

أصاب شاكلة المرمى حين رمى ... من الشوارد ما لولاه ما اقتنصا

ومن أعد مكان النبل نبل حجاً ... لم يرض إلا بأبكار النهي قنصا

ثم انثنى ثانياً عطف النسيب إلى ... مدح به قد غلا ما كان قد رخصا

فظلت أرفل فيها لبسة شرفت ... ذاتاً ومنتسباً أعزز به قمصا

يقول فيها وقد خولت منحتها ... وجرع الكاشح المغري بها غصصا

هذي عقايل وافت منك ذا شرف ... لولا أياديه بيع الحمد مرتخصا

فقلت هلا عكست القول منك له ... ولم يكن قابلاً من مدحه الرخصا

وقلت ذي بكر فكر من أخي شرف ... يردي ويرضى بها الحساد والخلصا

لها حلي حسنيات على حلل ... حسنية تستبي من حل أو شخصا

خولتها وقد اعتزت ملابسها ... بالبخت ينقاد للإنسان ما عوصا

خذها أبا قاسم مني نتيجة ذي ... ود إذا شيت وداً للورى خلصا

وهي طويلة. ومما ينسب إليه، وهو مليح في معناه:

ما للنوى مدت لغير ضرورة ... ولقبل ما عهدي بها مقصوره

إن الخليل وإن دعته ضرورة ... لم يرضى ذاك فكيف دون ضروره

وقال مضمنا:

لا يلمني عاذلي حتى يرى ... وجه من أهوى فلومي مستحيل

لو رأى وجه حبيبي عاذلي ... لتفارقنا على وجه جميل

وقال في الفخر:

قل للموالي عش بغبطة حامد ... وللمعادي بت بضغنة حاسد

المزن كفى ولاثريا همتي ... وذكا ذكري والسعود مقاصد

وقال في غير ذلك

غنيت بي دون غيري الدهر عن مثل ... بعضي لبعض أضحى يضرب المثلا

ظهري انحنى لمشيب لاح واعجبا ... غض إذا أينعت أزهاره ذبلا

أذلك أم زهر لاحت تخبر أن ... يوم الصبا والتصابي آنس الطفلا

ومما جمع فيه بين نظمه ونثره، ما راجع به شيخنا القاضي الشريف أبا القاسم الحسني، عن القصيدة الهمزية التي ثبتت في اسمه:

يا أوحد الأدبا أو يا أوحد الفضلا أو يا أوحد الشرفاء

من ذا تراه أ منك إذا التوت ... طرق الحجاج بأن يجيب نداء

أدب أرق من الهواء وإن تشا ... فمن الهوى والماء والصهباء

وألذ من ظلم الحبيب وظلمه ... بالظاء مفتوحاً وضم الظاء

ما السحر إلا ما تصوغ بنانه ... ولسانه من حلية الإنشاء

والفضل ما حليته وحبيته ... وحبوتني منه بخير حباء

أبكار فكرك قد زففت بمدحتي ... تمشي روايعها على استحياء

لا من قصور بل لتقصيها من ... حيث لم يظفرن بالإرفاء

لاكن جبرن وقد فبلن على ... الرضا فالجبر للأبكار للإباء

هذا إلى الشرف الذي قد فزت ... من عليائه بالعزة القعساء

شرف السيل من الرسول وسيلة ... قامت بابن سناً وابن سناء

حسن وأبو حسن وفاطمة ابنة ... الهادي البرية خاتم النبلاء

شرف على شرف إلى شرفين ... من ذا حاز ما حزت من علياء

هذي ثلاث أنت واحد فخرها ... فاشمخ لها شرفاً بأنف علاء

من رام رتبتك السنية فليقف ... دون المرام مواقف الإقصاء

هذي مآثر قد شأوت بصيتها ... من كان من آب لها أو شاء

والليث يرهب زأره في موطن ... ما كان من نقد به أو شاء

يكفيك من نكد المعاند أن يرى ... متقلد الأعضاء بالبغضاء

السن يفنى بالأنامل قرعه ... أو عضه متوقد الأحشاء

أتحفتني بقصيدة همزية ... مقصورة ممدودة الآراء

كم بين تلك وهذه لا كنها ... غطى على هذى ذهاب فتاء

ذو الشيب يعذره الشباب فما لهم بذكا نبل أو بنبل ذكاء

من قارب الخمسين خطواً سنه ... فمحاله مستوجب الإبطاء

أبني إنك أنت أسدى من به ... يتعاظم الآباء بالأبناء
لله نفثة سحر ما قد شدت لي ... من نفث سحرك في مشاد ثناء
عارضت صفواناً بها فأريت ما ... يستعظم الراوي له والراء
لو راء لؤلؤك المنظم لم يفز ... في نظم لؤلؤه بغير عناء
بوأتنى منها أجل مبوإ ... فلا خمصى مستطن الجوزاء
وسمى بها أسمى سايرً فأنابما ... أسديت ذو الأسماء في الأسماء
وأشدت ذكرى في البلاد فلى بها ... طول الثناء وإن أطلت ثواء
ولقومي الفخر المشيد بنيته ... بأحسن تشييد وحسن وبناء
فليهن هانيهم يد بيضاء ما ... أن مثلها لك من يد بيضاء
حليت أبياتا لهم لخمية ... بحلا علاً مضرية غراء

فليشمخوا أنفا بما أوليتهم ... يا محرز الآلاء بالإيلاء

هذا، بنى، وصل الله لك ولي بك علو المقدار، وأجرى وفق أو فوق إرادتك أو إرادتي لك جاريات الأقدار، ما سمح به الذهن الكليل واللسان الفليل في مراجعة قصيدتك الغراء، الجالية للسراء، الآخذة بمجامع القلوب، الآتية بجوامع المطلوب، الحسنة المهيع والأسلوب، المتحلية بالحلى الحسنية، العريقة المنتسب في العلى الحسنية، الجالية صدا قلوب ران عليها الكسل، وخانها المسعدان، السؤل والأمل، فمتى حامت المعاني حولها، ولو أقامت حولها، شكت ويلها وعولها، وحرمت من فريضة الفضيلة عولها، وعهدى بها، والزمان زمان، وأحكامه الماضية أماني مقضية وأمان، تتوارد آلافها، ويجمع إجماعها وخلافها، ويساعدها من الألفاظ كل سهل ممتع، مفترق مجمع، مستأنس غريب، بعيد الغور قريب، فاضح الحلا، واضح العلا، وضاح الغرة والجبين، رافع عمود الصبح المبين، أيد من الفصاحة بإياد، فلم يحفل بصاحبي طي وإياد، وكسى بضاعة البلاغة، فلم يعبأ بهمام وابن المراغة. شفاء المحزون، وعلم السر الخزون، مابين منثوره والموزون. والآن لا ملهج ولا مبهج ولا مرشد ولا منهج عكست القضايا فلم تنتج، فتبلد القلب الذكي، ولم يرشح القليب البكى، وعم الإفحام وغم الإحجام، وتمكن الإكداء والإجبال، وكورت الشمس وسيرت الجبال، وعلت سآمة، وغلبت ندامة، وارتفعت ملامة، وقامت لنوعي الأدب قيامة. حتى إذا ورد ذلك المهرق، وفرع غصنه المورق، تغنى به الحمام الأورق، وأحاط بعداد عداته الغصص والشرق، وأمن من الغصب والسرق، وأقبل الأمن، وذهب بإقباله الفرق، نفخ في صور أهل المنظوم والمنثور، وبعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور، وتراءت للأدب صور، وعمرت للبلاغة كور، وهمت لليراعة درر، ونظمت للبراعة درر، وعندها يتبين أنك واحد حلبة البيان، والسابق في ذلك الميدان، يوم الرهان، فكان لك القدم، وأقر لك مع التأخر السابق الأقدم، فو حق نصاعة ألفاظ أجدتها، حين أوردتها، وأسلتها حين أرسلتها، وأزنتها حين وزنتها، وبراعة معان سلكتها حين ملكتها، وأرويتها حين روأتها وأرويتها، وأصلتها حين فصلتها ووصلتها، ونظام جعلته لجسد البيان قلباً، والمعصمة قلماً، وهصرت حدايقه غلباً، وارتكبت روية صعباً، ونثاراً أتبعته له خديماً، وصيرته لمدير كأسه نديماً، ولحفظ ذمامه المدامى، أو مدامه الذمامي مديماً، لقد فتنتني حين أتتني، وسبتني حين نصبتني، فذهبت خفتها بوقارى، ولم يرعها بعد شيب عذارى، بل دعت للتصابى فقلت مرحباً، وحللت لفتنتها الحبا، ولم أحفل بشيب، وألفيت مارد نصابي نصيب، وإن كنا فرسى رهان، وسابقي حلبة ميدان، غير أن الجلدة بيضاء، والمرجو الإغضاء، بل الإرضاء. بنى

كيف رأيت للبيان هذا الطوع، والخروج فيه من نوع إلى نوع. أين صفوان بن إدريس، ومحل دعواه بين رحلة وتعريس، كم بين ثغاء بقر هذا الفلا، وبين زئير ليث العريس، كما أني أقطع علماً، وأعلم قطعاً، وأحكم مضاء، وأمضي حكماً، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائقة، وفريدتك الحالية الفايقة، المعارضة بها قصيدته، المتسخة بها فريدته، لذهب عرضاً وطولاً، ثم اعتقد لك اليد الطولى، وأقر بارتفاع النزاع، وذهبت له تلك العلالات والأطماع، ونسى كلمته اللؤلؤية، ورجع عن دعواه الأدبية، واستغفر الله ربه من تلك الإلهية. بنى وهذا من ذلك، من الجرى في تلك المسالك، والتبسط في تلك المآخذ والمتارك، أينزع غيرى هذا المنزع، أم المرء بشعره وابنه مولع. حياً الله الأدب وبنيه، وأعاد علينا من أيامه وسنيه، ما أعلى منازعه، وأكبا منازعه، وأجل مآخذه، وأجهل تاركه، وأعلم آخذه، وأرق طباعه، وأحق أشياعه وأتباعه، وأبعد طريقه، وأسعد فريقه، وأقوم نهجه، وأوثق نسجه، وأسمح الفاظه، وأفصح عكاظه، وأصدق معانيه وألفاظه، وأحمد نظامع ونثاره، وأغنى شعاره ودثاره. فعايبه مطرود، وعاتبه مصفود، وجاهله محصود، وعالمه محسود. غير أن الإحسان فيه قليل، ولطريق الإصابة فيه علم ودليل، من ظفر بهما وصل، وعلى الغاية القصوى منهما حصل، ومن نكب عن الطريق، لم يعد من ذلك الفريق، فليهنك أيها الإبن الذكى، البر الزكى، الحبيب الحفى، الصفى الوفى، أنك حامل رايته، وواصل غايته، ليس أولوه وآخروه لذلك بمنكرين، ولا تجد أكثرهم شاكرين. ولولا أن يطول الكتاب، وينحرف الشعراء والكتاب، لفاضت ينابيع هذا الفصل فيضاً، وخرجت إلى نوع آخر من البلاغة أيضاً، قرت عيون

أودايك، وملئت غيظاً صدور أعدايك، ورقيت درج الآمال، ووقيت عين الكمال، وحفظ منصبك العالي، بفضل ربك الكبير المتعال. والسلام الأتم الأكمل الأعم يخصك به، من طال في مدحه أرقالك وأغذاذك، وراد روض حمده طلك ورذاذك وغدت مصالح سعيه في سعى مصالحك، وسينفعك بحول الله وقوته، وفضله ومنته معاذك ووسمت نفسك بتلميذه، فسمت نفسه بأنه أستاذك، ابن هاني ورحمة الله وبركاته.دايك، وملئت غيظاً صدور أعدايك، ورقيت درج الآمال، ووقيت عين الكمال، وحفظ منصبك العالي، بفضل ربك الكبير المتعال. والسلام الأتم الأكمل الأعم يخصك به، من طال في مدحه أرقالك وأغذاذك، وراد روض حمده طلك ورذاذك وغدت مصالح سعيه في سعى مصالحك، وسينفعك بحول الله وقوته، وفضله ومنته معاذك ووسمت نفسك بتلميذه، فسمت نفسه بأنه أستاذك، ابن هاني ورحمة الله وبركاته.

دخوله غرناطة: دخل غرناطة مع الوفد من أهل بلده عند تصيرها إلى الإيالة النصرية، حسبما ثبت في موضعه.

توفي بجبل الفتح، والعدو يحاصره، أصابه حجر المنجنيق في رأسه، فذهب به، تقبل الله شهادته ونفعه، في أواخر ذي قعدة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية.

وممن رثاه قاضي الجماعة شيخنا القاضي أبو القاسم الحسنى، وهي القصيدة التي أولها:

شقى الله بالخضراء أشلاء سؤدد ... تضمنهن الترب صوب الغمايم

وقد ثبت في بجهد المقل في اسم الذكور فلينظر هنالك.

وممن رثاه شيهنا القاضي أبو بكر بن شبرين رحمه الله بقوله:

قد كان ما قال اليزيد ... فاصبر فحزنك لايفيد

أودى ابن هاني الرضا ... فاعتادني للشكل عبد

بحر العلوم وصدرها ... وعميدها إذ لا عميد

قد كان زيناً للوجود ... ففيه قد فجع الوجود

العلم والتحقيق والتوفيق والحسب التليد
تندى خلايقه فقل ... فيهاهي الروض المجرد
مغض عن الإخوان لا ... جهم اللقاء ولا كنرد
أودى شهيداً باذلاً ... مجهوده فعم الشهيد
لم أنسه حين المعا ... رف باسمه فينا تشيد
وله صبوب في طلا ... ب العلم يتلوه صعود
لله وقت كان ينظمنا كما نظم الفريد
أيام نغدو أو نرو ... ح وسعينا السعى الحميد
وإذا المشيخة جثم ... هضبات حلم لا تبيد
ومرادنا جم النبا ... ت وعيشنا خضر البرود
لهفى على الإخوان والأتراب كلهم فقيد
لو جيت أو طاني لأنكرني التهايم والنجود
ولراع نفسي شيب من ... غادرته وهو الوليد
ولطفت ما بين اللحو ... د وقد تكاثرت اللحود
سرعان ما عاث الحما ... م ونحن أيقاظ هجود
كم رمت إعمال المسير فقيدت عزمي قيود
والان أخلفت الوعو ... د وأخلقت تلك البرود
ما للفتى مايبتغير ... والله يفعل مايريد
أعلى القديم الملك يا ... ويلاد يعترض العبيد
يابين قد طال المدى ... أرعد وأبرق يا يزيد
ولك شيء عاية ... ولربما أن الحديد
إيه أبا عبد الآله ودوننا مرمى بعيد
أين الرسايل منك تأ ... تينا كما نظم المقود
أين الرسوم الصالحا ... ت تصرمت أين العهود
أنعم مساء لا تخطتك البشاير والسعود
وأقدم على دار الرضا ... حيث الإقامة والخلود
والق الأحبسة حيث دا ... ر الملك والقصر المشيد
حتى الشهادة لم تفتك فنجمك النجم السعيد
لا تبعدن وعد لو أن الميت في الدنيا يعود
ولين بليت فإن ذكرك في الدنا غض جديد
تالله لا تنساك أندبة العلى ما اخضر عود وإذا تسومح في الحقو – ق فحقك الحق الأكيد جادت صداك عمامة
يروى بها ذاك الصعيد وهدتك من المهيمن رحمة أبداً وجود
الصدفى

محمد بن يحيى العبدري من أهل فاس. يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالصدفى

حاله

قال الأستاذ في صلته: إمام في العربية، ذاكر للغات والآداب، متكلم، أصولى مفيد، متفنن، حافظ، ماهر، عالم، زاهد، ورع، فاضل. أخذ علم العربية والآداب عن النحوى أبي الحسن بن خروف، وعن النحوى الأديب الضابط أبي ذر الخشنى، وأكثر عنهما، وأكمل الكتاب على ابن خروف، تفقهاً وتقييدً وضبطاً. وكان حسن الإقراء، جيد العبارة، متين المعارف والدين، شديد الورع، متواضعاً جليلاً، عالماً عاملا، من أجل من لقيته، وأجمعهم لفنون المعارف، وضروب الأعمال، وكان الحفظ أغلب عليه، وكان سريع القلم إذا كتب أو قيد، وسمعته يقول، ما سمعت شيئاً من أحد من أشياخى، من نكت العلم، وتفسير مشكلٍ، ومايرجع إلى ذلك، إلا وقيدته، ولا قيدت بخطى شيئاً إلا حفظته، ولا حفظت شيئاً فنسيته. هذا ما سمعت منه.

مشيخته

أخذ العربية عن الأستاذ أبي الحسن بن خروف، وعن النحوى الأديب الضابط أبي ذر الخشنى. وأكثر عنه، وأخذ معهما عن أبي محمد بن زيدان، ولازم ثلاثتهم، وسمع وقرأ على القيه الصالح أبي محمد صالح وأخذ عن غير من ذكر.

دخوله غرناطة

قال، دخل الأندلس مراراً بيسير بضاعة كانت لديه يتجر فيها، ودخل إشبيلية. وتردد آخر عمره إلى غرناطة ومالقة إلى حين وفاته.

توفي برحمه الله شهيداً بمرسى جبل الفتح. دخل عليهم العدو فيه.

فقاتل حتى قتل، وذلك سنة أحد وخمسين وستماية. سمعته يتوسل إلى الله، ويسأله الشهادة.

المحدثون والفقهاء والطلبة النجباء وأولاد الأصليون

محمد بن أحمد بن إبراهيم بن الزبير

من أهل غرناطة، ولد الأستاذ الكبير أبي جعفر بن الزبير، يكنى أبا عمرو

حاله

هذا الشيخ سكيت حلبة، ولد أبيه في علو النباهة، إلا أنه لوذعى فكه، حسن الحديث، رافض للتصنع، ركض طرف الشيبة في ميدان الراحة، منكباً عن سنن أبيه وقومه، مع شغوف إدراك، وجودة حفظ، كانا يطمعان والده في نجابته، فلم يعدم قادحاً. ورحل إلى العدوة، وشرق ونال حظوة، وجرت عليه خطوب. ثم عاد إلى الأندلس على معروف رسمه يتكور بها، وهو الآن قد نال منه الكبر. يزجى الوقت بمانقة، متعللاً بوقف من بعض الخدم المخزنية، لطف الله به.

مشيخته

استجاز له والده الطم والرم، من أهل المغرب والمشرق، ووقف عليه منهم في الصغر وقفاً لم يغتبط به عمره، وأدكره الآن بعد أمةٍ، عندما نقر عنه لديه، فأثرت به يده من علو رواية، وتوفر سبب مبرة، وداعيةٍ إلى إقالة عثرة، وستر هيبة شيبةٍ. فمن ذلك الشيخ الإمام أبو علي ناصر الدين منصور بن أحمد المشدالي، إجازة ثم لقاء وسماعاً، والشيخ الخطيب الراوية أبو عبد الله بن غريون. وأجازه الأستاذ أبو إسحق الغافقى، وأبو القاسم بن الشاط، والشريف أبو العباس أحمد الحسنى، والأستاذ الإمام أبو الحسين عبد الله بن أبي الربيع القرشى نزيل سبتة. ومحمد

ابن صالح بن أحمد بن محمد الكتاني الشاطبي ببجاية، والإمام أبو اليمن ابن عساكر بالمسجد الحرام، وابن دقيق العيد وغيرهم. ومن أهل الأندلس أبو محمد بن السداد، وأبو جعفر بن الزيات، وأبو عبد الله بن الكماد، وأبو عبد الله بن ربيع الأشعري، وأبو عبد الله بن برطال، وأبو محمد عبد المنعم بن سماك، والعدل أبو الحسن بن مستقور. وأجازه من أهل المشرق والمغرب، عالم كبير.

شعره

وبضاعته فيه مزجاة، فمن ذلك ماخاطبني به عند إيابي من العدوة في غرض الرسالة عن السلطان:

نوإلى الشكر للرحمن فرضاً ... علم نعم كست طولاً وعرضاً
وكم لله من لطيف خفي لنا ... منه الذي يشاء...وأمضا
بمقدمك السعيد أتت سعود ... تنال بها نعيم الدهر محضاً
فيا بشرى لأندلسٍ بما قد ... به والاك بارينا وأرضا
ويا لله من سفر سعيد قد ... قد أقرضت المهيمن فيه قرضاً
نهضت بنيةٍ أخلصت فيها ... فأتت بكل ما يبغى ويرضا
وثبت لنصرة الإسلام لما ... علمت بأن الأمر إليك أفضا
لقد أحييت بالتقوى رسوماً ... كما أرضيت بالتمهيد أرضا
وقمت بسنة المختار فينا ... تمهد سنة وتقيم فرضا
ورضت من العلوم الصعب حتى ... جنيت ثمارها رطباً وغضا

فرأيك ناجح فيما تراه ... وعزمك من مواضى الهند أمضا
تدبر أمر مولانا فيلقى المسيء لديك إشفاقاً وإغضا
فأعقبنا شفاً وانبساطاً ... وقد كانت قلوب الناس مرضا
ومن أضحى على ظمإ وأمسى ... يرد إن شاء من نعماك خوضا
أبا عبد الآله إليك أشكو ... حين ناب الفقر عضا
ومن نعماك استجدى لباساً ... يفيض به على الجاه فيضا
بقيت مؤملاً ترجى وتخشى ... ومثلك من إذا ما جاد أرضا

توفي في التاسع لمحرم من عام خمسة وستين وسبعماية.

القليعى

محمد بن أحمد بن خلف بن عبد الملك بن غالب الغساني من أهل غرناطة، يكنى أبا أبكر، ويعرف بالقليعى.

أوليته: قد جرى من ذكره، وذكر بيته في الطبقات ما فيه كفاية

حاله

كان نبيه البيت، رفيع القدر، عالي الصيت. من أهل العلم والفضل والحسب والدين، وأجمع على استقضائه أهل بلده بعد أبي محمد بن سمحون سنة ثمان وخمسماية.

توفي بغرناطة، أوايل صفر عشرة وخمسماية. ودفن في روضة أبيه ذكره ابن الصيرفي وأطنب.

ابن قطبة

محمد بن أحمد بن محمد الدوسى من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن قطبة.

حاله

من عايد الصلة: كان رحمه الله شيخ الفقهاء والموثقين، صدر أرباب الشورى، نسيج وحده في الفضل، والتخلق والعدالة، طرفاً في الخير، مجباً إلى الكافة، مجبولاً على المشاركة، مطبوعاً على الفضيلة، كهفاً للغرباء والقادمين، مألفاً للمتعلمين، ثمالاً للأسرى والعانين، تخلص منهم على يديه أمم، لقصد الناس إياه بالصدقة، مقصوداً في الشفاعات، معتمداً بالأمانات، لا يسدل دونه ستر، ولا تحجب عنه حرمة، فقيها حافظاً، إخبارياً محدثاً ممتعا، متقدماً في صناعة التوثيق، حسن المشاركة في غيرها، كثير الحض على الصدقة في المحول والأزمات، يقوم في ذلك مقامات حميدة، ينفع الله بها الضعفاء، وينقاد الناس لموعظته، ويؤثر في القلوب بصدقه. فقد بفقدانه رسم من رسوم البر والصدقة.

مشيخته

قرأ على الأستاذ الكبير أبي جعفر بن الزبير، والخطيب ولي الله أبي الحسن ابن فضيلة، وروى عن الشيه الوزير المسن المحدث أبي محمد عبد المنعم ابن سماك، وأبي القاسم بن السكوت المالقى، والخطيب أبي عبد الله ابن رشيد. والقاضي أبي يحيى بن مسعود، والعدل أبي علي البجلى، وأبي محمد عبد المؤمن الخولاني. وأجازه جماعة من أهل المشرق والمغرب، وناب عن بعض القضاة بغرناطة. ولد عام تسعة وستين وستماية، وتوفي في الثالث لربيع الأول من عام ثمانية وثلاثين وسبعماية. وكانت جنازته مشهودة.

ابن السراج

محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن أحمد بن محمد ابن يوسف بن روبيل الأنصاري من أهل غرناطة، ويكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن السراج. طليطلى الأصل، طبيب الدار السلطانية.

حاله

من العايد: كان رحمه الله من أهل التفنن والمعرفة، متناهي الأبهة والحظة، جميل الصورة، مليح المجالسة، كثير الدعابة والمؤانسة، ذاكراً للأخبار والطرف، صاحب حظ من العربية والأدب والتفسير، قارضاً للشعر، حسن الخط، ظريف الوراقة، طرفاً في المعرفة بالعشب، وتمييز أعيان النبات، سنياً، محافظاً، محبا في الصالحين، ملازماً لهم، معنياً بأخبارهم، متلمذاً لهم. انحاش إلى الولىأبي عبد الله التونسي، وانقطع إليه مدة حياته، ودون أحواله وكراماته. وعين ريع ما يستفيده في الطب صدقة على يديه، أجرى ذلك بعد موته لبنيه. ونال حظاً عريضاً من جاه السلطان، فاطرح حظ نفسه مع المساكين والمحتاجين، فكان على باوه على أهل الدنيا، يوثر ذوي الحاجة، ويخف إلى زيارتهم، ويرفدهم، ويعينهم على معالجة عللهم.

مشيخته

قرأ الطب على الشيخ الطبيب. نسج وحده أبي جعفر الكزنى، رييس الصناعة في وقته، ولقى فيه الأستاذ إمام التعاليم إمام التعاليم والمعارف، أبا عبد الله الرقوطى المرسى وغيره. وقرأ القرآن على المقرى الشهير أبي جعفر الطباع بالروايات السبع، والعربية على الأستاذ أبي الحسن بن الصايغ الإشبيلي، وأكثر القراءة على شيخ الجماعة العلامة أبي جعفر بن الزبير.

تواليفه: ألف كتباً كثيرة، منها في النبات والرؤيا. ومنها كتا سماه، السر المذاع في تفضيل غرناطة على كثير من البقاع.

شعره

من ذلك قوله ملغزاً في المطر:

وما زاير مهما أتى ابتهجت به ... نفوس وعم الخلق جوداً وإحساناص

يقيم فيشكو الخلق منه مقامه ... ويكرهم طرا إذا عنهم بانا

يسر إذا وافى ويكرب إن نأى ... ويكره منه الوصل إن زار أحياناً

وأعجب شيء هجر حب مواصل ... به حين يطل هواه إن لم يطل خانا

محنته

ذكر أنه لما توفي السلطان ثاني الملوك من بني نصر فجأة، وهو يصلى المغرب، وباكر الطبيب بابه غداة ليلة موته. سأل عن الطعام القريب عهد موته بتناوله، فأخبر أنه تناول كعكاً وصلته من ولي عهده، فقال كلاماً أوجب نكبته، فامتحن بالسجن الطويل، والتمست الأسباب الموصلة إلى هلاكه، ثم أجلى إلى العدوة. ثم دالت الأيام، فعاد إلى وطنه مستآنفاً ما عهده من البر وفقده من التجلة.

ميلاده: بغرناطة عام أربعة وخمسين وستماية.

وفاته: ليلة الخميس التاسع من شهر ربيع الأول من عام ثلاثين وسبعماية.

ابن أبي زمنين المرى

محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن أبي زمنين المرى يكنى أبا عبد الله، وبيته معلوم حاله: كان من أهل المعرفة والنبل والذكاء

مشيخته

قرأ القرآن على أبي بكر بن النفيس، وأبي عبد الله بن شهيد المرى المقرى بطخشارش من غرناطة. ودرس الفقه عند المشاور أبي عبد الله بن مالك المقرى، وأبي الحسن علي بن عمر بن أضحى، وعلى غيرهما من شيوخ غرناطة.

توفي سنة أربعين وخمسماية.

قلت، وإنما ذكرت هذا المترجم به مع كوني اشترطت صدر خطبته، ألا أذكر هذا النمط لمكان مصاهرتي في هذا البيت. ولعل حافد هذا المترجم به من ولدي، يطلع على تعدادهم وذكرهم في هذا التاليف وترددادهم، فيكون ذلك محرضاً له على النجابة. محرضاً للإجابة، جعلنا الله ممن انتمى للعلم وأهله، واقتفى من سننه واضح سبله.

ابن جابر

محمد بن جابر بن محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم بن حسان القيس الوادآشى الأصل والمعرفة، التونسى الاستيطان، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن جابر

حاله

من عايد الصلة: نشأ بتونس، وجال في البلاد المشرقية والمغربية، واستكثر من الرواية ونقب عن المشايخ، وقيد الكثير، حتى أصبح جماعة المغرب، وراوية الوقت. ثم قدم الأندلس ظريف النزعة، عظيم الوقار، قويم السمت، يأوى في فضل التعيش إلى فضل ما كان بيده، يصرفه في مصارف التجارة. وقعد للإسماع والرواية، وانتقل إلى بلش، فقرأ بها القرآن العظيم والروايات السبع، على الخطيب أبي جعفر بن الزيات. ثم رحل إلى المغرب، ثم أعاد الرحلة الحجازية، وأعرق، فلقى أمة من العلماء والمحدثين، وأصبح بهم شيخ وحده، انفساح رواية، وعلو إسناد.

مشيخته

من شيوخه قاضي الجماعة بتونس أبو العباس بن الغماز الخزرجي البلنسي، وقاضي الجماعة بها أبو إسحق بن عبد الرفيع، وقاضي قضاة الديار المصرية بدر الدين بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة بن صخر الكناني. وقاضي الجماعة ببجاية، أبو العباس الغبريني، وسراج الدين أبو جعفر عمر بن الخضر بن طاهر بن طراد بن إبراهيم ابن محمد ابن منصور الأصبحي، وأبو محمد عبد الغفار بن محمد السعدي المصري. ورضى الدين إبراهيم بن عمر بن إبراهيم الخليلي الجعفري.

وشرف الدين أبو عبد الله بن الحسن بن عبد الله ابن الحافظ عبد الغني ابن عبد الواحد بن سرور المقدسي. وأبو الفضل أبو القاسم بن حمادين أبي بكر بن عبد الواحد الحضرمي الليبد. وعبد الله بن يوسف بن موسى الخلاسي. وعبد الله بن محمد بن هرون، وإبراهيم بن محمد بن أحمد أبن محمد بن عبد الله بن الحاج التجيبي، وأحمد بن يوسف بن يعقوب ابن علي الفهري اللبلي، وولده جابر بن محمد بن قاسم معين الدين، وعز الدين أبو القاسم بن محمد بن الخطيب، وجمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن الصفار، وأبو بكر بن عبد الكريم بن صدقة العزفي، ومحمد بن إبراهيم بن أحمد التجيبي، وأبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن أحمد بن علي بن إبراهيم بن عقاب الجذامي الشاطبي، وعبد الرحمن بن محمد بن علي بن عبد الله الأنصاري الأسدي القيرواني، وأبو القاسم خلف بن عبد العزيز القبتوري، وعلي بن محمد بن أبي القاسم ابن رزين التجيبي، وأحمد بن موسى بن عيسى البطرني، وغر القضاة فخر الدين أبو محمد عبد الواحد بن منصور بن محمد بن المنير، وتقي الدين محمد بن أحمد بن عبد الخالق المصري، وصدر النحاة أبو حيان، وظهير الدين أبو محمد بن عبد الخالق المخزومي المقدسي الدلاصي، ورضى الدين بن إبراهيم بن أبي بكر الطبري، والمعمر بهاء الدين أبو محمد القاسم بن مظفر بن محمود بن هبة الله بن عساكر الدمشقي.
وأما من كتب إليه فنحو ماية وثمانين من أهل المشرق والمغرب.
قدم غرناطة في أول عام ستة وعشرين وسبعماية، فهو باعتبار أصله أصلي، وباعتبار قدومه طارئ وغريب.
تواليفه

له تواليف حديثية جملة، منها أربعون حديثاً، أغرب فيها بما دل على سعة خطوه وانفساح رحله.
وفاته كان حيا سنة أربعين وسبعماية، وبلغني أنه توفي عام سبعة بعدها.
محمد بن خلف بن موسى الأنصاري

الأوسي

من أهل إلبيرة، يكنى أبا عبد الله.
حاله
كان متكلماً، واقفاً على مذاهب المتكلمين، متحققاً برأي الأشعرية، ذاكراً لكتب الأصول والاعتقادات، مشاركاً في الأدب، مقدماً في الطب.
مشيخته
روى عن أبي جعفر بن محمد بن حكم بن باق، وأبي جعفر بن خلف ابن الهيثم، وأبوى الحسن بن خلف العنسي، وابن محمد بن عبد العزيز ابن أحمد بن حمدين، وأبوى عبد الله بن عبد العزيز الموري، وابن فرج مولى الطلاع، وأبي العباس بن محمد الجذامي، وأبي علي الغساني، وأبي عمرو زياد بن الصفار، وأبي القاسم أحمد بن عمر. وأخذ علم

الكلام عن أبي بكر بن الحسن المرادي، وأبي جعفر بن محمد بن باق، وأبي الحجاج ابن موسى الكلبي. وتأدب في بعض مسائل النحو بأبي القاسم بن خلف ابن يوسف بن فرتون بن الأبرش.
من روى عنه: روى عنه أبو إسحق بن قورقول، وأبو خالد المرواني، وأبو زيد بن نزار، وأبو عبد الله بن الصيقل المرسى، وأبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن سمعان، وأبو الوليد بن خبرة.
تواليفه
من تواليفه: النكت والأمالي في الرد على الغزالي، والإيضاح والبيان في الكلام على القرآن، والوصول إلى معرفة الله ونبوة الرسول ورسالة الاقتصار على مذاهب الأيمة الأخيار، ورسالة البيان في حقيقة الإيمان، والرد على أبي الوليد بن رشد في مسألة الاستواء الواقعة له في الجزء الأول من مقدماته، وشرح مشكل ما وقع في الموطإ وصحيح البخاري، وقد كان شرع في تصنيفه عام ثمانية عشر وستماية في شوال منه، وبلغ في الكلام فيه إلى النكتة الرابعة والخمسين، وقطعت به قواطع المرض، وشرع في معالجة العين لرؤيا رءيها، يقال له ألفت في نور البصيرة، فألف في نور البصر تنفع وتنتفع، فأقبل على تأليفه في مداواة العين، وهو كتاب جم الإفادة، ثم أكمل النكت.
شعره
وكان له حظ من قرض الشعر، فمن ذلك مامدح به إمام الحرمين أبا المعالي الجويني:
حب حبر يكنى أبا المعالي ... هو ديني ففيه لاتعذلوني
أناوالله مغرم في هواه ... عللوني بذكره عللوني
مولده: ولد يوم الثلاثاء لإثنى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة سبع وخمسين وخمسماية.
الشريشى
محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله الخولاني غرناطى يكنى أبا عبد الله ويعرف بالشريشى
حاله

من أهل التصاون والحشمة والوقار، معرق في بيت الخيرية والعفة، وكان والده صاحبنا رحمه الله، آية في الدؤوب والصبر على انتساخ الدواوين العلمية والأجزاء، بحيث لامظنة معرفة أو حجرة طلب تخلو عن شيء من خطه إلا مايقل، على سكون وعدالة وانقباض وصبر وقناعة.
وأكتب للصبيان في بعض أطواره. ونشأ ابنه المذكور، ظاهر النبل والخصوصية مشاركاً في فنون، من عربية وأدب وحساب وفريضة، وتصر في الشهادة المخزنية برهة، ثم نزع عنها انقياداص لداعي النزاهة، وهو الآن بحاله الموصوفة.
شعره

وشعره من نمط الإجادة، فمن ذلك قوله:
بي شادن أهيف مهمى انثنى ... يحكى تثنيه القضيب الرطيب
ذو غرة كالبدر قد أطلعت ... فوق قضيب نابت في كثيب
خضت حشا الظلماء من حبه ... أختلس الوصل حذار الرقيب
فبت وللوصل لنا ثالث ... يضمنا ثوب عفاف قشيب
حتى إذا ما الليل ولى وقد ... مالت نجوم الأفق نحو الغروب

ودعته والقلب ذو لوعة ... أسيل من ماء جفوني غروب
فلست أدري حين أودعته ... قلب بأضلاعي غدا أم قليب
ومن ذلك في النسيب:
يا أجمل الناس ويا من غدت ... غرته تمحو سنا الشمس
أنعم على عبدك يا مالكي ... دون اشتراء ومني نفسي
بأن ترى وسطي لعقدي وأن ... تعيد ربعي كامل الأنس
وإن تكن ترجعني خايباً ... فإنني أدرج في رمس
وقال في فضل العلم:
يا طالب العلم اجتهد إنه ... خير من التالد والطارف
فالعلم يذكو قدر إنفاقه ... والمال إذا أنفقته تالف
وتراقى إلى هذا العهد بإشارتي إلى إلى لا فوقها من تعليم ولد السلطان، والرياسة القرآنية بباب الإمارة، والإمامة بالمسجد الجامع من القلعة حميد الطريقة في ذلك كله، معروف الحق، تولاه الله.
مولده: عام ثمانية عشر وسبعماية.
محمد بن محمد بن علي بن سودة

المرى

يكنى أبا القاسم
أوليته
من نبهاء بيوتات الأندلس وأعيانها، سكن سلفه البشارة، بشارة بني حسان، وولى جده الأشغال، حميد السيرة، معروف الإدانة.
حاله
هذا الفتى من اهل الخصوصية والسكون والحياء، المانع عن كثير من الأغراض. مال إلى العلوم العقلية، فاستظهر على المماسة في بعض أغراضها بالدؤوب والعكوف، والمورين تأثير حبل الركية في جحرها، فتصدر للعلاج، وعانى الشعر، وأرسم في الكتابة، وعد من الفضلاء، وظهرت على عباراته اصطلاحات الحكماء، وتشوف إلى العهد للرحلة الحجازية، والله ييسر قصده.
مشيخته
قرأ الطب والتعديل على الحبر طبيب الدار السلطانية، فارس ذينك الفنين، إبراهيم بن زرزار اليهودى، ورحل إلى العدوة، فقرأ على الشريف العالم الشهير، رحلة الوقت في المغرب، أبي عبد الله العلوى، وبلقيايه نجح.
شعره
أنشد السلطان قوله:
جاد الحمى صوب الغمام هتونه ... ترجى البروق سحابه فتعينه
وسقى ديار العامرية بعدما ... وافى بجرعا الكثيب معينه
يندى بأفنان الأراك كأنه ... عقد تناثر بالعقيق ثمينه

ومحى الكثيب سكوبه فكأنه ... خط تطلس ميمه أو نونه
حتى إذا الأرواح هبت بالضحا ... مسحت عليه بالجناح تبينه
وكأنه والرعد يحدو خلفه ... صب يطول إلى اللقاء حنينه
أوسح دمعي فوق أكناف اللوى ... جادت بلؤلؤة النفيس عيونه
والبرق في حلل السحاب كأنه ... مكنون سر قد أذيع مضمونه
أو ثوب ضافية الملابس كاعب ... عمدت بحاشية النضار تزينه
هن الديار برامة لا دهرها ... سلس القياد ولا العتاب يلينه
ولقد وقفت برسمها فكأنني ... من ناحل الأطلال فيه أكونه
قلبي بذاك اللوى خلفته ... ألوى بمزدلف الرفاق ظعينه
لا تسل العذال عني فالهوى ... ذا يخامر بالضلوع دفينه
إن يخف عن شرحى حديث زميرتي ... فعلى الفنون فريضة تبينيه

عجباً لدمعي لا يكف كأنما ... جدوى أبي عبد الاله هتونه
محي المكارم بعد ما أودى بها ... زمن تقلب بالكرام خؤونه
مولى الملوك عميد كل فضيلة ... علق الزمان ثمينه ومكينه
يصغى إلى داعي الندى فيهزه ... وبملتقى الجمعين طال سكونه
من ذا يسابق فضله لوجوده ... ويلج فيض البحر فاض يمينه
إن تلقه تلق الجمال وقاره ... والحلم طبع والسماحة دينه
غمر الأنام نواله ومحا الضلال رشاده وجلا الظلام جبينه
أحيا رسوم الدين وهي دوارس ... ولطالما صدع الشكوك يقينه
شمس الهدى حتف العدا محي الندا بحر الجدا طول المدى تمكينه
ليث الشرى غوث الورى قمر السرى سن القرى عم القرى تأمينه
فلبأسه يوم الوغى ولعزمه ... جاش الهزبر إذا الهزبر يخونه
لا تسل الهيجاء عنه إنه ... يصل المراد كما تحب ظنونه
لو كان يشغله المنام عن العلا ... هجر المنام وباعدته جفونه
وإذا تطاولت الملوك بماجد ... بمحمد دون الأنام يكونه
يا بن الألي نصروا الرسول ومن بهم نطق الكتاب فصيحه ومبينه
خصوا ببيعته وحاموا دونه ... نهج الرضا حتى تقاوم دينه
أمعاضد الإسلام أنت عميده ... وخليفة الرحمن أنت أمينه
لم يبق إلا من بسيفك طايع ... وألفنش في أقصى البلاد رهينه
وبجيشك المنصور لو لاقيته ... أدرى بمشتجر الرماح طعينه
ولو اصطنعت إلى العدو إدالة ... طاعت إليك بلاده وحصونه
خذها إليك قصيدة من شاعر ... حلو الكلام مهذب تبيينه
جعل القوافي للمعالي سلماً ... فجنى القريض كما اقتضته فنونه

غطى هواه عقله واقتاده ... يحصى النجوم جهالة تزيينه
ولو أخذته أيدي التحرير والنقد، لرجى أن يكون شاعراً، وبالجملة فالرجل معدود من السراة بيتاً وتخصصاً.
محمد بن عبد العزيز بن سالم بن خلف القيسي

منكبي الأصل يكنى أبا عبد الله، طبيب الدار السلطانية.
حاله
من عايد الصلة: كان رحمه الله فذا في الانطباع واللوذعية، حين المشاركة في الطب، مليح المحاضرة، حفظة، طلعة، مستحضراً للأدب، ذاكراً لصناعة الطب، أخذها عن إمام وقته، أبي جعفر الكزني، وانتصب للعلاج، ثم انتقل إلى الخدمة بصناعته بالباب السلطاني، وولى الحسبة، ومن شعره يخاطب السلطان على ألسنة أصحابنا الأطباء الذين جمعتهم الخدمة ببابه يومئذ، وهم أبو الأصبغ بن سعادة، وأبو تمام غالب الشقورى:
قد جمعنا ببابكم سطر علم ... لبلوغ المنى ونيل الإرادة
ومن أسمائنا لكن حسن فال ... غالب ثم سالم وسعادة
توفي في شهر رجب من عام سبعة عشر وسبعماية.
محمد بن عبد الله بن أبي زمنين
من أهل إلبيرة، يكنى أبا عبد الله
حاله
من الملاحى: قال ولى الأحكام، وكان فقيها نبيها.
وفاته: توفي بغرناطة في عشر الستين وأربعمائة قلت، قد تقدم اعتذاري عن إثبات مثله في هذا المختصر، فلينظر هناك إن شاء الله.
بن أبي زمنين عدنان المرى
محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بان إبراهيم بن محمد بن أبي زمنين عدنان بن بشير بن كثير المرى
حاله

كان من كبار المحدثين والعلماء الراسخين، وأجل وقته قدراً في العلم والرواية والحفظ للرأي والتمييز للحديث، والمعرفة باختلاف العلماء، متفنناً في العلم، مضطلعاً بالأدب، قارضاً للشعر، متصرفاً في حفظ المعاني والأخبار، مع النسك والزهد، والأخذ بسنن الصالحين، والتخلق بأخلاقهم. لم يزل أمة في الخير، قانتاً لله، منيباً له، عالماً زاهدا صالحاً خيراً متقشفاً، كثير التبتل والتزلف بالخيرات، مسارعاً إلى الصالحات، دايم الصلاة والبكاء، واعظاً، مذكراً بالله، داعياً إليه، ورعاً ملبى الصدقة، معيناً على النايبة، مواسياً بجاهه وماله، ذا لسانٍ وبيان، تصغى إليه الافئدة، فصيحاً، بهياً، عربياً، شريفاً، أبي النفس، عالي الهمة، طيب المجالسة، أنيس المشاهدة، ذكياً، راسخاً في كل جم من العلوم، صيرفياً جهبذاً، ما رؤى قبله ولا بعده، مثله.
مشيخته

سكن قرطبة، وسمع بها من أحمد بن مطرف، ووهب بن مسرة الحجارى، وعن أبان بن عيسى بن محمد بن دنير، وعن والده عبيد الله بن عيسى.

من روى عنه: روى عنه الزاهد أبو اسحق إبراهيم بن مسعود الإلبيرى وغيره.

تواليفه

ألف كتاب المغرب في اختصار المدونة ثلاثين جزءاً، ليس في المختصرات مثله بإجماع، والمهذب في تفسير الموطأ، والمشتل في أصول الوثايق، وحياة القلوب، وأنس الفريد، ومنتخب الاحكام، والنصائح المنظومة، وتفسير القرآن.

مولده: في المحرم سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

وفاته: توفي في شهر ربيع الثاني عام ثمانية وتسعين وثلاثمائة بحاضرة إلبيرة، رحمه الله ونفع به.

محمد بن عبد الرحمن بن الحسن بن قاسم بن مشرف بن قاسم

ابن محمد بن هاني اللخمى القايصي

يكنى أبا الحسن

حاله

كان وزيراً جليلاً، فقيهاً رفيعاً، جوادا، أديباً، جيد الشعر، عارفاً بصناعة النحو والعروض، واللغة والأدب والطب، من أهل الرواية والدراية

مشيخته

روى عن الحافظ أبي بكر بن عطية، وأبي محمد بن عتاب، وأبي الوليد بن رشد القاضي الإمام، ولا قاضي أبي محمد عبد الله بن علي بن سمجون.

شعره

من شعره قوله:

يا حرقة البين كويت الحشا حتى ... أذبت القلب في أضلعه

أذكيت فيه النار حتى غدا ... ينساب ذاك الذوب من مدمعه

يا سؤل هذا القلب حتى متى ... يوسى برشف الريق من منبعه

فإن في الشهد شفاً للورى ... لا سيما إن يصر من مكسرعه

والله يدني منكم عاجلاً ... ويبلغ القلب إلى مطمعه.

مولده: ولد في الثالث الأخير من ليلة الجمعة لثلاث بقين لذى حجة سنة ثمان وتسعين وأربعمائة.

توفي في آخر جمادى الأخرى سنة ست وتسعين وخمسمائة.

محمد بن أحمد الغساني

محمد بن عبد الرحمن بن عبد السلام بن أحمد بن يوسف ابن أحمد الغساني من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله

حاله

كان محدثاً نبيلاً حاذقاً ذكياً، وله شرح جليل على كتاب الشهاب، واختصار حسن في اقتباس الأنوار للرشاطى.

وكان كاتباً وافر الحظ من الأدب، يقرض شعراً لا بآس به.

من شعره في ذكر أنساب طبقات العرب:

الشعب ثم قبيلة وعمارة ... بطن وفخذ الفصيلة تابعه
فالشعب يجمع للقبائل كلها ... ثم القبيلة للعمارة جامعة
والبطن يجمعه العمار فاعلمن ... والفخذ يجمعه البطون الواسعة
والفخذ يجمع للفصايل كلها ... جاءت على نسق لها متتابعة
فخزيمة شعب وإن كنانة ... لقبيلة عنها الفصايل شاسعة
وقريشها تسمو العبارة يافتى ... وقصى بطن الأعادي قامعة
ذا ما ثم فخذ وذا عباسها ... الا الفصيلة لا تناط بسايعة

ولد بغرناطة سنة ثمان وستين وخمسماية.

وفاته: بمرسية في رمضان تسع عشرة وستماية

ابن حقل الغافقي

محمد بن عبد الواحد بن إبراهيم بن مفرج بن أحمد بن عبد الواحد ابن حريث بن جعفر بن سعيد بن محمد بن حقل الغافقي من ولد مروان بن حقل النازل بقرية الملاحة من قنب قيس من عمل إليرة، يكنى أبا القاسم ويعرف بالملاحي. وقد نقلنا عنه الكثير، وهو من المفاخر الغرناطية.

حاله

كان محدثا راوية معتنيا، أديباً، مؤرخاً، فاضلاً جليلاً. قال الأستاذ في الصلة: كان من أفضل الناس، وأحسنهم عشرة، وألينهم كلمة، وأكثرهم مروءة، وأحسنهم خلقاً وخلقاً، ما رأيت مثله، قدس الله تربته. وذكره صاحب الذيل، الأستاذ أبو عبد الله بن عبد الملك، وأطنب فيه، وذكره المحدث أبو عبد الله الطنجالي، وذكره ابن عساكر في تاريخه.

مشيخته

روى عن أبيه أبي محمد، وأبي القاسم بن بشكوال، وأبي العباس بن اليتيم، وعالم كثير من غير بلده، ومن أهل بلده سوى أبيه، وعن أبي سليمان داود بن يزيد بن عبد الله السعدي القلعي، لازمه مدة، وعن أبي خالد بن رفاعة اللخمي، وأبي محمد عبد الحق بن يزيد العبدري، وأبي جعفر عبد الرحمن بن الحسن بن القصير، وأبي بكر بن طلحة ابن أحمد بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، وأبي محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم، وأبي جعفر بن حكم الحصار، وأبي عبد الله بن عروس، وأبي الحسن بن كوثر، وأبي بكر الكتندي، وأبي إسحق بن الجلا، وأبي بكر بن زمنين، وأبي القاسم بن سمجون، وأبي محمد بن عبد الصمد ابن محمد بن يعيش الغساني. وكان من المكثرين في باب الرواية، أهل الضبط والتقييد والإتقان، بارع الخط، حسن الوراقة، أديباً بارعاً ذاكراً للتاريخ والرجال، عارفاً بالأنساب، نقاداً حافظاً للأسانيد، ثقة عدلاً، مشاركاً في فنون، سياسياً. وروى عنه الأستاذ، واعتنى بالرواية عنه. وقال الأستاذ، حدثني عنه من شيوخي جماعة، منهم القاضي العدل أبو بكر بن المرابط.

تواليفه

ألف كتابه في تاريخ علماء إليرة، واحتفل فيه. وألف كتاب الشجرة في الأنساب، وكتاب الأربعين حديثاً، وكتاب فضايل القرآن، وبرنامج روايته وغير ذلك.

مولده: سنة تسع وأربعين وخمسماية.

وفاته: توفي في شعبان سنة تسع عشرة وستماية ببلده.

الشقوري

محمد بن علي بن عبد الله اللخمي يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالشقوري، منسوباً إلى مدينة شقورة ومنها أهله، صاحبنا طبيب دار الإمارة، حفظه الله.

حاله

هذا الرجل طرف في الخير والأمانة، فذ في حسن المشاركة، نقي في حب الصالحين، كثير الهوى إلى أهل التقوى، حذر من التفريط، حريص على التعلق بجناب الله. نشأ سابغ رداء العفة، كثيف جلباب الصيانة، متصدراً للعلاج زمن المراهقة، معماً، مخولاً في الصناعة بادي الوقار في سن الحشمة. ثم نظر واجتهد، فأحرز الشهرة بدينه، ويمن نقيبته، وكثرة حيطته، ولطيف علاجه، ونجح تجربته. ثم كلف بصحبة الصالحين، وخاض في السلوك، وأخذ نفسه بالارتياض والمجاهدة، حتى ظهرت عليه آثار ذلك. واستدعاه السلطان لعلاج نفسه، فاغتبط به، وشد اليد عليه، وظهر له فضله، وهو لهذا العهد ببابه، حميد السيرة، قويم الطريقة، صحيح العقد، حسن التدبير، عظيم المشاركة للناس، أشد الخلق حرصاً على سعادة من صحبه، وأكثرهم ثناء عليه، وأصرحهم نصيحة له، نبيل الأغراض، فطن المقاصد، قايم على الصنعة، مبين العبارة، معتدل في البحث والمذاكرة، متكلم في طريقة الصوفية، عديم النظير في الفضل، وكرم النفس.

شيوخه

قرأ على جده للأب، وعلى الحكيم الوزير خالد بن خالد من شيوخ غرناطة، وعلى شيخنا الحكيم الفاضل أبي زكريا بن هذيل ولازمه، وانتفع به، وسلك بالشيخ الصوفي أبي مهذب عيسى الزيات ثم أخيه الصالح الفاضل أبي جعفر الزيات، والتزم طريقته، وظهرت عليه بركته.

تواليفه

ألف كتباً نبيلة، منها تحفة المتوسل في صنعة الطب وكتاباً سماه الجهاد الأكبر، وآخر سماه قمع اليهودي عن تعدي الحدود أحسن فيه ما شاء.

شعره

أنشدني بعد ممانعة واعتذار، إذ هذا الغرض ليس من شأنه:

سالت ركاب العز أين ركابي ... فابدي عنادا ثم رد جوابي

ركابك مع سيري يسير بسيره ... بغير حول مذ حللت جنابي

فلا تلتفت سيراً لذاتك إنما ... تسير بها سيراً لغير ذهاب

وهي متعددة.

ولد في عام سبعة وعشرين وسبعماية.

الشفرة

محمد بن علي بن فرج القربلياني يكنى أبا عبد الله ويعرف بالشفرة

حاله

كان رجلاً ساذجاً، مشتغلا بصناعة الطب، عاكفا عليها عمره محققاً لكثير من أعيان النبات، كلفاً به، متعيشاً من عشبه أول أمره، وارتاد المنابت، وسرح بالجبال، ثم تصدر للعلاج، ورأس به، وحفظ الكثير من أقوال أهله، ونسخ

جملة من كنانيشه على ركاكة خطه، وعالج السلطان نصر المستقر بوادي آش، وقد طرق من بها مرض وافد حمل علاجه المشاقحة لأجله، وعظم الهلاك فيمن اختص بتدبيره، فطوف القلب المبارك بمبراه. ثم رحل إلى العدوة، وأقام بمراكش سنين عدة، ثم كر إلى غرناطة في عام أحد وستين، وبها هلك على أثر وصوله.

مشيخته

زعم أنه قرأ على أبيه ببلده من قربليان بلد الدجن، وأخذ الجراحة عن فوج من محسني صناعة عمل اليد من الروح. وقرأ على الطبيب عبد الله بن سراج وغيره.

تواليفه: ألف كتاباً في النبات.

وفاته: في السابع عشر لربيع الأول عام أحد وستين وسبعماية.

محمد بن علي بن يوسف بن محمد السكوني

ابن اللؤلؤة

يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن اللؤلؤة، أصله من جهة قمارش.

حاله

رحل في فتايه، بعد أن شدا شيئاً من الطلب، وكلف بالرواية والتقيد فلقي مشخة، وأخذ عن جلة، وقدم على بلده حسن الحالة، مستقيم الطريقة، ظاهر الانقباض والعفة، وأدخل الأندلس فوايد وقصايد، وكان ممن ينتفع به لو أمهلته المنية.

شعره

مما نسبه إلى نفسه من الشعر قوله:

يا من عليه اعتمادي ... في قل أمري وكثره

سهل على ارتحالي ... إلى النبي وقبره

فذاك أقصى مرادي ... من الوجود بأسره

وليس ذا بعزيز ... عليك فامنن بيسره

ومن ذلك:

أمن بعد ما لاح المشيب بمفرقي ... أميل لزور بالغرور مصاغ

وأرتاح للذات والشيب منذر ... بما ليس عنه للأنام مراغ

ومن يمت قبل المشيب فإنه ... يراع بهول بعده ويراغ

فيا رب وفقني إلى ما يكون لي ... به للذي أرجوه منك بلاغ

توفي معتبطاً في وقيعة الطاعون عام خمسين وسبعماية، خطيباً بحصن قمارش.

ابن سودة المري

محمد بن سودة بن إبراهيم بن سودة المري أصله من بشرة غرناطة، يكنى أبا عبد الله.

حاله

من بعض التواريخ المتأخرة: كان شيخاً جليلاً، كاتباً مجيداً، بارع الأدب، رايق الشعر، سيال القريحة، سريع البديهة، عارفاً بالنحو واللغة والتاريخ، ذاكراً لأيام السلف، طيب المحاضرة، مليح الشيبة، حسن الهيئة، مع الدين والفضل،

والطهارة والوقار والصمت.

مشيخته

قرأ بغرناطة على الحافظ أبي محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم بن الفرس، وغيره من شيوخ غرناطة. وبمالقة، على الأستاذ أبي القاسم السهيلي وبجيان على ابن يربوع، وبإشبيلية على الحسن بن زرقون وغيره من نظرائه.

أدبه

قال الغافقي، كانت بينه وبين الشيخ الفقيه واحد عصره أبي الحسن سهل بن مالك، مكاتبات ومراجعات، ظهرت فيها براعته، وشهدت له بالتقدم يراعته.

محنته

أصابه في آخر عمره نكبة ثقيلة، أسر هو وأولاده، فكانت وفاته أسفاً لما جرى عليهم نفعه الله. توفي في حدود سبعة وثلاثين وستماية.

محمد بن يزيد ين رفاعة الأموي اليري

أصله من قرية طرش

حاله

طلب العلم وعني بسمعه، ونسخ أكثر كتبه بخطه، وكان لغوياً شاعراً، من الفقهاء المشاورين الموثقين، وولي الصلاة بالحاضرة، وعزل وسرد الصوم عن نذر لزمه عمره.

مشيخته

سمع من شيوخ إلبيرة، محمد بن فطيس، وابن عمريل، وهاشم ابن خالد، وعثمان بن جهير، وحفص بن نجيح، وبقرطبة من عبيد الله ابن يحيى بن يحيى وغيره.

من حكاياته: قال المؤرخ، من غريب ما جرى لأبي علي البغدادي، في مقدمه إلى قرطبة، أن الخليفة الحكم، أمر ابن الرما حس عامله على كورتي إلبيرة وبجانة، أن يجيء مع أبي علي في وفد من وجوه رعيته، وكانوا يتذاكرون الأدب في طريقهم، إلى أن تجاروا يوماً وهم سايرون، أدب عبد الملك بن مروان، ومساءلته جلساءه عن أفضل المناديل، وإنشاده بيت عبدة بن الطبيب:

ثمت قمنا إلى جرد مسومة ... أعرقهن لأيدينا مناديل

وكان الذاكر للحكاية أبو علي، فأنشد الكلمة في البيت أعراقها، فلوى ابن رفاعة عنانه منصرفاً، وقال، مع هذا يوفد على أمير المؤمنين، وتتجشم الرحلة العظيمة، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور في الناس، لا يغلط فيه الصبيان، والله لاتبعته خطوة، وانصرف عن الجماعة، وندبه أميره ابن الرماحس، ورامه بأن لا يفعل، فلم يجد فيه حيلة، فكتب إلى الخليفة يعرفه بابن رفاعة، ويصف ما جرى معه، فأجابه الحكم على ظهر كتابه: الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطئ وفد أهل العراق، وابن رفاعة بالرضا أولى منه بالسخط، فدعه لشأنه، وأقدم بالرجل غير منتقص من تكريمه، فسوف يعليه الاختبار أو يحطه.

توفي سنة ثلاث أو أربع وأربعمائة.

محمد بن خميس الأنصاري

محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن أبي بكر بن خميس الأنصاري من أهل الجزيرة الخضراء

حاله

كان فاضلاً وقوراً، مشاركاً، خطيباً، فقيهاً، مجوداً للقرآن، قديم الطلب، شهير البيت، معروف التعين، نبيه السلف في القضاء، والخطابة والإقراء، مضى عمره خطيباً بمسجد بلده الجزيرة الخضراء، إلى أن تغلب العدو عليها، وباشر الحصار بها عشرين شهراً، نفعه الله ثم انتقل إلى مدينة سبتة، فاستقر خطيباً بها إلى حين وفاته.

مشيخته

قرأ على والده رحمه الله، وعلى شيخه، وشيخ أبيه أبي عمر، وعباس ابن الطفيل الشهير بابن عظيمة، وعلى الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، والخطيب أبي عبد الله بن رشيد بغرناطة عند قدومه عليها، والقاضي أبي المجد بن أبي الأحوص قاضي بلده، وكتب له بالإجازة الوزير أبو عبد الله بن أبي عامر بن ربيع، وأجازه الخطباء الثلاثة أبو عبد الله الطنجالي، وأبو محمد الباهلي، وأبو عثمن بن سعيد، وأخذ عن القاضي بسبتة أبي عبد الله الحضرمي، والإمام الصالح أبي عبد الله بن حريث، والمحدث أبي القاسم التجيبي، والأستاذ أبي عبد الله بن عبد المنعم، والأخوين أبي عبد الله وأبي إبراهيم ابني يربوع. قال، وكلهم لقيته وسمعت منه. وأجاز لي إجازة عامة ما عدا الإمام ابن حريث فإنه أجاز لي، والخطيب ابن عزمون وغيرهم، ممن تضمنه برنامجه.

تواليفه

قال، وكان أحد بلغاء عصره، وله مصنفات منها، النفحة الأرجية، في الغزوة المرجية، ودخل غرناطة مع مثله من مشيخته بلده في البيعات، أظن ذلك.

توفي في الطاعون بسبتة أخر جمادى الآخر من عام خمسين وسبعماية.

محمد بن أحمد بن عبد الله العطار

من أهل ألمرية.

حاله من بعض التقييدات، كان فتى وسيماً، وقوراً، صيباً، متعففاً، نجيباً، ذكياً. كتب عن شيخنا أبي البركات بن الحاج، وناب عنه في القضاء، وانتقل بانتقاله إلى غرناطة، فكتب بها. وكان ينظم نظماً مترفعاً عن الوسط. وجرى ذكره في الإكليل بما نصه ممن نبغ نوجب، وخلق له البر بذاته ووجب، تحلى بوقار، وشعشع للأدب كاس عقار، إلا أنه اخترم في اقتبالن وأصيب الأجل بنبال.

من شعره

قوله من قصيدة:

دعاني على طول البعاد هواها ... وقد سد أبواب اللقا نواها

وقد شمت برقا للقا مبشراً ... وقد نفحت ريح الصبا بشذاها

وجن دجى ليل بخيل بصبحه ... كما بخلت ليلى بطيف سراها

وقاد زمان قايد الحب قاصدا ... ربوعاثوت ليلى بطول قناها

وناديت والأشواق بالوجد برحت ... ودمعي أجرى سابغً للقاها

أبا كعبة الحسن التي لنفس ترتجي ... رضاها وحاشى أن يخيب رجاها

أحبك يا ليلى على البعد والنوى ... وبي منك أشوقا تشب لظاها

لين حجبت ليلى عن العين إنني ... بعين فؤادي لا أزال أراها

إلى أن بدا الصبح المشتت شملنا ... وما بلغت نفسي المشوق مناها
فمدت يميناً للوداع ودمعها ... يكفكفه خوف الرقيب سراها
وقالت وداعاً لا وداع تفرق ... لعل الليالي أن تديل نواها
تذكرنا ليلى معاهد باللوى ... رعى الله ليلات اللوى ورعاها
توفي في الطاعون الأعظم عام خمسين وسبعمائة.
محمد بن أحمد بن المراكشي

من أهل ألمرية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالمراكشي
حاله

كان فتى جميل الرؤيا، سكوتاً، مطبوعاً على المغافصة والغمز، مهتدياً إلى خفي الحيلة، قادراً على المباحثة، ذكياً، متسوراً على الكلام في الصنايع والألقاب، من غير تدرب ولا حنكة، دمث الأخلاق، لين العريكة، انتحل الطب، وتصدر للعلاد والمداواة، واضطبن أغلوطة صارت له بها شهرة، وهي رق يشتمل على أعداد وخطوط وزايرجة، وجداول غريبة الأشكال، تحتها علامات فيها اصطلاحات الصنايع والعلوم، ويتصل بها قصيدة رويها لأم الألف أولها، وهي منسوبة لأبي العباس السبتي.
يقول سبتي ويحمد ربه ... مصل على هاد إلى الناس أرسلا
وأنها مدخل للزيرجة ذكر أنه عثر عليها في مظنة غريبة، وظفر برسالة العمل بها، وتحرى بالإعلام بالكنايات، والإخبار بالخفي وتقدمة المعرفة، والإنذار بالوقايع، حتى استهوى بذلك جماعة من المشيخة، ممن كان يركن إلى رجحان نظره، وسلامة فطرته، واستغلت الشهادة له بالإصابة، سجية النفوس في حرصها على إثبات دعاوي المتحرفين، أخبرني بعهم أنه خبأ له عظماً صغيراً، يكون في أطراف أجنحة الطير، أخذه من جناح ديك، وزعم أرباب الخواص أنه يزيل الإعياء إذا علق، فتصرف على عاداته من الدخول في تلك الجداول، وأخذ الأعداد الكثير، يضربها آونة، ويقسمها أخرى، ويستخرج من تلك الجداول جيوباً وسهاماً، ويأخذ جذوراً، وينتج له العمل آخراً حروفاً مقطعة، ببقيها الطرح، يولف منها كلاماً، تقتنص منه الفائدة، فكان في ذلك بيت شعر:
وفي يدكم عظم صغير مدور ... يزيل به الإعياء من كان في السفر
وأخبرني آخرون أنه سيل في نازلة فقهية لم يلق فيها نص، فأخبر أن النص فيها موجود بمالقة، فكان كذلك. وعارض ذلك كله جلة من أشياخنا، فذكرني الشيخ نسيج وحده، أبو الحسن بن الجياب أنه سامره يخرج خبيئته سواد ليلة، فتأمل ما يصنعه، فلم يأت بشيء، ولا ذهب إلى عمل يتعقل، وظاهر الأمر أن تلك الحال كانت مبنية على تخيل وتخمين، وتختلف فيه الإصابة وضدها، بحسب الحالة والقايل، لتصرف الحيلة فيه، فاقتضى ذلك تأميل طائفة من أهل الدول إياه، وانتسخوا نظاير من تلك الزيرجة المموهة، ممطولين منه بطريق التصرف فيها إلى اليوم، واتصل بالسلطان، فأرسم ببابه، وتعدى الإنس إلى طب الجن، فافتضح أمره، وهم به، فنجا مفلتاً. ولم تزل حاله مضطربة، إلى أن دعى من العدوة وسلطانها، منازل مدينة تلمسان، ووصلت الكتب عنه، فتوجه في جفن هيئ له، ولم ينشب أن توفي بالمحلة في أوايل عام سبعة وثلاثين وسبعماية.
محمد بن بكرون بن حزب الله

من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله.

حاله

من أهل الخصوصية والفضل، ظاهر الاقتصاد، كثير التخلق، حسن اللقاء، دايم الطريقة، مختصر الملبس والمأكل، على سنن الفضلاء وأخلاق الجلة. انتظم لهذا العهد في نمط من يستجاز ويجيز. وكان غفلاً فأقام رسماً محموداً، ولم يقصر عن غاية الاستعداد.

مشيخته

منهم الأستاذ مولى النعمة على أهل بلده، أبو محمد عبد الواحد بن أبي السداد الباهلي، قرأ عليه القرآن العظيم أربعة عشر ختمة قراءة تجويد وإتقان بالأحرف السبعة، وسمع عليه كتباً كثيرة، وقال عند ذكره في بعض الاستدعاءات: ولازمته رضي الله عنه وأرضاه إلى حين وفاته، ونلت من عظيم بركاته، وخالص دعواته، ما هو عندي من أجل الوسايل، وأعظم الذخيرة، وأفضل ما أعددته لهذه الدار والدار الآخرة. وكان في صدر هذا الشيخ الفاضل كثير من علم اليقين. وهو علم يجعله الله في قلب العبد إذا أحبه، لأنه يؤول بأهله إلى احتمال المكروه، والتزام الصبر، ومجاهدة الهوى، ومحاسبة النفس، ومراعاة خواطر القلب، والمراقبة لله، والحياء من الله، وصحة المعاملة له، ودوام الإقبال عليه، وصحة النية، واستشعار الخشية. قال الله تعالى: " إنما يخشى الله من عباده العلماء " ، فكفى بخشية الله علماً، وبالإقبال عليه عزاً. قلت، وإنما نقلت هذا، لأن مثله لا يصدر إلا عن ذي حركة، ومضطبن بركة، ومنهم الشيخ الخطيب الفاضل ولي الله، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الطنجالي.

دخل غرناطة راوياً، وفي غير ذلك في شئونه، وهو الآن ببلده مالقة يخطب ببعض المساجد الجامعة بها على الحال الموصوفة.

محمد بن الحسن الميورقي

محمد بن الحسن بن أحمد بن يحيى الأنصاري الخزرجي الميورقي الأصل، سكن غرناطة.

حاله

كان محدثاً عالي الرواية، عارفاً بالحديث وعلله، وأسماء رجاله، مشهوراً بالإتقان والضبط، ثقة فيما نقل وروى، ديناً، زكياً، متحاملاً، فاضلاً، خيراً، متقللاً من الدنيا، ظاهري المذهب داوديه، يغلب عليه الزهد والفضل.

مشيخته

روى بالأندلس عن أبي بكر بن عبد الباقي بن محمد بن الحجاري، وأبي علي الصدفي الغساني، وأبي مروان الباجي، ورحل إلى المشرق وحج، وأخذ بمكة كرمها الله، عن أبي ثابت وأبي الفتح عبد الله بن محمد البيضاوي وأبي نصر عبد الملك بن أبي مسلم العمراني. قلت وغيرهم اختصرتهم لطولهم. وقفل إلى الأندلس فحدث بغير بلده منها، لتجواله فيها.

ومن روى عنه: روى عنه أبو بكر بن رزق، وأبو جعفر بن الغاسل وغيرهم.

محنته

إمتحن من قبل علي بن يوسف بن تاشفين، فحمل إليه صحبة أبي الحكم بن يوجان، وأبي العباس بن العريف، وضرب بالسوط عن أمره، وسجنه وقتاً، ثم سرحه وعاد إلى الأندلس، وأقام بها يسيراً، ثم انصرف إلى المشرق،

فتوقف بالجزاير، وتوفي بها في شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وخمسماية.

المعمم الساحلي

محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الأنصاري الساحلي يكنى أبا عبد الله، ويعرف ببلده مالقة بالمعمم

حاله

كان طبقة من طبقات الكفاة، ظرفاً ورواءً وعارضةً وترتيباً، تجلل بفضل شهرة أبيه، وجعل بعض المترفين من وزراء الدول بالمغرب أيام وجهته إليه، وصحبة الشيمخ الصالح أبيه في غرض السفارة، مالاً عريضاً لينفقه في سبيل البر، فبنى المدرسة غربي المسجد الأعظم، ووقف عليها الرباع، وابتنى غيرها من المساجد، فحصلت الشهرة، ونبه الذكر، وتطور، ورام العروج في مدارج السلوك، وانقطع إلى الخلوة، فنصلت الصبغة، وغلبت الطبيعة، وتأثل له مال جم، اختلف في سبب اقتنايه، وأظهر التجر المرهف الجوانب بالجاه العريض، والحرص الشديد، والمسامحة في باب الورع، فتبنك به نعيماً من ملبس ومطعم وطيب وترفه، وطارد به اللذة ما شاء في باب النكاح استمتاعاً وذواقاً يتبع رايد الطرف، ويقلد شاهد السمع، حتى نعى عليه. وولي الخطابة بالمسجد الأعظم بعد أبيه، فأقام الرسم، وأوسع المنبر ما شاء من جهورية وعارضة، وتسور على أعراض، وألفاظ في أسلوب ناب عن الخشوع، عريق في نسب القحة. ثم رحل إلى المشرق مرة ثانية، وكر إلى بلده، مليح الشيبة بادي الوقار، نبيه الرتبة، فتولى الخطابة إلى وفاته.

مشيخته

حسبما قيدته من خط ولده أبي الحسن، وارثه في كثير من خلاله، وأغلبها الكفاية. فمنهم والده رحمه الله. قرأ عليه وتأدب به، ودون في طريقه، حسبما يتقرر ذلك، ومنهم الأستاذ أبو محمد بن أبي السداد الباهلي، ومنهم الشيخ الراوية أبو عبد الله بن عياش، والخطيب الصالح أبو عبد الله الطنجالي، والخطيب الصالح أبو جعفر بن الزيات، والأستاذ ابن الفخار الأركشي، والقاضي أبو عمرو بن منظور، والأستاذ ابن الزبير وغيرهم، كابن رشيد، وابن خميس، وابن برطال، وابن مسعدة، وابن ربيع، وبالمشرق جماعة اختصرتهم لطولهم.

تواليفه

وتسور على التأليف، بفرط كفايته، فمما ينسب إليه كتاب: التجر الربيح في شرح الجامع الصحيح قال، منه ما جرده من الميضة. ومنه ما لم يسمح الدهر بإتمامه، وكتاب بهجة الأنوار، وكتاب الأسرار، وكتاب إرشاد السايل لنهج الوسايل، وكتاب بغية السالك في أشرف المسالك في التصوف، وكتاب أشعة الأنوار في الكشف عن ثمرات الأذكار. وكتاب النفحة القدسية، وكتاب غنية الخطيب بالاختصار والتقريب في خطب الجمع والأعياد، وكتاب غرايب النجب في رغايب الشعب، شعب الإيمان، وكتاب في مناسك الحج، وكتاب نظم سلك الجواهر في جيد المعارف الصدور والأكابر، فهرسة تحتوي على فوايد من العلم وما يتعلق بالرواية، وتسوية الشيوخ وتحرير الأسانيد.

دخوله غرناطة

دخلها مرات تشذ عن الإحصاء. ولد عام ثمانية وسبعين وستماية، وتوفي بمالقة في صبيحة ليلة النصف من شعبان عام أربعة وخمسين وسبعماية.

الطنجالي

محمد بن محمد بن يوسف بن عمر الهاشمي يكنى أبا بكر، ويعرف بالطنجالي، ولد الشيخ الولي أبي عبد الله.

حاله

من ذيل تاريخ مالقة للقاضي أبي الحسن بن الحسن. قال، كان هذا العالم الفاضل ممن جمع بين الدراية والرواية، والتراث والاكتساب. وعلو الانتساب، وهو من القوم الذين وصلوا الأصالة بالصول، وطول الألسنة بالطول، وهدوا إلى الطيب من القول، أثر الشموخ يبرق من أنفه، ونسيم الرسوخ يعبق من عرفه. وزاجر الصلاح يومي بطرفه، فتخاله من خوف الله ذا لمم، وفي خلقه دمائة، وفي عرنينه شمم. ووصفه بكثير من هذا النمط.

ومن العايد: كان من أهل العلم والتفنن في المعارف والتهمم بطلبها، جمع بين الرواية والدراية الصلاح. وكانت فيه خفة، لفرط صحة وسذاجة وفضل رجولة به، بارع الخط، حسن التقييد، مهيباً جزلاً، مع ما كان عليه من التواضع، يحبه الناس ويعظمونه، خطب بالمسجد الأعظم من مالقة، وأقرأ به العلم.

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي محمد الباهلي، وأبيه الولي الخطيب رحمه الله. وروى عن جده أبي جعفر، وعن الراوية الأستاذ الكبير أبي جعفر بن الزبير، والراوية أبي عبد الله بن عياش، والقاضي أبي القاسم بن السكوت، وغيرهم ممن يطول ذكره، من أهل المشرق والمغرب.

وفاته: توفي بمالقة في أول صفر من عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية وكان عمره نحواً من تسع وخمسين سنة.

محمد ين محمد بن ميمون الخزرجي

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بلا أسلم، لكثرة صدور هذه اللفظة عنه، مرسي الأصل، وسكن غرناطة ووادي آش وألمرية.

حاله

من كتاب المؤتمن: كان دمث الأخلاق، قبل أن يحرجه شيء من مضيقات الصدور يشارك في العربية، والشعر يا لنازل عن الدرجة الوسطى، لا يخلو بعضه عن الحن. وكان تيتعيش من صناعة الطب. وجرت له شهرة بالمعرفة ترفع به بتلك الصناعة على حد شهرةٍ ترك النصيحة فيها، فكانت شهرته بالمعرفة ترفع به. وشهرته بترك النصيحة تنز له، ، فيمر بين الحالتين بشظف العيش، ومقت الكافة إياه.

قلت، كان لا أسلم، طرفاً في المعرفة بطرق العلاج، فسيح التجربة، يشارك في فنون، على حال غريبة من قلة الظرف، وجفاء الآلات، وخشن الظاهر، والإزراء بنفسه بالناس، متقدم في المعرفة بالخصوم، يقصد في ذلك. وله في الحرب والحيل حكايات، قال صاحبنا أبو الحسن ابن الحسن: كانت للحكيم لا أسلم خمر مخبأ، في كرم كان له بألمرية عثر عليها بعض الدعرة، فسرقها له. قال، فعمد إلى جرة وملأها بخمر أخرى، ودفنها بالجهة، وجعل فيها شيئاً من العقاقير المسهلات، وأشاع أن الخمر العتيقة التي كانت له لم تسرف، وإنما باقية، بموضع كذا، فعمد إليها أولئك الدعرة، وأخذوا في استعمالها، فعادت عليهم بالاستطلاق القبيح المهلك، فقصدوا الحكيم المذكور، وعرضوا عليه ما أصابهم، فقال لهم إيه، أدوا إلى ثمن الشربة، وحينئذ أشرع لكم في الدواء، ويقع الشفا بحول الله. فجمعوا له أضعاف ما كان يساويه خمخره وعالجهم حتى شفوا بعد مشقة. وأخباره كثيرة.

وفاته: توفي عقب إقلاع الطاغية ملك برجلونة عن المرية عام تسعة وسبعماية. وخلفه ابن كان له يسمى إبراهيم، ويعرف بالحكيم، وجرى له من الشهرة ما جرى لأبيه، مرت عليه ببخت وقبول، وتوفي بعد عام خمسين وسبعماية.

الشديد

محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري جياني الأصل مالقيه، يكنى أبا عبد الله ويعرف بالشديد على بنية التصغير، وهو كثير التردد والمقام بحضرة غرناطة.

حاله

من أهل الطلب والذكاء والظرف والخصوصية، مجموع خلال من خط حسن واضطلاع بحمل كتاب الله. بلبل دوح السبع المثاني، وماشطة عروس أبي الفرج الجوزى، وآية صقعة في بالصوت، وطيب النغمة، اقتحم لذلك دسوت الملوك وتوصل إلى صحبة الأشراف، وجر أذيال الشهرة. قرأ القرآن والعشر بين يدى السلطان، أمير المسلمين بالعدوة، ودنا منه محله، لولا إيثار مسقط رأسه. وتقرب بمثل ذلك إلى ملوك وطنه، وصلى التراويح بمسجد قصر الحمراء، غريب المنزع، عذب الفكاهة، ظريف المجالسة، قادر على الحكايات، مستور حمى الوقار، ملب داعي الانبساط، على استراجاع واستقامة، مبرور الوفادة، منوه الإنزال، قلد شهادة الديوان بمالقة، معلاً عليه في ذلك، فكان مغار جبل الأمانة، صليب العود، شامخاً، صادق النزاهة، لوحاً للألقاب، محرزاً للعمل.

وولى الحسبة بمالقة حرسها الله تعالى، فخاطبته في ذلك أداعبه، وأشير إلى قوم من أجداده، وأولى الحمل عليه بما نصه:

يا أيها المحتسب الجزل ... ومن لديه الجد والهزل

تهنيك والشكر لمولى الورى ... ولاية ليس لها عزل

كتبت أيها المحتسب، المنتمى إلى النزاهة المنتسب، وأهنيك ببلوغ تمنيك، و أحذرك من طمع نفس بالغرور تمنيك، فكأني وقد طافت بركابك الساعة، ولزم لأمرك السمع والطاعة، وارتفعت في مصانعتك الطماعة، وأخذت أهل الريب بغتة كما تقوم الساعة، ونهضت تقعد وتقيم، وسكوتك الريح العقيم، وبين يديك القسطاس المستقيم، ولابد من شرك ينصب، وجماعة على ذي جاه تتعصب، وحالة كيتٍ بها الجناب الأخصب، فإن غضضت طرفك، أمنت عن الولاية صرفك، وإن ملأت ظرفك، رحلت عنها حرفك، وإن كففت فيها كفك، حفك العز فيمن حفك. فكن لقالي المجبنة قالياً، ولحوت السلة سالياً. وابد لدقيق الحوارى زهد حوارى، وازهد فيما بأيدي الناس من العوارى. وسر في اجتناب الحلو على السبيل السوا، وارفض في الشوا دواعي الأهوا، وكن على الهراس، وصاحب فريد الرأس، شديد المراس، وثب على بايع طبيخ الأعراس، ليئاً مرهوب الافتراس، وأدب أطفال السوق في السوق، سيما من كان قبل البلوغ والسبوق، وصمم في استخراج الحقوق، والناس أصناف، فمنهم خسيس يطمع منك في إكلة، ومستعد عليك بوكزة أو ركلة. وحاسد في مطية تركب، وعطية تسكب، فاخفض للحاسد جناحك، وسدد إلى حربه رماحك، وأشبع الخسيس منهم مرقة دسمة فإنه حنق، ودس له فيها عظماً لعله يختنق، واحف رلشريرهم حفرة عميقة، فأنه العدو حقيقة، حتى إذا حصل، وعلمت أن وقت الانتصار قد وصل، فأوقع وأوجع، ولا ترجع، واولياه من حزب الشيطان ففجع، والحق أقوى، وإن تعفو أقرب للتقوى. سددك الله إلى غرض التوفيقن وأعلقنا من الحق بالسبب الوثيق، وجعل قدومك مقروناً برخص اللحم والزيت والدقيق. بمنه وفضله.

مشيخته

قرأ القرآن على والده المكتب النصوح رحمه الله، وحفظ كتباً كرسالة أبي محمد بن زيد، وشهاب القضاعي، وفصيح ثعلب، وعرض الرسالة على ولي الله أبي عبد الله الطنجالي، وأجازه. ثم على ولده الخطيب أبي بكر، وقرأ عليه من القرآن، وجود بحرف نافع على شيخنا أبي البركات. وتلا على شيخنا أبي القاسم بن جزى. ثم رحل إلى المغرب،

قلقى الشيخ الستاذ الأوحد في التلاوة، أبا جعفر الدراج، وأخذ عن الشريف المقرى أبي العباس الحسنى بسبتة، وأدرك أبا القاسم التجيبي، وتلا على الأستاذ أبي عبد الله بن عبد المنعم ولازمه، واختص بالأستاذ ابن هاني السبتي، ولقى بفاس جماعة كالفقيه أبي زيد الجزولي، وخلف الله المجاصي، والشيخ أبا العباس المكناسي، والشيخ البقية أبا عبد الله بن عبد الرازق، وقرأ على المقرى الفذ الشهير في الترنم بألحان القرآن أبي العباس الزواوي سبع ختمات، وجمع عليه السبع، والمقرى ابي العباس بن حزب الله، واختص بالشيخ الريس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي.

شعره

من شعره ما كتب به إلى وزير الدولة المغربية في غرض الاستلطاف:

يا من به أبدا عرفت ومن أنا ... لولاه لي دامت علاه وداما

لا تأخذنك في الشديد لومة ... فشخيص نشأته بفضلك قاماً

ربيته علمته أدبته ... قدمته للفرض منك إماماً

فجزاك رب الخلق خير جزاية ... عنى وبوأك الجنان مقاماً

وهو الآن بالحالة الموصوفة، مستوطناً حضرة غرناطة، وتالياً الأعشار القرآنية، بين يدي السلطان أعزه الله، مرفع الجانب، معزز الجراية بولايته أحباس المدرسة، أطروفة عصره، لولا طرش نقص الأنس به، نفعه الله.

ولد بمالقة في عاشر ربيع الأول من عام عشرة وسبعماية ومن الغرباء في هذا الاسم

التلمساني

محمد بن أحمد بن إبراهيم بن محمد التلمساني الأنصاري السبتي الدار، الغرناطي الاستيطان، يكنى أبا الحسين، ويعرف بالتلمساني

حاله

طرف في الخير والسلامة، معرق في بيت الصون والفضيلة، معم تخول في العدالة، قديم الطلب والاستعمال، معروف الحق، مليح البسط، حلو الفكاهة، خفيف إلى هيعة الدعابة، على سمت ووقار، غزل، لوذعي، مع استرجاع وامتساك، مترف، عريق في الحضارة، مؤثر للراحة، قليل التجلد، نافر عن الكد، متصل الاستعمال، عريض السعادة في باب الولاية، محمول على كتد المنبرة، جار على سنن شيوخ الطلبة والمقتاتين من الأرزاق المقدرة، أولي الخصوصية والضبط، من التظاهر بالجاه على الكفاية. قدم على الأندلس ثمانية عشر وسبعماية، فمهد كنف القبول والاستعمال، فولي الحسبة بغرناطة، ثم قلد تنفيذ الأرزاق، وهي الخطة الشرعية، والولاية المجدية، فاتصلت بها ولايته. وناب عني في العرض والجواب بمجلس السلطان، حميد المنأى في ذلك كله، يقوم على كتاب الله حفظاً وتجويداً، طيب النغمة، راوياً محدثاً، إخبارياً، مرتاحاً للأدب، ضارباً فيه بسهم، يقوم على كتب السيرة النبوية، فذاً في ذلك. قرأه بالمسجد الجامع للجمهور، عند لحاقه بغرناطة، معرباً عن نفسه، منبهاً على مكانه، فزعموا أن رجلاً فاضت نفسه وجداً لشجو نغمته، وحسن إلقايه. وقرأ التراويح بمسجد قصر السلطان إماماً به، واتسم بمجلسه بالسلامة والخير، فلم تؤثر عنه في أحد وقيعة، ولا بدرت له، في الحمل على أحد بنت شفه.

مشيخته

منهم الشريف أبو علي الحسن بن الشريف أبي التقا طاهر بن أبي الشريف ربيع بن علي بن أحمد بن علي بن أبي طاهر بن حسن بن موهوب بن أحمد بن محمد بن طاهر بن أبي الشرف الحسن بن علي بن محمد بن علي ابن موسى

بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن الحسن بن علي ابن أبي طالب. ومنهم والده المترجم به، ومنهم أبوه وجده، ومنهم الأمير الصالح أبو حاتم أحمد بن الأمير أبي القاسم محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد العزفي، والمقري أبو القاسم بن الطيب، وإمام الفريضة أبو عبد الله محمد بن محمد بن حريث، والأستاذ ملحق الأبناء بالآباء أبو إسحق الغافقي، والكاتب الناسك أبو القاسم خلف بن عبد العزيز القبتوري، والأستاذ المعمر أبو عبد الله بن الخضار، والخطيب المحدث أبو عبد الله ابن رشيد، والخطيب الأديب أبو عبد الله الغماري، والأستاذ أبو البركات الفضل بن أحمد القنطري، والوزير العابد أبو القاسم محمد بن محمد ابن سهل بن مالك، والولي الصالح أبو عبد اله الطنجالي، والخطيب الصالح أبو جعفر بن الزيات، والقاضي الأعدل أبو عبد الله بن برطال، والشيخ الوزير المعمر أبو عبد اله بن ربيع، والصوفي الفاضل أبو عبد الله ابن قطرال، والأستاذ الحسابي أبو إسحق البرغواطي، هؤلاء لقيهم وقرأ وسمع عليهم. وممن كتب له بالإجازة، وهم خلق كثير، كخال أبيه، الشيخ الأديب أبي الحكم مالك بن المرحل، والخطيب أبي الحسن فضل ابن فضيلة، والأستاذ الخاتمة أبي جعفر بن الزبير، والعدل أبي الحسن ابن مستقور، والوزير المعمر أبي محمد بن سماك، والخطيب أبي محمد مولى الرييس أبي عثمن بن حكم، والشيخ الصالح أبي محمد الحلاسي، والقاضي أبي العباس بن الغماز، والشيخ أبي القاسم الحضرمي اللبيدي، والعدل المعمر الراوية أبي عبد الله بن هرون، والمحدث الراوية أبي الحسن القرافي، وأبي إسحق إبراهيم بن أحمد بن عبد المحسن بن هبة الله بن أبي المنصور، والإمام شرف الدين أبي محمد الدمياطي، وبهاء الدين بن النحاس، وقاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد، وضياء الدين أبي مهدي عيسى بن يحيى بن أحمد، وكتب في الإجازة له:

ولدت لعام من ثلاث وعشرة ... وست مئين هجرة لمحمد

تطوفت قدماً بالحجاز وإنني ... بمصر هو المربلي وسبتة مولد

إلى عالم كثير من أهل المشرق، يشق إحصاؤهم. قد ثبت معظمهم في اسم صاحبه أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي رحمه الله.

محنته

نالته محنة بجري الأمور الاشتغالية وتبعاتها، قال الله فيها لعثرته لغاً، فاستقل من النكبة، وعاد إلى الرتبة. ثم عفت عليه بآخرة، فهلك تحت بركها بعد مناهزة التسعين سنة، نفعه الله.

ولد عام ستة وسبعين وستماية، وتوفي في شهر محرم من أربعة وستين وسبعماية.

ابن قطرال

محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن يوسف بن قطرال الأنصاري من أهل مراكش، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن قطرال

حاله

من العايد: كان رحمه الله فاضلاً صوفياً، عارفاً، متحدثاً، فقيهاً، زاهداً، تجرد عن ثروة معروفة، واقتصر على الزهد والتخلي، وملازمة العبادة، والغروب عن الدنيا. وله نظم رايق، وخط بارع، ونثر بليغ، وكلام على طريقة القوم، رفيع الدرجة، عالي القدر. شرح قصيدة الإسراييلي، بما يشهد برسوخ قدمه، وتجول في لقاء الأكابر على حال جميلة من إيثار الصمت والانقباض والحشمة. ثم رحل إلى المشرق حاجاً صدر سنة ثلاث وسبعماية.

مشيخته

من شيوخه القاضي العالم أبو عبد الله محمد بن علي، والحافظ أبو بكر بن محمد المرادي، والفقيه أبو فارس الجروي، والعلامة أبو الحسين بن أبي الربيع، والعدل أبو محمد بن عبيد الله، والحاج أبو عبد الله بن الخضار، وأبو إسحق التلمساني، وأبو عبد الله بن خميس، وأبو القاسم بن السكوت. وأبو عبد الله بن عياش. وأبو الحسن بن فضيلة، وأبو جعفر بن الزبير، وأبو القاسم بن خير الله. هؤلاء كلهم لقيهم. وأخذ عنهم. وكتب له بالإجازة جملة، كالقاضي أبي علي بن الأحوص، وأبي القاسم العزفي. وأبي جعفر الطنجالي. وصالح بن شريف، وأبي عمرو الداري. وأبي محمد بن الحجام. وأبي بكر بن حييش، وأبي طرخان، وابن البواب، وأمين الدين بن عساكر. وقطب الدين بن القسطلاني. وغيرهم.

شعره

وأما شعره فكثير بديع. قال شيخنا القاضي أبو بكر بن شبرين كتبت إليه:

يا معمل السير أي إعمال ... سلم على الفاضل ابن قطرال

من أبيات راجعني عنها بأبيات منها:

زارت فأزرت بمسك دارين ... تفتن للحسن في أفانين

ومثلها في شتى محاسنها ... ليست ببدع من ابن شبرين

توفي بحرم الله عاكفاً على الخير وصالح الأعمال، معرضتاً عن زهرة الحياة الدنيا، إلى أن اتصل خبر وفاته، وفيه حكاية، عام تسعة وسبعماية ودخل غرناطة برسم لقاء الخطيب الصالح أبي الحسن بن فضيلة. وغير ذلك.

العمال في هذا الاسم وأولا الأصليون

محمد بن أحمد بن محمد بن الأكحل

يكنى أبا يحيى.

حاله

شيخ حسن الشيبة، شامل البياض، بعيد مدى الذقن، خلوع الظاهر، خلوب اللفظ، شديد الهوى إلى الصوفية، والكلف بإطراء الخيرية، سيما عند فقدان شكر الولاية، وجماح الحظوة، من بيت صون وحشمة، مبين عن نفسه في الأغراض، متقدم في معرفة الأمور العملية، خايض مع الخايضين في غمار طريق التصوف، وانتحال كيمياء السعادة، راكب متن دعوى عريضة في مقام التوحيد، تكذبها أحواله الراهنة جملة، ولا تسلم له منا نبذة، لمعاصاة خلقه على الرياضة واستيلاء الشره، وغلب سلطان الشهوة، فلم يجن من جعجاعه المبرم فيها إلا استغرق الوقت في القواطع عن الحق، والأسف على ما رزته الأيام من متاع الزور، وقنية الغرور، والمشاحة أيام الولاية، والشباب الشاهد بالشره، والحلف المتصل بياض اليوم، في ثمن الخردلة باليمين التي تجر فساد الأنكحة، والغضب الذي يقلب العين، والبذا الذي يصاحب الشين، ومغلوب عليه في ذلك، ناله بسببه ضيق واعتقال، وتفويت جدة، وإطباق روع، وقيد للعذاب، فألقيت عليه ردايي، ونفس الله عنه بسببي، محواً للسيئة بالحسنة، وتوسلاً إلى الله بترك الحظوظ، والمنة لله جل جلاله على ذلك.

شعره

خاطبني بين يدي نكبته أو خلفها بما نصه، ولم أكن أظن الشعر مما تلوكه جحفلته، ولكن الرجل من أهل الكفاية:

راجوتك بعد الله يا خير منجد ... وأكرم مأمول وأعظم مرفد

وأفضل من أملت للحادث الذي ... فقدت به صبري وما ملكت يد

وحاشى وكلا أن يخيب مأملي ... وقد علقت بابن الخطيب محمد
وما أنا إلا عبد أنعمه التي ... عهدت بها يمنى وإنجاح مقصد
وأشرف من حض الملوك على التقى ... وأبدى لهم نصحاً وصية مرشد
وساس الرعايا الآن خير سياسة ... مباركة في كل غيب ومشهد
وأعرض عن دنياه زهداً وإنها ... لمظهرة طوعاً له عن تودد
وما هو إلا الليث والغيث إن ... أتى له خايف أو جاء مغناه مجتد
وبحر علوم دره كلماته إذا ... رددت في الحفل أي تردد

صقيل مرأى الفكر رب لطايف ... محاسنها تجلى بحسن تعبد
بديع عروج النفس للملإ الذي ... تجلت به الأسرار في كل مصعد
شفيق رقيق دايم الحلم راحم ... وأي جميل للجميل معود
صفوح عن الجاني على حين قدرة ... يواصل تقوى الله في اليوم والغد
أيا سيدي يا عمدتي عند شدتي ... ويا شربي متى ظميت وموردي
حنانيك والطف بي وكن لي راحماً ... ورفقاً على شيخ ضعيف منكد
رجاك رجا الذي أنت أهله ... ووافاك يهدي الثنا المجدد
وأمك مضطراً لرحماك شاكياً ... بحال كحر الجمر حين توقد
وعندي افتقار لأنوال مواصلاً ... لأكرم مولى حاز أجراً وسيد
ترفق بأولاد صغار بكاؤهم ... يزيد لوقع الحادث المتزيد
وليس لهم إلا إليك تطلع ... إذا مسهم ضر أليم التعهد
أنلهم أيا مولاي نظرة مشفق ... وجد بالرضا وانظر لشمل مبدد
وقابل أخا الكره الشديد برحمة ... وأسعف بغفران الذنوب وأبعد
ولا تنظرن إلا لفضلك لا إلى ... جريمة شيخ عن محلك مبعد
وإن كنت قد أذنبت إني تايب ... فعاود لي الفعل الجميل وجدد
بقيت بخير لأنوال وعزة ... وعيش هني كيف شيت وأسعد
وسخرك الرحمن للعبد إنه ... لمتن وداع للمحل المجدد

وقد ولي خططاً نبيهة، منها خطة الاشتغال على عهد الغادر المكايد للدولة، إذ كان من أولياء شيطانه وممديه في غيه، وسماسير شعوذته، فلم يزل من مسيطري ديوان الأعمال، على تهور واقتحام كبرة، وخط لا غاية وراءه في الركاكة، كما قال المعري:

تمشت فوقه حمر المنايا ... ولكن بعد ما مسخت نمالا

استحضرته يوماً بين يدي السلطان، وهو غفل لفك ما أشكل من معمياته في الأعمال عند المطالعة، فوصل بحال سيئة، ولما أعتب بسببه، ونعيت عليه هجنته، أحسن الصدر عن ذلك الورد، ونذر في نفسه، وقال حيا الله رداءة الخط، إذا كانت ذريعة إلى دخول هذا المجلس الكريم، فاستحسن ذلك، لطف الله بنا أجمعين.

توفي عام سبعة وستين وسبعماية.

ابن حامد الغافقي

محمد بن الحسن بن زيد بن أيوب بن حامد الغافقي يكنى أبا الوليد.

أوليته

أصله من طليطلة، انتقل منها جد أبيه، وسكنوا غرناطة، وعدوا في أهلها.

حاله

كان أبو الوليد طالباً نبيلاً، نبيهاً، سرياً، ذكياً، ذا خط بارع، ومعرفة بالأدب والحساب، ونزع إلى العمل فكان محمود السيرة، مشكور الفعل. وولي الإشراف في غير ما موضع. قلت، وآثاره في الأملاك المنسوبة إليه، التي من جملة المستخلص السلطاني بغرناطة وغيرها، مما يدل على قدم، وتَعِمَّة أصيلة.

توفي بمدينة إشبيلية سنة ثمان وثمانين وخمسماية، وسنة دون الخمسين.

ابن حسان

محمد بن محمد بن حسان الغافقي إشبيلي الأصل، غرناطي المنشأ، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن حسان

حاله

من العايد: كان من أهل السرو والظرف والمروءة، وحسن الخلق. تولى الإشراف بغرناطة، وخطة الأشغال، فحسن الثناء عليه. وله أدب ومشاركة. حدثني بعض أشياخنا، قال، كنت على مائدة الوزير ابن الحكيم، وقد تحدث بصرف ابن حسان عن عمل كان بيده، وإذا رقعة قد انتهت إليه أحفظ منها:

لكم أياد لكم أياد ... كررتها إنها كثيرة

فإن عزمتم على انتقالي ... ريه أبغي أو الجزيرة

وإن أبيتم إلا مقامي ... فنعمة منكم كبيرة

وقال لي بعضهم، جرى بين ابن حسان هذا، وبين أحد بني علاق، وهم أعيان، كلام وملاحة فقال ابن حسان، إنما كان جدكم مولى بني أضحى، وجدبني مشرف، فاستعد عليه، ورفعه إلى الوزير ابن الحكيم فيما أظن، فلما استفهمه عن قوله، قال أعزك الله، كنت بالكتبيين، وعرض علي كتاب قديم في ظهره أبيات حفظتها وهي:

أضحى الزمان بأضحى وهو مبتسم ... لنوره في سماء المجد إشراق

فلم يزل ينتمي للمجد كل فتى ... تطيب منه مواليد وأعراق

فإن ترد شرفاً يمم مشرفه ... وإن ترد علق مجد فهو علاق

فعلم الوزير أن ذلك من نظمه، ونتيجة بديهته، فعجب من كفايته، وترضى خصمه، وصرفهما بخير. وتوفي في شهر رجب ثلاثة عشر وسبعماية.

ابن قاسم النميري

محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن إبراهيم ابن عبد العزيز بن إسحق بن أحمد بن أسد بن قاسم النميري المدعو بابن الحاج يكنى أبا عمرو، وقد مر ذكر أخيه.

حاله

تولي خطة الإشراف بلوشة وأندرش ومالقة. وولي النظر في مختص ألمرية، والأعشار الرومية بغرناطة. وكان له خط حسن، وجودة كاملة، وحسن خلق، ووطأة أكناف، تشهد له بجلالة قدره، ورفيع خطره. وصاهر في أعيان كالوزير أبي عبد الله بن أبي الحسن فاضل، سرى، مخلق، حسن الضريبة، متميز بخصال متعددة، من خط بديع، ونظم،

ومشاركة في فنون، من طب وتعديل، وارتياض سماع، وذك التاريخ. حج وجال في البلاد. ولقي جلة، وتولى بالمغرب خططاً نبيهة علية. ثم كر إلى الأندلس عام ستين وسبعماية، فأجرى من الاستعمال على رسمه. ثم اقتضت له العناية السلطانية بإشارتي، أن يوجه في غرض الرسالة إلى تونس وصاحب مصر، لما تقدم من مرانه على تلك البلاد، وجولاته في أقطارها، وتعرفه بملوكها والجلة من أهلها، فآب بعد أعوام، مشكور التصرفات، جارياً على سنن الفضلاء، مضطلعاً بالأحوال التي أسندت إليه من ذلك. فلم يزل معتني به، مرشحاً إلى الخطط التي تطمح إليها نفس مثله، مسندا النظر في زمام العسكر الغربي إلى ولده، الذي يخلفه عند رحلته نابيا عنه، معززاً ذلك بالمرتبات والإحسان، تولاه الله وأعانه.

شعره

مدح السلطان، وأنشد له في المواليد النبوية. ورفع إلى السلطان بحضرتي هذه الأبيات:

مولاي يا خير أعلام السلاطين ... ومن له الفضل في الدنيا وفي الدين

ومن له سير ناهيك من سير ... وافت بأكرم تحسين وتحصين

شرفت عبدك تشريفاً له رتب ... فوق النجوم التي فوق الأفق تعلين

وكان لي موعد مولاي أنجزه ... وزاد في العز بعد الرتبة الدون

والله ما الشكر مني قاضياً وطرى ... ولو أتيت به حيناً على حين

ولا الثناء موف حق أنعمه ... ولو ملأت به كل الدواوين

لكن دعايي وحبي قد رضيتهما ... كفا أفعاله الغر الميامين

وعند عبدك إخلاص يواصله ... في خدمة لم يزل للخير تدنين

وسوف أنصح كل النصح مغتنما ... رضي إمام له فضل يرجين

جوزيت عني أمير المسلمين بما ... ترضاه للملك من نصر وتمكين

وأنت أكرم من ساس الأنام ... ومن عم البلاد بتسكين وتهدين

ومن كمثل أبي عبد الآله إذا أضحى ... الفخار لنا رحب الميادين

محمد بن أبي الحجاج خيرة من ... أهدى إليه مدحاً بالسعد يحظين

وجه جميل وأفعال تناسبه ... ودولة دولة المأمون تنسين

لا زال في السعد والإسعاد ما سجعت ورق الحمام على قضب البساتين

محمد بن عبد الرحمن الكاتب

يكنى أبا عبد الله من أهل غرناطة، أصله من وادي آش

حاله

كان طالباً نبيهاً كاتباً جليلاً، جيد الكتابة. كتب عن بعض أبناء الخليفة أبي يعقوب، واختص بالسيد أبي زيد بغرناطة، وبشرق الأندلس، وكان أثيراً عنده مكرماً. وكان رحمه الله شاعراً، مطبوعاً، ذا معرفة جيدة بالعدد والمساحة، ثم نزع عن الكتابة، واشتغل بالعمل، فراش فيه، وولي إشراف بنيات غرناطة. ثم ولي إشراف غرناطة، فكف يده، وظهرت نصيحته. ثم نقل إلى حضرة مراكش، فولى إشرافها مدة، ثم صرف عنها إلى غرناطة، وقدم على النظر في المستخلص إلى أن توفي.

مناقبه

أشهد لما قربت وفاته، أنه كان قد أخرج في صحته وجوازه، أربعة آلاف دنير من صميم ماله لتتميم القنطرة التي بنيت على وادي شنجيل بخارج غرناطة. وكان قبل ذلك قد بنى مسجد دار القضاء من ماله، وتأنق في بنائه، وأصلح مساجد عدة، وفعل خيراً، نفعه الله.

شعره

من شعره ما كتب به إلى الشيخ أبي يحيى بن أبي عمران وزير الخلافة، وهو بحال شكاية أصابته:

شكوت فأضنى المجد برح شكاته ... وفارق وجه الشمس حسن آياته

وعادت بعديك الزمان زمانة ... تعدت إلى عواد وأساته

وغيض ما للبشر لما تبسطت ... يد للسقم في ساحات كافي كفاته

فكيف بمقصوص وصلت جناحه ... وأدهم قد سربلته بشاته

وممتحن لولاك أذعن خبرة ... وهان على الأيام غمز قناته

أمعلق آمالي ومطمح همتي ... وواهب نفسي في عداد مباته

سأستقبل النعمى ببرك غضة ... ويصغر ذنب الدهر في حسناته

وتسطو عين الحق منك بمرهف ... تراع الخطوب الجور من فتكاته

وتطلع في أفق الخلافة نيراً ... تطالعنا الأقمار من قسماته

حرام على الشكوى اعتياد مطهر ... حياة الدنا والدين طي حياته

فما عرضت في قصده بمساءة ... ولكن ترجت أن ترى في عفاته

مشيخته

قال الغافقي، قرأ بمالقة على الأستاذ أبي زيد السهيلي رحمه الله.

وتوفي بغرناطة سنة سبع وستماية ودفن بداره بجهة قنطرة القاضي منها على ضفة الوادي.

محمد بن عبد الملك بن عمار بن ياسر

محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن الحسن بن عثمان ابن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر

أوليته

قد وقع التنبيه عليها ويقع بحول الله.

حاله

كان وزيراً جليلاً بعيد الصيت عالي الذكر رفيع الهمة، كثير الأمل.

نباهته

ذكره ابن صاحب الصلاة في تاريخه في الموحدين، فنبه على مكانة محمد بن عبد الملك منهم في الرأي والحظوة، والأخذ عنه في أمور الأندلس، وأثنى عليه. وذكره أبو زيد السهيلي في شرح السيرة الكريمة، حتى انتهى إلى حديث كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الموجه إلى هرقل، وأن محمد بن عبد الملك عاينه عند أذفونش، مكرماً، مفتخراً به. والقضية مشهورة. وأما محله من أمداح الشعراء، فهو الذي مدحه الأديب أبو عبد الله الرصافي بقوله:

أبداً تفيض وخاطراً متوقداً ... دعها تبت قبساً على علم الندا

وفيه يقول أبو عبد الله بن شرف من قصيدة:

يا رحمة الله للراجي ونقمته ... لكل باغ طغا عن خيرة الرسل
لم تبق منهم كفوراً دون مرقبة ... مطالعاً منك حتفاً غير منفصل
كما بزاتك لم تترك بأرضهم ... وحشا يفر ولا طيرا بلا وجل
وكان كثير الصيد، ومتردد الغارات.
مناقبه في الدين
قالوا لما أنشده أبو عبد الله الرصافي في القصيدة التي مطلعها:
لملك الترفيع والتعظيم ... ولوجهك التقديس والتكريم
حلف ألا يسمعها، وقال على جايزتك، لكن طباعي لا تحتمل مثل هذا، فقال الرصافي، ومن مثلك، ومن يستحق ذلك في الوقت غيرك، فقال له، دعني من خداعك أنا وما أعلمه عن نفسي.
شعره
أنشده صاحب الطالع، ولا يذكر له غيره:
فلا تظهرن ما كان في الصدر كامناً ... ولا تركبن بالغيظ في مركب وعر
ولا تبحثن في عذر من جاء تايباً ... فليس كريماً من يباحث في عذر
وولي من الأعمال للموحدين كثيراً، كمختص حضرة مراكش، ودار السلاح، وسلا، وإشبيلية، وغرناطة، واتصلت ولايته على أعمال غرناطة، وكان من شيوخها وأعيانها.
محنته

وعمل فيه عقد بأن بداره من أصناف الحلي، ما لا يكون إلا عند الملوك، وأنه إذا ركب في صلاة الصبح، من دار الرخام التي يجري الماء فيها، في إثنى عشر مكاناً، شوش الناس في الصلاة، دوي الجلاجل بالبزاة، ومناداة الصيادين، ونباح الكلاب، فأمر المنصور بالقبض عليه، وعلى ابن عمه صاحب أعمال إفريقية أبي الحسين، في سنة ثلاث وسبعين وخمسماية. ثم رضي عنهما، وأمر محمد بن عبد الملك أن يكتب بخطه كل ما أخذ له، فصرفه عليه، ولم ينقصه منه شيء، وغرم ما فات له.
ولد سنة أربع عشر وخمسماية، وتوفي بغرناطة سنة تسع وثمانين وخمسماية.
محمد بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن الحسن

ابن عثمان العنسي

ابن عثمان بن محمد بن عبد الله بن عمار بن ياسر العنسي يكنى أبا بكر، وقد تقدم التعريف بأوليته.
حاله
قال في الطالع ساد في دولة الملثمين، وولوه بغرناطة الأعمال، وكانت له دار الرخام المشهورة بإزاء الجامع الأعظم بغرناطة. قال الغافقي فيه: شيخ جليل، فقيه نبيه من أهل قلعة يحصب. كان في عداد الفقهاء، ثم نزع إلى العمل، وولي إشراف غرناطة في إمارة أبي سعيد الميمون بن بدر اللمتوني. وقال صاحب المسهب وحسب القلعة كون هذا الفضل الكامل منها، وقد رقم برد مجده بالأدب، ونال منه بالاجتهاد والسجية القابلة، أعلى سبب، وله من المكارم ما يغير في وجه كعب وحاتم، لذلك ما قصدته الأدباء، وتهافتت في مدحه الشعراء، وفيه أقول:

وكان أبو بكر من الكفر عصمة ... ورد به الله الغواة إلى الحق
وقام بأمر الله حافظ أهله ... بلين وسبط في المبرة والخلق
وهذا أبو بكر سليل ابن ياسر ... بغرناطة ناغاه في الرأي والصدق
فهذا لنا بالغرب يجنى معالماً ... تباهى الذي أحيا الديانة بالشرق
وقد جرى من ذكره عند ذكر أبي بكر بن قزمان، ويجري عند ذكر نزهون بنت القلاعي ما فيه كفاية، إذ كان مفتوناً بها، وبحمدة وزينب بنتي زياد المؤدب من أهل وادي آش، وفيهما يقول:
ما بين زينب عمري ... أحث كأسي وحمده
وكل نظم ونثر ... وحكمة مستجده
وليس إلا عفاف ... يبلغ المرء قصده
ولذلك ما سعى به المخزومي الأعمى، وقد سها عن رسم تفقده، فكتب إلى علي بن يوسف في شأنه بما كان سبب عزله ونكبته:
إليك أمير المؤمنين نصيحة ... يجوز بها البحر المجعجع شاعر
بغرناطة وليت في الناس عاملاً ... ولكن بما تحويه منه المآزر
وأنت ما تخفي عليك خفية ... فسل أهلها فالأمر للناس ظاهر
وما لإلآه العرش تفنيه حمدة ... وزينب والكأس الذي هو داير
شعره: من ذلك قوله:
يا هذه لا ترومي ... خداع من ضاق ذرعه
تبكي وقد قتلتيني ... كالسيف يقطر دمعه
وقال عفى الله عنه:
لقد صدعت قلبي حمامة أيكة ... أثارت غراماً ما أجل وأكرما
ورق نسيم الريح من نحو أرضكم ... ولطف حتى كاد أن يتكلما
وقال في مذهب الفخر:
فخرنا بالحديث بعد القديم ... من معال توارثت كالنجوم
نحن في الحرب أجبل راسيات ... ولنا في الندى لطف النسيم
ولد في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، وتوفي سنة تسع وثلاثين وخمسماية.
ومن الطارئين في هذا الاسم من العمال
محمد بن أحمد بن المتأهل العبدري
من أهل وادي آش، يكنى أبا عبد الله.
حاله
كان رجلاً شديد الأدمة، أعين، كث اللحية، طرفاً في الأمانة، شديد الاسترابة بجليسه، مخيناً لرفيقه، سيئ الظن بصديقه، قليل المداخلة، كثير الانقباض، مختصر الملبس والمطعم، عظيم المحافظة على النفير والقطمير، مستوعب للحصر والتقييد، أسير محيي وعابد زمام، وجنيب أمانة، وحلس سقيفة، ورقيب مشرف، لا يقبل هوادة، ولا يلابس رشوة، كثير الالتفات، متفقداً للآلة، متمماً للعمل.

جرى ذكره في بعض الموضوعات الأدبية بسبب شعر خامل نسب إليه بما نصه: رجل غليظ الحاشية معدود في جنس السايمة والماشية، تليت على العمال به سورة الغاشية، ولي الأشغال السلطانية، فذعرت الجباة لولايته، وأيقنوا بقيام قيامتهم لطلوع آيته، وقنطوا كل القنوط، وقالوا جاءت الدابة تكلمنا، وهي إحدى الشروط، من رجل صايم الحسوة، بعيد عن المصانعة والرشوة، يتجنب الناس، ويقول عند المخالطة لهم لا مساس، عهدي به في الأعمال يخبط ويتبر، وهو يهلل ويكبر، ويحسن ويقبح، وهو يسبح، انتهى. قلت، وولي الأشغال السلطانية، فضم النشر، وأوصد باب الحيلة، وبث أسباب الضياع، وترصد ليلاً وأصيب بجراحة أخطأته، ثم عاجلته الوفاة، فنفس عن أقتاله المخنق.

شعره: قال يخاطب بعض أثراء الدولة قبل نباهته:

عمادي ملاذي مويلي ومؤملي ... ألا انعم بما ترضاه للمتأهل

وحقق بنيل القصد منك رجاءه ... على نحو ما يرضيك يا ذا الفضل

فأنت الذي في العلم يعرف قدره ... بخير زمان منه لا زلت فيه تعتل

فهنيت يا مغنى الكمال برتبة ... تقر لكم بالسبق في كل محفل

توفي عام ثلاثة وأربعين بغرناطة أو قبل ذلك بيسير، وله خط حسن، وممارسة في الطلب، وقد توسط المعترك.

ابن عبد الواحد البلوي

محمد بن محمد بن محمد بن عبد الواحد البلوي من أهل ألمرية، يكنى أبا بكر.

أوليته

من كتاب المؤتمن قال، يشهر بنسبه وأصل سلفه من جهة بيرة إما من بجانة، وإما من البريج، واستوعب سبب انتقالهم.

حاله

من عايد الصلة، كان أحد الشيوخ من طبقته، وصدر الوزراء من نمطه ببلده، سراوة وسماحة، ومبرة وأدباً ولوذعية ودعابة، رافع راية الانطباع، وحايز قصب السبق في ميدان التخلق، مبذول البر، شايع المشاركة.

وقال في المؤتمن، كان رجلاً عاقلاً، عارفاً بأقوال الناس، حافظاً لمراتبهم، منزلاً لهم منازلهم، ساعياً في حوايجهم، لا يصدرون عنه إلا عن رضى بجميل مداراته. التفت إلى نفسه، فلم ينس نصيبه من الذل، ولا أغفل من كان يالفه في المنزل الخشن، واصلاً لرحمه، حاملاً لوطأة من يجفوه منهم، في ماله حظ للمساكين، وفي جاهه رفد للمضطرين، شيخاً ذكي المجالسة، تستطيب معاملته، على يقين أنه يخفى خلاف ما يظهر، من الرجال الذين يصلحون الدنيا، ولا يعلق بهم أهل الآخرة، لعروه عن النخوة والبطر، رحمه الله. تكررت له الولاية بالديوان غير ما مرة، وورد على غرناطة، وافداً ومادحاً ومعزياً.

مشيخته وما صدر منه

قرأ على ابن عبد النور، وتأدب به، وتلا على القاضي أبي علي بن أبي الأحوص أيام قضايه ببسطة، ونظم رجزاً في الفرايض.

شعره

قال الشيخ في المؤتمن، كانت له مشاركة في نظم الشعر الوسط، وكان شعر تلك الحلبة الآخذة عن ابن عبد النور، كأنه مصوغ من شعره شيخهم المذكور، ومحذو عليه، في ضعف المعاني، ومهنة الألفاظ. تنظر إلى شعره، وشعر عبد الله بن الصايغ، وشعر ابن شعبة، وابن رشيد، وابن عبيد، فتقول ذرية بعضها من بعض.

فمن ذلك ما نظمه في ليلة سماع واجتماع بسبب قدوم أخيه أبي الحسن من الحجاز:

إلهي أجرني إنني لك تايب ... وإني من ذنبي إليك لهارب

عصيتك جهلاً ثم جئتك نادماً ... مقراً وقد سدت علي المذاهب

مضى زمن بي في البطالة لاهياً ... شبابي قد ولى وعمري ذاهب

فخذ بيدي واقبل بفضلك توبتي ... وحقق رجائي في الذي أنا راغب

أخاف على نفسي ذنوباً جنيتها ... وحاشاك أن أشقى وأنت المحاسب

وإني لأخشى في القيامة موقفاً ... ويوماً عظيماً أنت فيه المطالب

وقد وضع الميزان بالقسط حاكما ... وجاء شهيد عند ذاك وكاتب

وطاشت عقول الخلق واشتد خوفهم وفر عن الإنسان خل وصاحب

فما ثم من يرجى سواك تفضلاً ... وإن الذي يرجو سواك لخايب

ومن ذا الذي يعطي إذا أنت لم تجد ... ومن هو ذو منع إذا أنت واهب

عبيدك يا مولاي يدعوك رغبة ... وما زلت غفاراً لمن هو تايب

دعوتك مضطراً وعفوك واسع ... فأنت المجازي لي وأنت المعاقب

فهب لي من رحماك ما قد رجوته ... وبالجود يا مولاي ترجي المواهب

توسلت بالمختار من آل هاشم ... ومن نحوه قصداً تحث الركايب

شفيع الورى يوم القيامة جاهه ... ومنقذ من في النار والحق واجب

ومما بلغ فيه أقصى مبالغ الإجادة، قوله من قصيدة هنا فيها سلطاننا أبا الحجاج بن نصر، لما وفد وهو وجملة أعيان البلاد أولها:

يهني الخلافة فتحت لك بابها ... فادخل على اسم الله يمنا غابها

منها وهو بديع، استظرف يومئذ:

يا يوسفياً باسمه وبوجهه اصعد لمنبرها وصن محرابها

في الأرض مكنك الإله كيوسف ... ولتملكن بربها أربابها

بلغت بكم آرابها من بعد ما ... قالت لذلك نسوة ما رابها

كانت تراود كفوها حتى إذا ... ظفرت بيوسف غلقت أبوابها

قلت، ما ذكره المؤلف ابن الخطيب رحمه الله، في هذا المترجم به، من أنه ينظم الشعر الوسط، ظهر خلافه، إذا أثبت له هذه المقطوعة الأخيرة. ولقد أبدع فيها وأتى بأقصى مبالغ الإجادة كما قال، وحاز بها نمطاً أعلى مما وصفه به.

وأما القصيدة الأولى فلا خفاء أنها سهلة المأخذ، قريبة المنزع، بعيدة من الجزالة، ولعل ذلك كان مقصوداً من ناظمها رحمه الله.

توفي ببلده عن سن عالية في شهر ربيع الآخر عام ثمانية وثلاثين وسبعماية.

ورثاه شيخنا أبو بكر بن شبرين رحمه الله بقوله:

يا عين سحي بدمع واكف سرب ... لحامل الفضل والأخلاق والأدب

بكيت إذ ذكرت الموتى على رجل ... إلى بلى من الأحياء منتسب

على الفقيه أبي بكر تضمنه رمس وأعمل سيرا ثم لم يؤب

قد كان بي منه ود طاب مشرعه ... ما كان عن رغب كلاً ولا رهب
لكن ولا على الرحمن محتسباً ... في طاعة الله لم يمذق ولم يشب
فاليوم أصبح في الأجداث مرتهنا ... ما ضرت الري أملودا من الغضب
إنا إلى الله من فقد الأحبة ما ... أشد لذعاً لقلب الثاكل الوصب
قل فيه أما تصف ركناً لمنتبذ ... روض لمنتجع أنس لمغترب
باق على العهد لا تثنيه ثانية ... عن المكارم في ورد ولا قرب
سهل الخليقة بادي البشر منبسط ... يلقى الغريب بوجه الوالد الحدب
كم غير الدهر من حال فقلبها ... وحال إخلاصه ممتدة الطنب
سامي المكانة معروف تقدمه ... وقدره في ذوي الأقدار والرتب
أكرم به من سجايا كان يحملها ... وكلها حسن تنبيك عن حسب
ما كان إلا من الناس الإلى درجوا عقلاً وحلماً وجوداً هامى السحب
أمسى ضجيع الثرى في جنب ... بلقعة لكن محامده تبقى على الحقب
ليست صبابة نفسي بعده عجباً ... وإنما صبرها من أعجب العجب
أجاب دمعي إذ نادى النعي به ... لو غير منعاه نادى الدمع لم يجب
ما أغفل المرء عما قد أريد به ... في كل يوم تناديه الردى اقترب
يا ويح نفسي الأنفاس مضت هدراً بين البطالة والتسويف واللعب
ظننت أني بالأيام ذو هزء ... غلطت بل كانت الأيام تهزأ بي
أشكو إلى الله فقرى من معاملة ... لله أنجو بها في موقف العطب
ما المال إلا من الله قوى فأفلح ... من جاء القيامة ذا مال وذا نشب
أبا بكر الأرضي نداء أخ باك ... عليك مدى الأيام مكتئب
أهلاً بقدمتك الميمون ظاهرها ... على محل الرضى والسهل والرحب
نم في الكرامة فالأسباب وافرة ... وربما نيلت الحسنى بلا سبب
لله لله والآجال قاطعة ما ... بيننا من خطابات ومن خطب
ومن فرايد آداب يحبرها ... فيودع الشهب أفلاكاً من الكتب
أما الحياة فقد مليت مدتها ... فعوض الله منها خير منقلب

لولا قواطع لي أشراكها نصبت ... لزرت قبرك لا أشكو من النصب
وقل ما شفيت نفس بزورة ... من حل البقيع ولكن جهد ذي أرب
يا نخبة ضمها ترب ولا عجب ... إن التراب قديماً مدفن النخب
كيف السبيل إلى اللقيا وقد ضربوا ... بيني وبينك ما بقي من الحجب
عليك مني سلام الله يتبعه ... حسن الثنا وما حييت من كثب
محمد بن محمد بن شعبة الغساني

من أهل ألمرية، يكنى أبا عبد الله.

حاله

قال شيخنا أبو البركات في الكتاب المؤتمن، من أهل ألمرية ووجوهها لا حظ له في الأدب، وبضاعته في الطلب مزجاة. قطع عمره في الأشغال المخزنية، وهو على ذلك حتى الآن. قلت هذا الرجل أحد فرسان الطريقة العملية، ماض على لين، متحرك في سكون، كاسد سوق المروءة، ضان بما يملك من جدة، منحط في هوة اللذة، غير معرج على ربع الهمة، لطيف التأني، متنزل في المعاملة، دمث الأخلاق، مليح العمل، صحيح الحساب، منجب الولد.

مشيخته: قرأ على ابن عبد النور، والقدر الذي يحس به عنه أخذه.

شعره: من شعره يخاطب أبا الحسن بن كماشة:

وافى البشير فوافى الأنس والجذل ... وأقبل السعد والتوفيق والأمل

وراقت الأرض حسناً زاهراً وسنى ... واخضرت منها الربى والسهل والجبل

ولاح وجه على بعد ذا فغدا ... له شعاع كضوء الشمس متصل

مذ غاب أظلمت الدنيا لنا بغرته ... عاد الظلام ضياء وانتفى الخبل

إيه أبا حسن أنت الرجاء لنا ... مهمى اعترت شدة أو ضاقت الحيل

وأنت كهف منيع من نحاك فقد ... نال المنى وبدا عيش له خضل

يا سيداً قد غدا في المجد ذا رتب ... مشيدة قد بنتها السادة الأول

بنو كماشة أهل الفضل قد شهروا ... باهت بهم في قديم الأعصر الدول

السالكون هدى السابقون مدى ... والباذلون ندى والناس قد بخل

أنت الأخير زماناً والقديم علاً ... والسيد المرتجى والفارس البطل

إن كنت جئت أخيراً فلقد ... أضحى بجود يديك يضرب المثل

حزت المآثر لا تحصى لكثرتها ... من رام إحصاءها سدت له السبل

جزت البدور سنى والفرقدين علا ... وأنت تجر الندى والوابل الهطل

من جاء يطلب منك السلم قابله ... وجه طليق ولفظ كله عسل

ومن يرد غير ذا تباً له وردى ... لقد ترفع في برج له زحل

هناك ربك ما أولاك من نعم ... وعشت في عزة تترى وتتصل

ولا عدمت مدى الأيام منزلة ... من دونها رفعة في الأبرج الحمل

وخذه بعد سلاماً عاطراً أرجاً ... يدوم ما دامت الأسحار والأصل

من خادم لعلاكم مخلص لكم ... من حبكم لا يرى ما عاش ينتقل

تقبيل كفك أعلى ما يؤمله ... فجد به فشفا الهايم القبل

وفاته، في أول عام أربعة وستين وسبعماية.

محمد بن محمد بن العراقي

وادي آش، يكنى أبا عبد الله.

حاله

فاضل الأبوة، معروف الصون والعفة، بادي الاستقامة، دمث الأخلاق، حسن الأدوات، ينظم وينثر، ويجيد الخط، تولى أعمالاً نبيهة، ثم علقت به الحرفة، فلقي ضغطاً، وفقد نشباً، واضطر إلى التحول عن وطنه إلى بر العدوة عام ستة وخمسين وسبع ماية، وتعرف لهذا العهد أنه تولى الأشغال بقسنطينة الهواء من عمل إفريقية.

شعره

كتب إلي وقد أبي عملاً عرض عليه:

أأصمت أنفاً ثم أنطق بالخلف ... وأفقد ألفاً ثم آنس بالجلف

وأمسك دهري ثم أنطلق علقماً ... ويمحق بدري ثم ألحق بالخسف

وعزكم لا كنت بالذل عاملاً ... ولو أن ضعفي ينتمي إلى حنف

فإن تعملوني في تصرف عزة وعدل وإلا فاحسموا علة الصرف

بقيت وسحب العطف منكم ... تظلني وعطف ثناتي دائماً ثاني العطف

الهنا

محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن

عبد الله بن فرتون الأنصاري من أهل مالقة، يكنى أبا القاسم ويعرف بالهنا

أوليته

ينسب إلى القاضي ببطليوس، قاضي القضاة رحمه الله. وبمالقة دور تنسب إلى سلفه تدل على نباهة، وقد قيل غير ذلك. والنص الجلي أولى من القياس.

حاله

من عايد الصلة: الشيخ الحاج المحدث صاحب الأشغال بالدار السلطانية. صدر نمطه، وفريد فنه، رجولة وجزالة واضطلاعاً وإدراكاً وتجلداً وصبراً. نشأ بمالقة، معدوداً في أهل الطلب والخصوصية، ورحل إلى الحجاز الشريف في فتايه، فاستكثر من الرواية، وأخذ عن أكابر من أهل المشرق والمغرب، حسبما يشهد بذلك برنامجه.

وكان على سنن من السرو والحشمة، فذا في الكفاية، جرياً مقداماً مهيباً، ظريف الشارة، فاره المركب، مليح الشيبة، حسن الحديث، وقاد الذهن، صابراً على الوظايف، يخلط الخوض في الأمور الدنيوية، بعبادة باهظة، وأوراد ثقيلة، ويجمع ضحك الفاتك، وبكاء الناسك، في حالة واحدة، هشاً، مفرط الحدة، يثرد عليه مجل لسانه في المجالس السلطانية بما تعروه المندمة بسببه، قايماً على حفظ القرآن وتجويده وتلاوته، ذا خصال حميدة، صناع اليد، مقتدراً على العمليات من نسخ ومقابلة وحساب، معدودا من صدور الوقت وأعلام القطر، ورجال الكمال.

مشيخته

أخذ عن الجلة من أهل بلده كالأستاذ أبي محمد بن أبي السداد الباهلي، لازمه وانتفع به، والخطيب أبي عثمان بن عيسى أخذ عنه، والولي أبي عبد الله الطنجالي، وغيرهم مما يطول ذكرهم من العدوة والأندلس والمشارقة.

محنته

لقي نصباً في الخدمة السلطانية، وغضاً من الدهر لبأوه، بتعنته وعدم مبالاته مرات، ضيق لها سجنه، وعرض عليه النكال، ونيل منه بالإهانة كل منال، وأغرم مالا أجحف بمحتجنه، وعرض للأيدي نفايس كتبه، وعلى ذلك فلم يذعر سربه، ولا أضعفت النكبة جاشه.

ولد عام ثلاثة وسبعين وستماية. ومات ميتة حسنة. صلى الجمعة ظهراً، وقد لزم الفراش، ونفث دم الطاعون، ومات مستقبل القبلة، على أتم وجوه التأهب، سابع شوال من عام خمسين وسبعماية.

محمد بن عبد الله بن محمد بن مقاتل

من أهل مالقة، يكنى أبا القاسم، أزدي النسب، إشبيلي الأصل، من بيت نزاهة ونباهة.

حاله

كان فاضلاً وقوراً سمحاً، مليح الدعابة، عذب الفكاهة، حلو النادرة، يكتب ويشعر، طرفاً في الانطباع واللوذعية، آية في خلط الجد بالهزل. ولي الإشراف بمدينة مالقة، وتقلب في الشهادة المخزنية عمره.

شعره

من شعره يخاطب ذا الوزارتين أبا عبد الله بن الحكيم رحمه الله:

فؤادي من خطب الزمان سقيم ... وفيه لسهم الحادثات كلوم

ولم أشك دايي في البرية لامرئ ... أأشكو به وابن الحكيم حكيم

توفي بمالقة يوم الخميس عاشر شهر رمضان من عام تسعة وثلاثين وسبعماية.

محمد بن علي بن عبد ربه التجيبي

من أهل مالقة، يكنى أبا عمرو

حاله

كان راوية ثقة، بارع الأدب، بليغ الكتابة، طيب النفس، كامل المروءة، حسن الخلق، جميل العشرة، تلبس بالأعمال السلطانية دهراً، وولي إشراف غرناطة وغيرها، إلى أن قعد لشكاية منعته من القيام والتصرف فعكف على النظر، فانتفع به.

مشيخته

كانت له رحلة سمع فيها بالأسكندرية على أبي عبد الله بن منصور وغيره، وروى عنه الأخوان سالم وعبد الرحمن ابنا صالح بن سالم.

تواليفه

له اختصار حسن في أغاني الإصبهاني، ورد جيد على ابن غرسية في رسالته الشعوبية لم يقصر فيها عن إجادة.

وتوفي لسبع خلون من محرم من عام اثنين وستماية.

الزهاد والصلحاء والصوفية والفقراء وأولا الأصليون

الصناع

محمد بن إبراهيم بن محمد بن محمد الأنصاري من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد اله ويعرف بالصناع.

حاله

من عايد الصلة: الشيخ الصوفي، الكثير الأتباع، الفذ الطريقة المجبب إلى أهل الثغور من البادية. كان رحمه الله شيخاً حسن السمت، كثير الذكر والمداومة، يقود من المخشوشنين عدد ربيعة ومضر، يعمل الرحلة إلى حصونهم، فيتألفون عليه، تألف النحل على أمرايها ويعاسيبها، معلنين بالذكر، مهرولين، يغشون مثواه، بأقوالهم على حالها، ويتناغون في التماس القرب منه، ويباشرون العمل في فلاحة كانت له بما يعود عليه بوفر وإعانة. وكان من الصالحين، وعلى سنن الخيار الفضلاء من المسلمين، وله حظ من الطلب ومشاركة، يقوم على ما يحتاد إليه من

وظائف دينه، ويتكلم في طريق المتصوفة على مذهب أبي عبد الله الساحلي شيخه، كلاماً جهورياً، قريب الغمر. وكان له طمع في صناعة الكيمياء تهافت على دفاتيرها، وأهل متحليها، ليستعين بها بزعم على آماله الخيرية، فلم يحل بطايل.

مشيخته

قرأ على أستاذ الجماعة أبي جعفر بن الزبير، وكانت له في حاله فراسة. حدثني بذلك شيخنا أبو عبد الله بن عبد الولي رحمه الله. وسلك على الشيخ الصالح أبي عبد الله الساحلي.

وتوفي ليلة الاثنين السابع من شهر شوال عام تسعة وأربعين وسبعماية، وكانت جنازته آخذة في الاحتفال، قدم لها العهد، ونفر لها الناس من كل أوب، وجيء بسريره، تلوح عليه العناية، وتحفه الأتباع المقتاتون من حل أموالهم وأيديهم من شيوخ البادية، فتولوا مواراته، تعلو الأصوات حوله، ببعض أذكاره.

المواق

محمد بن أحمد الأنصاري من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالمواق.

حاله

كان معلماً لكتاب الله تعالى، خطيباً بمسجد ربض الفخارين، طرفاً في الخير ولين العريكة، والسذاجة المشفوعة بالاختصار، وإيثار الخمول، مستقيماً في طريقته، خافتاً في خطبته، عاكفاً على وظيفته، مقصوداً بالتماس الدعاء، مظنة الصلاح والبركة.

توفي بغرناطة قبل سنة خمسين وسبعماية بيسير، وكلف الناس بقبره بعد موته، فأولوا حجارته من التعظيم، وجلب أواني المياه للمداواة، ما لم يولوه معشاره أيام حياته.

محمد بن حسنون الحميري

من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله

حاله

كان فاضلاً صالحاً، مشهور الولاية والكرامة، يقصده الناس في الشدايد، فيسألون بركة دعايه. ومن إملاء الشيخ أبي بكر بن عتيق بن مقدم، قال، أصله من بياسة، وكان عمه من المقربين المحدثين بها، وسكن هو مرسية، ونشأ بها، وقرأ على أشياخها، وحفظ كتاب التحبير في علم أسماء الله الحسنى للإمام أبي القاسم القشيري، ثم انتقل إلى غرناطة، فسكن فيها بالقصبة القديمة، وأم الناس في المسجد المنسوب إليه الآن. وكان يعمل بيده في الحلفا، ويتقوت من ذلك.

توفي عام خمسة وسبعماية بغرناطة، وهو من عدد الزهاد.

ومن مناقبه، ذكروا أنه سمع يوماً بعض الصبيان يقول لصبي آخر مر للحبس، فقال أنا المخاطب بهذا، فانصرف إلى السجن، فدخله، وقعد مع أهله، وبلغ ذلك السلطان، فوجه وزيره، فأخرجه، وأخرج معه أهل السجن كلهم، وكانت من كراماته.

ابن الحاج

محمد بن محمد بن البكري من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن الحاج كان رحمه الله شيخاً صالحاً، جهورياً، بعيداً عن المصانعة، متساوي الظاهر والباطن، مغلظاً لأهل الدنيا، شديداً عليهم، غير مبال في الله بغيره، يلبس خرقة الصوفية من غير التزامن لاصطلاح، ولا منقاد لرقو، ولا مؤثر لسماع. مشاركاً للناس، ناصحاً لهم،

ساعياً في حوايجهم. خدم الصالح الكبير أبا العباس بن مكنون، وسلك به، وكان من بيت القيادة والتجند، فرفض زيه، ولبس المسوح والأسمال. وكان ذا حظ من المعرفة، يتكلم للناس. قال شيخنا أبو الحسن بن الجياب، سمعته ينشد في بعض مجالسه:

يا غادياً في غفلة ورايحاً ... إلى متى تستحسن القبايحا

وكم إلى كم لا تخاف موقفاً ... يستنطق الله به الجوارحا

يا عجباً منك وأنت مبصر ... كيف تجتنب الطريق الواضحا

كيف تكون حين تقرأ في غد ... صحيفة قد مليت فضائحا

أم كيف ترضى أن تكون خاسراً ... يوم يفوز من يكون رابحا

ولما حاصر الطاغية مدينة ألمرية، وأشرفت على التلف، تبرع بالخروج منها ولحاقه بباب السلطان، لبث حالها، واستنفار المسلمين إلى نصرها، فيسر له من ستر غرضه، وتسهيل قصده، ما يشهد بولايته.

توفي بألمرية محل سكناه، في حدود عام خمسة عشر وسبعماية.

محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري

غرناطي، قيجاطي الأصل يعرف بالسواس.

قال في المؤتمن في حاله: رجل متطبب، سهل الخلق، حسن اللقاء. رحل من بلده، وحج، وفاوض بالمشرق الأطباء في طريقته، وعاد فتصدر للطب، ثم عاد إلى بلاد المشرق. قلت، وعظم صيته، وشهر فضله، وقدم أمينا على أحباس مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة الطاهرة وصدقاته، وذكر عنه أنه اضطره أمر إلى أن خصي نفسه، وسقطت لذلك لحيته.

قال شيخنا أبو البركات، أنشدنا بدكانه برحبة المسجد الأعظم، من حضرة غرناطة، قال أنشدنا أبو عبد الله المراكشي بالإسكندرية، قال أنشدنا مالك بن المرحل لنفسه:

أرى الكلاب بشتم الناس قد ظلمت ... والكلب أحفظ مخلوق لإحسان

فإن غضبت على شخص لتشتمه ... فقل له أنت إنسان ابن إنسان

وفاته: كان حياً عام خمسين وسبعماية فيما أظن.

ومن الطارئين عليها في هذا الاسم

ابن جعفر القونجي

محمد بن أحمد بن جعفر بن عبد الحق بن محمد بن جعفر بن محمد ابن أحمد بن مروان بن الحسن بن نصر بن نزار بن عمرو بن زيد بن عامر بن نصر بن حقاف السلمي، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن جعفر، ويشهر في الأخير بالقونجي، منسوباً إلى قرية بالإقليم، وكان من أهل غرناطة.

حاله

من خط شيخنا أبي البركات بن الحاج: كان هذا الرجل، رجلاً صالحاً فاضلا متخلقاً، سمحاً، جميل اللقاء على قدم الإيثار على رقة حاله، ممن وضع الله له القبول في قلوب عباده، فكانت الخاصة تبره ولا تنقده، والعامة توده وتعتقده، وتترادف على زيارته، فئة بعد فئة، فلا تنقلب عنه إلا راضية، وكان جارياً على طريقة الشيخ أبي الحسن الشاذلي إذ كان قد لقي بالمشرق الشيخ الإمام تاج الدين بن عطاء الله، ولازمه وانتفع به، كما لقي ولازم تاج

الدين أبا العباس المرسي، كما لازم أبو العباس أبا الحسن الشاذلي. قال: ولقيه بعد هذا الشيخ أبي عبد الله جماعات في أقطار شتى، ينسبون إليه، ويجرون من ملازمته الأذكار في أوقات معينة على طريقته، وله رسايل منه إليهم طوال وقصار، يوصيهم فيها بمكارم الأخلاق، وملازمة الوظايف، وخرج عنه إليهم على طريقة التدوين، كتاب سماه بالأنوار في المخاطبات والأسرار مضمنه جملة من كلام شيخهم تاج الدين، وكلام أبي الحسن الشاذلي، ومخاطبات خوطب بها في سره، وكلام صاحبه أبي بكر الرندي، وحقايق الطريق، وبعض كرامات غير من ذكر من الأولياء، وذكر الموت، وبعض فضايل القرآن.

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي الحسن البلوطي وأجازه، وعلى أبي الحسن بن فضيلة وأجازه كذلك، وعلى أبي جعفر بن الزبير وأجازه، ثم رحل فحج ودخل الشام، وعاش مدة من حراسة البساتين، واعتنى بلقاء المعروفين بالزهد والعبادة، وكان ملياً بأخبار من لقي منهم، فمنهم الشيخ أبو الفضل تاج الدين بن عطاء الله، وصاحبه أبو بكر بن محمد الرندي.

مناقبه

قال، دخلت معه إلى من خف على قلبي الوصول إلى منزله لما قدم ألمرية، وهو رجل يعرف بالحاج رحيب، كان من أهل العافية، ورقت حاله، ولم يكن ذلك يظهر عليه، لمحافظته على ستر ذلك لعلو همته، ولم يكن أيضاً أثر ذلك يظهر على منزله، بل أثاث العافية باق فيه من فرش وماعون. فساعة وصول هذا الشيخ، قال الله يجبر حالك، فحسبتها فراسة من هذا الشيخ. قال، وخاطبته عند لقائي إياه بهذه الأبيات:

أشكو إليك بقلب لست أملكه ... ما لم يرد من سبيل فهو يسلكه
له تعاقب أهواء فيقلقه ... هذا ويأخذه هذا ويتركه
طوراً يؤمنه طورا يخوفه ... طورا ييقنه طورا يشككه
حيناً يوحشه حينا يونسه ... حينا يسكنه حينا يحركه
عسى الذي يمسك السبع الطباق ... على يديك يا مطلع الأنوار يمسكه
فيه سقام من الدنيا وزخرفها ... مهمى أبيضه بالذكر تشركه

عسى الذي شانه الستر الجميل كما ... غطى عليه زماناً ليس يهتكه

فلم قرأ منها، فيه سقام من الدنيا وزخرفها، قال هذه علتي.

مولده: سألته عنه فقال لي عام ثمانية وستين بقرية الجيط من قرى الإقليم وفاته: بقرية قنجة خطيباً بها، يوم الاثنين عشرين من شهر شعبان المكرم عام خمسين وسبع ماية، في الوباء العام، ودفن بقرية قنجة، رحمة الله عليه ورضوانه.

ابن صفوان

محمد بن أحمد بن حسين بن يحيى بن الحسين بن محمد بن أحمد ابن صفوان القيسي وبيته شهير بمالقة يكنى أبا الطاهر، ويعرف بابن صفوان

حاله

كان مفتوحاً عليه في طريق القوم، ملهماً لرموزهم، مصنوعاً له في ذلك، مع المحافظة على السنة، والعمل بها. آخر الرعيل، وكوكب السحر، وفذلكة الحساب ببلده، اقتداء وتخلقاً وخشوعاً وصلاحاً وعبادة ونصحاً. رحل فحج،

وقفل إلى بلده، مؤثراً الاقتصار على ما لديه، فإذا تكلم في شيء من تلك النحلة، يأتي بالعجايب، ويفك كل غامض من الإشارات. وعني بالجزء المنسوب إلى شيخ الإسلام أبي إسمعيل الروبي المسمى بمنازل الساري إلى الله فقام على تدريسه، واضطلع بأعبايه، وقيد عليه ما لا يدركه إلا أولوا العناية، ولازمه الجملة من أولى الفضل والصلاح، فانتفعوا به، وكانوا في الناس قدوة. وولي الخطابة بالمسجد الجامع من الربض الشرقي، وبه كان يقعد، فيقصده الناس، ويتبركون به، وكان له مشاركة في الفقه، وقيام على كتاب الله.

تواليفه

ألف بإشارة السلطان على عهده، أمير المسلمين أبي الحجاج رحمه الله، كتاباً في التصويف والكلام على اصطلاح القوم، كتب عليه شيخنا أبو الحسن بن الجياب بظهره، لما وقع عليه، هذه الأبيات:

أيام مولاي الخليفة يوسف ... جاءت بهذا العالم المتصوف

فكفى بما أسدى من الحكم التي ... أبدين من سر الطريقة ما خف

وحقايق رفع الحجاب بهن عن ... نور الجمال فلاح غير مكيف

كالشمس لاكن هذه أبدي سناً ... للحسن والمعنى لعين المنصف

فيه حياة قلوبنا ودواؤهافمن استغاث بجرعة منها شف

إن ابن صفوان إمام هداية صافي فصوفي فهو صوفي صف

وإن اختبرت فإنه صفو ابن صفو ... ظاهر في طيه صفو خف

علم توارثه وحال قد خلت ... ذوقاً فنعم المقتدى والمقتف

فليهنلى المولى سعود إيالة ... فيها سراج نوره لا ينطف

جلى وجوه شريعة وحقيقة ... صبحاً سناه باهر لا يخنف

لا زلت تسلك كل نهج واضح ... منها وتحيي كل سعي مزلف

ومن تواليفه جر الحر في التوحيد، وعلق على الجزء المنسوب لأبي إسمعيل الهروي.

من أخذ عنه

أخذ عنه ببلده، وتبرك به، جلة، وكان يحضر مجلسه عالم، منهم شيخ الشيوخ الأعلام، أبو القاسم الكسكلان، وأبو الحسين الكواب، والأستاذ الصالح أبو عبد الله القطان، وصهره الأستاذ أبو عبد الله بن قوال والعاقد الناسك أبو الحسين الأحمر وغيرهم.

شعره

رأيت من الشعر المنسوب إليه، وقد رواه عنه جماعة من أصحابنا، يذيل قول أبي زيد رضي الله عنه:

رأيتك تدنيني إليك تباعدني ... فأبعدت نفسي الابتغاء التقرب

فقال:

هويت بدمنى إليه فلم يكن بي ... البعد بعدي فصح به قرب

فكان به سمعي كما بصري به ... وكان به لأئ لساني مع القلب

فقربي به قرب بغير تباعد ... وقربي في بعدي فلا شيء من قرب

وفاته

سافر من بلده إلى غرناطة في بعض وجهاته إليها، وذهب سحراً يرتاد ماء لوضويه. فتردى في حفرة تردياً أوهن قواه، وذلك بخارج بلش، فرد إلى مالقة، فكانت بها وفاته قبل الفجر من ليلة يوم الجمعة الرابع عشر لشعبان عام تسعة وأربعين وسبعماية.

الساحلي

محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الأنصاري يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالساحلي

حاله

من عايد الصلة: المثل الساير في غمران أوقاته كلها بالعبادة، وصبره على المجاهدة. قطع عمره في التبتل والتهجد لا يفتر لسانه عن ذكر الله، والصلاة على نبيه، صلى الله عليه وسلم. خرج عن متروك والده، واقتصر على التمعش من حرفة الخياطة. ثم تعداها إلى النسخ والتعليم، وسلك على الشيخ أبي القاسم المريد، نفع اله به، حتى ظهرت عليه سيما الصالحين، وأقام عمره مستوعباً ضروب الخير، وأنواع القرب من صوم وإذان وذكر، ونسخ وقراءة، وملازمة خلوة. ذا حظ من الفصاحة. وجرأة على الوعظ، في صوت جهير، وعارضة صليبة. اقتدى به طوايف من أصناف الناس على تباعد الديار، وألزمهم الأذكار، وحولهم للسلوك، فأصبح كثير الأتباع، بعيد الصيت. وولي الخطابة بالمسجد الجامع من بلده، ونقل إلى الخطابة، بجامع غرناطة في نبوة عرضت له بسبب ذنابى ذرية طرقوا الكدر إلى سربه، ثم عاد إلى بلده متين ظهر الحظوة، وثيق أساس المبرة.

مشيخته

قرأ ببلده مالقة على الخطيب أبي محمد بن عبد العظيم بن الشيخ، وأبي عبد الله بن لب، وأبي جعفر الحرار، وأبي عبد الله بن الحلو، الخطيب أبي عبد الله بن الأعور.

محنته

ابتلى بعد السبعين من عمره بفقد بصره، فظهر منه من الصبر والشكر والرضاء بقضاء الله، ما يظهر من مثله. وأخبرني بعض أصحابه أنه كان يقول، سألت الله أن يكف بصري خوفاً من الفتنة. وفي هذا الخبر نظر لمكان المعارضة في أمره صلى الله عليه وسلم بسؤال العافية، والإمتاع بالإسماع والإبصار.

شهرته

وجعل الله له في قلوب كثير من الخلق، الملوك فمن دونهم، من تعظيمه ما لا شيء فوقه، حتى أن الشيخ المعمر الحجة الرحلة أبا علي ناصر الدين الوشدالي كتب إليه من بجاية بما نصه: يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر، وجينا ببضاعة مزجاة، فأوف لنا الكيل، وتصدق علينا، إن الله يجزي المتصدقين. وبعده: من العبد الأصغر والمحب الأكبر فلان، إني سيد العارفين، وإمام المحققين، في ألفاظ تناسب هذا المعنى.

حدثني شيخنا أبو الحسن بن الجياب، وكان من أعلام تلاميذه، وصدور السالكين على يديه، قال قصدت منه خلوة، فقلت يا سيدي، أصحابنا يزعمون أنك ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاخبرني واشف صدري هل هذه الرؤيا عينية أو قلبية، قال، فأفكر ساعة، ثم قال، عندي شك في رؤية ابن الجياب الساعة ومحادثته، فقلت لا، فقال كذلك الحال، قلت وهذا أمر غريب، ولا يصح إلا رؤية القلب، ولكن غلبت عليه حتى تخيل في الحس الصورة الكريمة، إذ وجود جوهر واحد في محلين اثنين محال.

شعره

نظم الكثير من شعر منحط لا يصلح للكتب ولا للرواية، ابتلى به رحمه الله، فمن لبابه قوله، وهو من الوسط:

إن كنت تأمل أن تنال وصالهم ... فامح الهوى في القليل والأفعال

واصبر على مر اللواء فإنه ... ياتيك بعد بخالص السلسال

تواليفه: ألف كتاباً سماه إعلان الحجة في بيان رسوم المحجة.

توفي يوم الجمعة الرابع والعشرين لشوال عام خمسة وثلاثين وسبعماية، وكانت جنازته مشهودة، تزاحم الناس على نعشه، وتناولوه تمزيقاً على عادتهم من ارتكاب القحة الباردة في مسلاخ حسن الظن.

القطان

محمد بن أحمد بن قاسم الأمي من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالقطان، الفقيه الأواب المتكلم المجتهد.

حاله

من العايد: كان هذا الرجل غريب المنزع، عجيب التصوف. قرأ وعقد الشروط، وتصدر للعدالة، ثم تجرد، وصدق في معاملته لله، وعول عليه، واضطلع بشروط التوبة، فتحلل من أهل بلده، واستفاد واسترحم، واستغفر، ونفض يديه من الدنيا، والتزم عبادة كبيرة، فأصبح يشار إليه في الزهد والورع، لا تراه إلا متبسماً، ملازماً لذكر الله، متواضعاً لأصاغر عباده، محبا في الضعفاء والمساكين، جميل التخلق، مغضياً عن الهنات، صابراً على الإفادة. وجلس للجمهور بمجلس مالقة، يتكلم في فنون من العلم، يعظ الناس، ويرشدهم، ويزهدهم، ويحملهم على الإيثار، في أسلوب من الاستنفار والاسترسال، والدلالة، والفصاحة والحفظ، كثير التأثير في القلوب، يخبر بإلهام وإعانة. فمال الخلق إليه، وتزاحموا على مجالسته، وأعلنوا بالتوبة، وبادر مترفوهم إلى الإقلاع عن إجابة الشهوات، والاستقالة من الزلات. ودهم الوباء، فبذلوا من الأموال في أبواب البر والصدقة، ما لا يأخذه الحصر ولا يدركه الإحصاء ولو لا أن الأجل طرقه، لعظم صيته، وانتشر نفعه.

وفاته

توفي شهيد الطاعون عصر يوم الأربعاء لصفر من عام خمسين وسبعماية، ودفن بجبانة جبل فاره، ضحى يوم الخميس الثاني من يوم وفاته. وصلى عليه خارج باب قنتنالة، وألحده في قبره الخطيب القاضي الصالح، أبو عبد الله الطنجالي، رحم الله جميعهم.

وممن رثاه الشيخ الأديب أبو الحسن الوراد فقال:

أبعد ولي الله دمعي يسجم ... وغمار قلبي من كلوم تترجم

فؤادي مكلوم بحزني لفقده ... لذاك جفوني دمعها كله دم

ومإذا عسى يغني التفجع والبكا ... ومإذا عسى يجدي الأسى والتبرم

سأصبر للبلوى وإن جل خطبها ... فصبر الفتى عند الشدايد يعلم

كذا العلم بالسيف الصقيل لدى الوغى فويق الذي من حسنه يوسم

على قدر صبر المرء تصغر عنده ... خطوب من الدنيا على الناس تعظم

إلا إنها الدنيا تعلة باطل ... ومخمضة أحلام لمن بات يحلم

تجنبها أهل العقول فأقصروا ... وأغرق فيها الجاهلون وأشأم

أعد نظراً فيها تجبك براحة ... وانس بما تقضي عليك وتحكم

أعد لها درياق صبرك إنها ... من البؤس والتلوين والله أرقم
تلفت إلى تعذيبها لحبها ... ومإذا بها يلقى كثيب ومغرم
يظن بها ريحانة وهي سدرة ... ولا منتهى إلا الردى والتندم
عجبت لها تخفي علينا عيوبها ... وذاك لأنا في الحقيقة نوم
أليس عجيباً أن يعول عاقل ... على عاجل من وصلها يتصرم
وما وصلها معشار عشر صدورها ... ولكنه صرف للدهر أدوم
إذا ابتسمت يوماً ترقب عبوسها ... فما إن لنا منها يدوم التبسم
ضحى كان وجه الدهر سبر بشره ... فلم يمس حتى بان منه التجهم
ذرينا بعقد من ولي مكانه ... مكين لدي العلياء سام معظم
هوى مثل هوى من الأفق كوكب ... فجللنا ليل من الخطب مظلم
تساوى لديه صيدها وعبيدها ... وعالمها التحرير والمتعلم
هو الموت لا ينفك للخلق طالباً ... يروح ويغدو كل حين عليهم
ما هو إلا الداء عز دواؤه ... فليس لشيء في البسيطة يحسم
دها كل مخلوق فما منه سيد ... له الجاه عند الله ينجو فسلم
ولو كان ذا كان النبي محمد ... تجنبه صلوا عليه وسلم
تعنى به موسى ويوسف قبله ... ونوح وإدريس وشيث وآدم
به باد بهرام وتبر بهرم ... وكسر من كسري سوار ومعصم
وكم من عظيم الشأن حل بربعه ... فإن تختبره فهو رب وأعظم
ولكننا ننسى ونأبى حديثه ... وننجد في الإعراض عنه ونتهم
فحتى إذا حل ساحة ماجد ... نطل بها من حسرة نتكلم

نسينا حديث الموت جهلاً بغدره ... فألهمنا إذ هزنا منه ملهم
وفاة ورمى في التراب موسد ... وآثاره فوق السماك تخيم
خبا ضوء نادي أقفر ربعه ... من العلم والتعليم ربع ومعلم
تردى فأردى فقد أهل رية ... فما منهم إلا كثيب ومغرم
غدا أهلها من فجعة بمصابه ... وعيشهم صاب قطيع وعلقم
وهل كان إلا والد مات عنهم ... فيا من لقوم يتموا حين أو يتم
قضى نحبه الأستاذ واحد عصره ... فكاد الأسى يقضي إلى الكل منهم
قضى نحبه القطان فالحزن قاطن ... مقيم بأحناء الضلوع محكم
وهل كان إلا روضة رف ظلها ... أتيح له قيظ من الجون صيلم
وهل كان إلا رحمة عاد فقدها ... علامة فقد العلم والله أعلم
سل التائبين العاكفين على الهدى ... لكم منة أسدى وأهدى إليهم
أفادهم من كل علم لبابة ... وفهمهم أسراره فتفهم
جزى الله رب الناس خير جزائه ... دليلا بهم نحو الهدى حيث يمم

أبان لهم طرق الرشاد فأقدموا ... وحذرهم عن كل غي فأحجم
وجاء من التعليم للخير كله ... بأبين من يأتي به من يعلم
فصاحة ألفاظ وحسن عبارة ... مضى كما يمضي الحسام المصمم
يصيب فلا يخطي إذا مقصدا ... ولمن يجيب فلا يبطي ولا يتلعثم
يحدث في الآفاق شرقاً ومغرباً ... فأخباره أضحت تخط وترسم
سرى في الورى ذكر له ومدايح ... يكاد بها طير العلى يترنم
لعمرك ما يأتي الزمان بمثله ... وما ضرني لو كنت بالله أقسم
فقيه نزيه زاهد متواضع ... رؤوف عطوف مشفق مترحم
يود لو أن الناس أثرى جميعهم ... فلم يبق مسكين ولم يبق معدم
يود لو أن الله تاب على الورى ... فتابوا فما يبقى من الكل مجرم
عليه من الرحمن أوسع رحمة ... فقد كان فينا الدهر يحنو ويرحم
محمد بن أحمد بن يوسف بن أحمد بن عمر بن يوسف بن علي بن خالد

ابن عبد الرحمن بن حميد الهاشمي الطنجالي

لوشي الأصل، مالقي النشأة والاستيطان.

أوليته

بيتهم نبيه إلى هاشمية النبه وهم ببلدنا لوشة أشرف، وهم ببلدنا لوشة أشرف، وكانت لهم فيها ثروة وثورة، اجتثها الدهر ببعض طوارقه، في أبواب المغالبات. ويمت سلفنا إليهم بصحبة ومصاهرة في حديث يستدعي طولاً، وانتقل خلفهم إلى مالقة.

حاله

من عايد الصلة: كان هذا الولي الفاضل، المجمع على ولايته وفضله، سهل اللقاء، رفيقاً بالخلق، عطوفاً على الضعفاء، سالكاً سنن الصالح من السلف، سمتاً وهدياً، بصره مغضوض، ولسانه صامت، إلا من ذكر الله، وعلمه نافع وثوبه خشن، وطعمته قد نفدها الورع الشديد، حتى اصطفاها مختاره، إذا أبصرت بها العين، سبقتها العبرة. بلغ من الخلق، الملوك فمن دونهم الغاية، فكان يلجأ إليه المضطر، وتمدل إلى عنايته الأيدي، وتحط بفنايه الوسايل، فلا يرتفع عن كلف الناس ولا حوايجهم، ولا ينقبض عن الشفاعة لهم، وإصلاح ذات بينهم. له في ذلك كله أخبار طريفة. واستعمل في السفارة بين ملكي العدوة والأندلس، في أحوال المسلمين، فما فارق هيئته، وركوب حماره واستصحاب زاده، ولبس الخشن من ثوبه. وكان له حظ رغيب من فقه وحديث، وتفسير، وفريضة. ولي الخطابة ببلده مالقة، واستسقى في المحول، فسقى الناس.

حدثني بعض أشياخنا: قال، حضرت مقامه، مستسقياً، وقد امتنع الغيث، وقحط الناس، فما زاد عند قيامنا أن قال، أستغفر الله، فضج الخلق بالبكاء والعجيج، ولم يبرحوا حتى سقوا. وكراماته كثيرة، ذايعة من غير خلاف ولا نزاع.

حدث بعض أشياخنا عن الخطيب الصالح أبي جعفر الزيات، قال رأيت في النوم قايلاً يقول، فقد الليلة من يعمر بيت الإخلاص بالأندلس، فما انتصف النهار، من تلك الليلة، حتى ورد الخبر بموته.

مشيخته

من شيوخه الذين قرأ عليهم، وأسند إليهم الرواية والده رحمه الله، وأبو عمرو بن حوط الله، والخطيب ابن أبي ريحانة المربلي، والقاضي أبو علي بن أبي الأحوص، والراوية أبو الوليد بن العطار، والراوية المحدث أبو بكر بن مشليون، والمقري أبو عبد الله بن مستقور الطايي، والأستاذ أبو جعفر الطباع، وأبو الحسين بن أبي الربيع، والمحدث أبو عبد الله بن عياش، والأستاذ أبو الحسن السفاج الرندي، والخطيب بألمرية أبو الحسن الغزال. وقرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير. وأجازه من أهل المشرق جماعة منهم أبو عبد الله بن رزيق الشافعي، والعباس أحمد ابن عبد الله بن محمد الطبري، وأبو اليمن عبد الصمد بن أبي الحسن عبد الوهاب بن أبي البركات المعروف بالنجام، والحسن بن هبة الله بن عساكر، وإبراهيم بن محمد الطبري إمام الخليل، ومحمد بن محمد بن أحمد بن عبد ربه الطبري، ومحمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، وأبو الفتح تقي الدين بن أبي الحسن فخر الدين، وعبد الله بن محمد بن أبي بكر الطبري المكي الشافعي وغيرهم.

ميلاده: بمالقة في رجب سنة أربعين وستماية.

وفاته: بمالقة في يوم الخميس الثامن لجمادى الأولى من عام أربعة وعشرين وسبعماية. وقد ناهز الثمانين سنة، لم ينتقص شيء من أعماله المقربة إلى الله، من الصوم والصلاة، وحضور الجماعات، وملازمة الإقراء والرواية، والصبر على الإفادة.

حدث من يوثق به، أن ولده الفقيه أبا بكر دخل عليه، وهو في حال النزع، والمنية تحشرج في صدره، فقال يا والدي أوصني، فقال وعيناه تدمعان، يا ولدي اتق الله حيث كنت واتبع السيئة بالحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن.

ابن إبراهيم البلفيقي

محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم البلفيقي ابن الحاج والد شيخنا أبي البركات. وقد مر في ذكر النسب المتصل بعباس ابن مرداس، والأولية النبيهة ما يغني عن الإعادة.

حاله

من خط ولده شيخنا على الاختصار، قال يخاطبني في بعض ما كتب به إلي: ذكر أبي، وهو ممن طلبتم ذكره إلي في أخباره جزءاً من نحو سبعين ورقة في المقسوم، لخصت لك من مبيضته ما يذكر: نشأ رحمه الله بسبتة على طهارة تامة، وعفة بالغة، وصون ظاهر، كان بذلك علماً لشبان مكتبه. قرأ القرآن بالقراءات السبع، وحفظ ما يذكر من المبادي، واتسم بالطلب. ثم تاقت نفسه إلى الاعتلاق بالعروة الوثقى، التي اعتلق بها سلفه، فنبذ الدنيا، وأقبل على الآخرة، وجرى على سنن المتقين، أخذاً بالأشد من ذلك والأقوى، طامحاً بهمته إلى أقصى ما يؤمله السالكون.

فرفض زي الطلبة، ولبس الخشنية، وترك ملابسة الخلق بالجملة، وبالغ في الانقباض عنهم، وانقطع إلى الله برباطات سبتة وجبالها، وخصوصاً بمينايها، وعكف على ذلك سنين ثم سافر إلى المغرب، سايحاً في الأرض، على زي الفقهاء للقاء العباد وأهل العلم، فأحرز من ذلك ما شاء. ثم أجاز البحر إلى جزيرة الأندلس، وورد ألمرية، مستقر سلفه، وأخذ في إيثار بقايا أملاك بقيت لأسلافه بها، على ما كان عليه من التبتل والإخبات. وكان على ما تلقينا من أصحابه وخدانه، صواماً، قواماً، خاشعاً ذاكراً، تالياً، قوالا للحق، وإن كان مراً كبيراً في إسقاط التصنع والمباهاة، لا يضاهي في ذلك، ولا يشق غباره. وقدم على غرناطة، ودخل على أمير المسلمين، وقال له الوزير، يقول لك السلطان ما حاجتك، فقال، بهذا الرسم رحلت، ثم ظهر لي أن أنزل حاجتي بالله، فعار على من انتسب إليه، أن يقصد غيره. ثم أجاز البحر وقد اشتدت أحوال أهل الأندلس بسبب عدوهم، وقدم على ملكه، ووعظه موعظة،

أعنف عليه فيها، فانفعل لموعظته، وأجاز البحر بسببه إلى جزيرة الأندلس، وغزا بها، وأقام بها ما شاء الله، وتأدب الروم لو تم المراد قال، وأخبره السلطان أبو يوسف ملك المغرب، قال كل رجل صالح دخل علي كانت يده ترعد في يدي، إلا هذا الرجل، فإن يدي كانت ترعد في يده عند مصافحته.

كراماته

وجلب له كرامات عدة، فقال في بعضها، ومن ذلك ما حدثني الشيخ المسلم الثقة أبو محمد قاسم الحصار، وكان من الملازمين له، المنقطعين إلى خدمته، والسفر معه إلى البادية، فقال، إني لأحفظ لأبيك أشياء من الأحوال العظيمة، منها ما أذكره، ومنها ما لا أستطيع ذكره. ثم قال، حدثني أهل وادي الزرجون، وهو حش من أعمال سبتة، قالوا، انصرف السيد أبو عبد الله من هنا، هذا لفظه، فلما استقر في رأس العقبة، المشرفة على الوادي، صاح عليه أهل القرى، إذ كانوا قد رأوا أسداً كبيراً جداً؛ قد تعرض في الطريق، ما نجا قط من صادفه مثله، فلما سمع الضياح قال ما هذا، فقيل له أهل القرى يصيحون عليه خيفة من السبع قال، فأعرض عنهم بيده، ورفع حاجبه كالمتكبر على ذلك، وأسكتهم، وأخذ في الطريق حتى وصل إلى الأسد، فأشار عليه بالقضيب، وقال له، من ها هنا من ها هنا، أخرج عن الطريق، فخرج بإذن الله عن الطريق، ولم يوجد هنالك بعد. وأمثال ذلك كثيرة.

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي الحسين بن أبي الربيع القرشي، وأجازه والده أبو إسحق إجازة عامة. ومن شيوخه القاضي المسن أبو عبد الله الأزدي، والمحدث أبو بكر بون مشليون، وأبو عبد الله بن جوهر، وأبو الحسين بن السراج، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله الخزرجي، وأبو عبد الله بن الأبار، وأبو الوليد بن العطار، وأبو العباس بن عبد الملك، وأبو إسحق ابن عياش، وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن عطية، وأبو بكر القرطبي حميد، وأبو إبراهيم الطرسي، والقاضي أبو عبد الله بن عياض، والكاتب أبو الحسن الرعيني، وأبو الحسن الشاري، وأبو يحيى بن الفرس، وأبو إسحق بن عبيد الله، وأبو الحسن الغزال، وجماعة من الأندلس غير هؤلاء. ومن أهل العدوة كأبي يعقوب المحاسبي وابن فرتون وغيرهم.

محنته

نمى عنه إلى السلطان بالأندلس، أنه أغرى به ملك المغرب، وتخلص بعد لأي في خبر طويل، وانتهب السلطان ماله، وألحق أملاكه بالمختص واستمر. وذلك إلى دولة والده وامتحن الساعون به، فعجل الله عقوبتهم.

مولده: قال شيخنا نقلت من خط أبيه ما نصه: ولد ابني أبو بكر محمد أسعده الله ووفقه، في النصف الأول من ليلة يوم الاثنين الحادي والعشرين لذي قعدة من سنة ست وأربعين وستماية.

وفاته: قال ألفيت بخط القاضي الأديب الكاتب أبي بكر بن شبرين وكان ممن حضر جنازته بسبتة. وكانت وفاة الفقيه الناسك السالك الصالح أبي بكر محمد بن الشيخ الفقيه المحدث أبي إسحق السلمي البلفيقي في العشر الأواخر من رمضان أربعة وتسعين وستماية بمحروسة سبتة، ودفن إثر صلاة العصر بجبانة الخروبة من منارتها بمقربة من قبر ريحان الأسود العبد الصالح نفع الله به. وصلى عليه الإمام أبو عبد الله بن حريث.

ابن عباد النفزي

محمد بن يحيى بن إبراهيم بن أحمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى ابن عباد النفزي من أهل رندة، يكنى أبا عمرو، ويعرف بابن عباد، الحاج الصوفي

حاله

نشأ ببلده رندة، وهو من ذوي البيوتات الأصلية بها، ثم رحل إلى المشرق، ولقي العلماء والصوفية، وحضر عند المشيخة، ثم كر إلى الأندلس، فتصوف، وجال في النواحي، واطرح السموت، وفوت ما كان بيده من متاع الدنيا، وكان له مال له خطر، وألقى التصنع لأهله رأساً. وكان فيه توله وحدة، وله ذهن ثاقب، يتكلم في المعقولات والمنقولات، على طريقة الحكماء والصوفية، ويأتي بكل عبارة غريبة، وآثاره هايلة من غير تمكن علم، ولا وثاقة إدراك، غير أنك لا تسمع منه إلا حسناً، وهو مع ذلك طواف على البلاد، زوار للربط، صبار على المجاهدة طوعاً وضرورة، ولا يسل ثياباً البتة إلا بذلة من ثوب أو غيره، صدقة واحد في وقته.

محنته وفضله وشعره

نمى عنه كلام بين يدي صاحب المغرب، أسف به مدبر الدولة يومئذ، فأشخص عند إيابه إلى رندة وسجن بسجن أرباب الجرايم، فكتب إلى ولي الأمر:

تركت لكم عز الغنى فأبيتم ... وأن تتركوني للمذلة والفقر

ونازعتموني في الخمول وإنه ... لذي مهجتي أحلى من البنى والأمر

ثم قال، يا من رماني بسهمه، الغرب، قد رد عليك مخضوباً بالدم. قال فوالله ما مرت ثلاثة، حتى نفذ حكم الله فيمن عدا عليه.

وشعره حسن يدل على طبع معين، فمن ذلك:

سرى يسر إلي أنك تاركي ... نفسي الفدا للطفك المتدارك

يا مالكي ولي الفخار بأنني ... لك في الهوى ملك وأنك مالك

الترك هالك فاعفني منه وعد ... بالوصل تحيي ذما محب هالك

وأعد جميلاً في الهوى عودتني ... إن لم تعده إلي من للهالك

يا منية القلب الذي بجماله ... فتن الورى من فاتك أو ناسك

أأتيه دونك أو أحار وفي سنى ... ذاك الجمال جلا الظلام الحالك

ولكم سلكت إليك لكن حين لم ... تكن الدليل اختل قصد السالك

ولقد عرفت بستر سري في الهوى ... فهجرتني فكسيت ثوب الهاتك

ما الستر إلا ما يحوك رضاك لا ... ما حاكه للبتر كف الحايك

ما الفضل إلا ما حكمت به فصن ... وأهتك وصل إن شيت أو كن تارك

ما لي سوى حبيك يا حبي فدع ... تركي فهلك الملك ترك المالك

وقال أيضاً:

هذا العقيق فسل معاطف بأنه ... هل نسمة عادته من نعمانه

واسأله إن زارته مإذا أخبرت ... عن أجرع العلمين أو سكانه

وأصخ لحسن حديثها وأعده للمضني ففيه البرء من أشجانه

يا حبذا ذاك الحديث وحبذا ... من قد رفاه وحبذا ببيانه

وسقى الآله زمانه ومكانه ... ويعز قدر زمانه ومكانه
يا سعد ساعد مستهاماً فيه لا ... ذقت الهوى ونجوت من عدوانه
وأصخ لما يتلو الوجود عليك من ... أنبائهم بلسان حال كيانه
وأبنه لي واقبل ذمامي بشارة ... ويقل بذل ذماي في تبيانه
وسل النسيم يهب من واديهم ... شذاً خزاماه وطيب لبانه
ارحم بروح منه روحي تحيه ... ويسقمه سقمي فديتك عانه
وبنشره انشر نفس مشتاق ... قضت شوقاً لنفحة نسمة من بانه
يا سعد حدثني فكل مخبر ... عن خسر من أهواه أو إحسانه
يا سعد طارحنيه واملأ مسمعي ... من سره إن شيت أو إعلانه
أنا في الغرام أخوك حقاً والفتى ... لا يكتم الأسرار من إخوانه
قل كيف وادي ود سكان الحمى ... ومنى أمانيه وروض لسانه
هل قلصت أيدي النوى من ظله ... أو ما جرى هل عاث في جريانه
وهل الربوع أواهل بجمالهم ... فسقى للربوع الودق من هتانه
وهل التقى بان على عهد النوى ... وهل اللوى يلوي بعود زمانه
فبروض أنسهم غمدت نضارة ... نزهت منها الطرف في بستانه
وأرى هجير أذبل يانعاً ... منه وأذوي الغض من ريحانه
وأحال حال الأنس فيه وحشة ... وطوى بساط الأنس في هجرانه
آهاً ووالهفي وويحي أن مضى ... عهد عرفت الأنس في أزمانه
وبأجرع العلمين من شرقيه ... حب غذاني حبه بلبانه
حاز المحاسن كلها فجمعن لي ... كل الهوى فحملت كل هوانه
وزها علي بعزة فبواجب ... أزهو بذلي في يدي سلعانه
وقضى بأن أقضي وليت بما قضى ... يرضى فطيب العيش في رضوانه
واختار لي أن لا أميل لسلوة ... عن حبه فسلوت عن سلطانه
يا عاذلي أو ناصحي أو لايمي ... تبغي السلو ولات حين أوانه
غلب الغرام وعز سلطان الهوى ... فالكل في علي من أعوانه
فعلام تعتب مستهاماً كلما ... في الكون عاذره على شيمانه
دع عنك لومي إنني لك ناصح ... أبدي الجمال العذر عن هيمانه
وإذا الفتى قام الجمال بعذره ... في الحب فاتركه وثنى عنانه
من سام قلبي في هواه سلوة ... قد سامه ما ليس في إمكانه
وقال في الغرض المذكور:
يا للرجال ألا حب يساعدني ... في ذا الغرام فأبكيه ويبكين

غلبت فيه وما أجدت مغالبتي ... وهنت والصب أولى الناس بالهون
ركبت لجته وجدي فأدهشني ... ومت في يده فردا فدلون

واضيعة العمر والبلوى مضاعفة ... ما بين يأس وآمال ترجين
والهف نفسي إن أودت وما ظفرت ... في ذا الهوى بتمن أو بتأمين
فليت شعري وعمري ينقضي طمعاً ... في ذا الهوى بين مغلوب ومغبون
هل الأولى ملكوا رقي وقد علموا ... بذلي وافتقاري أن يواسون
فكم أكفكف دمعي بعدهم وأرى ... مجدداً نار يأسي وهي تبلين
وكم أمر على الأطلال أندبها ... وبالمنازل من خيف ودارين
وفي الفؤاد لهم ما ليس يعلمه ... إلا هم علمهم بالحال يكفين
أهمي المدامع كي أروى فتعطشني ... وألزم الذكر للسلوى فيشجين
يا أهل نجد وفخري أن أحبكم ... لا أطلب الوصل عز الحب يغنين
هل للهوى من سبيل للمنى فلقد ... عزت أمانيه في الدنيا وفي الدين

محمد بن يوسف بن خلصون

يكنى أبا القاسم، روطي الأصل لوشيه. سكن لوشة وغرناطة ومالقة

حاله

كان من جلة المشيخة وأعلام الحكمة، فاضلا، منقطع القرين في المعرفة بالعلوم العقلية، متبحراً في الإلهيات، إماماً في طريقة الصوفية، من أهل المقامات والأحوال، كاتباً بليغاً، شاعراً مجيداً، كثير الحلاوة والطلاوة، قايما على القرآن، فقيهاً أصولياً، عظيم التخلق، جميل العشرة، انتقل من حصن روطة إلى الخطابة والإمامة بلوشة، كثير الدؤوب على النظر والخلوة، مقصوداً من منتحلي ما لديه ضرورة. لم يتزوج، وتمالأت عليه طايفة ممن شانها الغض من مثله، فانزعج من لوشة إلى مالقة، فتحرف بها بصناعة الطب، إلى حين وفاته.

حدثني والدي، وكان خبيراً بأحواله، وهو من أصحاب أبيه، قال، أصابت الناس شدة قحط، وكانت طايفة من أضداده تقول كلاماً مسجعا، معناه، إنكم إن أخرجتم ابن خلصون من بينكم، مطرتم. قال، فانزعج عنها، ولما كان على أميال، نزل الغيث الرغد، قال فسجد بموضعه ذلك، وهو معروف، وقال، سيدي، وأساوري عندك هذا المقدار. وأوجب شكراناً. وقدم غرناطة، وبها الأستاذ أبو عبد الله الرقوطي، وله استيلاء على الحظوة السلطانية، و شأنه اختبار من يرد على الحضرة، ممن يحمل فناً، وللسلطان علي ابن خلصون موجدة، لمدحه في حداثته، أحد الثوار عليه وبقمارش، بقصيدة شهيرة. فلما حضر، سأله الأستاذ ما صناعتك، فقال التصوف، فالتفت إلى السلطان وقال: هذا رجل ضعيف لا شيء لديه، بحيث لا يفرق بين الصناعة وغيرها، فصرفه رحمه الله.

تواليفه

وتواليفه كثيرة، تدل على جلالته وأصالة معرفته، تنطق علماً وحكمة، وتروق أدباً وظرفاً. فمن ذلك كتابه في المحبة، وقفت عليه بخط جدي الأقرب سعيد، وهو نهاية. وكتاب وصف السلوك، إلى ملك الملوك، عارض به معراج الحاتمي، فبان له الفضل، ووجبت المزية، ورسالة الفتق والرتق، في أسرار حكمة الشرق.

شعره

من ذلك قوله:

هل تعلمون مصارع العشاق ... عند الوداع بلوعة الأشواق
والبين يكتب من نجيع دمايهم ... إن الشهيد لمن يمت بفراق

لو كنت شاهد حالهم يوم النوى ... لرأيت ما يلقون غير مطاق
منهم كئيب لا يمل بكاؤه ... قد أغرقته مدامع الآماق
ومحرق الأحشاء أشعل ناره ... طول الوجيب بقلبه الخفاق
ومولّه لا يستطيع كلامه ... مما يقاسي في الهوى ويلاق
خرس اللسان فما يطيق عبارة ... ألم المرور وماله من راق
ما للمحب من المنون وقاية ... إن لم يغثه حبيبه بتلاق
مولاي عبدك ذاهب بغرامه ... فادرك بوصلك من دماه الباق
إني إليك بذلتي متوسل ... فاعطف منك أو إشفاق
ومن شعره أيضاً:
أعد الحديث إذا وصفت جماله ... فبه تهيج للمحب خياله
يا واصف المحبوب كرر ذكره ... وأدر على عشاقه جرياله

فبذكر من أهوى وشرح صفاته ... لذ الحديث لمسمعي وخلاله
طاب السماع بوصفه لمسامعي ... وقررت عيناً مذ لمحت هلاله
قلبي يلذ ملامة في حبه ... ويرى رشاداً في هواه ضلاله
يا عاذلي أو ما ترق لسامر ... سمع الظلام أنينه فرثا له
ومن شعره أيضاً:
إن كنت تزعم حبنا وهوانا ... فلتحملن مذلة وهوانا
فاسجر لنفسك إن أردت وصالنا ... واغصب عليها إن طلبت رضانا
واخلع فؤادك في طلاب ودادنا ... واسمح بموتك إن هويت لقانا
فإذا فنيت عن الوجود حقيقة ... وعن الفناء فعند ذاك ترانا
أو ما علمت الحب فيه عبرة ... فاخلص لنا عن غيرنا وسوانا
وابذل لبابك إن وقفت ببابنا ... واترك حماك إذا فقدت حمانا
ما لعلع ما حاجر ما رامة ... ما ريم أنس يسحر الأذهانا
إن الجمال مخيم بقبابنا ... وظباؤه محجوبة بظبانا
نحن الأحبة من يلذ بفنائنا ... نجمع له حسننا إحسانا
نحن الموالي فاخضعن لعز نالنا ... إنا لندفع في الهوى من هانا
إن التذلل للتدلل سحر ... فأخلد إلينا عاشقاً ومهانا
واصبر على ذل المحبة والهوى ... واسمع مقالة هايم قد لانا
نون الهوان من الهوى مسروقة ... فإذا هويت فقد لقيت هوانا
ومن لطيف كلامه ورقيق شعره:
لو خيال من حبيبي طرقا ... لم يدع دمعي بخدي طرقا
ونسيم الريح منه لو سرى ... بشذاه لأزال الحرقا
ومتى هبت عليلات الصبا ... صح جسمي فهن لي نفث رقا

عجباً يشكو فؤادي في الهوى ... لهب النار وجفني الفرقا
يا أهل الحي لي فيكم رشا ... لم يدع لي رمقاً مذ رمقا
بدر تم طالع أثمره ... غصن بان تحته دعص نقا
راق حسناً وجمالا مثلما ... رق قلبي في هواه ورقا
أنسى الشمس ضياه ذهباً ... وكسى البدر سناه ورقا
حلل الحسن عليه خلعت ... فارتداها ولها قد خلقا
ومن شعره.
دعوت من شفتي رفقا على كبدي ... فقال لي خلق الإنسان في كبد
قلت الخيال ولو في النوم يقنعني ... فقال قد كحلت عيناك بالسهد
فقلت حسبي بقلبي في تذكره ... فقال لي القلب والأفكار ملك يدي
قلت الوصال حياتي منك يا أملي ... قال الوصال فراق الروح للجسد
فقلت أهلاً بما يرضى الحبيب به ... فإن قلبي لا يلوي على أحد
ومن أقواله الصوفية، وكلها تشير إلى ذلك المعنى
ركبنا مطايا شوقنا نبتغي السرى ... وللنجم قنديل يضيء لم سرا
وعين الدجا قد نام لم يدر ما بنا ... وأجفاننا بالسهد لم تطعم الكرا
إلى أن رأينا الليل شاب قذاله ... ولاح عمود الفجر غصناً منورا
لمحنا برأس البعد ناراً منيرة ... فسرنا لها نبغي الكرامة والقرا
وأفضى بنا السير الحثيث بسحرة ... لحانة دير بالنواقس دورا
فلما حللنا حبوة السير عنده ... وأبصرنا القسيس قام مكبرا
وحرك ناقوساً له أعجم الصدا ... فأفصح بالسر الذي شاء مخبرا
وقال لنا حطوا حمدتم مسيركم ... وعند الصباح يحمد القوم السرى
نعمتم صباحاً ما الذي قد أتى بكم ... فقلنا له إنا أتيناك زورا
وراحتنا في الراح إن كنت بايعاً ... فإن لدينا فيه أربح مشتري
فقال لكم عندي مدام عتيقة ... مخلدة من قبل آدم أعصرا
مشعشعة كالشمس لكن تروحنت ... وجلت عن التجسيم قدماً فلا ترى
وحل لنا في الحين ختم فدامها ... فأسدى لنا مسكاً فتيقاً وعنبرا

وقلنا من الساقي فلاح بوجهه ... فأدهش ألباب الأنام وحيرا
وأشغلنا عن خمرة بجماله ... وغيبنا سكراً فلم ندر ما جرا
ومن شعره في المعنى:
يا نايماً يطلب الأسرار إسراراً ... فيك العيان ونبغي بعد آثارا
أرجع إليك ففيك الملك مجتمع ... والفلك والفلك العلوي قد دارا
أنت المثال وكرسي الصفات فته ... على العوالم إعلاناً وإسراراً
والطور والدر منثوراً وقد كتبت ... أقلام قدرته في اللوح آثارا

والبيت يعمره سر الملايك في ... مشكاة قلبك قد أسرجن أنوارا
ورفع الله سقفاً أنت تسكنه ... سماوه أطلعت شهباً وأقماراً
وبحر فكرك مسجور بجوهره ... فغص به مخرجاً للدر أسرارا
فإن رأيت بوادي القدس نار هدى ... فاثبت فنورك فيها مازج النارا
واخلع لسمع الندا نعليك مفتقرا ... إلى المنادي تنل عزاً وإكباراً
وغب عن الكون بالأسماء متصفا ... واطلب من الكل رب الدار لا الدارا
ومن ذلك في هذا المعنى:
أطالب ما في الروح من غامض السر ... وقارع باب العلم من عالم الأمر
عرضت لعلم أبهم الشرع بابه ... لكل جهول لحقائق لا يدري
ولكن خبيرا قد سألت محققا ... فدونك فانظم ما نثرت من الدر
وبين يدي نجواك قدم وسيلة ... تقى الله واكتم ما فهمت من السر
ولا تلتفت جسما ولا ما يخصه ... من الحس والتخييل والوهم والفكر
وخذ صورة كلية جوهرية ... تجل عن التمييز بالعكس والسبر
ولكن بمرآة اليقين تولدت ... وليست بذاتي إن سألت ولا غير
كذلك لم تحدث وليست قديمة ... وما وصفت يوماً بشفع ولا وتر
ولكن بذات الذات كان ظهورها ... إذا ما تبدت في الدجا غرة الفجر
ومن هذا الغرض قوله:
مشاهدتي مغناك يا غايتي وقت ... فما أشتكى بعداً وحبك لي نعت
مقامي بقايي عاكفاً بجمالكم ... فكل مقام في الحقيقة لي تحت
لئن حالت الأحول دون لقايكم ... فإني على حكم المحبة ما حلت
وإن كان غيري في الهوى خان عهده ... فإني وأيم الله عهدي ما خنت
وما لي رجاً غير نيل وصالكم ... ولا خوف إلا أن يكون له فوت
نعم إن بدا من جانب الأنس بارق ... يحركني بسط به نحوكم طرت
ومهما تذكرت العتاب يهزني لهيبتكم قبض يغيب به النعت
تواجدت حتى صار لي الوجد مشربا ... ولاح وجود للحقيقة إذ غبت
فها أنا بين الصحو والمحو داير ... أقول فلا حرف هناك ولا صوت
قصودي إليكم والورود عليكم ... ومنكم سهودي والوجود إذا عدمت
وفي غيبتي عني حضوري لديكم ... وعند امتحان الرسم والمحو أثبت
وفي فرقتي الباني بحق جمعتني ... وفي جمع جمعي في الحقيقة فرقت
تجليته لي حتى دهشت مهابة ... ولما رددت اللحظ بالسر لي عشت
موارد حق بل مواهب غاية إذا ... ما بدت تلك البوادة لي تمت
لوايح أنوار تلوح وتخفي ولكن ... وميض البرق ليس له ثبت
ومهمى بدت تلك الطوالع أدهشت ... وإن غيبت تلك اللوامع أظلمت

وهيهات هيبات الجلال تردني ... وعند التجلي لا محالة دكدكت
نسفن جبالي فهي قاع صفصف ... وليس يرى فيهن زيغ ولا أمت
ولي أدمع أججن نار جوانحي ولي ... نفس لولاه من حبكم ذبت
ألا فانظروا قلب العيان حقيقة ... فنابي ووجودي والحياة إذا مت

مراتب في التلوين نلت جميعها ... وفي عالم التمكين عن كلها بنت
وعند قيامي عن فنابي وجدتكم ... فلا رتبة علوية فوق ما نلت
ورود وشرب ثم لا أرى بعده ... لين كنت أروى من شرابك لا كنت
شربت أكواس الوجود مدامة ... فلست أجلى عن ورود متى شبت
وكيف وأقداح العوالم كلها ... ولكني من صاحب الدير أسكرت
تعلق قوم بالأواني وإنني ... جمال المعاني لا المغاني علمت
وأرضعت كأساً لم تدنس بمزجها ... وقد نلتها صرفاً فيا لعمري ما ضعت
شراب بها الأبرار طاب مزاجهم ... وأرضعتها صرفاً لأني قربت
بها آدم نال الخلافة عندما ... تبدت له شمساً لها نحوه سمت
ونجت لنوح حين فر لفلكه ... ومن بان عن أسرارها عمد الموت
وقد أخمدت نار الخليل بنورها ... وكان لموسى عن أشعتها بهت
وهبت لروح الله روح نسيمها ... فأبصره الأعمى وكلمه الميت
وسار بها المختار سيري لربه ... إلى حيث لا فوق هناك ولا تحت
هنياً لمن قد أسكرته بعرفها ... لقد نال ما يبغي وساعده البخت

ومن نثر الأستاذ الجليل أبي القاسم بن خلصون المترجم به، قوله من رسالة: وصلني أيها الإبن النجيب، المخلص الحبيب، كتابك الناطق بخلوص ودك، ورسوخ عهدك، وتلك سجية لايقة بمجدك، وشنشنة تعرف من والدك وجدك، وصل الله أسباب سعدك، وأنهض عزم جدك، بتوفيق جدك، وبلغك من مأمولك، أقصى قصدك، فلتعلم أيها الحبيب أن جناني ينطوي لكم أكثر مما ينشره لساني. فإني مغري بشكركم وإن أعجمت، ومفصح بجميل ذكركم وإن جمجمت، لا جرم أن الوقت حكم بما حكم، واستولى الهرج فاستحكم، حتى انقطعت المسالك، وعدم الوارد والسالك، وذلك تمحيص من الله جار على قضية قسطه، وتقليب لقلوب عباده بين إصبعي قبضه وبسطه، حين مد على الخليقة ظل التلوين، ولو شاء لجعله ساكناً، ثم جعل شمس المعرفة لأهل التمكين، عليه دليلا باطنا، ثم قبض كل الفرق عن خاصيته قبضاً يسيراً، حتى أطلع عليهم من الأنس بدراً منيراً. وإلى ذلك يا بني فإني أحمد الله تعالى إليك على تشويقه إياك إلى مطالعة كتب المعارف، وتعطشك للورود على بحر اللطايف. وإن الإمام أبا حامد رحمه الله، لممن أحرز خصلها، وأحكم فرعها وأصلها، لا ينكر ذلك إلا حاسد، ولا يأباه إلا متعسف جاحد. هذا وصفه، رحمه الله، فيما يخصه في ذاته. وأما تعليمه في تواليفه، وطريقه التي سلكها في كافة تصانيفه؛ فمن علماينا رضي الله عنهم، من قال إنه خلط النهاية بالبداية، فصارت كتبه أقرب إلى التضليل منها إلى الهداية، وإن كان لم يقصد فيها إلا النفع، فيما أمه من الغرض، فوجد في كتبه الضرر بالعرض، وممن قال بهذا الفقيه الحكيم أبو بكر بن الطفيل. قال، وأما أبو حامد، فإنه مضطرب التأليف، يربط في موضع، ويحل في آخر، ويتمذهب بأشياء، ويفكر بها، مثل أنه كفر الفلاسفة باعتقادهم أن المعاد روحاني، وإنكارهم حشر الأجساد. وقد لوح هو بأن ذلك مذهبه في آخر كتاب الجواهر

والأربعين وخرج بأنه معتقد كبار الصوفية، في كتاب آخر، وقال إن معتقده كمعتقدهم، وأنه وقع على ذلك بعد بحث طويل وعناء شديد. قال، وإنما كلامه في كتبه، على نحو تعليم الجمهور. وقد اعتذر أبو حامد نفسه عن ذلك في آخر كتاب ميزان العمل، على أغلب ظني، فإن لي من مطالعة الكتب مدة. قال، ولو لم يكن في هذه الألفاظ إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث، يعني التقليد، فإنه من لم يشك، لم ينظر، ومن لم ينظر، لم يبصر، ومن لم يبصر ففي العمى والحيرة. ثم تمثل بقول الشاعر:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

وذلك أنه قسم آراءه إلى ثلاثة: رأى يجاب به كل مسترشد سايل، بحسب سؤاله، وعلى مقدار فهمه. ورأى يجاب به الخاصة، ولا يصرح به للعامة. ورأى بين الإنسان وبين نفسه، لا يطلع عليه إلا من شريكه في اعتقاده. وأما الفقيه الفاضل أبو الوليد بن رشد رحمه الله، فإنه بالغ في ذلك مبالغ عظيمة، وذلك في كتابه الذي وصف فيه مناهج أدلة المتكلمين، فإنه لما تكلم على طرق الأشعرية والمعتزلة، والفلاسفة، والصوفية، والحشوية، وما أحدثته المتكلمون من الضرر في الشريعة بتواليفهم، انعطف فقال، وأما أبو حامد، فإنه طم الوداي على القرى، ولم يلتزم طريقة في كتبه، فنراه مع الأشعرية أشعرياً، ومع المعتزلة، معتزلياً، ومع الفلاسفة فيلسوفاً، ومع الصوفية، صوفياً، حتى كأني به

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن ... وإن لقيت معدياً فعدنان

ثم قال، والذي يجب على أهل العلم، أن ينهوا الجمهور عن كتبه، فإن الضرر فيها بالذات، والمنفعة بالعرض. قال، وإنما ذلك لأنه صرح في كتبه بنتائج الحكمة، دون مقدماتها، وأفصح بالتأويلات التي لا يطلع عليها إلا العلماء، الراسخون في العلم، وهي التي لا يجوز أن تؤول للجمهور، ولا أن تذكر في غير كتب البرهان. وأنا أقول إن كتبه في الأصلين، أعني أصول الدين، وأصول الفقه. في غاية النبل والنباهة، وبسط اللفظ، وحسن الترتيب والتقسيم، وقرب المسائل. وكذلك كتبه الفقيهة والخلافية والمذهبية، التي ألفها على مذهب الشافعي، فإنه كان شافعي المذهب، في الفروع. وأما كتبه التي ذهب فيها مذهب التصوف، فهي التي يوجد فيها ما ذكر من الضرر بالعرض. وذلك أنه بنى الأكثر من الاعتقادات فيها على ما تأدى إلى فهمه من مذاهب الفلاسفة، ونسبها إلى المتصوفة. وقد نبه على ذلك الفقيه الجليل أبو بكر الطرطوشي في كتابه الذي سماه بمراقي العارفين. قال، وقد دخل على السالكين ضرر عظيم من كتب هذا الرجل الطوسي، فإنه تشبه بالصوفية ولم يلحق بمذاهبهم، وخلط مذاهب الفلاسفة بمذاهبهم، حتى غلط الناس فيها. على أنني أقول إن باعه في الفلسفة كان قصيراً، وإنه حذا حذو الشيخ أبي علي بن سينا في فلسفته التي نقلها في المقاصد، ومنطقه الذي نقله في معيار العلم، لكن قصر عنه. وتلك الاعتقادات، منها حق ومنها باطل، وتلخيصه لا يتأتى إلا لصنفين من الناس، أعني أهل البرهان، وأهل المكاشفة، فبحسب ذلك تحتاج كتبه إلى تقدمة علوم البرهان، وأهل المكاشفة، فبحسب ذلك تحتاج كتبه إلى تقدمة علوم البرهان، أو رياضة أهل المكاشفة، وحينئذ ينظر ي ساير كتبه. وهذه الرسالة طويلة، تكلم فيها على كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله، بما يدل على تفننه، وعلى اضطلاعه، رحمه الله.

ومن الغرباء في هذا الاسم

محمد بن يوسف العراقي

محمد بن أحمد بن أمين بن معاذ بن إبراهيم بن جميل بن يوسف العراقي ثم الخلاطي، ثم الأقشري الفارسي، وينعت من النعوت المشرقية بجلال الدين، من بلاد فارس

حاله

كان من الصوفية المتجردين من المال والعيال، ذا وقار وتودة، وسكون ومحافظة على ظاهره. أكثر في بلاد المشرق من الأخذ عن الشيوخ المحدثين والمتصوفين، ثم قدم المغرب، فاستوطن بعض بلاده، ثم أجاز البحر إلى الأندلس عام أربعة وسبعماية، وأخذ عمن بها من الشيوخ، ودخل غرناطة. وكان شافعي المذهب، يشارك في قرض الشعر.

مشيخته

أخذ عن أبي مروان عبد الملك الشريشي بفاس، وعن أبي بكر محمد ابن محمد بن قسي المومياني، ولبس الخرقة الصوفية من جماعة بالمشرق، وبالمغرب، منهم الإمام أبو إبراهيم الماجري، عن أبي محمد صالح، عن أبي مدين.

تواليفه

أخذ عنه تاليفه في نحو اللغة الفارسية، وشرح ألفاظها. قال شيخنا، الوزير أبو بكر بن الحكيم، كتب إلي والدي ببابه، وقد أحس بغض من الشيخ الإمام أبي عبد الله بن خميس، عميد مجلس الوزارة الحكيمية:

عبيد بباب العلى واقف ... أيقبله المجد أم ينصرف

فإن قبل المجد نلت المنا ... وإلا فقدري ما أعرف

ثم كتب على لفظه ما من وصححه. قال فأذن له، واستظرف منزعه.

ابن شاطر

محمد بن أحمد بن شاطر الجمحي المراكشي يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن شاطر

حاله

فقير متجرد، يلبس أحسن أطوار الخرقة، ويوثر الاصطلاح، مليح الشيبة، جميل الصورة، مستظرف الشكل، ملازم للمسجد، مساكن بالمدارس، محبب إلى الخواص، كثير الذكر، متردد التأوه، شارد اللسان، كثير الفتات، مطرح في أكثر الأحاين للسمت، ينزع إلى هدف تايه، تشم عليه القحة والمجانة، مقتحم حمى الحشمة في باب إبهام التلبيس، يزلق سوء الاعتقاد عن صفاته، وإن قارب الانهماك، غير مبال بناقد، ولا حافل بدام، ولا حامد. كلما اتبع انفرد، ومهمى استقام شرد، تطيب النفس به على غرة، ويحسن الظن بباطنه على سوء ظاهره، مليح الحديث، كثير الاعتبار. دايم الاسترجاع والاستغفار. فعال الموعظة. عجيب الانتزاع من الحديث والقرآن، مع عدم الحفظ، مستشهد بالأبيات الغريبة على الأحوال. قال شيخنا القاضي أبو عبد الله بن المقري: لقيت فيمن لقيت بتلمسان رجلين. أحدهما عالم الدنيا، والآخر نادرتها. أما العالم فشيخنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الآبلي، وأما النادرة، فأبو عبد الله بن شاطر ثم قال، صحب أبو زيد الهزميري كثيراً، وأبا عبد الله بن تجلات، وأبا العباس بن البنا، وإخوانهم من المراركشيين ومن جاورهم، واختص بأبي زيد الهزميري، وآثره وتبناه، وكان يقول له، وألقيت عليك محبة مني، فيظهر أثر ذلك عليه، من ستر الهنات، ووضع القبول، فلا تجد من يستثقله من راض عنه أو ساخط دخل الأندلس، وقدم على غرناطة، وتلوم بها أياما.

نبذ من أقواله

فمن ذلك أنه إذا سئل عن نفسه يقول، أنا ولي مفسود، وفي هذا من النصفة، وخفة الروح ما لا خفاء به. قال بعض شيوخنا، قلت له يوماً، كيف أنت، فقال، كيف أنا محبوس في الدم. ومن حكمه، الليل والنهار حرسيان، أحدهما أسود، والآخر أبيض، وقد أخذ بمجامع الخلق إلى يوم القيامة، وإن مررنا إلى الله. ومر يوما بأبي العباس بن شعيب الكاتب وهو جالس في جامع الجزيرة، وقد ذهبت به الفكرة، فصاح به فلما رفع رأسه، قال، وله نعش خاطر، أنظر إلى مركب عزرايبل، قد رفع شراعه، والندا عليه، اركبوا يا عزا. قال شيخنا أبو عبد الله المقري، وجدته يوماً في المسجد ذاكراً، فقلت له، كيف أنت، فقال مهيم في روضة يجبرون، فهممت بالانصراف، فقال أين تذهب من روضة من رياض الجنة، يقام فيها على رأسك بهذا التاج، وأشار إلى المنار، مملوءاً بالله أكبر. قال وأنشدني أبو العباس بن البنا، وكتبهما عنه:

قصدت إلى الوجازة في كلامي ... لعلمي بالصواب في الاختصار

ولم أحذر فهو ما دون فهمي ... ولكن خفت إزراء الكبار

فشأن فحولة العلماء شاني ... وشان البسط تعليم الصغار

قال، وأخبار ابن شاطر تحتمل كراسة، قلت رأيته بفاس في أخريات عام خمسة وخمسين، وهو الآن بحاله الموصوفة، قد أربى على السبعين.

ابن الحلفاوي

محمد بن محمد بن عبد الرحمن التميمي، ابن الحلفاوي من أهل تونس، يكنى أبا عبد الله، نزيل غرناطة، ويعرف بالتونسي وبابن المؤذن ببلده.

حاله

من العايد: قال، ولي الله المجاب الدعوة، الظاهر الكرامة، المشهود له بالولاية. ورد الأندلس في جملة من تجار بلده، وبيده مال كبير، بذله في معاملة ربه، إلى أن استأصله بالصدق، وأنفقه في سبيل الله، ابتغاء مرضاته، وتجرد عن الدنيا، وأخذ نفسه بالصلاة والصوم والتلاوة، وكثرة السجود، والتطارح على ذلك، محفوظاً في ذلك كله، حفظة الأولياء، مذكرا بمن سلفه من الزهاد، عازباً عن الدنيا أخذ نفسه بسلوك الإيتاب عنها، رحمة للخلق، وتمالأ للمساكين، بقصده الناس بصدقاتهم، فيبثها في ذوي الحاجات، فيتألف في باب مسجده آلاف من رجالهم ونسايهم وصبيانهم، حتى يعمه الرفد، وتسعهم الصدقة. وكان غريب الأحوال، إذا وصل وقت الصلاة، يظهر عليه البشر والسرور، ويدخل مسجده الذي ابتناه، واحتفل فيه، فيخلو بنفسه آخذاً في تعبدات كثيرة، غريبة شاملة لجميع أركان المسجد، ويزدحم الناس حول المسجد، وأكثرهم أهل الفاقة، فإذا تمكن الوقت، أذن إذانا مؤثراً في القلوب، جداً وصدقاً ووقاراً، كان صدره ينصدع عند قول، لا إله إلا الله، ثم يعيد التعبد والسجود في الصومعة وأدراجها، حتى يفتح باب المسجد، وينتقل إلى صدر المحراب، فيصلي ركعات خفيفة. فإذا أقام الصلاة، ووقف عند المحراب، ظهر عليه من الخوف والكآبة والحزن والانكسار والتضرع والتملق والرغبة، ما لا تفي العبارة بوصفه، كأن موقفه موقف أهل الجرايم بين أيدي الملوك الجبابرة. فإذا أتم الصلاة على أم هيئاتها، ترى كأن الغبار على وجهه، أو كأنه حشر من قبر، فإذا شرع في الدعاء بأثر الصلاة، يتلوه بترداد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في كل دعوة، ويتوسل به، وتظهر عليه أحوال من الحضور والمراقبة، وينجلي عن وجهه ما كان به. وكان يختم القرآن في شهر رمضان مائة ختمة، فما من ليلة، إلا ويحيي الليل كله فيها بمسجده. هذا ترتيبه، ولو تتبعنا ما شوهد من كراماته وأحواله، لخرجنا عن الغرض.

ولد بتونس في حدود الأربعين وستماية.
توفي في شهر بيع الثاني عام خمسة عشر وسبعماية. وكان الحفل في جنازته عظيماً، استوعب الناس كافة، وحضر السلطان، فمن دونه، وكانت تنم، زعموا، على نعشه وقبره رائحة المسك. وتبرك الناس بجنازته، وقصد قبره المرضي وأهل الحاجات، وبقي القراء يقرأون القرآن عليه مدة طويلة. وتصدق على قبره بجملة من مال، ففدى به طايفة من الأسرى. وقبره بباب إليبرة عن يمين الخارج إلى مقبرة العسال، معروف هنالك.
ابن بطوطة

محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن يوسف اللواتي من أهل طنجة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن بطوطة
حاله
من خط شيخنا أبي البركات، قال، هذا رجل لديه مشاركة يسيرة في الطلب، رحل من بلاده إلى بلاد المشرق يوم الخميس الثاني من رجب عام خمسة وعشرين وسبعماية، فدخل بلاد مصر والشام والعراق، وعراق العدم، وبلاد الهند والسند، والصين، وصين الصين، وبلاد اليمن. وحج عام ستة وعشرين وسبعماية. ولقي من الملوك والمشايخ عالماً، وجاور بمكة. واستقر عند ملك الهند، فحظي لديه، وولاه القاضاء، وأفاده مالاً جسيماً. وكانت رحلته على رسم الصوفية زيا وسجية، ثم قفل إلى بلاد المغرب، ودخل جزيرة الأندلس، فحكمى بها أحوال المشرق، وما استفاد من أهله، فكذب، وقال، لقيته بغرناطة، وبتنا معه ببستان أبي القاسم ابن عاصم بقرية نبلة، وحدثنا في تلك الليلة، وفي اليوم قبلها عن البلاد المشرقية وغيرها، فأخبر أنه دخل الكنيسة العظمى بالقسطنطنية العظمى، وهي على قدر مدينة مسقفة كلها، وفيها اثني عشر ألف أسقف. قلت، وأحاديثه في الغرابة أبعد من هذا. وانتقل إلى العدوة، فدخل بلاد السودان، ثم تعرف أن ملك المغرب استدعاه، فلحق ببابه. وأمر بتدوين رحلته.
ساير الأسماء في حرف الميم الملوك والأمراء، وما منهم إلا طارئ علينا أو غريب
مزدلي بن تيولتكان

بن حمني بن محمد بن ترقوت بن وربابطن بن منصور

ابن نصاله بن أمية بن واباتن الصنهاجي اللتموني
حاله

كان الأمير مزدلي عضد القايم بالدولة اللمتونية يوسف بن تاشفين، وقريبه لا لتقائهما في ترقوت، راش به وبرى، وجز وفرى، فهو شيخ الدولة اللمتونية، وكبير العصابة الصنهاجية، بطلاً ثبتاً، بهمة من البهم بعيد الصيت، عظيم الجلد، شهير الذكر، أصيل الرأي، مستحكم الحنكة، طال عمره، وحمدت مواقعه، وبعدت غاراته، وعظمت في العدو وقايعه، وشكرت عن سلطانه نيابته.
من مناقبه، استرجاع مدينة بلنسية من أيدي الروم بسعيه، ورده إلى ملكة الإسلام بحميد غنايه في منتصف رجب عام خمس وخمس ماية.
دخوله غرناطة، ولي قرطبة وغرناطة وما إليهما من قبل يوسف بن تاشفين سنة خمس وخمسماية.
قال ابن الصيرفي، توفي ليلة الثلاثاء السابع عشر من شوال عام ثمانية وخمس ماية، غازياً على مقربة من حصن

قسطانية، طرق به إلى قرطبة، فوصل يوم الأربعاء ثاني يوم وفاته، وصلى عليه إثر صلاة العصر الفقيه القاضي بقرطبة أبو القاسم بن حمدين، ودفنه قرب أبيه، وبنيت عليه روضة حسنة. وكان، نضر الله وجهه، البقية الصالحة على نهج أمير المسلمين يوسف.

ابن علي الهنتاتي موسى بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الهنتاتي

السيد أبو عمران.

حاله

بيته معروف. وكان أديباً شاعراً، جواداً، واختص بالعادل، فجل قدره في دولته، وأمله الناس بإشبيلية في حوايجهم لمحله منهم. ولما انصرف عنها العادل إلى طلب الخلافة، قدمه عليها، فبلغ الغاية.

وفي شوال من عام اثنين وعشرين وستماية، كانت على جيشه الوقيعة، أوقعها به السيد أبو محمد البياسي، وأخباره شهيرة.

وتوفي تغريقاً في البحر بعد أن ولي بجاية، رحمه الله وعفا عنه.

شعره

قال، وكان أبو المطرف بن عميرة، ينشد له، يخاطب الفقيه الأديب أبا الحسن بن حريق بستحثه على نظم الشعر في عروض الخبب:

خذ في الأشعار على الخبب ... فقصورك عنه من العجب
هذا وبنو الآداب قضوا ... بعلو مجدك في الرتب

فنظم له أبو الحسن القصيدة المشهورة، منها:

أبعيد الشيب هوى وصبا ... كلا لا لهواً ولا لعبا
ذرت الستون برادها ... في مسك عذارك فاشتهبا

ومنها:

يا نفس أحيي تصلي أملاً ... عيشي روحيا تروي عجبا
وخذي في شكر الكبرة ما ... لاح إلا صباح وما ذهبا
فيها أحرزت معارف ما ... أبليت بجدته الحقبا
والخم إذا أعتقت وصفت ... أعلى ثمناً منها عنبا
وبقية عمر المرء له أن ... كان بها طبا دربا

دخل غرناطة، فوجب ذكره مع مثله.

منديل بن يعقوب

بن عبد الحق بن محيو الأمير أبو زيان

حاله

كان فاضلاً عاقلاً جواداً، عينه أبوه أمير المسلمين أبو يوسف بن عبد الحق، للضرب على أحواز مالقة عند الفتنة، فاضطرب المحلة تجاه سهيل، وضيق على تلك الأحواز، وبرز إليه الجيش لنظر موسى بن رحو من قرابته، النازعين

عن إيالة المغرب من بني رحو. وكان اللقاء، فوقعت به الذبرة، وانهزم جيشه، وقبض عليه، وسيق إلى السلطان، فتلقاه بالبر، ورعى ما لبيته الكبير من الحق، وأسكنه مجاوراً لقصره بحمرايه، مرفهاً عليه، محجوزاً عن التصرف، إلى أن كان من تلاحق بهذه الحل من وفاة أبيه السلطان أبي يوسف بالجزيرة الخضراء، وتصير الأمر إلى ولده السلطان أمير المسلمين أبي يعقوب يوسف. وتجدد الألفة وتأكدت المودة، وارتفعت الإحنة، فكان ما هو معروف من التقايهما على تعينة إجازة ملك المغرب أبي يعقوب البحر على ظاهر مربلة، وصرف الأمير أبو زيان محبواً بما يليق به.

حدثني شيخنا أبو زكريا بن هذيل رحمه الله، قال، نصب للسلطان أبي يعقوب خباء احتفل في اتخاذه له أمير سبتة، فبلغ الغاية التي لا يستطيعها الملوك، سمو عماد، وامتداد ظل، وانفساح ساحة، إلى إحكام الصنعة، والإعياء في الزخرف. وقعد فيه السلطان ملك المغرب، وأجلس السلطان أمير المسلمين أبا عبد الله ابن الغالب بالله، عن يمينه، وأخاه الأمير أبا زيان عن يساره، وقرأ عشاره المعروف بالوقاد، آية الله في حسن الصوت، وبعد مدي السمع، وطيب النغمة، قوله عز وجل، " يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر، وجئنا ببضاعة مزجاة، فأوف لنا الكيل، وتصدق علينا، إن الله يجزي المتصدقين. قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه، إذ أنتم جاهلون، قالوا إنك لأنت يوسف، قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا، إنه من يتق ويصبر، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين. قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين، قال لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين " . فكان مقاماً مبهتاً.
كان السلطان رحمه الله يقول، لشد ما جنى علي عدو الله بقحته، والله لقد كان يشير بيده إلى السلطان وأخيه عند قوله، أنا يوسف وهذا أخي. ثم أجاز للعدوة، فطاح بها لعهد غير بعيد.
وكان الإيقاع بجيش الأمير أبي زيان في أخريات ذي الحجة عام أربعة وثمانين وستماية. فاتصل بذلك موت والد أمير المسلمين أبي يوسف بالخضراء في شهر محرم عام خمسة وثمانين بعده، وكان لقاء السلطانين بالخضراء في شهر محرم عام خمسة وثمانين هذه، وكان اللقاء كما ذكر في شهر ربيع الآخر من العام المذكور.
ومن الطارئين
ابن عبد الرحمن بن معاوية

المطرف بن عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام
حاله
كان المطرف، ولد الخليفة عبد الله أمير المسلمين بالأندلس، شجاعاً مقداماً، جرياً، صرفه والده الخليفة في الغزوات، وقود العساكر، وهو الذي بنى حصن لوشة، ووقم كثيرا من الخوارج على والده.
دخوله غرناطة
قال ابن حيان غزا المطرف ببشتر بسبب ابن حفصون، إذ كان صالح الأمير عبد الله، ودفع رهينة ابنه، فلما امتحن الطفل، وجد غير ابنه، فنهض إليه المطرف، وكان القايد على العسكر قبله عبد الملك ابن أمية، فنهض صحبته، ونازل المطرف ابن حفصون، فهتك حوزته، وتقدم إلى بنية كان ابتناها بموضع يعرف باللويات، فشرع في خرابها، وخرج ابن حفصون ومن معه من النصرانية يدافع عنها، وعن كنيسة كانت بقربها، فغلب ابن حفصون، وهدمت الكنيسة، وقتل في هذه الحرب حفص بن المرة قايده ووجوه رجاله، وعند الفراغ من ذلك. انصرف المطرف، فدخل كورة إلبيرة، وبنا لوشة، وتقدم منها إلى إلبيرة ودخلها، ثم طاف بتلك الجهات والحصون، ثم انصرف.
ذكر إيقاعه بعبد الملك بن أمية وسبب، الإحنة بينه وبين أبيه قال، وفي هذه اذكر إيقاعه بعبد الملك بن أمية وسبب،

الإحنة بينه وبين أبيه قال، وفي هذه الحركة، أوقع بعبد الملك بن أمية، لما كان في نفسه لصرف والده عن عقد البيعة له، وتمزيق العهد في خبر يطول. وكان والده قد أخذ عليه الميثاق عند خروجه إلى شذونة، ألا يعرض إليه بمكروه، وأقسم له بالإيمان، لين نال منه شيئاً ليعاقبنه بمثله، فلما قتله، عقد الوثائق عليه، وأخذ الشهادات فيها بالظلم والشؤم خوفاً من أبيه، وكتب إليه يعتذر له، ويحكمه في نفسه.

مقتل المطرف

قال، وظهرت عليه، فعال قبيحة، من أذى جيرانه بما أكد غايلة أبيه عليه، وأعان عليه معاوية بن هشام، لما ذكروا أن المطرف كان قد خلا به، فذكروا أنه نزل يوماً عنده بمنزله، وأخذوا في حديث الأبناء، وكان المطرف عقيماً، فدعا معاوية بصبي يكلف به، فجاء وبرأسه ذؤابتان، فلما نظر إليه المطرف حسده، وقال يا معاوية، أتتشبه بأبناء الخلفاء في بنيهم، وتناول السيف فحز به الذؤابة، وكان معاوية حية قريش دهاء ومكراً، فأظهر الاستحسان لصنعه وانبسط معه في الأنس، وهو مضطغن. فلما خرج كتب إلى الخليفة يسأله اتصاله إليه، فلما أوصله كاشفه في أمر المطرف بما أزعجه، وأقام على ذلك ليلاً أحكم أمره عند الخليفة بلطف حيلته، فأصاب مقتله سهم سعايته. قال ابن الفياض، بعث الأمير عبد الله إلى دار ولده المطرف عسكراً للقبض عليه، مع ابن مضر، فقوتل في داره حتى أخذ، وجيء به إليه، فتشاور الوزراء في قتله، فأشار عليه بعضهم أن لا يقتله، وقال بعضهم إن لم تقتله قتلك، فأمر ابن مضر بصرفه إلى داره، وقتله فيها، وأن يدفنه تحت الريحانة التي كان يشرب الخمر تحتها، وهو ابن سبع وعشرين سنة، وذلك في يوم الأحد ضحى لعشر خلون من رمضان سنة اثنتين وثمانين ومائتين.

منذر بن يحيى التجيبي

أمير الثغر المنتري بعد الجماعة بقاعدة سرقسطة، يكنى أبا الحكم ويلقب بالحاجب المنصور، وذي الرياستين.

حاله

قال أبو مروان، وكان أبو الحكم رجلا من عرض الجند، وترقى إلى القيادة آخر دولة ابن أبي عامر. وتناهى أمره في الفتنة إلى الإمارة. وكان أبوه من الفرسان غير النبهاء. فأما ابنه منذر، فكان فارساً تقي الفروسية، خارجاً عن مدى الجهل، يتمسك بطرف من الكتابة الساذجة. وكان على غدره، كريماً، وهب قصاده مالاً عظيماً، فوفدوا عليه، وعمرت لذلك حضرته سرقسطة. فحسنت أيامه، وهتف المداح بذكره.

وفيه يقول أبو عمرو بن دراج القسطلي قصيدته المشهورة، حين صرف إليه وجهه، وقدم عليه في سنة ثمان وعشرين وأربعماية:

بشراك من طول الترحل والسرى ... صبح بروح السفر لاح فأسفرا
من حاجب الشمس الذي حجب الدجا ... فجراً بأنهار الذرى متفجرا
نادى بحي على الندى ثم اعتلا ... سبل العفاة مهللاً ومكبرا
لبيك أسمعنا نداك ودوننا ... نوء الكواكب مخويا أو ممطرا
من كل طارق ليل هم ينتحي ... وجهي بوجه من لقايك أزهرا
سار ليعدل عن سمايك أنجمي ... وقد ازدهاها عن سناك محيرا
فكأنما أعدته أسباب النوى ... نور الهدى عن يديك منورا
أو غار رمن همي فأنحى شأوها ... فلك البروج مغرباً ومغورا

حتى علقت النيرين فأعلقا ... مثنى يدي ملك الملوك النيرا
فسريت في حرم الأهلة مظلما ... ورفلت في خلع السموم مهجرا
وشعيت أفلاذ الفؤاد ولم أكد ... فحذوت من حذو الثريا منظرا
ست تسراها الجلاء مغرباً ... وحدا بها حادي النجاء مشمرا
لا يستفيق الصبح منها ما بدا ... فلقاً ولا جدى الفراقد ما سرا
ظعن ألفن القفر في غول الدجا ... وتركن مألوف المعاهد مقفرا
يطلبن لج البحر حيث تقاذفت ... أمواجه والبر حيث تنكرا
هيم وما يبغين دونك موردا ... أبدا ولا عن بحر جودك مصدرا
من كل نضو الآل محبوك المنى ... يزجيه نحوك كل محبوك القرا
بدن فدت منا دماء نحورها ... ببغائها في كل أفق منحرا
نحرت بنا صدر الدبور فأنبطت ... قلق المضاجع تحت جو أكدرا
وصبت إلى نحو الصبا فاستخلصت ... سكن الليالي والنهار المبصرا
خوص نفخن بنا البري حتى انشت ... أشلاؤهن كمثل أنصاف البرا
نذرت لنا أن لا تلقي راحة ... مما تلاقى أو تلاقى منذرا
وتقاسمت أن لا تسيغ حياتها ... دون ابن يحيى أو تموت فتعذرا

لله أي أهلة بلغت بنا ... يمناك يا بدر السماء المقمرا
بل أي غصن في ذاك هصرته ... فجرى فأورق في يديك وأثمرا
فلئن صفا ماء الحياة لديك لي ... فبما شرقت إليك بالماء الصرى
ولئن خلعت على برداً أخضرا ... فلقد لبست إليك عيشاً أغبرا
ولئن مددت علي ظلا باردا ... فلكم صليت إليك جواً مسعرا
وكفى لمن جعل الحياة بضاعة ... ورأى رضاك بها رخيصاً فاشترى
فمن المبلغ عن غريب نازح ... قلبا يكاد علي أن يتفطرا
لهفان لا يرتد طرف جفونه ... إلا تذكر عبرتي فاستعبرا
أبني لا تذهب بنفسك حسرة ... عن غول رحلي منجدا أو مغورا
فلئن تركت الليل فوق داجيا ... فلقد لقيت الصبح بعدك أزهرا
ولقد وردت مياه مأرب حفلاً ... وأسمت خيلي وسط جنة عبقرا
ونظمت للغيد الحسان قلائداً ... من تاج كسرى ذي البهاء وقيصرا
وحللت أرضاً بدلت حصباؤها ... ذهباً يرف لناظري وجوهرا
وليعلم الأملاك أني بعدهم ... ألفيت كل الصيد في جوف الفرا
ورمى علي رداءه من دونهم ... ملك تخير للعلا فتخيرا
ضربوا قداحهم علي ففاز بي ... من كان بالقدح المعلى أجدرا
من فك طرفي من تكاليف الفلا ... وأجار طرفي من تباريح السرى
وكفا عتابي من ألام معذرا ... وتذممى ممن تحمل معذرا

ومسائل عني الرفاق ووده ... لو تنبذ السانحات رحلي بالعرا
وبقيت في لجج الأسى متضللاً ... وعدلت عن سبل الهدى متحيراً
كلا وقد آنست من هود هدى ... ولقيت يعرب في القبول وحميرا
وأصبت في سبإ مورث ملكه ... يسبي الملوك ولا بدب لها الضرا
فكأنما تابعت تبع رافعاً ... أعلامه ملكاً يدين له الورى
والحارث الجفني ممنوع الحمى ... بالخيل والآساد مبذول القرى
وحططت رحلي بين نار حاتم ... أيام يقرى موسراً أو معسرا
ولقيت زيد الخيل تحت عجاجه ... يكسو غلايلها الجياد الضمرا
وعقدت في يمن مواثق ذمة ... مشدودة الأسباب موثقة العرى
وأتيت بحدل وهو يرفع منبرا ... للدين والدنيا ويخفض منبرا
وحططت بين جفانها وجفونها ... حرماً أبت حرماته أن تخفرا
تلك البحور تتابعت وخلفتها ... سعياً فكنت الجوهر المتخيرا
ولقد نموك ولادة وسيادة ... وكسوك عزاً وابتنوا لك مفخرا
فممرت بالآمال أكرم أكرم ... ملكاً ورثت علاه أكبر أكبرا
وشمايل عبقت بها سبل الهدى ... وذرت على الآفاق مسكاً أذفرا
أهدى إلى شغف القلوب من الهوى ... وألذ في الأجفان من طعم الكرى
ومشاهد لك لم تكن أيامها ... ظناً يريب ولا حديثاً يفترى
لاقيت فيها الموت أسود أدهما ... فذغرته بالسيف أبيض أحمرا
ولو اجتلى في زي قرنك معلماً ... لتركته تحت العجاج معفرا
يا من تكبر بالتكرم قدره ... حتى تكرم أن يرى متكبرا
والمنذر الأعداء بالبشرى لنا ... صدقت صفاتك منذرا ومبشرا
ما صور الإيمان في قلب امرئ ... حتى يراك الله فيه مصورا
فارفع لها علم الهدى فلمثلها ... رفعتك أعلام السيادة في الذرى
وانصر نصرت من السماء فإنما ... ناسبت أنصار النبي لتنصرا
واسلم ولا وجدوا لجوك منفساً ... في النائبات ولا لبحرك معبرا

سيرته

قال، وساس لأول ولايته عظيم الفرنجة. فحفظت أطرافه، وبلغ من استمالته طوايف النصرانية، أن جرى على يديه بحضرته. عقد مصاهرة بعضهم، فقرفته الألسنة لسعيه في نظام سلك النصارى. وعمر به الثغر إلى أن ألوت به المنية. وقد اعترف له الناس بالرأي والسياسة.

كتابه. واستكتب عدة كتاب كابن ملور وابن أزرق. وابن واحب وغيرهم.

وصوله إلى غرناطة

وصل غرناطة صحبة الأمير المرتضى الآتي ذكره، وكان ممن انهزم بانهزامه. وذكروا أنه مر بسليمان بن هود، وهو مثبت للإفرنج الذين كانوا في المحلة لا يريم موقفه، فصاح به النجاة، يا بن الفاعلة، فلست أقف عليك، فقال له سليمان، جيت والله بها صلعاً، وفضحت أهل الأندلس، ثم انقلع وراءه.

وفاته

وكانت على يدي رجل من أبناء عمه يدعى عبد الله بن حكم، كان مقدماً في قواده، أضمر غدره، فدخل عليه، وهو غافل في غلالة، ليس عنده إلا نفر من خواص خدمه الصقلب، قد أكب على كتاب يقرؤه، فعلاه بسكين أجهز به عليه. وأجفل الخدم إلا شهم منهم أكب عليه فمات معه. وملك سرقسطة، وتمسك بها أياما، ثم فر عنها، وملكها ابن هود. وكان الإيقاع به غرة ذي حجة سنة ثلاثين وأربعمائة، رحمة الله عليه.

موسى بن يوسف بن عبد الرحمن

بن يحيى بن يغمراسن بن زيان

الأمير بتلمسان، يكنى أبا حمو.

أوليته

أوليته معروفة تنظر فيما سلف من الأسماء.

حاله

هذا السلطان مجمع على حزمه، وضمه لأطراف ملكه. واضطلاعه بأعباء ملك وطنه، وصبره لدولة قومه. وطلوعه بسعادة قبيله. عاقل، حازم، خصيف، ثابت الجأش، وقور مهيب، جماعة للمال، مباشر للأمور، هاجر للذات، يقظ، متشمر. قام بالأمر غرة ربيع الأول في عام ستين، مرتاش الجناح بالأحلاف من عرب القبلة، معولاً عليهم عند قصد عدوه، وحلب ضرع الجباية، فأثرى بيت ماله، ونبهت دولته، واتقته جيرته، فهو اليوم ممن يشار إليه بالسداد.

أدبه وشعره

ووجه لهذا العهد في جملة هدايا ودية، ومقاصد سنية، نسخة من كتابه المسمى بواسطة السوك في سياسة الملك، افتتحه بقوله: الحمد لله الذي جعل نعمته على الخلق، بما ألفهم عليه من الحق، شاملة شايعة، ويسر طوايف من عباده لليسرى، فأتت إليها مساعدة مسارعة، وحضهم على الأخذ بالحسنى، ولا أن أحسن من نفوس أرشدت، فأقبلت لإرثها طالبة ولربها طايعة. ولا أسمى من همم نظرت بحسن السياسة ي تدبير الرياسة، التي هي لأشتات الملك جامعة، ولأسباب الملك مانعة، وأظهرت من معادنها درر الحكم، وغرر الكلم لايحة لامعة، فاجتلت أقمارها طالعة، واجنت أزهارها يانعة. وصلى الله على سيدنا محمد الكريم، المبعوث بالآيات البينات، ساطية ساطعة، والمعجزات المعجمات قاصمة لظهور الجاحدين قاطعة. الذي زويت له الأرض، فندانت أفكارها وهي نابية شاسعة، واشتاقت له المياه، فبرزت بين أصابعه يانعة، وامتثل السحاب أمره، فسح باستسقايه دراً هامية هامعة، وحن الجذع له، وكان حنينه لهذه الآيات الثلاث آية رابعة، إلى ما لا يحصى مما أتت به متواترات الأخبار، وصيحات الآثار، ناصرة لنبوته ساطعة. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وعترته التي أجابت داعي الله خاشية خاشعة، وأذعنت لأوامر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكانت من الاستبداد خالية، وللأنداد خالعه، صلاه ديمتها دايمة متتابعة، وسلم كثيرا. جمع فيه الكثير من أخبار الملوك وسيرهم، وخص به ولده وولي عهده، فجاء مجموعاً يستظرف من مثله، ويدل على مكانه من الأدب ومحله.

وثبت فيه الكثير من شعره، فمن ذلك قصيدة أجاب فيها أحد رؤوس القبايل، وقد طلب منه الرجوع إلى طاعته، والانتظام في سلك جماعته، وهي:

تذكرت أطلال الربوع الطواسم ... وما قد مضى من عهد المتقادم
وقفت بها من بعد بعد أنسها ... بصبر مناف أو بشوق ملازم
تهيم بمغناهم وتندب ربعهم ... وأي فؤاد بعدهم غير هايم
تحن إلى سلمى ومن سكن الحمى ... وما حب سلمى للفتى بمسالم
فلا تندب الأطلال واسل عن الهوى ... ولا تقل في تذكار تلك المعالم
فإن الهوى لا يستفز ذوي النهى ... ولا يستبي إلا الضعيف العزايم

صبور على البلوى طهور من الهوى ... قريب من التقوى بعيد المآثم
ومن يبغ درك المعلوات ونيلها ... يساق بخلق الشهد مر العلاقم
ولايمة لما ركبنا إلى العلا ... بحار الردى في لجها المتلاحم
تقول بإشفاق أتنسى هوى الدما ... وتنثر درراً من دموع سواجم
إليك فإنا لا يرد اعتزامنا ... مقالة باك أو ملامة لايم
ألم تدر أن اللوم لوم وأننا ... لنجتنب اللوم اجتناب المحارم
فما بسوي العليا همنا جلالة ... إذا هام قوم بالحسان النواعم
بروق السيوف المشرفيات والقنا ... أحب إلينا من بروق المباسم
وأما صميل السابحات لذي الوغى ... فأشجى لدينا من غنا الحمايم
وأحسن من قد الفتاة وخدها ... قدود العوالي أو خدود الصوارم
إذا نحن جردنا الصوارم لم تعد ... إلا غمادها الأبحر الغلاصم
نواصل بين الهند وأني الطلا ... بتفريق ما بين الطلي والجماجم
فيرغب منا السلم كل محارب ... ويرهب منا الحرب كل مسالم
نقود إلى الهيجاء كل مضمر ... ونقدم إقدام الأسود الضراغم
وما كل من قاد الجيوش إلى العدا ... يعود إلى أوطانه بالغنائم
وننصر مظلوما ونمنع ظالما ... إذا شيك مظلوم بشوكة ظالم
ويأوي إلينا المستجير ويلتجي ... ويحميه منا كل ليث صيارم
ألم تر إذ جاء السبيعي قاصدا ... إلى بابنا يبغي التماس المكارم
وذلك لما أن جفاه صحابه ... وكل خليل وده غير دايم
وأزمع إرسالاً إلينا رسالة ... بإخلاص ود واجب غير واجم
وكان رأى أن المهامة بيننا ... فخلى لذات الخف ذات المناسم
وقال ألا سل من عليم مجرب ... أبث له ما تحت طي الحيازم
فيبلغ عنه الآن خير رسالة ... تودي إلى خير الملوك الأعاظم
على ناقة وجناء كالحرف ضامر ... تخيرها بين القلاص الرواسم
من اللايي يظلمن الظليم إذا عدى ... ويشبهه في جيده والقوايم

إذا أتلعت فوق السحاب جوابها ... تخليتها تعض السحاب الرواكم
وإن هلمجت بالسير في وسط مهمه ... نزلت كمثل البرق لاح لشايم
ولم يأمن الخلان بعد اختلالهم ... فأمسى وفي أكبادها أي جاحم
فقالوا فحملها الحمايم قال لا ... لبعد المدا أو خوف صيد الحمايم
وما القصد إلا في الوصول بسرعة ... فقالوا فحملها أكف النواسم
فقال لنعم المرسلات وإنما ... لها ألسن مشهورة بالنمايم
فلم يلف فيها للأمانة موضعا ... وكل امرئ للسر ليس بكاتم
فحينئذ وافى إلينا بنفسه ... فكان لدينا خير واف وقادم
يجوب إلينا البيداء قصداً وبشرنا ... يضيء له الظلماء في كل عاتم
طلاب العلا تسري مع الوحش في الفلا ويصحب منها كل باغ وباغم
على سلهب ذي صوتين مطعم ... من المغربات الصافنات الصلادم
إذا شاء أي الوحش أدركه به ... فنحسبه في البيد بعض النعايم
ويقدمه طوعاً إلينا رجلؤه ... حمايتنا إياه من كل ظالم
ألا أيها الآتي لظل حناننا ... نزلت برحب في عراص المكارم
وقوبلت منا بالذي أنت أهله ... وفاض عليك الجود فيض الغمايم
كذا دأبنا للقادمين محلنا ... حمى ونداً ينسي به جود حاتم
وهذا جواب عن نظامك إننا ... بعثنا به كاللؤلؤ المتناظم
ونحن ذوو التيجان من آل حمير ... لعمرك ما التيجان غير العمايم

بهمتنا العليا سمونا إلى العلا ... وكم دون إدراك العلا من ملاحم
شددنا لها أزراً وشدنا بناءها ... وكم مكثت دهراً بغير دعائم
نظمنا شتيت المجد بعد افتراقه ... وكمم بات نهباً شمله دون ناظم
ورضنا جياد الملك بعد افتراقه ... وكم بات نهباً شمله دون ناظم
ورضنا جياد الملك بعد جماحها ... فذلت وقد كانت صعاب الشكايم
مناقب زيانية موسوية ... يذل لها عز الملوك القماقم
يقصر عن إدراكها كل مبتغ ... ويعجز عن إحصايها كل ناظم
فلله منا الحمد والشكر دايماً ... وصلى الله على المختار من آل هاشم
ونختصكم منا السلام الأثير ما ... تضاحك روض عن بكاء الغمايم

قلت، ولما تعرفت كلفه بالأدب، والإمام بمجاورته، عزمت على لقايه، وتشوقت عند العزم على الرحلة الحجازية، إلى زيارته، ولذلك كنت أخاطبه بكلمة منها:

على قدر قد جيت قومك يا موسى ... فجلت بك النعمى وزالت بك البوسى

فحالت دون ذلك الأحوال. وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد. وفقه الله، وساير من تولى أمراً من أمور المسلمين. وجرى ذكره في رجز الدول من نظمي:

بادرها المفدى الهمام موسى ... فأذهب الرحمن عنها البوسى

جدد فيها الملك لما أخلقا ... وبعث السعد وقد كان لقا
ورتب الرتبا والرسوما ... وأطلع الشموس والنجوما
واحتجن المال بها والعدة ... وهو بها باق لهذي المدة
ولد بمدينة غرناطة حسبما وقعت عليه بخط الثقة من ناسه، في أول عام ثلاثة وعشرين وسبعماية.
مبارك ومظفر الأميران

موليا المنصور بن أبي عامر

حالهما

قال أبو مروان، ترقيا إلى تملك بلنسية من وكالة الساقية، وظهر من سياستهما وتعارضهما صحة الألفة طول حياتهما، ما فاتا به في معناها أشقاء الأخوة، وعشاق الأحبة، إذ نزلا معاً بقصر الإمارة مختلطين، تجمعهما مائدة واحدة من غير تميز في شيء، إلا الحرم خاصة. وكان التقدم لمبارك في المخاطبة، وحفظ رسوم الإمارة، أفضل صرامة وذكراً، قصر عنهما مظفر، للمائه خلقه، وانحطاطه لصاحبه في ساير أمره، على نحلته بكتابة ساذجة وفروسة، فبلغا الغاية من اقتناء الأسلحة والآلات الملوكية، والخيل المغربات، ونفيس الحلى والحلل، وإشادة البناء للقصور. واشتمل هذا الرأي على جميع أصحابهم، ومن تعلق بهما من وزرايهما وكتابهما، ولم يعرض لهما عارض إنفاق بتلك الآفاق، فانغمسا في النعيم إلى قمم رؤوسهما حتى انقضى أمرهما.
قال، وكان موت مبارك أنه ركب يوماً من قصر بلنسية، وقد تعرض أهلها مستغيثين من مال افترضه عليهم، فقال لهم، إن كنت لا أريد إنفاقه فيما يعم المسلمين نفعه، فلا تؤخر عقوبتي يومي هذا. وركب إثر ذلك. فلما أتى القنطرة، وكانت من خشب، خرجت رجل فرسه من خلها فرمى به أسفلها، واعترضته خشبة ناتئة شرخت وجهه، وسقط الفرس عليه، ففاضت نفسه، وكفاهم الله أمره يومئذ.
وفي مبارك ومظفر يقول أبو عمرو بن دراج القسطلي رحمه الله:
أنورك أم أوقدت بالليل نارك ... لباغ قراك أو لباغ جوارك
ورياك أم عرف المجامر أشعلت ... بعود الكباء والألوة نارك
ومبسمك الوضاح أم ضوء بارق ... حداه دعائي أن يجود ديارك
وخلخالك استنضيت أم قمر بدا ... وشمس تبدت أم ألحت سوارك
وطرة صبح أم جبينك سافرا ... أعرت الصباح نوره أم أعارك
وأنت هجرت الليل إذ هزم الضحى ... كتائبه والصبح لما استجارك
فللصبح فيما بين قرطيك مطلع ... وقد سكن الليل البهيم خمارك
فيا لنهار لا يغيض ظلامه ... وبالظلام لا يغيض نهارك
ونجم الثريا أم لآل تقسمت ... يمينك إذ ضمختها أم يسارك
لسلطان حسن في بديع محاسن ... يصيد القلوب النافرات نفارك

وجند غرام في دروع صبابة ... تقلدن أقدار الهوى واقتدارك
هو الملك لا بلقيس أدرك شأوها ... مداك ولا الزباء شقت غبارك

وقادحة الجوزاء راعيت موهناً ... بحر هواك أم ترسمت دارك
وطيفك أسرى فاستثار تشوقي ... إلى العهد أم شوقي إليك استشارك
وموقد أنفاسي إليك استطارني ... أم الروح لمارد في استطارك
فكم جزت من بحر إلي ومهمة ... يكاد ينسي المستهام ادكارك
أذو الحظ من علم الكتاب حداك لي ... أم الفلك الدوار نحوي أدارك
وكيف كتمت الليل وجهك مظلماً ... أشعرك أعشيت السنا أم شعارك
وكيف اعتسفت البيد لافى ظعائن ... ولا شجر الخطي حف شجارك
ولا أذن الحي الجميع برحلة ... أراح لها راعي المخاض عشارك
ولا أرزمت خوص المهارى مجيبة ... صهيل جياد يكتنفن قطارك
ولا أذكت الركبان عنك عيونها ... حذار عيون لا ينمن حذارك
وكيف رضيت الليل ملبس طارق ... وما ذر قرن الشمس إلا استنارك
وكم دون رحلي من بروج مشيدة ... تحرم من قرب المزار مزارك
وقد زأرت حولي أسود تهامست ... لها الأسد أن كفى عن السمع زارك
وأرضي سيول من خيول مظفر ... وليلي نجوم من سماء مبارك
بحيث وجدت الأمن يهتف بالمنى ... هلمي إلى عينين جادا سرارك
هلمي إلى بحرين قد مرج الندى ... عبابيهما لا يسأمان انتظارك
هلمي إلى سيفين والحد واحد ... يجيران من صرف الحوادث جارك
هلمي إلى طرفي رهان تقدما ... إلى الأمد الجالي عليك اختيارك
هلمي إلى قطبي نجوم كتايب ... تنادي نجوم النحس غورى مغارك
وحيي على دوحين جاد نداهما ... ظلالك واستدني إليك ثمارك
وبشراك قد فازت قداحك بالعلا ... وأعطيت من هذا الأنام خيارك
شريكان في صدق المنى وكلاهما ... إذا قارن الأقران غير مشارك
هما سمعا دعواك يا دعوة الهدى ... وقد أوثق الدهر الخئون إسارك
وسلا سيوفاً لم تزل تلتظي أسى ... بثارك حتى أدركا لك ثارك
ويهنيك يا دار الخلافة منهما ... هلالان لاحا يرفعان منارك
كلا القمرين بين عينيه غرة ... أثارت كسوفيك وجلت سرارك
فقاد إليك الخيل شعثاً شوازيا ... يلبين بالنصر العزيز انتصارك
سوابق هيجاء كأن صهيلها ... يجاوب تحت الخافقات شعارك
بكل سرى العتق سرى عن الهدى ... وكل حمي الأنف أحمى ذمارك
تحلوا من المنصور نصراً وعزة ... فأبلوك في يوم البلاء اختيارك
إذا انتسبوا يوم الطعان لعامر ... فعمرك يا هام العدى لا عمارك
يقودهم منهم سراجاً كتايب ... يقولان للدنيا أجدى افتخارك
إذا افترت الريات عن غرتيهما ... فيا للعدى أضللت منهم فرارك

وإن أشرق النادي بنور سناهما ... فبشرى الأماني عينك لا ضمارك
وكم كشفنا من كربة بعد كربة ... تقول لها النيران كفي أوارك
وكم لبيا من دعوة وتداركا ... شفى رمق ما كان بالمتدارك
ويا نفس غاو كم أقر نفارك ... ويا رجل هاو كم أقالا عثارك
ولست ببدع حين قلت لهمتي ... أقلي لإعتاب الزمان انتظارك
فلله صدق العزم أية غرة ... إذا لم تطيعي في لعل اغترارك
فإن غالت البيد اصطبارك والسرى ... فما غال ضيم الكاشحين اصطبارك
ويا خلة التسويف قومي فأغدقي ... قناعك من دوني وشدي إزارك

وحسبك بي يا خلة الناي خاطري ... بنفسي إلى الحظ النفيس حطارك
فقد آن إعطاء النوى صفقة الهوى ... وقولك للأيام جوري مجارك
ويا ستر البيض النواعم أعلني ... إلى اليعملات والرحل بدارك
نواجى واستودعتهن نواجيا ... حفاظك يا هذي بذي وازدهارك
ودونك أفلاذ الفؤاد فشمري ... ودونك يا عين اللبيب اعتبارك
صرفت الكرى عنها بمغتبق السرى ... وقلت أديري والنجوم عقارك
فإن وجبت للمغربين جنوبها ... فداوي برقراق السراب خمارك
فأورى بزندي سدفة ودجنة ... إذا كانتا لي مرخك وعفارك
وإن خلع الليل الأصائل فاخلعي ... إلى الملكين الأكرمين عذارك
بلنسية مثوى الأماني فاطلي ... كنوزك في أقطارها وادخارك
سينبيك زجري عن بلاء نسيته ... إذا أصبحت تلك القصور قصارك
وأظفر سعي بالرضا من مظفر ... وبورك لي في حسن رأي مبارك
قصي المنى قد شام بارقة الحيا ... وانشقت يا ظئر الرجا حوارك
وحمداً يميني قد تملأت بالمنى ... وشكراً يساري قد حويت يسارك
وقل لسماء المزن إن شئت اقلعي ... ويا أرضها إن شيت غيضي بحارك
ولا توحشي يا دولة العز والمنى ... مساءك من نوريهما وابتكارك
وصولهما إلى غرناطة

وصلا مع أمثالهما من أمراء الشرق صحبة المرتضى، وكان من انهزام الجميع بظاهرها، وإيقاع الصناهجة بهم ما هو معلوم حسبما مر ويأتي بحول الله.
ومن ترجمة الأعيان والوزراء بل ومن ترجمة الطارئين والغرباء منها
منصور بن عمر

بن عثمن بن يعقوب بن عبد الحق بن محيو

يكنى أبا علي

أوليته

معروفة قد مرت عند ذكر اخوته وقومه.

حاله

كان رحمه الله فتى القوم، لسناً، مفوهاً، مدركاً، متعاطياً للأدب والتاريخ، مخالطاً للنبلاء، متسورا خلق العلماء، غزلاً، كلفاً بالدعابة، طرفة من طرف أهل بيته، قوي الشكيمة، جواداً بما في وسعه، متناهياً في البدانة. دخل غرناطة في الجملة من إخوانه وبني عمه، مغربين عن مقر الملوك بالمغرب، وأقام بها إلى شهر ربيع الأول من عام ثلاثة وستين وسبعماية. وركب البحر في الخامس والعشرين منه، عندما لحق أخوه عبد الحكيم بالمغرب، وبايعه الناس، ولاحت له بارقة، لم تكد تقد حتى خبت، فبادر إلى مظاهرته في جفن غزوي من أسطول الأندلس، وصحبه قوم ممن يخطب الخطط، ويبتدر رمق الدول، وهال عليهم البحر، فطرح الجفن بأحواز غساسة، وقد عادتها ملكة عدوهم، فتقبض عليه، وأدخل مدينة فاس، في الثاني لربيع الآخر من العام، مشهور المركب على الظهر، يضرب بين يديه طبل للشهرة، وناقور المثلة، وأجلس بين يدي السلطان، فأبلى بما راق الحاضرين من بيانه من العذر للخروج بالاستمالة حتى لرجي خلاصه، واستقر مثقفاً تتعلق به الأراجيف، ويحوم حول مطرحة الاختبار إلى حين وفاته.

شعره

أنشدني الفقيه الأديب أبو بكر بن أبي القاسم بن قطبة من شعره، وكان صاحبه في الرحلة، ومزامله في أسطول المنحسة، وذلك قوله:

سوف ننال المنى ونرقى ... مراقي العز والمعال

إذا حططنا بأرض فاس ... وحكمت في العدى العوال

فأنت عندي بها حقيق ... يا حايز الفضل والكمال

وفاته

في وسط جمادى الأولى من العام. دخل عليه في بيت معتقله فقتل، ودفن ببعض مدافنهم. رحمة الله عليه.

مقاتل بن عطية البرزالي

يكنى أبا حرب، وقال فيه أبو القاسم الغافقي، من أهل غرناطة، ويلقب بذي الوزارتين، ويعرف بالريه لحمرة كانت في وجهه.

حاله

كان من الفرسان الشجعان لا يصطلى بناره، وكان معه من قومه نحو من ثلاث ماية فارس من بني برزال. وولاه الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس مدينة اليسانة، والتقى به ابن عباد وأخذ بمخنقها، وكان عبد الله يحذره. وعندما تحقق حركة اللمتونيين إليه صرف عن جهته، فقل لذلك ناصره، وأسرع ذهاب أمره.

شجاعته

قال، وحضر مقاتل مع عبد الله بن بلقين أمير غرناطة وقيعة النيبل في صدر سنة ثمان وسبعين وأربع ماية، فأبلى فيها بلاء عظيما، وجرح وجهه، ومزق دعه بالطعن والضرب. وذكر من حضرها ونجا منها، قال، كنت قد سقط الرمح من يدي ولم أشعر، وحملت الترس ولم أعلم به، وحملني الله إلى طريق منجاة فركبتها، مرة أقع ومرة أقوم، فأدركت فارساً على فرس أدهم ورمحه على عاتقه، ودرقته على فخذه، ودرعه مهتكة بالطعن، وبه جرح في وجهه ينعب دما

تحت مغفره، وهو مع ذلك ينهض على رسله، فرجعت إلى نفسي فوجدت ثقلاً، فتذكرت الترس، فأخرجت حمالته عن عاتقي، وألقيته عني، فوجدت خفة، وعدت إلى العدو، فصاح ذلك الفارس، خذ الترس، قلت لا حاجة لي به، فقال خذه، فتركته ووليت مسرعا، فهمز فرسه ووضع سنان رمحه بين كتفي، وقال خذ الترس، وإلا أخرجته بين كتفيك في صدرك، فرأيت الموت الذي فررت منه، ورجعت إلى الترس فأخذته، وأنا أدعو عليه، وأسرعت عدواً، فقال لي على ما كنت فليكن عدوك. فاستعذت وقلت، ما بعثه الله إلا لهلاكي، وإذا قطعة من خيل الروم قد بصرت به، فوقع في نفسه أنه يسرع الجري فيسلم وأقتل، فلما ضاق الطلق ما بينه وبين أقربهم منه، عطف عليه كالعقاب، وطعنه ففطره، وتخلص الرمح منه، ثم حمل على آخر فطعنه، ومال على الثالث فانهزم منه، فرجع إلي، وقد بهت من فعله، ورشاش دم الجرح، يتطاير من قناع المغفر لشدة نفسه، وقال لي يا فاعل يا صانع أتلقي الرمح ومعك مقاتل الريه.

انتهى اختصار السفر الثامن والحمد لله رب العالمين يتلوه في اختصار التاسع بعده ومن ترجمة القضاة مؤمل بن رجا بن عكرمة بن رجا العقيلي من إلبيرة ومن السفر التاسع من ترجمة القضاة

مؤمل بن رجاء بن عكرمة

بن رجاء العقيلي

من إلبيرة

حاله

كان شيخاً مضعوفاً يغلب عليه البله، من أهل التعين والحسب والأصالة، عريقاً في القضاء، قاض ابن قاض ابن قاض. ولى قضاء إلبيرة، للأمير محمد.

من حكاياته: رفعت إليه امرأة كتاب صداقها، فقال الصداق مفسوخ، وأنتما على حرام، فافترقا، فرق الله بينكما. ثم رمى بالصداق إلى من حوله، وقال عجباً لمن يدعي فقهاً ولا يعلمه، أو يزعم أنه بوثق ولا يتقنه، مثل أبي فلان وهو في المجلس يكتب هذا الصداق، وهو مفسوخ، ما أحقه أن يغرم ما فيه. فدار الصداق على يدي كل من حضر، وكل يقول ما أرى موضع فسخ، فقال أنتم أجهل من كاتبه، لكني أعذركم، لأن كل واحد منكم، يستر على صاحبه خطأه، أنظروا وأمنحكم اليوم، فنظروا فلم يجدوا شيئاً يوجب فسخاً. فدنا منه محمد ابن فطيس الفقيه، فقال أصلح الله القاضي، إن الله منحك من العلم والفهم، ما نحن مقرون بالعجز عنه، فأفدنا هذه الفايدة، فقال، ادن فدنا منه، فقال، أو ليس في الصداق " ولا يمنعها زيارة ذوي محارمها، ولا يمنعهم زيارتها بالمعروف " ، ولولا معرفتي بمحبتك ما أعلمتك. فشكره الشيخ. وأخذ بطرف لحيته يجره إليه حتى قبلها. وكان عظيم اللحية طويلها، شيمة أهل هذه الطبقة. قال ابن فطيس، أنا المخصوص بالفايدة، ولا أعرف بها إلا من تأذن بتعريفه إياها، فتبسم القاضي معجباً بما رأى، وشفعوا إليه أن لا يفسخ الصداق، وقيل للزوجين، لا تطلبا به عنده شيئاً. وولى قضاء جيان.

ومن الطاربين والغربا

المهلب بن أحمد بن أبي صفرة الأسدي

من أهل ألمرية يكنى أبا القاسم.

حاله

كان من أدهى الناس وأنصحهم، ومن أهل التعين والعناية التامة، واستقضى بألمرية.

مشيخته

سمع من أبي محمد الإصبهاني، ورحل وروى عن أبي ذر الهروي.

تواليفه: ألف كتاباً في شرح البخاري، أخذه الناس عنه.

وفاته: توفي سنة ست وثلاثين وأربعمائة. وقيل سنة .....

ومن ترجمة الكتاب والشعراء وهم الأصليون

مالك بن عبد الرحمن

بن علي بن عبد الرحمن بن الفرج بن أزرق بن سعد بن سالم بن الفرج

المنزل بوادي الحجارة بمدينة الفرج المنسوبة إليه الآن.

قالا ابن عبد الملك، كذا كتب لي بخطه بسبتة، وهو مصمودي ثم شصادى مولى بني مخزوم، ما لقي، سكن سبتة طويلاً ثم مدينة فاس، ثم عاد إلى سبتة مرة أخرى، وبآخرة فاس، يكنى أبا الحكم وأبا المجد، والأولى أشهر، ويعرف بابن المرحل، وصف جرى على جده على بن عبد الرحمن لما رحل من شنتمرية حين إسلامها للروم عام خمسة وستين وخمسماية.

حاله

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير، شاعر رقيق مطبوع، متقدم، سريع البديهة، رشيق الأغراض، ذاكر للأدب واللغة. تحرف مدة بصناعة التوثيق ببلده، وولى القضاء مرات بجهات غرناطة وغيرها. وكان حسن الكتابة إذا كتب، والشعر أغلب عليه. وذكره ابن خلاد، وابن عبد الملك، فأما ابن عبد الملك فلم يستوف له ما استوفى لغيره. وأما ابن خلاد فقصر به، إذ قال، كانت نشأته بمالقة بلده، وقرارة مولده في ناسها ووسط أجناسها، لم يتميز بحسب، ولم يتقدم في ميدان نسب، وإنما أنهضه أدبه وشعره، وعوضه بالظهور من الخمول نظمه ونثره، فطلع في جبين زمانه غرة منيرة، ونصع في سلك فصحاء أوانه درة خطيرة، وحاز من جيله رتبة التقديم، وامتاز في رعيله بإدراك كل معنى وسيم. والإنصاف فيه منا ثبت لي في بعض التقييدات وهو، الشيخ المسن المعمر الفقيه، شاعر المغرب، وأديب صقعه، وحامل الراية، المعلم بالشهرة، المثل في الإكثار، الجامع بين سهولة الفظ، وسلاسة المعنى، وإفادة التوليد، وإحكام الاختراع، وانقياد القريحة، واسترسال الطبع، والنفاذ في الأغرض. استعان على ذلك بالعلم بالمقاصد اللسانية، لغة وبياناً وعربية وعروضاً، وحفظاً واضطلاعاً، إلى نفوذ الذهن، وشدة الإدراك، وقوة العارضة، والتبريز في ميدان اللوذعية، والقحة والمجانة، والمؤيد ذلك بخفة الروح، وذكاء الطبع، وحرارة النادرة، وحلاوة الدعابة، يقوم على الأغربة والأخبار، ويشارك في الفقه، ويتقدم في حفظ اللغة، ويقوم على الفرايض. وتولى القضاء. وكتب عن الأمراء، وخدم واسترفد، وكان مقصوداً من رواة العلم والشعر، وطلاب الملح، وملتمسي الفوايد، لسعة الذرع وانفساح المعرفة، وعلو السن، وطيب المجالسة، مهيباً مخطوب السلامة، مرهوباً على الأعراض، في شدقه شفرته وناره، فلا يتعرض إليه أحد بنقد، أو أشار إلى قناته بغمز، إلا وناط به آبدة، تركته في المثلات، ولذلك بخس وزنه، واقتحم حماه، وساءت بمحاسنه القالة، رحمه الله وتجاوز عنه.

مشيخته

تلا بالسبع على أبي جعفر بن علي الفخار، وأخذ عنه بمالقة وعن غيره. وصحب وجالس من أهلها، أبا بكر عبد الرحمن بن علي بن دحمان، وأبا عبد الله الإستجي، وابن عسكر، وأبا عمرو بن سالم، وأبا النعيم رضوان بن خالد، وانتفع بهم في الطريقة. وبفاس أبا زيد اليرناسني الفقيه. ولقى بإشبيلية أبا الحسن بن الدباغ، وأبا علي الشلوبين، وأبا القاسم بن بقى، وأجازوا له. وروى عنه أبو جعفر بن الزبير، والقاضي أبو عبد الله بن عبد الملك وجماعة.

دخوله غرناطة

قال ابن الزبير، تكرر قدومه علينا بغرناطة، وآخر انفصالاته عنها آخر سنة أربع وسبعين وستماية، وقال لي حفيده أبو الحسين التلمساني من شيوخنا، أنشد السلطان الغالب بالله، بمجلسه للناس من المقصورة بإزاء الحمراء، قبل بناء الحمراء. وقال غيره أقام بغرناطة، وعقد بها الشروط مدة. وقال لي سيخنا أبو الحسن الجياب، ولي القضاء بجهات من البشارات، وشكى للسلطان بضعف الولاية، فأضاف إليه حصن أشكر يانتشر، وأمر أن يهمل هذا الاسم ولا يشكل، فقال أبو الحكم رحمه الله عند وقوفه عليه، قال لي السلطان في تصحيف هذا الاسم، " أشكر يا تيس " وهي من المقاصد النبيلة.

تواليفه

وهي كثيرة متعددة، منها شعره، والذي دون منه أنواع. فمنهمختاره، وسماه بالجولات. ومنه، الصدور والمطالع. وله العشريات والنبويات على حروف المعجم، والتزام افتتاح بيوتها بحرف الروى، وسماها، الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والأخرى. وعشرياته الزهدية. وأرجوزته المسماة سلك المنخل لمالك بن المرحل نظم فيها منخل أبي القاسم بن المغربي، والقصيدة الطويلة المسماة بالواضحة، والأرجوزة المسماة اللؤلؤ المرجان والموطأة لمالك.

والأرجوزة في العروض. وكتابه في كان مإذا، المسمى بالرمي بالحصا، إلى ما يسق إحصاره، من الأغراض النبيلة، والمقاصد الأدبية.

شعره

قال القاضي أبو عبد الله بن عبد الملك، كان مكثراً من النظم، مجيداً، سريع البديهة، مستغرق الفكرة في قرضه، لا يفتر عنه حينا من ليل أو نهار. شاهدت ذلك وأخبرني أنه دأبه، وأنه لا يقدر على صرفه من خاطره، وإخلاء باله من الخوض فيه، حتى كان من كلامه في ذلك، أنه مرض من الأمراض المزمنة، واشتهر نظمه، وذاع شعره، فكلفت به ألسنة الخاصة والعامة، وصار رأس مال المستمعين والمغنين، وهجير الصادرين والواردين، ووسيلة المكدين، وطراز أوراد المؤذنين وبطايقة البطالين، ونحن نجتزئ منه بنبذ من بعض الأغراض تدل على ما وراءها إن شاء الله. فمن ذلك في غرض النسيب:

دنف تستر بالغرام طويلاً ... حتى تغير رقة ونحولا
بسط الوصال فما تمكن جالسا ... حتى أقيم على البساط دليلا
يا سادتي مإذا الجزا فديتكم ... الفضل لو غير الفتى ما قيلا
قالوا تعاطى الصبر عن أحبابه ... لو كان يصبر للصدود قليلا
ما ذاق إلا شربة من هجرنا ... وكأنه شرب الفرات شمولا
أيقول عشت وقد تملكه الهوى ... لو قال مت لكان أقوم قيلا
حلف الغرام بحبنا وجمالنا ... إن لم يدعه ميتاً فعليلا
إن الجفون هي السيوف وإنما ... قطعتن فلم تسمع لهن صليلا

قل للحبيب ولا أصرح باسمه ... مإذا الملال وما عهدت ملولا
بين وبينك ذمة مرعية ... أتراك تقطع حبلها الموصولا
ولكم شربت صفا ودك خالصاً ... ولبست ظلا من رضاك ظليلا
فيا غصن بان بان عني ظله ... عند الهجير فما وجدت مقيلا
إعطف على المضني الذي ... أحرقته في نار هجرك لوعة وغليلا
فارقته فتقطعت أفلاذه ... شوقاً وما ألفى إليك سبيلا
لو لم يكن منك التغير لم يسل ... بالناس لو حشروا إليه قبيلا
يا راحلاً عني بقلب مغضب ... أيطيق قلبي غضبة ورحيلا
قل للصبا هيجت أشجان الصبا ... فوجدت يا ريح القبول قبولا
هل لي رسول في الرياح فاز من ... فارقته بعث النسيم رسولا
يا ليت شعري أين قر قراره ... يا قلب ويك أما وجدت دليلا
إن لم يعد ذاك الوصال كعهدنا ... نكلت عيني بالبكا تنكيلا
وقال نسيباً ومدحاً:
أعدى على هواه خصم جفونه ... مالي به قبل ولا بفنونه
إن لم تجرني منه رحمة قلبه ... من ذا يجير عليه ملك يمينه
صاب من الأتراك أصبى مهجتي ... فعبدت نور الحسن فوق جبينه
متمكن في الحسن نون صدغه ... فتبين التمكين في تنوينه
تنساب عقرب صدغه في جنة ... لم يجن منها الصب غير منونه
ولوى ضفيرته فولى مدبراً ... فعل الكلم ارتاع من تبينه
قد أطمعتني فيه رقة خده ... لو أمكنتني فيه رقة دينه
ورجوت لمن قوامه لو لم يكن ... كالرمح شدة طعنه في لينه
شاكي السلاح وما الذي في جفنه ... أعدى على من الذي يجفونه
ناديته لما ندت لي سينه ... وشعرت من لفظ السلام بسينه
رحماك في دنف غدا وحياته ... مماته وحراكه كسكونه
إن لم تمن علي منة راحم ... فمناه أن يلقاه ريب منونه
ولذا أبيت سوى سمات علوه ... فأمانه من ذاك ظهر أمونه
سننيخها في باب أروع ماجد ... فيرى محل الفصل حق يقينه
حيث المعارف والعوارف والعلا ... في حد مجد جامع لفنونه
بدر وفي الحسن بن أحمد التقت ... نجب مررن على العطا بركوبه
تبغي مناها في مناها عنده ... وتطوف بالحاجات عند حجونه
فرع من الأصل اليماني طيب ... ورث البيان وزاد في تبيينه

يبدى البشاشة في أسرة وجهه ... طوراً ويحمى العز في عرنينه
بسطت شمايله للزمان كمثل ما ... بسط الغنا نفوسنا بلحونه

يثنى عليه كل فعل ساير ... كالمسك إذ يثنى على دارينه

ومن النسيب قوله:

هو الحبيب قضى بالجور أم عدلا ... لبي الخيار وأما في هواه فلا

تالله ما قصر العذال في عذلي لكن ... أبت أذني أن تسمع العذلا

أما السلو فشيء لست أعرفه ... كفى بخلك غدراً أن يقال سلا

جفون غيري أصحت بعد ما قطرت ... وقلب غيري صحا من بعد ما ثملا

وغصن بان تثنى من معاطفه ... سقيته الدمع حتى أثمر العذلا

آثره نسيم الشعر آونة ... فكلما مال من أعطافه اعتدلا

أملت والهمة العلياء طامحة ... وليس في الناس إلا آمل أملا

وقال إيهاً طفيلي ومقترح ... ألست عبدي ومملوكي فقلت بلا

ما من تحدث عن حسنى وعن كلفي ... بحسنه وبحبي فأضرب المثلا

نيطت خدي خوف القبض من ملكه ... إذا أشار بأدنى لحظه قتلا

تقبل الأرض أعضائي وتخدمه ... إذا تجلى بظهر الغيب واتصلا

يا من له دولة في الحسن باهرة ... مثلي ومثل فؤادي يخدم الدولا

ومن نظمه في عروض يخرج من دوبيتي مجزواً مقصرا قوله: وملحه في اختراع الأعاريض كثيرة:

الصب إلى الجمال مايل ... والحب لصدقه دلايل

والدمع لسايلي جواب ... إن روجع سائل بسائل

والحسن على القلوب وال ... والقلب إلى الحبيب وايل

لو ساعد من أحب سعد ... ما حال من الحبيب حايل

يا عاذلي إليك عني لا ... تقرب ساحتي العواذل

ما نازلني كمثل ظبي ... يشفى بلحظة المنازل

ما بين دفونه حسام ... مخارقه له حمايل

والسيف يبت ثم ينبو ... واللحظ يطبق المفاصل

والسهم يصيب ثم يخطي ... واللحظ يمر في المقاتل

مهلاً فدمي له حلال ... ما أقبل فيه قول قايل

إن صدني فذاك قصدي ... أو جدلني فلا أجادل

يا حسن طلوعه علينا ... والسكر بمعطفيه مايل

ظمآن مخفف الأعالي ... ريان مثقل الأسافل

قد ثم به شذا الغوالي ... إذ هب ونمت الغلايل

والطيب منبه عليه ... من كان عن العيان غافل

والغنج محرك إليه ... من كان مسكن البلابل

والسحر رسول مقلتيه ... ما أقرب عهده ببابل

والروض يعير وجنتيه ... ورداً كهواى غير حايل

واللين يهز معطفيه ... كالغصن تهزه الشمايل
والكاس تلوح في يديه ... كالنجم بأسعد المنازل
يسقيك بريقه مداما ... ما أملح ساقياً مواصل
يسبيك برقة الحواشي ... عشقاً ولكافة الشمايل
ما أحسن ما وجدت خداً ... إذ نجم صباى غير آفل
ومن مستحسن نزعاته:
يا راحلين وبي من قربهم أمل ... لو أغنت الحليتان لي القول والعمل
سرتم وسار اشتياقي بعدكم مثلاً ... من دونه السامران الشعر والمثل
وظل يعذلني في حبكم نفر ... لا كانت المحنتان الحب والعذل
عطفاً علينا ولا تبغوا بنا بدلاً ... فما استوى التابعان العطف والعمل
قد ذقت فضلكم دهراً فلا وأبي ... ما طاب لي الأحمران الخمر والعسل
وقد هرمت أسى من هجركم وجوى ... وشب مني اثنتان الحرص والأمل
غدرتم أو مللتم يا ذوي ثقتي ... لبيست الخصلتان الغدر والملل
قالوا كبرت ولم تبرح كذا غزلاً ... أرى بك الفاضحان الشيب والعزل

لم أنس يوم ما نادوا للرحيل ضحى ... وقرب المركبان الطرف والجمل
وأشرقت بهواديهم هوادجهم ... ولاحت الزينتان الحلى والحلل
وودعوني بأجفان ممرضة تغضها ... الرقبتان الخوف والخجل
كم عفروا بين أيدي العيس من بطل ... أصابه المضنيان الغنج والكحل
دارت عليهم كؤوس الحب مترعة ... وأبا المسكران الخمر والمقل
وآخرين اشتفوا منهم بضمهم ... يا حبذا الشافيان الضم والقبل
كأنما الروض منهم روضة أنف ... يزهى بها المثبتان السهل والجبل
من المسترق الروابي والوهاد بهم ... ما راقه المعجبان الخصر والكفل
يا حادي العيس خذني مأخذاً حسناً ... لا يستوي الضدان الريث والعجل
لم يبقى لي غير ذكر أو بكا طلل ... لو ينفع الباقيان الذكر والطلل
يا ليت شعري ولا أنس ولا جذل ... هل يرفع الطيبان الأنس والجذل
ومن قوله على لسان ألثغ ينطق بالسين ثاء ويقرأ بالرويين:
عمرت ربع الهوى بقلب ... لقوة الحب غير ناكس ث
لبثت فيه أجر ذيل النحول ... أحبب به للابس ث
إن مت شوقاً فلى غرام ... نباته بالسقام وادس ث
أما حديث الهوى فحق ... يصرف بلواه كل حادس ث
تعبت بالشوق في حبيب ... أنا به ما حييت بايس ث
يختال كالغثن ماس فيه ... طرف فأزرى كل مايس ث
دنيا ندت لكل وأي ... فهو لدنياه أي حارس ث

يلعب بالعاشقين طراً ... والكل راضون وهو عابس ث

ومن شعره في الزهد يصف الدنيا بالغرور والحذايح والزور:

يا خاطب الدنيا طلبت غروراً ... وقبلت من تلك المحاسن زورا

دنياك إما فتنة أو محنة ... وأراك في كلتيهما مقهورا

وأرى السنين تمر عنك سريعة ... حتى لأحسبهن صرن شهورا

بينا ثريك أهلة في أفقها ... أبصرتها في إثر ذاك بدورا

كانت قسياً ثم صرن دوايرا ... لا بد أن ترمى الورى وتدورا

يأتي الظلام فما يسود رقعة ... حتى ترى مسطورها منشورا

فإذا الصباح أتى ومد رادءه ... نقض المساء رداء المنثورا

يتعاقبان عليك هذا ناشر ... مسكاً وهذا ناشر كافورا

ما المسك والكافور إلا أن ترى ... من فعلك الإمساك والتكبيرا

أمسى على فوديك من لونيهما ... سمة تسوم كآبة وبسورا

حتى متى لا ترعوى وإلى متى ... أو ما لقيت من المشيب نذيرا

أخشى عليك من الذنوب فربما ... تلفى الصغير من الذنوب كبيرا

فانظر لنفسك إنني لك ناصح ... واستغفر المولى تجده غفورا

من قبل ضجعتك التي تلقى لها ... خد الصغار على التراب حقيرا

وقال في المنى المذكور:

إشف الوجد ما أبكى العيونا ... وأشفى الدمع ما نكأ الجفونا

فيا ابن الأربعين اركب سفيناً ... من التقوى فقد عمرت حينا

ونح إن كنت من أصحاب نوح ... لكي تنجو نجاة الأربعينا

بدا الشيب في فوديك رقم ... فيا أهل الرقيم أتسمعونا

لأنتم أهل كهف قد ضربنا ... على إذانهم فيه سنينا

رأيت الشيب يجري في سواد ... بياضاً لا كعقل الكاتبينا

وقد يجري السواد على بياض ... فكأن الحسن فيه مستبينا

فهذا العكس يوذن بانعكاس ... وقد أشعرتم لو تشعرونا

نبات هاج ثم يرى حطاماً ... وهذا اللحظ قد شمل العيونا

نذير جاءكم عريان يعدو ... وأنتم تضحكون وتلعبونا

أخي إلى متى هذا التصابي ... جننت بهذه الدنيا جنونا

هي الدنيا وإن وصلت وبرت ... فكم قطعت وكم تركت بنينا

فلا تخدعنك أيام تليها ... ليال واخشها بيضاً وجونا

فذاك إذا نظرت سلاح دنيا ... تعيد حراك ساكنها سكونا

وبين يديك يوم أي يوم ... يدينك فيه رب الناس دينا

فإما دار عز ليس يفنى ... وإما دار هون لن يهونا

فطوبى في غد للمتقينا ... وويل في غد للمجرمينا
وآه ثم آه ثم آه على نفسي أكررها مئينا
أخي سمعت هذا الوعظ أم ... لا ألا ليتني في السامعينا
إذا ما الوعظ لم يورد بصدق ... فلا خسر كخسر الواعظينا
وقال يتشوق إلى بيت الله الحرام، ويمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم:
شوق كما رفعت نار على علم ... تشب بين فروع الضال والسلم
ألفه بضلوعي وهو يحرقها ... حتى براني برياً ليس بالقلم
من يشتريني بالبشرى ويملكني ... عبداً إذا نظرت عيني إلى الحرم
دع للحبيب ذمامي واحتمل ... رمقي فليس ذا قدم من ليس ذا قدم
يا أهل طيبة طاب العيش عندكم ... جلورتم خير مبعوث إلى الأمم
عاينتم جنة الفردوس من كثب ... في مهبط الوحي والآيات والحكم
لنتركن بها الأوطان خالية ... ونسلكن لها البيداء في الظلم
ركابنا تحمل الأوزار مثقلة ... إلى محط خطايا العرب والعجم
ذنوبنا يا رسول الله قد كثرت ... وقد أتيناك فاستغفر لمجترم
ذنب يليه على تكراره ندم ... فقد مضى العمر في ذنب وفي ندم
نبكي فتشغلنا الدنيا فتضحكنا ... ولو صدقنا البكا شبنا دماً بدم
يا ركب مصر رويداً يلتحق بكم ... قوم مغاربة لحم على وضم
فيهم عبيد تسوق العيس زفرته ... لم يلق مولاه قد ناداه في النسم
يبغي إليه شفيعاً لا نظير له ... في الفضل والمجد والعلياء والكرم
ذاك الحبيب الذي ترجى شفاعته ... محمد خير خلق الله كلهم
ذاك الحبيب الذي ترجى شفاعته ... محمد خير خلق الله كلهم
صلى عليه إله الخلق ما طلعت ... شمس وما رفعت نار على علم
ومن مقطوعاته العجيبة في شتى الأغراض، وهي نقطة من قطر، وبلالة من بحر، قوله مما يكتب على حمالة سيف، وقد كلف بذلك غيره من الشعراء بسبتة. فلما رآها أخفى كل منظومه، وزعم أنه لم يأت بشيء، وهو المخترع المرقص:
جماله كرياض جاورت نهرا ... فأنبتت شجراً راقت أزاهرها
كحية الماء عامت فيه وانصرفت ... فغاب أولها فيه وآخرها
وقوله وقد تناول الرئيس ابن خلاص بيده مقصاً فأدمى يده فأنشده:
عداوة لا لكفك من قد نم ... فلا تعجب لقراض لئيم
لئن أدماك فهو لها شبيه ... وقد يسطو اللئيم على الكريم
وقوله في الخضاب:
سترت مشيبي بالخضاب تعللا ... فلم يحظ فشيب وراب خضابي
كأني وقد زورت لونا على الصبا ... أعنون طرساً ليس فيه كتاب
غراب خضاب لم يقف من حذاره ... وأغرب شيء في الحذار غراب

وقوله وهو من البديع المخترع:

لا بد من ميل إلى جهة فلا ... تنكر على الرجل الكريم مميلا

إن الفؤاد وإن توسط في الحشا ... ليميل في جهة الشمال قليلا

وقوله وهو معنى قد قيل فيه:

لا تعجبوا للمرء يجهل قدره ... أبداً ويعرف غيره فيصير

فالعين تبصر غيرها مع بعده ... ولكن نفسها لا تبصر

وقوله:

أرى المتعلمين عليك أعداء ... إذا أعلمتهم من كل عاد

فما عند الصغير سوى عقوق ... ولا عند الكبير سوى عناد

وقوله في وصفه ذي الجاه:

يضع الناس صاحب الجاه فيهم ... كل يوم في كفة الميزان

إن رأوه يوماً ترجح وزناً ... ضاعفوا البر فهو ذو رجحان

أو رأوا منه نقص حبة وزن ... ما كسوه في حبة الجلجلان

وأنشدنا عنه غير واحد من شيوخنا وقد بلغ الثمانين:

يا أيها الشيخ الذي عمره ... قد زاد عشراً بعد سبعينا

سكرت من أكؤس خمر الصبا ... فحدك الدهر ثمانينا

وقال: هيهات ما أظنه يكملها، وقال في الكبرة:

يا من لشيخ قد أسن وقد عفا ... مذ جاوز السبعين أضحى مدنفا

خانته بعد وفايها أعضاؤه ... فغدا قعيداً لا يطيق تصرفا

هرماً غريبا ما لديه مؤانس ... إلا حديث محمد والمصطفى

وكتب إلى القاضي أبي الحجاج الطرسوني في مراجعة:

يا سيدي شاكركم مالك ... قد صيرت ميم اسمه هاء

ومن يعش خمساً وتسعين ... قد أنهى في التعمير إنهاء

ومن نظمه في عرس، صنعها بسبتة على طريقه في المجانة:

الله أكبر في منار الجامع ... من سبتة تاذين عبد خاشع

الله أكبر للصلاة أقيمها ... بين الصفوف من البلاط الواسع

الله أكبر محرماً وموجهاً ... ودبرة إلى ربي بقلب خاضع

الحمد لله السلام عليكم ... آمين لا تفتح لكل مخادع

إن النساء خدعنني ومكرن بي ... وملأن من ذكر النساء مسامع

حتى وقعت وما وقعت بجانب ... لكن على رأس لأمر واقع

والله ما كانت إليه ضرورة ... لكن أمر الله دون مدافع

فخطبن لي في بيت حسن قلن لي ... وكذبن لي في بنت قبح شائع

بكراً زعمن صغيرة في سنها ... حسناء تسفر عن جمال بارع

خوداً لها شعر أثيث حالك ... كالليل تجلى عن صباح ساطع
حوراء يرتاع الغزال إذا رنت ... بجفون خشف في الخمايل رافع
تتلو الكتاب بغنة وفصاحة ... فيميل نحو الذكر قلب السامع
بسامة عن لؤلؤ متناسق ... في ثغرها في نظمه متتابع
أنفاسها كالراح فض ختامها ... من بعد ما ختمت بمسك رائع
شماء دون تفاوت عربية ... ببسالة وشجاعة ومنازع
غيداء كالغصن الرطيب إذا ... مشت ناءت بردف للتعجل مانع
تخطو على رجلي حمامة أيكة ... مخضوبة تسبي فؤاد السامع
ووصفن لي من حسنها وجمالها ... ما البعض منه يقيم عذر الخالع
فدنوت واستامنت بعد توحشي ... وأطاع قلب لم يكن بمطاوع
فحملنني نحو الولي وجئنني ... بالشاهدين وجلد كبش واسع
وبعرفه من نافع لتعادل ... والله عز وجل ليس بنافع
فشرطن أشراطاً علي كثيرة ... ما كمنت في حملي له بمطاوع
ثم انفصلت وعلمت بأنني ... أوثقت في عنقي لها بجوامع
وتركنني يوما وعدن وقلن لي ... خذ في البناء ولكن بمرافع
واصنع لها عرساً ولا تحوج إلى ... قاض عليك ولا وكيل رافع
وقرعتن سني عند ذاك ندامة ... ما كنت لولا خدعت بقارع
ولزمتني حتى انفصلت بموعد ... بعد اليمين إلى النهار الرابع
فلو أنني طلقت كنت موفقاً ... ونفضت من ذاك النكاح أصابع
لكن طمعت بأن أرى الحسن الذي ... زورن لي فذممت سوء مطامع
فنظرت في أمر البناء معجلا ... وصنعت عرساً يا لها من صانع
وطمعت بأن تجلى ويبصر وجهها ... ويقر عيني بالهلال الطالع
وظننت ذاك كما ذكرن ولم يكن ... وحصلت أيضاً في مقام الفازع
وحملنني ليلاً إلى دار لها ... في موضع عن كل خير سامع

دار خراب في مكان توحش ... ما بين آثار هناك بلاقع
فقعدت في بيت صغير مظلم ... لا شيء فيه سوى حصير الجامع
فسمعت حساً عن شمالي منكراً ... وتنحنحاً يحكى نقيق ضفادع
فأردت أن أنجو بنفسي هارباً ... ووثبت عند الباب وثبة جازع
فلقيتهن وقد أتين بجذوة ... فرددنني وحبسنني بمجامع
ودخلن بي في البيت واستجلسنني ... فجلست كالمضرور يوم زعازع
وأشرن لي نحو السما وقلن لي ... هذي زويبعة وبنت زوابع
هذي خليلتك التي زوجتها ... فاجلس هنا معها ليوم سابع
وبتنا النعمى التي خولتها ... فلقد حصلت على رياض يانع

فنظرت نحو خليلتي متأملا ... فوجدتها محجوبة ببراقع
وأتيتها وأردت نزع خمارها ... فغدت تدافعني بجد وازع
فوجلتها في صدرها وحذوته ... وكشفت هامتها بغيظ صارع
فوجدتها قرعاء تحسب أنها ... مقروعة في رأسها بمقارع
حولاء تنظر فوقها في ساقها ... فتخالها مبهوتة في الشارع
فطساء تحسب أن روثة أنفها ... قطعت فلا شلت يمين القاطع
صماء تدعى بالبريح وتارة ... بالطبل أو تؤتى لها بمقامع
بكماء إن رامت كلاما صوتت ... تصويت معزى نحو جدي راضع
فقماء إن تلتقي أسنانها ... تقسو إذا نطقت فساء الشابع
عرجاء إن قامت تعالج مشيها ... أبصرت مكشية ضالع أو خامع
فلقيتها وجعلت أبصق نحوها ... وأفر نحو ذجاً وغيث هامع
؟حيران أغدو في الزقاق كأنني لص أحس بطالب أو تابع
حتى إذا لاح الصباح وفتحوا ... باب المدينة كنت أول كاسع
والله مالي بعد ذاك بأمرها ... علم ولا بأمور بيتي الضايع
؟؟؟

نثره

وفضل الناس نظمه على نثره، ونحن نسلم ذلك من باب الكثرة، لا من باب الإجادة. وهذه الرسالة معلمة بالشهادة بحول الله.

كتب إلى الشيخين الفقيهين الأديبين البليغين أبي بكر بن يوسف بن الفخار وأبي القاسم خلف بن عبد العزيز القبتوري: لله دركما حليفي صفاء، وأليفي وفاء، يتنازعان كأس المودة، تنازع الأكفاء، ويتهاديان ريحان التحية بهادي الظرفاء. قسيمي نسب، وقريعي حسب، يتجاوزان بمطبوع من الأدب ومكتسب، ويتواردان على علم من الظرف ونسب، رضيعي لبان، ذريعي لبان، يحرزان ميراث قس وسحبان، ويبرزان من الذكاء، ما بان على أبان، قسيمي مجال، فصيحي روية وارتجال، يترعان في أشطان البلاغة، سجالاً بعد سجال، ويصرعان في ميدان الفصاحة رجالاً على رجال. ما بالكما لا حرمت حبالكما ولا قصمت نبالكما، لم تسمحا لي من عقودكما بدرء، ولم ترشحاني من نقودكما بدرة، ولم تفسحا لي بحلوة ولا مرة. لقد ابتليت من أدبكما بنهر أقربه ولا أشربه، وما أراده ولا أتبرده. ولو كنت من أصحاب طالوت لا فسحت لي غرفة، وأتيحت لي ترفة. بل لو كنت من الإبل ذوات الأظماء، ما جليت بعد الظماء عن الماء. ولا دخلت بالإشفاق مدخل العجماء. كيف وأنا و لا فخر في صورة إنسان، ناطق بلسان. أفرق بين الإساءة والإحسان. وإن قلت إن باعي في النظم قصير، وما لي على النثر ولي ولا نصير، وصنعة النحو عني بمعزل، ومنزل الفقيه ليس لي بمنزل، ولم أقدم على العلم القديم، ولا استأثرت من أهله بنديم. فأنا والحمد لله غني بصنعة الجفر، وأقتني اليراع كأنها شبابيك التبر، وأبرى البرية المغا تنيف على الشبر، وأزين خدود الأسطار المستوية، بعقارب اللامات الملتوية، ولا أقول كأنها، فلا ينكر السيدان أعزهما الله، أنها نعم بعود أزاعم، وبمثل شكسى تحضر الملاحم. فما هذا الازدراء والاجتراء في هذا الأمر مر المواقير. تالله لقد ظلمتماني

على علم، واستندتما إلى غير حلم، أما رهبتما شبابي، أما رغبتما في حسابي، أما رفعتما بين نفح صبابي، ولفح صبابي. لعمري لقد ركبتما خطراً، وهجتما الأسد بطراً، وأبحتما حمى محتضراً، ولم تمعنا في هذا الأمر نظراً.

أعد نظراً يا عبد قيس لعلما ... أضاءت لك النار الحمار المقيدا

ونفسي عين الحمار في هذا المضمار، لا أعرف قبيلا من دبير، ولا أفرق بحسي بين صغير وكبير، ولا أعهد أن حصاة الرمى أخف من ثبير، أليس في ذوي كبد رطبة أجر، وفي معاملة أهل التقوى والمغفرة تجر، وإذا خولتماني نعمة، أو نفلتماني نفلاً، فاليد العليا خير من اليد السفلى، وما نقص مال من صدقة، ولا جمال من لمح حدقة، والعلم يزيد بالإنفاق، وكنمه حرام باتفاق، فإن قلتما لي إن فهمك سقيم، وعوجك على الرياضة لا يستقيم، فلعل الذي نصب قامتي، يمن باستقامتي، وعسى الذي يشق سمعي وبصري، أن يزيل عي وحصرى، فأعي ما تقصان، وأجتلي ما تنصان، وأجني ثمار تلك الأغصان، فقد شاهدتما كثيراً من الحيوان، يناغي فتتعلم، ويلقن فيتكلم. هذا والجنس غير الجنس، فكيف المشارك في نوعية الإنس، فإن قلنا إن ذلك يشق، فأين الحق الذي يحق، والمشقة أخت المروة، وينعكس مساق هذه الأخوة، فيقال المروة أخت المروة، وينعكس مساق هذه الأخوة، فيقال المروة أخت المشقة، والحجيج يصبر على بعد الشقة، ولولا المشقة، كثر السادة، وقلت الحسادة، فما ضشركما أيها السيدان، أن تحسبا تحويجي، وتكتسبا الأجر في تدريجي، فإنكما إن فعلتما ذلك، نسبت إلي ولايكما، كما حسبت على علايكما، وأضفت إلى نديكما، كما عرفت بمنتداكما. ألم تعلما أن المرء يعرف بخليله، ويقاس به في كثيره وقليله، ولعلى أمتحن في مرام، ويعجم عودي رام، فيقول هذا العود من تلك الأعواد. وما في الحلبة من جواد، فأكسو كما عاراً، وأكون عليكما شعاراً. على أني إذا دعيت باسمكما، استربت من الإدعاء، فلا أستجيب لهذا الدعاء، ولكن أقول كما قال ابن أبي سفيان، حين عرف الإدارة، وأنكر الإمارة، نعم أخوتي أصح، وأنها بها أشح، إلا أن غيري نظم في المسلك، وأسهم في الملك، وأنا بينكما كالمحجوب بين طلاب، يشاركهم في البكا لا في التراث، إن حضرت فكنتم في الإقحام، أو لمقعد في زحام، وإن غبت فيقضى الأمر، وقد سطر زيد وعمرو. ناشدتكما الله في الإنصاف، أن تربعا بواد من أودية الشحر. في ناد من أندية الشعر بل السحر، حيث تندرج الأنهار، وتتأرج الأزهار، ويتبرج الليل والنهار، ويقرأ الطير صحفاً منتشرة، ويجلو النور ثغورا مؤشرة، يغازل عيون النرجس الوجل دود الورد الخجل. وتتمايل أعطاف البان، على أرداف الكثبان، فيرقد النسيم العليل في حجر الروض وهو بليل، وتبرز هوادج الراح على الراح، وقد هديت بأقمار، وحديت بأزهار ومزمار، وركبتها الصبا والكميت في ذلك المضمار، ولم تزالا في طيب، وعيش رطيب، من قباب وخدور، وشموس وبدور، تصلان الليالي والأيام، أعجازاً بصدور، وأنا الطريد منبوذ بالعراء، موقوذ في جهة الوراء، لا يدني محلي ولا يعتني بعقدي ولا حلى، ولا أدرج من الحرور إلى الظل، ولا أخرج من الحرام إلى الحل، ولا يبعث إلي مع النسيم هبة، ولا يتاح لي من الآتي عبه. قد هلكت لغواً، ولم تقيما لي صفواً، ومت كمداً، ولم تبعثا لبعثي أمداً. أتراه خلفتماني جرضاً، وألقيتماني حرضاً، كم أستسقى فلا أسقى، وأسترقى فلا أرقى، لا ماء أشربه ولا عمل في وصلكما أدربه. لم يبق لي حيلة إلا الدعاء المجاب، فعسى الكرب أن ينجاب. اللهم كما أمددت هذين السيدين بالعلم الذي هو جمال، وسددتهما إلى العمل الذي هو كمال، وجمعت فيهما الفضايل والمكارم، وختمت بهما الأفاضل والمكارم، وجعلت الأدب الصريح أقل خصالهما، والنظر الصحيح أقلب نصالهما، فاجعل اللهم لي في قلوبهما رحمة وحناناً، وابسط لي منهما وجهاً، واشرح لي جناناً، واجعلني اللهم ممن اقتدى بهما، وتعلق بأهدابهما، وكان دأبه في الصالحات كدأبهما، حتى أكون بهما ثالث القمرين في الآيات، وثالث العمرين، في عمل البر وطول الحياة اللهم آمين وصلى الله على محمد خاتم النبيين. وكأني أنظر إلى سيدي أعزهما الله، إذا وقفا

على هذا الخطاب، ونظرا إلى هذا الاحتطاب، كيف يديران رمزاً، ويسيران غمزاً، ويقال استتب القصال، وتعاطى البيذق ما تفعل النصال، وحن جذع ليس منهما، وخذ عجفاءك وسمنها، فأقول وطرفي غضيض، ومحلي الحضيض، مثلي كمثل القروج أو ثاني البروج، وما تقاس الأكف بالسروج، فأضربا عني أيها الفاضلان ما أنا ممن تناضلان، والسلام.

مولده

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين

قال شيخنا الفقيه أبو عبد الله بن القاضي المتبحر العالم أبي عبد الله ابن عبد الملك، سألته عن مولده فأنشدني:

يا سايلي عن مولدي ك أذكره ... ولدت يوم سبعة وعشرة
من المحرم افتتاح أربع ... من بعد ستماية مفسرة

وفاته

في التاسع عشر لرجب عام تسعة وتسعين وستماية، ودفن بمقبرة فاس، وأمر أن يكتب على قبره:

زر غريبا بمقره ... نازحا ماله ول
تركوه موسداً ... بين ترب وجندل
ولتقل عند قبره ... بلسان التدلل
يرحم الله عبده ... مالك بن المرحل

ومن طارئي المقريين والعلماء

منصور بن علي بن عبد الله الزواوي

صاحبنا، يكنى أبا علي،

حاله

هذا الرجل طرف في الخير والسلامة، وحسن العهد، والصون والطهارة والعفة، قليل التصنع، مؤثر للاقتصاد، منقبض عن الناس، مكفوف اللسان واليد، مشتغل بشأنه، عاكف على ما يعنيه، مستقيم الظاهر، ساذج الباطن، منصف في المذاكرة، موجب لحق الخصم، حريص على الإفادة والاستفادة، مثار على تعلم العلم وتعليمه غير أنف عن حمله عمن دونهن جملة من جمل السذاجة والرجولة وحسن المعاملة، صدر من صدور الطلبة، له مشاركة حسنة في كثير من العلوم العقلية والنقلة، واطلاع تقييد، ونظر في الأصول والمنطق وعلم الكلام، ودعوى في الحساب والهندسة والآلات. يكتب الشعر فلا يعدو الإجادة والسداد.

قدم الأندلس في عام ثلاثة وخمسين وسبعماية، فلقى رحباً، وعرف قدره، فتقدم مقرئا بالمدرسة تحت جراية نبيهة، وحلق للناس متكلماً على الفروع الفقهية والتفسير. وتصدر للفتيا، وحضر بالدار السلطانية مع مثله. جربت وصحبته، فبلوت منه ديناً ونصفة، وحسن عشرة.

محنته

امتحن في هذا العهد الأخير بمطالبة شرعية، لمتوقف صدر عنه لما جمع الفقهاء للنظر في ثبوت عقد على رجل نال من جانب الله والنبوة، وشك في القول بتكفيره، فقال القوم بإشراكه في التفكير ولطخه بالعاب الكبير، إذ كان كثير المشاحة لجماعتهم، فأجلت الحال عن صرفه عن الأندلس في أواخر شعبان عام خمسة وستين وسبعماية.

مشيخته

طلبت منه تقييد مشيخته، فكتب مما يدل على جودة القريحة ما نصه: " يتفضل سيدي الأعلى الذي أهتدي بمصباحه، وأعشو إلى غرره وأوضاحه، جامع أشتات العلوم، وفاتق الفهوم، حامل راية البديع، وصاحب آيات

التورية فيه والترصيع، نخبة البلغاء، وفخر الجهابذة العلماء، قايد جياد البلاغ من نواصيها، وسايق شوارد الحكم من أقاصيها، أبو عبد الله بن الخطيب، أبقاه الله للقريض، يقطف زهره، ويجتني غرره، وللبديع يطلع قمره، وينظم درره، وللأدب يحوك حلله، ويجمع تفاصيله وجمله، وللمعاني يجوس بجيوش البراعة خلالها، ويفتتح بعوامل اليراعة أقفالها، وللأسجاع يقرط الأسماع بفرايدها، ويحلى النحور بقلايدها، وللنظم يورد جياده أحلى الموارد، ويجليها في مضمار البلاغة من غير معاند، وللنثر يفترع أبكاره، ويودعها أسراره، ولساير العلوم يصوغها في مفرق الآداب تاجاً، ويضعها في أسطر الطروس سراجا، ولا زال ذا القلم الأعلى، وبدر الوزارة الأوضح الأجلى، ببقاء هذه الدولة المولوية والإمامة المحمدية، كعبة لملوك الإسلام، ومقصداً للعلماء الأعلام. ورضي عنهم خلفاً وسلفاً، وبورك لنا فيهم وسطاً وطرفاً، ولا زالت آمالنا بعلايهم منوطة، وفي جاههم العريض مبسوطة، بقول ما نبه عليه، من كتب شيوخى المشاهير إليه، فها أنا أذكر ما تيسر لي من ذلك بالاختصار، إذ لا تفي بذكرهم وحلاهم المجلدات الكبار.

فمنهم، مولاى الوالد علي بن عبد الله لقاه الله، الروح والريحان، وأوسعه الرضا والغفران. قرأت عليه القرآن، وبعض ما يتعلق به من الإعراب والضبط. ثم بعثني إلى شيخنا المجتهد الإمام، علم العلماء، وقطب الفقها، قدوة النظار، وإمام الأمصار، منصور بن أحمد المشدالي رحمه الله وقدس روحه، فوجدته قد بلغ السن به غاية أوجبت جلوسه في داره، إلا أنه يفيد بفوايده بعض زواره. فقرأت من أوائل ابن الحاجب عليه لإشارة والدي بذلك إله، وذلك أول محرم عام سبعة وعشرين وسبعماية. واشتد الحصار ببجاية لسماعنا أن السلطان العبد الوادي ينزل علينا بنفسه، فأمرني بالخروج رحمه الله، فعاقني عايق عن الرجوع إله لأتمم قراءة ابن الحاجب عليه. ثم مات رحمه الله عام أحد وثلاثين وسبعماية، فخص مصابه البلاد وعم، ولف ساير الطلبة وضم، إلا أنه ملأ بجاية وأنظارها بالعلوم النظرية وقساها، وأنظارها بالفهوم النقلية والعقلية، فصار من طلبته، شيخنا المعظم، ومفيدنا المقدم أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي المعروف بالمفسر رحمه الله، بالطريقة الحاجبية، والكتابة الشرعية والأدبية، مع فضل السن وتقرير حسن، إلى معارف تحلاها، ومحاسن اشتمل حلاها. واستمر في ذكر شيوخه على هذه الوتيرة من التزام السجع، وتقرير الحلى، فأجاد، وتجاوز المعتاد، فذكر منهم محمد بن يحيى الباهلي المذكور، وأنه أخذ عنه جمله من العلوم، فافرده بقراءة الإرشاد. والأستاذ أبا علي بن حسن البجلي، وقرأ عليه جملة من الحاصل، وجملة من المعالم الدينية والفقهية، والكتب المنطقية، كالخونجي، والآيات البينات. والقاضي أبا عبد الله محمد بن أبي يوسف، قاضي الجماعة ببجاية، وأبا العباس أحمد بن عمران الساوي اليانيولي. قال ثم ثنيت العنان بتوجهي إلى تلمسان، راغباً في علوم العربية، والفهوم الهندسية والحسابية، فأول من لقيت شيخنا الذي علمت في الدنيا جلالته وإمامته، وعرفت في أقاصي البلاد سيادته وزعامته، وذكر رئيس الكتاب العالم الفاضل أبا محمد عبد المهيمن الحضرمي، والمحدث البقية أبا العباس بن يربوع، والقاضي أبا إسحق بن أبي يحيى وقرأ شيئاً من مبادئ العربية على الأستاذ أبي عبد الله الرندي. ولقى بالأندلس جلة. فممن قرأ عليه إمام الصنعة العربية شيخنا أبو عبد الله بن الفخار الشهير بالبيري، ولازمه إلى حين وفاته، وكتب له بالإجازة والإذن له في التحليق بوضع قعوده من المدرسة بعده. وقاضى الجماعة الشريف أبو القاسم محمد بن أحمد الحسيني، نسيج وحده، ولازمه، وأخذ عنه تواليفه، وقرأ عليه تسهيل الفوايد لابن مالك، وقيد عليه وروى عن شيخنا إمام البقية أبي البركات بن الحاج، وعن الخطيب المحدث أبي جعفر الطنجالي. وهو الآن بالحال الموصوفة أعانه الله وأمتع به.

شعره

زرنا معاً والشيخ القاضي المتفنن أبو عبد الله المقري عند قدومه إلى الأندلس رباط العقاب. واستنشدت القاشي. وكتب لي يومئذ بخطه، استنشدني الفقيه الوجيه الكامل ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب، أطال الله بقاه كما أطال ثناه، وحفظ مهجته، كما أحسن بهجته، فأنشدته لنفسي:

لما رأيناك بعد الشيب يا رجل ... لا تستقيم وأمر النفس تمتثل

زدنا يقينا بما كنا نصدقه ... عند المشيب يشب الحرص والأمل

وكان ذلك بمسجد رابطة العقاب، عقب صلاة الظهر من يوم الأحد التاسع والعشرين لشهر ربيع الآخر من عام سبعة وخمسين وسبعماية. وكتب الشيخ الأستاذ أبو علي يقول: منصور بن علي الزواوي، في رابطة العقاب في كذا، أجزت صاحبنا الفقيه المعظم، أبا عبد الله بن الخطيب وأولاده الثلاثة عبد الله، ومحمداً، وعلياً، أسعدهم الله، جميع ما يجوز لي وعني روايته، وأنشدته قولي أخاطب بعض أصحابنا:

يحييك عن بعض المنازل صاحب ... صديق غدت تهدى إليك رسايله

مقدمة حفظ الوداد وسيلة ... ولا ود إلا أن تصح وسائله

يسايل عنك الدارين ولم يكن ... تغيب لبعد الدار عنك مسايله

وكتبت له قبل هذا مما أنشدته عند قدومي على غرناطة:

يا من وجدناه لفظا ... حقيقة في المعالي

مقدمات علاكم ... أنتجن كل كمال

وكل نظم قياس ... خلوت منه فخال

وهو من لدن أزعج عن الأندلس، كما تقدم ذكره، مقيم بتلمسان، على ما كان عليه من الإقراء والتدريس.

مسلم بن سعيد التنملي

حاله

كان غير نبيه الأبوة. ظهر في دولة السلطان أمير المسلمين، ثاني الملوك من بني نصر، بمزيد كفاية، فقلده خطة الجفازة، وهي تعميم النظر في المجابي، وضم الأموال، وإيقاع النكير في محل التقصير، ومظان الريب فنمت حاله، وعظم جاهه، ورهبت سطوته، وخيف إيقاعه، وقربت من السلطان وسيلته، فتقدم الخدام، واستوعب أطراف الحظوة، واكتسب العقار، وصاهر في نبيه البيوتات، وأروث عنه أخبارا، تشهد له بالجود علو الهمة، وشرف النفس، إلى أن قضى على هذه الوتيرة.

ذكروا أن شخصاً جلب سلعة نفيسة، مما يطمع في إخفايها، حيدة عن وظيفة المغرم الباهظة، في مثل جنسه، فبينما هو يروم المحاولة، إذ بصر بنبيه المركب والبزة، ينفض في زوايا الفحص عن مثل مضطبنه، فظنه رئيساً من رؤساء الجند، فقصده ورغب منه إجازة خبيئته بباب المدينة، وقرر لتخوفه من ظلم الحافز الكذا مسلم، فأخذها منه وخبأها تحت ثيابه، ووكل به. ولم يذهب المسكين إلا يسيراً، حتى سأل عن الرجل، فأخبر أنه الذي فر عنه. فسقط قي يده. ثم تحامل فألقاه ينظره في داخل السور، فدفع إليه أمانته، وقال سر في حفظ الله، فقد عصمها الله من ذلك الرجل الظالم، فخجل الرجل، وانصرف متعجباً. وأخباره في السراوة، ونجح الوسيلة. كثيرة.

وفاته

توفي في عام ثمانية وتسعين وستماية، وشهد أميره دفنه، وكان قد أسف ولي العهد بأمور صانعه فيها من باب خدمة والده. فكان يتلمظ لنكبته، ونصب لثاته لأكله. فعاجله الحمام قبل إيقاع نقمته به. ولما تصير إليه الأمر، نبش قبره، وأخرج شلوه، فأحرق بالنار، إغراقاً في شهوة التشفي رحمة الله عليه.

ومن العمال الأثراء

مؤمل مولى باديس بن حبوس

حاله ومحنته

قال ابن الصيرفي، وقد ذكر عبد الله بن بلقين حفيد باديس، واستشارته عن أمره، لما بلغه حركة يوسف بن تاشفين إلى خلعه. وكان في الجملة من أحبابه، رجل من عبيد جده اسمه مؤمل، وله سن، وعنده دهاء وفطنة، ورأى ونظر. وقال في موضع آخر، ولم يكن في وزراء مملكته وأحبار دولته، أصيل الرأي، جزل الكلمة، إلا ابن أبي خيثمة من كتبته، ومؤمل من عبيد جده، وجعفر من فتيانه. رجع، قال: فألطف له مؤمل في القول، وأعلمه برفق، وحسن أدب، أن ذلك غير صواب، وأشار إليه بالخروج إلى أمير المسلمين إذا قرب، والتطارح عليه، فإنه لا تمكنه مدافعته، ولا تطاق حربه، والاستجداء له. أحمد عاقبة وأيمن مغبة. وتابعه على ذلك نظراؤه، من أهل السن والحنكة ودافع في صد رأيه الغلمة والأغمار، فاستشاط غيظاً على مؤمل ومن نحا نحوه، وهم بهم، فخرجوا، وقد سل بهم فرقاً منه. فلما جنهم الليل فروا إلى لوشة، وبها من أبناء عبيد باديس قايدها، فملكوها وثاروا فيها، بدعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وبادر مؤمل بالخطاب إلى أمير المسلمين المذكور وقد كان سفر إليه عن سلطانه، فأعجبه عقلاً ونبلاً، فاهتز إليه، وكان أقوى الأسباب على حركته. وبادر حفيد باديس الأمر، فأشخص الجيش لنظر صهره، فتغلب عليهم، وسيق مؤمل ومن كان معه شر سوق في الحديد، وأركبوا على دواب هجن، وكشفت رؤوسهم، وأردف وراء كل رجل من يصفعه. وتقدم الأمر في نصب الجنوع وإحضار الرماة. وتلطف جعفر في أمرهم. وقال للأمير عبد الله، إن قتلهم الآن، أطفأت غضبك، وأذهبت ملكك. فاستخرج المال، وأنت من وراء الانتقام، فثقفهم، وأطمعوا في أنفسهم ريثما شغله الأمر، وأنفذ إليه يوسف بن تاشفين في حل اعتقالهم، فلم تسعه مخالفته وأطلقهم. ولما ملك غرناطة على تفيئة تلك الحال، قدم مؤملاً على مستخلصه وجعل بيده مفاتيح قصره، فنال ما شاء من مال وحظوة، واقتنى ما أراد من صامت وذخيرة. ونسبت إليه بغرناطة آثار، منها السقاية بباب الفخارين والحوز المعروف بحوز مؤمل، أدركتها وهي بحالها.

وفاته

قال ابن الصيرفي، وفي ربيع الأول من هذا العام، وهو عام اثنين وتسعين وأربعماية، توفي بغرناطة مؤمل مولى باديس بن جبوس، عبد أمير المسلمين، وجابي مستخلصه وكان له دهاء وصبر، ولم يكن بقارئ ولا كاتب. رزقه الله عند أمير المسلمين، أيام حياته، منزلة لطيفة ودرجة رفيعة. ولما أشرف على المنية، أحضر ما كان عنده من مال المستخلص، وأشهد الحاضرين على دفعه إلى من استوثقه على حمله. ثم أبرأ جميع عماله وكتابه. وأنفذ رجلاً من صنايعه إلى أمير المسلمين بجملة من مال نفسه، يريه أن ذلك جميع ما اكتسبه في دولته، أيام خدمته، وأن بيت المال أولى به، ورغب في ستر أهله وولده. فلما وصل إليه، أظهر الأسف عليه، وأمضى تقديم صنيعته. ثم ذكر ما كشف البحث عنه من محتجنه، وشقاء من خلفه بسببه، وعدد مالاً وذخيرة.

حرف النون الملوك والأمراء

نصر بن عقيل الخزرجي الأنصاري

نصر بن محمد بن يوسف بن نصر بن أحمد بن محمد بن خميس بن عقيل الخزرجي الأنصاري أمير المسلمين بالأندلس، بعد أبيه وجده وأخيه. يكنى أبا الجيوش وقد تقدم من أولية هؤلاء الملوك ما يغنى عن الإعادة.

حاله

من كتاب طرفة العصر في أخبار الملوك من بني نصر من تصنيفنا. قال: كان فتى يملأ العيون حسناً وتمام صورة، دمث الأخلاق، لين العريكة، عفيفاً، مجبولاً على طلب الهدنة وحب الخير، مغمد السيف، قليل الشر، نافراً للبطر وإراقة الدماء، محبا في العلم وأهله، آخذاً من صناعة التعليل بحظ رغيب، يخط التقاويم الصحيحة، ويصنع الآلات الطريفة بيده، اختص في ذلك الشيخ الإمام أبا عبد الله بن الرقام، وحيد عصره. فجاء واحد دهره ظرفاً وإحكاماً. وكان حسن العهد، كثير الوفاء. حمله الوفاء على اللجاج في وزيره المطلوب بعزله، على الاستهداف للخلع.

تقدم يوم خلع أخيه، وهو يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعماية، وسنه ثلاث وعشرون سنة، فكان من تمام الخلق، وجمال الصورة، والتأنق في ملوكي اللباس، آية من آيات الله خالقه. واقتدى برسوم أبيه وأخيه، وأجرى الألقاب والعوايد لأول دولته، وكانت أيامه كما شاء الله، أيام محس مستمر، شملت المسلمين فيها الأزمة، وأحاط بهم الذعر، وكلب العدو. وسيمر من ذالك ما فيه كفاية. وكان فتى أي فتى، لو ساعده الجد. والأمر لله من قبل ومن بعد.

وزراء دولته

وزر له مقيم أمره ومحكم التدبير على أخيه، أبو بكر عتيق بن محمد ابن المول. وبيت بني مولى بقرطبة، بيت له ذكر وأصالة. ولما تغلب عليها ابن هود، اختفى بها أبوه أياماً عدة. ولما تملكها السلطان الغالب بالله تلك البرهة، خرج إليه وصحبه إلى غرناطة، فاتصلت قرباه بعقده على بنت للرئيس أبي جعفر المعروف بالعجلب ابن عم السلطان. واشتد عضده. ثم تأكدت القربى بعقد مول أخي هذا الوزير على بنت الرئيس ألي الوليد أخت الرئيس ألي سعيد، منجب هؤلاء الملوك الكرام، فقام بأمره، واضطلع بأعباء سلطانه، إلى أن كان من تغلب أهل الدولة عليه، وإخافة سلطانه منه، ما أوجب صرفه إلى المغرب في غرض الرسالة، وأشير عليه في طريقه بإقامته بالمغرب، فكان صرفاً حسناً. وتولى الوزارة محمد بن علي بن عبد الله بن الحاد، المسير لخلعه، واجتثاث أصله وفرعه، وكان خباً داهية، أعلم الناس بأخبار الروم وسرهم وآثارهم. فحدثت بين السلطان وبين أهل حضرته الوحشة بسببه.

قضاته

أقر على خطة القضاء بحضرته قاضي أخيه الشيخ الفقيه أبا جعفر القرشي المنبز بابن فركون، وقد تقدم التعريف به مستوفى بحول الله.

كتابه

شيخنا الصدر الوجيه، نسيج وحده أبو الحسن علي بن محمد بن سليمن بن الجياب إلى آخر مدته.

من كان على عهده من الملوك

بالمغرب، السلطان أبو الربيع سليمن بن عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، تصير الأمر إليه بعد وفاة أخيه السلطان أبي ثابت عامر بأحواز طنجة، في صفر عام ثمانية وسبع ماية، وكان مشكوراً،

مبخت الولاية. وفي دولته عادت سبتة إلى الإيالة المرينية، ثم توفي بتازى في مستهل رجب من عام عشرة وسبعماية. وتولى الملك بعده عم أبيه السلطان الجليل الكبير، خدن العافية، وولى السلامة، وممهد الدولة أبو سعيد عثمن بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق. واستمرت ولايته إلى تام أيام هذا الأمير، وكثيراً من أيام من بعده. وقد تقدم من ذكر السلطان أبي يوسف في اسم من تقدم من الملوك ما فيه كفاية.

وبتلمسان، الأمير أبو حمو موسى بن عثمن بن يغمراسن، سلطان بني عبد الواد، مذلل الصقع، والمثل الساير في الحزم والتيقظ، وصلابة الوجه، زعموا، وإحكام القحة، والإغراب في خبث السيرة. واستمرت ولايته إلى عام ثمانية عشر وسبعماية، إلى أن سطا به ولده، عبد الرحمن أبو تاشفين.

وبتونس، الأمير الخليفة أبو عبد الله محمد بن الواثق يحيى بن المستنصر محمد بن الأمير أبي زكريا بن أبي حفص. ثم توفي في ربيع الآخر عام تسع وسبع ماية. فولي الأمر قريبه الأمير أبو بكر بن عبد الرحمن ابن الأمير أبي زكريا ابن الأمير أبي إسحق بن الأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص. ونهض إليه من بجاية قريبه السلطان أبو البقاء خالد ابن الأمير أبي زكريا ابن الأمير أبي إسحق ابن الأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص، فالتقيا بأرض تونس، فهزم أبو بكر، ونجا بنفسه، فدخل بستاناً لبعض أهل الخدمة، مختفياً فيه، فسعى به إلى أبي البقاء، فجيء به إليه، فأمر بعض القرابة بقتله صبراً، نفعه الله. وتم الأمر لأبي البقاء في رابع جمادى الأولى منه، إلى أن وفد الشيخ المعظم أبو يحيى زكريا الشهير باللحياني، قافلاً من بلاد المشرق، وهو كبير آل أبي حفص نسباً وقدراً، فأقام بإطرابلس، وأنفذ إلى تونس خاصته، الشيخ الفقيه أبا عبد الله المردوري محارباًلأبي البقاء، وطالباً للأمر. فتم الأمر، وخلع أبو البقاء تاسع جمادى الأولى عام أحد عشر وسبعماية. وتم الأمر للشيخ أبي يحيى، واعتقل أبو البقاء، فلم يزل معتقلاً إلى أن توفي في شوال عام ثلاثة عشر وسبعماية، ودفن بالجبانة المعروفة لهم بالزلاج، فضريحه فيما تعرفنا بإزاء ضريح قتيله المظلوم أبي بكر، لا فاصل بينهما. وعند الله تجتمع الخصوم.

واتصلت أيام الأمير أبي يحيى، إلى أن انقرضت مدة الأمير أبي الجيوش. وقد تضمن الإلماع بذلك الرجز المسمى بقطع السلوك من نظمي. فمن ذلك فيما يختص بملوك المغرب قولي في ذكر السلطان أبي يعقوب:

ثم تقضى معظم الزمان ... مواصلاً حصر بني زيان
حتى أتى أهل تلمسان الفرج ... ونشقوا من جانب اللطف الأرج
لما ترقى درج السعد درج ... فانفض ضيق الحصر عنها وانفرج
وابن ابنه وهو المسمى عامراً ... أصبح بعد ناهياً وآمراً
وكان ليثاً دامي المخالب ... تغلب الأمر بجد غالب
أباح بالسيف نفوساً عدة ... فلم تطل في الملك منه العدة
ومات حتف أنفه واخترما ... ثم سليمان عليها قدما
أبو الربيع دهره ربيع ... يثنى على سيرته الجميع
حتى إذا الملك سليمان قضى ... تصير الملك لعثمن الرضا
فلاح نور السعد فيها وأضا ... وسنى العهد الذي كان مضا

وفيما يختص ببنى زيان، بعد ذكر أبي زيان:

حتى إذا استوفى زمان سعده ... قام أبو حمو بها من بعده
وهو الذي سطا عليه ولده ... حتى انتهى على يديه أمده

وفيما يختص بآل أبي حفص بعد ذكر جملة منهم:

ثم الشهيد الأمير خالد ... هيهات ما في الدهر حي خالد
وزكريا بها بعد ثوا ... ثم نسوا الرحلة عنها والتوا
رحل بالشرق وبالشرق ثوا ... وربما فاز امرؤ بما نوا

ومن ملوك النصارى بقشتاله: هرانده بن شانجه بن ألهنشه بن هراتده بن شانجه. ونازل على عهده الجزيرة الخضراء، ثم أقلع عنها عن ضريبة وشروط، ثم نازل في أخريات أمره حصن القذاق، وأدركه ألم الموت بظاهره، فاحتمل من المحلة إلى جيان، وبقيت المحلة منيخة على الحصن، إلى أن تملك بعد موت الطاغية بأيام ثلاثة، كتموا فيها موته. ولسبب هلاكه حكاية ظريفة، تضمنتها طرفة العصر في تاريخ دولة بني نصر. وقام بعده بأمر النصرانية ولده ألهنشه، واستمرت أيامه إلى عام خمسين وسبعماية.

بعض الأحداث في أيامه

نازل على أول أمره طاغية قشتالة، الجزيرة الخضراء في الحادي والعشرين من عام تسعة وسبعماية، وأقام عليها إلى أخريات شعبان من العام المذكور، وأقلع عنها بعد ظهوره على الجبل وفوز قداحه به. ونازل صاحب برجلونة مدينة ألمرية غرة ربيع الأول من هذا العام، وأخذ بمخنقها، وتفرقت الظبا على الخراش، ووقعت على جيش المسلمين الناهد إليه وقيعة كبيرة، واستمرت المطاولة إلى أخريات شعبان، ونفس الله الحصر، وفرج الكرب. وما كاد أهل الأندلس يستنشقون ريح العافية، حتى نشأ نجم الفتنة، ونشأت ريح الخلاف، واستفسد وزير الدولة ضمائر أهلها، واستهدف إلى رعيتها بإيثار النصارى والصاغية إلى العدو، وأظهر الريس ابن عم الأب صاحب مالقة أبو سعيد فرج ابن إسماعيل، صنو الغالب بالله ابن نصر، الامتساك بما كان بيده، والدعاء لنفسه، وقدم ولده الدايل إلى طلب الملك. وثار أهل غرناطة، يوم الخامس والعشرين لرمضان من العام، وأعلن منهم من أعلن بالخلاف ثم خالفهم التدبير، وخبطوا العشواء، ونزل الحشم، فلاذ الناس منهم بديارهم، وبرز السلطان إلى باب القلعة، متقدماً بالعفة عن الناس، وفر الحاسرون عن القناع، فلحقوا بالسلطان أبي الوليد بمالقة، فاستنهضوه إلى الحركة، وقصد الحضرة، فأجابهم وتحرك، فأطاعته الحصون بطريقة، واحتل خارج غرناطة صبيحة يوم الخميس السابع والعشرين لشوال منه، فابتدره الناس من صايح ومشير بثوبه، ومتطارح بنفسه. فدخل البلد من ناحية ربض البيازين، واستقر بالقصبة، كما تقدم في اسمه. وفي ظهر يوم السبت التاسع والعشرين من الشهر، نزل الحمراء دار المللك، وانفصل السلطان المترجم به، موفى له شرط عقده من انتقاله إلى وادي آش، مستبداً بها، وتعيين مال مخصوص، وغير ذلك. ورحل ليلة الثلاثاء الثالث لذي قعدة من العام. واستمرت الحال، بين حرب ومهادنة، وجرت بسبب ذلك أمور صعبة إلى حين وفاته. رحمه الله.

مولده

ولد في رمضان عام ستة وثمانين وست ماية. وكانت سنة ستاً وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، ودولته الجامعة خمس سنين وشهراً واحداً، ومقامه بوادي أش تسعة أعوم وثلاثة أيام.

وفاته

توفي رحمه الله، ليلة الأربعاء سادس ذي قعدة من عام اثنين وعشرين وسبعماية بوادي آش، ودفن بجامع القصبة منها، ثم نقل في أوايل ذي الحجة منه إلى الحضرة، فكان وصوله يوم الخميس السادس منه، وبرز إليه السلطان،

والجمع الكثير من الناس، ووضع سريره بالمصلى العيدي، وصلى عليه إثر صلاة العصر، ودفن بمقبرة سلفه بالسيكة، وكان يوماً من الأيام المشهودة، وعلى قبره مكتوب في الرخام:

هذا قبر السلطان المرفع المقدار، الكريم البيت، العظيم النجار سلالة الملوك الأعلام الأخيار، الصريح النسب في صميم الأنصار، الملك الأوحد، الذي له السلف العالي المنار، في الملك المنيع النمار، رابع ملوك بني نصر، أنصار دين المصطفى المختار، المجاهدين في سبيل الملك الغفار، الباذلين في رضاه كرايم الأموال، ونفايس الأعمار. المعظم المقدس المرحوم، أبي الجيوش نصر ابن السلطان الأعلى الهمام الأسمى، المجاهد الأحمى، الملك العادل، الطاهر الشمايل، ناصر دين الإسلام، ومبيد عبدة الأصنام، المؤيد المنصور، المقدس، المرحوم أمير المسلمين أبي عبد الله بن السلطان الجليل. الملك الشهير، مؤسس قواعد الملك على التقوى والرضوان، وحافظ كلمة الإسلام، وناصر دين الإيمان، الغالب بالله، المنصور بفضل الله، المقدس المرحوم، أمير المسلمين أبي عبد الله بن نصر، تغمده الله برحمته وغفرانه، وبوأه منازل إحسانه، وكتبه في أهل رضوانه. وكان مولده في يوم الاثنين الرابع والعشرين لشهر رمضان المعظم عام ستة وثمانين وستماية. وبويع يوم الجمعة غرة شوال عام ثمانية وسبعماية، وتوفي رحمه الله ليلة يوم الأربعاء السادس لشهر ذي قعدة عام اثنين وعشرين وسبعماية فسبحان الملك الحق المبين، وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين. وفي جهة:

يا قبر جاد ثراك صوب غمام ... يهمى عليك برحمة وسلام
بوركت لحداً فيه أي وديعة ... ملك كريم من نجار كرام
ماشيت من حلم ومن خلق رضي ... وزكاه أعراق ومجد سام
فاسعد بنصر رابع الأملاك من ... أبناء نصر ناصر الإسلام
من خزرج الفخر الذين مقامهم ... في نصر خير الخلق خير مقام
يا أيها المولى المؤسس بيته ... في معدن الأحساب والأحلام
ما للمنية والشباب مساعد ... قد أقصدتك بصائبات سهام
عجلت على ذاك الجمال فغادرت ... ربع المحاسن طامس الأعلام
فمحى الردى من حسن وجهك آية ... نحو النهار لسدفة الإظلام
ما كنت إلا بدر تم باهراً ... أخنى الخسوف عليك عند تمام
فعلى ضريح أبي الجيوش تحية ... كالمسك عرفا عند فض ختام
وتغمدته رحمة الله التي ... ترضيه من عدن بدار مقام
ومن الأعيان والوزراء؟
؟

نصر بن إبراهيم بن أبي الفتح الفهري

يكنى أبا الفتح، أصلهم من حصن أريول من عمل مرسية، ولهم في الدولة النصرية مزية خصوا لها بأعظم رتب القيادة واستعمل بعضهم في ولاية السلطان.
؟

حاله

نقلت من خط شيخنا أب يبكر بن شبرين. قال: وفي السادس عشر لذي قعدة منه، يعني عام عشرة وسبعماية، توفي بغرناطة القايد المبارك، أبو الفتح، أحد الولاة والأعيان الذاكرين لله تعإلى، أولى النزاهة والوفاء.
؟

نصر بن إبراهيم بن نصر الفهري

؟نصر بن إبراهيم بن أبي الفتح بن نصرين إبراهيم بن نصر الفهري يكنى أبا الفتح، حفيد المذكور معه في هذا الباب
؟

حاله

من كتاب طرفة العصر: نسيج وحده في الخير والعفاف، ولين العريكة، ودماثة الأخلاق، إلى بعد الهمة، وجمال الأبهة، وضخامة التجند، واستجادة المركب والعدة، وارتباط العبادة، استعان على ذلك بالنعمة العريضة بين منادية إليه بميراث، ومكتسب من جراء المتغلب على الدولة صهره ابن المحروق معياشة لبنته. ونمت حال هذا الشهم النجد، وشمخت رتبته حتى خطب للوزارة في أخريات أيامه، وعاق عن تمام المراد به، إلحاح السقم على بدنه، وملازمة الضنا لجثمانه، فمضى لسبيله، عزيز الفقد عند الخاصة، ذائع الثنا، نقي العرض، صدراً في الولاة. وعلماً في القواد الحماة.
وفاته
توفي بغرناطة ليلة الجمعة الثامن والعشرين لجمادى الآخرة عام خمسة وأربعين وسبعماية. وكانت جنازته أخذة نهاية الاحتفال، ركب إليها السلطان، ووقف بإزاء لحده، إلى أن ووري، تنويهاً بقدره، وإشادة ببقاء الحرمة على خلفه. وحمل سريره الجملة من فرسانه وأبناء نعمته.
ومن الكتاب والشعراء
نزهون بنت القليعي

قال ابن الأبار، وهو فيما أحسب أبو بكر محمد بن أحمد بن خلف ابن عبد الملك بن غالب الغساني، غرناطية.
حالها

كانت أديبة شاعرة، سريعة الجواب، صاحبة فكاهة ودعابة. وقد جرى شيء من ذلك في اسم أبي بكر بن قزمان، والمخزومي الأعمى. وأبي بكر بن سعيد.
شعرها
دخل الأديب أبو بكر الكتندي الشاعر، وهي تقرأ على المخزومي الأعمى، فلما نظر إليها، قال أجز يا أستاذ: لو كنت تبصر من تكلمه. فأفحم المخزومي زامعاً، فقالت: لغوت أخرس من خلاخله ثم زادت:
إليه البدر يطلع من أزرته ... والغصن يمرح في غلايله

ولاخفاء ببراعة هذه الإجازة، ورفاعة هذا الأدب.
وكتب إليها أبو بكر بن سعيد، وقد بلغه أنها تخالط غيره من الأدباء الأعيان:
يا من له ألف خل ... من عاشق وعشيق
أراك خليت للنا ... س سد ذاك الطريق
فأجابته بقولها:
حللت أبا بكر محلاً منعته ... سواك وهل غير الرفيع له صدري
وإن كان لي كم من حبيب فإنما ... يقدم أهل الحق فضل أبي بكر
وهذه غاية في الحسن بعيدة. ومحاسنها شهيرة، وكانت من غرر المفاخر الغرناطية.
حرف الصاد

من الأعيان والوزراء

ذي الجوشن الضبابي الكلبي

الصميل بن حاتم بن عمر بن جذع بن شمر بن ذي الجوشن الضبابي الكلبي وهو من أشراف عرب الكوفة.
أوليته
قال صاحب الكتاب الخزايني جده أحد قتلة الحسين بن علي، الذي قام برأسه على يزيد بن معاوية. فلما قام المختار ثايراً بالحسين، فرعنه شمر، ولحق بالشام فأقام بها في عز ومنعة. ولما خرج كلثوم بن عياض غازياً إلى المغرب، كان الصميل ممن ضرب عليه البعث في أشراف أهل الشام. ودخل الأندلس فيطالعة بلج بن بشر القشيري، فشرف ببدنه إلى شرف تقدم له. ورد ابن حيان هذا، وقال في كتاب بهجة الأنفس، وروضة الأنس، كان الصميل بن حاتم هذا جده شمر قاتل الحسين رضي الله عنه، من أهل الكوفة، فلما قتله، تمكن منه المختار فقتله، وهدم داره، فارتحل ولده من الكوفة، فرأس بالأندلس، وفاق أقرانه بالنجدة والسخاء.
حاله
قال، كان شجاعاً، نجداً، جواد، كريماً، إلا إنه كان رجلاً أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وكان له في قلب الدول، وتدبير الحروب، أخبار مشهورة.
من أخباره. حكى ابن القوطية، قال، مر الصميل بمعلم يتلو " وتلك الأيام نداولها بين الناس " . فوقف يسمع، ونادى بالمعلم، يا هناه كذا نزلت هذه الآية، فقال نعم، فقال، أرى والله سيشركنا في هذا الأمر، العبيد والأراذل والسفلة.
خبره في الجود : قال، كان أبو الأجرب الشاعر، وقفاً على أمداح الصميل، وهو القايل:
بني لك حاتم بيتاً رفيعا ... رأيناه على عمد طوال
وقد كان ابتنى شمر وعمرو ... بيوتاً غير ضاحية الظلال
فأنت ابن الأكارم من معد ... تعتلج الأباطح والرمال
وقارضه بإجزاله لعطايه، وانتمائه في ثوابه، بأن أغلظ القسم على نفسه، بأن لا يراه، إلا أعطاه ما حضره، فكان أبو الأجرب قد اعتمد اجتنابه في اللقاء، حياء منه، وإبقاء على ماله، فكان لا يزوره إلا في العيدين، قاضياً لحقه. وقد

لقيه يوماً مواجهة ببعض الطريق، والصميل راكب، ومعه ابناه فلم يحضره ما يعطيه، فأرجل أحد أبنية، وأعطاه دابته، فضرب في صنعه، وفيه يقول من قصيدة:

دون الصميل شريعة موروودة ... لا يستطيع لها العدو ورودا

فت الورى وجمعت أشتات العلا ... وحويت مجداً لا ينال وجودا

فإذا هلكت فلا تحمل فارس ... سيفا ولا حمل النساء وليدا

وكان صاحب أمره ولاه الأندلس قبل الأمويين، لهم الأسماء، وله معنى الإمرة، وكان مظفر الحروب، سديد الرأي، شهير الموقف، عظيم الصبر. وأوقع باليمانية وقايع كثيرة، منها وقيعة شقندة، ولم يكن بالأندلس مثلها، أثخن فيها القتل باليمانية.

أنفته قال: وكان أبياً للضيم، محامياً عن العشيرة، كلم أبا الخطار الأمير، في رجل من قومه، انتصر به، فأفحمه، ورد عليه، فأمر به، فتمتع ومالت عمامته. فلما خرج قال له بعض من على باب الأمير، يا أبا الجوشن ما بال عمامتك مايلة، فقال إن كان لي قوم فسيقيمونها، وخرج من ليلته، فأفسد ملكه.

وفاؤه وخبر وفائه مشهور، فيما كان من جوابه لرسولي عبد الرحمن ابن معاوية إليه، بما قطع به رجاء الهوادة في أمر أميره، يوسف بن عبد الرحمن الفهري، والتستر مع ذلك عليهما، فلينظر في كتاب المقتبس.

دخوله غرناطة

ولما صار الأمر إلى عبد الرحمن بن معاوية، صقر بني أمية، وقهر الأمير يوسف الفهري، ووزيره الصميل، إذ عزله الناس، ورجع معه يوسف الفهري والصميل إلى قرطبة. ولم يلبثا أن نكثا، ولحقا فحص غرناطة، ونازلهما الأمير عبد الرحمن بن معاوية في خبر طويل، واستنزلهما عن عهد، وعاد الجميع إلى قرطبة، وكان يوسف والصميل يركبان إلى القصر كل جمعة إلى ا، مضيا لسبيلهما. وكان عبد الرحمن بن معاوية يسترجع. ويقول ما رأيت مثله رجلاً. لقد صحبني من إليرة إلى قرطبة، فما مست ركبتي ركبته، ولا خرجت دابته عن دابتي.

ومن الكتاب والشعراء

صفوان بن إدريس التجيبي

صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبي من أهل مرسية، يكنى أبا بجر.

حاله

كان أديباً، حسيباً جليلاً، أصيلاً، ممتعاً من الظرف، ريان من الأدب، حافظاً، حسن الخط، سريع البديهة، ترف النشأة، على تصاون وعفاف، جميلاً سرياً، سمحاً ذكياً، مليح العشرة، طيب النفس، ممن تساوى حظه في النظم والنثر، على تباين الناس في ذلك.

مشيخته

روى عن أبيه وخاله، ابن عم أبيه القاضي أبي القاسم بن إدريس، وأبي بكر بن مغاور، وأبي الحسن بن القايم، وأبي رجال بن غلبون، وأبي عبد الله بن حميد، وأبي العباس بن مضاء، وأبي القاسم بن حبيش، وأبي محمد الحجري، وابن حوط الله، وأبي الوليد بن رشد. وأجاز له أبو القاسم ابن بشكوال.

من روى عنه: أبو إسحق اليابري، وأبو الربيع بن سالم، وأبو عبد الله ابن أبي البقاء، وأبو عمر بن سالم، ومحمد بن

محمد بن عيشون.

تواليفه

له تواليف أدبية منها: زاد المسافر، وكتاب الرحلة، وكتاب العجالة سفران يتضمنان من نظمه ونثره، أدباً لا كفاء له. وانفرد من تأبين الحسين رضي الله عنه، وبكاء أهل البيت. بما ظهرت عليه بركته في حكايات كثيرة.

شعره

ثبت من ذلك في العجالة قوله:

جاد الزمان بأنه الجرعاء ... توقان من دمعي وغيث سماء
فالدمع يقضى عندها حق الهوى ... والغيم حق البانة الغيناء
خلت الصدور من القلوب كما خلت ... تلك المقاصر من مهي وظباء
ولقد أقول لصاحبي وإنما ... ذخر الصديق لأمجد الأشياء
يا صاحبي ولا أقل إذا أنا ... ناديت من إن تصغيا لنداء
عوجاً بحار الغيم في سقى الحما ... حتى ترى كيف انسكاب الماء
ونسن في سقي المنازل سنة ... نمضي بها حكماً على الظرفاء
يا منزلاً نشطت إليه عبرتي ... حتى تبسم زهره لبكاء
ما كنت قبل مزار ربعك عالما ... أن للدامع أصدق الأنواء
يا ليت شعري والزمان تنقل ... والدهر ناسخ سدة برخاء
هل نلتقي في روضة موشية ... خفاقة الأغصان والأفياء
وننال فيها من تألفنا ولو ... ما فيه سخمة أعين الرقباء
في حيث أتلعت الغصون سوالفاً ... قد قلدت بلآلي الأنداء
وجرت ثغور الياسمين فقبلت ... عيني عذار الآسة الميساء
والورد في شط الخليج كأنه ... رمد ألم بمقلة زرقاء
وكأن غصن الزهر في خضر الربى ... زهر النجوم تلوح بالخضراء
وكأنما جاء النسيم مبشراً ... للروض يخبره بطول بقاء
فكساه خلعة طيبه ورمى له ... بدراهم الأزهار رمي سخاء
وكأنما احتقر الصنيع فبادرت ... بالعذر عنه نغمة الورقاء
والغصن يرقص في حلى أوراقه ... كالخود في موشية خضراء
وافتر ثغر الأقحوان بما رأى ... طرباً وقهقه منه جري الماء

أفديه من أنس تصرم فانقض ... فكأنه قد كان في الإغفاء
لم يبق منه غير ذكر أو منى ... وكلاهما سبب لطول عناء
أو رقعة من صاحب هي تحفة ... إن الرقاع لتحفة النبهاء
كبطاقة الوسمي إذ حيا بها ... إن الكتاب تحية الظرفاء

وهي طويلة. وقال مراجعاً عن كتاب أيضاً:

ألا سمح الزمان به كتابا ... ذرى بوروده أنسى قبابا

فلا أدري أكان تحت وعد ... دعا بهما لبرئي فاستجابا
وقد ظفرت يدي بالغنم منه ... فليت الدهر سني لي إيابا
فلو لم أستفد شيئاً سواه ... قنعت بمثله علقاً لبابا
إذا أحرزت هذا في اغترابي ... فدعني بمثله علقاً لبابا
رجمت بأنه شيطان همي ... فهل وجهت طرساً أم شهابا
رشقت به رضاب الود عذباً ... يذكرني شمايلك العذابا
وكدت أجر أذيالي نشاطاً ... ولكن خلت قولهم تصابا
فضضت ختامه عنى كأني ... فتحت بفضه للروض بابا
فكدت أبثه في جفن عيني ... لكي أستودع الزهر السحابا
وكنت أصونه في القلب لكن ... خشيت عليه أن يفنى التهابا
ولو أن الليالي سامحتني ... لكنت على كتابكم الجوابا
فأبلى عندكم بالشكر عذرا ... وأجزل من ثنايكم الثوابا
ولكن الليالي قيدتني ... وقيدت غرضي إلا الخطايا
فما تلقاني الأحباب إلا ... سلاماً أو مناما أو كتابا
لأمر ما يقص الدهر رشي ... لأن السهم مهما ريش صابا
وعاذلة تقول ولست أصغي ... ولو أصغيت لم أرفع جوابا
تخوفني الدواهي وهي عندي ... أقل من أن أضيق بها جنابا
إذا طرقت أعد لها قراها ... وقاراً واحتساباً واصطبارا
وما مثلي يخوف بالدواهي ... عرين الليث لا يخشى الذبابا
تعاتبني فلا يرتد طرفي ... وهل تسترقص الريح الهضابا
ولو أن العتاب يفيد شيئاً ... ملأت مسامع الدنيا عتابا
وقد وصيتها بالصمت عني ... فما صمتت ولا قالت صوابا
تعنفني على تركي بلاداً ... عهدت بها القرارة والشبابا
تقول وهل يفل السيف إلا ... إذا ما فارق السيف القرابا
فقلت وهل يضر السيف فل ... إذا قط الجماجم والرقابا
بخوض الهول تكتسب المعالي ... يحل السهل من ركب الصعاب
فليت الغاب يفترس الأناسي ... وليث البيت يفترس الذبابا
ولو كان انقضاض الطير سهلاً ... لكانت كل طائرة عقابا
دعيني والنهار أسير فيه ... أسير عزايم تفرى الصلابا
أغازل من غزالته فتاة ... تبيض فودها هرماً وشبابا
إذا شاءت مواصلتي تجلت ... وإن ملت توارت لي احتجابا
وأسري الليل لا ألوي عنانا ... ولو نيل الأماني لما أصابا
أطارح من كواكبه كماما ... وأزجر من دجنته غرابا

وأركب شهباً غيراً كباعي ... وخضراً مثل خاطري انسيابا
وآخذ من بنات الدهر حقي ... جهاز البيت استلب استلابا
ولست أذيل بالمدح القوافي ... ولا أرضى بخطتها اكتسابا
أأمدح من به أهجو مديحي ... إذا طيبت بالمسك الكلاما
سأخزنها عن الأسماع حتى ... أرد الصمت بينهما حجابا
فلست بمادح ما عشت إلا ... سيوفاً أو جياداً أو صحابا
أبا موسى وإني أخي وداد ... أناجي لو سمعت إذا أجابا
ولكن دون ذلك مهمة لو ... طوته الريح لم ترج الإيابا
أخي بر المودة كل بر ... إذا بر الأشقة الانتسابا

بعثت إليك من نظمي بدر ... شققت عليه من فكري عبابا
عداني الدهر إن يلقاك شخصي ... فأغني الشعر عن شخصي ونابا
وقال في الغرض الذي نظم فيه الرصافي من وصف بلده، وذكر إخوانه ومعاهده، مساجلاً في العروض والروى، عقب رسالة سماها رسالة طراد الجياد في الميدان، وتنازع اللدان والإخوان، في تنفيق مرسية على غيرها من البلدان.
هل رسول البرق يغتنم الأجرا ... فينشر عني ماء غيرته نثراً
معاملة أربو بها غير مذنب ... فأقضيه دمع العين من نقطة بحراً
ليسقني من تدمير قطرا محبباً ... يقر بعين القطر أن تشرب القطرا
ويقرضه ذوب اللجين وإنما ... توفيه عيني من مدامعها تبرا
وما ذاك تقصيراً بها غير أنه ... سجية ماء البحر أن يذوي الزهرا
خليلي قوما فأحبسا طرق الصبا ... مخافة أن تحمى بزفرتي الحرا
فإن الصبا ريح على كريمة ... بآية ما تسري من الجنة الصغرا
خليلي أعني أرض مرسية المنا ... ولولا توخي الصدق سميتها الكبرا
محلي بل جوى الذي عبقت به ... نواسم آدابي معطرة نشرا
ووكري الذي منه درجت فليتني ... فجعت بريش العزم كي ألزم الوكرا
وما روضة الخضراء قد شلت بها ... مجرتها نهراً وأنجمها زهرا
بأبهج منها والخليج مجرة ... وقد فضحت أزهار ساحتها الزهرا
وقد أسكرت أزهار أغصانها الصبا ... وما كنت أعتد الصبا قبلها خمرا
هنالك بين الغصن والقطر والصبا ... وزهر الربى ولدت آدابي الغرا
إذا نظم الغصن الحيا قال خاطري ... تعلم نظام النثر من ها هنا شعرا
وإن نثرت ريح الصبا زهر الربى ... تعلمت حل الشعر أسبكه نثرا
فوايد أسحار هناك اقتبستها ... ولم أر روضاً غيره يقرئ السحرا
كأن هزيز الريح يمدح روضها ... فتملأ فاه من أزاهرها دراً
أيارنقات الحسن هل فيك نظرة ... من الجرف الأعلى إلى السكة الغرا
فأنظر من هذي لتلك كأنما ... أغير إذ غازلتها أختها الأخرا

هي الكاعب الحسناء تمم حسنها ... وقدت لها أوراقها حللاً خضرا
إذا خطبت أعطت دراهم زهرها ... وما عادة الحسناء أن تنقد المهرا
وقامت بعرس الأنس قينة أيكة أغاريدها تسترقص الغصن النضرا
فقل في خليج يلبس الحوت درعه ... ولكنه لا يستطيع بها قصرا
إذا ما بدا فيها الهلال رأيته ... كصفحة سيف وسمها قبعة صضرا
وإن لاح فيها البدر شبهت متنه ... بسطر لجين ضم من ذهب عشرا
وفي جرفي روض هناك تجافيا ... لنهر يود الأفق لو زاره فجرا
كأنهما خلا صفاء تعاتبا ... وقد بكيا من رقة ذلك النهرا
وكم لي بالباب الجديد عشية ... من الأنس ما فيه سوى أنه مرا
عشيات كأن الدهر غص بحسنها ... فأجلت سياط البرق أفراسها الشقرا
عليهن أجرى خليل دمعي بوجنتي ... إذا ركبت حمراً ميادينها الصفرا
أعهدي بالغرس المنعم دوحه ... سقتك دموعي إنها مزنة شكرا
فكم فيك من يوم أغر محجل ... تقضت أمانيه مخلدها ذكرا
على مذنب كالنحر من فرط حسنه ... تود الثريا أن تكون له نحرا
سقت أدمعي والقطر أيهما انبرى ... ثقا الرملة البيضاء فالنهر فالجسرا
وإخوان صدق لو قضيت حقوقهم ... لما فارقت عيني وجوههم الزهرا
ولو كنت أقضي حق نفسي ولم أكن ... لما بت أستحلي فراقهم المرا

وما اخترت هذا البعد إلا ضروة ... وهل تستجير العين أن تفقد الشقرا
قضى الله أن ينأى بي الدهر عنهم ... أراد بذاك الله أن أعتب الدهرا
ووالله لو نلت المنا ما حمدتها ... وما عادة المشغوف أن يحمد الهجرا
أيانس باللذات قلبي ودونهم ... مرام يجد الركب في طيها شهرا
ويصحب هادي الليل راء وحرفة ... وصاداً ونوناً قد تقوس واصفرا
فديتهم بانوا وضنوا بكتبهم ... فلا خبراً منهم لقيت ولا خبرا
ولولا علا هماتهم لعتبتهم ... ولكن عراب الخيل لا تحمل الزجرا
ضربت غبار البيد في مهرق السرى ... بحيث جعلت الليل في ضربه حبرا
وحققت ذاك الضرب جمعاً وعدة ... وطرحاً وتجميلاً فأخرج لي صفرا
كأن زماني حاسب متعسف ... يطارحني كسراً أما يحسن الجبرا
فكم عارف بي وهو يحسب رتبتي ... فيمدحني سراً ويشتمني جهرا
لذلك ما أعطيت نفسي حقها ... وقلت لسرب الشعر لا تهم الفكرا
فما برحت فكري عذاري قصايدي ... ومن خلق العذراء أن تألف الخدرا
ولست وإن طاشت سهامي بايس ... فإن مع العذر الذي يتقى يسرا
ومن مقطوعاته:
يا قمرا مطلعه أضلعي ... له سواد القلب منها غسق

وربما استوقد نار الهوى ... فناب فيها لوهما عن شفق
ملكتني في دولة من صبا ... وصدتني في شرك من حدق
عندي من حبيبك ما لو سرت ... في البحر منه شعلة لاحترق
ومن مقطوعاته أيضاً:
قد كان لي قلب فلما فارقوا ... سوى جناحاً للغرام وطارا
وجرت سحاب بالدموع فأوقدت ... بين الجوانح لوعة وأوارا
ومن العجايب أن فيض مدامعي ... ماء ويقمر في ضلوعي نارا
وشعره الرمل والقطر كثرة، فلنختم له المقطوعات بقوله:
قالوا وقد طال بي مدى خطئ ... ولم أزل في تجرمي ساه
أعددت شيئاً نرجو النجاة به ... فقلت أعددت رحمة الله
نثره

كتب يهني، قاضي الجماعة أبا القاسم بن بقي من رسالة: لأن قدره، دام عمره، وامتثل نهيه الشرعي وأمره، أعلى رتبة، وأكرم محلاً، من أن يتحلى بخطة هي به تتحلى. كيف يهنأ بالقعود لسماع دعوة الباطل، ولمعاناة الإنصاف الممطول من الماطل، والتعب في المعادلة، بين ذوي المجادلة. أما لو علم المتشوقون إلى خطة الأحكام، المستشرقون إلى ما لها من التبسط والاحتكام، ما يجب لها من اللوازم، والشروط الجوازم، كبسط الكنف، ورفع الجنف، والمساواة بين العدو وذي الذنب، والصاحب بالجنب، وتقديم ابن السبيل، على ذي الرحم والقبيل، وإيثار الغريب على القريب، والتوسع في الأخلاق، حتى لمن ليس له من خلاق، إلى غير ذلك مما علم قاضي الجماعة أحصاه، واستعمل لخلقه الفاضل أدناه وأقصاه، لجعلوا حمولهم ما مولهم، وأضربوا عن ظهورهم، فنبذوه وراء ظهورهم، اللهم إلا من أوتى بسطة في العلم، ورسا طوداً في ساحة الحلم، وتساوى ميزانه في الحرب والسلم، وكان كقاضي الجماعة، في المماثلة بين أجناس الناس، فقصاراه أن يتقلد الأحكام للأجر، لا المتعسف والزجر، ويتولاها للثواب. لا للغلظة في رد الجواب، ويأخذها لحسن الجزاء، لا لقبح الاستهزاء، ويلتزمها لجزيل الذخر لا للإزراء والسخر. فإذا كان كذلك، وسلك المولي هذا السالك، وكان كقاضي الجماعة ولا مثل له، ونفع الحق به علله، ونقع غلله، فيومئذ تهنأ به خطة القضاء، ويعرف ما لله عليه من اليد البيضاء.
ومحاسنه في النثر أيضاً جمة.

ومن أخباره أنه رحل إلى مراكش متسبباً في جهاز بنت بلغت التزويج، وقصد دار الإمارة مادحاً، فما تيسر له شيء من أمله، ففكر في خيبة قصده، وقال لو كنت تأملت جهة الله، ومدحت المصطفى صلى الله عليه وسلم، وآل بيته الطاهرين، لبلغت أملي بمحمود عملي. ثم استغفر الله في توجهه الأول، وعلم أن ليس على غير الثاني من معول، فلم يكن إلا أن صوب نحو هذا القصد سهمه، وأمضى فيه عزمه، وإذا به قد وجه عنه، وأدخل على الخليفة، فسأله عن مقصده. فأخبره مفصحاً به فأنفذه وزاده عليه، وأخبره أن ذلك لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم بأمره بقضاء حاجته. فانفصل موفي الأغراض، واستمر في مدح أهل البيت حتى اشتهر في ذلك.
وفاته

سنة ثمان وتسعين وخمسماية، وسنه دون الأربعين سنة، وصلى عليه أبوه، فإنه كان بمكان من الدين والفضل رحمة الله عليه، وتلقيت من جهات، أنه دخل غرناطة، لما امتدح القايد أبا عبد الله بن صناديد بمدينة جيان، حسبما يظهر من عجالته، من غير تحقيق لذلك.

صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم

ابن علي بن شريف النفري

من أهل رندة، يكنى أبا الطيب.

حاله

قال ابن الزبير، شاعر مجيد في المدح والغزل، وغير ذلك. وعنده مشاركة في الحساب والفرايض. نظم في ذلك. وله تواليف أدبية، وقصايد زهدية، وجزء على حديث جبريل عليه السلام، وغير ذلك مما روى عنه. وكان في الجملة معدوداً في أهل الخير، وذوي الفضل والدين. تكر لقائي إياه، وقد أقام بمالقة أشهراً، أيام إقراءي. وكان لا يفارق مجالس إقراءي، وأنشدني كثيراً من شعره.

وقال ابن عبد الملك، كان خاتمة الأدباء بالأندلس، بارع التصرف في منظوم الكلام ومنثوره، فقيهاً حافظاً، فرضيا، متفنناً في معارف شتى، نبيل المقاصد، متواضعاً، مقتصداً في أحواله. وله مقامات بديعة في أغراض شتى، وكلامه نظما ونثرا، مدون.

مشيخته

روى عن آباء الحسن أبيه، والدباج، وابن الفخار الشريشي، وابن قطرال، وأبي الحسن بن زرقون، وأبي القاسم بن الجد.

تواليفه

ألف جزءا على حديث جبريل، وتصنيفاً في الفرايض وأعمالها، وآخر في العروض، وآخر في صنعة الشعر سماه الوافي في علم القوافي وله كتاب كبير سماه روضة الأنس، ونزهة النفس.

دخوله غرناطة

وكان كثير الوفاد على غرناطة، والترد إليها، يسترفد، ملوكها، وينشد أمراءها، والقصيدة التي أولها:

أواصلتي يوماً وهاجرتي ألفاً

أخبرني شيخنا أبو عبد الله اللوشي، أنه نظمها باقتراح السلطان رحمه الله. وقد أوعز إليه ألا يخرج عن بعض بساتين الملك، حتى يكملها في معاضة محمد بن هاني الإلبيري.

شعره

وهو كثير، سهل المأخذ، عذب اللفظ، رايق المعنى، غير مؤثر للجزالة. فمن ذلك قوله رحمه الله في غرض المدح من السلطانيات:

سرى والحب أمر لا يرام ... وقد أغرى به الشوق والغرام

وأغفى أهلها إلا وشاة ... إذا نام الحوادث لا تنام

وما أخفا بين القوم إلا ضناً ... وربما نفع السقام

فنال بها على قدر مناه ... وبين القبض والبسط القوام

وأشهى الوصل ما كان اختلاسا ... وخير الحب ما فيه اختتام
وما أحلى الوصال لو أن شيئاً ... من الدنيا للذته دوام
بكيت من الفراق بغير أرضي ... وقد يبكي الغريب المستهام
أعاذلتي وقد فارقت إلفي ... أمثلي في صبابته يلام
أأفقده فلا أبكي عليه ... يكون أرق من قلبي الحمام
أأنساه فأحبه كصبري ... وهل ينسى لمحبوب ذمام
رويداً إن بعض اللوم لوم ... ومثلي لا ينهنهه الملام
ويوم نوى وضعت الكف فيه ... على قلب يطير به الهيام
ولولا أن سفحت به جفوناً ... تفيض دماً لأحرقها الضرام
وليل بته كالدهر طولاً ... تنكر لي وعرفه التمام
كأن سماه زهر تجلى ... بزهر الزهر والشوق الكمام
كأن البدر تحت الغيم وجه ... عليه من ملاحه لثام

كأن الكوكب الدري كأس ... وقد رق الزجاجة والمدام
كأن سطور أفلاك الدراري ... قسي والرجوم لها سهام
كأن مدار قطب بنات نعش ... ندي والنجوم به ندام
كأن بناته الكبرى جوار ... حوار والسهى فيها غلام
كأن بناته الصغرى جمان ... على لباتها منها نظام
كواكب بت أرعاهن حتى ... كأني عاشق وهي الذمام
إلي أن مزقت كسف الثريا ... جيوب الأفق وانجاب الظلام
فما خلت انصداع الفجر إلا ... قراباً ينتضي مسنه حام
وما شبهت وجه الشمس إلا ... بوجهك أيها الملك الهمام
وإن شبهته بالبدر يوماً ... فللبدر الملاحة والتمام
تملل منه حسن الدهر حتى ... كأنك في محياه ابتسام
وعرف ما تنكر من معال ... كأنك لاسمها ألف ولام
ومل العين منك جلال مولى ... صنائعه كغرته وسام
إذا ما قيل في يده غمام ... فقد بخست وقد خدع الغمام
وحشو الدرع أروع غالبي ... يراع بذكره الجيش اللهام
إذا ما سل سيف العزم يوما ... على أمر فسلم يا سلام
تناهى مجده كرماً وبأساً ... فما يدري أمحياً أم حمام
نمته للمكارم والمعالي ... سراة من بني نصر كرام
هم الأنصار هم نصروا وآووا ... ولولا المسك ما طاب الختام
وهم قادوا الجيوش لك فتح ... ولولا الجد ما قطع الحسام
وهم منحوا الجزيرة من حماهم ... جواراً لا يذم ولا يضام

فمن حرب تشيب له النواصي ... وسلم تحيته سلام
بسعدك يا محمد عز دين ... وغب السلم نصر مستدام
وكان مرامه صعباً ولكن ... بحمد الله قد سهل المرام
أدام الله أمرك من أمير ... وما للعروة الوثقى انفصام
وروح أنت والجسم المعالي ... ومعنى أنت وللفظ الأنام
إذا ما ضاقت الدنيا بحر ... كفاه لثم كفك والسلام
ومن شعره أيضاً:
أواصلتي يوماً وهاجرتي ألفاً ... وصالك ما أحلى وهجرك ما أجفا
ومن عجب للطيف أن جاء واهتدى ... فعاد عليلاً عاد كالطيف أم أخفا
فيا سايراً لولا التخيل ما سرى ... ويا شاهداً لولا التعلل ما أغفا
ألم فأحياني وولي فراعني ... ولم أرى أجفى منك طبعاً ولا أشفا
بعيني شكواي للغرام وتيهه ... إلى أن تثنى عطفه فانثني عطافا
فعانقته شوقاً وقبلته هوى ... ولا قبلة تكفي ولا لوعة تطفا
ومن نزعاته العجيبة قوله، وقد سبق إلى غرضه غيره:
يا طلعة الشمس إلا إنه قمر ... أما هواك فلا يبقى ولا يذر
كيف التخلص من عينيك لي ومتى ... وفيهما القاتلان الغنج والحور
وكيف يسلى فؤادي عن صبابته ... ولو نهى الناهيان الشيب والكبر
أنت المنا والمنايا فيك قد جمعت ... وعندك الحالتان النفع والضرر
ولي من الشوق ما لا دواء له ... ومنك لي الشافيان القرب والنظر
وفي وصالك ما أبقى به رمقي ... لو ساعد المسعدان الذكر والقدر
وكان طيف خيال منك يقنعني ... لو يذهب المانعان الدمع والسهر
يا نابياً لم يكن إلا ليملكني ... من بعده المهلكان الغم والغير
ما غبت إلا وغاب الجنس أجمعه ... واستوحش المؤنسان السمع والبصر
بما تكن ضلوعي في هواك بمن ... يعنو له الساجدان النجم والشجر
إدرك بقية نفس لست مدركها ... إذا مضى الهاديان العين والأثر

ودل حيرة مهجور بلا سبب ... يبكي له القاسيان الدهر والحجر
وإن أبيت فلي من ليس يسلمني ... إذا نبا المذهبان الورد والصدر
مؤيداً لملك بالآراء يحكمها ... في ضمنها المبهجان اليمن والظفر
من كالأمير أبي عبد الآله إذا ما ... خانت القدمان البيض والسمر
الواهب الخيل آلافا وفارسها ... إذا استوى المهطعان الصر والصبر
والمشبه الليث في بأس وفي خطر ... ونعمت الحليتان البأس والخفر
تأمن الناس في أيامه ومشوا ... كما مشى الصاحبان الشاة والنمر
وزال ما كان من خوف ومن حذر ... فما ير الدايلان الخوف والحذر

رأيت منه الذي كنت أسمعه ... وحبذا الطيبان الخبر والخبر
ما شيت من شيم عليا ومن شيم ... كأنها الرايقان الظل والزهر
ومنا أردت من إحسان ومن كرم ... ينسى به الأجودان البحر والمطر
وغرة يتلألأ من سماحتها ... كأنها النهران الشمس والقمر
إيه فلولا دواع من محبته ... لم يسهل الأصعبان البين والخطر
نأيت عنه اضطرارا ثم عدت له ... كما اقتضى المبرمان الحل والسفر
فإن قضى الله أن يقضي به أملي ... فحسبي المحسبان الظل والثمر
ولست أبعد إذ والحال متسع ... أن يبلغ الغايبان السؤل والوطر
ومن شعره في أغراض متعددة. قال في الليل والسهر:
أطال ليلى الكمد ... فالدهر عندي سرمد
وما أظن أنه لليلة الهجر غد
أقد هنياً إنني ... لا أستطيع أرقد
لواعج ما تنطفي ... وأدمع تضطرد
وكبدي كبد الهوى ... وأين مني الكبد
ولا تسل عن جلدي ... والله مالي جلد
ومن شعره أيضاً في المقطوعات:
وليلة قصر من طولها ... بزورة من رشاً نافر
أستوفر الدهر بها غالطاً ... فأدغم الأول والآخر
وقال من قصيدة مغربة في الإحسان:
وليلة نبهت أجفانها ... والفجر قد فجر نهر النهار
والليل كالمهزوم في يوم الوغا ... والشهب مثل الشهب عند الفرار
كأنما استخفى السهى خيفة ... وطولب النجم بثأر فثار
لذاك ما شابت نواصي الدجى ... وطارح النسر أخاه فطار
وفي الثريا قمر سافر ... عن غرة غير منها الشفار
كأن عنقوداً بها ماثل ... إذ صار كالعرجون عند السرار
كأنها تسبك ديناره ... وكفها تفتل منه سوار
كأنما الظلماء مظلومة ... تحكم الفجر عليها فجار
كأنما الصبح لمشتاقه ... إقبال دنيا بعد ذل افتقار
كأنما الشمس وقد أشرقت ... وجه أبي عبد الآله استنار
وفي وصف البحر والأنهار وما في معنى ذلك:
البحر أعظم مما أنت تحسبه ... من لم ير البحر يوما ما رأى عجبا
طام له حبب طاف على زورق ... مثل السماء إذا ما ملئت شهبا
وقال في وصف نهر:

وأزرق محفوف بزهر كأنه ... نجوم بأكناف المجرة تزهر
يسيل على مثل الجمان مسلسلا ... كما سل عن غمد حسام مجوهر
وقد صافح الأدواح من صفحاته ... حتى حباب بالنسيم مكسر
فما كان في عطف الخليج قلامة ... وما كان في وجه الغدير فمغفر
وفي العقل والتغرب:
ما أحسن العقل وآثاره ... لو لازم الإنسان إيثاره
يصون بالعقل الفتى نفسه ... كما يصونه الحر أسراره
لا سيما إن كان في غربة ... يحتاج أن يعرف مقداره
ومن وصفه الجيش والسلاح:
وكتيبة بالدرعين كثيفة ... جرت ذيول الجحفل الجرار

وروض المنايا بينها القضب التي ... زفت بها الرايات كالأزهار
فيها الكماة بنو الكماة كأنها ... أسد الشرى بين القنا الخطار
متهللين لدى اللقاء كأنهم ... خلقت وجوههم من الأقمار
من كل ليث فوق برق خاطف ... بيمينه قدر من الأقدار
من كل ماض قد تقلد مثله ... فيصب آجالاً على الأعمار
لبسوا القلوب على الدروع وأسرعوا لأكفهم ناراً لأهل النار
وتقدموا ولهم على أعدايهم ... حنق العدا وحمية الأنصار
فارتاع ناقوس بخلع لسابه ... وبكى الصليب لذلة الكفار
ثم انثنوا عنه وعن عباده ... وقد أصبحو خيراً من الأخبار
وفي السيف:
وأبيض صيغ من ماء ومن لهب ... على اعتدال فلم يخمد ولم يسل
ماضي الغرار يهاب العمر صولته ... كأنما هو مطبوع من الأجل
أبهى من الوصل بعد الهجر منظره ... حسناً وأقطع من دين على مال
وأسمر ظن ما كل سابغة فخاض كالأيم يستشفى من النهل
هام الكماة به حباً ولا عجب ... من لوعة بمليح القد معتدل
إذا الطعين تلقاه وأرعفه ... حسبته عاشقاً يبكي على طلل
ومن ذلك قوله في وصف قوس:
تنكبها كحاجبه وسوى ... بأهداف الجفون لها نبالا
فلم أر قبله بدراً منيرا ... تحمل فوق عاتقه هلالا
ومن ذلك وصف قلم:
وأصفر كالصب في رونق ... تظن به الحب ممن نحل
بديع الصفات حديد السبات ... يطول الرماح وإن لم يطل
يعبر عما وراء الضمير ... ويفعل ما فعل الظبا والذبل

ومن ذلك قوله فيما يظهر منها:

تفاخر السيف فيما قيل والقلم ... والفصل بينهما لا شك من فهم

كلاهما شرف الله درهما ... وحبذ الخطتان الحكم والحكم

ومن ذلك قوله في سكين الدواة:

أنا صمصامة الكتابة مالي ... من شبيه في المرهفات الرقاق

فكأني في الحسن يوم وصال ... وكأني في القطع يوم فراق

ومن ذلك قوله في المقص:

ومعتنقين ما اشتهرا بعشق ... وإن وصفا بضم واعتناق

لعمر أبيك ما اعتنقا لمعنى ... سوى معنى القطيعة والفراق

ومن ذلك قوله في الورد:

الورد سلطان كل زهر ... لو إنه دايم الورود

بعد خدود الملاح شيء ... ما أشبه الورد بالخدود

ومن ذلك قوله في الخيري:

وأزرق كمثل السماء ... فيه لمن ينظر سر عجيب

شح مع الصبح بأنفاسه ... كأنما الصبح عليه رقيب

وباح بالليل بأسراره ... لما رأى الليل نهار الأريب

ومن ذلك قوله في الريحان:

وأخضر فستقي اللون غض ... يروق بحسن منظره العيونا

أغار على الترنج وقد حكاه ... وزاد على اسمه ألفاً ونونا

وقال من جملة قصايده المطولات، التي تفنن فيها رحمه الله:

وغانية يغنى عن العود صوتها ... وجارية تسقى وساقية تجري

بحيث يجر النهر ذيل مجرة ... يرف على حافاتها الزهر كالزهر

وقد هزت الأرواح خصر كتايب ... بألوية بيض على أسل سمر

رمى قزح نبلاً إليها فجردت ... سيوف سواقيها على دارع النهر

وهبت صبا نجد فجرت غلايلا ... تجفف دمع الطل عن وجنة الزهر

كأن بصفح الروض وشى صحيفة ... وكالألفات القضب والطرس كالتبر

كأن به الأقحوان خواتما ... مفضضة فيها فصوص من التبر

كأن به النرجس الغض أعيا ... ترقرق في أجفانها أدمع القطر

كأن شذا الخيري زورة عاشق ... يرى أن جنح الليل أكتم للسرر

وقال في وصف الرمان:

لله رمانة قد راق منظرها ... فمثلها بيديع الحسن منعوت

القشر حق لها قد ضم داخله ... والشحم قطن والحب ياقوت

أنظر إلى جذر في اللون مختلف ... البعض من سج والبعض من ذهب
ومن ذلك قوله في الجزر:
إن قلت قصب فقل قصب بلا ... زهر أو قلت شمع فقل شمع بلا لهب
وفي الاغتراب وما يتعلق به مما يقرب من المطولات:
غريب كما يلقى غريب ... فلا وطن لديه ولا حبيب
تذكر أصله فبكى اشتياقا ... وليس غريباً أن يبكي غريب
ومما هاج أشواقي حديث ... جرى فجرى له الدمع السكوب
ذكرت به الشباب فشق قلبي ... ألم تر كيف تنشق القلوب
على زمن الصبا فليبك ومثلي ... فما زمن الصبا إلا عجيب
جهلت شيبتي حتى تولت ... وقدر الشيء يعرف إذ يغيب
ألا ذكر الآله بكل خير ... بلاداً لا يضيع بها أديب
بلاد ماؤها عذب زلال ... وريح هوائها مسك رطيب
بها قلبي الذي قلبي المعنى ... يكاد من الحنين له ينوب
رزقت الصبر بلين أبي وأمي ... كلانا بعد صاحبه كئيب
ألا فتوخ بعدى من أؤاخي ... ودع ما لا يريب لما يريب
ولا تحكم بأول ما تراه ... فإن الفجر أوله كذوب
إلا إنا خلقنا في زمان ... يشيب بهوله من لا يشيب
وقد لذ الحمام وطاب عندي ... وعيشي لا يلذ ولا يطيب
لحى الله الضرورة فهي بلوى ... تهين الحر والبلوى ضروب
رأيت المال يستر كل عيب ... ولا تخفى مع الفقر العيوب
وفقد المال في التحقيق عندي ... كفقد الروح ذا من ذا قريب
وقد أجهدت نفسي في اجتهاد ... وما أن كل مجتهد مصيب
وقد تجري الأمور على قياس ... ولو تجري لعاش بها اللبيب
كأن العقل للدنيا عدو ... فما يقضي بها أرباً أريب
إذا لم يرزق الإنسان بختاً ... فما حسناته إلا ذنوب
ومن نسيبه قوله في بادرة من حمام:
برزت من الحمام تمسح وجهها ... عن مثل ماء الورد بالعناب
والماء يقطر من ذوائب شعرها ... كالطل يسقط من جناح غراب
فكأنها الشمس المنيرة في الضحى ... طلعت علينا من خلال سحاب
ومن مقطوعاته أيضاً قوله:
ومتيم لو كان صور نفسه ... ما زادها شيئاً سوى الإشفاق
ما كان يرضى بالصدود وإنما ... كثرت عليه مسائل العشاق
وقال:

وافي وقد زانه جمال ... فيه لعشاقه اعتذار
ثلاثة ما لها مثال ... الوجه والخد والعذار
فمن رآه رأى رياضا ... الورد والآس والبهار
ومن ذلك قوله في ذم إخوة السوء:
ليس لإخوة باللسان أخوة ... فإذا تراد أخوتي لا تنفع
لا أنت في الدنيا تفرج كربه ... عني ولا يوم القيامة تشفع
وقال كذلك:
ولقد عرفت الدهر حين خبرته ... وبلوت بالحاجات أهل زمان
فإذا الأخوة باللسان كثيرة ... وإذا الدراهم ميلق الإخوان
من ذلك قوله في الصبر:
الدهر لا يبقى على حاله ... لكنه يقبل أو يدبر
فإن تلقاك بمكروهه ... فاصبر فإن الدهر لا يصبر
ومن ذلك قوله في الموت:
الموت سر الله في خلقه ... وحكمة دلت على قهره
ما أصعب الموت وما بعده ... لو فكر الإنسان في أمره
أيام طاعات الفتى وحدها ... هي التي تحسب من عمره
لا تلهك الدنيا ولذاتها ... عن نهي مولاك ولا أمره
وأنظر إلى من ملك الأرض هل ... صح له منها سوى قبره
نثره

قال في كتاب روضة الأنس ما نصه:

ويتعلقبهذا الباب، ما خاطبني به الفقيه الكاتب الجليل، أبو بكر البرذعي من أهل بلدنا، أعزه الله: أخبرك بعجاب، إذ لا سر دونك ولا حجاب، بعد أن أتقدم إليك أن لا تجعل باللوم إلى قبل علم ما لدي، فإن الدهر أخدع من كفة الحابل، وقلب الإنسان للآفات قابل. مشيت يوماً إلى سوق الرقيق، لأخذ حق فؤاد عتيق، فرأيت بها جارية عسجدية اللون، حديثة عهد بالصون، متمايلة القد، قايمة النهد، بلحظ قد أوتى من السحر أوفر حظ، وفم كشرطة رشحت بدم، داخله سمطان لولاهما ما عرف النظم، ولا حكم على الدر للعظم، في صدغها لامان، ما خط شكلهما قلم، ولا قص مثلهما حلم. لها جيد تتمناه الغيد، وخصر هو قبضة الكف في الحصر، وردف يظلمه من يشبه به بالحقف، ويدان خلقا للوشي، وقدمان أهلتا للثم لا للمشي، فتطاولت إليها الأعناق، وبذلت فيها الأعلاق، والمياسير عليها مغرم في القوم، وتسوم أهل السوم، وكل فيها يزيد، ليبلغ ما يريد، إلى أن جاء فتى صادق في حبه، لا يبالي بفساد ماله في صلاح قلبه، قعد المال عداً، ولم يجد غيره من التسليم بداً، فلما فاتتني، تركت الأشواق وأتتني، وانتقضت عزايم صبري فيما أتتني، فالله الله، تدارك أخاك سريعاً، قبل أن تلفيه من الوجد صريعاً، واستنزل خادماً، قبل أن تصبح عليه نادماً، ولن أحتاج أن أصفها إليك مع ما قصصته عليك، وقد أهديتها دراً، فخذها على جهة الفكاهة والدعابة.

ولا تطلع أخا جهل عليها ... فمن لم يدر قدر الشي عابه

فأجبته، نعم نعم، أنعم الله بالك، وسنى آمالك، أنا بحول الله أرتاد لك، من نحو هاتيك، ما يسليك ويؤاتيك، وإلا فبيضاً كاللجين، هل القلب والعين، زهرة غصن في روضة حسن، ذات ذوايب، كأنها الليل على نهار، أو بنفسج في بهار. لها وجه أبهى من الغنا، وأشهى من نيل المنا، فيه حاجبان كأنهما قوس صنعت من السبح، ورصعت بعاج من البلح، على عينين ساحرتين، وبالعقل ساخرتين، بهما تصاب الكبود، وتشق القلوب قبل الجلود، إلى فم كأنه ختام مسك، على نظام سلك، سقاه الحسن رحيقه، فأنبتت دره وعقيقه، وجيد في الحسن وحيد، على صدر كأنه من مرمر، فيه حقتا عاج طوقتا بعنبر، قد خلقتا لعض، في جسم غض، له خصر ملمج، وردفه يتموج، وأطراف كالعنم، رقمت رقم القلم، من اللايي شهدن ابن المؤمل، وقال في مثلها الأول، إن هي تاهت فمثلها تاها، أو هي باهت فمثلها باها، من أين للغصن مثل قامتها، أو أين لبدر مثل مرآها، ما فعلت في العقول صابية. ما فعلت في العقول عيناها، تملكني بالهوى وأملكها، فهأنا عبدها ومولاها، فأيهما لست بذلت فيه الجهد، وأرقيت للمجد والود إن شاء الله تعالى. وأنا فيما عرض لسيدي، حفظه الله، على مايحب، أعذره ولا أعذله، وأنصره ولا أخذله لكني أقول كما قال بعض الحكماء، لا ينبغي لمن قلبه رقيق، أن يدخل سوق الرقيق، إلا أن يكون قد جمع بين المال والجمال، يتنافس في العالي، ويسترخص بالثمن الغالي، ولا يبالي بما قال الأيمة، إذا وجد من يلايمه، كما قال الشاعر:

ما انتفاع المحب بالمال إذا ... لم يتوصل به لوصل الحبيب

إنما ينبغي بحكم الهوى أن ... ينفق المال في صلاح القلوب

والسلام على سيدي، ما كانت الفكاهة من شأن الوفا، والمداعبة من شيم الظرفا، ورحمة الله وبركاته.

مولده: ولد في محرم سنة إحدى وستماية.

وفاته: توفي في عام أربعة وثمانين وستماية.

نقلت من خط صاحبنا الفقيه المؤرخ، أبي الحسن بن الحسن. قال: أنشدني الشيخ الراوية الأديب القاضي الفاضل أبو الحجاج يوسف بن موسى بن سليمان المتشافري، قال أنشدني القاضي الفاضل أبو القاسم ابن الوزير أبي الحجاج ابن الحقالة، قال أنشدني الأديب أبو الطيب صالح بن أبي خالد يزيد بن صالح بن شريف الرندي لنفسه، ليكتب على قبره:

خليلي بالود الذي بيننا اجعلا ... إذا مت قبرى عضة للترحم

عني مسلم يدنو فيدعو برحمة ... فإني محتاج لدعوة مسلم

حرف العين

من ترجمة الملوك والأمراء

عبد الله بن إبراهيم بن علي بن محمد التجيبي، الرئيس

أبو محمد بن إشقيلولة

أوليته

قد مر شيء من ذلك في اسم الرئيس أبي إسحق أبيه.

حاله

كان أميراً شهما، مضطلعاً بالقضية، شهير المواقف، أبي النفس، عالي الهمة، انتزى على خاله أمير المسلمين الغالب بالله، وكان أملك لما بيده من مدينة وادي آش ما إليها، معززاً بأخيه الرئيس أبي الحسن مظاهره في الأمر، ومشاركه في السلطان، واستمرت الحال مدة حياة خاله السلطان. ولما صار أمر إلى مخيفه ولي العهد. استشرى الداء، وأعضل الأمر، وعمت الفتنة، وزاحمه السلطان بالمنكب، انفجم، واعتوره بالحيلة، حتى تحيف أطرافه، وكان ما هو معلوم، من إجازة أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق البحر إلى الجهاد. ومال الحال بينه وبين السلطان أمير المسلمين أبي عبد الله بن نصر إلى التقاطع، وتصيرت مالقة إلى الإيالة المغربية، ثم عادت إلى السلطان.

وفي أخريات هذه الأحوال، أحكم السلطان مع طاغية الروم، السلم، وصرف وجهه إلى مطالبة الرئيس أبي محمد، صاحب وادي آش، فالجأه الحال إلى أن صرف الدعوة بوادي آش إلى السلطان بالمغرب ورفع شعاره، فأقعد عنه. ووقعت مراسلات، أجلت عن انتقال الرئيس أبي محمد إلى المغرب، معوضاً عن مدينة وادي آش بقصر كتامة، وذلك في عام تسعة وثمانين وستماية.

وفاته

دخلت قصر كتامة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من ذي قعدة عام خمسة وخمسين وسبعماية في غرض الرسالة، وزرت مقبرة الرؤساء بني إشقيلولة بظاهرها، وفي قبة ضخمة البناء رحيبة الفناء، نسيجة وحدها بذلك البلد، بين منازل البلى، وديار الفناء، وبها قبر الرئيس أبي محمد هذا، عن يسار الداخل، بينه وبين جدار القبلة قبر، وسنامه رخام متوب عليه:

قبر عزيز علينا ... لو أن من فيه يفدا

أسكنت قرة عيني وقطعة القلب لحدا

ما زال حكماً عليه ... وما القضاء تعدا

فللصبر أحسن ثوب ... به العزيز تردا

وعند رأس السنام الرخامي، مهد مائل من الرخام فيه: " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله، وسلم تسليماً. هذا قبر الرييس الجليل، الأعلى الهمام، الأوحد، الأسعد، المبارك، الأسنى، الأسمى، الأحفل، الأكمل، المجاهد، المقدس، المرحوم، أبي عبد الله، ابن الررئيس الجليل، الهمام، الأوحد، الأسعد، المبارك، الأمضى، الأسنى، الأسمى، المعظم، المرفع، المجاهد، الأرضى، المقدس، المرحوم أبي إسحق إبراهيم بن إشقيلولة، رحمه الله وعفا عنه، وأسكنه جنته. ظهر عفا الله عنه، بوادي آش، أمنها الله، قاعدة من قواعد الأندلس، وتسلكن، ونشرت علامات سلطنته، وضربت الطبول. وجاهد منها العدو، قصمه الله، وظهر على خاله سلطان الأندلس، وأقام في سلطنته، نحواً من ثلاث وعشرين سنة. ثم قام بدعوة الملك الأعلى، السلطان المؤيد المنصور، أمير المسلمين، المؤيد بالله أبي يعقوب أيده الله بنصره، وأمده بمعونته ويسره، فتنحى عن الأندلس للمغرب، أنسه الله، في جماد الأولى من عام ستة وثمانين وستماية، فأعطاه أيده الله، قصر عبد الكريم أمنه الله، وأنعم عليه، فأقام به مدة من ثمانية أعوام، وجاز منه إلى الأندلس، أمنها الله، وجاهد بها مرتين، ثم رجع إلى قصر عبد الكريم المذكور، وتوفي،

شرف الله روحه الطيبة المجاهدة، عشي يوم السبت العاشر من شهر محرم سنة خمس وتسعين وستماية.

عبد الله بن زيرى بن مناد الصنهاجي

عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيرى بن مناد الصنهاجي أمير غرناطة.

أوليته: قد مر من ذلك في اسم جده ما فيه كفاية.

حاله

لقبه المظفر بالله، الناصر لدين الله. ولى بعد جده باديس في شوال سنة خمس وستين وأربعمائة، وصحبه سماجه الصنهاجي تسع سنين. قال الغافقي، وكان قد حاز حظاً وافراً من البلاغة والمعرفة، شاعراً، جيد الشعر، مطبوعه، حسن الخط. كانت بغرناطة ربعة مصحف بخطه في نهاية الصنعة والإتقان. ووصفه ابن الصيرفي فقال، كان جباناً مغمد السيف، قلقاً، لا يثبت على الظهر، عزهاة لا أرب له في النساء، هيابة، مفرط الجزع، يخلد إلى الراحات، ويستوزر الأغمار.

خلعه

قال، وفي عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة، تحرك أمير المسلمين، يوسف ابن تاشفين، لخلع رؤساء الأندلس، فأجاز البحر، ويمم قرطبة، وتواترت الأنباء عن حفيد باديس صاحب غرناطة، بما يغيظه ويحقده، حسبما تقدم في اسم مؤمل، مولى باديس. وقدم إلى غرناطة أربع محلات، فنزلت بمقربة منها، ولم تمتد يد إلى شيء يوجد، فسر الناس واستبشروا، وأمنت البادية، وتمايل أهل الحاضرة إلى القوى. وأسرع حفي باديس في المال، وألحق السوقة والحاكة، واستكثر من اللفيف، وألح بالكتب على أذفونش بما يطمعه. وتحقق يوسف بن تاشفين استشراف الحضرة إلى مقدمه، فتحرك. وفي ليلة الأحد لثلاث عشرة خلت من رجب، اجتمع إلى حفيد باديس صنائعه، فخوفوه من عاقبة التربص، وحملوه على الخروج إليه، فركب وركبت أمه وتركا القصر على حاله، ولقي أمير المسلمين، على فرسخين من المدينة، فترجل، وسأله العفو، فعفا عنه، ووقف عليه، وأمره بالركوب، فركب، وأُبل حتى نزل بالمشايخ من خارج الحضرة. وضطربت المحلات، وأمر مؤملاً بثقافه في القصر، فتولى ذلك، وخرج الجم من أهل المدينة، فبايعوا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فلقيهم، وأنسهم، وسكن جأشهم، فاطمأنوا. وسهل مؤمل إليه دخول الأعيان، فأمر بكتب الصكوك، ورفع أنواع القبالات والخراج، إلا زكاة العين، وصدقة الماشية، وعشر الزرع. واستقصى ما كان بالقصر، فظهر على ما يحول الناظر، ويروع الخاطر، من الأعلاق والذخيرة، ولاحلي، ونفيس الجوهر، وأحجار الياقوت، وقصب المزمرد، وآنية الذهب والفضة، وأطباق البلور المحكم، والجردإذانات، والعراقيات، والثياب الرفيعة، والأنماط، والكل، والستاير، وأوطية الديباج، مما كان في ادخار باديس واكتسايه. وأقبلت دواب الظهر من المنكب بأحمال السبيك والمسبوك، اختلفت أم عبد الله لاستخراج ما أودع بطن الأرض، حتى لم يبق إلا الخرثى والثقل والسقط، ووزع ذلك الأمير على قواده، ولم يستأثر منه بشيء. قال، ورغب إليه مؤمل في دخول القصر، فركب إليه، وكثر استحسانه إياه، وأمر بحفظه، وتفقد أوضاعه وأقنيته. ونقل عبد الله إلى مراكش، وسنه يوم خلع، خمس وثلاثون سنة وسبعة أشهر، فاستقر بها هو وأخوه تميم، وحل اعتقالهما، ورفه عنهما، وأجرى المرتب والمساهمة عليهما. وأحسن عبد الله أداء الطاعة، مع لين الكلمة، فقضيت مآربه، وأسعفت رغباته، وخف على الدولة، واستراح واستريح منه، ورزق الولد في الخمول، فعاش له ابنان وبنت، جمع لهم المال. فلما توفي ترك مالاً جما.

مولده

ولد عبد الله سنة سبع وأربعين وأربعماية.

عبد الله بن علي بن محمد التجيبي

والرئيس أبو محمد بن إشقيلولة

حاله

كان رئيساً شجاعاً، بهمة، حازماً، أيداً، جلداً. تولى مدينة مالقة، عقب وفاة الرئيس واليها أبي الوليد بن أبي الحجاج بن نصر، صنو أمير المسلمين، الغالب بالله، في أوايل عام خمسة وخمسين وستماية. وكان صهر السلطان على إحدى بناته، وله منه محل كبير، ومكان قريب، وله من ملكه حظ رغيب. واستمرت حاله إلى عام أربعة وستين ستماية، وقد ما بينه وبين ولي العهد، الأمير أبي عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبي عبد الله الغالب بالله، إذ وغر له صدره، ولا بنى أخيه الرئيسين أبي محمد وأبي الحسن إبني الرئيس أبي إسحق بن إشقيلولة المتأمرين بوادي آش، فضايقهم أخافهم، بما أداهم إلى الامتناع، والدعاء لأنفسهم، والاستمساك بما بأيديهم، وعمت المسلمين الفتنة المنسوبة إليهم. فانتزى هذا الرئيس بمدينة مالقة، وكان أملك لما بيده، واستعان بالنصري، وشمر عن ساعد الجد، فأباد الكثير من أعيان البلدة، في باب توسم التهم، وتطرق السعايات، واستولى على أموالهم. واستمرت الحال بين حرب أجلت فيها غلبة الأمير مخيفه، ولي العهد، بجيش النصرى، ونازل مالقة أربعين يوماً، وشعث الكثير بظاهرها، وتسمى بعلم الأمير عند أهل مالقة، وما بين سلم ومهادنة، وفي عام ستين وستماية، نازله السلطان الغالب بالله صهره، وأعيا عليه أمر مالقة، لأضطلاع هذا الرئيس بأمره، وضبط من لنظره، واستمساكه بعروة حزمه.

وفي بعض الأيام، ركب السلطان في ثلاثة من مماليكه، متخفياً، كاتماً غرضه، وقعد بباب المدينة. فلما بصر به الرجال القايمون به، هالهم الأمر، وأدهشتهم الهيبة، فأفرجوا له، موقرين لجلاله، آنسين لقلة أتباعه، فدخل، وقصد القصبة، وقد نذر به الرئيس أبو محمد، فبادر إليه راجلاً، متبذلاً، مهرولا، حافيا. ولما دنا منه، ترامى على رجليه يقبلهما، إظهاراً لحق أبوته، وتعظيماً لقدره، ودخل معه إلى بنته وحفدته، فترامى الجميع على أطرافه يلثمونها، ويتعلقون بأذياله وأدرانه، وهو يبكي إظهاراً للشفقة والمودة، وتكلم الجميل. وأقام معهم بياض يومه، ثم انصرف إلى محلته، وأتبعه الرئيس، فأمره بالاستمساك بقصبته وملازمة محل إمرته، وما لبث أن شرع في الارتحال عن ألطاف ومهادات، وتقدير جرايات، وإحكام هدية، وتقرير إمارة، إلى أن توفي السلطان رحمه الله، فعاد الفتنة جزعة، ووإلى ولده أمير المسلمين بعده، الضرب على مالقة، إلى أن هلك الرئيس أبو محمد، واستقر بالأمور ولده المذكور في المحمدين، وكان من الأمر ما ينظره في مكانه من أراد استيفاءه بحول الله.

عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد العزفي

يكنى أبا طالب، الرئيس الفقيه، الكبير الشهير، صاحب الأمر والرياسة والإمارة بستة، نيابة عن أخيه الرئيس الصالح أبي حاتم، بحكم الاستقلال في ذلك، والاستبداد التام، من غير مطالعة لأخيه ولا رجوع إليه في شيء من الأمور، ولا تشوف من أخيه إلى ذلك، لخروجه البتة عنه، وإيثاره العزلة. واشتغاله بنفسه.

حاله

قد تقدم من ذكر أوليته ما فيه كفاية. وكان من أهل الجلالة والصيانة، وطهارة النشأة، حافظاً للحديث، ملازماً لتلاوة كتاب الله، عارفاً بالتاريخ، عظيم الهيبة، كبير القدر والصيت، علاي الهمة، شديد البأو، معظما عند الملوك، جميل الشارة، ممتثل الإشارة لديهم، عجيب السكينة والوقار، بعيد المرمى، شديد الانقباض، مطاع السلطان

بموضعه، مرهوب الجانب، من غير إيقاع بأحد، ولا هتك حرمة، محافظاً على إقامة الرسوم الحسبية والدينية.

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي الحسين بن أبي الربيع وغيره.

نكبته

تغلب على بلده أيام إمارته، وثار أهله إليه في السلاح والعدة، ليحيطوا بمن في القصبة. فخرج إليهم، وشكر مساعيهم، وقال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، كن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل، فانصرفوا، ودخل منزله، ملقياً بيده، ومسلماً لقضاء الله سبحانه في كسره، إلى أن قبض عليه، وعلى ساير بنيه وقومه، عند ارتفاع النهار وانتشار المتغلبين على القصبة، فنقفوا متحرجين من دماء المسلمين، وصرفوا إلى الأندلس، في ضحو يوم الخميس الثاني عشر من ذي قعدة عام خمسة سبعماية، بعد انقضاء خمسة عشر يوماً من تملك بلدهم. فاستقر بغرناطة، تحت ستر واحترام، وجراية فيها كفاف. ثم لما خرجت سبتة عن طاعة أمير المسلمين، انصرف القوم إلى فاس، فتوفي بها وفاته: في شعبان المكرم من عام ثلاثة عشر وسبعماية

عبد الله بن الجبير

بن عثمن بن عيسى بن الجبير اليحصبي

من أهل لوشة، وهو محسوب من الغرناطيين قال الأستاذ، من أعيانها ذوي الشرف والجلالة، قلت ينسب إليه بها معاهد تدل على قدم وأصالة.

حاله

قال أبو القاسم الملاحي، كان أديباً بارع الأدب، كاتباً، بليغاً، شاعراً مطبوعاً، لسناً مفوهاً، عارفاً بالنحو والأدب واللغات. وقد مال في عنفوان شبيبته إلى الجندية لشهامته، وعزة نفسه، فكان في عسكر المأمون ابن عباد، واشتمل عليه المأمون، وكان من أظرف الناس، وأملحهم شيبة، وأحسنهم شارة، وأمهم معرفة.

مشيخته

أخذ عن أشياخ بلده غرناطة، وأخذ بمالقة عن غانم الأديب وبقرطبة عن ابن سراج.

شعره

وله في إنشاده لدى المأمون مجال رحب، فمن ذلك قوله:

يا هاجرين أضل الله سعيكم ... كم تهجرون محييكم بلا سبب

ويا مسرين للإخوان غائلة ... ومظهرين وجوه البر والرحب

ما كان ضركم الإخلاص لو طبعت ... تلك النفوس على علياء أو أدب

أشبهتم الدهر لما كان والدكم ... فأنتم شر أبناء لشر أب

عبد الله بن سعيد بن السلماني

عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد بن علي السلماني

والد المؤلف، رضي الله عنه، يكنى أبا محمد، غرناطي الولادة

والاستيطان، لوشي الأصل، ثم طليطليه، ثم قرطبيه.

أوليته

كان سلفه يعرفون بقرطبة، ببني وزير، وهم بها أهل نباهة، وبيتهم بيت فقه وخيرية ومالية، ونجارهم نجار فرسان يمانية. ولما حدث على الحكم بن هشام الوقيعة الربضية، وكان له الفلج، وبأهل الربض الدبرة، كان أعلام هذا البيت من الجالية أمام الحكم، حسبما امتحن به الكثير من أعلام المشيخة بها، كالفقيه طالوت، ويحيى بن يحيى، وغيرهم، ولحقوا بطليطلة، فاستقروا بها، ونبا بهم وطنهم، ثم حوموا على سكنى الموسطة، وآب إلى قرطبة قبلهم بعد عهد متقادم، ومنهم خلف وعبد الرحمن، وقد مر له ذكر في هذا الكتاب. وولى القضاء بالكورة. ومنهم قوم من قرابتهم تملكوا منتفريد، والحصن المعروف الآن بالمنعة والخصب، وتمدن فيهم، وبنيت به القلعة السامية، ونسب إليه ذلك المجد، فهم يعرفون ببلدنا ببني المنتفريدين. واستقر منهم جدنا الأعلى بلوشة خطيباً وقاضياً بالصقع ومشاوراً وهو المضاف إلى اسمه التسويد بلوشة عرفاً كأنه اسم مركب، فلا يقول أحد منهم في القديم إلا سيدي سعيد. كذا تعرفنا من المشيخة، وإليه النسبة اليوم، وبه يعرف خلفه ببني الخطيب، وكان صالحاً فاضلاً، من أهل العلم والعمل. حدثني الشيخ المسن أبو الحكم المنتفريدي، وقد وقفني على جدار برج ببعض أملاكنا بها، على الطريق الآتية من غرناطة إلى لوشة، ثم إلى غيرها، كإشبيلية وسواها، فقال كان جدك يسكن بهذا البرج كذا من فصول العام، ويتلو القرآن ليلاً، فلا يتمالك المارون على الطريق، أن يقربوا إصغاء لحسن تلاوته وخشوعاً. وكان ولده عبد الله بعده، على وتيرة حسنة من الخير والنباهة وطيب الطعمة، ثم جده الأقرب سعيد على سننه، مرب عليه بمزيد المعرفة، وحسن الخط. ولما وقع بلوشة بلده، ما هو معروف من ثورة أصهارهم من بني الطنجالي، وكان بينهم ما يكون بين الفحول في الهجمات من التشاجر، فر عنهم خيفة على نفسه، وعلى ذلك فناله اعتقال طويل، عدا به عليه عن تلك الثورة. ثم بان عذره، وبرئت ساحته، واستظهر به السطان، وأقام بغرناطة، مكرماً، مؤثراً، مؤتمناً، وصاهر في أشراف بيوتاتها، فكانت عنده بنت الوزير أبي العلي أضحى بن أضحى الهمداني، وتوفيت تحته، فأنجز له بسببها الحظ في الحمام الأعظم المنسوب إلى جدها اليوم. ثم تزوج بنت القايد أبي جعفر أحمد بن محمد الجعدالة السلمى، أم الأب المترجم به، ولها إلى السطان ثاني ملوك بني نصر وعظيمهم، متات ببنوة الخؤولة من جهة القواد الأصلاء القرطبيين بني دحون، فوضح القصد، وتأكدت الحظوة. وقد وقعت الإشارة إلى ذلك كله في محله. ثم رسخت لولده أبي، القدم في الخدمة والعناية، حسبما يتقرر في موضعه.

حاله

كان رحمه الله فذاً في حسن الشكل والأبهة، وطلاقة اللسان، ونصاعة الظرف، وحضور الجواب، وطيب المجالسة، وثقوب الفهم، ومشاراً إليه في الحلاوة وعذوبة الفكاهة، واسترسال الانبساط، مغيباً في ميدان الدعابة، جزلاً، مهيباً، صارماً، متجنداً، رايق الخصل ركضاً وثقافة، وعدواً وسباحة وشطرنجاً، حافظاً للمثل واللغة، إخبارياً، مضطلعاً بالتاريخ، ناظماً ناثراً، جميل البزة، فاره المركب، مليح الشيبة. نشأ بغرناطة تحت ترف ونعمة، من جهة أمه وأبيه، وقرأ على أبي إسحق بن زرقال، وأبي الحسن البلوطي، ثم على أستاذ الجماعة أبي جعفر بن الزبير، ظاهرة عليه مخيلة النجابة والإدراك. ثم أقصر لعدم الحامل على الدؤوب، وانتقل إلى بلد سلفه، متحيفاً الكثير من الأصول في باب البذل وقرى الضيوف، ومداومة الصيد، وإيثار الراحة، معتمداً بالتجلة، مقصود الحلة، مخطوب المداخلة، من أبناء أشرف الدولة، منتجعاً لأولى الكدية. ولما قام بالأمر السلطان، أمير المسلمين أبو الوليد، وأمه بنت السلطان

ثاني الملوك من بني نصر، جزم ما تقدم من المتات والوسيلة، استنهضه للإعانة على أمره، وجعل طريقه على بلده، فحطب في حبله، وتمسك بدعوته، واعتمده بنزله وضيافته، وكان أعظم الأسباب في حصول الأمر بيده، ودخوله في حكمه، وانتقل إلى حضرة الملك بانتقاله، فنال ما شاء من اصطناعه، وحظوته، وجرى له هذا الرسم في أيام من خلفه من ولده إلى يوم الوقيعة الكبرى بطريف تاريخ فقده.

وجرى ذكره في كتاب الإكليل بما نصه: إن طال الكلام، وجمحت الأقلام، كنت كما قيل، مادح نفسه يقرئك السلام، وإن أحجمت، فما أسديت في الثناء ولا ألحمت، وأضعت الحقوق، وخفت ومعاذ الله العقوق. هذا، ولو أني زجرت طير البيان من أوكاره، وجيته بعيون الإحسان وأبكاره، لما قضيت حقه بعد، ولا قلت إلا التي علمت سعد. فقد كان رحمه الله ذمر عزم، ورجل رخاء وأزم، تروق أنوار خلاله الباهرة، وتضيء مجالس الملوك من صورتيه الباطنة والظاهرة، ذكاء يتوقد، وطلاقة يحسد نورها الفرقد، فقدته بكاينة طريف، جبر الله عثارها، وعجل ثارها.

حدث خطيب المسجد الأعظم، وهو ما هو، من وفور العقل، وصحة النقل، قال، مررت بأبيك بعد ما تمت الكسرة، وخذلت تلك الأسرة، وقد كبا بأخيك الطرف، وعرض عليه الحمام للصرف، والشيخ رحمه الله لم تزل قدمه، ولا راعه الموقف وعظمه. ولما أيس من الخلاص وطلابه، صرفني وقال أنا أولى به، فقضى سعيداً شهيداً، لم يستنفره الهول، ولم يثنه ولا رضي عار الفرار عن ابنه.

شعره

قال في الإكليل، وكان له في الأدب فريضة، وفي النادرة العذبة منادح عريضة. تكلمت يوماً بين يديه، في مسائل من الطب، وأنشدته أبياتاً من شعري، وقرأت عليه رقاعاً من إنشائي، فسر وتهلل، وعبر عما أمل، وما برح أن ارتجل قوله رحمة الله عليه:

الطب والشعر والكتابة ... سماتنا في بني النجابة

هن ثلاث مبلغات ... مراتباً بعضها الحجابة

ووقع لي يوماً بخطه على ظهر أبيات، بعثتها إليه، أعرض عليه نمطها:

وردت كما ورد النسيم بسحره ... عن روضة جاد الغمام رباها

فكأنما هاروت أودع سحره ... فيها وآثرها به وحباها

مصقولة الألفاظ بيهر حسنها ... بمثلها افتخر البليغ وباهى

فقررت عيناً عند رؤية حسنها ... إلى أبوك وكنت أنت أباها

ومن شعره قوله:

وقالوا قد نأوا فاصبر ستشفى ... فترياق الهوى بعد الديار

فقلت هبوا بأن الحق هذا ... فقلبي يمموا فيم اصطبار

ومن قوله مما يجري مجرى الحكم والأمثال:

عليك بالصمت فكم ناطق ... كلامه أدى إلى كلمه

إن لسان المرء أهدى إلى ... غرته والله من خصمه

يرى صغير الجرم مستضعفا ... وجرمه أكبر من جرمه

وقال وهو من المستحسن في التجنيس:

أنا بالدهر يا بني خبير ... فإذا شئت علم فتعالى

كم مليك قد ارتغى منه روضا ... لم يدافع عنه الرحمن ما ارتغى لا
كل شيء تراه يفنى ويبقى ... ربنا الله ذو الجلال تعالى
أنشدني هاتين المقطوعتين.
مولده

ولد بحضرة غرناطة في جمادى الأولى من عام اثنين وسبعين وستماية.
وفاته

بعد يوم الوقيعة الكبرى على المسلمين بظاهر طريف يوم الاثنين السابع لجمادى الأولى عام واحد وأربعين وسبعماية.
من رثاه
قلت في رثايه من قصيدة أولها:
سهام المنايا لا تطيش ولا تخطى ... وللدهر كف تسترد الذي تعطى
وإنا وإن كنا على ثبج الدنا ... فلا بد يوماً أن تحل على الشط
وسيان ذل الفقر أو عزة الغنى ... ومن أسرع السير الحثيث ومن يبط
تساوى على ورد الردى كل وارد ... فلم يغن رب السيف عن ربة القرط
وقال شيخنا أبو زكريا بن هذيل من قصيدة يرثيه بها:
إذا أنا لم أرث الصديق فما عذري ... إذا قلت أبياتا حساناً من الشعر
ولو كان شعري لم يكن غير ندبة ... وأجريت دمعي لليراع عن الحبر
لما كنت أقضي حق صحبته التي ... توخيتها عوناً على نوب الدهر
رماني عبد الله يوم وداعه ... بداهية دهياء قاصمة الظهر
قطعت رجائي حين صح حديثه ... فإن لم يوف دمعي فقد خانني صبري
وهل مؤنس كابن الخطيب لوحشتي ... أبث له همي وأودعه سري
عبد الله بن محمد بن جزي
عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن جزي من أهل غرناطة، يكنى أبا محمد، وقد مر ذكر أبيه شيخنا وأخويه، وتقررت نباهة بيتهم.
حاله
هذا الفاضل قريع بيت نبيه، وسلف شهير، وأبوة خيرة، وأخوة بليغة، وخؤولة تميزت من السلطان بحظوة. أديب حافظ، قام على فن العربية، مشارك في فنون لسانية سواه، طرف في الإدراك، جيد النظم، مطواع القريحة، باطنه نبل، وظاهره غفلة. قعد للإقراء ببلده غرناطة، معيداً ومستقلاً، ثم تقدم للقضاء بجهات نبيهة، على زمن الحداثة، وهو لهذا العهد مخطوب رتبة، وجار إلى غاية، وعين من أعيان البلدة.
مشيخته
أخذ عن والده الأستاذ الشهير أبي القاسم حديث الرحمة بشرطه، وسمع عليه على صغر السن، أبعاضاً من كتب عدة في فنون مختلفة، كبعض صحيح مسلم، وبعض صحيح البخاري، وبعض الجامع للترمذي، وبعض السنن للنسائي،

وبعض سنن أبي داود، وبعض موطإ ملك بن أنس وبعض الشفاء لعياض، وبعض الشمايل للترمذي، وبعض الأعلام للنميري، وبعض المشرع السلس في الحديث المسلسل لابن أبي الأحوص، وبعض كتاب التيسير لأبي عمرو الداني، وبعض الهداية للمهدي، وبعض التلخيص للطبري، وبعض كتاب الدلالة في إثبات النبوة والرسالة لأبي عامر بن ربيع، وبعض كتاب حلبة الأسانيد وبغية التلاميذ لابن الكماد، وبعض كتاب وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم من تواليف والده، وبعض القوانين الفقهية، وبعض كتاب الدعوات والأذكار، وبعض كتاب النور المبين في قواعد عقايد الدين من تأليفه، وبعض تقريب الوصول إلى علم الأصول، وبعض كتاب الصلاة، وبعض كتاب الأنوار السنية في الكلمات السنية، وبعض كتاب برنامجه. كل ذلك من تأليف والده، رحمه الله. وأجاز له رواية الكتب المذكورة عنه، مع رواية جميع مروياته وتواليفه وتقييداته، إجازة عامة. ولقنه في صغره، جملة من الأحاديث النبوية والمسائل الفقهية، والمقطوعات الشعرية.

ومنهم قاضي الجماعة أبو البركات بن الحاج، حدثة بألمرية حديث الرحمة بشرطه، وسمع عليه بها وبغرناطة عدة من أبعاض كتب، وأجازه عامة، وأنشده من شعره، وشعر غيره. ومنهم قاضي الجماعة الشريف أبو القاسم لازمه مدة القراءة عليه، واستفاد منه، وتفقه عليه بقراءة غيره في كثير من النصف الثاني من كتاب سيبويه، وفي كثير من النصف الثاني من كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي، وفي كثير من كتاب التسهيل لابن مالك، وفي القصيدة الخزرجية في العروض، وسمع من لفظه الربع الواحد أو نحوه من تأليفه شرح مقصورة حازم، وتفقه عليه فيه، وأنشده كثيراً من شعره وشعر غيره. ومنهم الأستاذ أبو عبد الله البياني، لازمه مدة القراءة عليه، وتفقه عليه بقراءته في كتاب التسهيل البديع في اختصار التفريع إلا يسيراً منه، وتفقه عليه بقراءة غيره في أبعاض من كتب فقهية وغيرها، ككتاب التهذيب، وكتاب الجواهر الثمينة، وكتاب التفريع، وكتاب الرسالة لابن أبي زيد، وكتاب الأحكام لابن العربي، وكتاب شرح العمدة لابن دقيق العيد، وغير ذلك مما يطول ذكره. ومنهم الأستاذ الأعرف الشهير أبو سعيد بن لب، تفقه عليه بقراءته في جميع النصف الثاني من كتاب الإيضاح للفارس، وفي كثير من النصف الأول من كتاب سيبويه، وتفقه عليه بقراءة غيره في أبعاض من كتب عدة، في فنون مختلفة، كالمدونة والجواهر، وكتاب ابن الحاجب، وكتاب التلقين، وكتاب الجمل، وكتاب التسهيل والتنقيح، والشاطبية، وكتاب العمدة في الحديث وغير ذلك. ومنهم الشيخ المقرى المحدث أبو عبد الله محمد بن يبش، سمع عليه بقراءة أخيه الكاتب أبي عبد الله محمد، جميع كتاب الموطأ، وكتاب الشفا إلا يسيراً منه، وأجازه روايتهما عنه، ورواية جميع مروياته، إجازة عامة، وأنشده جملة من شعره وشعر غيره. وممن أجازه عامة، رئيس الكتاب أبو الحسن بن الجياب، وقاضي الجماعة أبو عبد الله بن يحيى بن بكر الأشعري، والخطيب أبو علي القرشي، والأستاذ أبو محمد بن سلمون، والحاج الراوية أبو جعفر ابن جابر، والشيخ القاضي أبو جعفر أحمد بن عتيق الشاطبي الأزدي، والقاضي الكاتب البارع أبو بكر بن شبرين، والقاضي الخطيب الأستاذ الراوية أبو بكر بن الشيخ الخطيب الصالح أبي جعفر بن الزيات، والقاضي الخطيب أبو محمد بن محمد بن الصايع. وممن كتب له بالإجازة من المشايخ، شيخ المشايخ أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان، وقاضي الجماعة بفاس محمد بن محمد بن أحمد المقري، ورئيس الكتاب أبو محمد الخضرمي، وجماعة سوى من ذكر من أهل المشرق والمغرب.

شعره

وشعره نبيل الأغراض، حسن المقاصد، فمن ذلك قوله:

سنى الليلة الغرا وافتك بالبشرى ... وأبدى منها وجه القبول لك البشرا
تهلل وجه الكون من طرب بها ... وأشرقت للدنا بغرتها الغرا
لها المنة العظمى بميلاد أحمد ... لها الرتبة العليا لها العزة الكبرا
طوى سره في صدر الدهر مدة ... فوافى ربيعاً ناشراً ذلك السرا
حوى شهرة الفضل الشهير وفضله ... فأحسن به فضلاً وأعظم به شهرا
لقد كان ليل الكفر في الليل قد جفا ... فأطلع منه في سمة الهدي فجرا
وفي ليلة الميلاد لاحت شواهد قضت ... أندين الكفر قد أبطل الكفرا
لقد أخمدت أنوارها نار فارس ... وأرجف كما ارتج إيوانه كسرى
له معجزات يعجز القلب كنهها ... ويحصر إن رام اللسان لها حصرا
معال يكل الشعر عن نيل وصفها ... وتقصر عن إدراك مصعده الشعرا
به بشر الرسل الكرام ولم تزل ... شمايله تتلى وآياته تترا
ففي الصحف الأولى مناقبه العلى ... وفي الذكر آيات رخص له قدرا
لقد خصه مولاه بالقرب والرضى ... وحسبك ما قد نص في النجم والإسرا
ورد عليه الشمس بعد غروبها ... وشق على رغم العداة له البدرا
وكان له في مايه وطعامه ... لطايف ربانية تبهر الفكرا

غدا الماء من بين الأصابع نابعاً ... وعاد قليل الزاد من يمنه كثرا
وكم نايل أولى وكم سائل حبا ... وكم مشتك أشفى وكم مدنف أبرا
كفى شاهدا أن رد عين قتادة ... فكان لها الفضل المبين على الأخرا
وحن إليه الجذع عند فراقه ... ولا حنت الخنساء إذ فارقت صخرا
وحق له إذ بان عنه حبيبه ... ومن ذاق طعم الوصل لم يحمل الهجرا
خليلي ولادنيا تجدد للفقر ضروبا ... من الأشواق لو تنفع الذكرا
بعيشكما هل لي إلى أرض طيبة ... سبيل فأما الصبر عنها فلا صبرا
مناً للنفس من تلك المعاهد زورة ... أبث بها شكوى وأشكو بها وزرا
وتعفير خدي في عروق ترابها ... ليمحو لي ذنبا ويثبت لي أجرا
تعللني نفسي بإدراكها المنا ... وما أجهدت عيشاً ولا ملكت قفرا
ومن كانت الآمال أقصى اجتهاده ... غدت كفه مما تأمله صفرا
وكم زجرتها واعظات زمانها ... فما سمعت وعظاً ولا قبلت زجرا
وكنت لها عصر الشبيبة عاذراً ... سقاه الحيا ما كان أقصره عصرا
وأما وقد ولت ثلاثون حجة ... فلست أرى للنفس من بعدها عذرا
إذا أنت لم تترك سوى النفس طايعا ... فلا بد بعد الشيب من تركه قسرا
ولم أدخر إلاشفاعة أحمد ... لتخفيف وزر شد ما أوثق الظهرا
لقد عاقت كف الرجاء بحمله ... لعل كسير القلب يقلبه برا

هو المرتضى الداعي إلى منهج الرضا ... هو المصطفى الهادي الميسر لليسرا
هو الحاسر الماحي الضلالة بالهدى ... هو الشافع الواقي إذ شهر الحشرا
بأي كلام يبلغ المرء وصف من ... مكارمه تستغرق النظم والنثرا
خلال إذ الأفكار جاست خلالها ... تكر على الأعقاب خاسئة خسرا
لقد غض طرف النجم باهرها سنى ... وأرغم أنف الروض عاطرها نشرا
سقى ليلة حييت به واكف الحيا ... فنعماؤها ما إن يحيط بها شكرا
لقد خصها سند الإله برحمة ... فعمت بها الدنيا وسكانها طرا
أقمت أمير المسلمين حقوقها ... بأفعال بر أضحكت للهدى ثغرا
لقد سرت فيها إذ أتتك بسره ... أقرت لها عينا وسرت لها صدرا
عرفت بها حق الذي عرفت به ... فأحسنتها شكرا وأوليتها برا
وأصحبتها الإخلاص لله والتقا ... وأعقبها الإحسان والنايل الغمرا
لدي مصنع ملأ العيون محاسناً ... تجسم فيه السحر حتى بدا قصرا
منها بعد أبيات في المدح للسلطان:
روى عن أبي الحجاج غر شمايل ... أعاد لنا دهم الليالي بها غرا
ومن كبني نصر جلالة منصب ... بهم نصر الرحمن دين الهدى نصرا
هم ما هم إن تلقهم في مهمة ... لقيت الجناب السهل والمعقل الوعرا
سلالة أنصار النبي محمد فسل ... أحدا ينبيك عنهم وسل بدرا
ومن شعره في المقطوعات. قال في التورية العروضية:
لقد قطعت قلبي يا خليلي ... بهجر طال منك على العليل
ولكن ما عجيب منك هذا إنه ... التقطيع من شأن الخليل
وقال في التورية النحوية:
لقد كنت موصولاً فأبدل وصلكم ... بهجر وما مثلي على الهجر يصبر
فما بالكم غيرتم حال عبدكم ... وعهدي بالمحبوب ليس يغير
وقال في التورية مداعباً بعض المقرئين للعدد وهو بديع:
يا ناصباً علم الحساب حباله ... لقناص ظبي ساحر الألباب
إن كنت ترجو بالحساب وصاله ... فالبدر يرزقنا بغير حساب
وقال في التورية العروضية:

لقد كمل الود بيننا ... ودمنا على فرح شامل
فإن دخل القطع في وصلنا ... فقد يدخل القطع في الكامل
وقال في تضمين مثل:
ألا اكتمك حب من أحببت ... واصبر فإن الهجر يحدثه الكلام
وإن أبداه دمع أو نحول ... فمن بعد اجتهادي لا تلام
وقال:

وأشنب الثغر له وجنة ... تعدت النحل على وردها
ما ذاك إلى حسد إذ رأت ... رضابه أعذب من شهدها
وقال في التورية بأسماء كتب فقهية جواباً غير معمى:
لك الله من خل حباني برقعة ... حبتني من أبياتها بالنوادر
رسالة رمز في الجمال نهاية ... وخيرة نظم أتحفت بالجواهر
وقال في التورية أيضاً:
إلى الله أشكو عذراً ترددا ... إلي فلما لاح سرى لهم حالوا
لقد خدعوني إذ أروني مودة ... ولكنه لا غرو أن يخدع الآل
وقال يخاطب رجلاً من أصحابه:
أيا حسن إن شتت الدهر شملنا ... فليس لود في الفؤاد شتات
وإن حلت عن عهد الإخاء فلم ... يزل لقلبي على حفظ العهود ثبات
وهبني سرت مني إليك إساءة ... ألم تتقدم قبلها حسنات
وقال في النسيب:
إن كان باب القرب قد سد بيننا ... ولم يبق لي في نيل وصلك مطمع
وأخفرت عهدي دون ذنب جنيته ... وأصبح ودي فيك وهو مضيع
ولم ترث لي عما ألاقي من الأسى ... وصرت أنادي منك من ليس يسمع
وضاقت بي الأحوال عن كل وجهة ... فما أرتجي من رحمة الله أوسع
ومما نظمه في التضمين مخاطباً بعض المتحلين للشعر قوله:
لقد صرت في غصب القصايد ماهرا ... فما اسم جميع الشعر عندك غيزل
ولم تبق شعرا لامرئ متقدم ... ولم تبق شعرا يا بن بشت لأول
فشعر جرير قد غصبت ورويه ... وشعر ابن مرج الكحل وابن المرحل
وإن دام هذا الأمر أصبحت تدعى ... قفا نبك من ذكري حبيب ومنزل
ومن المقربين والعلماء

عبد الله بن العبدري الكواب

عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن مجاهد العبدري الكواب من أهل غرناطة، يكنى أبا محمد الخطيب، المقرئ
حاله
من الصلة: كان رحمه الله أتقن أهل زمانه في تجويد كتاب الله العزيز، وأبرعهم في ذلك، وأنفعهم للمتعلم، نفع الله به كل من قرأ عليه، وترك بعده جملة يرجع إليهم في ذلك، ويعمل على ما عندهم. وكان مع ذلك نبيه الأغراض، في جميع ما يحتاج إليه في علمه ذاكرا للإختيارات التي تنسب للمقرئين، من يرجح ويعلل، ويختار ويرد، موفقاً في ذلك، صابراً على التعليم، دايباً عليه نهاره وليله، ذاكرا لخلاف السبعة. رحل الناس إليه من كل مكان، خاصتهم وعامهم، وملأ بلده تجويداً وإتقانا، وكان مع هذا فاضلاً ورعاً جليلاً. خطب بجامع غرناطة وأم به مدة طويلة، إلى حين وفاته.
مشيخته

أخذ القراءات عن الحاج أبي الحسين بن كوثر، وأبي خالد بن رفاعة، وأبي عبد الله بن عروس. ورحل إلى بياسة، فأخذ بها القراءات عن أبي بكر ابن حسون، وأخذ مع هؤلاء عن جعفر بن حكم، وأبي جعفر بن عبد الرحيم، وأبي الحسن الصدفي الفاسي، وسمع عليه كثيراً من كتاب سيبويه تفقهاً، وأجاز له كتابة القاضي أبو بكر بن أبي جمرة مع آخرين ممن أخذوا عنه.

من أخذ عنه روى عنه الناس أهل بلده وغيرهم، منهم ابن أبي الأحوص، وأبو عبد الله بن إبراهيم المقرى.

وفاته

توفي سنة ثلاث وثلاثين وستماية، ودفن بمقبرة باب إلبيرة.

ابن سلمون

عبد الله بن علي بن عبد الله بن علي بن سلمون الكناني من أهل غرناطة، يكنى أبا محمد، ويعرف بابن سلمون

حاله

كان رحمه الله، نسيج وحده، ديناً وفضلاً، وتخلقاً ودمائه، ولين جانب، حسن اللقاء، سليم الباطن، مغرقاً في الخير، عظيم الهشة والقبول، كريم الطوية، عظيم الانقياد، طيب اللهجة، متهالكاً في التماس الصالحين، يتقلب في ذلك بين الخطإ والإصابة، صدراً في أهل الشورى. قرأ ببلده وسمع وأسمع وأقرأ، وكتب الشروط مدة، مأثور العدالة، معروف النزاهة، مثلاً في ذلك، ويقوم على العربية والفقه، خصوصاً باب البيوع، ويتقدم السباق في معرفة القراءات، منقطع القرين في ذلك، أشد الناس خفوفاً في الحوايج، وأسرعهم إلى المشاركة.

مشيخته

قرأ على الأستاذ الكبير أبي جعفر بن الزبير بغرناطة، ولازمه، فانتفع به، دراية ورواية. وقرأ على الخطيب أبي الحسن بن فضيلة، والمكتب أبي الحسن البلوطي، وأبي محمد النفزي، والخطيب أبي جعفر الكحيلي. وبمالقة على الأستاذ أبي محمد الباهلي. وبسبتة على الأستاذ المقري رحلة وقته أبي القاسم بن الطيب، وسمع عله الكثير. وعلى الأستاذ أبي عبد الله الدارج، ولازم مجلس إقرايه، وعلى الشيخ المعمر أبي عبد الله ابن الخطار الكامي، وهو أعلى من لقيه من تلك الحلبة. وأخذ بالإجازة عن العدل أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن النولي، وروايته عاليه. لقي أب الربيع بن سالم، ولقي بسبتة الشريف الراوية أبا علي الحسن بم بن أبي الشرف ربيع، والأديب الكاتب أبا علي الحسين بن عتيق بن الحسين ابن رشيق. وبفاس الفقيه أبا غالب محمد بن محمد بن عبد الرحمن المغيلي. وقرأ على الخطيب المحدث أبي عبد الله بن رشيد. وسمع على ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم. ولقي الأديب المعمر مالك بن المرحل. وأجازه أبو عمران موسى بن الخطيب أبي الحسن الداري برندة. وأجازه من أهل المشرق كثير، منهم عز الدين أحمد بن محمد الحسني بقية الأشراف بالديار المصرية، وجمال الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الظاهري، ونجم الدين أحمد بن حمدان الحراني، وجمال الدين أحمد ابن أبي الفتح الشيباني، وأحمد بن عبد المنعم الصوفي، ومولده عام أحد وستماية، وأحمد بن سلمان بن أحمد المقدسي، وأحمد بن عبد الحميد ابن عبد الهادي، وشمس الدين إبراهيم بن سرور المقدسي، والخطيب بالمسجد الأعظم ببجاية أبو عبد الله بن صالح الكناني، وأبو عبد الله محمد أبي خمسة محمد بن البكري بن أبي بكر، وأبو عبد الله محمد بن علي ابن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري، وابن دقيق العيد تقي الدين، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة، والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت أبي الخطاب محمد بن أحمد بن خليل السكوني. وأجازه نحو من المايتين من أهل المشرق والمغرب. ولقي بفاس الشيخة الأديبة

الطيبة الشاعرة، سارة بنت أحمد بن عثمان بن الصلاح الحلبية وأجازته، وألبسته خرقة التصوف.
قال: وأنشدتني قصيد أجابت بها الخطيب المحدث، أبا عبد الله ابن رشيد، أولها يعني قصيدة ابن رشيد:
سرى نسيم من حمى سارة ... عاد به كل نسيم عاطرا
وجال أفكار الدنا ذكرها ... فسار فيها مثلا سايرا
دايرة والمجد قطب لها ... دارت عليه فلكاً دايرا
فقالت:
وافي قريض منكم مذ غدا ... لبعض أوصافكم ذاكرا
أطلع من أنفاسه الحجا ... ومن شذاه نفساً عاطرا
أعاد ميت الفكر من خاطري ... من بعد دفن في الثرى ناشرا
يبهر طرفي حسن منظره ... أحبب به نظما غدا باهرا
فقلت لها هالتي حسنه ... أشاعراً أصبح أم ساحرا
أم روضة هذى التي قد نوى ... أم بدر تم قد بدا زاهرا
لله ما أعذب ألفاظه ... وأنور الباطن والظاهرا
يا ابن رشيد بل أبا الرشد ... يا من يزل لطي العلى ناشرا
خذ ما فدتك النفس يا سيدي ... وكن لمن نظمها عاذرا
ما تصل الأنثى بتقصيرها ... لأن تبارى ذكراً ماهرا
لازلت تحيى من رسوم العلا ... ما كان منها دارساً دائرا
تصانيفه
الكتاب المسمى بالشافي في تجربة ما وقع من الخلاف بين التيسير والتبصرة والكافي لا نظير له.
مولده

ولد بغرناطة بلده في الثاني والعشرين لذي قعدة من عام تسعة وستين وست ماية.
وفاته

فقد في الوقيعة العظمى بطريف يوم الإثنين السابع لجمادى الأولى من عام أحد وأربعين وسبعماية. حدث بعض الجند أنه رآه يتحامل، وجرح بصدره يثعب دماً، وهو رابط الجأش، فكان آخر العهد به. تقبل الله شهادته.
عبد الله بن سهل الغرناطي
يكنى أبا محمد، وينبز بالوجه نافخ
حاله
من كتاب ابن حمامة، قال عني بعلم القرآن والنحو والحديث، عناية تامة، وبهذا كنت أسمع الثناء عليه من الأشياخ، في حال طفولتي بغرناطة، ثم شهر بعد ذلك بعلم المنطق، والعلوم الرياضية، وساير العلوم القديمة، وعظم بسببها، وامتد صيته من أجلها، وأجمع المسلمون واليهود والنصارى، أن ليس في زمانه مثله، ولا في كثير ممن تقدمه، وبين هذه الملل الثلاثة من التحاسد ما عرف. وكانت النصارى تقصده من طليطلة، تتعلم منه أيام كان ببياسة، وله مع قسيسهم مجالس في التناظر، حاز فيها قصب السبق. قال، ثم خرج عن بياسة، وسار إلى نظر ابن همشك عند خروج

النصارى عن بياسة. وله تواليف. وهو الآن بحاله. قلت، تاريخ هذا القول، عام ثلاثة وخمسين وخمسماية.

عبد الله بن أيوب الأنصاري

يكنى أبا محمد، ويعرف بابن خروج، من أهل قلعة أيوب.

حاله

فقيه حافظ لمذهب مالك. استوطن غرناطة وسكنها.

تواليفه

ألف في الفقه كتاباً مفيداً سماه المنوطة على مذهب مالك، في ثمانية أسفار أتقن فيها كل الإتقان:

وفاته

: توفي بها سنة اثنيتين وستين وخمسماية، وقد قارب المائة.

القرطبي

عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصاري مالقى، قرطبي الأصل، يكنى أبا محمد، ويعرف بالقرطبي، وقرأ بغرناطة.

حاله

كان في وقته ببلده، كامل المعارف، صدرا في المقرئين والمجودين، رئيس المحدثين وإمامهم، واسع المعرفة، مكثراً، ثقة، عدلاً، أمينا، مكين الرواية، رايق الخط، نبيل التقييد والضبط، ناقداً، ذاكراً أسماء رجال الحديث وطبقاتهم وتواريخهم، وما حلوا به من جرح وتعديل، لا يدانيه أحد في ذلك، عزيز النظر، متيقظاً، متوقد الذهن، كريم الخلال، حميد العشرة، دمثاً، متواضعاً، حسن الخلق، محبباً إلى الناس، نزيه النفس، جميل الهيئة، وقوراً، معظماً عند الخاصة والعامة، ديناً، زاهداً، ورعاً، فاضلا، نحوياً ماهراً، ريان من الأدب، قائلاً الجيد من الشعر، مقصدا ومقطعاً، وكان له بجامع مالقة الأعظم، مجلس عام، سوى مجلس تدريسه، يتكلم فيه على الحديث، إسناداً ومتناً، بطريقة عجز عنها الكثير من أكابر أهل زمانه. وتصدر للإقراء ابن عشرين سنة. من أخباره في العلم والذكاء: قالوا قرئ عليه يوماً باب الابتداء بالكلم التي يلفظ بها في إيضاح الفارس، وكان أحسن الناس قياماً عليه فتكلم على المسألة الواقعة في ذلك الباب، المتعلقة بعلم العروض، وكان في الحاضرين من أحسن صناعته، فجاذبه الكلام، وضايقه المباحثه، حتى أحس الأستاذ من نفسه التقصير، إذ لم يكن له قبل كبير نظر في العروض، فكف عن الخوض في المسألة، وانصرف إلى منزله، وعكف ساير اليوم على تصفح علم العروض، حتى فهم أغراضه، وحصل تواليفه وصنف فيه مختصراً نبيلاً، لخص في صدوره ضروبه، وأبدع فيه بنظم مثله، وجاء به من الغد، معجزاً من رآه أو سمع به، فبهت الحاضرون وقضوا العجب من اقتداره وذكائه، ونفوذ فهمه، وسمو همته.

ومن أخباره في الدين: قال أبو أحمد جعفر بن زعرور العاملي المالقي تلميذه الأخص به، بت معه ليلة في دويرته التي كانت له بجبل فاره للإقراء والمطالعة، فقام ساعة كنت فيها يقظانا، وهو ضاحك مسرور، يشد يده كأنه ظفر بشيء نفيس، فسألته فقال، رأيت كأن الناس قد حشروا في العرض على الله، وأتى بالمحدثين، وكنت أرى أبا عبد الله النصيرى يؤتى به، فيوقف بين يدي الله تعالى، فيعطى براءته، من النار، ثم يؤتى بي، فأوقفت بين يدي ربي، فأعطاني براءتي من النار، فاستيقظت، وأنا أشد عليها يدى ربي، فأعطاني براءتي من النار، فاستيقظت، وأنا أشد عليها يدي اغتباطا بها وفرحا، والحمد لله.

مشيخته

تلا بمالقة على أبيه، وأبي زيد السهيلي، والقاسم بن دحمان، وروى عنهم، وعن أبي الحجاج بن الشيخ، وأبوي عبد الله بن الفخار، وابن نوح، وابن كامل، وابن جابر، وابن بونة. وبالمنكب عن عبد الوهاب الصدفي. وحضر بمالقة مجلس أبي إسحق بن قرقول. وبإشبيلية عن أبي بكر بن الجد، وابن صاف، وأبي جعفر بن مضاء، وأبوي الحسن عبد الرحمن بن مسلمة، وأبي عبد الله بن زرقون، وأبي القاسم بن عبد الرازق، وأبي محمد بن جمهور. وبغرناطة عن أبوي جعفر بن حكم الحصار، وابن شراحيل، وأبي عبد الله بن عروس، وأبوي محمد عبد الحق النوالشي، وعبد المنعم بن الفرس. وبمرسية عن أبي عبد الله بن حميد، وأبي القاسم بن حبيش، وبسبتة عن أبي محمد الحجري. وأجاز له من الأندلس ابن محرز وابن حسون وابن خيرة، والأركشي، وابن حفص وابن سعادة، ويحيى المجريطي، وابن بشكوال، وابن قزمان. ومن أهل المشرق جماعة كبيرة.

شعره وتصانيفه

ألف في العروض مجموعات نبيلة، وفي قراءة نافع. ولخص أسانيد الموطأ. وله المبدي لخطإ الرندي. ودخل يوماً بمجلس أقرأ به أبو الفضل عياض، وكان أفتى منه، غير أن الشيب جار عليه، وتأخر شيب الأستاذ، فقال يا أستاذ شبنا وما شبتم، قال فأنشده ارتجالاً:

وهل نافع أن أخطأ الشيب مفرقي ... وقد شاب أترابي وشاب لداتي

لئن كان خطب الشيب يوجد حسه ... بتربي فمعناه يقوم بذاتي

ومن شعره في التجنيس:

لعمرك ما الدنيا بسرعة سيرها ... بسكانها إلا طريق مجاز

حقيقتها أن المقام بغيرها ... ولكنهم قد أولعوا بمجاز

ومما يؤثر أيضاً من شعره قوله:

سهرت أعين ونامت عيون ... لأمور تكون أو لا تكون

فاطرد الهم ما استطعت عن ... النفس فحملانك الهموم جنون

إن رباً كفاك بالأمس ما كان ... فسيكفيك في غد ما يكون

مولده

ولد أبو محمد قريب ظهر يوم الاثنين لثمان بقين من ذي القعدة عام ستة وخمسين وخمسماية.

وفاته

سحر ليلة السبت أو سحر يومها، ودفن إثر صلاة العصر من اليوم السابع لربيع الآخر سنة أحد عشر وستماية.

من رثاه رثاه الأديب أبو محمد عبد الله بن حسون البرجي من قصيدة حسنة طويلة:

خليلي هباً ساعداني بعبرة ... وقولاً لمن بالري ويحكم هبوا

نبكي العلى والمجد والعلم والتقي ... فمأتم أحزاني نوائحه الصحب

فقد سلب الدين الحنيفي روحه ... ففي كل سرب من نباهته نهب

وقد طمست أنوار سنة أحمد ... وقد خلت الدنيا وقد ظعن الركب

مضى الكوكب الوقاد والمرهف الذي ... يصحح في نص الحديث فما ينب

تمنى علاه النيران ونوره ... وقالا بزعم أنه لهما ترب

أأسلو وبحر العلم غيضت مباهة ... ومحيى رسوم العلم يحجبه الترب

عزيز على الإسلام أن يودع الثرى ... مسدده الأسرى وعلله الندب
بكى العالم العلوي والسبع حسرة ... أولئكم حزب الله ما فوقهم حزب
على القرطبي الحبر أستاذنا الذي ... على أهل هذا العصر فضله الرب
فقد كان فيما مضى من زمانه ... به تحسن الدنيا ويلتئم الشعب
ويجمع سرب الأنس روض حياتة ... فقد جف ذاك الروض وافترق السرب
فسحقاً لدنيا خادعتنا بمكرها ... إذا عاقدت سلما فقصدها حرب
ركبنا السهل الذلول فقادنا ... إلى كل ما في طيه مركب صعب
وتغفل عنها والردى يستفزنا ... كفى واعظاً بالموت لو كان لي لب

عبد الله بن أحمد بن سماك العاملي

عبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عيسى بن أحمد بن إسماعيل بن سماك العاملي يكنى أبا محمد، مالقي الأصل.

حاله

كان فقيهاً أديباً، بارع الأدب، شاعراً مطبوعاً، كثير النادر، حلو الشمايل، أدرك شيوخاً جلة، وولى قضاء غرناطة مدة.

مشيخته

روى عن جده لأمه وابن عم أبيه أبي عمر أحمد بن إسماعيل، وأبي على الغساني، وأبي الحسن علي بن عبيد الرحمن بن سمحون والمرساني الأديب،

شعره

الروض مخضر الربى متجمل ... للناظرين بأجمل الألوان
وكأنما بسطت هناك سوارها ... خود زهت بقلائد العقيان
وكأنما فتقت هناك نوافح ... من مسكة عجنت بعرف البان
والطير يسجع في الغصون كأنما ... تقرأ القيان فيه على العيدان
والماء مطرد يسيل عبابه ... كسلاسل من فضة وجمان
بهجات حسن أكملت فكأنها ... حسن اليقين وبهجة الإيمان

وكتب إلى الكاتب أبي نصر الفتح بن عبيد الله في أثناء رسالة:

تفتحت الكتابة عن نسيم ... نسيم المسك في خلق الكريم
أبا نصر رسمت لها رسوما ... تخال رسومها وضح النجوم
وقد كانت عفت فأثرت منها ... سراجاً لاح في الليل البهيم
فنحت من الصناعة كل باب ... فسارة في طريق مستقيم
فكتاب الزمان ولست منهم ... إذا راموا مرامك في هموم
فما قس بأبدع منك لفظاً ... ولا سحبان مثلك في العلوم

وفاته: في السابع والعشرين من رمضان المعظم سنة أربعين وخمسمائة وهو ابن أربع وثمانين سنة.

ومن ترجمة القضاة

عبد الله بن أحمد بن العافقي عبد الله بن أحمد بن محمد بن سعيد بن أيوب بن الحسن بن منخل بن زيد العافقي من أهل غرناطة وأعيانها، يكنى أبا محمد، وينسب إلى غافق بن الشاهد بن عك بن عدنا، لا إلى حصن غافق.

حاله

من العايد كان رجلاً صحيح المذهب، سليم الصدر، قليل المصانعة، كثير الحركة والهشة، والجدة، ملازم الاجتهاد والعكوف، لا يفتر عن النسخ والتقييد والمطالعة، على حال الكبرة، قديم التعين والأصالة، ولى القضاء عمره بمواضع كثيرة، منها بيرة ورندة ثم مالقة، مضافاً إلى الخطابة بها.

مشيخته

حج في حدود سبعة وثمانين وستماية، وروى عن جلة من أهل المشرق، كالإمام تقي الدين بن دقيق العيد، والحافظ أبي محمد عبد المؤمن الدمياطي، وشمس الدين المصنف أبي عبد الله بن عبد السلام. وأجازه من أهل المغرب شيخ الجماعة بالأندلس أبو جعفر بن الزبير، والقاضي ابن أبي الأحوص، والخطيب أبو الحسن بن فضيلة، الأستاذ أبو الحسن ابن الصايغ الإشبيلي، وأبو جعفر الطباع، وغيرهم.

تواليفه

ألف كتابا سماه بالمنهاج في ترتيب مسائل الفقيه المشاور أبي عبد الله ابن الحاج.

مولده

ولد بغرناطة في حدود ستين وستماية.

وفاته

: توفي بغرناطة يوم عاشوراء من عام أحد وثلاثين وسبعماية.

عبد الله بن أبي زمنين المري

عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن أبي زمنين المري يكنى أبا خالد.

حاله

كان فقيهاً جليلاً، وولى القضاء ببعض جهات غرناطة.

مشيخته

أخذ الفقيه عن أبي جعفر بن هلال، وأبي محمد بن سماك القاضي. والعربية عن الخضر بن رضوان العبدري. والحديث عن الحافظ أبي بكر ابن غالب بن عبد الرحمن بن عطية، والإمام أبي الحسن علي بن أحمد، والقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض أيام قضائه بغرناطة.

مولده

ولد سنة سبع وتسعين وأربعماية.

وفاته

: توفي في ذي قعدة سنة أربع وأربعين وخمس ماية.

عبد الله بن يحيى بن زكريا الأنصاري

عبد الله بن يحيى بن محمد بن أحمد بن زكريا بن عيسى بن محمد بن يحيى بن زكريا الأنصاري يكنى أبا محمد، من أهل غرناطة، شرقي الأصل، مرسيه، من بيوتاته النبيهة، وقد مر ذكر أخيهز

حاله

كان على طريقة حسنة من دمائه الأخلاق، وسلامة السجية، والتزام الحشمة، والاشتغال بما يعنى. ولي القضاء دون العشرين سنة، وتصرف فيه عمره بالجهات الأندلسية، فأظهر فيه عدلاً ونزاهة، ولم يختلف عليه اثنان مدة حياته، من أهل المعرفة بالأحكام، والتقدم في عقد الشرط، وصناعة الفرايض، علماً وعملاً، ثاقب الذهن، نافذاً في صنعة العدد.

مشيخته

قرأ على أبيه القاضي أبي بكر بن زكريا، وله رواية عالية عن أعلام من أهل المشرق والغرب. وقرأ على أبي الحسن بن فضيلة الولي الصالح، والقاضي أبي عبد الله بن هشام الألشي، والأستاذ أبي جعفر بن الزبير، والحاج أبي محمد بن جابر، وأبي بكر القللوسي. وقرأ العدد وما أشبهه على الأستاذ التعاليمي أبي عبد الله الرقام، ولازمه، وأجازه طايفة كبيرة. وأخبرني ولده الفاضل أبو بكر، قال: ورد سؤال من تونس مع تاجر وصل في مركب إلى مدينة المنكب أيام قضائه بها، في رجل فرط في إخراج زكاة ماله سنين متعددة، سميت في السؤال مع نسبة قدر المال، وطلب في السؤال، أن يكون عملها بالأربعة الأعداد المتناسبة، إذ عملها بذلك، أصعب من عملها بالجبر والمقابلة، فعملها وأخرجها بالعملين، وعبر عنها بعبارة حسنة، وكتبها في بطاقة بخط جميل، فذكر التاجر أنه لم يبق بتونس فقيه، إلا ونسخ منها نسخة، واستحسنها.

مولده

ولد يوم الخميس السابع عشر لجمادى الآخرة عام خمسة وسبعين وستماية.

وفاته: توفي قاضياً ببسطة في التاسع عشر من رمضان عام خمسة وأربعين وسبعماية.

عبد الله بن أبي جمرة الأزدي

عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الملك بن أبي جمرة الأزدي من أهل مرسيه، نزيل غرناطة، يكنى أبا محمد، وبيته بمرسية من أعلام بيوتاتها، شهير التعين والأصالة، ينكح فيه الأمراء.

حاله

كان من أعلام وقته فضلاً وعدالة وصلاحا ووقاراً، طاهر النشأة، عف الطعمة، كثير الحياء، مليح التخلق. نشأ بمرسيه، ثم انتقل إلى غرناطة فتولى القضاء ببيرة وجهاتها، ثم جاز إلى سبتة، وانعقدت بينه وبين رؤسايها المصاهرة في بعض بناته. ثم آب إلى غرناطة عند رجوع إيالة سبتة إلى أميرها، فتقدم خطيبا بها.

مشيخته

روى بالإجازة عن الخطيب الحافظ أبي الربيع بن سالم وأمثاله.

وفاته

الغريبة المستحسنة. قال بعض شيوخنا، كنت أسمعه عند سجوده، وتبتله وضراعته إلى الله. يقول اللهم أمتني ميتة حسنة، ويكرر ذلك. فأجاب الله دعاءه، وتوفاه على أتم وجوه التأنيب طهارة وخشوعاً وخضوعاً وتأهباً، وزماناً ومكاناً، عندما صعد أول درج من أدراج المنبر، يوم الجمعة الثالث والعشرين لشوال من عام أحد عشر وسبع ماية، فكان يوماً مشهوداً لا عهد بمثله، مارئى ألآكثر باكياً منه، وأكثر الناس من الثناء عليه.

عبد الله الحارثى الأزدي

عبد الله بن سليمن بن داود بن عبد الرحمن بن سليمن بن عمر بن حوط الله الأنصاري الحارثى الأزدي يكنى أبا محمد.

حاله

من الصلة: قال القاضي المحدث الجليل العالم، كان فقيهاً جليلاً أصولياً، نحوياً، كاتباً، أديباً، شاعراً، متفنناً في العلوم، ورعاً، ديناً، حافظاً، ثبتاً، فاضلاً. وكان يدرس كتاب سيبويه، ومستصفى أبي حامد، ويميل إلى الاجتهاد في نظره، ويغلب طريقة الظاهرية، مشهوراً بالعقل والفضل، معظماً عند الملوك، معلوم القدر لديهم، يخطب في مجالس الأمراء والمحافل الجمهورية، مقدماً في ذلك، بلاغة وفصاحة إلى أبعد مضمار. وللملوك الموحدين به اعتناء كبير. وهو كان أستاذ الناصر وإخوته، وكان له عند المنصور والهم، بذلك أكرم أثرة، مع ما كان مشهوراً به من العلم والدين والفل. ولي القضاء بإشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتة وسلا وميورقة، فتظاهر بالعدل، وعرف بما أبطن من الدين والفضل، وكان من العلماء العاملين، سنياً، مجانباً لأهل البدع والأهواء، بارع الخط، حسن التقييد.

مشيخته

تردد في طلب العلم، فسمع ببلنسية وشاطبة ومرسية وألمرية وقرطبة وإشبيلية ومالقة، وغيرها من البلاد الأندلسية، وتحصل له سماع جم لم يشاركه فيه أحد من أهل المغرب. قرأ القرآن على أبيه، وعلى أبي محمد عبد الصمد الغساني، وأخذ عن ابن حميد كتاب سيبويه تفقهاً. وعن غيره، وسمع عن ابن بشكموال، وقرأ أكثر من ستين تأليفاً بين كبار وصغار، وكمل له على أبي محمد بن عبد الله، بين قراءة وسما نحو من سنة وثلاثين تأليفاً، منها الصحيحان. وأكثر عن ابن حبيش، والسهيلي، وابن الفخار وغيرهم. واستيفاء مشيخته يشق.

شعره

قال الأستاذ، أنشدنيه ابن أبو القاسم، ونقلت من خطة:

أتدري أنك الخطاء حقاً ... وأنك بالذي تدري رهين

وتعتب الإلى فعلوا وقالوا ... وذاك الظن والإفك المين

مولده

في محرم سنة ثمان وأربعين وخمسماية.

وفاته: كان آخر عمره قد أعيد إلى مرسية، قصدها من الحضرة، مات بغرناطة سحر يوم الخميس الثاني لربيع الأول اثنتي عشرة وستماية، ونقل منها في تابوته الذي ألحد فيه، يوم السبت التاسع عشر لشعبان من السنة إلى مالقة. فدفن بها.

ابن ربيع

عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري من أهل قرطبة، يكنى أبا القاسم ويعرف بابن ربيع.

حاله

كان رحمه الله أديبا، كاتباً شاعراً، نحوياً، فقيهاً أصولياً، مشاركاً في علوم، محباً في القراءة، وطياً عند المناطرة، متناصفا، سنياً، أشعري المذهب والنسب، مصمماً على طريقة الأشعرية، ملتزماً لمذهب أهل السنة المالكي، من بقايا الناس وعليتهم، ومن آخر طلبة الأندلس المشاركين الجلة، المصممين على مذهب أهل السنة، المنافرين للمذاهب

الفلسفية، والمبتدعة، والزيغ. ولي قضاء مواضع من الأندلس، منها مدينة شريش ورندة ومالقة، وأم وخطب بجامعها. ثم ولي قضاء الجماعة بحضرة غرناطة، وعقد بها مجلسا للإقراء. فانتفع به طلبتها، واستمر على ذلك، وكانت ولايته غرناطة نحواً من سبعة أعوام.

مشيخته

أخذ عن أبيه أبي عامر وتفقه به، وعن الخطيب أبي جعفر بن يحيى الحميري، وتلا عليه، وتأدب به، وعن الأستاذ أبي الحسن بن خروف، وروى مع هؤلاء عن القاضي أبي القاسم بن بقي، وأبي محمد بن حوط الله، وأبي عبد الله بن أصبغ وغيرهم، وأجاز له الشيخ المسن أبو الحسن على ابن أحمد بن على الغافقي الشقوري، وله به علو، وبالأستاذ الخطيب المسن أبي جعفر بن يحيى المتقدم.

وفاته

توفي في الساب عشر لشوال سنة ست وستين وستماية. ولم يخلف بعده مثله، ولا من يقاربه.

عبد الله بن إبراهيم الثقفي العاصمي

عبد الله بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين الثقفي العاصمي من ولد عاصم بن مسلم الداخل في طلعة بلج الملقب بالعريان، أخو الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، شقيقه، يكنى أبا محمد.

حاله

كان طبيباً ماهراً، كاتباً شاعراً، ذاكراً للغة، صنع اليدين، متقدماً في أقرانه نباهة وفصاحة، معدوم النظير في الشجاعة والإقدام، يحضر الغزوات، فارساً وراجلاً، ولقي بفحص غرناطة ليلا، نصرانياً يتجسس، فأسره وجره، وأدخله البلد، ولم يلتفت إلى ثمنه، استكتاماً لتلك الفعلة.

مشيخته

أخذ القرآن عن الأستاذ أبي عبد الله بن مستقور، وروى عن أبي يحيى بن عبد الرحيم، وأبي الوليد العطار، وأبي القاسم بن ربيع وأبي الخطار بن خليل، وأخذ عن أبي عمر بن حوط الله بمالقة، وابن أبي ريحانه. وبسبتة على أبي بكر بن مشليون. وأجاز له أبو بكر بن محرز، وأبو الحسن الثاري. وأخذ عن الأستاذ الناقد أبي الحسن علي بن محمد الكناني.

مولده

ولد بغرناطة لسبع عشرة ليلة خلت من ذي قعدة سنة ثلاث وأربعين وستماية.

وفاته: توفي بها سحر أول يوم من ذي قعدة سنة ثلاث وثمانين وستماية.

عبد الله بن موسى

بن عبد الرحمن بن حماد الصنهاجي

يكنى أبا يحيى.

حاله

طالب نبيل فاضل، ورع زاهد، مؤثر في الدنيا بما تملكه، تال لكتاب الله في جميع الأوقات.

أخباره في الإيثار

وجه له السيد أبو إسحاق ابن الخليفة أبي يعقوب خمسماية دنير ليصلح بها من شأنه. فصرف جميعها على أهل الستر في أقل من شهر. ومر بفتى في إشبيلية، وأعوان القاضي يحملونه إلى السجن، وهو يبكي فسأله، فقال: أنا غريب، وطولبت بخمسين دنيرا، وبيدي عقود، وطولبت بضامن فلم أجده، فقال، له الله، قال نعم، قال، فدفع له خمسين دنيرا، قال أشهد لك بها، فضجر وقال إن الله إذا أعطى عبده شيئاً لم يشهد به عليه، وتركه وانصرف لشأنه، وكانت عنده معرفة وأدب.

مولده: بغرناطة في سنة إحدى وعشرين وخمسماية.

ومن ترجمة الكتاب والشعراء بين أصلي وطارئ

ابن المرابع

عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي من أهل بلش يكنى أبا محمد. ويعرف بابن المرابع

حاله

من نبهاء أدباء البادية، خشن الظاهر، منطو على لوذعية، متوارية في مظهر جفوة، كثير الانطباع عند الخبرة، قادر على النظم والنثر، متوسط الطبقة فيهما، مسترفد بالشعر، سيال القريحة، مرهوب الهجاء، مشهور المكان ببلده، يعيش من الخدم المخزنية، بين خارص وشاهد وجد بذلك وقته، يوسط رقاعته، فتنجح الوسيلة، ويتمشى له بين الرضا والسخط الغرض.

وجرى ذكره في التاج بما نصه: طويل القوادم والخوافي، كلف على كبر سنه بعقايل القوافي، شاب في الأدب وشب، ونشق ريح البيان لما هب، فحاول رفيعه، وجزله، وأجاد جده وأحكم هزله. فإن مدح صدح، وإن وصف أنصف، وإن عصف قصف. وإن أنشأ ودون، وتقلب في أفانين البلاغة وتلون، أفسد ما شاء الله وكون، فهو شيخ الطريقة الأدبية وفتاها، وخطيب حفلها كلما أتاها، لا يتوقف عليه من أغراضها غرض، ولا يضيع لديه منها مفترض. ولم نزل بروقه تتألق، ومعانيه بأذيال الإحسان تتعلق. حتى برز في أبطال الكلام وفرسانه، وذعرت القلوب لسطوة لسانه، وألفت إليه الصناعة زمامها، ووقفت عليه أحكامها. وعبر البحر، منتجعاً بسعره، ومنفقاً في سوق الكساد من شعره فأبرق وأرعد، وحذر وتوعد، وبلغ جهد إمكانه، في التعريف بمكانه، فما حرك، ولا هز، وذل في طلب الرقد وقد عز، وما برح أن رجع إلى وطنه الذي اعتاده، رجوع الحديث إلى قتاده.

شعره

قال في التاد، وقد أثبت من نزعاته، وبعض مخترعاته، ما يدل على سعة باعه، ونهضة ذراعه. فمن النسيب قوله:

ما للمحب دواء يذهب الألما ... عنه سوى لمم فيه ارتشاف لما

ولا يرد عليه نوم مقلته ... إلا الدنو إلى من شفه سقما

يا حاكماً والهوى فينا يؤيده ... هواك في بما ترضاه قد حكما

أشغلتني بك شغلاً شاغلا ... فلما تناسى فديتك عني بعد ذاك لما

ملكت روحي فأرفق قد علمت بما ... يلقى ولا حجة تبقى لمن علما

ما غبت عني إلا غاب عن بصري ... بدراً إذا لاح يجلى نوره الظلما

ما لحت لي فدنا طرفي لغيرك يا مولى لحا فيه جفني النوم قد حرما

طوعاً لطيعك لا أعصيك فافض بما ... ترضاه أرضى بما ترضى ولا جرما

إن الهوى يقتضي ذلاً لغيرك لو ... أفادني فيك قرباً يبرد الألما
سلمت من كل عيب يا محمد لا ... كن قلب صبك من عينيك ما سلما
ومن مخاطباته الأدبية. ما كتب به إلى شيخ الصوفية ببلده مع طالع من ولده:
مماليكم قد زاد فيكم مرابع ... من الأفق الكوني باليمن طالع
بأنواركم يهدي إلى سبل الهدى ... ويسموا لما تسمو إليه المطالع
فواسوه منكم بالدعاء فإنه ... مجاب بفضل الله للخلق نافع
أفاض عليه الله من بركاتكم ... وأبقاكم ذو العرش ماجن ساجع
فوقع له الشيخ المخاطب بها. أبو جعفر بن الزيات رحمه الله، بما نصه:
عسى الله يؤتيه من العلم حصة ... تصوب على الألباب منها ينابع
ويجعله طرفاً لكل سجية ... مطهرة للناس فيها منافع
ويلحقه في الصالحات بجده ... فيثنى عليه الكل دان وشاسع
وذو العرش جل إسما عميم نواله ... وخير الورى في نص ما قلت شافع
فما أنت دوني يا أباه مهنأ به ... فالسرور الكل بابنك جامع
وله يستدعى إلى الباكور:
بدار بدار قد آن البدار ... إلى أكواس باكور تدار
تبدت رافلات في مسوح ... له لون الدياجي مستعار
وقد رقمت بياضاً في سواد ... كأن الليل خالطه النهار
وقد نضجت وما طبخت بنار ... وهل يحتاج للباكور نار
ولا تحتاج مضغاً لا وليس ... عجيب لا يشق له غبار
فقل للخلق قل للضرس دعني ... ففي البلع اكتفاء واقتصار
ومما وقع له أثناء مقامات تشهد باقتداره، مقطوعة سهلة وهي:
رعى الله عهداً حوى ما حوى ... لأهل الوداد وأهل الهوى
أرهم أموراً حلا وردها ... وأعطاهم السؤل كيف نوا

ولما حلا الوصل صالوا له ... وراموه ملواً وما روا
وأوردهم سراً سرارهم ... ورودا إلى الكل ذا دوا
وما أمل طال إلا وها ... ولا أمل صال إلا هوا
وقال يرثي ديكاً فقده، ويصف الوجد الذي وجده، ويبكي من عدم إذانه، إلى غير ذلك من مستطرف شأنه:
أوودي به الحتف لما جاءه الأجل ... ديكاً فلا عوض منه ولا بدل
قد كان لي أمل في أن يعيش فلم ... يثبت مع الحتف في بغيالها أمل
فقدته فلعمري إنها عظة ... وبالواعظ تذري دمعها المقل
كأن مطرف وشى فوق ملبسه ... عليه من كل حسن باهر حلل
كأن إكليل كسرى فوق مفرقه ... وتاجه فهو عالي الشكل محتفل
مؤقت لم يكن بطريق ل خطأ ... فيما يرتب من ورد ولا خطل

كأن زرقيل فيما مر علمه ... علم المواقيت فيما رتب الأول
يرحل الليل يحيى بالصراخ فما ... يصده كلل عنه ولا ملل
رأيته قد وهنت منه القوى فهوى للأرض فعلا يريه الشارب الثمل
لو يفتدي بديوك الأرض قل له ... ذاك الفدا ولكن فاجأ الأجل
قالوا اللواء فلم يغن اللوام ولم ... ينفعه من ذاك ما قالوا وما فعلوا
أملت فيه ثواباً أجر محتسب ... إن قلت ذاك صح القول والعمل
وأمره السلطان أبو عبد الله سادس الملوك النصريين في بعض أسفاره، وقد نظر إلى شلير. وتردى بالثلج وتعمم، وكمل ما أراد من بزته وتمم، أن ينظم أبياتاً في وصفه، فقال بديهة:
وشيخ جليل القدر طال عمره ... وما عنده علم بطول ولا قصر
عليه لباس أبيض باهر السنا ... وليس بثوب أحكمته يد البشر
وطوراً تراه كله كاسياً به ... وكسوته فيها لأهل النهي عبر
وطوراً تراه عارياً ليس يشتكي ... لحر ولا برد من الشمس والقمر
وكم مرت الأيام وهو كما ترى ... على حاله لم يشك ضعفاً ولا كبر
فذاك شلير شيخ غرناطة التي ... لبهجتها في الأرض ذكر قد انتشر
بها ملك سامي المراقي أطاعه ... كبار ملوك الأرض في حالة الصغر
تولاه رب العرش منه بعصمة ... تقيه مدى الأيام من كل ما ضرر
نثره

ونثره كثير ما بين مخاطبات وخطب ومقطعات ولعب، وزرديات شأنها عجب. فمن ذلك ما خاطب به الرئيس أبا سعيد بن نصر يستجدي أضحية:

يقول شاكر الأيادي، وذاكر فخر كل نادي، وناشر غرر الغرر لعاكف والبادي، والرايح والغادي، إسمعوا مني حديثاً تلذه الأسماع، ويستطرفه الاستماع. ويشهد بحسه الإجماع. ويجب عليه الاجتماع. وهو من الأحاديث التي لم تتفق إلا لمثلي ولا ذكرت عن أحد قبلي. وذلك يا معشر الألبا، والخلصاء الأحبا. أني دخلت في هذه الأيام داري. في بعض أدواري، لأقضي من أخذ الغذاء أوطاري. على حسب أطواري. فقالت لي ربة البيت، لم جئت. وبما أتيت. قلت جيت لكذا كذا فهات الغدا، فقالت لا غذا لك عندي اليوم. ول أودى بك الصوم. حتى تسل الاستخارة، وتفعل كما فعل زوج الجارة، طيب الله نجاره. وملأ بالأرزاق وجاره. قلت وما فعل قريني. وأرني من العلامة ما أحببت أن تريني. قالت إنه فكر في العيد. ونظر في أسباب التعييد. وفعل في ذلك ولم تنظر إليه نظرة بعين اهتبالك. وعيد الأضحى في اليد. والنظر ف يشراء الأضحية اليوم أوفق من الغد. قلت صدقت، وبالحق نطقت، بارك الله فيك، وشكر جميل تحفيك. فلقد نبهت بعلك لإقامة السنة، ورفعت عنه من الغفلة منة. والآن أسير لأبحث عما ذكرت. وأنظر في إحضار ما إليه أشرت، ويتأتى ذلك إن شاء الله بسعدك. وتنالين فيه من بلوغ الأمر غاية قصدك. والجد ليس من الهزل، والأضحية للمرأة وللرجل الغزل. قالت دعني من الخرافات. وأخبار الزرافات. فإنك حلو اللسان، قليل الإحسان. تخذت الغربة صحبتك إلى ساسان. فتهاونت بالنسا، وأسأت فيمن أسا. وعودت أكل خبزك في غير منديل. وإيقاد الفتيل دون قنديل، وسكنى الخان، و عدم ارتفاع الدخان، فما تقيم موسما، ولا تعرف

له ميسما. وأخذت معي في ذلك بطويل وعريض، وكلانا في طرفي نقيض، إلى أن قلت لها إزاركوردائي، فقد تفاقم بك أمر دائي، وما أظنك إلا بعض أعدائي، قالت مالك والإزار، شط بك المزار، لعلك تريد إهانه في الأضحية والأبزار، أخرج عني بيا مقيت، لا عمرت معك ولا بقيت، أو عدمت الذين، وأخذ الورق بالعين. يلزمني صوم سنة، لا أغفيت معك سنة، إلا إن رجعت بمثل ما رجع به زوج جارتي، ورأى لك الربح في تجارتي. فقمت عنها وقد لوت رأسها وولولت، وابتدرت وهرولت، وجالت في العتاب وصولت، وضمت بنتها وولدها، وقامت باللجج، والانتصار بالحجج أودها، فلم يسعني إلا أن عدوت أطوف السكك والشوارع؛ وأبارد لما غدوت بسبيله وأسارع، وأجوب الآفاق، وأسل الرفاق، وأخترق الأسواق، وأقتحم زريبة بعد زريبة، وأختبر منها البعيدة والقريبة، فما استرخصته استنقصته، وما استغليته استعليته، وما وافق غرضي، اعترضني دونه عدم عرضي، حتى انقض ثلثا يومي، وقد عييت بدوراني وهومي، وأنا لم أتحصل من الابتياع على فايدة، ولا عادت علي فيه من قضاء الأرب عايدة، فأومأت الإياب، وأنا أجد من خوفها، ما يجد صغار الغنم من الذئاب، إلى أن مررت بقصاب يقصب في مجزره، قد شد في وسطه مئزره، وقصر أثوابه حتى كشف عن ساقيه، وشمر عن ساعديه حتى أبدى مرفقيه، وبين يديه عنز قد شد يديه في رقبته، وهو يجذبه فيبرك، ويجره فما يتحرك، ويروم سيره فيرجع القهقرى، ويعود إلى ورا، والقصاب يشد على إزاره، خيفة من فراره، وهو يقول: اقتله من جان باغ، وشيطان طاغ، ما أشده وما ألذه، وما أصده، وما أجده، وما أكثره بشحم، وما أطيبه بلحم، الطلاق يلزمه، إن كان عاين تيساً مثله أو أضحية تشبهه قبله، أضحية حفيلة، ومنحة جليلة. هنأ الله من رزقها، وأخلف عليه رزقها. فاقتحمت المزدحم، أنظر مع من نظر، وأختبر فيمن اختبر. وأنا والله لا أعرف في التقليب والتخمين. ولا أفرق بين العجف والسمين، غير أني رأيت صورة دون البغل وفوق الحمار، وهيكلا يخبرك عن صورة العمار، فقلت للقصاب كم طلبك فيه، على أن تمهل الثمن حتى أوفيه، فقال ابغني فيه أجيرا، وكن له الآن من الذبح مجيرا، وخذه بما يرضى، لأول النقضي. قلت استمع الصوت، ولا تخف الفوت. قال ابتعه مني نسيه وخذه هدية، قلت نعم، فشق لي الضمير، وعاكسني فيه بالنقير والقطمير. قال تضمن لي فيه عشرين ديناراً أقبضها منك لانقضاء الحول دنيراً دنيراً. قلت إن هذا لكثير، فاسمح منه بإحاطة اليسير. قال والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لا أنقصك من هذا، وما قلت لك سمسمة، اللهم إن شئت السعة في الأجل، فأقضي لك ذلك دون أجل، فجلبني للابتياع منه، الإنساء في الأمد. وغلبني بذلك فلم أفتقر منه لرأى والد ولا ولد، ولا

أحوجت نفسي في ذلك لمشورة أحد، وقلت قد اشتريته منك، فضع البركة، ليصح النجح في الحركة. فقال فقيه، بارك الله فيه، قد بعته لك، فاقبض متاعك، وثبت ابتياعك. وها هو في قبضك، فاشدد وثاقه، وهلم لنعقد عليك الوثاقة. فانحدرت معه لدكان التوثيق، وابتدرت من السعة إلى الضيق، وأوثقني بالشادة تحت عقد وثيق، وحملني من ركوب الدين ولحاق الشين في أوعر طريق. ثم قال لي هذا تيسك فشأنك وإياه، وما أظنك إلا تعصياه، وأت بحمالين أربعة، فإنك لا تقدر أن ترفعه، ولا يتأتى لك أن يتبعك ولا أن تتبعه، ولم يبق لك من الكلفة إلا أن يحصل في محلك، فيكمل سرور أهلك. وانطلقت للحمال، وقلت هلم إلي، وقم الآن بين يدي، حتى انتهينا إلى مجزرة القصاب، والعنز يطلب فلا يصاب، فقلت أين التيس يا أبا أويس. قال إنه قد فر، ولا أعلم حيث استقر. قلت أتضيع علي مالي، لتخيب آمالي، والله لا يحزنك بالعصا كمن عصا، ولا رفعتك إلى الحكام، تجري عليك منهم الأحكام. قال مالي علم به، ولا بمنقلبه، لعله فر لأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، فعليك بالبريح. فاتجهت أنادي بالأسواق، وجيران الزقاق، من ثقف لي تيساً فله البشارة، بعد ما أتى بالأمارة، وإذا برجل قد خرج من دهليز، وله هدير هزيز، وهو يقول من

صاحب العنز المشوم، لا عدم به الشوم، إن وقعت عليه عيني، يرتفع الكلام بينه وبيني. قلت أنا صاحبه فما الذي دهاك مني أو بلغك عني. قال إن عنزك حين شرد، خرج مثل الأسد، وأوقع الرهج في البلد، وأضر بكل أحد، ودخل في دهليز الفخارة، فقام فيه وقعد، وكان العمل فيه مطبوخاً ونيا، فلم يترك منه شيا، ومنه كانت معيشتي، وبه استقامت عيشتي، وأنت ضامن مالي، فارتفع معي إلى الوالي، والعنز مع هذا يدور وسط الجمهور، ويكر كرة العفريت المزجور، ويأتي بالكسر على ما بقي في الدهليز من الطواجن والقدور، والخلق قد انحسروا للضجيج، وكثر العياط والعجيج وأنت تعرف عفرطة الباعة، وما يحوون من الوضاعة، وأنا أحاول من أخذه ما أستطيع، وأروم الإطاعة من غير مطيع، والباعة قد أكسبته من الحماقة، ما لم يكن لي به طاقة. ورجل يقول المحتسب، واعرف ما تكتسب، وإلى من تنتسب، فقد كثر عنده بك التشكي، وصاحب الدهليز قبالته يبكي، وقد وجد عنده عليك وجد الشكوى، وأيقن أنك كسرت الدعوى، وأمر بإحضارك، وهو في انتظارك، فشد وسطك، واحفظ إبطك، وإنك تقوم على من فتح باعه للحكم على البقعة، ونصب لأرباب البراهين على أرباب الشواهين، ورفع على طبقة، ليملأ طبقة، ثم أمسكني باليمين، حتى أوصلني للأمين، فقال لي أرسلت التيس للفساد كأنك في نعم الله من الحساد. قلت إنه شرد، ولم أدر حيث ورج، قال ولم لا أخذت ميثاقه، ولم تشدد وثاقه، يا شرطى طرده، واطرح يدك فيه وجرده. قلت أتجردني الساعة، ولست من الباعة، قال لا بد من ذاك أو تضمن ما أفسده هناك. قلت الضمان الضمان، الأمان الأمان. قال قد أمنت إن ضمنت، وعليك الثقاف، حتى يقع الإنصاف، أو ضامن كاف، فابتدر أحد إخواني، بعض جيراني، فأدى عني ما ظهر بالتقدير، وآلت الحال للتكدير. ثم أردت الانصراف بالتيس، لا كان كيانه، ولا كون مكانه، وإذا بالشرطي قد دار حولي، وقال لي كلف فعلي بأداء جعلي، فقد عطلت من أجلك شغلي، فلم يك عندي بما تكسر سورته، ولا بما تطفي جمرته، فاسترهن مئزري في بيته ليأخذ مايته. وتوجهت لداري، وقد تقدمت أخباري، وقدمت بغباري، وتغير صغاري وكباري، والتيس على كاهل الحمال، يرغو كالبعير، ويزأر كالأسد إذا فصلت العير، فقلت للحمال إنزله على مهل، فهلال العيد قد استهل، فحين طرحه في الأسطوان. كر إلى العدوان، وصرخ كالشيطان، وهم أن يقفز الحيطان، وعلا فوق الجدار، وأقام الرهجة في الدار، ولم تبق في الزقاق عجوز إلا وصلت لتراه، وتسل عما اعتراه، وتقول بكم اشتراه، والأولاد قد دارت به، وأرهقهم لهفه، ودخل قلوبهم خوفه، فابتدرت ربة البيت، وقالت كيت وكيت، لا خل ولا زيت، ولا حي ولا ميت، ولا موسم ولا عيد، ولا قريب ولا بعيد، سقت العفريت إلى المنزل، ورجعت بمعزل، ومن قال لك اشتره، ما لم تره، ومن قال لك سقه حتى توثقه، ومتى تفرح زوجتك، والعنز أضحيتك، ومتى تطبخ القدور وولدك منه معذور، وبأي قلب تأكل الشوية، ولم تخلص لك فيه النية واقلة سعدها، وأخلف وعدها، والله لو كان العنز يخرج الكنز، ما عمر لي داراً، ولا قرب لي جواراً

أخرج عني يا لكع، فعل الله بك وصنع، وما حبسك عن الكباش السمان، والضأن الرفيعة الأثمان، يا قليل التحصيل، يا من لا يعرف الخياطة ولا التفصيل، أدلك على كبش سمين، واسع الصدر والجبين، أكحل عجيب، أقرن مثل كبش الخطيب، يعبق من أوداكه كل طيب، يغلب شحمه على لحمه، ويسيل الودك من عظمه، قد علف بالشعير، ودبر عليه أحسن تدبير، لا بالصغير ولا بالكبير، تصلح منه الألوان، ويستطرف شواه في كل أوان، ويستحسن ثريده وقديده في سائر الأحيان، قلت بيني لي قولك. لأتعرف فعلك. وأين توجد هذه الصفة، يا قليلة المعرفة. قالت عند مولانا، وكهفنا ومأوانا الرييس الأعلى، الشهاب الأجلى، القمر الزاهر. الملك الظاهر، الذي أعز المسلمين بنعمته، وأذل المشركين بنقمته. واسترسل في المدح فأطال وفيما ثبت كفاية. عني يا لكع، فعل الله بك وصنع، وما حبسك عن الكباش السمان، والضأن الرفيعة الأثمان، يا قليل التحصيل، يا من لا يعرف الخياطة ولا

النفصيل، أدلك على كبش سمين، واسع الصدر والجبين، أكحل عجيب، أقرن مثل كبش الخطيب، يعبق من أوداكه كل طيب، يغلب شحمه على لحمه، ويسيل الودك من عظمه، قد علف بالشعير، ودبر عليه أحسن تدبير، لا بالصغير ولا بالكبير، تصلح منه الألوان، ويستطرف شواه في كل أوان، ويستحسن ثريده وقديده في سائر الأحيان، قلت بيني لي قولك. لأتعرف فعلك. وأين توجد هذه الصفة، يا قليلة المعرفة. قالت عند مولانا، وكهفنا ومأوانا الرييس الأعلى، الشهاب الأجلى، القمر الزاهر. الملك الظاهر، الذي أعز المسلمين بنعمته، وأذل المشركين بنقمته. واسترسل في المدح فأطال وفيما ثبت كفاية.

وفاته

في كاينة الطاعون ببلده بلش في أواخر عام خمسين وسبعماية ودفن بها.

عبد الله بن الحجاري الصنهاجي

عبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجاري الصنهاجي الأديب المصنف، يكنى أبا محمد.

حاله وأوليته

أبوه أديب مدينة الفرج بوادي الحجارة، المصنف للمأمون بن ذي النون كتاب مغنيطاس الأفكار فيما تحتوي عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار، وكان أبو محمد هذا ماهراً، كاتباً، شاعراً، رحالا. سكن مدينة شلب، بعد استيلاء العدو على بلاده بالثغر. وله في التحول أشعار وأخبار. قدم غرناطة، وقصد عبد الملك بن سعيد صاحب القلعة من بنياها، واستأذن عليه في زي موحش، واستخف به القاعدون ببابه، إلى أن لاطف بعضهم، وسأله أن يعرف به القايد، فما بلغ عنه، أمر بإدخاله، فأنشده قصيدة مطلعها:

عليك أحالني الذكر الجميل ... فجيت ومن ثنايك لي دليل

أتيت ولم أقدمك من رسول ... لأن القلب كان هو الرسول

منها في وصف زيه البدوي المستقل وما في طيه:

ومثلني بدن فيه خمر ... يخفف بها ومنظره ثقيل

فأكرم نزله، وأحسن إليه، وأقام عنده سنة، حتى ألف بالقلعة كتاب المسهب في غرايب المغرب، وفيه التنبيه على الحلى البلادية والعبادية. وانصرف إلى قصد ابن هود بورطة، بعد أن عذله عن التحول عنه، فقال النفس تواقة، ومالي بالتغرب طاقة، ثم أفكر وقال:

يقولون لي مإذا الملال تقيم في ... محل فعند الأنس تذهب راحلا

فقلت لهم مثل الحمام إذا شدا ... على غصن أمسى بآخر نازلا

نكبته

قال علي بن موسى بن سعيد: ولما قصد الحجارى روطة، وحل لدى أميرها المستنصر بن عماد الدولة بن هود. وتحرك لغزو من قصده من البشكنس، فهزم جيشه، وكان الحجارى أحد من أسر في تلك الوقيعة، فاستقر ببسقاية، وبقي بها مدة، يحرك ابن هود بالأشعار ويحثه على خلاصه من الإسار، فلم يجد عنده ذمامة، ولا تحرك له اهتمامه، فخاطب عبد الملك بن سعيد بقوله:

أصبحت في بسقاية مسلماً ... إلى الأعادي لا أرى مسلماً

مكلفاً ما ليس في طاقتي ... مصفدا منتهرا مرغما

أطلب بالخدمة وا حسرتي ... وحالتي تقضي بأن أخدما

فهل كريم يرتجي للأسير ... يفكه أكرم به منتما

وقوله:

أرييس الزمان أغفلت أمري ... وتلذذت تاركاً لي بأسر

ما كذا يعمل الكرام ولكن ... قد جرى على المعود دهري

فجتهد في فدايه، ولم يمر شهر إلا وقد تخلص من أسره، واستقر لديه. فكان طليق آل سعيد. وفيهم يقول:

وحدنا سعيداً منجباً خير عصبة ... هم في بني أعصارهم كالمواسم

مشنفة أسماعهم بمدايح ... مسورة أيمانهم بالصوارم

فكم لهم في الحرب من فضل ناثر ... وكم لهم في السلم من فضل ناظم

تواليفه

تواليف الحجارى بديعة، منها الحديقة في البديع. وهو كتاب مشهور، ومنها المسهب في غرايب المغرب. وافتتح خطبته بقوله: الحمد لله الذي جعل العباد من البلاد بمنزلة الأرواح من الأجساد، والأسياف من الأغماد. وهو في ستة مجلدات.

عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد

ابن الخطيب السلماني

يكنى أبا محمد.

أوليته، تنظر في اسم جده.

حاله

حسن السكل. جيد الفهم، يغطى منه رماد السكون جمرة حركة، منقبض عن الناس. قليل البشاشة، حسن الخط، وسط النظم. كتب عن الأمراء بالمغرب، وأنشدهم، واقتضى خلعهم وصكوكهم بالإقطاع والإحسان. ثم لما كانت الفتنة، كتب عن سلطان وطنه، معزز الخطة بالقيادة، وأنشدهم.

مشيخته

قرأ على قاضي الجماعة، الشيخ الأستاذ الخطيب أبي القاسم الحسني، والأستاذ الخطيب أبي سعيد فرج بن لب التغلبي، واستظهر بعض المبادي في العربية، واستجيز له من أدركه ميلاده من أهل المشرق والمغرب.

شعره

مترفع عن الوسط إلى الإجادة، بما يكفله عذر الحداثة، وقد ثبت في اسم السلطان لهذا العهد، أبي عبد الله بن نصر، أيده الله، ما يدل على جودة قريحته، وذكاء طبعه. ومما دون الذي ثبت له حيث ذكر قوله:

لمن طلل بالرقمتين محيل ... عفت دمنتيه شمأل وقبول

يلوح كباقي الوشم غيره البلى ... وجادت عليه السحب وهي همول

فيا سعد مهلاً بالركاب لعلنا ... نسايل رعاً فالحب سئول

قف العيس ننظر نظرة تذهب الأسى ويشفى بها بين الضلوع غليل

وعرج على الوادي المقدس بالحمى ... فطاب لديه مربع ومقيل

فيا حبذا تلك الديار وحبذا ... حديث بها للعاشقين طويل
دعوت لها سقيا الحمى عندما سرى ... وميض وعرف للنسيم عليل
وأرسلت دمعي للغمام مساجلاً ... فسال على الخدين منه مسيل
فأصبح ذاك الربع من بعد محله ... رياضاً بها الغصن المروح يميل
لين حال رسم الدار عما عهدته ... فعهد الهوى في القلب ليس يحول
ومما شجاني بعد ما سكن الهوى ... بكاء حمامات لهن هديل
توسدن فرع البان والنجم مايل ... وقد آن من جيش الظلام رحيل
فيا صاحبي دع عنك لومي فإنه ... كلام على سمع المحب ثقيل
تقول اصطباراً عن معاهدك الأني ... وهيهات صبري ما إليه سبيل
فلله عيناً من رآني وللأسا ... غداة استقلت بالخليط حمول
يطاول ليل التم مني مسهد ... وقد بان عني منزل وخليل
فيا ليت شعري هل يعودن ما مضى ... وهل يسمحن الدهر وهو بخيل

نثره

أجابني لما خاطبت الجملة من الكتاب، والسلطان رضي الله عنه، بالمنكب، في رحلة أعملها بما نصه:

ولله من فذة المعاني، حيث مشوق الفؤاد عاني، لما أنارت بها المغاني، غنين عن مطرب الأغاني، يا صاحب الإذعاني، أجب بالله من دعاني، إذا صرت من كثرة الأماني، بالشوق والوجد مثل ماني. وردت سحات سيدي التي أنشأت لغمام الرحمة، عند اشتداد الأزمة رياحاً، وملأت العيون محاسناً، الصدور انشراحاً، وأصبح رحيب قرطاسها، وعميم فضلها ونوالها، وأيناسها لفرسان البلاغة، مغدى ومراحاً. فلم أدر أصحيفة نسخت مسطورة، أم روضة نفحت ممطورة، أطيب من المسك منشقا، وأحسن من السلك متسقا، فملكتها مقادة خاطري، وأودعتها سواد قلبي وناظري، وطلعت علي طلوع الصبح، على عقب السرى، وخلصت خلوص الخيال مع سنة الكرى. فلله ما جلبت من أنس، وأذهبت لطايفة الشيطان من مس، وهاجت من الشوق، الذي شب عمره عن الطوق، والوجد الذي أصبح وارى الزند. فأقسم بباري النسيم، وواهب الحظوظ والقسم، لو أعطيت للنفس مقادتها، وسوغها إرادتها، ما قنعت بنيابة القرطاس والمداد، عن مباشرة الأرواح والأجساد، وإن أعرضت عقبة للشعير، ورأس المزاد وشمخ بأنفه وزاد، وما بين ذلك من علم باذخ، وطود شامخ، قد أذكرت العقاب عقابه، صافحت النجوم هضابه، قد طمح بطرفه، وشمخ بأنفه، وسال الوقار على عطفه:

ملكت عنان الريح راحته ... فجيادها من تحته تجري

وأما الحمل الهايج، والبحر المتمايج، والطلل المايل، والذنب الشايل، فمساجلة مولاي في ذلك المجال، من المحال، إذ العبد قصاراه ألفاظ مركبة، غير مرتبة:

هو جهد المقل وافاك مني ... إن جهد المقل غير قليل

وأقرأ على مولاي، أبقاه الله، سلاما عميماً، تنسم روضه نسيماً، ورف نظره، وعبق شميماً، والأوفر الأذكى منه عليه معادا، ما سفح السحاب إرعادا، وأبرق الغمام رعدا والحسام أبعادا، ورحمة الله وبركاته. من عبده الشبق لوجهه، عبد الله بن الخطيب، في الخامس عشر لجمادى الأولى عام تسعة وستين وسبعماية.

مولده: بحضرة غرناطة، يوم السبت سابع عشر صفر عام ثلاثة وأربعين وسبعماية.
؟

عبد الله بن محمد بن ساره البكري

شنتريني، سكن ألمرية وغرناطة، وتردد مادحاً ومنتجعاً شرقاً ومغرباً ويضرب في كثير من البلاد.
حاله
كان ذا حظ صالح من النحو واللغة، وحفظ الأشعار، أديباً ماهراً، شاعراً مجيداً، مطبوع الاختراع والتوليد. تجول في شرق الأندلس وغربها، معلماً للنحو، ومادحاً ولاتها، وكتب عن بعضهم، وتعيش بالوراقة زمانا، وكان حسن الخط، جيد النقل والضبط.
؟

مشيخته

روى عن أبي الحسن بن الأخضر.
من روى عنه: روى عنه أبو بكر بن مسعود، وأبو جعفر بن الباذش، وأبو عثمن بن هرون، وأبو الطاهر التميمي، وأبو العباس بن علي اللص، وأبو العلاء بن الجنان. وأبو محمدبن يوسف القضاعي، وإبراهيم بن محمد السبتي.
؟

شعره

وشعره كثير جيد شهير. منه في حرفة الوراقة قوله:
أما الوراقة فهي أيكة حرفة ... أغصانها وثمارها الحرمان
شبهت صاحبها بإيرة خايط ... يكسو العراة وظهره عريان
وقال في نجم الرحيم، وهو من التشبيه العقيم:
وكوكب أبصرالعفريت مسترقاً ... فانقضى يذكي سريعاً خلفه لهبه
كفارس حل إخصاراً عمامته ... تجرها كلها من خلفه عدبه
وقال منه في المواعظ:
يا من يصيخ إلى داعي السفاه وقد ... نادى به الناعيان الشيب والكبر
إن كنت لا تسمع الذكر ففيم ترى ... في رأسك الواعيان السمع والبصر
ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل ... لم يهده الهاديان العين والأثر
لا الدهر يبقى على حال ولا الفلك ... الأعلى ولا النيران الشمس والقمر
لأرحلن عن الدنيا ولو كرهاً ... فراقها الثاويان البدو والحضر
وقال في موت ابنة له:
ألا يا موت كنت بنا رؤوفا ... فجددت السرور لنا بزورة

حمدنا سعيك المشكور لما ... كفيت مؤنة وسترت عورة
فأنكحنا الضريح بلا صداق ... وجهزنا العروس بغير شورة
وفاته
توفي عبد الله بن ساره سنة تسع عشرة وخمسمائة.
عبد الله بن محمد الشراط
يكنى أبا محمد، من أهل مالقة.
حاله

طالب جليل، ذكي، مدرك، ظريف، كثير الصلف والختروانة والإزراء بمن دونه، حاد النادرة، مرسل عنان الدعابة، شاعر مكثر، يقوم على الأدب والعربية، وله تقدم في الحساب، والبرهان على مسايله. استدعى إلى الكتابة بالباب السلطاني، واختص بولي العهد، ونيط به من العمل، وظيف نبيه، وكاد ينمو عشبه، ويتأشب جاهه، لو أن الليالي أمهلته، فاعتبط لأمد قريب من ظهوره، وكانت بينه وبين الوزير أبي عبد الله بن الحكيم، إحنة، تخلصه الحمام لأجلها، من كف انتقامه.
شعره

وشعره كثير، لكني لم أظفر منه إلا باليسير. نقلت من خط صاحبنا القاضي المؤرخ أبي الحسن بن الحسن، من نظم أبي محمد الشراط، في معنى، كان أدباء عصره، قد كلفوا بالنظم فيه، يظهر من هذه الأبيات في شمعة:
وكنت ألفت قبل اليوم إلفاً ... أنادي مرة فيجيب ألفاً
وكنا مثل وصل العهد وصلا ... وكنا مثل وصف الشهد وصفا
ففرق بيننا صرف الليالي ... وسوغنا كؤس البين صرفا
فصرت غداة يوم البين شمعا ... وسار فصار كالفسل المصفا
فدمعي لا يتم أسى وجسمي ... يغص بنار وجدي ليس يطفا
ثم في المعنى أيضاً:
حالي وحالك أضحت آية عجبا ... إن كنت مغربا أو كنت مغتربا
إذا دنوت فإني مشعر طرباً ... وإن نأيت فإني مشعل لها
كذاك الشمع لا تنفك حالته ... إلا إلى الناس مهما فارق الضربا
ومن ذلك أيضاً:
رحلتم وخلفتم مشوفكم نسيا ... رهين هيام لا يموت ولا يحيا
فضاقت على الأرض واعتاص مذهبي ... وما زلت في قومي ولا ضاقت الدنيا
وما باختيار شتت الدهر بيننا ... وهل يملك الإنسان من أمره شيأً
فذا أضلعي لم تخب من أجلكم جوى ... وذا أدمعي لم تأل من بعدكم جريا
كأنني شمع في فؤاد وأدمع ... وقد فارقت من وصلكم ريا
وذكر لي، أن هذا صدر عنه في مجلس أنس مع الوزير أبي عبد الله ابن عيسى بمالقة، بحضرة طايفة من ظرفاء الأدباء.
وفاته

كان حيا سنة سبعمائة، وتوفي بغرناطة، وهي على حاله من الكتابة، رحمه الله.
عبد الله بن يوسف بن رضوان

بن يوسف بن رضوان النجاري

يكنى أبا القاسم، ويعرف باسم جده، من أهل مالقة، وصاحب القلم الأعلى لهذا العهد بالمغرب.
حاله
هذا الفاضل نسيج وحده، فهماً وانطباعاً، ولوذعية، مع الدين والصون، معم، مخول في الخير، مستول على خصال حميدة، من خط وأدب وحفظ، مشارك في معارف جملة. كتب ببلده عدلاً رضي، وأنشد السلطان عند حلوله ببلده. ورحل عن بلده إلى المغرب، فارتسم في كتابة الإنشاء بالباب السلطاني، ثم بان فضله، ونبه قدره، ولطف محله، وعاد إلى الأندلس، لما جرت على سلطانه الهزيمة بالقيروان، ولم ينتشله الدهر بعدها مع جملة من خواصه. فلما استأثر الله بالسلطان المذكور، موسوم التمحيص، وصير أمره إلى ولده بعده، جنح إليه، ولحق بيابه، مقترن الوفادة، بيمن الطاير، وسعادة النصبة، مظنة الاصطناع، فحصل على الحظوة، وأصبح في الأمد القريب، محلا للبث وجليساً في الخلوة، ومؤتمنا على خطة العلامة، من رجل ناهض بالكل، جلد على العمل، حذر من الذكر، متقلص ذيل الجاه، متهيب، غزير المشاركة، مطفف في حقوق الدول، عند انخفاض الأسعار، جالب لسوق الملك ما ينفق فيها، حار النادرة. مليح التدبير، حلو الفكاهة. غزل مع العفة، حافظ للعيون، مقدم في باب التحسين والتنقيح، لم ينشب الملك أن أنس منه بهذه الحال، فشد عليه يد الغبطة. وأنشب فيه فيه براثن الأثرة، ورمى إليه بمقاليد الخدمة، فسما مكانه، وعلا كعبه، ونما عشه. وهو الآن بحاله الموصوفة، من مفاخر قطره. ومناقب وطنه، كثر الله مثله.
مشيخته

قرأ ببلده على المقري أبي محمد بن أيوب، والمقري الصالح أبي عبد الله المهندس، والأستاذ أبي عبد اله بن أبي الجيش، والقاضي أبي جعفر بن عبد الحق، وروى عن الخطيب المحدث أبي جعفر الطنجالي، والقاضي أبي بكر بن منظور.
وبغرناطة عن جلة، منهم شيخنا رئيس الكتاب أبو الحسنى، ولازم بالمغرب الريس أبا محمد عبد المهيمن الحضرمي، والقاضي أبا إسحق إبراهيم بن أبي يحيى، وأبا العباس بن بربوع السبتي. وبتلمسان عن أبي عبد الله الآبلي، وأبي عبد الله بن النجار وغيرهما. وبتونس عن قاضي الجماعة أبي عبد الله بن السلام. وعن جماعة غيرهم.
شعره

ونظمه ونثره متجاريان لهذا العهد في ميدان الإجادة. أما شعره فمتناسب الوضع، سهل المأخذ، ظاهر الرواء، محكم الإمرة للتنقيح. وأما نثره فطريف السجع، كثير الدالة، مطيع لدعوة البديهة، وربما استعمل الكلام المرسل، فجرى يراعه في ميدانه ملئ عنانه.
وجرى ذكره في التاج أيام لم يفهق حرضه، ولا أزهر روضه، ولا تباينت سماؤه ولا أرضه. بما نصه: أديب أحسن ما شا، وفتح قليبه فملأ الدلو وبل الرشا. وعانى على حداثته الشعر والإنشا، وله ببلده بيت معمور بفضل وأمانة، ومجد وديانة. ونشأ هذا الفاضل على أتم العفاف والصون. فما مال إلى فساد بعد الكون. وله خط بارع. وفهم إلى الغوامض مسارع. وقد أثبت من كلامه، ونفثات أقلامه، كل محكم العقود، زارياً بنت العنقود. فمن ذلك قصيدة أنشدها للسلطان أمير المسلمين، مهنيا بهلاك الأسطول الحربي بالزقاق الغربي، أجاد أغراضها وسبك المعاني وراضها،

وهي قوله:

لعلكما أن ترعيا لي وسايلا ... فبالله عوجا بالركاب وسايلا

بأوطان أوطار قفا ومآربي ... وبالحب خصا بالسلام المنازلا

ألا فانشدا بين القباب من الحما ... فؤاد شد أضحي عن الجسم راحلا

وبثا صباً بات هنالك واشرحا ... لهم من أحاديثي عرضاً وطايلا

رعى الله مثواكم على القرب والنوى ... ولا زال هامي السحب في الربع هاملا

وهل لزمان باللوى سقى اللوى ... مآرب فما ألقى مدى الدهر حايلا

فحظي بعيد الدار منه بقربه ... ويورد فيه من مناه مناهلا

وحملني من صرفه ما يؤدني ... ومكن مني الخطوب شواغلا

عتبت عله فاغتدى لي عاتبا ... وقال اصخ لي لا تكن لي عاذلا

أتعتبني إذ قد أفدتك موقفا ... لدى أعظم الأملاك حلماً ونايلا

مليك جاه الله بالخلق الرضا ... وأعلى له في المكرمات المنازلا

مليك علا فوق السماك فطرفه ... غدا كهلال الأفق يبصرنا علا

إذا ما دجا ليل الخطوب فبشره ... صباح وبدر لا يرى الدهر آفلا

نماه من الأنصار غر أكابر ... لهم شيم ملء الفضاء فضايلا

تلوا سور النعماء في حزبهم كما ... جلوا صور الأيام غراً جلايلا

تسامت لهم في المعلوات مراتب ... يرى زحل دون المراتب زاحلا

عصابة نصر الله طابت أواخرا ... كما قد زكت أصلا وطابت أوايلا

لقد كان ربع المجد من قبل خالياً ... ومن آل نصر عاد يبصر آهلا

إذا يوسف منهم تلوح يمينه ... تقول سحاب الجود والبأس هاطلا

كتايبه في الفتح تكتب أسطرا ... تبين من الأنفال فيها المسايلا

عوامله بالحذف تحكم في العد ... كما حكموا في حذف جزم عواملا

يبدد جمع الكفر رعبا وهيبة ... كما بددت منه اليمين النوافلا

ومنها في وصفه الأسطول واللقاء:

ولما استقامت بالزقاق أساطل ... واستقلت للعود محافلا

رآها عدو الله فانفض جمعه ... وأبصر أمواج البحار أساطلا

ومن دهش ظن السواحل أبحرا ... ومن رعب خال البحار سواحلا

ومن جندكم هبت عليه عواصف ... تدمر أدناها الصلاب الجنادلا

تفرقهم أيدي سبا وتبيدهم ... فقد خلفت فيهم حساما وذابلا

وعهدي بمر الريح للنار موقدا ... فقد أطفأت تلك الحروب المشاعلا

وكان لهم برد العذاب ولم يكن ... سلاماً وما كادوه قد عاد باطلا

حداهم هواهم للإسار وللفنا ... فما أفلتوا من ذا وذاك حبايلا

فهم بين عان في القيود مصفد ... وفان عليه السيف أصبح صايلا

ستهلك ما بالبر منهم جنودكم ... كما أهلكت من كان بالبحر عاجلا

وقال أيضاً يمدحه:

نشرت لواء النصر واليمن والسعد ... وأطلعت وجه اليسر والأمن والرفد

أعدت لنا الدنيا نعيماً ولذة ... ألا للمعالي ما تعيد وما تبد

بنوركم والله يكلأ نوركم ... تبدت لنا سبل السعادة والرشد

تحلى لكم بالملك نحر ولبة ... فراق كذاك الجيد يزدان بالعقد

مآثركم قد سطرتها يد العلا ... على صفحات الفخر أو مفرق الحمد

بمدحكم للقرآن أثنى منزلا ... وقد حزتم مجدا بجدكم سعد

كفاكم فخارا أنه لكم أب ... ومن فخره إن أنت تدعوه بالجد

ثناؤكم هذا أم المسك نافح ... وذكركم أم عاطر العنبر الورد

أجل ذكركم أزكى وأذكى لناشق ... كما أنكم أجلى وأعلا لمشهد

طلعتن على الآفاق نورا وبهجة ... فما أنت إلا البدر في طالع السعد

وفي جملة الأملاك عز ورفعة ... ودم في خلود الملك والنصر والسعد

ولو أثنى فقت سجان وايل ... وأريت في شعري على الشاعر الكند

لما قمت بالمعشار من بعض مالكم ... من الجود والأفضال والبذل والرفد

وقال في شيخه أبي بكر بن منظور رحمه الله.

جلالك أولى بالعلا المخلد ... وذكرك أعلى الذكر في كل مشهد

لمجدك كان العز يذخر والعلى ... وأنك للأولى بأرفع سؤدد

أبي الله إلا أن تكون مشرفاً ... بمقعد خير العالمين محمد

فهنيت بالفخر السني محله ... وهنيت بالمجد الرفيع المجدد

شهدت بما أوليتني من عوارف ... وخولت من نعمى وأسديت من يد

وما حزت من مجد كريم نجاره ... وما لك من مجد ورفعة محتد

لقد نبأتني بالرواح لعزكم ... مخايل إسعاد تروح وتغتد

تحدثني نفسي وإني لصادق ... بأن سوف تلقى كاملا كل مقصد

دليلي بهذا أنك الماجد الذي ... تسامى علوا فوق كل ممجد

ليفخر أولو الفخر المنيف بأنكم ... لهم علم أعلى به الكل مقتدي

إمام علوم معتلي القدر لم يزل ... رداء المعالي والعوارف يرتد

وقاض إذا الأحكام أشكل أمرها ... جلا لها برأي الحقيقة مرشد

إذا الحق أبدى نوره عند حكمه ... رأيت له حد الحسام المهند

وإن جميع الخلق في الحق عنده ... سواسية ما بين دان وسيد

هنيئاً لنا بل للقضاء وفضله ... بقاض حليم في القضاء مسدد

أمات به الرحمن كل ضلالة ... وأحيا بما أولاه شرعة أحمد

وكاين تراه لا يزال ملازما ... لأمر بعرف أو لزام بمسجد

وما زال قلماً للحقيقة حاميا ... وللشرعة البيضاء يهدي ويهتدي
ويمنح أفضالا ويولى أيادياً ... وإحسانه للمعتفين بمرصد
يقيد أحراراً بمنطق جوده ... فما إن يني عن مطلق أو مقيد
نعم إن يكن للفضل شخص فإنما ... بشيمته الغراء في الفضل يبتدي
أيا ناثراً أسى المعارف والغنا ... ويا طارقا يطوي السرى كل فدفد
ألا الق عصا التسيار واعش لناره ... تجد خر نار عندها خير موقد
ومن مقطوعاته وقوله:

تبرأت من حولي إليك وأيقنت ... برحماك آمالي فصح يقيني
فلا أرهب الأيام إذ كنت ملجأي ... وحسبي يقيني باليقين يقيني
ومن شعره لهذا العهد منقولا من خطه، قال مما نظمه فلان، يعني نفسه في كتاب الشفا، نفع الله به:
سل بالعلى وسنى المعارف يبهر ... هل زانها إلا الأيمة معشر
وهل للمفاخر غير ما شهدت به ... آي الكتاب وخارتها الأعصر
هم ما هم شرفاً ونيل مراتب ... يوم القيام إذا يهول المحشر
ورثوا الهدى عن خير مبعوث به ... فخراً هديهم للنعيم الأكبر
وعياض الأعلى قداحاً في العلى ... منهم وحوله الفخار الأظهر
بشفايه تشفى الصدور وإنه ... لرشاد نار به الشهاب النير
هو للتوالف روح صورتها وقل ... هو تاج مفرقها البهي الأنور
أفنت محاسنه المدايح مثل ما ... لمعيده بعد الثناء الأعطر
وله اليد البيضاء في تأليفه ... عند الجميع ففضلها لا ينكر
هو مورد الهيم العطاش هفت ... بهم أشواقهم فاعتاض منه المصدر
فبه ننال من الرضى ما نبتغي ... وبكونه فينا نغاث ونمطر
أنظر إليه تميمة من كل ما ... تخشى من الخطب المهول وتحذر
لكأنني بك يا عياض مهنأ ... بالفوز والملأ العلي مبشر
لكأنني بك يا عياض منعما ... بجوار أحمد يعتلي بك مظهر
لكأنني بك يا عياض متوجاً ... تاج الكرامة عند ربك تخبر
لكأنني بك راوياً من حوضه ... إذا لا صدى ترويه إلا الكوثر
فعلى محبته طويت ضمايرا ... وضحت شواهدها بكتبك تؤثر
ها إنهن لشرعة الهادي الرضا ... صدف يصان بهن منها جوهر
فجزاك رب العالمين تحية ... يهب النعيم سريرها والمنبر
وسقى هزيم الودق مضجعك الذي ... ما زال بالرحمي يؤم ويعمر
وقال في محمل الكتب:
أنا الحبر في حمل العلوم وإن تقل ... بأني حلى عن حلاهن تعدل
أقيد ضروب العلم ما دمت قايما ... وإن لم أقم فالعلم عن بمعزل

خدمت بتقوى الله خير خليفه ... فبوأني من قربه خير منزل
أبا سالم لا زال في الدهر سالما ... يسوغ من شرب المنا كل منهل
وكان قد رأى ليلة الاثنين الثانية لجمادى الأولى عام ستين وسبعماية في النوم، كأن الوزير أبا علي بن عمر بن يخلف بن عمران الفدودي، يأمره أن يجيب عن كلام من كتب إليه. فأجاب عنه بأبيات نظمها في النوم، ولم يحفظ منها غير هذين البيتين:
وإني لأجزى بما قد أتاه ... صديقي احتمالا لفعل الحرفاء
بتمكين ود وإثبات عهد ... وإجزال حمد وبذل حياء
ومن نظمه في التورية:
وبخيل لما دعوه لسكني ... منزل بالجنان ضن بذاك
قال لي مخزن بداري فيه ... جل ما لي فلست للدار شاك
لا تعرج على الجنان بسكني ... ولتكن ساكناً بمخزن مالك
ومن ذلك أيضا:
يا رب منشأة عجبت لشأنها ... وقد احتوت في البحر أعجب شان
سكنت بجنبها عصابة شدة ... حلت محل الروح في الجثمان
فتحركت بإرادة مع أنها ... في حسنها ليست من الحيوان
وجرت كما قد شاء سكانها ... فعلمت أن السر في السكان
ومن ذلك أيضاً قوله:
وذي خدع دعوه لاشتغال ... وما عرفوه غثاً من سمين
فأظهر زهده وغنى بمال ... وجيش الحرص منه في كمين
وأقسم لا فعلت بمن خب ... فيا عجباً لخلاف مهين
يقد بسيره ويمين حلف ... ليأكل باليسار وباليمين
شيء من نثره

خاطبته من مدينة سلا بما نصه، حسبما يظهر من غرضه:
مرضت فأيامي لذاك مريضة ... وبرؤك مقرون برئ اعتلالها

فما راع ذاك الذات للضر رائع ... ولا وسمت بالقسم غر خلالها
وينظر باقي الرسالة في خبر التعريف بمؤلف الكتاب فراجعني عن ذلك بما نصه:
متى شيت ألفي من علايك كل ما ... ينيل من الآمال خير منالها
كبر اعتلال من دعايك زارني ... وعادات بر لم ترم عن وصالها
أبقى الله ذلك الجلال الأعلى متطولاً بتأكيد البر، متفضلاً بموجبات الحمد والشكر. وردتني سماة سيدي المشتملة على معهود تشريفه، وفضله الغنى عن تعريفه، متحفياً في السؤال عن شرح الحال، ومعلناً ما تحلى به من كرم الخلال، والشرف العال، والمعظم على ما يسر ذلك الجلال، الوزاري، الرياسي، أجراه الله على أفضل ما عوده، كما أعلى في كل مكرمة يده، ذلك ببركة دعايه الصالح، وحبه المخيم بين الجوانح. والله سبحانه المحمود على نعمه،

ومواهب لطفه وكرمه، وهو سبحانه المسئول أن يسنى لسيدي قرار الخاطر، على ما يسره في الباطن والظاهر. بمن الله وفضله، والسلام على جلاله الأعلى ورحمة الله وبركاته. كتبه المعظم الشاكر، الداعي المحب، ابن رضوان وفقه الله.

ومما خاطبني به، وقد جرت بيني وبين المتغلب على دولتهم، رقاع، فيها سلم وإيقاع ما نصه:

يا سيدي الذي علا مجده قدرا وخطرا، وسما ذكره في الأندية الحافلة ثناء وشكرا، وسما فخره في المراتب الدينية والدنيوية حمداً وأجراً، أبقاك الله جميل السعي، أصيل الرأي، سديد الرمي، رشيد الأمر والنهى، وممدوحاً من بلغاء زمانك، بما يقصر بالنوابغ والعشي، مفتوحاً لك باب القبول، عند الواحد الحق. وصلني كتابك الذي هو للإعجاز آية، وللإحسان غاية، ولشاهد الحسن تبريز، ولثوب الأدب تطريز، وفي النقد إبريز، وقفت منه على ما لا تفي العبارة بعجايبه، ولا يحيد الفضل كله عن مذاهبه، من كل أسلوب طار في الجو إعراباً وإغراباً، وملك من سحر البيان خطاباً، وحمد ثناه مطالاً وحديثاً مطاباً، شأن من قصر عن شأو البلغاء، بعد الإغياء، ووقف دون سباق البديع بعد الإعياء، فلم يشق غباره، ولا اقتفيت إلا بالوهم آثاره، فلله من سيدي إتحاف سر ما شاء، وأحكم الإنشاء، وبر الأكابر والإنشاء، فما شئت من إفصاح وكتابة، وبر ورعاية، وفهم وإفهام، وتخصيص وإبهام، وكبح لطرف النفس وقمع، وخفض في الجواب ورفع، وتحرج وتورع، وترقص وتوسع، وجماع وأصحاب، وعتب وإعتاب، وإدلال على أحباب، وإلى غير ذلك من أنواع الأغراض، والمقاصد السالمة جواهرها من الأعراض، جملة جمعت المحاسن، وأمتعت السامع والمعاين، وحلت من امتناعها مع السهولة الحرم، إلا من زاد الله تلك المعارف ظهوراً، وجعلها في شرع المكارم هدى ونوراً. وأما شكر الجناب الوزاري، أسماه الله، بحكم النيابة عن جلالكم، فقد أبلغت فيه حمدي، وبذلت ما عندي، وودي لكم ودي، ووردي لكم من المخالصة لكم وردي، وكل حالات ذلك الكمال، مجمع على تفضيله، معتمد من الثناء العاطر بإجماله وتفصيله. وأما مؤديه إليكم أخي وسيدي الفقيه المعظم، قاضي الحضرة وخطيبها، أبو الحسن، أدام الله عزته، وحفظ أخوته، فقد قرر من أوصاف كمالاتكم، ما لا تفي بتقريره الأمثلة من أولى العلم بتلك السجايا الغر، والشيم الزهر، وما تحليتم به من التقوى والبر، والعدل والفضل، والصبر والشكر، وحمل المتاعب في أمور الجهاد، وترك الملاذ والدعة في مرضاة رب العباد، والإعراض عن الفانية، والإقبال على الباقية، فيا لها من صفات خلعت السعادة عليكم مطارفها، وأجزلت عوارفها، وجمعت لكم تالدها وطارفها، زكى الله ثوابها وجدد أثوابها، ووصل بالقبول أسبابها. وذكر لي أيضاً من حسناتكم، المنقبة الكبيرة، والقربة الأثيرة، في إقامة المارستان بالحضرة، والتسبب في إنشاء تلك المكرمة المبتكرة، التي هي من مهمات المسلمين بالمحل الأعلى، ومن ضروريات الدين بالمزية الفضلى، وما ذخره القدر لكم من الأجر، في ذلك السعي المشكور، والعمل المبرور، فسرني لتلك المجادة، إحراز ذلك الفضل العظيم، والفوز بثوابه الكريم، وفخره العميم. ومعلوم، أبقكم الله، ما تقدم من ضياع الغربا ولاضعفا، من المضي فيما سلف هنالك، وقبل ما قدر لهم من المرتفق العظيم وبذلك، حتى أن من حفظ قول عمر رضي الله عنه، والله لو ضاعت نخلة بشاطئ الفرات، لخفت أن يسأل الله عنها عمر. لا شك في أن من تقدم من أهل الأمر هنالكم، لا بد من سؤاله عمن ضاع لعدم القيام بهذا الواجب المغفل. والحمد لله على ما خصكم به من مزية قوله صلى الله عليه وسلم، " إذا أراد الله بخليفة خيراً، جعل ل وزيراً صالحاً، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه ".

وأما كتاب المحبة فقد وقف المعظم على ما وجهتهم منه، وقوفاً ظهر بمزية التأمل، وعلم منه ما ترك للآخر للأول، ولم يشك في أن الفضل للحاكي، وشتان بين الباكي والمتباكي. حقا لقد فاق التأليف جمعاً وترتيباً، وذهب في الطرق الصوفية مذهباً عجيباً. ولقد بهرت معانيه كالعرائس المجلوة حسناً ونضارة، وبرعت بدايعه وروايعه سنى وإنارة، وألفاظاً مختارة، وكؤوسا مدارة، وغيوثاً من البركات مدرارة، أحسن بما أدته تلك الغرر السافرة، والأمثال السايرة، والخمايل الناظرة، واللآلئ المفاخرة، والنجوم الزاهرة. وأما إنه لكتاب تضمن زبدة العلوم، وثمرة الفهوم، وإن موضعه للباب اللباب، وخلاصة الألباب، وفذلكة الحساب، وفتح الملك الوهاب، سنى الله لكم ولنا كماله، وبلغ الجميع منا آماله، وجعل السعي فيه خالصاً لوجهه، وكفيلاً بمعرفته بمنه وكرمه، وهو سبحانه يبقى بركتكم، ويكلأ ذاتكم الكريمة وحوزتكم، بفضله وطوله وقوته والسلام الكريم يخصكم به كثيراً أثيراً، معظم مقداركم، وملتزم إجلالكم وإكباركم، ابن رضوان، وفقه الله، وكتب في الثامن والعشرين لرجب من عام سبعة وستين وسبعمائة.
وهو الآن بحاله الموصوفة، أعانه الله. وله تردد إلى حضرة غرناطة، واجتياز وإلمام.
؟؟

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الملك

بن سعيد بن خلف بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عمار ين ياسر غرناطي، قلعي الأصل، سكن مالقة.

حاله

قال صاحب الطالع هو المشهور باليربطول. زاد على أخيه بخفة الروح، وطيب النوادر، واختار سكنى مالقة، فما زال بها، يمشي على كواهل ما تعاقب فيها من الدول، ويقلب طرفه، مما نال من ولاياتها، بين الخيل والخول، حتى أن ابن عسكر، قاضى مالقة وعالمها، كان من جملة من مدحه، وتوسل به إلى بلوغ أغراضه عند القوم، وصنف له شجرة الأنساب السعيدية. وكان قبيح المنظر، مع كونه من رياحين الفضل والأدب. فمن الحكايات المتعلقة بذلك، أنه كونه من رياحين الفضل والأدب. فمن الحكايات المتعلقة بذلك، أنه دخل يوماً على الوالي بغرناطة، السيد أبي إبراهيم، وجعل يساره، وكان مختصاً به، واقتضى ذلك أن رد ظهره للشيخ الفقيه الجليل، عميد البلدة، أبي الحسن سهل بن مالك، ثم التفت فرد وجهه إليه، وقال اعتذر لكم بأمر ضروري فقال أبو الحسن، إنما تعتذر لسيدنا، فانقلب المجلس ضحكاً. ومنها أنه خرج إلى سوق اللواب مع ابن يحيى الحضرمي المشهور أيضاً بخفة الروح، وكان مسلطاً على بني سعيد، فبينما هو واقف، إذ النخاس ينادي على فرس، فم يشرب من القادوس، وعين تحصد بالمنجل، فقال له يا قايد أبا محمد، سر بنا من هنا لئلا تؤخذ من يدي، ولا أقدر لك بحيلة، فعلم مقصده، ولم يخفف عليه أن تلك صورته، فقال سل جارتك عنها، فمضى لأمه، وأوقع بينها وبينه، فحلف أن لا يدخل عليها الدار.
قال أبو عمران بن سعيد، واتفق أن جزت بدار أم الحضرمي، فرأيته إلى ناحية، وهو كئيب منكسر، فقلت له ما خبرك يا أبا يحيى، فقال لي عن أمه وعن نفسه، النساء يرمين أبناء الزنا صغارا، وهذه العجوز الفاعلة الصانعة، ترميني ابن خمسين سنة، فقلت له وما سبب ذلك، فقال ابن عمك يوسف الجمال، لا أخذ الله له بيد، فما زلت حتى أصلحت بينها وبينه.
ومن نوادر أجوبته المسكتة، أنه كان كثير الخلطة بمراكش لأحد السادة، لا يفارقه، إلى أن ولي ذلك السيد، وتمول، واشتغل بدنياه عنه، فقيل له، نرى السيد فلاناً أصرب عن صحبتك ومنادمتك، فقال، كان يحتاج إلى وقتاً كان

يتبخر بي، وأما اليوم فإنه يتبخر بالعود والند والعنبر. وقال له شخص كان يلقب بفسيوات في مجلس خاص، أي فائدة في اليربطول، وفيم ذا يحتاج إليه، فقال له لا تقل هذا، فإنه يقطع رايحة الفسا، فود أنه لم ينطق. وتكلم شخص من المترفين فقال، أمس بعنا الباذنجان التي بدار خالتي، بعشرين مثقالا، فقال لو بعتم الكريز التي فيها لساوي أكثر من ماية.

وأخباره شهيرة، قال أبو الحسن علي بن موسى، وقعت في رسايل الكاتب الجليل، شيخ الكتاب أبي زيد الفازازي، على رسايل في حق أبي محمد اليربطول، ومنه إليه، فمنها في رسالة عن السيد أبي العلاء صاحب قرطبة، إلى أخيه أبي محمد اليربطول، ومنه إليه، فمنها في رسالة عن السيد أبي العلاء صاحب قرطبة، إلى أخيه أبي موسى صاحب مالقة، ويصلكم به إن شاء الله، القايد الأجل الأكرم، الحسيب الأمجد الأنجد، أبو محمد أدام الله كرامته، وكتب سلامته، وهو الأكيد الحرمة، القديم الخدمة، المرعى الماتة والذمة المستحق البر في وجوه كثيرة، ولمعان أثيرة، منها أنه من عقب عمار بن ياسر رضوان الله عليه، وحسبكم هذا مجداً مؤثلاً، وشرفاً موصلاً، ومنها تعين بيته وسلفه، واختصاصهم من النجابة والظهور، بأنوه الإسم وأشرفه، وكونهم بين معتكف على مضجعه، أو مجاهد بمرهفه ومثقفه، ومنها سبقهم إلى هذا الأمر العزيز، وتميزهم بأثرة الشفوف والتمييز، ومنها سبقهم إلى هذا الأمر العزيز، وتميزهم بأثرة الشفوف والتمييز، ومنها الانقطاع إلى أخيكم، ممد مورده ومصدره، وكرم مغيبه ومحضره، وهذه وسايل شتى، وأذمة قل ما تتأتى لغيره.

وفاته

كانت وفاته بمالقة بعد عشرين وستماية، قال الريس، أبو عمر بن حكم، شاهدته قد وصل إلى السيد أبي محمد البياسي أيام ثورته، وهو بشنتلية مع وفد مالقة بالبيعة سنة ثنتين وعشرين وستماية.

ومن الصوفية والفقراء

ابن أبي المجد

عبد الله بن عبد البر بن سليمن بن محمد بن أشعث الرعيني من أهل أرجدونه من كورة ريه، يكنى أبا محمد، ويعرف بابن أبي المجد.

حاله

كان من أعلام الكور سلفاً، وترتباً، وصلاحاً، وإنابة، ونية في الصالحين، متسع الذرع للوارد، كثير الإيثار بما تيسر، مليح التخلق، حسن السمت، طيب النفس، حسن الظن، له حظ من الطلب، من فقه وقراءات وفريضة، وخوض في طريقة الصوفية، وأدب لا بأس به، قطع عمره خطيباً وقاضياً ببلده، ووزيراً، وكتب بالدار السلطانية، في كل ذلك لم يفارق السداد.

مشيخته

قرأ على الأستاذ الجليل أبي جعفر بن الزبير. رحل إليه من وطنه عام اثنين وتسعين وستماية، ولازمه وانتفع به، أخذ عنه الكتاب العزيز والعربية، وسمع عليه الكثير من الحديث، وعلى الخطيب الصوفي المحقق أبي الحسن فضل بن محمد بن فضيلة المعافري، وعلى الخطيب المحدث أبي عبد الله محمد بن عمر بن رشيد، وسمع على الشيخ القاضي الراوية أبي محمد النبعي، والوزير المعمر المحدث الحسيب أبي محمد عبد المنعم بن سماك العاملي، والعدل الراوية أبي الحسن بن

مستقور. وقرأ بمالقة على الأستاذ أبي بكر بن الفخار، وأجازه من أهل المشرق طائفة.

شعره

مما حدثني ابن أخته صاحبنا أبو عثمن بن سعيد. قال نظم الفقيه القاضي الكاتب أبو بكر بن شبرين ببيت الكتاب مألف الجملة، رحمهم الله، هذين البيتين:

ألا يا محب المصطفى زد صبابة ... وضمخ لسان الذكر منه بطيبه

ولا تعبأن بالمبطلين فإنما ... علامة حب الله حب حبيبه

فأخذ الأصحاب في تذييل ذلك. فقال الشيخ أبو الحسن بن الجياب رحمه الله:

فمن يعمر الأوقات طراً بذكره ... فليس نصيب في الهدى كنصيبه

ومن كان عنه معرضاً طول دهره ... فكيف يرجيه شفيع ذنوبه

وقال أبو القاسم بن أبي القاسم بن أبي العافية:

أليس الذي جلى دجا الجهل هديه ... بنور أقمنا بعده نهتدي به

ومن لم يكن من دأبه شكر منعم ... فمشهده في الناس مثل مغيبه

وقال أبو بكر بن أرقم:

نبي هدانا من ضلال وحيرة ... إلى مرتقى سامي المحل خصيبه

فهل يذكر الملهوف فضل مجيره ... ويغمط شاكي الداء شكر طبيبه

وانتهى القول إلى الخطيب أبي محمد بن أبي المجد فقال رحمه الله مذيلاً كذلك:

ومن قال مغروراً حجابك ذكره ... فذلك مغمور طريد عيوبه

وذكر سول الله فرض مؤكد ... وكل محق قايل بوجوبه

وقال يوماً شيخنا أبو الحسن بن الجياب هذين البيتين على عادة الأدباء في اختيار الأذهان:

جاهد النفس جاهدا فإذا ما ... فنيت عنك فهي عين الوجود

وليكن حكمك المسدد فيها ... حكم سعد في قتله لليهود

قال، فأجابه أبو محمد بن أبي المجد:

أيها العارف المعبر ذوقا ... عن معان غزيرة في الوجود

إن حال الفنا عن كل غير ... لمقام المراد غير المريد

كيف لي بالجهاد غير معان ... وعدوه مظاهر بجنود

ولو أني حكمت فيمن ذكرتم ... حكم سعد لكنت جد سعيد

فأراها صبابة بي فتوناً ... وأراني في حبها كيزيد

سوف أسلو بحبكم عن سواها ... ولو أبدت فعل المحب الودود

ليس شيء سوى إلآهك يبقى ... واعتبر صدق ذا بقول لبيد

وفاته

توفي رحمه الله، ليلة النصف من شعبان المكرم عام تسعة وثلاثين وسبعماية. وكان يجمع الفقراء ويحضر طائفتهم، وتظهر عليه حال، لا يتمالك معها، وربما أوحشت من لا يعرفه بها.

عبد الله بن فارس بن زيان

من بني عبد الوادي، تلمساني يكنى أبا محمد، وينتمي إلى بني زيان من بيت أمرائهم.

كذا نقلت من خط صاحبنا الفقيه القاضي أبي الطاهر قاضي الجماعة أبي جعفر بن جعفر بن فركون، وله بأحواله عناية، وله إليه تردد كثير وزيارة. قال ورد الأندلس مع أبيه، وهو طفل صغير، واستقر بقتورية في ديوان غزاتها. ولما توفي أبوه، سلك مسلكه برهة، ورفض ذلك، وجعل يتردد بين الولد، وانقطع لشأنه.

حاله

هذا الرجل غريب النزعة في الانقطاع عن الخلق، ينقطع ببعض جبال بني مشرف، واتخذ فيها كهوفاً وبيوتاً من الشعر أزيد من أربعين عاماً، وهلم جرا، منفردا، لا يداخل أجدا، ولا يلابسه من العرب، ويجعل الحلفاء في عنقه أختلف فيه، فمن ناسب ذلك إلى التلبيس وإلى لوثة تأتيه، وربما أثاب بشيء، ويطلبون دعاه ومكالمته، فربما أفهم، وربما أبهم.

محنته

ذكروا أنه ورث عن أخ له ما لا غنياً، وقدم مالقة، وقد سرق تاجر بها ذهباً عينا، فاتهم بها، فجرت عليه محنة كبيرة من الضرب الوجيع، ثم ظهرت براءته، وطلب الحاكم الجاير منه العفو، فعفا عنه، وقال لله عندي حقوق وذنوب، لعل بهذا أكفرها، وصرف عليه المال فأباه، وقال لا حاجة لي به مال سوء، وتركه وانصرف، وكان من أمر انقطاعه ما ذكر.

شيء من أخباره: استفاض عنه بالجهة المذكورة شفاء المرضى، وتفريج الكربات إلى غير ذلك من أخبار لا تحصى كثيرة. وهو إلى هذا العهد بحاله الموصوفة، وهو عام سبعين وسبعماية.

مولده: بتلمسان عام تسعين وستماية. ودخل غرناطة غير ما مرة. قال الفقيه أبو الطاهر منها في عام عشرة وسبعماية.

ابن العسال

عبد الله بن فرج بن غزلون اليحصبي يعرف بابن العسال، ويكنى أبا محمد، طليطلي الأصل. سكن غرناطة واستوطنها، الصالح المقصود التربة، المبرور البقعة، المفزع لأهل المدينة عند الشدة.

حاله

قال ابن الصيرفي، كان رحمه الله، فذا في وقته، غريب الجود، طرفاً في الخير والزهد والورع، له في كل جو متنفس، يضرب في كل علم بسهم، وله في الوعظ تواليف كبيرة، وأشعاره في الزهد مشهورة، جارية على ألسنة الناس، أكثرها كالأمثال جيدة الرصعة، صحيحة المباني والمعاني. وكان يلحق في الفقه. ويجلس للوعظ. وقال الغافقي، كان فقيهاً جليلاً، زاهداً، متفنناً، فصيحاً لسنا، الأغلب عليه مطبوعا. كان له مجلس، يقرأ عليه فيه الحفظ والتفسير، ويتكلم عليه، ويقص من حفظه أحاديث. وألف في أنواع من العلوم، وكان يغظ الناس بجامع غرناطة، غريباً في وقته، فذا ي دهره، عزيز الوجود.

مشيخته

روى عن أبي محمد مكي بن أبي طالب، وأبي عمرو، المقري الداني، وأبي عمر بن عبد البر، وأبي إسحق إبراهيم بن مسعود الإلبيري الزاهد، وعن أبيه فرج، وعن أبي زيد الحشا القاضي، وعن القاضي أبي الوليد الباجي.

شعره

وشعره كثير، ومن أمثل ما روى منه قوله:

لست وجيهاً لدي إلهي ... في مبدإ الأمر والمعاد

لو كنت وجيهاً لما براني ... في عالم الكون والفساد

وفاته

توفي رحمه الله يوم الاثنين لعشر خلون من رمضان عام سبعة وثمانين وأربعمائة وألحد ضحى يوم الثلاثاء بعده بمقبرة باب إلبيرة بين الجبانتين. ويعرف المكان إلى الآن بمقبرة العسال. وكان له يوم مشهود، وقد نيف على الثمانين رحمه الله، ونفع به.

ومن الملوك والأمراء والأعيان والوزراء

عبد الرحمن بن عبد الله بن معاوية

بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، أمير المؤمنين الناصر لدين الله الخليفة الممتع، المجلود، المظفر، البعيد الذكر، الشهير الصيت.

حاله

كان أبيض، أشهل، حسن الوجه، عظيم الجسم، قصير الساقين. أول من تسمى أمير المؤمنين، ولي الخلافة، فعلا جده، وبعد صيته، وتوطأ ملكه، وكأن خلافته كانت شمسا نافية للظلمات، فبايعه أجداده وأعمامه وأهل بيته، على حداثة السن، وجدة العمر، فجدد الخلافة، وأحيا الدعوة، وزين الملك، ووطد الدولة، وأجرى الله له من السعد، ما يعظم عنه الوصف، ويجل عن الذكر، وهيأ له استنزال الثوار والمنافقين، واجتثاث جراثيمهم.

بنوه: أحد عشر، منهم الحكم الخليفة بعده، والمنذر، وعبد الله، وعبد الجبار.

حجابه: بدر مولاه، وموسى بن حدير.

قضاته: جملة منهم أسلم بن عبد العزيز، وأحمد بن بقي، ومنذر ابن سعيد البلوطي.

نقش خاتمة: عبد الرحمن بقضاء الله راض.

أمه: أم ولد تسمى مزنة. وبويع له في ربيع الأول من سنة تسع وتسعين ومائتين.

دخوله إلبيره

قال المؤرخ، أول غزوة غزاها بعد أن استحجب بدرا مولاه، وخرج إليها يوم الخميس رابع عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ثلاثمائة مفوضاً إليه، ومستدعياً نصره، واستيلاف الشاردين، وتأمين الخايفين إلى ناحية كورة جيان، وحصن المنتلون، فاستنزل منه سعيد بن هذيل، وأناب إليه من كان نافراً عن الطاعة، مثل ابن اللبانة وابن مسرة ودحون الأعمى، وانصرف إلى قرطبة، وقد تجول، وأنزل كل من بحصن من حصون كورة جيان. وبسطة وناجرة وإلبيرة وبجانة والبشرة وغيرها بعد أن عرض نفسه عليها. وعلى عهده توفي ابن حفصون. وجرت عليه هزيمة الخندق في سنة سبع وعشرين وثلاثماية، وطال عمره، فملك نيفا وخمسين سنة، ووجد بخطه، أيام السرور التي

صفت لي دون كدر يوم كذا ويوم كذا، فعدت، فوجدت أربعة عشر يوماً.

وفاته

في أول رمضان من سنة خمسين وثلاثمائة.

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله

بن عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن

معاوية

يكنى أبا المطرف، ويلقب بالمرتضى.

حاله

وصفته

كان أبيض أشقر أقنى، مخفف البدن، مدور اللحية، خيراً، فاضلاً، من أهل الصلاح والتقى، قام بدولته خيران العامري، بعد أن كثر السؤال عن بني أمية، فلم يجد فيهم أسداً للخلافة منه، بورعه وعفافه، ووقاره، وخاطب في شأنه ملوك الطوائف على عهده، فاستجاب الكل إلى الطاعة، بعد أن جمع الفقهاء والشيوخ، وجعلوها شورى، وانصرفوا يريدون قرطبة، وبدأوا بصنهاجة بالقتال، فكان نزوله بجبل شقشتر على محجة واط.

وفاته

يوم الثلاث خلون من جمادى الأولى سنة تسع وأربعمائة. وكانت الهزيمة على عساكر المرتضى، فتركوا المحلات وهربوا، وفشي فيهم القتل، وظفرت صنهاجة من المتاع والأموال، بما يأخذه الوصف، وقتل المرتضى في تلك الهزيمة، فلم يوقع له على أثر، وقد بلغ سنه نحو أربعين.

عبد الرحمن بن معاوية

بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس يكنى أبا المطرف، وقيل أبا زيد، وقيل أبا سليمن، وهو الداخل إلى الأندلس، والمجدد الخلافة بها لذريته، والملقب بصقر بني أمية.

حاله

قال ابن مفرج، كان الأمير عبد الرحمن بن معاوية، راجح العقل، راسخ العلم، ثابت الفهم، كثير الحزم، فذ العزم، بريئاً من العجز، مستخفا للثقل، سريع النهضة، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد بإبرامها برأيه. وعلى ذلك فكان شجاعاً، مقداماً، بعيد الغور، شديد الحذر، قليل الطمأنينة، بليغاً، مفوهاً، شاعراً محسنا، سمحاً، سخياً، طلق اللسان، فاضل البنان، يلبس البياض، ويعتم به ويؤثره. وكان أعطى هيبة من وليه وعدوه لم يعطها واحد من الملوك في زمانه. وقال غيره، وألقى الأمير عبد الحمن الأندلسي ثغراً من أنأي الثغور القاصية، غفلاً من سمة الملك، عاطلاً من حليه الإمامة، فأرهب أهله بالطاعة السلطانية، وحركهم بالسيرة الملوكية، ورفعهم بالآداب الوسطية، فألبسهم عما قريب المودة، وأقامهم على الطريقة. وبدأ يدون الدواوين، وأقام القوانين، ورفع الأواوين. وفرض الأعطية، وأنفد الأقضية، وعقد الألوية، وجند الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته، وأخذ للسلطان عدته.

نبذة من أوليته

لما ظهر بنو العباس بالمشرق، ونجا فيمن نجا من بني أمية، معروفاً بصفته عندهم، وخرج بؤم المغرب لأمر كان في نفسه، من ملك الأندلس، اقتضاه حدثان. فسار حتى نزل القيروان، ومعه بدر مولاه، ثم سار حتى لحق بأخواله من نفزة، ثم سار بساحل العدوة، في كنف قوم من زناته، وبعث إلى الأندلس بدراً، فداخل له بها من يوثق به، وأجاز البحر إلى المنكب، وسأل عنها، فقال نكبوا عنها، ونزل بشاط من أحوازها، وقدم إليه أول دعوته، وعقد اللوا، وقصد قرطبة في خبر يطول، حروب مبيرة، وهزم يوسف الفهري، واستولى على قرطبة، فبويع له بها يوم عيد الأضحى من سنة ثمان وثلاثين ومائة، وهو ابن خمس وعشرين سنة.

دخوله إلبيرة

قالوا، ولما انهزم الأمير يوسف بن عبد الرحمن الفهري، لحق بإلبيرة فامتنع بحصن غرناطة، وحاصره الأمير عبد الرحمن بن معوية، وأحاط به، فنزل على صلح، وانعقد بينهما عقد، ورهنه يوسف ابنيه أبا زيد وأبا الأسود، وشهد في الأمان وجوه العسكر، منهم أمية بن حمزة الفهري، وحبيب بن عبد الملك المرواني، ومالك بن عبد الله القرشي، ويحيى بن يحيى اليحصبي، ورزق بن النعمان الغسالي، وجدار بن سلامة المذحجي. وعمر بن عبد الحميد العبدري، وثعلبة بن عبيد الجذامي، والحريش ابن حوار السلمي، وعتاب بن علقمة اللخمي، وطالوت بن عمر اليحصبي، والجراح بن حبيب الأسدي، وموسى بن خالد، والحصين بن العقيلي، وعبد الرحمن بن منعم الكلبي، إلى آخر سواهم، بتاريخ يوم الأربعاء لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة تسع وثلاثين ومائة. نقلت أسماء من شهد، لكونهم ممن دخل البلد، ووجب ذكره، فاجتزأت بذلك، فرارا من الإطالة، إذ هذا الأمر بعيد الأمد، والإحاطة لله.

بلاغته ونثره وشعره

قال الرازي، قام بين يديه رجل من جند قنسرين، يستنجد به، وقال له، يا ابن الخلايف الراشدين والسادات الأكرمين، إليك فررنا، وبك عذت من زمن ظلوم، ودهر غشوم، قلل المال، وذهب الحال، وصير إلي بذاك المنال، فأنت ولي الحمد، وربي المجد، والمرجو للرفد. فقال له ابن معاوية مسرعاً، قد سمعنا مقالتك، فلا تعودن ولا سواك لمثله، من إراقة وجهك، بتصريح المسلة، والإلحاف في الطلبة، وإذا ألم لك خطب أو دهاك أمر، أو أحرقتك حاجة فارفعه إلينا في رقعة لا تعدو ذكياً، تستر عليك خلتك، وتكف شماتة العدو بك، بعد رفعها إلى مالكنا ومالكها، عن وجهه، بإخلاص الدعاء، وحسن النية. وأمر له بجائزة حسنة. وخرج الناس يعجبون من حسن منطقه، وبراعة أدبه. ومن شعره قوله، وقد نظر إلى نخلة بمنية الرصافة، مفردة، هاجت شجنه إلى تذكر بلاد المشرق:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بنيي وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ... يسح ويستمرئ السماكين بالوبل

وفاته

توفي بقرطبة يوم الثلاثاء الرابع والعشرين لربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين وماية، وهو ابن تسعة وخمسين عاماً، وأربعة أشهر، وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، وأخباره شهيرة.

وجرى ذكره في الرجز المسمى بقطع السلوك، في ذكر هذين من بني أمية، قولي في ذكر الداخل:

وغمر الهول كقطع الليل ... بفتنة الفهري والصميل

وجلت الفتنة في أندلس ... فأصبحت فريسة المفترس

فأسرع السير إليها وابتدر ... وكل شيء بقضاء وقدر
صقر قريش عابد الرحمن ... باني المعالي لبني مروان
جدد عهد الخلفاء فيها ... وأسس الملك لمترفيها
ثم أجاب داعي الحمام ... وخلف الأمر إلى هشام
وقام بالأمر الحفيد الناصر ... والناس محصور بها وحاصر
فأقبل السعد وجاء النصر ... وأشرق الأمن وضاءت القصر
وعادت الأيام في شباب ... وأصبح العدو في تباب
سطى وأعطى وتغاضى ووفا ... وكلما أقدره الله عفا
فعاد من خالف فيها وانتزا ... وحارب الكفار دأبا وغزا
وأوقع الروم به في الخندق ... فانقلب الملك بسعي مخفق
واتصلت من بعد ذا فتوح ... تغدو على مثواه أو تروح
فاغتنموا السلم لهذا الحين ... ووصلت إرسال قسطنطين
وساعد السعد فنال واقتنا ... ثم بني الزهرا فيما قد بنا
حتى إذا ما كملت أيامه ... سبحان من لا ينقضي دوامه
عبد الرحمن بن إبراهيم اللخمي

بن يحيى بن سعيد بن محمد اللخمي

من أهل رندة وأعيانها، يكنى أبا القاسم، ويعرف بابن الحكيم، وجده يحيى، هو المعروف بابن الحكيم، وقد تقدم ذكر جملة من هذا البيت.

حاله

كان رحمه الله عين بلده المشار إليه، كثير الانقباض والعزلة، مجانباً لأهل الدنيا، نشأ على طهارة وعفة، مرضى الحال، معدودا في أهل النزاهة والعدالة، وأفرط في باب الصدقة، بما انقطع عنه أهل الإثراء من المتصدقين، ووقفوا دون شأوه. ومن شهير مايروى من مناقبه في هذا الباب. أنه أعتق بكل عضو من أعضائه رقبة، وفي ذلك يقول بعض أدباء عصره:

أعتق بكل عضو منه رقبة ... واعتد ذلك ذخراً ليوم العقبة
لا أجد منقبة مثل هذه المنقبة

مشيخته

روى عن القاضي الجليل أبي الحسن بن قطرال، وعن أبي محمد بن ابن عبد اله بن عبد العظيم الزهري، وأبي البركات بن مودود الفارسي، وأبي الحسن الدباج، سمع من هؤلاء وأجازوا له. وأجاز له أبو أمية ابن سعد السعود بن عفير، وأبو العباس بن مكنون الزاهد، قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير، وكان شيخنا القاضي العالم الجليل أبو الخطاب ابن خليل، يطنب في الثناء عليه، ووقفت على ما خاطبه به معربا عن ذلك

شعره

منقولاً من طرفة العصر من قصيدة يرددها المؤذنون منها:
كم ذا أعلل بالتسويف والأمل ... قلبا تغلب بين الوجد والوجل
وكم أجرد أذيال الصبا مرحاً ... في مسرح اللهو وفي ملعب الغزل
وكم أماطل نفسي بالمتاب ... ولا عزم فيوضح لي عن واضح السبل
ضللت والحق لا تخفى معالمه ... شتان بين طريق الجد والهزل
وفاته
يوم الاثنين التاسع والعشرين لجمادى الأولى عام ثلاثة وسبعين وستماية
عبد الرحيم بن إبراهيم بن عبد الرحيم الخزرجي
يكنى أبا القاسم، ويعرف بابن الفرس، ويلقب بالمهر، من أعيان غرناطة.
حاله

كان فقيهاً جليل القدر، رفيع الذكر، عارفاً بالنحو واللغة والأدب، ماهر الكتابة، رايق الشعر، بديع التوشيح، سريع البديهة، جارياً على أخلاق الملوك في مركبه وملبسه وزيه، قال ابن مسعدة: وطيء من درجات العز والمجد أعلاها، وفرع من الأصالة منتماها. ثم علت همته إلى طلب الرياسة والملك. فارتحل إلى بلاد العدوة، ودعا إلى نفسه، فأجابه إلى ذلك الخلق الكثير. والجم الغفير، ودعوه باسم الخليفة، وحيوه بتحية الملك. ثم خانته الأقدار، والدهر بالإنسان غدار، فأحاطت به جيوش الناصر بن المنصور، وهو في جيش عظيم من البربر، فقطع رأسه، وهزم جيشه، وسيق إلى باب الخليفة، فعلق على باب مراكش، في شبكة حديد، وبقي به مدة من عشرين سنة.
قال أبو جعفر بن الزبير، كان أحد نبهاء وقته، لولا حدة كانت فيه، أدت به إلى ما حدثني به بعض شيوخي من صحبه. قال: خرجنا معه يوماً على باب من أبواب مراكش برسم الفرجة، فلما كان عند الرجوع نظرنا إلى رؤوس معلقة، وتعوذنا بالله من الشر وأهله، وسألناه سبحانه العافية. قال: فأخذ يتعجب منا، وقال: هذا خور طريقة وخساسة همه، والله ما الشرف والهمة إلا في تلك. يعني في طلب الملك، وإن أدى الاجتهاد فيه إلى الموت دونه على تلك الصفة. قال: فما برحت الليالي والأيام، حتى شرع في ذلك، ورام الثورة، وسيق رأسه إلى مراكش، فعلق في جملة تلك الرؤوس، وكتب عليه، أو قيل فيه:
لقد طمح المهر الجموح لغاية ... فقطع أعناق الجياد السوابق
جرى وجرت رجلاه لكن رأسه ... أتى سابقاً والجسم ليس بسابق
وكانت ثورته ببعض جهات درعة من بلاد السوس.
مشيخته

أخذ عن صهره القاضي أبي محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم. وعن غيره من أهل بلده، وتفقه بهم، وبهر في العقليات والعلوم القديمة، وقرأ على القاضي المحدث أب يبكر بن أبي زمنين، وتلا على الأستاذ الخطيب أبي عبد الله بن عروس، والأدب والنحو على الأستاذ الوزير أبي يحيى بن مسعدة. وأجازه الأستاذ الخطيب أبو جعفر العطار. ومن شعره في الثورة:
قولوا لأولاد عبد المؤمن بن علي ... تأهبوا لوقوع الحادث الجلل
قد جاء فارس قحطان وسيدها ... ووارث الملك والغلاب للدول

ومن شعره القصيدة الشهيرة وهي:

الله حسبي لا أريد سواه ... هل في الوجود الحق إلا الله

ذات الإله بها تقوم دولتنا ... هل كان يوجد غيره لولاه

يا من يلوذ بذاته أنت الذي ... لا تطمع الأبصار في مرآه

لا غرو أنا قد رأيناه بها ... فالحق يظهر ذاته وتراه

يا من له وجب الكمال بذاته ... فالكل غاية فوزهم لقياه

أنت الذي لما تعالى جده ... قصرت خطا الألباب دون حماه

أنت الذي امتلأ الوجود بحمده ... لما غدا ملآن من نعماه

أنت الذي اخترع الوجود بأسره ما بين أعلاه إلى أدناه

أنت الذي خصصتنا بوجودنا ... أنت الذي عرفتنا معناه

أنت الذي لو لم تلح أنواره ... لم تعرف الأضداد والأشباه

لم أفش ما أودعتنية إنه ... ما صان سر الحق من أفشاه

عجز الأنام عن امتداحك إنه ... تتضاءل الأفكار دون مداه

من كان يعلم أنك الحق الذي ... بهر العقول فحسبه وكفاه

لم ينقطع أحد إليك محبة ... إلا وأصبح حامدا عقباه

وهي طويلة.....

من أهل غرناطة يكنى أبا ورد ويعرف بابن القصجة عديم رواء الحس، قريب العهد بالنجعة، فارق وطنه وعيصه، واستقبل المغرب الوفادة، وقدم على الأندلس في أخريات دولة الثاني من الملوك النصريين، فمهد جانب البر له، وقرب مجلسه، ورعى وسيلته، وكان على عمل بر، من صوم واعتكاف وجهاد.

نباهته

ووقف بي ولده الشريف أبو زيد عبد الرحيم، على رسالة كتب بها أمير مكة على عهده إلى سلطان الأندلس ثاني الملوك النصريين رحمهم الله، وعبر فيها عن نفسه، من عبد الله المؤيد بالله محمد بن سعد الحرسني، في غرض المواصلة والمودة والمراجعة عن بر صدر عن السلطان رحمه الله من فصولها: ثم أنكم رضي الله عنكم، بالغنم في الإحسان للسيد الشريف أبي القاسم الذي انتسب إلينا، وأويتموه من أجلنا، وأكرمتموه، ورفعتموه احتراماً لبيته الشريف، جعل الله عملكم معه وسيلة بين يدي جدنا عليه السلام وهي طويلة وتحميدها ظريف، من شنشنة أحوال تلك البال بمكة المباركة.

وفاته: توفي شهيداً في الوقيعة بين المسلمين والنصارى بظاهر ألمرية عندما وقع الصريخ لإنجادها، ورفع العدو البرجلوني عنها في السادس والعشرين من شهر ربيع الأول عام عشرة وسبعمائة.

ومن ترجمة المقريين والعلماء والطلبة النجباء من ترجمة الطارئين منهم

عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد

بن أبي الحسن أصبغ بن حسن بن سعدون بن رضوان بن فتوح الخثعمي مالقى يكنى أبا زيد، وأبا القاسم، وأبا الحسين، وهي قليلة، شهر بالسهيلي.

حاله

كان مقرياً مجوداً، متحققاً بمعرفة التفسير، غواصاً على المعاني البديعة، ظريف التهدي إلى المقاصد الغريبة، محدثاً واسع الرواية، ضابطاً لما يحدث به، حافظاً متقدما، ذاكراً للأدب والتواريخ والأشعار والأنساب، مبرزاً في الفهم، ذكياً، أديباً بليغاً، شاعراً مجيداً، نحوياً عارفاً بارعاً، يقظاً، يغلب عليه علم العربية والأدب. استدعي آخراً إلى التدريس بمراكش، فانتقل إليها من مالقة، محل إقرائه، ومتبوأ إفادته، فأخذ بها الناس عنه، إلى حين وفاته.

مشيخته

تلا بالحرمين على خال أبيه الخطيب أبي الحسن بن عباس، وبالسبع على أبي داود بن يحيى، وعلى أبي علي منصور بن علاء، وأبي العباس بن خلف بن رضي، وروى عن أبي بكر بن طاهر، وابن العربي، وابن قندلة، وأبي الحسن شريح، وابن عيسى، ويونس بن مغيث، وأبي الحسن بن الطراوة، وأكثر عن في علوم اللسان، وأبي عبد الله حفيد مكي، وابن يمن الله، وأبوي القاسم ابن الأبرش، وابن الرماك، وأبوي محمد ابن رشد، والقاسم بن دحمان، وأبوي مروان بن بونة، وأبي عبد الله بن بحر. وناظر في المدونة على ابن هشام. وأجاز له ولم يلقه، أبو العباس عباد بن سرحان، وأبو القاسم بن ورد.

من روى عنه

روى عنه أبو إسحق الزوالي، وأبو إسحق الجاني، وأبو أمية بن عفير، وأبو بكر بن دحمان، وابن قنتوال، والمحمدون ابن طلحة، وابن عبد العزيز، وابن علي جويحمات، وأبو جعفر بن عبد المجيد، والحفار وسهل بن مالك، وابن العفاص، وابن أبي العافية، وأبو الحسن السراج، وأبو سليمن بن حوط الله، والسماتي. وابن عياش الأندرشي، وابن عطية، وابن يربوع، وابن رشيد، وابن ناجح، وابن جمهور، وأبو عبد الله بن عياش الكاتب، وابن الجذع، وأبو علي الشلوبين، وسالم بن صالح، وأبو القاسم بن بقي، وأبو القاسم بن الطيلسان، وعبد الرحيم بن الفرس، وابن الملجوم، وأبو الكرم جودى، وأبو محمد بن حوط الله، إلى جملة لا يحصرها الحد.

دخل غرناطة. وكان كثير التأميل والمدح لأبي الحسن بن أضحى قاضيها ورييسها. وله في مدحه أشعار كثيرة، وذكر لي من أرخ في الغرناطيين، وأخبرني بذلك صاحبنا القاضي أبو الحسن بن الحسن كتابة عمن يثق به.

تواليفه

منها كتاب الشريف والإعلام بما أبهم في القرآن من أسماء الأعلام. ومنها شرح آية الوصية، ومنها الروض الآنف والمشرع الروا فيما اشتمل عليه كتاب السيرة واحتوى. وابتدأ إملاءه في محرم سنة تسع وستين وخمسماية، وفرغ منه في جمادى منها. ومنها حلية النبيل في معارضة ما في السييل. إلى غير ذلك.

شعره

قال أبو عبد الله بن عبد الملك: أنشدني أبو محمد القطان، قال أنشدني أبو علي الرندي، قال أنشدني أبو القاسم السهيلي لنفسه:

أسايل عن جيرانه من لقيته ... وأعرض عن ذكراه والحال تنطق

ومالي إلى جيرانه من صبابة ... ولكن قلبي عن صبوح يوفق

ونقلت من خط الفقيه القاضي أبي الحسن بن الحسن، من شعر أبي القاسم السهيلي، مذيلاً بيت أبي العافية في قطعة لزومية:

ولما رأيت الدهر تسطو خطوبه ... بكل جليد في الورى وهدان
ولم أر من حرز ألوذ بظله ... ولا من له بالحادثات يدان
فزعت إلى من تملك الدهر كفه ... ومن ليس ذو ملك له بمران
وأعرضت عن ذكر الورى متبرماً ... إلى الرب من قاص هناك ودان
وناديته سراً ليرحم عبرتي ... وقلت رجائي قادني وهدان
ولم أدعه حتى تطاول مفضلاً ... علي بالهام الدعاء وعان
وقلت أرجي عطفه متمثلاً ... ببيت لعبد صايل بردان
تغطيت من دهري بظل جناحه ... فعسى ترى دهري وليس براني

قلت، وما ضره، غفر الله له، لو سلمت أنباته من بردان، ولكن أبت صناعة النحو إلا أن تخرج أعناقها.

ومن شعره قوله:

تواضع إذا كنت تبغي العلا ... وكنت راسياً عند صفو الغضب
فخفض الفتى نفسه رفعة ... له واعتبر برسوب الذهب

وشعره كثير، وكتابته كذلك، وكلاهما من نمط يقصر عن الإجادة.

وقال ملغزا في محمل الكتب، وهو مما استحسن من مقاصده:

حامل للعلوم غير فقيه ... ليس يرجوا أمراً ولا يتقيه
يحمل العلم فاتحاً قدميه ... فإذا التقتا فلا علم فيه

ومن ذلك قوله في المجنبات:

شغف الفؤاد نواعم أبكار ... بردت فؤاد الصب وهي حرار
أذكى من المسك العتيق لنا ... نشقاً وألذ من صباً حين تدار
وكأن من صافى اللجين بطونها ... وكأنما ألوانهن نضار
صفت البواطن والظواهر كلها ... لكن حكت ألوانها الأزهار
عجباً لها وهي النعيم يصوغها ... نار وأين من النعيم النار

ومن شعره وثبت في الصلة:

إذا قلت يوماً سلام عليك ... ففيها شفاء وفيها سقام
شفاً إذ قلتها مقبلاً ... وإن قلتها مدبراً فالحمام
فاعجب لحال اختلافيهما ... وهذا سلام وهذا سلام

مولده: عام سبعة أو ثمانية وخمسماية.

وتوفي في مراكش سحر ليلة الخامس والعشرين من شعبان أحد وثمانين وخمسماية، ودفن لظهره بجبانة الشيوخ خارج مراكش، وكان قد عمى سبعة عشرة عاماً من عمره.

عبد الرحمن بن هانئ اللخمي

يكنى أبا المطرف، من أهل فرقد من قرى إقليم غرناطة.

حاله

كان فقيهاً فاضلاً، وتجول في بلاد المشرق. قال أنشدني إمام الجامع بالبصرة:

بلاء ليس بشبهه بلاء ... عداوة غير ذي حسب ودين

ينيلك منه عرضاً لم يصنه ... ويرتع منك في عرض مصون

ابن القصيب

عبد الرحمن بن أحمد بن أحمد بن محمد الأزدي من أهل غرناطة، يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن القصيب

حاله

كان فقيهاً جليلاً، بارع الأدب، عارفاً بالوثيقة، نقادا لها، صاحب رواية ودراية، تقلب ببلاد الأندلس، وأخذ الناس عنه بمرسية وغيرها. ورحل إلى مدينة فاس، وإفريقية، وأخذ بها، وولى القضاء ينقرش من بلاد الجريد.

مشيخته

روى عن أبيه القاضي أبي الحسن بن أحمد، وعن عمه أبي مروان، وعن أبوي الحسن ابن دري، وابن الباذش، وأبي الوليد بن رشد، وأبي إسحق بن رشيق الطليطلي نزيل وادي آش، وأبي بكر بن العربي، وأبي الحسن ابن وهب، وأبي محمد عبد الحق بن عطية، وأبي عبد الله بن أبي الخصال، وأبي الحسن يونس بن مغيث، وأبي القاسم بن ورد، وأبي بكر بن مسعود الخشن، وأبي القاسم بن بقي، وأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض، وغيرهم.

تواليفه

له تواليف وخطب ورسائل ومقامات، وجمع مناقب من أدركه من أهل عصره، واختصر كتاب الجمل لابن خاقان الإصبهاني، وغير ذلك، وألف برنامجاً يضم رواياته.

من روى عنه

روى عنه ابن الملجوم، واستوفى خبره

وفاته

ركب البحر قاصداً الحج، فتوفي شهيداً في البحر، قتله الروم بمرسى توسن مع جماعة من المسلمين، صبح يوم الأحد، في العشر الوسط من شهر ربيع الآخر سنة ست وسبعين وخمسماية.

ابن الفصال

عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد الأنصاري يكنى أبا بكر، ويعرف بابن الفصال.

حاله

هذا الرجل فاضل عريق في العدالة، ذكي، نبيل، مختصر الجرم، شعلة من شعل الإدراك، مليح المحاورة، عظيم الكفاية، طالب متقن، قرأ على مشيخة بلده، واختص منهم بمولى النعمة على أبناء جنسه، أبي سعيد ابن لب، واستظهر من حفظه كتباً كثيرة، منها كتاب التفريع في الفروع، وارتسم في العدول، وتعاطى لهذا العهد الأدب، فبرز في فنه.

أدبه

مما جمع فيه بين نظمه ونثره، وقوله يخاطب الكتاب، ويسحر ببراعته الألباب:

لعل نسيم الريح يسري عليله ... فأهدى صحيح الود طي سقيم

لتحملا عني وأزكى تحية ... لقيته كهف مانع ورقيم

ويذكر ما بين الجوانح من جوى ... وشوق إليهم مقعد ومقيم

يا كتاب المحل السامي، والإمام المتسامي، وواكف الأدب البسامي، أناشدكم بانتظامي في محبتكم وارتسامي، وأقسم بحقكم علي وحبذا إقسامي، ألا ما أمددتم بأذهانكم الثاقبة، وأسعدتم بأفكاركم النيرة الواقية، على إخراج هذا المسمى، وشرح ما أبهمه المعمى، فلعمري لقد أخرق مزاجي، وفرق امتزاجي، وأظلم به وهاجي، وغطى على مرآة ابتهاجي، فأعينوني بقوة ما استطعتم، وأقطعوني من مددكم ما قطعتم، وآتوني بذلك كله إعانة وسداً. وإلا فها هو بين يديكم، ففكوا غلقه، واسردوا خلقه، واجمعوا مضغه المتباينة وعلقه، حتى يستقيم جسداً قايماً بذاته، متصفاً بصفاته المذكورة ولذاته، قايلاً بتسلية أسلوباً مصحفاً كان أو مقلوباً. وإن تأبى عليكم وتمنع، وأدركه الحياء فتستر وتقنع، وضرب على إذان الشهدا، وربط على قلوبهم من الإرشاد له والاهتداء، فابعثوا أحدكم إلى المدينة ليسأل عنه خدينه:

أحاجي ذوي العلم والحلم ممن ... ترى شعلة الفهم من زنده

عن اسم هو الموت مهما دنا ... وإن بات يبكي على فقده

لذيذ وليس بذي طعم ... ويومر بالغسل من بعده

وأطيب ما يجتنيه الفتى ... لدى ربة الحسن أو عبده

مضجعه عشر الثلث في حساب ... المصحف من خده

وإن شيت قل مطعم ذمه ... الرسول وحض على بعده

وقد جاء في الذكر إخراجه ... لقوم نبي على عهده

وتصحيف ضد له آخر ... لقوم نبي على عهده

وتصحيف ضد له آخر ... يبارك للنحل في شهده

وتصحيف مقلوبه ربه ... تردد م قبل في رده

فهاكم معانيه قد بدت ... كنار الكريم على نجده

وكتب للولد أسعده الله، يتوسل إليه، ويروم قضاء حاجته:

أيها السيد العزيز تصدق ... فيالمقام العلي لي بالوسيلة

عند رب الوزارتين أطال الله ... أيامه حساناً جميلة

عله أن يجيرني من زمان ... مسنى الضر من خطاه الثقيلة

واستطالت علي بالنهب جوراً ... من يديه الخفيفة المستطيلة

لم تدع لي بضاعة غير مزجاة ... ونزر أهون به من قليله

وإذا ما وفى لي الكيل يوما ... حشفاً ما يكيله سوء كيله

فشفى بي غليله لا شفى بي ... دون ابنايه الجميع غليله

من لهذا الزمان مذ نال مني ... ليس لي بالزمان والله حيلة

غير أن يشفع الوزير ويدعي ... عبده أو خديمه أو خليله
دمت يا بن الوزير في عزك ... السامي ودامت به الليالي كفيلة

سيدي الذي بعزة جاهه أصول، وبتوسلي بعنايته أبلغ المأمول والسول، وأروم لما أنا أحوم عليه الوصول، ببركة المشفوع إليه والرسول، المرغوب من مجدك السامي الصريح، والمؤمل من ذلك الوجه السني الصبيح، أن تقوم بين نجوى الشفاعة، هذه الرقاعة، وتعين بذاتك الفاضلة النافعة، من لسانك مصقاعة، حتى ينجلي حالي عن بلج، وأتنسم من مهبات القبول طيب الأرج، وتتطلع مستبشرات فرحتي من ثنيات الفرج، فإن سيد الجماعة الأعلى، وملاذ هذه البسيطة وفحلها الأجلي، فسح اله تعالى في ميدان هذا الوجود بوجوده، وأضفى على هذا القطر ملابس الستر برأيه السديد وسعوده، وبلغه في جميعكم غاية أمله ومقصوده، قلما تضيع عنده شفاعة الأكبر من ولده، أو يخيب لديه من توسل إليه بأزكى قطع كبده، وبحقك ألا ما أمرت هذه الرقعة بالمثول بين يدي ذلك الزكي الذات الطاهر البقعة، وقل لها قبل الحلول بين يدي هذا المولى الكريم، والموئل الرحيم، بعظيم التوقير والتبجيل، اعلمي ياأيتها السايل، أن هذا الرجل هو المؤمل، بعد الله تعالى في هذا الجيل، والحجة البالغة في تبليغ راجيه أقصى ما يؤملونه بالتعجيل، وخاتمة كلام البلاغة، وتمام الفصاحة، الموقف عليه ذلك كله بالتسجيل، وغرة صفح دين الإسلام المؤيد بالتحجيل. وهذا هو مدبر فلك الخلافة العالية بإيالته، وحافظ بدر سمايها السامية بهالته، فقرى بالمثول بين يديه عيناً، ولقد قضيت على الأيام بذلك ديناً، وإذا قيل ما وسيلة مؤملك، وحاجة متوسلك، فوسيلته تشيعه في أهل ذلك المعنى، وحاجته يتكفل بها مجدكم الصميم ويعنى، وليست تكون بحرمة جاهكم من العرض الأدنى، وتمن فإن للإنسان هنالك ما تمنى، وتولى تكليف مرسلي بحسب ما وسعكم، وأنتم الأعلون، والله معكم. ثم أثن العنان، والله المستعان، وأعيدي السلام، ثم عودي بسلام.

وخاطب قاضي الحضرة، وقد أنكر عليله لباس ثوب أصفر: أبقى الله المثابة العلية، ومثلها أعلى، وقدحها في المعلوات المعلي، ما لها أمرت، لا زالت بركاتها تنثال، ولأمر ما يجب الأمتثال، بتغيير ثوبي الفاقع اللون، وإحالته عن معتاده في الكون، وإلحاقه بالأسود الجون أصبغة حداداً، وأيام سيدي أيام سرور، وبنو الزمان بعدله ضاحك ومسرور، ما هكذا شيمة البرور، بل لو استطعنا أن نزهو له كالميلاد، ونتزيا في أيامه بزي الأعياد، ونرفل من المشروع في محبر وموروس، ونتجلى في حلل العروس، حتى تقر عين سيدي بكتيبة دفاعه، وقيمة نوافله وإشفاعه، ففي علم سيدي الذي به الاهتداء، وبفضله الاقتداء، تفضيل الأصفر الفاقع، حيثما وقع من المواقع، فهو مهما حضر نزهة الحاضرين، وكفاه فاقع لونها تسر الناظرين. ولقد اعتمه جبريل عليه السلام، وبه تطرز المحبرات والأعلام، وإنه لزي الظرفاء، و شارة أهل الرفاء، اللهم إلا إن كان سيدي، دام له البقاء، وساعده الارتقاء، ينهى أهل التبريز، عن مقاربة لون الذهب الإبريز، خيفة أن تميل له منهم ضريبة، فيزنوا بريبة، فنعم إذا ونعمى عين، وسمعاً وطاعة لهذا الأمر الهينن اللين، أتبعك لا زيداً وعمراً، ولا أعصى لك أمراً، ثم لا ألبس بعدها إلا طمراً، وأتجرد لطاعتك تجريداً، وأسلك إليك فقيراً ومزيداً، ولا أتعرض للسخط بلبس شفيف، استنشق هباه، وألبس عباه، وأبرأ من لباس زي ينشئ عتابا، يلقى على لسان مثل هذا كتاباً، وأتوب منه متاباً، ولولا أني الليلة صفر اليدين، ومعتقل الدين، لباكرت به من حانوت صباغ رأس خابية، وقاع مظلمة جابية، وقاع مظلمة جابية، فأصيره حالكاً، ولا ألبسه حتى استفتى فيه مالكاً، ولعلى أجد فأرضى سيدي بالتزيي بشارته، والعمل بمقتضى إشارته، والله تعالى يبقيه للحسنات، ينبه عليها، ويومي بعمله وحظه إليها، والسلام.

وخاطبني وقد قدم في شهادة المواريث بحضرة غرناطة:

يا منتهى الغايات دامت لنا ... غايتك القصوى بلا فوت
طلبت إحيائي بكم فانتهى ... من قبله حالي إلى الموت
وحق ذلك الجاه جاه العلا ... لامت إلا أن أتى وقت

مولاي الذي أتأذى من جور الزمان بذمام جلاله، وأتعوذ من نقص شهادة المواريث بتمام كماله، شهادة يأباها المعسر والحي، ويود أن لا يوافيه أجله عليها الحي، مناقضة لما العبد بسبيله، غير مربح قطميرها من قليله، فإن ظهر لمولاي إعفاء عبده، فمن عنده، والله تعالى يمتع الجميع بدوام سعده، والسلام الكريم، يختص بالطاهر من ذاته ومجده، ورحمة اله وبركاته، من عبد إنعامكم ابن القصال لطف الله به:
قد كنت أسترزق الأحياء ما رزقوا ... شيئاً ولا وفوني بعض أقوات
فكيف حالي لما أن شكوتهم ... رجعت أطلب قوتي عند أموات
والسلام يعود على جناب مولاي ورحمة الله وبركاته: وخاطب أحد أصحابه، وقد استخفى لأمر قرف به، برسالة افتتحا بأبيات على حرف الصاد، أجابه المذكور عن ذلك بما نصه، وفيه إشارة لغلط وقع في الإعراب:
يا شعلة من ذكاء أرسلت شررا ... إلى قريب من الأرجاء بعد قص
وشبهة حملت دعوى السفاح على ... فحل يليق به مضمونها وخص
رحماك بي فلقد جرعتني غصصا ... أثار تعريضها المكتوم من غص
بليتني بنكأة القرح في كبدي ... كمثل مرتجف المجذوم بالبرص
أيها الأخ الذي رقى ومسح، ثم فصح، وغش ونصح، ومزق ثم نصح، وتلاعب بأطراف الكلام المشقق فما أفصح، ما لسحاتك ذات الجيد المنصوص، وتونس على العموم، وتوحش على الخصوص، لا در دره من باب برضاع مفتاحه، وتأنيس حر سبق بالسجن استفتاحه، ومن الذي ألهى إلى أخي خبر تقافي، ووثيقة تحيسي وإيقافي، وقد أبى ذلك سعد فرعه باسق، وعز عقده متناسق. ويا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ، بل المثوى والحمد الله جنات وغرف، والمنتهى مجد وشرف، فإن كان وليي مكترثاً فيحق له السرور، أو شامتاً، فلي الظل وله الحرور. أنا لا أزن والحمد لله بها من هناه، ولما أدين بها من عزي ومناه، ولا تمر لي ببال فلست بذي سيف، ولست بنكال نفسي أرق شيمة، وأكرم مشيمة، وعيني أغزر ديمة، لو كان يسئل لسان عن إنسان، أو مجاولته بملعبه خوان، أوقفني إخوان لا بمأزق عدوان، لارتسمت منه بديوان. لا يغنى في حرب عوان، عين هذا الشكل والحمد لله فراره، وعنوان هذا الحد غراره. وأما كوني من جملة الصفرة. وممن أجهز سيدي الفقار على ذي الفقرة، فأقسم لو ضرب القتيل ببعض البقرة، لتعين مقدار تلك الغفرة. اللهم لو كنت مثل سيدي ممن تتضاءل النخلة السحوق لقامته، ويعترف عوج لديه بقماءته ودمامته، مقبل الظعن كالبدور في سحاب الخدور، وخليفة السيد الذي بلغت سراويله تندوة العدو الأيد، لطلت بباع مديد، وساعدني الخلق بساعد شديد، وأنا لي جسم شحت، يحف به بخت، وحسب مثلي أن يعلم في ميدان هوى، تسل فيه سيوف اللحاظ على ذوي الحفاظ، وتشرع سيوف القدود. إلى شكاة الصدود، وتسطو أولو الجفون السود بالأسود، فكيف أخشى تبعة تزل عن صفاتي، وتنافى صفاتي، ولا تطمع أسبابها في التفاتي، ولا تستعمل في حربها قنا ألفاتي. والله يشكر سيدي على اهتباله، ويحل كريم سباله، على ما ظهر لأجلى من شغف باله، إذ رفع ما يتصب، وغير ما لو غيره الحجاج، لكان مع الهيبة يحصب، ونكت بأن نفقت بالحظ سوقي. وظهر لأجله فسوقي ويا حبذا هو من شفيع رفيع، ووسيلة لا يخالفها الرعي، ولا يخيب لها السعي. ولله در القايل.
لله بالإنسان في تعليمه ... بوساطة القلم الكريم عناية

فالخط خط والكتابة لم تزل ... في الدهر عن معنى الكمال كناية

وما أقرب يا سيدي هذه الدعوى لشهامتك. وكبر هامتك:

لو كنت حاضرهم بخندق بلج ... ولحمل ما قد أبرموه فصال

لخصصت بالدعوى التي عموا بها ... ولقيل فصل جلاه الفصال

وتركت فرعون بن موسى عبرة ... تتقدمنه بسيفه الأوصال

فاحمد الله الذي نجاك من حضور وليمتها، ولم تشهد يوم حليمتها.

وأما اعتذارك عما يقال من تفقد الكنز، ومنطح العنز، فورع في سيدي أتم من أن يتهم بغيبة، ولسانه أعف من أن ينسب إلى ريبة، لما اتصل به من فضل ضريبة، ومقاصد في الخير غريبة، إنما يستخف سيدي أفرط التهم، رمى العوامل بالتهم، فيجري أصح مجرى أختها، ويلبسها ثياب تحتها، بحيث لا إثم يترتب، ولا هو ممن تعتبه، وعلى الرجال فجنايته عذبة الجناء، ومقاصده مستطرفة لفصح أو كنى. أبقاه الله رب نفاضة وجرادة، ولا أخلى مبرده القاطع من برادة، وعوده الخير عادة، ولا أعدمه بركة وسعادة، بفضل الله، والسلام عليه من وليه المستزيد من ورش وليه، لا بل من قلايد حليه. محمد بن فركون القرشي. ورحمة الله وبركاته فراجعه المترجم بما نصه، وقد اتهم أن ذلك من إملايي:

يا ملبس النصح ثوب الغش متهما ... يلوى النصيحة عنه غير منتكص

وجاهلاً باتخاذ الهزل مأدبة ... أشد ما يتوقى محمل الرخص

نصحته فقصاني فانقلبت إلى ... حال يغص بها من جملة الفصص

بالأمس أنكرت آيات القصاص له ... واليوم يسمع فيه سورة القصص

ممن استعرت يا بابلي هذا السحر، ولم تسكن بناصية السحر، ولا أعملت إلى بابل هاروت امتطاء ظهر، ومن أين جيت بقلايد ذلك النحر، أمن البحر، أو مما وراء النهر. ما لمثل هذه الأريحية الفاتقة، استشقنا مهبك، ولا قبل هذه البارقة الفايقة، استكثرنا غيك. يا أيها الساحر ادع لنا ربك. أأضغاث أحلام ما تريه الأقلام، أم في لحظة تلد الأيام، فرايد الأعلام. لقد عهدت بربعك محسن دعابة، ما فرعت شعابه، أو مصيباً في صبابة، ما قرعت بابه، ولا استرجعت قبل أن أعبر عبابه. اللهم إلا أن تكون تلك الآيات البينات، من بنات يراعتك، لا براعتك ومفترس تلك الزهر، الطالعة كالكواكب الزهر، مختلس يد استطاعتك، لا زراعتك، وإلا فنطرح مصايد التعليم والإنشاء، وننتظر معنى قوله عز وجل، يؤتى الحكمة من يشاء، أو نتوسل في مقام الإلحاح والإلحاف. أن ننقل من غايلة الحسد إلى الإنصاف، وحسبي أن أطلعت بالحديقة الأنيقة، ووقفت من مثلي تلك الطريقة على حقيقة، فألفيت بها بياناً قد وضح تبياناً أو أطلق عناناً، ومحاسن وجدت إحساناً، فتمثلت إنساناً، سرح لساناً، وأجهد بناناً، إلا أن صادح أيكتها يتململ في قيظ، ويكاد يتميز من الغيظ، فيفيض ويغيض، ويهيض وينهض، ثم يهيض، ويأخذ في طويل وعريض، بتسبيب وتعريض، ويتناهض في ذلك بغير مهيض، وفاتن كمايمها تسل عن الصادح، ويتلقف عصا استعجاله ما يفكه المادح، ويحرق بناره زند القادح، ويتلقف عصا استعجاله ما يفكه المادح، ويحرق بناره زند القادح، ويتعاطى من نفسه بالإعجاب، ويكاد ينادي من وراء حجاب، إن هذا لشيء عجاب، إيه بغير تمويه، رجع الحديث الأول، إلى ما عليه المعول، لا در درها من نصيحة غير صحيحة، ووصية مودة صريحة، تعلقت بغير ذي قريحة، فهي استعجلتني بداهية كاتب، واستطالة ظالم عاتب قد سل مرهفه واستنجد مترفه، وجهزها نحو كتيبته تسفر عن تحجيل، بغير تبجيل وسحابة سجل ترمى بسجيل ما كان إلا أن استقلت، ورمتني بدائها وانسلت، وألقت ما فيها

وتخلت، فحسبي الله، تغلب على فهمي، ورميت بسهمي، وقتلت بسلاحي، وأسكرت براحي، بريت بريت، مما به دهيت، أنت أبقاك الله لم تدن بها مني منالاً وعزاً، فكيف بها تنسب إلى بعدك وتعزا، نفسي التي هي أرق وأجدر بالمعالي وأحق، وشكلى أخف على القلوب وأدق، وشمايلي أملك فلا تسترق، ولساني هو الذي يسئل فلا يفل، وقدري يعزه ويجل، عما فخرت أنت به من ملعب مايدة، ومجال رقاب متمايدة، فحاشى سيدي أن يقع منه بذلك مفخر، إلا أن يكون يلهو ويسخر، وموج بحره بالطيب والخبيث تزخر، وعين شكلي هي بحمد الله، عين الظرف المشار إليه بالبنان والطرف. وأما تعريض سيدي بصغر القامة، وتكبيره لغير إقامة، فمطرد قول، ومدامة غول، وفريضة نشأ فيها عول، إذ لا مبالاة تجسم كاينا ما كان، أو ما سمعت أن السر في السكان، وإنما الجسد للروح مكان ولم يبق إليه فقد يروح، وقد قال، ويسئلونك عن الروح، والمرء بقلبه ولسانه، لا بمستظهر عيانه، والله در القايل:

لم يرضني أني بجسم هايل ... والروح ما وفت له أغراضه

ولقد رضيت بأن جسمي ناحل ... والروح سابغة به فضفاضة

ولما وقع سيدي بمكتوبي على المرفوع والمنصوب، وظفرت يده بالمغصوب، والباحث المعصوب، لم يقلها زلة عالم. وإني وقد وجدتها منية حالم، فعدد وأعاد، وشدد وأشاد، هلأ عقل ما قال، وعلم أن المقيل سيكون مقال، وزلة العلم لا تقال وأن الحرب سجال. وقبضة غيره هو المتلاعب في الحجال، وبالجملة فلك الفضل يا سيدي، ما اعتنى بمعناك، وارتفع بين مغاني الكرام مغناك، فمدة ركوبك الحمران لا تجاري، ولا يشق أحد لك غبارا. أبقاك الله تحفظ عرى هذا الوداد، ويشمل الجميع بركة ذلك الناد، والسلام عليك من ابن الفصال، ورحمة الله وبركاته.

وجعلا إلى التحيم، وفوضا لنظري التفضيل فكتبت:

بارك عليها بذكر الله من قصص ... واذكر ما أى في سورة القصص

حيث اغتدي السحر يلهو بالعقول ... وقد أحال بين حال كيده وعص

عقايل العقل والسحر الحلال قوت ... من كافل الصون بعد الكون حجروص

وأقبلت تتهادى كالبدور إذا ... بسحر من فلك النذور في حصص

من للبدور وربات الخدور بها ... المثل غير مطيع والمثلان عص

ما قرصة البدر والشمس المنيرة أن ... قيست بمن سوى من جملة القرص

تا لله ما حكمها يوماً بمنتقض ... كلاً ولا بدرها يوماً بمنتقص

إن قافل حكمي فيها بالسواد فقد ... أمنت ما يحذر القاضي من الغصص

أو كنت أرخصت في الترجيح مجتهداً لم يقبل الورع الفتيا مع الرخص

يا مدلج ليل الترجيح قف، فقد خفيت الكواكب، ويا قاضي طرف التحسين والتقبيح، تسامت والحمد لله المناكب، ويا مستوكف خبر الوقيعة من وراء أقنام القيعة، تصالحت المواكب. حصحص الحق فارتفع اللجاج، وتعارضت الأدلة فسقط الاحتجاج، ووضعت الحرب أوزارها فسكن العجاج، وطاب نحل الأقلام بأزهار الأحلام، فطاب المجاج، وقل لفرعون البيان وإن تأله، وبلد العقول وبله، وولي بالغرور ودله. أوسع الكناين نثلا، ودونك أيدا شثلاً، وشحرا حثلا، لا خطما ولا أثلا. إن هذان لساحران إلى قوله، ويذهبا بطريقتكم المثلى، وإن أثرت أدب الحليم مع قصة الكليم، فقل لمجمل جياد التعاليم، وواضع جغرافياً الأقاليم، أندلسا ما علمت بلد الأجم، لا سود العجم، ومداحض السقوط، على شوك قتاد القوط، ولم يذر إن محل ذات العجايب والأسرار، التي تضرب إليها أباط

النجاب في غير الإقليم الأول. وهذا الوطن بشهادة القلب الحول. إنما هو رسم دارس، ليس عليه من معول. فهنالك يتكلم الحق فيفصح ويعجم، ويرد المدد على النفوس الجريبة، من مطالع الأضواء فيحدث ويلهم، ويجود خازن الأمداد، على المتوسل بوسيلة الاستعداد، فيقطع ويسهم. وأما إقليمنا الرابع والخامس، بعد أن تكافأت المناظر والملامس، وتناصف الليل الدامس واليوم الشامس، باعتدال ربيعي، ومجرى طبيعي، وذكى بليد، ومعاش وتوليد، وطريف في البداوة وتليد، ليس به برباه ولا هرم، يخدم بها درب محترم، ويشب لقرياته حرم، فيفيد روحانيا يتصرف، ورييساً يتعرض ويتعرف، كلما استنزل صاب، وأعمل الانتصاب، وجلب المآرب، وأذهب الأوصاب، وعلم الجواب، وفهم الصواب. ولو فرضنا هذه المدارك ذوات أمثال، أو مسبوقة بمثال، لتلقينا منشور القضاء بامتثال، لا كنا نخاف أن نميل بعض الميل، فنجني بذلك أبخس الجري وإرضا النميل، ونجر تنازع الفهري مع الصميل. فمن خير ميز، ومن حكم أزرى به وهكم، وما سل سيوف الخوارج في الزمن الدارج، إلا التحكيم، حتى جهل الحكيم، وخلع الخطام، ونزع الشكيم، وأضر بالخلق نافع، وذهب الطفل لجراه واليافع، وذم الذمام ورد الشافع، وقطر سيف قطري بمسجد الثقفي وهو محصور، وانتهبت المقاصير والقصور، إلا أن مستأهل الوظيفة الشرعية، عند الضرورة يجبر، والمنتدب للبرمحي عند الله ويجبر، واجعلني على خزائن الأرض، وهو الأوضح والأشهر، فيها به يستظهر. وأنا فإن حكمت على التعجيل، فغير مشهد على نفسي بالتسجيل، إنما هو تلفيق يرضى وتطفيل، يعتب عليه من تصدع بالحق ويمضي إلا أن يغضى، ورأيي فيها المراضاة والاستصلاح، وإلا فالسلاح والركاب الطلاح، والصلح خير، وما استدفع بمثل التسامح ضير. ومن وقف عليه، واعتبر ما لديه، فليعلم أني صدعت وقطعت، والحق أطعت، وإن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، والسلام.

عبد الرحمن بن محمد الحضرمي

بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر ابن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي من ذرية عثمن أخي كريب المذكور في نبهاء، ثوار الأندلس. وينتسب سلفهم إلى وائل بن حجر، وحاله عند القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروف.

أوليته

قد ذكر بعض منها. وانتقلسلفه من مدينة إشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها، أو قبل ذلك، واستقر بتونس منهم ثالث المحمد بن الحسن، وتناسلوا على سراوة وحشمة ورسوم حسنة، وتصرف جد المترجم به لملوكها في القيادة.

حاله

هذا الرجل الفاضل حسن الخلق، جم الفضائل باهر الخصل، رفيع القدر، ظاهر الحياء، أصيل المجد، وقور المجلس، خاصي الزي، عالي الهمة، عزوف عن الضيم، صعب المقادة، قوى الجأش، طامح لقنن الرياسة، خاطب للحظ، متقدم في فنون عقلية ونقلية، متعدد المزايا، سديد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصور، بارع الخط، مغري بالتجلة، جواد الكف، حسن العشرة، مبذول المشاركة، مقيم لرسوم التعين، عاكف على رعي خلال الأصالة، مفخرة من مفاخر التخوم المغربية.

مشيخته

قرأ القرآن ببلده على المكتب ابن برال، والعربية على المقرى الزواوي وابن العربي، وتأدب بأبيه، وأخذ عن المحدث أبي عبد الله بن جابر الوادي آش، وحضر مجلس القاضي أبي عبد الله بن عبد السلام، وروى عن الحافظ عبد الله السطي، والرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي، ولازم العالم الشهير أبا عبد الله الآبلى، وانتفع به.

توجهه إلى المغرب

انصرف عن إفريقية منشئه. بعد أن تعلق بالخدمة السلطانية على الحداثة وإقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة. وعرف فضله، وخطبه السلطان منفق سوق العلم والأدب أبو عنان فارس بن علي ابن عثمن، واستقدمه، واستحضره بمجلس المذاكرة، فعرف حقه، وأوجب فضله، واستعمله في الكتابة أوائل عام ستة وخمسين، ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبة الحضرة لبعده عن حسن التأني، وشفوفه بثقوب الفهم، وجودة الإدراك، فأغروا به السلطان إغراء عضده ما جبل عليه عند ئذ من إغفال التحفظ، مما يريب لديه، فأصابته شدة تخلصه منها أجله؛ كانت مغربة في جفاء ذلك الملك، وهناة جواره، وإحدى العواذل لأولى الهوى في القبول بفضله، واستأثر به الاعتقال باقي أيام دولته على سنن الأشراف من الصبر وعدم الخشوع، وإهمال التوسل، وإبادة المكسوب في سبيل النفقة، والإرضاخ على زمن المحنة، وجار المنزل الخشن، إلى أن أفضى الأمر إلى السعيد ولده، فأعتبه قيم الملك لحينه، وأعاده إلى رسمه. ودالت الدولة إلى السلطان أبي سالم، وكان له به الاتصال، قبل تسوغ المحنة، بما أكد حظوته، فقلده ديوان الإنشاء مطلق الجرايات، محرر السهام، نبيه الرتبة، إلى آخر أيامه. ولما ألقت الدولة مقادها بعده إلى الوزير عمر بن عبد الله، مدبر الأمر وله إليه قبل ذلك وسيلة، وفي حليه شركة، وعنده حق رابه تقصيره، عما ارتمى إليه أمله، فساء ما بينهما إلى أن إلى إلى انفصاله عن الباب المريني.

دخوله غرناطة

ورد على الأندلس في أوائل شهر ربيع الأول من عام أربعة وستين وسبعماية، واهتز له السلطان، وأركب خاصته لتلقيه، وأكرم وفادته، وخلع عليه، وأجلسه بمجلسه الخاص. ولم يدخر عنه برا ومؤاكله ومطايبة وفكاهة.

وخاطبني لما حل بظاهر الحضرة مخاطبة لم تحضرني الآن فأجبته عنها بقولي:

حللت حلول الغيث في البلد المحل ... على الطائر الميمون والرحب والسهل

يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه ... من الشيخ والطفل المهدإ والكهل

لقد نشأت عندي للقياك غبطة ... تنسى اغتباطي بالشبيبة والأهل

أقسمت بمن حجت قريش لبيته، وقبر صرفت أزمة الأحياء لميته، الذي زيارته الأمنية السنية، والعارفة الوارفة، واللطيفة المطيفة، بين رجع الشباب يقطر ماء، ويرف نماء، ويغزل عيون الكواكب، فضلاً عن الكواعب، إشارة وإيماء، بحيث لا الوخط يلم بسياج لمته، أو يقدح ذبالة في ظلمته، أو يقوم حواريه في ملته، من الأحابش وأمته، وزمانه روح وراح، ومغدى في النعيم ومراح، وقصف صراح، ورفى وجراح، وانتخاب واقتراح، وصدور ما بها إلا انشراح، ومسرات تردفها أفراح. وبين قدومك خليع الرسن، ممتعاً والحمد لله، باليقظة والوسن، محكماً في نسك الجنيد، أو فتك الحسن، ممتعاً بظرف المعارف، مالئاً أكف الصيارف، ما حيا بأنوار البراهين شبه الزخارف لما اخترت الشباب، وإن شاقني زمنه، وأعياني ثمنه، وأجرت سحاب دمعي دمنه. فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي، وملكني أزمة آرابي، وغبطني بمائي وترابي، ومألف أترابي، وقد أغصني بلذيذ شرابي، ووقع على سطوره المعتبرة إضرابي، وعجلت هذه مغبطة بمناخ المطية، ومنتهى الطية، وملتقى للسعود غير البطية، وتمنى الآمال الوثيرة الوطية، فما شئت من نفوس عاطشة إلى ريك، متجملة بزيك، عاقلة خطى مهريك، ومولى مكارمه نشيدة أمثالك، ومظان مثالك،

وسيصدق الخبر ما هنالك، ويسع فضل مجدك في التخلف عن الأصحار، لا بل اللقاء من وراء البحار، والسلام.
ولما استقر بالحضرة، جرت بيني وبينه مكاتبات، أقطعها الظرف جانبه، وأوضح الأدب فيها مذاهبه. فمن ذلك ما خاطبته به، وقد تسرى جارية رومية إسمها هند صبيحة الابتناء بها.

أوصيك بالشيخ أبي بكره ... لا تأمنن في حالة مكره
واجتنب الشك إذا جئته ... جنبك الرحمن من تكره

سيدي، لا زلت تتصف بالوالج، بين الخلاخل والدمالج، وتركض فوقها ركض الهمالج. اخبرني كيف كانت الحال، وهل حطت بالقاع من خير البقاع الرحال، وأحكم بمرود المراودة الاكتحال، وارتفع بالسقيا الإمحال، وصح الانتحال، وحصحص الحق وذهب المحال، وقد طولعت بكل بشرى وبشر، وزفت هند منك إلى بشر، فلله من عشية تمتعت من الربيع بفرشي موشية، وابتذلت منها أي وساد وحشية وقد أقبل ظبي الكناس من الديماس، ومطوق الحمام من الحمام، وقد حسنت الوجه الجميل النظرية، وأزيلت عن الفرع الأثيث الأبرية، وصقلت الخدود فهي كأنها الأمرية، وسلط الدلك على الجلود، وأغريت النورة بالشعر المولود، وعادت الأعضاء يزلق عنها اللمس، ولا تنالها البنان الخمس، والسحنة يجول في صفحتها القضية ماء النعيم، والمسواك يلبي من ثنية التنعيم، والقلب يرمى من الكف الرقيم بالمقعد المقيم، وينظر إلى نجوم الوشوم، فيقول إني سقيم. وقد تفتح ورج الخفر، وحكم لزنجي الظفيرة بالظفر، واتصف أمير الحسن بالصدود المغتفر، ورش بماء الطيب، ثم أعلق بباله دخان العود الرطيب. وأقبلت الغادة يهديها اليمن. وتزفها السعادة، فهي تمشي على استحياء، وقد ذاع طيب الريا، وراق حسن المحيا، حتى إذا نزع الخف، وقبلت الأكف، وصحب المزمار وتجاوب الدف، وذاع الأرج، وارتفع الحرج، وتجوز اللوا والمنعرج، ونزل على بشر بزيارة هند الفرج، اهتزت الأرض وربت، وعوصيت الطباع البشرية فأبت، ولله در القائل:

ومرت فقالت متى نلتقي ... فهش اشتياقاً إليها الخبيث
وكاد بمزق سرباله ... فقلت إليك بساق الحديث

فلما انسدل جنح الظلام، وانتصفت من غريم العشاء الأخيرة فريضة الإسلام، وخاطت خيوط المنام، عيون الأنام، تأتى دنو الجلسة، ومسارقة الخلسة، ثم عضة النهد، وقبله الفم والخد، وإرسال اليد من النجد إلى الوهد، وكانت الإمالة القلية قبل المد، ثم الإفاضة فيما يغبط ويرغب، ثم الإماطة لما يشوش ويشغب، ثم إعمال المسير إلى السرير. وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ... ورضت فذلت صعبة أي إذلال

هذا بعد منازعة للأطواق يسيرة، يراها الغيد من حسن السيرة، ثم شرع في حل التكة، ونزع الشكة، وتهيئة الأرض الغرار عمل السكة، ثم كان الوحى والاستعجال. وحمى الوطيس والمجال، وعلا الجزء الخفيف، وتضافرت الخصور الهيف، وتشاطر الطبع العفيف، وتواتر التقبيل، وكان الأخذ الوبيل، وامتاز الأنوك من النبيل، ومنها جائر وعلى الله قصد السبيل، فيا لها من نعم متداركة، ونفوس في سبيل القحة متهالكة، ونفس يقطع حروف يقطع حروف الحلق، وسبحان الذي يزيد في الخلق. وعظمت الممانعة، وكثرت باليد المصانة، وطال التروغ والتراور، وشكى التجاور وهنالك تختلف الأحوال، وتعظم الأهوال، وتخسر أو تربح الأموال، فمن عصا تنقلب ثعباناً مبيناً، ونونه تصير تنيناً، وبطل لم يهله المعترك الهائل، والوهم الزائل، ولا حال بينه وبين قرته الحائل، فتعدى فتكة السليك إلى فتكة البراض، وتقلد مذهب الأزارقة من الخوارج في الاعتراض، ثم شق الصف، وقد خضب الكف، بعد أن كاد يصيب البرى بطعنه، ويبوء بمقت الله ولعنته:

طعنت ابن عبد الله طعنة ثائر ... لها نفذ لولا الشعاع أضاءها

وهناك هدأ القتال، وسكن الخبال، ووقع المتوقع فاستراح البال، وتشوف إلى مذهب الثنوية، من لم يكن للتوحيد بسبال، وكثر السؤال عن البال بما بال، وجعل الجريح يقول، وقد نظر إلى دمه يسيل على قدمه:

أنى له عن دمي المسفوك معتذر ... أقول حملته في سفكه تعبا

ومن سنان عاد عنانا، وشجاع صار هدانا جباناً، كلما شابته شائبة ريبة، أدخل يده في جيبه، فانجحرت الحية، وماتت الغريزة الحية، وهناك يزيغ البصر، ويخذل المنتصر، ويسلم الأسر، ويغلب الحصر، ويجف اللباب، ويظهر العاب، ويخفق الفؤاد، ويكبو الجواد، ويسيل العرق، ويشتد الكرب والأرق، وينشأ في محل الأمن القرق، ويدرك فرعون الغرق. ويقوي اللجاج ويعظم الخرق. فلا تزيد الحال إلا شدة، ولا تعرف تلك الجارحة المؤمنة إلا ردة:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

فكم مغري بطول اللبث، وهو من الخبث، يؤمل الكرة، ليزيل المعرة، ويستنصر الخيال، ويعلم باليد الاحتيال:

إنك لا تشكو إلى مصمت ... فاصبر على الحمل الثقيل أو مت

ومعتذر بمرض أصابه، جرعه أو صابه. ووجع طرقه، جلب أرقه، وخطيب أرتج عليه أحياناً، فقال سيحدث الله بعد عسر يسرا، وبعد عي بياناً، اللهم إنا نعوذ بك من فضائح القروج إذا استغلقت أقفالها، ولم تسم بالنجيع أعفالها، ومن معرات الأقدار والنكول عن الأبكار، ومن النزول عن البطون والسرر، والجوارح الحسنة الغرر، قبل ثقب الدر، ولا تجعلنا من يستحي من البكر بالغداة، وتعلم منه كلال الأداة، وهو مجال فضحت فيه رجال، وفراش شكيت فيه أو جال، وأعملت روية وارتجال. فمن قائل:

أرفعه طورا على إصبعي ... ورأسه مضطربة أسفله

كالحنش المقتول يلقى على ... عود لكي يطرح في مزبله

أو قايل:

عدمت من أيري قوى حسه ... يا حسرة المرء على نفسه

تراه قد مال على أصله ... كحائط خر على أسه

وقايل:

أيحسدني إبليس داءين أصبحا ... برجلي ورأسي دملاً وزكاما

فليتهما كانا به وأزيده ... رخاوة أير لا يريد قياما

وقائل:

أقول لأيري وهو يرقب فتكة ... به خبت من أير وغالتك داهية

إذا لم يكن للأير بخت تعذرت ... عليه وجوه .....من كل ناحية

وقايل:

تعفف قوق الخصيتين كأنه ... رشاء إلى جنب الركية ملتف

كفرخ ابن ذي يومين يرفع رأسه ... إلى أبويه ثم يدركه الضعف

وقايل:

تكرش أيري بعد ما كان أملسا ... وكان غنياً من قواه فأفلسا

وصار جوابي للمها أن مررن بي ... مضى الوصل إلا منية تبعث الأسى

وقايل:

بنفسي من حييته فاستخف بي ... ولم يخطر الهجران منه على بال
وقابلني بالهزء والنجة بعدما ... حططت به رجلي وجردت سريالي
وما ارتجى من موسر فوق دكة ... عرضت له شيئاً من الحشف البالي

علل لا تزال تبكي، وعلل على الدهر تشكي، وأحاديث تقص وتحكي. فإن كنت أعزك الله من النمط الأول، ولم تقل، وهل عند رسم دارس من معول، فقد جنيت الثمر. واستطبت السمر، فاستدع الأبواق من أقصى المدينة، واخرج على قومك في ثياب الزينة، واستبشر بالوفود، وعرف السمع عارفة الجود، وتبجح بصلابة العود، وإنجاز الوعود، واجن رمان النهود، من أغصان القدود، واقطف بينان اللثم أقاح الثغور وورد الخدود. وإن كانت الأخرى، فاخف الكمد، وأرض الثمد، وانتظر الأمد، واكذب التوسم، واستعمل التبسم، واستكتم النسوة، وأفض فيهن الرشوة، وتقلد المغالطة وارتكب، وجئ على قميصك بدم كذب، واستنجد الرحمن، واستعن على أمورك بالكتمان

لا تظهرن لعاذل أو عاذر ... حاليك في السراء والضراء
فلرحمة المتفجعين حرارة ... في القلب مثل شماتة الأعداء

وانتشق الأرج، وارتقب الفرج. فكم غمام طبق وما همي، وما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى، وأملك بعدها عنان نفسك، حتى تمكنك الفرصة، وترفع إليك القصة، ولا تشتره إلى عمل لا تفئ منه بتمام، وخذ عن إمام، ولله در عروة بن حزام.

الله يعلم ما تركتن قتالهم ... حتى رموا مهري بأشقر مزبد
وعلمت أني إن أقاتل دونهم ... أقتل ولم يضرر عدوي مشهدي
ففررت منهم والأحبة فيهم ... طمعاً لهم بعقاب يوم مفسد

واللبانات تلين وتجمح، والمآرب تدنو وتنزح، وتحرن ثم تسمح، وكم من شجاع خام. ويقظ نام، ودليل أخطأ الطريق، وأضل الفريق، والله عز وجل يجعلها خلة موصولة، وشملاً أكنافه بالخير مشمولة، وبنية أركانها لركاب اليمن مأمولة، حتى يكثر خدم سيدي وجواريه، وأسرته وسراريه، وتضفو عليه نعمة باريه، ما طورد قنيص، واقتحم عبص، وأدرك مرام عويص، وأعطي زاهد وحرم حريص. والسلام.

تواليفه

شرح القصيدة المسماة بالبردة شرحاً بديعاً، دل فيه على انفساح ذرعه، وتفنن إدراكه، وغزارة حفظه. ولخص كثيراً من كتب ابن رشد. وعلق للسلطان أيام نظره في العلوم العقلية، تقييداً مفيداً في المنطق، ولخص محصل الإمام فخر الدين ابن الخطيب الرازي. وبذلك داعبته أول لقيته بعض منازل الأشراف، في سبيل المبرة بمدينة فاس، فقلت له لي عليك مطالبة، فإنك لخصت محصلي. وألف كتاباً في الحساب. وشرع في هذه الأيام في شرح الرجز الصادر عني في أصول الفقه، بشيء لا غاية وراءه في الكمال. وأما نثره وسلطانياته، مرسلها ومسجعها، فخلج بلاغة، ورياض فنون، ومعادن إبداع، يفرغ عنها يراعه الجريء، شبيهة البداءات بالخواتم، في نداوة الحروف، وقرب العهد بجرية المداد، ونفوذ أمر القريحة، واسترسال الطبع. وأما نظمه، فنهض لهذا العهد قدماً في ميدان الشعر. وأغر نقده باعتبار أساليبه، فانثال عليه جوه، وهان عليه صعبه، فأتى منه بكل غريبة، من ذلك قوله يخاطب السلطان ملك المغرب ليلة الميلاد الكريم عام اثنين وستين وسبعمائة بقصيدة طويلة:

أسرفن في هجري وفي تعذيبي ... وأطلن موفق عبرتي ونحيبي
وأبين يوم البين موقف ساعة ... لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الظاعنين وغادروا ... قلبي رهين صبابة ووجيب
غربت ركائبهم ودمعي سافح ... فشرقت بعدهم بماء غروبي
يا ناقعاً بالعتب غلة شوقهم ... رحماك في عذلي وفي تأنيبي
يستعذب الصب الملام وإنني ... ماء الملام لدي غير شريب
ما هاجني طرب ولا اعتاد الجوى ... لولا تذكر منزل وحبيب
أهفو إلى الطلال كانت مطلعاً ... للبدر منهم أو كناس ربيب
عبثت بها أيدي البلى وترددت ... في عطفها للدهر آي خطوب
تبلى معاهدها وإن عهودها ... ليجدها وصفي وحسن نسيبي
وإذا الديار تعرضت لمتيم ... هزته ذكراها إلى التشبيب
إيه على الصبر الجميل فإنه ... ألوى بدين فؤادي المنهوب
لم أنسها والدهر يثني صرفه ... ويغض طرفي حاسد ورقيب

والدار مونقة محاسنها بما ... لبست من الأيام كل قشيب
يا سائق الأظعان تعتسف الفلا ... وتواصل الآساد بالتأويب
متهافتاً عن رحل كل مذلل ... نشوان من أين ومس لغوب
تتجاذب النفحات فضل ردائه ... في ملتقاها من صباً وجنوب
إن هام من ظما الصبابة صحبة ... نهلوا بمورد دمعه المسكوب
في كل شعب منية من دونها ... هجر الأماني أو لقاء شعوب
هلا عطفت صدورهن إلى التي ... فيها لبانة أعين وقلوب
فتؤم من أكناف يثرب مأمنا ... يكفيك ما تخشاه من تثريب
حيث النبوة آيها مجلوة ... تتلو من الآثار كل غريب
سر غريب لم تحجبه الثرى ... ما كان سر الله بالمحجوب
يا سيد الرسل الكرام ضراعة ... تقضى من نفس وتذهب حوبي
عاقت ذنوبي عن جنابك والمنى ... فيها تعللني بكل كذوب
لا كاللآلئ صرفوا العزائم للتقى ... فاستأثروا منها بخير نصيب
لم يخلصوا لله حتى فرقوا ... في الله بين مضاجع وجنوب
هب لي شفاعتك التي أرجو بها ... صفحاً جميلاً عن قبيح ذنوبي
إن النجاة وإن أتيحت لامرئ ... فبفضل جاهك ليس بالتسبيب
إني دعوتك واثقاً بإجابتي ... يا خير مدعو وخير مجيب
قصرت في مدحي فإن يك طيباً ... فبما لذكرك من أريج الطيب
مإذا عسى يبغي المطيل وقد حوى ... في مدحك القرآن كل مطيب
يا هل تبلغني الليالي زورة ... تدني إلي الفوز بالمرغوب

أمحو خطيئاتي بإخلاصي بها ... وأحط أوزاري وإصر ذنوبي
فثي فتية هجروا المنى وتعودوا ... إنضاء كل تجيبة ونجيب
يطوى صحائف ليلهم فوق الفلا ... ما شئت من خبب ومن تقريب
إن رنم الحادي بذكرك رددوا ... أنفاس مشتاق إليك طروب
أو غرد الركب الخلي بطيبة ... حنوا لمغناها حنين النيب
ورثوا اعتساف البيد عن آبائهم ... إرث الخلافة في بني يعقوب
الطاعنون الخيل وهي عوابس ... يغشى مثار النقع كل سبيب
والواهبون المقربات هواتناً ... من كل خوار العنان لعوب
والمانعون الجار حتى عرضهم ... في منتدى الأعداء غير معيب
تخشى بوادرهم ويرجى حملهم ... والعز شيمة مرتجى ومهيب
ومنها بعد كثير:
سائل به طامي العباب وقد سرى ... تزجى بريح العزم ذات هبوب
تهديه شهب أسنة وعزائم ... يصدعن ليل الحادث المرهوب
حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه ... وسطا الهدى بفريقها المغلوب
يا ابن الإلى شادوا الخلافة بالتقى ... واستأثروك بتاجها المعصوب
جمعوا بحفظ الدين آي مناقب ... فلقد شهدنا منه كل عجيب
كم رهبة أو رغبة لك والعلا ... تقتاد بالترغيب والترهيب
لا زلت مسروراً بأشرف دولة ... يبدو الهدي من أفقها المرقوب
تحيي المعالي غادياً أو رائحاً ... وجديد سعدك ضامن المطلوب
وقال من قصيدة خاطبه بها عند وصول هدية ملك السودان، وفيها الحيوان الغريب المسمى بالزرافة:
قدحت يد الأشواق من زندي ... وهفت بقلبي زفرة الوجد
ونبذت هلواني على ثقة ... بالقرب فاستبدلت بالبعد
ولرب وصل كنت آمله ... فاعتضت منه مؤلم الصد
لا عهد عند الصبر أطلبه ... إن الغرام أضاع من عهدي
يلحي العذول فيما أعنفه ... وأقول ضل فأبتغي رشدي

وأعارض النفحات أسألها ... برد الجوى فتزيد في الوقد
يهدي الغرام إلى مسالكها ... لتعللي بضعيف ما تهدى
يا سائق الوجناء معتسفاً ... طي الفلاة لطية الوجد
أرح الركاب ففي الصبا نبأ ... يغنى عن المستنة الجرد
وسل الربوع برامة خبراً ... عن ساكني نجد وعن نجد
ما لي تلام على الهوى خلقي ... وهي التي تأبى سوى الحمد
لأبيت إلا الرشد مذ وضحت ... بالمستعين معالم الرشد
نعم الخليقة في هدى وتقى ... وبناء عز شامخ الطود

نجل السراة الغر شأنهم ... كسب العلا بمواهب الوجد
ومنها في ذكر خلوصه إليه، ومنا ارتكبه فيه:
لله مني إذ تأوبني ... ذكراه وهو بشاهق فرد
شهم يفل بواتر قضبا ... وجموع أقيال أولي أيد
أوريت زند العزم في طلبي ... وقضيت حق المجد من قصدي
ووردت عن ظمأ مناهله ... فرويت من عز ومن رفد
هي جنة المأوى لمن كلفت ... آماله بمطالب المجد
لو لم أعل بورد كوثرها ... ما قلت هذى جنة الخلد
من مبلغ قومي ودونهم ... قذف النوى وتنوفة البعد
إني أنفت على رجائهم ... وملكت عز جميعهم وحدي
ومنها:
ورقيمة الأعطاف حالية ... موشية بوشائج البرد
وحشية الأنساب ما أنست ... في موحش البيداء بالقود
تسمو بجيد بالغ صعداً ... شرف الصروح بغير ما جهد
طالت رؤوس الشامخات به ... ولربما قصرت عن الوهد
قطعت إليك تنائفاً وصلت ... آسادها بالنص والوخد
نحدي على استصعابها ذللاً ... وتبيت طوع القن والقد
بسعودك اللائي ضمن لنا ... طول الحياة بعيشة رغد
جاءتك في وفد الأحابش لا ... يرجون غيرك مكرم الوفد
وافوك أنضاء تقلبهم ... أيدي السري بالغور والنجد
كالطيف يستقري مضاجعه ... أو كالحسام يسل من غمد
يثنون بالحسنى التي سبقت ... من غير إنكار ولا جحد
ويرون لحظك من وفادتهم ... فخراً على الأتراك والهند
يا مستعيناً جل في شرف ... عن رتبة المنصور والمهدي
جازاك ربك عن خليقته ... خير الجزاء فنعم ما يسدي
وبقيت للدنيا وساكنها ... في عزة أبداً وفي سعد
وقال يخاطب صدر الدولة فيما يظهر من غرض المنظوم:
يا سيد الفضلاء دعوة مشفق ... نادى لشكوى البث خير سميع
مالي وللإقصاء بعد تعلة ... بالقرب كنت لها أجل شفيع
وأرى الليالي رتقت لي صافيا ... منها فأصبح في الأجاج شروعي
ولقد خلصت إليك بالقرب التي ... ليس الزمان لشملها بصدوع
ووثقت منك بأي وعد صادق ... إني المصون وأنت غير مضيع
وسما بنفسي للخليفة طاعة ... دون الأنام هواك قبل نزوع

حتى انتحاني الكاشحون بسعيهم ... فصددتهم عني وكنت منيعي
رغمت نفوسهم بنجح وسائلي ... وتقطعت أنفاسهم بصنيعي
وبغوا بما نقموا علي خلائقي ... حسداً فراموني بكل شنيع
لا تطمعنهم ببذل في الستي ... قد صنتها عنهم بفضل قنوع
أني أضام وفي يدي القلم الذي ... ما كان طيعه لهم بمطيع
ولي الخصائص ليس تأبى رتبة ... حسبي بعلمك ذاك من تفريعي
قسماً بمجدك وهو خير ألية ... اعتدها لفؤادي المصدوع
إني لتصطحب الهموم بمضجعي ... فتحول ما بيني وبين هجوعي
عطفاً علي بوحدتي عن معشر ... نفث الإباء صدودهم في روعي

أغدو إذا باكرتهم متجلداً ... وأروح أعثر في فضول دموعي
حيران أوجس عند نفسي خيفة ... فتسر في الأوهام كل مروع
أطوي على الزفرات قلباً إده ... حمل الهموم تجول بين ضلوعي
ولقد أقول لصرف دهر رابني ... بحوادث جاءت على تنويع
مهلاً عليك فليس خطبك ضائري ... فلقد لبست له أجن دروع
إني ظفرت بعصمة من أوحد ... بذ الجميع بفضله المجموع

وأنشد السلطان أمير المسلمين أبا عبد الله بن أمير المسلمين أبا الحجاج، لأول قدومه ليلة الميلاد الكريم، من عام أربعة وستين وسبعمائة:

حي المعاهد كانت قبل تحييني ... بواكف الدمع يرويها ويظميني
إن الإلى نزحت داري ودارهم ... تحملوا القلب في آثارهم دوني
وقفت أنشد صبراً ضاع بعدهم ... فيهم وأسأل رسماً لا يناجيني
أمثل الربع من شوق وألثمه ... وكيف والفكر يدنيه ويقصيني
وينهب الوجد مني كل لؤلؤة ... ما زال جفني عليها غير مأمون
سقت جفوني مغاني الربع بعدهم ... فالدمع وقف على أطلاله الجون
قد كان للقلب عن داعي الهوى شغل ... لو أن قلبي إلى السلوان يدعوني
أحبابنا هل لعهد الوصل مدكر ... منكم وهل نسمة منكم تحييني
ما لي وللطيف لا يعتاد زائره ... وللنسيم عليلاً لا يداويني
يا أهل نجد وما نجد وساكنها ... حسناً سوى جنة الفردوس والعين
أعندكم أنني ما مر ذكركم ... إلا انثنيت كأن الراح تثنيني
أصبوا إلى البرق من أنسحاء أرضكم ... شوقاً ولولاكم ما كان يصبيني
يا نازحاً والمنى تدنيه من خلدي ... حتى لأحسبه قرباً يناجيني
أسلى هواك فؤادي عن سواك وما ... سواك يوماً بحال عنك يسليني
ترى الليالي أنستك ادكاري يا ... من لم يكن ذكره الأيام تنسيني

ومنها في ذكر الفريط:

أبعد مر الثلاثين التي ذهبت ... أولى الشباب بإحساني وتحسيني
أضعت فيها نفيساً ما وردت به ... إلا سراب غرور ليس يرويني
وا حسرتا من أماني كلها خدع ... تريش غيي ومر الدهر يبريني
ومنها في وصف المشور المبتنى لهذا العهد:
يا مصنعاً شيدت منه السعود حمى ... لا يطرق الدهر مبناه بتوهين
صرح يحار لديه الطرف مفتتنا ... فما يروقك من شكل وتلوين
بعداً لإيوان كسرى إن مشورك السامي لأعظم من تلك الأواوين
ودع دمشق ومغناها فقصرك ذا ... أشهى إلى القلب من أبواب جيرون
ومنها في التعريض بالوزير الذي كان انصرافه من المغرب لأجله:
من مبلغ عني الصحب الإلى جهلوا ... ودي وضاع حماهم إذ أضاعوني
إني أويت من العليا إلى حرم ... كادت مغانيه بالبشرى تحييني
وإنني ظاعن لم ألق بعدهم ... دهراً أشاكي ولا خصماً يشاكيني
لا كالتي أخفرت عهدي ليالي إذ ... أقلب الطرف بين الخوف والهون
سقياً ورعياً لأيامي التي ظفرت ... يداي منها بحظ غير مغبون
ارتاد منها ملياً لا يماطلني ... وعداً وأرجو كريماً لا يعنيني
وهاك منها قواف طيها حكم ... مثل الأزاهر في طي الرياحين
تلوح إن جليت دراً وإن تليت ... تثنى عليك بأنفاس البساتين
عانيت منها بجهدي كل شاردة ... لولا سعودك ما كانت تواتيني
يمانع الفكر عنا ما تقسمه ... من حزن بطي الصدر مكنون
لكن بسعدك ذلت لي شواردها ... فرضت منها بتحبير وتزيين
بقيت دهرك في أمن وفي دعة ... ودام ملكك في نصر وتمكين

وهو الآن قد بدا له في التحول، طوع أمل ثاب له في الأمير أبي عبد الله ابن الأمير أبي زكريا بن حفص، لما عاد إليه ملك بجاية، وطار إليه بجناح شراع، تفيأ ظله، وصك من لدنه رآه مستقراً عنده، يدعم ذلك بدعوى تقصير خفي أحس به، وجعله علة منقلبه، وتجن سار منه في منهبه وذلك في ..... من عام ثمانية وستين وسبعمائة. ولما بلغ بجاية صدق رأيه، ونجحت مخيلته، فاشتمل عليه أميرها، وولاه الحجابة بها. ولم ينشب أن ظهر عليه ابن عمه الأمير أبو العباس صاحب قسنطينة، وبملك البلدة بد مهلكه، وأجرة المترجم به على رسمه بما طرق إليه الظنة بمداخلته في الواقع. ثم ساء ما بينه وبين الأمير أبي العباس، وانصرف عنه، واستوطن بسكرة، متحولاً إلى جوار رييسها أبي العباس بن مزنى، متعللاً برفده إلى هذا العهد.
وخاطبته برسالة في هذه الأيام، تنظر في اسم المؤلف في آخر الديوان.
مولده

بمدينة تونس بلده، حرسها الله، في شهر رمضان من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة.
عبد الرحمن بن الحاج بن القميي الإلبيري

حاله

كان شاعراً مجيداً، هجا القاضي أبا الحسن بن توبة قاضي غرناطة، ومن نصره من الفقهاء، فضربه القاضي ضرباً وجيعاً، وطيف به على الأسواق بغرناطة، فقال فيه الكاتب أبو إسحاق الإلبيري الزاهد، وكان يومئذ كاتباً للقاضي المذكور، الأبيات الشهيرة:

السوط أبلغ من قول ومن قيل ... ومن نباح سفيه بالأباطيل

من الدار كحر النار أبراه ... يعقل التقاضي أي تعقيل

عبد الرحمن بن يخلفتن

بن أحمد بن تفليت الفازازي

يكنى أبا زيد.

حاله

كان حافظاً نظاراً ذكياً ذا حظ وافر من معرفة أصول الفقه وعلم الكلام، وعناية بشأن الرواية، متبذلاً في هيئته ولباسه، قلما يرى راكباً في حضر إلا لضرورة، فاضلاً، سنياً، شديد الإنكار والإنحاء على أهل البدع، مبالغاً في التحذير منهم، عامرالإتاء، يطلب العلم شغفاً به، وانطباعاً إليه، وحباً فيه، وحرصاً عليه، آية من آيات الله في سرعة البديهة، وارتجال النظم والنثر وفور ماده، وموالاة استعمال، لا يكاد يقيد، ولا يصرفه عنه، إلا نسخ أومطالعة علم، أو مذاكرة فيه، حي صار له ملكة، لا يتكلف معها الإنشاء، مع الإجادة، وتمكن البراعة. وكان متلبساً بالكتابة عن الولاة والأمراء، ملتزماً بذلك، كارهاً له، حريصاً على الانقطاع عنه، واختص بالسيد أبي إسحق بن المنصور، وبأخيه أبي العلاء، وبملازمتهما استحق الذكر فيمن دخل غرناطة، إذ عد ممن دخلها من الأمراء.

مشيخته

روى عن أبيه أبي سعيد، وأبي الحسن جابر بن أحمد، وابن عتيق بن مون، وأبي الحسن بن الصايغ، وأبي زيد السهيلي، وأبي عبد اله التجيبي، وأبي عبد الله بن الفخار، وأبي محمد بن عبيد الله، وأبي المعالي محمود الخراساني، وأبي الوليد بن يزيد بن بقى وغيرهم. وروى عنه ابنه أبو عبد الله، وأبو بكر بن سيد الناس، وابن مهدي، وأبو جعفر بن علي ابن غالب، وأبو العباس بن علي بن مروان، وأبو عمرو بن سالم، وأبو القاسم عبد الرحيم بن سالم، وابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن سالم، وأبو القاسم عبد الكريم بن عمران، وأبو يحيى بن سليمن ابن حوط الله، وأبو محمد بن قاسم الحرار، وأبو الحسن الرعيني، وأبو علي الماقري.

تواليفه ومنظوماته

له المعشرات الزهدية، التي ترجمها بقوله: المعشرات الزهدية، والمذكرات الحقيقية الجدية، ناطقة بألسنة الوجلين المشفقين، شايقة إلى مناهج السالكين المستبقين. نظمها متبركاً بعبادهم متيمناً بأغراضهم وإشاراهم، قابضاً عنان الدعوىعن مداناهم ومجاراهم، مهتدياً إهداء السنن الخمس، بالأشعة الواضحة من إشاراهم، مخلداً دون أفقهم العالي، إلى حضضه، جامعاً لحسن أقواله، وقبح أفعاله، بين الشيء ونقضيه. عبد الرحمن. وله المعشرات الحبية، وترجمتها النفحات القلبية، واللفحات الشوقية، منظمة على ألسنة الذاهبين وجداً، الذايبين كمداً وجهداً، الذين غربوا، وبقيت أنوارهم، واحتجبوا وظهرت آثارهم، ونطقوا وصمتت أخبارهم، ووفوا العبودية حقها، ومحضوا

المحبة مستحقها، نظم من نسج على منوالهم، ولم يشاركهم إلا في أقوالهم فلان. والقصايد، في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، التي كل قصيدة منها عشرون بيتاً، وترجمتها الوسايل المتقبلة، والآثار المسلمة المقبلة، مودعة في العشرنية النبيوية، والحقايق اللفظية والمعنوية، نظم من اعتقدها من أزكى الأعمال، وأعدها لما يستقبله من مدهش الأهوال، وفرع خاطره لها، على توالي القواطع، وتتابع الأشغال، ورجا بركة خاتم الرسالة، وغاية السؤدد والجلالة، محو ما لسلفه من خطأ في الفعل، وزلل في المقال، والله سبحانه ولي القبول للتوبة، والمنان بتسويغ هذه المنة المطلوبة، فذلك يسير في جنب قدرته، ومعهود رحمته الواسعة ومغفرته.

شعره

وشعره كثير جداً، ونثره مشهور وموجود. فمن شعره في غرض الشكر لله عز وجل، على غيث جاء بعد قحط:

نعم الإله بشره تتقيد ... فالله يشكر في النوال ويحمد
مدت إليه أكفنا محتاجة ... فأنالها من جوده ما نعهد
وأغاثنا بغمايم وكافة ... بالبشر تشرق والبشاير ترعد
حملت إلى ظما البسيطة ريه ... فلها عليه منة لا تجحد
فالجو براق والشعاع مفضض ... والماء فياض الأثير معسجد
والأرض في حلى الأتي كأنما ... نطف الغمام لؤلؤ وزبرجد
والروض مطلول الخمايل باسم ... والقضب لينه الحمايل ميد
تاهت عقول الناس في حركاتها ... ألشكرها أم سكرها تتأود
فيقول أرباب البطالة تنثني ... ويقول أرباب الحقيقة تسجد
وإذا اهتديت إلى الصواب فإنما ... في شكر خالقها تقوم وتقعد
هذا هو الفضل الذي لا ينقضي ... هذا هو الجود الذي لا ينفد
إحضر فؤادك القيام بشكره ... إن كنت تعلم قدر ما تتقلد
والفض يديك من العباد فكلهم ... عجز الحل وأنت جهلا تعقد
وإذا افتقرت إلى سواه فإنما ... الذي بخاطرك المجال الأبعد
نعم الإله كما تشاهد حجة ... والغائبات أجل مما يشهد
فانظر إلى آثار رحمته التي ... لا يمتري فيها ولا يتردد
يا ليت شعري والدليل مبلغ ... من أي وجه يستريب الملحد
من ذا الذي يرتاب إن إلهة ... أحد وألسنة الجماد توحد
كل يصرح حاله ومقاله ... أن ليس إلا الله رب يعبد

ومن شعره أيضاً قوله:

عجباً لمن ترك الحقيقة جانباً ... وغدا لأرباب الصواب مجانبا
وابتاع بالحق المصحح حاضرا ... ما شاء للزور المعلل عسايبا
من بعد ما قد صار أنفذ أسهما ... وأشد عادية وأمضي قاضبا
لا تخدعنك سوابق من سابق ... حتى ترى الإحضار منه عواقبا
فلربما اشتد الخيال وعاقه ... دون الصواب هوى وأصبح غالبا

ولكم إمام قد أضر بفهمه ... كتب تعب من الضلال كتايبا
فانحرف بأفلاطون وأرسطا ... طاليس ودونهما تسلك طريقاً لاحبا
ودع الفلاسفة الذميم جميعهم ... ومقالهم تأتى الأحق الواجبا
يا طالب البرهان في أوضاعهم ... أعزز علي بأن تعمر جانبا

أعرضت عن شط النجاة ملججاً ... في بحر هلك ليس ينجي عاطبا
وصفا الدليل فما نفعت بصفوه ... حتى جعلت له الحبر شايبا
فانظر بعقلك هل ترى متفلسفا ... فيمن ترى إلا دعياً كاذبا
أعيته أعباء الشريعة شدة ... فارتد مسلوبا ويحسب سالبا
والله أسل عصمة وكفاية ... من أن أكون عن المحجة ناكبا
ومن شعره:
إليك مددت الكف في كل شدة ... ومنك وجدت اللطف في كل نايب
وأنت ملاذ والأنام بمعزل ... وهل مستحيل في الرجاء كرآيب
فحقق رجائي فيك يا رب واكفني ... شماتة عدو أو إساءة صاحب
ومن أين أخشى من عدو إساءة ... وسترك ضاف من جميع الجوانب
وكم كربة نجيتني من غمارها ... وكانت شجاً بين الحشا والترايب
فلا قوة عندي ولا لي حيلة ... سوى حسن ظني بالجميل المواهب
فيا منجي المضطر عند دعايه ... أغثني فقد سدت على مذاهب
رجاؤك رأس المال عندي وربحه ... وزهد في المخلوق أسنى المواهب
إذا عجزوا عن نفعهم في نفوسهم ... فتأميلهم بعض الظنون الكواذب
فيا محسناً فيما مضى أنت قادر ... على اللطف في حالي وحسن العواقب
وإني لأرجو منك ما أنت أهله ... وإن كنت حطا في كثير العواقب
وإني لأرجو منك ما أنت أهله ... وإن كنت حطا في كثير المعايب
فصل على المختار من آل هاشم ... إمام الورى عند اشتداد النوايب
وقال في مدعي قراءة الخط دون نظر:
وأدور مياس العواطف أصبحت ... محاسنه في الناس كالنوع في الجنس
يدير على القرطاس أنمل كفه ... فيدرك أخفى الخط في أيسر اللمس
فقال فريق سحر بابل عنده ... وقال فريق ليس هذا من الإنس
فقلت لهم لم تفهموا سر دركه ... على أنه للعقل أجلى من الشمس
ستكفه حب القلوب فأصبحت ... مداركها أجفان أنمله الخمس
وفاته: استقدمه المأمون. على حال وحشة، كانت بينه وبينه، فورد ورود الرضا على مراكش في شعبان سنة سبع وعشرين وستماية. وتوفي في ذي قعدة بعده، ودفن بجبانة الشيوخ مع أخيه عبد الله وقرنايهما، رحم الله جميعهم.
انتهى السفر التاسع بحمد الله
ومن السفر العاشر

العمال الأثرا في هذا الحرف

عبد الرحمن بن أسباط

الكاتب المنجب، كاتب أمير المسلمين، يوسف بن تاشفين.

حاله

لحق به بالعدوة، فاتصل بخدمته، وأغراه بالأندلس، إذ ألقى إليه أمورها على صورتها، حتى كان ما فرغ الله عز وجل، من استيلائه على ممالكها، وخلعه لرؤسايها. وكان عبد الرحمن قبل اتصاله به، مقدوراً عليه في رزقه، يتحرف بالنسخ، ولم يكن حسن الخط، ولا معرب اللفظ، إلى أن تسير للكتابة في باب الديوان بألمرية، ورأى خلال ذلك، في نومه، شخصاً يوقظه، ويقول له قم يا صاحب ربع الدنيا، وقص رؤياه على صاحب له بمثواه، فبشره، فطلب من ذلك الحين السمو بنفسه، فأجاز البحر، وتعلق بحاشية الحرة العليا زينب، فاستكتبته. فلما توفيت الحرة، أقره أمير المسلمين كاتباً، فنال ما شاء، مما ترتمي إليه الهمم، جاهاً ومالاً وشهرة. وكان رجلاً حصيفاً، سكوتاً، عاقلاً، مجدي الجاه، حسن الوساطة، شهير المكانة.

توفي فجأة بمدينة سبتة، في عام سبعة وثمانين وأربعمائة. وتقلد الكتابة بعده، أبو بكر بن القصير. ذكره ابن الصيرفي.

عبد الرحمن بن محمد المعافري

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن مالك المعافري وتكر مالك في نسبه

أوليته

قالوا من ولد عقبة بن نعيم الداخل إلى الأندلس، من جند دمشق، نزيل قرية شكنب من إقليم تاجرة الجمل من عمل بلدنا لوشة، غرناطي يكنى أبا محمد.

حاله

كان أبو محمد هذا أحد وزراء الأندلس، كثير الصنايع، جزل المواهب، عظيم المكارم، على سنن عظماء الملوك، وأخلاق السادة الكرام. لم ير بعده مثله في حال الأندلس، ذاكراً للفقه والحجيث، بارعاً في الأدب، شاعراً مجيداً وكاتباً بليغا، حلو الكتابة والشعر، هشاً مع وقار، ليناً على مضاء، عالي الهمة، كثير الخادم والأمل.

من آثاره الماثلة إلى اليوم الحمام، بجوفي الجامع الأعظم من غرناطة. بدأ بناه أول يوم من جمادى الأولى سنة تسع وخمسماية. شرع في الزيادة في سقف الجامع من صحنه سنة ست عشرة، وعوض أرجل قسيه، أعمدة الرخام، وجلب الروس والموايد من قرطبة، وفرش صحنه بكذان الصخيرة. ومن مكارمه أنه لما ولي مستخلص غرناطة وإشبيلية، وجهه أميره علي بن يوسف بن تاشفين إلى طرطوشة برسم بنايها، وإصلاح خللها، فلما استوفى الغاية فيها، قلده، واستصحب جملة من ماله لمؤنته المختصة به، فلما احتلها سال قاضيها، فكتب إليه جملة من أهلها ممن ضعف حاله وقل تصرفه، من ذوي البيوتات، فاستعملهم أمناء في كل وجه جميل، ووسع أرزاقهم، حتى كمل له ما أراد من عمله. ومن عجز أن يستعمله، وصله من ماله، وصدر عنها وقد أنعش خلقاً كثيراً.

شعره

من قوله في مجلس أطربه سماعه، وبسطه احتشاد الأنس فيه واجتماعه:

لا تلمني إذا طربت لشجو ... يبعث الأنس فالكريم طروب

ليس شق الجيوب حقاً علينا ... إنما الحق أن تشق القلوب

وقال: وقد قطف غلام من غلمانه نوارة، ومد بها يده إلى أبي نصر الفتح بن عبيد الله. فقال أبو نصر:

وبدر بدا والطرف مطلع حسنه ... وفي كفه من رايق النور كوكب

يروح لتعذيب النفوس ويغتدي ... ويطلع في أفق الجمال ويغرب

فقال أبو محمد بن مالك:

ويحسد منه الغصن أي مهفهف ... يجيء على مثل الكثيب ويذهب

نثره

قال أبو نصر، كتبت إليه مودعاً، فكتب إلي مستدعياً، وأخبرني رسوله أنه لما قرأ الكتاب وضعه، وما سوى ولا فكر ولا روى: يا سيدي، جرت الأيام بجمع افتراقك، وكان الله جارك في انطلاقك، فغيرك روع بالظعن، وأوقد للوداع جامح الشجن، فأنت من أبناء هذا الزمن، خليفة الخضر، لا يستقر على وطن، كأنك والله يختار لك ما تأتيه وما تدعه، موكل بفضاء الأرض تذرعه، فحسب من نوى بعشرتك الاستمتاع، أن يعدك من العواري السريعة الارتجاع، فلا يأسف على قلة الثوى وينشد: وفارقت حتى ما أبالي من النوى.

وفاته

اعتل بإشبيلية فانتقل إلى غرناطة، فزادت علته بها، وتوفي رحمه الله بها في غرة شعبان سنة ثمان عشرة وخمسمائة، ودفن إثر صلاة الظهر من يوم الجمعة المذكورة بمقبرة باب إلبيرة، وحضر جنازته الخاصة والعامة.

ومن رثاه: رثاه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أبي الخصال رحمه الله، فقال:

إن كنت تشفق من نزوح نواه ... فهناك مقبرة وذا مثواه

قسم زمانك عبرة أو عبرة ... وأحل تشوقه على ذكراه

وأعدده ما امتدت حياتك غايباً ... أو عاتباً إن لم تزر زرناه

أو نائماً غلبت عليه رقدة ... لمسهد لم تغتمض عيناه

أو كوكباً سرت الركاب بنوره ... فمضى وبلغنا المحل سناه

فمتى تبعد والنفوس تزوره ... ومتى تغيب والقلوب تراه

يا واحداً عدل الجميع وأصلحت ... دنيا الجميع ودينهم دنياه

طالت إذاتك بالحياء كرامة ... والله يكرم عبده بإذاه

لشهادة التوحيد بين لسانه ... وجنانه نور يرى مسراه

ويوجهه سيمى أغر محجل ... مهما بدا لم تلتبس سيماه

وكأنما هو في الحياة سكينة ... لولا اهتزاز في الندى يغشاه

وكأنه لحظ العفاة توجعا ... فتلازمت فوق الفؤاد يداه

أبدي رضي الرحمن عنك ثناؤهم ... إن الثناء علامة لرضاه

يا ذا الذي شفف القلوب به ... وذا لا ترتجيه وذاك لا تخشاه

ما ذاك إلا أنه فرع زكا ... وسع الجميع بظله وحناه

فاليوم أودى كل من أحببته ... ونعى إلى النفس من ينعاه

مإذا يؤمل في دمشق مسهد ... قد كنت ناظره وكن تراه

يعتاد قبرك للبكا أسفاً بما ... قد كان أضحكه الذي أبكاه

يا تربة حل الوزير ضريحها ... سقاك بل صلى عليك الله
وسرى إليك ومنك ذكر ساطع ... كالمسك عاطرة به الأفواه
عبد الرحمن بن عبد الملك الينشتي

يكنى أبا بكر، أصله من مدينة باغة، ونشأ بلوشة، وهو محسوب من الغرناطيين.
حاله
كان شيخاً يبدو على مخيلته النبل والدهاء، مع قصور أدواته. ينتحل النظم والنثر، في أراجيز يتوصل بها إلى غرضه، من التصرف في العمل.
وجرى ذكره في التاج المحلى، وغيره بما نصه: قارض هاج، مداهن مداج، أخبث من نظر من طرف خفي، وأغدر من تلبس بسعار وفي، إلى مكيدة مبثوثة الحبايل، وإغراء يقطع بين الشعوب والقبايل، من شيوخ طريقة العمل، المتقلبين من أحوالها، بين الصحو والثمل، المتعللين برسومها، حين اختلط المرعي والهمل. وهو ناظم أرجاز، ومستعل حقيقة ومجاز. نظم مختصر السيرة، في الألفاظ اليسيرة، ونظم رجزاً في الزجر والفال، نبه به تبك الطريقة بعد الإغفال، فمن نظمه ما خاطبني، به مستدعياً إلى إعذار ولده:
أريد من سيدي الأعلى تكلفه ... على الوصول إلى داري صباح غد
يزيدني شرفاً منه ويبصر لي ... صناعة القاطع الحجام في ولدي
فأجبته:
يا سيدي الأوحد الأسمى ومعتمدي ... وذا الوسيلة من أهل ومن بلد
دعوت في يوم الاثنين الصحاب ضحى ... وفيه ما ليس في بيت ولا أحد
يوم السلام على المولى وخدمته ... فاصفح وإن عثرت رجلي فخذ بيدي
والعذر أوضح من نار على علم ... فعد إن غبت عن لوم وعن فند
يقيت في ظل عيش لا نفاد له ... مصاحبا غير محصور إلى أمد
ومنه أيضاً:
قل لابن سيد والديه لقد علا ... وتجاوز المقدار فيما يفخر
ما ساد والده فيحمد أمره ... إلا صغير العنز حتى يكبر
وصدرت عنه مقطوعات في غير هذا المعنى مما عذب به المجني، منها قوله:
إن الولاية رفعة لكنها ... أبدا إذا حققتها تنتقل
فنظر فضايل من مضى من أهلها ... تجد الفضايل كلها لا تعزل
وقال:
هنيا أبا إسحق دمت موفقاً ... سعيداً قرير العين بالعرس والعرس
فأنت كمثل البدر في الحسن والتي ... تملكتها في الحسن أسنى من الشمس
وقالوا عجيب نور بدرين ظاهر ... فقلت نعم إن ألف الجنس للجنس
وكتب إلي:
إذا ضاق ذرعي بالزمان شكوته ... لمولاي من آل الخطيب فينفرج
هو العدة العظمى هو السيد الذي ... بأوصافه الحسنى المكارم تبتهج

وزير علا ذاتاً وقدرا ومنصبا ... فمن دونه أعلا الكواكب يندرج
وفي بابه نلت الأماني وقادني ... دليل رشادي حيث رافقني الفرج
فلا زال في سعد وعز ونعمة ... تصان به الأموال والأهل والمهج
توفي في الطاعون عام خمسين وسبعماية بغرناطة وفي سائر الأسماء التي بمعني عبد الله وعبد الرحمن، وأولاد الأمراء
عبد الأعلى بن موسى بن نصير

مولى لخم

أوليته

أبوه المنسوب إليه فتح الأندلس، ومحله من الدين والشهرة، وعظم الصيت معروف.
حاله
كان عبد الأعلى أميرا على سنن أبيه في الفضل والدين، وهو الذي باشر فتح غرناطة ومالقة، واستحق الذكر لذلك. قال الرازي، وكان موسى بن نصير، قد أخرج ابنه عبد الأعلى فيمن رتبه من الرجال إلى إلبيرة وتلمكير، لفتحها، ومضى إلى إلبيرة ففتحها، وضم بها إلى غرناطة اليهود، مستظهراً بهم على النصر، ثم مضى إلى كورة ريه، ففتحها
عبد الحليم بن عمر

بن عثمن بن يعقوب بن عبد الحق بن محيو

يكنى أبا محمد، أوليته معروفة.

وفسد ما بين أبيه وبين جده، أمير المسلمين، بما أوجب انتباذه إ، لى سكني مدينة سجلماسة، معززة له ألقاب السلطان بها، مدوخاً ما بأحوازها من أماكن الرياسة، منسوبة إليه بها الآثار، كالسد الكبير الشهير، وقصور الملك. فلما نزل عنها على حكم أخيه أمير ا لمسلمين أبي الحسن، وأمضى قتلته بالفصاد، نشأ ولده، وهم عدة بباب عمهم، يسعهم رفده، ويقودهم ولده، ثم جلاهم إلى الأندلس إبنه السلطان أبو عنان، عندما تصير الأمر إليه، فاستقروا بغرناطة، تحت بر وجراية، قلقاً بمكانهم من جلاهم ومن بعده، لإشارة عيون الترشيح إليهم، مغازلة من كثب، وقعودهم بحيث تعثر فيهم المظنة، إلى أن كان من أمرهم ما هو معروف.
حاله

هذا الرجل م ن أهل الخير والعفاف والصيانة، ودمث الخلق، وحسن المداراة، يألف أهل الفضل، خاطب للرتبة بكل جهد وحيلة، وسد عنه باب الأطماع. حذر من كان له الأمر بالأندلس من لدن وصوله. كي لا تختلف أحوال هذا الوطن في صرف وجوه أهله إلى غزو عدو الملة، ومحولي القبلة، وإعراضهم عن الإغماض في الفتنة المسلمة، وربما بميت عنهم الحركات والهموم. فثقفوا من فيها عليهم، إلى أن تبرأ ساحتهم ويظن به السكون. فلما دالت الدولة، وكانت للأخابث الكرة، واستقرت بيد الرئيس الغادر الكرة، وكان ما تقدم الإلما ع به من عمل السلطان

أبي سالم ملك المغرب، على إجازة السلطان ولي ملك الأندلس، المزعج عنها بعلة البغي، ذهب الدايل الأخرق إلى المقارضة، فعندما استقر السلطان أبو عبد الله بجبل الفتح، حاول إجازة الأمير عبد الحليم إلى تلمسان بعد مفاوضة. فكان ذلك في أخريات ذي قعدة، وقد قضى الأمر في السلطان أبي سالم، وانحلت العقدة، وانتكثت المريرة، وولي الناس الرجل المعتوه، وفد إلى تلمسان من لم يرض محله من الإدالة، ولا قويت نفسه على العوض، ولا صابرت غض المخافة، وحرك ذلك من عزمه، وقد أنجده السلطان مستدعيه بما في طوقه. ولما اتصل خبره بالقايم بالأمر بفاس، ومعول التدبير على سلطانه. أعمل النظر فيهم، زعموا بتسليم الأمر، ثم حذر من لحق به من أضداده، فصمم على الحصار، واستراب بالقبيل المريني، وأكثف الحجاب دونهم بما يحرك أنفتهم، فنفروا عنه بواحدة أول عام ثلاثة وستين وسبعماية، واتفق رأيهم على الأمير عبد الحليم، فتوجهت إليه وجهوهم اتفاقا، وانثالوا عليه اضطرارا، ونازل البلد الجديد، دار الملك من مدينة فاس، يوم السبت السادس لشهر المحرم من العام. واضطربت المحلات بظاهره، وخرج إليه أهل المدينة القديمى، فأخذ بيعتهم، وخاطب الجهات، فألقت إليه قواعدها باليد، ووصلت إليه مخاطبتها.

ومن ذلك ما خوطب به من مدينة سلا، وأنا يومئذ بها:

يا إمام الهدى وأي إمام ... أوضح الحق بعد إخفاء رسمه

أنت عبد الحليم نر ... جوفا لمسمى له نصيب من اسمه

وسلك مسلكا حسنا في الناس، وفسح الآمال، وأجمل اللقاء، وتحمل الجفاء، واستفز الخاصة بجميل التأني وأخذ العفو، والتظاهر بإقامة رسوم الديانة، وحارب البلد المحصور في يوم السبت الثالث عشر لشهر الله المحرم المذكور، كانت الملاقاة التي برز فيها وزير الملك ومدير رحاه بمن اشتملت عليه البلدة من الروم والجند الرحل، واستكثر من آلات الظهور وعدد التهويل، فكانت بين الفريقين حرب مرة تولى كبرها الناشبة، فأرسلت على القوم حواصب النبل، غارت لها الخيل، واقشعرت الوجوه، وتقهقرت المواكب. وعندها برز السلطان المعتوه، مصاحبة له نسمة الإقدام، وتهور الشجاعة عند مفارقة الخلال الصحية، وتوالت الشدات، وتكالبت الطايفة المحصورة، فتمرست بأختها. ووقعت الهزيمة ضحوة اليوم المذكور على قبيل بني مرين ومن لف لفهم، فصرفوا الوجوه إلى مدينة تازي، واستقر بها سلطانهم، ودخلت مكناسة في أمرهم، وضاق ذرع فاس للملك بهم، إلى أن وصل الأمير المستدعي، طية الصبر، وأجدى دفع الدين، ودخل البلد في يوم الاثنين الثاني والعشرين لصفر من العام. وكان اللقاء بين جيش السلطان، لنظر الوزير، مطعم الإمهال ومعود الصنع. وبين جيش بني مرين، لنظر الأخ عبد المؤمن ابن السلطان أبي علي. فرحل القوم من مكناسة، وفر عنهم الكثير من الأولياء، وأخذوا العرصة، واستقروا أخيراً ببلد أبيهم سجلماسة، فكانت بين القوم مهادنة. وعلى أثرها تعصب للأخ عبد المؤمن معظم عرب الجهة، وقد برز إليهم في شأن استخلاص الجباية، فرجعوا به إلى سجلماسة. وخرج لمدافعتهم الأمير عبد الحليم، بمن معه من أشياخ قبيله والعرب أولى مظاهر، فكانت بينهم حرب أجلت عن هزيمة الأمير عبد الحليم، واستلحم للسيف جملة من المشاهير. كالشيخ الخاطب في حبله، خدن النكر وقادح زند الفتنة، الداين بالحمل على الدول على التفصيل والجملة، المعتمد بالمغرب بالرأي والمشورة، يحيى بن مسطي وغيره. وأذعن عبد الحليم بعدها للخلع، وخرج عن الأمر لأخيه، وأبقى عليه، وتحرج من قتله. وتعرف لهذا الوقت صرفه عنه إلى الأرض الحجازية على صحراء القبلة، فانتهى أمره إلى هذه الغاية.

دخوله غرناطة

قدم على الحضرة مع الجملة من إخوته وبني عمه في ..... جلاهم السلطان أبو عنان، عندما تصير له الأمر، فاستقروا بها، يناهز عبد الحليم منهم بلوغ أشده.
وتوفي .... وستين وسبعماية
عبد المؤمن بن عمر

بن عثمن بن يعقوب بن عبد الحق بن محيو

أخو الأمير عبد الحليم يكنى أبا محمد
حاله
كان رجلا وقوراً، سكونا، نحيفا، آية الله في جمود الكف، وإيثار المسك، قليل المداخلة للناس، مشتغلا بما يغنيه من خويصة نفسه، موصوفاً ببسالة وإقدام، حسن الهيئة. دخل الأندلس مع أخيه، وعلى رسمه، وتحرك معه، وابن أخ لما، فتولى كثيرا من أمره، ولقي الهول دونه. ولما استقروا بسجلماسة، كان ما تقرر من توبته على أمره، والعمل على خلعه، معتذرا زعموا إليه، موفيا حقه، موجبا تجلته إلى حين انصرافه، ووصل الأندلس خطابه، يعرف بذلك بما نصه في المدرجة.
ولم ينشب أن أحس بحركة جيش السلطان بفاس إليه، فخاطب عميد العساكره، عامر بن محمد الهنتاتي، وعرض نفسه عليه، فاستدعاه. وبذل له أماناً. ولما تحصل عنده، قبض عليه، وثقفه، وشد عليه يده، وحصل على طلبه دهية، من التوعد بمكانه، واتخاذ اليد عند السلطان بكف عاديته إلى هذا التاريخ.
ومن الأفراد أيضاً في هذا الحرف وهم طارؤون
عبد الحق بن علي

بن عثمن بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق

الأمير المخاف بعد أبيه أمير المسلمين أبي الحسن بمدينة الجزائر، بعد ما توجه إلى المغرب، وجرت عليه الهزيمة من بني زيان.
حاله

كان صبيا ظاهر السكون والأدب، في سن المراهقة، لم ينشب أن نازله جيش عدوه، ومالأه أهل البلد، وأخذ من معه لأنفسهم وله الأمان، فنزل عنها ولحق بالأندلس. قال في كتاب طرفة العصر، وفي ليلة العاشر من شهر ربيع الأول اثنين وخمسين وسبعمائة، اتصل الخبر من جهة الساحل، بنزول الأمير عبد الحق ابن أمير المسلمين أبي الحسن ومن معه، بساحل شلوبانية، مفلتين من دهق الشدة، بما كان من منازلة جيش بني زيان مدينة الجزائر، وقيام أهلها بدعوتهم، لما سيموه من المطاولة، ونهكهم من الفتنة، وامتنع الأمير ومن معه بقصبتها، وأخذوا لأنفسهم عهدا، فنزلوا وركبوا البحر، فرافقتهم السلامة، وشملهم ستر العصمة. ولحين اتصل بالسلطان خبره، بادر إليه بمركبين ثقيلي الحلية، وما يناسب ذلك من بزة، وعجل من خدامه بمن يقوم ببره، وأصحبه إلى منزل كرامته، ولرابع يوم من وصوله، كان قدومه، وبرز له السلطان بروزاً فخما. ونزل له، قارضاً إياه أحسن القرض، بما أسلفه من يد، وأسداه من طول، وأقام ضيفا في جواره، إلى أن استدعاه أخوه ملك المغرب، فانصرف عن رضي منه، ولم ينشب أن هلك

مغتالا في جملة أرادهم الترشيح

عبد الواحد بن زكريا بن أحمد اللحياني

يكنى أبا ملك. وبيته في الموحدين الملوك بتونس. وأبوه سلطان إفريقية المترقى إليها من رتبة الشياخة الموحدية.

حاله

كان رجلا طوالا نحيفا، فاضلا حسيبا، مقيما للرسوم الحسبية، حسن العشرة، معتدل الطريقة، نشأ بالبلاد المشرقية، ثم اتصل بوطنه إفريقية، وتقلد الإمارة بها برهة يسيرة، ثم فر عنها ولحق بالمغرب، وجاز إلى الأندلس، وقدم على سلطانها، فرحب به، وقابله بالبر، ونوه محله، وأطلق جرايته، ثم ارتحل أدراجه إلى العدوة، ووقعت بيني وبينه صحبة، أنشدته عند وداعه:

أبا ملك أنت نجل الملوك ... غيوث الندى وليوث النزال

ومثلك يرتاح للمكرمات ... ومالك بين الورى من مثال

عزيز بأنفسنا أن نرى ... ركابك مؤذنة بارتحال

وقد خبرت منك خلقاً كريماً ... أناف على درجات الكمال

وفازت لديك بساعات أنس ... كما زار في النوم طيف الخيال

فلولا تعللنا أننا نزورك فسوق بساط الجلال

ونبلغ فيك الذي نشتهي ... وذاك على السهل المنال

لما فترت أنفس من أسى ... ولا برحت أدمع في انهمال

تلقتك حيث احتللت السعود وكان لك الله على كل حال

ومن ترجمة الأعيان والوزراء والأماثل والكبرا

عبد الحق بن عثمن

بن محمد بن عبد الحق بن محيو

يكنى أبا إدريس، شيخ الغزاة بالأندلس.

حاله

كان شجاعاً عفيفاً تقيا، وقوراً جلداً، معروف الحق، بعيد الصيت. نازع الأمر قومه بالمغرب، وانتزى بمدينة تازى، على السلطان أبي الربيع، وأخذ بها البيعة لنفسه. ثم ضاق ذرعه، فعبر فيمن معه إلى تلمسان. ولما هلك أبو الربيع، وولي السلطان أبو سعيد، قدم للكتب في شأنه إلى سلطان الأندلس، وقد تعرف عزمه على اللحاق، ولم ينشب أن لحق بألمرية من تلمسان، فثقف بها، قضاء لحق من خاطب في شأنه. ثم بدا للسلطان في أمره، فأوعز لرقبايه في الغفلة عنه، وفر فلحق ببلاد النصرى فأقام بها، إلى أن كانت الوقيعة بالسلطان بغرناطة، بأحواز قرية العطشا على يد طالب الملك أمير المسلمين أبي الوليد، وأسر يومئذ شيخ الغزاة حمو بن عبد الحق، وترجح الرأي في إطلاقه وصرف، إعلانا للتهديد. فنجحت الحيلة، وعزل عن الخطة، واستدعى عبد الحق هذا إليها، فوصل غرناطة، وقدم شيخا على الغزاة. ولما تغلب السلطان أبو الوليد على الأمر، واستوسق له، وكان ممن شمله أمانه، فأقره مرؤساً بالشيخ أبي سعيد عثمن بن أبي العلاء برهة. ثم لحق بأميره المخلوع نصر، المستقر موادعاً بوادي آش، وأوقع بجيش المسلمين مظاهر

الطاغية، الوقيعة الشنيعة بقرمونة، وأقام لديه مدة. ثم لحق بأرض النصرى، وأجاز البحر إلى سبتة. مظاهراً لأميرها أبي عمرو يحيى بن أبي طالب العزفي، وقد كشف القناع في منابذة طاعة السلطان، ملك المغرب، وكان أملك لما بيده، وأتيح له ظفر عظيم على الجيش المضيق على سبتة، فبيته وهزمه. وتخلص له ولده، الكاين بمضرب أمير الجيش في بيت من الخشب رهينة، فصرف عليه، فما شئت من ذياع شهرة، وبعد صيت، وكرم أحدوثة. ثم بدا له في التحول إلى تلمسان، فانتقل إليها، وأقام في إيالة ملكها عبد الرحمن بن موسى بن تاشفين إلى آخر عمره.

وفاته

توفي يوم دخول مدينة تلمسان عنوة، وهو يوم عيد الفطر من عام ثمانية وثلثين وسبعماية، قتل على باب منزله، يدافع عن نفسه، وعلى ذلك فلم يشهر عنه يومئذ كبير غناء، وكور واستلحم، وحز رأسه. وكان أسوة أميرها في المحيا والممات، رحم الله جميعهم، فانتقل بانتقاله وقتل بمقتله. وكان أيضاً علماً من أعلام الحروب، ومثلا في الأبطال، وليثا من ليوث النزال.

عبد الملك بن علي وعبد الله أخوه

بن هذيل الفزاري وعبد الله أخوه

حالهما

قال ابن مسعدة، أبو محمد وأبو مروان توليا خطة الوزارة في الدولة الحبوسية، ثم توليا القيادة بثغور الأندلس، وقهرا ما جاورهما من العدو، وغلباه، وسقياه كأس المنايا، وجرعاه، ولم يزالا قائمين على ذلك، ظاهرين علمين، إلى أن استشهدا رحمهما الله.

عبد القهار بن مفرج

بن عبد القهار بن هذيل الفزاري

حاله

قال ابن مسعدة، كان بارع الأدب، شاعر، نحويا، لغويا، كاتبا متوقد الذهن، عنده معرفة بالطب، ثم اعتزل الناس، وانقبض، وقصد سكنى البشارات، لينفرد بها، ويخفى نفسه، فرارا من الخدمة، فتهيأ له المراد.

شعره

وكان شاعرا جيد القريحة سريع الخاطر، ومن شعره:

يا صاح لا تعرض لزوجية ... كل البلا من أجلها يعترى

الفقر والذل وطول الأسى ... لست بما أذكره مفترى

ما في فم المرأة شيء سوى ... اشتر لي واشتر لي واشتر

القضاة الفضلاء وأولا الأصليون

عبد الحق بن غالب

بن عطية بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد الله بن

تمام بن عطية بن خالد بن عطية بن خالد بن خفاف بن أسلم بن مكتوم المحاربي

أوليته

من ولد زيد بن محارب بن عطية، نزل جده عطية بن خفاف بقرية قسلة من زاويه غرناطة، فأنسل كثيراً ممن له خطر، وفيه فضل.

حاله

كان عبد الحق فقيها، عالما بالتفسير والأحكام والحديث والفقه، والنحو والأدب واللغة، مقيدا حسن التقيد، له نظم ونثر، ولى القضاء بمدينة ألمرية في المحرم سنة تسع وعشرين وخمسماية، وكان غاية في الدهاء والذكاء، والتهمم بالعلم، سرى الهمة في اقتناء الكتب. توخى الحق، وعدل في الحكم، وأعز الخطة.

مشيخته

روى عن الحافظ أبيه، وأبوي على الغساني والصدفي، وأبي عبد الله محمد بن فرج مولى الطلاع، وأبي المطرف الشعبي، وأبي الحسين بن البيان، وأبي القاسم بن الحصار المقري، وغيرهم.

تواليفه

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين

ألف كتابه المسمى بالوجيز في التفسير فأحسن فيه وأبدع، وطار بحسن نيته كل مطار. وألف برنامجاً ضمنه مروياته، وأسماء شيوخه، وجرز وأجاد.

شعره

قال الملاحي، ما حدثني به غير واحد من أشياخه عنه، قوله:

وليلة جيت فيها الجذع مرتديا ... بالسيف أسحب أذيالا من الظلم
والنجم حيران في بحر الدجا غرق ... والبدر في طيلسان الليل كالعلم
كأنما الليل زنجي بكاهله ... جرح فيثغب أحيانا له بدم

وقال يندب عهد شبابه:

سقياً لعهد شباب ظلت أمرح ... في ريعانه وليالي العيش أسحار
أيام روض الصبا لم تذو أغصنه ... ورونق العمر غض والهوى حمار
والنفس تركض في تضمين ثرتها ... طرفاً له في زمان اللهو إحضار
عهداً كريماً لبسنا منه أردية ... كانت عيوناً ومحيت فهي آثار
مضى وأبقى بقلبيي منه نار أسى ... كوني سلاماً أو برداً فيه يا نار
أبعد أن نعمت نفسي وأصبح في ... ليل الشباب لصبح الشيب أسفار
ونازعتني الليالي وانثت كسراً ... عن ضيغم ماله ناب وأظفار
ألا سلاح خلال أخلصت فلها ... في منهل المجد إيراد وإصدار
أصبو إلى روض عيش روضه خضل ... أو ينثني بي عن اللقيا إقصار
إذا تعطلت كفى من شبا قلم ... آثاره في رياض العلم أزهار

من روى عنه

روى عنه أبو بكر بن أبي جمرة، وأبو محمد بن عبد الله، وأبو القاسم بن حييش، وأبو جعفر بن مضاء، وأبو محمد عبد المنعم، وأبو جعفر ابن حكم، وغيرهم.

مولده: ولد سنة إحدى وثمانين وأربع ماية.

وفاته: توفي في الخامس والعشرين لشهر رمضان سنة ست وأربعين وخمس ماية بمدينة لورقة. قصد مرسية يتولى قضاءها، فصد عنها، وصرف منها إلى لورقة، اعتداء عليه.

عبد المنعم بن محمد

بن عبد الرحيم بن فرج الخزرجي

من أهل غرناطة، يكنى أبا محمد، ويعرف بابن الفرس، وقد تقدم ذكر طايفة من أهل بيته.

حاله

كان حافظاً جليلاً، فقيها، عارفا بالنحو واللغة، كاتبا بارعا، شاعراً مطبوعا، شهير الذكر، عالي الصيت. ولي القضاء بمدينة شقر، ثم بمدينة وادي آش، ثم بجيان، ثم بغرناطة، ثم عزل عنها، ثم وليها الولاية التي كان من مضمن ظهيره بها، قول المنصور له، أُول لك ما قاله موسى عليه السلام لأخيه هرون، إخلفني في قومي، واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين، وجعل إليه النظر في الحسبة، والشرطة، وغير ذلك، فكان إليه النظر في الدماء فما دونها، ولم يكن يقطع أمر دونه ببلده وما يرجع إليه.

وقال ابن عبد الملك، كان من بيت علم وجلالة، مستبحراً في فنون المعارف، على تفاريقها، متحققاً بها، نافذا فيها، ذكي القلب، حافظاً للفقه. استظهر أوان طلبه للكتابين، المدونة، وكتاب سيبويه وغيرهما، وعني به أبوه وجده عناية تامة. وقال أبوة الربيع بن سالم، سمعت أبا بكر ابن الجد، وحسبك شاهدا، يقول غير ما مرة، ما أعلم بالأندلس، أحفظ لمذهب مالك من عبد المنعم بن الفرس، بعد أبي عبد الله بن زرقون.

مشيخته

روى عن أبيه الحافظ أبي عبد الله، وعن جده أبي القاسم، سمع عليهما وقرأ، وعن أبي بكر بن النفيس، وأبي الحسن بن هذيل، وأبي عبد الله ابن سعادة، وأبي محمد عبد الجبار بن موسى الجذامي، وأبي عامر محمد ابن أحمد الشلبي، وأبي العباس أحمد وأخيه أبي الحسن ابني زيادة الله. هذه جملة من لقى من الشيوخ وشافهه وسمع منه، وأجاز له من غير لقاء وبعضهم باللقاء من غير قراءة، ابن ورد، وابن بقى، وأبو عبد الله ابن سليمن التونسي، وأبو جعفر بن قبلال، وأبو الحسن بن الباذش، ويونس بن مغيث، وابن معمر، وشريح، وابن الوحيدي، وأبو عبد الله ابن صاف، والرشاطي، والحميري، وابن واضاح، وابن موهب، وأبو مروان الباجي، وأبو العباس بن خلف بن عيشون، وأبو بكر بن طاهر، وجعفر بن مكي، وابن العربي، ومساعد بن أحمد بن مساعد، وعبد الحق بن عطية، وأبو مروان بن قزمان، وابن أبي الخصال، وعياض ابن موسى، والمازري، وغيرهم.

تواليفه

ألف عدة تواليف، منها كتاب الأحكام، ألفه وهو ابن خمسة وعشرين عاماً، فاستوفى ووفي، واختصر الأحكام السلطانية، وكتاب النسب لأبي عبيد بن سلام، وناسخ القرآن ومنسوخه لابن شاهين، وكتاب المحتسب لابن جنى. وألف كتابا في المسايل التي اختلف فيها النحويون من أهل البصرة ولاكوفة، وكتابا في صناعة الجدل، ورد على ابن غرسية في رسالته في تفضيل العجم على العرب. وكتب بخطه من كتب العربية واللغة والأدب والطب وغير ذلك.

من روى عنه

حدث عنه الحافظ أبو محمد القرطبي، وأبو علي الرندي، وإبنا حوط الله، وأبو الربيع ين سالم، والجم الغفير.

شعره

أبى ما بقلبي اليوم أن يتكتما ... وحسبك بالدمع السفوح مترجما
وأعجب به من أخرس بات مفصحا ... يبين للواشين ما كان مبهما
فكم عبرة في نهر شقر بعثتها ... سباقا فأمسى النهر مختضبا دما
يرجع ترجيع الأنين اضطراره ... كشكوى الجريح للجريح تألما
كملن بصحبي في قوفة الدمع ناثر ... شقايق نعمان على متن أرقما
ولله ليل قد لبست ظلامه ... راداُ بأنوار النجوم منمنما

أناوح فيه الورق فوق غصونها ... فكم أورق منهن قد بات معجما
وممالي إلا للفرقدين مصاحب ... ويا بعد حالي في الصبابة منهما
أبيت شتيت الشمل والشمل فيهما ... جميع كما أبصرت عقدا منظما
فيا قاصداً تدمير عرج مصافحا ... نسألك رسما بالعقيق ومعلما
وأعلم بأبواب السلام صبابتي ... كما كان عرف المسك بالمسك علما
وإن طفت في تلك الأجارع لا تضع ... بحق هواها إن لم تلم مسلما
وما ضرها لو جاذبت ظبية النقا ... فضول رداء قد تغشته معلما
فيثني قضيباً أثمر البدر مايساً ... بحقف مسيل لفه السيل مظلما
وما كنت إلا البدر وافي غمامة ... فما لاح حتى غاب فيها مغيما
وما ذاك من هجر ولكن لشقوة ... أبت أن يكون الوصل منها متمما
فياليتني أصبحت في الشعر لفظة ... ترددني مهما أردت تفهما
ولله ما أذكى نسيمك نفحة ... أأنت أعرت للروض طيباً تنسما
ولله ما أشفى لقاك للجوى ... كأنك قد أصبحت عيسى بن مريما
وما الراح بالماء القراح مشوبة ... بأطيب من ذكراك إن خامرت فما
فمالي وللأيام قد كان شملنا ... جميعاً فأضحى في يديها مقسماً
وما جنيت الطيب من شهد وصلها ... جنيت من التبديد للوصل علقما
وق ذقت طعم البين حتى كأنني ... لألفة من أهواه ما ذقت مطعما
فمن لفؤاد شطره حازه الهوى ... وشطر لإحراز الثواب مسلما
ويا ليت أن الدار حان مزارها ... فلو صح قرب الدار أدركت مغنما
ولو صح قرب الدار لي لجعلته إلى ... مرتقى السلوان والصبر سلما
فقد طال ما ناديت سراً وجهرة ... عسى وطن يدنو بهم ولعلما؟
سلام على من شفني بعد داره ... وأصبحت مشغوفاً بقرب مزاره
ومن هو في عيني ألذ من الكرى ... وفي النفس أشهى من أمان المكاره
سلام عليه كلما ذر شارق ... ينم كعرف الزهر غب فطاره
لعمرك ما أخشى غداة وداعنا ... وقد سعرت في القلب شعلة ناره
وسال على الخدين دمع كأنه ... بقية ظل للروض في جلناره
وعانقت منه غصن بان منعماً ... ولاحظت منه الصبح عند اشتهاره
وأصبحت في أرض وقلبي بغيرها ... وما حال مسلوب الفؤاد مكاره
نأى وجه من أهوى فأظلم أفقه ... وقد غاب عن عينيه شمس نهاره
سل البرق عن شوقي يخبرك بالذي ... ألاقيه من برح الهوى وأواره
وهل هو إلا نار وجدي وكلما ... تنفست عم الجو ضوء شراره
ومن شعره أيضاً رحمة الله عليه:

أقرأ على شنجل سلام ... أطيب من عرفه نسيما
من مغرم القلب ليس ينسى ... منظره الرايق الوسيما
إذا رأى منظرا سواه ... عاف الجنى منه والشميما
وإن أتى مشربا حميدا ... كان وإن راقه ذميما
وقف بنجد وقوف صب ... يستذكر الخدن والحميما
وأندب أركاً بشعب رضوى ... قد رجعت بعدنا مشيما
وأذكر شباباً مضى سريعا ... أصبحت من بعده سقيما
هيهات ولي وجاء شيب ... وكيف للقلب أن يهيما
ما يصلح الشيب غير تقوى ... تحجب عن وجهه الجحيما
في كل يوم له ارتحال ... أعجب به ظاعناً مقيما
ما العمر إلا لديه دين ... قد آن أن يقضى الغريما
فعد إلى توبة نصوح ... وارج إلهاً بنا رحيما
قد سبق الوعد منه حتى ... أطمع ذا الشقوة النعيما

مولده في سنة أربع وعشرين وخمسماية وفاته: عصر يوم الأحد الرابع من جمادى الآخرة سنة سبع وتسعين وخمسماية. وشهد دفنه بباب إليرة الجم الغفير، وازدحم الناس على نعشه حتى حملوه على أكفهم ومزقوه. وأمر أن يكتب على قبره:

عليك سلام الله يا من يسلم ... ورحمته مازرتني تترحم
أتحسبني وحدي نقلت إلى هنا ... ستلحق بي عما قريب فتعلم
فيا لمن يمسي لدنياه مؤثرا ... ويهمل أخراه ستشقى وتندم
فلا تفرحن إلا بتقديم طاعة ... فذاك الذي ينجي غدا ويسلم

ومن غير الأصلين

عبد الحكيم بن الحسين

بن عبد الملك بن يحيى بن باسيو بن تادرت الشمالي اليدرازتيني ثم

الواغديني

أصله من تينملل من نظر مراكش، وانتقل جده عبد الملك مع الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى إقليم بجاية. ونشأ عبد الملك ببجاية، وانتقل إلى تونس في حدود خمسة وثمانين. وورد أبو محمد الأندلس في حدود سبعمائة.

حاله

من تعريف شيخنا أبي البركات: كان من أهل المعرفة، بالفقه وأصوله، على طريقة المتأخرين. وكان مع ذلك رجلا كريم النفس، صادق الهجة، سليم الصدر، منصفا في المذاكرة. قلت يجمع هذا الرجل إلى ما وصفه به، الأصالة ببلده إفريقية، وثبت اسمه في عايد الصلة بما نصه: الشيخ الأستاذ القاضي، يكنى أبا محمد. كان رحمه الله من أهل العلم بالفقه، والقيام على الأصلين، صحيح الباطن، سليم الصدر، من أهل الدين والعدالة والأصالة. بث في الأندلس علم

أصول الفقه، وانتفع به. وتصرف في القضاء في جهات.

مشيخته

منقولا من خط ولده الفقيه أبي عبد الله صاحبنا، الكاتب بالدار السلطانية، قرأ ببلده على الفقيه الصدر أبي علي بن غنوان، والشيخ أبي الطاهر بن سرور، والإمام أبي علي ناصر الدين المشدالي، والشيخ أبي الشمل جماعة الحلبي، والشيخ أبي الحجاج بن قسوم وغيرهم. ومن خط المحدث أبي بكر بن الزيات، يحمل عن أبي الطاهر بن سرور، وعن أبي إسحق بن عبد الرفيع.

تواليفه

من تواليفه: المعاني المبتكرة الفكرية في ترتيب المعالم الفقهية. والإيجاز في دلالة المجاز، ونصرة الحق، ورد الباغي في مسألة الصدقة ببعض الأضحية، والكراس المرسوم بالمباحث البديعة في مقتضى الأمر من الشريعة.

مولده

ببجاية في أحد لجمادى الأولى من عام ثلاثة وستين وستمائة.

وتوفي قاضيا بشالش يوم الجمعة، و الرابع عشر لجمادى الأولى من عام ثلاثة وعشرين وسبعماية. ودفن بجبانة باب إليرة بمقربة من قبر ولي الله أبي عبد الله التونسي. وكانت جنازته مشهورة.

ومن المقرين والعلماء

عبد الملك بن حبيب

بن سليمن بن هرون بن جلهمة بن العباس بن مرداس السلمي

أصله من قرية قورت، وقيل حصن واط من خارج غرناطة، وبها نشأ وقرأ.

حاله

قال ابن عبد البر. كان جماعا للعلم، كثير الكتب، طويل اللسان، فقيها، نحويا، عروضيا، شاعرا، نسابة، إخبارياً. وكان أكثر من يختلف إليه، الملوك وأبناؤهم. قال ابن مخلوف، كان يأتي إلى معالي الأمور. وقال غيره، رأيته يخرج من الجامع، وخلفه نحو من ثلاثمائة، بين طالب حديث، وفرايض، وفقه، وإعراب، وقد رتب الدول عليه، كل يوم ثلاثين دولة، لا يقرأ عليه فيهغا شيء إلا تواليفه، وموطأ مالك. وكان يلبس الخز والسعيد. قال ابن نمير، وإنما كان يفعله إجلالا للعلم، وتوقيرا له. وكان يلبس إلى جسمه ثوب شعر، وكان صواماً قواماً. وقال المغاسي، لو رأيت ما كان على باب ابن حبيب، لزدريت غيره. وزعم الزبيدي، أنه نعى إلى سحنون فاسترجع، وقال مات عالم الأندلس. قال ابن الفرضي، جمع إلى إمامته في الفقه، التبحبح في الأدب، والتفنن في ضروب العلوم، وكان فقيها مفتيا. قال ابن خلف أبو القاسم الغافقي، كان له أرض وزبتون بقرية بيرة من طوق غرناطة، حبس جميع ذلك على مسجد قرطبة. وله ببيرة مسجد ينسب إليه. وكان يهبط من قرية قورت يوم الاثنين والخميس إلى مسجده ببيرة، فيقرأ عليه، وينصرف إلى قريته.

مشيخته

روى عن صعصعة بن سلام، والغازي بن قيس، وزياد بن عبد الرحمن. ورحل إلى المشرق سنة ثمان ومائتين. وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وكانت رحلته من قريته بفحص غرناطة. وسمع فيها من عبد الملك بن الماجشون، ومطرف بن عبد الله، وأصبغ بن الفرج، وابنه موسى، وجماعة سواهم، وأقام في رحلته ثلاثة أعوام وشهورا. وعاد إلى إلبيرة، إلى أن رحله عبد الرحمن بن الحكم إلى قرطبة، في رمضان سنة ثمان عشرة ومائتين.

من روى عنه: سمع منه إبناه محمد وعبد الله، وسعيد بن نمر، وأحمد بن راشد، وإبراهيم بن خالد، وإبراهيم بن شعيب، ومحمد بن قطيس. وروى عنه من عظماء القرطبيين، مطرف بن عيسى، وبقي بن مخلد، ومحمد بن وضاح، والمقامي في جماعة.

تواليفه

قال أبو الفضل عياض بن موسى، في كتابه في أصحاب مالك قال بعضهم، قلت لعبد الملك بن حبيب. كم كتبك التي ألفت، قال ألف كتاب وخمسون كتابا. قال عبد الأعلى، منها كتب المواعظ سبعة، وكتب الفضايل سبعة، وكتب أجواد قريش وأخبارها وأنسابها خمسة عشر كتابا، وكتب السلطان وسيرة الإمام ثمانية كتب، وكتب الباه والنساء ثمانية، وغير ذلك. ومن كتب سماعاته في الحديث والفقه، وتواليفه في الطب، وتفسير القرآن، ستون كتابا. وكتاب المغازي، والناسخ والمنسوخ، ورغايب القرآن، وكتاب الرهون والحدثان، خمسة وتسعون كتابا، وكتاب مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، اثنان وعشرون كتابا، وكتاب في النسب، وفي النجوم، وكتاب الجامع، وهي كتب فيها مناسك النبي، وكتاب الرغايب، وكتاب الورع في المال، وكتاب الربا. وكتاب الحكم والعدل بالجوارح. ومن المشهورات الكتاب المسمى بالواضحة. ومن تواليفه كتاب إعراب القرآن، وكتاب الحسبة في الأمراض، وكتاب الفرايض، وكتاب السخاء واصطناع المعروف، وكتاب كراهية الغناء.

شعره

أنشد ابن الفرضي مما كتب بها إلى أهله من المشرق سنة عشر ومايتين:

أحب بلاد الغرب والغرب موطني ... ألا كل غربي إلي حبيب

فيا جسداً أضناه شوق كأنه ... إذا انتضيت عنه الثياب قضيب

ويا كبداً عادت زمانا كأنما ... يلذغها بالكاويات طبيب

بليت وأبلاني اغترابي ونأيه ... وطول مقامي بالحجاز أجوب

وأهلي بأقصى مغرب الشمس دارهم ... ومن دونهم بحر أجش مهيب

وهول كريه ليله كنهاره ... وسير حثيث للركاب دؤوب

فما الداء إلا أن تكون بغربة ... وحسبك داء أن يقال غريب

فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بأكناف نهر الثلج حين يصوب

وحولي أصحابي وبنتي وأمها ... ومعشر أهلي والرؤوف مجيب

وكتب إلى الأمير عبد الرحمن في ليلة عاشوراء:

لا تنسى لا ينسك الرحمن عاشوراء ... واذكره لا زلت في الأحياء مذكورا

قال الرسول صلاة الله تشمله ... قولا وجدنا عليه الحق والنورا

من بات في ليل عاشوراء ذا سعة ... يكن بعيشه في الحول محبورا

فارغب فديتك فيما فيه رغبتنا ... خير الورى كلم حياً ومقبورا

وفاته

توفي في ذي الحجة سنة ثماني وثلاثين. وقيل تسع وثلاثين ومايتين. قال ابن خلف، كان يقول في دعائه، إن كنت يا رب راضياً عني، فاقبضني إليك قبل انقضاء سنة ثمان وثلاثين، فقبضه الله في أحب الشهور إليه، رمضان من عام ثمانية وثلاثين، وهو ابن أربع وستين سنة، وصلى عليه ولده محمد، ودفن بمقبرة أم سلمة بقبلي محراب مسجد الضيافة من قرطبة. قالوا، والخبر متصل، إنه وجد جسده وكفنه وافرين لم يتغيرا بعد وفاته، بتسع وأربعين سنة، وقطعت من كفنه وافرين لم يتغيرا بعد وفاته، بتسع وأربعين سنة، وقطعت من كفنه قطعة، رفعت إلى الأمير عبد الله. ورثاه أبو عبد الله الرشاش وغيره، فقال:

لئن أخذت منا المنايا مهذبا ... وقد قل فيها من يقال المهذب

لقد طاب فيه الموت والموت غبطة ... لمن هو مغموم الفؤاد معذب

ولأحمد بن ساهي فيه:

مإذا تضمن قبر أنت ساكنه ... من التقى والندى يا خير مفقود

عجبت للأرض في أن غيبتك ... وقد ملأتها حكماً في البيض والسود

قلت، فلو لم يكن من المفاخر الغرناطية إلا هذا الخبر لكفى.

ومن الطارئين عليها

عبد الواحد بن محمد

بن علي بن أبي السداد الأموي المالقي، الشهير بالباهلي

حاله

كان رحمه الله بعيد المدى، منقطع القرين في الدين المتين والصلاح. وسكون النفس، ولين الجانب، والتواضع، وحسن الخلق، إلى وسامة الصورة، وملاحة الشيبة، وطيب القراءة، مولى النعمة على الطلبة من أهل بلده، أستإذا حافلا، منفننا، مضطلعا، إماما في القراءات، حايز خصل السباق إتقانا، وأداء، ومعرفة، ورواية، وتحقيقا. ماهرا في صناعة النحو، فقيها، أصولياً، حسن التعليم، مستمر القراءة، فسيح التحليق، نافعاً، متحبباً، مقوم الأزمنة على العلم وأهله، كثير الخضوع والخشوع، قريب الدمعة، أقرأ عمره، وخطب بالمسجد الأعظم من مالقة أو أخذ عنه الكثير من أهل الأندلس.

مشيخته

قرأ على الأستاذ الإمام أبي جعفر بن الزبير، وكان من مفاخره. وعلى القاضي أبي علي بن أبي الأحوص، وعلى المقرئ الضرير أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن سالم بن خلف السهيلي، والراوية أبي الحجاج ابن أبي ريحانة المربلي. وكتب له بالإجازة العامة، الراوية أبو الوليد العطار، والإمام أبو عبد الله بن سمعون الطائي. وسمع على الراوية أبي عمر عبد الرحمن بن حوط الله الأنصاري، وقرأ على القاضي أبي القاسم، قاسم ابن أحمد بن حسن الحجري الشهير بالسكوت المالقي، وأخذ عن الشيخ الصالح أبي جعفر أحمد بن يوسف الهاشمي الطنجالي، وغيرهم ممن يطول ذكرهم. ويحمل عن خاله ولي الله أبي محمد عبد العظيم ابن ولي الله محمد بن أبي الحجاج ابن الشيخ رحمه

الله.

تواليفه: شرح التيسير في القراءات. وله تواليف غيره في القرآن والفقه.

شعره

حدث الشيخ الفقيه القاضي أبو الحجاج المنتشافري. قال، رأيت في النوم أبا محمد الباهلي أيام قراءتي عليه بمالقة في المسجد الجامع بها، وهو قائم يذكر الناس ويعظهم. فعقلت من قوله، أتحسبونني غنياً فقيرا، أنا فقير، أنا، فاستيقظت وقصصتها عليه، فاستغفر الله، وقال، يا بني حقا ما رأيت. ثم رفع إلى ثاني يوم تعريفه، رقعة فيها مكتوب:

لئن ظن قوم من أهل الدنا ... بأن لهم قوة أو غنا

لقد غلطوا ويحهم بجمع مالهم ... فتاهوا عقولا وعموا أعينا

فلا تحسبوني إلى رأيهم ... فإني ضعيف فقير أنا

وليس افتقاري وفقري معا ... إلى الخلق فما عند خلق غنا

ولكن إلى خالقي وحده ... وفي ذاك عز ونيل المنا

فمن ذل للحق يرقى العلا ... ومن ذل للخلق يلق العنا

وفاته

ببلده مالقة رضي الله عنه، ونفع به. في خامس ذي القعدة من عام خمسة وسبعماية. وكان الحفل في جنازته عظيما. وحف الناس بنعشه، وحمله الطلبة وأهل العلم على رؤوسهم، سكن غرناطة وأقرأ بها.

ومن الكتاب والشعراء في هذا الحرف

عبد الحق بن محمد

بن عطية بن يحيى بن عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن

عطية المحاربي

صاحبنا الكاتب للدولة الغادرة.

حاله

كان هذا الرجل في حال الدعة التي استصحبها، وقبل أن تبعته أيدي الفضول، بعفاف وطهارة، إلى خصل خط، نشط البنان، جلد على العمل. ونظمه وسط، ونثره جمهورى عامى، مبين عن الأغراض. وولي ببلده الخطابة والقضاء ... في الحداثة. ثم انتقل إلى غرناطة، فجاجأت به الكتابة السلطانية باختياري، مستظهرة منه ببطل كفاية، وباذل حمل كلفة، فانتقل رئيسا في غرض إعانتي، وانتشالي من الكلفة، على الضعف وإلمام المرض، والترفع عن الابتذال، والأنفة من الاستخدام، فرفع الكل، ولطف من الدولة محله. ثم لما حال الأمر، وحتم التمحيص، وتسورت القلعة، وانتثر النظم، واستأثر به الاصطناع، كشفت الخبرة منه عن سوءة لا تواري، وعورة لا يرتاب في أشنوعتها ولا يتمارى، فسبحان من علم النفس فجورها وتقواها، إذ لصق بالدايل الفاسق، فكان آلة انتقامه، وجارحة صيده، وأحبولة كيده، فسفك الدما، وهتك الأستار، ومزق الأسباب، وبدل الأرض غير الأرض، وهو يزقه في أذنه، فيؤم النصيحة، ويمحله لقب الهداية، ويبلغ في شد أزره إلى الغاية: عنوان عقل الفتى اختياره. يجري في جميل دعوته. طوالاً، أخرق، بسيء السمع، وينسى الإجابة، بدوياً، قحاً، جهورياً، ذاهلاً عن عواقب الدنيا والآخرة: طرقاً في سوء العهد، وقلة الوفا، مردوداً في الحافزة، منسلخا من آية السعادة، تشهد عليه بالحمل يده، ويقيم عليه الحجج

شرهه، وتبوه هفوات الندم جهالته. ثم أسلم المحروم مصطنعه، أحوج ما كان إليه، وتبرأ منه، ولحقته بعده مطالبة مالية. لقي لأجلها ضغطا، وهو الآن بحال خزي، واحتقاب تبعات، خلصنا الله من ورطات الدنيا والآخرة.

أوليته وشيوخه

وبسط كثير من مجمل حاله حسبما نقلت من خطه.

قال يخاطبني بما نصه:

يا سيداً فاق في مجد وفي شرف ... وفات سبقاً بفضل الذات والسلف
وفاضلا عن سبيل الذم منحرفاً ... وعن سبيل المعالي غير منحرف
وتحفة الزمن الآتي فلقد ... أربى بما حازه منها على التحف
ومعدناً لنفيس الدر فهو لما ... حواه منه لدى التشبيه كالصدف
وبحر بعلم جميع الناس مغترف ... منه ونيل المعالي حظ مغترف
وسابقاً بذ أهل العصر قاطبة ... فالكل في ذاك منهم غير مختلف
من ذا يخالف في نار على علم ... أو يجحد الشمس نوراً وهو غير خف
ما أنت إلا وحيد العصر في شيم ... وفي ذكاء وفي علم وفي ظرف
لله من منتم للمجد منتسب ... بالفضل متسم بالعلم متصف
لله من حسب عد ومن كرم ... قد شاده السلف الأخيار لخلف
أيه أيا من به تبأى الوزارة إذ ... كنت الأحق بها في الذات والشرف
يا صاحب القلم الأعلى الذي جمعت ... فيه المعالي ببعض البعض لم أصف
يا من يقصر وصفي في علاه ولو ... أنسى مديح حبيب في أبي دلف
شرفتني عندما استدعيت من قبلي ... نظما تدونه في أبدع الصحف
وربما راق ثغر في مباسمه حتى ... إذا ناله إلمام مرتشف
أجل قدرك أن ترضى لمنتجع ... بسوء كليلته حظا مع الحشف
هذا ولو أنني فيما أتيت به ... نافحت في الطيب زهر الروضة الأنف
لكنت أفضى إلى التقصير من خجل ... أخليت بالبعض مما تستحق أف
فحسبي العجز عما قد أشرت به ... والعجز حتماً قصارى كل معترف
لكن أجبت إلى المطلوب ممتثلا ... وإن غدوت بمرقى القوم كالهدف
فانظر إليها بعين الصفح عن زلل ... واجعل تصفحها من جملة الكلف
بقيت للدهر تطويه وتنشره ... تسمو من العز باسم غير منصرف

جيتك، أعزك الله، ببضاعة مزجاة، وأعلقت رجاي من قبولك بأمنية مرتجاة، وما مثلك يعامل بسقط المتاع، ولا يرضى له بالحشف مع بخس المد والصاع. لكن فضلك يغضي عن التقصير ويسمح، ويتجاوز عن الخطإ ويصفح، وأنت في كل حال إلى الأدنى من الله أجنح. ولولا أن إشارتك واجبة الامتثال، وللمسارعة إليها مقدمة على ساير الأعمال، لما أتيت بها تمشي على استحياء، ولا عرضت نفسي أن أقف موقف حشمة وحياء، فما مثلي فيما أعرضه عليك، أو أقدمه من هذا الهذر بين يديك، إلا مثل من أهدى الخرز لجالب الدر، أو عارض للوشل موج البحر، أو كاثر بالحصى عدد الأنجم الزهر. على أني لو نظمت الشعرى شعراً، وجبتك بالسحر الحلال نظماً ونثراً، ونافحتك

بمثل تلك الروضة الأدبية، التي تعبق أزاهرها نثرا، لما وصفتك ببعض البعض من نفايس حلاك، ولا وفيت ما يجب من نشر مآثر علاك. فما عسى أن أقول في تلك المآثر العلمية، والذات الموسومة باسم التعريف والعلمية، أو أعبر عنه في وصف تلك المحاسن الأدبية، والمفاخر الحسبية. إن وصفت مالك من شرف الذات، ملت إلى الاختصار، وقلت آية من الآيات. وإن ذهبت إلى ذكر مفاخرك الباهرة الآيات، بلغت في مدى الفخر والحب إلى أبعد الغايات، وإن حليتك ببعض الحلا والصفات، سلبت محاسن الروض الأريج النفحات. فكم لك من التصانيف الرايقة، والبدائع الفائقة، والآداب البارعة، والمحاسن الجامعة، فما شيت من حدايق ذات بهجة، كأنما جادتها سحب نيسان، وجنات ثمراتها صنوان وغير صنوان، تزري ببدايع بديع الزمان، وتخجل الروض كما يخجل الورد ابتسام الأقحوان. نظم كما انتثر الدر، ونثر تتمنى الجوزاء، أن تتقلده والأنجم الزهر، ومعان أرق من نسيم الأسحار، تهب على صفحات الأزهار. فأهلاً بك يا روضة الآداب، ورب البلاغة، التي شمس آياتها لا تتوارى بالحجاب، فما أنت إلا حسنة الزمان، ومالك أزمة البيان، وسباق غايات الحسن والإحسان. وقد وجدت مكان القول ذا سعة في أوصافك، وما في تحليك بالفضائل واتصافك. لكني رأيت أني لو مددت في ذلك باع الإطناب، وأتيت فيه بالعجب العجاب، فليس لي إلا تقصير عن المطاولة وإمساك، والعجز عن درك الإدراك إدراك. إيه أيها السيد الأعلى، والفاضل الذي له في قداح الفخر، القدح المعلى، فإنك أمرت أن أعرض عليك لتعريف بنفسي ومولدي، وذكر أشياخي الذين بأنوارهم أقتدي، فعلمت أن هذا إنما هو تهمم منك بشأني، وجري على معتاد الفضل الذي يقصر عنه لساني، وفضل جميل لا أزال أجري في الثناء عليه ملء عناني. وإلا فمن أنا في الناس حتى أنسب، أو من ينهب إلا أنت هذا المنهب.

أما التعريف بنفسي، فأبدأ فيه باسم أبي. هو أبو القاسم محمد بن عطيه بن يحيى بن عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب ابن عطية المحاربي. وجدي عطية هو الداخل إلى الأندلس عام الفتح، نزل بإلبيرة، وبها تفرع من تفرع من عقبه، إلى أن انتقلوا إلى غرناطة، فتأثل بها حالهم، واستمر بها استيطانهم، إلى حدود المائة السابعة، فتسبب في الانتقال من بقي منهم، وهو جدي الأقرب الأنساب، وقضى ارتحاله إلى مدينة وادي آش، ولك أجل كتاب. وذلك أنه استقضى بنظر ما في دولة أمير المسلمين الغالب بالله، أول ملوك هذه الدولة النصرية، نصر الله خلفها، ورحم سلفها، فاتخذ فيها صهراً ونسبا، وكان ذلك لاستيطانه بها سببا، واستمر مقامه بها إلى أن ارتحل إلى المشرق لأداء الفريضة، فكان إلى أشرف الحالات مرتحله، وقضى في إيابه من الحج أمله. واستمرت به الاستيطان. وتعذرت بعوده إلى غرناطة بعدما نبت فيها الأوطان. على أنه لم يعدم من الله الستر الجميل، ولا حظ من عنايته بإيصال النعمة كفيل، فإنه سبحانه حفظ من سلف فيمن خلف، وجعلهم في حال الاغتراب، فيمن اشتهر بنباهة الحال واتصف، وقبض لمصاهرتهم من خيار المجد والشرف، وبذلك حفظ الله بيتهم، وشمل باتصال النعمة حيهم وميتهم. فالحمد لله، بجميع محامده، على جميل عوايده. وتخلف بوادي آش أبي وأعمامي، تغمدهم الله وإياي برحمته، وجمع شملنا في جنته.

وأما التعريف بهم، فأنت أبقاك الله، بمن سلف قديما منهم أعلم، وسبيلك في معرفتهم أجدى وأقوم، بما وهبكم الله من عوارف المعارف، وجعل لكم من الإحاطة بالتالد منها والطارف. وأما من يقع به تعريف، ممن بعدهم، فمن اقتفى رسمهم في الطريقة العلمية، ولم يتجاوز جدهم وهو جدي أبو بكر عبد الله بن طلحة ورابع أجدادي. كان رحمه الله ممن جرى على سنن آبايه، وقام بالعلم أحسن قيام، ونهض بأعبايه. ألف كتابا في الرقايق، ففات في شأوه سبق السابق، وتصدر ببلده للفتيا، وانتفع به الناس، وكان شيخهم المقدم. ولم أقف على تاريخ مولده ولا وفاته،

غير أنه توفي في حدود المائة الخامسة رحمه الله، وأما من بيني وبينه من الآباء، كجدي الأقرب وأبيه ومن خلفه من بنيه. فما منهم من بلغ رتبة السابق، ولا قصر أيضا عن درجة اللاحق، وإنما أخذ في الطلب بنصيب، ورمى فيه بسهم مصيب.

وأما مولدي فبوادي آش في أواخر عام تسعة وسبع ماية. وفي عام ثلاثة وعشرين، ابتدأت القراءة على الأستاذ أبي عبد الله الطرسوني وغيره ممن يأتي ذكره. ثم كتبت بعد ستة أعوام على من وليها من القضاة أولى العدالة والسير المرتضاة، ولم يطل العهد حتى تقدمت في جامعها الأعظم خطيبا وإماما، وارتسمت في هذه الخطة التي ما زالت على من أحسن تماما، وذلك في أواخر عام ثمانية وثلاثين. ثم وليت القضاء بها، وبما يرجع إليها من النظر، في شهر ربيع الأول من عام ثلاثة وأربعين، واستمرت الولاية إلى حين انتقالي للحضرة، آخر رجب من عام ستة وخمسين، أسأل الله الإقالة والصفح عما اقترفت من خطإ أو زلل، أو ارتكبته من عمد وسهو، في قول أو عمل بمنه.

وأما أشياخي، فإني قرأت بالحضرة على الأستاذ الخطيب أبي الحسن القيجاطي. والأستاذ الخطيب أبي القاسم بن جزى. وبمالقة على الأستاذ القاضي أبي عمرو بن منظور. وبألمرية على الأستاذ القاضي أبي الحسن بن أبي العيش، وسيدي القاضي أبي البركات بن الحاج، والأستاذ أبي عثمن بن ليون، وبوادي آش على الأستاذ القاضي أبي عبد الله بن غالب، والأستاذ أبي عامر بن عبد العظيم. كل هؤلاء قرأت قراءة تفقه، وعرضت على أكثرهم جملة كتب في النحو والفقه والأدب، أكبرها كتاب المقامات للحريري. وأما من لقيته من المشايخ واستفدت، منهم أبو الحسن بن الجياب بالحضرة، وبمالقة القاضي أبو عبد الله بن بكر، والقاضي أبو عبد الله بن عياش، والأستاذ أبو عبد الله بن حفيد الأمين. ومن لقيته لقاء بترك، سيدي أبو جعفر بن الزيات ببلش، وبمالقة الخطيب أبو عبد الله الساحلي، والصوفي أبو الطاهر بن صفوان، والمقري أبو القاسم بن درهم. وبألمرية الخطيب أبو القاسم بن شعيب، والخطيب ابن فرحون. ولقيت أيضا القاضي أبا جعفر بن فركون القرشي، والقاضي الخطيب أبا محمد بن الصايغ. وممن رأيته بوادي آش، وأنا إذ ذاك في المكتب، وأخذت بحظ من التبرك به، سيدي أبو عبد الله الطنجالي نفع الله به. والحمد لله رب العالمين.

شعره

من مطولاته قوله. ومن خطه نقلت:

ألا أيها الليل البطي الكواكب ... متى ينجلي صبح بنيل المسارب
وحتى متى أرعى النجوم مراقبا ... فمن طالع منها على إثر غارب
وحتى متى أرعى النجوم مراقبا ... فمن طالع منها على إثر غارب
أحدث نفسي أن أرى الركب سايرا ... وذنبي يقصيني بأقصى المغارب
فلا فزت من نيل الأماني بطايل ... ولا قمت من حق الحبيب بواجب
وكم حدثتني النفس أن أبلغ المنا ... وكم عللتني بالأماني الكواذب
وما قصرت بي عن زيارة قبره ... معاهد أنس من وصال الكواعب
ولا حب أوطان نبت بي ربوعها ... ولا ذكر خل فيها وصاحب
ولكن ذنوب أثقلتني فهأنا من الوجد قد ضاقت على مذاهب
إليك رسول الله شوقي مجدد ... فيا ليتني يممت صدر الركايب
وأعملت في تلك الأباطح والربى ... سراى مجداً بين تلك السباسب

وقضيت من لثم البقيع لبانتي ... وجبت الفلى ما بين ماش وراكب
ورويت من ماء زمزم غلتي ... فلله ما أشهاه يوماً لشارب

حبيبي شفيعي منتهى غايتي التي ... أرجى ومن يرجوهن ليس بخايب
محمد المختار والحاشر الذي ... بأحمد حاز الحمد من كل جانب
رؤوف رحيم خصه الله باسمه ... وأعظم لاج في الشاء وعاقب
رسول كريم رفع اله قدره ... وأعلى له قدرا رفيع الجوانب
وشرفه أصلاً وفرعاً ومحتداً ... يزاحم آفاق السهى بالمناكب
سراج الهدى ذو الجاه والمجد والعلا ... وخير الورى الهادي الكريم المناسب
هو المصطفى المختار من آل هاشم ... وذو الحسب العدل الرفيع المناصب
هو الأمد الأقصى هو الملجأ الذي ... ينال به مرغوبه كل راغب
إمام النبيين الكرام وإنه لكالبدر فيهم بين تلك المواكب
بشير نذير مفضل متطول ... سراج منير بذ نور الكواكب
عظيم المزايا ما له من مماثل ... كريم السجايا ماله من مناسب
ملاد منيع ملجأ عاصم لمن ... يلوذ به من بين آت وذاهب
حليم جميل الخلق والخلق ما له ... نظير وصف الله حجة غالب
ناهيك من فرع لمته أصوله ... إلى خير مجد من لؤى بن غالب
أولى الحسب العد الرفيع جنابه ... بدور الدياجي أو بدور الركايب
له معجزات مالها من معارض ... وآيات صدق ما لها من مغالب
تهدي بهن الخلق شرقا ومغربا ... وما ذاك عمن حاد عنها بعايب
فدونكها كالأنجم الزهر عدة ... ونور سنى لا تختفي للمراقب
فإحصارها مهما تتبعت معوز ... وهل بعد نور الشمس نور لطالب
لقد شرف الله الوجود بمرسل ... له في مقام الرسل أعلى المراتب
وشرف شهراً فيه مولده الذي ... جلا نوره الأسنى دياجي الغياهب
فشهر ربيع في الشهور مقدم ... فلا غرو أن للفخر ضربة لازب
فلله منه ليلة قد تلألأت ... بنور شهاب نير الأفق ثاقب
ليهن أمير المسلمين بها المنا ... وإن نال من مولاه أسنى الرغايب
على حين أحياها بذكر حبيبه ... وذكر الكرام الطاهرين الأطايب
وألف شملاً للمحبين فيهم ... فسار على نهج من الرشد لاحب
فسوف يجازي عن كريم صنيعه ... بتخليد سلطان وحسن عواقب
وسوف يريه الله في لهم دينه ... غرايب صنع فوق كل الغرايب
فيحمي حمى الإسلام عمن يرومه ... بسمر العوالي أو بيض القواضب
ويعتز دين اله شرقا ومغربا ... بما سوف يبقى ذكره في العجايب
إلا هي مالي بعد رحماك مطلب ... أراه بعين الرشد أسنى المطالب

سوى زورة القبر الشريف وإنها ... لموهبة فاتت جميع المواهب
عليه سلام الله مالح كوكب ... وما فارق الإظعان حادي الركايب
وقال في غرض المدح والتهنئة بعرض الجيش، وتضمن ذلك وصف حاله في انتقاله إلى الحضرة:
يا قاطع البيد يطوى السهل والجبلا ... ومنضيا في الفيافي الخيل والإبلا
يبكي في آفاق أرض لا يونسه ... إلا تذكر عهد للحبيب خلا
أو ظبية أذكرت عهد التواصل تحكي ... اللحاظ التي عاهدت والمقلا
أستغفر الله في تلك اللحاظ فقد ... أربى بها الحسن عن ضرب المها مثلا
أو هادل فوق غصن البان تحسبه ... صبا لفقد حبيب بان قد ثكلا
أو لامع البرق إذ تحكى إنارته ... كفا خضيباً مشيرا بالذي عذلا
مإذا عسى أن يقضي من زمانك في ... قطع المهامه ترجو أن تنال علا
وكم معالم أرض أو مجاهلها ... قطعتها لا تمل الريث والعجلا
إن كنت تأمل عزاً لا نظير له ... وتبتغي السؤل فيما شيت والأملا

فالعز مرسي بعيد لا ينال سوى ... بعزم من شد عزم البين وارتحلا
والدر في صدف قلت نفاسته ... ولم يبن فخره إلا إذا انتقلا
فاربأ بنفسك عن أهل وعن وطن ... ...
وانس الديار التي منها نأى وطني ... وعهد أنس به قلب المحب سلا
وعد عن ذكر محبوب شغفت به ... ولا تلم به مدحا ولا غزلا
واقصد إلى الحضرة العليا وحط بها ... رحلاً ولا تبغ عن أرجائها حولا
غرناطة لا عفا رسم بها أبداً ... ولا سلا قلب من يبغي بها بدلا
فهي التي شرف الله الأنام بمن ... في مقعد الملك من حمرائها نزلا
خليفة الله مولانا وموئلنا ... وخير من أمن الأرجاء والسبلا
محمد بن أبي الحجاج أفضل من ... قد قام فينا بحق الله إذ عدلا
من آل نصر أولى السلك الذي ... بهرت علاه كالشمس لما حلت الحملا
هو الذي شرف الله البلاد ومن ... فيها بدولته إذ فاقت الدولا
أقام عدلا ورفقا في رعيته ... وكان أرحم من آوى ومن كفلا
فهو المجار به من لا مجير له ... لم يخش إحن الليالي فادحا جللا
إن المدائح طرا لا تفي أبدا ببعض ... ما قد تحلا من نفيس علا
بالحزم والفهم والإقدام شيمته ... والجود مما على أوصافه اشتملا
إن قال أجمل في قول وأبدعه ... والفعل أجمل منه كلما فعلا
يولي الجميل ويعطي عز نايله ... من قد رجاه ولا استجدى ولا سألا
من سائلي ع بني نصر فما أحد ... منهم بأبلغ منهم كلما فعلا
يولي الجميل ويعطي عز نايله ... من قد رجاه ولا استجدى ولا سألا
من سائلي عن بني نصر فما أحد ... منهم بأبلغ منهم كلما سئلا

هم الذين إذا ما استمنحوا منحوا ... أسنى العطا وأبدوا بعده الخجلا
هم الإلى مهدوا أرجاء أندلس ... إذ حكموا في الأعادي البيض والأملا
فإن تسل عنهم يوم الرهان فلم ... يعدل بأحدثهم في سنه بطلا
من ذا يجاريهم في كل مكرمة ... أيشبه البحر في تمثيله الوشلا
مولاي يا خير من للنصر قد رفعت ... راياته ولواء الفخر قد حملا
لله عيني لما أبصرتك وقد أعددت بين يديك الخيل والخولا
وأنت في قبة يسمو بها عمد ... أقام منا دامر الدين فاعتدلا
والجيش يعش عيون الخلق منظره ... لما اكتسى منك نور الحق مكتملا
لا غرو أن شعاع الشمس يشمل ما ... أضحى عليه إذا ما لاح منسدلا
وراية النصر والتأييد خافقة ... قد أسبل الله منها النصر فانسدلا
والخيل قد كسيت أثواب زينتها ... فمن براقعها قد ألبست حللا
ترى الحماة عليها يوم عرضهم ... يمشون من فرط زهو مشية الخيلا
فمن رماة قسي العرب عدتها ... تحكي الأهلة مهما نورها اكتملا
ومن كماة شداد البأس شأنهم ... أن يعملوا البيض والخطية الذبلا
بسعدك انتظمت تلك الجيوش لأن ... أسهمت في نظمها أسلافك الأولا
وخلد الله ملكا أنت ناصره ... ما عاقبت بكر من دهرنا الأصلا
لا زلت تزداد بها نعمى مضاعفة ... لتملأ الأرض منها السهل والجبلا
ومن ذلك قوله:
يا عاذلي في الهوى أقصر عن العذل ... وعن حديثي مع المحبوب لا تسل
فكيف أصغي إلى عذل العذول وقد ... تقلص القلب مني صايد المقل
تملكته كما شاءت بنظرتها ... فتانة الطرف والألحاظ تنهدل

معبرة عن نفيس الدر فاضحة ... بقدها الغض المياس في الميل
من نور غرتها شمس تروق سنى ... تحتل منها محل الشمس في الحمل
يا حبذا عهدنا والشمل منتظم ... بجانب الغور في أيامنا الأول
أيام أعين هذا الدهر نائمة ... عنا وأحداثه منا على وجل
وحبذا أربع قد طال ما نظمت ... عقد التواصل في عيش بها خضل
قضيت منها أماني النفس في دعة ... من الزمان موفى الأنس والجذل
سطى الغمام رباها كل منهمر ... وكم سطتها دموعي كل منهمل
وجادها من سماء الجود صوب حياً ... بالعارض الهطل ابن العارض الهطل
خليفة الله والماحي بسيرته ... رسم الضلا ومحيي واضح السبل
محمد بن أبي الحجاج أفضل من ... سارت أحاديث علياه سرى المثل
والباعث الجيش في سهل وفي جبل ... حتى تغص نواحي السهل والجبل
من آل نصر أولى الفخر الذين لهم ... مزية أورثت من خاتم الرسل

مهما أردت غناء في الأمور به ... شاهدت منه جميع الخلق في رجل
لن يستظل بعلياه أخو أمل ... إلا غدا تحت ظل منه منسدل
ولا استجار به من لا مجير له ... إلا كفاه انتياب الحادث الجلل
ينمى إلى معشر شاد الآله لهم ... ملكاً على سالف الأعصار لم يزل
بملكهم قد تحلى الدهر فهو به ... والله واليه لا يخشى من العطل
هم الإلى نصروا أرجاء أندلس ... بالمشرفيات والخطية الذبل
هم الإلى مهدوا دين الهدى فسمت ... في الخلق ملته العليا على الملل
من أمهم صادى الآمال نال بهم ... جودا كفيلا له بالمعل والنهل
أو أمهم ضاحياً أضحى يجر من ... فضل النوال ذيول الوشي والحلل
إن الفضايل أضحت لاسمه تبعاً ... كالنعت والتأكيد والبدل
مولاي خذها تروق السامعين لها ... بما أجادته من مدح ومن غزل
لكنني باعتبار عظم ملكك لم أجد ... لعمري في مدحي ولم أطل
فإن خبرت كذاك الخلق أجمعهم ... سيان محتفل أو غير محتفل
لا زلت فخر ملوك الأرض كلهم ... تسمو بك الدولة العليا على الدول
ودمت للدهر تطويه وتنشره ... مبلغا كلما تبغى من الأمل
ومن ذلك ما نظمه لينقش في بعض المباني التي أنشأها:
أنا مصنع قد فاق كل المصانع ... فما منزل زهى بمثل بدائع
فرسمي إذا حققته واعترته ... لكل المعاني جامع أي جامع
فقد جمع اله المحاسن كلها ... لدي فيا لله إبداع صانع
ظل كما جمعت كل الفضائل في الذي ... بسكناي قد وافاه أيمن طالع
وزير أمير المسلمين وحسبه ... مزية فخر ما لها من مدافع
وذو القلم الأعلى الذي فعله ... لمن يؤمله مثل السيوف القواطع
ومطلع آيات البيان لمبصر ... كشمس الضحى حلت بأسنى المطالع
وإنسان عين الدهر قرت لنابه ... عين وطابت منه ذكرى المسامع
هو ابن الخطيب السيد المنتمى ... إلى كرام سموا ما بين كهل ويافع
لقد كنت لولا عطفة من حنانه ... أعد زمانا في الرسوم البلاقع
فصيرني مغني كريما ومربعا ... لشمل بأنس من حبيبي جامع
فها أنا روض يروق نسيمه ... كما رق طبعاً ما له من منازع
وقد جمعتنا نسبة الطبع عندما ... وقعت لمرآه بأسنى المواقع
فأشبه إزهاري بطيب ثنايه ... وفضل هواي باعتدال الطبايع

فلا زلت معموراً به في مسرة ... معداً لأفراح وسعد مطالع
ولا زال من قد حلني أو يحلني ... موفي الأماني من جميل الصنايع
ودام لمولانا المؤيد سعده ... فمن نوره لنا كل ساطع

وفي التهنئة بإبلال من مرض:

الآن قد قامت الدنيا على قدم ... لما استقل رئيس السيف والقلم

والآن قد عادت الدنيا لبهجتها ... مذ أنست برؤه من طارق الألم

والآن قد عمت البشرى براحته ... فلم تزل للورى من أعظم النعم

لا سيما عند مثلي ممن اتضحت ... منه دلايل صدق غير متهم

فكيف لي وأيادي فضله ملكت ... رقي بما أجزلت من وافر القسم

وصيرتني في أهلي وفي وطني ... وبين أهل النهى ناراً على علم

وأحسبت أملي الأقصى لغايته ... إذ صرت من جاهه المأمول في حرم

ومإذا عسى أن أوفي من ثناي أو ... أنمى إلى مجده من فاضل الشيم

ولو ملكت زمام الفضل طوع يدي ... قصرت في ضمن منثور ومنتظم

يهنيك بشرى قد استبشرت مذ وردت بها لعمرك وهو البر في الضيم

ومذ دعت هذ البشرى بتهنية ... فنحن أولى ومحض العهد والكرم

لا زلت للعزة القعساء لمتطيا ... لمستصحبا لعلاء عبر المنصرم

دمت بدر سنى تهدى إنارته ... في حيث يعضل خطب أو يحار عم

ولا عدمت بفضل الله عافية ... تستصحب النعم المنهلة الديم

وليس لهذا العهد للرجل انتحال لغير الشعر والكتابة. وغير هذا للشعر فراره. فقل أن ينتهي الشعر والكتابة. وغير هذا النمط، فهو بعير ثان، شعراً وشكلاً وبلداً، لطف الله به. وهو لهذا العهد، على ما تقدم من النكبة، واتصال السخط من الدولة، تغمدنا الله وإياه بلطفه، ولا نكص عنا ل عنايته وستره.

مولده: حسبما تقدم من بسط حاله مما قيده بخطه في عام تسعة وسبعماية.

عبد الرزاق بن يوسف

بن عبد الرزاق الأشعري

من أهل قرية الأنجرون من إقليم غرناطة، أبو محمد.

حاله

فقيه أديب كاتب سري، موصوف بكرم نفس، وحسن خلق لقي أشياخا وأخذ عنهم

شعره

يا منعماً ما زال من أمه ... يرفل في السابغ من أميته

ويا حساماً جردته العلا ... فربع صرف الدهر من سكوته

عبدك قد ساءت هنا حاله ... شوقا لمن خلف من إخوته

شوقها يبث الجمر في قلبه ... ويخلع للعهد على مقلته

فسكن المؤلم من شوقه ... وانسى المقلق من وحشته

وامنن عليه ببلوغ المنا ... في علمكم من مقتضى بغيته

وها كها نفشة ذي خجلة ... تفهم ما يلقيه من نفثته

إذا شدا مداحكم ساجعاً ... يحسده الطيار في نغمته

وفاته: سنة إحدى وسبعين وخمسماية عن سن عالية.

عبد الملك بن سعيد ين خلف العنسي

من أهل قلعة يحصب من عمل إلبيرة.

حاله ونسبه

هو عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد ابن الحسن بن عثمن بن محمد بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان عينا من أعيان الأندلس، مشاراً إليه في البيت والرأي، والجزالة والفضل، علقت به الآمال، ورفعت إليه الممادح، وحطت لديه الرحال، وكان من أولى الجلالة والنباهة، والطلب والكتابة الحسنة، والخط البارع. واشتمل على حظوة الأمير يحيى بن غانية اللمتوني، وكتب عنه. بلده قلعة بني سعيد، فثقفها، وجعل بها أكبر بنيه عبد الرحمن ضابطا لها وحارسا، فحصنها أبو مروان ومهدها بالعمارة، فكانت في الفتنة مثابة وأمنا. وحرزا له ولبنيه، فانجلت الناس إليها من كل مكان. ولما قبض ابن غانية على القمط مرين وأصحابه النصارى عندما وصلوا لاستجاز الوعد في الخروج عن جيان، وتحصلوا بيده بإشارة عبد الملك ابن سعدي، حسبما ثبت في اسم الأمير يحيى، ثقفهم بالقلعة بيد ثقته المذكور وأمينه أبي مروان، فتحصلوا في معقل حريز، عند أمير وافر العقل، سديد الرأي. ومات ابن غانية بغرناطة لأيام قلائل، واختلف قومه، فنظر أبو مروان لنفسه، وعاهد القمط مرين ومن معه من الزعماء على عهود، أخذها عليهم وعلى سلطانهم، أن يكون تحت أمن وحفظ طول مدته، فأجريت القلعة في الأمن والحماية، وكف أيدي التعدي مجرى ما لملك النصرى من البلاد، فشمل أهلها الأمن، واتسعت فيها العمارة، وتنكبتها النكبات، تحاشتها الغارات. ولم يزل أبو مروان بها إلى أن دخل في أمر الموحدين. ووصل هو وابنه إلى السيد أبي سعيد بغرناطة، وحضر معه غزوة ألمرية، ثم دخل بجملته، فكمل له الأمن، وأقر على القلعة، وأمر بسكني غرناجة بولده. ثم وصل ثانية إلى مراكش صحبة السيد أبي سعيد، ولقي من إلبير ولطف المكانة عادته، واستكتب ابنه أحمد بن أبي مروان الخليفة في هذه الوجهة، وانتظم في جملة الكتاب والأصحاب.

محنته

وعاد أبو مروان وبنوه إلى غرناطة صحبة واليها السيد أبي سعيد، فبقى في جملة العسكر عند دخول ابن مردنيش وصهره غرناطة، وقد اضطربت الفتنة، وفسد ما بين السيد وبين أبي جعفر بن أبي مروان منهم، بما تقدم في اسمه من حديث حفصة. ولما ظهرت دلايل التغير، وخافوا على أنفسهم، أداروا الرأي في الانحياز إلى خدمة ابن مردنيش، ونهاهم والدهم أبو مروان، وأشار عليهم بمصابرة الأمر، فلحق عبد الرحمن بالقلعة، وفر أحمد لما انكشف الأمر، وعثر عليه بجهة مالقة، فقتل، وانجرت بسبب ذلك النكبة على عبد الملك وابنه محمد، فبقيا بغرناطة، ومن يشار إليه من أهل بيتهما، واستصفيت أموالهما، واستخلصت ضياعهما، إلى أن ورد كتاب الخليفة أبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن بن علي بإطلاقهم ورد أموالهم، بما اقتضته السياسة من استمالة من نزع منهم عن الطاعة، وأمر عبد الملك باستيلاف نافرهم. ولما هلك ابن مردنيش، ورد من اتصل به صحبة المستأمنين من أولاد الأمير الهالك، فقدموا على رحب وسعة، وثاب جاه أبي مروان، واتصل عزه، واتسعت حظوته، إلى أن هلك بعد أن ولي بمراكش النظر في العدة والأسلحة، والقيام على دار الصنعة.

وفاته: بغرناطة سنة ستين وخمسماية.

عبد العزيز بن علي

بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز بن يست من أهل غرناطة، يكنى أبا سلطان.

حاله

فاضل، حيي، حسن الصورة، بادي الحشمة، فاضل البيت، سريه. كتب في ديوان الأعمال، وترقى إلى الكتب مع الجملة بالدار السلطانية، وسفر في بعض الأغراض الغربية، ولازم الشيخ أبا بكر بن عتيق بن مقدم، من شيوخ الصوفية بالحضرة، فظهرت عليه آثار ذلك في نظمه ومقاصده الأدبية.

شعره

وشعره لا بأس به، ومن أمثله قوله ما أنشد له في ليلة الميلاد الأعظم:

القلب يعشق والمدامع تنطق ... برح الخفاء فكل عضو منطق

قلت، قد ذكرها ابن الخطيب في جملة ما أنشد في الميلاد الأعظم في السفر الخامس، فلا فائدة في تكرارها هنا.

ومما خاطبني به:

أطلت عبت زمان فل من أمل ... وسمته الذم في حل ومرتحل

عاتبته ليلين للعتب جانبه ... فما تراجع عن مطل ولا بخل

فعدت أمنحه العتبى ليشفق بي ... فقال لي إن سمعي عنك في شغل

فالعتب عندي والعتبى فلست أرى ... أصغى لمدحك إذ لم أصغ للعذل

فقلت للنفس كفى عن معاتبة لا ... تنقضي وجواب صيغ من وجل

من يعتلق بالدنا بابن الخطيب فقد ... سما عن الذل واستوى على الجدل

فقلت من لي بتقريبي لخدمته ... فقد أجاب قريبا من جوابك ل

قد اشتغلت عن الدنيا بآخرتي ... وكان ما كان في أيامي الأول

وقد رعيت وما أهملت من منح ... فكيف يختلط المرعى بالهمل

ولست أرجع للدنيا وزخرفها ... بعد شيب غدا في الرأس مشتعل

ألست تبصر أطماري وبعدي عن ... نيل الحظوظ وإعداد إلى أجل

فقال ذلك قول صح مجمله ... لكن من شأنه التفصيل للجمل

ما أنت طالب أمر تستعين به ... على المظالم في حال ومقتبل

ولا تحل حراماً أو تحرم ما ... أحل ربك في قول ولا عمل

ولا تبغ آجل الدنيا بعاجلها ... كما الولاة تبيع السيم بالوشل

وأين عنك الرشا إن كنت تطلبها ... هذا لعمري أمر غير منفعل

هل أنت تطلب إلا أن تعود إلى ... كتب المقام الرفيع القدر في الدول

فما لأوحد أهل الكون قاطبة ... وأسمح الخلق من حاف ومنتعل

لم يلتفت نحو ما تبغيه من وطر ... ولم يشد الذي قد بان من خلل

إن لم تقع نظرة منه عليك فما ... يصبو لديك للذي أملت من أمل

فدونك السيد الأعلى فمطلبكم ... قد نيط منه بفضل غير منفصل

فقد خبرت بني الدنيا بأجمعهم ... من عالم وحكيم عارف دول
فما رأيت له في الناس من شبه ... قل النظير له عندي فلا تسل
فقد قصدتك يا أسمى الورى نسباً ... وليس لي عن علياك من حول
فما سواك لما أملت من أمل ... وليس لي عنك من زيغ ولا ميل
فانظر لحالي فقد رق الحسود لها ... واحسم زمانة ما قد ساء من علل
قدمك لنا ولدين الله ترفعه ... ما أعقبت بكر الإصباح بالأصل
لا زلت معتليا عن كل حادثة ... كما علت ملة الإسلام في الملل
عبد البر بن فرسان

بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحمن الغساني

وادي آشي الأصل. يكنى أبا محمد.

حاله

كان من جلة الأدباء، وفحول الشعراء، وبرعة الكتاب، كتب عن الأمير أبي زكريا يحيى بن إسحق بن محمد بن علي المسوفي الميورقي. الثائر على المنصور بني عبد المؤمن، ثم على من بعده من ذريته إلى أيام الرشيد منهم، وانقطع إليه وصحبه في حركاته. وكان آية في بعد الهمة، والذهاب بنفسه، والعنا، ومواقف الحرب، فإنه دهم في المثل. أشبه امرءاً يعض بزه، فقد كان أليق الناس بصحبة الميورقي، وأنسبهم إلى خدمته.

مشيخته: روى عن أبي زيد بن السهيلي.

بعض أخباره

في البأو والصرامة. حدثنا أبو الحسن بن الجياب عمن حدثه من أشياخه، قال، وجهه الميورقي في عشية يوم من أيام حروبه إلى المأزق. وقد طال العراك، وكاد يكل الناس عن الحرب. إلى أن يباكروها من الغد، فنفذ لما أمر به. ولما بلغ الصدر، اشتد على الناس، وذعر أرباب الحفيظة، وألهى إليهم العزم من أميرهم في الحملة. فانهزم عدوهم شر هزيمة، ولم يعد أبو محمد إلا في آخر الليل بالأسلاب والغنيمة. وقال له ما حملك على ما صنعت. فقال له، الذي عملت هو شأني. وإذا أردت من يصرف الناس عن الحرب ويذهب ريحهم. فانظر غيري.

وحدثني كذلك أن ولدا له صغيرا، تشاجر مع ترب له من أولاد أميره أبي زكريا، فنال منه ولد الأمير. وقال وما قدر أبيك. ولما بلغ ذلك أباه. خرج مغضبا لحينه، ولقي ولد الأمير المخاطب لولده، فقال حفظك الله، لست أشك في أني خديم أبيك. ولكني أحب أن أعرفك بمقداري ومقداره، إعلم أن أباك وجهني رسولا إلى الخليفة ببغداد بكتاب عن نفسه. فلما بلغت بغداد نزلت في دار اكتريت لي بسبعة دراهم في الشهر، وأجرى على سبعة دراهم في اليوم. وطولع بكتابي، وقيل من الميورقي الذي وجهه. فقال بعض الحاضرين، هو رجل مغربي ثائر على أستاذه. وأقمت شهرا، ثم استدعيت إلى الانصراف، ولما دخلت دار الخلافة، وتكلمت مع من بها من الفضلاء، أرباب المعارف والآداب، اعتذروا لي. وقالوا اللخليفة، هذا رجل جهل مقداره، فأعدت إلى محل، اكتريت بسبعين درهما، وأجري على مثلها في اليوم، ثم استدعيت، فودعت الخليفة، واقتضيت ما تيسر من جوابه. وصدر لي شيء له خطر من صلته. وانصرفت إلى أبيك. والمعاملة الأولى كانت على قدر أبيك عند من يعرف الأقدار، والثانية كانت على

قدري والمنة لله. وأخبار ابن فرسان كثيرة.

شعره

وقد نعم الأمير بعمامة بيضاء، ولبس غفارة حمراء على جبة خضراء، فقال:

فديتك بالنفس التي قد ملكتها ... بما أنت موليها من الكرم الغض

توددت للحسن الحقيقي بهجة ... فصار بها الكلى في ذاك البعض

ولما تلألأ نور غرتك التي ... تقسم في طول البلاد وفي العرض

تلقفتها خضراء أحسن ناظر ... نبت عنك إجلالا وذاك من القرض

وأسدلت حمر الملابس فوقها ... بمفرق تاج المجد والشرف المحض

وأصبحت بدرا طالعا في غمامة ... على شفق دان إلى خضرة الأرض

ومن شعره، ولا خفاء ببراعته:

ندى مخضلا ذاك الجناح المنمنما ... وسقياً وإن لم تشك يأسا جعاضما

أعدهن ألحانا على سمع معرب ... يطارح مرتاحا على القضب معجما

وطر غير مقصوص الجناح مرفها ... مسوغ أشتات الحبوب منعما

وقال أيضاً رحمه الله:

كفى حزنا أن الرماح صقيلة ... وأن الشبا رهن الصدا بدمايه

وأن بياذيق الجوانب فرزنت ... ولم يعد رخ الدست بيت بنايه

عبد العظيم بن عمر

بن عبد الله بن حسان الغساني

جلياني من أهل وادي آش، وترد إلى غرناطة، يكنى أبا محمد، وأبا الفضل.

حاله

تجول ببلاد المشرق سائحا، وحج ونزل القاهرة، وكان أديبا، بارعا حكيما، ناظما ناثرا.

تواليفه

وله مصنفات منها جامع أنماط السايل في العروض والخطب والرسايل، أكثر كلامه فيه نظما ونثرا.

مشيخته ومن روى عنه. روى عنه أبو الحسن علي بن عبد الله ابن عبد الرحيم الخطيب بضريح الخليل، وأبو عبد الله بن يحيى المرسي.

شعره

قال من شعره:

ألا إنما الدنيا بحار تلاطمت ... فما أكثر الغرقى على الجنبات

وأكثر من لاقيت يغرق إلفه ... وقل فتى ينجو من الغمرات

وفاته: سنة ثلاث وستماية.

/ومن الغرباء

عبد المهيمن بن محمد الحضرمي

بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن محمد الحضرمي يكنى أبا محمد، شيخنا الرئيس صاحب القلم الأعلى بالمغرب.

حاله

من عائد الصلة: كان رحمه الله خاتمة الصدور ذاتاً وسلفاً وتربية وجلالة. له القدح المعلى في علم العربية، والمشاركة الحسنة في الأصلين، والإمامة في الحديث، والتبريز في الأدب والتاريخ واللغة، والعروض والمماسة في غير ذلك. نشأ فارس الحلبة، وعروس الوليمة، وصدر المجلس، ووفور الجاه والإغراق في النعمة، كثير الاجتهاد والملازمة، والتفنن والمطالعة، مقصور الأوقات على الإفادة والاستفادة، إلى أن دعته الدولة المرينية بالمغرب، إلى كتابة الإنشاء، فاشتملت عليه اشتمالاً، لم يفضل عنه من أوقاته، ما يلتمس فيه ما لديه، واستمرت حاله، موصوفاً بالنزاهة والصدق، رفيع الرتبة، مشيد الحظوة، مشاركاً للضيف فاضلاً، مختصر الطعمة والحلية، يغلب عليه ضجر يكاد يخل به، متصل الاجتهاد والتقييد، لا يفتر له قلم، إلى أن مضى بسبيله.

وجرى ذكره في الإكليل الزاهر من تأليفنا بما نصه: تاج المفرق وفخر المغرب على المشرق، أطلع منه نور أضاءت له الآفاق، وأثرى منه بذخيرة حملت أحاديثها الرفاق. ما شيت من مجد سامي المصاعد والمراقب، عزيز عن لحاق المجد الثاقب، وسلف زينت سماؤث بنجوم المناقب. نشأ بسبتة بين علم يفيده، وفخر يشيده، وطهارة يلتحف مطارفها، ورياسة يتفيأ وارفها، وأبوه رحمه الله قطب مدارها، ومقام حجها واعتمارها، فسلك الوعوث من المعارف والسهول، وبذل على حداثة سنه الكهول، فلما تحلى من الفوايد العلمية بما تحلى، واشتهر اشتهار الصباح إذا تجلى، تنافست فيه همم الملوك الأخاير، واستأثرت به الدول على عادتها في الاستئثار بالذخاير، فاستقلت بالسياسة ذراعه، وأخدم الذوابل والسيوف يراعه، وكان عين الملك التي بها يبصر، ولسانه الذي به يسهب أو يختصر. وقد تقدمت له إلى هذه البلاد الوفادة، وجلت به عليها الإفادة، وكتب عن بعض ملوكهان وانتظم في عقودها الرفيعة وسلوكها، وله في الأدب الراية الخافقة، والعقود المتناسقة.

مشيخته

قرأ ببلدة سبتة على الأستاذ الإمام أبي إسحق الغافقي المديوني، وعلى الأستاذ المقري أبي القاسم محمد بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الطيب، والأستاذ النحوي أبي بكر بن عبيدة الإشبيلي، وعلى الأستاذ العارف أبي عبد الله محمد بن عمر بن الدارج التلمساني، وعلى ابن خال أبيه الأمير الصالح أبي حاتم العزفي، والعدل الرضا أبي فارس عبد الرحمن ابن إبراهيم الجزيري.

وقرأ بغرناطة على الشيخ العلامة أبي جعفر بن الزبير، وروى عن الوزير الراوية أبي محمد عبد الله المرادي ابن المؤذن وعلى الأستاذ أبي بكر القللوسي. وأخذ عن الشيخ الوزير أبي الوليد الحضرمي القرطي. وممالقة عن الإمام الولي أبي عبد الله الطناجلي. وببلش عن الخطيب الصالح أبي جعفر بن الزيات، وعن الخطيب أبي عبد الله بن شعيب المروي، والعلامة أبي الحسين بن أبي الربيع، وأبي الحكم بن منظور، وابن الشاطج وابن رشيد، وابن خميس، وابن برطال، وابن ربيع، وابن البنا، وسميه ابن البنا المالقي، وابن خميس النحوي، وأبي أمية بن سعد السعود بن عفير الأمدي. هؤلاء كلهم لقيهم وسمع منهم، وأجازوا له ما عندهم. وممن أجاز له مشافهة أو مكاتبة من أهل المغرب، الأستاذ أبو

عبد الله محمد بن عمر الأنصاري التلمساني ابن الدارج، والكاتب ابو علي الحسين بن عنيق، وتناول تواليفه، والأديب الشهير أبو الحكم مالك بن المرحل، والشريف أبو عبد الله محمد بن يحيى بن أبي الشرف الحسيني، وأبو بكر بن خليل السكوني، وأبو العباس المطري، والجزاري، وشرف الدين بن معطي، وابن الغماز، وابن عبد الرفيع القاضي، وأبو الشمل جماعة بن مهيب، وأبو عبد الله محمد بن أحمد التجاني وأبناء عمه عمر وعلي، وابن عجلان، ومحمد بن إبراهيم القيسي السلولي ومحمد بن حماد اللبيدي، وابن سيد الناس، وابنه أبو الفتح، وابن عبد النور، والمومناني، والخطيب ابن صالح الكتاني، وابن عياش المالقي، والمشدالي، وابن هرون، والخلاسي، والدباغ، وابن سماك، وابن أبي السداد، وابن رزين، وابن مستقور، وأبو الحسن بن فضيلة، وأبو بكر بن محزز. وكتب له من أهل المشرق جماعة منهم: الأبرقيشي وابن أبي الفتح الشيباني، وابن حمادة، وابن الطاهري، وابن الصابوني، وابن تيمية، وابن عبد المنعم المفسر، وابن شيبان، وابن عساكر، والرضى الطبري، وابن المخزومي، وابن النحاس. قلت من أراد استيفاءهم ينظر الأصل. فقد طال على استيفاء ما ذكره الشيخ رحمه الله وقد ذكر جماعة من النساء، ثم قال بعد تمام ذلك، ولو قصدنا الاستقصاء لضاق عن مجاله المتبع.

شعره

وشعره متخل عن محله من العلم والشهرة، وإن كان داخلاً تحت طور الإجادة.

فمن ذلك قوله:

تراءى سحيراً والنسيم عليل ... وللنجم طرف بالصباح كليل
وللفجر بحر خاضه الليل فاعتلت ... شوى أدهم الظلماء منه خجول
بريق بأعلى الرقمتين كأنه ... طلائع شهب في السواد تجول
فمزق ساجي الليل منه شرارة ... خرق ستر الغيم منه نصول
تبسم ثغر الروض عند ابتسامه ... وفاضت عيون للغمام همول

ومالت غصون البان نشوى كأنها ... يدار عليها من صباه شمول
وغنت على تلك الغصون حمايم ... لهن حفيف فوقها وهديل
إذا سجعت في لحنها ثم قرقرت ... يطيح خفيف دونها وثقيل
سقى الله ربعاً لا تزال تشوقني ... إليه رسوم دونه وطلول
وجاد رياه كلما ذر شارق ... من الودق هتان أجش هطول
ومالي استسقي الغمام ومدمعي ... سفوح على تلك العراص همول
وعاذلة ظلت تلوم على السرى ... وتكثر من تعذالها وتطيل
تقول إلى كم ذا فراق وغربة ... ونأي على ما خيلت ورحيل
ذريني أسعى لنتى تكسب العلا ... سناء وتبقى الذكر وهو جميل
فإما تريني من ممارسة الهوى ... نحيلاً فحد المشرفي نحيل
وفوق أنابيب اليراعة صفرة ... تزين وفي قد القناة ذبول
ولولا السرى لم يجتل البدر كاملاً ... ولا بات منه للسعود نزيل
ولولا اغتراب المرء في طلب العلا ... لما كان نحو المجد منه وصول
ولولا نوال ابن الحكيم محمد ... لأصبح ربع المجد وهو محيل

وزير سما فوق السماك جلالة ... وليس له إلا النجوم قبيل
من القوم أما في الندى فإنهم ... هضاب وأما في الندى فسيول
حووا شرف العلياء إرثاً ومكسباً ... وطابت فروع منهم وأثول
وماجونة هطالة ذات عيجب ... مرتها شمال مرجف وقبول
لها زجل من رعدها ولوامع ... من البرق عنها للعيون كلول
كما هدرت وسط القلاص وأرسلت ... شقاشقها عند الهياج فحول
بأجود من كف الوزير محمد ... إذا ما توالت لسنين محول
ولولا روضة بالحسن طيبة الشذا ... ينم عليها إذخر وجليل
وقد أذكيت للزهر فيها مجامر ... تعطر منها للنسيم ذيول
وفي مقل النوار للظل عبرة ... ترددها أجفانها وتحيل
بأطيب من أخلاقه الغر كلما ... تفاقم خطب للزمان يهول
حويت أبا عبد الآه مناقباً ... تفوت يداً من رامها وتطول
فغرناطة مصر وأنت خصيبها ... ونائل يمناك الكريمة نيل
فذاك رجال حاولوا درك العلا ... ببخل وهل نال العلاء بخيل
تخيرك المولى وزيراً وناصحاً ... فكان له ما أراد حصول
وألقى مقاليد الأمور مفوضاً ... إليك فلم يعدم يمينك سول
وقام بحفظ الملك منك مؤيد ... نهوض بما أعيا سواك كفيل
وساس الرعايا منك أروع باسل ... مبيد العدا للمعتفين منيل
وأبلج وقاد الجبين كأنما ... على وجنتيه للنضار مسيل
تهيم به العلياء حتى كأنها ... بثينته في الحب وهو جميل
له عزمات لو أعير مضاءها ... حسام لما نالت ظباه فلول
سرى ذكره في الخافقين فأصبحت ... إليه قلوب العالمين تميل
وأعدى قريضي جوده وثناؤه ... فأصبح في أقصى البلاد يجول
إليك أيا فخر الوزارة أرقلت ... برحلي هوجاء النجاء ذلول
فليت إلى لقياك ناصية الفلا ... بأيدي ركاب سيرهن ذميل
تسددني سهماً لكل ثنية ضوامر ... أشباه القسى نحول
وقد لفظتني الأرض حتى رمت إلى ... ذراك برجلي هوجل وهجول
فقيدت أفراسي به وركائبي ... ولذ مقام لي به وحلول
وقد كنت ذا نفس عزوف وهمة ... عليها لأحداث الزمان ذحول
ويهوى العلا حظي ويغري بضد ... لذاك اعترته رقة ونحول

وتأبى لي الأيام إلا إدالة ... فصونك لي إن الزمان مديل
فكل خضوع في حمامك عزة ... وكل اعتزاز قد عداك خمول
وهي طويلة، ومن شعره في الحنين إلى وطنه سبتة

سقى ثرى سبتة بين البلاد ... وعهدها المحبوب صوب العهاد
وجاد منهل الحيا ربعها ... بوبله تلك الربى والوهاد
وكم لنا في طورسينائها ... من رائح للأنس في إثر غاد
وعينها البيضاء كم ليلة ... بيضاء فيها قد خلت لو تعاد
وبالمنارة التي نورها ... لكل من ضل دليل وهاد
نروح منها مثلما نغتدي ... للأنس والأفراح ذات ازدياد
في فتية مثل نجوم الدجى ... ما منهم إلا كريم جواد
ارتشفوا كأس الصفا بينهم ... وارتضعوا أخلاف محض الوداد
ويا لأيام بنيولش لقد ... عدت عنها صروف العواد
أدركت من لبنى بها كلما ... لبانة وساعدتني سعاد
ونلت من لذات دهري الذي ... قد شيته وللأماني انقياد
منازل ما إن على مبدل ... هاء مكان اللام فيها انتقاد
سلوتها مذ ضمني بعدها ... نادي الوزير ابن الحكيم الجواد
ومن المقطوعات قوله:
أبت همتي أن يراني امرؤ ... على الدهر يوماً له ذا خضوع
وما ذاك إلا لأني اتقيت ... بعز القناعة ذل القنوع
ومن ذلك في المشط والنشفة من آلات الحمام:
إني حسدت المشط والنشفة الذي ... لهما مزايا القرب دوني مخلصه
فأنامل من ذا تباشر صدغه ... ومراشف من ذا تقبل أخمصه
نشره

وقع هنا بياض مقدار وجهة في أصل الشيخ.
مولده
ولد ببلدة سبتة في عام ستة وسبعين وستماية.
وتوفي بتونس في الثاني عشر لشوال من عام تسعة وأربعين وسبعماية في وقيعة الطاعون العام، بعد أن أصابته نبوة في مخدومه السلطان أبي الحسن. ثم استعتبه وتلطف له. وكانت جنازته مشهورة، ودفن بالزلاج من جبانات خارج تونس رحمه الله.
عبد المهيمن بن محمد الأشجعي

البلنوذي

نزيل مراكش
حاله

من كتاب المؤتمن، قال، كان شاعراً مكثراً، سهل الشعر، سريعه، كثيراً ما يستجدي به، وكان يتقلد مذهب أبي محمد علي بن حزم الفقيه الظاهري، ويصول بلسانه على من نافره. دخل الأندلس، وجال في بلادها. بعد دخوله مراكش. وكان أصله من بلذوذ. ورد مالقة أيام قضاء أبي جعفر بن مسعدة، وأ " ال بها لسانه، فحمل عليه هنالك حملاً أذاه، إلى أن كان مآل أمره ما أخبرني به شيوخ مالقة، وانسيته الآن، فتوصل إلى مآل أمره من جهة من بقي بها الآن من الشيوخ، نقلت اسمه ونسبه من خطه.

شعره

أما على ذي شرك ... في صيدنا من درك
تصيدنا لواحظ ... وما لها من حرك
والبدر إن غاب فمن ... يجلو ظلام الحلك
قد تاب القلب فما ... يدري إن لم تدرك
عدا السقام أو عدا ... وعد الذي لم يأفك
أو لن يكن حل دمي ... فلتبطي أو أترك
حاربت من لا قدرة ... لديه في المعترك
يفل غرب سيفه ... سيف لحاظ فتك
يا لفتى يا قبلتي ... يا حجتي يا نسك
إن عظم الحزن فما ... أرجل حسن فلك
أو أهديت الحي ... فلإبن عبد الملك
خطيب ومران للذي ... سلك على سلك
ركن التقا محمد ... ذو النبل والطبع الزك
منفرد في جوده ... بماله المشترك
يا نوق هذا بابه ... فهو أجل مبرك
وأنت يا حادية ... قربت ما أسعدك
فبركي وكبري ... وابركي وبرك

فقد أتينا بشراً ... له صفات الملك
كفك يهمى ملكت ... كأنها لم تملك
قصيدتي لو لم تنل ... منك حلى لم تسبك
أبكيت ديمة الندا ... فزهرها ذو ضحك
لكنني يا سيدي ... من فاقتي في شرك

وشعره على هذه الوتيرة. حدثني أبي، قال رايته رجلاً طوالاً، شديد الأدمة، حليق الرأس، دمينه، عاريه، كثير الاستجداء، والتهاتر مع المحابين من أدباء وقته، يناضل عن مذهب الظاهرية بجهده.

وفاته

من خط الشيخ أبي بكر بن شبرين، وفي عام سبعة وتسعين وستماية توفي بفاس الأديب عبد المهيمن المكناسي، المكتني بأبي الجيوش البلذوذي، وكان ذا هذر وخرق، طوافاً على البلاد، ينظم شعراً ضعيفاً، يستمنح به الناس، وآلت حاله إلى أن سعى به لأبي فارس عزوز الملزوزي الشاعر، شاعر السلطان أبي يعقوب وخديمه، وذكر له أنه هجاه، فألقى إلى السلطان ما أوجب سجنه، ثم ضربت عنقه صبراً، نفعه الله.

عبد العزيز بن عبد الواحد

بن الملزوزي

من أهل العدوة الغربية، يكنى أبا فارس، ويعرف بعزوز.

حاله

كان شاعراً مكثراً سيال القريحة، منحط الطبقة، متجنداً، عظيم الكفاية والجرأة، جسوراً على الأمرا، علق بخدمة الملوك من آل عبد الحق وأبنايهم، ووقف أشعاره عليهم، وأكثر النظم في وقايعهم وحروبهم، وخلط المعرف باللسان الزناتي في مخاطباتهم، فعرف بهم، ونال عريضاً من دنياهم، وجماً من تقريبهم. واحتل بظاهر غرناطة في جملة السلطان، أمير المسلمين أبي يعقوب، وأمير المسلمين أبيه، واستحق الذكر بذلك.

شعره

من ذلك أرجوزة نظمها بالخضراء في شوال سنة أربع وثمانين وستماية، ورفعها إلى السلطان أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق، سماها: بنظم السلوك، في الأنبياء والخلفاء والملوك لم يقصر فيها عن إجادة.

ومن شعره: قال مخبراً عن الأمير أبي مالك عبد الواحد ابن أمير المسلمين أبي يوسف:

دعاني يوماً والسما قد ارتدت بالسحايب ... والغيث يبكي بالدموع السواكب
كأنه عاشق صد عنه حبيبه ... ففاضت دموعه عليه وكثر نحيبه
ولم يرق له مدمع ... كأنه لم يبق له فيه مطمع
فكان الوعد حسرته ... والبرق لوعته وزفرته
فقال لي ما أحسن هذا اليوم ... لو كان في غير شهر الصوم
فاقترح غاية الاقتراح علي ... وقال قل فيه شعراً بين يدي

فأنشدته هذه الأبيات:

اليوم يوم نزهة وعقار ... وتقرب الآمال والأوطار
أو ما ترى شمس النهار قد اختفت ... وتسترت عن أعين النظار
والغيث سح غمامه فكأنه ... دنف بكى من شدة التذكار
والبرق لاح من السماء كأنه ... سيف تألق في سماء غبار
لا شيء أحسن فيه من نيل المنا ... بمدامته تبدو كشعلة نار
لولا صيام عاقني عن شربها ... لخلعت في هذا النهار عذار
لو كان يمكن أن يعار أعرته ... وأصوم شهراً في مكان نهار
لكن تركت سروره ومدامه حتى ... أكون لديه ذا أفكار
ونديرها في الكأس بين نواهد ... تجلو الهموم بنغمة الأوتار

فجفونها تغنيك عن أكواسها ... وخدودها تغنيك عن أزهار

فشكره لما سمعه غاية الشكر، وقال أسكرتنا بشعرك من غير سكر. قال، وأتيته بهذه الأبيات:

أعلمت بعدك زفرتي وأنيني ... وصبابتي يوم النوى وشجون

أودعت إذ ودعت وجداً في الحشا ... ما إن تزال سهامه تصمين

ورقيب شوقك حاضر مترقب ... إن رمت صبراً بالأسى يغرين

من بعد بعدك ما ركنت لراحة ... يوماً ولا غاضت عليك شؤون

قد كنت أبكي الدمع أبيض ناصعاً ... فاليوم تبكي بالدماء جفون

قل للذين قد ادعوا فرط الهوى ... إن شيتم علم الهوى فسلون

إني أخذت كثيره عن عروة ... ورويت سايره عن المجنون

هذي روايتنا عن أشياخ الهوى ... فإن ادعيتم غيرها فأرون

يا ساكني أكناف رملة عالج ... ظفرت بظبيكم الغرير يمين

كم بات في جنح الظلام معانقي ... ومجنت في صفروي إلى مجنون

في روضة نم النسيم بعرفها ... وكذاك عرف الروض غير مصون

والورق من فوق الغصون ترنمت ... فتريك بالألحان أي فنون

تصغي الغصون لما تقول فتنثني ... طرباً لها فأعجب لميل غصون

والأرض قد لبست فلايل سندس ... قد كللت باللؤلؤ المكنون

تاهت على زهر السماء بزهرها ... وعلى البدور بوجهها الميمون

قال أبو فارس، وكان أمير المسلمين أبو يوسف سار إلى مدينة سلا، فبويع بها ولده أبو يعقوب، وذلك في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام أحد وسبعين وستماية، يوم مولد النبي صلى الله عليه وسلم، فأنشدته يوم بيعته هذه القصيدة ورفعتها إليه:

يا ظبية الوعساء قد برح الخفا ... إني صبرت على غرامك ما كفى

كم قد عصيت على هواك عواذلي ... وأناب بالتبعيد منك وبالجفا

حملتني ما لا أطيق من الهوى ... وسقيتني من غنج لحظك فرقفا

وكسوتني ثوب ألنحول فمنظري ... للناظرين عن البيان قد اختفا

هذا قتيلك فارحميه فإنه ... قد صار من فرط النحول على شفا

لهفي على زمن تقضى بالحما ... وعلى محل بالإجيرع قد عفا

أترى يعود الشمل كيف عهدته ... ويصير بعد فراقه متألقا

لله درك يا سلا من بلدة ... من لم يعاين مثل حسنك ما اشتفا

قد حزت براً ثم بحراً طامياً ... وبذاك زدت ملاحة وتزخرفا

فإذا رأيت بها القطائع خلتها ... طيراً يحوم على الورود مرفرفا

والجاذفين على الركيم كأنهم ... قوم قد اتخذوا إماماً مسرفا

جعل الصلاة لهم ركوعاً كلها ... وأتى ليشرع في السجود مخففا

والموج يأتي كالجبال عبابه ... فتظنه فوق المنازل مشرفا

حتى إذا ما الموج أبصر حده ... غض العنان عن السرى وتوقفا
فكأنه جيش تعاظم كثرة ... قد جاء مزدحماً يبايع يوسفا
ملك به ترضى الخلافة والعلا ... وبه تجدد في الرياسة ما عفا
من لم يزل يسبي الفوارس في الوغى ... إن سل في يوم الكريهة مرهفا
ألفت محبته القلوب لأنه ... ملك لنا بالجود أضحى متحفا
ألقى إليه الأمر والده الذي ... عن كل خطب في الورى ما استنكفا
يعقوب الملك الهمام المجتبا ... الماجد الأوفى الرحيم الأرأفا
يهواه من دون البنين كأنما ... يعقوب يعقوب ويوسف يوسفا
طوبى لمن في الناس قبل كفه ... والويل منه لمن غدا متوقفا
أعطاك ربك وارتضاك لخلقه ... فاقتل بسيفك من أبا وتخلفا
وامدد يمينك للوفود فكلهم ... لليوم عاد مؤملاً متشوفا
فايوم لا تخشى النعاج ذيابها ... ويعود من يسطو بها متعطفا
صلح الزمان فلا عدو يتقى ... لم يخش خلق في علاك تخوفا
لم لا وعدلك للبرية شامل ... طبعاً وغيرك لا يزال تكلفا
يا من سررت بملكه وعلايه ... اليوم أعلم أن دهري أنصفا
فإذا ملكت فكن وفياً حازماً ... واعلم بأن الملك يصلح بالوفا
وأفض بذلك للوجود وكن لهم ... كهفاً وكن ببعيدهم مستعطفا
فالجود يصلح ما تعلم في العلا ... وسواه يفسد في الخلافة ما صفا

إن البرية في يديك رمامها ... فاحذر فديتك إن تكون معنفا
يا من تسربل بالمكارم والعلا ... ما زال حاسدكم يريد تأسفا
خذها إليك قصيدة من شاعر ... في نظم فخرك كيف شا تصرفا
خضع الكلام له فصار كعبده ... ما شاء يصنع ناظماً ومؤلفا
لا زالت الأمجاد تخدم مجدكم ... ما زارت الحجاج مروة والصفا
ومن شعره في رثاء الأمير أبي مالك:
سهم المنية أين منه فرار ... من في البرية من رجاه يجار
حكم الزمان على الخلايق بالفنا ... فادار لا يبقى بها ديار
عش ما تشاء فإن غايتك الردى ... يبلى الزمان وتذهب الأعمار
فاحذر مسالمة الزمان وأمه ... إن الزمان بأهله غدار
وانظر إلى الأمراء قد سكنوا الثرى ... وعليهم كأس المنون تدار
تركوا القصور لغيرهم ترحلوا ... ومن اللحود عليهم أستار
قد وسدوا بعد الحرير جنادلاً ... ومن اللحود عليهم أستار
منعوا السرى للقباب وأسكنوا ... بطن الثرى حكمت بذاك عليهم الأقدار
لم تنفع الجرد الجياد ولا القنا ... يوم الردى والعسكر الجرار

في موت عبد الواحد الملك الرضا ... لجميع أملاك الورى إنذار
أن ليس يبقى في الملوك مملك ... إلا أتته منية وبوار
ناديته والحزن خامر مهجتي ... والقلب فيه لوعة وأوار
يا من ببطن الأرض أصبح آفلاً ... أتغيب في بطن الثرى الأقمار
أين الذين عهدت صفو ودادهم ... هل فيهم بعد الردى لك جار
تركوك في بطن الثرى وتشاغلوا ... بعلا سواك فهجرهم إنكار
لما وقفت بقبره مترحماً ... حان العزا وهاجني استعبار
فبكيت دمعاً لو بكت بمثاله ... غر السحاب لم تكن أمطار
يا زايريه استغفروا لمليككم ... ملك الملوك فإنه غفار

وفاته

توفي خنقاً بسجن فاس بسعاية سعيت به، جناها تهوره في وسط عام سبعة وتسعين وستماية، وقد كان جعل له النظر في أمور الحسبة ببلاد المغرب.

ومن العمال

عبد العزيز بن عبد الله

بن عبد العزيز الأسدي العراقي

من أهل وادي آش، نزل سلفه طرش من أحوازها، وجده استوطنها، وذكروا أنه كان له بها سبعون غلاماً. وجده للأم أبو الحسن بن عمر شارح الموطأ ومسلم، ومصنف غير ذلك. كذا نقلته عن أبي عبد الله العراقي، قريبه.

حاله

كان طبيباً، شاعراً مجيداً، حسن الخط، ظريف العمل، مشاركاً في معارف. تولى أعمالاً نبيهة.

شعره

نقلته من خطة ما نصه:

صرفت لخير صدر في الزمان ... عريق في أصالته عنان
كريم المنتمي من خير بيت ... سليل مجادة ورفيع شان
رحيب بنا فضل غير وان ... عن الأفضال في هذا الأوان
ومن هذا أذاك هو ابن عيسى ... محمد المعان على المعان
أبو عبدلي إنه المنتمي من ... مساوئ الفضل في سوى العنان
ذراني في مجادته محباً ... فهش لما به يحوي جنان
فأنس ثم بشر بالأماني ... ورفع بعد تأنيس مكان
سر لله ما أولى لير ... وليس كمن رآني فازدران
ويوجب ذو الفضايل كل فضل ... بما فيها ترشحت الأوان
وكم زهر رآه وسط روض ... وكم هاذ يدي بين الدنان

بمالقة وبالأقطار أضحت ... معاليكم مشيدة المبان
فأيدوا الآلة لسوف يأتي ... لكم مني سوابق في الرهان
قواف من الحكم قواف ... محامد للسماع وللعيان

يفوق نظيمها من كل معنى ... سلوك الدر من حلي الحسان
متى خف ازدحام من همومي ... ورجيت الأمان مع أمان
شكرت الله ثم صفا فؤادي ... وأملي ما تحب على لسان
فهأنذا ببركم غذائي ولي ... منكم على بعدي تدان
محبك حيث كنت بلا سلو ... وضيفك في البعاد وفي التوان
ثنائي ثابت يبقى بقاي ... ومن بعدي على طول الزمان
وما تهب الأكف قراك فان ... وما تهب الطروس فغير فان
هنيئاً بالنزاهة في سرور ... ومع من لا له في الفضل ثان
فلا زالت مسرته توالي ... ولا زالت ترف لك التهان
وفاته: ببلدة وادي آش عام خمسة عشر وسبعماية.
عبد القادر بن عبد الله بن عبد الملك بن سوار المحاربي
حاله

هذا الرجل دمث الأخلاق، سكون، وقور. خدم أبوه بغرناطة كاتباً للغزاة، منوهاً به، مشهوراً بكرم وظرف. وانتقل إلى العدوة، ونشأ ابنه المذكور بها، وارتسم بخدمة ولي العهد الأمير أبي زيان، وورد على الأندلس في وسط عام سبعة وخمسين وسبعماية في بعض خدمه، وأقام بغرناطة أياماً يحاضر محاضرة يتأنس به من أجلها الطالب، وينتظم بها مع أولى الخصوصية من أهل طريقه، وينقل حكايات مستطرفة. فمنم ذلك أن الشيخ عبد الرحمن بن حسن القروي الفاسي كان مع أبي القاسم الزياني بجامع القرويين ليلة سبع وعشرين من رمضان، فدخل عليهم ابن عبدون المكناسي، فتلقاه الزياني وتأيده، وتوجهوا إلى الثريا بالقرويين وقد أوقدت، وهي تحتوي على نحو ألف كاس من الزجاج، فأنشد الزياني:
أنظر إلى نارية نورها يصدع بالألإ حجب الغسق.
فقال ابن عبدون:
كأنها في شكلها زهرة ... انتظم النور بها فاتسق
وحكيت القصة للأديب الشهير أبي الحكم مالك بن المرحل، فقال لو حضرت أنا لقلت:
أعيذها من شر ما يتقى ... من فجأة العين برب الفلق
واستشد من شعره في الثامن والعشرين لربيع الآخر من العام بقصر نجد، فقال من حكايات، إن السلطان أمير المسلمين وجد يوماً على رجل أمر بتنكيله، ثم عطف عليه في الحال وأحسن إليه، وكان حاضراً مجلسه أبو الحسن المزدغى رحمه الله، فأنشده بديهة:
لا تونسنك من عثمن سطوته ... وإن تطاير من أثوابه الشرر
فإن سطوته والله يكلاه ... كالبرق والرعد يأتي بعده المطر

قال المترجم به، فحدثني بذلك والدي، فتعقبتها عليه عام تسعة وعشرين وسبعماية، لموجب جر ذلك بقولي:

لا تيأسن من رجا كهف الملوك ... أبي سعيد المرتجى للنفع والضرر

وإن بدا منه سخط أو رأيت له ... من سطوة أقبلت ترميك بالشرر

فإنما شيء مثل الرعد يتبعه ... برق ومن بعده ينهل المطر

وأنشدني لبعض الأحداث من طلبة فاس، يخاطب صاحبنا الفقيه الكاتب أبا عبد الله بن جزى، وقد توعده على مطل باستنساخ كتاب كان يتناول له وهو بديع:

إذا ما أتت أبطال قيس وعامر ... وأقيال عبس من بغمام وقسور

تصادمني وسط القلا لا تهولني ... فكيف أبالي بابن جزء مصغر

مولده: بفاس في العشر الأول لذي حجة عام تسعة وسبعماية.

ومن الزهاد والصلحاء وأولا الأصليون عبد الأعلى بن معلا يكنى أبا المعلى الإلبيري، من قرى القلعة، ونشأ بالحاضرة، وكان ينسب إلى خولان. ويذكر أنه أسلم على يدي رجل من خولان، فتولاه وانتسب إليه، وخرج إلى البيرة، ونشأ بها، وشغف بكتب عبد الملك بن حبيب، ولم يكن أحد في عصره يشبهه في فضله وزهده وورعه، وتواضعه وانقباضه، وتستره. أرسل إليه حسين بن عبد العزيز أخو هاشم بن عبد العزيز، وهو بإلبيرة يرغب إليه في أن يشهد جنازة ابنة توفيت له، كان يشغف بها، فتعذر عليه إذ خشي الشهرة.

وقال لبعض جلسائه، ما علمت أن حسيناً يعرفني، وعمل على الخروج من إلبيرة، وتهيأ للخروج للحج، فحج، فلما كان منصرفه، ونزل في بعض السواحل، وجد هنالك مركبين يشحنان، فرغب كل من أصحاب المركبين، أن يركب عنده، وتنافسا في ذلك، حتى خشي أن تقع الفتنة بينهم، فاهتم لذلك، ثم اصطلح أرباب المركبين، على أن يخرج كل واحد منهما قاربه إلى البر، فمن سبق قاربه إليه دخل عنده. ونزل في منصرفه ببجاية وسكنها إلى أن توفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين.

عبد المنعم بن علي

بن عبد المنعم بن إبراهيم بن سدراي بن طفيل

يكنى أبا العرب، ويشهر بالحاج، ويدعى بكنيته

حاله

كان عالماً فاضلاً صالحا، منقطعاً متبتلاً، بارع الخط، مجتهداً في العبادة، صاحب مكاشفات، وكرامات. نبذ الدنيا وراء ظهره، ولم يتلبس منها بشيء. ولا اكتسب مالاً ولا زوجة، وورث عن أبيه مالاً خرج عن جميعه، وقطع زمن فتايه في السياحة وخدمة الصالحين، وزمان شيخوخته، في العزلة والمراقبة، والتزام الخلوة. ورحل إلى الحج، وقرأ بالمشرق، وخدم مشايخ من الصالحين، منهم الفخر الفارسي، وأبو عبد الله القرطبي وغيرهما، وكان كثير الإقامة بالعدوة، وفشا أمره عند ملوكها، فكانوا يزورونه، ويتبركون به، فيعرض عنهم، وهو أعظم الأسباب في جواز أهل المغرب لنصرة من بالأندلس في أول الدولة النصرية، إذ كان الروم قد طمعوا في استخلاصها، فكان يحرض على ذلك، حتى عزم صاحب العدوة على الجواز، وأخذ في الحركة، بعد استدعاء سلطان الأندلس إياه. وعندما تعرف يغمور بن زيان ملك تلمسان ذلك كله على بلاده بما منع من الحركة، فخاطبه الحاج أبو العرب مخاطبته المشهورة،

التي كفت عدوانه، واقتصرته عما ذهب إليه.
وكان حياً في صفر عام ثلاثة وستين وستماية، وهو تاريخ مخاطبته أبا يحيى يغمور بن زيان.
ومن الطارئين وغيرهم
عبد الحق بن إبراهيم

بن محمد بن نصر بن فتح بن سبعين العكي

مرسي، رقوطي الأصل، سكن بآخرة مكة، يكنى أبا محمد، ويعرف بابن سبعين.
حاله
قال ابن عبد الملك، درس العربية والأدب بالأندلس، عند جماعة من شيوخها. ثم انتقل إلى سبتة، وانتحل التصوف، بإشارة بعض أصحابه، وعكف برهة على مطالعة كتبه، وتعرض بعد لإسماعها، والتكلم على بعض معانيها، فمالت إليه العامة، وغشيت محله. ثم فصل عن سبتة، وتجول في بلاد المغرب منقطعاً إلى طريقة التصوف، داعياً إليها، محرضاً عليها. ثم رحل إلى المشرق، وحج حججاً، وشاع ذكره، وعظم صيته هنالك، وكثر أتباعه على مذهبه، الذي يدعو إليه من التصوف نحلة. ارتسموا بها من غير تحصيل لها، وصنف في ذلك أوضاعاً كثيرة، تلقوها منه، وتقلدوها عنه، وبثوها في البلاد شرقاً وغرباً، ولا يخلو أحد منها بطايل، وهي إلى وساوس المخبولين، وهذيان الممروضين أقرب منها إلى منازع أهل العلم، ولفظه غير ما بلد وصقع، لما كان يرمى به من بلايا الله أعلم بحقيقتها، وهو الملطع على سريرته فيها. وكان حسن الأخلاق، صبوراً على الأذى، آية في الإيثار، أبدع الناس خطاً.
وقال أبو العباس الغبريني في كتاب عنوان الدراية عند ذكره، وله علم وحكمة ومعرفة، ونباهة وبلاغة وفصاحة. ورحل إلى العدوة، وسكن بجاية مدة، ولقيه من أصحابنا ناس كثير، وأخذوا عنه، وانتفعوا به في فنون خاصة له، مشاركة في معقول العلوم ومنقولها، ووجاهة لسان، وطلاقة قلم، وفهم جنان، وهو آخر الفضلاء، وله أتباع كثيرة من الفقراء، ومن عامة الناس، وله موضوعات كثيرة، موجودة بأيدي الناس، وله فيها ألغاز وإشارات بحروف أبي جاد، وله تسميات مخصوصات في كتبه هي نوع من الرموز وله تسميات ظاهرة كالأسامي المعهودة، وله شعر في التحقيق، وفي مراقي أهل الطريق، وكتابته مستحسنة في طريقة الأدباء. وله من الفضل والمزية، ملازمته لبيت الله الحرام، والتزامه الاعتمار على الدوام، وحجته مع الحجاج في كل عام، وهذه مزية لا يعرف قدرها ولا يرام. ولقد مشى به للمغاربة بخط في الحرم الشريف، لم يكن لهم في غير مدته. وكان أصحاب مكة شرفها الله، يهتدون بأفعاله، ويعتمدون على مقاله.

قلت، وأغراض الناس في هذا الرجل متباينة، بعيدة عن الاعتدال، فمنهم الموهن المكفر، ومنهم المقلد المعظم، وحصل لطرفي هذين الاعتقادين من الشهرة والذياع ما لم يقع لغيره. والذي يقرب من الحق، أنه كان من أبناء الأصالة ببلده، وولى أبوه خطة المدينة، وبيته نبيه، ونشأ ترفاً مبجلاً، في ظل جاه، وعز نعمة، لم تفارق معها نفسه البلد، ثم قرأ وشدا. ونظر في العلوم العقلية، وأخذ التحقيق عن أبي إسحق ابن دهاق، وبرع في طريقة الشوذية، وتجرد واشتهر، وعظم أتباعه، وكان وسيماً جميلاً، ملوكي البزة، عزيز النفس، قليل التصنع، يتولى خدمته الكثير من الفقراء السفارة، أولى العبا والدقاقيس، ويحفون به في السكك، فلا يعدم ناقداً، ولا يفقد متحاملاً. ولما توفرت دواعي النقد عليه من الفقهاء زياً وانتباذاً ونحلة وصحبة واصطلاحاً، كثر عليه التأويل، ووجهت لألفاظه المعاريض،

وفليت موضوعاته، وتعاورته الوحشة، ولقيه فحول من منتابي تلك النحلة، قصر أكثرهم عن مداه في الإدراك والاضطلاع، والخوض في بحار تلك الأغراض، وساءت منه لهم في الملاطفة السيرة، فانصرفوا عنه مكظومين يندرون في الآفاق عليه من سوء القيلة، ما لا شيء فوقه. ورحل إلى المشرق، وجرت بينه وبين الكثير من أعلامه خطوب. ثم نزل مكة شرفها الله تعالى واختارها قراراً، وتلمذ له أميرها، فبلغ من التعظيم الغاية، وعاقه الخوف من أمير المدينة المعظمة النبوية، عن القدوم عليها، إلى أن توفي، فعظم عليه الحمل لأجل ذلك، وقبحت الأحدوثة.

شهرته ومحله من الإدراك أما اضطلاعه، فمن وقف على البد من كتبه، رأى سعة ذرعه وانفساح مدى نظره، لما اضطلع به من الآراء والأوضاع والأسماء، والوقوف على الأقوال، والتعمق في الفلسفة، والقيام على مذاهب المتكلمين، بما يقضي منه العجب. ولما وردت على سبتة المسائل الصقلية، وكانت جملة من المسايل الحكمية، وجهها علماء الروم تبكيتاً للمسلمين، انتدب إلى الجواب عنها، على فتى من سنه، وبديهة من فكرته. وحدثني شيخنا أبو البركات، قال حدثني أشياخنا من أهل المشرق، أن الأمير أبا عبد اللهبن هود، سالم طاغية النصارى، فنكث عهده، ولم يف بشرطه، فاضطره ذلك إلى مخاطبته إلى القومس الأعظم برومة، فوكل أبا طالب بن سبعين، أخا أبي محمد، المتكلم عنه، والاستظهار بالعقود بين يديه، قال فلما بلغ باب ذلك الشخص المذكور برومة، وهو بلد لا تصل إليه المسلمون، ونظر إلى ما بيده، وسئل عن نفسه، كلم ذلك القس من دنا منه محله من علمايهم بكلام، ترجم لأبي طالب بما معناه، اعلموا أن أخا هذا ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه.

دعواه وإزراؤه

وقد شهر عنه في هذا الباب كثير والله أعلم باستحقاقه رتبة ما ادعاه أو غير ذلك. فقد ذكروا أنه قال، وقد مر ذكر الشيخ أبي مدين رحمه الله، شعيب عبد عمل، ونحن عبيد حضرة.وقال لأبي الحسن الششتري عندما لقيه، وقد سأله عن وجهته، وأخبره بقصده الشيخ أبا أحمد، إن كنت تريد الجنة فشأنك ومن قصدت، وإن كنت تريد رب الجنة فهلم إلينا، وفي كتاب البد ما يتشوف إليه من هذا الغرض عند ذكره حكماء الملة. وأما ما ينسب إليه من آثار السيمياء والتصريف فكثير.

تواليفه

وتواليفه كثيرة تشذ عن الإحصاء، منها المسمى بالبد بد العارف، وكتاب الدرج، وكتاب الصفر، والأجوبة اليمنية، والكل والإحاطة. وأما رسايله في الأذكار، كالنورية في ترتيب السلوك، وفي الوصايا والعقايد فكثير، يشتمل على ما يشهد بتعظيم النبوة، وإيثار الورع، كقوله من رسالة: سلام الله عليك ورحمته. سلام الله عليك ثم سلام مناجاتك. سلام الله ورحمته الممتدة على عوالمك كلها، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وصلى الله عليك كصلاة إبراهيم من حيث شريعتك، وكصلاة أعز ملائكته من حيث حقيقتك ، وكصلاته من حيث حقه ورحمانيته. السلام عليك يا حبيبه. السلام عليك يا قياس الكمال، ومقدمة السعد، ونتيجة الحمد، وبرهان المحمود، ومن إذا نظر الذهن إليه قد أنعم العيد، السلام عليك يا من هو الشرط في كمال الأولياء، وأسرار مشروطات الأزكياء الأتقياء. السلام عليك يا من جاوز في السماء مقام الرسل والأنبياء، وزاد رفعة، واستولى على ذوات الملأ الأعلى، ولم يسعه في وجهته تلك إلا ملاحظة الرفيق الأعلى، وذلك قوله، سبح اسم ربك الأعلى إلى الأخرى والأولى، لا إلى الآخرة والأولى، وبلغ الغاية والمطلوب، التي عجزت عنه قوة ماهية النهى، وزاد بعد ذلك، حتى نظر تحته من ينظر دونه سدرة المنتهى، إلى استغراق كثير، أفضى إلى حال من مقام.

ومن وصاياه يخاطب تلاميذه وأتباعه: حفظكم الله، حافظوا على الصلوات، وجاهدوا النفس في اجتناب الشهوات، وكونوا أوابين، توابين، واستعينوا على الخيرات بمكارم الأخلاق، واعملوا على نيل الدرجات السنية، ولا تغفلوا عن الأعمال السنية، وحصلو مخصص الأعمال الإلهية ومهملها، وذوقوا مفصل الذات الروحانية ومحملها، ولازموا المودة في الله بينكم، وعليكم بالاستقامة على الطريقة، وقدموا فرص الشريعة على الحقيقة، ولا تفرقوا بينهما، لأنهما من الأسماء المترادفة، واكفروا بالحقيقة التي في زمانكم هذا، وقولوا عليها وعلى أهلها لعنة الله، لأنها حقيقة كما سمى اللديغ سليما، وأهلها مهملون حد الحلال والحرام، مستخفون بشهر الصوم والحجج وعاشوراء والإحرام، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

ومنها: واعلموا أن القريب إلي منكم، من لا يخالف سنة أهل السنة ويوافق طاعة رب العزة والمنة، ويؤمن بالحشر والنار والجنة، ويفضل الرؤية على كل نعمة، ويعلم أن الرضوان بعدها، أجل كل رحمة، ثم يطلب الذات بعد الأدب مع الصفات والأفعال، ويغبط نفسه بالمشاهدة في النوم والبرزخ والأحوال، وكل مخالف سخيف، متهم منه الفساد، وإن كان من إخوانكم، فاهجروه في الله، ولا تلتفتوا إليه، ولا تسلموا له في شيء، ولا تسلموا عليه حتى يستغفر الله العظيم بمحضر الكل منهم، ويرضى عن نفسه وحاله وعنكم، ويخرج من صفاته المذمومة، ويترك نظام دعوته المحرومة. وأنا مذ أشهدت الله العظيم، أني قد خرجت من كل مخالف متخلف العقل واللسان، ولا نسبة بيني وبينه في الدنيا والآخرة، فمن زل قدمه يستغفر الله، ولا يخدعه قدمه، وأمثال هذا كثير.

دخوله غرناطة

أخبرني غير واحد من أصحابنا المعتنين بهذا، أنه دخل غرناطة في رحلته، وأظنه يجتاز إلى سبتة، وأنه حل وسطه، على اصطلاح الفقراء، برابطة العقاب من خارجها، في جملة من أتباعه.

شعره

وشعره كثير، مما حضرني منه الآن قوله:

كم ذا تموه بالشعبين والعلم ... والأمر أوضح من نار على علم
وكم تعير عن سلع وكاظمة ... وعن زرود وجيرن بذي سلم
ظللت تسئل عن نجد وأنت بها ... وعن تهامة هذا فعل متهم
في الحي حتى ولا سوى ليلى ... وتسألها عنها سؤالك وهم جر للعدم

وفاته

توفي بمكة شرفها الله تعالى يوم الخميس التاسع لشوال من عام تسعة وستين وستماية.

فيما يسمى بإحدى عيون الإسلام من الأسماء العينية وهم عتيق وعمر وعثمن وعلي، وأولا الأمراء والملوك وهم ما بين طارئ وأصلي وغريب

عمر بن حفصون

بن عمر بن جعفر الإسلامي بن كسمسم بن دميان

ابن فرغلوش بن أذفونش كبير الثوار، وعظيم التنزين، ومنازع الخلفاء بالأندلس.

أوليته وحاله

قال صاحب التاريخ، أصله من رندة، من كورة تاكرنا، وجده جعفر إسلامي، وانتقل إلى رندة، لأمر دار عليه بها في أيام الحكم بن هشام، فسكن قرية طرجيلة من كورة ريه المجاورة لحصن أوطة، فاستوطن بها، وأنسل بها عمر، ثم أنسل بها عمر حفصاً، وفخم فقيل حفصون. ثم أنسل عمر هذا الثاير مع أخوة له، منهم أيوب وجعفر. ولما ترعرع عمر، ظهر له من شراسته وعتوه، ما لم يعدم معه أبواه هرباً عن مواضعهما فزالا عن وطنهما، فذكر أنه لم يمسك من حين كان عن أحد ممن ناظره، ولا سكت عن أقبح ما يمكن من السب لمن عاتبه، وأنه قتل أحد جيرانه على سبب يسير دافعه عنه، فتغرب لذلك عن الموضع زماناً.

وذكر ابن القوطية، أن عامل ريه، عاقبه في جناية، وفر إلى العدوة، وصار يتهرب عند خياط كان من أهل ريه، فبينا هو جالس في حانوته يوماً، إذ أتاه شخص بثوب يقطعه، فقام إليه الخياط، فسأل ذلك الشخص الخياط عن عمر فقال له هو رجل من جيراني، فقال الشيخ متى عهدك بريه، فقال له، منذ أربعين يوماً، فقال له، أتعرف جبلاً يقال له ببشتر، فقال أنا ساكن عند أهله، فقال أله حركة، قال لا، قال الشيخ قد أذن ذلك. ثم قال، تعرف فيما يجاوره رجلاً يقال له عمر بن حفصون، ففزع من قوله، فأحد الشيخ النظر فيه وقال، يا منحوس، تحارب الفقر بالإبرة، إرجع إلى بلدك، فأنت صاحب بني أمية، وستملك ملكاً عظيماً، فقام من فوره، وأخذ خبزه في كمه، ورجع إلى الأندلس. فداخل الرجال، حتى ضبط الجبل المذكور، وانضوى إليه كل من يتوقع التهمة على نفسه، أو تشهره إلى الانتزاء بطبعه، وضم إلى القلعة كل من كان حولها من العجم والمولدين. ثم تملك حصن أوطة وميجش، ثم تلمك قمارش وأرجدونة. ثم اتسع نظره، حتى تملك كورة ريه، والخضراء، وإلبيرة، إلى بسطة وأبدة وبياسة وقبرة، إلى كل حصن بلى، المطل على قرطبة، وأشرق الخلافة بريقها، وقطع الزمان من استكانة إلى عهد، وكشف الوجه في ختر، وتشمير الساعد عن حرب، وحسر اللثام عن أيد وبسطة وشد الحزام على جهد وصبر ونازله الخلايف والقواد، فلم يحل بطايل، وأصابته جراحات مثخنة في الوقايع وأصبحت فتنته سمر الركاب، وحديث الرفاق، شدة أسر، وثقل وطأة، وسعة ذرع، واتصال حبل، وطول إملاء، استغرق بها السنين، وطوى الأعمار، وأورث ذلك ولده بعده، وعند الله جزاء وحساب، وإن امتد المآب، لا إله إلا هو.

دخوله غرناطة وإلبيرة

قال ابن الفياض وغيره، ودخل إلبيرة مرات، عندما ثار بدعوته، قاتل، وانضوى إلى حصن منتشافر، من إقليم برجيلة قيس، في نحو ستة آلاف، وتغلب على يحيى بن صقالة، ثم نازله سوار بن حمدون أمير العرب بغرناطة، حتى غلبه، وأخذه أسيراً، ثم أوقع بجعد ومن معه من أهل إلبيرة وقايع مستأصلة، وتملك بعدها بياسة وأبدة، في أخبار تطول. قال أبو مروان، قصد ابن حفصون حاضرة إلبيرة وحصونها، وناصب الحرب سواراً، وقد استمد سوار رجالات العرب، من كوري جيان وريه وإلبيرة، فوقعت الهزيمة على ابن حفصون، وجرح جراحات مثخنة، وأصيب جماعة من فرسانه، وانقلب منهزماً، فغضب عند ذلك على أهل إلبيرة فأغرمهم مغرماً فدحهم، واستعمل عليهم، حفص بن الرة، فلم يزل لعمل الحيل على سوار، حتى أوقع به، وأتى بجثته إلى إلبيرة، وحمل رأسه إلى ببشتر، واستشرى داؤه، وأعيا أمره، فاتصل ملكه بالقواعد والأقطار، وغلب أكثر المدن، ما بين الموسطة والغرب، وأحدق ملكه بقرطبة، وحجر عليها الخيل من حصن بلى، من حصون قبرة، فجلت الكنبانية، وامتد إلى بنيان المعاقل. ولما رأى الأمير محمد ما أحاط به منه، تأهب إلى غزوه، ونزل حصن بلى، وناهضه، فأوقع به، وهزمه وألجأه إلى أن سلم في حصنه، فلما خرج منه بمن معه، تطيرهم ريح الفرار والسيوف تأخذهم، استولى الخليفة على الحصن. وفي ذلك يقول أحمد بن عبد ربه، شاعر دولتهم:

وله يوم بلى وقعة لم ... تدع للكفر رأساً في ثبج
لم يجد إبليس في حومتها ... نفعاً من رهبة حيث بلج
دفعتهم حملة السيل إلى ... كافح الأمواج مخض اللجج
فتح الله على الدين به ... وعلى الإسلام يا عام تتج
وكان هذا الفتح سنة سبع وسبعين ومائتين. ثم استخلص مدينة إستجة.
وفاته

قال، ومن هذا العهد، أدبر أمر ابن حفصون، وتوقف ظهوره، بعد تخبط شديد، ولجاج كبير، وشر مبير، وكانت وفاته ببشتر، موضع انتزائه على عهد الخليفة عبد الرحمن في سنة ست وثلاثمائة، بعد مرض شمل النفخ به جسده، حتى تشقق جلده، وانتقل أمره إلى ولده جعفر، ثم إلى ولده سليمان، ثم إلى ولده حفص. وعلى حفص انقرض أمرهم.
عمر بن محمد التجيبي

بن عبد الله بن محمد بن مسلمة التجيبي

يطليوسي، مكناسي الأصل، من مكناسة الجوف، الأمير بالثغر الغربي، الملقب من ألقاب السلطنة بالمتوكل على الله، المكنى بأبي محمد، المنبز بابن الأفطس.
أوليته
قال ابن حيان، كان جدهم عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، أصله من فحص البلوط، من قوم لا يدعون نباهة، غير أنه كان من أهل المعرفة التامة، والعقل، والدهاء، والسياسة. ثم كان هذا الصقع الغربي، بطليوس وأعمالها، وشنترين والأشبونة، وجميع الثغر الجوفي في أمر الجماعة، رجل من عبيد الحكم المستنصر، يسمى سابور. فلما وقعت الفتنة، وانشقت العصا، انتزى سابور على ما كان بيده، وكان عبد الله يدبر أمره إلى أن هلك سابور، وترك ولدين لم يبلغا الحلم، فاشتمل عبد الله على الأمر، واستأثر به على ولديه، فحصل على ملك غرب الأندلس، واستقام أمره، إلى أن مضى بسبيله، وأعقبه ابنه المظفر محمد بن عبد الله، وكان ملكاً شهيراً عالماً شجاعاً أديباً، وهو مؤلف الكتاب الكبير المسمى بالمظفري، فاستقامت أموره إلى أن توفي فقام بأمره ولده عمر هذا المترجم به.
حاله
قال ابن عبد الملك، كان أديباً بارع الخط، حافظاً للغة، جواداً، راعياً حقوق بلده، مواخياً لهم، محبباً فيهم، مرت لهم معه أيام هدنة وتفضل إلى حين القبض عليه.
وقال الفتح في قلائده: ملك جند الكتائب والجنود، وعقد الألوية والبنود، وأمر الأيام فائتمرت، وطافت بكعبته الآمال واعتمرت، إلى لسن وفصاحة، ورحب جناب للوافدين وساحة، ونظم يزرى بالدر النظيم، ونثر تسرى رقته سري النسيم، وأيام كأنها من حسنها جمع، وليال كان فيها على الأنس حضور ومجتمع، راقت إشراقاً وتبلجاً، وسالت مكارمه فيها أنهاراً وخلجاً، إلى أن عادت الأيام عليه بمعهود العدوان، ودبت إليه دبيبها لصاحب الإيوان، وانبرت إليه انبراءها لابن زهير وراء عمان.
شعره

بلغه أنه ذكر في مجلس المنصور يحيى أخيه بسوء، فكتب إليه بما نصه

فما بالهم لا أنعم الله بالهم ... ينيطون بي ذماً وقد علموا فضلي

يسيئون لي في القول جهلاً وضلة ... وإني لا أرجو أن يسيئهم فعلي

لئن كان حقاً ما أذاعوا فلا مشت ... إلى غاية العلياء من بعدها رجلي

ولم ألق أضيافي بوجه طلاقة ... ولم أمنح العافين في زمن المحل

وكيف وراحي درس كل غريبة ... وورد التقى شمي وحرب العدى نقلي

وإلى خلق في السخط كالشرى طعمه ... وعند الرضى أحلى جنى من جنى النحل

فيا أيها الساقي أخاه على النوى ... كؤوس القلى مهلاً رويدك بالعل

نلطفئ ناراً أضرمت في صدورنا ... فمثلي لا يقلي ومثلك لا يقلي

وقد كنت تشكيني إذا جئت شاكياً ... فقل لي لمن أشكو صنيعك بي قل لي

فبادر إلى الأولى وإلا فإنني ... سأشكوك يوم الحشر للحكم العدل

وكتب جواباً لأبي محمد بن عبدون مع مركوب عن أبيات ثبتت في القلايد:

بعثت إليك جناحاً فطر ... على خفية من عيون البشر

على ذلل من نتاج البروق ... في ظل من نسيج الشجر

فحسبي ممن نأى ومن دنا ... فمن غاب كان كمن قد حضر

قال الفتح، أخبرني الوزير أبو أيوب بن أمية، أنه مر في بعض أيامه بروض مفتر المباسم، معطر الرياح النواسم، فارتاح إلى الكون به بقية نهاره، والتنعم ببنفسجه وبهاره. فلما حصل من أنسه في وسط المدى، عمد إلى ورقة كرنب قد بللها الندى، وكتب فيها بطرف غصن، يستدعي الوزير أبا طالب بن غانم أحد ندمائه، ونجوم سمائه:

أقبل أبا طالب إلينا ... واسقط سقوط الندى علينا

فنحن عقد بغير وسطى ... ما لم تكن حاضراً لدينا

نثره

وهو أشف من شعره، وإنه لطبقة تتاقصر عنها أفذاذ الكتاب، ونهاية من نهاية الآداب، قال، كان ليلة مع خواصه للأنس معاطياً، ولمجلس كالشمس واطياً، قد تفرغ للسرور، وتفرغ عيشاً كالأمل المزرور، والمنى قد أفصحت ورقها، وأومص برقها، والسعد تطلع مخايله، والملك يبدو زهوه وتخايله، إذ ورد عليه كتاب بدخول أشبونة في طاعته، وانتظامها في سلك جماعته، فزاد في مسرته، وبسط من أسرته وأقبل خدامه، وأسبل نداه على جلسائه وندامه، فقال له ابن خيرة، وكان يدل بالشباب، وينزل منه منزلة الأحباب، لمن توليها، ومن يكون واليها، فقال له، أنت، فقال فاكتب الآن بذلك، فاستدعى الدواة والرق، وكتب وما جف له قلم، ولا توقف له كلم: لم يسوغ أولياء النعم، مثل الذي سوغتموه من التزام الطاعة، والدخول في نهج الجماعة، وذلك لا آلوكم ونفسي فيكم نصحاً فيمن أتخيره، للنيابة عني في تدبيركم، والقيام بالدقيق والجليل من أموركم، وقد وليت عليكم، من لم أوثر والله فيه دواعي التقريب، على بواعث التجريب، ولا فوات التخصص، على لوازم التمحيص، وهو الوزير القائد أبو عبد الله بن خيرة، ابني دربة، وبعضي صحبة، ونشأتي سكة وقرية، وقد رسمت له من وجوه الذب والحماية، ومعالم الرفق والرعاية، ما التزم الاستيفاء بعهده، والوقوف بجده عند حده، والمسؤول في عونه من لا عون إلا من

عنده، ولن أعرفكم من حميد خصاله، وسديد فعاله، إلا بما سيبدو للعيان، ويزكو مع الامتحان. ويفشو من قبلكم إن شاء الله على كل لسان، وقد حددت له أن يكون لناشئكم أباً ولكهلكم أخاً. ولذي النفوس والكبرة إبناً، ما أعنتموه على هذا المراد، ولزوم الجواد، وركوب الانقياد. وأما من شق العصا، وبان عن الطاعة، وظهر منه المراد والهوى، فهو القصي منه، وإن مت إليه بالرحم الدنيا، فكونوا خير رعية، بالسمع والطاعة في جميع الأحوال، يكن لكم بالبر والموالاة خير وال إن شاء الله عز وجل.

وصوله إلى غرناطة

وصلها صحبة حليفه ابن عباد، لما قبض يوسف بن تاشفين على صاحبها ونزل بالمشيجة من خارجها في رجب من عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة ورابهما الأمر، كما تقدم في ذكر المعتمد بن عباد، فعجلا الرجوع إلى وطنهما بحيلة دبراها.

نكبته ووفاته

ولما اشتد خوفه من أمير لمتونة، ورأى أنه أسوة ابن عباد في الخلع عن ملكه، وضيقت الخيل على أطرافه وانتزعتها، داخل طاغية الروم، وملكه من مدينة الأشبونة، رغبة في دفاعه عنه، فاستوحشت لذلك رعيته، وراسلت اللمتونيين، واقتحمت عليه مدينة بطليوس، واعتصم بالقصبة، وخانه المحاربة، فدخلت عليه عنوة، وتقبض عليه وعلى بنيه وعبيده، وتحصلوا في ثقاف قائد الجيش اللمتوني. وبادر إعلام الأمير سير بن أبي بكر، فلحق بها. واستخرج ما كان عند المتوكل من المال والذخيرة، وأزعجه إلى إشبيلية مع ابنين له، فلما تجاوز وبعد عن حضرته، أنزل وقيل له تأهب للموت، فسأل أن يقدم ابناه يحتسبهما عند الله، فكان ذلك، وقتلا صبراً بين يديه، ثم ضرب عنقه، وذلك صدر سنة سبع وثنانين واربعمائة، وانقرضت دولة بني الأفطس.

وممن رثاهم، فبلغ الأمد وفاء وشهرة وإجادة، أبو محمد عبد المجيد ابن عبدون بقصيدته الفريدة:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة ... والبيض والسمر مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه ... يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالي أقال الله عثرتنا ... من الليالي وخانتها يد الغير
في كل حين لها في كل جارحة ... منا جراح وإن زاغت عن البصر
تسر بالشيء لكن تغربه ... كالأيم ثار إلى الجاني من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
هوت بداراً وفلت غرب قاتله ... وكانت غصباً على الأملاك ذا أثر

واسترجعت من بني ساسان ما وهبت ... ولم تدع لبني يونان من أثر
وأتبعت أختها طسماً وعاد على ... عاد وجرهم منها ناقص المرر
وما أقالت ذوي الهيئات من يمن ... ولا أجارت ذوي الغايات من مضر
ومزقت سبأ في كل قاصية ... فما التقى رائح منهم بمبتكر
وأنفذت في كليب حكمها ورمت ... مهلهلاً بين سمع الأرض والبصر

ولم ترد على الضليل صحته ... ولا ثنت أسداً عن ربها حجر
ودوهت آل ذيبان وإخوتهم ... عبساً وعضت بني بدر على النهر
وألحقت بعدي بالعراق على ... يد ابنه أحمر العينين والشعر
وأهلكت أبرويزا بابنه ورمت ... بيزد جرد إلى مرو فلم يحر
وأشرفت بحبيب فوق قارعة ... وألحقت طلحة الفياض بالعفر
ومزقت جعفراً بالبيض واختلست ... من غيلة حمزة الظلام للجزر
وبلغت يزدرجرد الصين واختزلت ... عنه سوى الفرس جمع الترك والخزر
ولم ترد مواضي رستم وقنا ... ذي حاجب عنه سعداً في ابنة الغير
وخضبت شيب عثمان دماً وخطت ... إلى الزبير ولم تستحي من عمر
وما رعت لأبي اليقظان صحبته ... ولم تزوده إلا الضح في الغمر
وأجزرت سيف أشقاها أبا حسن ... وأمكنت من حسين راحتي شمر
وليتها إذ فدت عمراً بخارجة ... فدت علياً بمن شاءت من البشر
وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن ... أتت بمعضلة الألباب والفكر
فبعضنا قائل ما اغتاله أحد ... وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر
وعمت بالردى فودى أبي أنس ... ولم ترد الردى عنه قنا زفر
وأردت ابن زياد بالحسين فلم ... يبؤ بشسع له قد طاح أو ظفر
وأنزلت مصعباً من رأس شاهقة ... كانت بها مهجة المختار في وزر
ولم تراقب مكان ابن الزبير ولا ... راعت عياذته بالبيت والحجر
ولم تدع لأبي الزيان قاضبة ... ليس اللطيم لها عمرو بمنتصر
وأظفرت بالوليد بن اليزيد ولم ... تبق الخلافة بين الكاس والوتر
حبابة حب رمان ألم بها ... وأحمر قطرته نفحة القطر
ولم تعد قضب السفاح نابية ... عن رأس مروان أو أشياعه الفجر
وأسبلت دمعة الروح الأمين على ... دم يشج لآل المصطفى هدر
وأشرقت جعفراً والفضل ينظره ... والشيخ يحيى بريق الصارم الذكر
وأخفرت في الأمين العهد وانتدبت ... لجعفر بابنه بالأعبد الغدر
وروعت كل مأمون مؤتمن ... وأسلمت كل منصور ومنتصر
وأعثرت آل عباس لعالهم ... بذل زباء من بيض ومن سمر
ولا وفت بعهود المستعين ولا ... بما تأكد للمعتز من مرر
وأوثقت في عراها كل معتمد ... وأشرقت بقذاها كل مقتدر
بني المظفر والأيام ما برحت ... مراحل والورى منها على سفر
سحقاً ليومكم يوماً وما حملت ... بمثله ليلة في سالف العمر
من للأسرة أو من للأعنة أو ... من للأسنة يهديها إلى الثغر
من لليراعة أو من للبراعة أو ... من للسماحة أو للنفع والضرر

من للظبي وعوالي الخط قد عقدت ... أطراف ألسنها بالعي والحصر
وطوقت بالمنايا السود بيضهم ... أعجب بذاك وما منها سوى ذكر
أو رفع كارثة أو دفع حادثة ... أو قمع آزفة تعيي على القدر
ويح السماح وويح الجود لو سلما ... وحسرة الدين والدنيا على عمر

سقت ثرى الفضل والعباس هامية ... تعزى إليهم سماحاً لا إلى المطر
ثلاثة ما ارتقى النسران حيث رقوا ... وكل ما طار من نسر ولم يطر
ثلاثة كذوات الدهر منذ نأوا ... عني مضى الدهر لم يربع ولم يحر
ومر من كل شيء فيه أطيبه ... حتى التمتع بالآصال والبكر
من للجلال الذي عمت مهابته ... قلوبنا وعيون الأنجم الزهر
أين الإباء الذي أرسوا قواعده ... على دعائم من عز ومن ظفر
أين الوفاء الذي أصفوا شرائعه ... فلم يرد أحد منهم على كدر
كانوا رواسي أرض الله مذ نأوا ... عنها استطارت بمن فيها ولم تقر
كانوا مصابيحها دهراً فمذ خبوا ... هذي الخليقة تالله في سدر
كانوا شجى الدهر فاستهوتهم خدع ... منه بأحلام عاد في خطا الخضر
من لي ولا من بهم إن أظلمت نوب ... ولم يكن ليلها يفضى إلى سحر
من لي ولا من بهم إن طبقت محن ... ولم يكن ورودها يفضي إلى صدر
من لي ولا من بهم إن عطلت سنن ... وأخفيت ألسن الآثار والسير
ويلمه من طلوب الثأر مدركه ... لو أن ديناً على الأيام ذي عسر
على الفضائل إلا الصبر بعدهم ... تسليم مرتقب للأجر منتظر
يرجو عسى وله في أختها طمع ... والدهر ذو عقب شتى وذو غير
قرطت آذان من فيها بفاضحة ... على الحسان حصى الياقوت والدرر
سيارة في أقاصي الأرض قاطعة ... شقاشقاً هذرت في البدو والحضر
مطاعة الأمر في الباب قاضية ... من المسامع ما لم يقض من وطر
ومن الغرباء
عثمن بن عبد الرحمن

بن يحيى بن يغمراسن الدايل بتلمسان، يكنى أبا سعيد

حاله

كان شيخاً مخيلاً بسمة الخير، متظاهراً بالنسف، بقية آل زيان، متقدماً في باب الدهاء والذكر، بالغاً أقصى المبالغ في ذلك. سكن غرناطة ووادي آش، وولد بغرناطة، وكان أبوه ممن هلك في وقيعة فرتونة، فارتزق مع الجند الغربي بديوانها في حجر أبيه وبعده، ثم ثنى عنانه إلى وطنه، وتخطته المتالف عند تغلب السلطان صاحب المغرب على بلده تلمسان، وغاص في عرض من تهنأ الإبقاء من قبيله. وكان ممن شمله حصار الجزيرة، ووصل قبله ممداً مع الجيش

الغربي بجيش غرناطة عند منازلة القلعة. ولما جرت على واترهم السلطان أبي الحسن الهزيمة بظاهر القيروان، وبعد الطمع في انتشاله وجبره، ولحق كل بوطنه، حوم القل من بني زيان على ضعفهم، ومذ رحل عنه السلطان القايم بملك المغرب أبو عنان، إلى محل الأمر ودار الملك، وسد تلمسان بشيخ من قبيلتهم يعرف بابن حرار، له شهرة وانتفاخ لتنسيق رياح الاختلاف، فذ في إدارة الحيلة، وإحالة قداح السياسة، رأس الركب الحجازي غير ما مرة، وحل من الملوك ألطف محلة. ولما نهد القوم إلى تلمسان، ناهضهم ابن الحرار بمن استركب من جنده، وانضم إليه من قومه، فدارت عليهم الهزيمة، وأحيط به، فتملك البلد، وتحصل في الثقاف، إلى أن هلك به مغتالاً، واستولى عثمن بن يحيى على المدينة، وانقاد إليه ما يرجع إليها من البلاد والقبايل، فثاب لهم ملك لم تكد شعلته تقد حتى خبت، وعلى ذلك فبلغوا في الزمان القريب، من وفور العدة، واستجادة الآلة، وحسن السيرة، ما يقضى منه العجب، وانفرد عثمن بالأمر، وعين أخاه أبا ثابت الزعيم إلى إمارة الجيش، فاستقام الصف، وانضم النشر، وترتبت الألقاب، واستأنفوا الدولة، وتلقفوا الكرة. وقل ما أدبر شيء فأقبل. وبادر السلطان بالأندلس مفاتحته مهنياً، وللحلف مجدداً، بكتاب من أنشائي من فصوله:

بعد الصدر والتحميد، ولا وزايد بفضل الله المرجو في الشدايد، لجميل العوايد، إلا ما شرح الصدور، وأكد السرور، وبسط النفوس، وأضحك الرسن العبوس، من اتساق أمور ذلك الملك لديكم، واجتماع كلمته عليكم، وما تعرفنا أن الدولة الزيانية، وصل الله لبدورها استيناف الكمال، وأعلى أعلامها في هضاب اليمن والإقبال، تذكرت الرسايل القديمة الأذمة، وألقت إلى قومها بالأزمة، وحنت إلى عهدهم على طول النوى، وانشد لسان حالها، نقل فؤادك حيث شئت من الهوى، فأصبح شتيتك بأهلها مجموعاً، وعلم عليائها بأيدي أوليائها مرفوعاً، وملابس اعتزازها بعد ابتزازها جديدة، وظلال سعودها على أغوارها ونجودها مديدة، وقبيلها قد أنجح الله في ائتلافه أمل الآمل، ومبتداها مرفوعاً مع وجود العوامل، والكثير من أوطانها قد سلكت مسلكها في الطاعة، وتبادرت إلى استباق فضيلة الوفاق بحسب الاستطاعة، فعظم الاستبشار بأن كان لكم ما لها، وفي إيالتكم انتيالها، من غير ان يعلق باسبابها من ليس من أربابها، ويطمع في اكتسابها من لم يكن في حسابها. وقلنا موارث وجب، وعاصب حجب، وركب علج من بعد القفول، وشمس طلعت من بعد الأفول، وجيد حلى بعد ما اشتكى العطل، وغريم قضى بعد ما مطل، وطرف تنبه بعد ما سجع، ودرى استقام سيره عقب ما رجع، وقضية انصرف دليلها عن حدود القواطع، وطرحت عليه أشعة السعود السواطع، لا بل عبد أبق لقدر سبق، حتى إذا راجع نهاه، وعذله العقل ونهاه، جنح بعد هجره، إلى كنف من نشأ في حجره. وعلمنا أن الدولة التي عرفنا مكارمها، قد دالت، والغمامة التي شكرنا مواقعها قد انثالت، فجرينا في المسرة ملء الأعنة، وشاركنا في شكر هذه المنة، وأصدرنا إليكم هذا الخطاب مهنياً، وعن الود الكريم والولاء الصميم منبيا، وفي تعزيز ما بين الأسلاف، جدد الله عليهم ملابس الرضوان معيداً مبدياً، وإن تأخر منه الغرض،وقضى بهذا العهد واجبه المفترض، والأعذار واضحة، وأدلتها راجحة، وللضرار أحكام تمضى، والفروض للفوات تقضى، فكيف والاعتقاد الجميل مسير مسكن، والوقت والحمد لله متمكن، وما برحنا في مناط اجتهاد، وترجيح استشهاد، والأخبار يضطرد مفهومها، والألفاظ لا يتخصص عمومها، والأحاديث يجول في متعارضها النظر، ولا يلزم العمل ما لم يصح الخبر. فلما تحققنا الأمر من قصة، وتعاضد قياسه بنصه، لم نقدم على المبادرة عملاً، وبينا لكم من حسن اعتقادنا ما كان مجملا، فليهن تلك الإيالة ما استأنفته من شبابها، وتسربلته من جديد أثوابها، وليستقبل العيش خضراً، والدهر معتذراً، والسعد مسفراً.

وتمادى ملكه من الثامن والعشرين لجمادى الآخرة من عام تسعة وأربعين وسبعماية إلى أن استوسق ملك المغرب

للسلطان أبي عنان، واستأثر إليه أبيه، وتحرك إلى منازلة تلمسان في جمادى الآخرة عام ثلاثة وخمسين وسبعماية، وكسر جمعهم، واستولى على ملكهم حسبما يأتي، وبرز إليه سلطانها المذكور، مؤثراً الإصحار على الاجتحار، واللقاء على الانحصار، وكانت بين الفريقين حرب ضروس، ناشب الزيانيون محلات المغرب القتال، بموضع يعرف بإنكاد، على حين غفلة، وبين يدي شروع في تنقل وسكون، وتفرق من الحامية في ارتداد الخلا، وابتغاء الماء، فلم يرع إلا إطلال الرايات، وطلوع نواصي الخيل، فوقع الصراخ، وعلا النداء، وارتفع القتام، وبادر السلطان بمن معه من الخالصة، وروم الركاب الصدمة، ومضى قدماً، وقد طاش الخبر بهزيمته، وفعاثت العربان في محلته، وكانوا على الأموال أعدى من عدوه، وفر الكثير إلى جهة المغرب بسوء الأحدوثة.

ولما تقاربت الوجوه، وصدق المصاع، قذف الله في قلوب الزيانيين الرعب، واستولى عليهم الإدبار، فانهزموا أقبح هزيمة، وتفرقوا شذر مذر، واختفى سلطانهم عثمن المترجم به، وذهب متنكراً وقد ترجل، فعثر عليه من الغد، وأوتي به فشد وثاقه، وأسرع السلطان اللحاق بتلمسان، وقد تلقاه أهلها معلنين بطاعته. ولائذين بجناب عفوه، وتنكبها الجيش المفلول، لنظر الأمير أبي ثابت، فاستفر بأحواز جزاير بني مزغناي. ودخل السلطان تلمسان في يوم الأحد، الحادي عشر من ربيع الأول عام ثلاثة وخمسين وسبعماية، وتدامر بنو مرين، واستدركوا دحض الوصمة في اتباع أضدادهم المحروبين، فكان اللقاء بينهم، وبين الجيش المفلول وحكم الله باستيصالهم، فمضى عليهم السيف،وأوتي بزعيمهم الزعيم، فاحتمل مع أخيه في لمة من أوليائهم، ونفذ الأمر لأقتالهم من بني حرار بأخذ حقهم، فقتل عثمن والزعيم رحمهما الله بخارج تلمسان ذبحاً، وألحق بهما عميد الدولة يحيى بن داود، بعد أن استحضر عثمن بين يدي السلطان، واسمع تأنيباً، حسن عنه دوابه، بما دل على ثبات وصبر. وانقضى أمر كرتهم الثانية، وخلت منهم الأوطان، وخلصت لبني مرين الجهة،وصفت العمالة. والله يعطي ملكه من شاء سبحانه لا إله إلا هو، وكان مقتل عثمن وأخيه في أوايل شهر ربيع الآخر عام ثلاثة وخمسين وسبعماية.

علي بن حمود

بن ميمون بن حمود بن علي بن عبيد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن

حسن بن علي بن أبي طالب.

أول ملوك بني هاشم بالأندلس، يكنى أبا الحسن، ويلقب من الألقاب السلطانية، بالناصر لدين الله.

حاله

كان شهماً لبيباً، جريء اللقاء، باطش السيف، شديد السطوة، أسمر، أعين، نحيف الجسم، طويل القامة، حاد الذهن، من أولي الحزم والعزم.

خلافته

ذكروا أن هشام بن الحكم، لما ضيق به الحجر، كتب إليه في السر بعهد ولايته، وأهله للأخذ بثاره، فكان كذلك، وأجاز البحر من سبتة، مظهراً القيام بنصر هشام عندما خلع، فانحاش غليه كثير من الناس، وقصد قرطبة، وبرز إليه الخليفة سليمن خالع هشام ومغتاله، فظهر عليه علي بن حمود وهزمه، ودخل قرطبة، فقتل سليمن، وبحث عن هشام، وقد فات فيه الأمر، وتسمى بأمير المؤمنين. وأنس به أهل قرطبة، لقهره من كان لنظره من البرارة، وإمضاء الأحكام عليهم. قال المؤرخ، فبرقت للعدل يومئذ بارقة، لم تكد تقد حتى خبت. وكان الأغلب عليه السخاء

والشجاعة.

ومدحه الكثير من الشعراء، منهم أبو عمر بن دراج، وفيه يقول:

لعلك يا شمس عند الأصيل ... تحن بشجو الغريب الذليل

فكوني شفيعي إلى أين الشفيع ... وكوني رسولي إلى أين الرسول

فأما شهدت فأزكى شهيد ... وأما دللت فأهدى دليل

إلى الهاشمي إلى الطالبي ... إلى الفاطمي العطوف الوصول

وصوله إلى إلبيرة

قل، ولما استوسق الأمر، واضطرب عليه خيران صاحب ألمرية، أغراه وأذن لحربه، فخرج من قرطبة يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة من سنة ثمان وأربع ماية، وسار إلى أن بلغ وادي آش، وتردفت عليه الأمطار والسيول، وانصرف إلى إلبيرة ثم إلى قرطبة.

وفاته

قال المؤرخ، وفي سنة ثمان وأربعماية كان مقتل علي بن حمود، وذلك أن صقالبته قتلوه بموضع أمنه. في حمام قصره، وكانوا ثلاثة من أغمار صبيان قصره، منهم نجح وصاحباه، وسدوا باب الحمام عليه، وتسللوا، ولم يحس أحد بهم، واستطال نساؤه بقاءه، فدخلوا عليه، ودمه يسيل فصح خبر مقتله، وبعثت زناتة إلى أخيه بإشبيلية، فخاف أن يكون حيلة، حتى كشف عن الأمر، ولحق بقرطبة، فأخرج جسده، وصلى عليه، وأنفذه إلى سبتة، فدفن بها، وبني عليه مسجد هو الآن بسوق الكتان، وقبض من قاتليه على صبيين عذبا بأنواع العذاب، ثم قتلا وصلبا.

علي بن يوسف

بن تاشفين بن توحرت

وينظر اتصال نسبه في اسم أبيه هو أمير المسلمين بالعدوة والأندلس بعد أبيه، يكنى أبا الحسن، تصير إليه الملك بالعهد من أبيه عام سبعة وتسعين وأربعمائة، ثم ولى أمره يوم وفاته وهو يوم الإثنين مستهل محرم عام خمسماية.

حاله

وكان ملكاً عظيماً علي الهمة رفيع القدر، فسيح المعرفة شهير الحلم، عظيم السياسة، أنفذ الحق، واستظهر بالأزكياء، ووالى الغزو، وسد الثغور، إلى أن دهمه من أمر الدولة الموحدية ما دهمه، وكل شيء إلى مدى، فأمهل السرح، وحالف الإدبار، وجاز إلى الأندلس، وغزا فيها بنفسه، ودخل غرناطة وباشرها.

قال ابن عذارى، تقدم الأمير أبو الحسن لذلك فاستعان بالله واستنجده وسأله حسن الكفاية فيما قلده، فوجده ملكاً مؤسساً، وجنداً مجنداً، وسلطاناً قاهراً، ومالاً وافراً، فاقتفى إثر أبيه، وسلك سبيله، في عضد الحق، وإنصاف المظلوم، وأمن الخائف، وقمع المظالم، وسد الثغور، ونكاية العدو، فلم يعدم التوفيق في أعماله، والتسديد في حسن أفعاله.

دخوله غرناطة

وفي سنة خمس وخمسماية، جاز البحر إلى الجهاد. قال المؤرخ، قدم علي بن يوسف غرناطة مرات مع أبيه. وفي سنة خمس وخمسماية تلوم بها ريثما تلاحقت حشوده، وتأهبت مطوعته وجنوده، فافتتح مدينة طليرة عنوة ثم عبر البحر

عام أحد عشر وخمسماية، فغزى قولمرية.

ظهور الموحدين في أيامه

قال ابن عذارى، في سنة أربع عشرة وخمسماية، كان ابتداء أمر الثاير على الدولة، الجالب للفتن الجمة، الجار لها منذ ثلاثين سنة، حتى أقفر المعمور، وأصار الضياء كالديجور، محمد بن ترمرت السوسي الملقب بالمهدي. قلت، وأخباره عجيبة، وما زال أمره في ظهور، وأمر هذه الدولة، في ثبار وإدبار، إلى أن محا رسومها، وقطع دابرها، والملك لله، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، سبحانه.

وفاته

قال، وفي سنة سبع وثلاثين وخمسماية، توفي أمير المسلمين علي ابن يوسف، لسبع خلون من رجب، ولم يشهر موته إلا لخمس خلون من شوال، فكانت مدته من حين قدمه أبوه، تسعاً وثلاثين سنة واشهراً. وعمره إحدى وستون سنة، قال ابن حماد، ولما يئس من نفسه، عهد أن يدفن بين قبور المسلمين، ودفن بها في جملتهم، رحمه الله.

الأعيان والوزراء والأماثل والكبرا

عتيق بن زكريا

بن مول التجيبي

قرطبي الأصل، يمت إلى الإمارة النصرية بقربى صهر، يكنى أبا بكر.

حاله

كان شهماً جرياً مقداماً، جهورياً، ذا أنفة وشارة، مليح التجند، ظاهر الرجولية، معروف الحق، نبيه الولاية، فصيح اللسان، مطبوعاً، ذكياً، مؤثراً للفكاهة. ولى القيادة بمدينة وادي آش، عقب الريس المنتزى بها، ثم عزل عنها بسعاية رفعت فيه إلى ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الحكيم، فساء ما بينهما لذلك، وأعمل عليه التدبير، بمداخلة الأمير نصر، وإغرايه بالأمر. فتم له التوثب على ملك أخيه، وخلعه يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعماية، وقتل الوزير ابن الحكيم بين يديه، وانتهبت منازله، واستقل بعد بالتدبير والوزارة، وحصل من صنايع الحاين ومتوقعي الضغط، على مال عريض، وقام بوظيف الوزارة محذور الشبا، مرهوب المدية، مسنو الفتكة، فلم ينشب أن عين للرسالة إلى باب السلطان ملك المغرب، وسد باب الإياب لوجهته، وأقام بالعدوة، تحت الحظوة، مشاراً إليه في وجوه الدولة، وزير المداخلة والرتبة. وقد كان في ريان حداثته، لحق بطاغية الروم، وركب في جملته، وعلقته جارية من بنات زعماء الروم، لفضل جماله، وزين شبيبته، ففر بها تحت حماية سيفه، ولحق ببلاد المسلمين، وكانت من أهل الأصالة والجمال، فاتصل بمحلة أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق، وكان جاز إلى الأندلس غازياً، فاستخلصت منه لمزية الحسن، واستقرت بقصر السلطان، حظية لطيفة المحل، وجد أثر رفدها وانتفع، هو وبنوه بعايد جاهها، وقد هلك السلطان. وقامت لمن خلفه مقام الأمومة، فنالوا بها دنيا عريضة، وباشر بالمغرب أهوالاً، وخاض في فتن، إلى أن أسن، وقيدته الكبرة، واستولت على بصره الزمانة، ولما ولي الوزارة ولده على عهد سادس الأمراء من بني نصر، استقدمه في ربيع الثاني من عام تسعة وعشرين وسبعماية، فقدم شيخاً، قد استثن أديمه واحقوقب، ومسحة الظرف واللوذعية، تتعلق منه بطلل بايد. ثم اقتضى تقلص ظل الولاية عن ولده، انصرف جميعهم إلى العدوة، فكان ذلك في

رجب أو أول شعبان من العام، وبها هلك.

وفاته

توفي بمدينة فاس رابع محرم عام ثلاثين وسبعماية. وكان كثيراً يتمثل بقول الشاعر:

نصحت فلم أفلح وخانوا فأفلحوا ... فأنزلني نصحي بدار هوان
فإن عشت لم أنصح وإن مت فالعنوا ... دون النصح من بعدي بكل لسان

أخبرني بذلك شيخنا أبو الحسن بن الجياب وغيره.

عمر بن يحيى بن محلى البطوي

يكنى أبا علي

حاله

كان يمت إلى السلطان ملك المغرب رحمه الله، بالخؤولة، وله جرأة وجرم واضطلاع بالمهمة، إلى نكراء وخفوف إلى الفتنة، واستسهال العظيمة، ولما تصيرت مالقة إلى إيالة السلطان أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق من قبل رؤسايها من بني إشقيلولة، استظهر عليها من عمر هذا بحجاج رجاله، وقدمه بقصبتها، وجعل لنظره جيشاً أخشن، يقوده رجل من كبار وصفانه. وداخل السلطان ثاني الملوك من آل نصر، عمر بن محلى هذا بوساطة أخيه طلحة السابق إلى إيالته، فأحكم بينهما صرف مالقة إليه، وانتقال عمر إلى خدمته، معوضاً عن ذلك بمال له بال، مسلماً إليه حصن شلوبانية، ولأخيه طلحة مدينة المنكب، على أرزاق مقررة، وأحوال مرتبة مقدرة. فتم ذلك، وتحمل ثقات السلطان بقصبة مالقة ليلاً مع عمر، واستدعي للغداة قايد الجيش ومثله من الوجوه، مورياً بمعارضتهم، فسقط الغشاء بهم على سرحان، وأخذهم اعتقاله، رهينة استخلص بها من كان من عياله بالعدوة، وجاء بها جلواة عارية، أعربت عن لؤمه وخبث أمانته، وانتقل له موفى له بعهده، فحل بحصن شلوبانية منتصف عام سبعة وستني وسبعماية، حسبما كتب لي بعض الشيوخ من مسني بقية أهله، واحتل أخوه طلحة بمدينة المنكب، ولم يلبث أن خرج عنها للسلطان معوضاً بالمال، وأعمل الانصراف إلى الحج. وأقام عمر بشلوبانية وما يليها من العمالة، مظهراً للطاعة تمام العام المذكور، وفسد ما بينه وبين السلطان المذكور، وظهر الخلاف وأخيفت الطرق،وتحرك السلطان إلى منازلته لأشهر ثلاثة من خلافه، وحاصره أياماص شد فيها منخقه، فلما رأى عزمه، خاطب سلطانه، الذي نزع عنه أمير المسلمين أبا يوسف، وعرض الحصن عليه، فبادر إليه بالأسطول، فلما احتل بمرسى حصنه، واتصلت به يده، ونشرت عنده بنوده، أفرج عنه السلطان، وأنبت طعمه فيه، وصرف وجهه إلى حضرته، وبدا لعمر في أمره، فصرف الأسطول متعللاً ببعض الأعذار، وأقام على سبيله، واتصل ذلك بالسلطان، فرتب عليه الحصن، وضيق السبل، وتحرك في صايفة العام إلى منازلته في عدة عظيمة، وحاصره ورماه بالمجانيق، وتتبع بها مجاثمه، فأعياه الصبر،وأعمل الحيلة بإظهار الإنابة، وعرض على السلطان التخلي عن الحصن، وطلب منه أن يوجه لقبضه وزيره، وأحظى الرؤساء لديه، وصاحب بنده، فوجههم السلطان في طايفة من حاشيتهم، وقد أكمن لهم عمر بمعرجات الطريق، بين يدي باب القلعة. فلما توسطوا الكمنا، وبرز عمر ليسلم عليهم، ثار بهم رجاله الأسودة وغيرهم، وقبضوا عليهم بمرأى من السلطان، وأدخلوهم الحصن وعاد السلطان إلى قتاله، فتوعد بقتلهم، وجعلهم بأعلى السور، ورمى عليه بحجر، فطرح أحدهم الحين، وعلا صراخهم يسترحمون السلطان، فكف عنه، وانصرف مكظوماً. ولأيام وقعت المهادنة على تخليه عن شلوبانية في جملة شروط صعبة، منها العقد له على بنت السلطان

المسماة بشمس، وانتقاله إلى مدينة المنكب، فتم ذلك في وسط ثمانية وستين بعده، وتمادت المهادنة شهوراً أربعة، ثم ثاب خلافه، وضيقت عليه الحصص المرتبة، وخرج للسلطان عن منكب على مال وعهد، وصرف بعد وجهه إلى سلطانه، وتطارح عليه، وهو بجزيرة طريف،بعد أن أخذ أمانه، زعموا، وقد كان أخوه طلحة سبق إليه، فاعتقل يسيراً. ثم حل اعتقاله إيثاراً للعفة، ورعياً للمتات. ولما توفي السلطان أبو يوسف، اضطره حاله، وآل أمره إلى العود إلى الأندلس، وبها الأشياخ من بني عبد الله بن عبد الحق، مطالبو أبيه بدم عمهم، سبقوا مقدمه على السلطان بإيعاز منه، وقد نزل بقرية أرملة على وادي أفلم، واعتصم منهم ببرج فقاتلوه واستنزلوه فقتلوه، فانقضى أمره على هذه الوتيرة، والبقاء لله سبحانه

عامر بن عثمن

بن إدريس بن عبد الحق

شيخ الغزاة بالأندلس، وابن شيخها، يكنى أبا ثابت، أجري مجرى الأصليين لولادته بالأندلس أوليته. تأتي في اسم أبيه.

حاله

كان رييساً جليلاً، فذاً في الكفاية والإدراك، نسيج وحده في الدهاء والنكراء، مشاراً إليه في سعة الصدر، ووفور العقل، وانفساح الذرع. وبعد الغور، باسلاً مقداماً، صعب الشكيمة على الهمة، لين الكلمة، ريش جناح العز، وافر أسباب الرياسة، مجرباً، محتنكاً، عارفاً بلسان قومه وأغراضهم. جاعلاً جفوات أخلاقهم دبر أذنه، مهيباً على دماثة وإلحاح سقام. تولى الأمر بعد أبيه فقام به أحمد قيام، مسلماً لبقية من مسني القرابة وأكابر الإخوة، اعترافاً بالفضل، وإيثاراً لمزية العتاقة على الهجنة، فحل أرفع المحال. وتبنك على حال الضنا نعيماً، وغزا غزوات شهيرة، إلى أن تناسى الأمر، وكبا بهم الجد، وحملهم قرب مخيفهم بالثار المنيم ملك المغرب، لما اقتحم فرضة المجاز إلى الجهاد على المبايتة ومراسلة الطاغية، فساءت القالة، وفسد ما بينهم وبين سلطانهم، وأعمل عليهم التدبير.

نكبته

ثبت في الكتاب المسمى بطرفة العصر: ولما تنصلت ليدي المسلمين، وفصل أميرهم من ملك المغرب، تنمر أضدادهم النماوؤون له المعاندون قدرة الله فيه، المتهيئون إلى القاصمة بمشاحنته، فأظهروا النفور والحذر،وكانوو قد داخلوا ملك قشتالة وواعدوه اللحاق به، إن راعهم رايع، ووصلتهم مخاطبته بقبولهم. فلما تخلف المسلمون عنا للحاق به، نسب لهم الفشل والتكاسل، فانطلقت الألسن، ولمت القلوب، وتشوف إلى الفتك بهم، وهم عصابة بأسها شديد، أشهروا فروسية ونجدة وأتباعاً، فعظم الخطب، وأعملت الشورى في أمرهم، وصرفت الحيل إلى كف عاديتهم، ومعالجة أمرهم، فتم ذلك. ولما كان يوم السبت التاسع والعشرون من ربيع الأول، قعد لهم السلطان على عادته، ووجه عنهم في غرض الاستشارة في حال السفر إلى إمداد ملك المغرب، وقد عبر ونازل جزيرة طريف،وفاوضهم فيما عليه الناس من إنكار التلوم، ثم قام السلطان من مجلسه، وثارت بهم الرجال، فأحيط بهم، ونزعت سيوفهم عن عواتقهم، وطارت الخيل في ضم من شذ عنهم، فتقبض على طايفة من أعلامهم، كانوا بين غر يباشر قنصاً، أو مفلت لم يجد مهرباً، وطارت الكتب إلى مالقة في شأن من بها منهم، فشملهم الاعتقال، ثم نقلوا إلى مدينة المنكب، فجعلوا في مطبق الأسرى بها، إبلاغاً في النكال، وتناهياً في المثلة، فلم تجر عليهم مصيبة أعظم منها، لاضطرارهم إلى

قضاء حاجة الإنسان برأي عين من أخيه، خطة خسف سيموها، مع العلم بنفور نفوسهم عن مثلها، وفيهم صدور البيت وأعلامه، كأبي ثابت المترجم به، وأخيه كبيره إبراهيم، وابن عمهم زين المواكب، وقريع السيوف، وعروس الخيل، حمو بن عبد الله، وسواهم، وقانا الله شر الهلكات، وأشرأب مخيفهم للسلطان صاحب المغرب،وولى الثرة، إلى صرفهم إليه، وقد استوجب من ملك الأندلس الملاطفة لالتفاته لسيئ البرد، واقتحامه باب القطر. وأخفق السعي، وضن بهم موقع النقمة عن إسلامهم إليه، سيرة أحسنها في جنسهم من أولى الجهالف، فأجلاهم عما قريب في البحر إلى إفريقية، فاستقروا ببجاية، ثم استقدموا إلى تونس تحت إرصاد ورقبة، وأخفر فيهم ملكها الذمة، وهم لديه، فوجههم على بعد الدار، ونزوح المزار، إلى السلطان صاحب المغرب، مصحبين بشفاعة فيهم، كانت قصارى ما لديه، فاستقروا في الجملة تحت فلاح وكفاية، لا تلفت إليهم عين، ولا يتشبث بذمل حظوتهم أمل. ثم نكبوا بظاهر سبتة نكبة ثقيلة البرك، مغارة البرك الحمل، وأودعوا شر السجون بمدينة مكناسة، فأصبحوا رهن قيود عديدة، ومسلحة مرتبة، جر ذلك عليهم ذرة من القول في باب طموحهم إلى الثورة، وعملهم على الانتزاء بسبتة، الله أعلم بحقه من مينه. ولما صير الله ملك المغرب إلى السلطان، أمير المؤمنين أبي عنان، واضطره الحال إلى الاستظهار بمثلهم، انتشلهم من النكبة، وجبرهم بعد الصدعة، وأعلق يد كبيرهم المترجم به بعروة العزة، واستعان بآرائه على افتراع الهضبة، فألفى منه نقاباً قد هذبته التجربة، وأرهقته المحنة، وأخلصته الصنيعة، فسل منه سيفاً على أعدايه، وزعموا أنه انقاد إلى هوى نفسه، واستفزته قوة الثرة، ولذة التشفي، وذهب إلى أن يكل للسلطان ناكبه. المجاراة صاعا بصاع، فانتدب إلى ضبط ما بالأندلس من عمالة راجعة إلى ملك المغرب، فانقلب يجر وراءه الجيش، ويجنب القوة، فقطع به عن أمله القاطع بالآمال، وأحانه الله ببعض مراحل طريقه مطعوناً لطفاً من الله به، وبمن استهدف إلى النصب بمجادته. وهو سبحانه مليء بالمغفرة عن المسرفين، سبحانه

وفاته

في الأخريات من عام تسعة وأربعين وسبعماية.

علي بن بدر الدين

بن موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق

يكنى أبا الحسن.

حاله

هذا الرجل نسيج وحده في الفضل والتخلق، والوفاء، ونصح الجيب، وسلامة الصدر، وحسن الخلق، راجح العقل، سري الهمة، جميل اللقاء، رفيع البزة، كريم الخصال، يكتب ويشعر، ويحفظ ويطالع غرايب الفنون، صادق الموقف، معروف البسالة، ملوكي الصلات، غزل، كثير الفكاهة، على تيقور وحشمة، قدمه السلطان شيخ الغزاة بمدينة وادي آش، فلما وقعت به المحنة، وركب الليل مفلتاً إليها. اتفق لقاؤه إياه صباحاً على أميال منها، وجاء به، وأدخله المدينة على حين غفلة من أهلها، فاستقر بقصبتها وما كاد، وأخذ له صفقة أهلها، وشمر في الذب عنه تشميراً نبا فيه سمعه عن المصانعة، ودهيه عن الجملة، وكفه عن قبول الأعواض، فلم يلف فيه العدو مغمزاً، ولا المكيدة معجماً، ولا استأثر عنه بشيء مما لديه، إلى أن كان انتقال السلطان عنها إلى المغرب، فتبعه مشيعاً إلى مأمنه، فتركها غريبة في الوفاء، شاع خبرها وتعوطي حديثها، على حين نكر المعروف، وجحدت الحقوق، وأخوت بروق الأمل. ثم قلق

المتغلب على الدولة بمكانه، فصرفه إلى العدوة الغربية، فاستقرت به الدار هنالك، في أوايل عام ثلاثة وستين أو أواخر العام قبله.

وخاطبته من مدينة سلا لمكان الود الذي بيني وبينه بما نصه:

يا جملة الفضل والوفا ... ما بمعاليك من خفاء

عندي بالود فيك عقد ... صححه الدهر باكتفاء

ما كنت أقضي علاك حقاً ... لو جيت مدحاً بكل فاء

فأول وجه القبول عذري ... وجنب الشك في صفاء

سيدي، الذي هو فضل جنسه، ومزية يومه على أمسه، فإن افتخر الدين من الله ببدره، أفتخر منه بشمسه، رحلت عن المنشأ والقرارة، ومحل الصبوة والغرارة، فلم تتعلق نفسي بذخيرة، ولا عهد حيرة خيرة، كتعلقها بتلك الذات، التي لطفت لطافة الراح، واشتملت بالمجد الصراح، شفقة أن تصيبها معرة، والله يقيها ويحفظها ويبقيها، إذ الفضايل في الأزمان الرذلة غوامل، والضد عن ضده منحرف بالطبع ومايل. فلما تعرفت خلاص سيدي من ذلك الوطن، وإلقاه وراء الفرضة بالعطن، لم تبق لي تعلة، ولا أجرضتني علة، ولا أتي جمعي من قلة. فكتبت أهنئ نفسي الثانية، بعد هناء نفسي الأولى، وأعترف للزمن باليد الطولى، بالحمد لله الذي جمع الشمل بعد شتاته، وأحيا الأنس بعد مماته، سبحانه لا مبدل لكلماته، وإياه أسئل أن يجعل العصمة حظ سيدي ونصيبه، فلا يستطيع حادث أن يصيبه، وأنا أحدج عن بث كمين، ونصح أنابه قمين، بعد أن أسبر غوره، وأخبر طوره، وأرصد دوره، فإن كان له في التفريق أمل، وفي ركب الحجاز ناقة وجمل، والرأي فيه، قد نجحت منه نية وعمل، فقد غني عن عوف والبقرات، بأزكى الثمرات، وأطفأ هذه الجمرات برمي الجمرات، وتأنس بوصل السري، ووصال السراه، وأناله إن رضي أرضى مرافق، ولو أغري به خافق، وإن كان على السكون بناؤه، وانصرف إلى الإقامة اعتناؤه، فأمر له ما بعده، والله يحفظ من الغير سعده. والحق أن تحذف الأبهة وتختصر، وتحفظ اللسان وبغيض البصر، وينخرط في الغمار، ويخلى عن المضمار، ويجعل من المحظور مداخلة من لا خلاق له، ممن لا يقبل الله قوله ولا عمله، فلا يكتم سراً، ولا يتطرق من الرجولة زمراً، ورفض الصحبة زمام السلامة، وترك النجاة علامة، وأما حالي فما علمتم ملازم كن، ومبهوظ تجربة وسن، أزجي الأيام، وأروم بعد التفرق الالتئام، خالي اليد، مالي القلب والخلد، بفضل الواحد الصمد، عامل على الرحلة الحجازية التي أختارها لكم ولنفسين وآمل في التماس الإعانة عليها يومي بأمسي، أوجب ما قررته لكم ما أنتم أعلم به من ود قررته الأيام والشهور، والخلوص المشهور، وما أطلت في شيء عند قدومي على هذا الباب الكريم، إطالتي فيما يختص بكم من موالاته. وبذل مجهود القول والعمل في مرضاته. وأما ذكركم في هذه الأوضاع، فهو مما يقر عين المجادة، والوظيفة التي تنافس فيها أولو السيادة. والله يصل بقاءكم، وييسر لقاءكم والسلام.

وهذا الفاضل ممن جال فيه لاختيار الإمارة أيام مقامه بالعدوة الغربية، لذياع فضله، وكرم خلاله. وقفل إلى الأندلس، عند رجوع الدولة، فجنى ثمرة ما أسلفه، وقدم شيخ الغزاة بمالقة. ثم نقل إلى التي لا فوقها، من تقديمه شيخ الغزاة بحضرته، منة لا على ميادين حظوته، مقطعاً جانب تجلته، فبلى الناس على عهد ولايته الفتوح الهنية، والنعم السنية. ولما قفل السلطان أيده الله، من فتح قاعدة جيان، أصابه مرض، توفي منه في ثالث صفر من عام تسعة وستين وسبعماية. فتأثر الناس لفقده، لما بلوه من يمن طائره، وحسن موارده، ومصادره. وكان قد صدر ه المنشور

الكريم، من إملائي، بما ينظر في اسم المؤلف، في آخر هذا الديوان.
علي بن مسعود

بن علي بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مسعود المحاربي

الوزير، يكنى أبا الحسن.
حاله
كان من أعيان أهل الحضرة، وذوي الهيآت والنباهة من بيوتها، أيدا، حسن الشكل، جهير الصوت، فصيح اللسان، ثرثاره، جيد الخط، حلو الدعابة، طيب النفس، لبقاً، ذكياً، أديباً، فاضلاً، لوذعياً، مدركاً. وزر للسلطان أبي الوليد، نزع إليه لما دعا إلى نفسه بمالقة من إيالة مخدوعه بعد اصطناعه، وصرف وجهته إلى جهته، فتغلب على هواه، وأشركه في الوزارة، مع القايد الوزير أبي عبد الله بن أبي الفتح القهري، وقد مر ذكره، فأبر عليه بمزيد المعرفة بالأمور الاشتغالية، وجماح عنان اللسان والجرأة، في أبواب المداخلات الوزارية. فلم يزل يضم أذيال الخطة، ويقلصها عن قسيمه، إلى أن لم يبق له منها إلا الاسم إلى حين وفاته.
وفاته
واستمرت حاله على رسمه من القيام بالوزارة إلى أن فتك بسلطانه قرابته بباب داره كما تقدم في اسم السلطان أبي الوليد في حرف الألف فكر أدراجه وهاج بالباطشين، وسل سيفه، يدافع عنه، فمالت إليه الأيدي، وانصرفت إليه الوجوه، وأصيبت بجراحات مثخنة، أتى عليه مها جرح دماغي لأيام. وعلى ذلك فلم يبرح من سدة السلطان، حتى تعجل ثأره، وشمل السيف قتلته. وأخذ البيعة لولده. وكانت وفاته في السابع والعشرين لشعبان من عام خمسة وعشرين وسبعماية. ودفن بباب إلبيرة. وكان الحفل في جنازته عظيماً، والثناء عليه كثيراً، والرحمة له مستفيضة.
ورثاه شيخنا أبو الحسن بن الجياب رحمه الله بقوله:
أيا زفرتي زيدي ويا عبرتي جودي ... على فاضل الدنيا على ابن مسعود
على الشامخ الأبيات في المجد والعلا ... على السابق الغايات في البأس والجود
على غرة العصر التي جمعت إلى ... مهابة مرغوب طلاقة مودود
على من له في الملك غير منازع ... وزارة ميمون النقيبة محمود
على من إذا عد الكرام فإنه ... بواجب حق الفضل أول معدود
ومن كعلي ذي الشجاعة والرضا ... لإصراخ مذعور وإيواء مطرود
ومن كعلي ذي السماحة والندا ... لإسباغ إنعام وإنجاز موعود
ومن كعلي للوزارة قايماً عليها ... بتصويب عليها وتصعيد
ومن كعلي للإدارة سالكاً لها ... نهج تليين مشوب بتشديد
ومن كعلي للسياسة منفذاً ... أوامر تنفيذ وأحكام توطيد
ومن كعلي في رضا الله حاكماً ... بإنجاد معدوم وإعدام موجود
ومن كعلي واصل الرحم التي ... تمت بتقريب له أو بتبعيد
ومسدي الأيادي البيض بدأ وعودة ... مرددة تمحو دجا الثوب السود
أيا كافي السلطان كل عظيمة ... بآراء تسديد وأعمال تمهيد

ويا حامي الملك المشيد بناؤه ... بصولة محذورة وغرة مقصود
ويا كافل الأيتام يجري عليهم ... جراية نعمى بابها غير مسدود
ذكرتك في نادي الوزارة صادعاً ... بأمر مطاع حكمه غير مردود
كرتك في صدر الكتيبة قائماً ... بخدمة مولى بعد طاعة معبود

ذكرتك في المحراب والليل دامس ... تردد آي الذكر أطيب ترديد
ودمعك مرفض وقلبك واجب ... لخشية يوم بين عينيك مشهود
عفا على الدنيا ولا در درهماً ... فما جمعها إلا رهين بتبديد
فمهما حلت منها لديك مسرة ... ففي إثرها فارقب مرارة تنكيد
ألهفاً على الوجه الجميل معطراً ... بدار البلى رهين الأساود والدود
وعهدي به مستبشراً ومبشراً ... بتفريج مكروب وراحة مجهود
لأظلمت الدنيا علي لفقده ... فها أنا أرعاها بمقلة مرصود
وقلص من ظل الرجا فراقه ... فظل رجائي بعده غير ممدود
وكم سبحت فلك المنا في بحارها ... مواخر فاليوم استوت على الجود
وهون عندي كل خطب مصابه ... فبعد علي لست أبكي لمفقود
ولا أدعي أني وفيت بعهده ... فما بالردى عار فكل امرئ مود
ولا سيما إذا مات ميتة عزة ... بعيداً شهيداً ماضياً غير رعديد
وفياً لمولاه مطيعاً لربه وقد ... بطلت ذعراً رقاب الصناديد
فبشرى له أن فاز حياً وميتاً ... بميتة مفقود وعيشة محسود
عليه سلام الله ما ذر شارق ... وما صدعت ورقاء في فرع أملود
وجادت ثرى اللحد الزكي سحايب ... مجددة الرحمى بأحسن تجديد
علي بن لب

بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي

غرناطي، قلعي
حاله
كان ظريفاً، مليح الخط، حار التدبير، عيناً من عيون القطر ووزرائه
شعره
حدث أبو الحسن بن سعيد، قال، تمشينا معاً أيام استيلاء النهب والتهدم، على معظم ديار مراكش بالفتنة المتصلة، قال، فانتهينا إلى قصر من قصور أحد كبرايهم، وقد سجدت حيطانه، وتداعت أركانه، وبقايا النهب والأصبغة والمقربسات، تثير الكمد، ولا تبقي جلداً لأحد، فوجدنا على بعضها مكتوباً بفحم:
ولقد مررت على رسوم ديارهم ... فبكيتها والربع قاع صفصف
وذكرت مجرى الجور في عرصاتهم ... فعلمت أن الدهر منهم منصف

فتناول أبو الحسن بياضاً من بقية جيار، وكتب تحتها ما نصه:
لهفي عليهم بعدهم فمثالهم ... بالله قل لي في الورى هل يخلف
من ذا يجيب منادياً لوسيلة ... أم من يجير من الزمان ويعطف
إن جار فيهم واحد من جملة ... كم كان فيهم من كريم ينصف
توفي بمراكش سنة سبع وعشرين وستماية.
علي بن يوسف

بن محمد بن كماشة

القايد والوزير بين القتادة والخرط، يكنى أبا الحسن
أوليته

كان جده من المنتزين ببعض حصون الأندلس، طلياطيه، وخدم طاغية الروم ببعضها، وانخرط في جملته، يشهد بذلك مكتوبات تلقاها بشماله، ووراء ظهره، صانها حافده المترجم به، في خرقة من السرق لا يزال، يعرضها في سبيل الفخر، على من يصل إلى باب السلطان من رسل الروم. ولقد عرضها أيام سفارته إلى ملك قشتالة على وزيره شمويل اللبي اليهودي، وطلب تجديدها، فقال له هذا يتضمن خدمة جدك للسلطان مولاي جد مولاي السلطان بجملة من بلاد المسلمين، وفيها الشكر له والرعاية على ذلك، فاذهب أنت هذا المنهب، الذي ذهبه جدك، يتجدد لك ذلك إن شاء الله، فلما هلك ووري بين مدافن الروم، بعد أن علق زماناً على سور الحصن في وعاء، توفية لشرط لا أحققه الآن، ولحق ولده بباب السلطان، فتفيئوا ظل كفالته، ونشئوا في عداد صبيته، ولما صلحوا للاستعمال، استخدم منهم كبيرهم في العمل، فاستظهر به على حفزه بحمى ألمرية، وما إليها، فأثرى ورآه استغنى، وطالت مدة ولايته، واستعمل أخاه يوسف والد المترجم به، في القيادة، وكان رجلاً مضعوفاً، فاستمرت حاله إلى أن فقد بصره، وجنى عليه شؤم ولده، الجلا شيخاً زمناً. ثم عاد إلى الأندلس فتوفي بها، حسبما يذكر في إسميهما. وكانوا يتبجحون بنسبة إلى معن بن زائدة. طوق جدهم بتلك النسبة، بعض أولي التنفق والكدية، فتعللوا منها بنسيج العناكب، وأكذبوها بالخلق الممقوت، والبخل بفتات القوت، والتعبد لعبدة الطاغوت، إن أكرمكم عند الله أتقاكم.
حاله

هذا الرجل حسن الشكل، كثير الهشة، جيد الرياش، كثير التعلق والتوسل، لصقت بشجرات الدول سمغته، وثبت بأسبابها قراده، شديد الملاطفة لحجبة الأبواب، والمداخلة لأذيال الأمراء، متصامم على أغراضهم، مكذب لمحسوس جفوتهم، متنفق بالسعاية، متبذل في أسواق الخدمة، يسبق في الطيالس، ويلفظ الزبير، ويصرخ بالإطراء، ويولول بالدعاء، مدل في الأخونة، محكم في نفسه للنادرة التي تضحكهم، بذي مهذار، قليل التصنع، بعيد عن التسمت، أطمع خلق الله وأبخلهم بما لديه، وابعدهم في مهاوي الخسة، أما فلسه فمخزون، وأما خوانه فمحجوب، وأما زاده فممنوع محجور، وأما رفده فمعدوم العين والأثر. وأما ثوبه فحبيس التخت إلى يوم القيامة، قد جعل لكل فصل من فصول معاشه، ونفاضة مخاليه، وسور دوابه مؤنة ما. فالنخالة بينة المصرف، وللسرجين معين الجهة، وفتات المنديل، وقفة على فطور الغد، ودهن الاستصباح جار في التجلة والادخار مجرى دهن البلسان.
أخباره

في هذا الباب مغربة، ولزمت كعبة المنحسة، وعلق في عنقه طاير الشؤم، فلم تنجح له وجهة، ولا سعدت له حركة، واستقر عند الكاينة على الدولة بباب السلطان بالمغرب، خاطباً في حبل الغادر، المتوثب على الملك، ومعيناً للدهر على الأحب الحق وولي النعمة. ثم بدا له في المقام بالمغرب أمناً واضطراباً. ولما رحل السلطان أبو عبد الله بن نصر المذكور، إلى طلب حقه، وقد أعتبه، سدد به رسم الوزارة في طريقه، كما اضطر صياد إلى صحبة كلب مخابت آماله، ولحقت به المشأمة، وتبر الجد، واشتهر ذلك، فعلقت به الشفقة، إلى أن خاطب السلطان بعض من يهمه أمره بهذه الأبيات:

كماشكم من أجله انكمش السعد ... إذا ما اطرحتم شومه نجز الوعد

ومن لم تكن للسعد في بدء أمره ... مخيلة نجح كيف ترجى له بعد

وتصريفه المشئوم فلتتذكروا ... وما قلت إلا بالتي علمت سعد

واقتضى أمره تبرماً به، أن صرف من رندة، وقد استقر أمره بها رسولاً إلى باب ملك المغرب، لأمور منها استخلاص ولده وإيصاله إليه. فتعذر القصد، وسدت الأبواب، وأزفت بدار المغرب عهد بذ الآزفة، وترىخى مخنق مرسله لخلو دسته منه، فثاب الرجاء وقرب الفتح، وساعد السعد مما طال منه التعجب. ولما بلغ خبر صنع الله، وإفاقة الأيام وجبر السلطان بدخول مالقة في طاعته، لحق به، وقد قلقت به الجوانب، وتنكرت الوجوه، وساءت لطيرته الظنون، فتوفر العزم على صرفه عن الأندلس في أوليات رمضان عام ثلاثة وستين وسبعماية، فقبض عليه، وصرف إلى البلاد الشرقية، وقد شرع في إغراء سلطان قشتالة بالمسلمين، وكان آخر العهد به، وذكروا أنه حج وقفل والعودة تتبعه، والنفوس لمتوقع شومه مكرهة، ورجي أن يكون ماء زمزم، وضوء النقع، أو أن مشاهدته الآثار الكريمة، تصلح ما فسد من حاله، فآب شر إياب ، وربما نبض له شريان من جده، الذي تقدم في خدمة النصارى ذكره. فأجاز البحر إلى ملك برجلونة، فجعل تقبيل كفه، لاستلام الحجر الأسود، وسيلة ثانية، وقربة مزلفة، والقول بفضل وطنه حجة صادقة، ثم قلق لخيبة قصده، وخلو يده، من الزقوم، الذي كان قد احتجنة للمهم من أمره، واستيلاء النحس على بيت سعده، فصرف وجهه للشوم إلى المغرب، فاحتل به، وجعل يطوق كل من اسلف له بدا الذام، ويشيع عنه سوء القيلة، ويجهر في المجتمعات والدكاكين، بكل شنيع من القول، بالغاً في ألفاظ السغيلة، أقصى مبالغ الفحش، لطف الله بنا أجمعين.

عثمن بن إدريس

بن عبد الله بن عبد الحق بن محيو

من قبيل بني مرين، يكنى أبا سعيد، شيخ الغزاة بجزيرة الأندلس على عهده

أوليته

جدج هؤلاء الأقيال الكرام، الذي يشترك فيه الملوك الغر من بني مرين بالعدوة، مع هؤلاء القرابة، المنتبين عنهم أضرار التراث، ودواعي المنافسات، عبد الحق بن محيو، وكان له من الولد إدريس وعثمن وعبد الله ومحمد وأبو يحيى ويعقوب، فكان الملوك بالمغرب من ولد يعقوب، وهؤلاء من ولد عبد الله، وإدريس ويعقوب ورحو. ولما قتل جدهم يعقوب، بيد ابن عمه عبد الحق بن يعقوب، أجفل أخواه ومن معهم، وانتبذوا، واستقروا بتلمسان، بعد أمور

يطول شرحها. ثم اجتاز الشيخ أبو سعيد في جملة من اجتاز منهم إلى الأندلس، فنال بها العزة والشهرة.

حاله

كان رجل وقته جلالة وأصالة، ودهاء وشهرة وبسالة، مرمى لاختيار عتاقة وفراهة، واحد الزمن أبهة ورواء. وخلقاً ورجاحة، أيداً، عظيم الكراديس، طوالاً، عريض المنكب، أقنى الأنف، تقع العين منه على أسد عيص، وفحل هجمة، بعيد الصيت، ذائع الشهرة، منجب الولد، يحمي السرح، ويزين الدست. لحق بتلمسان مع زوج أمه وعمهن موسى بن رحو، عندما فروا من الجبل بأحواز ورغة، شاباً كما اجتمع، وأجاز البحر منها، وخدم مرتزقاً بها. ثم عاد إلى العدوة، برضاً من عمه السلطان بها. ثم فر عنه ولحق بالأندلس، واستقر بها،وولى خطة الشياخة العامة، وهي ما هي، من سمو الهضبة، وورود الرزق، وانفساح الإقطاع، فشارك وتبنك النعيم، وأقبل ما استظهر به على ما وراء مدينة سبتة، عند انتظامها في الإيالة النصرية. فشن الغارة، ودعا إلى نفسه، وخلا فطلب النزال، فغلبت غارته أحواز وادي سبو. ثم رجع أدراجه إلى الأندلس، وذمر السلطان أبا الوليد، منفق حظوته على طلب الملك، ففازت به قداحه، واستولى على الجم من ريق دنياه، وسل الكثير من ماله وذخيرته في أبواب من العبادة، والاسترضاء والاستهداء، ولما توفي، تضاعف لطف محله من ولده، إلى أن ساء ما بينه وبين مدبر أمره ابن المحروق، ونفر عنه، مؤاخذاً بألقيات، كانت سلماً إلى تجنبه، يحسب أن الافتقار إليه، يعبد له كل وعث. فاغتنم المذكور نفرته، واستبصر في الانتباذ عنه، مطيعاً دواعي الخور والرهبة، من شؤوب حاله، وأجلى الأمير عن رحيله وولده إلى ساحل ألمرية، موادعاً، مزمعاً الرحيل عن الأندلس، وارتاد الجهات، وراسل الملوك بالعدوة، فكل صم عن ندايه، وسد السبيل إليه، فداخل قوماً من مشيخة حصن أندرش حاضرة وطن الجباية، فاستولى عليه، وانتقل إليه بجملته، وراسل الطاغية، فتحرك إلى منازلة حصن وبرة من الحصون التاكرونية. ففازت به قداحه، واستعدي عم السلطان، وهو الرئيس أبو عبد الله بن فرج ابن نصر من تلمسان، فدعا إليه، وشملت الفتنة، وكانت بنه وبين جيش الحضرة وقايع، تناصف فيها القوم خطتي المساجلة إلى أن نفد فعوهد على التخلي عن الحصن، وصرف أميره إلى متبوئه الأقصى، وانتقاله إلى مدينة وادي آش، ليكون سكنه بها، تحت جرايات مقدرة، وذلك في شهر رمضان ثمانية وعشرين وسبعماية، وعلى تفية ذلك، عدا على منايه أميره، ففتك به، واستقدم الشيخ أبا سعيد فأعاده إلى محله، واستمرت على ذلك حياته إلى مدة حياته، إلى أن توفي في أخريات أيامه.

وفاته

ولما نزل العدو ثغر أطيبة، ونهض جيش المسلمين إلى مضايقته، أصابه المر ض. ولما أشفي ونقل إلى مالقة، فكانت بها وفاته يوم الأحد ثاني ذي حجة من عام ثلاثين وسبعماية عن سن عالة تنيف على الثمانين سنة، ونقل إلى غرناطة، فووري بها، وبنيت عليه بنية ضخمة، وصار أمره إلى ولده، ونقش على قبره في الرخام: هذا قبر شيخ الحماة، وصدر الأبطال الكماة، واحد الجلالة، ليث الإقدام والبسالة، علم الأعلام، حامي ذمار الإسلام، صاحب الكتايب المنصورة، والأفعال المشهورة، والمغازي المسطورة، وإمام الصفوف، القايم بباب الجنة تحت ظلال السيوف، سيف الجهاد، وقاصم الأعاد، وأسد الآساد، العالي الهمم، الثابت القدم، الإمام المجاهد الأرضي، البطل الباسل الأمضى، المقدم، المرحوم، أبي سعيد عثمن، ابن الشيخ الجليل، الإمام الكبير، الأصيل الشهير، المقدس، المرحوم أبي العلاء إدريس، ابن عبد الله بن عبد الحق. كان عمره ثمانياً وتسعين سنة، أنفقه ما بين روحة في سبيل الله، وغدوة، حتى استوفى في المشهور. سبع ماية واثنتين وثلاثين غزوة، وقطع عمره جاهداً مجاهداً، في طاعة الرب، محتسباً في إدارة

الحرب، ماضي العزايم في جهاد الكفار، مصادماً من تدفق التيار، وصنع الله له فيهم، من الصنايع الكبار، ما صار ذكره في الأقطار، أشهر من المثل السيار، حتى توفي رحمه الله، وغبار الجهاد طي أثوابه، وهو مراقب لطافية الكفار وأحزابه، فمات على ما عاش عليه، وفي ملحمة الجهاد قبضه الله إليه، واستأثر به، سعيداً مرتضاً، وسيفه على رأس ملك الروم منتضاً، مقدمة قبول وإسعاد، ونتيجة جهاد وجلاد، ودليلاً عن نيته الصالحة، وتجارته الرابحة، فارتجت الأندلس لفقده، أتحفه الله رحمة من عنده، توفي يوم الأحد الثاني لذي الحجة من عام ثلاثين وسبعماية.

القضاة الأصليون

عتيق بن أحمد

بن محمد بن يحيى الغساني

غرناطي، يكنى أبا بكر، ويعرف بابن الفرا، ويعرف عقبة ببني الوادي آشي، وقد مر ذكر ولده أبي الفرج، وينبز بقرنيات.

حاله

حدثني أبي رضي الله عنه، وكان صديقاً لأبيه، أنه كان من أهل الجلالة والفضل، حسن السمت، عظيم الوقار، جميل الرواء، فاضلاً، حسن العشرة، وقال القاضي ابن عبد الملك كان جامعاً لفنون من المعارف من معروف الفضل في كل ما يناول من الأمور العلمية، وقيد كثيراً، وعني بالعلم العناية التامة، واستقضي بالمنكب، وعرف في ذلك بالعدالة والنزاهة.

تواليفه

صنف نزهة الأبصار في نسب الأنصار، ونظم الحلي في أرجوزة أبي علي، يعني ابن سينا.

شعره

قال ومما نظمته ووجهته به صحبة رسالتين:

يا راكباً يبغي الجناب الأشرفا ... ومناه أن يلقى الكريم المسعفا
عرج بطيبة مرة لترى بها ... علمي قبول رحمة وتعطفا
وإذا حللت بها فقبل تربها ... وارغب جلالهم عسى أن يسعفا
وأسل دموعك رغبة وتضرعاً ... وأطل بها عند التضرع موقفا
واذكر ذنوبك واعترف بعظيمها ... فعسى الذي ترجو له أن يعطفا
واجعل شفيعك إن قصدت عناية ... قبراً تقدس تربة وتشرفا
قبر حوى النور المبين ونوره ... يهدي به سبل السلام من اقتفا
قبر به الهاشمي محمد أبهى ... الأنام سناً وأوفى من وفا
خير الورى علم التقى شمس الهدى المنتقى والمجتبا والمصطفا
سلم عليه وخصه بتحية ... واقرأ عليه من السلام مضاعفا
واذكر هديت أخا البطالة عمره كم نقض العهود وأخلفا
ولكم تيقن بالدليل فماله ... ركب العناد لجاجة وتعسفا

وعصى فأسلم للقطيعة والجوى ... حق على من خان أو لا يعرفا
هل للعفو تنفح نحوه يوماً ... فيضحى بالرضا متعرفا
وأعد حديث مشوق قلب عنده ... من لم يذب شوقاً له ما أنصفا
إخبره عن حبي وطول تشوقي ... تفديك عطفة نفسي مخبراً ومعرفا
وتشك من جاء إليه فإن لي ... نفساً تسوفني المتاب تسوفا
مولده: بغرناطة في ذي حجة خمس وثلاثين وستماية.
وفاته
ذكر أنه كان حياً سنة خمس وثمانية وستماية.
علي بن محمد بن توبة
يكنى أبا الحسن
حاله
كان من العلماء الجلة الفقهاء الفضلاء. ولي قضاء غرناطة لباديس ابن حبوس، وعلى يديه كان عمل منبر جامعها، وكان عمله في شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين وأربعمائة. وكان من قضاة العدل، وإليه تنسب قنطرة القاضي بغرناطة، والمسجد المتصل بها في قبلتها. وكان كاتبه الزاهد أبا إسحق الإلبيري، وفيه يقول:
بعلي بن توبة فاز قدحي ... وسمت همتي على الجوزاء
فهنيئاً لنا وللدين قاض ... مثله عالم بفضل القضاء
يحسم الأمر بالسياسة والعدل ... كحسم الحسام للأماء
لو أنا سيرناه قال اعترافا ... غلط الواصفون لي بالذكاء
أو رأى أحنف وأكبر منه ... حلمه ما انتموا إلى الحلماء
أو رأى المنصفون بحر نداه ... جعلوا حاتماً من البحر لاء
هو أوفى من الشمول عهداً ... ولما زال مغرماً بالوفاء
وحيا المزن وحيا أخاه ... أهملت كفه بوبل العطاء
يشهد العالمون في كل فن ... أنه كان كالشهاب في العلماء
وقضاة الزمان أرض لديهم ... وهو من فوقهم كمثل السماء
لتعرضت مدحه فكأني ... رمت بحراً مساجلاً بالدلاء
فانا معجم على أن خيلي ... لا تجاري في حلبة الشعراء
لكساني محبراً ثوب فخر ... طال حتى حررته من وراء
ولو أنصفته وذاك قليل ... كان خدي لنعله كالحذاء
فأنا عبده وذاك فخاري ... وجمالي بين الورى وبهاء
وثناء وقف عليه وشكري ... ودعائي له بطول البقاء

علي بن عمر

بن محمد بن مشرق بن محمد بن أضحى بن عبد اللطيف بن الغريب بن يزيد بن

الشمر بن عبد شمس بن الغريب الهمداني

والغريب بن يزيد هو أول مولود ولد للعرب اليمانيين بالأندلس يكنى أبا الحسن.

ولي غرناطة. وكان من أهل العلم والفهم، والمشاركة في الطب، والكفاية الجيدة، والشعر في ذروة همدان، وذوايبهما، حسن الحظ، كريم النفس، جواد بما يماري، عطاياه جزلة، ومواهبة سنية، وخلقه سهلة، كثير البشاشة، مليح الدعابة، موطأ الأكناف، على خلق الأشراف والسادة.

مشيخته

روي بألمرية عن القاضي أبي محمد بن سمحون وبه، تفقه. وقرأ الأدب على ابن بقنة، وعلى الإمام الأستاذ أبي الحسن علي بن أحمد بن الباذش، وسمع الحديث على الحافظ أبي بكر بن غالب بن عبد الرحمن ابن عطية وغيره.

شعره

من شعره يخاطب الوزير ابن أبي ويعتذر إليه، وكان الفقيه أبو جعفر المذكور، قد خاطبه شافعاً في بعض الأعيان، فتلقى شفاعته بالقبول، ثم اعتقد أنه قد جاء مقصراً، فكتب إليه:

ومستشفع عندي بخير الورى ... عندي وأولاهم بالشكر مني وبالحمد
وصلت فلما لم أقم بجزايه ... لففت له رأسي حياء من المجد

وكتب يخاطب أبا نصر بن عبد الله، وقد كان أبو نصر خاطبه قبل ذلك:

أتتني أبا نصر نتيجة خاطر ... سريع كرجع الطرف في الخطرات
فأعربت عن وجد كمين طويته ... بأهيف طاو فاتر اللحظات
غزال أحم المقلتين عرفته ... نحيف مني للحسن أو عرفات
رماك فأصمى والقلوب رمية ... لكل كحيل الطرف ذي فتكات
وظن بأن القلب منك محصب ... فلباك من جنابه بالجمرات
تقرب بالنساك في كل منسك ... وضحى غداة النحر بالمهجات
وكانت له جيان مثوى فأصبحت ... ضلوعك مثواه بكل فلات
يعز علينا أن تهيم فتنطوي ... كبيباً على الأشجان والزفرات
فلو قبلت للناس في الحب فدية ... فديناك بالأموال والبشرات

وخاطب أحد أوليائه شافعاً في رجل طلق امرأته، ثم علقت بها نفسه، فلم تسعفه، وكتب إليه:

ألا أيها السيد المجتبا ... ويا أيها الألمعي العلم
أتتني أبياتك المعجزات ... بما قد حوت من بديع الحكم
ولم أر من قبلها بابلاً ... وقد نفثت سحرها في الكلم
ولكنه الدين لا يشترى ... بنثر ولا بنظام نظم
وكيف أبيح حماً مانعاً ... وكيف أحلل ما قد حرم
ألست أخاف عقاب الإله ... وناراً مؤججة تضطرم
أأصرفها طالقة بتة ... على أنوك قد كعني واجترم
ولو أن ذاك الغبي الخمول ... تثبت في أمري ما ندم
ولكنه طاش مستعجلاً ... فكان أحق الورى بالندم

ومن شعره أيضاً قوله رحمه الله:

يا عليماً بمضمرات القلوب ... أنا عبد مثقل بالذنوب

فاعف عني وتب علي وفرج ... ما أنا فيه من أليم الكروب

حالما أشتكي سواك طبيب ... كيف أشجي به وأنت طبيب

أنا ممن دعا قريب مجيب ... فأرح ما بمهجتي عن قريب

تواليفه

قال أبو القاسم بن خلف الغافقي، حدثني عنه الفقيه أبو خالد ابن يزيد بن محمد وغيره بتواليف، منها كتاب قوت النفوس، وأنيس الجليس وهو كتاب حسن، ضمن فيه كثيراً من شمايل النبي عليه الصلاة والسلام.

توفي بغرناطة في سنة أربعين وخمسماية، وهو يحاصر الملثمين بقصبة غرناطة حسبما ثبت في اسم ابن هود أحمد.

ومن الطارين والغرباء

عثمن بن يحيى

بن محمد بن منظور القيسي

من أهل مالقة، يكنى أبا عمرو، ويعرف بابن منظور، الأستاذ القاضي من بيت بني منظور الإشبيليين أحد بيوت الأندلس المعمور بالنباهة.

حاله

كان رحمه الله صدراً في علماء بلده، أستاذاً ممتعاً من أهل النظر والاجتهاد والتحقيق، ثاقب الذهن، أصيل البحث، مضطلعاً بالمشكلات، مشاركاً في فنون، من فقه وعربية، برز فيهما، إلى أصول وقراءات وطب ومنطق. قرأ كثيراً، ثم تلاحق بالشادين، ثم غبر في وجوه السوابق. قرأ على الأستاذ أبي عبد الله بن الفخار، ولازم الأستاذ أبا محمد بن أبي السداد الباهلي، وتزوج ابنة الفقيه أبي علي بن الحسن، فاستقرت عنده كتب والدها، فاستعان بها على العلم والتبحر في المسايل، وقيد بخطه الكثير، واجتهد وصنف، وأقرأ ببلده، متحرفاً بصناعة التوثيق، فعظم به الانتفاع، وقعد للتدريس خلفاً للراوية أبي عثمن بن عيسى في شوال عام تسعة وسبعماية وولي القضاء ببلش وقمارش، وملتماس، ثم ببلده مالقة، وتوفي قاضياً بها. لقيته، وانتفعت بلقايه، وبلوت منه أحسن الناس خلقاً، وأعذبهم فكاهة.

شعره

وكان قليلاً ما يصدر عنه، كتب على ظهر الكتاب الذي ألفه للوزير أبي بكر بن ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم، مقتدياً بغيره من الأعلام في زمانه:

قد جمع الحكم وفصل الخطاب ... ما ضمه مجموع هذا الكتاب

من أدب غض ومن علية ... تسابقوا للخير في كل باب

فجاء فذاً في العلى والنهى ... ومنتقي صفو لباب اللباب

ألفه الحبر الجليل الذي ... حاز العلا إرثاً وكسباً فطاب

تواليفه

ألف كتاب اللمع الجدلية في كيفية التحدث في علم العربية. وله تقييد في الفرايض حسن، سماه، بغية المباحث في معرفة مقدمات الموارث، وآخر في المسح على الأنماق الأندلسي.

وفاته

توفي يوم الثلاثاء الخامس والعشرين لذي حجة من عام خمسة وثلاثين وسبعماية، ولم يخلف بعده مثله.

علي بن أحمد

بن الحسن المذحجي

من أهل حصن ملتماس، وابن وزيره الفقيه الحافظ القاضي، يكنى أبا الحسن، ويعرف بجده.

حاله

من أولي الأصالة والصيانة والتعفف، والعكوف على الخير، والآوين إلى طعمة متوارثة، ونباهة قديمة، صناع اليد، متقن لكل ما يحاوله من تسعير ونجارة، مبذول المودة، مطعم للطعام بدار له معدة للضيفان من فضلاء من تطوه الطريق، ويغشاه من أبناء السبيل. ولي قضاء بلده في نحو عشرين سنة، فحمدت سيرته، ثم ولي قضاء مالقة، فظهرت دربته ومعرفته بالأحكام. فأعفي وعاد إلى ما كان بسبيله من القضاء بموضعه والخطابة.

مشيخته

قرأ على الشيخين الصالحين، أبي جعفر بن الزيات، وأبي عبد الله بن الكماد ببلده، بلش، وأخذ عنهما.

تواليفه

له أجوبة حسنة في الفقه. وصنف على كتاب البراذعي تصنيفاً حسناً، بلغ فيه إلى آخر رزمة البيوع ثلاثة عشر سفراً، واستمرت على ذلك حاله.

توفي ببلده بلشن في ..... من عام ستة وأربعين وسبعماية.

علي بن عبد الله

بن الحسن الجذامي النباهي المالقي

صاحبنا أبو الحسن.

أوليته

تنظر فيما تقدم من أهل بيته والمذكورين فيه من سلفه.

حاله

هذا الرجل، ولي قضاء الحضرة، وخطابة جامع السلطان، وعرض له تقزز فيما يقف عليه، من منتخب وصفه، وعدم رضاً بما يجتهد فيه من تحليته، فوكلنا التعريف بخصايصه، إلى ما اشتهر من حميدها، تحرجاً مما يجر عتبه، أو يثير عدم رضاه.

مشيخته

ذكر أنه أخذ عن الشيخ الخطيب أبي بكر الطنجالي، قريب أبيه، والناظر عليه بعده بوصاته. وكان من أهل الدراية والرواية، وعن الشيخ الفقيه أبي القاسم محمد بن أحمد الغساني، شهر بابن حفيد الأمين، وقرأ عليه الفقه والقرآن،

وسمع عليه، وتلا على الشيخ الأستاذ المقري أبي محمد بن أيوب، وسمع عليه الكثير. وهو آخر من حدث عن أبي بن أبي الأحوص. وعلى الشيخ المقري أبي القاسم بن يحيى بن محمد بن درهم، وأخذ عن قريبه القاضي، نسيج وحده أبي بكر عبد الله بن بكر الأشعري. ومن أشياخه صهره القاضي الأستاذ أبو عمرو بن منظور، والأستاذ الحافظ المتكلم أبو عبد الله القطان، والصوفي أبي الطاهر محمد ابن صفوان، والقاضي الكاتب أبو القاسم محمد البناء. وصحب الشيخ أبا بكر بن الحكيم، ولازمه وروى عنه. ولقي الخطيب المقري أبا القاسم ابن جزي، وأخذ نسبته عن الشيخ أبي القاسم بن عمران. وبرندة عن القاضي المحدث المقيد أبي الحجاج يوسف المتشافري. ورحل فلقي بتلمسان عمران أبا موسى المشدالي، وحضر مجلسه، والأخوين الإمامين أبا زيد وأبا موسى ابني الإمام. وبباجة، أبا العباس أحمد بن الرباعي، وأبا عبد الله بن هرون. وبتونس أعلاماً، كقاضي الجماعة أبي عبد الله ابن عبد السلام. قال ومن خطه نقلت، وأجازني من أهل المشرق والمغرب، عالم كثير.

شعره

قال، نظمت مقطوعتين، موطئاً بهما على البيتين المشهورين.

الأولى منهما قولي:

بنفسي من غزلان غزوي وغزالة ... جمال محياها عن النسك زاجر

تصيد بلحظ الطرف من رام صيدها ... ولو أنه النسر الذي هو طاير

معطرة الأنفاس رائقة الحلى ... هواها بقلبي في المهامة ساير

إذا رمت عنها سلوى قال شافع ... من الحب ميعاد السلو المقابر

والأخرى تقول:

وقائلة لما رأت شيب لمتي ... لئن ملت عن سلمى قعذرك ظاهر

زمان التصابي قد مضى لسبيله ... وهل لك بعد الشيب في الحب عاذر

فقلت لها كلا وإن تلف الفتى ... فما لهواها عند مثلي آخر

ستبقى لها في مضمر القلب والحشا ... سريرة ود يوم تبلى السراير

وكتب مع شكل يحذو على النعل الكريم، من شأنه أن يكتب ذلك لكل مزمع سفر:

فديتك لا يهدى إليك أجل من ... حديث نبي الله خاتم رسله

ومن ذلك الباب المثال الذي أتى ... به الأثر المأثور في شأن نعله

ومن فضله مهما يكن عند حامل ... له نال ما يهواه ساعة حمله

ولا سيما إن كان ذا سفر به ... فقد ظفرت يمناه بالأمن كله

فدونك منه أيها العلم الرضا ... مثالاً كريماً لا نظير لمثله

ومن ذلك قوله:

لا تلجأن لمخلوق من الناس ... من يافث كان أصلاً أو من الياس

وثق بربك لا تيأس ترى عجباً ... فلا أضر على عبد من الياس

ومن قوله يمدح السلطان ويصف الإعذار:

أبدى لنا من ضروب الحسن أفنانا ... هذا الزمان لمولانا ابن مولانا

يقول فيها لطف الله بنا وبه:

ولا تحرك لساناً يا أخا ثقة ... بريم رامة إن وفى وإن خانا
يظل ينشر ميت الوجد عن جدث ... من الجفون أو الأحشاء عريانا
ثم قال فيها بعد كثير يرجى عفو الله فيه:
فما النسيب أولى من حديث علا ... عن الإمام ينيل المرء رضوانا
يممه تحظ بما أملت من أمل ... يجنيك للسؤال أفناناً فأفنانا
ومنها في المدح:
ملك يخف لراجيه بنايله ... على وقار يرى كالعين ثملانا
ملك ينص له الآلاء عزته ... على السعادة في الدارين فرقانا
العاطر الذك رترتاح النفوس له ... تخال فيه لها روحاً وريحانا
الساحر المنطق في شتى العلوم ... إذا سألت منه لوجه الرشد هانا
كسا الزمان ثياب الفضل حتى ... قضا عن منكبي صرفه ظلماً وعدوانا
وعظم الشرع حتى أن داعيه ... لا يستطيع له المدعو عصيانا
ومنها في ذكر الإعذار:

لله درك يا مولاي من ملك ... شيدت بالحق للإسلام بنيانا
ولم تبال ببذل المال في غرض ... يعم بالفضل ولداناً وبلدانا
وقمت في الولد الميمون طائره ... بسنة الدين إكمالاً وإتقانا
بدا لنا قمراً ترنو العيون له ... مقلداً من نطاق المجد شعبانا
وقام يسحب أذيال الجمال على ... على بساط ملكك بالإعذار جذلانا
خجلان بالقصور عن بلوغ مداً ... من العلى بل الحسن منه قد بانا
فدته أنفسنا لو كان يقبلها ... منا وكانت على الإبلال قربانا
فيا دماً قد سال عن تقوى فعاد له ... بين الدماء طهوراً طيباً زانا
ولا دليل على الغفلة المعبر عنها بالسلامة والذهول كقوله: وقمت في الولد الميمون طائره. ومن ذلك قوله يخاطب صاح بالعلامة بالمغرب أبا القاسم بن رضوان:
لك الله قلبي في هواك رهين ... وروحي عني إن رحلت ظعين
ملكت بحكم الفضل كلي خالصاً ... وملكك للحر الصريح يزين
فهب لي من نطقي بمقدار ما به ... يترجم سر في الفؤاد دفين
فقد شملتنا من رضاك ملابس ... وسح لنا من نداك معين
أعنت على الدهر الغشوم ولم تزل ... بدنياك في الأمر المهم تعين
وقصر من لم تعلم النفس أنه ... خذول إذا خان الزمان يخون
وإني بحمد الله عنه لفي غنى ... وحسبي صبر عن سواك يصون
أبى لي مجد عن كرام ورثته ... وقوفاً بباب للكرام يهين
ونفسي سمت فوق السماكين همة ... وما كل نفس بالهوان تدين
ولما رأت عيني محياك أقسمت ... بأنك للفعل الجميل ضمين

وعاد لها الأنس الذي كان قد مضى ... برية إذ شرخ الشباب خدين
بحيث نشانا لابسين حلي التقى ... وكل بكل عند ذاك ضنين
وفتيان صدق كالشموس وكالحيا ... حديثهم ما شئت عنه يكون
لئن نزحت تلك الديار فوجدنا ... عليها له بين الضلوع أنين
إذا مر حين زاده الشوق جدة ... وليس يعاب للربوع حنين
لقد عبثت أيدي الزمان بجمعنا ... وحان افتراق لم نخله يحين
وبعد التقينا في محل تغرب ... وكل الذي دون الفراق يهون
فقابلت بالفضل الذي أنت أهله ... ومالك في حسن الصنيع قرين
وغبت وما غابت مكارمك التي ... على شكرها الرب العظيم يعين
يميناً لقد أوليتنا منك نعمة ... تلذ بها عند العيان عيون
ويقصر عنها الوصف إذ هي كلها ... لها وجه حر بالحياء مصون
ولما قدمت الآن زاد سرورنا ... ومقدمك الأسنى بذاك قمين
لأنك أنت الروح منا وكلنا ... جسوم فعند البعد كيف تكون
ولو كان قدر الحب فيك لقاؤنا ... إليك لكنا باللزوم ندين
ولكن قصدنا راحة المجد دوننا ... فراحته شمل الجميع تصون
هنيئاً هنيئاً أيها العلم الرضا ... بما لك في طي القلوب كمين
لك الحسن والإحسان والعلم والتقى فحبك دنيا للمحب ودين
وكم لك في دار الخلافة من يد ... أقرت لها بالصدق منك مرين
وقامت عليها للملوك أدلة ... فأنت لديها ما حييت مكين
فلا وجه إلا وهو بالبشر مقبل ... ولا نطق إلا عن علاك مبين
بقيت لربع الفضل تحمي ذماره ... صحيحاً كما قد صح منك يقين
ودونك يا قطب المعالي بنية ... من الفكر عن حال المحب تبين
أتتك ابن رضوان تمت بودها ... وما لسوى الإغضاء منك ركون
فخل انتقاد البحث عن هفواتها ... ومهد لها بالسمح حيث تكون

وخذها على علاتها فحديثها ... حديث غريب قد عراه سكون
ومن شعره قوله في ليلة الميلاد الكريم سن قصيدة:
خليلي مرا على أرض مأرب ... ولا تعذلاني إنني غير آيب
وهي طويلة أثبتت في الرحلة. فلينظرها هنالك من أراد استيفاء غرضها.
نثره

من أمثل ما صدر عنه في غرض غريب، وهو وصف نخلة بإزاء باب الحمراء. ونثره كثير، ولكنا اخترنا له ما اختار لنفسه، وأشاد بشفوفه على أبناء جنسه: يا أيها الأخلاء الذين لهم الصنايع، التي تحسدها الغمايم، والبدايع التي تودها بدلاً من أزهارها الكمايم، بقيتم وشملكم جميع، وروض أملكم مريع، والكل منكم للغريب الحسن من

الحديث المحب سميع،

بأرض النخل قلبي مستهام ... فكيف يطيب لي عنها المقام

لذاك إذا رأيت لها شبهاً ... أقول وما يصاحبني ملام

ألا يا نخلة من ذات عرق ... عليك ورحمة الله السلام

فسلمت يوماً تسليم المبرة، على مدنها الحرة البرة، جارة حايط الدار، الواقفة للخدمة كالمنار، على سدة الجدار، بياض النهار، وسواد الليل، المتلفعة بشعار الوقار، المكفولة الذيل، أنيسة مشيخة الجماعة، القاطنة من الحمراء العلية، بباب ابن سماعة، فحين عطفت عليها، وصرفت فناءي وفنائها، وقلت لها كيف حالك أيتها الجارة، الساكنة بنجدة الحجارة، الواعظة للقريب والبعيد، بمقامها صامتة على الصعيد.

سقاك من الغر الغوادي مطيرها ... ولا زلت في خضراء خض نظيرها

خلتها اهتزت عند النداء اهتزاز السرور، وتمايلت أكمامها تمايل الثمل المسرور، ثم قالت لسايلها بلسان وسايلها، عند مشاهدة مثلي تقول العرب، عينها فرارها، واينو جدها للناظرين اصفرارها، وجملة بخيتي، بعد إتمام تحيتي، أن الدهر عجم قناتي، ومس الكبر كدر سناتي، وما عسى أن أبث من ثكناتي، وجل علاتي من تركيب ذاتي. ولكني أجد مع ذلك، أن وقاري، حسن لدى الحي احتقاري، وكثرة قناعتي، أثمرت إضاعتي، وكمال قدي، أوجب قدي، فما أنس من الأشياء، لا أنس عدوان جعسوس من لعبوش اليهود أو المجوس، يفحص يمديته عن وريدي، ويحرص على مد جريدي، ويجدع كل عام يخنجره أنفي، وكلما رمت كف إذايته عني، كشم كف، فلو رايتم صعصعة أفناني، وسمعتم عند جذم بناني، قعقعة جناني، والدمع لما جفاني، يفيض من أجفاني، والجعسوس الخبيث المنحوس، قد شد ما حد بأمراسه، ورفعه لبيعه كفره على راسه. بعد الأمر بوضعه على أسنمة القبور، حسبما ثبت في الحديث المشهور، لحملتكم يا

بني اسم وحام على الغيرة وشايج الأرحام، فقد علمتم بنص الأثر، أني عمتكم القديمة، وإن لم أكن لذلك بأهل، فإني لكم اليوم خديمة، أو من ذرية الفريق الموجب، المضروب به المثل يوم السقيفة، لمن رام من أشراف الأندلس أن يكون إذ ذاك خليفة. وخالة أبي كانت النخلة البرشا الكبيرة، التي حادثها الأمير عبد الرحمن بالرصافة القريبة من كورة إلبيرة. فكيف يسهل اليوم عليكم إهمالي، ويجمل لديكم إخمالي، وترك احتمالي، والأيام والحمد لله مساعدة، والملك ملك بني ساعدة. فلما سمعت عتابها، وعلمت أنها قد شدت للمناضلة أقتابها، قلت لها أهلاً بك وسهلاً، ومهلاً عليك أو بهلاً، لقد دسع بعيرك، وعادت بالخيبة عيرك. فليست الحقيقة كالمجاز، ولا دليقية في النيات كالحجاز. هنا جنات من أعناب مرسلة الذيولن مكملة الأطناب، قد طاب استيارها، وحمد اختبارها واختيارها، وعذبت عيون أنهارها، وتفتحت كمايم أزهارها، عن وردها ونرجسها وبهارها، وسرت بطرف محاسنها الرفاق، حتى قلقت منها الشام واليمن والعراق. قد صرت من المنال عشبة، وأصبحت تذلي خالفة، ورذلي بالهم تالفة، لا يجتنى بلحك ولا طلعك، ولا يرتجى نفعك، فالأولى قطعك أو قلعك، وإلا فأين قنوك أو صنوك، أو تمرك أو سبرك، هلا أبقيت يا فسيلة على نفسك، وراعيته صلحة جنسك. ولقد انتهت بك المخارجة إلى ارتكاب ما لا يجوز، وفي علمك أن من أمثال الحكماء، كل هالك عجوز. حسبك بحكم العجز ملامها. وما كان إلا أن نقل مقالي. فقال المتكلم بلسان القالي، أنا أتطوع بالجواب، وعلى الله جزيل الثواب، ليعلم كل سايل، أن تفضيل النخل على العنب، من المسايل التي لا يسع فيها جحد جاحد، وإن كانا أخوين سقيا بماء واحد. وقد جرى مثل هذا الخطاب بين يدي عمر بن الخطاب، فقيل يا بني حتمة، أيهما أطيب، الرطب أم العنب، فقال ليس كالصقر، في رؤوس الرقل، الراسخات

في العقل، المطعمات في المحل، تحفة الصايم، ونقلة الصبي القادم، ونزل مريم نت عمران. والنخلة هي التي مثل بها المؤمن من الإنسان، ليس كالزبيب، الذي إن أكلته ضرست، وإن تركته غربت، وكفى بهذه الرواية حجة، لمن أراد سلوك المحجة. وعلى كل تقدير، فقد لزم التفضيل للنخلة على الكرمة، لزوم الصلة للموصول، والنصب للمنادى الممطول، والعجز لكتابي المحصل والمحصول. وكم على ترجيح ذلك من قياس صحيح، ونقل ثابت صريح. قال، واعتذاركم بالمهرمة عن فعل المكرمة لأمة في تلك الطباع كامنة، وسامة للتلف لا للخلف ضامنة. وذكرتم الثمرة والبسرة، والوقت ليس بوقت عسرة، فأذكرتم قول القايل، في بعض المسايل، دعنا من تمرتان وبسرتان أو تمرتين وبسرتين، على الوجهين، المتوجهين في المسلتين، وفس ضمن ذكركم لذلك أدلة صدق على تطلع النفس الفقيرة، للأعراض التافهة الحقيرة، والإمامة العظمى، أجل عندنا وأسمى، من أن تلحظ بعينها تلك الملاحظ، ولواصل لديها مراتبها وأفكارها ببيانه وتبيانه، عمرو بن بحر الجاحظ، إذ هي كافأ الله فضلها، ولا قلص ظلها كالسحاب، نجود بغيثها على الآكام والضراب، ومنابت الشجر من التراب، فضلاً عن الخدمة والأتراب، فليس يضيع مع جميل نظرها، ذو نسب، ولا يجهل في أيامها السعيدة مقدار منتسب إلى حسب. وإن وقعت هفوة صغيرة، أعقبتها حسنة كبيرة، ومنن أثيرة، ونعم كثيرة. ولم لا، وروح أمرها، ومذهب نصرة جمرها، علم السادة للقادة الأكابر، المغرم بجبر كل كسير، وناهيك من به جابر الرازي، ذكر مآثره، بعرف أطيب الطيب. الوزير أبو عبد الله بن الخطيب.
والمطلوب منه لهذه الشجرة الثرما، الغريبة الشما، التي أصلها ثابت، وفرعها في السماء، إنما هو يسير بنا، وظهير اعتنا، وخنجر يوما، لعل عباسة أديم دوها أن تذهب. وأكمام كباسة قنوها، أن تفضض بنعيم النضارة ثم تذهب، ويعود إليها شرخ شبابها، وتستحكم صفرة ثيابها، وخضرة جلبابها، وذلك كله بمن اللطيف الخبير، من أسهل العمل على مجد الأمير، وفضل الوزير، إذ هما، دام عزهما، على بينة من أن الإحسان ألقاح، والشكر نتاجه، والثناء إكليل، وهو في الحقيقة تاجه. قال المسلم، ومن يا إخوتي لعلي، بمعارضة الحافظ أبي علي، ولو أني اشتملت شملة النضر بن شميل، وأصبحت أفصح من عامل بن الطفيل، وأخطب من شبيب، وأشعر من حبيب، وجزت من طرق الجدال، منازل نقدة صدور الأبدال. وعلى أنه ما قال إلا حقاً، فبعداً للمرء وسحقاً. ولكني

أقسم عليكم بمقدر الضيا والحلك، ومسخر نجوم الفلك، بإصابة الأعراب، وأصحاب الإغراب، وأرباب فنون الإعراب، ألا ما تأملتم فصول هذه المقالة، وأفتيتم بما يترجح فيها لديكم من نسخ أو فسخ، أو إجادة أو إقالة، فأنتم علماء الكلام، وزعماء كتايب الأقلام، والمراجعات بين شقاشق الرجال، شنشنة معروفة، وطريقة إليها الوجوه في كثير من المخاطبات مصروفة، لا زلتم مذكورين في أهل البيان، مشكورين على بذل الفضل مدى الأحيان. والله سبحانه يجعل التوفيق حاديكم، ونور العلم هاديكم، ومنه نسل جل اسمه، التطهير من كل معابة، والسمح فيما تخلل هذه المقامة من دعابة، والتحية الكريمة مع السلام الطيب المعاد، يعتمد من يقف عليها من الآن إلى يوم المعاد، والرحمات والمسرات والبركات والخيرات، من كاتبها على بن عبد الله بن الحسن، أرشده الله. عليكم بمقدر الضيا والحلك، ومسخر نجوم الفلك، بإصابة الأعراب، وأصحاب الإغراب، وأرباب فنون الإعراب، ألا ما تأملتم فصول هذه المقالة، وأفتيتم بما يترجح فيها لديكم من نسخ أو فسخ، أو إجادة أو إقالة، فأنتم علماء الكلام، وزعماء كتايب الأقلام، والمراجعات بين شقاشق الرجال، شنشنة معروفة، وطريقة إليها الوجوه في كثير من المخاطبات مصروفة، لا زلتم مذكورين في أهل البيان، مشكورين على بذل الفضل مدى الأحيان. والله سبحانه يجعل التوفيق حاديكم، ونور العلم هاديكم، ومنه نسل جل اسمه، التطهير من كل معابة، والسمح فيما تخلل هذه المقامة من دعابة، والتحية الكريمة مع السلام الطيب المعاد، يعتمد من يقف عليها من الآن إلى يوم المعاد، والرحمات والمسرات

والبركات والخيرات، من كاتبها على بن عبد الله بن الحسن، أرشده الله.
المقريون والعلماء

علي بن أحمد

بن خلف بن محمد بن الباذش الأنصاري

من أهل غرناطة، يكنى أبا الحسن، الشيخ الأستاذ، إمام الفريضة بجامع غرناطة.
حاله
من الملاحي، أوحد زمانه إتقاناً، ومعرفة، ومشاركة في العلوم، وانفراداً بعلم العربية. وكان حسن الخط، كثير الكتب، ترك منها بخطه كثيراً جداً، مشاركاً في الحديث، عالماً بأسماء رجاله ونقلته، مع الدين، والفضل، والزهد، والانقباض عن أهل الدنيا، وترك الملابسة لهم.
مشيخته
قرأ علي المقري بغرناطة أبي القاسم نعم الخلف بن محمد بن يحيى الأنصاري، وأبي علي الصدفي، وغيرهم ممن يطول ذكرهم. وحدث عنه القاضي أبو الفضل عياض بن موسى، والقاضي أبو محمد بن عطية، والقاضي أبو عبد الله بن عبد الرحيم، والقاضي أبو بكر جابر بن يحيى التغلبي، والقاضي أبو خالد عبد الله بن أبي زمنين، والقاضي أبو الحسن بن أضحى.
تواليفه
ألف في النحو كتباً كثيرة، منها على كتاب سيبويه، وعلى كتاب المقتضب، وعلى الأصول لابن السراج، وشرح كتاب الإيضاح، وكلامه على كتاب الجمل لأبي القاسم، وكلامه على الكافي لابن النحاس، مع التنبيه على وهمه في نحو مائة موضع، إلى غير ذلك.
شعره
قال أبو القاسم، وله نظم ليس بالكثير. فمن ذلك:
أصبحت تقعد بالهوى وتقوم ... وبه تقرظ معشراً وتديم
تعنيك نفسك فاشتغل بصلاحها ... إنني بغير السقام سقيم
وفاته
توفي بغرناطة سنة ثمان وعشرين وخمسماية، وصلى عليه إثر صلاة العصر، ابنه الأستاذ أبو جعفر، ودفن بمقبرة باب إلبيرة، وازدحم الناس على نعشه، وكانت جنازته حافلة، وتفجع الناس على قبره. وقبره مشهور، يتبرك به الناس.
علي بن محمد بن دري
المقري الفقيه، الخطيب أبو الحسن، الإمام بجامع غرناطة، أصله من طليطلة.
حاله

كان من خيار الناس وفضلائهم، وأهل المعرفة منهم، عارفاً بإقراء كتاب الله عز وجل، والرواية للحديث. أخذ الناس عنه، وكانت عنده مشاركة، ومسارعة لقضاء الحوايج، والمشي للإصلاح بين الناس، والإشفاق على المساكين، كثير الصدقة، والسعي في فداء الأسرى، والوسائط الجميلة في مهمات الأمور ومشكلاتها. دخل رجل

تاجر غريب الميضأة للوضوء، فنسي بها وعاء فيه جملة مال، فتذكر له، فرجع ولم يجده، فسقط مغشياً عليه، فاجتمع عليه الناس، وهو يقول مالي، ووافق خروج الأستاذ أبي الحسن المذكور من الجامع، فسأل عنه، فجالس أذنه، فقال مالك عندي وديعة تركته أنت عندي، وإذا كان بعد صلاة العصر تأخذه. فقام الرجل، فكأنما نشط من عقال، ومشى الخطيب في حينه، إلى مشرف غرناطة ابن مالك، فقال له، إني اشتريت لك قصراً في الجنة، بخمس ماية دنير، وأنا الضامن لذلك، فشكره، وأخبره الخطيب بالقصة، فدفع إليه المال، فدفعه إلى الرجل. وكان الناس لا يتوقفون له في أمر.

مشيخته

روى بطليطلة عن أبي عبد الله المقامي، وعن أبي مسلم الضرير المقري، والقاضي أبي الوليد الوقشي، وأخذ عن أبوي على الصدفي والغساني، وعن أبي مروان بن سراج، وابنه سراج.

توفي بغرناطة في رمضان ستة عشرين وخمسماية، وصلى عليه القاضي أبو القاسم بن ورد، ودفن في مقبرة باب إلبيرة، وكانت جنازته حافلة، وتفجع الناس عليه، وأخلصوا الدعاء له.

وممن رثاه، أبو عبد الله بن أبي الخصال بقوله:

عتاب وما يغني العتاب على الزمن ... وشكوة كما تشكو الرياح إلى السفن
وما رضيت بعد الغضارة أيكة ... نبحت ولكن عالم الكون ممتحن
وماذا عليه والسلامة حظه ... بأن تتخطاه النوايب والمحن
فليت كريماً ينعش للناس خيره ... يعمر فيها عمرته الآن أو حضن
ولكنه يمضي كظل غمامة ... ويبقى لسم سره غير مؤتمن
يود الفتى طول البقاء وطوله ... يورثه ثكل الأحبة والبدن
وأي اغتباط في حياة مرزاً ... يروح على بث ويغدو على شجن
زيادته تغص وجدته بلى ... وراحته كرب وهدنته دهن
إذا فوق السهم المصيب فقلبه ... ومن صار فيه من أحبته فنن
فيا عجباً للمرء يلتذ عيشه ... لزت مع الموت في قرن
أرى كل حي للمنية حاملاً ... فيا ويحه مما تحمل واحتضن
إذا زادت الأيام فينا إساءة ... نزيد على علم بما ساء حسن ظن
ولم أر مثل الموت حقاً كباطل ... وكل قبالي بالموت مرتهن
أإخوتنا لم تبق إلا تحية ... أرقد بها تلك المعاهد والدمن
أإخوتنا هل تسمعون تحيتي ... وذو كلم ما تحجب السر والعلن
أبا الحسن خلد في الجنان منعماً ... جزاءً بما أسلفت من سعيك الحسن
يطير فؤادي روعة فإذا رأى ... محياك في دار الغنا والرضا سكن
وقد كنت ترتاد المواطن إذ نبت ... فبوأك الرحمن فردوسه وطن
وبت معنى بالجلاء فنلته ... وقد كان حاديه يغرد باظعن
ولم ترض إلا الأرض هجرتك التي ... تخيرها الأولياء على القنن
وفي مثلها أن الرسول لسعد ... وقد واراه أكرم مدفن

على أنك المدعو من كل بلدة ... هلم فإنا دونك الحجب والجنن
سيرضيك من أرضيته في عباده ... وجاهدت فيه بالفروض وبالسنن
ويبقى كما بقيت بعدك أنه لهم ... فلما استهوتهم روعة سكن
ويحفظهم حفظ اليتيمين أيدا ... بوقع جدار قد تداعى وقد وهن
أبا الحسن إن المدى بعد ما بدا ... طويل ولا يعتد في جنب ما بطن
وأسير وجد في فراقك أنه ... سيبقى عليك الوجد ما بقي الزمن

سقى الله والسقيا بكفيه تربة ... مباركة ضمتك أسرع ما هتن
ولا برحتها ديمة مستهلة إذا ... ركضتها الريح قام بها جرن
فلا زلت في روض وروح ورحمة ... ومقبرة تترى على ذلك الجنن
علي بن عمر

بن إبراهيم بن عبد الله الكناني القيجاطي

يكنى أبا الحسن، أصله من بسطة، واستوطن غرناطة، حتى عد من أهلها قراءة وإقراء ولزوماً
حاله
من العايد، أوحد زمانه علماً وتخلقاً وتواضعاً وتفنناً. ورد على غرناطة مستدعى عام اثني عشر وسبعماية، وقعد بمسجدها الأعظم يقرى فنوناً من العلم، من قراءات وفقه وعربية وأدب. وولى الخطابة، وناب عن بعض القضاة بالحضرة، مشكور المأخذ، حسن السيرة، عظيم النفع. وقصده الناس، وأخذ عنه البعيد والقريب. وكان أديباً لوذعياً، فكهاً، حلواً، وهو أول أستاذ قرأت عليه القرآن والعربية والأدب، إثر قراءة الكتب.
مشيخته
قرأ على أبيه ببلده بسطة القرآن، بالروايات السبع، وجمعها في ختمة، وعلى الأستاذ أبي عبد الله بن مساعد الغساني. وقرأ بغرناطة القرآن على الأستاذ أبي عبد الله بن مستقور، والأستاذ أبي جعفر الطباع، والأستاذ الشهير أبي الحسن بن الضايع. والأستاذ النحوي أبي الحسن الأبدي. وعلى القاضي ابي عمرو بن الرندي، والفقيه القاضي ابي علي بن الأحوص، وعلى الفقيه النسابة أبي جعفر بن مسعدة، والأستاذ العلامة أبي جعفر بن الزبير. ولقي الشيخ الصالح ولي الله أبا إسحق بن عبيدس وحضر مجالسه العامة. وذكر أنه كان يفتتح مجلسه الذي يتكلم فيه بقوله: لا حول ولا قوة إلا بالله، كنز من كنوز الجنة، رزقنا الله الأدب مع الله، واستعملنا فيما يرضيه، ويرضي رسوله، وجعل حظنا في الدار الآخرة. ولقي الإمام بجامع بسطة الخطيب الرواية أبا الحسن بن نافع وغيرهم، وله تواليف في فنون، وشعر، ونثر، فمن شعره قوله:
روض المشيب تفتحت أزهاره ... حتى استبان ثغامه وبهاره
ودجى الشباب قد استبان صباحه ... وظلامه قد لاح فيه نهاره
فأنى حمام لا يعاف وقوعه ... ومضى غروب لا نخاف مطاره
والعمر مثل البدر يرمق حسنه ... حيناً ويعقب بعد ذاك سراره
للإخاء تقلصت أفياؤه ... ما للصفاء تكدرت آثاره

الحر يصفح إن أخل خليله ... والبر يسمح أن تجرأ جاره
فتراه يدفع إن تمكن جاهه ... وتراه يرفع إن علا مقداره
ولأنت تعلم أنني زمن الصبا ... ما زلت زنداً والحياء سواره
والهجر ما بين الأحبة لم يزل ... ترك الكلام أو السلام مثاره
ولكم تجافى عن خفاء خليله ... فطن وقد ظفرت به أظفاره
ولكم أصر على التدابر مدبر ... أفضى إلى ندم به إصراره
فأقام كالكسعي بان نهاره ... أو كالفرزدق فارقته نواره
أنكرتم من حق معترف لكم ... بالحق ما لا ينبغي إنكاره
والشرع قد منع التقاطع نصه ... قطعاً وقد رودت به أخباره
والسن سن تورع وتبرع ... وتسرع لتشرح تختاره
ما يومنا من أمسنا قطك اتبت ... ذهب الشباب فكيف يبقى عاره
هلا حظرتم أو حذرتم منه ما ... حق عليكم حظره وحذاره
عجباً لمن يجري هواه لغاية ... محدودة أضماره مضماره
يأتي ضحى ما كان يأتيه دجى ... فكأنه ما شاب منه عذاره
فبعد ما تنعى به حسناته ... ويعيد ما تبقى به أوزاره
فالنفس قد أجرته مليء عنانه ... يشتد في مضمارها إحضاره
والمرء من إخوانه في جنة ... بل جنة تجري بها أنهاره
فاليمن قد مدت إليه يمينه ... واليسر قد شدت عليه يساره
شعر به أشعرت بالنصح الذي ... يهديه من أشعاره إشعاره
ولو اختبرتم نقده بمحكة ... لامتاز بهرجه ولاح نضاره

هذا هدى فيه اقتده تنل المنا ... أو أنت في هذا وما تختاره
وعليكم مني سلام مثل ما ... أرجت بروض يانع أزهاره
ومن شعره في الرثاء قوله من قصيدة
حمام حمام فوق أيك الأسى تشدو ... نتهيج من الأشجان ما أوجد الوجد
وذلك شجو في حناجرنا جشى ... وذلك لهو في ضمايرنا جد
أرى أرجل الأرزاء تشتد نحونا ... وأيديها تسعى إلينا فتمتد
ونحن أولو سهو عن الأمر ما لنا ... سوى أمل إيجابنا عنده جحد
فإن خطرت للمرء ذكرى بخاطر ... فتسبيحه الساهي إذا سمع الرعد
مصاب به قدت قلوب وأنفس ... لدينا إذا في غيره قطعت برد
تلين له الصم الصلاب وتنهمي ... عيون ويبكي عنده الحجر الصلد
فلا مقلة ترنو ولا أذن تعي ... ولا راحة تعطو ولا قدم تعدو
وقد كان يبدو الصبر منا تجلداً ... وهذا مصاب صبرنا فيه لا يبدو
مولده

عام خمسين وستماية.

وفاته

توفي بغرناطة ضحى يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ذي حجة من عام ثلاثين وسبعماية، ودفن في عصر اليوم بعد بجبانة باب إلبيرة. وكان الحفل في جنازته عظيماً، حضرها السلطان، واحتمل الطلبة نعشه.

ومن الطارئين

الرندي

عمر بن عبد المجيد بن عمر الأزدي المعروف بالرندي، من أهل رندة يكنى أبا علي.

حاله

كان من جملة المقريين، جهابذة الأستاذين، مشاركاً في فنون، نقاداً، فاضلاً.

مشيخته

روى عن أبي زيد السهيلي، وعنه أخذ العربية والأدب، وبه تفقه، وإياه اعتمد. وعن أبي محمد القاسم بن دحمان، وأبي عبد الله بن أبان، وتلا على هؤلاء القراءات، بقراءات السبعة. وعن أبي إسحق بن قرقول، وأبي عبد الله بن الفخار، وأبي الحسن صالح بن عبد الملك الأوسي، وأبي محمد عبد الحق بن بونه. وأبي عبد الله الحميري الإستجي، وأبي العباس بن اليتيم، وأبي عبد الله بن مدرك، وأبي القاسم بن حبيش وأبي عبد الله بن حميد. أخذ عن هؤلاء بمالقة، من أهلها، ومن الواردين عليها. ورحل إلى غرناطة، فأخذ بها عن يزيد بن رفاعة، وابن كوثر، وابن عروس، وأبي محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم بن الفرس، وأبي جعفر بن حكم. وإلى قرطبة، فأخذ بها عن ابن بشكوال، وابي القاسم المشراط. وإلى إشبيلية، فأخذ بها عن أبي بكر بن الجد، وأبي عبد الله بن رزق، وابن خير، وابن صاف. وأخذ بسبتة عن ابن عبيد الله. وبالجزيرة الخضراء عن القاضي أبي جعفر بن عزرة. هؤلاء جملة من أخذ عنهم باللقاء والمشافهة. وأجازه جمغاعة من أهل المشرق كبيرة، ذكرهم في برنامجه، كالخشوعي، والأرحي، والحرشاني، وحدث عن السلفي الحافظ بإجازته العامة.

تواليفه

شرح جمل أبي القاسم الزجاجي، ورد على ابن خروف، منتصراً بشيخه أبي زيد السهيلي في مسئلة نحوية، رد فيها ابن خروف على السهيلي وقيد فيما جرى بينه وبين الأستاذ أبي محمد القرطبي، جزءاً سماه بالحقبى في أغاليط القرطبي، لم يخل فيه عم حمل وتعسف. وألف برنامجاً جامعاً. روي عنه أبو عبد الله بن تسكر القاضي، والشيخ أبو عبد الله بن عبيد الأوسي، وأبو عبد الله الطنجالي، والخطيب ابن أبي ريحانة.

مولده

سنة سبع وأربعين وخمسماية.

وفاته

توفي سحر يوم الجمعة الموفى عشرين لشهر ربيع الثاني سنة عشر وستماية.

عثمن بن سعيد

بن عثمن بن سعيد الأموي

المقري، الحافظ المعروف بابن الصيرفي، قرطبي الأصل، يكنى أبا عمرو، ويشتهر بالداني، لاستيطانه دانية. ودخل إلبيرة، وقرأ على أبي عبد الله بن أبي زمنين، فوجب ذكره لذلك.

حاله

كان أحد الأيمة الأعلام في علم القرآن، وآياته، وتفسيره، ومعانيه وإعرابه، وجمع في ذلك كله التواليف العجيبة التي يكثر تعدادها، ويطول إيرادها، وله معرفة بالحديث وطرقه، وأسماء رجاله ونقلته، وكان حسن الخط، جيد الضبط، آية في الحفظ والعلم، والذكاء والفهم ديناً عارفاً، ورعا سنياً، قال المغلي، وكان أبو عمرو مجاب الدعوة. وذكره الحميدي فقال محدث مكثر، مقرئ متقدم.

مشيخته

روي عن أبي المطرف عبد الرحمن بن عثمن القشيري بقرطبة، وعن أبي بكر حاتم بن عبد الله البزاز، وأبي عبد الله محمد بن خليفة، وأحمد ابن فتح بن الرهان، وأبي بكر بن خليل، ويونس بن عبد الله القاضي. وخلف بن يحيى، وغيرهم. وبإلبيرة عن محمد بن أبي زمنين كثيراً من رواياته وتواليفه. وسمع بإستجة، وبجانة وسرقسطة من بلاد الثغر. ورحل إلى المشرق، فلقي أبيا الحسن بن أحمد بن مراس العنقي. وسمع بمصر من أبي محمد بن النحاس، وأبي القاسم بن ميسر، وخلف بن إبراهيم ابن خاقان، وفارس بن أحمد، وطاهر بن عبد المنعم، وبالقيروان من أبي الحسن القانسي. وقدم الأندلس فاستوطن دانية.

شعره

قال أبو القاسم بن بشكوال. ومما يذكر من شعره قوله:

قد قلت إذ ذكروا حال الزمان وما ... يجر على كل من يعزى إلى الأدب

لا شيء أبلغ من ذل تجرعه ... أهل الخساسة أهل الدين والحسب

القايمين بما جاء الرسول به ... والمبغضين لأهل الزيغ والريب

مولده

قال أبو عمرو، سمعت والدي يقول إني ولدت سنة إحدى وسبعين وثلاثماية، وابتدأ طلب العلم بعد خمس وثمانين.

وفاته

من خط أبي الحسن المقري، يوم الاثنين منتصف شوال سنة أربع وأربعين وأربعمائة بدانية، ودفن عصر اليوم المذكور ببقيعها. ومشى السلطان راجلاً أمام نعشه.

علي بن أحمد بن حزم

بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد

الإمام أبو محمد بن حزم.

أوليته

أصله من الفرس، وجده الأقصى في الإسلام اسمه يزيد، مولى ليزيد بن أبي سفيان. قال أبو مروان ابن حيان، وقد كان من عجايبه، انتماؤه في فارس، وأتباع أهل بيته له في ذلك حقبة من الدهر، تولى فيها الوزير، المفضل في زمانه، الراجح في ميزانه، أحمد بن سعيد ابن حزم، لبني أمية أولياء نعمته، لا عن صحة ولاية لهم عليه، فقد عهده الناس

مولد الأرومة من عجم لبلة، جده الأدنى، حديث عهد بالإسلام، لم يتقدم لسلفه نباهة. فأبوه أحمد، على الحقيقة، هو الذي بنى بيت نفسه في آخر الدهر، برأس رايته، وعمره بالخلال الفاضلة، من الرجاجة واللهاء والمعرفة والرجولة والرأي، فأسدى جرثومة شرف لمن نماهم، أغنتهم عن الرسوخ في أولى السابقة، فما من شرف إلا مسبوق عن خارجته، ولم يكن إلا كلا ولا، حتى تخطى على هذا أوليته لبلة. فارتقى قلعة إصطخر من أرض فارس. فالله أعلم كيف ترقاها، إذ لم يكن يؤتى من خطل ولا جهالة، بل وصله بها وسع علم، ووشجة رحم معقومة، فلها يستأخر الصلة، فتناهت حاله مع فقهاء عصره إلى ما وصف، وحسابه وحسابهم على الله، الذي لا يظلم الناس مثقال ذرة. عزت قدرته.

حاله

قال الحميدي، كان حافظاً، عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متفنناً في علوم جمة، عاملاً بعلمه، زاهداً في الدنيا، بعد الرياسة التي كانت له، ولأبيه من قبله، في الإدارة وتدبير الممالك، متواضعاً، ذا فضايل جمة، قال، وما رأينا مثله، فيما اجتمع له. مع الذكاء وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين. قال أبو مروان ابن حيان، كان أبو محمد حامل فنون، من حديث وفقه ونسب، مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة. وله في ذلك عدة تواليف.

وقد مال أولاً به النظر في الفقه إلى رأي أبي عبد الله الشافعي، وناضل عن مذاهبه، وانحرف عن مذهب غيره، حتى وسم به، واستهدف بذلك إلى كثير من الفقهاء، وعيب بالشذوذ. ثم عدل في الآخر إلى قول أصحاب الظاهر، مذهب داود بن علي، ومن تبعه من فقهاء الأمصار، فنقحه ونهجه، وجادل عنه، ووضع الكتب في بسطه، وثبت عليه إلى أن مضى بسبيله. وكان يحمل علمه، ويجادل عنه لمن خالفه فيه، على استرسال في طباعه، واستناد إلى العهد أخذه الله على العلماء من عباده، ليبينه للناس، ولا يكتمونه، فآل أمره إلى ما عرف.

مشيخته

قال، سمع سماعاً جماً، وأول سماعه من أبي عمر أحمد بن محمد بن الجسور قبل الأربع ماية.

تواليفه

قال، بلغت تواليفه أربع مائة مجلد. وقال، حمل بعير. فمنها في علم الحديث كتاب كبير سماه الإيصال في فهم الخصال، الجامعة لجمل شرائع الإسلام، في الواجب والحلال والحرام، وساير الأحكام، على ما أوجبه القرآن والسنة والإجماع. أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أيمة المسلمين، وبيان ذلك كله، وتحقيق القول فيه. وله كتاب الإحكام لأصول الأحكام في غاية التقصي وإيراد الحجاج. وكتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل. وكتاب الإجماع ومسائله على أبواب الفقه. وكتاب المجلى والمحلى وكتاب في مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض. وكتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل. وهذا مما سبق إليه، وكتاب التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية. والأمثلة الفقهية. فإنه سلك في بيانه، وإزالة سوء الظن عنه، وتكذيب المنحرفين به، طريقة لم يسلكها أحد قبله فيما علمنا.

شعره

قال، وكان له في الأدب والشعر نفسٌ واسع، وباع طويل. وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه. وشعره كثير، وقد جمع على حروف المعجم. ومنه قوله:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا ... فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة ... تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات في الحساب وموقف ... نود لديه أننا لم نكن كنا
حصلنا على هم وإثم وحسرة ... وفات الذي كنا نلذ به عنا
حنين لما ولى وشغل لما أتى ... وغم لما يرجى فعيشك لا يهنا
كان الذي كنا نسر بكونه ... إذا حققته النفس لفظٌ بلا معنى
ومن ذلك قوله من قصيدة في الفخر:
أنا الشمس في جو العلوم منيرة ... ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالعٌ ... لجد على ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابة ... ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم ... فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر ... وأطلب ما عنه تجيء به الكتب
هنالك يدري أن للبعد قصة ... وأنه كساد العلم آفته القرب
ومنها في الاعتذار عن المدح لنفسه:
ولكن لي في يوسف خير أسوة ... وليس على من سار سيرته ذنب
يقول وقال والصدق أنني ... حفيظٌ عليمٌ ما على صادق عتب
ومن شعره قوله فيما كان يعتقده من المذهب الظاهري:
وذي عذل فيمن سباني حسنه ... يطيل ملامي في الهوى ويقول
أفي حسن وجه لاح لم تر غيره ... ولم تدر كيف الجسم أنت قتيل
فقلت له أسرفت في اللوم ظالماً ... وعندي ردٌ لو أردت طويل
ألم تر ظاهري وأنني ... على ما بدا حتى يقوم دليل
ومن ذلك قوله:
أين وحه قول الحق في نفس سامع ... ودعه فنور الحق يسري ويشرق
سيؤنسه رفقاً فينسى نفاره ... كما نسي القيد الموثق مطلق
ومن ذلك قوله:
لئن أصبحت مرتحلاً بشخصي ... فروحي عندكم أبداً مقيم
ولكن للعيان لطيف معنله طلبله طلب المعاينة الكليم
وفي المعنى:
يقول أخي شجاك رحيل جسم ... وروحك ماله عنا رحيل
فقلت له المعاين مطمئن ... لذا طلب المعاينة الخليل
دخوله غرناطة

وصل في جملة الإمام المرتضى. ولما جرت عليه الهزيمة واستولى باديس الأمير بغرناطة على محلته، كان أبو محمد من عداد أسراه مع مثله، إلى أن أطلقه بعد لأي، وخلصه الله منه.

محنته

قال ابن حيان، استهدف إلى فقهاء وقته، فتألبوا على بغضه، ورد قوله، وأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا أعوامهم عن الدنو إليه، والأخذ عنه، فطفق الملوك يقصونه على قربهم، ويسيرونه عن بلادهم، إلى أن انتهوا به، منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبلة، وبها توفي غير راجع إلى ما أرادوا، به يبث علمه فيمن ينتابه ببادية من عامة المقتبسين منه من أصاغر الطلبة، الذين لا يحسون فيه الملامة بحداثتهم، ويفقههم ويدرسهم، ولا يدع المثابرة على العلم، والمواظبة على التأليف، والإكثار من التصنيف، حتى كمل من مصنفاته في فنون العلم وقر بعير، حتى لأحرق بعضها بإشبيلية، وفي ذلك يقول:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا ... الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركابي ... وينزل إن أنزل ويدفن في قبري

مولده

سنة أربع وثمانين وثلاثمائة بقرطبة.

وفاته

توفي سنة ست وخمسين وأربعماية

علي بن إبراهيم

بن علي الأنصاري المالقي

يكنى أبا الحسن، صاحبنا حفظه الله.

حاله

آية الله في الحفظ، وثقوب الذهن، والنجابة في الفنون، وفصاحة الإلقاء، خريج طبعه، وتلميذ نفسه، ومبرز اجتهاده. إمام في العربية، لا يشق فيها غباره، حفظاً وبحثاً، وتوجيهاً واطلاعاً، وعثوراً على سقطات الأعلام، ذاكر للغات والآداب، قايم على التفسير، مقصود للفتيا، عاقد للوثيقة، مشارك في الفنون، ينظم وينثر، فلا يعدو الإجادة والسداد، سليم الصدر، أبي النفس، كثير المشاركة، مجدي الصحبة، بعيد عن التسمت. رحل عن بلده مالقة، بعد التبريز في العدالة والشهرة بالطلب، واستقر بالمغرب، فاقرأ بمدينة أنفا ، منوهاً به، ثم بسلا، واستوطن بها، رئيس المدرسة بها، مجمهراً بكرسيها، فارعاً بمنبرها، بالواردة السلطانية، يفسر كتاب الله بين العشاءين، شرحاً كثير العيون، محذوف الفضول، بالغاً أقصى مبالغ الفصاحة، مسمعاً على المحال النابية، ويدرس من الغدوات بالمدرسة، دولاً في العربية والفقه، أخذه بزمام النبل، مترامية إلى أقصى حدود الاضطلاع. وحضر المناظرة، بين يدي السلطان، فاستأثر بشقصٍ من رعيه، وأعجب بقوة جأشه، وأصالة حفظه، فأنمى جراياته، ونوه به.

مشيخته

قرأ ببلده على الأستاذين، علمي القطر، القاضي العالم أبي عبد الله إبن تبر، والقاضي النظار أبي عمرو بن منظور. وتلا القرآن على المقري أبي محمد بن أيوب. وذاكر بغرناطة إمام العربية أبا عبد الله بن الفخار، ورييس الكتاب،

شيخنا أبا الحسن بن الجياب. وبالمغرب كثيراً من أعلامه، كالرئيس أبي محمد الحضرمي، والقاضي أبي عبد الله المقري وغيرهم. وهو الآن بحاله الموصوفة قاضياً بشرقي مالقة، وأستاذاً بها متكلماً، معجزٌ من مفاخر قطره.

شعره

مما يؤثر من شعره منقولاً من خط صاحبنا أبي الحسن بن الحسن:

رحماك رحماك في قلب يقلبه ... شوقٌ يكاد بلفح الوجد ينهبه
هام الفؤاد بمعنىً للجمال بدا ... عليك في السر للأرواح أعجبه
ولاح منك لذي الإشراف جوهرة ... ألاحت الحسن عما كان يحجبه
فلو هم الصحب أن الروح تيمها ... ماضي الجفون برود الثغر أشنبه
يظل معتقلاً من خوط قامته ... بأسمر غالني منه مؤربه
وذي فرند يدب الموت في شطب ... منه ويوحش في جنح تلهبه
يخاله ذو الصدا ماء فيبصره ... يود في الحال أن لو كان يشربه
بالهند وانى والذي ند توشجه ... وبالصبابة والأرواح ملعبه
كساه سر الجمال المحض حلته ... إذ جاده من نكوب الجود صيبه
وقام يرفل فيها وهي ضافية ... فأقبلت نحوه الأرواح تطلبه
هيهات من دونه باب بظاهره ... يجر الفنا وجند الروح يرهبه
فمرنا والموت فيه عين عيشته ... فأوج مرقي حياة الروح مرقبه
نبدت لوايحه من بحر جوهره ... برقاً يغير على الغيران خلبه
وتستعير له روحاً مظاهره ... سر الجمال بها يبدو تحجبه

بدرٌ وفي أفق الأرواح مطلعه ... مهما أفاقت وإلا فهي مغربه
بخاطره منه سر لا يفارقه ... وإن غدا بغرام الشوق يلهبه
لي هواه والبعد ينهاني ويصدقني ... في نصحه وصريح الوجد يكذبه
سر الغرام غريب ليس يعلمه ... إلا الذي قد غدا يرضيه مغضبه
وللصبابة أقوام وموردهم بها ... من الأنس أحلاه وأعذبه
وليس يعرف هذا حق معرفة ... إلا الذي قد تجلى عنه غيهبه
وأبصر الحسن قد لاحت لاوايحه ... وغرٌّ مستبشر الأضواء كوكبه
بذات أهيف من سر الحياة ... طرسٌ يغالبه طوراً فيغلبه
وفي لجين الجمال المحض قد فعلت ... فعلاً يرد لها في الحكم مذهبه
أروم إعجامه هوناً وتطمعني ... فيه النفاسة والأنفاس تعرفه
فم لمثلي بكتمانٍ ومن نفسي ... أخو بيان مع الساعات يسهبه
لبانة السر أن تحظى بمرقبة ... إلى سبيل من الزلفى تقربه
تسمو على منكب الجوزاء ذروتها ... عن رقة بشهود الفرق تسلبه
وفي مصافات سر القبض يبسطه ... لدى الوجود الذي قد عز مطلبه
فيرتقي في مراقي الجمع مختطفاً ... إلى السقام الذي عند بغيته

فذاك أعظم ما يرجوه أن سبقت ... عنا يدٌ نحو باب العز تجذبه

ومن منظومه في النسيب قوله:

لمحمد البرقاء حسن باهر ... كل الورى حلف الصبابة فيه

السحر مفتون بغنج لحاظه ... والشهد ممزوج بريقه فيه

فسحره أضنى المتيم في الهوى ... حتى يكاد سقامه يخفيه

ولو أنه بالشهد جاد ورشفه ... لصد لكان من الصدا يشفيه

بصدوده قلبي يقطع في الهوى ... يا ليته بوصاله رافيه

وصدر كتاباً بقوله يخاطبني:

أنسياناً فديتك يا حياتي ... لمن لم ينبيك حبك للممات

ورجماً بالظنون أخا حنين ... إليك رهين شوق وانبتات

يميناً بالنهار إذا تجلى ... وبالقمر المنير وبالآيات

لقد أحللت حبك من فؤادي ... محل الروح من بث الجهات

وشعره بديع، وإدراكه عجيب، وعارضته قوية.

علي بن محمد بن علي

بن يوسف الكتامي

يكنى أبا الحسن، ويعرف بابن الضايع: من أهل إشبيلية.

حاله

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير، بلغ الغاية في الفن النحوي، وفاق أصحاب الأستاذ أبي علي الشلوبين بأسرهم، وله في مشكلات الكتاب العجايب . وقرأ ببلده أيضاً علم الكلام، وأصول الفقه، وكان متقدماً في هذه العلوم الثلاثة، متصرفاً فيها. وأما فن العربية، وعلم الكلام، فلم يكن في وقته من يقاربه في هذين العلمين. وأما فهمه وتصرفه في كتاب سيبويه، فما أراه يسبقه في ذلك أحد. وله إملاءٌ على طايفة كبيرة من إيضاح الفارسي. وكان له اعتناءٌ كبير بكلام الفارسي على الجملة، وبحسب ذلك استقصى اعتراضات أبي الحسين بن الطراوة على أبي علي بالرد، واستوفى ما وقع له في ذلك، حتى لم يبق بيده شيء على طريقة من الإنصاف، ودليل الهدى. لم يسبق إليها. وكذا فعل في رد أبي محمد بن السيد، علي أبي القاسم الزجاجي. وكذا فعل في اعتراضات أبي الحسين بن الطراوة على كتاب سيبويه. وكان بالجملة إماماً في هذا كله لا يجارى. وأما اختيارات أبي الحسن بن عصفور في مغربه وغير ذلك من تعاليقه، وما قيد في ذلك، فرد عليه معظمها أو أكثرها. ولم يلق بالأندلس والعدوة، ولا سمعنا بأنبه منه، ممن وقفنا على كلامه أو شاهدناه، ولا رأيت مختلفاً عليه من أهل بلده من أترابه، ومن فوقهم. وكان إذا أخذ في فن أتى بعجايب. قال الأستاذ، لازمته، وأخذت عليه كتاب سيبويه في عدة سنين، وأكثر كتاب الإيضاح، وجمل الزجاجي. إلى غير ذلك، وجميع التلقيحات للسهر وردي. وطايفة كبيرة من إرشاد أبي المعالي، ومن كتاب الأربعين لابن الخطيب، وغير ذلك.

مشيخته

أجاز له من أهل بلده الرواية المسن، أبو الحسن بن السراج، والقاضي أبو الخطاب بن خليل. ومن غيرهم، القاضي أبو بكر بن محرز، والمقري المعمر أبو بكر الشماتي المعروف بالشريشي، وأبو عبد الله الأزدي، وأبو عبد الله بن جوبر وآخرين. وقرأ ببلده. ولازم الأستاذ أبا علي الشلوبين، حتى كمل عليه إيضاح الفارسي، وكتاب سيبويه. وسمع جمل الزجاجي وغير ذلك من كتب العربية، ممن كان يقرأ في المجلس، وقرأ عليه طائفة كبيرة من تذكرة الفارسي، مما يتعلق بمسائل الكتاب، بعد أن جردها من التذكرة. وبلغ الغاية في الفن النحوي، وفاق أصحاب أبي علي بأسرهم.

وفاته

توفي رحمه الله، في شهر ربيع الآخر من سنة ثمانين وستماية، وقد قارب التسعين. قلت العجب من الشيخ الخطيب رحمه الله، كيف لا يذكر للمترجم به رحمه الله، شرحه لجمل الزجاجي، بل شرحه الصغير والكبير. ولم يكن اليوم على الزجاجي أجدى منها، ولا أنفع، ولا أقل فضولاً، ولا أفصح عبارة، ولا أوجز خطابة، ولا أجمل إنصافاً، ولا أجود نظراً

الكتاب والشعراء

وأولا الأصليون منهم

علي بن محمد بن عبد الحق

بن الصباغ العقيلي

يكنى أبا الحسن من أهل غرناطة.

حاله

صاحبنا أبو الحسن، من أهل الفضل والسراوة والرجولة والجزالة. فذ في الكفاية، ظاهر السذاجة والسلامة، مصعب لأضدده، شديد العصبة لأولي وده، في أخلاقه حدة، وفي لسانه نبلى أخلابه، مشتملٌ على خلال من خط بارع، وكتابة حسنة، وشعر جيد، ومشاركة في فقه وأدب ووثيقة، ومحاضرة ممتعة. ناب عن بعض القضاة، وكتب الشروط، وارتسم في ديوان الجند، وكتب عن شيخ الغزاة أبي زكريا بن عمر على عهده. ثم انصرف إلى العدوة سابع عشر جمادى الأولى من عام ثلاث وخمسين وسبعماية، فارتسم في الكتابة السلطانية منوهاً به، مستعملاً في خدم مجدية، بان غناؤه فيها، وظهرت كفايته.

وجرى ذكره في كتاب التاج بما نصه: اللسن العارف، والناقد لجواهر المعاني، كما يفعل بالسكة الصيارف، الأديب المجيد، الذي تملى به العصر والنحر والجيد، إن أجال جياد براعته، فضح فرسان المهارق، وأخجل بين بياض طرسه، وسواد نفسه الطور تحت المفارق. وإن جلى أبكار أفكاره وأثار طير البيازين أوكاره، سلب الرحيق المفدم فضل أبكاره، إلى نفس لا يفارقها ظرف، وهمة لا يرتد إليها طرف، وإباية لا يفل لها غرب ولا حرف. وله أدب غض، زهره عن مجتنيه مرفض. كتبت إليه أنتجز وعده في الالتحاف برايقه، والإمتاع بزهر هواتفه، وهو قولي:

عندي لموعدك افتقارٌ مجوج ... وعهودك افتقرت إلى إنجازها

والله يعلم فيك صدق مودتي ... وحقيقة الأشياء غير مجازها

فأجابني بقوله:

يا مهدي الدر الثمين منظماً ... كلما حلال السحر في إيجازها
أدركت حلبات الأوايل وانياً ... ورددت أولاها على أعجازها
أحرزت في المضمار خصل سباقها ... ولأنت أسبقهم إلى إحرازها
حليت بالسمطين مني عاطلاً ... وبعثت من فكري متات مفازها
فلأنجزن مواعدي مستعطفاً ... فاسمح وبالإغضاء منك مجازها
ومن مقطوعاته قوله:
ليت شعري والهوى أمل ... وأماني الصب لا تقف
هل لذاك الوصل مرتجع ... أو لهذا البحر منصرف
ومن ذلك:
وظبي سبا بالطرف والعطف والجيد ... وما حاز من غنج ولين ومن غيد
أتيت إليه بالدنو مداعباً ... فقال أيدنو الظبي من غابة الأسد
وقال من مبدإ قصيدة مطولة فيما يظهر منها:
حديث المغاني بعدهن شجون ... وأوجه أيام التباعد جون
لحا الله أيام الفراق فكم شجت ... وغادرت الجذلان وهو حزين
وحيا دياراً في ربى إغرناطة ... وإني بذاك القرب فيه ضنين
ليالي أنفقت الشباب مطاوعاً ... وعمري لدى البيض الحسان ثمين
فأرخصت فيها من شبابي ما غلا ... وغرمي على مال العفاف أمين
خليلي لا أمر بأربعها قفا ... فعندي إلى تلك الربوع حنين
ألم ترياني كلما ذر شارق ... تضاعف عندي عبرة وأنين

إذا لم يساعدني أخٌ منكما فلا ... حدت نحو قرن بعد ذاك أمون
أليس عجيباً في البرية من لنا ... إلى عهد إخوان للزمان ركون
فلما تثغن من ذرى وفاء بعهده ... فقد أجن السلسال وهو معين
أذلني عذر في فراق ضلوعه ... وللدمع في ترك الشئون شئون
ومن ترك الحزم المعين فإنه ... لعانٍ بأيدي الحادثات رهين
رعى الله أيامي الوثيق ذمامها ... فإن مكاني في الوفاء مكين
ولم أر مثل الدهر أما عدوه ... فخب وأما خله فخئون
ولولا أبو عمرو وجود يمينه ... لما كان في عهد الزمان معين
ومن شعره قوله:
زار الخيال ويا لها من لذة ... لكن لذات الخيال منام
ما زلت ألثم مبسماً منظومه ... در وموروده الشهي مدام
وأضم غصن البان من أعطافه ... فأشم مسكاً فض عنه ختام
مولده

عام ستة وسبعماية.

وفاته

وتوفي بمدينة فاس، وقد تخلفه السلطان كاتب ولده، عند وجهته إلى إفريقية، في شوال عام ثمانية وخمسين وسبعماية، فتوفي في العشرين لرمضان منه.

ابن الجياب

علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن حسن الأنصاري من أهل غرناطة، يكنى أبا الحسن، ويعرف بابن الجياب، شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ.

حاله

من عايد الصلة: كان رحمه الله، على ما كان عليه من التفنن، والإمامة في البلاغة، والأخذ بأطراف الطلب، والاستيلاء على غاية الأدب، صاحب مجاهدة، وملازمة عبادة، على طريقة مثلى من الانقباض والنزاهة، وإيثار التقشف، محباً في أهل الخير والصلاح، منحاشاً إليهم، منافراً عن أضدادهم، شيخ طلبة الأندلس، رواية وتحقيقاً، ومشاركة في كثير من العلوم، قايماً على العربية واللغة، إماماً في الفرايض والحساب، عارفاً بالقراءات والحديث، متبحراً في الأدب والتاريخ، مشاركاً في علم التصوف، فذاً في المسايل الأدبية البيانية، حامل راية المنظوم والمنثور، والإكثار من ذلك، والاقتدار عليه، جلداً على الخدمة، مغتبطاً بالولاية، محافظاً على الرتبة، مراقباً لوظايف الأبواب السلطانية، متوقد الذهن، ذلق الجوانب، مشغوفاً بالأنس والمفاوضة في الأدب، محسناً للنادرة الظريفة، مليح الدعابة، غزير الحفظ، غيوراً على الخطة، كثير النشاط إلى المذاكرة، مع استغراق الكلف، وعلو السن. طال به المرض حتى أذهب جواهر بدنه، وعلى ذلك فما اختل تميزه، ولا تغير إدراكه. بعثت إليه باكور رمان، فقال لي من الغد، نعم بالهدنة زمانك، يعني نعمت الهدية رمانك. فعجب الناس من اجتماع نفسه، وحضور فكره. وهو شيخي الذي نشأت بين يديه وتأدبت به، وورثت خطته عن رضى منه. كتب عن الدول النصرية نحواً من خمسين سنة أو ما ينيف عليها، متين الجاه، رفيع المكانة، بعيد الصيت، وسفر إلى الملوك، واشتهر بالخير، والحمل على أهل الظلم، وجرى ذكره في التاج بما نصه: صدر الصدور الجلة، وعلم أعلام هذه الملة، وشيخ الكتابة وبنيها وهاصر أفنان البدايع وجانيها، اعتمدته الرياسة، فنأى بها على حبل ذراعه، واستعانت به السياسة فدارت أفلاكها على قطب من شباة يراعه. فتفيأ للعناية ظلاً ظليلاً، وتعاقبت الدول، فلم تر به بديلاً، من ندب على علوه متواضع، وحبر لندي المعارف راضع، لا تمر مذاكرة في فن إلا وله فيه التبريز، ولا تعرض جواهر الكلام على محاكاة الأفهام، إلا وكلامه الإبريز، حتى أصبح الدهر راوياً لإحسانه وناطقاً بلسانه، وغرب ذكره وشرق، فأشام وأعرق وتجاوز البحر الأخضر والخليج الأزرق، إلى نفس هذبت الآداب شمايلها، وجادت الرياض خمايلها، ومراقبة لربه، واستباق لروح الله من مهبه. ودين لا يعجم عوده. ولا تخلف وعوده. وكل ما ظهر علينا بنيه من شارة تجلى بها العين، أو إشارة كما سبك اللجين، فهي إليه منسوبة، وفي حسناته محسوبة، فإنما هي أنفس راضها بآدابه، وأعلقها بأهدابه، وهذب طباعها، كالشمس تلقي على النجوم شعاعها، والصور الجميلة تترك في الأجسام الصقيلة انطباعها وما عسى أن أقول في إمام الأيمة، ونور الدياجي المدلهمة، والمثل الساير في بعد الصيت، وعلو الهمة.

مشيخته

نقلت من خطه، في بعض ما كتب به إلى من الأشياخ الذين ليقتهم وأجازوني عامة. الشيخ الفقيه الخطيب الصالح الصوفي المحقق صاحب الكرامات والمقامات، نسيج وحده، أبو الحسن فضل بن محمد بن علي ابن فضيلة المعافري.

قرأت عليه كذا. ومنهم الشيخ الفقيه الأستاذ العالم العلم الكبير، خاتمة المسندين بالمغرب، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم ابن الزبير الثقفي، نشأت بين يديه، وقرأت عليه كثيراً وسمعت، وأجازني. ومنهم الشيخ الفقيه الخطيب الأستاذ أبو الحسن علي بن أحمد ابن محمد بن أحمد بن محمد الخشني البلوطي. قرأت عليه القرآن العزيز بالقراءات السبع وغير ذلك. ومنهم الشيخ الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن عياش الخزرجي القرطبي، لقيته بمالقة. ومنهم الشيخ أبو محمد عبد الله بن علي الغساني السعدي الخطيب الصالح، قرأت عليه وسمعت. ومنهم الشيخ العدل أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن أحمد بن مستقور الطائي. ومنهم قاضي الجماعة الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد العنسي، ومنهم الشيخ الفقيه الخطيب المحدث الإمام أبو عبد الله محمد ابن عمر بن رشيد. ومنهم الشيخ الخطيب أبو جعفر أحمد بن علي الأنصاري الكحيلي. ومنهم الشيخ الخطيب الأستاذ الصالح أبو محمد عبد الواحد ابن محمد بن أبي السداد الأموي الباهلي. ومنهم الشيخ الوزير الحسيب أبو عبد الله محمد بن يحيى بن ربيع الأشعري، والشيخ الخطيب الأستاذ النظار أبو القاسم بن الشاط، والشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن مالك بن المرحل والشيخ المبارك أبو محمد عبد المولى بن عبد المولى الخولاني. هؤلاء كلهم لقيتهم، وأجازوني إجازة عامة، وأما من أجازني ولم ألقه، فعالم كثير من أهل المغرب والمشرق، منهم أبو العباس بن الغماز قاضي الجماعة بتونس، وأبو عبد الله بن صالح الكناني خليب بجاية، والشريف أبو علي الحسن بن طاهر بن أبي الشرف بن رفيع الحسني، وأبو فارس عبد العزيز الهواري، وأبو محمد بن هرون القرطبي، وأبو علي ناصر الدين المشدالي، وغيرهم.

شعره

وشعره كثير مدون، جمعته ودونته، يشتمل على الأغراض المتعددة من المعشرات النبويات، والقصائد السلطانيات، والإخوانيات، والمقطوعات الأدبيات، والألغاز والأحجيات.

فمن ذلك من المعشرات في حرف الجيم على وجه التبرك:

جريئاً على الزلات غير مفكر ... جباناً على الطاعات غير معرج

جمعت لما يفنى اغتراراً بجمعه ... وضيعت ما يبقى سجية أهوج

جنوناً بدار لا يدوم سرورها ... فدعها سدىً ليست بعشك فادرج

جيادك في شأو الضلال سوابقٌ ... تفوت مدىً بين الوجيه وأعوج

جهلت سبيل الرشد فاقصد دليله ... تجد دار سعد بابها غير مرتج

جناب رسول ساد أولاد آدم ... وقرب في السبع الطباق بمعرج

جمالٌ أنار الأرض شرقاً ومغرباً ... فكل سنىً من نوره المتبلج

جلا صدأ المرتاب أن سبح الحصا ... لديه بنطق ليس بالمتلجلج

جعلت امتداحي والصلاة عليه لي ... وسايل تخطيني بما أنا أرتج

ومن الأغراض الصوفية السلطانية قوله:

هات اسقني صرفاً بغير مزاج ... واحي التي هي راحتي وعلاجي

إن صب منها في الزجاجة قطرة ... شف الزجاج عن السني الوهاج

فإذا الخليع أصاب منها شربةً ... حاجاه بالسر المصون محاج

وإذا المريد أصاب منها جرعة ... ناجاه بالحق المبين مناج

تاهت به في مهمهٍ لا يهتدى ... فيه لتأديب ولا إدلاج

يرتاح من طرب بها فكأنها ... غنته بالأرمال والأهزاج
هبت عليه نفحةٌ قدسية ... في فتح باب دائم الأرتاج
فإذا انتشى يوماً وفيه بقية ... سارت به قصداً على المنهاج
وإذا تمكن منه سكر معربدٍ ... فليبصرن لمصرع الحلاج
قصرت عبارة فيه عن وجدانه ... فغدا يفيض بمنطقٍ لجلاج
أعشاه نور للحقيقة باهر ... فتراه يهبط في الظلام الداج

رام الصعود بها لمركز أصله ... فرمت به في بحرها المواج
فلئن أمد برحمة وسعادة ... فليخلصن من بعد طول هياج
وليرجعن بغنيمة موفورة ... ما شيب عذب شرابها بأجاج
ولئن تحظاه القبول لما جنى ... فليرجعن نكساً على الأدراج
ما أنت إلا درة مكنونة ... قد أودعت في نطفة أمشاج
فاجهد على تخليصها من طبعها ... تعرج بها في أرفع المعراج
واشدد يديك معاً على حبل التقى ... فإن اعتصمت به فانت الناج
ولدى العزيز ابسط بساط تذلل ... وإلى الغنى امدد يد المحتاج
هذا الطريق له مقدمتان صا ... دقتان انتجا أصح نتاج
فاجمع إلى ترك الهوى حمل الأذى ... واقنع من الإسهاب بالإدماج
حرفان قد جمعا الذي قد سطروا ... من بسط أقوال وطول حجاج
والمشرب الأصفى الذي من ذاقه ... فقد اهتدى منه بنور سراج
ألا ترى إلا الحقيقة وحدها ... والكل مضطر إليها لاج
هذي بدائع حكمة أنشأتها ... بإشارة المولى أبي الحجاج
وسع الأنام بفضله وبعدله ... وبحلمه وبجوده الثجاج
من آل نصرٍ نخبة الملك الرضا ... أمن المروع هم وغيث اللاج
من آل قبلة ناصري خير الورى ... والخلق بين تخاذل ولجاج
ماذا أقول وكل قول قاصر ... في وصف بحر زاخر الأمواج
منه لباغي العرف درٌّ فاخر ... ولمن يعادي الدين هول فاج
دامت سعودك في مزيد والمنى ... يأتيك أفواجاً على أفواج
ومن الأمداح المطولة:
لمن المطايا في السراب سوابحا ... تفلى الفلاة غوادياً ورواحا
عوج كأمثال اللقى ضوامر ... يرمين في الآفاق مرمى نازحا
أو كالسحاب تسير مثقلة ... بما حملته من سقيا البطاح دوالحا
ركبٌ ييمم غاية بل آية ... أبدت محيا الحق أبلج واضحا
لما دعا داعي الرشاد مردداً ... لبوه شوقاً والحمام هوادحا
فلهم عجيج بالبسيطة صاعد ... يذكى بنار الشوق منك جوانحا

وإذا حدا الحادي بذكر المصطفى ... أذروا في الأكوار دمعاً سابحا
عيسٌ تهادى بالحبين الألى ... ركبوا من العزم المصمم جامحا
طارت بهم أشواقهم سباقةٌ ... فتركن أعلام المطى روازحا
رفقاً بهن فهن خلق مثلكم ... أنضاء أسفار قطعن منادحا
قد جين للهادي وهادا جمة ... وسلكن نحو الأبطحي أباطحا
ناشدتك الرحمن وافد مكة ... ألا صرفت إلى صرفاً طامحا
وأخاً أتيت القبر قبر محمد ... وحمدت سعياً من سفارك ناجحا
وذهلت عن هذا الوجود مغيباً ... لما لحت من الجمال ملامحا
فاقرأ سلامي عند قبر المصطفى ... وامسح بيمناك الجدار مصافحا
قسماً بوفد يزخرون رواحلاً ... قطعت سباسباً بلقعاً وضحاضحا
حتى أناخوا بالمحصب من منى ... وتأملوا النور المبين اللايحا
وتعرضوا لعوارض عرفية هبت ... بها تلك الرياح لوافحا
وآووا إلى الحرم الشريف فطافعاً ... بالبيت أو بالركن منه ماسحا
وسقوا به من ماء زمزم شربةً ... نالوا بها في الخلد حظاً رابحا
ثم انثنوا قصداً إلى دار الهدى ... يتسابقون عزايماً وجوارحا
فتبوؤا المغنى الذي بركاته ... فاضت على الآفاق بحراً طافحا
ختموا مناسكهم بزورة أحمد ... بختام مسك طاب عرفاً نافحا

إن السماحة والشجاعة والندى ... والبأس والعقل الأصيل الراجحا
وقفٌ على شمس المعالي يوسف ... أعلى الملوك خواتماً وفواتحا
فهو الذي ملأ البلاد فضايلاً ... صارت لمن بارى علاه فضايحا
إن أجملت سير الكرام فخلقه ... ما زال للإجمال منها شارحا
حامي الذمار مدافعاً وموادعاً ... كافي العدو محارباً ومصافحا
للملك بالعزم المؤيد مانعاً ... للعرف بالجود المردد مانحا
إن تلقه في يوم جود هامر ... تلق السحاب على البلاد سوابحا
أو تلقه في يوم بأس قاهر ... تلق الأسود لدى العرين كوافحا
أو تلقه في يوم فخر ظاهر ... تلق الكواكب في السماء لوايحا
من أسرة النضر الألى هم ناصحوا ... بعزايم الصدق الأمين الناصحا
هم أسسوا الملك المشيد بناؤه ... فكفوا به الإسلام خطباً فادحا
فاستفهم الأيام عن آثارهم ... تطلع عليك صحايفاً وصفايحا
كان إذا ضن الغمام سحايباً ... يهمى وإن جن الظلام مصابحا
شادوا له مجداً صميماً راسخاً ... يبقى على الأعقاب ذكراً صالحا
وسما فخر فوق أمن جهادهم ... سمكوا له سماكاً رامحا
الأعظمون مغانياً ومناقباً ... والأكرمون محامداً وممادحا

يا دولةً نصريةً قد جددت ... نصراً لأبواب المعاقل فاتحا
وأمامة سعدية قد أطلعت ... سعداً ولكن للأعادي ذابحا
فاضت جداً فكأنما أيامها ... جعلت لأرزاق العباد مفاتحا
كفت عداً فكأنما أوقاتها ... جاءت لآيات الأمان شوارحا
عدلاً لأقطار الإيالة كالباً ... ولجامحات البغي منها كافحا
بشرى بيوسف ناصر الملك الذي ... ما زال عنه مجالداً ومكافحا
جمع المواهب للمواهب مانحاً ... فوق المنى وعن الجرايم صافحا
ابن الإمام أبي الوليد وحسبنا ... مدحاً تضمن في الفخار مدايحا
يهنيك عيد النحر أسعد قادم ... وافاك من جدوى يمينك ماتحا
وفيته قربانه وصلاته وأقمت ... فيه شعايراً وذبايحا
ورجعت في الجيش الذي أخباره ... تروى غرايبها الحسان صحائحا
أسدٌ ضراغم فوق خيل ترتمي ... نحو العدو سوانحاً وبوارحا
طيارةٌ بالدارعين تخالها ... تنقض في يوم القتال جوارحا
من كل من تخذ القنا خيماً له ... بلقى العدو مماسياً ومصابحا
والشمس أضرمت السيكة عندما ... لقي الحديد شعاعها المطارحا
فاهنأ به وانعم بدولتك التي ... ترضي الولي بها وتشجى الكاشحا
دامت ودام الحق فيها ثابتاً ... يعلو يداً والإفك فيها طالحا
وقال يمدح ويصف مصنعاً سلطانياً:
زارت تجر نحوه أذيالها ... هيفاء تخلط بالنفار دلاها
والشمس من حسدٍ لها مصفرةٌ ... إذ قصرت عن أن تكون مثالها
وافتك تمزج لينها بقساوة ... قد أدرجت طي العتاب نوالها
كم رمت كتم مزارها لكنه ... صحت دلايل لم تطق إعلالها
تركت على الأرجاء عند مسيرها ... أرجاً كأن المسك فت خلالها
ما واصلتك محبةً وتفضلاً ... لو كان ذاك لواصلت أفضالها
لكن توقعت السلو فجددت ... لك لوعةً لا تنقي ترحالها
فوحبها قسماً بحق بروره ... لتجشمنك في الهوى أهوالها
حسنت نظم الشعر في أوصافها ... إذ قبحت لك في الهوى أفعالها
يا حسن ليلة وصلها ما ضرها ... لو أتبعت من بعدها أمثالها

لما سكرت بريقها وجفونها ... أهملت كأسك لم ترد إعمالها
هذا الربيع أتاك ينشر حسنه ... فافسح لنفسك في مداه مجالها
واخلع عذارك في البطالة جامحاً ... واقرن بأسحار المنى آصالها
في جنة تجلو محاسنها كما ... تجلو العروس لدى الزفاف جمالها
شكرت أيادي للحيا شكر الورى ... شرف الملوك همامها مفضالها

وصمها أصلاً وفرعاً خيرها ... ذاتاً وخلقاً سمحها بذالها
الطاهر الأعلى الإمام المرتضى ... بحر المكارم غيثها سلسالها
حاز المعالي كابراً عن كابر ... وجرى لغايات الكرام فنالها
إن تلقه في يوم بذل هباته ... تلق الغمايم أرسلت هطالها
أو تلقه في يوم حرب عداته ... تلق الضراغم فارقت أشبالها
ملك إذا ما صال يوماً صولة ... خلت البسيطة زلزلت زلزالها
فبسيفه وبسيفه نال المنا ... واستعجلت أعداؤه آجالها
الواهب الآلاف قبل سؤالها ... فكفى العفاة سؤالها ومطالها
القاتل الآلاف قبل قراعها ... فكفى العداة قراعها ونزالها
إن قلت بحر كفه قصرت إذ ... شبهت بالملح الأجاج نوالها
ملأ البسيطة عدله ونواله ... فالوحش لا تعدو على من غالها
وسقى البرية فيض كفيه فقد ... عم البلاد سهولها وجبالها
جمع العلوم عناية بفنونها ... آدابها وحسابها وجدالها
منقولها معقولها وأصولها ... وفروعها تفصيلها إجمالها
فإذا عفاتك عاينوك تهللوا ... لما رأوا من كفك استهلالها
وإذا عداتك أبصروك تيقنوا ... أن المنية سلطت ريبالها
بددت شملهم ببيض صوارم ... رويت من علق الكماة نصالها
وأبحت أرضهم فأصبح أهلها ... جزراً تغادر نهبة أموالها
فتحت إمارتك السعيدة للورى ... أبواب بشرى واصلت إقبالها
وبنت مصانع رايقات ذكرت ... دار النعيم جنانها وظلالها
وأجلبها قدراً وأرفعها مدىً ... هذا الذي سامى النجوم فطالها
هو جنة فيها الأمير مخلد ... بلغت إمارته بها آمالها
ولأرض أندلسٍ مفاخر أنتم ... أربابها أضفيتم سربالها
فحميتم أرجاءها وكفيتم ... أعداءها وهديتم ضلالها
فبآل نصر فاخرت لا غيرهم ... لم نعتمد من قبلهم أقيالها
بمحمد ومحمد ومحمد ... قصرت على الخصم الألد نضالها
فهم الألى ركبوا لكل عظيمة ... جرداً كسين من النجيع جلالها
وهم الألى فتحوا لكل ملمة ... باباً أراح بفتحه إشكالها
متقلدون من السيوف عضابها ... متأبطون من الرماح طوالها
الراكبون من الجياد عرابها ... والضاربون من العدا أبطالها
أولي عهد المسلمين ونخبة الأم ... لاك صفوة محضها وزلالها
إن العباد مع البلاد مقرة ... بفضايل لك مهدت أحوالها
فتفك عانيها وتحمي سربها ... وتفيد حلماً دائماً جهالها

ومن الرثاء قوله يرثي ولده أبا القاسم:

هو البين حتماً لا لعل ولا عسى ... فما بال نفسي لم تفض عنده أسى
وما لفؤادي لم يذب منه حسرة ... فتباً لهذا القلب سرعان ما قسا
ويا لجفوني لا تفيض مورداً ... من الدمع يهمى تارة ومورسا
وما للساني مفصحاً بخطابه ... وما كان لو أوفى بعهد لينبسا
أمن بعد ما أودعت روحي في الثرى ... ووسدت مني فلذة القلب مرمسا
وبعد فراق ابني أبي القاسم الذي ... كساني ثوب الثكل لا كان ملبسا
أؤمل في الدنيا حياة وارتضي ... مقيلاً لدى أبنائها ومعرسا

فآهاً وللمفجوع فيها استراحة ... ولابد للمصدور أن يتنفسا
على عمر أفنيت فيه بضاعتي ... فأسلمني للقبر حيران مفلسا
ظللت به في غفلة وجهالة ... إلى أن رمى سهم الفراق فقرطسا
إلى الله أشكو برح حزني فإنه ... تلبس منه القلب ما قد تلبسا
وصدمة خطب نازلتني عشية ... فما أغنت الشكوى ولا نفع الأسا
فقد صدعت شملي وأصمت مقاتلي ... وقد هدمت ركني الوثيق المؤسسا
ثبت لها صبراً لشدة وقعها ... فما زلزلت صبري الجميل وقد رسا
وأطمع في أن يلقى برحمته الرضا ... وأجزع أن يشقى بذنب فينكسا
أبا القاسم اسمع شجو والدك الذي ... حسا من كؤوس البين أفظع ما حسا
وقفت فؤادي مذ رحلت على الأسى ... وأشهد لا ينفك وقفاً محبسا
وقطعت آمالي من الناس كلهم ... فلست أبالي أحسن المرء أم أسا
تواريت يا شمسي وبدري وناظري ... فصار وجودي مذ تواريت حندسا
وخلفت لي عبئاً من الثكل فادحاً ... فما أتعب الثكلان نفساً وأتعسا
أحقاً ثوى ذاك الشباب فلا أرى ... له بعد هذا اليوم حولي مجلسا
فيا غصناً نضراً ثوى عندما استوى ... فأوحشني أضعاف ما كان آنسا
ويا نعمةً لما تبلغتها انقضت ... فأنعم أحوالي بها صار أبؤسا
فودعته والدمع يهمي سحابه ... كما أسلم السلك الفريدا المجنسا
وقبلت في ذاك الجبين مودعاً ... لأكرم من نفسي علي وأنفسا
وخفف من وجدي به قرب رحلتي ... وماذا عسى أن ينظر الدهر ما عسا
فيا رحمة للشيب يبكي شبيبةً ... قياس لعمري عكسه كان أقيسا
فلو أن هذا الموت يقبل فديةً ... حبوناه أموالاً كراماً وأنفسا
ولكنه حكم من الله واجب ... يسلم فيه من بخير الورى ائتسى
تغمدك الرحمن بالعفو والرضا ... وكرم مثواك الجديد وقدسا
وألف منا الشمل في جنة العلا ... فنشرب تسنيماً ونلبس سندسا

وكتب إليه قصيدة أولها:

أمستخرجا كنز العقيق بآماقي ... أناشدك الرحمن في الرمق الباقي
فقد ضعفت عن حمل صبري طاقتي ... عليك وضافت عن زفيري أطواق
فأجابني رحمة الله عليه عن ذلك:
سقاني فأهلاً بالسقاية والعناق ... سلافاً بها قام السرور على ساق
ولا نقل إلا من بدايع حكمة ... ولا كأس إلا من سطورٍ وأوراق
فقد أنشأت لي نشوة بعد نشوة ... تمد بروحانية ذات أذواق
فمن حظها الفاني متاعٌ لناظري ... وسمعي وحظ الروح من حظها الباقي
أعادت شبابي بعد سبعين حجة ... فأثوابه قد جددت بعد إخلاق
وما كنت يوماً للمدامة صاحباً ... ولا قبلتها قط نشأة أخلاق
ولا خالطت لحمي ولا مازجت دمي ... كفى شرها مولاي فالفضل للواق
وهذا على عهد الشباب فكيف لي ... بها بعد ما للشبيبة مهراق
تبصر فحكماً القهوتين تخالفاً ... فكم بين إثبات لعقل وإزهاق
وشتان ما بين المدامين فاعتبر ... فكم بين إنجاح لسعي وإخفاق
فتلك تهادى بين ظلم وظلمة ... وهذي تهادي بين عدل وإشراق
أيا علم الإحسان غير منازع ... شهادة إجماع عليها وإصفاق
فضائلك الحسنى علي تواترت ... بمنهمر من سحب فكرك غيداق
خزاين آداب بعثت بدرها ... إلى ولم تمنن بخشية إنفاق
ولا مثل بكر حرة عربية ... زكية أخلاق كريمة أعراق

فأقسم ما البيض الحسان تبرمت ... تناجيك سراً بين وحي وإطراق
بدورٌ بدت من أفق أطواقها على ... رياض شدت في قضبه ذات أطواق
فناظر منها الأقحوان ثغورها ... وقابل منها نرجس سحر أحداق
وناسب منها الورد خداً مورداً ... سقاه الشباب النضر بورك من ساق
وألبسن من صنعاء وشياً منمنماً ... وحلين من در نفايس أعلاق
بأحلىً لأفواه وأبهىً لأعين ... وأحلىً لألباب وأشهىً لعشاق
رأيت بها شهب السماء تنزلت ... إلى تحييني تحية مشتاق
ألا إن هذا السحر لا سحر بابل ... فقد سحرت قلبي المعنى فمن راق
لقد أعجزت شكري فضايل ماجد ... أبر بأحباب وأوفى بميثاق
تقاضى ديون الشعر مني منبهاً ... رويدك لا تعجل علي بإرهاق
فلو نشر الصادان من ملحديهما ... لإنصاف هذا الدين لاذا بإملاق
فخذ زمام الرفق شيخاً تقاصرت ... خطاه وعاهده بمعهود وإشفاق
فلا زلت تحيى للمكارم رسمها ... وقدرك في أهل العلا والنهى راق
وكتبت إليه في غرض العتاب والاستعتاب:
أدرنا وضوء الأفق قد صدع الفضا ... مدامة عتب بيننا نقلها الرضا

فلله عيناً من رآنا وللحيا حيى ... بآفاق البشاشة أومضا
نفر إلى عدل الزمان الذي أتى ... ونبرأ من جور الزمان الذي مضى
ونأسو كلوم اللفظ باللفظ عاجلاً ... كذا قدح الصهباء داوى وأمرضا
فراجعني بقوله:
ألا حبذا ذاك العتاب الذي مضى ... وإن جره واش بزور تمضمضا
أغارت له خيلٌ فما ذعرت حمى ... ولكنها كانت طلائع للرضا
تألق منها بارق صاب مزنة ... على معهد الحب الصميم فروضا
تلألأ نور للصداقة حافظاً ... وإن ظن سيفاً للقطيعة منتضا
فإن سود الشيطان منه صحيفة ... أتى ملك الرحمى عليها فبيضا
وما كان حب أحكم الصدق عهده ... ليرمى بوسواس الوشاة فيرفضا
أعيذ وداداً زاكي القصد وافياً ... تخلص من أدرانه فتمحضا
ونية صدق في رضى الله أخلصت ... سناها بآفاق البسيطة قد أضا
من الآفك الساعي ليخفي نورها ... أيخفى شعاع الشمس قد ملأ القضا
وكيف يحل المبطلون بإفكهم ... معاقد حب أحكمتها يد القضا
تعرض يبغي هدمها فكأنه ... لتشييد مبناها الوثيق تعرضا
وحرض في تنفيره فكأنما ... على البر والتسكين والحب حرضا
وأوقد ناراً فهو يصلى جحيمها ... يقلب منها القلب في موقد الغضا
أيا واحدي المعدود بالألف وحده ... ويا ولدي البر الزكي إن ارتضا
بعثت من الدر النفيس قلايداً ... على ما ارتضى حكم المحبة واقتضا
نتيجة آداب وطبعٍ مهذب ... أطال مداه في البيان وأعرضا
ولا مثل بكر باكرتني آنفاً ... كزورة خلٍّ بعد ما كان أعرضا
هي الروضة الغناء أينع زهرها ... تناظر حسناً مذهباً ومفضضا
أو الغادة الحسناء راقت فينقضي ... مدى العمر في وصفي لها وهو ما انقضا
تطابق منها شعرها وجبينها ... فذا الليل مسوداً وذا الصبح أبيضا
أو الشهب منها زينة وهداية ... ورجمٌ لشيطان إذا هو قيضا
أتت ببديع الشعر طوراً مصرحاً ... بأبياتك الحسنى وطوراً معرضا
ومهدت الأعذار دون جناية ... ولو أنك الجاني لكنت المغمضا

لك الله من بر وفيٍّ وصاحب ... محضت له صدق الضمير فأمحضا
لسانك في شكري مفيض تفضلاً ... فيا حسن ما أهدى وأسدى وأقرضا
وقلبك فاضت فيه أنوار خلتي ... فأبقى يدي تسليمه لي مفوضا
وقصدك مشكور وعهدك ثابت ... وفضلك منشور وفعلك مرتضا
فهل مع هذا ريبةٌ في مودة ... بحال وإن رأيت فما أنا معرضا
فثق بولائي إنني لك مخلص ... هوىً ثابتاً يبقى فليس له انقضا

عليك سلام الله ما هبت الصبا ... وما بارق جنح الدجنة أومضا

وكتب إلى القاضي الشريف وهو بوادي آش:

أهزلاً وقد جدت بك اللمة الشمطاء ... وأمناً وقد ساورتها حية رقطا

أغرك طول العمر في غير طايل ... وسرك أن الموت في سيره أبطا

رويداً فإن الموت أسرع وافد ... على عمرك الفاني ركايبه حطا

فإذ ذاك لا تستطيع إدراك ما مضى ... بحال ولا قبضاً تطيق ولا بسطا

تأهب فقد وافى مشيبك منذراً ... وها هو في فوديك أحرفه خطا

فرافقت منه كاتب السر واشياً ... له القلم الأعلى يخط به وخطا

معمى كتاب فكه احذر فهذه ... سفينة هذا العمر قاربت الشطا

وإن طال ما خاضت بك اللجج التي ... خبطت بها في كل مهلكة خبطا

وما زلت في أمواجها متقلباً ... فآونة رفعاً وآونة حطا

فقد أوشكت تلقيك في قعر حفرة ... تشد عليك الجانبين بها ضغطا

ولست على علم بما أنت بعدها ... ملاقٍ أرضواناً من الله أم سخطا

وأعجب شيءٍ منك دعواك في النها ... وهذا الهوى المردي على العقل قد غطا

قسطت عن الحق المبين جهالةً ... وقد غالطتك النفس فادعت القسطا

وطاوعت شيطاناً تجيب إذا دعا ... وتقبل أن أغوى وتأخذ إن أعطا

تناءى عن الأخرى وقد قربت مدىً ... تداني عن الدنيا وقد أزمعت شحطا

وتمنحها حباً وفرط صبابة ... وما منحت إلا القتادة والخرطا

فها أنت تهوى وصلها وهي فارك ... وتأمل قرباً من حماها وقد شطا

صراط هدىً نكبت عنه عمايةً ... ودار ردىً أوعيت في سجنها سرطا

فما لك إلا السيد الشافع الذي ... له فضل جاه كل ما يرتجي يعطى

دليل إلى الرحمن فانهج سبيله ... فمن حاد عن نهج الدليل فقد أخطا

محبته شرط القبول فمن خلت ... صحيفته منها فقد فقد الشرطا

وما قبلت منه لدى الله قربة ... ولا زكت الأعمال بل حبطت حبطا

به الحق وضاح به الإفك زاهق ... به الفوز مرجوٌّ به الذنب قد حطا

هو الملجأ الأحمى هو الموئل الذي ... به في غد يستشفع المذنب الخطا

إليك ابن خير الخلق بنت بديهة ... تقبل تبجيلاً أناملك السبطا

وحيدة هذا العصر وافت وحيدة ... لتبسط من شتى بدايعها بسطا

وتتلو آيات التشيع إنها ... لموثقة عهداً ومحكمة ربطا

لك الشرف المأثور يا ابن محمد ... وحسبك أن تنمي إلى سبطه سبطا

إلى شرفي دينٍ وعلمٍ تظاهرا ... تبارك من أعطى وبورك في المعطا

ورهطك أهل البيت بيت محمد ... فأعظم به بيتاً وأكرم بهم رهطا

بعثت به عقداً من الدر فاخراً ... وذكر رسول الله درته الوسطا
وأهديت منها للسيادة غادة ... نظمت من الدر الثمين بها سمطا

وحاشيتها من كل ما شأنها فإن ... تجعد حوشي تجد لفظها سبطا
وفي الطيبين الظاهرين نظمتها ... فساعدها من أجل ذلك حرف الطا
عليك سلام الله ما در شارق ... وما رددت ورقاء في غصنها لغطا
ومن غريب ما خاطبني به قوله:
أقسم بالقيسين والنابغتين ... وشاعري طيء المولدين
وبابن حجر وزهير وابنه ... والأعشيين بعد ثم الأعمين
ثم بعشاق الثريا والرقيات ... وعزة ومي وبثين
وبأبي الشيص ودعبل ومن ... كشاعري خزاعة المخضرمين
وولد المعتز والرضى والسرى ... ثم حسن وابن الحسين
وأختم بقسٍّ وسحبان فإن ... أوجب حق أن يكونا أولين
وحليتي نثرهم ونظمهم ... في مشرقي أقطارهم والمغربين
أن الخطيب ابن الخطيب سابق ... بنثره ونظمه للحلبتين
وافتني الصحيفة الحسنى التي ... شاهدت فيها المكرمات رأي عين
تجمع من يراعة المعنى إلى ... يراعة الألفاظ كلتا الحسنيين
أشهد أنك الذي سبقت في ... طريقي الآداب أقصى الأمدين
شعر حوى جزالة ورقة ... تصاغ منه حلية للشعرين
رسايل أزهارها منثورة ... سرور قلب ومتاع ناظرين
يا أحوذياً يا نسج وحده ... شهادة تنزهت عن قول مين
بقيت في مواهب الله التي ... تقر عينيك وتملأ اليدين
ومن المقطوعات الموطنات على المثال:
لله عصر الشباب عصرا ... فتح للخير كل باب
حفظت ما شئت فيه حفظا ... كنت أراه بلا ذهاب
حتى إذا ما المشيب وافى ... ند ولكن بلا إياب
لا تعتنوا بعدها بحفظ ... وقيدوا العلم بالكتاب
ومن ذلك قوله:
يا أيها الممسك البخيل ... إلهك المنفق الكفيل
إنفق وثق بالإله تربح ... فإن إحسانه جزيل
وقدم الأقربين واذكر ... ما روي ابدأ بمن تعول
ومن ذلك قوله:
وقائلة لم عراك المشيب ... وما أن يعهد الصبا من قدم
فقلت لها لم أشب كبرة ... ولكنه الهم نصف الهرم

ومن ذلك قوله:

هي النفس إن أنت سامحتها ... رمت بك أقصى مهاوي الخديعة

وإن أنت جشمتها خطة ... تنافى رضاها تجدها مطيعة

فإن شئت فوزاً فناقض هواها ... وإن واصلتك أجزها بالقطيعة

ولا تعبأن بميعادها ... فميعادها كسراب بقيعة

ومن المقطوعات أيضاً:

من أنت يا مولى الورى مقصود ... طوبى له قد ساعدته سعوده

فليشهدنك له فؤاد صادق ... وشهوده قامت عليه شهوده

وليفنين عن نفسه ورسومه ... طراً وفي ذاك الفناء وجوده

وليخطفنه بارق يرقى به ... في أشرف المعراج ثم يعيده

حتى يظل وليس يدري دهشة ... تقريبه المقصود أو تبعيده

لكنه ألقى السلاح مسلماً ... فمراده ما أنت منه تريده

فلقد تساوى عنده إكرامه ... وهوانه ومفيده ومبيده

ومن ذلك قوله في المعنى:

يقيني أن الله جل جلاله ... يقيني فراجي الله ليس يخيب

ومن مقطوعاته في الألغاز والأحاجي قوله في حجلة:

حاجيت كل فطن لبيب ... ما اسم الأنثى من بني يعوب

ذات كرامات فزرها قربة ... فزورها أحق بالتقريب

تشركها في الإسم أنثى لم تزل ... حافظة لسرها المحجوب

وقد جرى في خاتم الوحي الرضا ... لها حديث ليس بالمكذوب

وهو إذا ما الفاء منه صحفت ... صبغ الحيا لا الحيا المسكوب

فهاكها واضحةٌ أسرارها ... فأمرها أقرب من قريب

وفي آب الشهر:

حاجيتكم ما اسم علم ... ذو نسبة إلى العجم

يخبر بالرجعة وهو ... راجع كما زعم

وصف الحميم هو ... بالتصحيف أو بدء قسم

دونكه أوضح من ... نار على رأس علم

ومن ذلك قوله في كانون:

وما اسم لسميين ... ولم يجمعهما جنس

فهذا كلما يأتي ... فبالآخر لي أنس

وهذا ما له شخص ... وهذا ماله حس

وهذا ما له سوم ... وذا قيمته فلس

وهذا أصله الأرض ... وهذا أصله الشمس

وهذا واحد من سبعة ... تحيا به النفس
فمن محموله الجن ... ومن موضوعه الإنس
فقد بان الذي ألغزت ... ما في أمره لبس
ومن ذلك قوله في نمر:
ما حيوان ما له من حرمة ... إن اسمه صحف فابن العمة
وقلبه من بعد تصحيف له ... يريك في الذكر الحكيم أمة
ومن ذلك قوله في سلم:
ما اسم مركب مفيد الوضع ... مستعمل في الوصل لا في القطع
ينصب لكن أكثر استعمال من ... يعنى به في الخفض أو في الرفع
وهو إذا خففته مغيراً ... تراه شملاً لم يزل ذا صدع
فالاسم إن طلبته تجده في ... خامسة من الطوال السبع
وهو إذا صحفته يعرب عن ... مكسر في غير باب الجمع
له أخ أفضل منه لم تزل ... آثاره محمودة في الشرع
هما جميعاً من بني النجار ... والأفضل أصل في حنين الجذع
فهاكه قد سطعت أنواره ... لاسيما لكل زاكي الطبع
ومن ذلك قوله في فنار:
ما اسم إذا حذفت منه فاءه الممنوعة ... فإنه بنت الزنا مضافة لأربعة
ومن ذلك قوله في حوت:
ما حيوان في اسمه ... إن اعتبرته فنون
حروفه ثلاثة ... والكل منها نون
تصحيفه قطع الفلا ... أو ما جناه المذنبون
أو أبيض أو أسود ... أو صفة النفس الخؤون
وقلبه مصحفاً عليه ... دارت السنون
كانت به في مضى ... عبرة قوم يعقلون
أودع فيها عنده ... سر من السر المصون
فهاكه كالنار في ... الزند لها فيه كمون
ومن ذلك قوله في مائدة:
حاجيت كل فطن نظار ... ما اسم لأنثى من بني النجار
وفي كتاب الله جاء ذكرها ... فقل ما يغفل عنها القار
في خبر المهدي فاطلبها تجد ... إن كنت من مطالعي الأخبار
ما هي إلا العيد عيد رحمة ... ونعمة ساطعة الأنوار
بشركها في الاسم وصف حسن ... من وصف قضب الروضة المعطار
فهاكه كالشمس في وقت الضحى ... قد شف عنها حجب الأستار

ومن ذلك قوله في زينب:

ما نقي العرض طاهر الجسد ... عندما خالطه ألماً فسد

خالط الماء القراح فغوى ... بعد ما كان من أهل الرشد

عجمي الأصل تم حسنه ... عندما صاد الغزالة الأسد

واسمه اسم امرأة مصحفاً ... ولقد يكون وصفاً لولد

هاكه قد بهرت أنواره ... فارم بالفكر تصب قصد الرشد

جميع هذه الأغراض المنسوبة إليه، بحر لا ينفد مدده، وقطر لا يبلغ عدده.

وأما نثره فسلطانيات مطولات، عرضت بما تخللها من الأحوال متونها، وقلت لمكان الاستعجال والبديهة عيونها.

وقد اقتضبت منها أجزاً سميته تافهاً من جم ونقطة من يم

مولده

ولد بغرناطة في جمادى الآخرة عام ثلاثة وسبعين وستماية.

وفاته

ليلة يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شوال عام تسعة وأربعين وسبعماية. ودفن بباب إلبيرة. وكانت جنازته آخذة نهاية الاحتفال، حضرها السلطان فمن دونه.

ومما رثي به: رثيته بقصيدة أنشدتها على قبره خامس يوم دفنه ثبتت في غير ما موضع وهي:

ما لليراع خواضع الأعناق ... طرق النعي فهن في إطراق

وكأنما صبغ الشحوب وجوهها ... والسقم من جزع ومن إشفاق

ما للصحائف صوحت روضاتها ... أسفاً وكن نضيرة الأوراق

ما للبيان كؤوسه مهجورة ... غفل المدير لها ونام الساق

ما لي عدمت تجلدي وتصبري ... والصبر في الأزمات من أخلاق

خطب أصاب بني البلاغة والحجا ... شب الزفير به عن الأطواق

أما وقد أودى أبو الحسن الرضا ... فالفضل قد أودى على الإطلاق

كنز المعارف لا تبيد نقوده ... يوماً ولا تفنى على الإنفاق

من للبدائع أصبحت سمر السرى ... ما بين شامٍ للورى وعراق

من لليراع يجيل من خطبها ... سم العدا ومفاتح الأرزاق

قضب ذوابل مثمرات بالمنى ... وأراقم ينفثن بالترياق

من للرقاع الحمر يجمع حسنها ... خجل الخدود وصبغة الأحداق

تغتال أحشاء العدو كأنها ... صفحات دامية الغرار رقاق

وتهز أعطاف الولي كأنها ... راحٌ مشعشعة براحة ساق

من للفنون يجيل في ميدانها ... خيل البيان كريمة الإعراق

من للحقائق أبهمت أبوابها ... للناس يفتحها على استغلاق

من للمساعي الغر تقصد جاهه ... حرماً فينصرها على الإخفاق

كم شد من عقد وثيق حكمه ... في الله أو أفتى بحل وثاق
رحب الذراع بكل خطب فادح ... أعيت رياضته على الحذاق
صعب المقادة في الهوادة والهوى ... سهل على العافين والطراق
ركب الطريق إلى الجنان وحورها ... يلقينه بتصافح وعناق
فاعجب لأنس في مظنة وحشة ... ومقام وصل في مقام فراق
أمطيباً بمحامد العمل الرضي ... ومكفناً بمكارم الأخلاق
ما كنت أحسب قبل نعشك أن ... أرى رضوى تسير على الأعناق
ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى ... أن اللحود خزائن الأعلاق
يا كوكب الهدى الذي من بعده ... ركد الظلام بهذه الآفاق
يا واحداً مهما جرى في حلبة ... جلى بغرة سابق السباق
يا ثاوياً بطن الضريح وذكره ... أبداً رفيق ركائب ورفاق
يا غوث من وصل الضريح فلم يجد ... في الأرض من وزر ولا من واق
ما كنت إلا ديمةً منشورة ... من غير إرعاد ولا إبراق
ما كنت إلا روضة ممطورة ... ما شئت بن ثمر ومن أوراق
يا مزمعاً عنا العشي ركابه ... هلا لبثت ولو بقدر فواق
رفقاً أبانا جل ما حملتنا ... لا تنس فينا عادة الإشفاق
واسمح ولو بمزار لقيا في الكرى ... تبقى بها منا على الأرماق
وإذا اللقاء تصرمت أسبابه ... كان الخيال تعلة المشتاق
عجباً لنفس ودعتك وأيقنت ... أن ليس بعد ثواك يوم تلاق
ما عذرها إن لم تقاسمك الردى ... في فضل كأس قد شربت دهاق
إن قصرت أجفاننا عن أن ترى ... تبكي النجيع عليك باستحقاق
واستوقفت دهشاً فإن قلوبنا ... نهضت بكل وظيفة الآماق
ثق بالوفاء على المدى من فتية ... بك تقتدي في العهد والميثاق
سجعت بما طوقتها من منةٍ ... حتى زرت بحمايم الأطواق
تبكي فراقك خلوة عمرتها ... بالذكر في طفلٍ وفي إشراق
أما الثناء على علاك فذائع ... قد صح بالإجماع والإصفاق
والله قد قرن الثناء بأرضه ... بثنائه من فوق سبع طباق

جادت ضريحك ديمةٌ هطالة ... تبكي عليه بواكفٍ رقراق
وتغمدتك من الآله سعادة ... تسمو بروحك للمحل الراق
صبراً بني الجياب فقيدكم ... سيسر مقدمه بما هو لاق
وإذا الأسى لفح القلوب أواره ... فالصبر والتسليم أي رواق
وأنشد في هذا الغرض الفقيه أبو عبد الله بن جزي رحمه الله:
ألم تر أن المجد أقوت معالمه ... فأطنابه قد قوضت دعائمه

هوى من سماء المعلوات شهابها ... وخانت جواد المكرمات قوائمه
وثلث من الفخر المشيد عروشه ... وفلت من العز المنيع صوارمه
وعطل من حلي البلاغة قسها ... وعرى من جود الأنامل حاتمه
أجل إنه الخطب الذي جل وقعه ... وثلم غرب الدين والعلم هاجمه
وإلا فما للنوم طار مطاره ... وما للزيم الحزن قصت قوادمه
وما لصباح الأنس أظلم نوره ... وما لمحيا الدهر قطب باسمه
وما لدموع العين فضت كأنها ... فواقع زهر والجفون كمائمه
قضى الله في قطب الرياسة أن قضى ... فشتت ذاك الشمل من هو ناظمه
ومن قارع الأيام سبعين حجة ... ستتبو عراره ويندق قائمه
وفي مثلها أعيى النطاسي طبه ... وضل طريق الحزم في الرأي حازمه
تساوي جواد في رداه وباخل ... فلا الجود واقيه ولا البخل عاصمه
وما نفعت رب الجياد كرامه ... ولا منعت منه الغنى كرايمه
وكل تلاق فالفراق أمامه ... وكل طلوع فالغروب ملازمه
وكيف مجال العقل في غير منفذ ... إذا كان باني مصنع هو هادمه
لبيك علياً مستجير بعدله ... يصاخ لشكواه ويمنع ظالمه
لبيك علياً ماتح بحر علمه ... يروي بأنواع المعارف هائمه
لبيك علياً مظهر فضل نصحه ... يحلا عن ورد المآثم حايمه
لبيك علياً معتف جود كفه ... يواسيه في أمواله ويقاسمه
لبيك علياً ليله وهو قائم ... يكابده أو يومه وهو صائمه
لبيك علياً فضل كل بلاغة ... يخلده في صفحة الطرس راقمه
وشخص ضئيل الجسم يرهب نفثه ... ليوث الشرى في خيسها وضراغمه
تكفل بالرزق المقدر للورى ... إذا الله أعطى فهو للناس قاسمه
يسدده سهماً وينضوه صارماً ... ويشرعه رمحاً فكل يلائمه
إذا سال من شقيه سايل حبرة ... بما شاء منه سايل فهو عالمه
لبيك عليه الآن من كان باكياً ... فتلك مغانيه خلت ومعالمه
تقلد منه الملك عضب بلاغة ... يقد السلوقي المضاعف صارمه
وقلده مثنى الوزارة فاكتفى ... بها ألمعي حازم الرأي عازمه
ففي يده وهو الزعيم بحقها ... يراعته والمشرفي وخاتمه
سخيٌّ على العافين سهلٌ قياده ... أبى على العادين صعبٌ شكائمه
إذا ضلت الآراء في ليل حادث ... رآها برأي يصدع الحق ناجمه
وقام بأمر الملك للدين حامياً ... فذل معاديه وضل مراغمه
وقد كان نيط العلم والحلم والتقى ... به وهو ما نيطت عليه تمايمه
ودوخ أعناق الليالي بهمة ... يبيت ونجم الأفق فيها يزاحمه

وزاد على بعد المنال تواضعاً ... أبى الله إلا أن تتم مكارمه
سقيت الغوادي أي علم وحكمة ... ودين متين ذلك القبر كاتمه
وما زلت يستسقى بدعوتك الحيا ... وها هو يستسقي لقبرك ساجمه

بكت فقدك الكتاب إذ كان شملهم ... يؤلفه من روح فضلك ناعمه
وطوقتهم بالبر ثم سقيتهم ... نداك فكنت الروض ناحت حمايمه
ويبكيك مني ذاهب الصبر موجع ... فوقد في جنبيه للحزن جاحمه
فتى نال منه الدهر إلا وفاءه ... فما وهنت في حفظ عهدٍ عزايمه
عليل الذي زرت عليه جيوبه ... قريح الذي شدت عليه حزايمه
فقد كنت ألقى الخطب منه بجنة ... تعارض دوني بأسه وتصادمه
سأصبر مضطراً وإن عظم الأسى ... أحارب حزني مرة وأسالمه
وأهديك إذ عز اللقاء تحية ... وطيب ثناءٍ كالعبير نواسمه
وأنشد القاضي أبو بكر القرشي قوله من قصيدة في ذلك:
هي الآجال غايتها نفاد ... وفي الغايات تمتاز الجياد
وأنشد الفقيه الكاتب أبو بكر القاسم بن الحكيم قوله من قصيدة:
لينع الحجا والحلم من كان ناعياً ... ويرع العلا والعلم من كان راعيا
وأنشد الفقيه القاضي أبو بكر بن جزي قصيدة أولها:
أبثكما والصبر للعهد ناكث ... حديثاً أملته على الحوادث
قصائد مطولات يخرج استقصاؤها عن الغرض، فكان هذا التأبين غريباً لم يتقدم به عهد بالحضرة لكونها دار ملك، والتجلة في مثل هذا مقصورة على أولي الأمر. فمضى بسبيله رحمه الله.
ابن سعيد

علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر بن كنانة بن قيس بن الحصين بن لوذم ابن ثعلب بن عوف بن حارثة بن عامر الأكبر بن نام بن عبس واسمه زيد بن مالك بن أدد بن زيد العنسي المذحجي من أهل قلعة يحصب ، غرناطي قلعي ، سكن تونس، يكنى أبا الحسن، ويعرف بابن سعيد.
أوليته قد تقرر من كرم أوليته، وذكر بيته ما ينظر في محله.
حاله
هذا الرجل وسطي عقد بيته، وعلم أهله، ودرة قومه، المصنف الأديب، الرحال، الطرفة، الإخباري، العجيب الشأن في التجول في الأوطان، ومداخلة الأعيان، والتمتع بالخزاين العلمية، وتقييد الفوايد المشرقية والمغربية.
مشيخته
أخذ عن أعلام إشبيلية كأبي علي الشلوبين، وابي الحسن الدباج، وأبي الحسن بن عصفور وغيرهم.
تواليفه

وتواليفه كثيرة ، منها المرقصات والمطربات، عزيز الوجود، والمقتطف أغرب وأعجب، والطالع السعيد في تاريخ بيته وبلده. والموضوعان الغريبان المتعددا الأسفار، وهما المغرب في حلى المغرب، والمشرق في حلى المشرق، وغير ذلك مما لم يتصل إلينا، فلقد حدثني الوزير أبو بكر بن الحكيم، أنه تخلف كتاباً يسمى المرزمة ، يشتمل على وقر بعير، لا يعلم ما فيه من الفوايد الأدبية والإخبارية إلا الله

شعره

قال، تعاطى نظم الشعر في حد زمن الشبيبة، يعجب فيه من مثله، فيذكر أنه خرج مع والده، وقد مر في صحبته إلى إشبيلية، وفي صحبته سهل بن مالك، فجعل سهل يباحثه عن نظمه، إلى أن أنشده في صفة النهر والنسيم يردده، والغصون تميل عليه:

كأنما النهر صفحة كتبت ... أسطرها والنسيم ينشيها

لما أبانت عن حسن منظرها ... مالت عليها الغصون تقرؤها

فطرب أبو الحسن وأثنى عليه، ثم شدا، وناب عن أبيه في أعمال الجزيرة، ومازج الأدباء، ودون كثيراً من نظمه، وحفظ له في المدح:

يا أيها الملك الذي هباته ... وهباته شدت عرى الإسلام

لما أسال نداه سل حسامه ... فأراك برقاً في متون غمام

لله شيعتك التي ترك العدا ... أقداحهم بمواطىء الأقدام

طاروا بأجنحة السيوف إليهم ... مثل الحمام جلبن كل حمام

فهم سهام والجياد قسيهم ... وعداهم هدف وسعدك رام

وقال، ومما نظمته بالحضرة في فرس كان لهم لوباني أغر أكحل بحلية:

وأجرد تبرى أثرت به الثرى ... والفجر في خصر الظلام وشاح

عجبت له وهو الأصيل بعرفه ... ظلام وبين الناظرين صباح

رحلته المشرقية، وفيها الكثير من نظمه، قال في الطالع لما قدم الديار المصرية واشتهر، كان مما نظمه سلماً لمعرفة الأدباء والظرفاء قوله، وقد رأى بساحلها وجوهاً لا يعرفها، وألسناً غير ما عهد:

أصبحت أعترض الوجوه ولا أرى ... من بينها وجهاً لمن أدريه

ويح الغريب توحشت ألحاظه ... في عالم ليس له بشبيه

عودي على بدئي ضلالاً بينهم ... حتى كأني من بقايا التيه

ودخل القاهرة، فصنع له أدباؤها صنيعاً في ظاهرها، وانتهت بهم الفرجة إلى روض نرجس، وكان فيهم أبو الحسن الجزار، فجعل يدوس النرجس، برجله، فقال أبو الحسن:

يا واطىء النرجس بالأرجل ... ما تستحي أن تطأ الأعين بالأرجل

فتهافتوا بهذا البيت وراموا إجازته.

فقال ابن أبي الأصبغ:

فقال دعني لم أزل محرجاً ... على لحاظ الرشاد الأكحل

وكان أمثل ما حضرهم، ثم أبوا أن يجيزه غيره، فقال:

قابل جفوناً بجفون ولا ... تبتذل الأرفع بالأسفل

ثم استدعاه سيف الدين بن سابق صاحب الأشغال السلطانية إلى مجلس بضفة النيل، مبسوط بالورد، وقد قامت حوله شمامات نرجس، فقال في ذلك:

من فضل النرجس فهو الذي ... يرضى بحكم الورد إذ يرأس

أما ترى الورد غداً قاعداً ... وقام في خدمته النرجس

ووافق ذلك مماليك الترك، وقوفاً في الخدمة على عادة المشارقة، فطرب الحاضرون، من حسود ومنصف. ولقي بمصر محيي الدين بن ندا واقد التركي، الإمام زهير الحجاري بهاء الدين، وبالقاهرة جمال الدين ابن مطروح، وجمال الدين بن يغمور ، وتعرف بكمال الدين بن العديم رسول سلطان حلب، فاستصحبه يتحف به الملك الناصر صاحب حلب، فلقي بحمص وبيت المقدس وحماه أعلا ما جلة، وله معهم أخبار يطول ذكرها، ودخل على السلطان بحلب، وأنشده قصيدة أولها:

جدلي بما ألقى الخيال من الكرى ... لابد للطيف الملم من الكرا

فقال كمال الدين هذا رجل عارف مذ روى لمقصده من أول كلمة.. ثم قال بعد أبيات:

الناصر الملك الذي عزماته ... أبداً تكون مع العساكر عسكرا

ما كان أنبا الفتح يلزم لامه ... والجمع من أعدائه متكسرا

فعظم استظراف السلطان لهذه المقاصد، وأثنى عليه. ثم وصل فقال:

الدين أصلحه وعم صلاحه الدنيا ... وأصبح ناصراً ومظفرا

فكأن كنيته غدت موضوعه ... من ربه والوصف منه مقررا

وكأنما الأسماء قد عرضت على ... علياه قبل وجوده متخيرا

فقال السلطان كيف ترون واستعاده. فقال عون الدين العجمي عميد المجلس، وكاتب الإنشاء، استنباطه ما سمع الملوك بمثله يا خوند. ثم أنشد:

من آل أيوب الذين هم هم ... ورثوا الندى والبأس أكبر أكبرا

أهل الرياسة والسياسة والعلا ... بسيوفهم حلوا الذرى منحوا الذرا

سم العداة على هيافيهم ... لا تعجبوا فكذاك آساد الشرى

كادوا يقيلون العداة من الردى ... لو لم يمدوا كالحجاب العثيرا

جعلوا خواتم سمرهم من قلب ... كل معاند عد المثقف خنصرا

وبيضهم قد توجوا أعداءهم ... حتى لقد حلوا لكيما تشكرا

لو لم يخافوا تيسار نحوهم ... وهبوا الكواكب والصباح المسفرا

وهي طويلة. ثم استجلسه السلطان، وسأله عن بلاده، ومقصده بالرحلة، فأخبره أنه جمع كتاباً في الحلى البلادية والحلى العبادية المختصة بالمشرق، وأخبره أنه سماه المشرق في حلى المشرق. وجمع مثله فسماه المغرب في حلى المغرب. فقال نعينك بما عندنا من الخزاين، ونوصلك إلى ما لا عندنا. مثل خزاين الموصل وبغداد، وتضيف لنا المغرب. فخدم على عادتهم، وقال أمر مولاي بذلك، إنعام وتأنيس، ثم قال له السلطان مداعباً، إن شعراءنا ملقبون بأسماء الطيور. وقد اخترت لك لقباً يليق بحسن صوتك وإيرادك للشعر، فإن كنت ترضى به، وإلا لم يعلمه عندنا، وهو البلبل، فقال قد رضي المملوك بذلك يا خوند. فتبسم السلطان، وقال اختر واحدة من ثلاث، أما الضيافة التي ذكرتها أول شعرك، وأما جائزة القصيدة، وإما حق الإسم. فقال يا خوند المملوك ممن لا يختنق بعشر لقم، فكيف

بثلاث. فطرب السلطان، وقال هذا مغربي ظريف، ثم أتبعه من الدنانير والخلع الملوكية والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف. ولقي بحضرته عون الدين العجمي، وهو بحر لا تنزفه الدلاء، والشهاب التلعفري الشهير الذكر، والتاج بن شقير، وابن نجيم الموصلي، والشرف بن سليمان الإربلي. وطائفة من بني الصاحب. ثم تحول إلى دمشق، ودخل الموصل وبغداد، ودخل مجلس السلطان المعظم ابن الملك الصالح بدمشق، وحضر بمجلس خلوته. وكان ارتحاله إلى بغداد في عقب سنة ثمان وأربعين وستمائة في رحلته الأولى إليها. ثم رحل إلى البصرة، ودخل أرجان، وحج. ثم عاد إلى المغرب. وقد صنف في رحلته الأولى إليها مجموعاً سماه بالنفحة المسكية في الرحلة المكية. وكان نزوله بساحل مدينة إقلنية من إفريقية في إحدى جمادين من عام اثنين وخمسين وستمائة، واتصل بخدمة الأمير أبي عبد الله المستنصر فنال الدرجة الرفيعة من حظوته، وقال عند اتصاله به لحين قدومه:

وما زلت أضرب في الخافقين ... أروم البلاد وأرعى الدول

إلى أن رجعت إلى تونس ... محل الإمام وأقصى الأمل

فقلت البلاد لهذي قرىً ... وقلت الأنام لهذا خول

نكبته

وحدثني شيخنا الوزير أبو بكر بن الحكيم، أن المستنصر جفاه في آخر عمره، وقد أسن لجراء خدمة مالية أسندها إليه، وقد كان بلاءً منه قبل جفوة، أعقبها انتشال وعناية. فكتب إليه:

يا غزالاً في الحشا منزله ... وبعيني دائماً منهله

لا ترعبني بالجفا ثانية ... ما بقي في الجسم ما يحمله

فرق له، وعاد إلى حسن النظر فيه، إلى أن توفي تحت بر وعناية. رحمه الله

مولده

ولد بغرناطة ليلة الفطر في سنة عشر وستماية.

وفاته

توفي بتونس حرسها الله في أحواز عام خمسة وثمانين وستماية.

علي بن عبد الرحمن

بن موسى بن جودي القيسي

الأديب الكاتب يكنى أبا الحسن

حاله

من أهل المعرفة بالعلوم القديمة، وأصله من عمل سرقسطة. وكان صديقاً للوزير أبي الحسن بن هاني.

مشيخته

قرأ على الحكيم أبي بكر بن الصايغ، المعروف بابن باجة . وكان خليع الرسن فيما ذكر عنه.

شعره

من شعره:

خليلي من نعمان بالله عرجا ... على الأيك من وادي العقيق فسلما

وقولا له ما حال لبني لعله ... إذا سمع النجوى بلبنى تكلما
فعهدي به والظل ينفض دوحه ... وقد خضلت عيدانه فتنعما
تباكره لبنى لإتيان موعد ... عزيز عليها أن يخان ويصرما
نبث حديثها فنبكي بعبرة ... فترسلها ماءً ونرسلها دما
ومن شعره قوله:
أدر كأس المدام فقد تغنى ... بفرع الأيك أورقها الصدوح
وهب على الرياض نسيم صبح ... يمر كما ونى ساد طليح
وسال النهر يشكو من حصاه ... جراحات كما أن الجريح
وقال:
سقى الله دهراً ضم شمل مودة ... وجمع إخوان الصفاء بلا وعد
بميناء تعلوها الرياح بليلةً ... وتنظر منها الشمس بالأعين الرمد
وفاته: توفي بغرناطة في حدود الثلاثين وخمسماية.
ومن الطارين

عمر بن خلاف

بن سليمان بن سلمة

من أهل شابش يكنى أبا علي.

حاله

كان فقيهاً أديباً مكثراً، شهير المكان بجهته، مولعاً بمكاتبة الأدباء، وتقييد ما يصدر عنهم، مؤرخاً من أهل النباهة والعناية. ألف كتاباً سماه نخبة الأعلاق، ونزهة الأحداق في الأدباء، وحلى من ذكر فما قصر من السداد. وله نظم ونثر وخطب، وبيعات ومراجعات، تضمنها الكثير من كتبه.
شعره
ما قاله يخاطب بعض إخوانه:
خذها إليك أبا إسحق تذكرة ... من ذاكر لك في قرب وفي شحط
يرعى ذمامك لا تنسى لوازمه ... ولا يمازجه بالسهو والغلط
ولا يزال بحفظ العهد معتنياً ... ولا يعامل في البحران بالشطط
فأنت عندي أولى من أذمة ربحي ... ومن صفوتي في أرفع النمط
قد طال شوقي للإعلام منك بما ... لديك إذ فيه لي تأنيس مغتبط
وقد تيت بنكري في التغافل عن ... معهود ما كنت توليه لذي الشحط
وقد عفا رسم عرفان الإخاء بما ... أوليت من كثرة الإهمال والغلط
جبر أخي وهيه وارجع لصالح ما ... عودت في الكتب من مستحسن الخطط

وجد بسط انبساط أنت تبذله ... فإن أقبح شيء قبض منبسط
خذ سلاماً كعرف المسك نفحته ... من ذي ولاءٍ بذاك المجد مغتبط
وفي مفاتحة بعض الأدباء:
أبا جعفر وافتك في صفحة الطرس ... عقيلة ود لم تشنها يد اللمس
لها حلل الإخلاص زياً وحليها ... عطر ثنا عرف روض الربى ينبس
وموجبها ما قد فشى من محامد ... حباك بها الرحمن ذو العرش والكرسي
وغر علوم حزتها ومعارف غلوت بها ... فحيي علي البدر والشمس
فإن رزقت منك القبول تشرفت ... وفازت بتحصيل المسرة والأنس
خطابك يا قاضي العدالة بغيتي ... وروحي وريحاني وقصوي مني نفسي
إقتضبتها أعلى الله قدرك، كما أسنى في سماء المعارف والأدب التالد والطارف بدرك، عن ود ملك زمامي، وفضل في سبيل المنافسة في خطبة ودادك غاية اهتمامي، وقد تقرر لدي من محاسنك وإحسانك بالسماع ما أوجب علي مخاطبتك عند تعذر المشافهة بألسنة اليراع، فانقدت بزمام ذلك الواجب، وقصدت أداءه على أصح المذاهب، راجياً من تجاوزك وإغضايك ما يليق بباهر علايك، وفي جوابك هو الشفاء، ولدى خطابك يلقى الاعتناء والاحتفاء، والله يطلع منك السار، ويصل لك المبار. وقال يخاطب السلطان:
إلى الحضرة العليا يستبق العبد ... وفي القرب سنها والدنو هو القصد
إلى حضرة الولي الإمارية التي ... تبلح فيها العدل وابتسم السعد
وفيها وجود للدين والدنا ... وقد خصها بالرحمة الصمد الفرد
وفاته
كان حياً في سنة خمس وستماية
علي بن أحمد بن محمد

بن يوسف بن عمر الغساني

من أهل قرية أريتيرة من قرى سند مدينة وادي آش، يكنى أبا الحسن
حاله
كان من جلة الطلبة ونبهائهم وأذكيائهم وصلحائهم. عنده معرفة بالفقه، ومشاركة في الحديث، ومعرفة بالنحو والأدب. وحسن نظم ونثر، من أحسن الناس نظماً للوثائق، وأتقنهم لها. وأعرفهم بنقدها، وأقصدهم لمعانيها يستعين على ذلك بأدب وكتابة، فيأتي بأشياء عجيبة.
مشيخته
روى عن الراوية أبي العباس الخروبي. والمقري أبي الحسن طاهر بن يوسف بن فتح الأنصاري. والقاضي أبي محمد بن عبد الرحيم الخزرجي
تواليفه

ألف كتاباً في شرح المسند الصحيح لمسلم بن الحجاج في أسفار كثيرة، أجاد فيها الإجادة. وله كتاب سماه بالوسيلة في الأسماء الحسنى. ونظم في شمايل النبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

شعره

له شعر في الزهد وغيره فمنه قوله:

أيا كريماً لم يضع ... لديك عبد أملك

بالباب من أنت له ... وود لو كان لك

عبدٌ له أسولة ... وليستحي أن يسلك

أفواههم تسله ... ولم تحسن عملك

فإن أنت خنته ... أمانة قد حملك

ولم تكن تشكر ما ... من فضله قد خولك

وكلما أهملته من ... حقه ما أهملك

إنا كما قالوا سوى ... أنك أعلى من ملك

تلك التي تؤنسني ... وترتجي بفضلك

بشراي إن نال ... الرضا بها توسلك

علي بن محمد علي

بن هيضم الرعيني

من أهل إشبيلية، يكنى أبا الحسن.

حاله

الكاتب البليغ المحدث الراوية. قال الأستاذ، كان من أهل العلم والمشاركة، وغلبت عليه الكتابة السلطانية. واعتمدها صناعة. وكتب لجلة من ملوك الأندلس والعدوة. وكان انفصاله من الأندلس قبل سنة أربعين وستماية. قلت، وكتب للسلطان المتوكل على الله أبي عبد الله بن هود، ثم للسلطان المتوكل الغالب بالله أبي عبد الله بن نصر. وسكن بغرناطة مدة مديدة. ثم رحل إلى مراكش. فكتب عن أمير سبتة، وعن ملوك الموحدين بمراكش. ونمت حاله ونبهت رتبته، واستقل بالإنشاء، بعد شيخة أبي زيد الفازازي، وكان محدثاً عارفاً بارواية، متعدد المشيخة. فاضلاً، ديناً. مشاركاً في كثير من المعارف. حسن الخط. جيد الكتابة. متوسط الشعر. قلت هذا الرجل له مشيخة في أصل ابن الخطيب طويلة اختصرتها .

شعره ونثره

من ذلك ما جمعفيه بين النظم والنثر:

وافى الكتاب وقد تقلد جيده ... ما أنت تحسن نظمه وتجيده

من كل معنى ضمن لفظه في حلى ... خط يزيل طلى الطروس فريده

أبا المطرف دعوة من خالص ... لعلاك غابت وده وشهيده

أنت الوحيد بلاغة وبراعة ... ولك البيان طريفه وتليده

فانثر أنت بديعه وعماده ... وانظم أنت حبيبه ووليده

إيه أيها السيد الذي جلت سيادته، وحلت صميم الفؤاد سعادته، ودامت بها ينفع الناس عادته. ألقى إلى كتاب كريم، خطته تلك اليمنى التي اليمن فيها تخطه. ونسقت جواهر بيانه، التي راق بها سمطه، فلا تسلوا عن ابتهاجي بأعاجيبه، وانتهاجي لأساليبه، وشدة كلفي بالتماح وسيمه، وجدة شغفي باسترواح نسيمه. فإنه قدم، وأنس النفس راحل، واستعاده وروض الفكر ماحل، فجاده، لا جرم أنه بما حوى من حدق النوى، وروى من طرق الهوى، وبكى الربيع المحيل، وشكى من صابح الرحيل، هيج لواعج الأشواق وأثارها، وحرك للنفس حوارها، فحنت، واستوهبت العين مدارها فما ضنت. فجاشت لوعة أسكنت، وتلاشت سلوة عنت، وكف دمع كف، وثقل عذلٌ خف، واشتد الحنين، وامتد الأنين، وعلا النحيب، وعرا الوجيب، والتقى الصب والحين، وهدى المحب قدر ما جناه البين، وطالما أعمل في احتمال المشاق عزيمه، وشد لاجتياب الآفاق حيازيمه.

وادع مثوى المقام معتزما ... لا يرى الغرام ملتزما

وأزمع الباين عن أحبته ... أشعل البين في الحشى ضرما

وهل جرى ذاك في تصوره ... فربما أحدث الهوى لمما

إلهي ألا نوى مشيئته ... شملاً من العيش كان منتظما

وعاذلٌ قال لي يعنتني ... لا تبد فيما فعلته ندما

ما حيلة في يدي فأعملها ... عدلٌ من الله كل ما حكما

أما أن القلب لو فهم حقيقة البين قبل وقوعه وعلم قدر ما يشب من الروع في روعه، لبالغ في اجتنابه، واعتقد المعفى عنه من قبيل المعتنى به. ولحا الله الأطماع، فإنها تستدرج المرء وتغره، وتغريه بما يسره. ما زالت تقتل في الغارب والذروة، وتخيل بالترغيب والثروة، حتى أنأت عن الأحباب والحبايب، ورمت بالغريب أقصى المغارب. فيا لوحشة ألوت بإيناسة، وبالغربة أحلت في غير وطنه وناسه، ويا عجباً للأيام وإساءتها، وقرب مسرتها من مساتها، كأنها لم تتحف بوصال، ولم تسعف باتصال، ولم تمتع بشباب، ولم تفتح لقضاء أوطار النفس كل باب.

عجباً للزمان عق وعاقا ... وعدمنا مسرة ووفاقا

أين أيامه وأين ليال ... كلآل تلألؤاً واتساقا

كم نعمنا بظلها فكأنا ... مرقها للصبا علينا رماقا

كم بغرناطة وحمص وصلنا ... باصطباح من السرور اغتباقا

وفي ربى نجد تلك أو نهر هدى ... والأماني تجري إلينا استباقا

في رياض راقت وراق ولكن ... حين ند الحيا لها فأراقا

رق فيها النسيم فهو نسيب ... قد سبا رقة نفوساً رفاقا

وثنا للغصون منها قدوداً ... تتلاقى تصافحاً واعتناقا

كلما هب من صباه عليل ... وتداوى بها العليل أفاقا

حكم السعد للأحبة فيه ... بكؤوس الوصال أن تتساقا

ثم كرت للدهر عادة سوء ... شق فيها خطب النوى حين شاقا

شتت الشمل بعد طول اجتماع ... وسقى الفراق كأساً دهاقا

وأعاد الأوطان قفراً ولكن ... قد أعاد القطان فيها الرفاقا

ليت شعري والعيش تطوي بالفيافي ... أشاماً تبوؤا أم عراقا
يا حداة القلوب رفقاً بصبٍّ ... بلغت نفسه السياق اشتياقا
فآه من شجوة وآه لبين ألزم ... النفس لوعة واحتراقا
هذه يا سيدي استراحة من فؤاد، وقدته الفرقة والقطيعة، واستباحته لحمى الوقار بما لم تحظره الشريعة، فقديماً تشوكيت الأحزان، وتبوكيت الأوطان، وحن المشتاق، وكن له من الوجد ما لا يطاق، فاستوقف الركب يشكو البلابل، واستوكف السحب لسقيا المنازل، وفدى الربع وإن زاده كرباً، ومن له إن يلم لائماً له تربا. حسبه دموع تفيض مجاريها، ونجوم يسامرها ويسايرها.
ألف السهاد فشأنه إدمانه ... واستغرقت أحيانه أشجانه
وشكا جفا الطيف إذ لم يأته ... هل ممكن من لم ينم إتيانه
واستعبدته صبابة وكذا الهوى ... في حكم أحراره عبدانه
كم رام كتمان المحبة جهده ... ودموعه يبدو بها كتمانه
وإذا المحب طوى حديث غرامه ... كبى الضلوع وشت به أجفانه
وهي طويلة.
وفاته

بمراكش سحر ليلة الأربعاء الرابعة والعشرين من رمضان سنة ستة وستين وستماية. ودفن عقب ظهره، بجبانة الشيوخ مقارباً باب السادة أحد أبواب قصر مراكش. وكان الحفل في جنازته عظيماً. لم يتخلف كبير أحد.
علي بن محمد بن علي بن البنا
من أهل وادي آش يكنى أبا الحسن.
حاله
من الإكليل الزاهر، قال فيه، فاضل يروقك وقاره، وصقرٌ بعد مطاره. قدم من بلده وادي آش يروم اللحاق بكتاب الإنشاء، وتوسل بنظم أنيق، وأدب في نسب الإجادة عريق، تعرف براعته عن لسان ذليق، وطبع طليق، وذكاء بالأثرة خليق، وبينا هو يلحم في ذلك الغرض ويسدي، ويعيد ويبدي، وقد كادت وسايله أن تنجح، وليلة رجايه أن تصبح، اغتاله الحمام، وخانته الأيام، والبقاء لله والدوام.
شعره
من شعره يخاطبني لما تقلدت الكتابة العليا:
هو العلا جرى باليمن طايره ... فكان منك على الآمال ناصره
ولو جرى بك ممتداً إلى أمل ... لأعجز الشمس ما أمت عساكره
لقد حباه منيع العز خالقه ... بفاضل منك لا تحصى مآثره
فليزه فخراً فما خلقٌ يعارضه ... ولا علاً مدى الدنيا يفاخره
لله أوصافك الحسنى لقد عجزت ... من كل ذي لسن عنها خواطره
هيهات ليس عجيباً عجز ذيل سن ... عن وصف بحر رمى بالدر زاخره
هل أنت إلا الخطيب ابن الخطيب ... ومن زانت حلى الدين والدنيا مفاخره
فإن يقصر عن الأوصاف ذو أدب ... فما بدا منك في التقصير عاذره

يابن الكرام الألى ما شب طفلهم ... إلا وللمجد قد شدت مآزره
مهلاً عليك فما العلياء قافية ... ولا العلا بسجعٍ أنت ناثره
ولا المكارم طرساً أنت راقمه ... ولا المناقب طباً أنت ماهره
ماذا على سابق يسري على سنن ... إن كان من نفعه خل يسايره
سر حيث شيت من العليا سيداً ... فما أمامك سابقٌ تحاذره

أنت الإمام لأهل الفخر إن فخروا ... أنت الجواد الذي عزت مفاخره
ما بعد ما حزته من عزة وعلاً ... شأو يطارد فيه المجد كابره
نادت بك الدولة الشعرى محتدها ... نداء مستجد أزراً يوازره
حلية لما برد البر مرتدياً ... وصح يمنك فجر السعد ساجره
فالملك يرفل في أبراده مرحاً ... قد عمت الأرض إشراقاً بشايره
فأضاء بها نعمة ما أن يقوم فيها ... من اللسان ببعض الحق شاكره
وليهنئنا أنه ألقت مقالدها ... إلى سرى زكت منه عناصره
فإنه بدر تم في مطالعها ... قد طبق الأرض بالأنوار نايره
ومن أطبع ما هز به إلى إقامة سوقه، ورعى حقوقه، قوله:
يا معدن الفضل موروثاً ومكتسبا ... فكل مجد إلى عليائها انتسبا
بباب مجدكم الأسمى أخو أدب ... مستصرخ بكم يستنجد الأدبا
ذل الزمان له طوراً فبلغه ... من بعض آماله بعض الذي طلبا
والآن أركبه من كل نابية ... صعب الأعنة لا يألو به نصبا
فحملته دواعي حبكم وكفى ... بذاك شافع صدقٍ يبلغ الأربا
فهل سرى نسمة من جاهكم ... فيها خليفة الله فينا يمطر الذهبا
وأهدى إلي قباقب خشب برسمي ومعها من جنسها صغار للأولاد من مدينة وادي آش من خشب الجوز وكتب لي معها:
هاكها ضمراً مطايا حساناً ... نشأت في الرياض قضباً لدانا
وثوت بين روضة وغدير ... مرضعات من النمير ليانا
ثم لما أراد إكرامها الله ... وسنى لها المنى والأمانا
قصدت بابك العلى ابتداراً ... ورجت في قبولك الإحسانا
قد قبلنا جيادك الدهم لما ... لما أن بلونا منها العتاق الحسانا
أقبلت خلف كل حجر ببيع ... خلعت وصفها عليه عيانا
فقبلنا برعيها وفسحنا في ... ديار العلى لها ميدانا
وأردنا امتطاها فأفخذنا ... من شراك الأديم فيها عنانا
قدمت قبلها كتيبة سحر ... من كتابٍ سبت به الأذهانا
مثلما تجنب الجيوش المذاكى ... عدة للقاء مهما كانا
لم ترق مقلتي ولا رق قلبي ... كحلاها براعة وبيانا

من يكن مهدياً فمثلك يهدى ... لم أجد للثنا عليك لسانا

وفاته

توفي في الرابع لشعبان من عام خمسين وسبعماية معتبطاً في الطاعون لم يبلغ الثلاثين.

الوارد

علي بن محمد بن علي العبدري سكن غرناطة، يكنى أبا الحسن ويعرف بالوارد، ويشهر أبوه باليربوني.

حاله

بقية مسني أدباء الأندلس في فن الهزل والمعرب، والهزل متولى شهرته، وله القدح المعلى فيه، والطريقة المثلى، ظريف المأخذ، نبيل الأغراض، حافظ للعيون، مال بآخرة إلى النسك، وصحبة الصالحين. ولم يزل بحاله الموصوفة إلى أن استولت عليه الكبرة، وظرفه يتألق خلال النسك. وجرى ذكره في الإكليل الزاهر بما نصه: أديب نار ذكايه كأنه يتوقد، وأريبٌ لا يعترض كلامه ولا ينقد. أما الهزل فطريقته المثلى، التي ركض في ميدانها وجلى، وطلع في أفقها وتجلى، فاصبح علم أعلامها، وعابر أحلامها. إن أخذ بها في وصف الكاس، وذكر الورد والآس، وألم بالربيع وفصله، والحبيب ووصله، والروض وطيبه، والغمام وتقطيبه. شق الجيوب طرباً، وعل النفوس إرباً وضرباً. وأن اشفق لاعتلال العشية، في فرش الربيع الموشية، ثم تعداها إلى وصف الصبوح، وأجهز على الرق المجروح، وأشار إلى نغمات الورق يرفلن في الحلل الزرق، وقد اشتعلت الليل نار البرق، وطلعت بنور الصباح في شرفات الشرق، سلب الحليم وقاره، وذكر الخليع كأسه وعقاره، بلسان يتزاحم على مورده الخيال، ويتدفق من حافاته الأدب السيال، وبيان يقيم أود المعاني، ويشيده صانع اللفظ محكمة المباني، ويكسو حلل الإحسان جسوم المثالث والمثاني، إلى نادرة لمثلها يشار، ومحاضرة يجنى بها الشهد ويسار.

وقد أثبت من شعره المعرب. وإن كان لا يتعاطاه إلا قليلاً، ولا يجاوره إلا تعليلاً، أبياتاً لا تخلو من مسحة جمال على صفحاتها، وهبة طيبٍ ينم في نفحاتها.

فمن ذلك قوله:

يذكرني حسن الكواعب روضة ... لها خطر قيد النواظر موثق

خدود من الورد النضير وأعين ... من النرجس السامي إليها تحدق

وخامات زرع يانع كنؤاب ... وما شقها من جدول الماء مفرق

ومن شعره قوله:

أسافرة النقاب سحرت لما ... أمطت الخز عن بدر التمام

وتيمت الفؤاد بفنج طرفٍ ... كحيل ما يفيق من المنام

لعمر أبيك ما بالنوم بعدٌ ... عن الجفن المكحل بالظلام

ومن معانيه المخترعة وأغراضه المبتدعة. وكلها كذلك:

مالي إذا غبتم تهمى لفرقتكم ... عيني بمنهمر كالغيث هتان

أشبهت نيلوفراً والشمس بهجتكم ... إن غبتم غبت في أمواه أجفان

السقم يشهد لي والدمع برح بي ... متى استوى عندكم سرٌّ وإعلان

وقال من المستحسن الذي رمى فاصاب، واستمطر طبعه فصاب:

يقولون لاح الشيب فاله عن الصبا ... وعن قهوة تصبو لها وتنيب
فقلت دعوني نصطحبها سلافة ... على صبح شيبي فالصبح عجيب
وقال كذلك:
لا تعجبن من اليليد مخولاً ... ومن اللبيب يعد في الفقراء
الماء أصل الخصب غير مدافع ... وأخو البلادة طبعه كالماء
والنار مؤثرة الجدوب وإنها ... لشبيهة بطبائع الفطناء
ومن قصائده الغربية:
ومعذرٌ لحظ المشيب بعارضي ... فتصرمت دوني حبال وصاله
هلا ثنتهه نسبة لمحبه ... إن العذار لشيبة لجماله
وقال أيضاً:
تحر الصدق إن حدثت يوماً ... وإن حدثت لا تنقل حديثاً
وكن للسر صواناً كتوماً ... وربما كان سرك أو حديثاً
قال مما يكتب في غمد سيف:
لئن راق مني منظر بان حسنه ... لقد سامني بالمهند باطن
كان أديمي رقعة من حديقة ... تلقفها صلٌّ لدى الروض كامن
وقال مما يكتب على قوس:
إن كان من وتر الألحان منبعثاً ... سرور قوم مدى الآصال والبكر
فإن حزن العدا ما نال منبعثاً ... مني وحينهم في النقر في وتر
وقال في غير هذا الغرض:
الخير كل الخير في ستة لم ... تلف إلا في كرام الرجال
الحزم والحلم وحمل الأذى ... والصبر والصمت وصدق المقال
ومما نختتم به محاسنه قوله:
ألا إن باب الله ليس بمغلق ... ولا دونه من مانع لموفق
ولكن بلينا في سلوك طريقه ... بكلبٍ من الشيطان ليس بمطرق
فمن يرم بالدنيا إليه كلقمة ... فذاك الذي من شره ليس يتق

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين

فخل عن الدنيا ودع عنك حبها ... يدعك إلى أوج السعادة ترتق
وقوله:
ايقنت أن جميع الخلق ليس له ... شيىء من الأمر في شيىء فيصنعه
فلا أخاف ولا أرجو مدى عمري ... الأ الذي في يديه الخلق أجمعه
مولده

بمدينة مالقة في اليوم الثالث والعشرين لذي حجة من عام أحد وثمانين وستماية
وفاته
في أحواز أحد وستين وسبعماية
علي بن عبد العزيز

بن الإمام الأنصاري

يكنى أبا الحسن، سرقسطي الأصل، غرناطي الاستيطان والاستعمال.
حاله
كان وزيراً جليلاً، معظم القدر. مبجلاً أثيراً، ذا معارف جمة، أحد كتاب الزمن، وأهل البلاغة والفصاحة والكرم. وزر للأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين، صاحب غرناطة فحمدت وزارته، وكتب للأمير علي بن يوسف. وروى عن شيوخ غرناطة.
أخباره في الجود والجلالة
قال أبو القاسم، شكى إليه بعض إخوانه من حادث طرقه، وأن النفاق أخرجه من بلده، وحال بينه وبين بلده، فأنزله أكرم منزل وخرج إلى المسجد الجامع، وأشهد على نفسه أنه وهبه الربع من أملاكه، وكتب بذلك عقداً ودفعه إليه، وقال يا أخي إن ذلك سيصلح من حالك، وحالي لا يتسع لأكثر من هذا، فاعذر أخاك. وكان الذي وهبه يساوي فوق الألف دنير مرابطية، فرحم الله الوزير أبا الحسن: فلقد كان نادرة الزمن.
شعره
من ذلك قوله:
يا ليت شعري والأماني كلها ... زور يغرك أو سراب يلمع
في كل يوم منزل لأحبة ... كالظل يلبس للقيل ويخلع
ومن ذلك قوله:
تسموا بالمعارف والمعالي ... فليس المجد بالرحم البوال
وإن فاتا فبالبيض المواضي ... وبالسمر المثقفة العوال
وإذا المرء تنهضه هذي ... فليس بنا هض أخرى الليال

ومن أسمته أسباب سواها ... فرفعتها تؤل إلى سفال

ومن المحدثين والفقهاء والطلبة النجباء

علي بن إبراهيم بن علي

بن إبراهيم الجذامي

القاضي المتفنن الحافظ، من أهل غرناطة يكنى أبا الحسن.

حاله

من الصلة، كان عدلاً فاضلاً جليلاً، ضابطاً لما رواة، فقيهاً حافظاً، حسن التقييد.

تواليفه

قال اختصركتاب الاستذكار لأبي عمر بن عبد البر. وغير ذلك.

مشيخته

روى عن أبي محمد عبد الحق بن بونه، والقاضي ابي عبد الله بن زرقون، وأبي القاسم بن حبيش، وأبي خالد بن رفاعة، وأبي محمد بن عبيد الله، وأبي زيد السهيلي، وابي عبد الله بن الفخار، وأبي الوليد بن رشد.

مولده

ضحوة يوم الأضحى من عام خمسة وخمسين وخمسماية.

وفاته

وتوفي قريب الظهر من يوم الأربعاء التاسع عشر لذي حجة من عام اثنين وثلاثين وستماية.

من روى عنه. روى عنه القاضي أبو علي بن أبي الأحوص.

ابن النفزي

علي بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن الضحاك الفزاري من أهل غرناطة، يكنى ابا الحسن، ويعرف بابن النفزي.

حاله

قال أبو القاسم الغافقي، فقيه مشاور بغرناطة، محدث متكلم.

مشيخته

أخذ عن أبي الحسن شريح، وعن الإمام أبي الحسن علي بن أحمد بن الباذش، وعن أبي القاسم بن ورد، وعن القاضي أبي الفضل عياض بن موسى، وعن الإمام أبي عبد الله المازري، وعن أبي الطاهر السلفي، وعن أبي مروان بن مسرة، وأبي محمد بن سماك القاضي، وعلي بن عبد الرحمن ابن سمحون القاضي، والقاضي أبي محمد بن عطية، والمشاور أبي القاسم عبد الرحيم بن محمد، والقاضي أبي القاسم بن أبي جمرة، وجماعة يطول ذكرهم.

تواليفه

وله تواليف في أنواع من العلم، منها كتاب نزهة الأصفياء وسلوة الأولياء في فضل الصلاة على خاتم الرسل وصفوة الأنبياء غثنا عشر جزءاً، وكتاب زواهر الأنوار وبواهر ذوي البصاير والاستبصار في شمايل النبي المختار، سفران كبيران، وكتاب منهج السداد في شرح الإرشاد ثلاثون جزءاً، وكتاب مدارك الحقائق في أصول الفقه خمسة عشر جزءاً، وكتاب تحقيق القصد السني في معرفة الصمد العلي سفر، وكتاب نتايج الأفكار في إيضاح ما يتعلق

بمسئلة الأقوال من الغوامض والأسرار سفر، وكتاب تنبيه المتعلمين على المقدمات والفصول وشرح المهمات منها والأصول سفر، وكتاب السباعيات، وكتاب تبيين مسالك العلماء في مدارج الأسماء، وكتاب رسائل الأبرار.
وذخائر أهل الحظوة والإيثار في انتخاب الأدعية المستخرجة من الأخبار والآثار سفران اثنان، وكتاب الإعلام في استيعاب الرواية عن الأيمة الأعلام سفران.

وفاته

توفي في الكاينة بغرناطة سنة سبع وخمسين وخمسماية. خرج منها يريد وادي آش، فلم يصل إليها، وفقد فلم يوقع له على خبر.

ابن زكريا

علي بن عبد الله بن يحيى بن زكريا الأنصاري يكنى أبا القاسم، ويعرف بابن زكريا.

أوليته: قد مر في ذكر أبيه وعمه.

حاله

هذا الرجل فاضل، سكون، من أهل السذاجة والسلامة، والعفاف والصيانة، معم مخول في الخير. طاهر النشأة. جانح للعدالة. قعد للعلاج، وبرز في صناعة الطب، على فتاً من سنه، واستيم إليه بمهم من نبيه العمل وخطته، متصف بالإجادة والبيان.

مشيخته

قرأ العربية والفقه وغيرهما من المبادىء على مشيخة وقته، والطب على الوزير أبي يزيد خالد بن خالد من أهل غرناطة، وقعد معه.

شعره

ينتحل من الشعر ما عينه في الشرود أو غير ذلك فراره كقوله:

صعدت نار فؤادي أدمعي ... فلذا ما جف قلبي فانفطر
لو أباح الله لي وصلك ... الأنبل صدع القلب مني وانخبر
أصل داني منك لحظٌ فاتر ... وأشد اللحظ ما ما فتر
كيف أرجو منه براً وغدت ... قهوة الحسن تسقيه درر

فانظر قوله، الأنبل من شعره:

ولي همة من دونها كل همة ... أموت بها عطشان أو يخلص الشرب
يعز على الكريم ورود ماء ... يكدره شوب ويطرقه نهب
وإني وأن أضحى لودك موضع ... من القلب أضحى دون موضعه الخلب
فتمنعني نفسي لايتمان أرواحهم ... على شربٍ يونقه قشب

غفر الله له على قشب، وتجاوز عنه، فلقد دفع منه ففضحها.

وهو بحاله الموصوفة

ومن الطارئين والغرباء

علي بن أحمد الخشني

علي بن أحمد بن محمد بن أحمد بن علي بن أحمد الخشني من أهل مالقة، من قرية يعشيش من عمل ملتماس، من شرقيها يكنى أبا الحسن. ودخل غرناطة ومدح أمراءها وتردد إليها.

حاله

من عايد الصلة: من صدور أهل الدين والفضل، والخير والصلاح والنزاهة، والاقتصاد والانقباض، تحرف بصناعة التوثيق بمالقة، جارياً على شاكلة مثله من الاقتصاد، والتبلغ باليسير، ومصابرة الحاجة، مكباً على المطعالة والنظر، مجانباً للناس، بعيداً عن الريب، مؤثراً للزهد في الدنيا. ولي الخطابة بالمسجد الأعظم من قصبة مالقة في عام وفاته.

مشيخته

قرأ على الأستاذ الصالح الخطيب أبي جعفر بن الزيات، والأستاذ المقري رحلة الوقت أبي عبد الله بن الكماد.

شعره

وشعره آخذٌ بطرف من الإجادة في بعض المقاصد، فمن ذلك قوله:

أرى لك في الهوى نظراً مريباً ... كأن عليك عاذلاً أو رقيباً
ولست بخائف في الحب شيئاً ... على نفسي مخافتي المشيبا
يريني كل ما تهواه نفسي ... قبيحاً مالياً عيني عنيبا
أنا منه ابن قيس لا يراح ... فذق مر التأسف مستطيبا
إذا ما كنت تبكي فقد حبٍّ ... فما مثل الشباب به حبيبا

وقال في مذهب المدح من المطولات:

الآن تطلب ودها ووصالها ... من بعد ما شغلت بهجرك بالها
وقد استحالت فيك سيما الصبا ... حالاً يروع مثلها أمثالها

وأتيتها متلبساً بروايع نكرٍ ... بفودك أصبحت عذالها
بيضٌ تخيل للنفوس نصولها ... سمراً تخول للنحور نصالها
مثل الأفاعي الرقط تنفث ... في الحشا وأرى بفودك جثماً أطالها
نار تضرم في الفؤاد حريقها ... لكن تنير بمفرقيك ذبالها
جزعت لهذا الشيب نفسي ... وهي ما زالت تهون كل صعب نالها
ولكم صدعت بنافذ من عزمتي ... هماً لا يهدي العليم ضلالها
صادمت من كرب الدنا أشتاتها ... ما خفت غربتها ولا إقلالها
ولئن تقلص عسرتي فيىء الغنا ... عني فلي نفسٌ تمد ظلالها
ما مزقت ديباجتي غير امرىءٍ ... عرضت عليه النفس قط سؤالها
ألقى الليالي غير هبٍّ صرفها ... والأسد غير مجنب أغيالها
أمشي الهوينا والعداة تمر بي ... مراً يطير عن الجياد نسالها
علمت لي الخلق الجميل محققاً ... وتسيء في على عملي أقوالها
تبغي انشاءً وهل سمعت بنسمة ... مرت على نجدٍ تهز جبالها
ولربما عرضت لعيني نظرة ... يرضى الحكيم غرامها وخبالها
من غادةٍ سرق الصباح بهاءها ... والبدر في ليل التمام كمالها

تهوى المجرة أن تكون نجومها ... من حليها وهلالها خلخالها
عرضت كما مرت بعينك مطفل ... ترعى بناظرك الكحيل غرامها
ما نهنهت نفسي وإن ضمنت لها ... عبراتها يوم الوداع وصالها
من كان يأمل أن يقوم بمجلس ... حطت به شهب السما أثقالها
محا أحاديث السراة أولي النها ... نصاً ويضري في العلى أمثالها
ألقى هواه جانباً وسرى به ... وجنا تدوي في الدجى إعمالها
ومنها في المدح:
ألبست دين الله حلة أمن ... أضفت على اسرايه ذلذالها
أنتم بني نصر نصرتم ملة الإسلام ... حين شكت لكم عذالها
كنتم لها أهلاً ورحبتم بها ... في الغربتين ومنتم إنزالها
نزلت على سعد ليسعد جدها ... وأوت إلى نصر لينصر أليها
أحرزتم يوم السقيفة عودها ... دون الأنام وقودها وسكالها
لكن حبوتم من أجرتم منة ... بخلافة الله التي يعنى لها
إذ تؤثرون سواكم قالت بذا ... آي الكتاب فمن يرد مقالها
حتى إذا عثرت ولم ينهض بها ... إلا كم بادرتم إنشالها
أويتم خير البرية كلها ... ومغيثها ونجاتها وثمالها
من ألبس الشرف الرفيع وضيعها ... وكسا معصفرة الحجا جهالها
من أم في السبع العلى أملاكها ... جبريلها في الغرب أو ميكالها
من أنقذ الغرقى وقد شمل الردى ... هذا الأنام خيارها وحثالها
من فاضت الخيرات من تلقايه ... كالصبح فاض على الدجى فأزالها
من فجر العين الفرات بكفه ... يرو الورى ورد القطا سلسالها
من لا يقاس بالرياح إذا سرت ... نشراً تقل من السحاب ثقالها
معنى وجود الكون علة كونه ... نفس الحياة منفساً أهوالها
دامت صلاة الله ديمة عارض ... يهمى عليه ندى الدنا هطالها
لما تحققت النبوة أنها قد ... زلزلت منها الورى زلزالها
وتقاعست عن منعها أعمامها ... أمت أيمة نصرها أحوالها
فوثبتم مثل الليوث لنصرها ... والحرب تجنب خلفها أشبالها
وأدرتم منها زبوناً أصبحت ... ترمي رؤوس الملحدين ثقالها
بدرٌ وما بدرٌ وردم قلبها ... بجنادل الطاغوت تملأ جالها
ولكم بأوطاس وقد حمي الوطيس ... على العدا يوم أطاح بحالها

فنزعتم أزواجها وسبيتم أولادها وسلبتم أموالها
وذهبتم بالمصطفى لدياركم ... وحياً سواكم ساقها وجمالها
فزتم به فوز المعلى منحة ... أحرزتم دون الأنام منالها

يا أيها الملك الذي من ملكه ... جنت الملوك جمالها وجلالها
مازال حزبك منهم يعلو على ... مر الدهور ويعتلي أجبالها
حتى حللت من المجادة ذروة ... ما حل غيرك في المجادة حالها
تحمي الهدى تهمي الندى تولي ... الجدا وتقي الردى وترى العدا أوجالها
قعدت شريعته بيمنك ليس من ... كدر يشين على العباد زلالها
يا سيد السادات يا ملك الملوك ... وشمسها وصباحها وهلالها
يا بدرها يا بحرها أو غيثها أو ... ليثها أو حسنها وجمالها
خذها كما دارت بكأس سلافها ... حوراء تمزج باللما جريالها
تثني على السحر المبين وشاحها ... وتدير من خمر الفتور جلالها
لمياء تبرز للعيون كشاطر ... والعقل يوجب حكمه إجلالها
وقفت وذو إحسانها من هاشم ... من سبط خير العالمين حيالها
يرجو رضاك وطالما أرضيتم ... آل النبي وكنتم أرسالها
كم من يد بيضا لدينا منكم ... شكرنا له وأولياه فعالها
آويتم واسيتم واليتم ... أحللتمونا داركم وجلالها
وهجرتم لوصالنا أعداءنا ... ووصلتم لصلاتنا أوصالها
فصلوا أحياءنا ما استطعتم وصله ... تعطوا من أجزا الجزاء جزالها

وله تأليف غريب عكف عليه عمره في فضل مكة، وكأنه يروم برهاناً على وجوب كونها بالموضع الذي هي به، وفضله على سواه، وتكلم على حروف اسمها، من جهة تناسب أعداد الحروف، مما الناظر فيه مخير في نسبه إلى العرفان أو الهذيان.

وفاته

توفي بمالقة في أخريات صفر من عام خمسين وسبعماية.

علي بن أحمد الغساني

علي بن أحمد بن محمد بن يوسف بن مروان بن عمر الغساني من أهل وادي آش، وروى وتردد إلى غرناطة، يكنى أبا الحسن.

حاله

كان فقيهاً حافظاً، يقظاً، حسن النظر، أديباً، شاعراً مجيداً، كاتباً بليغاً، فاضلاً.

مشيخته

روى عن أبي إسحق بن عبد الرحيم القيسي، وابي الحسن طاهر ابن يوسف، وأبي العباس الخروبي. وأبي القاسم بن حبيش، وأبي محمد عبد المنعم بن الفرس الغرناطي، ومحمد بن علي بن مسرة.

وروى عنه، أبو بكر بن عبد النور، وأبو جعفر بن الدلال، وأبو عبد الله بن أحمد المذحجي، وأبو سعيد الطراز، وابن يوسف وابن طارق، وأبو علي الحسن بن سمعان، وأبو القاسم بن الطيلسان.

تواليفه

صنف في شرح الموطأ مصنفاً سماه نهج المسالك للتفقه في مذهب مالك في عشرة مجلدات. وشرح صحيح مسلم وسماه اقتباس السراج في شرح مسلم بن الحجاج. وشرح تفريع ابن الجلاب، وسماه الترصيع في شرح مسائل التفريع. وصنف في الآداب، منظوماته ورسايله، وهي شهيرة، شاهدة بتبريزه وتقدمه. وله نظم شمايل رسول الله صلى الله عليه وسلم، رسالة بديعة، تشتمل على نظم ونثر، بعث بها إلى القبر الشريف. وله كتاب الوسيلة إلى إصابة المعنى في أسماء الله الحسنى.

شعره

من شعره في الوسيلة، وقد ضمن كل قطعة أو قصيدة إسماً من أسماء الله تعالى، فمنها قوله في اسم الله سبحانه:

قل الله نستفتح من أسمائه الحسنى ... بأعظمها لفظاً وأعظمها معنى
هو الله فادع الله بالله تقترب ... لأقرب قربى من وريدك أو أدنى
وىمله مضطراً وقف عند بابه ... وقوف عزيز لا يصد ولا يثنى
بباب إله أوسع الخلق رحمة ... فلله ما أولى أبر وما أحنى
وقدم من الإخلاص ثم وسيلة ... تنل رتبة العليا والمقصد الأسنى

أمولاي هل للخلق غيرك مفضل ... يصرح عن ذكراه في اللفظ أو يكنى
ببابك مضطر شكا منك فقره ... لأكرم من أغنى فقيراً ومن أقنى
وللفضل والمعروف منك عوايد ... لها الحمد ما أدنى قطوفاً وما أهنى
فمنها لك الإنعام دأباً خوالداً ... تفانى بها الأيام طراً ولا يفنى

وفاته

توفي شهيداً في ربيع الآخر سنة تسع وستماية .

ابن عز الناس

علي بن صالح بن أبي الليث الأسعد بن الفرج بن يوسف طرطوشي، سكن دانية، يكنى أبا الحسن، ويعرف بابن عز الناس.

حاله

كان عالماً بالفقه، حافظاً لمسايله، متقدماً في علم الأصول، ثاقب الذهن، ذكي الفؤاد، بارع الاستنباط، مسدد النظر، متوقد الخاطر، فصيح العبارة، ذا خط مروض.

من روى عنه: روى عنه أبو بكر أسامة بن سليمن، وسليمن بن محمد ابن خلف، ويحيى بن عمر بن الفصيح.

دخوله غرناطة

قالوا، واستخلصه الأمير أبو زكريا يحيى بن غانية أيام إمارته ببلنسية لمشهور معرفته ونباهته، ثم سار معه إلى قرطبة، ولازمه، إلى أن توفي أبو زكريا بن غانية، بغرناطة سنة ثلاث وأربعين. فانتقل إلى شرق الأندلس، واستقر بدانية.

تواليفه

وله مصنفات منها كتاب العزلة، ومنها شرح معاني التحية.

ولد بطرطوشة سنة ثمان وخمسماية، وتوفي بدانية. قتل مظلوماً بإذن ابن سعد الأمير في رمضان سنة ست وستين

وخمسماية.

علي بن أبي جلا المكناسي

يكنى أبا الحسن.

حاله

كان شيخاً ذكياً، طيب النفس، مليح الحديث، حافظاً للمسايل الفقهية، عارفاً لها، قايماً على كتاب المدونة، تفقه بالشيخ أبي يوسف الجزولي، وعليه اجتهد في مسايل الكتاب. وكان مضطلعاً بمشكلاته. حسن المذاكرة، مليح المجلس أنيسه، كثير الحكايات، إلا أنه كان يحكي غرايب شاهدها تملحاً وأنساً، فينمقها عليه الطلبة، وربما تعدوا ذلك إلى الافتعال على وجه المزاح والمداعبة، حتى لجمعوا من ذلك كثيراً في جزءٍ سموه بالسلك المحلا في أخبار ابن أبي جلا. فمن ذلك ما زعموا أنه حدث بأنه كانت له هرة، فدخل البيت يوماً، فوجدها قد بلت أحد كفيها، وجعلته في الدقيق حتى علق به، ونصبته بإزاء كوة فأر في الجدار ورفعت اليد الأخرى لصيده، فناداها باسمها، فردت رأسها، وجعلت أصبعها في فمها على هيئة المشير بالصمت. وأشباه ذلك كثير.

وفاته

في حدود ستة وأربعين وسبعماية.

علي بن سمحون الهلالي

علي بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن علي بن سمحون الهلالي يكنى أبا الحسن.

حاله

كان شيخاً جليلاً، فقيهاً، عارفاً، نبيلاً، نبيهاً، ذا مروءة كاملة، وخلق حسن، من بيت حسب وعلم ودين. قال أبو القاسم الملاحي، حدثني صاحبنا الفقيه الخطيب أبو جعفر بن حسان، قال كنت أجاوره في بعض أملاكي، وكان له ملك يلاصقني، أتمنى أن أكتسبه، فينتظم لي به ما هو مفترق، فوافقته ذات يوم في القرية، فسألته المعاوضة به، وخيرته في مواضع في أرضي، فضحك مني، وقال لي أنظر في ذلك إن شاء الله. ثم إنه وجه لي بعد ذلك بأيام يسيرة، بعقد يتضمن البيع وقبض الثمن مني، فخجلت منه، وراودته في أخذ الثمن فأبى وقال لي هذا قليل في حقك، وكان قد لقي شيوخاً أخذ عنهم، وكانت له كتب كثيرة.

وفاته

توفي بالمنكب صبح اليوم السادس من رمضان عام ستة وتسعين وخمسماية. ولست أحقق أهو القريب أو سلفه، وعلى كلا التقديرين، فالفضل حاصل.

الصغير

علي بن محمد بن عبد الحق الزويلي يكنى أبا الحسن، ويعرف بالصغير، بضم الصاد وفتح الغين والياء المشددة

حاله

من المؤتمن. كان هذا الرجل قيماً على التهذيب للبرادعي، حفظاً وتفقهاً، يشارك في شيءٍ من أصول الفقه، يطرز بذلك مجالسه، مغرباً به بين أقرانه من المدرسين في ذلك الوقت، لخلوهم من تلك الطريقة بالجملة. حضرت مجلس إقرايه، وكان ربعةً آدم اللون، خفيف العارضين، يلبس أحسن زي صنعة، وأحسن ما فيه ليس بحسن. وكان يدرس بجامع الأصدع من داخل مدينة فاس، ويحضر عليه نحو مائة نفس، ويقعد على كرسي عال ليسمع البعيد والقريب، على انخفاض كان في صوته، حسن الإقراء، وقوراً فيه، سكوناً، مثبتاً، صابراً على هجوم طلبة البربر، وسوء

طريقتهم في المناظرة والبحث، وكان أحد الأقطاب الذين تدور عليهم الفتوى أيام حياته، ترد عليه السؤالات من جميع بلاد المغرب، فيحسن التوقيع على ذلك. على طريقة من الاختصار وترك فضول القول. ولي القضاء بفاس. قدمه أبو الربيع سلطان المغرب وأقام أوده، وعضده، فانطلقت يده على أهل الجاه، وأقام الحق على الكبير والصغير، وجرى من العدل على صراط مستقيم. ونقم عليه اتخاذ شمام يستنشق على الناس الخمر، ويحق أن ينتقد ذلك.

مشيخته

أخذ عن الفقيه راشد بن أبي راشد الوليدي وانتفع به، وعليه كان اعتماده. وأخذ عن صهره أبي الحسن بن سليم، وأبي عمران الجورماني، وعن غيرهم. وقيدت عنه بفاس على التهذيب وعلى رسالة أبي زيد، قيدها عنه تلاميذه وأبرزوها تأليفاً كأبي سالم بن أبي يحيى.

وفاته

وفاته يوم الثلاثاء السادس لرمضان عام تسعة عشر وسبعماية، ودخل غرناطة لما وصل رسولاً على عهد مستقضية رحمهما الله.

علي بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن يحيى الغافقي سبتي ساري الأصل، انتقل منها أبوه سنة اثنتين وستين وخمس ماية، يكنى أبا الحسن، ويشهر أهل بيته في سارة بني يحيى.

حاله

من التكملة. كان محدثاً راوية مكثراً، عدلاً ثقة، ناقداً، ذاكراً للتواريخ وأيام الناس، وأحوالهم وطبقاتهم، قديماً وحديثاً، شديد العناية بالعلم، والرغبة فيه، جاعلاً الخوض فيه، مفيداً ومستفيداً، وظيفة عمره، جماعة للكتب، منافساً فيها، مغالياً في أثمانها، وربما أعمل الرحلة في التماسها، حتى اقتنى منها بالإبتياع والإنتساخ كل علق نفيس. ثم انتقى منها جملة وافرة فحبسها في مدرسته، التي أحدثها بقرب باب القصير، أحد أبواب بحر سبتة، وعين لها من خيار أملاكه، وجيد رباعه، وقفاً صالحاً. سالكاً في ذلك طريقة أهل المشرق، وقعد بها بعد إكمالها لتروية الحديث وإسماعه، في رجب خمس وثلاثين وستماية، وكثر الأخذ بها عنه، واستمر على ذلك مدة. وكان سري الهمة، نزيه النفس، كريم الطبع، سمحاً، مؤثراً، معاناً على ما يصدر عنه من المآثر الجليلية، ونبل الأغراض السنية، بالجدة المتمكنة، واليسار الواسع. وكان سنياً، منافراً لأهل البدع، محباً في العلم وطلابه، سمحاً لهم بأعلاق كتبه، قوي الرجاء في ذلك. ومما يؤثر عنه من النزاهة، أنه لم يباشر قط دنيراً ولا درهماً، إنما كان يباشر ذلك وكلاؤه اللايذون به.

مشيخته

روى عن أبوي الحسن أبيه والتجيبي، وأبي الحسن بن عطية بن غازي، وأبي عبد الله محمد بن عيسى، وابن عبد الكريم، وابن علي الكتاني، وابي إسحق الشقوري، وابوي بكر بن القصيح، ويحيى بن محمد بن خلف البوريني، وأبي الحسن بن خروف النحوي، وابن عبيدس، وابن جابر، وابن جبير، وابن زرقون، وابن الصايغ، وأبي بكر بن أبي ركب، وأبي سليمان بن حوط الله، وأبي العباس القوراني، وأبي القاسم عبد الرحيم ابن الملجوم، وأبي محمد الحجري وأكثر عنه، وابن حوط الله، وابن محمد بن عيسى التادلي، وعبد العزيز بن زيدان، ويشكر بن موسى ابن الغزلقي هؤلاء، وأخذ عنهم بين سماع وقراءة، وأكثرهم أجازه أو كتب إليه مجيزاً. ولم يلقه أبو جعفر بن مضاء، وأبو الحسن بن القطان ونجبه، وأبو عبد الله بن حماد، وابن عبد الحق التلمساني، وابن الفخار، وأبو القاسم السهيلي، وابن

حييش، وأبو محمد عبد المنعم ابن الفرس. واستجاز بآخرة مكثراً من الاستفادة، أبا العباس بن الرومية، فأجاز له من إشبيلية.

من روى عنه: روى أبو بكر أحمد بن حميد القرطبي، وأبو عبد الله الطنجالي، وابن عياش، وأبو العباس بن علي الماردي، وأبو القاسم عبد الكريم بن عمران، وأبو محمد عبد الحق بن حكيم. وحدث بالإجازة عنه، أبو عبد الله بن إبراهيم البكري العباسي.

محنته ودخوله غرناطة

غربه أمير سبتة اليانشتي الملقب بالواثق بالله . غاصاً به لجلالته وأهليته، وكونه قد عرضت عليه فأباها، فدخل الأندلس في شعبان عام أحد وأربعين وستماية، فنزل ألمرية وأقام بها إلى المحرم من سنة ثمان وأربعين، وأخذ عنه بها عالم كثير. ثم انتقل إلى مالقة في صفر من هذه السنة ودخل غرناطة، فأخذ عنه جميع طلبتها إلا النادر.

قال الأستاذ أبو جعفر الزبير، وقرأت إذ ذاك عليه، وكان يروم من مالقة، الرجوع إلى بلده، ويحوم عليه، فلم يقض له ذلك، وأقام بها يؤخذ عنه العلم، إلى أن أتته منيته.

مولده

بسبتة يوم الخميس لخمس خلون من رمضان إحدى وسبعين وخمسماية.

وفاته

توفي بمالقة ضحوة يوم الخميس لليلة بقيت من رمضان تسع وأربعين وستماية. نفعه الله بشهادة الموت غريقاً.

ابن قطرال

علي بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن أحمد الأنصاري فاسي المولد، أصله منها قديماً، ومن مراكش حديثاً، يكنى أبا الحسن ويعرف بابن قطرال.

حاله

كان ريان من الأدب، كاتباً بليغاً دمث الأخلاق، لين الجانب، فقيهاً حافظاً، عاقداً للشروط، مقدماً في النظر فيها، كتب طويلاً عن قاضي الجماعة بمراكش، أبي جعفر بن مضاء، ثم عن أبي القاسم بن بقي، واسن ممتعاً بحواسه.

مشيخته

روى عن أبوي بكر بن الجد، وابن أبي زمنين، وأبي جعفر بن يحيى ولازمه كثيراً. وأبي الحجاج بن الشيخ، وأبوي الحسن بن كوثر ونجبه، وأبي الحسن يحيى بن الصائغ، وأبي خالد بن رفاعة، وأبي عبد الله بن حفص، وابن حميد، وابن زرقون، وابن سمادة الشاطبي، وابن عروس، وابن الفخار، وأبي العباس، وابن مضاء، ويحيى المجريطي، وأبي القاسم بن بقي، وابن رشد الوراق، وابن سمحون، وابن غالب، وابن جمهور، وابن حوط الله، وعبد الحق بن بونة، وعبد الصمد. وروى عنه إبناه أبو عبد الله وأبو محمد، وأبو عبد الله بن الأبار، وأبو محمد بن برطلة، وأبو محمد بن هارون الطائي، وأبو يعقوب بن عقاب.

قال ابن عبد الملك، وحدثنا عنه من شيوخنا أبو الحجاج بن حكم، وأبو الحسن الرعيني، وأبو الطيب صالح بن شريف، وأبو القاسم العزفي.

محنته

وامتحن بالأسر، وهو قاض بأبدة، حين تغلب العدو الرومي عليها أثر وقيعة العقاب وذهب لأجل ذلك أصول سماعه، وافتك بمشاركة الوزير أبي سعيد بن جامع، ويسر الله عليه، فثاب جاهه، واستقام أمره، وقدم للقضاء بمواضع نبيهة.

دخوله غرناطة

قال، دخل غرناطة، وأقام بها، وقرأ على أبي محمد عبد المنعم بن الفرس، وأبي بكر بن أبي زمنين، وأبي عبد الله بن عروس.

ولد بفاس سنة ثنتين وستين وخمسماية. وتوفي عفا الله عنه يوم الإثنين لإحدى عشرة خلت من جمادى الأولى عام أحد وخمسين وستماية بمراكش.

إنتهى اختصار السفر العاشر بحمد الله تعالى يتلوه،

ومن السفر الحادي عشر ترجمة الطارين في ترجمة العمال والأثرا. والحمد

لله رب العالمين

ومن السفر الحادي عشر من ترجمة الطارين في ترجمة العمال والأثرا

عمر بن علي بن غفرون

الكلبي

من أهل منتفريد.

حاله

كان شيخاً مخوشن الظاهر بدويه، سريع الجواب، جلداً على العمل، صلبياً وقاحاً. له ببلده نباهة، وخصل من طلب وخطٍّ وحساب. أم ببلده، وانتقل إلى الحضرة عند انتزاء ثغره، وداخل السلطان في سبيل استرجاعه، فنشأت له غمامة رزق ببابه، وأقلته هضبة حظوة، ناطت به ديوان الجيش مدة أيام السلطان، وولي بعده خططاً نبيهة. ثم التأثت حاله وأسن، ومات تحت خمول.

وجرى ذكره في الإكليل بما نصه: شيخ خدم، قام له الدهر فيها على قدم، وصاحب تعريض، ودهاء عريض، وفايزٌ من الدولة بأيادٍ بيض، خدم الدولة النصرية ببلده عند انتزاء أهله، وكان ممن استنزلهم من حزنه إلى سهله، وحكم الأمر الغالبي في يافعه وكهله، فاكتسب حظوة أرضته، ووسيلة أرهفته وأمضته، حتى عظم ماله، واتسقت آماله. ثم دالت الدول، ونكرت أيامه الأول، وتقلب من يجانسه، وشقي بكل من كان ينافسه، فجف عوده، والتأثت سعوده، وهلك والخمول يطلبه، والدهر يقوته، من صبابة حرث كان يستغله.

شعره

وله شعر لم يثقفه النظر، ولا وضحت منه الغرر. كتب للسلطان أميرالمسلمين منفق سوق خدمته ومتغمده بنعمته، يطلب منه تجديد بعض عنايته:

يا ملكاً ساد ملوك الورى ... في الحال أو في الأعصر الخالية

العبد لا يطلب شيئاً سوى ... تجديد خط يدك العالية

ومن شعره يخبر عن وداده، ويعلن في جناب الملوك الغالبيين بحسن اعتقاده:

حب الملوك من آل نصر ديني ... ألقى به ربي بحسن يقيني
هو عدتي في شدتي وذخيرتي ... وبه يتحسبني غدا ويقين
حتى أبي الحشر لم أخدم ... سوى أبوابهم بوسيلة تكفين
أرجو نفاد العمر في أيامهم ... من تحت ستر رعاية ترضين
إن كان دهري في نافدى بعدهم ... فالله عز وجل لا يبقين

وسلم في أيام حموله، وانغلق على المتغلب على الدولة أبي عبد الله بن المحروق. وقد احتقره ببابه، وأعرض عن جوابه. فكتب إليه، ولم يرهب ما لديه:

يا من سول وغدا ... في كل يوم مرارا
أردد على سلامي ... ولا تدعه احتقارا

وفاته

قال شيخنا الكاتب، أبو بكر بن شبرين رحمه الله، وفي ذي حجة من عام اربعة وأربعين وسبعمائة توفي الفقيه أبو علي بن غفرون من أهل منتفريد من حصون براجلة غرناطة. قدم قديماً بالباب السلطانية في تنفيذ واجب العسكر الأندلسي وإشراف الحضرة وحفازها. وكان ميمون النقيبة، وجهاً في الناس فاضلاً، رحمه الله.

ابن البربري

علي بن يحيى الفزاري من أهل مالقة، بربري النسب فزاريه. يكنى أبا الحسن، ويعرف بابن البربري.

حاله

كان من أماثل طريقته عدلاً، وعفافاً، وفضلاً، لين العريكة، دمث الأخلاق، حسن الخط، جيد الشعر، تغلب عليه السلامة والغفلة، تصرف في إشراف مالقة وسواها عمره، محمود الطريقة، حسن السيرة. ومدح الملوك والكبراء.

شعره

مما خاطبني به قوله:

لبابك أم الآملون ويمموا ... وفي ساحتي رحماك حطوا وخيم
ومن راحتي كفيك جداً تهمي ... فتروي عطاش من نداك وتنعم
وأنت لما راموه كعبة حجهم ... إذا شاهدوا مرآك لبوا وأحرم
يطوفون سبعاً حول بابك عندما ... يلوح لهم ذاك المقام المعظم
فيمناك يمن الرعايا ومنةٌ ... ويسراك يسراً للعفاة ومغنم
ولقياك بشر للنفوس وجنة ... تزق بها ورق المنا وترنم
فيا واحد الأزمان علماً ومنصباً ... ومن به الدنيا تروق وتبسم
ومن وجهه كالبدر يشرق نوره ... من جوده كالغيث بل هو أكرم
ومن ذكره كالمسك فض ختامه ... وكالشمس نوراً بشره المتوسم
لقد حزت خصل السبق غير معاند ... فأنت على أهل السباق مقدم
حويت من العلياء كل كريمة ... بها الروض يندى والربى تتبسم
وباهيت أقلام المقام براعة ... فلا قلمٌ ألا يراعك يخدم
وإذا فاخر الأمجاد يوماً فإنما ... لمجدك في حال الفخار يسلم

وإن سكتوا كنت البليغ لديهم ... يعبر عن سر العلى ويترجم

ومنها:

فيا صاحبي نجواي عوجاً برامة ... على ربعه حيث الندى والتكرم

وقولاً له ببابك يرتجي ... قضاء لبانات لديك تتمم

وليس له إلا علاك وسيلة ... ولا شيء أسمى من علاك وأعظم

فجد بالذي يرجوه لمنك فما له ... كعقدٍ ثمين من ثنايك ينظم

بقيت ونجم السعد عندك طالع ... يضيء له بدرٌ وتشرق أنجم

وقال مراجعاً القاضي أبا عبد الله بن غالب رحمه الله:

وما كنت عن ذكر الأحبة سالياً ... ولا عن هوى بيض الدما برغيب

فلما أتتني رقعة بلبلية ... شغلت بها عن منزلٍ وحبيب

وقبلتها ألفاً وقلت لها ... أنعمي صباحاً وممسى بالقبول وطيب

فيا حسن خطٍّ جاء من عند بارع ... ويا سحر لفظٍ من كلام أديب

وإن قريضاً لم يحكه ابن غالب ... لخلو من الآداب غير عجيب

وفاته

بمالقة في الطاعون عام خمسين وسبعمائة.

الزهاد والصلحاء والصوفية والفقراء

عتيق بن مقدم اللخمي عتيق بن معاذ بن عتيق بن معاذ بن سعيد بن مقدم بن سعيد بن يوسف بن مقدم اللخمي من أهل غرناطة يكنى أبا بكر، الشيخ الصوفي،

حاله

هذا الرجل فذ الطريقة في الخصوصية والتخلي، وإيثار الانقطاع والعزلة، طرفة في الوقار والحشمة. نشأ بغرناطة وطلب بها، وكتب بألمرية عن بعض ولاة قصبتها، وعني بمطالعة أقوال الصوفية، فآثر طريقهم، وعول عليه، وتجرد وترك التسبب، والتزم منزله، بحيث لا يريمه إلا لصلاة الجمعة في أقرب محالها وإليه، نظيف البزة، حسن السمت، مليح الترتيب والظرف، طيب المجالسة، طلعة متعة، إخباري، يصل ماضي الزمان بمستقبله، جليس مصلى، ومجيل سبحة كثير الزوار، ممن يلتمس الخير، وينقر عن أهله، محظوظ المجلس خفي بالوارد، ذاكر، مأثرة من مآثر بلده.

مشيخته

أخذ عن الخطيب الصالح ولي الله أبي عبد الله الطنجالي، والخطيب المحدث أبي عبد الله بن رشيد، والأستاذ النظار أبي القاسم بن الشاط، والخطيب الصالح أبي جعفر بن الزيات، والشيخ الأستاذ أبي عبد الله بن الفخار الأركشي نزيل مالقة، والوزير الراوية أبي عبد الله ابن ربيع الأشعري، والعدل الرواية أبي الحسن بن مستقور ، والأستاذ المقري أبي جعفر الجزيري الضرير، والخطيب أبي عبد الله بن الخشاب، والخطيب المقري أبي إسحاق بن أبي العاصي، والشيخ والمحدث أبي تمام غالب بن حسن بن غالب الجهاري، والقاضي المسن أبي جعفر الشاطبي، والقاضي المحدث أبي المجد يوسف بن الحسن بن أبي الأحوص، والأستاذ المحدث أبي القاسم بن جابر، وأخيه المحدث أبي جعفر، والقاضي أبي جعفر بن أبي جبل، والأستاذ الصوفي أبي محمد بن سلمون، والشيخ الشريف أبي الحسن علي بن جمرة بن القاسم

الجهني، والأستاذ المقري أبي عبد الله بن بيش العبدري، والشيخ المكتب أبي عمرو عبد الرحمن بن يشت، والشيخ الراوية المحدث الرحال أبي عبد الله بن جابر الواداشي الملقب من الألقاب المشرقية بشمس الدين، والخطيبين أبوي الحسن بن فرحون، وابن شعيب، والقاضي أبي الحسن البلوي، والأستاذ المقري.

محنته

ناله امتحان من بعض القضاة ببلده حملاً عليه، وإنكاراً لما امتاز به من مثلى الطريقة، أداه إلى سجنه، ومنع الناس عن لقايه. وهو الآن بحاله الموصوفة، قد ناهز السبعين تمر الناس تلتمس بركته، وتغشى لطلب الدعاء خلوته.

القرشي

علي بن علي بن عتيق بن أحمد بن محمد بن عبد العزيز الهاشمي من أهل غرناطة، ويعرف بالقرشي.

حاله

كان رحمه الله على طريقة مثلى حياءً، ووقاراً وصمتاً، وانقباضاً وتخلقاً وفضلاً، عاكفاً على الخير، كثير الملازمة لكسر البيت، مكباً على المطالعة، مؤثراً للخلوة، كلفاً بطريق الصوفية. كتب الشروط لأول أمره، فكان صدراً في الإثبات، وعلماً في العدول، إلى لين الجانب، ودماثة الخلق، وطهارة الثوب، وحسن اللقاء، ورجوح المذهب، وسلامة الصدر. قيد الكثير، ولقي في تشريقه أعلاماً أخذ عنهم. وتقدم خطيباً وإماماً بالمسجد الأعظم في غرناطة، عام أحد عشر وسبعماية، واستمرت حاله، إلى حين وفاته، على سنن أولياء الله الصالحين.

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، ولازمه وتأدب به، وتلا عليه بالقراءات السبع، وسمع كثيراً من الحديث، وعلى الخطيب الولي أبي الحسن بن فضيلة، والشيخ الخطيب أبي عبد الله بن صالح الكناني. سمع عليه الكثير. قال أنشدني الخطيب أبو محمد بن برطلة:

أسلمني للبلاء وحيداً ... من هو في ملكه وحيد

قضا علي الفناء حتماً ... فلم يكن عنه لي محيد

وكيف يبقى غريق نزى ... فذاته أولاً صعيد

يعيد أحواله إليه ... من نعته المبدي المعيد

وأخذ عن الشيخ الراوية المحدث أبي محمد بن هرون الطايي، والشيخ الراوية المعمر أبي محمد الخلاسي، والشيخ الشريف تاج الدين أبي الحسن العرامي، والشيخ المحدث الإمام شرف الدين أبي محمد عبد المؤمن الدمياطي، والشيخ رضي الدين الطبري، والمحدث الحافظ فخر الدين التودري الميكالي. قال، وأنشدني من لفظه بالحرم الشريف لشيخه الإمام أبي الحسن الخزرجي:

عن أهيل المنحنى لا أصبر ... فاعذلوني فيهم أو فاعذروا

هم أحباب وإن هم عذبوا ... ومناي وصلوا أم هجروا

والشيخ المحدث المفتي بالحرم الشريف رضي الدين محمد بن أبي بكر بن خليل. قال، وأنشدني لبعض شيوخه:

أفي كل وادٍ شاعر ومطيب ... وفي كل ناد منبر وخطيب

نعم كثر الأقوام قلة ناقد ... لهم فتساوى مخطىء ومصيب

والشيخ المحدث الإمام أنس الدين بن الإمام قطب الدين القسطلاني، والأديب الواعظ نفيس الدين بن إبراهيم اللمطي. قال وأنشدني إجازة عن الشيخ الإمام شرف الدين أبي الفضل السلمي المرسي من قصيدة:

إذا جيت ألقي عند بابك حاجباً ... محياه من فرط الجهامة حالك
ومن عجيب مغناك جنة قاصد ... وحاجبها من دون رضوان مالك
والشيخ الإمام تقي الدين بن دقيق العيد، وأبي العباس بن الظاهري، ومحيي الدين بن عبد المنعم، ومحمد بن غالب بن سعيد الجياني، والخطيب الجليل أبي عبد الله بن رشيد من أهل المغرب. وكتب له الشريف أبو علي الحسن بن أبي الشرف، والعدل أبو فارس الهواري، وأبو القاسم بن الطيب، وأبو بكر بن عبيدة، وأبو إسحق الغافقي، وأبو عبد الله الدراج، وأبو الحكم مالك بن المرحل، وأبو إسحق التلمساني، وغيرهم.
تواليفه

صنف في التصوف كتاباً سماه مطالع أنوار التحقيق والهداية وكتاباً في غرض الشفا العياضي. ومن شعره، ثبت بظهر الكتاب المسمى بالموارد المستعذبة من تأليف شيخنا أبي بكر بن الحكيم ما نصه:
كتابك ذا من هوته المفاخر ... سنا وسناً راق منه زواهر
لقد جاء كالعقد المنظم ناثراً ... فرايد قسٍّ عنك في ذا قاصر
بلاغته في القوم تشهد عندما ... تشكك فيه أنه عنك صادر
فلله من روض أنيق غصونه ... بما تتمنا فراه وزاهر
فما شيته تجده فيه فإنه ... لناظره بحر بما هو زاخر
فنهنيكم يابن الألى شاع مجدهم ... قيادكم مجد بذاتك آخر
أتيت بما فيه انبت حياة ... من حوته على مر الدهور المقابر
وأبديت فيه سحر لفظك رائقاً ... تلذ به الأجفان وهي سواهر
ومتعت طرفي فيه لازلت باقياً ... ونحا بك ربي يوم تبلى السراير
وخصك مني بالسلام مردداً ... عليك مدى الدنيا وما طار طاير
مولده
في حدود سنة سبع وستين وستمايه:
وفاته
في صفر في عام أربعة وأربعين وسبعماية. وكانت جنازته بالغة أقصى مبالغ الاحتفال، وتزاحم الناس على قبره بما بعد العهد به.
وممن رثاه شيخنا أبو الحسن بن الجياب فقال:
قضى الأمر يا نفس اصبري ... صبر تسليم لحكم القدر
وعزاءً يا فؤادي إنه حكم ... ملك قاهر مقتدر
حكمة أحكمت تدبيرها ... نحن منها في سبيل السفر
أجل مقدر ليس بمستقدم ... ولا مستأخر
أحسن الله عزاء كل ذي ... خشية لربه في عمر

في إمامنا التقي الخاشع ... الطاهر الذات الزكي السبر
قرشي سليمن مستقي من ... صميم الشرف المطهر

يشهد الليل أنه دايم ... الذكر طويل السهر
في صلاة بعثت وفودها ... زمر المصطفى من مضز
نايماً وراكعاً وساجداً ... لطلوع فجره المنفجر
جمع الرحمن شملنا غداً ... بحبيب الله خير البشر
وتلقته وفود رحمة الله ... تأتي بالرضا والبشر
ابن المحروق

علي بن أحمد بن محمد بن عثمن الأشعري من أهل غرناطة يكنى أبا الحسن. ويعرف بابن المحروق أوليته قد مر ذلك عند ذكر عمه وجده.

حاله

هذا الرجل شيخ الفقراء السفارة والمتسببة بالرباط المنسوب إلى جده، وهو مقيم الرسم، حاجٌّ رحال، عارف بالبلاد، طواف على كثير من مشاهي ما عرف الإصطلاح. وزار ترب الصالحين. وصحب السفارة، حسن الشكل، أصيل البيت، حافظ للترتيب، غيور على الطريقة، محظوظ العقد، مجانبٌ للإغمار، منافر لأهل البدع، مكبوحٌ عن غلو الصافنة، أنوف، مترفع، كلف بالتجلة، يرى لنفسه الحق ولا يفارق لحظ، خطيب متعاط لمواقف الإطالة، وسرد الكثير من كلام الخطباء عن غير اختيار، يطبق المفصل، ويكافي الغرض المقصود، على شرود عن قانون الإعراب، حسن الحديث، طبقة للرسم الدنيوي، من هذا الفن كثرة، وحسن بزة، ونفاذ أمره، ونباهة بيته، وتعاطياً لنتايج الحلوة.

محنته

قبض عليه المتغلب على الدولة وأزعجه بعد الشقاف في المطبق، إلى مرسي ألمرية، إتهاماً بممالأة السلطان، فامتعض له من أهل مدينة وادي آش، وتبعهم المشيخة على المجاهرة، فاستنقذوه، وكاشفوا المتغلب إذ كانوا على أرقاع الخلاف عليه، وعاجل الأمر تصير الملك لصاحبه، فعاد الشيخ إلى حاله، فهي معدودة عنه من أثر التصريف.

مشيخته

ومن خطه نقلت. قال، ولدت في اليوم الحادي والعشرين لرجب عام تسعة وسبعماية، ولبست الخرقة من يد الشيخ الفقيه الخطيب البليغ الولي الشهير، أبي علي عمر بن محمد بن علي الهاشمي القرشي في أوايل ذي قعدة من عام خمسة وثلاثين وسبعماية. وحدثني بها رحمه الله عن الشيخ الزاهد أبي محمد الخلاسي عن شرف الأيمة أبي عبد الله بن مسدي عن الشيخ الكبير أبي العباس بن العريف عن أبي بكر عبد الباقي بن برال، عن أبي عمرو الطلمنكي، عن أبي عمرو بن عون الله وأبي علي الحسن بن محمود الجرجاني عن أبي سعيد بن الأعرابي، عن أبي محمد سالم محمد بن عبد الله الخراساني، عن الفضل بن عياض، عن هشام بن حسان ويونس بن عبيد، عن أبي الحسن بن الحسن البصري، عن الحسن البصري، عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ثم رحلت إلى المغرب، طالباً في لقاء أهل الطريقة راغباً، فلقيت به من أعلام الرجال جملة يطول ذكرهم، ولا يجهل قدرهم. ولما توجهت إلى المشرق، لقيت به أعلاماً وأشياخاً كراماً، لم طرق سنية، وأحوال سنية، أودعت ذكرهم هذا طلباً للاختصار، وخوفاً من سآمة الإكثار، وكان اعتمادي فيمن لقيت منهم في أيام تجريدي واجتهادي، بعد إيابي من قضاء أربي، من حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر النبي، عليه الصلاة والسلام، على من بهديه أستنير، واعتمد عليه فيمن لقيت وصحبت، وإليه أشير سيدي الشيخ

الكبير الجليل الشهير وحيد عصره وفريد دهره، جمال الدين أبو الحجاج الكوراني جنساً، والتميمي قبيلة، والكلوري مولداً، والسهروردي خرقةً وطريقة ونسبة، وهو الذي لقنني، وسلكت على يده، وقطعت مفاوز العزلة عنده، مع جملة ولده. وحدثني رضي الله عنه أنه لقنه الشيخ الفقيه العارف أبو علي الشمشري هو والشيخ الإمام نجم الدين الإصبهاني، والشيخ نجم الدين، والشيخ بدر الدين الطوسي، لقنا الفقيه محسناً المذكور، والشيخ بدر الدين، لقنه الشيخ نور الدين عبد الصمد النصيري، والشيخ عبد الصمد، لقنه الشيخ نجيب الدين بن مرغوش الشيرازي، والشيخ نجيب الدين لقنه الشيخ شهاب الدين السهروردي، والشيخ شهاب الدين، لقنه عمه ضياء الدين أبو الحسن السهروردي، والشيخ ضياء الدين فرج الزنجاني. والشيخ فرج الزنجاني، لقنه أبو العباس النهاوندي، والشيخ أبو العباس، لقنه أبو عبد الله بن خفيف الشيرازي، والشيخ أبو عبد الله لقنه أبو محمد رديم، والشيخ أبو محمد لقنه أبو القاسم الجنيد، والشيخ أبو القاسم لقنه سري السقطي، والشيخ سري لقنه معروف الكرخي، والشيخ معروف لقنه داود الطائي، والشيخ دواد لقنه حبيب العجمي، والشيخ حبيب لقنه الإمام الحسن البصري، والشيخ الحسن لقنه الإمام علي بن أبي طالب. ولبست الخرقة من يد الشيخ أبي الحجاج المذكور بسند التلقين المذكور إلى أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه إلى جعفر الحذا، إلى أبي عمر الإصطخري، إلى شفيق البلخلي، إلى إبراهيم ابن أدهم. إلى موسى بن زيد الراعي، إلى أبي يس القرني، إلى أميري المؤمنين عمر وعلي رضي الله عنهما، ومنها إلى سيد الأولين والآخرين، صلى الله عليه وسلم، وذلك في أوايل عام ثلاثة وأربعين وسبعماية. وقد الفت كتاباً جمعت فيه بعض ما صدر من أورادي، أيام تجريدي واجتهادي، محتوياً على نظم ونثر، مفرغاً عن كلام الغير، إلا مقطوعة واحدة لبعض المتصوفة، فإني سقتها على جهة لكونها غاية في الاحتفال وهي:

قل لمن طاف بكاسات الرضا ... وسقى العشاق مما قد نهل

وسميت الكتاب بنكت الناجي، وإشارات الراجي. ولعل ذلك يكون اسماً وافق مسماه، ولفظاً طابق معناه، وإلى ما ذكرت من النكت، أشرت بما نظمت فقلت:

في كل واحدة منهن أسرار ... لا تنقضي ولها في اللفظ أسرار

إن رمت حصر معانيها بما سمعت ... أذناك ليس لها بالسمع إخصار

فاصحب خبيراً بما يرضى الحجاب ... ستارها وكذلك الحر ستار

ولعله يكون إن شاء الله كما ذكرته، وأعرف بما أنشدته.

ولي جملة قصائد وأزجال منظومة على البديهة والارتجال، نطق بها لسان المقال، معرباً عما وجدته في الحال، قصدت بها الدخول مع ذلك الفريق، وأودعها غوامض أسرار التحقيق. فمن بعض نكت الكتاب، ما يعجب منه ذوو الألباب، نكتة سر الفقير، يشير إليه بجميع الكائنات، فلا حديث معجم، ولا موجود مبهم، فهو إذا يتكلم دون حده وبلسان وجده، والفقيه يتكلم فوق قدره وبلسان غيره، وهذا ما حضرني في الوقت، مع مزاحمة الشواغل، فتصفحوا، واصفحوا، وتلمحوا واسمحوا. ولكم الفضل في قبول هذه العجالة واليسير من هذه المقالة. انتهى.

ومن الطارين

علي بن عبد الله النميري

الششتري

عروس الفقراء، وأمير المتجردين وبركة الأندلس، لابس العباءة الخرقة أبو الحسن. من أهل ششتر، قرية من عمل وادي آش معروفة . وزقاق الششتري معروف بها. وكان مجوداً للقرآن، قايماً عليه، عارفاً بمعانيه، من أهل العلم والعمل.

حاله

قال شيخنا أبو عثمن بن ليون في صدور تهذيبه لرسالته العلمية، الإمام الصوفي المتجرد. جال البلاد والآفاق. ولقي المشايخ، وسكن الربط، وحج حجات، وآثر التجرد والعبادة. وذكره القاضي أبو العباس الغبريني، قاضي بجاية، في كتابه المسمى عنوان الدراية فيمن عرف في المائة السابعة بمدينة بجاية وقال، الفقيه الصوفي الصالح العابد، أبو الحسن الششتري من الطلبة المحصلين ، والفقراء المنقطعين، له علم وعمل بالحكمة، ومعرفة بطريق الصوفية، وله تقدم في النظم والنثر، على طريقة التحقيق. وأشعاره في ذلك، وتواشيحه ومقفياته وأزجاله، غاية في الانطباع. وكان كثيراً ما يجود عليه القرآن. ونظمه في التحقيق كثير.

مشيخته

أخذ عن القاضي محيي الدين أبي القاسم محمد بن إبراهيم بن الحسين ابن سراقة الأنصاري الشاطبي، وعن غيره من أصحاب السهروردي صاحب العوارف والمعارف. واجتمع بالنجم بن إسرايل الدمشقي الفقير سنة خمس وستماية. قال ألفيته على قدم التجرد، وله أشعار وأذواق في طريق القوم، وكان من الأمراء وأولاد الأمراء، فصار من الفقراء وأولاد الفقراء، وخدم أبا محمد بن سبعين، وتلمذ له. وكان الشيخ أبو محمد دونه في السن، لكن استمر باتباعه، وعول على ما لديه، حتى صار يعبر عن نفسه في منظوماته وغيرها، بعبد الحق بن سبعين، وبه استدل أصحاب أبي محمد على فضله. ويقال إنه لما لقيه يريد المشايخ، إن كنت تريد الجنة، فصر إلى الشيخ أبي مدين، وإن كنت تريد رب الجنة فهلم. ولما مات الشيخ أبو محمد، انفرد بعده بالرياسة والإمامة على الفقراء والمتجردين والسفارة، وكان يتبعه في أسفاره ما ينيف على أربع ماية فقير، فيقسمهم الترتيب في وظايف خدمته.

كراماته

قالوا، نادى يوماً وهو مع أصحابه في برية، يا أحمد، فقال أحدهم، ومن هذا، فقال تسرون به غداً. فلما وردوا من الغد قابس، وجدوا أحمد قد جاء من الأسر، فقال صافحوا أخاكم المنادى بالأمس.

قالوا، ودخل عليه ببجاية، أبو الحسن بن علال من أمنايها، وهو يذكر في العلم، فأعجبته طريقته، فنوى أن يؤثر الفقراء من ماله بعشرين دنيراً. ثم ساق شطرها، وحبس الباقي ليزودهم به، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، ومعه أبو بكر وعمر، فقال ادع لي يا رسول الله، فقال لأبي بكر أعطه، فأعطاه نصف رغيف كان بيده، فقال له الشيخ في الغد لو أتيت بالكل، لأخذت الرغيف كله.

تواليفه

له كتاب العروة الوثقى في بيان السنن وإحصاء العلوم. وما يجب على المسلم أن يعمله ويعتقده إلى وفاته. وله المقاليد الوجودية في أسرار إشارات الصوفية. وله الرسالة القدسية في توحيد العامة والخاصة. والمراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية. والرسالة العلمية، وغير ذلك.

دخوله غرناطة

دخلها ونزل برابطة العقاب، وتكرر إليها، إذ بلده من عمالتها

شعره

من ذلك قوله:

لقد تمت عجباً بالتجرد والفقر ... فلم أندرج تحت الزمان ولا الدهر
وجاءت لقلبي نفحةٌ قدسية ... فغبت بها عن عالم الخلق والأمر
طويت بساط الطون والطي نشره ... وما القصد إلا الترك للطي والنشر
وغمضت عين القلب عن غير مطلق ... فألفيتني ذاك الملقب بالغير

وصلت لمن لم تنفصل عنه لحظة ... ونزهت من أعني من الوصل والهجر
وما الوصف إلا دونه غير أنني ... أريد به التشبيه عن بعض ما أدر
وذلك مثل الصوت أيقظ نايماً ... فأبصر أمراجل عن ضابط الحصر
نقلت له الأسماء تبغي بيانه ... فكانت له الألفاظ ستراً على ستر

ومن شعره أيضاً قوله في الغرض المذكور:

من لامني لو أنه قد أبصرا ... ما ذقته أضحى به متحيرا
وغدا يقول لصحبه إن أنتم ... أنكرتم ما بي أتيتم منكرا
شذت أمور القوم عن عاداتهم ... فلأجل ذاك يقال سحر مفترا

ومن شعره القصيدة الشهيرة ولها حكاية:

أرى طالباً منا الزيادة لا الحسنى ... بفكر رمى سهماً فعدى به عدنا
وطالبنا مطلوبنا من وجودنا ... يغيب به لدى الصعق إن عنا
تركنا حظوظاً من حضيض لحواطتنا ... إلى المقصد الأقصى إلى المقصد الأسنا
ولم نلف كون الكون إلا توهماً ... وليس بشيءٍ ثابت هكذا ألفينا
فرفض السوا فرض علينا لأننا ... أناس بمحو الشرك والشرك قد دنا
ولكن كيف السبيل لرفضه ... ورافضه المرفوض نحن وما كنا
فيا قابلاً بالوصل والوقفة التي ... حجبت بها اسمع وارعوي مثل ما أبنا
تبدت لك الأوهام لما تداخلت ... عليك ونور العقل أورثك الشجنا
وسمت بأنوار فهمنا أصولها ... ومنبعها من أين كان فما سمنا
وقد تحجب الأنوار للعقل مثل ما ... تبعد من إظلام نفس حوت ظعنا
وأتى دجال في القضية يدعي ... وأكمل من في الناس لمن صدع الأمنا
فلو كان سر الله يلحق هكذا ... لقال لنا الجمهور ها نحن ما خبنا
وكم دونه من فتنةٍ وبليةٍ ... وكم بهمةٍ من قبل ذلك قد جبنا
وكل مقام لا تقم فيه إنه حجاب ... فجد السير واستجد العونا
ولا تلتفت في السير وكل ما ... سوى الله غيرٌ فاتخذ ذكره حصنا
ومهما ترى كل المراتب تجتلي ... عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا
وقل ليس لي في غير ذلك مطلب ... فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنا
وسر نحو أعلام اليمين فإنها ... سبيلٌ بها يمنٌ فلا تترك اليمنا
أمامك هول فاستمع لوصيتي ... عقال من العقل الذي منه قد تبنا

أيام الورى بالمشكلات وقبلهم ... بأوهامه قد أهلك الخر والبنا
محجتنا قطع الحجا وهو حجنا ... وحجتنا شلوه ها بها همنا
ثبتنا عند الصعود لأنه ... يود لأنا للصعيد قد أخلدنا
تلوح لنا الأطواق منه ثلاثة ... كرآ هربن ورؤية ما قلنا
ويظهر باسمه للسر والنفس مدبراً ... وعقلاً وخيراً مقبلاً عندما يدنا
ولوح إذا لاحت سطور كتابنا ... له فيه وهو النون فالقلم الأدنا
وعرش وكرسي وبرج وكوكب ... وحشيً لجسم الكل في وصفه حزنا
تمر خطوط الذهن عند التفاتنا ... حاطته القصوى التي فيه أحضرنا
مقطعٌ بالأزمان للدهر مثل ... يكيف للأجسام من نحلته أينا
أقام دوين الدهر مدرة ذاته ... ونحن ونفس الكل في بحره عمنا
وفتق للأملاك جوهره الذي ... يشكله سر الحروف فحرفنا
يفرق مجموع القضية ظاهراً ... ويجمع فرقاً من تداخله فزنا
وعدد شيئاً لم يكن غير واحد ... بألفاظ أسمايها شتت المعنا
ويعرج والمعراج منه ذواته ... لتطويره العلوي بالوسم أسرينا
فليفل سفلياً ويوهم أنه ... لسفليه المجهول بالذات أسبطنا

يقدر خصلاً بعد وصل لذاته ... وفرض مسافات يجد لها الذهنا
يحل لها طور المغبة شكله ... وإن لمعت فيه فيلحقه المفنا
ويلحقه بالشرط من مثنوية ... يلوح بها وهو الملوح والمبنا
فنحن كدود القز يحصرنا الذي ... صنعنا بدفع الحصر سجناً لنا منا
فكم واقفٍ أردى وكم ساير هذا ... وكم حكمة أبدى وكم مملق أغنا
وتيم أرباب الهرامس كلهم ... وحسبك من سقراط أسكنه الدنا
وجرد أمثال العوالم كلها ... وأبدى لأفلاطون في المثل الحسنا
وهام أرسطو حتى مشى من هيامه ... وبث الذي ألقى إليه وماضنا
فكان لذي القرنين عوناً على الذي ... تبدا به وهو الذي طلينه العينا
ويفحص عن أسباب ما قد سمعتم ... وبالبحث غطى العين إذ رده عينا
وذوق للحلاج طعم اتحاده ... فقال لنا من لا يحبط به معنا
فقال له ارجع عن مقالك قال لا ... شربت مداماً كل من ذاقها غنا
وانطق للشبلي بالوحدة التي ... أشار بها لما محا عنده الكونا
أقام لذات الصغرى لنا حولها ... يخاطب بالتوحيد إذ رده خدنا
وكان خطا بابين ذاتين من يكن ... فقيراً يرى البحر فيه قد عمنا
فاصمت للحسنى تجريد خلقه ... مع الأمر إذا صحت فصاحته لكنا
تثنى قضيب البان من سكر خمره ... وكان كمثل العمر لكنه ثنا
وقد شذ بالشوذى عن ثوبه ... فلم يمل نحو أحوازٍ ولا سكن الدنا

وأصبح فيه السهر وردي حايراً ... يصيخ لما يلقى الوجود له أذنا
بعمر بن الفارض الناظم الذي ... تجرد للأسفار إذ سهل الحزنا
ولابن قسي خلع نعلي وجوبٍ ... وليس أخاً طلب من المجد قد تبنا
أقام على ساق المسرة نحله ... لمن زمن الأسرار فاستمطر المزنا
ولاح سنى برق من القرب للسنى ... لنجل ابن سينا الذي ظن ما ظنا
وقد قلد الطوسي بما قد ذكرته ... ولكنه نحو التصوف قد حنا
ولابن طفيل وابن رشد تيقظٌ ... رسالة يقظان اقتضت فتحه الجفنا
كسا لشعيب توب جمعٍ لذاته ... فجر على حساده الذيل والودنا
وعنه طوق الطابي بسبط كنانه ... بدسكرة الخلاع إذا ذب الوهنا
تسمى برفع الروح صبراً ولم ... يبل ما يهز نداً في المقام ولا قرنا
وباح به نجل الحر إلى عندما ... رأى كتمه ضعفاً وتلويحه غينا
وللأموي النظم والنثر في الذي ... ذكرنا وإعرابٌ كما عنه أعربنا
وأظهر منه الغافقي لما خفا ... وكشف عن أطواره الغيم والدجنا
وبين أسرار العبودية التي ... عن إعرابها لم ترفع اللبس واللحنا
كشفنا غطاءً من تداخل سرها ... فأصبح ظهراً ما رأيتم له بطنا
هوانا الدين الحق من قد توهت ... لقربه ألبابنا وله هدنا
فمن كان يبغي السير للجانب الذي ... تقدس لازباً خذه عنا

وهذه القصيدة غريبة المنزع، وإن لم تخل عن شذوذ من جهة اللسان، وضعفٍ في الصناعة، أشار فيها إلى مراتب الأعلام من أهل هذه الطريقة. وكأنها مبنية على كلام شيخه الذي خاطبه به عند لقايه حسبما قدمنا، إذ الحسنى الجنة، والزيادة مقام النظر، فقوله أرى طالباً منا الزيادة لا الحسنى، إشارة إلى ذلك والله أعلم. والغافقي الذي ختم به هو شيخنا أبو محمد، وهو مرسي الأصل غافقية، رحم الله جميعهم، ونفعنا بأولي الحظوة لديه.

نثره

وكلامه حسن، ومقاصده غريبة، رضي الله عنه، ونفع به. كتب إليه الشيخ الصوفي أبو علي بن تادررت لما سافر ولم يودعه، وكان قد قال له، أغيب عنكم أياماً قلائل، وأعود إن شاء الله فأبطأ عنه: بسم الله الرحمن الرحيم، الله وحده فقط ليس إلا وصلواته على ملإه المقرب الأعلى، وعلى سيدهم الخاتم محمد وآله الهداة، وسلامه الحق يخص العليم بسره، في عالم الفرق، ورحمته وبركاته، من أخيه حقيقة في العوالم الأول، لا في عالم العلم الحق، من حيث هو موضوعه بحسب الإضاية، بمنزله من مدينة بنى مدار عمرها الله وأرشدهم، وليس إلا أني نعتبكم عرفاً وعادةً، لسفركم دون موادعة، بخلاف سيرتكم الأولى من المشرق الأقصى، إلى المغرب الأقصى، وأما بكون حقيقة الأمر الموحد فلا عتب، بل نقرأ على الماهية سورة الإخلاص، التي توحيدها المحض أحاط وأحصى. ثم وعدتم أنكم ولابد لا تطول إقامتكم ببجاية كلأها الله، إلا ليال قليلة العدد، تأخذون فيها كتبكم وتنفصلون قافلين في أسرع أمد. ثم ظهر غير ذلك من الإقامة إلى هذه المهلة، التي نبا كما عندنا الزمان. وقد ورد من أناس بالتواتر، أنكم ولابد تصومون هنالك رمضان المعظم على الأمان، فقلنا لحظ البشرية الحيوانية. وعلمنا أن الأمر ليس سراً لأجل القضايا الحكمية الطلبية، والمقادير العلمية السرية. ولا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يسل عما يفعل، وهم يسئلون في دهره

وزمنه، يمحو الله ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب. ولكنا أيضاً نقرأ، والله لا يخلف الميعاد. وقد يكون غير الوفاء بالعهد في الخلف لمصالح فيها وعد الله، لا يخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، والله يفعل ما يشاء. ولا تكن معترضاً. فلا تلوم إلا بحسب فرقنا الأول. وأما من حيث الكمالات الثواني والأول، فلا لوم ولا عتب، لرفع المثنوية، وإحالة الكثرة والإضافة، حتى ليس إلا الوحدة العلمية المعنوية العلية. وبالجملة الله معكم. ولن يتركم أعمالكم فإن ما يرفع العمد والعماد. قال الله، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون، وهو معكم أينما كنتم، والله عليم بما تصنعون. والرغبة إلى ذاتكم الكاملة الوجودية، ذات الكمالات العلمية القدسية، أن تعجلوا لي، إذ وأنتم مقيمون هنالك.

وأين يجد في عليين غرفة ... وإن شغلتم عن نسخها

والحق لا يشغله شأن عن شأن، فوجهوا إلي بما بعض الفقراء والإخوان، وأنا أقسم عليك في ذلك يا أخي وسيدي فقط الذي يشغله أبداً سرمداً الله فقط، وأن تعجل لي بذلك، وتحيي مواتي، وتجمع أشتاتي، مع كلام تعتنوا لي به من كلامكم تخصوني به في كراس مبارك، علمني الله العليم الحكيم منكم سر علمه العظيم، وحكمته المحيطة، وكفانا سر هذه العوالم الأرضية المركبة الحطيطة، ونقلنا من البسيطة لغة إلى العوالم الريسة النفيسة البسيطة، ويرقينا به عنها إلى أن نتصل الحظ المنفصل للتدبير بنقطته الأولى، وإن كان في الحقيقة، ما انفصل، ويدخلها حضرة علمنا المحيط الوجودي، الذي ليس وراءها محيط إليه يرقي ويتصل. والسلام الحق محض مظهره ومجلاه ومرآته، ورحمة الله وبركاته.

فراجعه الشيخ أبو الحسن الششتري المترجم به رضي الله عنه بما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على النبي محمد، المرسل بالحق لإدحاض الشك، وإيضاح الغلط، الموصل إلى أقرب السبيل للحضرة الآلهية، ومن شطط المختص بجوامع الكلم، المبكت لكل من موه وسفسط، المبعوث بكلمة الإخلاص، التي حاصلها اللها فقط، ورضي الله عن مظهر الوراثة المحمدية في كل زمان، المترجم عن كنز الوجود الذي طلسمه الإنسان، وسلام الله ورحمته على المستمع بأذن أنيته لذلك الترجمان، المتجوهر بمقام الإسلام والإيمان والإحسان، القاري على أخباره المنبعثة في أرض فرقة، كل من عليها فان، بالمعنى الفقير الباطن، للسيار الظاهر، المشير الحايم على سلب الإسمين، الداير على دايرة قاب قوسين. المشهور في العالم الأول، بأبي علي الحسين من خبر ماسية، الوارث الطالب لذاته بها للوصل له. وهو به عنه باحث، المنظور في ذات كمالاته، المنعوث بالوافي لا بالناكث، المعتصم بحبل التحقيق، القايل بالحق، عبده على الششري، ابن إفادتكم عبد الحق بن سبعين، أما قبل من حيث الأصل، ومع من حيث الوصل، وبعد من حيث الفصل، فإني أقسم بالبدر إذا أدبر، والصبح إذا أسفر، أن النصاب واقع من حيث الصور، لا من حبة حقيقة المظهر. فأين هنا أنت أو أنا، أو قبل أو بعد أو هند أو دعد، أو خلف أو وعد، ولابد من المراح في ميدان الخطاب وبيان المتشابه عليكم، المودع عليكم، في هذا التاب. فأول عايق عنكم مرض أحد الأصحاب، ولا انفكاك عند وجود هذه القضية، عند كل طايفة سنية، فما ظنك بالسبعينية، هذا مع وجود وعد مبين، وزمان معين. ونحن لم نعين للموضوع وقتاً، ولو عينا لكبر عند الله مقتاً. وإنما قلنا أيام قلايل، ويدخل في ذلك الجمعة والشهر والعام القابل. بل برزخ العالم وإنايه عند النحرير العاقل. ثم لو عينا يوماً أو يومين أو جمعتين، ولم يكن، فقلب المؤمن بين إصبعين. أما علمت أن الوعد المزعوم المراد منه الذي تتضمنه، صعقه العمود بالبعد أو بالتواني أو بالحواس أو بالمعاني. والمسكر هو الجريال لا الأواني. وأما قضية الوداع، فقد ارتفع بين الفقراء فيها النزاع، ووقع من الصوفية في ذلك الإجماع، أن الاجتماع من غير ميعاد، والافتراق عن غير مشورة، وقول أنه

من حيث المذهب لازم بالضرورة، فإن المودع لا يخلق أن يكون من تربة الفرس والسبع، أو في مقام الفردانية والجمع، أو في البرزخ الذي بين المقامين، المعبر عنه عند الصوفية بالفناء. فإن كان في الوترية، فلا أنت ولا أنا، ولا مودع، وقلة العتب لهذا أليق وأطبع. وإن كان في برزخ الفنا، فمن المودع هنا، وإن كان في الفرق هنا. وإن كان في الفرق، فترك المودع أقرب إلى الحق لألم التفرقة، الموجود المحسوس، المعترض عند ذلك للنفوس. واعلم أن الانفصال كان بالطريق عند من يرى بالانفصال والاتصال، ولا نقلة عند ذوي الاتصال. وأما نكرة عرفة فهي عند الشيخ أبي عبد الله التوزري لا عندي، ولو كانت ما ضننت بها بحمد الله لا بحمدي. والسلام على موضوعك ومحمولك وسلوكك ووصولك، وجمعك وفرقك، وعبوديتك وحقك، بل على جملته الصالحة، ورحمة الله وبركاته.
وفاته

قالوا إنه لما وصل بالشام إلى ساحل دمياط، وهو مريض مرضه الذي توفي منه، نزل قرية هناك على ساحل البحر الرومي يصاد فيها السمك، وقال ما اسم هذه القرية، فقيل الطينة، فقال حنت الطينة إلى الطينة، ووصى أن يدفن بمقبرة دمياط، إذ الطينة بالمفازة بالساحل، ودمياط أقرب المدن إليها، فحمله الفقراء على أعناقهم، فتوفي بها يوم الثلاثاء سابع عشر صفر عام ثمانية وستماية، ودفن بمقبرة دمياط.
وفي ساير الأسماء من حرف العين

الأعيان والوزراء والأماثل والكبراء

عامر بن محمد بن علي الهنتاتي

رييس متبوإ قبيلةٍ من جبل درن، ومزوار المصامدة، والمطلقة يده على جباية الوطن المراكشي، يكنى أبا ثابت.
حاله
هذا الرجل حسن الشكل، حصيف العقل، ثابت الجأش، معروف الأمانة والصدق، عفيف الفرج، مؤثر للجد، ماضي الحذر بأهل الحكم، نزيه اليد، مشهور بالرجاحة، عين من عيون الحدود الغربية، وبقيةٌ من بقايا الجلة العلمية، مسدد اللسان للإبانة عن الأغراض، مختصر البزة والحلية، متوسط الجود، مؤثر للخصوصية، بعيد النظر، سديد الرأي.

قدمت عليه بمحله من الجيل، زايراً متوفى السلطان أبي الحسن، مستجيراً حماهم، فبلوت من بره، وبر الرييس الندي عبد العزيز أخيه، ما تقصر عنه همم الملوك، وتقف دونه آمال الأشراف، تلقياً واحتفالاً وفرشاً، وآنية، وطعاماً، وصلة وانتخاباً، واحتشاماً، وألطافاً، حسبما يتضمن بسط ذلك كتاب الرحلة من تأليفي.
وأنشدتهم عند رحيلي، وقد رأيت إلى ما يبقي الذكر ويخلد الآثار شيم السادة، وديدن الروساء:
يا حسنها من أربع وديار ... أضحت لباغي الأمن دار قرار
وجبال عز لا تذل أنوفها ... إلا لعز الواحد القهار
ومقر توحيد وأس خلافة ... آثارها تنبي عن الأخبار
ما كنت أحسب أن أنهار الندى ... تجري بها في جملة الأنهار
ما كنت أحسب أن أنوار الحجا ... تلتاح في قنن وفي أحجار

مجت جوانبها البرود وإن تكن ... شبت بها الأعداء جذوة نار
هدت بناها في سبيل وفائها ... فكأنها صرعى بغير عقار
لما توعدها على المجد العدا ... رضيت بعيث النار لا بالعار
عمرت بحلة عامر وأعزها ... عبد العزيز بمرهف بتار
فرسا رهان أحرزا قصب الندى ... والبأس في طلق وفي مضمار
ورثا عن الندب الكريم أبيهما ... محض الوفاء ورفعة المقدار
وكذا الفروع تطول وهي شبيهة ... بالأصل في ورق وفي أثمار
أزرت وجوه الصيد من هنتاتة ... في جوها بمطالع الأقمار
لله أي قبيلة تركت لها ... النظراء دعوى الفخر يوم فخار
نصرت أمير المسلمين وملكه ... قد أسلمته عزايم الأنصار
وآوت علياً عندما ذهب الردى ... والروع بالأسماع والأبصار
وتخاذل الجيش اللهام وأصبح ... الأبطال بين تقاعدٍ وفرار
كفرت صنائعه فيمم دارها ... مستظهراً منها بعز جوار
وأقام بين ظهورها لا يتقي ... وقع الردى وقد ارتمى بشرار
فكأنها الأنصار لما آنست ... فيما تقدم غربة المختار
لما غدا لحظاً وهم أجفانه ... نابت شفارهم عن الأشفار
حتى دعاه الله بين بيوتهم ... فأجاب ممتثلاً لأمر البار
لو كان يمنع من قضاء الله ما ... خلصت إليه نوافذ الأقدار
قد كان يأمل أن يكافىء بعض ما ... أولوه لولا قاطع الأعمار
ما كان يقنعه لو امتد المدا ... إلا القيام بحقها من دار
فيعيد ذاك الماء ذايب فضة ... ويعيد ذاك الترب ذوب نضار
حتى تفوز على النوى أوطانها ... من ملكه بجلايل الأوطار
حتى يلوح على وجوه وجوههم ... أثر الرعاية ساطع الأنوار
ويسوغ الأمل القصي كرامها ... من غير ما ثنيا ولا استعصار
ما كان يرضي الشمس أو بدر الدجا ... عن درهم فيه ولا دينار
أو أن يتوج أو يقلد هامها ... ونحورها بأهلةٍ ودراري
حق على المولى ابنه إيثار ما ... بذلوه من نصرٍ ومن إيثار
فلمثلها ذخر الجزاء ومثله ... من لا يضيع صنائع الأحرار
وهو الذي يقضي الديون وبره ... يرضيه في علن وفي إسرار
حتى تحج محلة رفعوا بها ... علم الوفاء لأعين النظار
فيصير منها البيت بيتاً ثانياً ... للطائفين إليه أي بدار
تغني قلوب القوم عن هدى به ... ودموعهم تكفي لرمي جمار

حييت من دارٍ تكفل سعيها المحمود ... بالزلفى وعقبى الدار
وضفت عليك من الإله عناية ... باكر ليل فيك إثر نهار
دخوله غرناطة

دخل الأندلس، وحل بغرناطة في حدود خمسين وسبعماية، وأقام بها أياماً، وقد أسند إليه السلطان أبو الحسن لما رحل عن إفريقية حفظ حرمه وأسبابه، في مراكب كان استقرارها بسواحل الأندلس، وحضر مجلس السلطان، فراق الحاضرين مدقاه، وضم لسانه لأطراف الحديث، وحسن تبويبه للأغراض. ولهذا الرجل في وطن المغرب ذكر بعيد، وقد أمسك الأمر مرات، على من استقر لديه من ولد السلطان، ورتب له الألقاب والتشريخ يغازله بذلك الوطن. وتنوعت الحال بهذا الرجل، من بعد وفاة السلطان أبي سالم ملك المغرب، وانحاز إليه ولده فقام بدعوته، ورتب له الألقاب بوطن مراكش، ونظر لنفسه أثناء ذلك، فحصن الجبل، واتخذ به القلعة، وأكثر الطعمة والعدة، فلما حاقت بأميره الدبرة، لجأ إلى ما أعده، وهو الآن يزجي الوقت مهادنةً تشف عن انتزاء، والله يهيىء له الخلاص من الورطة، ويتيح له إلى حزب السلامة الفيئة.
ومن الطارين في القضاة والغرباء

عاشر بن محمد بن عاشر

بن خلف بن رجا بن حكم الأنصاري بياسي الأصل

حاله

كان رحمه الله عيها حافظاً للمسايل، مفتياً بالرأي، معروفاً بالفهم والإتقان، بصيراً بالفتوى، شوور ببلده وببلنسية، واستقضاه أبو محمد ابن سمحون على باغة أيام قضاية بغرناطة. إذ كان يكتب عنه ويلازمه، ثم استقضي بمرسية أعادها الله. وكان حافظ وقته، لم يعاصره مثله.
مشيخته
روى عن أبيه، وتلا بالسبع على ابن ذروة المرادي، ولقي أبا القاسم ابن النحاس، وأخذ الحديث عن أبي بحر الأسدي، وأبي بكر بن العربي، وأبي جعفر بن جحدر، وأبي الحسن بن واجب وغيرهم.
مولده
ببياسة سنة أربع وقيل ست وثمانين وأربعماية.
وفاته
توفي بشاطبة، تسع وستين وخمسماية.
تواليفه
شرح المدونة مسئلة مسئلة، بكتاب كبير سماه الجامع البسيط، وبغية الطالب النشيط حشد فيه أقوال الفقهاء، ورجح بعضها، واحتج له. قالوا: وتوفي قبل إكماله.
عياض بن محمد اليحصبي

عياض بن محمد بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبي من أهل سبتة، حفيد القاضي العالم أبي الفضل، يكنى أبا الفضل.

حاله

من الصلة: كان من جلة الطلبة، وذوي المشاركة في فنون من العلوم العقلية وغيرها، فصيحاً، شاعراً، لسناً، مفوهاً، مقداماً، موصوفاً بجزالة وحدة، امتحن بسببها. وكان مع ذلك كثير التواضع، فاضل الأخلاق، سرياً، مشاركاً، معظماً عند الملوك، مشاراً إليه، جليل القدر. حضر الأندلس أيام قضاء أبيه بغرناطة، وغير ذلك الوقت، وجال فيها، وأخذ بقرطبة وإشبيلية وغيرهما، واستقر أخيراً بمالقة، وتأثل بها وبجهاتها أصول أملاك إلى ما كان له.

مشيخته

روى عن أبيه أبي عبد الله، وعن أبي محمد بن عبد الله، وأبي بكر ابن الحداد القاضي بسبتة، وأبي القاسم بن بشكوال، وابن حبيش، وابن حميد، وأبي بكر بن بيبش الشلطيشي وغيرهم.

من روى عنه: قال الأستاذ، روى عنه جماعة ممن أخذت عنهم، منهم ابنه أبو عبد الله قاضي الجماعة، وأبو العباس بن فرتون، أخذ عنه كثيراً بمدينة فاس.

مولده

قال صاحب الذيل. سألته عن مولده: فقال ولدت في اليوم التاسع عشر من محرم عام واحد وستين وخمسماية بمدينة سبتة.

وفاته

توفي في العشر الوسط من جمادى الآخرة عام ثلاثين وستماية بمالقة. وروضته بها في جنة كانت له بربضها الشرقي. رحمه الله.

عياض بن موسى اليحصبي

عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض ابن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي القاضي الإمام المجتهد، يكنى أبا الفضل، سبتي الدار والميلاد، أندلسي الأصل، بسطيه .

أوليته

من كتاب ولده في مآثره، وهو كناش نبيه، قال، استقر أجدادنا في القدم بالأندلس بجهة بسطة، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس. وكان لهم استقرار في القيروان، لا أدري قبل حلولهم بالأندلس أو بعد ذلك. وكان عمرون رجلاً خياراً من أهل القرآن، وحج إحدى عشرة حجة، وغزا مع ابن أبي عامر غزوات كثيرة. وانتقل إلى سبتة بعد سكنى فاس. وكان موسراً، فاشترى بها من جملة ما اشتراه الأرض المعروفة بالمنارة، فبنى في بعضها مسجداً، وفي بعضها دياراً حبسها عليه، وهو الآن منسوب إليه، وولد له ابنه عياض، ثم ولد لعياض ابنه موسى ثم ولد لموسى القاضي أبو الفضل المترجم به.

حاله

قال ولده في تأليفه النبيل: نشأ على عفة وصيانة، مرضي الخلال، محمود الأقوال والأفعال، موصوفاً بالنبل والفهم والحذق، طالباً للعلم، حريصاً عليه، إلى أن برع في زمانه، وساد جملة أقرانه، فكان من حفاظ كتاب الله، مع القراءة الحسنة، والنغمة العذبة، والصوت الجهير. والحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه. وكان من أيمة الحديث في وقته،

أصولياً متكلماً، فقيهاً حافظاً للمسايل، عاقداً للشروط، بصيراً بالأحكام، نحوياً، ريان من الأدب، شاعراً مجيداً، كاتباً غالباً بليغاً، خطيباً، حافظاً للغة والأخبار والتواريخ، حسن المجلس، نبيل النادرة، حلو الدعابة، صبوراً، حليماً، جميل العشرة جواداً، سمحاً، كثير الصدقة دروباً على العمل، صلباً في الحق.

رحلته وولايته

ومنشأ أمره. رحل إلى الأندلس سنة سبع وخمسماية، فأخذ بقرطبة ومرسية وغيرهما، ثم عاد إلى سبتة، فأجلسه أهلها للمناظرة عليه في المدونة، وهو ابن ثلاثين سنة أو ينيف عليها. ثم جلس للشورى. ثم ولي القضاء، فسار في ذلك حسن السيرة مشكور الطريقة. وبنى الزيادة الغربية في الجامع الأعظم. وبنى بجبل الميناء الرابية الشهيرة، وعظم صيته. ثم نقل إلى غرناطة في أول صفر سنة إحدى وثلاثين وخمسماية، فتلقد خطة القضاء بها. ثم ولي قضاء سبتة ثانية. ولما ظهر أمر الموحدين بادر بالمسابقة إلى الدخول في طاعتهم، ورحل إلى لقاء أميرهم بمدينة سلا، فأجزل صلته، وأوجب بره، إلى أن اضطربت أمور الموحدين عام ثلاثة وأربعين وخمسماية، وحدث على من كان بقصبتها منهم ما هو معلوم من التغلب عليهم واستئصالهم، ثم من رجوع أمورهم، فالتأثت حاله، ولحق بمراكش مشرداً به عن وطنه، فكانت بها وفاته.

مشيخته

ورتبهم ولده حسبما نقل من فرهسته على الحروف. فمنهم أحمد بن محمد بن بقي، وأحمد بن سعيد بن مستقر، وأحمد بن محمد بن مكحول، وأحمد بن محمد السلفي، الشيخ أبو الطاهر، وأحمد بن محمد بن غلبون ابن الحصار، وأحمد بن محمد بن عبد العزيز المرحي، إلى غيرهم من جملة سبعة عشر رجلاً، والحسن بن محمد الصدفي بن سكرة، والحسين بن محمد الغساني، والحسين بن عبد الأعلى السفاقسي، والحسن ابن علي بن طريف، وخلف بن إبراهيم بن النحاس، وخلف بن خلف الأنصاري ابن الأنقر، وخلف بن يوسف بن فرتون، ومحمد بن عيسى التجيبي القاضي، ومحمد بن علي بن حمدين القاضي، ومحمد بن أحمد التجيبي القرطبي القاضي ابن الحاج. ومحمد بن أحمد بن رشد، ومحمد بن سليمن النفزي ابن أخت غانم. وأجازه محمد بن الوليد الطرطوشي، ومحمد بن علي بن عمر المازري، ومحمد بن عبد الله المعافري القاضي ابن العربي، ومحمد بن عبد الرحمن بن شبرين القاضي، ومحمد ابن علي الأزدي الخطيب الطليطلي، ومحمد بن علي الشاطبي ابن الصقيل، إلى غيرهم من جملة أحد وثلاثين شيخاً. وعبد الله بن محمد الخشني، وعبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، وعبد الله بن محمد بن أيوب الفهري، وعبد الرحمن بن محمد السبتي ابن العجوز، وعبد الرحمن ابن محمد بن بقي، وعلي بن أحمد الأنصاري ابن الباذش، وعلي بن عبد الرحمن التجيبي ابن الأخضر من جملة من سبعة وعشرين. وغالب ابن عطيه المحاربي، وسراج بن عبد الملك بن سراج أبو الحسن، وسفيان ابن العاصي الأسدي، من جملة خمسة من الأشياخ في هذا الحرف. وشريح بن محمد الرعيني الإشبيلي، وهشام بن أحمد القرطبي أبو الوليد ابن العواد، وهشام بن أحمد الهلالي الغرناطي، ويونس بن محمد بن مغيث ابن الصفار، ويوسف بن موسى الكلبي، سمع منه أرجوزته، ويوسف ابن عبد العزيز بن عتريس الطليطلي.

شعره

قال، مما كتبته من خطه:

أعوذ بربي من شر ما ... يخاف من الإنس والجنة
وأسئله رحمة تقتضي ... عوارف توصل بالجنة
فما للخلان من ناره ... سوى فضل رحماه من جنة

ومن شعره، قال أنشدنيه غير واحد من أصحابنا، فوارحمة الله عليه:

أذات الخلال كم ذا تنتضيها ... على سيوف عينيك انتضاه

بمطلك لي مواعد أقتضيها ... من التوريد واللمس اقتضاه

فقضى وعد مطلك وانجزيه ... خيار الناس أحسنهم قضاة

قال، ومما كتبته من خطه:

يا من تحمل عني غير مكترث ... لكنه للضنى والسقم أوصاب

تركتني مستهام القلب ذا خوف ... أخا جوىً وتباريح وأوصاب

أراقب النجم في جنح الدجا ولهاً ... كأني راصدٌ للنجم أوصاب

وما وجدت لذي النوم بعدكم ... إلا جنى حنظل في الطعم أوصاب

ومن ذلك قوله رحمه الله:

الله يعلم أني منذ لم أركم ... كطاير خانه ريش الجناحين

فلو قدرت ركبت المريخ نحوكم ... فإن بعدكم عني جنا حين

قال، وكتب من خطه:

يا راحلين وبالفؤاد تحملوا ... أترى لكم قبل الممات قفول

أما الفؤاد فعندكم أنباؤه ... ولواعج تنتابه وغليل

فترى لكم علمٌ بمنترح الكرى ... عن جفن صبٍّ ليله موصول

أودى بعزته صبره وإبايه ... طرفٌ أصم ومبسم مصقول

ما ضركم وأضنكم بتحية ... يحيى بها عند الوداع قتيل

إن الخليل بلحظه أو لفظه ... أو عطفه أو وقفه لبخيل

ومما نسبه إليه الفتح وغيره، ومن العجب إغفال ولده إياه، قوله يصف الزرع والشقائق فيه:

أنظر إلى الزرع وخاماته ... تحكي وقد ماست أمام الرياح

كتيبةٌ خضراء مهزومة ... شقائق النعمان فيها جراح

نثره

وهو كثير. فمن خطبه، وكان لا يخطب إلا بإنشايه: الحمد لله الذي سبق كل شيءٍ قدماً، ووسع كل شيءٍ رحمة وعلماً ونعماً، وهدى أولياءه، طريقاً نهجاً أمماً، وأنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجاً قيماً، لينذر بأساً شديداً من لدنه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً، ماكثين فيه أبداً. أحمده على مواهبه، وهو أحق من حمد، وأسأله أن يجعلنا أجمع، ممن حظي برضاه وسعد، وأستعينه على طاعته، فهو أعز من أستعين وأستنجد، وأستهديه توفيقاً، فإن من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، شهادة فاتحةً لأقفال قلوبنا، راجحة بأثقال ذنوبنا. منزهة له عن التشبيه والتمثيل بنا، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبةً ولا ولداً. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أنزل عليه الفرقان، وبعثه بالهدى والإيمان، وأغزى بدعوته دعوة أولياء الشيطان، وأبعدهم مقاعد عن السمع، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً.

أيها السامع، قد أيقظك صرف القدر من سنة الهوى وتياراته، ووعظك كتاب الله بزواجره وعظاته، فتأمل حدوده. وتدبر محكم آياته، واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته، ولن تجد من دونه ملتحداً. أين الذين عتوا على الله، وتعظموا واستطالوا على عباده وتحكموا، وظنوا أنه لن يقدر عليهم حتى اصطلموا. وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً. غرهم الأمل وكواذب الظنون، وذهلوا عن طوارق القبر وريب المنون. وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون. حتى إذا رأوا ما يوعدون، فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً. فهذبوا رحمكم الله سراركم بتقوى الله واخلصوا، واشكروا نعمته، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، واحذروا نقمته واتقوه. ولا تعصوا، واعتبروا بوعيده. قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى. وانهضوا لطاعته الهمم العاجزة، واركضوا في ميدان التقوى، وحوزوا نصب خصله العابرة ، وادخروا ما يخلصكم يوم المحاسبة والمناجزه، وانتظروا قوله، يوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً، ذلك يوم تذهل فيه الألباب، وترجف القلوب رجفاً، وتبدل الأرض وتنسف الجبال نسفاً، ولا يقبل الله فيه من الظالمين عدلاً ولا صرفاً. ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً، وعرضوا على ربك صفاً، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة، بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً، اللهم انفعنا بالكتاب والحكمة، وارحمنا بالهداية والعصمة، وأوزعنا شكر ما أوليت من النعمة. ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيىء لنا من أمرنا رشداً.

تواليفه

مما أكمله وقرىء عليه كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ستة أجزاء، وكتاب إكمال المعلم في شرح مسلم تسعة وعشرون جزءاً. وكتاب المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة عشرة أجزاء. وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك خمسة أسفار، ولم يسمعه. وكتاب الإعلام بحدود قواعد الإسلام. وكتاب الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع سفر. وكتاب الرايد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوايد. وكتاب خطبه سفر. وكتاب المعجم في شيوخ أبي سكرة. وكتاب الغنية في شيوخه، جزء. ومما تركه في المبيضة كتاب مشارق الأنوار على صحيح الآثار ستة أجزاء ضخمة، وهو كتاب جليل. وفيه يقول الشاعر:

مشارق أنوار تبدت بسبتة ... ومن عجب كون المشارق بالغرب

وكتاب نظم البرهان على صحة جزم الأذان جزء. وكتاب مسئلة الأهل المشترط بينهم التزاور جزء. ومما لم يكمله المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان. وكتاب الفنون الستة في أخبار سبتة. وكتاب عنية الكاتب وبغية الطالب في الصدور والترسيل. وكتاب الأجوبة المحيرة على الأسئلة المتخيرة وجدت منها يسيراً فضممته إلى ما وجدته في بطايقه وعند أصحابه. يقول هذا ولده من معان شاذة في أنواع شتى سئل عنها رحمة الله عليه. فأجاب جمعت ذلك في جزء. وكتاب أجوبة القرطبيين وجدتها بطابق، فجمعتها مع أجوبة غيرهم. وأجوبته مما نزل في أيام قضايه، من نوازل الأحكام في سفر، وكتاب سر السراة في أدب القضاة.

نبذ من أخباره

وأولاً في ثناء الأعلام عليه. قال ولده، أخبرني ابن عمي الزاهد، أن القاضي أبا عبد الله بن حمدين كان يقول له وقت رحلته إليه، وحتى يا أبا الفضل إن كنت تركت بالمغرب مثلك. وقال، وأخبرني أن أبا الحسين بن سراج قال له، وقد أراد الرحلة إلى بعض الأشياخ، فهو أحوج إليك منك إليه، وقال إن الفقيه أبا محمد بن أبي جعفر قال له، ما وصل إلينا من المغرب مثل عياض. وأمثال ذلك كثير، ومن دعابته، قال بعض أصحابنا صنعت أبياتاً تغزلت فيها، والتف إلى أبيك رضي الله عنه ثم اجتمع بي، فاستنشدني إياها، فوجمت، فعزم علي فأنشدت:

أيا مكثراً صدىً ولم آت جفوة ... وما أنا عن فعل الجفاء براض
سأشكو الذي توليه من سوء عشرة ... إلى حكم الدنيا وأعدل قاض
ولا حكم بينك أرتضي قضاياه ... في الدنيا سوى ابن عياض
قال فلما فرغت حسن، وقال متى عرفتني قواداً يا فلان، على طريق المداعبة. وأخباره حسنة وفضايله جمة.
مولده
بسبتة حسبما نقل من خطه في النصف من شعبان عام ستة وسبعين وأربعماية.
وفاته

توفي بمراكش ليلة الجمعة نصف الليلة التاسعة من جمادى الآخرة من عام أربعة وأربعين وخمسماية. ودفن في باب إيلان من داخل السور.
عقيل بن عطية القضاعي

عقيل بن عطية بن أبي أحمد جعفر بن محمد بن عطية القضاعي من أهل طرطوشة، يكنى أبا المجد
حاله
كان فقيهاً متطرفاً في فنون من العلم، متقناً لما يتناوله من ذلك، حسن التهدي، من بيت طلب. وقد تقدم ذكر جده الأستاذ. ولي عقيل قضاء غرناطة وسلجلماسة.
مشيخته
روي عن أبي القاسم بن بشكوال. قرأ عليه وسمع، وتناول من يده، وأجاز له. وقفت على ذلك بخطه.
شعره
أنشد له في الذيل قوله، مما نظمه لجماعة من السادة:
ملوك دون بابكم وقوف ... سطت بهم الحوادث والصروف
أذلهم الزمان وكان قدماً ... لهم راع وحولهم يطوف
غدوا عبراً لمعتبر فسحقاً ... لدنيا أمرها أمر سخيف
وطال وحق مجدك ما تبدوا ... وحولهم الغواضب والسيوف
أسود يقدمون أسود حرب ... وخلفهم العساكر والصفوف
أتى بهم الزمان إليك قصداً ... حيارى فيه يعجزهم رغيف
فعطفاً أيها المولى عليهم ... وقاك السوء باريك اللطيف
فرحمة سيد قد ذل فرضٌ ... يقول به النبي الهادي الشريف
وما يرى الكرام سوى كريم ... وأنت الماجد الندى العطوف
تواليفه
قال الأستاذ، وقفت على تأليف سماه فصل المقال في الموازنة بين الأعمال تكلم فيه مع أبي عبد الله الحميدي، وشيخه أبي محمد بن حزم، فأجاد فيه وأحسن، وأتى بكل بديع. وشرح المقامات الحريرية.
وفاته

في صفر سنة ثمان وستماية.
ومن الكتاب والشعراء

عاصم بن زيد العبادي

عاصم بن زيد بن يحيى بن حنظلة بن علقمة بن عدي ابن محمد التميمي ثم العبادي الجاهلي يكنى أبا المخشبي من أهل إلبيرة.

حاله

كان شاعراً مجيداً، شهير المكان، بعيد الصيت، على عهده. قال أبو القاسم، كان من أعلام الجند ومقدميهم. وقال الرازي، دخل والده زيد بن يحيى من المشرق إلى الأندلس، واختط بكورة جند دمشق، وشهر ابنه عاصم هذا بالشعر، إذ كان غزير القول، حسن المعاني، كثير النادر، سبط اللفظ، فاغتدى شاعر الأندلس، ومادح بني أمية، المخلف فيهم قوافي الشعر المديح الشاردة، وقد كان في لسانه بذاءة زايدة، يتسرع به إلى من لم يوافقه من الناس، فيقذع هجوهم، ويقذف نساءهم ويهتك حرمهم، وكان أفاكاً نهاباً، لا يعدم متظلماً منه، وداعياً عليه، وذاكراً له بالسوء، وهو مستهوىءٌ بذلك جارٍ على غلوائه.

محنته

قال، وكان مع ذلك منقطعاً إلى سليمن بن الأمير عبد الرحمن بن معاوية، كثير المدح له. على أنه ما أخلى الأمير هشاماً من مدحه، وهو مع ذلك لا يسل سخيمته وحقده عليه، لانحطاطه في شعب سليمن أخيه، وبينهما من التنافس والمشاحة، ما لا شيء فوقه. وروي أن الذي هاج غضب هشام عليه، أن قال له الساعي عليه، قد عرض بك بقوله في مديح أخيك سليمن في شعر له فيه منه:

وليس مثل من بان سيل عرفاً ... يقلب مقلة فيها أعونه

وكان هشام أحول، فاغتاظ لذلك. وركب فيه من المثلة وركبه، وحقد عليه، إلى أن استدعاه إلى مدينة ماردة، وهشام يومئذ واليها في حياة الأمير أبيه، فخرج إليه أبو المخشبي من قرطبة، طامعاً في نايله، غير مرتاب بباطنه، فلما دخل عليه قال له يا أبا المخشبي، إن المرأة الصالحة التي هجوت ابنها فقذفتها، فأفحشت سبها، قد أخلصت دعاها لله في أن ينتقم لها منك، فاستجاب لها، وسلطني وتأذن بالاقتصاص لها على يدي منك، ثم أمر به فقطع لسانه، وسولت عيناه، وعولج من جراحه، فاستقل منها، وعاش زمناً ممثلاً به. فأما لسانه فانجبر بعيد وقت إلا قليلاً، واقتدر على الكلام إلا تلعثماً كان يعترضه، واستمر العمى، فعظم عليه مصابه، فكثرت في شكواه أشعاره، قال، ويذكر أن قصة أبي المخشبي في نبات لسانه، لما بلغت مالك بن أنس، أشار إليها في فتواه في التأني بدية اللسان طمعاً في نبتها، وقال يتأنى بالحكم عاماً، فإن نبت أو شيء منه، عمل في ديته بحسب ذلك، فقد بلغني أن رجلاً بالأندلس نبت لسانه أو أكثره بعد ما قطع، فأمكنه الكلام.

شعره

قالوا وبلغ الأمير عبد الرحمن بن معاوية صنيع ابنه هشام بمادحهم أبي المخشبي، فساءه وكتب إليه يعنفه، وأوصل أبا المخشبي إليه عند استيلايه بعد حين، فاعتذر إليه ورق له، وأنشده بعض ما أحدثه بعد، فكان لا يبين الإنشاد، فينشد له صبي كان قد علمه ودربه، فأنشده قصيدته التي وصف فيها عماه وأولها:

خضعت أم بناتي للعدا ... إذ قضى الله بأمر فمضا
ورأت أعمى ضريراً إنما ... مشيه في الأرض لمسٌ بالعصا
فبكت وجداً وقالت قولةً ... وهي حدا حلقت مني المدا
ففؤادي فرحٌ من قولها ... ما من الأدواء أس العما
وإذا نال العمى ذا بصرٍ ... كان حياً مثل ميت قد نعا
وكان للناعم المسرور لم يك ... مسروراً إذا لاقى الردا
عانى بالقرب وهنا طرب ... بين لج في الحما
.... كيف يعتاد الصبا من لا يرا
أبصرت مستبدلاً من طرفه ... فأنذا يسعى به حيث سعا
بالعصا إن لم يقده فإنه ... وسؤال الناس يمشي إن مشا
وإذا ركب دنوا كأن لهم ... هو حملاً في المهمة الخراف الصوا
لم يزل في كل مخشبي الردى ... يصطلي الحرب ويجتاب الدجا
امتطيناها سماناً بدناً ... فتركناها نضاءً بالفنا
وذريتي قد تجاورت بها ... مهمها فقراً إلى أهل الندا
قاصداً خير منافٍ كلها ... ومناف خيرٌ من فوق الثرا

وهي طويلة، ومن شعره في الوقيعة بأبي الأسود الفهري ، وكانت عظيمة من أعظم فتوحات الأمير عبد الرحمن:

ماذا تسايل عن مواقع معشر ... أودى بهم طلب الذي لم يقدر
رشد الخليفة إذا غووا فرماهم ... بالموبذي بالحزم والمتأزر
فغدا سليمن السماح عليهم ... كالليث لا يلوي على متعذر
عاداهم متقنعاً في مأزق ... في الموت من نجس العوارض الممطر
أما سليمن السماح فإنه جلى ... الدجا وأقام سيل الأصعر
وهو الذي ورث الندى أهل الندى ... ومحا دجنة يوم وادي الأحمر
بعد القتلى بالمخايض أصبحت ... جيفاً تلوح عظامها لم تقبر
فالليل فيها للذباب عرايسٌ ... ونهارها وقفٌ لنهس الأنسر
أفناهم سيفٌ مبيرٌ صارم ... في قسطلونة وبل بوادي الأحمر
هات عنك ما هربت مخافةً منه ... فقع يا ابن اللقيطة أو طر

وفاته

قال ابن حيان، قرأت بخط عبادة الشاعر، قال عمر أبو المخشبي بعد محنته الشنعاء حتى لحق دولة الأمير عبد الرحمن، فوالى بين مديح أربعة أمراء، ما بينه وبين جده عبد الرحمن بن معاوية الأمير الداخل. وتوفي بعد ذلك قريباً من تاريخ الثمانين والماية . وبعد عليه لحاق دولة الأمير عبد الرحمن لهذا التاريخ.

ومن الأصليين من ترجمة المحدثين والفقهاء والطلبة النجباء

ابن أبي زمنين المري

عيسى بن محمد بن أبي عبد الله بن أبي زمنين المري يكنى أبا الأصبغ من أهل البيرة.

حاله

نبيه القدر. وروى عن شيوخ بلده.

وفاته

توفي بعد الأربعمائة. قلت قد اعتذرت، وتقدم الاعتذار في إثبات من أثبته من هذا البيت في هذا الاختصار من هذا النمط. فلينظر هنالك إن شاء الله.

عيسى بن سعادة الأموي

عيسى بن محمد بن عيسى بن عمر بن سعادة الأموي لوشي الأصل، غرناطي الاستيطان والقراءة، يكنى أبا موسى، الشيخ الطبيب بالدار السلطانية.

حاله

من عايد الصلة، بقية أهل العلم، ونسيج وحده في لين الجانب وخفض الجناح، وحسن الخلق. وبذل التواضع، ممتع من معارف قديمة، بين طلب وتعليم، على حال تدين والتزام سنة، أقرأ الطب، وخدم به الدار السلطانية، وولي القضاء بلوشة بلده.

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي عبد الله الرقوطي المرسي ولازمه، وأخذ عن أبي الحجاج بن خلصون، وأدرك أمةً من صدور العلماء.

تواليفه

له تأليف كبير متعدد الأسفار سماه كتاب القفل والمفتاح في علاج الجسوم والأرواح، تضمن كثيراً من العلم الطبي، وما يتعلق به، رأيت أجزاءً من مسودته بيد ولده.

وفاته

توفي بغرناطة ليلة السبت الخامس عشر لجمادى الآخرة عام ثمانية وعشرين وسبعماية.

حرف الغين من الأعيان

ابن الأشقر

غالب بن أبي بكر الحضرمي من أهل غرناطة يكنى أبا تمام، ويعرف بابن الأشقر.

حاله

كان قايداً جزلاً مهيباً، مليح التجند، معروف الدربة والثقافة، مشهور الفروسية، ظريف الشكل، رايق الركبة، حسن الشيبة، صليب العود، مرهوب السطوة، ولي قيادة العسكر زماناً طويلاً، فوقع الإجماع على أهليته لذلك، تمييزاً للطبقات، وانتهاضاً بالخدمة، وإنفاذاً للعزمة، ومعرفة بالعوايد، واقتداراً على السهر في تفقد المسالح، واختبار المراصد، واختيار الحرس، وتنظيم المصاف، وإمساك السيقة ممن يرجع إلى حصيف رأيه، ويركن إلى يمن حنكته، ويعترف بحقه. لقي الجند منه ضغطاً لاضطلاعه باستخدامهم، وجعل العقاب من وراء تقصيرهم. فقد كان بعض نقبائه يحمل معه مقصاً لإيقاع المثلة بذقون مضيعي المسلحة أو متهيبي الملحمة. ولما أوقع بالسلطان أمير المسلمين أبي الوليد قرابته بباب داره بما هو مشهور، نمي عنه أنه اخترط سيفه. وكان ممن أثخن الوزير يومئذ جراحة لا يعلم ،

أحيرةً وغلطاً أم تواطأ وقصداً، فقد كان من مرج الناس يومئذ؛ وإعمال بعضهم السلاح في بعض ما هو معلوم، فعزل عن الخطة، وسئم خطة الخمول، ففقد مكانه من العنا، واضطر إليه.

وفاته

توفي بغرناطة عشية يوم الخميس الثاني والعشرين لشوال عام سبعة وعشرين وسبعماية، ودفن قرب باب إليبرة.

ومن المقرين

غالب بن عبد الرحمن بن غالب

بن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عطية بن خالد بن خفاف بن

أسلم بن مكتوم المحاربي أبو بكر

حاله

كان من أهل العلم والعمل، مقرياً فاضلاً، راوية، حج وروى، وكف بصره في آخر عمره.

مشيخته

قرأ القرآن بالسبع على أبي الحسن بن عبد الله الحضرمي، ودرس الفقه وناظر فيه، على سعيد بن خلف بن جعفر الكناني. وروى عن أبي علي الغساني، وعن أبيه عبد الرحمن بن غالب، وأبي عمر بن عبد البر الإمام الحافظ.

من روى عنه: حدث عنه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أبي الخصال، وأبو عبد الله بن عبد الرحيم القاضي، وعبد الله بن طلحة بن أحمد ابن عطية.

شعره

قال يحذر من أبناء الزمن:

كن بذي صايد مستأنساً ... وإذا أبصرت إنساناً ففر

إنما الإنسي بحرٌ ماله ساحل ... فاحذره إياك الغرر

واجعل الناس كشخص واحد ... ثم كن من ذاك الشخص حذر

وله رحمه الله:

كيف السلو ولي حبيب هاجر ... قاسى الفؤاد يسومني تعذيبا

لما ذرى أن الخيال مواصلي ... جعل السهاد على الجفون رقيبا

مولده

ولد سنة إحدى وأربعين وأربعمائة.

وفاته

توفي ليلة الجمعة لستٍّ بقين من جمادى الآخرة سنة ثماني عشر وخمسماية.

غالب بن حسن بن غالب

بن حسن بن أحمد بن يحيى

ابن سيدبونه الخزاعي يكنى أبا تمام.

أوليته وحاله

أصل سلفه من بونه من بلد إفريقية، واستوطن جده بالأندلس قرية زنيتة من وادي لستة شرقي الأندلس من عمل قسنطانية ، وملك فيها أموالاً عريضة. ولما ظهر سبطه ولي الله أبو أحمد شيخ المريدين بذلك الصقع، وظهرت عليه البركات، وشهدت بولايته الكرامات، غمرهم بركته، ونوهت بهم شهرته، إلى أن استولى العدو على تلك الجهات، بعد وفاة الشيخ رضي الله عنه، فهاجرت ذريته إلى غرناطة، بعد استيطانهم مدينة ألش ، وبنوا بالربض المعروف بربض البيازين واقتطعوا وامتطوا، واتخذوا دار إقامة، وانتشرت به نحلتهم الإرادية، وانضم إليهم من تبعهم من جالية أهل الشرق، وتقدم هذا الشيخ بعد، شيخاً ويعسوباً وقاضياً وخطيباً به، بعد خاله رحمه الله، فقام بالأعباء، سالكاً سنن الصالحين من أهل الجلد والجدة والقوة والرجولة، من الإيثار والمثابرة على الرباط، والحفوف إلى الجهاد، وكان مليح الشيبة؛ كثير التخلق، جم التواضع، مألفاً للغرباء، مبذول البشر، حسن المشاركة، رافضاً للتصنع، مختصر المطعم والملبس، بقية من بقايا الجلة، معتمداً في مجالس الملوك بالتجلة.

مشيخته

يحمل عن والده أبي علي، وعن خاله، وعن الخطيب أبي الحسن ابن فضيلة وغيرهم.

تواليفه

له تأليف في تحريم سماع اليراعة المسماة بالشبابة، وعلى ذلك درج جمهورهم.

مولده

في ذي القعدة من عام ثلاثة وخمسين وستماية.

وفاته

توفي في عاشر شوال من عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية. وكان الحفل في جنازته يشذ عن الوصف. ودفن بمقبرتهم .

غالب بن علي بن محمد اللخمي

الشقوري

من أهل غرناطة، يكنى أبا تمام.

حاله

كان من أهل الفضل والدماثة، حسن الخلق، وسيم الخلق، مليح الانطباع، مستطرف الأغراض، من بيت كسب وخيرية. رحل في شبيبته إلى المشرق، فحج، وقرأ الطب بالمارستان من القاهرة المعزية، وحذق العلاج على طريقة المشارقة، وأطرف بكثير من أخبارهم، وانتصب للمداواة ببجاية بعد مناظرة لها حكاية. وقدم على بلده، فنبه به قدره، واستدعى إلى باب السلطان فخدم به، ثم تحول إلى العدوة، فاتصل بخدمة ملكها السلطان أمير المسلمين أبي سعيد، مسوغاً ما شاء من قبول، ولطف محله عنده، لانطباعه ولين عريكته، وتأنيه لما يوافق غرضه من سبيل الفكاهة، وولي الحسبة بمدينة فاس، وأثرى وحسنت حاله. وكان مثالاً لأهل بلده، موصوفاً بالجود، وبذل المشاركة لمتغربيهم.

وله تواليف طيبة، كان لا يفتر عن الاشتغال بها؛ بحسب ما فتح له من الإدراك، فمنها نبيل ووبيل. ولما انتقل الأمر

إلى أمير المسلمين أبي الحسن، وصل حبل رعيه، طاوياً بساط الهزل في شأنه، واتصلت خدمته إياه إلى حين وفاته.
وفاته
توفي في أوايل عام أحد وأربعين وسبعماية بسبتة، عند حركة أميره المذكور إلى الجواز للأندلس برسم الجهاد، الذي محصه الله فيه بالهزيمة الكبرى.
مولده
حرف الفاء: الأعياء والكبراء

فرج بن إسمعيل بن يوسف بن نصر

الرئيس الجليل، أبو سعيد، وكان حقه أن يفرد له باب في الأمراء، لكنه الأبواب المتعددة الأسماء، نؤثر فيها الجمع والاختصار كما شرطنا.
أوليته
معروفة. وكان والده رحمه الله صنو أمير المسلمين الغالب بالله أبي عبد الله، وآثره بمدينة مالقة وما يرجع إليها، عند تصير الملك إليه أو بعده. وكان دونه في السن، فاستمرت أيامه بها إلى أن توفي رحمه الله: وتصير أمره إلى الرييس أبي محمد بن إشقيلولة، وتخللت ذلك الفتن، حسبما وقع الإلماع به وتصير أمرها إلى ملوك المغرب. ثم لما انجلت الحال عن عودتها إلى الملك النصري، ولى عليها الرييس أبا سعيد، ومكنه من ميراث سلفه بها، وهو كما استجمع شبابه، وعقد له على ابنته الحرة لباب الملك، فقام بأمرها خير قيام، وثبت لزلزال الفتنة حسبما هو مذكور في موضعه.
حاله

كان هذا الرييس نسيج وحده في الحزم والجزالة وفخامة الأحوال، مما يرجع إلى الفتية. ناغى السلطان ابن عمه في اقتناء العقار، وتخليد الآثار، فيما يرجع إلى الفلاحة والاعتمار والازدياد والاستكثار، وأربى عليه بإنشاء المراكب الكبار، فعظمت غلاته، وضاقت المسارح عن سائمته، وغصت الأهراء بحبوبه، وسالم الخرج دخل ماله، فبذ الملوك جدةً ويساراً، تقتحم العين منه ظاهراً ساذجاً، غفلاً من الزينة والتصنع، في طيه ظرف وذكاء وحنكة وحلاوة، جهورياً، مرسل عنان النادرة، باذلاً النصفة، مهيب السطا، خصيب المايدة، شهير الجلالة، بعيد الصيت. ولي مالقة عام سبعة وسبعين وستماية، فعانى بها الشدة والليان. حتى رسخت بها قدمه، وطالت لأهلها صحبته، وعظم بها قراره وعساكره، وأينعت غرسانه، ونمت متاجره، ونبنكت النعيم حاشيته، وأضيفت إليه الجزيرة الخضراء، فاتسعت العمالة، وانفسحت الخطة، إلى أن كان من تغلبه على مدينة سبتة، واستيلايه عليها، مما وقع الإلماع به في موضعه من هذا الكتاب، في شهر شوال عام خمسة وسبعماية، فساس رعيتها، وتملك جبالها، وشن الغارة على ما وراءها، وتملك القصر المضاف لها، ولم يزل نظره عليها، إلى أواخر ذي قعدة من عام ثمانية وسبعمائة، فصرف عنها، وجهل قدره، وأوغر صدره، وأوعز للولاة بالتضييق على حاشيته، فدعا بمالقة إلى نفسه في شهر شعبان من عام أحد عشر وسبعماية، وقدم لطلب الملك ولده إسماعيل، وسماه السلطان. ورتب له الألقاب، ودون اللواوين، فنزع إليه الجند، وانضافت إلى عمالته الحصون. ثم وقعت المهادنة، وأعقبتها المفاتنة، وكان من أمره ما وقع التنبيه على عيون منه في ذكر ولده.
نكبته

ولما استأصلت القطيعة محتجنه الراكد في مغابن الخزاين من لدن عام سبعة وسبعين وستماية، واستنفدت عتاده المطاولة، نظر لنفسه فوجه كاتبه الوزير أبا عبد الله بن عيسى، وعاقده على الخروج له عن مالقة، متعوضاً عنها بمدينة سلا من عمل ملك المغرب، وتم ذلك في شهر رمضان من عام ثلاثة عشر وسبعماية، وذاع خبره، وضاقت بأولياء انتزايه السبل، إذ تحققوا بإخفاق المسعى، وسقوط العشي بهم على سرحان من سلطانهم الراغبين عنه، فداخلوا ولده، المقدم الأمر، أبا الوليد، واتفق أمرهم على خلعه، ومعاجلة الأمر قبل تمامه، في..... من شهر رمضان، ركب الرييس رحمه الله في نفر من مماليكه المروقة إلى بعض بساتينه، فلما قضى وطره، وهم بالخروج عنه، اعترضه القوم عند بابه، فالتفوا به، وأشعروه غرضهم فيهن وجاءوا به إلى بعض القصور بظاهر البلد، فجعلوه به تحت رقبة، وقد بادر ولده القصبة، فاستولى عليها من غير ممانعة، لعدم استرابة ثقاته به، إلا ما كان من خاين يتولى القيام ببعض أبوابها هم بسده، فطاح لحينه، وتم لولده الاستبداد بالأمر، واستولى على النصب والذخيرة وباقي المال ، ونقل الرييس إلى معقل قرطبة، فلما خلص الأمر لولده، انتقل إلى معقل شلوبانية، فلم يزل به لا يبرح عن باب قصره، مرفها عليه إلى أن قضى نحبه.

وفاته

في الرابع عشر لشهر ربيع الأول من عام عشرين وسبعماية، توفي رحمه الله بشلوبانية، وجيء بجنازته محمولاً على رؤوس صدور الدولة ووجوه رجالها، متناغين في لباس شعار الحزن بما لم يتقدم به عهد، ودفن بمقبرة السبيكة، وولده أمير المسلمين واقف بإزاء لحده، مظهر الاكتراث لفقده، وعلى قبره الآن مكتوب نقشاً في الرخام البديع ما نصه:

هذا قبر علم الأعلام، وعماد دين الإسلام، جواد الأجواد، أسد الآساد، حامي الثغور وممهد البلاد، المجاهد في ذات الله حق الجهاد، شمس الملك وبدره، وعين الزمان وصدره، الكريم الأخلاق، الطاهر الذات والأعراق، الذي سار ذكره في الآفاق، وخلد من فضايله ما تتحلى به ظهور المنابر وبطون الأوراق، كبير الإمامة النصرية، وعظيم الدولة الغالبية، فرع الملك وأصله، ومن وسع الأنام عدله وفضله، مخلد الفخر الباقي على الأعصار، والعمل الصالح الذي ينال به الحسنى وعقبى الدار، بسلالته الطاهرة الكريمة المآثر والآثار، الإمام الرضي ناصر دين المختار، المنتخب من آل نصر ونعم النسب الكريم في الأنصار. الهمام، الأكبر، الأشهر، المقدم، المرحوم، الأطهر، أبو سعيد ابن الإمام الأعلى، ناصر دين الإيمان، وقاهر عبدة الصلبان، صنو الإمام الغالب بالله، ومجهز الجيوش في سبيل الله، سهام العدا، وغمام الندى، وضرغام الحروب، ذي البأس المرهوب، والجود المسكوب، بطل الأبطال، ومناخ الآمال، المجاهد، الظاهر، المقدس، المرحوم أبي الوليد بن نصر، قدس الله مضجعه، ورقاه إلى الرفيق الأعلى ورفعه. كان رضى الله عنه، وحيد عصره، وفريد دهره، علت في سماء المعالي رتبه، وكرم من أمير المسلمين صهره ونسبه، فلا يزاحم مكانه، ولا يداني منصبه. نفذت أحكامه في الشرق والغرب، ومضت أوامره في العجم والعرب، إلى أن استأثر الله به، فكانت وفاته ليلة الخميس الرابع عشر لشهر ربيع الأول من عام عشرين وسبعماية، وكان مولده يوم الجمعة الثامن لشهر رمضان المعظم من عام ست وأربعين وستماية، فسبحان الله الملك الحق، الباقي بعد فناء الخلق.

سلام على قبر المكارم والمجد ... مقام الرضى والفوز والبشر والسعد
مثابة إحسان ومعهد رحمةٍ ... ومستودع العليا والسر والعد
فيا أيها القبر الذي هو روضة ... تفوح شذى أذكى من المسك والند
لك الفضل إذ حملت أرضى أمانة ... تودي بإكرام إلى جنة الخلد
ففيك من الأنصار من آل نصرهم ... همام كريم الذات والأب والجد

قسم أمير المسلمين ابن عمه ... ونخبة بيت الملك واسطة العقد
وحامي ذمار الدين ناصره أبو سعيد ... عماد الملك في الحل والعقد
لبيك أمير العدوتين بواجب ... من الحق أبناء الوغى وبنو الرفد
وتبكي بلاد كان مالك أمرها ... أفاض بها النعماء سابغة الورد
أقام بها العدل والفضل سنة ... بإنصاف مستعد وإسعاف مستجد
وتبكي أسى ملء العيون لفقده ... وبالحق لو فاضت نفوس من الوجد
فيا أيها المولى الذي لمصابه ... بدا الحزن حتى في المطهمة الجرد
لك الله ما أعلى مكارمك التي ... تسير بها الركبان في الغور والنجد
وحسبك أن أورثت خير خليفة ... وأبديت منه للورى علم الرشد
إمام هدىً أعماله لله رحمة ... تنال بها الزلفى من الصمد الفرد
عليك من الرحمن أزكى تحية ... توفيك من إحسانه غاية القصد
فرج بن محمد بن محمد

بن يوسف بن نصر

الأمير أبو سعيد ولد أمير المسلمين ثاني الملوك النصريين ابن الغالب بالله.
حاله

كان أميراً جليلاً جميلاً، بلغ الغاية في حسن الصورة، وفضل الفروسية على صغر سنه، وكان زناتي الشكل والركض والآلة، عروس الميدان، وحلس الخيل، يؤثر من شجاعته، وثبات موقفه، على الغرارة، وعدم الحنكة، أنه أنشب في اتباع خنزير ضخم الكراديس، عظيم الناب، عريض الغبطة، طرح نفسه عليه في ضحضاح، لفضل شجاعته، فكبا به الطرف، واستقبله ذلك الخنزير الفحل صامداً، فاستقل، زعموا، من السقطة، وقد اخترط سيفاً عضباً كان يتقلده، وسبقه بضربة تحت عينيه، أبانت فكيه، وأطارت محل سلاحه، وخالطه مع ذلك أعزل، فلم يغن، وتلاحق به فرسانه، وقد يئسوا من خلاصه، فرأوا ما بهتوا له، وبشر بذلك أبوه، فملأ عينه قرة، وكان يولع منه بفرع ملك، وصقر بيت، وسيف دولة. أسف بذلك ولي العهد كبيره، فاعتبط لأيام من تصير الأمر إليه.
وفاته

توفي مغتالاً في الأول من عام اثنين وسبعماية.
مولده
عام ستة وثمانين وستماية.
فرج بن محمد بن يوسف

بن محمد بن نصر

الأمير أبو سعيد ولي عهد السلطان الغالب بالله

حاله

كان هذا الأمير فاضلاً ذكياً، من أهل الأدب والنبل، قام الأدب في مدته على ساق، ولاه أبوه الغالب بالله عنده، وأمله لمكانه لو أن الليالي أمهلته

شعره

وأدبه مما ينسب إليه بالأندلس، وهو عندي ما يبعد قوله:

أيا ربة الحسن التي سلبت منك ... على أي حال كنت لابد لي منك

فإما بذل وهو أليق بالهوى ... وإما بغر وهو أليق بالملك

وكان ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الحكيم رحمه الله يقول؛ أخبرني كاتب هذا الأمير، وهو الوزير أبو عبد الله بن القصيرة الإشبيلي بتونس قال، نظم الأمير بيتاً وطلبني بإجازته، وأن يكون المنظوم مشوب النسيب بالفخر. والبيت:

أرقت لبرق بالسبيكة لا الخيف ... وإن كان فيه ما أحاذر من حتف

فقلت مجيزاً

تجور على قلبي لواحظ غادة ... بأنفذ من عزمي وأقطع من سيف

ولي هزة نحو الوصال أو اللقا ... كهزة آبائي الكرام إلى الضيف

أفيض وفيضٌ في الجفون وبالحشا ... فأشكو بحالي في الشتاء وفي الصيف

لعمري لقد وفى العلا حق مفخري ... لو أني في الدنيا مرادي استوف

قال واستحسن ذلك ووقع عليه كاتبه يعني بذلك نفسه

وفاته

عصر يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين وستماية، ابن خمس وعشرين سنة.

ومن الكتاب والشعراء

ابن خاقان

الفتح بن علي بن أحمد بن عبيد الله الكاتب المشهور من قرية تعرف بصخرة الواد من قرى قلعة يحصب، يكنى أبا نصر. ويعرف بابن خاقان.

حاله

كان آية من آيات البلاغة، لا يشق غباره، ولا يدرك شأوه، عذب الألفاظ ناصعها، أصيل المعاني وثيقها، لعوباً بأطراف الكلام، معجزاً في باب الحلي والصفات، إلا أنه كان مجازفاً، مقدوراً عليه، لا يمل من المعاقرة والقصف، حتى هان قدره، وابتذلت نفسه، وساء ذكره، ولم يدع بلداً من بلاد الأندلس إلا دخله، مسترفداً أميره، وواغلاً على عليته. قال الأستاذ في الصلة وكان معاصراً للكاتب أبي عبد الله بن أبي الخصال، إلا أن بطالته أخلدت به عن مرتبته. وقال ابن عبد الملك، دخل يوماً إلى مجلس قضاء أبي الفضل عياض مخمراً، فتبسم بعض حاضري المجلس رائحة الخمر، فأعلم القاضي بذلك، فاستثبت، وحده حداً تاماً، وبعث إليه بعد أن أقام عليه الحد، بثمانية دنانير وعمامة. فقال الفتح حينئذ لبعض أصحابه، عزمت على إسقاط اسم القاضي أبي الفضل من كتابي الموسوم بقلايد العقبان قال، فقلت لا تفعل وهي نصيحة، فقال، وكيف ذلك، فقلت له، قصتك معه من الجايز أن تنسى، وأنت

تريد أن تتركها مؤرخة، إذ كل من ينظر في كتابك يجدك قد ذكرت فيه من هو مثله ودونه في العلم والصيت، فيسل عن ذلك، فيقال له اتفق معك كيت وكيت فيتوارث العلم عن الأكابر الأصاغر. قال، فتبين له ذلك، وعلم صحته وأقر اسمه

وحدثني بعض الشيوخ، أن سبب حقده على ابن باجة أبي بكر، آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس، ما كان من إزرايه به، وتكذيبه إياه في مجلس إقراية، إذ جعل يكثر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس، ويذكر الفخر بذلك ، ووصف حلياً، وكانت تبدو من أنفه فضلة خضراء اللون. زعموا، فقال له، فمن تاك الجواهر إذاً الزمردة التي على شاربك، فثلبه في كتابه، مما هو معروف في الكتاب. وعلى ذلك فأبو نصر نسيج وحده، غفر الله له.

مشيخته

روى عن أبوي بكر بن سليمن بن القصيرة، وابن عيسى بن اللبانة، وأبي جعفر بن سعدون الكاتب، وأبي الحسن بن سراح، وأبي خالد بن مستقور، وأبي الطيب بن زرقون، وأبي عبد الله بن خلصة الكاتب، وأبي عبد الرحمن بن طاهر، وأبي عامر بن سرور، وأبي محمد بن عبدون، وأبي الوليد بن حجاج، وابن دريد الكاتب.

تواليفه

ومصنفاته شهيرة منها قلايد العقبان، ومطمح الأنفس. والمطمح أيضاً. وترسيله مدون، وشعره وسط، وكتابته فايقة.

شعره

من شعره قوله، وثبت في قلايده، يخاطب أبا يحيى بن الحجاج:

أكعبة علياء وهضبة سؤدد ... وروضة مجد بالمفاخر تمطر
هنيئاً لمن زار نورك أفقه ... وفي صفحتيه من مضايك أسطر
وإني لخفاق الجناحين كلما ... سرى لك ذكر أو نسيم معطر
وقد كان واشٍ هاجنا لتهاجر ... فبت وأحشائي جوى تتفطر
فهل لك في ودٍ زوى لك ظاهراً ... وباطنه يندى صفاءً ويقطر
ولست بعلق يبع بخساً وإنني ... لأرفع أعلاق الزمان وأخطر

فروجع عنه بما ثبت أيضاً في قلايده مما أوله:

ثنيت أبا نصر عناني وربما ... ثنت عزمة السهم المصمم أسطر

نثره

ونثره شهير، وثبت له من غير المتعارف من السلطانيات ظهيراً كتبه عن بعض الأمراء لصاحب الشرطة، ولا خفاء بإدلاله وبراعته:

كتاب تأكيد اعتناء، وتقليد ذي منة وغناء، أمر بإنفاذه فلاه، أيده الله، لفلان بن فلان صانه الله، ليتقدم لولاية المدينة، بفلانة وجهاتها، ويصرخ ما تكاثف من العدوان في جنباتها، تنويهاً أحظاه بعلائه، وكساه رايق ملائه، لما علمه من سنايه، وتوسمه من غنايه، ورجاه من حسن منابه، وتحققه من طهارة ساحته وجنابه، وتيقن أيده الله، أنه مستحق لما ولاه، مستقلٌ بما تولاه، لا يعتريه الكسل، ولا يثنيه عن إمضاء الصوارم والأسل، ولم يكل الأمر منه إلى وكل، ولا ناطه مناط عجز ولا فشل، وأمره أن يراقب الله تعالى في أوامره ونواهيه، وليعلم أنه زاجره عن الجور وناهيه؛

وسايله عما حكم به وقضاه، وأنفذه وأمضاه، يوم لا تملك نفسٌ لنفس شيئاً، والأمر يومئذ لله. فليتقدم لذلك بحزم لا يحمد توقده، وعزم لا ينفد تفقده، ونفس مع الخير ذاهبة، وعلى سنن البر والتقوى راكبة، ويقدم للاحتراس من عرف اجتهاده، وعلم أرقه في البحث وسهاده. وحمدت أعماله، وأمن تفريطه وإهماله، ويضم إليهم من يحذو حذوهم، ويقفو شأوهم، ممن لا يستراب بمناحيه، ولا يصاب خلل في ناحية من نواحيه، وأن يذكي العيون على الجناة، وينفي عنها لذيذ السنات، ويفحص عن مكامنهم، حتى يغص بالروع نفس آمنهم، فلا يستقر بهم موضع، ولا يقر منهم مخب ولا موضع، فإذا ظفر منهم بمن ظفر، بحث عن باطنه، وبث السؤال في مواضع تصرفه ومواطنه، فإن لاحت شبهة أبداها الكشف والاستبراء وتعداها للبغي والافتراء، نكله بالعقوبة أشد نكال، وأوضح له منها ما كان ذا إشكال، بعد أن يبلغ أناه، ويقف على طرف مداه، وحد له ألا يكشف بشرة إلا في حد يتعين، وإن جاءه فاسق أن يتبين، وأن لا يطمع في صاحب مال موفور، وأن لا يسمع من مكشوف في مستور، وأن يسلك السنن المحمو، وينزه عقوبته من الإفراط، وعفوه من تعطيل الحدود. وإذا انتهت إليه قصة مشكلة أخرها إلى غده، فهو على العقاب أقدر منه على رده، فقد يتبين في وقت ما لا يتبين في وقت، والمعاجلة بالعقوبة من المقت، وأن يتغمد هفوات ذوي الهيآت، وأن يستشعر الإشفاق، ويخلع التكبر، فإنه من ملابس أهل النفاق، وليحسن لعباد الله اعتقاده، ولا يرفض زمام العدل ولا مقاده، وأن يعاقب المجرم قدر زلته، ولا يعتز عند ذلته، وليعلم أن الشيطان أغواه، وزين له مثواه، فيشفق من عثاره، وسوء آثاره، وليشكر الله على ما وهبه من العافية، وأكسبه من ملابسها الضافية، ويذكره جل وتعالى في جميع أحواله، ويفكر في الحشر وأهواله، ويتذكر وعداً ينجز فيه، ووعيداً يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً. والأمير أيده الله، وليٌّ له ما عدل وأقسط، وبريء منه إن جار وقسط. فمن قرأه فليقف عند حده ورسمه، وليعرف له حق قطع الشر وحسمه، ومن وافقه من شريف أو مشروف، وخالفه في شيء منكر أو أمرٍ بمعروف، فقد تعرض من العقاب لما يذيقه وبال خبله، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله. وكتب في كذا.

وفاته

بمراكش ليلة الأحد لثمان بقين من محرم من عام تسع وعشرين وخمسماية، ألقي قتيلاً ببيت من بيوت فندق لبيب أحد فنادقها، وقد ذبح وعبث به، وما شعر به إلا بعد ثلاث ليال من مقتله.

ومن المقرين والعلماء

فرج بن قاسم بن أحمد

بن لب التغلبي

من أهل غرناطة، يكنى أبا سعيد.

حاله

هذا الرجل من أهل الخير والطهارة، والزكا والديانة، وحسن الخلق. رأس بنفسه، وحلي بفضل ذاته، وبرز بمزية إدراكه وحفظه، فأصبح حامل لواء التحصيل عليه بدار الشورى، وإليه مرجع الفتوى ببلده، لغزارة حفظه، وقيامه على الفقه، واضطلاعه بالمسائل، إلى المعرفة بالعربية واللغة، والمران في التوثيق، والقيام على القراءات، والتبريز في التفسير، والمشاركة في الأصلين والفرايض والأدب. جيد الحظ، ينظم وينثر. قعد ببلده للتدريس على وفور

المسجد. ثم استقل بعد، وولي الخطابة بالمسجد الأعظم، وأقرأ بالمدرسة النصرية، في ثامن وعشرين من رجب عام أربعة وخمسين وسبعماية؛ معظماً، عند الخاصة والعامة، مقروناً اسمه بالتسويد. وهو الآن بالحالة الموصوفة.

مشيخته

قرأ على الخطيب للقرى، شيخنا أبي الحسن القيجاطي، والخطيب الصالح الفاضل أبي إسحق بن أبي العاصي، والقاضي العدل المحدث العالم أبي عبد الله بن بكر، ولازم الشيخ الفقيه أبا عبد الله البياني، وأخذ العربية عن شيخ العصر أبي عبد الله بن الفخار، وروى عن الشيخ الرحال الراوية أبي عبد الله محمد بن جابر بن محمد القيسي الوادي آشي وغيرهم.

شعره

من شعره في غرض النسيب قوله:

خلوا للهوى من قلبي اليوم ما أبقا ... فما زال قلبي للهوى كله رقا
دعوا القلب يصلي في لظى الوجد ناره ... فنار الهوى الكبرى وقلبي هو الأشقا
سلوا اليوم أهل الوجد ما ذابه لقوا ... فكل الذي يلقون بعض الذي ألقا
فإن كان عبدٌ يسل العتق مالكاً فلا ... ابتغى من مالكي في الهوى عتقا
بدعوى الهوى يدعو أناس وكلهم ... إذا سئلوا طرق الهوى جهلوا الطرقا
فطرق الهوى شتى ولكن أهله ... يجوزون في يوم الرهان بها سبقا
فكم جعت طرق الهوى بين أهله ... وكم أظهرت عند السرى بينهم فرما
بسيما الهوى تسمو معارف أهله ... فحيث ترى سيما الهوى فاعرف الصدقا
فمن زفرة تزجي سحايب زفرة ... إذا زفرة ترقى فلا عبرة ترقا
إذا سكتوا عن وجدهم أغرت بهم ... بواطن أحوال وما عرفت نطقا

ومن منظومه في وداع شهر رمضان المعظم قوله:

أأزمعت يا شهر الصيام رحيلا ... وقاربت يا بدر التمام أفولا
أجدك قد جدت بك الآن رحلة ... رويدك أمسك للوداع قليلا
نزلت فأزمعت الرحيل كلما ... نويت رحيلاً إذ نويت نزولا
وما ذاك إلا أن أهلك قد مضوا ... نافنوا فأبصرت الديار طلولا
وقفت بها من بعدهم فعل نادى ... لربع خلا يبكي عليه خليلا
لقد كنت في الأوقات ناشئة التعني ... أشد به وطساً وأقوم قيلا
ولما انجلى وجه الهدى فيك مسفراً ... سدلت على وجه الضلال سدولا
متى ارتاد مرتادٌ مقيلاً لعثرة ... أتاك فألفى للعثار مقيلا
وناديت فينا صحبة الخير أقبلوا ... بإقبالكم حزتم لدي قبولا
لقد كنت لما واصلوك ببرهم ... حفياً بهم براً لهم ووصولا
أقاموا لدين الله فيك شعايراً ... هلكتم إلى دار السلام سبيلا
فكم أطلقوا فيها أعنة جدهم ... وكم أرسلوا فيها الدموع همولا

دموعاً أثارت سحها ريح زفرة ... فسالت وخدت في الخدود مسيلا
لديك أيا شهر الهدى قصروا المدى ... فكم لك في شأو الفضايل طولا
دلايل تشريف لديك كثيرة ... كفى بكتاب الله فيك دليلا
ومن الصوفية والصلحاء

فضل بن محمد بن علي

بن فضيلة المعافري

يكنى أبا الحسن من أهل الشرق الأندلسي، أبو الحسن الولي الصالح الصوفي.
حاله
كان ولياً فاضلاً زاهداً، على سنن الفضلاء، وأخلاق الأولياء، غزير العلم، كثير العمل، دايم الاعتبار، مشهور الكرامة، مستجاب الدعوة، صوفياً محققاً، انتهت إليه الرياسة في ذلك على عهده. يدل على ذلك كلامه على أغراض القوم، وكشفه عن رموزهم وإشاراتهم، أديباً بليغاً، كاتباً مرسلاً، لا يشق غباره في ذلك. قايماً على تجويد كتاب الله، عالي الرواية، أسن وتناهى وازدلف إلى التسعين، ممتعاً بجوارحه، وولي الخطابة والإمامة بالمسجد الأعظم، أقرأ به مدة كبيرة.

قال ابن الزبير في صلته: كان جليلاً في ذاته وخلقه ودينه، معدوم النظير في ذلك، مشاركاً في فنون من العلم، أديباً بارعاً، كاتباً بليغاً، فصيح القلم، متقدماً في ذلك، متصوفاً، سنياً، ورعاً، معدوم القرين في ذلك، متواضعاً، مقتصداً في شئونه كلها، جارياً في خلقه وأفعاله وأحواله، على سنن السلف، أحفظ الناس للسانه وجوارحه وأصدقايه، وأسلمهم عنياً ومشهداً، وأشدهم تمسكاً بهدي السلف الصالح، مؤثراً للخمول، سريع العبرة، شديد الخوف لله سبحانه، تالياً لكتاب الله، كثير الصوم، خفيف القدم في حوايج أصحابه، مشاركاً لهم بأقصى ما يمكنه. له تقاييد جوابية عما كان يسئل عنه في الفن الذي كان يؤثره، محرراً ما يلزم التقييد به من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، غير منافر لمذهب الأشعرية، مالكي المذهب، له اختيارات يسيرة لا يفتى بها، ولا تتعدى علمه.
مشيخته

روي عن أبي تمام غالب بن حسن بن أحمد بن سيدبونه، وعن أبي العباس أحمد بن محمد بن شهيد، وأخذ أيضاً عن أبي بكر بن محرم، وأجاز له أبو بكر بن المرابط، وقرأ على القاضي أبي القاسم بن يحيى بن ربيع، والقاضي أبي عيسى بن أبي السداد المرسي، وغيرهم.
من أخباره
وكراماته شهيرة، فمنها أن رجلاً استفتاه، فأفتاه بجواب لم يحصل له به الإقناع، فرأى في عالم النوم، وإثر سؤاله إياه، رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول له، الحق ما قال لك فلان في المسألة. قال الحاكي، فبكر إليه الرجل من الغد، فلما أقبل عليه بموضع إقرايه، قال له، ألم ترد أن تستفتي يا أبا فلان إلا من رأس العين، فبهت الرجل. وأحواله شهيرة.
مولده

ولد عام سبعة وستماية.

وفاته

في الثامن عشر من محرم عام تسعة وتسعين وستماية. ودفن بمقبرة ربض البيازين مع قومه من صلحاء الشرق، وكانت جنازته مشهودة.

ومن العمال الأثرا

فلوج العلج

مولى يحيى بن غانية.

حاله

كان فلوج شهماً شجاعاً، مهيباً حازماً، نال من مولاه حظوة، واستعان به على أموره المهمة. وجرى على يده إغرام أهل قرطبة، وانطلقت على أموالهم يده، وأثرى وجمع مالاً دبرا من الصامت والذخيرة عظيماً.

نكبته

وكان يحيى بن غانيه قد ولاه حصن بني بشير، فثقفه وحصنه، ونقل إليه أمواله ومتاعه، وذخيرته. ولما توفي مولاه، لحق به وملك أمره، واستعان بجماعة من النصارى، ثم بدا له لضعف رأيه، وسوء تدبيره، أن ألقى بيده إلى ابن أخي مولاه إسحق بن محمد بن غاليه، فأناب ولحق به، معتذراً عن توقفه، فقبض عليه وصفده، وعرض عليه العذاب، وأسكنه في تابوت، باطنه مسامير، لا يمكنه معها التصرف، وأجاعه بمرأى من الطعام بمطبخه، إلى أن مات جوعاً وألماً. وهو مع ذلك لا يطعمه في شيءٍ من المال. وتخلف بالحصن رجلاً من جهة سرقسطة، يعرف بابن مالك، ويكنى أبا مروان. فلما ذاع خبر القبض عليه، بادر الموحدون الذين بلوشة، فتغلبوا عليه، واستولوا على ما كان به من مال وذخيرة، ووجدوا فيه من أنواع الثياب والحلي والذخيرة، كل خطير عظيم، وشدوا على ابن مالك في طلب المال فلم يجدو عنده شيئاً. إلى أن فدى نفسه منهم، بمال كبير. فمضى فلوج على هذا السبيل.

ومن المقربين والعلماء

قاسم بن عبد الله

بن محمد الشاط الأنصاري

نزيل سبتة، وأصله من بلنسية، يكنى أبا القاسم. قال، والشاط إسم لجدي، وكان طوالاً فجرى عليه الاسم.

حاله

نسيج وحده في إدراك النظر، ونفوذ الفكر، وجودة القريحة، وتسديد الفهم، إلى حسن الشمايل، وعلو الهمة، وفضل الخلق، والعكوف على العلم، والاقتصار على الآداب السنية، والتحلي بالوقار والسكينة. اقرأ عمره بمدرسة سبتة، الأصول والفرايض، متقدماً، موصوفاً بالأمانة. وكان موفور الحظ من الفقه، حسن المشاركة في العربية، كاتباً، مرسلاً، ريان من الأدب، ذا مماسة في الفنون، ونظر في العقليات، ضرورة لم يتزوج، ممن يتحلى بطهارة وعفاف.

وقال في المؤتمن كان مع معارفه، عالي الهمة، نزيه النفس، ذا وقار وتؤدة في مشيه ومجلسه، يشاب وقاره بفكاهة

نظيفة، لا تنهض إلى التأثير في وقاره، ظريف الملبس، يخضب رأسه بالحنا على كبره.

مشيخته

قرأ بسبتة على الأستاذ الكبير أبي الحسن بن أبي الربيع وبه تأدب، وعلى أبي بكر بن مشليون، وعلى الحافظ أبي يعقوب المحاسبي، وعلى الطبيب أبي عبد الله محمد بن علي بن أبي خالد العبدري الأبدي، وعلى أبي الحسن البصري، وعلى خاليه أبي عبد الله محمد وأبي الحسن إبني الطرطاني، وأجازه أبو القاسم بن البرا، وأبو محمد بن أبي الدنيا، وأبو العباس بن علي الغماز، وأبو جعفر الطباع، وأبو بكر بن فارس، وأبو محمد الأنباري، وغيرهم. وأخذ عنه الجملة من أهل الأندلس من شيوخنا كالحكيم الأستاذ أبي زكريا بن هذيل، وشيخنا أبي الحسن بن الجياب، وشيخنا أبي البركات، والقاضي أبي بكر بن شبرين، وقاضي الجماعة أبي القاسم الحسني الشريف، والوزير أبي بكر بن ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم، والقاضي أبي القاسم بن سلمون، وغيرهم.

شعره

وكان يقرض أبياتاً حسنة من الشعر، فمن ذلك قوله يذيل أبياتاً لأبي المطرف بن عميرة وهي:

فضل الجمال على الكمال بخده ... والحق لا يخفى على من وسطه

عجباً له برهانه بشروطه ... معه فما مطلوبه بالسفسطه

علم التباين في النفوس وإنها ... منها مفرطة وغير مفرطة

فيه رأت وجه الدليل وفرقه ... أصغت إلى الشبهات فهي مورطة

فأراد جمعها معاً في حكمة ... هذي بمنتجة وذي بمغلطة

ومن شعره قوله:

وإني سلكت من انقباضي مسلكاً ... وجريت من صمتي على منهاج

وتركت أقوال البرية جانباً ... كي لا أميز مادحاً من هاج

دخوله غرناطة

ورد على غرناطة عند تصير سبتة إلى الإيالة النصرية مع الوافد من أهلها ببيعة بلدهم، فأخذ عنه بها الجملة، ثم انصرف إلى بلده. قال شيخنا أبو البركات، وأنشدنا لنفسه:

قلت يوماً لمن اتخذت هواه ... ملةٌ قد تبعتها وشريعة

لم تأب الوصال وهو مباح ... وتسوم المحب سوء القطيعة

قال إني خشيت منك ملالاً ... فتركت الوصال مد ذريعة

وأنشدنا:

وغزال أنس سل من ألحاظه ... سيفاً أراق دم الفؤاد بسله

وبخده من ذلك أعدل شاهد ... يقضي بأن الفتك به من فعله

مالي أطالبه فيدحض حجتي ... ودمي يطل وشاهدي من أهله

وأنشدنا الفقيه أبو القاسم الزقاق، قال أنشدنا الأستاذ أبو القاسم الشاط، وقد خرجنا معه مشيعين إياه في انصرافه عن غرناطة آيباً إلى بلده:

يا أهل غرناطة إني أودعكم ... ودمع عيني من جراكم جار

تركت قلبي غريباً في دياركم ... عساه يلقى لديكم حرمة الجار

تواليفه

منها أنوار البروق في تعقب مسايل القواعد والفروق. وغنية الرابض في علم الفرايض. وتحرير الجواب في توفير الثواب. وفهرسة حافلة. وكان مجلسه مألفاً للصدور من الطلبة، والنبلاء من العامة، حدثني شيخنا القاضي الشريف أبو القاسم، قال، كان يجلس عند رجل خياط من أهل سبتة، يعرف بالأجعد من العامة، فأخذ يوماً يتكلم عن مسألة، فقال متمثلاً كما تقول الأجعد الخياط فعل كذا، ثم التفت معتذراً يتبسم وقال، أتمثل بك، فقال الأجعد بديهة، إذاً يا سيدي أعتق عليكم، إشارة إلى قول الفقهاء، العبد يعتق على سيده، إذا مثل به فاستظرف قوله.

مولده

في ذي قعدة من عام ثلاثة وأربعين وستماية بمدينة سبتة.

وفاته

توفي بها في آخر عام ثلاثة وعشرين وسبعماية، وقد استكمل الثمانين.

ابن جابر

قاسم بن عبد الكريم بن جابر الأنصاري من أه غرناطة، يكنى أبا محمد، ويعرف بابن جابر.

حاله

كان رحمه الله من جلة أهل العلم والفضل، حسن الأخلاق، مليح الحديث، عذب الفكاهة، لطيف الحاشية، على دين والتزام سنة. رحل إلى المشرق، فلقي العلماء، وأخذ عنهم، وكلف بعلم الجدل، فقرأه كثيراً، وبمر فيه. وورد على غرناطة من رحلته، فأقرأ بها الأصول وغيرها من جدل ومنطق وفقه.

مشيخته

قرأ بغرناطة على الخطيب ولي الله أبي الحسن بن فضيلة، والأستاذ خاتمة المقريين أبي جعفر بن الزبير، وولي القضاء بسطة، ثم كلف بالإقراء وعكف عليه، فلم ينتقل عنه.

من أخذ عنه: أخذ عنه كراسة الفخر المسماة بالآيات البينات، وكان قايماً عليها، جملةٌ من شيوخنا، كالأستاذ التعاليمي أبي زكريا بن هذيل، والأستاذ المقري أبي عبد الله بن البياني.

شعره

وله شعر أنشدنا الشيخ أبو القاسم بن سلمون، قال أنشدنا في شيخنا ابن جميل قوله:

إن أطلع الشرق شمسٌ دنيا ... قد أطلع الغرب شمس دين

وبين شمس وبين شمس ... ما بين دنيا وبين دين

مولده

ولد بغرناطة عام تسعة وستين وستماية.

وفاته

توفي بها في جمادى الآخرة أو رجب من عام أربعة عشر وسبعماية.

ابن درهم

قاسم بن يحيى بن محمد الزروالي يكنى أبا القاسم، ويعرف بابن درهم، ما لقي أصله من جبال تاغسي، ودخل غرناطة وقرأ بها.

حاله

من تذييل صاحبنا القاضي أبي الحسن، قال فيه: كان رحمه الله واحد زمانه، ينبوع الحكمة، يتفجر من لسانه، وعنوان الولاية على طيلسانه. ومن عايد الصلة: كان رحمه الله علماً من أعلام الزهد والورع والديانة، والتقلل من الدنيا، والعكوف على تجويد كتاب الله وإقرايه، منقطع القرين فيه، كثير المناقشة والتحقيق، يرى أن ليس في الأرض من يحكم ذلك حق إحكامه، ما لم يأخذه.

مشيخته

قرأ على جملة من حملة كتاب الله بالمشرق والمغرب والأندلس، وعني بذلك. ثم لم يعتمد منهم إلا على الأستاذ أبي إسحق الغافقي بسبتة، والخطيب أبي جعفر بن الزيات ببلش من الأندلس، واستمرت حاله على سبيلها من الزهد والانقباض والتنطع، والإغراق في الصلاح، والشذوذ في بعض السجايا إلى أن توفي.

بعضٌ من نوادره مع اخشيشانه: حدثني القاضي أبو الحسن بن الحسن، أن بعض الطلبة المتسكين قال له، أتيتك أقرأ عليك، فأستخير الله، ثم أتاه فقال قد استخرت، وهم بالقراءة، فقال له الشيخ. إمسك حتى أستخير أنا الله، في قرائتك علي، فقال الطالب، وهذا عمل بر، فقال له الحجة عليك. فانفصل عنه. ثم عاد إليه يسل منه القراءة، فقال، يا بني ظهر لي أن لا تقرأ علي، فانصرف.

من أخباره في الكرامة

، قال لي المذكور، وقد أزمعت السفر إلى ظاهر طريف مع جمع المسلمين، أنك إن سافرت يا ولدي، تقاسي مشقة عظمى إن سبق القدر بحياتك، والله يرشدك، وقد كنت شرعت في ذلك مع رفقائي. وفي سحر ليلة اليوم، الذي انهزم فيه المسلمون، رأيته في النوم يقول لي منكراً علي، قلت لك لا تسافر يكررها، فاستيقظت وأوقع الله بقلبي الرجوع إلى الجزيرة، لآراب أقضيها، فما بلغ زوال الشمس من اليوم، إلا ومقدمة الفل على أطواق البلد في أسوإ حال.

وفاته

توفي ببلدة مالقة خامس صفر من عام خمسين وسبعماية في وقيعة الطاعون ، توفي وآخر كلامه، رزقنا الله عملاً صالحاً يقربنا إليه زلفى، وجعلنا ممن يمر على عقبتي الدنيا والآخرة مرور أهل التقوى.

من الكتاب والشعراء

قرشي بن حارث

بن أسد بن بشر بن هندي بن المهلب بن القاسم ابن معاوية بن عبد الرحمن

الهمداني

حاله

هو أعرق الناس في الشعر، لأن جده المهلب كان شاعراً، وولده هندي كذلك، وأسد وحارث وقرشي فهم شعراء سنة على نسق، ويدل شعرهم، على شرف نفوسهم، وبعد هممهم.

شعره

قال أبو القاسم الغافقي، من شعره قوله في هاشم بن كعب التميمي من أنجد الفرسان، قتل في يوم، خمسة من أنجاد المولدين:

هجرت القوافي والظبا الأوانسا ... ودعت لذاتي نعم واللواعسا

ورعت فؤادي بالمشيب عن الصبا ... وأصبحت عن عهد الغواية يائسا

أبا خالد ما زلت مذ كنت يافعاً ... لكل سنات المكارم لابسا

فما حملت أنثى كمثلك سيداً ... ولا حملت خيلٌ كمثلك فارسا

الورسيدي

قاسم بن محمد بن الجد العمري يكنى أبا القاسم، ويعرف بالورسيدي، من أهل ألمرية، وتكرر وروده على غرناطة.

حاله

قال شيخنا أبو البركات، كان حسن الأخلاق، سليم الصدر، بعيداً عن إذاية الناس بيده أو لسانه بالجملة، له خط لابأس به، ومعرفة بالعدد، وسلك الطريقة الزمامية، وله حظ من قرض الشعر. وجرى ذكره في الإكليل بما نصه: من أيمة أهل الزمام، خليق برعي النمام، ذو حظ كما تفتح زهر الكمام، وأخلاق أعذب من ماء الغمام. كان ببلده محاسباً، في لجة الأعمال راسباً، صحيح العمل، يلبس الطروس من براعته أسنى الحلل.

شعره

قال يمدح المقام السلطاني:

أرى أوجه الأيام قد أشرقت بشرا ... فقل لي رعاك الله ما هذه البشرا

وما بال أنفاس الخزامى تعطرت ... فأرجت الأرجاء من نفحها عطرا

ونقبت الشمس المنيرة وجهها ... قصوراً عن الوجه الذي أخجل البدرا

وما زالت بأغصان الرجال أريحية ... كما عطفت أعطافها تنثني شكرا

فما ذاك إلا أن بدا وجه يوسف ... فأربت على الآيات آياته الكبرا

خليفة رب العالمين الذي به ... تمهدت الأرجاء وامتلأت بشرا

وجرت على أعلى المجرة ساحباً ... ذيول العلى فاستكمل النهى والأمرا

وقام بأمر الله يقضي ويقتضي ... الفتوح التي تبقي له في العلى ذكرا

وأربى على كل الملوك وفاقهم ... بسيرته الحسنى التي قد علت قدرا

وهي طويلة، ومن شعره أيضاً قوله:

من أين أقبلت يا نسيم ... جادت بساحاتك الغيوم

ولا عدمناه سنك سرى ... حل به عندنا النعيم

بلغ سلامى أهيل ودى ... بلغك الله ما تروم

قل لهم صبكم مشوقٌ ... أنحله وجده القديم

لطالما يسهر الليالي ... وطي أضلاعه جحيم
هبوا رضاكم لذي غرام ... ما زال قدماً بكم يهيم
إن غبتم عن سواد عيني ... فحبكم في الحشى مقيم
لو ثر ساعد السعد أن أراكم ... لما اشتكى قلبي السقيم
يا حادي العيس نحو أرض ... بنيقة قدرها عظيم
إذا أتيت اللوى وسلفا ... وبان للناظر الحطيم
ولاح بالأبرقين بدرٌ ... بسيره تهتدي النجوم
فقل غريبٌ ثوى بقرب ... في بحر أوزاره يعوم
قد أثقلت ظهره الخطايا ... وشجبت ذكره الرسوم
إن أعمل الحزم لارتحال ... أقعده ذنبه العظيم
لهفي هذا الشباب ولى ... والقلب في غيه مقيم
يا رب عفواً لذي اجترام ... لا تهتك الستر يا حليم
مالي شفيع سوى رجايي ... وحسن ظني أيا كريم
فلا تكلني إلى ذنوبي ... وارحمني يا ألله يا رحيم

وفاته

توفي في وقيعة الطاعون عام خمسين وسبعماية.

من المحدثين والفقهاء والطلبة النجباء

قاسم بن أحمد بن محمد

بن عمران الحضرمي

من أهل سبتة:

حاله

من خط صاحبنا القاضي أبي الحسن بن الحسن. قال، كان شيخاً يتقد ذكاءً. رحل عن سبتة إلى الحجاز، فقضى الفريضة، وتطور في البلاد المشرقية نحواً من أربعة عشر عاماً، وأخذ بها عن جلة من العلماء. وورد على غرناطة في حدود عام ثمانية عشر وسبعماية، فأخذ عن بعض أشياخها، وعاد إلى بلده، وكان على خزانة الكتب به، وكان يقرىء القرآن به، قال، وأنشدني لما لقيته بيتاً واحداً، يحتوي على حروف المعجم، وهو:

قد ضم نصر وشكا بثه ... مذ سخطت عض على الإبط

مشيخته

أخذ بالمشرق عن جماعة، منهم شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي طالب الدمشقي الحجار، والشيخ المحدث أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الشيرازي ابن جميل، قرأ عليه كتاب ابن الحاجب، وحدثه به عن مؤلفه، وقرأ على الشيخين المقريين الجليلين؛ أبي عبد الله محمد بن عبد الخالق المعروف بابن الضايع وأبي عبد الله بن يعقوب الجراش المقدسي، جملة من الكتب الحديثية وغيرها، وسمع عليهما كتاب الشاطبية وحدثاه بها معاً عن المقري أبي الحسن علي

كمال الدين بن شجاع العباسي الضرير، عن صهره مؤلفها.
تواليفه

قال: له في القراءات تقييد حسن سماه الشافي في اختصار التيسير الكافي
وفاته
توفي أيام الطاعون العام ببلده.
ابن خضر
قاسم بن خضر بن محمد العامري يكنى أبا القاسم، ويعرف بابن خضر هكذا، دون تعريف. يعرف سلفه ببني عمرون من أهل ألمرية.
حاله
من خط شيخنا أبي البركات، كان هذا الشيخ من وجوه ألمرية، وممن تصرف سلفه في خطة القضاء بها. وهو أقدم خطيب أدركته بسني بجامعها الأعظم. وكان شيخاً عفيفاً من رجال الجد، ضيق العطن، سريع الغضب، غيوراً على تلك الخطة، لا يحلى بعينه أحد. لما مات رفيقه في الصلا والخطبة، الشيخ الشهير عند العامة، ثالث اثنين، الخراسي والنطية، أبو عبد الله بن الضايع، فكل من عرض عليه أن يكون معه أباه، فقال أهل البلد، فما العمل، فقال يكتب إلى أبي القاسم ابن الحاج إلى سبتة، ليأتي إلى أرض سلفه، ويكون رفيقي في الصلاة والخطبة، يعني عمي، فكتب إليه بذلك، فكانت المسألة عند الآخر، أهون من أن يجيب على الكتاب، ولو بالإباية، فبقي الأمر إلى أن قدم معه الشيخ الصالح الخطيب المصقع أبو الحسن بن فرحون البلفيقي، فلم يجد فيه قادحاً إلا كونه ليس من أهل البلد، فبقي مرافقاً له إلى حين وفاته غريبة: قال الشيخ أخبرتني جدتي عائشة بنت يحيى بن خليل، قالت، كان الرجل الصالح، أبو جعفر بن مكنون خال قاسم بن خضر هذا، فرآه يلعب مع الصبيان في أزقة ألمرية، فقال له من يكون خطيب ألمرية يلعب، فبقيت في حفظه إلى أن ولي الخطابة.
وفاته
توفي في صفر من عام ثلاثة وسبعماية، وكانت جنازته مشهودة
حرف السين

سوار بن حمدون

بن عبده بن زهير بن ديسم بن قديدة بن هنيدة

وكان علماً من أعلام العرب، وصاحب لواء قيس بالأندلس، ونزل جده بقرية قربسانة من إقليم البلاط من قرى غرناطة، وبها أنسل ولده، ولم يزالوا أعلاماً، إلى أن ظهر سوار هذا منهم في الفتنة.
حاله وبعض آثاره وحروبه
قال أبو القاسم، كان سوار هذا بعيد الصيت، رفيع الذكر، شجاعاً، محباً في الظهور، حامي العرب وناصرهم. وكان له أربعة من الإخوة، مثله في الشجاعة، حضروا معه في الحروب في الفتنة، وهو الذي بنى المدينة الحمراء بالليل، والشمع تزهر لعرب القحص، وبنى مدينة وادي آش لبني سامي، وبنى مدينة منتيشة لبني عطاف، وبنى مدينة بسطة لبني قحطبة، وبني مسيرة، وبني كورة جيان للعرب. ولولا أن الله من على العرب بسوار ونصره، لما أبقى العجم

والمولدون منهم أحداً. وأنسل سوار، عبد العزيز المقتول بمنتشافر، وعبد الرؤوف وعبد الملك.

مبدأ أمره وحروبه وشعره

قال أحمد بن عيسى بعد اختصار، في صدر هذه السنة، يعني سنة خمس وسبعين ومائتين، ثار سوار بن حمدون بناحية البراجلة من كورة إلبيرة، وانضوت إليه العرب، قام على تفئة مهلك يحيى بن صقالة أميرهم، قتيل المسالمة والمولدين، فطلب بثأره، وكثرت أتباعه، واعترت العرب له، وقصد بجمعه إلى ست شافر، وبه من عدوه المذكورين نحو من ستة آلاف رجل نازلهم حتى قهرهم. وطاف على حصونهم فافتتحها، وقتل وغنم، وتنادوا لقتاله في جموع عظيمة، عليها جعد بن عبد الغافر عامل الأمير عبد الله، وبرز إليهم فيمن برز، وناشبهم الحرب، فانهزموا فقتل منهم خلق حرزوا بسبعة آلاف، وأسر جعد، ومن عليه وأطلقه، وكانت وقيعته الأولى هذه تعرف بوقيعة جعد. وغلظ، واستند إلى حصن غرناطة، بالعرب من مدينة إلبيرة. وكانت العرب يتألبون على المولدين، إلى أن عزل الأمير جعداً عن الكورة إرضاءً لسوار، فأظهر عند ذلك الطاعة، وغزا الحصون الراجعة إلى ابن حفصون فأوقع بهم، فهاجمهم، واجتمعت عليه كلمتهم، فقصدوه وحصروه بغرناطة في نحو عشرين ألفاً، وبرز إليهم في عدده القليل من عبيده، ورجال بيوتات العرب من أهل إلبيرة، ورجعوا من جبل الفخار على تعبئة، يريدون الباب الشرقي من غرناطة، وكادهم لما التحمت الحرب وشب ضرامها، بما دبره من انسلاله في لخمة من فرسانه، حتى استدبرهم، فحمل بشعاره، فانذعروا وانفضوا، فتوهم حماتهم أن مدداً جاءهم من ورائهم، فولوا منهزمين، وأعمل سوار وأصحابه السيوف فيهم إلى باب إلبيرة، فيقال إن قتلاهم في هذه الوقيعة الثانية كانوا إثني عشر ألفاً، وهي الوقيعة المعروفة بوقعة المدينة، ولاذ المولدون بعد هذا بعمر بن حفصون واستدعوه، فوافاهم في جيش عظيم، ودخل إلبيرة، وناهض سواراً. وعنده رجالات عرب الكور الثلاث، إلبيرة وجيان وريه، واشتد القتال، وجال جيش ابن حفصون جولة، جرح فيها جراحات صعبة، وكاد سوار يأتي عليه، لولا رجال صدقوه الكر واستنقذوه، وتمت عليه الهزيمة، فانقلب على عقبه، ونالت الحضرة معرته، فأغرم أهلها الذين استجلبوه ما تشعث من عسكره، واستعمل عليهم قائده حفص بن المرة، وانصرف. ونجح سوار بما تهيأ له على أعدائه، فاعتلت همته، وأجلته العرب، وعلا في الناس ذكره، وقال الأشعار الجزلة، فيما تهيأ له على المولدين، وأكثر الافتخار بنفسه، فشهر من قوله في ذلك:

صرم الغواني يا هنيد مودتي ... إذ شاب مفرق لمتي وقذالي

وصددن عني يا هنيد وطالما ... علقت حبال وصالها بحبالي

وهي طويلة، أكثر فيها الفخر، وألم بالمعنى.

وفاته

ولما انصرف عمر بن حفصون وترك قائده بإلبيرة، جهز معه طائفة من خيله، وأقره لمغاورة سوار، ودرك النيل لديه، وأعمل حفص جهده، وطلب غرته، فأمكنه الله منه، وأنه دنا إليه يوماً، وقد أكمن أكثر خيله، وظهر له مستغيراً بجانب من حصنه، فخرج سوار مبادراً من غرناطة لأول الصيحة في نفر قليل، لم يحترس من الحيلة، التي يحذرها أهل الحزم، فأصحر لعدوه، وخرجت الكماين من حوله، فقتل وجيء بجثته إلى إلبيرة، فذكر أن الثكالى من نسايهم قطعن لحمه مرقاً، وأكلنه حنقاً لما نالهن من الثكل. وكان قتل سوار في سنة سبع وسبعين ومايتين، وقتلت العرب بقتل سوار، وكل حدها بما نزل بها.

سليمن بن الحكم

بن سليمن بن عبد الرحمن الناصر لدين الله الخليفة بقرطبة

المكنى بأبي أيوب الملقب من الألقاب الملوكية بالمستعين بالله.
أوليته: معروفة.
حاله
كان أديباً شاعراً، مجموع خلال فاضلة، أصيل الرأي، راجح العقل، ثبتاً. ولي الخلافة غلاباً، وقعصاً، ومنازعة، وأوقع بأهل قرطبة وقائع أبادتهم. وخلع ثم عادت دولته، وجرت له وعليه الهزايم، على قصر أمد خلافته، لقيام البربر بدعوته، وتدويخ البلاد باسمه، في أخبار فيها عبرة، دخل في بعض حركاتها وهولاتها المبيرة ، إلى أن طحنته رحى الفتنة، وشيكاً عن دنيا غير هنية، وصبابة ليست بسنية
شعره
من شعره يعارض المقطوعة الشهيرة المنسوبة للرشيد .
عجباً يهاب الليث حد سناني ... وأهاب لحظ فواتر الأجفان
فأقارع الأهوال لا متهيباً ... منها سوى الإعراض والهجران
وتملكت نفسي ثلاث كالدمى ... زهر الوجوه نواعم الأبدان

ككواكب الظلماء لحن لناظري ... من فوق أغصان على كثبان
هذي الهلال وتلك أخت المشتري ... حسناً وهذي أخت غصن البان
حاكمت فيهن السلو إلى الهوى ... فقضى بسلطان على سلطان
فأبحن من قلبي الحمى وتركنني ... في عز ملكي كالأسير العان
لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى ... ذل الهوى عزٌّ وملكٌ ثان
مقتله

قتله علي بن حمود المتقدم الذكر، متولي الأمر بعده، صبراً بديه، بدم هشام المؤيد، وقال لما زحف إليه، لا يقتل الزلطان إلا الزلطان، يعني السلطان، إذ كان بربري اللسان، وذلك في أخريات المحرم من سنة سبع وأربع ماية.
سليمان بن عبد الرحمن

بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان

يكنى أبا أيوب.
حاله
كان شهماً جريئاً، أنوفاً شجاعاً، ديناً فاضلاً. ولما توفي أبوه بقصر قرطبة، وهشام وأبو أيوب هذا غائبان، وكل ابنه عبد الله، المعروف بالبلنسي، وقال من سبق إليك من أخويك، فارم إليه بالخاتم، فإن سبق إليك هشام، فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه. فإن سبق إليك سليمن، فله فضل دينه ونجدته، وحب الشاميين له. فقدم هشام من ماردة، وتولى الخلافة قبل سليمن. واتصل ذلك بسليمن، فأخذ لنفسه البيعة بطليطلة، وما اتصل بها، ودعا إلى نفسه ..... وواضع أخاه الحرب غير ما مرة، تجري عليه في كلها الهزايم، إلى أن تبرم بنفسه، وأجاز البحر عن

عهد إلى ستين ألفاً بذلت له، واستقر بأهله وولده ببلاد البربر. ولما صار الأمر للحكم بن هشام، عاد إلى الأندلس سنة اثنتين وثمانين ومائة، وكان اللقاء في شوال منها، فانهزم سليمان، ثم عاد للقاء فانهزم. وفي سنة أربع وثمانين حشد، واحتل بجيان ثم بإلبيرة، والتقى بها معه الحكم، ودام القتال أياماً، حتى هم الحكم بالهزيمة، ثم انهزم سليمن، وقتل في المعركة بشرٌ كثير، وأفلت سليمن إلى جهة ماردة. وبالتقاء الحكم وعمه سليمن بإلبيرة وأحوزاها، إستحقا الذكر هنا على الشرط المعروف.

وفاته

وبعث الحكم أصبغ بن عبد الله في طلب سليمن، فأسره وأتاه به، فأمر بقتله، وبعث برأسه إلى قرطبة. قتل في سنة خمس وثمانين بعدها.

سعيد بن سليمان بن جودي

السعدي

حاله

كان سعيد بن سليمن صديق سوار، فغصبت العرب الإمارة به بعده، وعلقت به، فقام بأمرها وضم نشرها، وكان شجاعاً بطلاً، فارساً مجرباً، قد تصرف مع فروسيته في فنون من العلم، وتحقق بضروب من الآداب، فاغتدى أديباً نحريراً، وشاعراً محسناً، واتصل قيامه بأمر العرب إلى أن قتل.

شعره

ومن شعره في وقيعة سوار بالمولدين قوله من قصيدة طويلة:

قد طلبنا بثأرنا فقتلنا ... منكم كل مارق وعنيد

قد قتلناكم بيحيى وما ... أن كان حكم الله بالمردود

هجتم يا بني العبيد ليوثاً ... لم يكونوا لجارهم بقعود

فاصطلوا حرها وحد سيوف ... تلظى عليكم بالوقود

حاكمٌ ماجدٌ يقود إليكم ... فئةً سادةً كمثل الأسود

مهذبٌ من نزار وعميدٌ ... ما مثله من عميد

يطلب الثأر بابن قوم كرام ... أخذوا بالعهود قبل المهود

فاستباح الحما لم يبق منها ... غير عان فقده مصفود

قد قتلنا منكم ألوفاً فما ... يعدل قتل الكريم قتل العبيد

مثلوه لما أضاف إليهم ... لم يكن قتله برأي سديد

قتلته عبيد سوءٍ لئامٌ ... وفعال العبيد غير حميد

لم يصيبوا الرشاد فيما أتوه ... لا ولا كان جدهم لسعود

قد غدرتم به بني اللؤم من ... بعد يمينٍ قد أكدت وعهود

فلئن كان قتله غدرةً ... ما كان بالنكس لا ولا الرعديد

كان ليثاً يحمي الحروب وحصناً ... وملاذاً وعصمة المقصود

كان فيه التقى مع الحلم ... والبأس وجودٌ ما مثله جود
عالٍ مجد الأمجاد بعدك ... قديماً وفت كل مجيد

فجزاك الإله جنة عدن ... حيث يجزي الثواب كل شهيد
مقتله

قال الملاحي، كان من الأعلام، وعد في الشعراء والفرسان والخطباء والبلغاء، خطب بين يدي الخليفة المنذر، وهو حدث، أول ما أفضت الخلافة إليه، وعليه قباء خز، وقد تنكب قوساً عربية، والكنانة بين يديه. خطب خطبة بليغة، وصلها بشعر حسن، ولم يزال اللوا يتردد عليه في العز والمقام، ويخطب في أعلى المنبر في المسجد الجامع بإلبيرة.
وسجل له الخليفة عبد الله على الكورة، إلى أن هم بالقيام على بني أمية عندما اشتدت شكيمته، وظهر على عمر بن حفصون إلى أن قتل بسبب امرأ، تمت عليه الحيلة لأجلها بدار يهودية، إذ كان منحطاً في هوى نفسه، فطاح في ذي قعدة سنة أربع وثمانين ومايتين، وصار أمر العرب بعده إلى محمد بن أضحى حسبما يتقرر في مكانه.
ومن ترجمة الأعيان والوزراء والأماثل والكبراء

سهل بن محمد بن سهل

بن مالك بن أحمد بن إبراهيم بن مالك الأزدي

صدر هذا البيت، وياقوتة هذا العقد، يكنى أبا الحسن. قال أبو جعفر بن مسعدة، كان رأس الفقهاء وخطيب الخطباء البلغاء، وخاتمة رجال الأندلس. تفنن في ضروب من العلم، وبالجملة فحاله ووصفه في أقطار الدنيا، لا يجمله أحد، فحدث عن البحر ولا حرج، ضن الزمان أن يسمح برجل حاز الكمال مثله
حاله
قال ابن عبد الملك، كان من أعيان مصره، وأفضل أهل عصره، تفنناً في العلوم، وبراعة في المنثور والمنظوم، محدثاً ضابطاً، عدلاً ثقة ثبتاً، حافظاً للقرآن العظيم، مجوداً له، متقناً في العربية، وافر النصيب من الفقه وأصوله، كاتباً مجيداً للنظم في معرب الكلام وهزله، ظريف الدعابة، مليح التدير. له في ذلك أخبار مستظرفة متناقلة، ذا جدة ويسار، متين الدين، تام الفضل، واسع المعروف، عميم الإحسان، تصدق عند القرب من وفاته بجملة كبيرة من ماله ورباعه، وله وفادةٌ على مراكش.
مشيخته
روى ببلده عن خاله أبي عبد الله بن عروس، وخال أمه أبي بكر يحيى بن محمد بن عروس، وأبي جعفر بن حكم، وأبي الحسن بن كوثر، وأبي خالد بن رفاعة، وأبي محمد عبد المنعم بن الفرس. وبمالقة عن أبي زيد السهيلي، وأبي عبد الله بن الفخار. وبمرسية عن أبي عبد الله ابن حميد، وأبي القاسم بن حبيش. وبإشبيلية عن أبي بكر بن الجد، وأبي عبد الله بن زرقون، وأبوي عبد الله بن العباس بن مضاء، والجراوي الشاعر، وأبي الوليد بن رشد. قرأ عليهم وسمع، وأجازوا له. وأجاز له من أهل الأندلس أبو محمد عبد الله نزيل سبتة، وعبد الحق بن الخراط نزيل بجاية. ومن أهل المشرق جماعة، منهم إسمعيل بن علي بن إبراهيم الجراوي، وبركات بن إبراهيم الخشوعي أبو الطاهر، وعبد الرحمن ابن سلامة بن علي القضاعي، وغيرهم ممن يطول ذكرهم.

من روى عنه: روى عنه أبو جعفر بن خلف، والطوسي، وابن سعيد القزاز، وأبو الحسن العنسي، وأبو عبد الله بن أبي بكر البري، وابن الجنان، وأبو محمد عبد الرحمن بن طلحية، وأبو محمد بن هرون، وأبو القاسم ابن نبيل، وأبو يعقوب بن إبراهيم بن عقاب، وأبو جعفر الطباع، وأبو الحجاج بن حكم، وأبو الحسن الرعيني، وأبو علي بن الناظر، وغيرهم.

ثناء الأعلام عليه: والمجال في هذا فسيح. ويكفي منه قول أبي زيد القزاري:

عجباً للناس تاهوا ... بثنيات المسالك

وصفوا بالفضل قوماً ... وهم ليسوا هنالك

كثر النقل ولكن ... صح عن سهل بن مالك

شعره

وشعره كثير مما ينخرط في سلك الجيد فمن ذلك قوله:

نهارك في بحر السفاهة يسبح ... وليلك عن نوم الرفاهة يصبح

وفي لفظك الدعوى وليس إزاءها ... من العمل الزاكي دليل مصحح

إذا لم توافق قولةً منك فعلةً ... ففي كل جزءٍ من حديثك تفصح

تنح عن الغايات لست من أهلها ... طريق الهوينا في سلوكك أوضح

إذا كنت في سن البنى غير صالح ... ففي أي سن بعد ذلك تصلح

إلى كم أماشيها على الرغم غاية ... يصيب المزكي عندها والمجرح

وعليها ألا تنو ولا تنى فتحسن ... في عين الشيبان وتقبح

عسى وطرٌ مونقٌ فالتمس الرضا ... واقرع أبواب الرشاد فتفتح

فقد ساء ظني بالذي نا أهله ... وفضلك يا مولاي يعفو ويصفح

وقال في تشييع بعض الفقهاء من غرض الأمداح:

يلقاك من كل من يلقاك ترحيب ... ومن خليفتها عزٌّ وتقريب

وتصطفيك إلى أحوازها رتب لها ... على مفرق الجوزاء ترتيب

تأتي إليك بلا سعي بلا سبب ... كأن تركك للأسباب تسبيب

من كل مشغوفةٍ بالحسن دام لها ... إلى غنائك تصعيد وتصويب

يلقاك بالبشر والإقبال خاطبها ... وحظها منك إعراض وتقطيب

ما زلت ترغب عنها وهي راغبة ... كأن زهدك فيها عنك ترغيب

فانهض إليها فلو تستطيع كان لها ... إلى لقايك إرجاءٌ وتقريب

يحيى وتحيى فللباغي مواهبها ... عذب الزلال وللباغين تعذيب

سارت على العدل والإحسان سيرتها ... حتى تلاقي عليها الشاة والذيب

لم تصبها لذة الدنيا وزخرفها ... ولا سبتها المطايا والجلابيب

إذا أهم بني الدنيا نعيمهم ... فهمها البيض والجرد السلاهيب

فوق الكواكب مضروبٌ سرادقها ... على أفق الأفلاك تطنيب

كرعت في ظلها الصافي بسلسلها ... كأنها لك في المشروب شريب

في قبية من بني الآمال قد قرعت ... سهمٌ إلى طلب العليا طبابيب
إذا حضرنا طعاماً فهي مأدبة ... وإن سمعنا كلاماً فهو تأديب
ومن يلذ بأبي إسحاق كان له ... أعلاق مالٍ وأغلاق وتهذيب
يا ملد السر من قلبي ويا ملكاً ... إن ناب خطب فمن جدواه تأنيب
هب القرار لآمالٍ مسافرة ... وقد أضر بها بعدٌ وتغريب
ففي يمينك وهاباً ومنتظماً ... بسطٌ وقبضٌ وترغيبٌ وترهيب
وما يصر كتاباً راق منظره إن ناله ... من تراب الأرض تتريب
لك السيادة لا يلقى لسؤددها ... مثلٌ وإن طال تنقيرٌ وتنقيب
عزمٌ كحد سنان الرمح يصحبه ... عدل كما اعتدلت فيه الأنابيب
كمال نفسك للأرواح تكملة ... وذكر فضلك للأرواح تشبيب
وعرف ذاتك كافٍ في تعرفنا ... بنفحة الطيب يدري أنه طيب
إذا ذكرت فللأشعار مضطرب ... رحب المجال وللألحان تطريب
سر حيث شيت موفى من مكارمها ... يهابك الدهر والشبان والشيب
في غرة تخنق الأيام جلتها ... لها على أفق الأملاك تطنيب
ومن نمط النسيب والأوصاف قوله وهو بسبتة بعد وصوله من مراكش، وهو مما طار من شعره:
لما حططت بسبتة قتب النوى ... والقلب يرجو أن تحول حاله
والجو مصقول الأديم كأنما ... يبدي الخفي من الأمور صقاله
عانيت من بلد الجزيرة مسكناً ... والبحر يمنع أن يصاد غزاله
كالشكل في المرآة تبصره ... وقد قربت مسافته وعز مناله
ومن شعره قوله رحمه الله:
تبسم واستأثرت منه بقبلة ... فشمت أقاحاً وارتشفت عقارا
ومر فأيدى الريح ترسل شعره ... كما ستر الليل البهيم نهارا
فيا لك ليلاً بالكثيب قطعته ... كما رعت بالزجر الغراب فطارا
تغص بنا زهر الكواكب غيرةً ... فتقدح في فحم الظلام شرارا
ومن ذلك قوله:
ولما رأيت الصبح هب نسيمه ... دعاني داعيه إلى البين والشت
وقلت أخاف الشمس تفضح سرنا ... فقالت معاذ الله تفضحني أخت
ومن الحكم وأبيات الأمثال قوله رحمة الله عليه:
منغص العيش لا يأوي إلى دعة ... من كان ذا بلد أو كان ذا ولد

والساكن النفس من لم ترض همته ... سكنى مكانٍ ولم تسكن إلى أحد
ومن شعره:
ولا مثل يوم قد نعمنا بحسنه ... مذهب أثناء المروج صقيل
إلى أن بدت شمس النهار تروعنا ... بسير صحيح واصفرار عليل

ولما توارت شمسه بحجابها ... وأذن باقي نورها برحيل
وغابت فكان الأفق عند مغيبها ... كقلبي مسودٌّ لفقد خليل
أتانا بها صفراً يسطع نورها ... فمزق سربال الدجا بفتيل
فردت علينا شمسنا وأصيلنا ... بمشبه شمسٍ في شبيه أصيل
ومن نثره قوله يخاطب بني أبي الوليد بن رشد، تعزيةً في أبيهم، واستفتحه بهذه الأبيات:
ألا ليت شعري هل لطالب غاية ... وصولٌ وأحداث الزمان تعوقه
مضى علم العلم الذي ببيانه ... تبين خافيه وبان طريقه
أخلائي إني من دموعي بزاخرٍ ... بعيدٌ عن الشطين منه غريقه
وما كان ظني قبل فقد أبيكم ... بأن مصاباً مثل هذا أطيقه
ولم أدر من أشقى الثلاثة بعده ... أبناؤه أم دهره أم صديقه
ومن شاهد الأحوال بعد مماته ... تيقن أن الموت نحن نذوقه
رجوعاً إلى الصبر الجميل فحقه ... علينا قضيى أن لا توفي حقوقه
أعزيكم في البعد عنه فإنني ... أهنيه قرباً من جوارٍ يروقه
فما كان فينا منه إلا مكانه ... وفي العالم العلوي كان رفيقه

إيه عن المدامع هلا تلا انحدار الدمعة انحدار الدمعة انحدارها، والمطامع هل ثبت على قطب مدارها، والفجائع أغير دارٍ بني رشد دارها، فإنه حديث أتعاطاه مسكراً، وأستريح الله مفكراً، وابثه باعثاً على الأشجان مذكراً، ولا أقول كفا وقد ذهب الواخذ الذي كنت تتلافى، ولا أستشعر صبراً، وقد حل نور العلم قبراً، بل أغرق الأجفان بمالها، وأستدعي الأحزان بالشهير من أسمائها، واستوهب الأشجان غمرة غمالها. ثم أتمالك تمالك المجنون، وأستجير من الحياة بريب المنون، وأنافر السلوة منافرة وسواس الظنون، ولا عتب، فإذا خامر الواله جزعه، فإلى نصرة المدامع مفزعه، وإذا ضعف احتماله، فإلى غمرة الإغماء مآله، ومن قال إن الصبر أولى، وليته من ذلك ما تولى. أما أنا فأستعيذ من هذا المقام وأستعفيه، وأنزه نفس الوفا عن الحلول فيه، فإنه متى بقي للصبر مكان، ففي محل الحزن لقبول ما يقاومه إمكان، وقد خان الإخاء وجهل الوفاء، من رام قلبه السلو، وألفت عينه الإغفاء. هو الخطب الذي يقي الهجود وألزم أعين الثقلين، وبه أعظم الدهر المصاب، وفيه أخطأ سهم المنية حين أصاب. فحقنا أن نتجاوز الجيوب إلى القلوب، ونتغلب إذا غالبنا الحزن بصفة المغلوب، وإذا كان الدهر السالب، فلا غضاضة على المسلوب، أستغفر الله، قفا نتذكر من مفقودنا رضي الله عنه حكمه، ونشاهد بعين البصيرة سيمه، فأجدهما يكفان من واكف الدمع ديمه، ويقولون عندي آسة المصاب، ومزاحمة الأوصاب، أمران وقع، فقد ضر فوق ما نفع، فإنه لا ألم الحزن شفاه، ولا حق المصيبة وفاه، ولا الذاهب الفايت استرجعه وتلافاه، فربما جنحت إلى الصبر لا رغبة فيه، بل إيثاراً لمقصده وتشيعاً لتصافيه، فأستروح رايحة السلو، وأنحط قاب قوسين أو أدنى عن سدرة ذلك العلو، وأقف بمقام الدهش بين معنى الحزن المستحكم، ولفظ القرا المتلو. فأبكي بكا النساء، وأصبر صبر الرؤساء، وأحرز رزايا الفضلاء، بفضل رزايا الأخساء، موازنة بين هذا الوجود، ونحل تتعاقب على نحل الجود. فالدهر يسترجع ما وهب، كان الصفراء أو النهب. وإذا تحقق عدم ثباته، وعدم استرجاعه لجميع هباته، كان المتعرض لكثيره، محلاً لتأثيره. فلا غرو أن دهمكم الرزء مورد الفلك الدابر منه الجزأ، فطالما بتم ترضعكم الحكمة أخلاقها، وتمبكم الخلافة آلافها، وتؤملكم الأيام خلافها. وإذا صحيت العقول، وضن بما لديه المعقول، وصارت الأذهان إلى حيث لا تتصور

الألسنة، بحيث لا تقول، وردتم معيناً، ووجدتم معيناً، وافتضضتموها كمثل اللؤلؤ المكنون صوراً عيناً. أظننتم أن عين الله تنام، أم رمتم أن يكو صرحاً إلى إله موسى ذلك السنام، لشد ما شيدتم البناء، وألزمتم اتباع الأب الأبناء، حتى غرق الأول في الآخر، وصار السلف على ضخامته أقل المفاخر. ومن علت في علاها قدم ترقيه، ولم يصب بكماله عيناً يحفظ من عين العلن ويقيه، فكثيراً ما يأتيه محذوره من جهة توقيه. هذا أبوكم رضي الله عنه حين استكمل، فعرف الضار والشافي، وتعذرت صفات كماله على الحرف النافي، فيا لله لفظة أواليها، وأتبعها زفرة تليها، لقد بحثت الأيام عن حتفها بظلفها، وسعت على قدمها إلى رغم أنفها، فمن لبث الوصل، ولرعى الوسايل، وإلى من يلجأ في مشكلات المسايل، ومن المجيب إذا لم يكن المسئول بأعلم من السائل. اللهم صبرنا على فقد الأنس بالعلم، وأدلنا من خفوف الوله بوقار الحلم، وأخلفه في بنيه وعامة أهليه، بشبيه ما أوليته في جوارك المقدس وتوليه. وإليكم أيها الإخوة الأولياء، والعلية الذين عليهم قصرت العلياء. أعتذر من اتخاذ الشيء من الكلام بنقصه الأشياء. فقد خان في هذا الزمان، حتى اللسان، وفقد منه حتى الحسان، وليس لتأبين محمد صلى الله عليه وسلم إلا حسان، فالعذر منفسح المجال. وإلى التقصير في حق رزئكم الكبير نصير في الروية والارتجال. ولذلك عدلت إلى الإيجاز، واعتقدت في إرسال القول في هذا الموضع ضرباً من المجاز. ومبلغ النفس عذرها مع العجز كالصابر للإعجاز. وأما حسن العزاء على تعاقب هذه الأرزاء، فأمر لا أهبه، بل أستجديه، ولا أذكركم به، ونفس صبركم متوغلة فيه، فسواكم يلهم للإرشاد. ويذكر بطرق الرشاد، جعل الله منكم لآبايكم خلفاً، وأبقى منكم لأبنائكم سلفاً، ولا لد لكم الوجود بعده تلفاً. والسلام.

محنته

امتحن رحمه الله بالتغريب عن وطنه، لبغي بعض حسدته عليه، فأسكن بمرسية مدة طويلة، إلى أن هلك بألمرية الأمير أبو عبد الله محمد ابن يوسف بن هود، آخر جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وستماية. فسرح أبو الحسن بن سهل إلى بلده في رمضان من هذه السنة.

ومن شعره في ذلك الحال مما يدل على بعد شأوه ورفعة همته، قوله:

الدمع همى عن جوانب همتي ... وتأبى هموم العارفين عن الدفع
وألتمس العتبى وحيداً وغايتي ... وصرف الليالي والحوادث في جمع
وإني من حزمي وعزمي وهمتي وما ... رزقته النفس من كرم الطبع
لفي منصب تعلو السماء سماته ... فيثبت نوراً في كواكبها السبع
علا صرف دهري إذ علا فإذا به ... ترابٌ لنعلي أو غبار على سبع
تدرعت بالصبر الجميل وأجلبت ... صروف الليالي كي تمزق لي درع
فما مللت قلبي ولا قبضت يدي ... ولا لحمت أصلي ولا حضرت فرع
فإن عرضت لي لا يفوه بها فمي ... وإن زحفت لي لا يضيق بها ذرع

وفي هذه الأبيات تأنيث السبعة الكواكب، وحكمها التذكير، وذلك إما لتأويل بعد أو غفلة، فلينظره. قال أبو الحسن الرعيني، ودخلت عليه بمرسية، وبين يديه شمامة زهر، فأنشدني لنفسه:

وحامل طيبٍ لم يطيب بطيبه ... ولكنه عند الحقيقة طيب
تألف من أغصان زهره ... فمن صفتيه زاهرٌ ورطيب
تعانقت الأغصان فيه كما التقى ... حبيبٌ على طول النوى وحبيب

وإن الذي أدناه دون فراقه ... إلى كبيرٍ في الوجود عجيب
مناسبةٌ للبين كان انتسابها ... وكل غريب للغريب نسيب
فبالأمس في إسحاره وبداره ... وباليوم في دار الغريب غريب

تواليفه

صنف في العربية كتاباً مفيداً، رتب الكلام فيه على أبواب كتاب سيبويه. وله تعاليق جليلة على كتاب المستصفى في أصول الفقه، وديوان شعر كبير. وكلامه الهزلي ظريف شهير.

مولده

عام تسعة وخمسين وخمسماية.

وفاته

توفي بغرناطة منتصف ذي قعدة سنة تسع وثلاثين وستماية. وزعم ابن الأبار أن وفاته كانت سنة أربعين وستماية، وليس بصحيح. ودفن بمقبرة شقستر. قال ابن عبد الملك، وكان كريم النفس، فاضل، الطبع، نزيه الهمة، حصيف الرأي، شريف الطباع، وجيهاً، مبروراً، معظماً عند الخاصة والعامة.

من رثاه ممن كتب إلى بنيه يعزيهم في مصابهم بفقده، ويحضهم على الصبر من بعده، تلميذه الكاتب الرييس أبو عبد الله بن الجنان:

دعوني وستكاب الدموع السوابك ... فدعوني جميل الصبر دعوة آفك
أصبرٌ جميل في قبيح حوادث ... خلعن على الأنوار ثوب الحوالك
تنكرت الدنيا على الدين ضلة ... ومن شيمة الدنيا تنكر فارك
فصبحنا حكم الردى بردائه ... فتلك وهذي هالك في المهالك
عفا طللٌ منها ومنه فأصبحنا ... شريكي غماز في تلاً متدارك
فلا بهجةٌ تبدي مسرة ناظر ... ولا حجة تهدي بحجة سالك
وما انتظم الأمران إلا ليؤذنا ... بأمرٍ دها سير النجوم السوابك
وإن لمنشور الوجود انتظاره ... يكفي فناً للفنا بواشك
أما قد علمنا والعقول شواهد ... بأن انقراض العلم أصل المهالك
إذا أهلك الله العلوم وأهلها ... فما الله للدهر الجهول بارك
هل العلم إلا الروح والخلق جثة ... وما الجسم بعد الروح بالمتماسك
وما راعني في عالم الكون حادثٌ ... سوى حادث في عالم ذي مدارك
لذلك ما أبكي كأني متيم ... أتمم ما أبقى لإسمي بعد مالك
وسهلٌ عندي أن أرى الحزن مالكي ... مصابي بالفياض سهل بن مالك
إمام هدىً كنا نقلد رأيه ... كتقليد رأي الشافعي ومالك

غمام سدىً كنا عهدنا سماحه ... بساحل دارات العماد الحوائك
أحقاً قضى الجلال وقوضت ... مباني معالٍ في السماء سوامك
وأقفر في نجدٍ من المجد ربعه ... وعمر قبرٌ مفرد بالدكاك

وغب طودٌ في صعيد بملحد ... وغيض فجرٌ في يدي متلاحك
ووارى شمس المعارف غيهبٌ ... من الخطب يردى بالشموس الدوالك
إلا أيها الناعي لك الثكل لا ... تفه بملك اللواهي الدواهك
لعلك في نعي العلا متكذب ... فكم ماحلٌ من قبل فيه وماحك
يكذبهم يا ليت أنك مثلهم ... تواتر أخبارٍ وصدق مالك
فيا حسن ذاك القول إذ بان كذبه ... ويا قبحه والصدق بادي المسالك
لمقدارٍ جفوا فيه وقلبي راجفٌ ... مخافة تصديق الظنون الأوافك
كأن كمال الفضل كان يسومهم ... فأبدوا على نغص هو متمالك
كأنهم يستبطون أيومةً ... كما استبطأ فاتك
كأنهم مستمطرون لعارض ... كعارض عاد للتجلد عارك
بلى إنهم قد أرهصوا لرزية ... تضعضع ركن الصابر المتمالك
فقد كان ما قد أنذروا بوقوعه ... فهل بعده للصبر صولة فاتك
مصاب مصيب للقلوب بسيد ... رمى عن قسي لليالي عواتك
بكت حسنها الغبراء فيه فأسعدت ... بأدمعها الخضراء ذات الجمايك
على علم الإسلام قامت نوادب ... بهتن مباك أو بهتم مضاحك
فمن سنة سنت على الرأس تربها ... ومكرمة ناحت لأكرم هالك
ومن آية تبكي بنور صبحها ... إذا قام في جنح من الليل حالك
ومن حكمة تبكي لفقد مفجر لينبوعها ... السلسال في الأرض سالك
فيا أسفي من للهوى ورسومه ... ومن لمنيخٍ عند تلك المبارك
ومن للواء الشرع يرفع خفضه ... ويمنع من تمزيقه كف هاتك
ومن لكتاب الله يدرس وحيه ... ويقبس منه النور غير متارك
ومن لحديث المصطفى وماجد ... يبين بها في فهمه ومتارك
ومن ذا يزيل اللبس في متشابه ... ومن ذا يزيح الشك عن متشابك
ومن لليراع المصفر طابت بكفه ... فصارت طوال الشمس مثل النيازك
ومن للرقاع البيض طابت بطيبه ... فجابت إلى الأملاك سبل المسالك
ومن لمقام الحفل يصدع بالتي ... تغص لقس من جناح المدارك
ومن لمقال كالنضار يخلص ... لإبريزه التبريز لا للسبايك
ومن لفعال إن ذكرت بناه ... فعال وإن تنشر فمسكة فارك
ومن لخلالٍ كرمت وضراير ... ضربن بقدحٍ في عتاب الضرايك
ومن لشعار الزهد أخفى بالفنا ... ففي طيه فضل الفضيل ومالك
ومن لشعاب المجد أو لشعوبه ... إذا اختلطت ساداته بالصعالك
ألا ليس من فاكفف عويلك أو فرد ... فما بعد سهلٍ في العلى من مشارك
أصبنا فيالله فيه وإنما أصبنا ... لعمري في الذرى والجوارك

فناد بأفلاك المحامد اقصري ... فلا دوران بل قطب المدارك
وصح يالبناء اليوم أقويت منزلاً ... بوطىء المنايا لا بوطىء السنابك
على هذه حام الحمام محلقاً ... ثمانين حولاً كالعدو المضاحك
فسالمه في معرك الموت خادعاً ... وحاربه إذ جاز ضنك المعارك

طواك الردى مهما يساكن فإنه ... محرك جيش ناهب العيش ناهك
نبا سبا قدماً وهي السكاسك ... ولم يأل عن خونٍ لحايزٍ ومالك
وأفنى من أبناء البرايا جموعها ... وألقى البرايا بالرغم فوق البراهك
سواءٌ لديه أن يصول بقلبك من ... للناس ناس للتقى أو بناسك
ولو أنه أرعى على ذي كرامة ... لأعيي على المختار نجل العواتك
ولو راعه عمرٌ تكامل ألفه لما ... راع نوحاً في السنين الدكاك
وما من سبيل للدوام وإنما ... خلقنا لأرحاء المنون الراهك
فيا آل سهل أو بنيه مخصصاً ... ندا عموم في غموم موالك
أعندكم أني لما قد عراكم ... أمانع صبري لن يلين عزايك
فكيف أعزي والتعزي محرم ... علي ولكن عادة الرمالك
فإن فرحٌ يبدو فذلك تكره ... لتجريع صابٍ من مصاب مواعك
وإن كان صبراً إنها لحلومكم ... توابة في مر الرياح السواهك
ورثتم سنا ذاك المقدس فارتقوا ... بأعلى سنام من ذرى العز نامك
فلم يمض من أبقى من المجد إرثه ... ولم يلق ملكاً تارك مثل مالك
أتدرون لم جدت ركاب أبيكم ... كما جد سير بالقلاص الرواتك
تذكر في أفق السماء قديمه ... فحن إلى غيضٍ هنالك شابك
وكل سما في حضرة القدس حظه ... فلم يلب عنه بالحظوظ الركايك
فيا عجبا منا نبكي مهنا ... تبوأ داراً في جوار الملايك
يلاقيه في تلك المعاني رفيقه ... بوجه منير بالتباشير ضاحك
فلا تحسبوا أن النوى غال روحه ... لجسم ثوى تحت الدكادك سادك
فلو أنكم توشفتم بمكانه ... رأيتم مقيماً في أعالي الأرايك
ينعم في روض الرضا ونجوده ... سحايب في كثبات مسك عواتك
كذلك وعد الله في ذي مناسب ... من البر صحت بالتغني ومناسك
فيا رحمة الرحمن وافى جنابه ... ويا روحه سلم عليه وبارك
ويا لوعتي سيري إليه برقعتي ... وقصي شجوناً من حديثي هنالك

حديث الأشجان شجون، ووجوه القراطيس به كوجوه الأيام جون، فارعني سمعك، أبثك بثي واكتئابي، وأعرني نظرة في كتابي، لتعلم ما بي، فعندي ضرب الأسى جناية، وعلى وردي أطال باغي الأسى حمايه، وعبرتي أبكت من القطر سجامه، وزفرتي أذكت من الجمر ضرامه، ومني تعلمت ذات الهديل كيف تنوح، وعني أخذت ذات الحسن

كيف تغدو والهة وتروح، فما مذعورة راعها القناص، وعلق بواحدها حبل الجهالة فأغوره الخلاص، فهي تتلفت إليه والمخافة خلفها وأمامها، وتتلهف عليه فتكاد تواقع فيه حمامها، بأخفق ضلوعاً، وأشفق روعاً، وأضيق محالاً، وأوسع وجالاً، وأشغل بالاً، وأشعل بلبالاً، بل ما طلاها، وقد رآها، ترمي طلاها، فوقف حتى كاد يشركها في الحين، ويحصل من الشرك تحت جناحين. ثم أفلت وهو يشك في الإفلات، ويشكو وحدته في الفلوات، بأرهب نفساً، وأجنب أنساً، وألهب حشاً، وأغلب توحشاً، وأضيع بالمومات، وأضرع لغير الأمآت، منى وقد وافى النبأ العظيم، ونشر الهدى بكف الردى شمله النظيم، وأصبح يعقوب الأحزان وهو كظيم. وقيل أصيبت الدنيا بحبشتها وحسنها، والديانة بمحسنها وأبى حسنها، فحق على القلوب انفطارها، وعلى العيون أن تهمي قطارها، وعلى الصبر أن يمزق جلبابه، وعلى الصدر أن يغلق في وجه السلو بابه. أنعي الجيلي السعي، ورزية الجميل السجية، ووفاة الكريم الصفات، وفقد الصميم المجد، وذهاب السمح الوهاب، وقبض روحاني الأرض، وانعدام معنى الناس، وانهدام مغشي الإيناس، وانكشاف شمس العلم، وانتساف قدس الحلم. يا له حادثاً جمع قديماً من الكروب وحادثاً، ومصاباً جرع أوصاباً واضحى كل به مصاباً. لا جرم أني شربت من كأسه مستمفضها، وشرقت بها وبماء دمعي الذي ارفض معها، فغالت خلدي، وغالبت جلدي، حتى غبت عني، ولم إدر بآلامي التي تعني. ثم أفقت من سكري، ونفقت مبدد فكري، فراجعني التذكار والتمام، وطاوعني شجوناً يتعاطاه الحمام، فبكيت حتى خشيت أن يعشيني، وغشيت إذ غشيني من ذلك أليم ما غشيني، وظلت ألقى انبجاساً للترح يلقيني، فتارة يعنيني، وتارة يبقيني، فلو أن احتدامي والتدامي وجفني الدامي، اطلعت على بعضه الخنساء، لقالت هذه عزمة حزن، لا يستطيعها النساء. ذلك بأن قسمة المراثي كقسمة الميراث، وللذكران المزية، كان للسرور أو للرزية، على الإناث، هذا لو وازن مبكى مبكياً، ووارى ترابي فلكياً، إنا لنبكي نور علمٍ، وهي تبكي ظلمة جهل، وندبتي بحبل يدعى سهل، كان ينفجر منه الأنهار، وينهال جانبه من خشية الله أو ينهار، في مثله ولا أريد بالمثل سواه، فما كان في أبناء الجنس من ساواه. يحسن الجزع من كل مؤمن تقي، ويقال للمتجلد، لا تنزع الرحمة إلا من شقي، فكل جفن بعده جاف، فصاحبه جلف أوصاف، وكل فؤاد لم تصدع له صفاته، ولم تتغير لفقده صفاته، فمتحقق عند العلماء معلوم، أنه معدود الحجارة أو معدوم. فيا ليت شعري يوم ودع للترحال، ودعا حاديه بشد الرحال، كيف كان حاضروه في تلك الحال، هل استطاعوا معه صبراً، وأطاعوا لتلبيته أمراً، أو ضعف احتمالهم، وقوي في مفارقة النفوس اعتمالهم. ويا ليت شعري، غذ أفادوا الماء طهارة زائدة بغسل جلاله، هل حنطوه في غير ثنايه، أو كفنوه في غير خلاله. ويا ليست شعري إذا استقل به نعشه لأشرفٍ، ترفرف عليه المليكة ويظلله الرفرف، هل رأوا قبله حملة الأطوار على الأعواد، وسير الكواكب في مثل تلك المواكب، فيأنسوا بالإلف، ويرفعوا منكر الطرف، ويدعو لفيض من أثر ذلك الظرف. ويا ليت شعري، إذ ودعوا درة الوجود، صدفة اللحد المجود، لم أثروا الثرى على نفوسهم، ورضوا الأرض مغرباً لأنوار شموسهم. فهلا حفروا له بين أحناء الضلوع، وجعلوا الصفيح صريح الحب والولوع. فيكونوا قد فازوا بقربه، وجازوا فخراً خير لتربه. ويا ليت شعري إذا لم يفعلوا ذلك ولم يهتدوا هذه المسالك، هل قضوا حق الحزن، وسقوا جوانب الضريح من عبراتهم بأمثال المزن، وهل اتصفوا بصفة الأسف أو قنعوا منها بأن وصفوها، وهل تلافوا بقايا الأنفس، بعد المفقود الأنفس، وأتلفوه. فكل أسى لا تذهب النفس عنده، فما هو إلا من قبيل التصنع. يا قدس الله مثوى ذلك المتوفى، وما أظن الجزع تمم حقه ووفى. ولو درى الزمن وبنوه، قدر من فقدوه، لوجدوا المفاجي الفاجع، أضعاف ما وجدوه. فقد فقدوا واحداً جامعاً للعوالم، وماجداً رافعاً لأعلام المعالي والمعالم، ومفدى تقل

له في الفدا، ونفوس الأوداء والأعداء، ومبكىً ما قامت على مثله النوايح، ولا حسنت إلا فيه المراثي، كما حسنت من قبل فيه المدايح. رحمة الله عليه ورضوانه، وريحان الجنان يحييه به رضوانه. من لي بلسان يقضي حق ندبته، وجنان يقضي يقضي بما فيه إلى جثته وتربته، وقد نبهني حزني عليه وبلدني، وتملكني حصر الحسرة عليه وتعبدني، وأين يقع مهلهل البديه، مما يخفيه مهلهل الثكل ويديه. يميناً لو لبثت في كهف الروية ثلاثمائة سنين، واستمددت سواد ألسنة الفصحاء اللسنين، ما كنت في تأبين ذلك الفصل المبين من المحسنين، إلا أني أتيت بالطريف من بيانه والتليد، ورثيت رشد كماله برثايه كمال ابن رشد أبي الوليد، فأنشدت بنيه قوله فيه:ه في الفدا، ونفوس الأوداء والأعداء، ومبكىً ما قامت على مثله النوايح، ولا حسنت إلا فيه المراثي، كما حسنت من قبل فيه المدايح. رحمة الله عليه ورضوانه، وريحان الجنان يحييه به رضوانه. من لي بلسان يقضي حق ندبته، وجنان يقضي يقضي بما فيه إلى جثته وتربته، وقد نبهني حزني عليه وبلدني، وتملكني حصر الحسرة عليه وتعبدني، وأين يقع مهلهل البديه، مما يخفيه مهلهل الثكل ويديه. يميناً لو لبثت في كهف الروية ثلاثمائة سنين، واستمددت سواد ألسنة الفصحاء اللسنين، ما كنت في تأبين ذلك الفصل المبين من المحسنين، إلا أني أتيت بالطريف من بيانه والتليد، ورثيت رشد كماله برثايه كمال ابن رشد أبي الوليد، فأنشدت بنيه قوله فيه:

أخلاي إني من دموعي بزاخر ... بعيدٌ عن الشطين منه غريقه

وما كان ظني قبل فقد أبيكم ... بأن مصاباً مثل هذا أطيقه

ولم أدر من أشقى الثلاثة بعده ... أأبناؤه أم دهره أم صديقه

ثم استوفيت تلك الأبيات والرسالة، وأجريت بترجيعها من دم الكبد ونجيعها عبراتي المسالة، فحينئذ كنت أوفي المصاب واجبه، وأشفي صدوراً صدية شجية، وقلوباً واجفة واجبة. ولو أن ما رثي به نفسه الكريمة من ثر إساءته، حين رأى الحين مغتصباً حشاشة مكرماته. أثار كامن وجدي بألفاظه المبكية، ومعانيه التي تحل من مزاد العيون الأوكية، لاهب لي رنداً، وأعقبني صفاة تندى، وأطعمني في أن يعود بكاي زبداً. فقد بلغني أنه لما وقف على ثنية المنية، وعرف قرب انتقال الساكن من البنية، جمع بنات فكره، كما جمع شيبة الحمد بنات خدره، وقال يا بنياتي، قد آن ليومي أن يأتي فهل لكن أن ترينني، فوضعن أكبادهن على الوشج، ورفعن أصواتهن بالنشيج، وأقبلن يرجعن الأناشيد، ويفجعن القريب والبعيد، حتى أومأ إليهن، بأن قضين ما عليهن، فيا إخوناه، ومثلي بهذا النداء نخى وتاه، إسهموا أخاكم في ميراث تلكم الكلم، واحموا فؤاداً بالملم المؤلم قد كلم، ولا تقولوا يكفيه ميراث الأحزان، فتبخسوا وحاشاكم في الميزان، فإني وإن تناولتها باليدين، وغلبت عليها، فإني صاحب الفريضة والدين، فإني لحظي من ميراث الحكمة سائل، ومع أن لي حقاً فلي ذمم ووسايل، فابعثوا إلي ما يطارحني في أشجاني، واقف على رسمه فأقول شجاني، ولا أطلب من كلام ذلكم الإمام، العزيز فقده على الإسلام، قوله في التصبير، على الرزء الكبير، ووصاته، لئلا يلزمني، ولست بالمستطيع إصغاءً للمطيع لأمره وإنصاته، فإن امتثلت أصبت قتلي بما نئلت، وإن عصيت أبعدت نفسي من رضاه وأقصيت، ولي في استصحاب حالي أمل، وما لم يرد خطاب لم يلزم عمل. على أني وإن صاب وابل دمعي وصب، وأصبحت يذكر المصاب الكلف الصب، فلا أقول إلا ما يرضي الرب، فإني أبكي عالماً كبيراً، وعلماً شهيراً، تسعدني في بكايه الملة، وتنجدني بوجده، فأنا الكاتب وهي المملة. وأما أنتم أيها الإخوة الفضلاء، والصفوة الكرماء، فقد تلقيتم وصلته المباركة شفاهاً، وراوي صدوركم بكلامه النافع وشفاهاً، فلا يسعكم إلا الامتثال، والصبر الذي تضرب به الأمثال، فعزاءً عزاءً، وانتماءً إلى التأسي واعتزاءً، وإن فضل رزة أرزاء، وكان جزءٌ منه يعدل أجزاءً، فعلى قدرها تصاب العلياء، واشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأولياء. ذلك لتبين

فضيلة الرضاء والتسليم، وتتعين صفات من يأتي الله بالقلب السليم، ويعلم كيف الكريم للكريم، وكيف يحل الأجر العظيم، وهب الله لكم في مصابكم صبراً على قدره، وسكب ديم مغفرته على مثوى فقيدكم وقبره، وطيب بعرف روضات الجنات جنبات قصره، ونفعه بما كان أودعه من أسرار العلوم في صدره، وخلفه منكم بكل سرى بحلة المجد من كل بصدره.

قلت: ذكر الشيخ ابن الخطيب في الأصل في هذه الترجمة الأعيان والوزراء، ستة من أهل هذا البيت، كلهم يسمون بهذا الإسم، عدا واحداً، فإنه سمي بسيد، وذاك مما يدل على كثرة النباهة والأصالة والوجاهة، رحمهم الله.

ابن سالم

سليمن بن موسى بن سالم بن حسان بن أحمد بن عبد السلام الحميري الكلاعي بلنسي الأصل، يكنى أبا الربيع، ويعرف بابن سالم.

حاله

كان بقية الأكابر من أهل العلم بصقع الأندلس الشرقي، حافظاً للحديث، مبرزاً في نقده، تام المعرفة بطرقه، ضابطاً لأحكام أسانيده، ذاكراً لرجاله، ريان من الأدب، كاتباً بليغاً. خطب بجامع بلنسية واستقضى، وعرف بالعدل والجلالة، وكان مع ذلك من أولي الحزم والبسالة، والإقدام والجزالة والشهامة، يحضر الغزوات، ويباشر بنفسه القتال، ويبلي البلاء الحسن، آخرها الغزاة التي استشهد فيها.

مشيخته

روى عن أبي القاسم بن حبيش وأكثر عنه، وأبي محمد بن عبيد الله، وأبي عبد الله بن زرقون، وأبي عبد الله بن حميد، وأبي بكر بن الجد، وأبي محمد بن سيدبونه، وأبي بكر بن مغاور، وأبي محمد عبد المنعم ابن عبد الرحيم بن الفرس، وأبي بكر بن أبي جمرة، وأبي الحسن بن كوثر وأبي خالد بن رفاعة، وأبي جعفر بن حكم، وأبي عبد الله بن الفخار، وأبي الحجاج بن الشيخ، وأبي عبد الله بن نوح، وأبي الحجاج بن أبي محمد ابن أيوب، وأبي بكر عتيق بن علي العبدري، وأبي محمد عبد الوهاب ابن عبد الصمد بن عتاب الصدفي، وأبي العباس بن مضاء، وأبي القاسم ابن سمحون، وأبي الحسن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع الأشعري، وأبي زكريا الإصبهاني، وأبي بكر أسامة بن سليم، وأبي محمد عبد الحق الأزدي، وأبي محمد الشاذلي، وأبي الطاهر بن عوف، وأبي عبد الله الحضرمي، وجماعة غير هؤلاء من أهل المشرق والمغرب.

من روى عنه: روى عنه أبو بكر بن أبي جعفر بن عمر، وعبد الله ابن حزب الله، وأبو جعفر بن علي، وابن غالب، وأبو زكريا بن العباس، وأبو الحسن طاهر بن علي، وأبو الحسين عبد الملك بن مفوز، وابن الأبار، وابن الجنان، وابن المواق، وأبو العباس بن هرقد، وابن الغماز، وأبو عمرو بن سالم، وابو محمد بن برطلة، وأبو الحسن الرعيني، وأبو جعفر الطنجالي، وأبو الحجاج بن حكم، وأبو علي بن الناظر.

تصانيفه

منها مصباح الظلم، في الحديث، والأربعون عن أربعين شيخاً لأربعين من الصحابة، والأربعون السباعية، والسباعيات من حديث الصدفي، وحلية الأمالي في المراقبات العوالي، وتحفة الوداد ونجعة الرواد، والمسلسلات والإنشادات، وكتاب الاكتفاء في مغازي رسول الله، ومغازي الثلاثة الخلفاء، وميدان السابقين وحلية الصادقين

المصدقين في غرض كتاب الاستيعاب، ولم يكمله، والمعجم ممن وافقت كنيته زوجه من الصحابة، والإعلام بأخبار البخاري الإمام، والمعجم في مشيخة أبي القاسم بن حبيش، وبرنامج رواياته، وجنى الرطب في سنى الخطب، ونكتة الأمثال ونفثة السحر الحلال، وجهد النصيح في معارضة المعرى في خطبة الفصيح، والامتثال لمثال المنبهج في ابتداع الحكم واختراع الأمثال، ومفاوضة القلب العليل ومنابذة الأمل الطويل بطريقة أبي العلا المعري في ملقى السبيل، ومجاز فتيا اللحن للاحن الممتحن يشتمل على ماية مسألة ملغزة، ونتيجة الحب الصميم وزكاة المنثور والمنظوم، والصحف المنتشرة في القطع المعشرة، وديوان رسايله، سفر متوسط، وديوان شعره، سفر.

شعره

من شعره ما كتب به إلى أبي بحر صفوان ابن إدريس، عقب انفصاله من بلنسية عام سبعة وثمانين وخمسماية:

أحن إلى نجدٍ ومن حل في نجد ... وماذا الذي يغني حنيني أو يجدي
وقد أوطنوها وادعين وخلفوا ... محبهم رهن الصبابة والوجد
تبين بالبين اشتياقي إليهم ... ووجدي فساوى ما أجن الذي يبدي
وضاقت على الأرض حتى كأنها ... وشاحٌ بخصر أو سوارٌ على زند
إلى الله أشكو ما ألاقي من الجوى ... وبعض الذي لاقيته من جوى يرد
فراق أخلاءٍ وصد أحبة ... كأن صروف الدهر كانت على وعد
فيا سرحتي نجد نداء متيم ... له أبداً شوق إلى سرحتي نجد
ظميت فهل طلٌّ يبرد لوعتي ... ضحيت فهل ظلٌّ يسكن من وجد
ويا زمناً قد مر غير مذمم ... لعل الأنس قد تصرم من رد
ليالي نجني الأنس من شجر المنا ... ونقطف زهر الوصل من شجر الصد
وسقياً لإخوان بأكناف حايل ... كرام السجايا لا يحولون عن عهد
وكم لي بنجد من سرى ممجد ... ولا كابن إدريس أخي البشر والجد
أخو همة كالزهر في بعد نيلها ... وذو خلق كالزهر غب الحيا العد
تجمعت الأضداد فيه حميدة ... فمن خلق سبطٍ ومن حسبٍ جعد
أيا راحلاً أودى بصبري رحيله ... وفلل من عزمي وثلم من حد
أتعلم ما يلقى الفؤاد لبعدكم ... ألا مذ نأيتم لا يعيد ولا يبد

فيا ليت شعري هل تعود لنا المنا ... وعيشٌ كما نمنمت حاشيتي برد
عسى الله أن يدني السرور بقربكم ... فيبدو بنا الشمل منتظم العقد

ومن شعره في النسيب وفقد الشباب:

توالت ليالٍ للغواية جون ... ووافى صباح للرشاد مين
ركاب شبابٍ أزمعت عنك رحلةً ... وجيش شيبٍ جهزته منون
ولا أكذب الرحمن فيما أجنه ... وكيف وما يخفي عليه جنين
ومن لم يخل أن الرياء يشينه ... فمن مذهبي أن الرياء يشين
لقد ريع قلبي للشباب وفقده ... كما ريع بالعقد الفقيد ضنين
وآلمني وخط المشيب بلمتي ... فخطت بقلبي للشجون فنون

دليل شبابي كان أنضر منظراً ... وآنق مهما لاحظته عيون
فآها على عيشٍ تكدر صفوه ... وأنس خلا منه صفاً وحجون
ويا ويح فودي أو فؤادي كلما ... تزيد شيبي كيف بعد يكون
حرام على قلبي سكونٌ بغرة ... وكيف مع الشيب الممض سكون
وقالوا شباب المرء شعبة جنة ... فمالي عراني للمشيب جنون
وقالوا شجاك حدثان ما أتى ... ولم يعلموا أن الحديث شجون
وقال في الاستعانة والتوكل عليه:
أمولى الموالي ليس غيرك لي مولى ... وما أحدٌ يا رب منك بذا أولى
تبارك وجهٌ وجهت نحوه المنى ... فأوزعها شكراً وأوسعها طولا
وما هو إلا وجهك الدايم الذي ... أقل حلى عليائه يخرس القولا
تبرأت من حولي إليك وقوتي ... فكن قوتي في مطلبي وكن الحولا
وهب لي الرضا ما لي سوى ذاك مبتغى ... ولا لقيت نفسي على نيلها الهولا
وقال:
مضت لي سبعٌ بعد عشرين حجة ... ولي حركات بعدها وسكون
فيا ليت شعري كيف أو أين أو متى ... يكون الذي لابد أن سيكون
واستجاز المترجم به من يذكر بما نصه: المسئول من السادة العلماء أيمة الدين، وهداة المسلمين، أن يجيزوا لمن ثبت اسمه في هذا الاستدعاء، وهم المولى الوزير العالم الفاضل الأشرف بهاء الدين أبو العباس أحمد ابن القاضي الأجل أبي عبد الرحمن بن علي اليساني ولولديه أبي عبد الله، محمد، وأبي عبد الله الحسين وولده عبد الرحيم، ولأولاده ولده أبي الفتح حسن، وأبوي محمد عبد الرحمن ويوسف، ولمماليكه سنقر وأخيه الصغير وسنجر التركيون، وأفيد وأقسر الروميان، ولكمال بن يوسف بن نصر ابن ساري الطباخ، وللوجيه أبي الفخر بن بركات بن ظافر بن عساكر.
ولأبي الحسن بن عبد الوهاب بن وردان، ولأبي البقاء خالد بن يوسف الشاذلي ولولده محمد، ولمحمد بن يوسف بن محمد البزالي الإشبيلي ولولده، ولعبد العظيم بن عبد الله المندري ولولده أبي بكر، ولأبي الحسن ابن عبد الله العطار، جميع ما يجوز لهم روايته من العلوم على اختلافها، وما لهم من نظم ونثر، وإن رأوا تعيين موالدهم ومشايخهم، وإثبات أبيات يخف موقعها ثراه من الزلل، ومما يخالف الحق، فعلوا مأجورين. وكتب في العشر الأخر من شهر ربيع الآخر سنة ثلاثين وستماية.

فكتب مجيزاً بما نصه: قال سليمن بن موسى بن سالم الكلاعي، وكتب بيده، تجاوز الله عنه، وأقام بالعفو من أوده: إني لما وقفت على هذا الاستدعاء، أجاب الله في مستدعيه المسمين فيه صالح الدعاء، اقتضى حق المسئول له، الوزير الأجل، العالم الأشرف الأفضل بهاء الدين أبو العباس ابن القاضي الأجل، الفاضل العلم الأوحد، ندرة الزمان، ولسان الدهر، وقس البيان، أبي علي عبد الرحيم بن علي، أعلى الله قدره ورفعه، ووسم سلفه الكريم ونفعه، تأكيد الإسعاف، بحكم الإنصاف له، ولكل من سمي معه. فأطلقت الإذن لجميعهم، على تباعد أفكارهم وتدانيها، وتباين أقدارهم وتساويها، من أب سنى، وذرية عريقة في النسب العلي، ومماليك له تميزوا بالنسب المولوي، وسمين بعدهم، اعتلقوا من الرغبة في نقل العلم، بالحبل المتين، والسبب القوي. والله بالغ بجميعهم، من تدارك الآمال أبعد الشأو القصي، ويجريهم من مساعدة الإمكان، ومسالمة الزمان، على المنهج المرضي، والسنن السوي، أن يحدثوا بكل ما

اشتملت عليه روايتي، ونظمته عنايتي، من مشهور الدواوين، ومنثور الأجزاء المنقولة عن ثقات الراوين، وغير ذلك من المجموعات في أي علم كان من علوم الدين، وكل ما يتعلق بها من قرب أو بعد، مما يقع عليه التعيين، وبما يصح عندهم نسبته إلي من مجموع جمعته، ومنظوم نظمته، أو نثر صنعته. الإباحة العامة على ذلك آتية، ومقاصد الإسعاف لرغباتهم فيه مطاوعة وموافية، فليرووا عني من ذلك موفقين، ما شاءوا أن يرووه، وليلتزموا في تحصيله أولاً، وأدايه ثانياً، أو في ما التزمه العلماء واشترطوه. ومن جله شيوخي وصدورهم، الذين سمعت منهم، وأخذت بكل وجوه الأخذ عنهم، القاضي الإمام الخطيب العلامة، أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن حبيش، آخر أيمة المحدثين بالمغرب رضي الله عنهم. والإمام الحافظ الصدر الكبير أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرج بن الجد الفهري. والفقيه المشاور القاضي المسند أبو عبد الله محمد ابن أبي الطيب. والفقيه الحافظ أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجي. والقاضي الخطيب النحوي أبو عبد الله محمد بن جعفر بن حميد. والأستاذ الحافظ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن جمهور القيسي. والشيخ الراوية الثقة أبو محمد عبد الحق بن عبد الملك بن بونه بن سعيد بن عصام العبدري. والشيخ الصالح أبو جعفر أحمد ابن حكم القيسي الحصار الخطيب بجامع غرناطة، والفقيه القاضي الأجزل أبو العباس يحيى بن عبد الرحمن بن الحاج. والقاضي الفقيه الحسيب أبو بكر بن أبي جمرة. والقاضي أبو بكر بن مغمور. والقاضي المسند أبو الحسين عبد الرحمن بن ربيع الأشعري. وسوى هؤلاء ممن سمعنا منه كثيراً، وكلهم أجازني روايته وما سمعه. وقرأت على الخطيب أبي القاسم بن حبيش غير هذا وسمعت كثيراً، وتوفي رحمه الله بمرسية في الرابع عشر لصفر سنة أربع وثمانين وخمسماية. ومولده سنة أربع وخمسماية على ما أخبرني به رحمه الله ورضي عنه. ومما أخذته عن الحافظ أبي بكر بن الجد بإشبيلية بدله، موطأ مالك، رواية يحيى بن يحيى القرطبي، أخبرني به عن أبي بحر سفيان بن العاصي الأسدي الحافظ، سماعاً بأسانيده المعلومة. وتوفي الحافظ أبو بكر سنة ست وثمانين. وقرأت على الفقيه أبي عبد الله بن زرقون أيضاً موطأ مالك، وحدثني به عن أبي عبد الله الخولاني إجازة، قال سمعته على أبي عمرو عثمان بن أحمد بن يوسف اللخمي، عن أبي عيسى يحيى بن عبد الله بن أبي عيسى،عن عمر أبيه عبيد الله بن يحيى الليثي عن أبيه عن مالك بن أنس، رضي الله عن جميعهم. ولا يوجد اليوم بأندلسنا ومغربنا بأعلى من هذه الأسانيد. وممن كتب لي بالإجازة من ثغر الإسكندرية الإمام الحافظ مفتي الديار المصرية ورئيسها أبو الطاهر بن عوف، والفقيه الحاكم أبو عبد الله بن الحضرمي، والفقيه المدرس أبو القاسم بن فيره، وغيرهم. نفعنا الله بهم، ووفقنا للإقتداء بصالح مذهبهم. وأما المولد الذي وقع السؤال عنه، فإني ولدت على ما أخبرني أبواي رحمهما الله، بقاعدة مرسية، مستهل رمضان المعظم سنة خمس وستين وخمسماية. ومما يليق أن يكتب في هذا الموضع ما أنشدني شيخاً الفقيه أبو بكر عبد الرحمن بن محمد بن مغاور رحمه الله في منزله بشاطبة سنة ست وثمانين وخمسماية، وهو بقية مشيخة الكتاب بالأندلس لنفسه، مما أعده

ليكتب على قبره:ليكتب على قبره:

أيها الواقف اعتباراً بقبري ... استمع فيه قول عظمي الرميم

أودعوني بطن الضريح وخافوا ... من ذنوب كلومها بأديم

قلت لا تجزعوا علي فإني ... حسن الظن بالرؤوف الرحيم

ودعوني بما اكتسبت رهيناً ... غلق الرهن عند مولى كريم

انتهى. وكتب هذا بخطه في مدينة بلنسية حماها الله، سليمن بن موسى بن سالم الكلاعي، في الموفى عشرين لجمادى

الآخرة سنة إحدى وثلاثين وستماية. والحمد لله رب العالمين.

وفاته

كان أبداً يقول إن منتهى عمره سبعون سنة لرؤيا رآها في صغره، فكان كذلك، واستشهد في الكاينة على المسلمين بظاهر أنيشة على نحو سبعة أميال منها؛ لم يزل متقدماً أمام الصفوف زحفاً على الكفار، مقبلاً على العدو، ينادي بالمنهزمين من الجند يفرون، حتى قتل صابراً محتسباً، غداة يوم الخميس لعشر بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وستماية.

ورثاه أبو عبد الله بن الأبار رحمه الله بقوله:

ألما بأشلاء العلى والمكارم ... تقد بأطراف القنا والصوارم
وعوجا عليها مأرباً وحفاوةً ... مصارع غصت بالطلا والجماجم
تحيي وجوهاً في الجنان وجيهة ... بما لقيت حمراً وجوه الملاحم
وأجساد إيمان كساها نجيعها ... بحاسد من نسيج الظبا واللهاذم
مكرمة حتى عن الدفن في الثرى ... وما يكرم الرحمن غير الأكارم
هم القوم راحوا للشهادة فاغتدوا ... وما لهم في فوزهم من مقاوم
تساقوا كؤوس الموت في حومة الوغى ... فمالت بهم ميل الغصون النواعم
مضوا في سبيل الله قدماً كأنما ... يطيرون من أقدامهم بقوادم
يرون جوار الله أكبر مغنم ... كذاك جوار الله أسنى المغانم
عظائم نالوها فخاضوا لنيلها ... ولا روع يثنيهم صدور العظائم
وهان عليهم أن تكون لحودهم ... متون الروابي أو بطون التهايم
ألا بأبي تلك الوجوه سواهما ... وإن كن عند الله غير سواهم
عفا حسنها إلا بقايا مباسم ... يعز علينا وطؤها بالمناسم
وسؤر أسارير تنير طلاقة ... فتكسف أنوار النجوم العواتم
لئن وكفت فيها الدموع سحايباً ... فعن بارقات لحن فيها لشائم
ويا بأبي تلك الجسوم نواحلاً ... بإجرائها نحو الأجور الجسائم
تغلغل فيها كل أسمر ذابل ... فجدل منها كل أبيض ناعم
فلا يبعد الله الذين تقربوا ... إليه بإهداء النفوس الكرائم
مواقف أبرار قضوا من جهادهم ... حقوقاً عليهم كالفروض اللوازم
أصيبوا وكانوا في العبادة أسوة ... شباباً وشيباً بالغواشي الغواشم
فعامل رمح دق في صدر عامل ... وقائم سيف قد في رأس قائم
ويا رب صوام الهواجر واصل ... هنالك مصروم الحياة بصارم
ومنقذ عانٍ في الأداهم راسفٌ ... ينوء برجلي راسفٍ في الأداهم
أضاعهم يوم الخميس حفاظهم ... وكرهم في المأزق المتلاحم
سقى الله أشلاءً بسفح أنيشة ... سوافح ترجيها ثقال الغمايم
وصلى عليها أنفساً طاب ذكرها ... فطيب أنفاس الرياح النواسم

لقد صبروا فيها كراماً وصابروا ... فلا غرو أن فازوا بصفو المكارم
وما بذلوا إلا نفوساً كريمة ... تحن إلى الأخرى حنين الروائم
ولا فارقوا والموت يتلع جيده ... فحيث التقى الجمعان صدق العزائم
بعيشك طارحني الحديث عن التي ... أراجع فيها بالدموع السواجم
وما هي إلا غاديات فجائع ... تعبر عنها رايحات مآتم

جلائل دق الصبر فيها فلم نطق ... سوى غض أجفانٍ وغض أباهم
أبيت لها تحت الظلام كأنني ... رمي نصال أو لديغ أراقم
أغازل من برح الأسى غير بارح ... وأزجر من سأم البكا غير سائم
وأعقد بالنجم المشرق ناظري ... فيغرب عني ساهراً غير نائم
وأشكو إلى الأيام سوء صنيعها ... ولكنها شكوى إلى غير راحم
وهيهات هيهات العزاء ودونه ... قواصم شتى أردفت بقواصم
ولو برد السلوان حر جوانحي ... لآثرت عن طوعٍ سلو البهائم
ومن لي بسلوان يحل منفراً ... بجاثٍ من الأرزاء حولي جاثم
وبين الثنايا والمخارم رمةٌ ... سرى في الثنايا طيبها والمخارم
بكتها المعالي والمعالم جهدها ... فمن للمعالي بعدها والمعالم
سعيدٌ صعيدٌ لم ترمه قرارة ... وأعظم بها وسط العظام الرمايم
كأن دماً أذكى أديم ترابها ... وقد مازجته الريح مسك اللطايم
يشق على الإسلام إسلام مثلها ... إلى خامعاتٍ بالفلا وقشاعم
كأن لم تبت تغشى للسراة قبابها ... ويرعى حماها الصيد رعي السوايم
سفحت عليها الدمع أحمر وارساً ... كما تنثر الياقوت أيدي النواظم
وسامرت فيها الباكيات نوادياً ... يورقن تحت الليل ورق الحمايم
وقاسمت في حمل الرزية أهلها ... وليس قسيم البر غير المقاسم
فوا أسفاً للدين أعضل داؤه ... وآيس من أسٍّ لمسراه حاسم
ويا أسفاً للعلم أقوت ربوعه ... وأصبح مهدود الذرى والدعائم
قضى حامل الآثار من آل يعرب ... وحامي هدي المختار من آل هاشم
خبا الكوكب الوقاد إذ متع الضحى ... ليخبطه في ليلٍ من الجهل فاحم
وخابت مساعي السامعين حديثه ... كما شاء يوم الحاديث المتفاقم
فأي بهاءٍ غار ليس بطالع ... وأي سناءٍ غاب ليس بقادم
سلامٌ على الدنيا إذا لم يلح بها ... محيا سليمن بن موسى بن سالم
وهل في حياتي متعةٌ بعد موته ... وقد أسلمتني للدواهي الدواهم
فها أنا ذا في حرب دهر محارب ... وكنت به في أمن دهر مسالم
أخو العزة القعساء كهلاً ويافعاً ... وأكفاؤه ما بين راض وراغم
تفرد بالعلياء علماً وسؤدداً ... وحسبك من عال على الشهب عالم

معرسه فوق السهى ومقيله ... ومورده قبل النسور الجواثم
بعيدٌ مداه لا يشق غباره ... إذا فاه فاض السحر ضربة لازم
يفوض منه كل ناد ومنبر ... إلى ناجح مسعاه في كل ناجم
متى صادم الخطب الملم بخطبةٍ ... كفى صادماً منه بأكبر صادم
له منطق سهل النواحي قريبها ... فإن رمته ألفيت صعب الشكايم
وسحر بيان فات كل مفوه ... فبات عليه قارعاً سن نادم
وما الروض حلاه بجوهره الندي ... ولا البرد وشقه أكف الرواقم
بأبدع حسناً في صحائفه التي ... تسيرها أقلامه في الأقالم
يمانٍ كلاعي نماه إلى العلا ... تمامٌ حواه قبل عقد التمايم
يروق رواق الملك في كل مشهد ... ويحسن وسماً في وجوه المواسم
ويكثر أعلام البسيطة وحده ... كمال مثال أو جمال مقاوم
لعا لزمان عاثرٍ من خلاله ... براق من الجلى أصيب بواقم
مناد إلى دار السلام منادم ... بها الحور واهاً للمنادي المنادم

أتاه رداه مقبلاً غير مدبر ... ليحظى بإقبالٍ من الله دايم
إماماً لدين أو قواماً لدولة ... تولى ولم تلحقه لومة لايم
فإن عابه حساده شرقاً به ... فلن تعدم الحسناء ذاماً بذايم
فيا أيها المخدوم سامى محله ... فدىً لك من ساداتنا كل خادم
ويا أيها المختوم بالفوز سعيه ... ألا إنما الأعمال حسن الخواتم
هنيئاً لك الحسنى من الله إنها ... لكل تقيٍّ خيمه غير خايم
تبوأت جناتٍ النعيم ولم تزل ... نزيل الثريا قبلها والنعائم
ولم تأل عيشاً راضياً أو شهادة ... ترى ما عداها في عداد المآتم
لعمري ما يبلي بلاؤك في العدا ... وقد جرب الأبطال ذبل الهزايم
وتالله لا ينسى مقامك في الوغى ... سوى جاحدٍ نور الغزالة كاتم
لقيت الردى في الروع جذلان باسماً ... فبوركت من جذلان في الروع باسم
وحمت على الفردوس حتى وردته ... ففزت بأشتات المنا فوز غانم
أجدك لا تثني عناناً لأوبةٍ ... أداوي بها برح الغليل المداوم
ولا أنت بعد اليوم واعد هبةٍ ... من النوم تحدوني إلى حال حالم
لسرعان ما قوضت رحلك ظاعناً ... وسرت على غير النواحي الرواسم
وخلفت من يرجو دفاعك يائساً ... من النصر اثناء الخطوب الصرايم
كأني للأشجان فوق هواجر ... بما عادني من عادياتٍ هواجم
عدمتك مفقوداً يعز نظيره ... فيا عز معدوم ويا هون عادم
ورمتك مطلوباً فأعيى مناله ... وكيف بما أعيى منالاً لرايم
وإني لمحزون الفؤاد صديعه ... خلافاً لسالٍ قلبه منك سالم

وعندي إلى لقياك شوق مبرح ... طواني من حامي الجوى فوق جاحم
وفي خلدي والله ثكلك خالدٌ ... ألية برٍّ لا ألية آثم
ولو أن في قلبي مكاناً لسلوة ... سلوت ولكن لا سلو لهائم
ظلمتك أن لم أقض نعماك حقها ... ومثلي في أمثالها غير ظالم
يطالبني فيك الوفاء بغاية ... سموت لها حفظاً لتلك المراسم
فأبكي لشلوٍ بالعراء كما بكى ... زياد لقبرٍ بين بصرى وجاسم
وأعبد أن يمتاز دوني عبدةً ... بعلياء في تأبين قيس بن عاصم
وهذي المراثي قد وفيت برسمها ... مسهمة جهد الوفي المساهم
فمد إليها رافعاً يد قابلٍ ... أكب عليها خافضاً فم لاثم
ومن القضاة في هذا الحرف

سلمون بن علي

بن عبد الله بن سلمون الكناني

من أهل غرناطة يكنى أبا القاسم، ويدعى باسم جده سلمون، وقد مر ذكر أبيه وأخيه.

حاله

من أهل العلم والهدى الحسن، والوقار، قديم العدالة، متعدد الولاية، مضطلع بالأحكام، عارف بالشروط، صدر وقته في ذلك، وسابق حلبته إلى الرواية، والمشاركة، والتبجح، في بيت الخير والحشمة، وفضل الأبوة والأخوة. قل في الأندلس مكانٌ شذ عن ولايته، وناب عن القضاة بالحضرة، فحمد نفاذه، وحسنت سيرته. ثم ولي مستبداً في الدولة الباغية، وخاض في بعض أهوائها، بما جر عليه عتباً، فعقبه الإعتاب عن كثب.

تواليفه

ألف في الوثائق المرتبطة بالأحكام كتاباً مفيداً، نسبه بعض معاصريه إلى أنه قيده عن شيخه أبي جعفر بن فركون، ودون مشيخته.

مشيخته

أجازه الراوية المعمر أبو محمد بن هرون الطابي، والشيخ المسن أبو جعفر أحمد بن عيسى بن عياش المالقي، والشيخ الأديب أبو الحكم بن المرحل، والعدل أبو بكر بن إسحاق التجيبي، والقاضي أبو العباس بن الغماز، والقرضي أبو إسحق التلمساني، وأبو الحسن بن عبد الباقي بن الصواف، والمحدث أبو محمد الخلاسي، والراوية أبو سلطان جابر بن محمد بن قاسم ابن حيان القيسي، والوزير أبو محمد بن سماك، والشيخ المدرس بالديار المصرية أبو محمد الدمياطي، والمقري الراوية أبو عبد الله بن عياش، وأبو الحسن بن مضاء، والمحدث أبو عبد الله بن النجار، وأبو زكريا بن عبد الله بن محرز، والمقري أبو بكر بن عبد الكريم ابن صدقة السفاقسي، والشيخ زين الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن القرشي العوني، وأبو القاسم الأيسر الجذامي، وشهاب الدين الأبرقوسي، والعدل أبو فارس الهواري، وأبو الكرم الحميري، وأبو الفدا بن المعلم، والشريف أبو الحسن القرافي، وأبو عبد الله بن رحيمة، والشيخ أبو عبد الله بن الليدي، وأبو الحسن بن عطية البودري، وأبو محمد ابن سعيد المسراتي، وأبو عبد الله بن عبد

الحميد، والخطيب أبو الحسن ابن السفاج الرتدي، وأبو محمد بن عطية، والوزير أبو عبد الله بن أبي عامر ابن ربيع، والعدل أبو الحسن بن مستقور، والخطيب أبو عبد الله ابن شعيب، والشريف أبو علي بن طاهر بن أبي الشرف، والأستاذ أبو بكر ابن عبيدة. وقرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، وبرنامج رواياته نبيه.

مولده

عام خمسة وثمانين وستماية.

من المحدثين والفقهاء وسائر الطلبة النجباء بين أصلي وغيره

سعيد بن محمد الغساني

سعيد بن محمد بن إبراهيم بن عاصم بن سعيد الغساني من أهل غرناطة، يكنى أبا عثمن.

حاله

هذا الرجل من أهل الذكاء والمعرفة والإدراك، يقوم على الكتاب العزيز حفظاً وتدريساً، ويشارك في فنون، من أصول وفقه وحساب وتعديل، ومعرفة بالإلمامات الشعاعية. يكتب خطاً حسناً، وينظم الشعر، ويحفظ الكثير من النتف والأخبار، مقتصد، منقبض عن الناس، مشتغل بشأنه، قيد الكثير، يسير إلى لزمانة، أصابت أختها، بما يدل على نشاطه وهمته.

مشيخته

قرأ على الأستاذ الخطيب أبي القاسم بن جزي، ورحل إلى العدوة، فلقي بفاس وتلمسان جملة، كالأستاذ أبي إسحق السلاوي التلمساني، وأبي العباس أحمد بن عبد الرحمن المكناسي من أهل فاس، والحاج ابن سبيع وغيرهم.

واستدعيته لتأديب ولدي أسعدهم الله، فبلوت منه على السنين، نضحاً وسلامة وديناً وعفة.

شعره

جرى ذكر في الإكليل الزاهر بما نصه: ممن يتشوق إلى المعارف والمقالات، ويتشوف إلى الحقائق والمجالات، ويشتمل على نفس رقيقة، ويسير من تعليم القرآن على خير طريقة، ويعاني من الشعر ما يشهد بنبله، ويستطرف من مثله.

فمن شعره قوله:

لما نأوا في الظاعنين وساروا ... أضحت قلوب العاشقين تحار

تركوهم في ظلمة وتوحش ... ما انجابت الأضواء والأنوار

ذهبوا فأبقوا كل عقل ذاهلاً ... ولكل قلب بالنزوح مطار

ظعنوا وقد فتنوا الورى بجمالهم ... عبثوا بأفئدة الأنام وحار

ما ضرهم قيل النوى لو ودعوا ... ما ضرهم لو أعلموا إذ سار

فقلوبنا من بعدهم في فجعة ... ودموعنا من بعدهم أمطار

يا دار أين أحبتي ووصالنا ... أين الذي كنا به يا دار

كنا نذيع به عبير حديثنا ... وكلامنا الألطاف والأشعار

والطير تتلو فوقنا نغماتها ... والدهر يسمح والمدام تدار

ولطالما بتنا وبات رقيبنا ... في غفلة قضيت بها الأوطار

هل زمن تقادم عهده ... نلنا بها النعمى ونحن صغار
فلا تذر على الوصال وابكين ... ما دامت الآصال والأسحار
ومن المقطوعات:
وكم عذلوني في هواه وما رأوا ... محياه حتى عاينوه وسلموا
وقالوا نعم هذا الكمال حقيقةٌ ... فحطوا وجاءوا صاغرين وسلموا
وكتب إلي صحبة كتاب أعرته إياه، عقب الفراغ من مطالعته:

هذا كتاب كل معجم ... أفحمني معناه إفحاما
أعجمه منشئه أولا ... وزاده الناسخ إعجاما
أسقط من إجماله جملة ... وزاد في التفصيل أقساما
وغير الألفاظ عن وضعها ... وصير الإيجاد إعداما
فليس في إصلاحه حيلةٌ ... ترجى ولو قوبل أعواما
نثره

كتب إلي شافعاً في الولد، وأنا واجد عليه: من حل محل السيد نادرة الزمان، وسابق حلبة البيان، في رسوخ العلم، والسمو في درجة الحلم، وأرضعته الحكم درتها، وقلدته المعارف دررها، وجلت عليه بدرها، وجلبت إليه بذرها، كان بالحنو والرأفة خليقاً، وأن يهب نسيمه لدناً رفيقاً، وأن يتعاهد بالعطف غرساً في زاكي تربتة ظلي، وإلى محتده المنجب وفضله المنجب أنتمي، فيلحفه من الرحمة جناحاً، ويطلع عليه في ليل الوحشة المؤلمة، من نور صفحه عن هفوته مصباحاً، والذنب إذا لم يكن عقوقاً ولا سوء أدب، وكان في المماليك والقيم المالية مغتفر، عند الأكابر مثله من ذوي الرتب، وقد بلغ في الاعتراف غاية المدى، واندمل الجرح الذي أصابته المدى، والبون واضح في المقاييس، بين المرؤوس والرئيس، وشتان بين الزيف والجوهر النفيس. ومع أن الولد كمد، فهو للنفس ريحانة، وفي فص خاتم الإنسان جمانة، وقد نال منه هذا الإمضاء، والصارم يتخذ فيزيد منه المضاء، وهو يرتجي كل ساعة، أن يفد عليه البشير برضاك، فيستأنف جهوراً، وينقلب إلى أهله مسروراً، والله يبقيك، والوزارة ترفل منك في مظهر حلل، ويريك في نفسك وبنيك غاية الأمل.
مولده
التاسع لذي الحجة عام تسعة وتسعين وستماية، وهو الان على حاله الموصوفة.
من الكتاب والشعراء

سهل بن طلحة

من أهل غرناطة، يكنى أبا الحسن.
حاله
كان ظريفاً، عنده مشاركة في الطلب. مدح ولي العهد أبا عبد الله ابن الغالب بالله بشعرٍ وسط، فمن ذلك قوله من قصيدة أولها:
أنا للغرام وللهوى مدفوع ... فمتى السلو ووصلها ممنوع

يقول أيضاً منها بعد كثير:

يا حبذا دارٌ لزينب باللوى ... حيث الفؤاد على الهوى مطبوع

يا حادي العيس التفت نحو اللوى ... إني بسكان اللوى مفجوع

وعج المطي بلعلع وبرامة ... فهناك قلب للشجي مروع

أطلال آرام وبيضٌ خردٌ ... هن الأهلة بالجيوب طلوع

في ظبية من بينهن تصدني ... حسناً ولي أبداً إليه نزوع

حوراء جايرةٌ علي بحكمها ... ظلماً وإني مذعن وسميع

تفنى الليالي والزمان وأنقضى ... كمداً ولا نبأٌ لها مسموع

فيا ليت هل دهر يعود بوصلها ... فيكون للعيش الخصيب رجوع

وتعود أيام السرور كمثل ما ... قد عاد روح حياتها والروع

فقدوم مولانا الأمير محمد ... خير الملوك ومن له الترفيع

وفاته

كان حياً سنة اثنتين وخمسين وستماية.

ابن سالم

سالم بن صالح بن علي بن صالح بن محمد الهمداني من أهل مالقة، يكنى أبا عمرو ويعرف بابن سالم.

حاله

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: كان أديباً مقيداً. كتب بخطه كثيراً، وانتسخ أجزاء عدة، واجتهد وأكثر، وكان متبذلاً في لباسه، متواضعاً، مقتصداً، مليح المجاللسة، حسن العشرة، جليل الأخلاق، فاضل الطبع.

مشيخته

روى عن الحافظ أبي عبد الله بن الفخار، وأبي زيد السهيلي، وأبي الحجاج بن الشيخ، وأبي جعفر بن حكم، وأبي بكر بن الجد، وأبي عبد الله بن زرقون، وأبي محمد بن عبيد الله. وشارك في كثير من شيوخه أبا محمد القرطبي، وكان يناهضه.

دخوله غرناطة

دخلها، وأقام بها، وأخذ عن شيوخها، وتردد إليها.

شعره

قال في رمح:

أنا الرمح المعد إلى النوايب ... فصاحبني تجدني خير صاحب

لئن فخر اليراع بكتب خطٍّ ... فلخطي فخرٌ بالكتايب

ومما كتب له ابن خميس قوله:

إلهي قد عصينا منك رباً ... تعلى أن يقابل بالمعاصي

فكيف خلوصنا من هول يوم ... تشيب لهوله سود النواصي

وجلب شعراً كثيراً دون شهرته، وما ذكر به. وتوفي بمالقة ليلة الإثنين لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان المعظم

سنة عشرين وستماية.

حرف الهاء من الملوك والأمراء

المعتد بالله

هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد بن عبد الله أخو المرتضى المتقدم الذكر ، يكنى أبا بكر، ويلقب بالمعتد بالله الخليفة بقرطبة.

صفته

أبيض أصهب، إلى الأدمة، سبط الشعر، أخنس، خفيف العارض واللحية، حسن الجسم، إلى قصر، أمه أم ولد تسمى عاتبا.

حاله

بويع له بالثغر، فقرطبة أيام استقراره بحصن ألبنت ، عند صاحبه عبد الله بن قاسم الفهري. قال ابن حيان، ثالباً إياه على عادته، قلد الأمر في سن الشيخوخة، وكان معروفاً بالشطارة في شبابه، وأقلع فرجي فلاحه. وقال، دخل قرطبة في زي تقتحمه العين، وهناً وقلة، عديم رواءٍ وبهجة، وعددٍ وعدة، فوق فرسٍ دون مراكب الملوك، بحلية مختصرة، سادلاً سمل غفارة على ما تحتها من كسوةٍ رثة، قدامه سبع خبايب من خيل العامريين دون علم ولا مضطرد، يسير هوناً والناس ينظرون إليه، ويصيحون بالدعاء في وجهه. فدخل القصر، وقلد حكماً المعروف بالقزاز الأعمال والأمر، وأطلق يده في المال، وهو الذي يقول فيه الشاعر:

هبك كما تدعي وزيرا ... وزير من أنت يا وزير

والله ما للأمير معنى ... فكيف من وزير الأمير

وضعف أمره، وآثر الناس الوثوب على وزيره، فأوقع به طايفة من الجند، وثارت العامة بهشام فخلع في خبر طويل، ودخل غرناطة مع أخيه المرتضى، ولحق يوم هزيمته بظاهرها، بحصن ألبنت إلى أن بويع له بقرطبة يوم الأحد لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثمان عشرة وأربعماية.

محنته

ثارت العامة به بقرطبة كما تقدم، ملتفةً على أمية بن عبد الرحمن ابن هشام بن سليمن بن عبد الرحمن الناصر، يوم الثلاثاء الثاني عشر لذي حجة من سنة اثنتين وأربعمائة، بسوء تدبير وزيره، وبادر الاعتصام بعلية القصر، وأنزل منها إلى ساباط الجامع بالأمان، فيمن تألف إليه من ولده وحريمه، فحدث بعض سدنة الجامع أن أول ما سأل الشيوخ، إحضار كسيرة من خبز يسد جوع طفيلة له، كان قد احتضنها، ساتراً لها بكمه من قر ليلته تلك، كانت تشكو الجوع ذاهلة عما أحاط به، فأبكى من كلمه اعتباراً بعادية الدهر. وأخرج إلى حصن ابن الشرف إلى أن هلك.

وفاته

في صفر ثمان وعشرين وأربعمائة. وسنه نحو أربعة وستين سنة. وكان آخر ملوك بني أمية بالأندلس.

ومن ترجمة الأعيان والكبرا والأماثل والوزرا

هاشم بن أبي رجاء الإلبيري

الوزير، يكنى أبا خالد.

حاله

كان من عظماء أهل إلبيرة وحليتهم، وهو الذي عاد الفقيه الزاهد ابا إسحق بن مسعود الإلبيري في مرضه، وعذله على رداءة مسكنه، وقال له لو سكنت داراً خيراً من هذه لكانت أولى لك، فأجابه رحمه الله بقوله:

قالوا ألا تستجيد بيتاً ... تعجب من حسنه البيوت
فقلت ما ذاكم صوابٌ ... حقيرٌ كثيرٌ لمن يموت
لولا شتاءٌ ولفح قيظ ... وخوف لص وحفظ قوت
ونسوةٌ يبتغين كناً ... بنيت بنيان عنكبوت
وأي معنىً لحسن مغنىً ... ليس لسكانه ثبوت
ما لوعظ القبر لو عقلنا ... موعظة للناطق الصموت
يومي إلى ممتطي الحنايا ... مالك عن مضجعي عميت
نسيت يومي وطول نومي ... وسوف تنسى كما نسيت
وسدت يا هادمي قصوراً ... نعمت فيهن كيف شيت
معتنقاً للحسان فيها ... مستشقاً مسكها الفتيت
تسحب ذيل الصبا ... وتلهو بآنسات يقلن هيت
فاذكر سهادي قبل التنادي ... واسهد له قبل أن يفوت
فعن قريب يكون ظعني ... سخطت يا صاح أم رضيت

حرف الياء: الملوك والأمراء

يوسف بن إسمعيل

بن فرج بن إسمعيل بن يوسف بن نصر الأنصاري الخزرجي

أمير المسلمين بالأندلس، أبو الحجاج.

حاله وصفته

كان أبيض أزهر، أيداً، براق الثنايا، أنجل، رجل الشعر أسوده، كث اللحية، تقع العين منه على بدر تمام، يفضل الناس بحسن المرأى، وجمال الهيئة، كما يفضلهم مقاماً وربتة، عذب اللسان، وافر العقل، عظيم الهيبة، إلى ثقوب الذهن، وبعد الغور، والتفطن للمعاريض، والتبريز في كثير من الصنائع العملية، مائلاً إلى الهدنة، مزجياً للأمور، كلفاً بالمباني والأثواب، جماعة للحلي والذخيرة، مستميلاً لمعاصريه من الملوك. تولى الملك بعد أخيه بوادي السقايين من ظاهر الخضراء، ضحوة يوم الأربعاء الثالث عشر من ذي الحجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية، وسنه إذ ذاك خمسة عشر عاماً وثمانية أشهر، واستقل بالملك، واضطلع بالأعباء، وتملأ الهدنة ما شاء. وعظم مرانه لمباشرة الألقاب، ومطالعة الرسم، فجاء نسيج وحده، ثم عانى شدايد العدو، فكرم يوم الوقيعة العظمى بظاهر طريف موقعه، وحمد بعد في منازلة الطاغية عند الجثوم على الجزيرة صبره، وأجاز البحر في شأنها، فأفلت من مكيدة العدو التي تخطاها أجله، وأوهن حبلها سعده. ولما نفذ فيها القدر، وأشفت الأندلس، سدد الله أمور المسلمين بها على يده، وراخى

مخنق الشدة بسعيه، فعرفت الملوك رجاحته، وأثنت على قصده، إلى حين وفاته.

أمه

أم ولد تسمى بهاراً، طرفٌ في الخير والصون والرجاحة.

ولده

كان له ثلاثة من الولد، كبيرهم محمد أمير المسلمين من بعده، وتلوه أخوه إسمعيل المستقر في كنفه، محجوراً عليه التصرف إلى أعمال التدبير، وثالثهم إسمه قيس، شقيق إسمعيل.

وزراء دولته

تولى وزارته لأول أمره، كبير الأكره ونبيه الدهاقين ، من منتجعي المدر بحضرته، أبو إسحق بن عبد البر، لخيلة طمع نشأت لمقيمي الدولة فيما بيده، سداً لحال بها على عوز طريقه إلى حضرته، إلى ثالث شهر المحرم من العام. وأنف الخاصة والنبهاء، رياسته، فطلبوا من السلطان إعاضته، فعدل عنه إلى خاصة دولتهم الحاجب أبي النعيم رضوان ، مظنة التسديد، ومحط الإنفات، فاتصل نظره مستبداً عليه، في تنفيذ الأمور، وتقديم الولاة والعمال، وجواب المخاطبات، وتدبير الرعايا، وقود الجيوش. ثم نكبه، وأحاط به مكروهاً، مجهول السبب، ليلة الأحد الثاني والعشرين لرجب عام أربعين وسبعماية.

وتولى الوزارة بعده، ابن عمة أبيه القايد أبو الحسن علي بن مول ابن يحيى بن مول الأمي، ابن عم وزير أخيه، رجل جهوري حازم؛ مؤثر للغلظة على الشفقة، ولم ينشب أن كف كف اسبتداده، فانكدر نجم سعادتهم، والتأثث حاله. ولزمته شكاية سدكت فاستنقذته. وأقام لرسم الوزارة كاتبه شيخنا نسيج وحده أبا الحسن بن الجياب إلى أخريات شوال عام تسعة وأربعين وسبعماية، وهلك رحمه الله فأجرى لي الرسم، وعصب لي تلك المثابة، مضاعف الجراية، معززة بولاية القيادة

كتابه

تولى كتابته كاتب أخيه وأبيه، شيخنا المذكور إلى حين وفاته. وقلدني كتابة سره مثناة بمزيد قربه، مظفرة برسم وزارته.

قضاته

تولى أحكام القضاء، قاضي أخيه الصدر البقية، شيخنا أبو عبد الله محمد بن محيى بن بكر إلى يوم الوقيعة الكبرى بطريف، وفقد في مصافه، وتحت لوائه. وتولى القضاء الفقيه المفتي البقية أبو عبد الله محمد بن عياش، من أهل مالقة أياماً، ثم طلب الإعفاء. فأسعف عن أيام تقارب أسبوعاً، وولي مكانه الفقيه أبو جعفر أحمد بن محمد بن برطال من أهل مالقة. فسدد الخطة، وأجرى الأحكام، إلى الرابع من شهر ربيع الآخر عام ثلاثة وأربعين وسبعماية، وقدم عوضاً عنه، الفقيه الشريف الصدر الفاضل أبو القاسم محمد بن أحمد الحسيني السبتي المولد والمنشأ، الطالع على أفق حضرته في أيام أخيه، النازع إلى إيالتهم النصرية معدوداً في مفاخر أيامها، مشاراً إليه بالبنان عند اعتبار أعلامها، ثم عزله لغير جرمة تذكر، إلا ما لا ينكر وقوعه، مما تجره تبعات الأحكام. وولي الخطة شيخنا نسيج وحده الرحلة البقية أبا البركات بن الحاج، شيخ الصقع، وصدر الجلة. واستمر قاضياً إلى.... وأربعين وسبعماية. ثم أعاد إليها القاضي المفوض هونه، الشريف الفاضل، أبا القاسم، إلى يوم وفاته.

رئيس الغزاة ويعسوب الجند الغربي

تولى ذلك الأول الأمر الشيخ أبو ثابت عامر بن عثمن بن إدريس ابن عبد الحق، قريع دهره في النكراء والدهاء، المسلم له في الرتبة، عتاقة ورأياً وثباتاً، إلى أن نكبه، وقبض عليه وعلى إخوته، يوم السبت التاسع والعشرين من ربيع الأول، عام أحد وأربعين وسبعماية. وأقام شيخنا ورئيساً، دايلهم وابن عمهم، المتلقف لكرة عزهم. يحيى بن عمر بن رحو، ولي ذلك بنفسه ونديمه ومبرز خصاله إلى تمام مدته.

من كان على عهده من الملوك

وأولاً بفاس دار الملك بالمغرب، السلطان المتناهي الجلالة، أبو الحسن علي بن عثمن بن يعقوب بن عبد الحق. وجاز على عهده إلى الأندلس، إثر صلاة يوم الجمعة تاسع عشر صفر، من عام أحد وأربعين وسبعماية، بعد أن أوقع بأسطول الروم، المستدعى من أقطارهم، وقيعة كبيرة شهيرة، استولى فيها من المتاع والسلاح والأجفان، على ما قدم به العهد، واستقر بالخضراء في جيوش وافرة، وكان جوازه، في مائة وأربعين جفناً غزوياً. وبادر إلى لقائه، واجتمع به في وجوه الأندلسيين وأعيان طبقاتهم بظاهر، الجزيرة الخضراء، في اليوم الموفي عشرين من الشهر المذكور. ونازل إثر انقضاء المولد النبوي، مدينة طريف، ونصب عليها المجانيق، وأخذ بمخنقها، واستحث من بها من المحصورين، طاغية الروم، فبادر يقتاد جيشاً، يجر الشجر والمدر. وكانت المناجزة؛ يوم الإثنين السابع لجمادى الأولى من العام. ومحص المسلمون بوقيعة هايلة، أتت على النفوس والأموال والكراع، وهلك فيها بمضرب الملك جملة من العقايل الكرام، فعظمت الأحدوثة، وجلت المصيبة، وأسرع اللحاق بالمغرب مفلولاً في سبيل الله، محتسباً يروم الكرة: وكان ما هو معلوم، من إمعانه في حدود الشرق، عند إحكام المهادنة بالأندلس، وتوغله في بلاد إفريقية، وجريان حكم الله عليه بالهزيمة، ظاهر القيروان التي لم ينتشله الدهر بعدها، وعلقت آمال الخلق بولده، مستحق الملك، من بين ساير إخوته ، وهلك على تفية، لحاقه بأحواز مراكش، ليلة الأربعاء السادس والعشرين لربيع الأول عام اثنين وخمسين وسبعماية، فاختار الله له ما عنده، بعد أن بلغ من بعد الصيت، وتعظيم الملوك له، وشهرة الذكر، ما لم يبلغه سواه.

ونحن نجلب دليلاً على فضله، والإشادة بفخره، نسخة العقد الذي تضمن هديته إلى صاحب الديار المصرية، صحبة الربعة الكريمة بخطه، وذلك قبة من مائة بنيقة، وفيها أربعة أبواب؛ وقبة أخرى من ستة وثلاثين بنيقة؛ داخلها حلة محلوقة ووجهها حرير أبيض، وركيزها أبنوس وعاج مرصع، والاهار فضة مذهبة، والشرايط حرير. وضربت القبتان بالصفصيف، وحل فيها جميع الهدية. وصففت جميع الدواب بجهازاتها أمام القبة. من الخيل ثلاثمائة، وخمسة وثلاثون من البغل بين ذكور وإناث، ومن الجمال سبع ماية، إلا إنها لم تصفف، بل أعدت لحمل الهدية، ومن البزاة الأحرار أربعة وثلاثون، ومن أحجار الياقوت مائتان وخمسة وعشرون، ومن قطب الزمرد ماية وثمانية وعشرون، ومن حبوب الجوهر الفاخر أكثره، ثلاثة آلاف وأربعة وستنون. ومن أحجار الزبرجد ثمانية وعشرون، ومن المهندات بحلية الذهب عشرة، ومن أزواج مهاميز الذهب عشرة، ومن أزواج الأركب عشرة؛ واحد كله ذهب، وثلاثة كلها فضة، وستة من حبحبة مذهبة على الحديد. واثنان من اللضمات من ذهب. وشاشية مذهبة. وحلل ثلاث عشرة. وعشر كلل ومخاد حلة. وتوق ذهب مائتان، واشتراق ذهب عشرون. وقلود ستة وأربعون. وفرشاً جلة. وعشر علامات معششة. وعشر وقايات مذهبة. وثلاثون من وجوه اللحف حرير وذهب. ومائتان من المحررات الملونة الرفيعة المختمة. وحيطيان أحدهما حلة والآخر طرق. وثلاثة وعشرون شقة من الرهاز. واثنان من هنابل الحلة. وعشرة براقع للخيل منها ثمانية من الحلة. ومن أسلة الخيل ثلاثون، وثلاثة طنافس من الحرير. وهنابل

حرير اثنان. وعشرة هنابل من الحرير والصوف. وهنابل والشريشية وزمورية ماية وسبعة. وأربعة آلاف من الجلد التركي والأغماتي. ومن درق اللمط المثمنة مائتان. ومن الأكسية المحررة أربعة وعشرون. ومن البرانس المحررة ثمانية. ومن الأحارم ما بين محررة وصوف عشرون. ومن أزواج المخفف خمسون. وعشر لزمات من الفضة. وستة عشر شقة من الملف. وأما أزودة الحجاج فأعطي للحرة المكرمة أخته، أعزها الله، ثلاثة آلاف دنير من الذهب، ومائتي كسوة برسم العرب. ولمن سافر معها ستماية وسبعين. ولأبي إسحق بن أبي يحيى ثلاثمائة من الذهب وكسوة رفيعة. ولعريفه يحيى السويدي ألف دنير من الذهب. إلى العدد الكثير من الذهب العين برسم الوصفان والخدام، ولرسوم التحييس على قراء الرابعة الكريمة، ستة عشر ألفاً وخمسماية دنير. انتهى.

وكان هذا السلطان رحمه الله، ممن دوخ الأقطار، وجاهد الكفار، ووطىء بالأساطيل خلود البحار، والتمس ما عند الله من الثواب، وأعلق يده من نسخ كتابه بأوثق الأسباب. إلى أن استوسق الأمر لولده، أمير المؤمنين بالمغرب وما إليه، فارس المكنى بأبي عنان، الملقب بالمتوكل على الله. فقام بالأمر أحمد قيام. وجرت بين هذا السلطان وبينه المخاطبات والمراسلات، وسفرني إليه لأول الأمر، معزياً بأبيه، ومهنياً بما صار إليه من ملكه، واستصحبت إليه كتاباً من إنشائي، نجليه بحول الله، تجسيماً لمن يقف على هذه الأخبار، وإن اقتحمتها ثبج الإكثار وهو: المقام الذي رسخت منه في مقامي الصبر والشكر قدم، فلا يغيره وجود ولا يروعه عدم، وصدفت منه في كتاب المجد عزمة لم يختلجها وهن ولا ندم، حتى تصرفت بحكم معاليه أيام دهره ولياليه، هو ولدان وهذه خدم. مقام محل أخينا. الذي إن جاشت النوايب وسعها صدره. أو عظمت المواهب، ترفع عنها قدره، أو أظلمت الكروب جلاها بدره. أو تألبت الخطوب، هزمها صبره. أو أظلت سحايب النعم، أسدرها حمد الله وشكره، أو عرضت عقود الحمد في أسواق المجد أغلاها فجره. أو راقت حلل الصنايع طرزها ذكره. أو طبقت سيوف الناس أغمدها صفحه، وسلها قهره. السلطان الكذا أبقاه الله ضاحك السعد، كلما بكت عين، مجموع الشمل كلما أزف بين. واري الزند إذا اقتضى دين، محمي الذمار بانفساح الأعمار، كلما أغار على الأحياء حين. ولازال يقيد منه شكر الله نعماً ما في وعدها لي، ولا في قولها مين. ويلبس منها حللاً تقواه في عواتقها زين. مساهمة في كل خطب غم، أو فضل من الله عم. ومقاسمةً في كل ما ألم، وتهنئة بالملك الذي خلص وتم، فلان.

أما بعد حمد الله الذي جعل الصبر في الحوادث حصناً منيعاً، والشكر يستدعي المزيد من النعم سريعاً، فمتى أعملت للصبر دعوة، كان بها الأجر سميعاً. ومتى رفعت من الشكر رقعة، كان المزيد عليها توقيعاً. والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله، الذي بوأنا من السعادة جناباً مريعاً. وبين له حدود أوامره ونواهيه فطوبن لمن كان مطيعاً. وكان لنا في الدنيا هادياً، ونجده في الآخرة شفيعاً. والرضا عن آله وصحبه، الذين كانوا على العداة قيظاً، وللعفاة ربيعاً. فحلوا من الاقتداء به فيما ساء وسر، وأحلى وأمر مقاماً رفيعاً. وخفض عليهم مضاضة فقده، مثابرتهم على ضم شمل المسلمين من بعده، اقتداءً بقوله سبحانه: واعتصموا بحبل الله جميعاً. والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر، الذي يشكر منه الجياد والبيض الحداد صنيعاً. وتشرح منه ألسن الأقلام تهذيباً وتقريعاً. والصبر الذي زرافات الأجر قطيعاً. فقطيعاً. فإنا كتبناه إليكم، كتب الله لكم من حظوظ الخير أوفرها عدداً. وأقطعكم من خطط السعد أبعدها مداً. وأتبعكم من كتايب العز أطولها يداً، وخولكم من بسطة الملك ما لا يبيد أبداً؛ وألهمكم من الصبر لما تقدمونه فتجدونه غداً. من حمراء غرناطة، حرسها الله، وعندنا من الاعتداد في الله أسبابٌ وثيقة، وأنساب صدق في بحبوحة الخلوص عريقة. ومن الثناء عليكم حدايق روضٍ لا تحاكيها حديقة. ومن المساهمة لكم في شتى الأحوال، مقاصد لا تلتبس منها طريقة. ومن السرور بما سناه الله لكم، نعمٌ بشكر الله عز وجل خليقة.

وإلى هذا، أيدكم الله بنصره، وحكم لمقامكم بشد أزره، وإعلاء أمره، فإننا ورد علينا الخبر الذي قبض وبسط، وجار وأقسط، وبخس ووفى، وأمرض وشفى، وأضحى وظلل، وتجهم وتهلل، وأمر وأحلى، وأساء ثم أحسن، وبشر بعد ما أحزن، خبر وفاة والدكم، محل أبينا، السلطان العظيم القدر، الكبير الخطر. قدس الله طاهر تربته، وكرم لحده، كما أحيا بكم معالم مجده. فيا له من سهم رمى أغراض القلوب فأثبتها. وطرق مجتمعات الآمال فشتتها. ونعى إلى المجد إنسان عينه وعين إنسانه. وإلى الملك هيولى أركانه. وإلى الدين ترجمة ديوانه. وإلى الفضل عميد إيوانه. حادثٌ نبه العيون من سنة غرورها. وذكر النفوس بهم أمورها. وأشرق المحاجر بماء دموعها، وأضرم الجوانح بنار ولوعها. وبين أن سراب الآمال سراب، وأن الذي فوق التراب تراب. فمن تأمل الدنيا وطباعها، والأيام وإسراعها، والحوادث وقراعها، بدا له الحق من المين. واستغنى عن الأثر بالعين. فشأنها أن لا تفتر عن سهم تسدده إلى غرض. وصحة تعقبها بمرض، وجوهر ترميه بعرض. وداء للموت قديم، وقربه لا يبقى عليه أديم. وكأسه يشربها موسرٌ وعديم. دبت إلى كسرى الفرس عقاريه، فلم تمنعه أساورته ولا مرازبه. وقصر قيصر على حكمه فكدرت مشاريه. وأتبر سيف بن ذي يزن عمدانه، فلم ترعه مضاربه. وأردى تبعاً، فلم يكن في أتباعه من يحاربه. لم تدافع عنهم الجنود المجندة. ولا الصفاح المهندة. ولا الدروع المحكمة، ولا النياب المعلمة. ولا الجياد الجرد المسومة. ولا الرماح المثقفة المقومة. كل قدم على ما قدم. وجد إلى ما أعد. جعلنا الله ممن يسر لسفره زاداً. وقدم بين يديه رباطاً شافعاً لديه وجهاداً. ووثر لنفسه بمناصحة الله والمؤمنين في أعلى عليين، مهاداً. وطوق المسلمين عدلاً وفضلاً وإمداداً. غير أن هذا الفاجيء الذي فجع، ومنع القلوب أن تقر والعين أن تهجع. غمرته البشرى، وغلبته المسرة الكبرى، وعارضته من بقايكم الآية المحكمة الأخرى. فاضمحل من بعد الرسوخ. وصار ليله في حكم المنسوخ. ما كان من استخلاصكم الملك الذي أنتم أهله، واحتيازكم المجد الذي أشرق بكم محله. وكيف بسهم أخطأ ذاتكم الشريفة، أن يقال فيه أصمى وأجهز. والأمل بعد بقايكم أن يقال فيه تعذر أو أعوز. إنما الآمال ببقايكم للملإ منوطة. وسعادة الإسلام بحياتكم المتصلة مشروطة.

ومنها: فأي ترح يبقى بعد هذا الفرح، وأي كسل ينشأ بعد هذا المرح. إن أفل البدر، فقد تبلج الفجر، أو غاض النيل فقد فاض البحر. وإن مال فلك الملك، فقد عاد إلى مداره. وإن أذنب الدهر، فقد أحسن ما شاء في اعتذاره. إنما هذا الخطب وهنٌ أعقبه ضوء النهار، وسطعت بعده أشعة الأنوار. وصمصامةٌ أغمدت؛ وسل من بعدها ذو الفقار.

ومنها: وإننا لما..... عن حقه ورصدنا طالعه في أفقه قابلنا الواقع بالتسليم، والمنحة الرادفة بالشكر العظيم. وأنسنا في غمام الهدنة رب هذا الإقليم. وقلنا استقر الحق ووضحت الطرق، وهوى الرايد وصدق البرق، وتقررت القاعدة وارتفع الفرق، واستبشر يابلال المغرب أخوه الشرق. وثابت آمال أولي الجهاد إلى اقتحام فرضة المجاز، وأولي الحج إلى مرافقة ركب الحجاز، وآن للدنيا أن تلبس الحلي العجيبة بعد الابتزاز. والحمد لله الذي زين بكم أفق الملك، وكيف بسعدكم نظم ذلك السلط. وهنأ الله إيالتكم، العباد والبلاد، والحج والجهاد. وصدق الظنون الذي في مقامكم، الذي جاز في المكارم الآماد. بادرنا أيدكم الله من بركم إلى غرضين. وقمنا من حق عزايكم وهنايكم بواجبين مفترضين. وشرعنا ومن لدينا، أن نباشر بالنفوس، هذين القصدين. إلا أننا عاقنا عن ذلك، ما اتصل بنا، من العدو الذي بلينا بجواره، ورمينا بمصابرة تياره. وإلا فهذا الغرض قد كنا لا نرى فيه بإجراء الاستنابة، ولا نحظى غيرنا بزيارة تلك المثابة. فليصل الفضل جلالكم. ويقبل العذر كمالكم. وإذا كان الاستخلاف مما تحتمله العبادة، ولا ينكره عند الضرورة العرف والعادة، فأحرى الأخوة والودادة، والفضل والمجادة. فتخيرنا جهدنا، واصطفينا

لباب اللباب فيمن عندنا. فعينا فلاناً.

واتصلت أيامه إلى آخر مدته.

وبمدينة تلمسان: عبد الرحمن بن موسى بن عثمن بن يغمراسن بن زيان، يكنى أبا تاشفين. وقد تقدم ذكره، وهو الذي انقضى ملك بني زيان على يده. تولى الملك عام ثمانية عشر كما تقدم، وتهنأه إلى أن تأكدت الوحشة بينه وبين السلطان ملك المغرب. فتحرك لمنازلته، وأخذ بكظمه ، وحصره سنين ثلاثاً، واقتحم عليه ملعب البلدة، ليلة سبع وعشرين من رمضان عام سبعة وثلاثين وسبعماية. وفي غرة شوال منها، دخل البلد من أقطار عنوة، ووقف هو وكبير ولده برحبة قصره، قد نزعا لام الحرب المانعة من عمل السلاح، استعجالاً للمنية ورغبة في الإجهاز وقاما مقام الثبات والصبر والاستجماع، إلى أن كوثرا واثخنا، وعاجلتهما منية العز قبل شد الوثاق، وإمكان الشمات، واستولى على الملك ملك المغرب. وفي ذلك قلت من الرجز المسمى بقطع السلوك في الدول الإسلامية ، مما يخص ملوك تلمسان، ثم أميرها عبد الرحمن هذا:

وحل فيها عابد الرحمن ... فاغتر بالدنيا وبالزمان

وسار فيها مطلق العنان ... من مظهر سام إلى جنان

كم زخرف علياه من بنيان ... آثاره تبنى عن العيان

وصرف العزم إلى بجاية ... فعظمت في قومها النكاية

حتى ما إذا مدة الملك انقضت ... وأوجه الأيام عنهم أعرضت

وحق حق الدهر فيها ووجب ... وكتب الله عليها ما كتب

حث إليها السير ملك المغرب ... يا لك من ممارس مجرب

فغلب القوم بغير عهد ... بعد حصار دائم وجهد

فأقفرت من ملكهم أوطانه ... سبحان من لا ينقضي سلطانه

ثم نشأت لهم بارقة، لم تكد تقد حتى خبت، عندما جرت على السلطان أبي الحسن الهزيمة بالقيروان؛ وانبت عن أرضه، وصرفت البيعة في الأقطار إلى ولده، وارتحل إلى طلب منصور ابن أخيه، المنتزي بمدينة فاس. فدخلوا تلمسان، وقبضوا على القايم بأمرها، وقدموا على أنفسهم عثمن بن يحيى بن عبد الرحمن بن يغمراسن المتقدم الذكر في رسم عثمن وذلك في الثامن والعشرين لجمادى الآخرة من عام تسعة وأربعين وسبعماية؛ واستمرت أيامه أثناء الفتنة وارتاش، وأقام رسم الإمرة، وجدد ملك قومه. واستمرت حاله إلى أن أوقع بهم ملك المغرب، أمير المسلمين أبو عنان الوقيعة المصطلمة التي خضدت الشوكة، واستأصلت الشأفة. وتحصل عثمن في قبضته. ثم ألحقت النكبة به أخاه، فكانت سبيلهما في القتل صبراً عبرة، وذلك في وسط ربيع الأول من عام التاريخ.

وبتونس: الأمير أبو يحيى أبو بكر بن الأمير أبي زكريا ابن الأمير أبي إسحق ابن الأمير أبي زكريا إلى أن هلك. وولي الأمر ولده عمر ثم ولده أحمد ثم عاد الأمر إلى عمر. ثم استولى ملك المغرب السلطان أبو الحسن على ملكهم. ثم ضم نشرهم بعد نكبته وخروجه عن وطنهم على أبي إسحق بن أبي بكر.

ومن ملوك النصارى بقشتالة: ألفنش بن هرنده بن دون جانجه بن ألفنش المستولي على قرطبة ابن هرنده المستولي على إشبيلية. إلى عدد جم. وكان طاغية موهوباً، وملكاً مجدوداً. هبت له الريح، وعظمت به إلى المسلمين النكاية. وتملك الخضراء بعد أن أوقع بالمسلمين الوقيعة الكبرى العظمى بطريف. ثم نازل جبل الفتح، وكاد يستولي على هذه الجزيرة، لولا أن الله تداركها بجميل صنعه وخفي لطفه، لا إله إلا هو. فهلك بظاهره في محلته حتف أنفه ليلة

عاشوراء من عام أحد وخمسين وسبعماية. فتنفس المخنق، وانجلت الغمة، وانسدل الستر. كنت منفرداً بالسلطان رحمه الله، وقد غلب اليأس، وتوقعت الفضيحة، أونسه بعجايب الفرج بعد الشدة، وأقوى بصيرته في التماس لطف الله، وهو يرى الفرج بعيداً، ويتوقع من الأمر عظيماً. وورد الخبر بمهلكه، فاستحالت الحال إلى ضدها، من السرور والاستبشار. والحمد لله على نعمه. وفي ذلك قلت:

ألا حدثاني فهي أم الغرايب ... وما حاضرٌ في وصفها مثل غايب
ولا تخليا منها على قطر السرى ... سروج المذاكي أو ظهور النجايب
أيوسف إن الدهر أصبح واقفاً ... على بابك المطول موقف تايب
دعاؤك أمضى من مهندة الظبا ... وسعدك أقضى من سعود الكواكب
سيوفك في أغمادها مطمئنة ... ولكن سيف الله دامي المضارب
فثق بالذي أرعاك أمر عباده ... وسل فضله فالله أكرم واهب
لقد طوق الأذفنش سعدك خزيةً ... تجد على مر العصور الذواهب
وفيت وخان العهد في غير طايل ... وصدق أطماع الظنون الكواذب
هوى في مجال العجب غير مقصر ... وهل نهض العجب المخل براكب
وغالب أمر الله جل جلاله ... ولم يدر أن الله أغلب غالب
ولله في طي الوجود كتايب ... تدق وتخفى عن عيون الكتايب
تغير على الأنفاس في كل ساعة ... وتكمن حتى في مياه المشارب
فمن قارع في قومه سن نادم ... ومن لاطم في ربعه خد نادب
مصايب أشجى وقعها مهج العدا ... وكم نعمٌ في طي تلك المصايب
شواظٌ أراد الله إطفاء ناره ... وقد نفج الإسلام من كل جانب
وإن لم يصب منه السلاح فإنما ... أصيب بسهم من دعايك صايب
ولله من ألطافه في عباده ... خزاين ما ضاقت لمطلب طالب
فمهما غرست الصبر في تربة الرضا ... بأحكامه فلتجن حسن العواقب
ولا تعد الأمر البعيد وقوعه ... فإن الليالي أمهات العجايب
وهي طويلة سهلة؛ على ضعف كان ارتكابه مقصوداً في أمداحه.

وبرجلونة : السلطات بطره المتقدم ذكره في اسم أخيه.

ومن الأحداث في أيامه الوقيعة الكبرى بظاهر طريف، يوم الإثنين السابع من جمادى الأولى، من عام أحد وأربعين وسبعماية، وما اتصل بذلك من منازلة الطاغية ألهنشه، قلعة يحصب الماسة الجوار من حضرته، واستيلائه عليها، وعلى باغة. ثم منازلة الجزيرة الخضراء عشرين شهراً، أوجف خلالها بجيوش المسلمين من أهل العدوتين إلى أرضه. ثم استقر منازلاً إياها إلى أن فاز بها قداحه، والأمر لله العلي الكبير، في قصص يطول ذكره، تضمن ذلك طرفة العصر من تأليفنا. ثم تهنأ السلم، والتحف جناح العافية والإمنة برهة، رحمه الله.

وفاته

وما استكمل أيام حياته، وبلغ مداه، أتم ما كان شباباً واعتدالاً وحسناً، وفخامة وعزاً حتى أتاه أمر الله من حيث لا يحتسب، وهجم عليه يوم عيد الفطر، من عام خمسة وخمسين وسبعماية، في الركعة الأخيرة، رجل من عداد

المرورين، رمى بنفسه عليه، وطعنه بخنجر كان قد أعده، وأغرى بعلاجه، وصاح، وقطعت الصلاة، وقبض عليه، واستفهم، فتكلم بكلام مخلط، واحتمل إلى منزله، على فوت لم يستقر به، إلا وقد قضى رحمه الله ورضي عنه، وأخرج ذلك الخبيث للناس، وقتل وأحرق بالنار، مبالغة في التشفي، ودفن السلطان عشية اليوم في مقبرة قصره لصق والده، وولي أمره ابنه أبو عبد الله محمد، وبولغ في احتفال قبره، بما أشف على من تقدمه، وكتب عليه ما نصه:

هذا قبر السلطان الشهيد، الذي كرمت أحسابه وأعراقه، وحاز الكمال خلقه وأخلاقه، وتحدث بفضله وحلمه شام المعمور وعراقه، صاحب الآثار السنية، والأيام الهنية، والأخلاق الرضية، والسير المرضية. الإمام الأعلى، والشهاب الأجلى، حسام الملة، علم الملوك الجلة، الذي ظهرت عليه عناية ربه، وصنع الله له في سلمه وحربه. قطب الرجاحة والوقار، وسلالة سيد الأنصار، حامي حمى الإسلام برأيه ورايته، المتسولي في ميدان الفخر على غايته، الذي صحبته عناية الله في بداية أمره وغايته، أمير المسلمين أبي الحجاج يوسف ابن السلطان الكبير، الإمام الشهير، أسد دين الله، الذي أذعنت الأعداء لقهره، ووقفت الليالي والأيام عند نهيه وأمره. رافع ظلال العدل في الآفاق حامي حمى السنة بالسمر الطوال والبيض الرقاق ، مخلد صحف الذكر الخالد والعز الباق، الشهيد السعيد المقدس أبي الوليد، ابن الهمام الأعلى الطاهر النسب والذات، ذي العز البعيد الغايات، والفخر الواضح الآيات، كبير الخلافة النصرية، وعماد الدولة الغالبية، المقدس المرحوم أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن نصر، تغمده الله برحمة من عنده، وجعله في الجنة جاراً لسعد بن عبادة جده، وجازى عن الإسلام والمسلمين، حميد سعيه، وكريم قصده. قام بأمر المسلمين أحمد القيام، ومهد لهم الأمن من ظهور الأيام، وجلى لهم وجه العناية مشرق القسام، وبذل فيهم من تواضعه وفضله، كل واضح الأحكام. إلى أن قضى الله بحضور أجله، على خير عمله، وختم له بالسعادة، وساق إليه على حين إكمال شهر الصوم هدية الشهادة. وقبضه ساجداً خاشعاً، منيباً إلى الله ضارعاً، مستغفراً لذنبه، مطمئناً في الحالة، التي أقرب ما يكون العبد فيها من ربه. على يد شقيٍّ قيضه الله لسعادته، وجعله سبباً لنفوذ سابق مشيئته وإرادته، خفي مكانه لخمول قدره. وتم بسببه أمر الله لحقارة أمره. وتمكن له عند الاشتغال بعبادة الله، ما أضمره من غدره، وذلك في السجدة الأخيرة من صلاة العيد. غرة شوال، من عام خمسة وخمسين وسبعماية. نفعه الله بالشهادة التي كرم منها الزمان والمكان، ووضح منها على قبول رضوان الله البيان. وحشره مع سلفه الأنصار، الذين عز بهم الإيمان، وحصل لهم من النار الأمان. وكانت ولايته الملك في غرة اليوم الرابع عشر لذي الحجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية. ومولده في الثامن والعشرين لربيع الآخر عام ثمانية عشر وسبعماية. فسبحان من انفرد بالبقاء المحض وحتم الفناء على أهل الأرض ثم يجمعهم إلى يوم الجزاء والعرض، لا إله إلا هو.

وفي الجهة الأخرى من النظم، وكلاهما من إملائي، ما نصه:

يحييك بالريحان والروح من قبر ... رضي الله عمن حل فيك مدى الدهر
إلى أن يقوم الناس تعنو وجوههم ... إلى باعث الأموات في موقف الحشر
ولست بقبرٍ إنما أنت روضة ... منعمة الريحان عاطرة النشر
ولو أنني أنصفتك الحق لم أقل ... سوى يا كمام الزهر أو صدف الدر
ويا ملحد التقوى ويا مدفن الهدى ... ويا مسقط العليا ويا مغرب البدر
لقد حط فيك الرحل أي خليفة ... أصل المعالي غرةٌ في بني نصر
لقد حل فيك العز والمجد والعلى ... وبدر الدجا والمستجار لدى الدهر

ومن كأبي الحجاج حامي حمى الهدى ... ومن كأبي الحجاج ماحي دجا الكفر
إمام الهدى غيث الندى دافع العدا ... بعيد المدى في حومة المجد والفخر
سلالة سعد الخزرج بن عبادة ... وحسبك من بيت رفيع ومن قدر
إذا ذكر الإغضاء والحلم والتقى ... وحدثت عن علياه حدث عن البحر
تخونه طرف الزمان وهل ترى ... بقاءً لحيٍّ أو دواماً على أمر
هو الدهر ذو وجهين يومٌ وليلةٌ ... ومن كان ذا وجهين يعتب في غدر
تولى شهيداً ساجداً في صلاته ... أصيل التقى رطب اللسان من الذكر
وقد عرف الشهر المبارك حق ما ... أفاض من النعمى ووفى من البر
وباكر عيد الفطر والحكم مبرم ... وليس سوى كأس الشهادة من فطر

أتيح له وهو العظيم مهابة ... وقدراً حقير الذات والخلق والقدر
شقيٌّ أتت من لدنه سعادة ... ومنكر قوم جاء بالحادث النكر
وكم من عظيم قد أصيب بخامل ... وأسباب حكم الله جلت عن الحصر
فهذا عليٌّ قد قضى بابن ملجم ... وأوقع وحشي بحمزة ذي الفخر
نعد الرماح المشرفية والقنا ... ويطرق أمر الله من حيث لا تدري
ومن كان بالدنيا الدنية واثقاً ... على حالة يوماً فقد باء بالخسر
فيا مالك الملك الذي ليس ينقضي ... ويا من إليه الحكم في النهى والأمر
تغمد بستر العفو منك ذنوبنا ... فلسنا نرجي غير سترك من ستر
فما عندك اللهم خيرٌ ثوابه ... وأبقى ودنيا المرء خدعة مغتر
ومما رثى به قولي في غرض ناءٍ عن الجزالة، متحرياً اختيار ولده:
العمر يوم والمنى أحلام ... ماذا عسى أن يستمر منام
وإذا تحققنا الشيء بدأة ... فله بما تقضي العقول تمام
والنفس تجمع في مدى آمالها ... ركضاً وتأبى ذلك الأيام
من لم يصب في نفسه فمصابه ... بحبيبه نفذت بذا الأحكام
بعد الشبيبة كبرةٌ ووراءها ... هومٌ ومن بعد الحياة حمام
ولحكمة ما أشرقت شهب الدجا ... وتعاقب الإصباح والإظلام
دنياك يا هذا محلة نقلة ... ومناخ ركبٍ ما لديه مقام
هذا أمير المسلمين ومن به ... وجد السماح وأعدم الإعدام
سر الإمامة والخلافة يوسف ... غيث الملوك وليثها الضرغام
قصدته عادية الزمان فأقصدت ... والعز سام والخميس لهام
فجعت به الدنيا وكدر شر بها ... وشكى العراق مصابه والشام
أسفاً على الخلق الجميل كأنه ... بدر الدجنة قد جلاه تمام
أسفاً على العمر الجديد كأنه ... غض الحديقة زهره بسام
أسفاً على الخلق الرضي كأنها ... زهر الرياض همى عليه غمام

أسفاً على الوجه الذي يهمي ندىً ... طاشت لنور جماله الأفهام
يا ناصر الثغر الغريب وأهله ... والأرض ترجف والسماء قتام
يا صاحب الصدمات في جنح الدجا ... والناس في فرش النعيم نيام
يا حافظ الحرم الذي بظلاله ... ستر الأرامل واكتسى الأيتام
مولاي هل لك للقصور زيارة ... بعد انتزاح الدار أو إلمام
مولاي هل لك للعبيد تذكر ... حاشاك أن تنسى لديك ذمام
يا واحد الآحاد والعلم الذي ... خفقت بعزه نصرة الأعلام
وافاك أمر الله حين تكاملت ... فيك النهى والجود والإقدام
ورحلت عنا الركب خير خليفة ... أثنى عليك الله والإسلام
نعم الطريق سلكت كان رفيقه ... والزاد فيه تهجدٌ وصيام
وكسفت يا شمس المحاسن ضحوةً ... فاليوم كيلٌ والضياء ظلام
سقاك عيد الفطر كأس شهادة ... فيها من الأجل الحرمي مدام
وختمت عمرك بالصلاة فحبذا ... عملٌ كريم سعيه وختام
مولاي كم هذا الرقاد إلى متى ... بين الصفايح والتراب تنام
إعد التحية واحتسبها قربة ... إن كان يمكنك الغداة كلام
تبكي عليك مصانع شهدتها ... بيض كما تبكي الهديل حمام
تبكي عليك مساجد عمرتها ... فالناس فيها سجدٌ وقيام
تبكير عليك خلايق أمنتها ... بالسلم وهي كأنها أنعام
عاملت وجه الله فيما رمته ... منها فلم يبعد عليك مرام
لو كنت تفدى أو تجاز من الردى ... بذلت نفوس من لدنك كرام

لو كنت تمنع بالصوارم والقنا ... ما كان ركنك بالغلاب يرام
لكنه أمر الإله ومالنا ... إلا رضىً بالحكم واستسلام
والله قد كتب الفنا على الورى ... وقضاؤه جفت به الأقلام
نم في جوار الله مسروراً بما ... قدمت يوم تزلزل الأقدام
واعلم بأن سليل ملك قد غدا ... في مستقر علاك وهو إمام
بستر تكنف منه من خلفته ... ظل ظليل فهو ليس يضام
كنت الحسام وصرت في غمد الثرى ... ولنصر ملكك سل منه حسام
خلفت أمة أحمد لمحمد ... فقضت بسعد الأمة الأحكام
فهو الخليفة للورى في عهده ... ترعى العهدو وتوصل الأرحام
ابقى رسومك كلها محفوظة ... لم ينتشر منها عليك نظام
العدل والشيم الكريمة والتقى ... والدار والألقاب والخدام
حسبي بأن أخشى ضريحك لائماً ... وأقول والدمع السفوح سجام
يا مدفن التقوى ويا مثوى الهدى ... مني عليك تحية وسلام

أخفيت عن حزني عليك وفي الحشا ... نارٌ لها بين الضلوع ضرام
ولو أنني أديت حقك لم يكن لي ... بعد فقدك في الوجود مقام
وإذا الفتى أدى الذي في وسعه ... وأتى بجهدٍ ما عليه ملام
وكتبت في بعض المعاهد التي كان يأنس بها رحمة الله عليه:
غبت فلا عين ولا مخبر ... ولا انتظارٌ منك مرقوب
يا يوسف أنت لنا يوسف ... وكلنا في الحزن يعقوب
يوسف بن عبد الرحمن الفهري

يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري
أوليته
كان عبد الرحمن أحد زعماء العرب بالأندلس. وكان ممن ثار منها من أصحاب بلج عصبيةً لقتله، فخرج عن الأندلس إلى إفريقة. وجده عقبة بن نافع، هو الذي اختط قيروانها أيام معوية بن أبي سفيان. قال عيسى بن أحمد، وهرب ابنه يوسف هذا من إفريقية إلى الأندلس مغاضباً له، أيام بشر بن صفوان الكلبي، فهوي الأندلس واستوطنها، فساد بها ثم تأمر فيها.
حاله
كان شريفاً جليلاً، حازماً عاقلاً. اجتمع عليه أهل الأندلس من أجل أنه قرشي، بعد موت أميرهم ثوابة بن سلامة، ورضي به الخيار من مضر واليمن، فدانت له الأندلس، تسع سنين وتسعة أشهر، وكان آخر الأمراء بالأندلس، وعنه انتقل سلطانها إلى بني أمية. وأشرك الصميل بن حاتم في أمره، فتركت لذلك نسبة الأمر له، وكانت الحرب التي لم يعرف بالمشرق والمغرب، أشد جلاداً، ولا أصبر رجالاً منها، واعتزلها يوسف تحرفاً، وقام بأمرها الصميل، وانهزم اليمانيون واستلحموا ملحمة عظيمة، واستوسق الأمر ليوسف. وغزا جليقية، فعظم في عدوها أثره. ولما تم الأمر طرقه ما تقدم به الإلماع، من عبور صقر بني أمية عبد الرحمن الداخل في خبر طويل. والتقى بظاهر قرطبة سنة ثمان وثلاثين وماية في ذي الحجة. وانهزم يوسف بن عبد الرحمن والصميل، ولحقا بإلبيرة. وأتبعهما عبد الرحمن بن معاوية فنازله، وقد تحصن بمعقل إلبيرة حصن غرناطة، وترددت بينهما الرسل في طلب المهادنة والبقاء على الصلح. وتخلى يوسف عن الدعوة، واستقر سكناه بقرطبة. وذلك في صفر سنة تسع وثلاثين وماية، وأقبل معه في عسكره إلى قرطبة. وذكر أنه تمثل عند دخوله عسكر عبد الرحمن بيت جرور بن إبنة النعمان:
فبتنا نسوس الأمر والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقةٌ نتنصف
فتباً لدنيا لا يدوم نعيمها ... تقلب ساعات بنا وتصرف
واستقر بقرطبة دهراً، ثم بدا له في الخلاف. ولحق بأحواز طليطلة، وأعاد عهد الفتنة، فاغتاله مملوكان له، وقتلاه رحمه الله، في سنة اثنتين وأربعين وماية. وأخبار يوسف بن عبد الرحمن معروفة، وهو محسوب من الأمراء الأصلاء بغرناطة، إذ كانت له قبل الإمارة بها ضياع يتردد إليها.
ومن غير الأصليين

يحيى بن عبد الله

بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد ابن أحمد بن أبي عزفة اللخمي

الرييس أبو زكريا وأبو عمرو بن الرييس أبي طالب بن الرييس أبي القاسم. كناه أبوه أبا عمرو، وغلبت عليه الكنية المعروفة.

حاله

كان قيماً على طريقة أصحاب الحديث، رواية وضبطاً وتقييداً وتخريجاً، مع براعة خط، وطرف ضبط، شاعراً مجيداً مطبوعاً. ذا فكاهة وحسن مجالسة. رأس بسبتة، بعد إجغازته البحر من الأندلس والإحتلال بفاس، نايباً عن ملك المغرب السلطان أبي سعيد بن عبد الحق، لأمر مت به إليه قبل استقلاله، ليس هذا موضع ذكره. ثم استبد بها مخالفاً عليه، لأمر يطول شرحه، أجرى فيه موفى الجانب من الهلع، باسلاً مقداماً. سكون الطاير، مثقفاً بخلال رياسته، ضاماً لأطرافها. ونازله جيش المغرب، وبيد أميره ولده أبو القاسم مرهناً، فأتيح له ظفرٌ أجلى ليلة غريبات المحلة والأثر فيها، واستخلاص ولده.

مشيخته

أخذ عن جماعة من أهل بلده وغيرهم، قراءة وسماعاً وإجازة. فممن أخذ عنه من أهل بلده سبتة، أبو إسحق الغافقي، وأبو عبد الله بن رشيد، وابو الظفر المنورقي، وأبو القاسم البلفيقي، وأبو علي الحسن بن طاهر الحسيني، وأبو إسحق التلمساني، وأبو محمد عبد الله بن أبي القاسم الأنصاري، وأبو القاسم بن الشاط. وبغرناطة لما قدم عليها، مغرباً عن وطنه، عند تصيره إلى الإيالة النصرية من أيديهم، وسكناه بها، عن أبي محمد عبد المنعم بن سماك، وأبي جعفر بن الزبير، وأبي محمد بن المؤذن، وأبي الحسن بن مستقور وغيرهم. ومن أهل ألمرية أبو عبد الله محمد ابن الصايغ، وأبو عبد الله بن شعيب. ومن أهل مالقة الولي أبو عبد الله بن الطنجالي، وأبو محمد الباهلي، وأبو الحسن بن منظور، وأبو الحسن بن مصامد. ومن أهل الخضراء، أبو جعفر بن خميس. ومن أهل بلش أبو عبد الله بن الكماد. ومن أهل أرجبة أبو زكريا البرشاني. ومن أهل بجاية أبو علي ناصر الدين المشدالي، وأبو عبد الله بن غربوز. ومن أهل فاس أبو عبد الله المومناني. ومن أهل تيزي أبو عبد الله محمد القيسي. وكتب له بالإجازة طايفة كبيرة من أهل المشرق، منهم قطب الدين القسطلاني.

شعره

قال لي شيخنا أبو البركات، سألته، وأنا معه واقفٌ بسور قصبة سبتة، أن يجيزني ويكتب لي من شعره، فكتب لي قطيعات منها في تهنئة السلطان أبي الجيوش يوم ولايته:

الآن عاد إلى الإمامة نورها ... وارتاح منبرها وهش سريرها
وبدا لنا من بعد طول قطوبها ... منها التهلل واستبان سرورها
وضعت أزمتها بكف خليفة ... هو أصلها الأولى بها ونصيرها
من معشر عرفت بطون أكفهم ... بذل الندى واللاثمين ظهورها
خرصانهم ووجوههم في ظلمة ... النقع المثار نجومها وبدورها
وسع الرعايا منه عدله ... لم يزل إليه قلوبهم ويصورها
حتى اغتدت بالحب فيه صدورها ... ملأى وأخلص في الولاء ضميرها
رام العداة لجده كيداً فلم ... تنجح مساعتها وساء مصيرها

وكذاك فعل الله فيمن كاده ... جهلاً وغرته المنا وغرورها
مولاي إنا عصبةٌ معروفة ... بالحب فيك صغيرها وكبيرها
جينا نقضي من حقوقك واجباً ... نسدي بالمدايح تارة وتبيرها
ولقد خدمت مقامكم من قبلها ... بفرايد حسناً يعز نظيرها
فاجذب بضبعي من حضيض مزارتي ... عرست وعلى يديك مسيرها
وافتكني من أسر فرط خصاصة ... عنفت فلم يقصد سواك أسيرها
لازلت للإسلام تحمي أمة ... دانته مما يتقي ويجيرها
وبقيت في عز وسعد شامل ... حتى يحين من الرفاة نشورها
وفي الإلغاز بالأقلام والمحبرة:
وسربٌ ضمهم دست ستير ... شباب ليس يفزعهم قتير
قد اختصروا فلم يفرش ساد ... لمجلسهم ولم ينصب سري
لهم كأس إذا دارت عليهم ... فقد أزف الترحل والمسير
وأفشوا سر سياقهم بلفظ ... مبين ليس يفهمه البصير
وهزت من روسهم نشاطاً ... وعند الصحو يعروهم فتور

فصاح إن تحللهم وإلا ... فشأنهم التلعتم والقصور
صلاب حين تعجمهم ولكن ... إذا طعنوا فدمعهم غزير
لهم عقل يلوح على القوافي ... لذاك نومهم أبداً كثير
طويلهم يطول العمر منه ... أخا نعبٍ ويخترم القصير
وهم لم يشف يوماً ... بغير القطع عضوهم الكبير
فقل لي من هم لازلت فرداً ... دياجي المشكلات به تسير
نكبته: تنظر في العبادلة في اسم أبيه .
وفاته

عام تسعة عشر وسبعماية، في شعبان رحمه الله.
الأمير أبو زكريا
يحيى بن علي بن غانية الصحراوي، الأمير أبو زكريا
حاله
كان بطلاً شهماً حازماً، كثير الدهاء والإقدام، والمعرفة بالحروب، مجمعاً على تقدمه. نشأ في صحبة الأمير بقرطبة محمد بن الحاج اللمتوني وولاه مدينة إستجة، فهي أول ولايته. وليها يحيى، وتزوج محمد بن الحاج أمه غانية بعد أبيه وكفله، وأقام معه بقرطبة، إلى أن كان من محمد بن الحاج ما كان من مداخلة أشياخ مسوفة على خلع محمد بن يوسف ابن تاشفين عن الأمر ، وصرف البيعة إلى يحيى الحفيد، الوالي في ذلك العهد بمدينة فاس، ولم يتم له الأمر، فأجلى عن نكبته. وانفصل يحيى بن غانية عن جماعته، وأقام متصرفاً في الحروب، معروف الحق والغناء، إلى أن اشتهرت بسالته وديانته، ورغب يدير بن ورقا صاحب بلنسية من السطان في توجيهه إليه، ليستبين به على مدافعة

العدو، فأجيب إلى ذلك. فوصل يحيى بلنسية، واقام بها ذاباً عن المسلمين، إلى أن توفي يدير بن ورقا، فولاه علي بن يوسف إياها وشرق الأندلس، فظهر غناؤه وجهاده، وهزم الله بها ابن رذمير الطاغية منازلاً إفراغة على يده، فطار ذكره، وعظم صيته، واشتهر سعده، وأسل عن البيضة دفاعه.

أخبار عزمه

حكي عنه أنه تزوج في فتوته امرأة من قومه شريفة جميلة، وقربها عيناً، ثم تركها وطلقها، فسئل عن ذلك، فقال والله ما فارقتها عن خلة تذم، ولكن خفت أن أشتغل بها عن الجهاد. ولم يزل يدافع النصارى عن المسلمين بالأندلس، فهزم ابن رذمير، وأقلع محلاتهم عن مدينة الأشبونة، واستمسك به حال الأندلس. وولي قرطبة وما إليها من قبل تاشفين بن علي بن يوسف، عام ثمانية وثلاثين وخمسمائة، فاستقامت الأمور بحسن سيرته، وظهور سعده، إلى صفر من عام تسعة وثلاثين. وكانت ثورة ابن قسي ، باكورة الفتنة. ولما خرج إلى لبلة، ثار ابن حمدين بقرطبة دار ملكه في رمضان من العام، واستباح قصره، وانطلقت الأيدي على قومه، وتم له الأمر. وبلغ يحيى الخبر، فرجع أدراجه إلى إشبيلية، فثار به أهلها، وناصبوه الحرب وأصابوه بجراحة، فلجأ إلى حصن مرجانة، فأقام به يصابر الهول، ويرقع القنن. ثم تحرك إليه جيش ابن حمدين، وكانت بينهما وقيعة انهزم فيها ابن حمدين، واستولى ابن غانية على قرطبة، في شعبان من عام أربعين، وتحصن ابن حمدين بأندوجر ممتنعاً بها. ونهض يحيى إلى منازلته. فاستعان ابن حمدين بملك قشتالة، وأطمعه في قرطبة، فتحرك إلى نصرته. ولما وصل أندوجر، أعذر يحيى في الدفاع والمصابرة، ثم انصرف بالجيش إلى قرطبة، وأخذ العدو في آثارهم، صحبة مستغيثه ابن حمدين. فنازل قرطبة، وامتنع ابن غانية بالقصر وما يليه من المدينة. وأدخل ابن حمدين النصارى قرطبة في عاشر ذي الحجة من عام أربعين، فاستباحوا المسجد، وأخذوا ما كان به من النواقيس ، ومزقوا مصاحفه، ومنها زعموا مصحف عثمان، وأنزلوا المنار من الصومعة، وكان كله فضة، وحرقت الأسواق، وأفسدت المدينة، وظهر من صبر ابن غانية، وشدة بأسه، وصدق دفاعه، ما أيأس منه. وكان من قدر الله، أن بلغ طاغية الروم يوم دخولهم قرطبة، اجتياز الموحدين إلى الأندلس، فأجال طاغيتهم قداح الرأي، فاقتضى أن يهادن ابن غانية: ويتركه بقرطبة في نحر عدوه من الموحدين، سداً بينهم وبين بلاده. فعقدت الشروط، ونزل إليه ابن غانية فعاقده، واستحضر له أهل قرطبة، وقال لهم، أنا قد فعلت معكم من الخير، ما لم يفعله من قبلي، غلبتكم في بلدكم وتركتكم رعية لي، وقد وليت عليكم يحيى بن غانية، فاسمعوا له وأطيعوا. قال المؤرخ، وفخر الطاغية في ذلك اليوم بقومه ، وقال، ولا يريبنكم أن تكونوا تحت يدي ونظري، فعندي كتاب نبيكم إلى جدي. حدث ابن أم العماد أبو الحسن، قال، حضرت، وأحضرحق من ذهب، فتح وأخرج منه كتابٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى قيصر ملك الروم، وهو جده بزعمه. والكتاب بخط علي بن أبي طالب. قال أبو الحسن، قرأته من أوله إلى آخره، كما جاء في حديث البخاري. وانصرف إلى بلاده، وانصرف ابن حمدين، فكان هلاكه بمالقة، بعد اضطراب كثير. واستقر ابن غانية بقرطبة الغادر به أهلها، فشرع في بنيان القصبة وسد عورتها، وسام أهلها الخسف وسوء العذاب، ووالى إغرامهم. واستعجل أمرهم، واتصل سلمه مع العدو إلى تمام أحد وأربعين وخمسماية، وقد تملك الموحدون إشبيلية وما إليها. وضيق عليه النصارى في طلب الإتاوة ، واشتطوا عليه في طلب ما بيده، ونزل طاغينهم أندوجر وبه رجل يعرف بالعربي، واستدعى ابن غانية. فلما تحصل بمحلته، طلبه بالتخلي عن بياسة وأبدة، فكان ذلك. وتشاغل الموحدون بأمر ثائر نازعهم بالمغرب. فكلب العدو على الأندلس، فنازل الأشبونة وشنترين، وألمرية وطرطوشة ولا ردة وإفراغة، وطمع في استيصال بلاد الإسلام، فداخل ابن غانية سراً من بإشبيلية من الموحدين، ووصله كتاب خليفتهم بما أحب، وتحرك الطاغية في جيوش لا ترام. وطالب ابن غانية

بالخروج عن جيان وتسليمها إليه، وكاده، حسبما تقدم في اسم عبد الملك بن سعيد. ونهض بعد هذه الكاينة إلى غرناطة، وهي آخر ما تبقى للمرابطين من القواعد ليجمع بها أعيان لمتونة ومسوفة، في شأن صرف الأمر إلى الموحدين.

وفاته

ولما وصل الأمير يحيى بن غانية إلى غرناطة أقام بها شهرين، وتوفي عصر يوم الجمعة الرابع عشر من شعبان عام ثلاثة وأربعين وخمسماية، ودفن بداخل القصبة في المسجد الصغير، المتصل بقصر باديس بن حيوس مجاوراً له في مدفنه، وعليه في لوح من الرخام تاريخ وفاته. والناس يقصدوه لتبرك به.

يوسف بن تاشفين

بن إبراهيم بن توقورت بن وريابطن بن منصور ابن مصالة بن أمية بن وايامي

الصنهاجي ثم اللمتوني

يكنى ابا يعقوب ويلقب بأمير المسلمين.

أوليته

ذكروا أن يحيى بن إبراهيم بن توقورت حج، وهو كبير قبيل الصحراويين في عشر الأربعين وأربعماية، واجتاز على القيروان، وهي موفورة بالعلماء، وتعرف بالفقيه أبي عمران الفاسي، ورغب إليه أن ينظر له في طلب من يستصحبه، ليعلم قومه ويفقههم ، فخاطب له فقيهاً من فقهاء المغرب الأقصى اسمه واجاج، واختارله واجاج، عبد الله بن ياسين القايم بدولتهم، البادي نظم نشرهم، وتأليف كلمتهم، فاجتمع عليه سبعون شيخاً من نبهائهم ليعلمهم، فانقادوا له انقياداً كبيراً، وتناسل الناس، فضخم العدد، وغزا معهم قبايل الصحراء. ثم التأثت حاله معهم، فصرفوه، وانتهبوا كتبه، فلجأ إلى أمير لمتونة يحيى بن عمر بن تلايكان اللمتوني، فقبله، وأعاد حاله، وثابت طاعته، فأمضى القتل على من اختلف عليه. وكان يحيى بن عمر يمتثل أمر عبد الله امتثالاً عظيماً. ثم خرج بهم إلى سجلماسة، فتملكوها، وتملكوا الجبل. ثم ظهروا على المغرب، ثم قتل الأمير يحيى بن عمر، فقدم عبد الله أخاه أبا بكر بن عمر بدرعة، ونهد به، فتملك جبال المصامدة، واحتل بأغمات وريكة واستوطنها. ولعبد الله أخبار غريبة، وشذوذ في الأحكام الله أعلم بصحتها. وقتل عبد الله ابن ياسين برغواطة. ولم يزل الأمير أبو بكر بن عمر حتى أخذ ثاره، وأثخن القتل فيهم، وقدم ابن عمه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم، على عسكر كبير، فيهم أشياخ لمتونة، وقبايل البرابرة والمصامدة، واجتاز على بلاد المغرب، فدانت له. وطرق الأمير أبا بكر خبرٌ من قومه من الصحراء انزعج له، فولى يوسف بن تاشفين على مملكة المغرب، وترك معه الثلث من لمتونة، إخوانه، وأوصاه، وطلق زوجته زينب، وأمره بتزوجها، لما بلاه من يمنها. فبنى يوسف مدينة مراكش وحصنها ، وتحبب إلى الناس، واستكثر من الجنود والقوة، وجبي الأموال، واستبد بالأمر. ورجع الأمير أبو بكر من الصحراء سنة خمس وستين وأربعمائة، فألفى يوسف مستبداً بأمره، فسالمه، وانخلع له عن الملك، ورجع إلى صحرايه، فكان بها تصله هدايا يوسف إلى أن قتله السودان. واستولى يوسف على المغرب كله، ثم أجاز البحر إلى الأندلس، فهزم الطاغية الهزيمة الكبرى بالزلاقة، وخلع أمراء الطوائف، وتملك البلاد إلى حين وفاته.

حاله

قال أبو بكر بن محمد بن يحيى الصيرفي، كان رحمه الله خائفاً لربه كتوماً لسره، كثير الدعاء والاستخارة، مقبلاً على الصلاة، مديماً للاستغفار، أكثر عقابه لمن تجرأ أو تعرض لانتقامه، الاعتقال الطويل، والقيد الثقيل، والضرب المبرح، إلا من انتزى أو شق العصا، فالسيق أحسم لانتشار الداء. يواصل الفقهاء، ويعظم العلماء، ويصرف الأمور إليهم، ويأخذ فيها بآرائهم، ويقضي على نفسه وغيرهم بفتياهم، ويحض على العدل، ويصدع بالحق، ويعضد الشرع، ويجزم في المال، ويولع بالاقتصاد في الملبس والمطعم والمسكن، إلى أن لقي الله، مجداً في الأمور، ملقناً للصواب، مستحباً حال الجد، مؤدياً إلى الرعايا حقها، من الذب عنها، والغلظة على عدوها، وإفاضة الأمن والعدل فيها. يرى صور الأشياء على حقيقتها. تسمى بأمير المسلمين لما احتل الأندلس وأوقع بالروم، وكان قبل يدعى الأمير يوسف، وقامت الخطبة فيها جميعاً باسمه، وبالعدوة، بعد الخليفة العباسي. وكان درهمه فضة، ودنيره تبرٌ محض، في إحدى صفحتي الدنير لا إله إلا الله، محمد رسول الله وتحت ذلك أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين، وفي الداير، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. وفي الصفحة الأخرى، الإمام عبد الله أمير المسلمين، وفي الداير تاريخ ضربه وموضع سكته، وفي جهتي الدرهم ما حمله من ذلك.

بعض أخباره

في سنة سبعين وأربعمائة وردت عليه كتب الأندلس، يبثون حالهم، ويحركونه إلى نصرهم. وفي سنة اثنتين بعدها، ورد عليه عبد الرحمن ابن أسباط، من ألمرية، يشرح حال الأندلس. وفي سنة خمس وسبعين بعدها، وجه إلى شراء العدد فيها، واستكثر منها. وفي سنة ستٍّ بعدها فتح مدينة سبتة، ودخلها عنوة على الثاير بها سقوت البرغواطي. وفي سنة ثمان اتصل به تملك طاغية قشتالة مدينة طليطلة، وجاز إليه المعتمد بن عباد بنفسه، وفاوضه واستدعاه لنصرة المسلمين، وخرج إليه عن الجزيرة الخضراء. وعلم بذلك الأدفنش، فاخترق بلاد المسلمين معرضاً عن رؤساء الطوائف، لا يرضى أخذ الجزية منهم، حتى انتهى إلى الخضراء، ومثل على شاطىء البحر، وأمر أن يكتب إلى الأمير يوسف بن تاشفين، والموج يضرب أرساغ فرسه، بما نسخته: من أمير الملتين أذفونش بن فردلند إلى الأمير يوسف بن تاشفين. أما بعد فلا خفاء على ذي عينين أنك أمير الملة المسلمة، كما أنا أمير الملة النصرانية. ولم يخف عليكم ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاذل، والتواكل، وإهمال الرعية، والإخلاد إلى الراحة، وأنا أسومهم سوء الخسف، وأضرب الديار، وأهتك الأستار، وأقتل الشبان، وأسبي الولدان، ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم، إن أمكنتك قدرة. هذا وأنتم تعتقدون، أن الله تبارك وتعالى، فرض على كل منكم، قتال عشرة منا، ثم خفف عنكم فجعل على كل واحد منكم، قتال اثنين منا، فإن قتلاكم في الجنة، وقتلانا في النار، ونحن نعتقد أن الله أظهرنا بكم، وأعاننا عليكم، إذ لا تقدرون دفاعاً، ولا تستطيعون امتناعاً. وبلغنا عنك أنك في الاحتفال على نية الإقبال، فلا أدري أن كان الحين يبطىء بك أمام التكذيب لما أنزل عليك. فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إلي ما عندك من المراكب لأجوز إليك، وأناجزك في أحب البقاع، فإن غلبتني، فتلك غنيمة جاءت غليك، ونعمة مثلت بين يديك. وإن غلبتك، كانت لي اليد العليا، واستكملت الإمارة. والله يتم الإرادة.

فأمر يوسف بن تاشفين أن يكتب في ظهر كتابه جوابك يا أذفونش ما تراه، لا ما تسمعه إن شاء الله وأردف الكتاب ببيت أبي الطيب:

ولا كتبٌ إلا المشرفية والقنا ... ولا رسلٌ إلا الخميس العرمرم

وعبر البحر، وقد استجاش أهل الأندلس. وكان اللقاء يوم الجمعة منتصف رجب من عام تسعة وسبعين وأربعمائة. ووقعت حرب مرة، اختلط فيها الفريقان، بحيث اقتحم الطاغية محلة المسلمين، وصدم يسارة جيوش الأندلس،

واقتحم المرابطون محلته للحين. ثم برز الجميع إلى مأزق، تعارفت فيه الوجوه، فأبلوا بلاءً عظيماً، وأجلت عن هزيمة العدو، واستيصال شأفته. وأفلت أذفونش في فل قليل، قد أصابته جراحة، وأعز الله المسلمين ونصرهم نصراً لا كفاء له، وأكثر شعراء المعتمد القول في ذلك، فمن ذلك قول عبد المجيد بن عبدون من قصيدة:

فأين العجب يا أذفونش هلا ... تجنبت المشيخة يا غلام
شملك النساء ولا رجال ... فحدث ما وراءك يا عصام
أقمت لدى الوغى سوقاً فخذها ... مناجزة وهونٌ لا تنام
فإن شيت اللجين فثم سام ... وإن شيت النضار فثم حام
رأيت الضرب تطيبا فصلب ... فأنت على صليبك لا تلام
أقام رجالك الأشقون كلا ... وهل جسدٌ بلا رأس ينام
رفعنا هامهم في كل جذع ... كما ارتفعت على الأيك الحمام
سيعبد بعدها الظلماء لما ... أتيح له بجانبها اكتتام
ولا ينفك كالخفاش يغضي ... إذا ما لم يباشره الظلام
نضا إذ راعه واجتاب ليلاً ... يود لو أن طول الليل عام
سيبقى حسرةً ويبيد إن لم ... أبادتنا القناة أو الحسام

وعاد إلى العدوة. ثم أجاز البحر ثانية إلى منازلة حصن لييط ، وفسد ما بينه وبين أمراء الأندلس، وعاد إلى العدوة، ثم أجاز البحر عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة، عاملاً على خلعهم، فتملك مدينة غرناطة في منتصف رجب من العام المذكور، ودخل القصر بالقصبة العليا منها، واستحسنه، وأمر بحفظه، ومواصلة مرمته. وطاف بكل مكان منه ثم تملك ألمرية وقرطبة وإشبيلية وغيرها، في أخبار يطول اقتضاؤها، والبقاء لله.

وفاته

توفي رحمه الله بمدينة مراكش يوم الإثنين مستهل محرم سنة خمسماية. وممن رثاه أبو بكر بن سوار من قصيدة أنشدها على قبره:

ملك الملوك وما تركت لعامل ... عملاً من التقوى يشارك فيه
يا يوسف ما أنت إلا يوسف ... والكل يعقوب بما يطويه
إسمع أمير المؤمنين وناصر الدين ... الذي بنفوسنا نفديه
جوزيت خيراً عن رعيتك التي ... لم ترض فيها غير ما يرضيه
أما مساعيك الكرام فإنها ... خرجت عن التكييف والتشبيه
في كل عام غزوةٌ مبرورة ... تردي عديد الروم أو تفنيه
تصل الجهاد إلى الجهاد موفقاً ... حتم القضاء بكل ما تقضيه
ويجيء ما دبرته كمجيئه ... فكأن كل مغيب تدريه
متواضعاً لله مظهر دينه ... في كل ما تبديه أو تخفيه
ولقد ملكت بحقك الدنيا وكم ... ملك الملوك الأمر بالتمويه
لو رامت الأيام أن تحصي الذي ... فعلت سيوفك لم تكد تحصيه
إنا لمفجوعون منك بواحد ... جمعت خصال الخير أجمع فيه

وإذا سمعت حمامة في أيكة ... تبكي الهديل فإنها ترثيه
وميضٌ قد استرعى رعية أمة ... فأقام فيهم حق مسترعيه
وإذا هزبر الغاب صرى شبله ... في الغاب كان الشبل شبه أبيه
وإذا عليٌّ كان وارث ملكه ... فالسهم يلقى في يدي باريه

يوسف بن محمد بن يوسف

بن محمد بن نصر

ولي عهد أبيه أمير المسلمين الغالب بالله .

حاله

كان أميراً جليلاً حصيفاً فاضلاً، ظاهر النبل، محباً في العلم ..... من فنونه. مال إلى التعاليم والنجوم، أفرط في الاستغراق في ذلك، ونمي إلى أبيه، فأنكره، وقصد يوماً منزله لأجل ذلك، ودخل المجلس، وبه مجلدات كثيرة، وقال ما هذه يا يوسف، فقال ستراً لغرضه المتوقع فيه نكير أبيه، يا مولاي هي كتب أدب، فقال السلطان، وقد قنع منه بذلك، يا ولدي ما أخذناها يعني السلطنة، إلا بقلة الأدب، تورية حسنة، إشارة إلى الثورة على ملوك كانوا تحت إيالتهم، فغرب في حسن النادرة، وكان قد ولاه عهده بعد أخيه، لو أمهلته المنية.

وفاته

توفي يوم الجمعة ثالث عشر صفر عام ستين وستماية.

يوسف بن عبد المؤمن بن علي

الخليفة أبو يعقوب الوالي بعد أبيه.

حاله

كان فاضلاً كاملاً عدلاً ورعاً جزلاً، حافظاً للقرآن بشرحه، عالماً بحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خطئه وصحيحه، آية الموحدين في الإعطاء والمواساة، راغباً في العمارة، مثابراً على الجهاد، مشيعاً للعدل. أصلح العدوة وأمنها، وأنس شاردها، وحصن جزيرة الأندلس ببعوثه لها، فقمعوا عاصيها، وافترعوا بالفتح أقاصيها، وأحسن لأجنادها، وأمدهم من الخيل بالمبين من أعدادها، رحمه الله.

ولده

ثمانية عشر أكبرهم يعقوب ولي عهده، نجم بني عبد المؤمن وجوهرهم.

حاجبه

ابو حفص شقيقه.

وزراؤه

إدريس بن جامع، ثم أبو بكر بن يوسف الكومي.

قضاته

حجاج بن يوسف بن عمران، وابن مضاء.

كتابه

أبو الحسن بن عياش القرطبي، وأبو العباس بن طاهر بن محشرة.
بعض أخباره
في أيامه، استوصلت دولة ابن مردنيش، بعد حروب مبيرة، ودوخ إفريقية، ورد أهل باجة إلى وطنهم، بعد تملك العدو إياه، وجبرهم جداً واستنقاذاً، وفتح حصن بلج.
وفاته
في الثامن والعشرين لربيع الآخر سنة ثمانين وخمسماية، بظاهر شنترين من سهم أصابه في خبائه، وهو محاصر لها، فقضى عليه، وكتم موته، حتى اشتهر بعد رحيله. ذكر ذلك أبو الحسن بن أبي محمد الشريشي، فكانت خلافته اثنين وعشرين عاماً، وعشرة أشهر، وعشرة أيام، وعمره سبع وأربعون سنة.
مولده
في مستهل سنة ثلاث وثلاثين وخمسماية، ودخل غرناطة لأول مرة، ووجب ذكره فيمن حل بها.
يوسف بن يعقوب

بن عبد الحق بن محيو

أمير المسلمين بالمغرب، يكنى أبا يعقوب.
أوليته معروفة مذ وقع الإلماع بذلك في اسم أمير المسلمين أبيه.
حاله

كان ملكاً عالي الهمة، بعيد الصيت، مرهوب الشبا، رابط الجأش، صعب الشكيمة، على عهده اعتلى الملك، وناشب القبيل، واستوسق الأمر. جاز إلى الأندلس مع والده، ودوخ بين يديه بلاد الروم، ووقف بظاهر قرطبة وإشبيلية، وحضر الوقيعة بذنونه ، وجرت بينه وبين سلطان الأندلس، على عهده، منافرات، أجلت أخيراً عن لحاق السلطان به مستعتباً. واستقر آخراً محاصراً لتلمسان، غازياً لبني زيان الأمراء بها، وابتنى مدينة سماها تلمسان الجديدة، وأقام محاصراً لها، مضيقاً على أهلها نحواً من ثمانية أعوام، وعظمته الملوك شرقاً وغرباً، ووردت عليه الرسل والهدايا من كل جهة، وهابه الأقارب والأباعد.
وفاته

ولما أراد الله إنفاذ حكمه فيه، قيض له عبداً خصياً حبشياً، أسفه بقتل أخٍ له أو نسيب، في باب خيانة عثر له عليها، فاقتحم عليه دار الملك على حين غفلة، فدجاه بسكين أعده لذلك، وضج القصر، وخرج وبالسلطان رمق، ثم توفي من الغد، أو قريباً منه، في أوايل ذي قعدة من عام ستة وسبعماية، فكانت دولته إحدى وعشرين سنة وأشرهاً، وانتقل إلى مدفن سلفه بسلا، وقبره بها. وركب قاتله فرساً أزعجها ركضاً، يروم النجاة واللحاق بالبلد المحصور، وسبقه الصياح، فسد بعض الأبواب التي أمل النجاة منها، وقتل وألحق به كثير من جنسه.
وجرى ذكره في الرجز المتضمن دول الملوك من تأليفنا بمنا نصه:
حتى إذا الله إليه قيضه ... قام ابنه يوسف فيها عوضه
وهو الهمام الملك الكبير ... فابتهج المنبر والسرير
وضخم الملك وذاع الصيت ... بملكه وانتظم الشتيت

وساعد السعد وأغضى الدهر ... وخلص السر له والجهر
وأمل الجود وخيف البأس ... واستشعر الخشية من الناس
ثم تقضى معظم الزمان ... مواصلاً حصر بني زيان
حتى أهل تلمسان الفرج ... ونشقوا من جانب اللطف الفرج
لما توفي درج السعد درج ... فانفرج ضيق الحصر عنه وانفرج

ونزل بظاهر غرناطة وببعض مروجها بقرية أشقطمر، في بعض غزوات أبيه إلى قرطبة، وتقدم السلطان إليهم من البر والقرى، ما كثر الإخبار به والتعجب منه، ووجه إليهم ولده وولي عهده.

المنصور

يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن بكر بن حمامة بن محمد بن رزين بن فقوس بن كرناطة بن مرين من قبيلة زناتة، أمير المسلمين المكنى بأبي يوسف الملقب بالمنصور رحمه الله.

أوليته

ظهر بالمغرب أبوه الأمير عبد الحق، وقد اضطربت دولة الموحدين، والتأث أمرهم، ومرجت عرب رياح، لعجز الدولة عن كف عدوانهم، فخرج الأمير عبد الحق في بحبوحة قومه من الصحراء، ودعا إلى نفسه، واستخلص الملك بسيفه، عام عشرة وستماية، وكان على ما يكون عليه مثله، ممن جعله الله جرثومة ملك وخدم دولة، من الصدق والدهاء والشجاعة. ورأى في نومه كأن شعلاً أربع من نار، خرجن منه، فعلون في جو المغرب، ثم احتوين على جميع أقطاره، فكان تأويلها تملك بنيه الأربعة بعده، والله يؤتي ملكه من يشاء. وكان له من الولد إدريس، وعثمن، وعبد الله، ومحمد، وأبو يحيى، وأبو يوسف، ويعقوب. هذا ولما هلك هو وابنه إدريس في وقيعة رياح، ولي أمره عثمان ولده، ثم ولي بعده أخوه محمد، ثم ولي بعده أبو يحيى أخوهما. وفي أيامه اتسق الملك، وضخم الأمر، وافتتحت البلاد. ولما هلك حتف أنفه بفاس في رجب من عام ستة وخمسين وستماية، قام بالملك أخوه يعقوب المترجم به، وارث الملك بنيه.

حاله

كان ديناً فاضلاً حيياً، جواداً سمحاً، شجاعاً، محباً في الصالحين، منقاداً إلى الخير، حريصاً على الجهاد. أجاز ولده في أوائل عام اثنين وسبعين وستماية إلى الأندلس، ثم عبر بنفسه في سرار صفر من العام بعده، فاحتل بظاهر إشبيلية، وكسر جيش الروم، المنعقد على زعيمهم المسمى ذنونه، بظاهر إستجة في ربيع الآخر من العام. ثم عبر ثانياً، مغتنماً ما نشأ بين الروم من الفرقة، فغزا مدينة قرطبة، وصار أمر العدو في أطواق الفرنتيرة، بحيث لا يوجد في بطن القتيل منها إلا العشب أزلاً ومسغبة، لانتشار الغارات، وانتساف الأقوات، وحديث الفتنة. وسببها ما كان من تصير مالقة إليه، من أيد المنتزين عليها من بني إشقيلولة، ثم عودها إلى سلطان الأندلس، من أيدي رجاله، شيوخ بني محلى، ثم تدارك الله المسلمين بصلاح ذات البين، واحتل بظاهر غرناطة، في بعض هذه الغزوات، فنزل بقرية إسقطمر من مرجها، واحتفل السلطان رحمه الله في بره، وأجزل نزله، وتوجيه ولده إليه. وذكر سيرته شاعرهم أبو فارس عزوز في أجوزته، فقال:

سيرة يعقوب بن عبد الحق ... قد حاز فيها قصبات السبق
بغيتان، يقرأ الكتاب ... وتذكر العلوم والآداب
يقوم للكتاب ثلث الليل ... وما له عن ورده من سبيل

حتى إذا الصباح لاح وارتفع ... قام وصلى للإله وركع
وضج بالتسبيح والتقديس ... حتى يتم الحزب في التغليس
يقرأ أولاً كتاب السير ... والقصص الآتي بكل خبر
ثم فتوح الشام باجتهاد ... وبعده المشهور بالإنجاد
سؤاله تعجز عنه الطلبة ... ومن لديه من أجل الكتبة
يعقد الكتب إلى وقت الضحى ... ثم يصليها كفعل الصلحا
ويأمر الكتاب بالأوامر ... في باطنٍ من سره وظاهر
ويدخل الأشياخ من مرتين ... للرأي والتدبير والتزيين
مجلسه ليس به فجور ... ولا فتىً في قوله يجور
كأنهم مثل النجوم الزهر ... وبينهم يعقوب مثل البدر
قد أسبر الوقار والسكينة ... وحل في مكانة مكينة
حتى إذا ما جاز وقت الظهر ... قام إلى بيت للندى والفخر
يبقى إلى وقت صلاة العصر ... يأتي إلى بيت العلى والأمر
وينصف المظلوم ممن ظلمه ... ولم يزل إلى صلاة العتمة
ثم يؤم بيتة الكريما ... ويترك الوزير والخديما
ثم ينام تارةً، وتارة ... يدبر الأمور بالإدارة
ما إن ينام الليل إلا ساهراً ... ينوي الجهاد باطناً وظاهراً
فهل سمعتم مثل هذه السيرة ... وهذه المآثر الأثيرة
لملكٍ كان من الملوك ... أو مالكٍ في الدهر أو مملوك
كذاك كان فعله قديماً ... بذاك نال الملك والتعظيما
ومن الرجز المسمى بقطع السلوك من تأليفنا، في ذكره، قولي:
تبوأ هذا الأمر عبد الحق ... أكرم من نال العلى بحق
واستخلص الملك بحد المرهف ... لسن مجدٍ عظيم الشرف
وكان سلطاناً عظيم الجود ... وصدقت رؤياه في الوجود
فأعلى الأيام نور سعده ... ونالها أبناؤه من بعده
عثمن ثم بعده محمد ... ثم أبو يحيى الهمام الأسعد
تمهد الملك له لما هلك ... وسلك السعد به حيث سلك
وفتحت فاس على يديه ... والملك العلي حله لديه
وكان ذا فضل وهدىً وورع ... قد رسم الملك فيهم واخترع
ثم أتت وفاته المشهورة ... فولي المنصور تلك الصورة
وهو أبو يوسف غلاب العدا ... وواحد الأملاك بأساً وندا
ممهد الملك وموري الزند ... وباسط العدل ومولي الرفد
مدت إلى نصرته الأكف ... والروم في العدوان لا تكف

فاقتحم البحر سريعاً وعبر ... ودافع الأعداء فيها وصبر
ووقعت في عهده أمور ... وفتنةٌ ضاقت لها الصدور
وآلت الحال إلى التيام ... فما أضيعت حرمة الإسلام
حتى إذا الله إليه قبضه ... قام ابنه يوسف فيها عوضه

وفاته

توفي في شهر المحرم عام خمسة وثمانين وستماية، بالجزيرة الخضراء ودفن بها. ثم احتمل بعد إلى سلا، فدفن بالجبانة المعروفة هنالك لملوك من بني مرين. ومحل هذا السلطان في الملوك المجاهدين المرابطين معروف، تغمده الله برحمته.

الأعيان والوزراء والأماثل والكبراء

يحيى بن رحو

بن تاشفين بن معطي بن شريفين

أقرب القبائل المرينية إلى قبيل سلطانهم من بني حمامة. خدم جده بتونس، ثم بالأندلس، يكنى أبا زكريا، شيخ القبيل الزناتي، ومحراب رأيهم، وقطب رحى حمائهم.

حاله

كان هذا الشيخ وحيد دهره، وفريد وقته، وشامة أهل جلدته، في النبل والفطانة، والأدراك والرجاحة، شديد الهزل مع البأو، والممالقة مت التيقور، والمهاترة مع الحشمة. عارفاً بأخلاق الملوك وشروط جلسائها، حسن التوصل إليها، والتأتي لأغراضها، بعيد الغور، كثير النكراء، لطيف الحلة، عارفاً بسياسة الوطن، قيوماً على أخلاق أهله، عديم الرضا بسير الملوك، وإن أعلقوا بالعروة الوثقى يده، ويسروا على عبور عقبة الصراط عونه، وأقطعوه الجنة وحده، طنازاً بهم، مغرياً، خائنة الأعين بتصرفاتهم، مقتحماً حمى اغتيابهم، قد اتخذ ذلك سجية، أقطعته جانب القطيعة برهة، فارتكب لها الأداهم مدة، جماعة للمال، ذايداً عنه بعصى التقتير، وربما غمس فيه إبرةً للصدقة، وساماً بينه وبين الوزير، مكفى السماء على الأرض، برأيه المستعين على الفتكة وما وراءها، بمنيع موالاتهم، وبانيه يوم مكاشفة الملإ إياه بالنفرة، وكان قطب الرحى للقوم في الوجهة إلى الأمير عبد الحليم، ومقيم رسمه، وانصرف إلى جهة مراكش عند الهزيمة عليه، فاتصل بعميدها عامر بن محمد بن علي الهنتاتي، وجرت عليه خطوب، وعاثت في الكثير من نعمته أكف التمزيق، ديدن الدهر، في الأموال المحتجنة، والنقود المكتنزة، واستقر أخيراً بسجلماسة، في مظاهرة الأمير عبد الحليم المذكور، وبها هلك. وكان على إزاريه ولسب لسانه، واخز تلال حية حدته، ناصح الرأي لمن استنصحه، قواماً فيه بالقسط، ولو على نفسه والوالدين والأقربين، فضيلةٌ عرف فيها شأوه، مقيماً لكثير من الرسوم الحسبية.

دخوله غرناطة

قدم غرناطة في جمادى من عام تسعة وخمسين وسبعماية في غرض الرسالة، ووصل صحبته قاضي الجماعة بالمغرب أبو عبد الله المقري، وكان من امتساكه بالأندلس، ما أوجب عودة المترجم به في شأنه، فتعدد الاستمتاع بنبله.

وفاته

توفي قتيلاً في الهزيمة على الأمير عبد الحليم بظاهر سجلماسة في ربيع الأول من عام أربعة وستين وسبعماية.

يحيى بن طلحة بن محلى

البطوي، الوزير أبو زكريا

حاله

كان مجموعاً رائعاً، حسن شكل وجمال رواء، ونصاعة ظرف، واستجادة مركب وبزة، قديم الجاه، مرعي الوسيلة، درباً على الخدمة، جلداً على الوقوف والملازمة، مجدي الجاه، تلم به نوبة تواضع، يتشبث به الفقراء وأولي الكدية، فكه المجلس، محباً في الأدب، ألفاً للظرفاء، عاملاً على حسن الذكر وطيب الأحدوثة. تولى الوزارة للسلطان أبي الحسن، ونشأ في حجر أبيه، ماتا إليهم بالخؤولة القديمة، فتملأ ما شاء من قرب ومزية، وباشر حصار الجبل لما نازله الطاغية، لقرب عهدٍ بفتحه، فأبلى وحسن أثره. نشأ بالأندلس، وسكن وادي آش وغرناطة، واستحق الذكر لذلك:

شعره

وكان ينظم الشعر، فمن ذلك قوله في مزدودة في غرض الفخر:

أنا ابن طلحة ولا أبال ... لبث السرى في الحرب والنزال
يحيى حياة البيض والعوال ... مبيدٌ كل بطلٍ مغتال
إن سمعوا باسمي في مجال ... يلقوا بأيديهم إلى النكال
أستنزل القرن لدى الصيال ... وأكسر النصل على النصال
من أملي التفريق للأموال ... والجمع بين الأقوال والفعال
والشعر إن تسمعه من مقال ... تعلم بأن السحر في أقوال

أوشح الغريب فالأمثال ... وأقرن الأشباه بالأمثال
وأفضل المرجان باللآل ... وأذكر الأيام والليال
فمن أبو أمية الهلال ... ومن وحيد عصره الميكال
هذا ولي في غير ذا معال ... بها أعالي الدهر من أعال
كما لحسب الصميم والمعال ... والمحتد الضخم الخفيل الحال
وكرم الأعمام والأخوال ... والصون والعفاف والأفضال
فمن يساجلني فذا سجال ... ومن يناضلني فذا نضال

وفاته: توفي في أواخر عام خمسة وثلاثين وسبعماية. اصابه سهم نفطٍ رمي به من سور تلمسان أيام الحصار، فقضى عليه. نفعه الله.

يحيى بن عبد الرحمن

بن إبراهيم بن الحكيم اللخمي

أخو الوزير أبي عبد الله بن الحكيم وكبيره، يكنى أبا بكر، رندي الأصل. قد مر شيءٌ من ذكر أوليته. دخل غرناطة مرات، وافداً وزايراً، وساكناً ومغرباً.

حاله

كان وزيراً جليلاً، وقوراً عفيفاً، سرياً فاضلاً، رحب الجانب، كثير الأمل، جم المعروف، شهير المحل، عريض الجاه، صريح الطعمة، من أقطاب أرباب النعم، ومنتجعي الفلاحة بالأندلس. استبد ببلده برهة، بإسناد ذلك إليه وإلى أخيه، من السلطان أمير المسلمين أبي يعقوب ملك المغرب، الصاير إليه أمره عند نبذها مغاضباً، ثم أصاره إلى إيالة السلطان، ثاني الملوك من بني نصر، على يدي أخيه كاتبه، ووزير ولده.

محنته ووفاته

ولما تقلد أخوه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الحكيم الأمر، سما جاهه، وعظم قدره، وتعدد أمله، إلى أن تعدى إليه أمر المحنة يوم الفتك بأخيه، فطاح في سبيله نشبه، وذهب في حادثه الشنيع مكسبه. واستقر مغرباً بمدينة فاس، تحت ستر وجراية، وبها أدركته وفاته في أوايل شوال من عام عشرة وسبعماية.

يحيى بن عمر بن رحو

بن عبد الله بن عبد الحق

جد الملوك من بني مرين، يكنى أبا زكريا، شيخ الغزاة، ورئيس جميع القبايل بالأندلس.

أوليته

قد تقدمت الإشارة إلى أولية هذا البيت، ونحن نلمع بسبب انتباذهم عن قومهم، وهو ما كان من قتل أخي جدهم، يعقوب بن عبد الله ابن عبد الحق، ابن أخي السلطان أبي يوسف، إذ كان ثايراً مصعباً، مظنة للملك، ومحلاً للآمال، فنافسه ولي العهد وأوقع به، فوقع بينهم الشتات، وفر شيوخ هذا البيت وأتباعهم إلى تلمسان، ثم اجتازوا إلى الأندلس، منهم من آثر الجهاد، أو نبا به ذلك الوطن، أو شرده الخوف، أو أحطب به الاستدعاء. فمنهم موسى وعمران والعباس، أبناء رحو بن عبد الله، وعثمان بن إدريس وغيرهم. فبدت فيهم الشياخة، وصحبهم التقديم، وأقامت فيهم الخطة، وترددت بينهم الولاية.

حاله

هذا الشيخ مستحق الرتبة، أهلٌ لهذه الرياسة، بأساً ونجدة، وعتقاً وأصالة، ودهاءً ومعرفة، طرفٌ في الإدراك، عامل على الحظوة، مستديمٌ للنعم، طيب بالخدمة، كثير المزاولة والحنكة، شديد التيقظ، عظيم الملاحظة، مستغرق الفكرة في ترتيب الأمور الدنيوية، بحاث عن الأخبار، ملتمس للعيون، حسن الجوار، مبذول النصفة، بقية بيته بالعدوتين، وشيخ رجاله. له الإمامة والتبريز في معرفة لسانهم، وما يتعلق به من شرعٍ ومثل وحكمة وخبر، لو عرضت عليه رمم من عبر منهم لأثبتها، فضلاً عن غير ذلك، نسابة بطونهم وشعابهم، وعلامة سيرهم، وعوايدهم، ألمعيٌّ، ذكي، حافظ للكثير من الحكم والتواريخ، محفوظ الشيبة من العصمة، طاهر الصون والعفة، مشهور الشهامة والنجدة، معتدل السخاء، يضع الهناء مواضع النصب فلا يخدع عن جدته، ولا يطمع في غفلته، ولا ينازع فيما استحقه من مزيته، خدم الملوك، وخبر السير، فترك الأخبار لعلمه، وعضل عقله لتجربته.

تولى رياسة القبيل وسط صفر من عام سبعة وعشرين وسبعماية، معوضاً به عن شيخ الغزاة عثمن بن أبي العلاء ، فنعم البيت، وخدن الشهرة، عندما أظلم ما بينه وبين ابن المحروق مدبر الدولة، ودافعه بالجيش، في ملقى حرانه، من أحواز حصن أندرش مرات، تناصف الحرب فيها، وربما ندر الفلج في بعضها، واستمرت حاله إلى سابع محرم من عام تسعة وعشرين وسبعماية، وأعيد عثمان بن أبي العلاء إلى رتبته على تفئة مهلك ابن المحروق، وانتقل هو إلى مكانه بوادي آش في قومه، تحت حفظٍ ومبرة. ثم دالت له الدولة، وعادت إلى ولده الكرة، يوم القبض على نظرائه وقرابته، مترفي حظوته، ولد الشيخ أبي سعيد عثمن بن أبي العلاء، عند إيقاع الفتكة بهم يوم السبت التاسع والعشرين لربيع الأول عام أحد وأربعين وسبعماية. واستمرت له الولاية، وألقت عصاها كلفة منه بالكفؤ الذي سلم له المنازع، إلى أن قبض سلطانه رحمه الله، فجرى ولده على وتيرة أبيه، ووفى له صاع وفائه، فجدد ولايته، وشدا حسه، ونوه رتبته، وصدر له يوم بيعته منشور كريم من إنشائي نصه: هذا ظهير كريم منزلته في الظهاير الكريمة منزلة المعتمد في الظهر الكرام، أطلع وجه التعظيم سافر القسام، وعقد راية العز السامي الأعلام، وجدد كريم المتات وقديم النمام، وانتضى للدفاع عن حوزة الدين حساماً يقر بمضايه صدر الحسام، فأعلن تجديده بشد أزر الملك ومناصحة الإسلام، وأعرب عن الاعتناء الذي لا تخلق جديده أيد الليالي والأيام. أمر به الأمير عبد الله محمد ابن أمير المسلمين أبي الحجاج، ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر، أيد الله أمره وأعز نصره، لوليه الذي هو عماد سلطانه، وواحد خلصائه، وسيف جهاده، ورأس أولي الدفاع عن بلاده، وعقد ملكه، ووسطي سلكه، الشيخ الجليل الكبير الشهير، الأعز الأسنى، الصدر الأسمى، الأحفل، الأسعد، الأطهر، الأظهر، الكذا، أبي زكريا ابن الشيخ الكذا، أبي علي ابن الشيخ الكذا، أبي زيد رحو بن عبدالله ابن عبد الحق، زاد الله قدره علواً، ومجده سمواً، وجهاده ثناءً متلواً.

لما كان محله من مقامه، المحل الذي تتقاصر عنه أبصار الأطماع فترتد حاسرة، وكان للدولة يداً باطشة، ومقلة باصرة، فهو ملاك أمورها واردةً أو صادرةً، وسيف جهادها الذي أصبحت بمضائه ظافرة، وعلى أعدائها ظاهرة، وكان له الصيت البعيد، والذكر الحميد، والرأي السديد، والحسب الذي يليق به التمجيد، والقدر الذي سما منه الجيد، وعرفه القريب والبعيد، والجهاد الذي صدق به في قواعده الاجتهاد والتقليد، فإن أقام جيشاً أبعد غارته، وإن دبر أمراً أحكم إدارته، مستظهراً بالجلال الذي لبس شارته. فهو واحد الزمان، والعدة الرفيعة من عدد الإيمان، ومن له بذاته وسلفه علو الشأن، وسمو المكان، والحسب الوثيق البنيان، ولبيته الكريم، بيت بني رحو السابقة في ولاية الأوطان. والمدافعة عن حوزة الملك وحمى السلطان. إن فوخروا صدعوا بالمكارم المعلومة، ومتوا إلى ملك المغرب ببنوة العمومة، وتزينوا من حلي الغرب بالتيجان المنظومة. فهم سيوف الدين، وأبطال الميادين، وأسود العرين، ونجوم سماء بني مرين. وكان سلفه الكريم رضي الله عنه يستضيء من رأيه بالشهاب الثاقب، ويحله من بساط تقريبه أعلى المراتب، ويستوضح ببركته جميع المذاهب. ويستظهر بصدق دفاعه على جهاد العدو الكاذب، ويرى أنه عز دولته، وسيف صولته، وذخيرة فخره، وسياج أمره. جدد له هذا الرتب تجديداً، صير الغاية منها ابتداءً، واستأنف به إعلاءً، ولم يدخر عنه حظوة ولا اعتناءً. وحين صير الله إليه ملك المولى أبيه بمظاهرته، وقلده

قلادة الملك بأصيل اجتهاده، وحميد سعيه، بعد أن سبق الألوف إلى الأخذ بثاره، وعاجلت البطشة الكبرى يد ابتداره، وأردى بنفسه الشقي الذي سعى في تبديد شمل الإسلام، وإطفاء أنواره، على تعدد الملك يومئذ وتوفر أنصاره. فاستقر الملك في قراره، وانسحب الستر على محله، وامتد ظل الحفظ على داره. عرف وسيلة من المقام الذي قامه، والوفاء الذي رفع أعلامه، وألقى إليه في أهم الأمور بالمقاليد، وألزمه ملازمة الحضور بمجلسه السعيد، وشديد الاغتباط على قربه، مستجحاً منه بالرأي السديد، ومستنداً من وده إلى الركن الشديد، وأقامه بهذه الجزيرة الأندلسية عماد قومه، فهو فيهم يعسوب الكتيبة، ووسطى العقد الفريد، وفذلكة الحساب وبيت القصيد،فدواره منهم للشريد، مأوى الطارف والتليد، الكفيل بالحسنى والمزيد. يقف ببابه أمراؤهم، وتنعقد في مجلسه آراؤهم، ويركض خلفه كبراؤهم. مجدداً من ذلك ما عقده سلفه من تقديمه، وأوجبه مزية حديثه وقديمه. فهو شيخ الغزاة على اختلاف قبايلهم، وتشعب وسايلهم، تتفاضل درجات القبول عليهم بتعريفه، وتشرف أقدارهم لديه بتشريفه، وتثبت واجباتهم بتقديره، وينالهم المزيد بتحقيقه للغناء منهم وتقريره، فهو بعده، أيده الله، قبلة آمالهم. وميزان أعمالهم، والأفق الذي يصوب من سحاب قطره غمام نوالهم، واليد التي تستمنح عادة أطمعتهم وأموالهم. فليتول ذلك عظيم القدر، منشرح الصدر، حالاً من دائرة جمعهم، محل القلب من الصدر، متألقاً في هالتها تألق البدر، صادعاً بينهم باللغات الزناتية، التي تدل على الأصالة العريقة، والنجار الحر. وهو إن شاء الله الحسام الذي لا ينبه على الضريبة، ولا يزيده حسناً جلب الحلي العجيبة، حتى يشكر الله والمسلمون اغتباط مقامه بمثله، ويزري بره به على من أسر بره من قفبله، ويجني الملك ثمرة تقريبه من محله. ومن وقف على الظهير الكريم من الغزاة، آساد الكفاح، ومتقلدي السيوف ومعتلقي الرماح، كماة الهيجاء وحماة البطاح، حيث كانوا من موسطة أو ثغر، ومن أقيم في رسم من الجهاد أو أمر، أن يعلموا قدر هذه الغاية المشرقة، واليد المطلقة، والحظوة المتألقة، فتكون أيديهم فيما قلدوه رداً ليده، وعزايمهم متوجهة إلى مقصده. فقصده، فقدره فوق الأقدار، وأمره الذي ناب أمره مقابل الابتدار، على توالي الأيام وتعاقب الأعصار. وكتب في كذا...

مولده

ولد بظاهر تلمسان، عند لحاق أبيه رحمه الله بسلطانها عام أحد وتسعين (وستماية) تلقيته من لفظه.

ومن المستدرك: وتمادت ولايته إلى الأوايل من شهر رمضان عام اثنين وستين وسبعماية. فلما تصيرت إلى قدار ناقتها، محمد بن إسمعيل ابن نصر، عزله، وهم به، فغربه إلى بلد الروم، فراراً أرق به البسالة والصبر، وتبعه الجيش، فأصيب بجراحة، ورد من صامته، وجلى عن نفسه، فتخلصه عزمه ومضاؤه، واستقر عند طاغية الروم، فأولاه من الجميل ما يفوت الوصف، واجتاز العدوة، فعرف بها حقه، وعادت رتبة هذا الرجل، بعد أن رد الله على سلطانها ملكه، إلى أحسن أحوالها من الجاه والحظوة، وانطلاق اليد. والسلطان مع ذلك منطوٍ له على الضعن لأمور، منها غمس اليد في أمر عمه، وقعوده عنه، وهو أحوج ما كان لنصره، وانزحاله عنه في الشدة، عندما جمعه المنزل الخشن، فسحب عليه أذيال النكبة لابنه عثمن، مترفي مرقب الظهور في عودته، والمستأثر بجواره، والمحكم في أمره، فتقبض عليهما، وعلى من لهما محالفاً للوقت فيهما، إذ كان متوفراً على الحلم لحدثان العودة، وجدة الإيالة، صبيحة يوم الإثنين لثالث عشر لرمضان عام أربعة وستين وسبعماية. فأحاط بهم الرجال لهذا السلطان، والتقطوا من بين قبيلتهم، ودهمهم الرجال، آخذين بحجزهم وايديهم إلى دور الثقاف. ثم أركبوا الأداهم، وانتقلوا إلى بعض الأطباق المتفرقة بقصبة المنكب، واقتضى نظر السلطان جلاء المترجم به وأولاده من مرسى المنكب، ونقل ولده الأكبر إلى

ألمرية حسبما مر في اسمه، فلينظر هنالك، واستقر إلى هذا العهد، بعد قفوله من الحج بمدينة فاس، فلقي بها براً وعناية، ولحق ولداه بالأندلس، وهما بها، تحت جراية وولاية

يوسف بن هلال

صهر الأمير أبي عبد الله بن سعد .

حاله

كان شجاعاً حازماً، أحظاه الأمير المذكور وصاهره، وجعل لنظره حسن مطرنيش ومواضع كثيرة. وفسدت طاعته إياه، فقبض عليه ونكبه وعذبه، واستخلص ما كان لنظره وتركه. فأعمل الحيلة، ولحق بمورتلة فثار بها، وعاقد صاحب برجلونة على تصيير ما يملكه إليه. فأعانه بجيش من النصارى، ولم يزل يضرب ويوالي الضرب على بلنسية ويشجي أهلها، وتملك الصخرة والصخيرة وغيرهما. واتفق أن خيلاً جهزها ابن سعد للضرب عليه، عثرت بجملته متوجهاً إلى شنت بيطر، فقبض عليه، وقيد أسيراً، فنهض به للحين إلى مورتلة وطلبه بإخلائها، فأبى فأمر ابن مردنيش بإخراج عينه اليمنى، فأخرجت بعود. ثم قرب من الحصن وطلبه بإخلائها، فدعا بزوجه وطلبها بإخلاء الحصن، وإلا فتخرج عينه الأخرى، فحمل على التكذيب، ولم يجبه أحد، فأخرجت للحين عينه الأخرى، وسيق إلى شاطبة، فبقي إلى أن مات سنة ثلاث وأربعين وستماية. ودخل غرناطة، وباشر منازلتها مع الأمير صهره، فاستحق الذكر لذلك.

من القضاة الأصليين وغيرهم

يحيى بن عبيد الله

بن يحيى بن كثير بن وسلاسن بن سمال بن مهايا المصمودي

أوليته وحاله

دخل أبو عيسى يحيى بن كثير الأندلس مع طارق بن زياد، وقيل له الليثي، لأنه أسلم على يد رجل اسمه يزيد بن عامر الليثي، فنسب إليه، وقيل إنهم نزلوا بنزل الليث، فنسبوا إليه، يكنى يحيى هذا، ابا عيسى. وكان جليل القدر، عالي الدرجة في القضاء، ولي قضاء إلبيرة وبجانة مدة، وولي قضاء جيان وطليطلة، ثم عزل عن طليطلة، وأضيفت إليه كورة إلبيرة مع جيان. ثم استعفى عن جيان وبقي يلي قضاء إلبيرة، وكان لا يرى القنوت في الصلات، ولا يقنت في مسجده البتة.

مشيخته

روى عن أبي الحسن النحاس، وسمع الموطأ من حديث الليث وغيره من عم ابيه عبيد الله بن يحيى.

مولده

في ذي القعدة سنة سبع وثمانين ومايتين.

وفاته

توفي ليلة الثلاثاء بعد صلاة العشاء، ودفن يوم الثلاثاء بعد العصر، لثمان خلت من رجب عام سبعة وستين وثلاثمائة.

يحيى بن عبد الرحمن

بن أحمد بن ربيع الأشعري

يكنى أبا عامر.

حاله

العالم الجليل، المحدث الحافظ، واحد عصره، وفريد دهره. كان رحمه الله علماً من أعلام الأندلس، ناصراً لأهل السنة، رادعاً لأهل الأهواء، متكلماً دقيق النظر، سديد البحث، سهل المناظرة، شديد التواضع، كثير الإنصاف، مع هيبة ووقار وسكينة، ولي قضاء الجماعة بقرطبة ثم بغرناطة، وأقرأ بغرناطة لأكابر علمائها ونبهائها، الحديث والأصلين وغير ذلك، بالمسجد الجامع منها وبغيره.

مشيخته

حدث عن والده العالم المحدث أبي الحسين عبد الرحمن بن أحمد ابن ربيع، وعن الشيخ الأستاذ الخطيب أبي جعفر أحمد بن يحيى الحميري، وعن الراوية المحدث أبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، وعن الحافظ المسن أبي بكر بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن الجد الفهري، والقاضي أبي عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون، والزاهد الورع، أبي الحجاج يوسف بن محمد البلوي المالقي، عرف بابن الشيخ، وأبي زكريا يحيى بن عبد الرحمن بن عبد المنعم الإصبهاني الواعظ، والفقيه القاضي أبي محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجي.

وفاته

بمالقة سنة سبع وثلاثين وستماية.

يحيى بن عبد الله

بن يحيى بن زكريا الأنصاري

أوليته تقدمت في اسم عمه أبي إسحق، فلينظر هنالك.

حاله

من أهل العدالة والزكا والسلف في الخطط الشرعية، سكون، متفنن في العلوم الشرعية من فقه وأحكام، وله التقدم في الوقت في علم الفرايض والحساب. حبس على الزاوية التي اتخذها بالحضرة، موضوعات في ذلك الغرض نبيهة، لم يقصر فيها عن الإجادة، وتولى قضاء مواضع من الأندلس، ثم استعمل في النيابة عن قاضي الحضرة العلية، وهو الآن قاض بمدينة وادي آش، وخطيب بمسجدها الأعظم، تنتابه الطلبة للأخذ عنه، والقراءة عليه.

مشيخته

روى مع الجملة ممن هو في نمطه، والأخذ بالإجازة عن الشيخ الأستاذ الصالح أبي إسحق بن أبي العاصي، والخطيب أبي علي القرشي، وعن الفقيه الخطيب أبي عبد الله البياني، وعن الأستاذ شيخ الجماعة أبي عبد الله ابن الفخار، وأخذ

عن والده وعمه أبي إسحق. وأجازه الشيخ القاضي الخطيب أبو البركات بن الحاج، والخطيب الصالح أبو محمد بن سلمون، والكاتب الجليل أبو بكر بن شبرين، ورييس الكتاب أبو الحسن ابن الجياب، وقاضي الجماعة أبو القاسم الشريف، والخطيب أبو عبد الله القرشي، وهو الآن بالحال المذكورة.

ابن الأحوص

يوسف بن الحسن بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الأحوص القرشي الفهري يكنى أبا المجد، ويعرف بابن الأحوص.

حاله

كان من أهل العلم والعدالة والنزاهة. ولي كثيراً من القواعد، فظهر من قصده الحق، وتحريه سبيل الصواب، ما يؤثر عن الجلة.

مشيخته

قرأ على والده وروى عنه، واستدعي له بالإجازة من أعلام زمانه، فأجازه الراوية أبو يحيى بن الفرس، وابو عمر بن حوط الله، وأبو القاسم ابن ربيع، وأبو جعفر أحمد بن عروس العقيلي، وأبو الوليد العطار، والخطيب أبو إسحق الأوسي القرطبي، والقاضي أبو الخطاب بن خليل، وأبو جعفر الطباع وغيرهم.

قال القاضي أبو المجد شيخنا رحمه الله، أنشدني أبو علي الحسن، قال أنشدني الخطيب أبو الربيع بن سالم، قال أنشدنا أبو عمرو السفاقي، قال أنشدنا أبو نعيم الحافظ، قال أنشدنا عبد الله بن جعفر الجابري، قال أنشدنا ابن المعتز:

ألم تر أن الدهر يومٌ وليلةٌ ... يكران من سبت عليك إلى سبت

فقل لجديد العيش لابد من بلىً ... وقل لاجتماع الشمل لابد من شت

وبالسند المذكور إلى أبي الربيع بن سالم، قال أنشدنا أبو محمد عبد الحق ابن عبد الملك بن بونه، قال أنشدنا أبو بكر غالب بن عطية الحافظ لنفسه:

جفوت أناساً كنت إلف وصلهم ... وما بالجفا عند الضرورة من ناس

بلوت فلم أحمد فأصبحت يائساً ... ولا شيء أشفى للنفوس من اليأس

فلا تعذلوني في انقباضي فإنني ... وجدت جميع الشر في خلطة الناس

وفاته

في اليوم التاسع عشر من شهر رجب الفرد عام خمسة وسبعماية.

يوسف بن موسى

بن سليمن بن فتح بن أحمد بن أحمد الجذامي المنتشافري

من أهل رندة، يكنى أبا الحجاج

حاله

هذا الرجل حسن اللقاء، طرفٌ في التخلق والدماثة، وحسن العشرة، أديب ذاكر للأخبار، طلعةٌ، يكتب ويشعر، سيال الطبع معينه. ولي القضاء ببلده رندة، ثم بمربلة. وورد غرناطة في جملة وفود من بلده وعلى انفراد منهم.

وجرى ذكره في التاج المحلى مما نصه: حسنة الدهر الكثير العيوب، وتوبة الزمان الجم الذنوب، ماشيت من بشرٍ يتألق، وأدب تتعطر به النسمات وتتخلق، ونفس كريمة الشمايل والضرايب، وقريحة يقذف بحرها بدور الغرايب،

إلى خشية الله تحول بين القلوب وقرارها، وتثني النفوس عن اغترارها، ولسان يبوح بأشواقه، وجفن يسخو بدرر آماقه، وحرص على لقاء كل ذي علم وأدب، وممن يمت إلى أهل الديانة والعبادة بسبب. سبق بقطره الحلبة، وفرع من الأدب الهضبة، ورفع الراية، وبلغ في الإحسان الغاية، فطارت قصايده كل المطار، وتغنى بها راكب الفلك وحادي القطار. وتقلد خطة القضاء ببلده، وانتهت إليه رياسة الأحكام بين أهله وولده، فوضحت المذاهب بفضل مذهبه، وحسن مقصده. وله شيمةٌ في الوفا تعلم منها الآس، ومؤانسة عذبة لا تستطيعها الأكواس. وقد أثبت من كلامه ما تتحلى به ترايب المهارق، ويجعل طيبه فوق المفارق. وكنت أتشوق إلى لقايه، فلقيته بالمحلة من ظاهر جبل الفتح، لقيا لم تبل صداً، ولا شفت كمداً، وتعذر بعد ذلك لقاؤه فخاطبته بقولي:

حمدت على فرط المشقة رحلة ... أتاحت لعيني اجتلاء محياكا

وقد كنت في التذكار بالبعد قانعاً ... وبالريح إن هبت بعاطر رياكا

فجلت لي النعمى بما أنعمت به ... علي فحياها الإله وحياكا

أيها الصدر الذي بمخاطبته يبأى ويتشرف، والعلم الذي بالإضافة إليه يتعرف، والروض الذي لم يزل على البعد بأزهاره الغضة يتحف. دمت تتزاحم على موارد ثنائك الألسن وتروى للرواة ما يصح من أنبايك ويحسن طالما مالت إليك النفوس منا وجنحت، وزجرت الطائر الميمون من رقاعك كلما سنحت. فالآن اتضح البيان، وصدق الأثر العيان. ولقد كنا للمقام بهذه الرحال نرتمض، ويجن الظلام فلا نغتمض، هذا يقلقله إصفار كيسه، وذا يتوجع لبعد أنيسه، وهذا تروعه الأهوال، وتضجره بتقلباتها الأحوال. فمن أنة لا تنفع، وشكوى إلى الله تعالى ترفع. فلما ورد بقدومك البشير، وأشار إلى ثنية طلوعك المشير، تشوفت النفوس الصدية إلى جلايها وصقالها، والعقول إلى حل عقالها، والألسن المعجمة إلى فصل مقالها. ثم إن الدهر راجع التفاته، واستدرك ما فاته، فلم يسمح من لقايك إلا بلمحة، ولا بعث من نسيم روضك بغير نفحة. فما زاد أن هيج الأشواق فالتهبت، وشن غاراتها على الجوانح فانتبهت، وأعل القلوب وأمرضها، ورمى ثغرة الصبر فأصاب غرضها. فإن رأيت أن تنفس عن نفسٍ شد الشوق مخنقها، وكدر مشارب أنسها وأذهب رونقها، وتتحف من من آدابك بدرر تقتنى، وروضة طيبة الجنى، فليست ببدع في شيمك، ولا شاذة في باب كرمك. ولولا شاغل لا يبرح، وعوائق أكثرها لا يشرح، لنافست هذه السحاءة في القدوم عليك، والمثول بين يديك، فتشوفي إلى اجتلاء أنوارك شديد، وتشيعي فيك على إبلاء الزمان جديد. فراجعني بقوله:

حباك فؤادي نيل بشرى وأحياكا ... وحيد بآدابٍ نفايس حياكا

بدايع أبداها بديع زمانه ... فطاب بها يا عاطر الروض رياكا

أمهديها أودعت قلبي علاقةً ... وإن لم يزل مغزىً قديماً بعلياكا

إذا ما أشار العصر نحو فرنده ... فإياك أعني بالإشارة إياكا

لا تحفني لقياك أسمى مؤملي ... وهل تحفةٌ في الدهر إلا بلقياكا

وأعقبت إتحافي فرايدك التي ... وجوب ثناها يا لساني أعياكا

خصصتني أيها الحبر المخصوص بمآثر أعيا عدها وحصرها، ومكارم طيب أرواح الأزاهر عطرها، وسارت الركبان بثنايها، وشملت الخواطر محبة علاتها، بفرايدك الأنيقة، وفوايدك المزرية جمالاً على أزهار الحديقة، ومعارفك التي زكت حقاً وحقيقة. وهدت الضال عن سبيل الأدب مهيعه وطريقه، وسبق تحفتك عندي أعلى التحف ، وهو مأمول لقائك، والتمتع بالتماح سناك الباهر وسنائك، على حين امتدت لذلك اللقاء أشواقي، وعظم من فوت

استنارتي بنور محياك إشفاقي، وتردد لهجي بما يبلغني من معاليك ومعانيك، وما شاده فكرك الوقاد من مبانيك، وما أهلت به بلاغتك من دارسه، وما أضفت على الزمان من رايق ملابسه، وما جمعت من أشتاته، وأحيت من أمواته، وأيقظت من سناته، وما جاد به الزمان من حسناته. فلترداد هذه المحاسن من أنيابك، وتصرف الألسنة بثنايك، علقت النفس من هواها بأشد علاقة، وجنحت إلى لقايك جنوح والهة مشتاقة، والحوادث الجارية تصرفها، والعوايق الحادثة كلما عطفت بأملها إليه، لا تتحفها به ولا تعطفها، إلى أن ساعد الوقت، واسعد البخت، بلقياكم هذه السفرة الجهادية، وجاد إسعاف الإسعاد من أمنيتي بأسنى هدية، فلقيتكم لقيا خجل، ولمحت أنواركم لمحةً على وجل، ومهجتي ، في محاسنكم الرائقة، ومعاليكم الفائقة، على ما يعلمه ربنا عز وجل. وتذكرت عند لقايكم المأمول، إنشاء قائل يقول:

كانت محادثة الركبان تخبر عن ... محمد بن خطيب بأطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني ... بأحسن مما قد رأى بصري

قسماً لعمري أقوله وأعتقده، وأعتده، وأعتمده، فلقد بهرت منك المحاسن، وفقت من يحاسن، وقصر عن شأوك كل بليغ لسن، وسبقت فطنتك النارية النورية بلاغة كل فطن، وشهد لك الزمن أنك وحيده، ورئيس عصبته الأدبية وفريده. فبورك لك فيما أنلت من الفضايل، وأوتيت من آيات المعارف التي بها نور الغزالة هايل، ولا زلت مرقى في مراتب المعالي، موقى صروف الأيام والليالي.

ومن شعره يمدح الجهة النبوية، مصدراً بالنسيب لبسط الخواطر النفسانية:

لما تناهى الصب في تشويقه ... درر الدموع اعتاضها بعقيقه

متلهفٌ وفؤاده متلهب ... كيف البقاء مع احتدام حريقه

متموج بحر الدموع بنجده ... أنى خلاص يرتجى لغريقه

متجرع صاب النوى من هاجرٍ ... ما إن يحن للاعجات مشوقه

يسبي الخواطر حسنه ببديعه ... يصبي النفوس جماله بأنيقه

قيد النواظر إذ يلوح لرامقٍ ... لا تنثني الأحداق عن تحديقه

للبدر لمحته كبشر ضيائه ... للمسك نفحته كنشر فتيقه

سكرت خواطر لامحيه كأنهم ... شربوا من الصبا كأس رحيقه

عطشوا لثغر لا سبيل لريقه ... إلا كلمحهم للمع بريقه

ما ضر مولىً عاشقوه عبيده ... لو رق إشفاقاً لحال رقيقه

عنهه اصطباري ما أنا بمطيعه ... مثل السلو ولا أنا بمطيقه

سجع الحمام يشوق ترجيع الهوى ... فأثار شجو مشوقه بمشوقه

وبكت هديلاً راعها تفريقه ... ويحق أن يبكي أخو تفريقه

وبكاء أمثالي حقٌّ لأنني ... لم أقض للمولى أكيد حقوقه

وغفلت في زمن الشباب المنقضي ... أقبح بنسخ بروره بعقوقه

وبدا المشيب وفيه زجر ذوي النهى ... لو كنت مزدجراً لشيم بروقه

حسبي ندامة آسف مما جنى ... يصل النشيج لوزره بشهيقه

ويرم ما خرم الهوى زمن الصبا ... ويروم من مولاه رتق فتوقه

ويردد الشكوى لديه تذللاً ... عل الرضا يحبيه درك لحوقه
فيصح من سكر التصابي صحوه ... نسخاً لحكم صبوحه بغبوقه
لو كنت يممت التقى وصحبته ... وسلكت إيثاراً سواء طريقه
لأفدت منه فوائداً وفرائداً ... عرضت تسام لرابح في سوقه

لله أرباب القلوب فإنهم ... من حزب من نال الرضا وفريقه
قاموا وقد نام الأنام فنورهم ... هتك الدجا بضيائه وشروقه
وتأنسوا بحبيبهم فلهم به ... بشرٌ لصدق الفضل في تحقيقه
قصرت عنهم عندما سبقوا المدى ... ولسابق فضل على مسبوقه
لولا رجاء تلمحي من نورهم ... يحيى الفؤاد بسيره وطروقه
وتأرجٌ يستاف من أرواحهم ... سبب انتعاش الروح طيب خلوقه
لفتنت من جراء جرائري التي ... من خوفها قلبي حليف خفوقه
ومعي رجاء توسل أعددته ... ذخراً لصدمات الزمان وضيقه
حبي ومدحي أحمد الهادي الذي ... فوز الأنام يصح في تصديقه
أسمى الورى في منصب وبمنسب ... من هاشم زاكي النجار عريقه
الحق أظهره عقيب خفائه ... والدين نظمه لدى تفريقه
ونفى هداه ضلالةً من جائرٍ ... مستوثق بنعوته ولعوقه
سبحان مرسله إلينا رحمة ... يهدى ويهدي الفضل من توفيقه
والمعجزات بدت بصدق رسوله ... وحقيقه بالمأثرات خليقه
كالظبي في تكليمه والجذع في ... تحنينه والبدر في تشقيقه
والنار إذ خمدت بنور ولاده ... وأجاج ماءٍ قد حلا من ريقه
والزاد قل فزاد من بركاته ... فكفى الجيوش بتمره وسويقه
ونبوع ماء الكف من آياته ... وسلام أحجار غدت بطريقه
والنخل لما أن دعاه مشى له ... ذا سرعة بعروقه وعذوقه
والأرض عاينها وقد زويت له ... فقريب ما فيها رأى كسحيقه
وكذا ذراع الشاة قد نطقت له ... نطق اللسان فصيحه وذليقه
ورمى عداه بكف حصباء فانثنت ... هرباً كمذعور الجنان فروقه
وعليه آيات الكتاب تنزلت ... تتلى بعلو جلاله وبسوقه
فأذيق من كأس المحبة صرفها ... سبحان ساقيه بها ومذيقه
حاز السناء وناله بعروجه ... جاز السماء طباقها بخروقه
ولكم له من آية من ربه ... ورعاية وعناية بحقوقه
يا خيرة الأرسال عند إلهه ... يا محرز العليا على مخلوقه
علقت آمالي بجاهك عدة ... والقصد ليس يخيب في تعليقه
ووثقت من حبل اعتمادي عمدة ... لتمسكي بقويه ووثيقه

ولئن غدوت أخيذ ذنبي إنني ... أرجو بقصدك أن أرى كطليقه
وكساد سوقي مذ لجأت إلى بابكم ... يقضي حصول نفوذه ونفوقه
ويحن قلبي وهو في تغريبه ... لمزاره لرياك في تشريقه
وتزيد لوعته متى حث السرى ... حاد حداً بجماله وبنوقه
وأرى قشيب العمر أمسى بالياً ... ومرور دهري جد في تمزيقه
وأخاف أن أقضي ولم أقض المنى ... بنفوذ سهم منيتي ومروقه
فمتى أحط على اللوى رحلي وقد ... بلغت ركابي للحمي وعقيقه
وأمرغ الخدين في ترب غدا ... كالمسك في أرج شذا منشوقه
وأعيد إنشادي وإنشائي الثنا ... ببديع نظم قريحتي ورقيقه
حتى أميل العاشقين تطرباً ... كالغصن مر صباً على ممشوقه
وتحية التسليم أبلغ شافعي ... وثنا المديح حديثه وعتيقه
ولذي الفخار وذي العلى ووزيره ... صديقه وأخي الهدى فاروقه
مني السلام عليهم كالزهر في ... تأليفها والزهر في تأليفه
قال، وكتب بذلك إلي في جملة من شعره:
هواكم بقلبي لأحكامه نسخ ... ومن أجله جفني بمدمعه يسخ

ومن نشأتي ما إن صحت منه نشوتي ... سواءٌ به عصر المشيب أو الشرخ
عليه حياتي مذ تمادت وميتتي ... وبعثي إذا بالصور يتفق النفخ
ولي خلدٌ أضحى قنيص غرامه ... ولا شركٌ يدني إليه ولا فخ
قتلت سلوى حين أحييت لوعتي ... وما اجتيح بالإقرار في حالتي لطخ
وناصح كتمي إذ زكت ببيناته ... يجول عليه من دموع الأسى نضخ
وأرجو بتحقيق هواكم بأن أفي ... فعهدٌ ولا نقصٌ وعقدٌ ولا فسخ
وما الحب إلا ما استقل ثبوته ... لمبناه رصٌّ في الجوانح أو رسخ
إذا مسلكٌ لم يستقم بطريقه ... سلكت اعتدالاً مثل ما يسلك الرخ
بدا لضميري من سناكم تلمح ... فبخ لعقل لم يطر عندها بخ
على عود ذاك اللمح مازلت نادباً ... كما تندب الورق فارقها الفرخ
يدي بأياديكم وقلبي شاغل ... فمن فكرتي نسجٌ ومن أنملي نسخ
ومن شعره أيضاً قوله في غرض يظهر منه:
إليك تحن النجب والنجباء ... فهم وهي في أشواقهم شركاء
تخب بركاب تحب وصولها ... لأرض بها بادٍ سنى وسناء
فأنفاسها ما أن تنى صعداؤها ... وأنفاسهم من فوقها سعداء
هموا عالجوا إذ عجل السير داءهم ... وأشباه مثلي مدنفون بطاء
فعدت ودوني للحبيب ترحلوا ... وما قاعد والراحلون سواء
له وعليه حب قلبي وأدمعي ... وقد صح لي حبٌّ وسح بكاء

بطيبة هل أرضى وتبدو سماؤها ... وإن تك أرضاً فالحبيب سماء
شذا نفحها واللمح منها كأنه ... ذكاء عبير والضياء ذكاء
فيا حادياً غنى وللركب حادياً ... غناني بعد البعد عنك عناء
بسلع فسل عما أقاسي من الهوى ... وسل بقباءٍ إذ يلوح قباء
وفي عالج مني بقلبي لاعج ... فهل لي علاج عنده وشفاء
وفي الرقمتين أرقم الشوق لاذع ... ودرياقه أن لو يباح لقاء
أماكن تمكين وأرضٌ بها الرضى ... وأرجاء فيها للمشوق رجاء
ومن المقطوعات قوله:
أدب الفتى في أن يرى متيقظاً ... لأوامرٍ من ربه ونواه
فإذا تمسك بالهوى يهوى به ... والحبل منه لمن تيقن واه
ومن ذلك:
يا من بدنياه ظل في لجج ... حقق بأن النجاة في الشاط
تطمع في إرثك الفلاح وقد ... أضعت ما قبله من أشراط
كن حذراً في الذي طمعت به ... من حجب نقص وحجب إسقاط
وقال:
ترى شعروا أني غبطت نسيمةً ... ذكت بتلاقي الروض غب الغمايم
كما قابلت زهر الرياض وقبلت ... ثغور أقاحيه بلا لوم لايم
وقال:
ورد المشيب مبيضاً بوروده ... ما كان من شعر الشبيبة حالكا
يا ليته لو كان بيض بالتقى ... ما سورته مآثم من حالكا
إن المشيب غدا رداءً للردى ... فإذا علاك أجد في ترحالكا
وأنشدني صاحبنا القاضي أبو الحسن، قال، مما أنشدني الشيخ أبو الحجاج لنفسه:
لوعة الحب في فؤادي تعاصت ... أن تداوى ولو أتى ألف راق
كيف يبرأ من علة وعليها ... زائد علة النوى والفراق
فانسكاب الدموع جارٍ فجارٍ ... والتهاب الضلوع راقٍ فراق
نبذة من أخباره

نقلت من خط صاحبنا الفقيه القاضي المؤرخ أبي الحسن بن الحسن، قال حاكياً عنه، ومن غريب ما حدثني به، قال كنت جالساً بين أيدي الخطيب أبي القاسم التاكروني صبيحة يوم بمسجد مالقة الأعظم، فقال لنا في أثناء حديثه، رأيت البارحة في عالم النوم، كأن أبا عبد الله الجلياني يأتيني ببيتي شعر في يده وهما:
كل علم يكون للمرء شغلاً ... بسوى الحق قادحٌ في رشاده
فإذا كان لله فيه حظٌّ ... فهو مما يعده لمعاده

قال، فلم ينفصل المجلس، حتى دخل علينا الفقيه الأديب أبو عبد الله الجلياني والبيتان عنده، فعرضهما على الشيخ، وأخبره أنه صنعهما البارحة، فقال له كل من في المجلس، أخبرنا بهذا الشيخ قبل مجيئك، فكان هذا من العجائب ، وقد وقعت الإشارة لذلك في اسم الشيخ.

مشيخته

منقول من خطه في ثبتٍ أجاز فيه أولادي، أسعدهم الله، بعد خطابة بليغة. قال فمن شيوخي الذين رويت عنهم. واسترفدت البركة منهم، الشيخ الخطيب الصالح المتفنن، أبو محمد عبد الواحد بن أبي السداد الباهلي، والشيخ الإمام أبو جعفر بن الزبير، والشيخ الوزير المشاور أبو عبد الله بن أبي عامر بن ربيع، والقاضي العدل أبو عبد الله محمد ابن علي بن محمد بن برطال، والشيخ الخطيب الصالح أبو عبد الله الطنجالي. والراوية المسن أبو عمرو محمد بن عبد الرحمن الرندي الطنجي، والمدرس الصالح أبو الحسن علي بن أحمد الإشبيلي بن شالة، والخطيبان الأستاذان الحاجان أبو عبد الله محمد بن رشيد الفهري، وأبو عثمن سعيد ابن إبراهيم بن عيسى الحميري، والشيخ الصالح أبو الحسين عبد الله بن محمد بن محمد بن يوسف بن منظور، والخطيب الصالح العلامة المصنف أبو جعفر بن الزيات، والفقيه القاضي أبو جعفر ابن عبد الوهاب، والشيخ الراوية المحدث أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن الكماد، والخطيب أبو العباس أحمد بن محمد اللورقي، والعدل أبو الحسن علي بن محمد الايي، ابن مستقور، والخطيب الصالح أبو العباس أحمد بن محمد بن خميس الجزيري، والقاضي العدل الحاج أبو محمد عبد الله بن أبي أحمد بن زيد الغرناطي، والشيخ الراوية الحاج الرحال الصوفي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الفارسي العجمي الأقشري، والقاضي الحسيب أبو عبد الله محمد بن عياض بن محمد ابن عياض، والقاضي أبو عبد الله بن عبد المهيمن الحضرمي، والأستاذ أبو إسحق الغافقي، والإمام أبو القاسمي بن الشاط، والخطيب القاضي أبو عبد الله القرطبي، والراوية أبو القاسم البلفيقي، والمحدث أبو القاسم التجيبي، والخطيب أبو عبد الله الغماري، والإمام الكبير ناصر الدين المشدالي، والفقيه الصوفي أبو عبد الله محمد بن محمد الباهلي عرف بالمسفر من أهل بجاية، وقاضي القضاة بتونس أبو إسحق بن عبد الرفيع، والعلامة أبو عبد الله بن راشد، والخطيب أبو عبد الله بن عزمون، والعلامة الخطيب أبو محمد عبد الواحد بن منظور بن محمد بن المنير الجذامي. قال، وكلهم أجازني عامة ما يرويه، وكان ممن لقيته، وقرأت عليه، إلا المدرس أبا الحسن بن شالة، فوقع لي شك في إجازته.

تواليفه

قال، ومما يسر الله تعالى فيه من التأليف، كتاب ملاذ المستعيذ، وعياذ المستعين، في بعض خصائص سيد المرسلين، في الأحاديث الأربعين المروية على آياتٍ من الذكر الحكيم والنور المبين. وكتاب تخصيص القرب وتحصيل الأرب، وقبول الرأي الرشيد، في تخميس الوتريات النبويات لابن رشيد. وانتشاق النسمات النجدية، واتساق النزعات الجدية. وغرر الأماني المسفرات في نظم المكفرات. والنفحات الرندية واللمحات الزندية، وهو مجموع شعري. وحقائق بركات المنام، في مرأى المصطفى خير الأنام. والاستشفاء بالعدة، والاستشعاع بالعمدة، في تخميس القصيدة النبوية المسماة بالبردة. وتوجع الراثي في تنوع المراثي. واعتلاق المسايل بأفضل الوسايل. ولمح البهيج، ونفح الأريج، في ترجيز ما لولي الله أبي مدين شعيب بن الحسين الأنصاري رضي الله عنه، من عبارات حكمة وإشارات صوفية. وتجريد رؤوس مسائل البيان والتحصيل، لتيسير البلوغ لمطالعتها والتوصيل. وفهرسة روايتي. ورجز في ذكر مشيخة شيخنا الراوية أبي عمر الطنجي، رحمه الله وإسناده. قال، ومما كنت شرعت فيه ولم يتفق تمامه، كتاب سميته عواطف الأعتاب، في لطايف أسباب المتاب. ومما بيدي الآن جمعه وهو إن شاء الله على التمام، أربعون حديثاً

متصلة الإسناد، أول حديث منها في الخوف، في مزج الخوف والرجاء. والله يصفح عنا، ويغفر زلاتنا، وأن لا يجعل ما نتولاه من ذلك حجة علينا، وأن نكون ممن منح مقولاً، ومنع معقولاً، ويختم لنا بخواتم السعداء من عباده، وممن وفق وهدى إلى سبيل رشاده.

وفاته

كان حياً عام أحد وستين وسبعماية.

من المقربين

يحيى بن أحمد بن هذيل

التجيبي

يكنى أبا زكريا، شيخنا أبو زكريا بن هذيل رحمه الله أرجدوني الأصل، ينسب إلى سلفه أملاك ومعاهد كولابج هذيل، مما يدل على أصالة.

حاله

كان آخر حملة الفنون العقلية بالأندلس، وخاتمة العلماء بها، من طب وهندسة وهيئة وحساب وأصول وأدب، إلى إمتاع المحاضرة، وحسن المجالسة، وعموم الفائدة، وحسن العهد، وسلامة الصدر، وحفظ الغيب، والبراءة من التصنع والسمت، مؤثراً للخمول، غير مبال بالناس، مشغولاً بخاصة نفسه. خدم أخيراً باب السلطان بصناعة الطب، وقعد بالمدرسة بغرناطة، يقرىء الأصول والفرايض والطب.

عمن أخذ: قرأ على جملة من شيوخ وقته، كالأستاذ أبي عبد الله الأركشي، وأبي زكريا القصري، وجملة من الإسلاميين بالعدوة. وقرأ كراسة الإمام فخر الدين الرازي المسراة بالآيات البينات، على الأستاذ أبي القاسم بن جابر. ونظر الأصول على الأستاذ النظار أبي القاسم بن الشاط، وأخذ الحساب عن أبي الحسن بن راشد. والحساب والهندسة والأصول وكثيراً من عمليات الحساب وجبره ومقابلته والنجوم، على الأستاذ أبي عبد الله بن الرقام، ولازمه كثيراً.

تواليفه

وله تصانيف وأوضاع منها، ديوان شعره المسمى بالسليمانيات والعربيات وتنشيط الكسل. ومنها شرحه لكراسة الفخر، وهو غريب المأخذ، جمع فيه بين طريقتي القدماء والمتأخرين من المنطقيين. وكتابه المسمى بالاختيار والاعتبار في الطب. وكتابه المسمى بالتذكرة في الطب.

شعره

وجرى ذكره في التاج المحلى بما نصه: درة بين الناس مغفلة، وخزانة على كل فائدة مقفلة، وهدية من الدهر الضنين لبنيه محتفلة. أبدع من رتب التعاليم وعلمها، وركض في الألواح قلمها، وأتقن من صور الهيئة ومثلها، وأسس قواعد البراهين وأثلها، وأعرف من زاول شكاية، ودفع عن جسم نكاية، إلى غير ذلك من المشاركة في العلوم، والوصول من المجهول إلى المعلوم، والمحاضرة المستفزة للحلوم، والدعابة التي ما خلع العذار فيها بالملوم، فماشيت من نفسٍ عذبة الشيم، وأخلاق كالزهر من بعد الديم، ومحاضرة تتحف المجالس والمحاضر، ومد كره يروق النواظر زهرها الناضر. وله أدب ذهب في الإجادة كل مذهب، وارتدى من البلاغة بكل رداءٍ مذهب، والأدب نقطة من

حوضه، وزهرة من زهرات روضه، وسيمر له في هذا الديوان، ما يبهر العقول، ويحاسن بروائه ورائق بهائه، الفرند المصقول.

فمن ذلك ما خرجته من ديوان شعره المسمى بالسليمانيات والعربيات من النسيب:

ألا أستودع الرحمن بدراً مكملاً ... بفاس من الدرب الطويل مطالعه

وفي فلك الأزرار يطلع سعده ... وفي أفق الأكباد تلفى مواقعه

يصير مرآه منجم مقلتي ... فنصدق في قطع الرجاء قواطعه

تجسم من نور الملاحة خده ... وماء الحيا فيه ترجرج مائعه

تلون كالحرباء في خجلاته ... فيحمر قانيه وييض ناصعه

إذا اهتز غنى حليه فوق نحره ... كغصن النقا غنت عليه سواجعه

يذكر حتف الصب عامل قدره ... وتقطف من واو العذار توابعه

أعد للورى سيفاً كسيف لحاظه ... فهذا هو الماضي وذاك يضارعه

ومن أخرى في النسيب، وتضمنت التورية الحسنة:

وصالك هذا أم تحية بارق ... وهجرك أم ليل السلم لتائق

أناديك والأشواق تركض حجرها ... بصفحة خدي من دموع سوابق

ابارق ثغر من عذيب رضابه ... قضت مهجتي بين العذيب وبارق

ومنها:

فلا تتعبن ريح الصبا في رسالة ... ولا تخجل الطيف الذي هو طارق

متى طعمت عيني الكرى بعد بعدكم ... فإني في دعوى الهوى غير صادق

قوله أبارق ثغر من عذيب رضابه ينظر إلى قول ابن النبيه في ذلك:

يلوي على زرد العذار دلاله ... كم فتنة بين اللوى وزرود

ومن قصيدة ثبتت في السليمانيات:

بدا بدر تم فوقه الليل عسعسا ... وجنة أنس في صباحٍ تنفسا

حوى النجم قرطاً والدراري مقلداً ... وأسبل من مسك الذوايب حندسا

كأن سنا الإصباح رام يزورنا ... وخاف العيون الرامقات فغلسا

أتى يحمل التوراة ظبياً مزنراً ... لطيف التثني أشنب الثغر ألعسا

وقابل أحبار اليهود بوجهه ... فبارك ربي عليه وقدسا

ومنها وتماجن ما شاء غفر الله له:

رويت ولوعي من ضلوعي مسلسلاً ... فأصبحت في علم الغرام مدرسا

نفى النوم عني كي أكون مسهداً ... فأصبحت في صيد الخيال مهندسا

غزال من الفردوس تسقيه أدمعي ... ويأوي إلى قلبي مثيلاً ومكنساً

طغى ورد خديه بجنات صدغه ... فأضعفه بالآس نبتاً وما أسا

قوله طغى ورد خديه، البيت محال على معنى فلاحي، إذ من أقوالهم أن الآس، إذا اغترس بين شجر الورد، أضعفته بالخاصية.

وقال أيضاً من قصيدة مهيارية:

نام طفل النبت في حجر النعامى ... لاهتزاز الطل في مهد الخزامى

وسقى الوسمي أغصان النقا ... فهوت تلثم أفواه الندامى

كحل الفجر لهم جفن الدجى ... وغدا في وجنة الصبح لثاما

تحسب البدر محياً ثمل ... قد سقته راحة الصبح مداما

حوله الزهر كؤوس قد غدت ... مسكة الليل عليهن ختاما

يا عليل الريح رفقاً علني ... أشف بالسقم الذي حزت سقاما

وأبلغن شوقي عرياً باللوى ... همت في أرض بها حلواً غراما

فرشوا فيها من الدر حصىً ... ضربوا فيها من المسك خياما

كنت أشفي غلة من صدكم ... لو أذنتم لجفوني أن تناما

واستفدت الروح من ريح الصبا ... لو أتت تحمل من سلمى سلاما

نشأت للصب منها زفرة ... تسكب الدمع على الربع سجاما

طرب البرق مع القلب بها ... وبها الأنات طارحن الحماما

طللٌ لا تستشفي الأذن به ... وهو للعينين قد ألقى كلاما

ترك الساكن لي من وصله ... ضمة الجدران لثماً والتزاما

نزعات من سليمان بها ... فهم القلب معانيها فهاما

شادنٌ يرعى حشاشات الحشى ... حسب حظي منه أن أرعى الذماما

وقال من قصيدة أولها في غرض النسيب:

أأرجو أماناً واللحظ غادر ... ويثبت عقلي فيك والطرف ساحر

أعد سليمان أليم عذابه ... لهدهد قلبي فهو للعين صائر

أشاهد منه الحسن في كل نظرة ... وناظر أفكاري بمغناه ناظر

دعت للهوى أنصار سحر جفونه ... فقلبي له عن طيب نفس مهاجر

إذا شق عن بدر الدجى أفق ذره ... فإني بتمويه العواذل كافر

وفي حرم السلوان طافت خواطري ... وقلبي لما في وجنتيه مجاور

وقد ينزع القلب المبلى لسلوة ... كما اهتز من قطر الغمامة طاير

يقابل أغراضي بضد مرادها ... ولم يدر أن الضد للضد قاهر

ونار اشتياقي صعدت مزن أدمعي ... فمضمر سري فوق خدي ظاهر

وقد كنت باكي العين والبين غايب ... فقل لي كيف حال الدمع والبين حاضر

وليس النوى بالطبع مراً وإنما ... لكثرة ما شقت عليه المرائر

ومنها في وصف ليلة:

وزنجية فات الكؤوس بنحرها ... قلايد ياقوت عليها الجواهر

ولا عيب فيها غير أن ذبالها ... يقطب فتبدو الكؤوس سراير

تجنبت فيها نيل كل صغيرة ... وقد غفرت فيها لدي الكبائر

ومن السليمانيات من قصيدة:

يا بارقاً قاد الخيال فأومضا ... أقصد بطيفك مدنفاً قد غمضا

ذاك الذي قد كنت تعهد نايماً ... بالسهد من بعد الأحبة عوضا

لا تحسبني معرضاً عن طيفه ... لكن منامي عن جفوني أعرضا

عجب الوشاة لهجتي أن لم تذب ... يوم النوى وتشككت فيما مضى

ومنها:

خفيت لهم من سر صبري آية ... ما فهمت إلا سليمان الرضا

لله درك ناهجاً سبل الهوى ... فلمثله أمر الهوى قد فوضا

أمنت نملاً فوق خدك سارحاً ... وسللت سيفاً من جفونك منتضى

ومن الأمداح قوله من قصيدة:

حريص على جر النوايب والقنا ... إذا كعت الأبطال والجو عابس

وتعتنق الأبطال لولا سقوطها ... لقلت لتوديعٍ أتته الفوارس

إذا اختطفتهم كفه فسروجهم ... مجالٌ وهم في راحتيه فرائس

وقال يمدح السلطان أمير المسلمين أبا الوليد نصر عند قدومه من فتح أشكر من قصيدة أولها:

بحيث البنود الحمر والأسد الورد ... كتائب سكان السماء لها جند

وتحت لواء النصر ملك هو الورى ... تضيق به الدنيا إذا راح أو يغدو

تأمنت الأرواح في ظل بنده ... كأن جناح الروح من فوقه بند

فلو رام إدراك النجوم لنالها ... ولو هم لانقادت إليه السند والهند

بعيني بحر النقع تحت أسنة ... تنمنمه وهناً كما نمنم البرد

سماء عجاج والأسنة شهبها ... ووقع القنا رعدٌ إذا برق الهند

وفي وصف آلة النفط:

وظنوا بأن الرعد والصعق في السما ... فحاق بهم من دونها الصعق والرعد

عجائب أشكال سما هرمس بها ... مهندمة تأتي الجبال فتنهد

إلا إنها الدنيا تريك عجايباً ... وما في القوي منها فلا بد أن يبدو

وكتب وهو معتقل بسبب عمل تولاه جحدرية أولها:

تباعد عني منزلٌ وحبيب ... وهاج اشتياقي والمزار قريب

وإني على قرب الحبيب مع النوى ... يكاد إذا اشتد الأنين يجيب

لقد بعدت عني ديارٌ قريبة ... عجبت لجار الجنب وهو غريب

ومنها:

أعاشر قوماً ما تقر نفوسهم ... فللهم فيها عند ذاك ضروب

إذا شعروا من جارهم بتأوه ... أجابته منهم زفرةٌ ونحيب

فلا ذاك يشكوهم هذا تأسفاً ... لكل امرىءٍ مما دهاه نصيب

كأني في غاب الليوث مسلماً ... يروعني منها الغداة وثوب

تحكم فينا الدهر والعقل حاضر ... بكل قياس والأديب أريب
ولو مال بالجهال ميلته بنا ... لجاء بعذرٍ إن ذا لعجيب
رفيقٌ بمن لا ينثني عن جريمة ... بطوش بمن ما أوبقته ذنوب
وتطمعنا منه بوارق خلب ... تقول عساه يرعوي ويتوب
إذا ما تشبثنا بأذيال برده ... دهتنا إذا جر الذيول خطوب
أدار علينا صولجاناً ولم يكن ... سوى أنه بالحادثات لعوب

ومنها:

أيا دهر إني قد سئمت تهدفي ... أجرني فإن السهم منك مصيب
إذا خفق البرق الطروق أجابه ... فؤادي ودمع المقلتين سكوب
وإن طلع الكف الخضيب بسحره ... فدمعي بحناء الدماء خضيب
تذكرني الأسحار داراً ألفتها ... فيشتد حزني والحمام طروب
إذا علقت نفسي بليت وربما ... تكاد تفيض أو تكاد تذوب
دعوتك ربي والدعاء ضراعة ... وأنت تناجى بالدعا فتجيب
لئن كان عقبى الصبر فوزاً وغبطة ... فإني على الصبر الجميل دروب

وبعثت إليه هدية من البادية، فقال يصف منها ديكاً، وكتب بذلك رحمة الله عليه:

أيا صديقاً جعلته سندا ... فراح فيما أحبه وغدا
طلبت منكم صريدكا خنثا ... وجهتموني مكانه لبدا
صير مني مؤرخاً ولكم ... ظللت في علمه من البلدا
قلت له آدم أتعرفه ... قال حفيدي بعصرنا ولدا
نوحٌ وطوفانه رأيتهما ... قال علونا لفيضه أحدا
فقلت هل لي بجرهم خبر ... فقال قومي وجيرتي السعدا
فقلت قحطان هل مررت به ... قال نفشنا ببرده العقدا
فقلت صف لي سبا وساكنها ... فعند هذا تنفس الصعدا

وقال كم لي بدجنهم سحرا ... من صرخةٍ لي وللنوم هدا
فقلت هاروت هل سمعت به ... فقال ريشي لسحره نفدا
فقلت كسرى وآل شرعته ... فقال كنا بجيشه وفدا
ولوا وصاروا وها أنا لبد ... فهل رأيتم من فوقهم أحدا
ديكٌ إذا ما انثنى لفكرته ... رأى الوجود طرايقاً قددا
يرفل في طيلسانه ولهاً ... قد صير الدهر لونه كمدا
إذا دجا الليل غاب هيكله ... كأن حبراً عليه قد جمدا
كأنما جلنار لحيته ... برجان حازا لعن الهواء مدا
كأن حصناً علا بهامته ... أعده للقتال فيه عدا
يرنو بياقوتتي لواحظه ... كأنما اللحظ منه قد رمدا

كأن منجالتي ذؤابته ... قوسٌ سما من أجله بعدا
وعوسج مد من مخالبه ... طغى بها في نقاره وعدا
فذاك ديكٌ حلت محاسنه ... له صراخ بين الديوك غدا
يطلبني بالذي فعلت به ... فكم فللنا بلبتيه مدا
وجهته محنةٌ لآكله ... والله ما كان ذاك مني سدى

ولم نزل بعد نستعدي عليه بإقراره، بقتله، ونطلبه بالقود عند تصرفه في العمل، فيوجه الدية، لنا في ذلك رسائل.

ومن شعره في غرض الحسن بن هانئ:

طرقنا ديور القوم وهناً وتغليساً ... وقد شرفوا الناسوت إذ عبدوا عيسى
وقد رفعوا الإنجيل فوق رؤوسهم ... وقد قدسوا الروح المقدس تقديسا
فما استيقظوا إلا لصكة بابهم ... فأدهش رهباناً وروع قسيسا
وقام بها البطريق يسعى ملبياً ... وقد لين الناقوس رفقاً وتأنيسا
فقلنا له آمنا فإنا عصابة ... أتينا لتثليث وإن شيت تسديسا
وما قصدنا إلا الكؤوس وإنما ... لحناً له في القول خبثاً وتدليسا
ففتحت الأبواب بالرحب منهم ... وعرس طلاب للدامة تعريسا
فلما رأى زقي أمامي ومزهري ... دعاني أتأنيساً لحنت وتلبيسا
وقام إلى دن يفض ختامه ... فكبس أجرام الغياهب تكبيسا
وطاف بها رطب البنان مزنر ... فأبصرت عبداً صير الحر مرؤوسا
سلافاً جواها القار لبساً فخلتها ... مثالاً من الياقوت في الحبر مغموسا
إلى أن سطا بالقوم سلطان نومهم ... ورأس قبيل الشمع نكس تنكيسا
وثبت إليه بالعناق فقال لي ... بحق الهوى هب لي من الضم تنفيسا
كتبت بدمع العين صفحة خده ... فطلس حبر الشعر كتبي تطليسا
فبيس الذي احتلنا وكدنا عليهم ... وبيس الذي قد أضمروا قبل ذا بيسا
فبتنا يرانا الله شر عصابة ... نطيع بعصيان الشريعة إبليسا

وقال بديهة في غزالة من النحاس على بركة في محل طلب منه ذلك فيه:

عنت لنا من وحش وجرة ظبية ... جاءت لورد الماء مليء عنانها
وأظنها إذا حددت آذانها ... ريعت بنا فتوقفت بمكانها
حيت بقرني رأسها إذ لم نجد ... يوم اللقاء تحية ببنانها
حنت على الندمان من إفلاسهم ... فرمت قضيب لجينها لحنانها
لله در غزالة أبدت لنا ... در الحباب تصوغه بلسانها

وفاته

فلج فالتزم المنزل عندي لمكان فضله، ووجوب حقه، وقد كانت زوجه توفيت، وصحبه عليها وجدٌ شديد، وحزنٌ ملازم، فلما ثقل، وقربت وفاته، استدعاني، وقد كان لسانه لا يبين القول، وأملى علي فيما وصاني به من مهم أمره:

إذا مت فادفني حذاء حليلتي ... يخالط عظمي في التراب عظامها

ولا تدفني في البقيع فإنني ... أريد إلى يوم الحساب التزامها
ورتب ضريحي كيفما شاء الهوى ... تكون أمامي أو أكون أمامها

لعل إله العرش يجبر صدعتي ... فيعلي مقامي عنده ومقامها
وما في ليلة الخامس والعشرين من عام ثلاثة وخمسين وسبعماية، ودفنته عصره بباب إلبيرة حذاء حليلته كما عهد، رحمة الله عليه.
يحيى بن عبد الكريم

الشنتوفي

من أهل الجزيرة الخضراء.
حاله
كان كاتباً ثرثاراً، أديباً لوذعياً، كثير النظم والنثر. كتب عن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب، وابنه أبي يعقوب، واحتل معهم بظاهر غرناطة.
كتابته
كتب عن المذكور عند نزوله غازياً ومجاهداً بظاهر شريش ما نصه: أخونا الذي يسير بما يخلده بطون أوراق الدفاتر، من مأثور حميد المآثر، ويتلقى ما يرد عليه من قبلنا من منشور حزب البشاير، بمعاشر القبايل والعشاير، ويفوق ما قبسته المنن لأقلام وأفواه المخابر، في مراقب مراقي المابر، ويجمع لما وشته سحايب الخواطر، من روضات السجلات في النوادي والمحاضر، الأمير الكذا، أدام الله اهتزازه للأنباء السارة وارتياحه، ونعم بها أرواحه، ووصل بكل أرجٍ من نسيم الجذل، ومبهج من وسيم الأمل، غدوه ورواحه، وأحب به أرواحه. سلام كريم عليكم، ورحمة الله وبركاته.
من أخيكم، الذي لا يتم بشره إلا بأخذكم منه بأوفى حظ، وأوفر نصيب، ومصافيكم الذي لا يكمل سروره، وبجمل حبوره، حتى يكون لكم فيه سهم مصيب، ومرعى خصيب، الأمير يوسف ابن أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن عبد الحق.
أما بعد حمد الله محق الحق بتصعيده فوق النجوم ومعليه، ومبطل الباطل بتصريبه تحت النجوم ومدليه، ومطهر الأرض من نجس دنس الكفر وأوليه، ضرباً بالمرهفات صبراً وطعناً بالمشفعات دراكاً، وجاعل بلاد الشرك الأسار عباد الإفك، بما نظمهم من سلك الملك، وبددهم من هتك الستر، بالفتك والسفك، حبائل لا يخرجون منها وأشراكاً، وخاذل من زلت عن السور قدمه، وخرجت من الدور ذممه، بأن يراق دمه، ويعدم وجوده وقدمه، بلوغاً لأمان أماني الإيمان وإدراكاً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، ناظم فرايد الفرايد، ومنضد عوايد المواعد، بالظفر المنتظر بكل جاحد معاند، قلايد لا تنتشر وأسلاكاً – وسالك مسالك الغزوات، وناسك مناسك الخلوات، ومدرك مدارك قبول الدعوات، إفناءً لأعداء الله وإهلاكاً، والرضا عن آله وصحبه، المرتدين بمننه، المهتدين بسننه، في إباحة حرم الحرم، وإزاحة ظلم الظلم، حنادس وأحلاكاً، القارعين بأسيافهم أصلاب كلاب الصلبان تباكا، والقارعين أبواب ثواب الرحمن نساكاً، وموالاة الدعاء لسيدنا ومولانا الوالد، بتخليد السعد المساعد، وإدراة الإرادة بعضد من النصر وساعد، مقادير كما يشاء وأفلاكاً، وممالآت آياته آيات، هذه الرايات، بإدراك نهايات الغايات، في اشتباه أشياء ذوي الشايات، فلا تذر في الأرض كفراً، ولا تدع فيها إشراكاً. فكتبناه، كتب الله لإخايكم الكريم أرفع

الدرجات علاً، وأتمها تعظيماً، وفضلكم مع القعود عن الشهود بالنية التي لها أكرم ورود، وأصدق وفود، أجراً عظيماً. من منزلنا بمخنق شريش، حيث الكتايب الهايلة هالة بدرها البادية الخسوف، والحماة الكماة، أكمام زهرها الداني القطوف، وسوار معصمها النائي عن العصمة مجردات صفوف صنوف السيوف. فالشفار بالأحداق، كالأشفار بالأحداق إدارتها، الطاقة بحيزومها نطاقا، والفتح قد لاحت مخايله، وباحت مقاوله، والكفر فلت مناصله وعرفت مقاتله، والمترف يتمنى أن يلقاه قاتله، فلا يقاتله فرقاً، لا يجدون له فراقاً فواقاً، فحماتها العتاة لا يرون إلا سماء نقع الكفاح، لمعاً متلاقياً وائتلافاً، وكماتها لا يشربون إلا من تحت دمهم المطهر بنجسه وجه الأرض، المعدى به هريقه من فيح حثهم يوم العرض، المودي بإراقته واجب القرض، إعداداً لامتثال الأمر الإلهي واعتناقاً.

ومن هذا الكتاب وهو طويل: ووصلنا والخيل تمرح في أعنتها تصلفاً، وتختال في مشيها تغطرفاً، وتعض على لجمها تحدقاً وتحرفاً، كأنها لم ترم قصارى قصور النصارى، دون تصور عنها، أغراضاً وأهدافاً، ودون معاهدة العيون وصف الواصف، ولأقل مما احتوى عليه هذا الفتح، تهتز المعاطف، إذ الإيمان اهتز إعطافاً، وتوشح به عطافاً. وهل الكتب وإن طال، نبذة من نبذ الفتوح، وفلذة من كبد النصر الممنوح، وزهرةٌ من غصن الندا المروح، أدنينا لإخايكم الكريم منه اقتطافاً، والسلام.

شعره

مالي وللصبر عني دونكم حجبا ... وطالما هزني أنسي لكم طربا
فحين شب النوى في أضلعي لهبا ... هززت سيف اصطباري بعدكم فنبا
وقلت للقلب يسلو بعدكم فأبا
غبتم فغاب لذيذ الأنس والوسن ... وخانني جلدي فيكم فأرقني
ذكرى ليالينا في غفلة الزمن ... فارقتموني وطيب العيش فارقني
وصرت من بعدكم حيران مكتئبا
من لي بقربكم في حفظ عهدكم ... فكم ظفرت به أيام ودكم
وكم جرى دمع أجفاني لفقدكم ... فلو بكيت دماً من بعدكم
لم أقض من حق ذاك القرب ما وجبا
لله أيامنا ما كان أجملها ... أوزعت بآخرها شكراً وأولها
من حسنها لم أزل أصبو بها ولها ... يا صاح صبراً على الأيام إن لها
على تصاريفها من أمرها عجبا
صبراً على زمن يديك شيمته ... إقبل مساءته واحمد مسرته
فما عسى يبلغ الإنسان منيته ... ومن كرهت ومن أحببت صحبته
لابد أن يفقد الإنسان من صحبا

قلت عجباً من الشيخ ابن الخطيب رحمه الله، في ذكره هذا المترجم به في ترجمة المقربين، مع تحليته له، ووصفه إياه بما وصفه من الكتابة والشعر، بل وإثباته له كتابته، وشعره، فكان حقه أن يكون في ترجمة الكتاب والشعراء بما هذه الترجمة .

الساحلي

يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن محمد بن قاسم بن علي الفهري من أهل غرناطة، يكنى أبا الحجاج، ويعرف بالساحلي.

حاله

من العايد : صدرٌ في حملة القرآن، على وتيرة الفضلاء وسنن الصالحين، من لين الجانب، والعكوف على الخير، وبذل المعروف، وحسن المشاركة، والخفوف إلى الشفاعة. أ ب الأمراء، وحظي بتسويدهم، وناب في الخطابة بالمسجد الأعظم من حمرايهم ، وكان إماماً به، ذا هدىً وسكينة ووقار. وحج، ولقي المشايخ، واعتنق الرواية والتقييد، فانتفع بلقايه.

مشيخته

قرأ على الأستاذ العلامة أبي جعفر بن الزبير ببلده، وعلى الشيخ الخطيب الصوفي أبي الحسن بن فضيلة، وعلى الخطيب الصالح، أبي جعفر بن الزيات، والمحدث الرحال أبي عبد الله بن رشيد. وأخذ في رحلته عن جملة، كالخطيب الراوية، أبي عبد الله محمد بن محمد ابن فرتون، وناصر الدين منصور بن أحمد المشدالي، والأستاذ أبي عبد الله ابن جعفر اليحصبي، وقاضي الجماعة ببجاية الإمام أبي عبد الله بن يحيى الزواوي، والفقيه المحدث أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن الحسن الشافعي. وأجازه سوى من تقدم ذكره، من أهل المشرق، عبد الغفار ابن محمد الكلابي، وحسن بن عمر بن علي الكردي، وعتيق بن عبد الرحمن ابن أبي الفتح العمري، ومحمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني، وعمر بن أبي بكر الوادي آشي، وصالح بن عباس بن صالح بن أبي الفوارس الأسعد الصدفي، وأحمد بن محمد بن علي الكناني، ومحمد بن أحمد، وأحمد بن إسمعيل بن علي بن محمد بن الحباب، وأم الخير إبنة شرف الدين ابن الطباخ الصوفي. وقرأ ببلده غرناطة على الأستاذ أبي جعفر الطباع، والشيخ أبي الحسن معن بن مؤمن، وأبي محمد النبغدي، وأبي الحسن البلوطي.

أنشدنا، قال كتب إلي شيخنا محمد بن عتيق بن رشيق في الاستدعاء الذي أجازني، ولمن سمى فيه:

أجزت لهم أبقاهم الله كلما ... رويت عن الأشياخ في سالف الدهر

وما سمعت أذناي عن كل عالم ... وما جاد من نظمي وما راق من نثر

على شرط أصحاب الحديث وضبطهم ... بريٌّ من التصحيف عار من النكر

وجدي رشيق شاع في الغرب ذكره ... وفي الشرق أيضاً فادر إن كنت لا تدر

ولي مولدٌ من بعد عشرين حجة ... ثمان على الست المبين ابتدا عمر

وبالله توفيقي عليه توكلي ... له الحمد في الحالتين في العسر واليسر

حدثني شيخنا أبو بكر بن الحكيم، قال، أصابتني حمى، فلما انصرفت عني، تركت في شفتي بثوراً على، فزارني الفقيه أبو الحجاج الساحلي، فأنشدني:

حاشاك أن تمرض حاشاكا ... قد اشتكى قلبي لشكواكا

إن كنت محموماً ضعيف القوى ... فإنني أحسد حماكا

ما رضيت حماك إذ باشرت ... جسمك حتى قبلت فاكا

مولده

عام سبعة وستين وستماية.

وفاته

توفي رحمه الله بالحمراء العلية، في السابع والعشرين لشهر رمضان من عام اثنين وخمسين وسبعماية.

من الكتاب والشعراء بين أصلي وغيره

ابن الصيرفي

يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري يكنى ابا بكر، ويعرف بابن الصيرفي، من أهل غرناطة.

حاله

كان نسيج وحده في البلاغة والجزالة، والتبريز في أسلوب التاريخ، والتملؤ من الأدب، والمعرفة باللغة والخبر. قال أبو القاسم، من أهل المعرفة بالأدب والعربية والفقه والتاريخ، ومن الكتاب المجيدين والشعراء المطبوعين المكثرين. كتب بغرناطة عن الأمير أبي محمد تاشفين، وله فيه نظم حسن.

مشيخته

قرأ على شيوخ بلده، وأخذ عن العالم الحافظ أبي بكر بن العربي ونمطه.

تواليفه

ألف في تاريخ الأندلس كتاباً سماه الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية ضمنه العجاب إلى سنة ثلاثين وخمسماية. ثم وصله إلى قرب وفاته، وكتاباً آخر سماه تقصى الأنباء وسياسة الرؤساء.

شعره

قال أنشدت الأمير تاشفين في هلاك ابن رذمير :

أشكو الغليل بحيث المشرب الخضر ... حسبي وإلا فوردٌ ما له صدر

تجهمت لي وجوه الصبر منكرة ... ولاحظتني عيونٌ حشوها حذر

إني لأجزع من ذاك الوعيد وفي ... ملقى الأسنة منا معشرٌ صبر

فلت سلاحي الليالي أي ظالمة ... ولو أعادت شبابي كنت أنتصر

مشيعاً كنت ما استصحبت من أمل ... كما يشيع سهم النازع الوتر

فها أنا وعزيز في نامسة ... تسود في عينه الأوضاح والغرر

يا حي عذره فتياكم بنازلة ... لم تنفصل يمنٌ عنها ولا مضر

ما الحكم عندكم إذ نحن في حرم ... على جناية رامٍ سهمه النظر

أرعاني الشهب في أحشاء ليلتها ... حمل من الصبح أرجوه وانتظر

يفتر عن برد من حوله لهبٌ ... أو عن نبات أقاح أرضه سقر

وبين أجفانه نهيف الأمير أبي ... محمد تاشفين أو هو القدر

سيفٌ به ثل عرش الروم واطادت ... قواعد الملك واستولى به الظفر

وأدرك الدين بالثأر المنيم على ... رغمٍ وجاءت صروف الدهر تعتذر

منىً تنال وأيامٌ مفضضة ... مذهبات العشايا ليلها سحر

وفي النؤابة من صنهاجة ملكٌ ... أغر أبلج يستسقى به المطر

مؤيدٌ من أمير المسلمين له هوىً ... ورأيٌ ومن سيرٍ له سير
أنحى على الجور يمحو رسم أحرفه ... حتى استجار بأحداق المهى الحور
يا تاشفين أما تنفك بادرة ... من راحتيك المنايا الحمر تبتدر
وكم ترنح في روضٍ جداوله ... بيض السيوف وملتفٌّ للقنى شجر
هي الترايك فوق الهام لا حببٌ ... والسابغات على الأعطاف لا القدر
لك الكتايب ملء البيد غازيةٌ ... إذا أتت زمرٌ منها مضت زمر
على ساكبها للنقع أردية من ... تحتها جلق من تحتها زبر
تدب منها إلى الأعداء سابلة ... عقارب ما لها إلا القنا إبر
بعثتها أسداً شتى إذا مرجت ... جن الوغا انقض منها أنجمٌ زهر
يا أيها الملك الأعلى الذي سجدت ... لسيفه الهام في الهيجاء والقصر
أعر حرار ضلولعي برد ما نهلت ... خيل الزبير ونار الحرب تستعر
حيث الغبار دخان والظبا لهبٌ ... والأسنة في هام العدا شرر
والنقع يطفو وبيض الهند راسية ... إن الصواعق يوم الغيم تنكدر
أعطى الزبير فتى العلياء صارمه ... لكن بسعدك ما لم يعطه عمر
ولته أظهرها الأبطال خاضعة ... تكبو وتصفعها الهندية البتر
بحر من الخلق المسرود ملتطمٌ ... يسيل من كل سيف نحوه نصر

أم ابن الزبير ابن رذمير بداهية ... عضت ومسك من أظفاره ظفر
لقد نفحت من التيجان في محم ... وأين من فتكات الضيغم النمر
لقد نجوت طليق الركض في وهن ... من الأسنة حتى جاءك القدر
خلعت درعاً واعتضت الظلام بها ... وخاض بحر الوغا مركوبك الخطر
ومنها:
ما بال إنجيلك المتروك ما ذمرت ... نفوس قومك منه الآي والسور
أهديتها غير مشكور مضمرة ... ملء الأعنة منها الزهو والأسر
وظل طفلٌ من البولاد دانية ... سمراً ترضعه اللبات والثغر
وعابس المنايا وهي ضاحكة ... من خده بثغورٍ زانها أشر
وكل حارسة في الروع لابسها ... منسوجةٌ من عيون ما لها نظر
أعدت للحرب إنذاراً سخوت بها ... على الرجال التي منها لها وزر
قضتك من حمير صيدٌ غطارفة ... فض الرجاحة عوض الدهر ينحبر
ملثمون حياءً كلما سفرت لهم ... وجوه المنايا في الوغا سفروا
جادوا بطعنٍ كأسماع المحاص ... إلى ضرب كما فغرت أفواهها الحمر
وحدت عنها محياً مروعة ... فضت بما مج في أحشائك الذعر
فرت إلى حتفها من حتفها فمضت ... والموت يطردها والموت ينتظر
قالوا نجا بذما النفس منك فما ... نجا وقد بقرته الحية الذكر

توزعت نفساً على حشيتها طنباً ... للوساوس يحدو جيشها السهر
نصرٌ عزيز وفتحٌ ليس يعدله ... فتحٌ ولله فيه الحمد والشكر
فاهنأ به ابن أمير المسلمين ودم ... للملك ما قامت الآصال والبكر
واهنأ بعيدك وافخر شانئيك به ... فإنما نسك الأسياف لا الجزر
جاورت بحرك تغشاني مواهبه ... فمن بذاك ونظمي هذه الدرر
وأنشد أيضاً من شعره قوله رحمة الله عليه:
ركبت خيلها جيوش الضلال ... وسرت من رماحها بذبال
ملقيات دروعها لا لوقت ... فيه تنضو الجلود رقش الصلال
حث في إثرها الأمير بعقبان ... جيادٌ هوت بأسد رجال
في صقيل البريك تحدث للشمس ... بعكس الشعاع حمى اشتعال
لاث بالريح عمةً من غبار ... ومشى للحديد في أذيال
كلما جرها على الصلد أبقت ... كخطوط الصلال فوق الرمال
لبست أمرها على الروم حتى ... فجئتها كعادة الآجال
أبدلت هامها قصار قدود ... بطوال من الرماح الطوال
والذي فر عن سيوفك أودى ... بقنا الرعب في ثنايا الجبال
كنت فيها وأنت في كل حرب ... مغمد النصل في طلى الأبطال
يطلع البدر منك حاجب شمس ... ويرى الليث في إهاب هلال
يا لصنهاجة وحولك منهم ... خير جيش عليهم خير وال
ملكٌ ليس يركب الدهر إلا ... كل عالي الركاب عالي القذال
ما عرا الجدب أو علا الخطب ... سال غيثاً ولاح بدر كمال
وخفيفٌ على أمور خفاف ... وثقيلٌ على أمور ثقال
لاعب المعطفين بالحمد زهواً ... شيمة الرمح هزةٌ في اعتدال
مسترق النفوس خوفاً وحسنا ... إنما السيف هيبةٌ في جمال
شيمٌ كالغمام ينشر في الروض ... بأندابه صغال اللآل
وسجايا تفتحت زهرات ... وخلالٌ تسد كل اختلال
أنت يا تاشفين والله وافٍ ... لك شخص العلا ونفس الكمال
ليس آمال من على الأرض إلا ... أن ترى وأنت غاية الآمال
وهنياً بأن نهضت وأقبلت ... عزيز النهوض والإقبال
وعلى الكفر منك حرٌّ مجير ... وعلى الدين منك بردٌ ظلال
يا فتى والزمان نعمى وبؤسٌ ... شر حال أفضت إلى خير حال

وبما تجزع النفوس من الأمر ... له فرجةٌ كحل العقال
رب أشياء ليس يبلغ منها ... كنه ما في النفوس بالأقوال
غير أن الكلام إن جل قدراً ... وعلا كنت فوقه في الفعال

ومن شعره، وقد بيت العدو محلة الأمير تاشفين، ويذكر حسن ثباته، وقد أسلمه قومه، وهي من القصائد المفيدة، المبدية في الإحسان المعيدة:

يا أيها الملك الذي يتقنع ... من منكم البطل الهمام الأروع
ومن الذي غدر العدو به دجىً ... فانفض كلٌّ وهو لا يتزعزع
تمضي الفوارس والطعان يصدها ... عنه ويزجرها الوفاء فترجع
والليل من وضح الترايك والظبا ... صبح على هام الكماة ممنع
عن أربعين ثنت أعنتها دجىً ... ألفان ألفٌ حاسر ومقنع
لولا رجال كالجبال تعرضت ... ما كان ذاك السيل مما يردع
يتقحمون على الرماح كأنهم ... إبلٌ عطاش والأسنة تكرع
ومن الدجى لهم على قمم الربى ... وذؤابة بين الظبا تتقطع
نصرت ظلام الكفر ظلمة ليلة ... لم يدر فيها الفجر أين المطلع
لولا ثبوتك تاشفين لغادرت ... أخرى الليالي وهيبةٌ لا ترقع
فثبت والأقدام تزلق والردى ... حول السرادق والأسنة تقرع
لا تعظمن على الأمير فإنها ... خدع الحروب وكل حرب تخدع
ولكل يوم حنكة وتمرس ... وتجارب في مثل نفسك تنجع
يا أشجع الشجعان ليلة أمسه ... اليوم أنت على التجارب أشجع
أهديك من أدب الوغا حكماً بها ... كانت ملوك الحرب مثلك تولع
لا أنني أدري بها لكنها ... ذكرى تخص المؤمنين وتنفع
اختر من الخلق المضاعفة التي ... وصى بها صنع السوابغ تبع
والهند وانى الرفيق فإنه ... أمضى على حلق الدلاص وأقطع
ومن الرواجل ما إذا زعزعته ... أعطاك هزة معطفيه الأشجع
ومن الجياد الجرد كل مضمر ... تشجى بأربعه الرياح الأربع
والصمة البطل الذي لا يلتوي ... منه الصليب ولا يلين الأخدع
وكذاك قدرٌ في العدو حزامة ... فالنبع بالنبع المثقف يقرع
خندقٌ عليك إذا اضطربت محلة ... سيان تتبع ظافراً أو تتبع
واجعل ببابك في الثقات ومن له ... قلبٌ على هول الحروب مشيع
وتوق من كذب الطلايع إنه ... لا أرى للمكذوب فيها يصنع
فإذا احترست بذاك لم يك للعدا ... في فرصةٍ أو في انتهازٍ مطمع
حارب بمن يخشى عقابك بالذي ... يخشى ومن في جود كفك يطمع
قبل التناوش عب جيشك مفحصا ... حيث التمكن والمجال الأوسع
إياك تعبية الجيوش مضيقاً ... والخيل تفحص بالرجال وتمرع
حصن حواشيها وكن في قلبها ... واجعل أمامك منهم من يشجع
والبس لبوساً لا يكون مشهراً ... فيكون نحوك للعدو تطلع

واحتل لتوقع في مضايقة الوغى ... خدعاً ترويها وأنت موسع
واحذر كمين الروم عند لقائها ... واقض كمينك خلفها إذ تدفع
لا تبقين النهر خلفك عندما ... تلقى العدو فأمره متوقع
واجعل مناجزة العدو عشية ... ووراء الصدف الذي هو أمنع
واصدمه أول وهلة لا ترتدع ... بعد التقدم فالنكول يضعضع
وإذا تكاثفت الرجال بمعركٍ ... ضنكٍ فأطراف الرماح توسع
حتى إذا استعصت عليك ولم ... يكن إلا شماس دايم وتمنع
ورأيت نار الحرب تضرم بالظبا ... ودخانها فوق الأسنة يسطع
ومضت تؤذن بالصميل جيادها ... والهام تسجد والصوارم تركع

والرمح يثني معطفيه كأنه ... في الراح لا علق الفوارس يكرع
والريح تنشأ سجسحاً هفافة ... وهي السكينة عن يمينك توضع
أقصر الكمين على العدو فإنه ... يعطيك من أكتابه ما يمنع
وإذا هزمت عداك فاحذر كرها ... واضرب وجوه كماتها إذ ترجع
وهي الحروب قوى النفوس وحزبها ... من قوة الأبدان فيها أنفع
ثم انتهض بجميع من أحمدته ... حتى يكون لك المحل الأرفع
وبذاك تعتب إن تولت عصبة ... كانت ترفه الوغى وترفع
من معشرٍ إعراض وجهك عنهم ... فعل الجميل وسخطك المتوقع
يكبو الجواد وكل حبر عالم ... يهفو وتنبو المرهفات القطع
أنى قرعتم يا بني صنهاجة ... وإليكم في الروع كان المفزع
ما أنتم إلا أسودٌ حفيةٌ ... كلٌّ بكل عظيمة تستطلع
ما بال سيدكم تورط لم يكن ... لكم التفات نحوه وتجمع
إنسان عين لم يصبه منكم ... جفنٌ وقلبٌ أسلمته الأضلع
تلك التي جرت عليكم خطةً ... شنعاء وهي على رجال أشنع
أو ما ليوسف جده منٌ على ... كل وفضل سابق لا يرفع
أما لوالده علي نعمة ... وبكل جيدٍ ربقةٌ لا تخلع
ولكم بمجلس تاشفين كرامةٌ ... وشفيعكم فيما يشاء مشفع
ألا رعيتم ذاك وأحسابكم ... وأنفتم من قالةٍ تستشنع
أبطأتم عن تاشفين ولم يزل ... إحسانه لجميعكم يتسرع
ردت مكارمه لكم وتوطأت ... أكنافه إن الكريم سميدع
خاف العدى لكن عليكم مشفقاً ... فهجعتم وجفونه لا تهجع
ومن العجايب أنه مع سنه ... أدرى وأشهر في الخطوب وأضلع
ولقد عفا والعفو منه سجيةٌ ... ولسطوةٍ لو شاء فيكم موضع
يا تاشفين أقم لجيشك عذره ... فالليل والقدر الذي لا يدفع

هجم العدو دجىً فروع مقبلاً ... ومضى يهيم وهو منك مروع
لا يزدهي إلا سواك بها ... ولا إلا لغيرك بالسنان يقعقع
لما سددت له الثنية لم يكن ... إلا على ظهر المنية مهيع
وكذاك للعير إقدام على ... أسد العرين الورد مما يجزع
ولقد تقفاها الزبير وقد نجت ... إلا فلولا وإن منه المصرع
وغداً يعاقب والنفوس حمية ... والسمر هيمٌ والصوارم جوع
أعطش سلاحك ثم أوردها الوغا ... كيما يلذ لها ويصفو المشرع
كم وقعةٍ لك في ديارهم انثنت ... عنها أعزتها تذل وتخضع
النعمة العظمى سلامتك التي ... فيها من الظفر الرضي والمقنع
لا ضيع الرحمن سعيك إنه ... سعيٌ به الإسلام ليس يضيع
نستحفظ الرحمن منك وديعةً ... فهو الحفيظ لكل ما يستودع

وفاته

بغرناطة في حدود السبعين وخمسماية
من ترجمة الشعراء من السفر الأخير وهو الثاني عشر المفتتح بالترجمة بعد

يحيى بن محمد الهذلي

يحيى بن محمد بن أحمد بن عبد السلام التطيلي الهذلي أصله من تطيلة، وهو غرناطي، يكنى أبا بكر.

حاله

قال أبو القاسم الملاحي، أديب زمانه، وواحد أقرانه، سيال القريحة، بارع الأدب، رائق الشعر، علم في النحو واللغة والتاريخ والعروض، وأخبار الأمم، لحق بالفحول المتقدمين، وأعجزت براعته، براعة المتأخرين، وشعره مدون، جرى في ذلك كله طلق الجموح. ثم انقبض، وعكف على قراءة القرآن، وقيام الليل، وسرد الصوم، وصنع المعشرات في شرف النبي عليه الصلاة والسلام. وأشعاره كثيرة، من الزهد والتذكير للآخرة، والتجريد من الدنيا، حتى جمع له من ذلك ديوان كبير.

شعره

من ذلك قوله من قصيدة:

أذوب حياءً إن تذكرت زلتي ... وحلمك حتى ما أقل نواظري
وأسكت مغلوباً وأطرق خجلة ... على مثل أطراف القنا والتواتر
تعود بصفحٍ إثر صفحٍ تكرماً ... على الذنب بعد الذنب يا خير غافر
وتلحظني بالعفو أثناء زلتي ... وتنظر مني في خلال جراير
وحق هواك المستكين بأضلعي ... ومالك عندي من خفي ضمائر
لما قمت بالمعشار من عشر عشرة ... ولو جيت فيه بالنجوم الزواهر
فيا أيها المولى الصفوح ومن به ... تنوء احتمالاتي بأعباء شاكر

أنلني من برد اليقين صبابةً ... ألف بها حد الهوى والهواجر
وخلت الدجى عذراً هابت سرى ... العدا إلي تغطيني بسود الغدائر
وخافت على عيني من السهد والبكا ... فذرت بقايا الكحل من جفن ساهر
وقال راداً عني ابن رشد حين رد على أبي حامد في كتابه المسمى تهافت التهافت
كلام ابن رشد لا يبين رشاده ... هو الليل يعشي الناظرين سواده
ولاسيما نقض التهافت إنه ... تضمن برساماً يعز اعتقاده
كما لطرد الحموم في هذيانه ... يفوه بما يملي عليه احتداده
أتى فيه بالبهت الصريح مغالطاً ... فما غير البحر الخضم ثماده
وحاول إخفاء الغزالة بالسها ... فأخفق مسعاه ورد اعتقاده
دلايل تعطيك النقيضين بالسوى ... وأكثر ما لا يستحيل عناده
إذا أوضح المطلوب منها وضده ... يبين على قربٍ وبان انفراده
وأنت بعيد الفكر عن ترهاته ... فمعظمها رأيٌ يقل سداده
ومن شعره:
إليك بسطت الكف في فحمة الدجى ... نداء غريق في الذنوب عريق
رجاك ضميري كي تخلص جملتي ... فكم من فريقٍ شافعٍ لفريق
مشيخته

أخذ عن أبيه أبي عبد الله، وحدث عن الأستاذ أبي الحسن جابر بن محمد التميمي، وعن الأستاذ المقري ببلنسية أبي محمد عبد الله بن سعدون التميمي الضرير، عن أبي داود المقري. وقرأ أيضاً على الخطيب أبي عبد الله محمد بن عروس، وعلى القاضي العالم أبي الوليد بن رشد.
مولده
فجر يوم الثلاثاء الخامس والعشرين لمحرم تسعة وخمسين وخمسماية.
وفاته
بغرناطة عام تسعة وعشرين وستماية.
يحيى بن بقي
من أهل وادي آش.
حاله
بارع الأدب، سيال القريحة، كثير الشعر جيده في جميع أنواعه. وكان مع ذلك موصوفاً بغفلة.
شعره
بأبي غزال غازلته مقلتي ... بين العذيب وبين شطي بارق
وسالت منه قبلة تشفي الجوى ... فأجاب عنها بوعد صادق
وأتيت منزله وقد هجع العدا ... أسري إليه كالخيال الطارق
بتنا ونحن من الدجى في لجة ... ومن النجوم الزهر تحت سرادق
عاطيته والليل يسحب ذيله ... صباً كالمسك العتيق لناشق

حتى إذا ما مالت به سنة الكرى ... باعدته شيئاً وكان معاق
أبعدته من أضلع تشتاقه ... كي لا ينام على وساد خافق
وضممته ضم الكمي لسيفه ... وذؤابتاه حمايل في عاتق
لما رأيت الليل ولى عمره قد ... شاب في لمم له ومفارق
ودعت من أهوى وقلت تأسفاً ... أعزز علي بأن أراك مفارق
وفاته: توفي بمدينة وادي آش سنة أربعين وخمسماية.
يحيى بن عبد الجليل

بن عبد الرحمن بن مجير القهري

فرنشي، وقال صفوان إنه بلبي، يكنى أبا بكر.
حاله

قال ابن عبد الملك، كان في وقته شاعر المغرب، لم يكن يجري أحد مجراه، من فحول الشعراء. يعترف له بذلك أكابر الأدباء، وتشهد له بقوة عارضته وسلامة طبعه، قصائده التي صارت مثالاً، وبعدت على قربها منالاً. وشعره كثير مدون، ويشتمل على أكثر من سبعة آلاف بيت وأربعمائة بيت. امتدح الأمراء والرؤساء، وكتب عن بعضهم، وحظي عندهم حظوة تامة، واتصل بالأمير أبي عبد الله بن سعد ، وله فيه أمداح كثيرة. وبعد موته انتقل إلى إشبيلية، وبملازمته للأمير المذكور، وكونه في جملته، استحق الذكر فيمن حل بغرناطة. ومن أثرته لدى ملوك مراكش، أنه أنشد يوسف بن عبد المؤمن يهنيه بفتح من قصيدة:
إن خير الفتوح ما جاءت عفواً ... مثل ما يخطب البليغ ارتجالا
قالوا، وكان أبو العباس الجراوي الأعمى الشاعر حاضراً، فقطع عليه، لحسادة وجدها، فقال يا سيدنا اهتدم فيه بيت ابن وضاح:
خير شراب ما جاء عفواً ... كأنه خطبة ارتجال
فبدر المنصور، وهو حينئذ وزير أبيه، وسنه في حدود العشرين من عمره، فقال إن كان قد اهتدمه، فقد استحقه لنقله إياه من معنى خسيس إلى معنى شريف، فسر أبوه لجوابه، وعجب منه الحاضرون.
ومر المنصور أيام إمرته بلوقية من أرض شلب، ووقف على قبر أبي محمد بن حزم، وقال عجباً لهذا الموضع، يخرج منه مثل هذا العالم. ثم قال، كل العلماء عيال على ابن حزم. ثم رفع رأسه، وقال، كما أن الشعراء عيال عليك يا أبا بكر، يخاطب ابن مجير.
شعره

من شعره يصف الخيل العتاق من قصيدة في مدح المنصور:
لخ خطت الخيل العتاق كأنها ... نشاوي تهادت تطلب العرف والقصفة
عرايس أغنتها الحجول عن الحلا ... فلم تبغ خلخالاً ولا التمست وقفا
فمن يفق كالطرس تحسب أنه ... وإن جردوه في ملاءته التفا
وأبلق أعطى الليل نصف إهابه ... وغار عليه الصبح فاحتبس النصفا

وردٌ تغشى جلده شفق الدجى ... فإذا حازه حلى له الذيل والعرفا
وأشقر مج الراح صرفاً أديمه ... وأصفر لم يسمح بها جلده صرفا
وأشهب فضي الأديم مدنر ... عليه خطوط غير مفهمةٍ حرفا
كما خطر الزاهي بمهرق كاتبٍ ... يجر عليه ذيله وهو ما جرفا
تهب على الأعداء منها عواصف ... تنسف أرض المشركين بها نسفا
ترى كل طرف كالغزال فتمتري ... أطيباً ترى تحت العجاجة أم طرفا
وقد كان في البيداء يألف سربه ... فربته مهراً وهي تحسبه خشفا
تناوله لفظ الجواد لأنه متى ... ما أردت الجري أعطاكه ضعفا
ولما اتخذ المنصور ستارة المقصورة بجامعه، وكانت مدبرة على انتصابها، إذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاه، واختفائها إذا انفصلوا عنها، أنشد في ذلك الشعراء، فقال من قصيدة أولها:
أعلمتني ألقي عصا التسيار ... في بلدة ليست بدار قرار
ومنها في وصف المقصورة:
طوراً تكون بمن حوته محيطةٌ ... فكأنها سورٌ من الأسوار
وتكون حيناً عنهم مخبوة ... فكأنها سر من الأسرار
وكأنما علمت مقادير الورى ... فتصرفت لهم على مقدار
فإذا أحست بالإمام يزورها ... في قومه قامت إلى الزوار
ويكفي من شعر ابن مجير هذا القدر العجيب رحمه الله.
من روى عنه
حدث عنه أبو بكر محمد بن محمد بن جمهور، وأبو الحسن بن الفضل، وأبو عبد الله بن عياش، وأبو علي الشلوبين، وأبو القاسم بن أحمد ابن حسان، وأبو المتوكل الهيثم، وجماعة.
وفاته
توفي بمراكش سنة ثمان وثمانين وخمسماية، وسنه ثلاث وخمسون سنة.
يوسف بن محمد اللوشي
يوسف بن محمد بن محمد اليحصبي اللوشي، أبو عمر
حاله

من كتاب ابن مسعدة ، خطيب الإمامة السعيدة النصرية الغالبية، وصاحب قلمها الأعلى. كان شيخاً جليلاً، فقيهاً، بارع الكتابة، ماهر الخطة، خطيباً مصقعاً، منقطع القرين في عصره، منفرداً عن النظير في مصره، عزيزاً، أنوفاً، فاضلاً، صالحاً، خيراً، شريف النفس، منقبضاً، وقوراً، صموتاً، حسن المعاشرة، طيب المحادثة.
مشيخته

حدث عن والده الشيخ الراوية أبي عبد الله، وعن الأستاد ابن يربوع. ولقي بإشبيلية الأستاذ أبا الحسن الدباج، ورئيس النحاة أبا علي الشلوبين وغيرهم.
شعره

ومن شعره، وإن كان غير كثير، قوله:

شرد النوم عن جفونك وانظر ... كلمةً توقظ النفوس النياما

فحرام على امرىءٍ يشاهد ... حكمة الله أن يلذ المناما

وقوله:

ليس للمرء اختيار في الذي ... يتمنى من حراك وسكون

إنما الأمر لربٍّ واحد ... إن يشاء قال له كن فيكون

وفاته

توفي في المحرم من عام ستين وستماية، ودفن بمقبرة باب إلبيرة. وحضر جنازته الخاصة والعامة، السلطان فما دونه، وكل ترحم عليه، وتفجع له. حدثني حافده شيخنا، قال، أخرج الغالب بالله، يوم وفاته، جبة له، لبسته مرفوعة، من ملف أبيض اللون، مخشوشنة، زعم أنها من قديم مكسبه من ثمن مغنم ناله، قبل تصير الملك إليه، أم ببيعها، وتجهيزه من ثمنها، ففعل، وفي هذا ما لا مزيد عليه من الصحة والسلامة، وجميل العهد، رحم الله جميعهم.

يوسف بن علي الطرطوشي

يكنى أبا الحجاج

حاله

من العايد: كان رحمه الله من أهل الفضل والتواضع، وحسن العشرة، مليح الدعابة، عذب الفكاهة، مدلاً على الأدب جده وهزله، حسن الخط، سلس الكتابة، جيد الشعر، له مشاركة في الفقه، وقيام على الفرايض. كتب بالدار السلطانية، وامتدح الملوك بها، ثم توجه إلى العدوة، فصحب خطة القضاء، عمره، مشكور السيرة، محفوفاً بالمبرة.

وجرى ذكره في الإكليل بما نصه: روض أدب لا تعرف الدواة أزهاره، ومجموع فضل لا تخفى آثاره، كان في فنون الأدب، مطلق الأعنة، وفي معاركه ماضي الظبا والأسنة. فإن هزل، وإلى تلك الطريقة اعتزل، أبرم في الغزال ما غزل، وبذل من دنان راحته ما بذل. وإن صرف إلى المعرب غرب لسانه، وأعاره لمحة من إحسانه، أطاعه عاصيه، واستجمعت لديه أقاصيه. ورد على الحضرة الأندلسية، والدنيا شابة، وريح القبول هابة، فاجتلى محاسن أوطانها، وكتب عن سلطانها. ثم كر إلى وطنه وعطف، وأسرع اللحاق كالبارق إذا خطف، وتوفي عن سن عالية، وبرود من العمر بالية.

ومن شعره أيام حلوله بهذه البلاد، قوله، يمدح الوزير ابن الحكيم، ويلم بذكر السلم في أيامه:

رضاكم إن منتم خير مرهوب ... وما سوى هجركم عندي بموهوب

لكم كما شيتم العتبى وعتبكم ... مقابل الرضا من غير تشريب

منوا بلحظ رضىً لي ساعة ... فعسى أنال منه لدهري طب مطبوب

فكم أثارت لي الأيام وابتسمت ... ثغور سعدى بتقريب فتقريب

قد كن بيضاً رعابيباً بقربكم ... والآن يوصفن بالسود الغرابيب

آهاً لدهر تقضى لي بياكم ... مرتبٌ للأماني أي ترتيب

ما كان إلا كأحلام سررت بها ... فواصلت حال تقويض بتطنيب

يا ليت شعري هل تقضي بعودته ... فأقدر الحسن منه بعد تجريب

ومنها:

يا أيها السيد الأعلى الذي يده حازت ... ندى السحب مسكوباً بمسكوب

فلو سالنا بلاد الله عن كرم ... فيها لكفيه والأنواء منسوب

لقلن إن كان جودٌ لا يضاف لذي ... الوزارتين فجودٌ غير محسوب

فالعود جنسٌ ولكن في إضافته ... للهند يختص عود الهند بالطيب

من سيد لا يوفي الحمد واجبه ... ولو تواصل مكتوباً بمكتوب

له المحامد لا تحصى ولا عجب ... فرمل عالج شيئٌ غير محسوب

تناول الشرف الأقصى بعزمة ذي ... ظن نيل الأماني غير مكذوب

وواصل المجد من آياته شرفاً ... بمجده وصل أنبوب بأنبوب

وجاء مكتسباً أعلى ذخائره ... والمجد ما بين موروث ومكسوب

ردء الخليفة لا يرتاح من نصب ... في بذل نصح لحفظ منصوب

موفق الرأي مأمون النقيبة في ... تدبير ذي حنكة صحت وتدريب

تهابه النفس إذ ترجوه من شرف ... فشأنه بين مرهوب ومرغوب

ومنها:

يا أوحد العصر في فضل وفي كرم ... خصال قاطع دهره في التجاريب

أعد فديت لأمري منعماً نظراً ... ينل به هم حالي بعض تشييب

أولا ارتكاب حسودي لأمر في ضرري ... ما كان ظهر النوى عندي بمركوب

هذا زماني ومنك الأمن حاربني ... حتى أراني في حالات محروب

فامنن بتفريج كربي بالرضا ... فإذا رضيت لم أك من شيءٍ بمكروب

إن لم أذق من رضاكم ما ألذ به ... فلا حياة بمأكول ومشروب

ومن شعره:

ذكرك تشرح أي العلا ... وتسند أخباره في الصحيح

بأفقك يشرق بدر السنا ... وباسمك يحسن نظم المديح

وما يحسن العقد إلا إذا ... تحلت به ذات وجه مليح

وفاته

كان حياً عام أحد وأربعين وسبعماية.

من ترجمة المحدثين والفقهاء وسائر الطلبة النجباء

العشاب البرشاني

يحيى بن محمد بن عبد العزيز بن علي الأنصاري يكنى أبا بكر، ويعرف بالعشاب، ويعرف بالبرشاني .

حاله

كان هذا الشيخ من أهل الخير، كثير التؤدة والصمت، معرضاً عما لا يعنيه. رحل إلى الحج، واقام هنالك سنين، وقفل منها فخطب بأرجبة . وأخذ ببلاد المشرق عن قطب الدين القسطلاني، وأبي الفضل ابن خطيب المري، وزين الدين أبي بكر محمد بن إسماعيل الأنماطي. ولقي أبا علي بن الأحوص بالأندلس ولم يأخذ عنه. أنشدني شيخنا أبو البركات، قال أنشدني الشيخ أبو بكر البرشاني، وقد لقيته بأرجبة. قال أنشدنا الإمام أبو عبد الله بن النعتمان عن قطب الدين:

إذا كان أنسي في لزومي وحدتي ... وقلبي من كل البرية خال

فما ضرني من كان لي الدهر قالياً ... وما سرني من كان في موال

ومن العمال

يوسف بن رضوان

بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان بن محمد بن خير بن

أسامة الأنصاري النجاري

قال القاضي المؤرخ أبو الحسن بن الحسن مملیه، والذي رفع إلي هذا النسب للركانة، هو صاحبنا الفقيه أبو القاسم ولده، ورفع هذا النسب بحاله من التكرار دليل على أصالته.

حاله

من أهل الخير والخصوصية، وحسن الرواء والوقار، والحياء، والمودة. نبيه القدر، معروف الأمانة، صدرٌ في أهل العقد والحل ببلده، بيته بيت صون وخير واستعمال، ولو لم يكن من بركات هذا الرجل، وآثار فضله، إلا ابنه صدر الفضلاء، وبقية الخواص أبو القاسم، لكفاه. تولى قيادة الديوان بمالقة بلده، أرفع الخطط الشرعية العملية، فحمدت سيرته.

وفاته بمالقة في .... وعلى قبره مكتوب من نظم ولده:

إلاهي خدي في التراب تذللاً ... بسطت عسى رحماك يحيى بها الروح

وجاوزت أجداث الممالك خاضعاً ... وقلبي مصدوع ودمعي مسفوح

ووجهت وجهي نحو جودك ضارعاً ... لعل الرضا من جنب حلمك ممنوح

أتيت فقيراً والذنوب تؤدني ... وفي القلب من خوف الجرايم تبريح

ولم أعتمد إلا الرجا وسيلة ... وإخلاص إيمان به الصدر مشروح

وأنت غنيٌّ عن عذابي وعالم ... بفقري وباب العفو عندك مفتوح

فهب لي عفواً من لدنك ورحمةً ... يكون بها من ربة الذنب تسريح

وصل على المختار ما همع الحيا ... وما طلعت شمس وما هبت الريح

من ترجمة الزهاد والصلحاء

يحيى بن إبراهيم

بن يحيى البرغواطي

من أهل أنفا من بيت عمال يعرفون ببني الترجمان أولى شهرة وشدة على الناس وضغط. وكان من الحظوة وضدها بباب سلطانهم، ديدن الجباة. غرب عنهم وانقطع إلى لقاء الصالحين، وصحبة الفقراء المتجردين، وقدم على الأندلس عابداً، كثير العمل، على حداثة سنه، ونزل برباط السودان، من خارج مالقة، واشتهر، وانثال عليه الناس. ثم راض طول ذلك الاجتهاد، وأنس بمداخلة الناس.

حاله

هذا الرجل نسيج وحده في الكفاية، وطلاقة اللسان، مدل على أغراض الصوفية، حافظ لكل غريبة من غرايب طريقتهم، متكلم في مشكلات أقوالهم، قايم على كثير من أخبارهم، يستظهر حفظ جزأي إسماعيل الهروي المسمى بمنازل السايرين إلى الحق، والقصيدة الكبيرة لابن الفارض. عديم النظير في ذلك كله، مليح الملبس، مترفع عن الكدية، عزيز النفس، قليل الإطراء، حسن الحديث، عذب التجاوز فيه، على سنن من السذاجة والسلامة والرجولة والحمل، صاحب شهرة قرعت به أبواب الملوك بالعدوتين. وعلى ذلك فمغضوض منه، محمول عليه، لما جبل عليه من رفض الاضطلاع، وترك السمت، واضطراح التغافل، وولوعه بالنقد والمخالفة في كل ما يطرق سمعه، مرشحاً ذلك بالجد المبرم، ذاهباً أقصى مذاهب القحة، كثير الفلتات. نالته بسبب هذه البلية محن كثيرة، أفلت منها بجريعة الذقن، ووسم بالوهن في دينه، مع صحة العقل . وكان الآن عامراً للرباط المنسوب إلى اللجام، على رسم الشياخة، وعدم التابع، مهجور الفناء.

مشيخته

زعم أنه حج، ولقي جلة، منهم الشيخ أبو الطاهر بن صفوان المالقي، ولقاؤه إياه، وصحبته، معروف بالأندلس، وغير ذلك مما يدعيه متعدد الأسماء.

تواليفه

قيد الكثير من الأجزاء، منها في نسبة الذنب إلى الذاكر، جزءٌ نبيل غريب المأخذ، وفيما أشكل من كتاب أبي محمد بن الشيخ. وصنف كتاباً كبير الحجم في الاعتقاد، جلب فيه كثيراً من الأقوال والحكايات، رأيت عليه بخط شيخنا عبد الله بن المقري ما يدل على استحسانه، وطلب مني الكتب عليه بمثل ذلك، فكتبت له ببعض ورقاته، إثارة لضجره، واستدعاءً لفكاهة انزعاجه، ما نصه: وقفت من الكتاب المنسوب لأبي زكريا البرغواطي، على برسام محموم، واختلاط مذموم ، وانتساب زنج في روم، وكان حقه أن يتهيب طريقاً لم يسلكها، ويتجنب غفلة لم يملكها، إذ المذكور، لم يتلق شيئاً من علم الأصول، ولانظر في الإعراب في فصل من الفصول. إنما هي قحة وخلاف، وتهاون بالمعارف واستخفاف. غير أنه يحفظ في طريق القوم كل نادرة، وفيه رجولة ظاهرة، وعنده طلاقة لسان، وكفاية قلما تتأتى لإنسان. فإلى الله نسل أن يعرفنا بمقادير الأشياء، ويجعلنا بمعزل عن الأغبياء. وقد قلت مرتجلاً عند أول نظرة، واجتزأت بقليل من كثرة:

كل جار لغاية مرجوة ... فهو عندي لم يعد حد الفتوة
وأراك اقتحمت ليلاً بهيماً ... مولجاً منك ناقةً في كوبة
لا اتباعاً ولا اختراعاً أرتنا ... إذ نظرنا عروسك المجلوة
كل ما قلته فقد قاله الناس ... مقالاً آياته متلوة
لم تزد غير أن أبحت حمى الإعراب ... في كل لفظة مقروة
نسل الله فكرة تلزم العقل إلى ... حشمة تحوطها المروة

وعزيز علي أن كب يحيى ... ثم لم نأخذ الكتاب بقوة

ومن البرسام الذي يجري على لسانه بين الجد والقحة، والجهالة والمجانة، قوله لبعض خدام باب السلطان، وقد ضويق في شيءٍ أضجره منقولاً من خطه، بعد ردٍّ كثير منه إلى الإعراب:

الله نور السموات من غير نار، ولا غيرها، والسلطان ظلاله وسراجه في الأرض، ولكل منهما فراشٌ مما يليق به، ويتهافت عليه، فهو تعالى محرقٌ فراشه بذاته، مغرقهم بصفاته، وسراجه وظله. وهو السلطان محرق فراشه بناره، مغرقهم بزينه ونواله. ففراش الله، ينقسم إلى حامدين ، ومسبحين، ومستغفرين، وأمناء وشاخصين. وفراش السلطان ينقسمون إلى أقسام، لا ينفك أحدهم عنها. وهم وزغة ابن وزغة، وكلب ابن كلب، وكلب مطلقاً، وعارٌ ابن عار، وملعون ابن ملعون، وقط ابن قط ، ومحق. فأما الوزغة، فهو المحرق في زيت نواله، المشغول بذلك عما يليق بصاحب النعمة من النصح، وبذل الجهد. والكلب ابن الكلب، هو الكيس المتحرز في تهافته، من إحراق وإغراق، يعطي بعض الحق، ويأخذ بعضه. وأما الكلب مطلقاً، فهو الواجد والمشرد للسفهاء عن الباب المعظم لقليل النعمة. وأما العار ابن عار فهو المتعاطي في تهافته ما فوق الطوق، ولهذا امتاز هذا الإسم بالرياسة عند العامة، إذا مر بهم جلفٌ أو متعاط، يقولون، هذا العار بن عار، يحسب نفسه رئيساً، وذلك بقرب المناسبة، فهو موضوع لبعض الرياسة، كما أن الكلب ابن الكلب لبعض الكياسة. وأما الملعون ابن المعلون، فهو الغالط المعاند، المشارك لربه، المنعم عليه في كبريائه وسلطانه. وأما القط فهو الفقير مثلي، المستغنى عنه، بكونه لا تخص به رتبة، فتارة في حجر الملك، وتارة في السنداس، وتارة في أعلى المراتب، وتارة محسنٌ وتارة مسيءٌ، تغفر سيئاته الكثيرة بأدنى حسنة، إذ هو من الطوافين، متطير بقتله وإهانته، تياه في بعض الأحيان لعزة يجدها في نفسه، من حرمة أبقاها الشارع له، وكل ذلك لا يخفى. وأما الفراش المحق، فهو عند الدول نوعان، تارة يكون ظاهراً وحظه مسح المصباح، وإصلاح فتيله، وتصفية زيته، وستر دخانه، ومسايسة ما أعوز من المطلوب منه. ووجود هذا شديد الملازمة ظاهراً. وأما المحق الباطن، فهو المشار إليه في دولته بالصلاح والزهد والورع، فتستقبله الخلق لتعظيمه، وتركه لما هو بسبيله، فيكون وسيلةً بينهم وبين ربهم، وخليفته الذي هو مصباحهم. فإذا أراد الله بهلاك الدولة، وإطفاء مصباحها تولى ذلك أهل البطالة والجهالة، فكان الأمر كما رأيتم، والكل يعمل على شاكلته.

وأفضى به الهوى، وتسور حمى السياسة، والإغياء في ميدان القحة إلى مصرع السوء، فجلد جلداً عنيفاً بين يدي السلطان، كان سبب وفاته في المطبق، وذلك في شهر المحرم من عام ثمانية وستين وسبع ماية. وقانا الله المعرات، وجنبنا سبل المضرات، وفي كثرة تبجحه باصطلاح المنطق قيل:

لقد كان يحيى منطقياً مجادلاً ... تجارى في سبل الهوى وتهوار

غدا مطلق التقوى وراح مكمماً ... وأصبح من فوق الجدار مسورا

فما نال من معنى اصطلاح أداره ... سوى أن بدا في نفسه وتصورا

تجاوز الله عنا وعنه.

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين